التَّفْسِيرُ المُسْتَقَى

في

فهم القرآن الكريم

إستقاء وتجميع

عميد الشرطة ورئيس مكتب الانتربول في بغداد سابقا

السيد فالح بن السيد احمد البدراني

غفر الله له ورحمه

آمين

ISBN: 978-9922-9547-4-5

حقوق الطبع محفوظة

د. فاطمة فالح احمد

Email: teebghf@yahoo.com

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿خطبة المستقى﴾

الحمد لله رب العالمين وبه نستعين والصلاة والسلام على رسوله الأمين خاتم المرسلين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ورضوانه

اما بعد؛ فالشكر لله تعالى الذي علم الانسان ما لم يعلم فالفضل فضله على الناس بما انزل اليهم من آيات بينات هاديات واظهر فيها من المعرفة بذاته ما فيه الكفاية للايمان به وعبادته وشكره وذكره والرجاء بلقائه راضياً عن عباده الصالحين.

وها هي التفاسير عبر القرون التي سبقت هذا القرن الخامس عشر الهجري (الحادي والعشرين الميلادي) فيها من الشروح والروايات والدروس ما يخص طلاب العلوم والشريعة وأهل الفقه فجاءت مطولة بإسلوب ساد في زمانٍ كان فيه الكاتب والقارئ من مستوىً يوجب على القارئ في هذا الزمن ان يسأل عن بعض المفردات والصيغ الواردة فيه، وهذا ما دفعني بعد قراءة عدة تفاسير ان استقي من مناهلها الغدقة بإسلوب يتماشى مع ما يألفه قراء زماننا (وما يليه ان شاء الله تعالى) من تعابيرَ وصِيَغٍ. وقد اجتهدتُ أن لا أدَعَ للقارئ المؤمن حَيرةً في أي معنى من معاني كلام الله الكريم وآمل بأنّ الله تعالى قد وفقني لهذا المقصد فالنِيّة التي اسستُ عليها هذا العمل هي التي بعثتْ فيّ الرجاء من رب العزة بأن يوفقني، والله تعالى يعلم ما نُخفي وما نُعلن. وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله خير الآل وأصحابه خير الاصحاب وأُمّته خيرِ امّة أُخرِجت للناس.

أكتب في ربيع الأول، 1427هجرية. الموافق لنيسان، 2006 ميلادية، وأرجو دعاءكم لي ولمن اسهم في تنضيده وإخراجه.

السيد فالح بن السيد أحمد البدراني

بغداد - 2006

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾

سورة الإسراء، الآية: 88

سورة الفاتحة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (1) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7)

تسبق قراءةَ القرآن الإستعاذةُ بالله تعالى من الشيطان الرجيم. وبذلك يكون القارئ قد سدّ على الشيطان الرجيم الباب الذي يأتي منه شرُّه. ثم تبدأ الفاتحة بالبسملة الشريفة، وبها يُفتَح للقارئ باب خير ورحمة من الرحمن الرحيم. وتكون التلاوة مقترنة بإخلاص النية للمعرفة والاتّباع. وأول معرفة بالبسملة هي الافتتاح بالإسم الذي تفرّد به المولى عز وجل وهو لفظ الجلالة (الله) ولا يمكن ان يطلق هذا الاسم على غيره سبحانه. كما ليس لهذا الاسم صيغة تثنية أو جمع. اما صيغة الجمع (آلهة) فتعني المعبودات الاخرى من دون الله تعالى توهّمتها أهواء الضلال.

وثاني معرفة من البسملة هي ان الله تعالى اظهر من أول صفاته؛ الرحمة، بقوله تعالى ((الرَّحمن)). ولا يطلق اسم (الرحمن) على غير الله تعالى لأن الله تعالى أرحم الراحمين في هذه الصفة فهو يرحم المؤمن والكافر في هذه الحياة الدنيا. فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: ((لما قضى الله عز وجل الخَلْقَ كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي)).

والمعرفة الثالثة هي استمرار رحمته للمؤمنين بعد حياتهم الدنيا بإسمه (الرحيم) فقد قال سبحانه في الآية السابعة بعد المائة من سورة آل عمران عن الذين تبيض

وجوههم ((فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)). والبسملة مباركة في الامور المهمة فقد روى عبد القادر الرهاوي في الاربعين عن ابي هريرة رضي الله عنه قولَ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ((كل أمرٍ ذي بال – أي أهمية وشأن– لا يُبدأ فيه باسم الله الرحمن الرحيم، أقطعٌ)) أي غير كامل ولا مبارك.

ويأتي معنى الحمد لله رب العالمين؛ فقد روى مسلم في صحيحه من حديث لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ((.. فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين قال الله تعالى: حمدني عبدي، واذا قال: الرحمن الرحيم قال تعالى أَثْنَى عليَّ عبدي)). فيُعرف معنى الحمد انه تجاوز معنى الثناء. وهكذا (الْحَمْدُ) يُدرَكُ معناه مقصداً في تعظيم رب العزة وفي شكر الكريم سبحانه ولا يُدرَكُ مداه لقصور البشر عن حصر كلمات الله التامات وحصر أحوال المخلوقات وفي كلها له الحمد تعالى. ولذلك لا يقال (الحمد) لغير الله تعالى بينما يقال الثناء لغيره في حالات المدح. كما يقترن الحمد بالشكر لله تعالى فقد روى البيهقي في شُعب الإيمان عن ابن عمر رضي الله عنهما قول رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ((الحمد رأس الشكر، ما شكر اللهَ عبدٌ لا يَحْمَدُه)). ويظهر للمؤمن في الحمد أنّ لله تعالى قدْراً جليلاً لا يبلغ الفكرُ كمالَه ((وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ)). والمؤمن يحمد ربه على كل حال وبنعمته تبارك وتعالى تتم الصالحات.

وبعد (الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ) في ما رواه مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن الله تعالى قال ((قَسَمْتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل)) الى ان يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في تتمة هذا

الحديث ((فاذا قال العبد: مالك يوم الدين، قال تعالى: مجّدني عبدي. وفي مرة اخرى قال: فوّض اليّ عبدي)). أي أقَرَّ بالبعث وقيام الساعة.

وبعد هذا الحمد والثناء والتمجيد يخاطب العبدُ ربَّه الجليل (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وهذا الخطاب هو الذي قال عنه المولى تعالى ((قَسَمْتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين)) فاذا سأل العبدُ ربَّه الهدى من لدنه الى الصراط المستقيم، أي الى الشريعة الاسلامية، قال تعالى (في هذا الحديث) ((ولعبدي ما سأل)). وهذه ثمرات الهدى الرباني وفيها العون على عبادته بعد الهدى أي استمرار الهدى على الشريعة. فالمصلي الصادق لا يشكّ بأنه قد اهتدى ومع هذا يطلب الهدى على الصراط المستقيم أي يطلب الثبات على اتباع الأُسوة الحسنةِ رسولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أي الشريعة وهي النعمة المثلى ليكون مع الذين انعم الله عليهم من الصالحين، وحسن اولئك رفيقا، فلا يحشر مع الذين غضب الله عليهم وهم الذين اتتهم آيات الله بينات فجحدوا بها وصدوا غيرهم عنها فبذلك ألبسوا الحق بالباطل. كما لا يُحشَر مع الضالين وهم الذين استهوت انفسهم الاستجابة للمغضوب عليهم فصدوا عن سبيل الله، ولو علم الله تعالى فيهم خيراً لأسْمَعهم أي لأفهَمَهم موقف المغضوب عليهم فلا يتولون عن الحق الى الباطل. ومثال المغضوب عليهم والضالين كفرة اهل الكتاب الذين وجدوا عندهم صفة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وزمنه ومع هذا عندما بُعث جحدوا الحق. وسيلي شرح معنى هذا في تفسير الاية التاسعة والثمانين وما بعدها من سورة البقرة إن شاء الله تعالى.

وأُلَخِّص ما ورد عن قول الامام والمأموم وغيرهم في الصلاة وغيرها عبارة (آمين). فهي ليست من الفاتحة بل يستحب لمن يقرأها ان يقول آمين. فالفاتحة وإن احتوت على الدعاء فإنها تلاوةٌ للقرآن فيها سؤالٌ العبد من الله تعالى الذي قال في الحديث المذكور آنفاً ((سألني عبدي)). فقول (آمين) معناه (يارب إستجب هذا الدعاء). وقد وردت عدة احاديث في قولها؛ منها ما رواه الامام احمد بن حنبل وابو داود والترمذي عن وائل بن حجر رضي الله تعالى عنه قال: "سمعت النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم (أي في صلاةٍ جهرية) قرأ (غَيْرِ المغْضُوبِ عَلَيْهِم وَلا الضَّالِّينَ) قال: ((آمين)) مدّ بها صوته". وروى ابو داود عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه قال "كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم اذا تلا، (أي في صلاة جهرية) (غَيْرِ المغْضُوبِ عَلَيْهِم وَلا الضَّالِّينَ) قال ((آمين)) حتى يسمع من يليه في الصف الاول". اما المأموم في الصلاة فيردد وراء الامام، لِما جاء في الصحيحين عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال ((اذا أمّن الإمام فأمِّنوا فإنه من وافق تأمينُه تأمينَ الملائكة غُفِر له من ذنبه ما تقدم)). واما رفع الصوت او عدم رفعه في قول المأمومين (آمين) فعند ابي حنيفة لا يَجهر بها المأموم لأنها ذِكرٌ من اذكار الصلاة وعند غيره يجهر بها. وقيل اذا كان المسجد صغيراً فلا يُجْهَر بها لأنّهم في صلاةٍ جهرية يسمعون الإمام. وإذا كان المسجد كبيراً فَيُجهَر بها ليسمع المتأخرون في الصفوف الأخيرة. وهذا كان أيام لم تكن ثَمّةَ مكبرات صوت في المساجد.

سورة البقرة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2)

تقرأ الاحرف المقطّعة: الِف. لآم. ميم. وان الجهل بحقيقتها وبمراد الله تعالى منها لا يؤثر على فهم القرآن الكريم في زماننا هذا والله أعلم بما سيكون لَها من نبأٍ يوماً ما. وأمّا تأويلها بالرأي فقد حذر الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم من التأويل بالرأي، فقد روى الترمذي قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ((من قال بالقرآن بغير علم فَلْيتبوّأ مقعده من النار)) و ((من قال في كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ)) أي أخطأ بترك الرجوع إلى السنّة الشريفة.

يشير تعالى الى كتابه العزيز بأنه سيثبت صحته حتى لا يبقى فيه ريب. فقد نقله امين السماء جبريل عليه السلام مُنزَلاً من رب العزة والقُدرة على قلبٍ امينٍ فلا يرتاب اهل الحق في ذلك وهم المتقون. وها هو الهدى الذي طلبوه في الفاتحة يأتيهم في ما يليها من هذا الكتاب المبين، وينير لهم سبيل إتقاء الزيغ أي النجاة منه.

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5)

الغيبُ هو ما تجاوز اقصى ما يمكن للبشر إدراكه فلا ينكشف لهم (بعد تسليمهم بالعجز عن معرفة كُنهِهِ) إلا بمعونة من له علم اليقين به وهو الله تعالى على لسان رسله فاتضح لهم ما غاب عن قدراتهم العقلية مما كان ويكون وما يحيط بهم خارج حواسهم فأما من صدقوا في طلب الهدى فقد إطمأنوا وأسلموا وجوههم لله تعالى متصلين به بالعبادة التي ارشدهم الى مناسكها وفقهِها. فهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويوقنون بأنهم مبعوثون الى حياة اخرى بعد الموت في اليوم الآخر أي يوم النعم الباقية التي ادخروها لهم بانفاق النعمة الفانية. وهكذا حصل اليقين بعد الايمان بالغيب فتوفرت فيهم أسباب الهدى ممن لا يبخل على من طلب الهدى منه سبحانه وكانوا أهلاً له، وهذا هو فلاحهم بالقبول منهم في الدنيا ونيل الرضوان في الآخرة. وهذا هو الدخول في رحاب الايمان ببداية حميدة الى رقيٍّ متواصل في معرفة الله تعالى ونيل محبتة التي علامتها اليقين المستقر لا تحركه الأهواء، والطاعة التي كمالهُا سُنّةُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7)

للكفر أسباب إرتضاها الكافرون لأنفسهم. وهذه الأسباب متعلقة بأهوائهم الضالّة التي أخذتهم بعيداً عن نور الهدى الرباني فلا يؤمنون إذا جاءهم النذير. فالنذير هنا هو لإقامة الحجة عليهم فإنّ الله تعالى يعلم مسبقاً انهم لن يؤمنوا وذلك لِميلهم للدنيا، وما كان ليعذبهم حتى يبعث لهم رسولاً. وبإصرارهم على الكفر لم يجعل الله تعالى لهم منفذاً لقلوبهم وأسماعهم ينفذ منه نور الايمان. فهي مغطاة بختم

يوثّق هذا الغطاء. كما لم يكشف لبصيرتهم الحق إذ ان غطاءً آخر كان على أبصارهم فلم يصل الى القلب منها نور. هؤلاء كتب الله تعالى لهم عذاباً عظيماً.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10)

ذكر الله سبحانه وتعالى الكافرين كفراً صريحاً قبل هذه الايات. وهنا يذكر اهل الكفر المقنّع بظاهر القول بالإيمان وقد غفلوا عن علمية الله تعالى بما في قلوبهم وعن فراسة المؤمنين بكشف حقيقتهم. فهم يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا انفسهم إذ دخلوا بمخادعة انقلبت عليهم بأنهم انزلقوا اليها عندما أعرضوا عن الحق وأنكروا إطّلاعَ المولى القدير على ما في قلوبهم التي عِلْمُها عند الله تعالى أنها لا ينفعها إصلاح لأنّ ما خربته الدنيا منها جعلها مريضة تنفر من الإيمان وتستمر على النفاق فزادها مرضاً بقسوتها على التصديق كلما نزل من القرآن هدى الى ان يلقوا العذاب الاليم. وقد تميزوا عن كفار الصراحة بالكذب، وهو أصل النفاق.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (12) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (13)

ومن نتائج مرض قلوبهم أنْ دخَلَها الحقد مما دفعهم إلى حسد المؤمنين ومحاولة الإيقاع في ما بينهم بالكذب. وإذا نُهوا عن هذا الإفساد يروا انهم مصلحون! ونفوسهم أمّارة بالسوء وأهواؤهم ضالّة. وإذا دُعوا للإيمان إستنكفوا أنْ يتساووا مع

مَن آمن من الفقراء والمغمورين معللين ايمان أولئك لغرض رفع شأنِهم في المجتمع وهذا في نظرهم سفاهة. ولم يعلموا ما لموقفهم هذا من سفاهة.

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (16) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (17) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (19) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20)

ها هم المنافقون يختلفون بصفة اخرى عن الكفار وذلك باختلاطهم بالمؤمنين ولكن بوجه كاذب وعندما يلتقون بأهل الباطل يُفصِحون عن وجهٍ آخر يسخر من الايمان والرسالة السماوية. وغفلوا عن رقابة الله تعالى عليهم وما يُعِدُّه لهم من جنس أعمالهم الساخرة يوم يعلمون انهم أجدرُ بالسخرية ممن سخروا منهم. وهكذا طغت نفوسهم على الحق فلم يعرفوه وانحرفوا الى الباطل فانغمسوا فيه فكان حصيلَتهم أنْ خسروا الهدى بالضلال. ويضرب الله مَثَلَهم كمثلِ الذي أراد الإنتفاع بضياء نار أوقدها ليلا إلّا أن نورهم ذهب فلم ينتفعوا به ككل أعمى. ولم يصغُوا إلى الحق أي لم ينفعهم صوت التحذير كالأصم. ولهذا انعدمت لديهم وسائل معرفة طريق العودة إلى النور ولم يبدر منهم كلام يسألون به عن الطريق فهم صُمٌّ بُكمٌ عُمْيٌ. فالتوبة هي الرجوع الى النور ولم يعرفوا الوسيلة اليها. وشبّه الله تعالى الاسلام بالمطر الذي تحيا

به الارض أي النفوس الصالحة الواعية. أمّا النفوس التي تنفر من هذا الحق فالإسلام لهم وعيدٌ كالصواعق. وهو نور لمن طلب الهدى. واما من غلبت عليهم ظلمات النَّـزَوات واستجابوا لها فالاسلام حسرة في قلوبهم. ومع هذا جعل الله تعالى في لقائهم مع المؤمنين باباً يدخلون منه الى التوبة فلم يذهب بسمعهم وأبصارهم وذلك لكي يشعروا بخطأ موقفهم من الاسلام. وهو القادر على هداهم. وقد هدى الله تعالى كثيراً من المنافقين وسيأتي ذلك في سورة التوبة إن شاء الله تعالى.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22)

كما جاء معنى الحمد في الفاتحة بأن الفضل كلّه لله تعالى فإنه سبحانه يوضح لنا هنا فضله في الوجود وما خلق لأجل دوام الوجود من ارض وسماء وماء وثمرات. وطلب من عباده ان لا يشركوا به شيئاً اذ ليس لغيره أثر في كل ذلك سبحانه. إن وجود شريك يدل على نقص في الاصل يكمله الشريك وهذا يصح بين البشر أما للخالق فلا. وفي هذا الايضاح الذي لا يملكه بشر تأييد لنبوّة سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ففيه الآيات تعرض التعريف بفضل الله تعالى بإعجاز يقصر عنه تعبير البشر.

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24)

لن يترك الله تعالى من يرتاب في ما جاء من الحق مع الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم دون عقاب. وجعل سبب عقابهم إقامة الحجة عليهم بأن لم يتمكنوا من إيتاء سورة من مثل القرآن الكريم فعليه يكون القرآن كلامَ الله تعالى حقاً مبيناً صدّوا عنه كُفراً. وثبت ذلك بتحديهم بالحجة المذكورة فما عليهم سوى ان يبحثوا عن وقاية لهم من النار ولن يجدوا ذلك إلا بالتوبة والرجوع للفطرة السليمة التي يتميز فيها الحق عن الباطل قبل أن تفسدها الأهواء الضالّة والرغبات السقيمة.

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (25)

جعل الله تعالى العمل الصالح (مقترناً بما وقر في القلب من الايمان مصدقاً له) سبباً للبشارة بالجنات التي تجري تحت اشجارها الانهار مع رزق كريم. هذا الرزق يمكن تصوره في الأذهان من رزق الله تعالى في هذه الحياة الدنيا. إذ لولا رزق الدنيا لما عرف الخيال من الغيب صورة واضحة. وفي هذه الاية تبصرة للمؤمنين ان ينظروا الى أعمالهم لتكون صالحةً تليق بالايمان وذلك بإتّباع أوامر الله تعالى والإنتهاء عما نهى عنه من غير تهاون. اما من تهاون فلْيراجع ايمانه ويجتهد في تقويمه. وفي الاية بشارتان بعد الجنات بأزواج مطهرة وبالحياة الخالدة.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ

مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (27)

حقيقة هذا المثل واضحة للمؤمنين وخافية على الكافرين؛ فالمؤمن لا يتساءل عن شؤون الله تعالى إذ يعلم أنّ الله تعالى يريد إظهار الحق لعباده. فإذا اقتضى الأمر أن يضرِبَ مَثَلاً بأصغر حشرة فلا يمنع الحياء ذلك. والحياء من خُلُق الله الأعظم. ومن كفر يتساءل عن المراد من ذلك فقد خفي عليه السبب لزيغ في قلبه وانحرافه عن الفهم لإنقطاع صلته بالدين بما فسق من نقض العهد. والفاسق هو الخارج عن الطريق الصحيح وبذلك يبتعد عن عهد الله تعالى وميثاقه الذي أخَذَهُ في أوَّل الخلق. كما تميز بالفساد في الدين باتباع الاهواء الضالة وحصيلة هذا –كما جاء في الاية السادسة عشرة من هذه السورة المباركة – خسارة الافضل الباقي بكسب الادنى الفاني.

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (29)

النشأة الاولى للبشرية متحققة بهذا الوجود. ويُنكِرُ المولى تعالى على الكفار إعراضهم عن الإيمان بكفرهم بمن أحياهم من العدم، وتَجاهَلوا حقيقة نهاية كل منهم فيها. ويخبرهم بالبعث بعد الموت للرجوع اليه سبحانه. فما المدة على ظهر هذه الارض إلّا فترة إبتلاءهم فيها بما خلق ووهب لهم منها. ثم يذكر تعالى قدرته في اكثر من ذلك بما خلق من أجرام سماوية لا تدع شكاً في قدرة خالقها على ما يشاء وفي

علميته بما كان ويكون وفي تدبير كل امر صغير او كبير في ما بين هاتين الخلقتين. ومن قبل ذلك ما أعلَم به الملائكة عن أبينا آدم عليه السلام والبشرية قبل خلقها فقال تعالى:

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33)

أحياء السماء ملائكة مسخرون ولا تعرف لهم ملذات مادية. بينما الحياة في الارض تستوجب ان يكون للحي فيها جسد يلائم ظروفها ليدوم وجودُه (ما دام حياً) بما يخرج من الارض وبمائها وهوائها وهذا الامر فيه تفاوت بين الطيبات المشروعة والملذات المحرمة. والنفوس التي تريد اشباع غرائزها تنطلق نحو التملك. والتملك يقود الى المنافسة. والمنافسة تقود الى سفك الدماء والفساد والعياذ بالله تعالى. هذا ما عرفه اهل السماء من الملائكة عمن يمكن انه سيُخَلَّف في الارض ولكنهم لا يعلمون الغيب الذي يعلمه الله من إرسال الرسل وإصلاح النفوس لترقى عن الشهوات الى التسبيح والتقديس وما ينبغي للخليفة الْمُستخلَف أنْ يتحلى به من صفات تضبط النظام وتدبر الامور وتسوس الخلق وتدعوهم للايمان. وكما تميز الانسان بالجسد عن الملائكة فإن فيه من روح الله تعالى نفخةً نورانية تدعو العقول وترضي القلوب السليمة وتصل الى ما تفعله الملائكة من تسبيح وتقديس. وها هو

الخليفة آدم عليه السلام يقف غامضاً مجهولاً للملائكة فماذا يرون فيه وهم لا يعلمون عنه وعن علم عَلّمه الله تعالى. ولكن لا يزالون يبحثون عن فضله او فضلهم ايهما افضل؟ وهنا خاطب رب العزة خليفته في الارض بأن ينبئهم بأسمائهم وما علَّمه تعالى من مزايا الايمان والترفع عن المفاسد. ففعل. فقالوا سبحانك لا عِلم لنا إلا ما علّمْتَنا. فالذي أبدوه كان استفسارهم من الله تعالى واما الذي كتموه فانكشف بانكشاف كُنْهِ آدمَ وفضلِه اللذَين جهلوهما اول الامر فكتموا ما وقع في قراراتهم عنهما.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34)

لا يترك الله تعالى عبداً إلا وامتحنه، وها هم الملائكة الكرام ومعهم إبليس، ليس منهم كان من الجن يفعل عابداً كما يفعلون. ولكنّ عِلْمَ اللهِ تعالى سبَق الابتلاء بمعرفة نتائجه لكي يظهر ما في قلب هذا الكافر من حسد وتَكَبُّرٍ. فأمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلّا إبليس هذا فقد سُمي بإبليس بعد ان كان اسمه اسماً حسناً اشبه بأسماء الملائكة. وغفل ابليس من آدم عن نفخة الله تعالى من روحه فيه ولم يتمسك إلا بكونه من طين. ولماذا فضل النار على الطين؟ الا انه اغلق بصيرته عن الحق واصر على المعصية واستكبر فخرج من منزلته الى الكفر واسوأ منازل الكافرين. وهذا يدعو كل مؤمن للطاعة من غير ان يسمح لنفسه بالخروج عن مفاهيم الايمان الى جدل وتساؤل.

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (39)

كان ابتلاء الملائكة بالأمر فأطاعوا من غير تردد وعصى إبليس فخسر وجاء الامر والنهي لآدم وزوجه أن يسكنا الجنة وأن لا يقربا شجرة عيّنها الله تعالى لهما وحذر من نتيجة المخالفة. ومن الانصاف ان نرجع الى الدافع الذي حدى بهما الى مخالفة النهي. ففي سورة الاعراف في الاية العشرين منها يمنيهما ابليس بأن يكونا مَلَكَيْنِ أو من الخالدين. وهذا ما يبعث السعادة فيهما ليبقيا في جوار الله تعالى. ثم أردف، كما في الآية التي بعدها، بِقَسَمٍ بأنه ينصحهما. وقد صدّقه آدم عليه السلام، وهذا عذره فيما بعد، فما كان يظن ان يقسم احدٌ كَذِباً. والله تعالى اعلم بعذره، فماذا يكون من رب رحيم إلا ان تاب على آدم واجتباه واكثر من ذلك وعده وزوجته وذريته، إنِ اتبعوا الهدى الذي سيأتيهم من لدنه بأنْ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وتوعّد أهل الكفر بالنار وهم الذين لم يؤمنوا بآيات الله وكفروا به. وهكذا مع الهبوط الى الارض جاءت ساعة الاستخلاف ليتميز من يخلف ربه بحسن الخلافة ومن يسيء اليها بما يعصي من أمْرٍ ونَهْيٍ. فمن آمن بالله وآياته واصلح يقبل بالحق من أي مصدر جاء ولا يشترط ان يكون الذي يأتي بالحق شخصاً بذاته دون غيره. وفي هذه حجة على اهل الكتاب اذ جاء الرسول صلى

الله عليه وعلى آله وسلم مصدقاً لما معهم وبآيات بينات منها البشارات التي في كتبهم والتي سبقت بعثته ومنها كلام الله تعالى ونصره لعبده واتباعه. وهكذا يخاطب بني إسرائيل ليؤمنوا به ويوصيهم بما ينقذهم:

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40) وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (42) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (45) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (46)

يذكِّر المولى تعالى بني إسرائيل بنعمته عليهم في الرسالة التي جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام وأنها عهد معهم بأن يعبدوا الله ولا يشركوا به أحداً. وها هي رسالة مصدقة لها فإن كانت نيتهم خالصة لله تعالى وجاءت رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم تتفق مع خلوص النية وصدق العبادة فما معنى الكفر بها إلا لأجل متاع الحياة الدنيا والرياسة فيها. وهذا ثمن قليل بالنسبة للآخرة. وكانوا يستبشرون بقرب ظهور نبيٍ كريم ظناً انه منهم فلما جاء الرسول من العرب كتموا البشارات وتغيروا عليها وهي الحق ويعلمون انها الحق من ربهم. ودعاهم الى الرجوع الى انفسهم. وهل إقامة العدل وإعلاء كلمة الحق وتفصيل العبادات مما ينبغي ان يكفر به؟ ودعاهم الى الايمان مع من آمن ليكون اهل الايمان يداً واحدة على اهل الباطل وان يقيموا الصلاة ان كانوا خاشعين لله وإلا فإن خشوعهم ظاهرٌ

خادعٌ خالٍ من الظن بلقاء الله تعالى. وها هم كتموا الحق بادعاءٍ باطلٍ أي ألْبَسوا الحق بالباطل فما انتفعوا بالتوارة ولا بالقرآن.

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (48)

اضافة الى تذكيرهم بما اسبغ الله تعالى عليهم من النعم، ومنها تفضيلهم بأول كتاب مع رسوله موسى عليه السلام، أمرهم ان يحسبوا حساب الآخرة اذ لن يكون لديهم ما يَعْدِل ذنبهم ولن يجدوا نصيراً. ويتوالى تذكيرهم بعد الأمر بذكر ما انعم عليهم سبحانه فقال:

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57) وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ

وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (59)

النجاة تكون نجاة من المتسلطين بظلم،كما تكون نجاةً من الضلالة. وها هي رسالة الاسلام تنجيهم فما عليهم إلا قبولُها بعدما كفروا بعيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام. كما عليهم ان لا يطلبوا ما طلب اسلافهم من موسى من معجزات لا ينبغي ان تكون بل حسبهم انهم عرفوا الحق فما عليهم إلا إتباعُه. ويُذكِّرهم تعالى بما أصاب الظالمين منهم من غم وعذاب اذ خالفوا الامر وبدّلوا ما أُمِروا بأن يقولوه عند دخول القرية. كما أنّ العذاب ليس ببعيد عنهم إن جحدوا الحق الذي مع سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم. وفي هذا عبرة للمسلمين بأن يشكروه تعالى على نعمة الرسالة والصلاح في الدين.

وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60)

وحذرهم تعالى من الإفساد في الارض ولم يأبهوا لذلك بعد موسى عليه الصلاة والسلام اذ كفروا بآيات الله تعالى وقتلوا الانبياء واستغلوا نعمة الله للعدوان والظلم.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61)

وبدلاً من الطاعة غلبت مشتهيات الأنفس. وكما استبدلوا الطاعة بالملذات أبدلهم الله العزّ بأن اذلّهم وغضب عليهم لِما فعلوا من كفر وعدوان بلغ بهم إلى قتل الأنبياء. وهذا من العِبَر.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62)

الذين آمنوا هم المسلمون ثم الذين هادوا وهم اليهود ثم النصارى والصابئون من كان منهم على صحة ايمانه بالله تعالى واليوم الآخر مع عمل صالح فإن مآلهم الى الايمان برسالة الاسلام اذ لا يوجد سبب لزيغهم عن الحق اذا جاءهم من ربهم. ويبشرهم مع الأجر بالنجاة من ساعة الخزي التي تنتاب المكذبين عندما يُتوفَّون وهم على التكذيب. وفي هذه اشارة لبني اسرائيل بأن لا يفضلوا انفسهم على غيرهم من الأمم ولا يعترضوا على الله تعالى اذا ارسل رسولاً مصدقاً لما معهم وإن كان من أُمّةٍ اخرى فالأكرم هو المؤمن الصالح.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (64) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (66)

في الآية الأربعين أعلاه إشارة إلى عهد الله تعالى الذي أخذه على بني إسرائيل وهنا يذكّرهم به وبآية الطور (الآيات من الثامنة والثلاثين بعد المائة إلى الرابعة والسبعين بعد المائة من سورة الأعراف بتفصيلها) وبفضله ورحمته ليذكروا الميثاق

وللعمل بأوامر التوراة وأن لا يغفُلوا عنها. ولكنهم لم يثبتوا وغلبت عليهم الأهواء وتحايلوا على النهي عن صيد الاسماك يوم سبتهم وغفلوا عن هيمنته تعالى فانحطّوا من رُقِيِّ الإنسانية الى حقارة القِرَدة. والخاسئ هو الفاشل في الحصول على خير. وهذا شأن الحيوانات التي تتصرف بغير خشية. فكان مسخهم نكالاً أي عبرة وموعظة للمتقين. (تفصيل في سورة الأعراف).

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (68) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (71)

بلغت الجهالة في القوم المذكورين من بني اسرائيل بحيث ذهب ظنهم برسول من أُولي العزم (سيدنا موسى عليه السلام) انه يستهزئ بهم ببلاغ عن ربه تعالى. وأدركه الحِلم فلم يوبخهم بل اكّد لهم جدية طلبه ولو فعلوا ما أُمِروا به لما اثقل الله تعالى عليهم الطلب فأخذوا يسألون عما هي. فأوضح ذلك لهم وقال ((فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ))! ولم يفعلوا بل سألوا عن لونها فاعطاهم الجواب الواضح. ولم يذبحوها حتى ازدادت صفاتها عليهم بحيث لم يجدوا في محيطهم إلا بقرة واحدة بهذه الصفات ثقل عليهم ثمنها. وبعد أن ذبحوها بيّن الله تعالى سبب هذا الطلب فقال:

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73)

في التفاسير ان قتيلاً وُجِد في أرض لم يُقْتَلْ فيها بل سُحِب إليها وكانت بين حَيَّيَن من بني اسرائيل. فاخذ اهل كل حي يدرأون عن انفسهم تهمة القتل. ومن حكمة الله تعالى اراد ان يبين لهم قدرته على إحياء الموتى فأمر بأن يضربوا القتيل ببعض تلك البقرة فاذا به حال ضربه يفصح عن قاتِلَين اثنين وهما إبنا عمه ليرثا أباه الموسر وكان هو وحيد ابيه. وظهر الحق مع قدرة الله تعالى لإحقاقه وليزهق به الباطل. فقُتِل القاتلان ولم يورَّث قاتل من قتيله بعد ذلك.

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74)

ان آيات الله تعالى لبني اسرائيل مما تلين له القلوب وتخشع له وترق فتصبح قلوباً مُحِبّة للخير والعفو والرحمة ولكن قلوب اهل الظلم من كَفَرة بني اسرائيل لم تتأثر بكل هذه الاسباب اذ ما لبثت أن ظهرت قسوتها في اقتتال حصل بين حيين منهم فلم يرحم احدهم صلة الرحم ولا النساء ولا الاطفال ولا المواشي وتبادلوا القتل وحَرْقَ المتاعِ والبيوتِ مما وُصِفت معه قلوبهم بالقسوة التي جاوزت قسوة الحجارة(1) فلم يشعروا معها بأن الله تعالى رقيب شاهد على عملهم وقسوتهم مما محا استعدادهم

1. قصة لهذه القسوة وردت في سِفْرِ القضاة من التوراة، الإصحاح التاسع عشر الى الحادي والعشرين، عن قتال بين الف مسلح من بني بنيامين معهم سبعمائة مسلح من سكان جبعة، وبين مسلّحي شعب اسرائيل اضعافهم.

لرحمة الله تعالى بالهدى والعلم النافع. ولهذا يخاطب المولى تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين فيقول:

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (77)

فأرشدت هذه الآيات الى تمييز الذين يصلحون لدعوتهم للحق ممن طغت نفوسهم على الحق وتجرأت على الافتراء على الله تعالى بتحريف كلامه لهوى انفسهم. هؤلاء لن يتركوا مكاسبهم الدنيئة ليكونوا تحت حكم العدل والرحمة. وكان مما حرّفوه صفة الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم في التوراة وآية الرجم للزاني المحصن فيها. وهم-كالمنافقين من غيرهم- يلتقون مع الصادقين من الصحابة رضوان الله عليهم. فمِن قَبيل المجاملة يُظهِرون الايمان ببشارة النبوة. فاذا التقَوا مع غيرهم من اليهود عوتبوا على نفاقهم بما بينوا من بشارات نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم. وبذلك اقاموا الحجة على انفسهم بجحودهم برسالته صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهي حجة عليهم في الدنيا، وعند الله تعالى في الآخرة، وفاتهم في كلا الحالين من النفاق والعتاب أن الله تعالى رقيب عليهم وعليم بسرائرهم.

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (78)

ومن اليهود من لا يُحسِن القراءة ليطالعوا التوراة ليتحققوا مما فيها بل ينقادون بلا رَوِيَّة لأحبارهم وما يُمَنُّونهم به من كونهم موضع إختصاص الله تعالى وأن النار لن

تمسهم إلا أياماً معدودة، من غير سند من الله تعالى، فيغلب عليهم الظن الخاطئ ويجحدون نور القرآن الكريم.

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79)

الويل حسرة من عذاب جهنم وهو عاقبة العصيان والتكبر على آيات الله والجحود بها. وهذه عاقبة من يفضل طغيان نفسه وكسب الدنيا على رضوان ربه بحيث يحرفون كتابه من أجل أهوائهم وما ارخصها ازاء عظمة كسب رضوان الله تعالى وخلود السعادة. واكثر التحريف حصل بعد سبي اليهود لمدة سبعين سنة في بابل. وقد حصل خلال ذلك ضياع الكتب بحرقها او تمزيقها او إخفائها. فلما ارادوا اعادة كتابتها اخفوا ما لا تهواه انفسهم ومع ذلك بقيت اجزاء من الاصل تحتوي على البشارة بظهور رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم كتموها فلهم الويل من ذلك.

وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (82)

من ادعاءاتهم الكاذبة (كما جاء في أكثر من تفسير) منهم من قال يكون عذابهم اربعين يوماً أي يوماً واحداً عن كل سنة من التّيْه. ومنهم من ادَّعى انّهم يعذبون سبعة ايام أي يوم واحد عن كل الف سنة مما دعوه عمر الارض، أي سبعة

الاف سنة! ومنهم من افترى انهم يعذبون بقدر الوقت الذي استغرقته ذنوبهم، وما الى ذلك من افتراءات على الله تعالى اذ لم يثبت عندهم بدليل ولا بتفسير من رسولٍ او نَبِيٍّ بذلك. ولا بد أن يكذبهم رب العزة بالحجة القاطعة وهي ان تراكم الخطايا بلا توبة واستغفار وندم يجعلهم ساعة الموت محاطين بها لا مخرج لهم منها إلا الى النار خالدين فيها. والذين آمنوا وعملوا الصالحات أشار الله تعالى إلى أنه جعلهم أصحاب الجنة خالدين فيها.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (83) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (84) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (86)

الذين تركوا عبادة غير الله سبحانه تراهم لا يبتغون غير وجه الله تعالى في نواياهم وتصرفاتهم ولا يتوانون في إعلاء كلمة الله تعالى فلا يبقى في انفسهم هوىً يخالف اتّباعَ الهدى. وعلى هذا تكون معاملتهم متجهة لرضوان الله تعالى. وأهمُّها بِرُّ الوالدين وصلة الرحم ثم الإحسان الى من هو اَوْلَى به من يتيم ومسكين، فاليتامى فقدوا رعاية الآباء، والمساكين ضعفت حيلتهم في كسب ما يكفيهم. ويأتي الامر

بإختيار احسن القول للناس بعد ذلك ثم أداء الفروض. وفي كل ذلك يشعر المؤمن بمعية الله تعالى معه. ولكن بني إسرائيل تَوَلَّوا إلا قليلاً منهم. وفي التفاسير هم الذين اسلموا. وقد عَلِمَ منهم رب العزة ما سيكونون عليه فحذرهم من الخزي والعذاب. وقد أخذ ميثاقهم بأن يتركوا سفك الدماء واخراج بعضهم البعض من ديارهم عدواناً وظلماً. ويتركوا فداء الاسرى من اجل المادة. فان فعلوا ذلك فقد نكثوا العهد أي لم يأخذوا ببعض الكتاب. وهذا تحذير لهذه الامة المحمدية وحثٌّ على التمسك بالكتاب الكريم بالقرآن العظيم الذي لا نقص فيه ولا تفريط ولا يحصل تقصير في الأخذ بأحكامه الا لِهوىً في الانفس ولحب الدنيا واظهار البدع لذلك. فمن فعل ذلك فله الخزي في الدنيا وشِدّةُ العذاب في الآخرة. والله شديد العقاب.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (87)

من ادلة صدق الرسل والانبياء عليهم صلوات الله وسلامه كونهم قبل أن يبعثوا من صادقي الناس ولم يريدوا علوّاً في الارض. فبعثهم الله تعالى بالبينات العقلية الواضحة ولم يطلبوا من أقوامهم أجراً. ولم تحصل معجزات بعد موسى مثلما جاء به المسيح عليهما السلام مؤيداً من ربه بجبريل عليه السلام ولكن كَفَرة بني اسرائيل لم تَرُقْ لهم دعوات الصدق التي لا تتفق مع أهوائهم وحب الرئاسة وجمع الدنيا فكذّبوا من كذّبوا وقتلوا من قتلوا حتى بلغ بهم المكر أن افترَوا على عيسى عليه السلام لدى الحاكم الروماني آنذاك فأمر بصلبه إلا أن الله تعالى نجاه منهم ورفعه اليه.

وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (88)

الفطرة التي فطر الله تعالى عليها الناس تحمل قلوباً منفتحة فإن أهمل أهلُها الرؤية بها على وجه الحق فانهم سَيَعزون ذلك الى اغشية على قلوبهم. فرَدّ الله تعالى عليهم هذا الإدِّعاء ونسب كفرهم الى لعنة استحقوها بسبب زيغهم عن الحق بعدما جاءهم من البينات بغياً بينهم، إلا قليلا من الإيمان او عدداً قليلاً منهم. وهكذا ابدَوا العذر الخاطيء في الصد عن دعوة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقال تعالى:

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89)

فوجئوا بأن الرسالة التي كانوا ينتظرون ظهورها لقرب مواعيدها في كتبهم لم تحصل على يد رسول منهم بل من العرب. وهكذا انكروا ما عرفوا من قبل مما لعنهم الله تعالى عليه، وغضب عليهم فهم المغضوب عليهم. ومن أطاعهم فهم الضالّون.

بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (90)

تضاعف غضب الله عليهم لإصرارهم على تكذيب رسالات الرسل وآخرها رسالة الاسلام (القرآن) جاء مصدقاً للتوراة وكانوا اذا قاتلوا أعداءهم يقولون (اللهم انصرنا بالنبي المبعوث آخر الزمان الذي نجد نعته في التوراة فقد أظلّ زمانه) فلما جاءهم من عرفوا ولكن في غيرهم من الامم كفروا به!

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آَمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (91)

وإذا دُعوا ليؤمنوا بالقرآن إدّعَوا بأنهم مؤمنون بالتوراة وبهذا كفروا بما يصدق لما معهم. ولو كانوا مؤمنين لما قتلوا الانبياء الذين جاءوهم بالحق الذي جاء به سيدنا موسى عليه السلام.

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (92) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (93) قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآَخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (96)

لقد تحقق ليهود المدينة أيّام البعثة المحمدية ما حصل من آيات مع سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ومع هذا فان أسلافهم عبدوا العجل رغم تحذير أخيه هارون عليه السلام لهم ونسوا آية الطور فوقهم (تفسيرها في سورة الأعراف). فلو كانوا مؤمنين كما يدّعون لَما فعلوا مثل أسلافهم في رفض الحق الذي مع سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. ثم ارجعهم الله تعالى الى انفسهم: هل يتمنون الموت لينعموا بالدار الاخرة التي نسبوا تخصيصها لهم من دون الناس؟ أم ان سيئاتهم وكفرهم يجعلهم احرصَ الناس على الحياة الدنيا ولن يأخذوا منها (اذا لم يؤمنوا حقاً) الا اسباب العذاب بما فعلوا تحت رقابة الله تعالى ومشاهدته ومعرفته دوافعَهم في

هذه الافعال. وقد جاء ذكر العدد (الف) وهو الرقم المضروب مثلاً للكثرة في العدد وليس على التحديد اذ انه اقصى ما يذكره العرب من الارقام فليس في اللغة العربية تسمية لعدد اكبر كالمليون مثلاً.

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (97) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (98) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (99)

بلغت باليهود الذين ناظروا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المكابرة على الحق بأن حقدوا على الملائكة الذين يفعلون ما يؤمرون. فانهم سألوا أسئلة عن خلالٍ (أي صفات) لا تكون إلّا لنبي فأجابهم عنها وأشْهَدَهم على معرفته بها وقال: ((اللهم اشهد)). وفي ختامها قالوا: الآن حدثنا: مَن وَليُّك مِن الملائكة؟ قال ((فإن ولِيِّيَ جبريل ولم يبعث الله نبياً قط إلّا وهو وليُّه)) قالوا: فعندها نفارقك ولو كان وليَّك سواه من الملائكة تابعناك وصدَّقناك! قال ((فما يمنعكم أن تصدقوه؟)) قالوا: إنه عدوُّنا. فأنزل الله تعالى هذه الآية ((وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ)) من الله تعالى. وبيّن تعالى لهم بعد هذه الاية انهم كفروا واستحقوا عداوة الله تعالى بكفرهم بآياته على لسان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، واستحقّوا ما أكسبهم صفة الفاسقين أي الخارجين عن الحق. ولو كانوا على الفطرة السليمة من غير حسد وبغيٍ لَوَهَبهم الله تعالى تصديق الصادقين وخاصة آيات الله التي جاء بها سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو أُميٌّ لم يَتْلُ كتاباً ولم يخُطَّه بيمينه.

أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (100) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (102) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (103)

العهد الذي نبذوه هو إنكارهم انهم أعطَوا الميثاق بالإيمان بالنبي الاميّ الذي يُبْعَثُ آخر الزمان كما سبق بيانه. وكان سبب إنكارهم أنهم كانوا يتوقّعونه منهم وليس من الاميين غيرهم. وهذا النكث (نَبْذُ العهد) متكرر عندهم. فكانوا اذا عاهدوا قوماً نكث فريق منهم العهد عندما يرون أن ذلك لا يتفق مع طغيان انفسهم ولا يزال هذا النكث فيهم فلا يُطمأن الى عهودهم. وبدلاً من الوفاء بالعهود قادهم طغيانهم وبَغْيُهم الى البحث عن السحر فقد عمد اللعين منهم واسمه لبيد بن الأعصم الى ما يفعل السحر برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ولكن الله تعالى أطلعه على ذلك وشفاه منه وانقذه. واما ما تتلو الشياطين فإنهم أضافوا كفراً وسحراً إلى ما كُتب عن سيدِنا سليمان عليه الصلاة والسلام من أوامره ووصاياه حتى ظنّه الجُهّال منهم أنه كان ساحراً. واستمر الكَفَرَةُ منهم على نبذ التوراة الى تعلُّم السحرِ فاسْتَهوَته أنفسهم ولم تعُدْ لهم هِمّةٌ يواجهون بها التوراة التي

تقودهم للهدى. واما السحر ففيه الكفر لأطرافه أي للساحر ولمن طلب فعله. فانهم سيرون الاثر لغير الله تعالى فينسبون القوة التي حصل مرادهم بها الى غير الله تعالى. بينما فتنهم تعالى اذ لا يكون شيء إلا بمشيئته. ويعلم أنهم سينسبون ما حصل بعد السحر لغيره فكان الذي قد حصل بمشيئته هو لإقامة الحجة على كفرهم يوم لا ينفعهم عمل ولا شفاعة. ولهذا قيل (لا توبةَ لساحر). وحَدُّه في الشريعة إن لم يتب، أن يُقتل. اما يهود المدينة على زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكانوا يظنون ان سليمان (ويسمونه ابن داود) عليهما السلام كان ساحراً فلما نزلت آيات تزكيته في القرآن الكريم انكروا كون سليمان نبياً واصروا على انه كان ساحراً يركب الريح. وجاءت الآية صريحةً بخسارة انفسهم بشيء ضار. وفي هذا عبرة للمؤمنين بان يتخذوا احكام القرآن العظيم وِقايةً لهم من أهواء أعداء الله جل شأنه والتي تبعدهم عن رحمته تعالى على قدر ميلهم اليها. واما ذكر الْمَلَكين ببابل هاروت وماروت فقد ورد في التفاسير تفصيل لا يُركَن اليه ولهذا يجب الاكتفاء بظاهر الاية الثانية بعد المائة فإنه يكفي ان يعلم المؤمن بحصول فتنة لهم وان السحر لا يقدِمُ على تعلُّمِه مؤمن أبداً. وبهذه القصة تنكشف العبرة في العبادة والاستقامة التي أمَرَنا الله تعالى بها ونحمده ونشكره على ما علَّمنا في كتابه المبين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105)

طلب المؤمنون في الأيام الاولى للهجرة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان يراعي مدى فهمهم لكلام الله تعالى وكلامه ليمهلهم حتى يَعُوه ويحفظوه فقالوا

(راعِنا). ولهذه اللفظة لفظةُ سَبابٍ شبيهةٌ بها في لغة اليهود فقالها اليهود للرسول صلى الله عليه وآله وسلم تَهَكُّماً وفي قلوبهم الزيغ والمرض لأنهم لم يأتوا ليتعلموا بل ليتهكموا. فأمر تعالى المؤمنين ان يقولوا (انظُرنا) أي انتظر حتى نعيَ ما يقال ونحفظه. وهذه المكيدة من يهود المدينة دلت على حقدهم على المسلمين وعلى ما جاءهم من الهدى. وكان الاجدر نسبة ذلك الى تقدير الله الرحمن الرحيم الذي يعلم من هم اهلٌ لنوره ورحمته. وله الفضل العظيم في إرساله سراجاً منيراً صلى الله عليه وآله وسلم.

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (107)

لنسخ الاية او محوِها من الذاكرة حكمةٌ ربانية فالمنسوخ يبقى لفظه للدلالة على زوال حكمه لإنقضاء زمانه فلا يعود الى نفس الحال الذي نزلت فيه الآية، او لوفاة اشخاصه الذين نزلت فيهم الآية، أو أن حكمها فيهم كان مؤقتاً. وامّا محوُها من الذاكرة فهو تأخير حكمها لحينه وفي كلتا الحالتين تُبدَّل بخير منها حكماً او علماً بحسب علم الله تعالى بما سيكون عليه شأن المؤمنين في تطورات جهادهم ومعاملاتهم تبدلاً من الجاهلية والاديان السابقة للاسلام، وهذا التقدير الرباني معلوم مسبقاً عند الله تعالى، ولكن ما يجري على المؤمنين له حكم شرعي قد يكون مؤقتاً له موجباته فيبدل بتبديل موجباته بما يجري عليهم لأن الحكم الاخير الناسخ لم يكن ليفرض لأول مرة بدون تمهيد له لتثبيت الايمان واظهار حكمة الله تعالى في التمهيد ثم النسخ. وهذا ما يشير الى انه الحكيم المتصرف بملكه وانه ليس للمؤمنين من دونه

من ولي ولا نصير يختار لهم الافضل ويهديهم اسباب النصر. والاسلام مَثَلٌ على مشيئة الله تعالى في جعله خاتماً لباقي الأديان.

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (108) وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110)

سأل بعض المؤمنين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن امور من الدنيا لعلهم يجدون فيها فسحةً أو رخصة. وهذا دليل وجود الضعف للوصول الى ما هو اضعف. وهذا المدخل حذّر الله تعالى من الدخول فيه لأنه ادّى بالذين أكثروا السؤال مع سيدنا موسى عليه السلام الى الضلال. وها هم كثير من أهل الكتاب أطْلَع الله تعالى المؤمنين على ما في قلوبهم من حسد وحقد تمنوا معه أن يرتدَّ المسلمون كفاراً. وسعوا الى ذلك في معركة أُحُد اذ استغل اليهود ما حصل فيها ليشكِّكوا في صحة الرسالة المحمدية في الوقت الذي فيه صدّقت البشارات المكتوبة عندهم صحتها. وهكذا طغت نفوسهم على الفطرة السليمة في قلوبهم فأبعدت عنها السلامة بينما امر تعالى المؤمنين ان يبقوا على سلامة الفطرة وذلك بالعفو والصفح واعِداً إيّاهم بالنصر وهو القدير على كل شيء. وفي هذا السياق لم يجعل الله تعالى مؤاخذةً على ما في القلوب من كراهية او حسد اذا لم يظهر فعلٌ عدواني من اهله بل ترك المحاسبة على ذلك لجنابه العليم بذات الصدور يوم لا تنفع إلا

سلامة القلوب والاعمال الصالحة التي امر الله تعالى بها باقامة الصلاة وايتاء الزكاة والعمل الصالح فيكون خيراً عند من لا يخفى عليه عمل عبده.

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (112)

الأمانيُّ التي لليهود أنْ لا يدخل الجنة غيرُهم! وللنصارى ان لا يدخل الجنة غيرُهم! وذلك لأن نظرة اليهود للنصارى انهم خرجوا من الدين ونظرة النصارى لليهود انهم كذّبوا المسيح عليه السلام. وقالوا لن يدخل الجنة غيرُهم! لقد كذبوا لأن الانجيل مصدِّقٌ للتوراة ومُوجِّه الى صحة صحيحها. وفي كلا الكتابين ما ينافي هذه الأمانيَّ. بل وَعَدَ الله تعالى الذين يؤمنون ويُسلِمون وجوههم إلى الله وهم محسنون بعملهم الصالح وتصديق الرسل (عليهم الصلاة والسلام) أنّ لهم أجرَهم ولا خوفٌ عليهم في المحيا ولا هُم يحزنون في الممات. وهذا الوعد للمسلمين المحسنين الذين آمنوا بما بعد الكتابين من كتابٍ مُصَدِّقٍ لهما وهو القرآن الكريم جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (113)

وقف طغيان النفوس الحاسدة حائلاً دون الحق الذي جاء من الله تعالى في التوراة والإنجيل إذ أنهما كتاب واحد في الايمان والعمل الصالح. وكذلك جاء

الرسولان؛ موسى وعيسى عليهما السلام، بدين واحد. وأحبار اليهود وعلماء النصارى يَتْلُون الكتاب، ومع ذلك يَعْتَبِر هنا كلٌّ منهما الآخر كأنه لا دينَ له ولا كتابَ له! واما الجُهّال منهم فقد ايّدوا أقوال علمائهم وقالوا مثل قولهم. والحكم عليهم يوم القيامة انهم تقام الحجة على ظلمهم واستحقاقهم ما وعد الله به الظالمين وعلى انشغالهم بتفضيل أنفسهم عن العمل لوجه الله تعالى ووحدانيته.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (114)

شمل هذا الظلم الكبير من يمنعون ذكر الله في المساجد. وفي الآية تذكير لليهود والنصارى. ذلك أن النصارى قاموا يوماً ما بمحاولةٍ في بيت المقدس لمنع اليهود من الصلاة عند الصخرة، وأن الروم قبل ذلك أعانوا بختنصّر على تخريب بيت المقدس. وهذا ايضاً شمل يوم الحديبية اذ مُنِع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من دخول المسجد الحرام فنحر الهَدْيَ في ذي الطُوَى (على بعد مرحلةٍ من مكة أي قريبا من أربعين كيلومتر). بينما كان المرء يلقى قاتل ابيه قاصداً المسجد الحرام فلا يَصُدُّه. والخوف هنا يحصل في قلوب من تكدرت قلوبهم على المساجد فلا يجدون الطمأنينة في دخولها مع ميلهم لخرابها ولِصَدِّ الناس عنها. ومآلهم الى خزيِ الدنيا وعذابٍ عظيم في الآخرة.

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115)

لهذه الاية معنيان؛ فهي للذين لم يتمكنوا من تحديد القبلة ليلاً في مكان لم يسبق لهم معرفته واجتهدوا وتوجهوا الى غيرها فلهم العذر في هذه الاية. الا ان

الشافعيَّ رضي الله عنه اشترط اذا أدّى الخطأ إلى إستدبار القبلةِ أَن تعاد الصلاة قضاءً، والمعنى الثاني هو التوسعة على المسلمين اذا كانوا في غير المساجد ان يجتهدوا في الاتجاه الى القبلة من موقعهم بالنسبة لمكة. فالآن فإن كانوا في اوربا الغربية مثلاً فيتجهون جنوباً نحو الشرق. وان كانوا في افريقيا فيتجهون شمال شرق موقعهم وان كانوا في جنوب آسيا فيتوجهون شمال غرب موقعهم. وكذلك للمسافر ان يوجه وجهه نحو القبلة عند النية وتكبيرة الإحرام ثم يعود الى إتجاه راحلته أو إتجاه الطيارة او السيارة او مع الركب اذا لم يتيسر له الاستقرار لأداء الصلاة على الارض. وأينما يولّي المصلي وجهه فإن الله تعالى واسع في علمه يعلم اتجاه العبد الى وجهه الكريم. وكذلك الدعاء لا يستوجب الإتجاه للقبلة فأينما يولي الداعي وجهه فَثَمَّ (أي هناك) وجه الله تعالى.

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (116) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (117)

يبطل الله تعالى إفك الذين ينسبون له ولداً فالولد يوهب للوالدين من ربهما وليس لهما ان يخلقاه. فاذا لم يكن موهوباً للوالدين فلا يسمى إبناً لهما. والله تعالى أنشأ السماوات والارض من العدم وخلق ما فيهما من مخلوق فهو يملك ما خلق مطيعين لقضائه جعلهم صورةً لإرادته. فإذا قضى أمراً فذلك كائن واكتسب صفة المخلوق فلا يصح أن يكتسب صفة البنوّة للخالق سبحانه.

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (118)

(الَّذينَ لا يَعْلَمُونَ) إمّا من كفار قريش أو ممن أُوتوا الكتاب فلم يتمسكوا به اذ لو تمسكوا به لصدّقوا القرآن الكريم كآية عظمى جاءت حجةً على وحدانية الرب الجليل. فطلبوا مجيء آية وبهذا أقاموا الحجة على زيغ قلوبهم كما زاغت قلوب الذين كذبوا الرسل من قبل. اما اهل الايمان المستقر (أي الموقنون) فقد وضحت لهم آية نزول القرآن المعجز للبشر واطمأنوا بذلك.

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (119)

حدد الله تعالى لرسوله مهمته بالبشارة للموقنين والنذير للجاحدين فلم يكلفه مسؤولية إدخال الحق هذا في قلوبٍ خَرَجَتْ عن طريق قبول الحق إلى هوى البغي فكان اتجاههم المبتعد عن الحق موصلاً إياهم للجحيم. ولا ينسب في ذلك تقصيرٌ للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولا يعتبر مسؤولاً عنهم.

وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (120)

هذه الاية تحذِّر المؤمنين من وسوسة شياطين الجن والانس بقصد الريبة في دين الاسلام. فإن أهواء أهل الكتاب جاءت بالبِدَع بينما هُدَى اللهِ تعالى يؤدّي للحق الْمُنَزّه عن الزيغ. والخطاب في هذه الآية جاء موجَّهاً للرسول صلى الله عليه وآله وسلم. وقد عصمه ربه تعالى من الزيغ. لذا فإن التحذير يكون لأُمته لبيان عاقبة إتباع الأهواء (بعد وضوح العلم الهادي للحق) بأنّها تُخرج مُتَّبِعيها مِن وَلايةِ اللهِ تعالى ونصرِهِ إلى الْخُسران إذ ليس بعد الله تعالى مِن وليٍّ أو نصير.

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (121)

خصّ الله تعالى مِن أهل الكتاب الذين صدّقوا بالبشارة بالرسول الأُميِّ صلى الله عليه وآله وسلم فآمنوا به وكذلك خص المؤمنين أن يؤتيهم العلم والمعرفة الصافية يتلون القرآن حق تلاوته أي يعملون بأحكامه. ومن كفر به فإنّهم بدلاً من ان يكسبوا بالتصديق فقد خسروا بالتكذيب. ولا يعتبر أُمِّيَّاً من يتلو القرآن حِفْظَاً ما دام مُصَدِّقاً به ويعمل بأمره ونَهْيِهِ وإن كان من غير القُرّاء.

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (122) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (123)

وكما ذكّرهم الله تعالى في الآية الاربعين من هذه السورة والآية السابعة والاربعين منها بفضله وبنعمته سبحانه وتعالى عليهم وهي الرسالات والرسل صلوات الله تعالى عليهم وسلامه وفضلهم بأن جعلهم أولَ من أُنزِل عليهم الكتاب المفصِّل لكل شيء هدى ورحمة؛ جاءهم التحذير من يوم القيامة حين لا تملك نفس لنفسٍ شيئاً مع إنقطاع كل سبب من اسباب النجاة سواء من تعويض او مساعدة كما لا يمكنهم تصحيح ما في نواياهم وافعالهم التي ابعدتهم عن الحق.

وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124)

الابتلاء يحصل في ما يأمر الله تعالى بما يريد، وفي ما ينهى عما يريده الانسان خلافاً لإوامر ربه تعالى. فالعمل بذلك هو تمام القيام بالامر والنهي. وبهذا تأهَّل سيدنا ابراهيم عليه السلام للأمانة. وهذه إشارة لإمامة أهل العدل. إذ أن الإمام ينبغي أن يُقيمَ العدلَ فلا بدّ ان يكون من أهل العدل. وهذا صحَّ بقوله تعالى ((لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)) وهم الكافر والمشرك فلا تصحُّ إمامتُهم حتى لو كانوا من نسل امام اذ ان الامام انما يُبايَع لإقامة الدين والعدل فلا يُعقَلُ أن يُبايَعَ كافرٌ لا يهتم للدين والعدل فلا يُقتدَى به.

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125)

البيت الكعبة. واما المثابة فهي ما لا يتغير موضعه فلا يصح الحج والعمرة في غيره. وأمّا الأمن فهو ان لا يعترض أحد بسوء لمن دخله حتى يغادره. واما مقام ابراهيم فموضع قرب الكعبة فيه أثر قدميه على حجر صلب ولم يتخذه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مصلّى حتى أُمِر بذلك. وكان سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه قد ابدى رأياً بذلك فنزلت الاية. واما تطهير البيت فهو إزالة كل ما يعيق الطواف والإعتكاف والصلاة فيه. واما الطائفون فهم القادمون من بعيد عند طواف القدوم والتطوع والوداع. واما العاكفون فهم المتعبدون فيه وقيل هم اهل مكة اذ ان مكة كلها حَرَم. وفي هذه الاية اشارة للتطهُّر في كل مصلى وللتطهر مما يفسد الصلاة.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126)

وعَدَ الله تعالى سيدنا ابراهيم عليه السلام بعد هذا الدعاء بالثمرات لكافة أهل مكة سواء لمن آمن بالله واليوم الآخر أو لمن كفر منهم. لكن الفرق هو للمؤمنين في الدنيا متاع زائل وفي الآخرة رزق فلا يسمى متاعاً لخلوده. ولمن كفروا منهم قلة المتاع وهي قِصَر زمنه بالنسبة لعمر الارض وليس قلة المتاع بعينه. ومصيرهم عذاب النار ولا يجد من إستوجبه مصيراً آخر.

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129)

كان رَفعُ القواعد لتأسيس الكعبة وما يحيط بها بأمرٍ من الله تعالى وتوفيقه. ولما شرع ابراهيم واسماعيل عليهما السلام بذلك سألا المولى ان يتقبل منهما. وهذا دليل على ان القيام بما امر الله تعالى هو توفيق منه والعبد يسأله القبول فهو العليم بصدق نواياه. ويخاف المسلم على زوال نعمة الاسلام فيطلب الثبات كما دَعَوا ربهما بذلك. ثم طلبا منه تعالى لمن على فطرتهما من ذريتهما أن ينعَموا بهذه النعمة وأن يرشدهم، جيلاً بعد جيل، الى ما يتعبّدون به ومناسك يرضاها سبحانه فيثبتهم عليها برحمته. والتوفيق لذلك هو من الله تعالى لأهل الخير الصالحين وهو اعلم بهم. واستجاب الله تعالى دعوتَهما ببِعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم التي كتب

الله تعالى بها ختام الرسالات ولا تزكيةً إلا بهذه الرسالة التي يَعُزُّ بها الدين وأتباعُه بحكمة الإتِّباع من غير ابتداع فيها أو الرغبة عنها أي الفتنة لمن جَهِلوا أنفسَهم أي حجبوا عنها العلم بالسّفهِ، قال تعالى عنهم:

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132)

فمن سَفِهَ نفسه هنا هو المستجيب للجهالة بأن رَغِبَ عن ملة ابراهيم عليه الصلاة والسلام وهي عبادة الله تعالى بقلب سليم جعله الله تعالى بها من أصفيائه في الدنيا ومن الصالحين في الآخرة. وعلى هذا أسلم سيدنا إبراهيم عليه السلام. ويبين الله تعالى هنا أنّ من يصد عن هذه الْمِلّة فقد جهل نفسه ولن يكون أهلاً لها فقد حط من فطرته السليمة الى هاوية الجهل والضلال. والخطاب موجَّهٌ بالرسالات لكل من تبلغه بأن يسلم بلا تردّدٍ (كما وصى إبراهيم بذلك بنيه عليهم السلام ووصى بها يعقوب عليه السلام بنيه ايضا) ويعمل بها ويثبت عليها حتى يلقى ربه مسلماً موحِّداً.

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133)

يخاطب الله تعالى هنا اليهود الذين لم يكونوا يقبَلون نبياً من غيرهم او يصدِّقون ان يموت نبي إلا يهودياً. وما كان إبراهيم يهودياً وكان يعقوب على ملة سيدنا

ابراهيم عليهما السلام وقد اتسمت بعبادة الله واحداً وهذا ما ختم به يعقوب عليه السلام حياته مطمئناً بذلك على بنيه وهم مسلمون. وهنا جاء ذِكْرُ اسماعيل مع الآباء وهو عم يعقوب، والعم من الأُصول عليهم السلام.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134)

الامة التي خَلَت هم اهل الكتاب. وقد كشف الله تعالى ما أدخلوه من إدعاء وافتراء على ملة ابراهيم عليه الصلاة والسلام. فلا يصح تقليدهم بالافتخار بالآباء وبعُلُوِّ النفس والإستئثار بفضل الله تعالى إدّعاءً. اما اعمالهم فلا اثر لها على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ومن تأثر بها فقد خرج عن الدين.

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135)

وهذا القول هو من اهوائهم الضالة؛ اذ انهم نسبوا الهدى إلى ما سبق ان نسبوا له الضلال بقول النصارى: ليست اليهود على شيء، وبِقَول اليهود: ليست النصارى على شيء. ونسوا تصديق كتبهم لِمِلّة ابراهيم عليه الصلاة والسلام الخالية من الشرك وهي الحنيفية أي سلامة القلوب في ميلها للحق والتسليم لله جل علاه.

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138)

لأن الرسالات التي جاء بها مَن ذُكِر من الانبياء والمرسلين هي من ربٍّ واحد فهي واحدة في حقيقتها لإيضاح وحدانية الله تعالى والعمل على عبادته في اوامره ونواهيه. ومن فرّق بين احد منهم فقد زاغ وحجبه زيغه عن حقيقة الرسالات. فإن أصرّوا على هذا الزيغ والتفريق فهم ليسوا في طلب الحق بل البعد عنه، أي مشاقتهم. وقد ضمن الله تعالى لرسوله النصر عليهم ولو بعد حين. وهذا ما حصل في غزواته صلى الله عليه وآله وسلم ضدهم فقتل من قتل واجلى من اجلاهم عن جزيرة العرب كما حصل لبني قريظة ويهود خيبر. ويبين اللهُ تعالى صِبْغة اهل الايمان (أي ما يتميزون به عن غيرهم) بأنهم اهل العبادة وليسوا من صبغة الاهواء او صبغة اهل الزندقة (اي اهل العقول الضالة) او من صبغة اهل البِدَع.

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140)

دليل فهم الحقيقة والعمل في ضوئها هو الاخلاص لله تعالى. فالذي يوحِّده في عمله فعمله مقبول عند ربه والذي يُدخِل غيرَ الله تعالى في عمله فقد حُجِب عن الاخلاص بإشراك غير الله معه فأفسد نقاء العبادة. وسبق البيان بأن ابراهيم واسماعيل واسحاق والاسباط كانوا على ملة الاخلاص وليسوا يهوداً او نصارى اذ ان هاتين التسميتين حصلتا بعدهم بكثير. وإنّ الحق يفرض على من عرفه أنْ لا يكتُمَه. فكيف يكتمون عِلْماً بإسلام هؤلاء الانبياء عليهم السلام، ويكتمون البشارات الواردة في التوراة والانجيل الدالة على الرسالة الخاتمة لرسالاتهم.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (141)

جاءت الاية هذه تأكيداً للآية الرابعة والثلاثين بعد المائة وفيها اشارة الى ثبات معناها مهما اختلف الزمن اذ كان نزول الاية تلك بعد الحديث عن الانبياء. وكان نزول الثانية بعد الحديث عن اسلاف اليهود والنصارى.

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (143)

كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنون يتجهون إلى المسجد الأقصى في القدس عند إقامة الصلاة وذلك انه لم يكن قد تلقى امراً بقِبلةٍ غيرها. وهي قبلةُ من سبق من أهل الكتاب، فلما نزل الامر بجعل البيت الحرام قبلةً بادر المؤمنون الى تلبية الأمر حيث بلغهم ذلك وكانوا في صلاة فانتقل الإمام الى القبلة المحددة للمسلمين واستدار المقتدون صفوفاً وراءه وأكملوا الصلاة وسُمّي المسجد بمسجد القبلتين. وهنا انبرى ضعاف العقول وقليلو الإدراك، الذين وصفهم الله تعالى بالسفاهة، وبادروا بالتساؤل عن سبب هذا التغيير حتى قال بعضهم: لقد ارتدّ محمد إلى دين آبائه. ولم يكن احد من مشركي قريش يتجه الى الكعبة بل كانت صلاتهم صفيراً وتصفيقاً عند البيت. قال تعالى عنها في الاية الخامسة والثلاثين من سورة الأنفال ((وَمَا كَانَ صَلاتُهُم عِنْدَ البَيْتِ إِلّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً..)) الآية. فأجابهم الله

تعالى بأنه له المشرق والمغرب وأن ما جاءه هو الهدى واجدر بهؤلاء السفهاء ان يتحولوا من زيغهم الى الحق المبين في رسالة سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم. وهكذا كان الامر بالقبلة الصحيحة ابتلاءً للمؤمنين ولغيرهم تمييزاً لأهل التصديق عن اهل الزيغ. فيكون المصدِّقون شهداء عليهم ويشهد لهم بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. واما ما سبق من صلاة الى بيت المقدس فلم تبطل حيث بيّن الله تعالى بأنه ما كان ليضيع ايمانهم وهو الرؤوف الرحيم.

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144)

من البشارات التي في التوراة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان يصلي الى قبلتين. ولما قدم المدينة مهاجراً صلى الى بيت المقدس فتأولوا انها ثاني قبلة له لأنه كان في مكة يصلي الى الكعبة. فلما أُوحِي اليه بالاتجاه الى البيت الحرام تغافل اهل الكتاب عن هذه البشارة والله تعالى ليس بغافل عن تغافلهم. وكانت مدة صلاة المسلمين باتجاه المسجد الاقصى ستة عشر شهراً.

وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145)

إنّ تحوُّل المسلمين شطر المسجد الحرام بعث اليأس في قلوب اهل الكتاب الذين جحدوا ما أيد الله تعالى به رسوله من آيات بينات فيئسوا من اتباع المسلمين

لهم مع انهم (مع اتجاههم الى المسجد الاقصى) كانوا على خلاف. فاليهود كانوا ولا زالوا يتجهون الى غربِيِّ القدس، والنصارى يتجهون الى شرق المسجد الأقصى. وما هذا إلا من الضلالة. وجاء تحذير الله تعالى لأُمّة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم (بخطاب موجّه اليه) بأن العلم الذي بَيَّنه الله تعالى واجب العمل به من غير انحراف نحو أهواء الضالين. وجعل من يتبعُ الهوى بعد مجيء العلم إليه من الظالمين.

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147)

لكل حقيقة دليل. والبشارات الواردة في التوراة والانجيل عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم دليل صحةِ الرسالةِ وحقيقتِها. والذين اوتوا الكتاب هم المواظبون على قراءة التوراة والانجيل ومعرفتهم بتلك البشارات. ويضرب المثل بمعرفة الشيء كمعرفة الابناء عندما لا يكون ثمة التباس في صحة المعرفة. ومن هذه المعرفة اسلم عبد الله بن سلام رضي الله عنه وجماعة آخرون من اليهود بينما تجاهل فريق منهم ذلك بغياً. وبهذا جاءت هذه الحجة موثقة من الله تعالى فلا تحتاج الى مِراءٍ او ريبة. وهو تعالى الحَكَمُ في ذلك كما سيأتي في الاية الرابعة عشرة بعد المائة من سورة الانعام ان شاء الله تعالى.

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (148)

غاية المسلم المؤمن هي التي تحدد وجهته. كما تكون هذه الغاية إعلاءً لكلمة الله تعالى في طاعته وعبادته بتوفيق منه سبحانه ويكون العمل لأجلها سبيلاً نحو

الكمال ما استطاع. واما من قصرت عقولهم عن هذه الغاية ولم يقدِروا الله تعالى حق قدْرِهِ بالانشغال بغيره فإنّ نفوسَهم تبطئ بهم عن سبيل الكمال فلا يُدرِكُونه. وهنا على المؤمن الذي فتح له مولاه تعالى أبواب العلم محفوفاً بالخشية أن يبادر إلى استباق الخيرات بتفضيلها فهي مُدّخرة ليوم الْجَمْعِ حيث يأتي المولى عز وجل بمن سعى للكمال ومن قصّر جميعاً كُلّاً من مكانه يفصل بينهم وهو القدير على ذلك.

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (149) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (150) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152)

بعد أنْ أمَرَ الله تعالى بجعل الكعبة قبلةً الى يوم الدين، وانبرى كفار قريش للتقول بأنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم سيعود لدين آبائه، وانبرى اليهود للتقول بان تحوُّل القبلة إلى الكعبة يختلف مع التوراة التي ينبغي الوفاق معها. هنا ردّ الله تعالى على اليهود بأنهم أُمّةٌ قد خلت لا يُسأل المسلمون عما كانوا يعملون. وردَّ على كفار قريش بأنه سيُتِمُّ نعمتَه على الرسول والمؤمنين الى الأبد من غير تَحوُّلٍ عن هذا الدين بل إلى كماله ونُصرته. ويذكِّر الله تعالى المؤمنين الذين لم يكن لهم في الجاهلية كتاب من الله تعالى ولا رسول يعلمهم إياه ولم تكن لهم عبادةٌ لله في بيوتهم ولم يحسبوا حساب الآخرة في اعمالهم بأنه انعم عليهم بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم فأنار به قلوبهم لعمل الآخرة وبيوتهم بتلاوة القرآن وإقامة الصلاة فما عليهم

الا ان يـذكروا المنعم في هـذه النِعَم وأن يشـكروا لـه بالطاعـة. وينبهنـا هـذا الفضـل الرباني الى التمسك بالكتاب واقتفاء أثر من تعلَّم العلمَ وعلّمه إتباعاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلا تأخذُنا في خشية الله تعالى سخريةٌ ممن أضلّهم الله وأعمى أبصارهم. انظر شرح الاية الخامسة والثلاثين من سورة الاحزاب.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (153) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (154) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157)

الضعف يحتاج الى معونة من الغير او الرضا بمشيئة الله تعالى. وهنا قد ارشدنا سبحانه وتعالى الى الاستعانة بالصبر على مشيئته ثم التقرب اليه بالصلاة لنكون اقرب الى عونه ثم اقرب حتى يكون معنا فهو مع الصابرين. ومعية الله تعالى بهذا القرب تجعل العبد راضياً فاذا استوجب إعلاء كلمة الله تعالى التضحية في سبيلها فهو الجهاد. وفي الجهاد يغلب حصول القتل او فرصة النجاة والفوز. فالقتيل كان مع الله تعالى في الحياة الفانية ويبقى معه في الآخرة وإن كان ظاهرُ الأمرِ موتاً. ويميز الله تعالى من يجدر أنْ يبقى معه بإبتلائه بشيء يقدِّره حسب وُسْعِ نفوس عباده فمنهم مَن يبتلى بقليل ومنهم باكثر وقد يطول الإبتلاء أو يقصر بالصالحات. والصابرون مُبَشّرون بأن الله تعالى يُنزِلُ عليهم من رحمته ويثبتهم على هداه؛ فالإبتلاء بالخوف يذكرنا بقدرة الله تعالى على ان يبدلنا من بعده أمْناً، وبالجوع يحصل الرجاء بزواله مع الشكر على نعمةٍ لم تكن لتُعرفَ اهميتُها لولا ابتلاء الجوع، وأمّا نقص

المال فهو تحديد لطاقة الغني والميسورِ حالُه ليذكرا أن الله تعالى لم يحجبهما بالمال الذي يبعث النفس الغافلة على البطر واشباع شهواتها، واما نقص الانفس فالعزيز من الناس يذكرنا بالأعزِّ وهو الله تعالى فاذا أبعد بعضنا بالموت او الاغتراب فهذه تذكرة للبقاء معه سبحانه بالاعتزاز والشوق، وبذلك يتبين للمؤمن مقدار تعلُّقِه بذات الله تعالى من غير حُجُب، واما نقص الثمرات ففيه عاقبة الزهد. وعاقبة الزهد هي محبة الله تعالى لعبده الزاهد. وكل هذا الابتلاء مُقَدّرٌ بجزء مُعَيَّنٍ حيث قال تعالى (بِشَيْءٍ) من كُلٍّ منه. فيأتي دور الصبر لتأهيل المؤمن لمنزلة القرب من الله تعالى الذي ابتلى سيدنا سليمان عليه السلام بالعطاء فأناب الى الله منه. وابتلى سيدنا ايوب عليه السلام بالمنع فصبر ففرّج عنه قريباً منه، وتذكرنا ازاحة الدنيا عن طريقنا للقرب من الله تعالى بقول مأثور للأمام جعفر بن محمد (الصادق رضي الله عنه تعالى ورحمه) وقد سئل عن (الفُتُوّة) فقال: "إذا أُعطينا آثَرْنا واذا مُنِعنا شكرنا". ومعناه واضح من ازاحة الدنيا عن طريقنا الى الله سبحانه. واما صلاة الله تعالى على اهل الصبر فهي من معنى عموم الصلاة؛ فالمصلِّي لله يُعلي كلمته في قلبه وجوارحه وصلاة الله تعالى على المؤمنين اعلاء شأنهم بالقرب منه. واما رحمته فأوجهها عديدة في كشف الابتلاء والهدى إلى أسبابه ومعالجتها بالصبر والرجاء مع حسن الظن بالله تعالى. وفي الحديث: ((مَن أصابه هَمٌّ أو غَمٌّ أو سَقَمٌ أو شِدَّةٌ فقال: الله ربِّي لا شريكَ له كُشِفَ ذلك عنه)) رواه الطبراني.

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (158)

الصفا والمروة جبلان قرب الكعبة. وكان على كل منهما صنم قبل فتح مكة وكان الحجاج في الجاهلية يَطَّوَّفون بهما أي يسعون بينهما. وبعد كسر الصنمين في فتح مكة كره المؤمنون السعي بين الجبلين المذكورين. إلا أن الله تعالى سمح بذلك كونه من شعائر (أي علامات) مواقع الحج من قَبْل أنْ يُنصب الصنمان. ولم يثبت لدى مالك والشافعي رضي الله عنهما كون السعي ركناً من اركان الحج لأن رفع الجُناح لا يدل على الفريضة. كما ان التطوع لا يدل على ذلك ايضاً. ويندب السعي بين الصفا والمروة لأن عاقِبَتَه شكرٌ من الله تعالى. والشكر منه تعالى ان يكافئ القليل بالكثير عالماً بأن العمل هذا يكون لوجهه الكريم.

الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (159) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (160)

البيّنات التي كتموها منها البشارة بنبوّة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم تنير القلوب التي تريد المعرفة والعمل بها. فمن يكتمْها يلعنْهم الله تعالى لعنة لا نصر معها. واستثنى الذين يبينون تائبين مصلحين الى توبة ورحمة. وقد ذكر ابن هشام في سيرته ان سيدنا معاذاً بن جبل لما رأى مكابرة يهود المدينة عن التصديق بالرسالة الربانية مع سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال لِأحبارِهم ((يا معشر يهود اتقوا الله فواللهِ إنكم لتعلمون انه رسول الله ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته)) فانبرى له اثنان من احبارهم فقالا: "ما قلنا لكم هذا قط وما انزل الله من كتاب بعد موسى ولا ارسل بشيراً ولا نذيراً "! فأنزل الله تعالى الآية التاسعة عشرة من سورة المائدة ((يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى

فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)).

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (161) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (162)

الذين يدركهم الموت وهم في إصرار على كتمان الحق كفراً بما نزل به فقد استوجبوا من الله لعنةً لا نصر معها وتلعنهم الملائكة والناس اجمعين في الدنيا والآخرة اذ أن اهل النار يلعن بعضهم بعضاً قد فقدوا اهلية الرحمة وليس لديهم املٌ في التخلص من هذه اللعنة او التخفيف من شدتها فلا تعطى لهم مهلة للإعتذار ولا تَنَظُّرٌ أي تأجيلٌ وإمهال.

وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (163)

هذه الاية التي تشير الى الخالق الواحد والإله المفرد بالعبادة والذي كتب على نفسه الرحمة بجميع اوجهها جاءت تمهيداً للتدليل على وحدانيته اذ حصل في امر واحد من اوامره كل اسباب الحياة على الارض فأردفها بقوله تعالى:

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164)

إن إنحراف محور الارض عن خط فلكها حول الشمس بثلاث وعشرين درجة ونصف الدرجة مع دوران الارض حول الشمس جعل اشعة الشمس تتعامد في

العشر الاواخر من شهر آذار (مارس) والعشر الاواخر من ايلول (سبتمبر) على خط الاستواء فيتساوى الليل والنهار في الربيع والخريف. ويطول النهار صيفاً ويقصر شتاءً مع حركة الارض إذ ينتقل تعامد أشعة الشمس بعد هذين الشهرين إما شمالاً حتى مدار السرطان فيحصل الصيف في نصف الكرة الارضية الشمالي والشتاء في نصفها الجنوبي، وإما جنوباً حتى مدار الجدي فالصيف فيه والشتاء في الشمال. ومع تعامد اشعة الشمس تتحرك الرياح بفعل سخونة الأرض حيث يرتفع الهواء الساخن ويسد فراغه بارد بسرعة فوق المسطحات المائية فتكون رياح وسحاب ومطر. وسبحان الذي قدَّر هذه الظواهر بأمر واحد هو انحراف محور الارض عن خط دورانها حول الشمس بتلك الدرجات الثلاث والعشرين ونصف الدرجة. اذ لو كان المحور موازياً له لَما حصلت الفصول والحياة. وتبقى هذه الآيات برهاناً للعقول الواعية. وينصرف عنها من يشرك بربه فيقول المولى تعالى عنهم:

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (165) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (166) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (167)

منح الله تعالى الانسان قلباً وعقلاً وجوارح لعبادته. فاذا سعى فيها لِمَا أراد الله تعالى فقد وافق الفطرة ونال التوفيق. واذا تكلف العمل لغير وجه الله تعالى جاعلاً للعباد قدرةً في ما يحصل له، فإنّه إتّجه بإيمانه وحبه لغير الله سبحانه الذي لا يقبل إشراك أحدٍ غيره في الإتباع فَيَكِله الى شريكه، بينما يشتد حبّ الله تعالى في قلوب

المؤمنين. وسيعلم المشركون إذا حل بهم العذاب على شركهم أن لا قوة للشركاء وتنقطع الصلة بهم وتحصل الندامة ويتبرأ الطغاة منهم عندئذ يتمنون لو تُعطى لهم الفرصة لنبذهم ولكن هيهات. فتكون أعمالهم (إضافةً للخلود في النار) حسراتٍ عليهم.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (168) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (169) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (170) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (171)

تقوّل أهل الأوهام في الجاهلية بتحريم ما أحلّ الله كما جاء في الاية الثالثة بعد المائة من سورة المائدة. فنهى الله تعالى عن هكذا تحريم وبيّن حقيقته بأنه خروج عن الحق إلى مماشاةٍ لأساليب الشيطان عدوِّ الناس يريد لهم رذائل البذاءة والفحش ثم الكذب على الله تعالى بتحريم ما أحل من الطيبات. حتى إذا بادر اهل الصلاح بإرشاد هؤلاء الخارجين عن طريق الايمان تعلّلوا بأنهم على ما كان عليه آباؤهم! فشبّههم المولى عز وجل بالبهائم التي تسمع الصوت من حديث الانسان فلا تفهم معناه ولا تعرف قيمته. كما ان اصواتها لا معنى لها عند البشر فكان الجواب الذي اجابوا به دليلاً على نعيق بلا معنى لكلام لم يفهموه. فآذانهم مقفلة بالأهواء يتجاهلون سماع الحق كالأصمّ. وألْسِنَتُهم تتحدث بما لا حُجّةَ فيه كالأبكم وأعين بصيرتهم لا تبصر الحق كالأعمى لا يرى شيئاً.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (172) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (173)

الخطاب في الآيات السابقة كان للناس. وفي هاتين الآيتين للمؤمنين للالتزام بما أحلّ الله تعالى وهو الطيّب ثم الشكر له على النعم بأن تكون سبباً لطاعته. فلا يليق بمن طَهُرَ بالإيمان والطاعة أن يُدخِل في جسده من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلّ به لغير الله تعالى (أي ما كان يفعله أهل الشرك في الجاهلية برفع الاصوات بالتوجه الى أصنامهم بالذبح لها). وامّا الاضطرار في اكل الحرام فإنه لا يُغَيِّر صفة الحرمة بل يُرَخَّصُ به مع اشتراط حكم القلب على الضرورة. فلا يتعدى حدّ سدِّ الرمق حينما لا يتوفر طعام اخر غيره. واذا توقع المضطر الوصولَ الى محل فيه الحلال فيتوقف عن أكل الحرام حتى يبلغه. فالباغي هو الذي لا يصبر من أجل البلوغ الى محل فيه الحلال، والعادي هو الذي يتجاوز حد سد الرمق. وفي الوقت الحاضر توجد اطعمة بديلة وأماكن كثيرة يتوفر فيها الطعام.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (174) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (176)

اعظم الامور لعلاقة البشر مع ربهم هو الكتب السماوية. ولا يحصل كتمانٌ لِما جاء فيها إلا لكسبٍ دنيوي رخيص بالنسبة لعظمة الامر. والذي كتمه اهل الكتاب هو البشارة بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. كتموه تَمَسُّكاً

بمناصبهم. وقد توعدهم المولى عز وجل بالنار مثلما كتموا الامر العظيم بالمال الزائل. ولا حظَّ لهم في كلمةٍ من الله تعالى ولا يجدون ما يزكيهم او ما ينقذهم من العذاب الأليم. فكانت حصيلة هذه المكائد ان ضلّوا وأضلّوا فخسروا الهدى وعذبهم الله تعالى فخسروا مغفرته وكانوا يعلمون هذا المصير فكيف سيصبرون عليه وليس لديهم شيء من اسباب الصبر، ولو كان لهم ميلٌ للحق لتبصروا بحق القرآن الذي يهدي إلى الوحدانية وسبل العبادة ولكنهم وقفوا منه موقف الشقاق في حالٍ من الباطل البعيد عن الحق.

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177)

بعدما أخذ الْمُبطِلون يتقوّلون على التحول عن المسجد الاقصى الى المسجد الحرام كقبلة أظهر تعالى مدى قصورهم عن الفهم، وكأن الدين هو اتجاه القبلة فقط. فأوضح تعالى البِرّ، ويحمل هنا معنى الوفاء في أداء حق العبادة، بأنه الايمان بالله تعالى (وضمن ذلك ما يُنْزِل من الآيات ومنها ما خص تحويل القبلة) ثم إنفاق المؤمن على ذوي قرباه؛ إمّا صدقة وصِلَة رحم لفقيرهم، او هدية وصِلَة رحم للموسِر منهم. وعلى اليتامى لفقيرهم فهي له صدقة وللموسر فهي سرور يدخل على قلبه يعوضه عن فقد ابيه (واليتيم هو يتيم الأب ولم يبلغ بعد سن الرشد). واما المسكين فهو الذي لا يملك قوت يومه ولا يؤمَل له تحسُّنُ حالِه عن قرب. واما ابن السبيل

فالمنقطع عن اهله وبلده في دار غربة وفَقَدَ المال فلم يبق عنده ما يكفيه للعودة الى بلده. واما السائل فالمتسولون قسمان؛ قسم مستطعِم يسألون الطعام من البيوت في أوقاتِ ما بعد تناولِهِ لعلهم لفقرهم لا يملكون ثمن الطعام، وقسم يستجدي المال من الاسواق ويُلحِفون بالسؤال وقد قال عنهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((من سأل وله قيمة اوقية فقد ألْحَفَ)) رواه الامام احمد في مسنده والنسائي عن ابي سعيد رضي الله عنه وقال حديث صحيح. وروى الامام احمد في مسنده عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حديثين آخرين ((لا يزال الرجل يسأل وهو غني حتى يَخْلُقَ وجهُه)) أي يبلى بذهاب ماء وجهه و((مَن سأل الناسَ أموالَهم تكثُّراً فإنما سأل من جَمر جهنم فَلْيَسْتَقِلّ منه او ليستكثر)). واما في الرقاب فهذا موضعه كتب الفقه عن العتاق، وفيه فك رقبة أي تحرير عبدٍ أو أمَةٍ، أو تنازلٌ لعبدٍ او أمَةٍ عن جزء من ثمن عتقهما، او مساعدةُ عبدٍ او أمَةٍ على مُكاتَبةِ السيد لتحرير رقبتهما من الرق، أو فدية أسير. والإنفاق الذي ذكره الله تعالى هنا لا يدخل في الزكاة إشارة الى واجبات في المال غير الزكاة حيث ذكر جل شأنه في الآية الستين من سورة التوبة ثمانية أصناف تصرف لهم الزكاة. وعلى ذكر المال فالمفروض للمؤمن ان يتحرى الكسب الحلال مع نية صادقة ان يكون المال عوناً له على القرب من الله تعالى فيكون عمله للكسب عبادةً، ونفقتُه منه لهذه الأوْجُهِ عبادةً وذخراً وإيتاءً لحق الله تعالى المفروض فرضاً على المسلمين أي الزكاة. واما الوفاء بالعهد فإما ان يكون عهداً مع الله تعالى بالتوبة، أو عهداً مع الناس. وأمّا الصبر فقد وردت كلمة (الصَّابِرِينَ) بالنصب على الإختصاص لِأهمية الصبر للمؤمن عند الإبتلاء أي الإمتحان من الله تعالى لمعرفة مدى استعداده لزيادة عِلْمِه. والله تعالى عليم بما

سيكون عليه العبد في البلاء ولكنه عِلْمُ ظهور لإقامة الحجة له؛ فالصبر في البأساء فُسِّر على أنه الصبر في الفقر، والصبر في الضّراء على أنه الصبر في المرض، والصبر حين البأس أي في مجاهدة اعداء الله تعالى لأعلاء كلمته. وهكذا شملت الآية حياة المؤمن في مختلف ظروف معيشته. ويكسب بهذا البِرّ صدقَ المحبة للعمل لوجه الله تعالى وصفة الكرامة عند الله تعالى بالتقوى.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (178) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (179)

هذه الاية الكريمة ابطلت طغيان الجاهلية فقد كان كبراؤهم فيها يتعاملون حسب منْزِلة اطراف الخصومات بالمال والعدد. فيوقِعُ القويُّ القِصاص مضاعفاً اذا كان الحق معه وينكر على الضعيف القِصاصَ اذا كان الحق للضعيف عليه. ومن قبيل ذلك كان يقتل أبرياء بجريرة الجناة. وبدلاً من القصاص جعل الله تعالى مخرجاً بدفع الدِيَة. وفي احكام القصاص اجتهاد على ضوء هذه الاية ومنه على ضوء قوله تعالى ((النَّفْسُ بِالنَّفْسِ)) وقول الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: ((المسلمون تتكافأ دماؤهم)) وهذا في كتب الأحكام. ويوجد شرحٌ مبسط من الآيات المشار اليها أدناه من سورتي النساء والاسراء. وعند عفوِ شيءٍ من الدية ندب سبحانه المطالبة الجميلة من ذوي القتيل، والإحسان في الأداء من القاتل وكلمة (شَيْء) تفسر على انها جزء من الدية او قسم من الورثة المستحقين لها. واما الإعتداء بعد ذلك فيعني قتل اكثر من القاتل او القتل بعد اخذ الدية. وفي ذلك

عذاب اليم. وبذلك قُضِي بهذه الاية على الطغيان مع التنبيه الى أُخوّة المسلمين مهما حصل بينهم. وجاءت الاية الاخرى بحكمة القصاص العدل فهو ردعٌ للجريمة وديمومة لحياة الناس. وهذا ما يرضي أُولي الألباب فهم أصحاب الإدراك الصافي بقلوب سليمة. فاللّب محفوظ من الآفات وكذلك القلوب السليمة تحميها التقوى من الزيغ فلا تتحول إلا الى الحق، وهو الوقاية الحقة. وسيرد شرح احكام القتل إن شاء الله تعالى في الآيات الثانية والتسعين والثالثة والتسعين من سورة النساء والثالثة والثلاثين من سورة الاسراء.

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (180) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (181) فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (182)

لو رجعنا للآية السادسة بعد المائة حول نسخ الآيات لوجدنا هنا حالة من حالات النسخ بسبب الظروف الزائلة فقد كانت الوصية للوارث قائمة في بدء الاسلام فنسخت بآية المواريث أي بطل حكمها وبقي لفظها فقد نزلت في حق من ليس بوارث كالابن الذي يسلم هو بينما يبقى أبواه على الشرك ولا وراثة بين مشرك ومسلم. ونظراً لما للقرابة من حق فقد شرعت الوصية للوالدين والاقربين مع ذكر (المعروف) وهو أن يُراعَى الفقير كالغني إن لم يكن بشكل افضل. مع اشتراط عدم تجاوز ثلث التركة في الوصية. كما تكون الوصية من التركة الكبيرة وليس من المال القليل لقوله تعالى ((إِنْ تَرَكَ خَيْرَاً)) والخير يدل على الكثير. ويحصل الاثم على الشهود او الوصي ان بدلوا الوصية ولا إثم على سواهما ولا إثم على الذين يحصل

لديهم ظن بأن الموصي قد أخطأ او تعمد الإضرار بالورثة فتدخّلوا لإحقاق الحق الموافق للشريعة ولرفع الظلامة والاجحاف قبل ان تدركه الوفاة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (184) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآَنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185)

كان الفرض من الصيام قبل البعثة المحمدية ثلاثة أيام وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر قمري. وأول من كُتب عليه صيامها سيدنا نوح ثم الانبياء من بعده عليهم السلام فرضاً عليهم وعلى من يتبعهم من المؤمنين. وسار النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك سبعة عشر شهراً بعد الهجرة للمدينة. ونزلت الاية فيها ((فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ)) أي تفضيل الصيام من غير إلزام فكان من شاء صام ومن شاء أفطر واعطى الفدية. حتى نزلت الاية التي بعدها ففرض الله تعالى فيها صيام شهر رمضان وبيَّن أحكام الصيام الأُخرى للمريض والمسافر مع القضاء بعد الشهر وللعاجز لإعطاء الفدية على أيسر ما يمكنه. ويصح دعوة ثلاثين مسكيناً نهاية الشهر الى إطعامهم في يوم واحد كما فعل سيدنا انس بن مالك رضي الله عنه. وبيَّن تعالى ما لِرمضانَ من فضيلةِ نزولِ القرآنِ فيه وبيَّن فضيلةَ القرآنِ بالهدى. واما التكبير لله جل جلاله أي التفكر في

عظمته وعظيم فضله فإنه مع كبريائه أرسل الهادي البشير صلى الله عليه وآله وسلم لبيان سبل العبادة في الدنيا والسعادة في اليوم الآخر وأعدّ الزيادة للشاكرين.

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186)

طلب الله تعالى من عباده الصدق الظاهر بالإستجابة، والصدق الباطن بالايمان القلبي بعدما بيَّن قربه. وهذا يفتح لهم باب الطمأنينة بعد سؤالهم عنه في إستجابته لهم سبحانه من وَلِيٍّ حميد.

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (187)

كان الصحابة في حيرة ازاء تنفيذ الاوامر والنواهي قبل أن يُنْزَلَ فيها بيان واضح. فقد كان احدهم اذا نام بعد الافطار واستيقظ ليلاً امسك عن الطعام والشراب فَحَدَّدَ الله تعالى وقت الأكل والشرب الى الفجر. كما اوضح تعلق الزوجين ببعضهما اذ جعل الرجل ستراً لزوجته التي جعلها له ستراً من المحرمات. وشبّه تعالى الستر باللباس لستره البدن. وأما توبة الله تعالى على المؤمنين فهي إراحتهم من الحيرة ومن الشعور بالخشية مما فعلوا مما لم يكن قد نزل به قرآن. فمن تجاوز ذلك قبل نُزولِه فقد عفا عنه. وقد أمر بإبتغاء ما كُتب للزوج من زوجته أي

الولد. وفي هذا إشارة لتحريم غير ما يأتي منه الولد. ولَمّا كان الإعتكاف حصراً في المساجد بلا تعيين مسجد معيّن فلا تصح مباشرتهن فيها إذ أن المسجد لا يكون لغير العبادة. وجعل الفاصل بين الطاعة والمعصية حُدودَه بما حرَّم من حرامٍ وأحلَّ مِن حلال. والتقرُّبُ من الحَدِّ هو الوقوع في الشبهات او التمهيد للمحرمات او الوقوع فيها. فالتقوى هنا هي الوِقايةُ من الشبهات والمحرمات بتَرْكِها.

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (188)

هنا من يأخذ المال واحدٌ من إثنين؛ الأول مُبطِل يريد أكل مال غيره بغير حق وهو يعلم بذلك مما يدفعه لتقديم الرشوة لمن سيحكم له به، والثاني مخوّل بالحكم. والمال قسمة من الله تعالى لكل عبد عن حكمةٍ وسبب؛ فهو للمؤمن إمتحان، وللعالِم ابتلاء لتقويم ميله للعلم والرحمة، وهو للحكام ابتلاء لِأمانتهم، وهو للمتخاصمين إما حق وإما باطل. وللعباد اجمعين سبب للعيش. فإما عيش يحكمه العقل وتُوَجِّهُهُ العفة، واما عيش من لهو ولعب لا يُقصد به وجه الله تعالى.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (189)

يكفي للمؤمن ان يعلم ان القمر (بتدرُّجِ شكلِه المنير من هلال الى بدر) سببٌ للعبادة بالنسبة لشهوره. كما ان الشمس سبب لمعرفة مواقيت الصلاة. وما زاد عن هذا العلم؛ من دوران القمر على وجه واحد يواجه الارض، وتأخر بزوغه بأثنين وخمسين دقيقة يومياً يجعله يواجه ضياء الشمس بهذه الاشكال من بدر الى هلال

الى بدر، فلا اهمية له بالنسبة للعبادة فهذا شأن علماء الهيئة الطبيعية والفلك. وكان الْمُحرِمِ للحج في الجاهلية يثقب ظهر بيته ليدخل منه! وأما البدوي الذي يسكن الخباء فكان اذا احرم للحج خرج من ظهر الخباء. وهذه الاية ابطلت هذا الوهم بالأمر بدخول البيوت من أبوابها وحوّلت الإنتباه الى التقوى التي محلها القلب وعاقبتها الفَلاح.

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (191) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (192) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (193)

العدوان على ارض الاسلام على شكلين؛ فإما هجوم على المسلمين، وإما ان يكون مكراً وكَيْدَاً من أهل الكفر يسبب إنحسار الاسلام. ففي الهجوم يُعلَنُ جهادُ العدوِّ من غير إنذار فهم قد بدأوا. وأما ما يعتبر سبباً لإنحسار الاسلام عدواناً عليه فيجب إنذارُ أهلِه بالحرب بأن ينتهوا عن القتال، فإن لم ينتهوا قوتلوا من غير المساس بالشيوخ والأطفال والنساء بأي سوء. فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين (من أمثال مجرمي الحروب). وقد أخرج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذين لم يُسلموا من العُتقاء في الفتح ويعتبر إخراجهم فتنةً لهم لبقائهم على ما هو اشد من القتل وهو الشرك. ونهى سبحانه عن الاعتداء بعد النصر على مصالح المغلوبين وعن التفريط في شيء من حقوقهم إذ أنّ القتال هو لإعلاء كلمة الله تعالى وليس للبطش بعد النصر. وإن بَدَرَ من احد منهم ظلم فعقوبته على قَدَر ما ظلم.

ويصح القتال عند المسجد الحرام اذا ما بدأ الاعداء ذلك فيه لكي يوضع حد للفتنة عن الدين. وحسر الفتنة هو أن يُعبَد اللهُ وحده. وذلك هو الدين القيّم.

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (194)

مبدأ العدوان بالْمِثلِ هنا يكون في إنتهاك حرمة الشهر الحرام بمبادرة القتال فيه من قِبَل اهل الكفر. فَيُبادَر بالإعتداء عليهم بالمثل أي في الشهر الحرام من غير اعتداءٍ على ما لا يحل. وهذا اقتصاص للحرمات. وهذا في كل زمان. ويحصل تأييدُ الله تعالى بِمَعِيَّته لمن إلتزم برضوانه.

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (195)

نعماء الله تعالى تستوجب صحبتها برضوانه، ولا سيما في إنفاقها لإعلاء كلمته في الجهاد في سبيله. والمال يخرج في الظاهر من اليد وفي الحقيقة من النوايا، فإن حصل بخل من زيغ في القلوب فان أُمّة المسلمين لن تتقوى على مواجهة اهل الكفر. وفي هذا تهلكة جاءت من ايدي الهالكين. بينما في توفير العُدّةِ والعَدَدِ أي بالمال والنفس تتوفر فرصة النصر بعون الله ونيل احدى الْحُسْنَيَين. وما لم يُنفَق المالُ لوجه الله تعالى فهو بعيد عن الإحسان الى اللهو واللعب وبطر العيش او كنز المال بلا زكاة. كما ان التقتير على العيال من الكبائر وأن التبذير مؤاخاة للشياطين. سيئتان بينهما حسنة. والحسنة بين السيئتين إحسان من المؤمن فيه محبة من الله تعالى إذ قال: ((وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المحسِنِينَ)).

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (196)

وتمام الحج يعني أداء أركانه. وإتمام العمرة يعني اذا شرع فيها المعتمر فعليه أن يتمها. والتمام يبدأ بنية الأداء والإحرام من السكن أو من الميقات. ويمكن جمع الحج والعمرة في سفر واحد ويمكن بسفر للحج وسفر للعمرة. وان يكون الانفاق عليهما من طَيِّبِ الكسبِ. وهناك اسباب توجب الاحصار أي حصول حائل دون اتمام أيٍ منهما (كما حصل في صلح الحديبية). فاذا اعاق الحاجَّ امرٌ من ذلك فَيَحِلُّ من مكانه وينوي قضاء الحج والعمرة في اول فرصة يستطيع اليهما سبيلا. وبعد التحلل يسوق الهَدْيَ أي الذبائح المهداة للبيت الحرام ولا يحلق حتى يبلغ الهَدْيُ الحرمَ فيذبح هناك وقد جوّز الشافعي رضي الله عنه ذبح الهدي في غير الحرم. ولا يحلق قبل وصول الهدي الا لعذر من اذى او مرض في الرأس يستوجب الحلق فاذا فعل فعليه فِدْية من صيام او صدقة او نسك؛ فالصيام ورد عنه في السُّنة الشريفة ثلاثة ايام والصدقة بإطعام ستةِ مساكين ما لا يقل ثمنه عن ثمن كيلو وربع الكيلو من القمح لكل واحد منهم. واما النُسُك (جمع نَسِيْكَة) فهو الذبيحة. واختيار صاحب الفدية ان يؤدي افضل ما يمكنه فالنفقة في الحج والعمرة تكون لله تعالى. فاذا أَمِنَ الحاج أي لم يخشَ أي مانع فله ان يتمتع بالعمرة تقرباً الى الله تعالى قبل الحج. وله هنا ان يستبيح ما على الحاج ان يتقيد به في الإحرام حتى يحرم

للحج وهذا يوجب عليه ذبح الْهَدْيِ من شاة او بقرة او بعير في يوم النحر. وله ان يأكل مما ذبح ويتصدق بالباقي فمن لم يجد ثمن الْهَدْيِ فعليه صيام ثلاثة ايام في الحج ووقتها على الارجح قبل الإحرام للحج بعد التحلل من احرام العمرة. ثم إتْباع الايام الثلاثة هذه بسبعة ايام اذا عاد لأهله من المقيمين خارج حدود الحج وهي المواقيت التي يحرم منها الحجاج. واما المقيمون داخل هذه الحدود فليس عليهم من تمتع وقِران فلا هَدْي عليهم وبالتالي لا صيام على من لم يجد الْهَدْيَ منهم. ومراعاة التمسك بما ورد في هذه الاية هي من سبل التقوى والحذر من العقاب والحمد لله على فضله.

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (197)

لم تتغير اشهر الحج بعد البعثة النبوية فهي معلومة: شوّال وذو القعدة وعشرة ايام من ذي الحجة. ويترك من اعتزم الحج كل ما يفسد هذه العبادة المطهّرة. وفسادها يأتي من فساد قلوب فاعلي هذه المفسدات. والمفسدات لا تُحصَى بل مشمولة بعناوينها؛ فالرفث هو التفحش في الكلام مع النساء او الفعل بين الرجال والنساء حلالاً كان ام حراماً، واما الفسوق فهو المعاصي كبيرها وصغيرها بما فيها السِباب (فقد روى البخاري ومسلم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأن سباب المؤمن فسوق)، وبما فيها التنابز بالألقاب. واما الجدال في الحج فهو بضاعة كلامية مكروهة في كل وقت فكيف في أشْهُر الحج؟ وقد روى الطبراني في الكبير عن ابي الدرداء رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((ذروا المِراء

فانه لا تؤمَنُ فتنتُه)). وهنا اذا سلمت الجوارح وسلم اللسان من الآفات بالعمل والقول حصلت الاستقامة على صراط مستقيم. وهنا يقول تعالى: ((وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ)) أي من افعال واقوال خير من الرفث والفسوق والجدال فان الله تعالى يعلمه ويعلم كيف يرفع منزلة اهله، وهو الدال على الخيرات. أما التزود فلا بد ان يوفر الحاج لنفسه ما لا يؤدي به الى الحاجة او استطعام الآخَرين لما في ذلك من ثقل عليهم. والزاد الافضل هو ما يبقى في الآخرة ولا يفنى في الدنيا وهو التقوى. وهذا ما يريده الله تعالى لأولي الالباب أي الواصلين الى لبّ الحقائق بعد نزع قشور الفهم الخاطيء من الزيغ والضلال.

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (198) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (199) فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (200) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (201) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (202) وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (203)

الفضل من الله يوجب الحمد والشكر. وابتغاء الفضل أي الكسب الحلال لا جناح فيه ولا غفلة فيه. واذا انهى الحاج الركن الأهمّ من الحج وهو الوقوف في عرفة فلا ينبغي ان تدرك الغفلة قلباً قضى صاحبه المناسك (التي لم ينقطع فيها عن التكبير والتهليل والتلبية والدعاء) ثم يفيض أي يندفع مع دفعات الناس حتى يصل

المشعر الحرام (جبل في المزدلفة) فتُصلَّى فريضتا المغرب والعشاء جمعاً في مسجد المزدلفة. وجاءت تسمية (المزدلفة) اشارة للقرب من الله تعالى. وينبغي للحاج ان يتفكر في مكانه من مولاه الذي هداه بعد ضلال فلينظر هل هو الآن في حالٍ من القُرْب أفضلَ مما جاء به من حال بين اهله وولده؟ ولا شك ان القرب افضلُ مما سبق، ويطلب المغفرة عما كان من قبل ذلك. ويستمر التذكير بالله تعالى أشد من الحديث عن الآباء مع طلب حَسَنَتَيِ الدنيا والآخرة. وقد رخَّص المولى تعالى في أيّام التشريق، أي في اليومين الأوّلَين من الأيام الثلاثة، بِرَمْيِ الجِمار فيهما او في اليوم الثالث لمن اتقى أي لمن إلتزم بما أَمَرَ الله تعالى في قوله: ((فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الحَجِّ)). فأمّا التعجيل ففيه مبادرة. وأمّا التأخيرُ ففيه اكتسابُ وقتٍ أكثرَ في اعمال الحج. ولا حرج في أيّهما يفعل الحاج. وجاء رفعُ الحرج والاثم لإبطال أوهام الجاهلية، حيث كان البعض يُعجِّل فيَنْسِبُ أهلُ التأخيرِ لهم الإثم. وبنفس الوقت ينسب اهل التعجيل ذلك للمتأخرين. وكما يعود الحاج الى وطنه واهله فليذكر أنه سيُحشَرُ الى الله تعالى.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (205) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (206)

ذكرتْ التفاسير أنّ البعض قَدِموا الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان كلامهم عذباً ليّناً أظهروا خلاله محبةً وايماناً وسُمِع أحدُهم يقول: ((يعلم الله أني صادق))! ولكنْ بدَرَ منه الحقد على إحدى القبائل ومحاولة إهلاك مواشيهم وحرق

زرعهم. والاية عامة في كل من يسعى للفساد في الارض ويُظهِر القول الحسن ويجعل الله شاهداً على صدقه فهؤلاء مشمولون بالاية الثالثة والثلاثين من سورة المائدة، يحاربون الله ورسوله ((وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً)) فمن لم يتب فقد مَهّدَ لنفسه بأنْ تكفيه جهنم معتزاً بإثمه لا يُبالي لنصحٍ ولا يرعوي عن فساد ولبئس الْمِهاد.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (207)

نزلت في حق من ترك المال والولد وهاجر من مكة الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة كسباً لرضوان الله تعالى. وهذه عامة لمن يتيسر له سبيل التقرب الى الله تعالى فيفضله على غيره ويربح البيع. والله تعالى رؤوف لا يكلف نفساً إلا وُسْعَها.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (208) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (209) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (210)

هذه دعوة لمن عرفوا الايمان بالله تعالى قبل رسالة الاسلام ولمن قالوا نحن مؤمنون ولَمّا يدخل الايمان بالبعثة المحمدية في قلوبهم بعدما بلغتهم الرسالة، بأن يطيعوا الله تعالى بالدخول في الاسلام لأن عدم الدخول فيه قصور عن معرفة الحق وهذا القصور هو من طغيان النفس وإتّباعِها لخطوات الشيطان نحو حب الدنيا وملذاتها الفانية بلا ورع أو تقوى. واما الزلل بعد معرفة دعوة الله تعالى الى الاسلام

فهو سبب للمحاسبة فالله تعالى عزيز في ملكه، له دعوة الحق ويحاسب عليها. وحكيمٌ في تذكير المؤمنين بالثبات والطاعة. فإنّ جَهْل الانسان بالغيب يدعوه للثبات على الهدى والا فإنه قد يفاجأ بأمر عظيم يأتيه بغتة من حضور ربه والملائكة في خاتمةٍ لا رجعة بعدها.

سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (211)

السؤال هنا سؤال تقريع لمن اخفى البشارات والآيات الواضحة فاستحبوا الدنيا ان تكون لهم ونسوا حظوظ الاخرة وعذاب الخسارة فيها. وقد ورد بيان مماثل في شرح معنى الآية التاسعة والخمسين بعد المائة من هذه السورة مما اغنى عن التكرار.

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (212)

سَخِرَ طغاة أغنياء قريش، قبل الهجرة وهم على الكفر، من فقراء المؤمنين (من مثل سيدنا بلال رضي الله عنه) بسبب زُهْدِهِم في الدنيا! وكيف لا يزهدون وقد نَوّر الله تعالى قلوبهم بحقيقة فناء الدنيا وبقاء الآخرة فزهدوا بالفاني من الدنيا وعملوا للباقي في الآخرة. اما القلوب المظلمة بغطاء الكفر فقد خرجت عن هذه الفطرة ورأت الزهد حرماناً من التلذّذ بملذات الدنيا بما تهوى الأنفُسُ الضالّة. وهذا دعاهم للإستغراب والهزء من أهل الزهد. وهذه سخرية تزول يوم يرون اهل الزهد فوقهم في منازل القرب من الله تعالى. وفقرُ الزاهدين غِنَىً. ولو كان المال كرامةً لكان المؤمنون

اَوْلى به. وإذا ما رُزِق المؤمن نعمة جعلها للآخرة. والمال للكافر فتنة تزيد من زيغه وآثامه. والله تعالى اعلم متى يرزق المؤمن ومتى يرزق الكافر فهو يرزق من يشاء بغير محاسبة.

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (213)

قبل بعثة كل نبي (عليهم الصلاة والسلام) يكون الجهل عن الله تعالى سائداً بين الناس لا يعلمون ما هي البشارات ولا النُذُر فهم أمة واحدة في هذا المضمار. وما كان سبحانه ليتركهم للأوهام والأباطيل مما يكون من وساوس الشياطين وأهواء أهل الضلالة فبعث من يحمل لهم الحق ويبين لهم حُكمَه اذا حصل بينهم خلاف. وحصل الخلاف بعدما جاءهم العلم إذ غلب البغي وهو هوى النفس والتسلط لدى بعضهم فدفعهم الى الظلم فلم يستحقوا الهدى ببغيهم فاختلفوا عمن هداهم الله تعالى إلى الحق بإذنه وتمسّكوا بإيمانهم. فالله تعالى لا يضِيعُ إيمانَ من تمسك بإيمانه. وبهذه الحالة اكرم الله تعالى المؤمنين بمنْزِلةٍ أرفعَ من سفاسف الاوهام والتسلط والبغي والخلاف على امور الدنيا بلا رجوع الى الحق. ومن عرف الحق عرف اهله بهدىً من الله إلى صراط مستقيم.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (214)

يبتلي المولى سبحانه وتعالى من يشاء ويرفع عنهم البلاء لحكمةٍ وسبب. فالنفس الانسانية تقف مواقف مختلفة لكل ظرف يمر عليها وتعتمل فيها المشاعر أمام الشدة أو أمام الرخاء. فالبأساء لها اشكال من الفقر والجوع. والضراء لها اشكال من الامراض والاسقام. فضلاً عن عدوان الاعداء والإعداد لهم أو الضعف في مواجهتهم. وهنا يحصل انتظار الفرج وقد قرب العبد من ربه بالرجاء. فاذا طال الانتظار حتى حالة الضجر بدرت الحْيرةُ على الالسن تتساءل متى هذا الفرج الذي ظنوا انه بعيد فاذا به يُفاجِئُهم بأمر من الله تعالى ونصرٍ منه فيكون صبرهم الذي بقوا عليه الى تلك اللحظة معياراً لإستعدادهم للتحمل والثقة بالله تعالى. وكما يبذل المرء مالاً في سبيل الله تقرباً اليه فالمؤمن يبذل الصبر والثقة والرجاء. والْمُنفِق يشكر الله تعالى على نعمة المال. والصابرُ يشكر الله تعالى على نعمة الصبر، والصبر نصف الدين، محفوفاً بالثقة والرجاء.

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (215)

جاء ذكر الخير هنا لبيان كونِه أعَمَّ من المال، وللخير جهات يُنفَق فيها؛ وهي إما لوجه الله عز وجل، وإما لأُمور مُباحة، او لأُمور مكروهة، او لأُمور مُحرّمة. وهنا يُبيِّنُ سبحانه ما يريده لوجهه الكريم لكي يعلم الذين يريدون وجه الله تعالى أولَويّاتِ تصرفهم في نعمائه. فبدأها بالوالدين ثم الاقربين ثم اليتامى ثم ابن السبيل ثم فعل الخيرات. وفيها هو سبحانه أعلم بنواياهم.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216)

لا يخفى على الله تعالى ما سيكون مآلُ القتالِ في سبيل الله وان كانت النفوس تكره ذلك لإحتمال القتل فيه. واشار الله تعالى الى ما في الجهاد من خير أي إحدى الْحُسْنَيَيْنِ؛ الشهادة او النصر. واشار الى ما في القعود عنه من شر وهو تسلط اعداء الدين على اهله ليخرجوهم الى الظلمات وفي ذلك شرٌّ مُهْلِكٌ. ولهذا على المؤمن ان يبادر الى الخير ولا يترك فرصة لأعداء الله لينشروا الشر.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (217)

كان المشركون يترقبون من المؤمنين الزلل ومخالفة العرف في الصغيرة والكبيرة. وسنحت لهم الفرصة عندما بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سَرِيَّةً لقتال المشركين في جُمادَى الثانية فقاتلوا وقد أهلّ هلال رجب وهم لا يعلمون فقالت قريش "قد استحل محمد الشهر الحرام يأمن فيه الخائف" وجاءهم الجواب تأييداً لحرمة الشهر المذكور الا ان ما فعله المشركون بمنع المؤمنين في عام الحديبية عن المسجد الحرام وما هم عليه من كفر واخراج اهل مكة منها اكبر عند الله تعالى مما يحاسِبون المؤمنين عليه. وهناك ما هو اكبر من القتل وهو الفتنة التي يريدها المشركون للمؤمنين بالرجوع عن دينهم. وجاء الحكم في الرِدّة عن الاسلام فإن المرتد يستتاب

مرتين ويقتل في الثالثة. ومن كتم الردة فقد افتى فيه الأحناف بأن عمله قبل الردة حابط بمجرد الردة. وعند الشوافع ان عمله يحبط حتى يموت على الردة. ونسخ حكم تحريم القتال في الشهر الحرام وذلك بقوله تعالى ((فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ)) وهي الاية الخامسة من سورة التوبة.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (218)

الإيمان والعمل الذي يستوجبه إعلاء كلمة الله هما رحلةُ الخروج من الظلمات الى النور. واما ما يرجون من رحمةٍ فرجاؤهم في محلِّه والله تعالى أهل لهذه الخيرات بما اتصف به من مغفرة ورحمة.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (219) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (220)

كان لا بد للمؤمنين بعد أن أسلموا أن تتغير رؤيتهم للأُمور التي كانوا عليها في الجاهلية إلى الرؤية التي هم عليها بعد الاسلام ومن ذلك الخمر والميسر، فتساءلوا عن موقعهما من التحريم. فبيّن المولى تعالى هنا ما فيهما من الإثم الكبير. وقد جاء تحريم الإثم في الآية الثالثة والثلاثين من سورة الأعراف. وجاء الأمر بإجتنابهما في الآية التسعين من سورة المائدة. وعن النفقة (قبل نزول آية وجوه صرف الزكاة في

الآية الستين من سورة التوبة وتحديد نسبتها بالسُنّة النبوية) بأنْ يُقَدِّر المؤمن حاجته من الخير للمدة التي بعدها يمكنه الحصول على مثله ثم ينفق العفو أي الفائض عنها. وبعد فرض الزكاة نُسِخَ حُكْمُ نفقة العفو. وهنا يُنَبِّه المولى تعالى إلى التفكّر في الدنيا والآخرة ليعلم الْمُنفِق أن الآخرةَ أفضل له عندما يرى أنّ النفقة خيرٌ له هناك من حبسها في الدنيا فالباقي افضل من الفاني. واما اليتامى فمن كان وصياً على اليتيم فلْيرجِع الى وصايا الكتاب والسنة في ما يخص رعاية اليتيم الذي تحت وصايته فيجتهد فيها لحفظ حاله وماله وإن خالطه في المأكل فليعامله كالأخ. وقد جاء تفصيل بعد هذه السورة في سور النساء والأنعام والإسراء عن اليتامى في رعايتهم حتى بلوغهم الرشد وبذلك لا تبقى عليهم صفةُ اليُتْم فيؤتَى إليهم بأموالهم وبذلك خفف المولى عز وجل عن أوصياء الايتام وهنا نَبّهَهُم إلى علمه بهم ولم يُعنِتْهم أي لم يشدّد عليهم.

وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (221)

اوضح الله تعالى في هذه الاية حرمة الزواج من الكافرة او المشركة وحصر الحلال بالمسلمة والكتابية وحرّم تزويج المسلمة الا لمن آمن بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وبيّن السبب بأنه خشية خسارة المؤمن الخلود في الجنة وهذا الخلود لا يعادله أي زواج لا خلود له.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (223)

هذه الآية أبطلت ما كان يقيّد المرأة الحائض في الجاهلية إذْ كانت تعتزل اهلها وذويها في الطعام والجلوس معاً فضلاً عن نومها بعيداً عن الزوج إن كانت متزوجة، وحصرت التصرف في حالة الحيض على إعتزال ما أحلّ الله للزوج من زوجته من غير ابتعادها عنه. واشار تعالى بهذه المسألة الى التطهّر كناية عن التنزّه عن غير ما يأتي منه الولد وهذا هو الْحَرْث أي الزرع. وفي سورة نوح ((وَاللهُ أَنْبَتَكُم مِنَ الأرْضِ نَبَاتاً)) فشبه ولادة الانسان بالزرع. وهذه الوصية في التنزه عن غير الحرث مما ينفع الزوجين في حُسن المعاشرة وتقوى الله عز وجل وبشرى للمتقين.

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (224) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (225)

الغيب مجهول للانسان وقد ينوي فعلاً او قولاً فيعدِل عنه اذا استجد أمر يجعل ما نوى فعله اثماً او يوفر فرصة لعمل افضل. وفي حالة حلف اليمين على عمل معين ورأى المؤمن ان يتركه الى ما هو خير منه فليأتِ الذي هو خير ويكفّر عن اليمين. فيحذر تعالى من حلف اليمين تحسباً للمتغيرات إلا ان يكون اليمين لفعل خير او تقوى في ترك معصية او اصلاح بين الناس. اما ما يجري على اللسان من أيمان لا يُقصَد بها إعتزامُ عملٍ فهذا ليس له في القلب كسب فلا يؤاخذ عليه

العبد بمغفرةٍ من الله وحِلمٍ كريم. وقد افتى ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن المسيب رحمه الله بأن لا يمين في معصية ولا كفارة عليها. والأرجح تحوطاً هو أن يكفِّر الحالف عن يمينه لِما جاء في الاحاديث الواردة في هذا الخصوص منتهيةً بقوله صلى الله عليه وآله وسلم ((فلْيكفِّر عن يمينه)).

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (226) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (227)

بسبب خلاف بين الزوجين قد يقسم الزوج قَسَماً بأن لا يقرب زوجته في ما احل الله لهما دون غيرهما. فإن كان قد حدد المدة فهو مقيد بها وان كان قد اطلق المدة بدون تحديد فيطالب من قبل الزوجة او ولي امرها بعد اربعة اشهر من اليوم الذي اطلق فيه هذا القسم بأن يفعل احد امرين: اما ان يراجع زوجته عائداً عن يمينه ولا كفارة عليه، وإما ان يُطَلِّقَها فيدفع لها حقها. وقد اشار قوله تعالى ((فَإِنْ فَاْءوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)) الى ان للزوج ان يراجع زوجته قبل انقضاء الشهور الاربعة وعليه كفارة لقيام اليمين. وأيّ من الشهور الأربعة لا يقل عن تسعة وعشرين يوماً. ويعتبر هذا الحلف تقصيراً بحق الزوجة ولهذا حددّ المولى عز وجل مدته كي لا يطول الضيق في امرها بالهجر. كما يحسر ايذاء ضعاف الايمان والعقول من الازواج لزوجاتهم. ولا يحصل الطلاق بعد الاشهر الاربعة بصورة تلقائية بل بعزيمة من الزوج اذ ان ولي امرها سيواجهه بأحد أمرين اما الرجوع واما الطلاق فان طلب الرجوع فلا عدة له عليها لمضي اكثر من العدة وان ابى الرجوع فقد اختار الطلاق وهذه هي العزيمة فيه. ولا يخلو الإيلاء من تحذير الزوجين لهذه العواقب ليحافظا على سلامة كيان العائلة.

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (228)

هذا الحكم يخص الْمُطَلَّقة التي تم الدخول بها فإن لم تكن حاملاً فعليها ان تقضي العدة المذكورة أي ثلاثة اشهر قمرية بعد التطليق وبهذا يكون قد حاضت ثلاث مرات خلالها وانتهت عدتها وتأكد لديها عدم حملها. وقد تكون الحَيْضاتُ اربعاً اذا حصل تطليقها قبل أيام قليلة من اول حيضة أي تجاوز موعد تطليقها الاشهر الثلاثة تحوطاً. وفي هذه الحالة يمكن للمطلقة وضع الطِّيْبِ ولبس الحلي وما الى ذلك من زينة مشروعة في بيتها خلاف عِدّة الارملة فهي حِدادٌ على زوجها. وسيلي ايضاح ذلك ان شاء الله تعالى في الاية الرابعة والثلاثين بعد المائتين من هذه السورة. واما الحكم الثاني للمطلقة الحامل فعِدَّتها تنقضي بوضع الحمل سواء بالولادة او سقوط الحمل. ويشترط في حالة الحمل ان لا تكتم ما هي عليه من حيض او حمل. وهنا يحق للزوج في الفترة ما بين الطلاق الرجعي وانقضاء العدة أن يرجع عن الطلاق ويكون للمرأة في هذا ان توافق والا فتعتبر قد طلبت الخلع لأن ردّ الزوج لها هو عودة الى ما كانا عليه قبل الطلاق الرجعي فليس لها ان ترفض بل لها ان تطلب الخلع. وطلبها هذا ليس له علاقة بالطلاق الرجعي. والإصلاح من قبل الزوج مشترط بأن تكون نيته من ردّ الزوجة هي إحلال الوفاق محل الخلاف. واما الذي لهن فهو حق الزوجة على الزوج بالنفقة وتجنب الإضرار بها ثم التصرف معها على افضل ما يستطيع من قول وعمل وخُلق وحال. وعلى الزوجة ان تطيع الله في

ما يرضاه تعالى من طلبات زوجها ونواهيه ضمن المتعارف عليه بأنه من المعروف. واما الدرجة للرجل عليها فهي مزيته في حمايتها ورعاية مصالحها وإعانتها في ما لا طاقة لها به. وتقتضي عزة الله تعالى بقوله ((وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)) ان يطاع سبحانه في أوامره فهي من حكمته البالغة.

الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آَتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (229)

هذه الاية حددّت للزوج عدد المرات التي يحق له ان يطلق بها زوجته والا لكان الزوج يطلق ويراجِع. وفي الآية معنى الطلاق الرجعي ان لا يتجاوز المرتين؛ فإما يردها او الطلاق الثالث الذي لا رجعة فيه وهو المقصود بقوله تعالى (أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ) فلا تحلّ له بعده الا بشرط مذكور في الاية التالية. واما الاحسان فهو اختيار افضل السبل في المعاملة وتقوى الله تعالى بتجنّب الإضرار بالزوجة. وهناك بدعة في الطلاق الرجعي والبائن أي الثالث فالمفروض لمن عزم الطلاق ان يطلق أول طلقة في الحيضة الاولى وثاني طلقة في الحيضة الثانية والثالثة في الثالثة اذ قال تعالى ((وَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَاحْصُوا العِدَّةَ)) فمن استعجل وجمع الطلقتين او الثلاث مرة واحدة فطلاقه صحيح ولكنه سفاهة ومعصية عن بدعة لم يأمر بها الله تعالى. ومن اراد الطلاق فعليه في كل مرة ان يلفظ ما يدل صراحة على الطلاق. ومخالفة هذه الاوامر عاقبتها الندامة او طلب الفتاوى، أو هدم الاستقرار العائلي الذي ينشأ فيه الاولاد سليمي الانفس والقلوب. وهذه الاحكام عامة ولكل حالة

على انفراد حكم خاص بها على ضوء هذه الاحكام. اذ ان على من يفتي في الطلاق أن يحيط بظروف التصرفات ونصوص الاقوال والنوايا ويرجع الى كتاب الله تعالى وسنّة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم. ونعود الى الاية فقد ورد النهي صراحة فيها عن اخذ الزوج مما اعطى الزوجة من مهر إلا ان تتنازل هي في حالة طلبها الخلع منه وهذا يفهم من قوله تعالى ((فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ)). على ان لا يأخذ الزوج اكثر مما أمهرها ويجوز اخذ الأقل. وبهذا الحكم حقَّ للزوجة ان تختار ما تراه الصالح لها. وهنا حكم جديد على المختلعة فهي تقضي عدة المطلقة ولا يحق للزوج ان يراجعها أي يردها في العدة لانها مَلَكَتْ نفسها بما افتدت به. فاذا عرض عليها العودة عن طلبها ورأت ذلك من صالحها فعليه ان يعيد اليها ما أخذه منها وذلك إن كان قد صرح لفظاً ونيةً بطلاقها الذي اختارته. اما اذا لم يصرح بذلك وفُرِّق بينهما فلا تصحّ المراجعة. ولكل حالة فتواها الخاصة بها. وهكذا لم تَدَع هذه الاحكام مجالا لظلم. فمن حادَ عنها فقد ظلم وخرج عن طريق الحق. ويرجع للأحكام في كل حالة من غير اجتهاد الزوجين او غير المرخص لهم في الفتوى. هذا في الطلاق الرجعي أما بعد حالتي الطلاق هاتين فقد قال تعالى:

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (230)

اخرج البخاري عن ام المؤمنين عائشة رضي الله عنها ان رجلاً طلق امرأته ثلاثاً فتزوجت زوجاً فطلقها قبل أن يمسّها فسُئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أتحل للأول؟ فقال ((لا، حتى يذوق من عسيلتها كما ذاق الاول)). وفي أحكام هذه الاية يعقد الزوجان النية على الإلتزام بإقامة حدود الله في المهر والمطاوعة

والسكنى والرعاية وما هو معروف لا ينكره الشرع بتقوى الله تعالى ما استطاعا. ومن احكامها أيضاً: أنّ التطليقتين الرجعِيّتين إذا أعقبهما طلب من الزوجة بالخلع وحصل الخلع بقبول الزوج للبَدَل فهذا يدل على طلقة ثالثة فيشمل الحكم هذه الحالة. وللحذر يجب الرجوع إلى العلماء في كل حالة للإفتاء لقوله تعالى ((يُبَيِّنُها لِقَومٍ يَعْلَمُونَ)).

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (231)

بلوغ الاجل هنا هو اليوم الاخير قبل نهاية العدة في الطلاق الرجعي ويقصد بقوله تعالى (فأمْسِكُوهُنَّ): المراجعة بنية صادقة فيها وليس المراجعة بنية الإضرار بالزوجة لإطالة عدتها وهذه النية السليمة هي المقصودة بقوله تعالى ((بِمَعْرُوفٍ)). واما اذا عزم الطلاق فيطلقها الطلاق البائن وهو المقصود بقوله تعالى: ((أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ)). ويحذِّر تعالى من الظلم الذي يقع اثره على الظالم والمظلوم. وما لم يتدبر المؤمن احكام هذه الايات فقد غفل عن نعمة الله تعالى فيها فهي التي تعطي كل ذي حق حقه، لذا فعليه مراعاتها. والله تعالى يعلم السر والجهر من النوايا والاقوال والافعال فيحذر من التهاون بها.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (232)

الاجل المقصود بهذه الاية يزيد يوماً واحداً عن الاجل المقصود بالاية السابقة أي الاجل هنا انقضاء العدة في الطلاق الرجعي حيث يحل للمرأة التي جاوزت القروء الثلاثة أي الاشهر القمرية الثلاثة في عدتها ان تتزوج زوجاً ثانياً. وهنا يتقدم الزوج الذي طلقها ليخطبها ثانية من ولي أمرها وقد نهى الله تعالى في هذه الاية ولي الامر ان يعضلها أي يمنع هذا الطلب اذا لمس منهما تراضياً على حدود الشريعة. ومن احكام هذه الآية ما رواه الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله ((لا تُزوِّجُ المرأةُ المرأةَ ولا تزوجُ المرأةُ نفسها)) فلا نكاح إلا بوَلِيٍ راشدٍ مرشدٍ وشاهِدَي عدل. ولإختلاف كل حالة قائمة بظروفها الخاصة بها عن غيرها فلا بأس من تذكير مَن تحصل لهم هذه الحالات بأن يرجعوا الى الفقهاء في الفتوى لوجود اكثر من اجتهاد فيها فيُرجَع في ذلك الى كتب الأحكام التي تفصّل مختلف ظروف هذه الحالات. وقد جاءت حدود الله تعالى من اجل افضل العواقب فمن التزم بها فلا حرج عليه في الدنيا ولا حساب عليه في الاخرة وبهذا تزكو النفوس وتطهر القلوب كما جاء في آخر الآية.

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (233)

احكام هذه الاية حفظت حقوق الطفل الرضيع وحقوق أُمّهِ المطلّقة وأبيه، بعد الطلاق، فلا يلحقهم ضرر. فهناك حالات إرضاع متعددة. فالمتعارف عليه،

شائعاً، هو أن ترضع الأمُّ طفلها وينفق الأبُ على الرزق والكسوة عن طيب خاطر. ولكن قد يكون للوالدة ظرف نفسي بأن لا ترضع الولد فاذا لم يقبل ثديَ غيرِها فهي مُلْزَمَةٌ بإرضاعه تمام الحولين من عمره. وللوالد أن يطلب منها عدم تجاوز الحولين في إرضاعه فان أرضعته فلا نفقة لها للرضاعة بل النفقة للقاصر لِتَحَوّلِ صفتِهِ من رضيع الى قاصر. أما إن كان ثمة خطر على الطفل من إرضاعه بعد الحولين فعلى الأم أن تفطمه ولها نفقة القاصر. واذا عجز الوالد او مَن وَرِثَه عن اجور مرضعة اخرى خلال سن الرضاعة فتُلْزَم الأمُّ بإرضاع الطفل. ويمكن انقاص مدة الرضاعة عن تراضٍ وتشاور بين الطرفين. ويحذر الله تعالى (بالنهي) عن الإضرار بأحد الابوين دفعاً لما قد يحصل من منع بعض استحقاق الام او من طلب الوالد ضم الولد اليه في الوقت الذي فيه تريد هي ارضاعه. واما الضرر على الطفل فقد ارتفع بإلزام الأمِّ بإرضاعه كما جاء اعلاه او تُكَلَّفُ أُخرى بإرضاعه. كما منعت الاحكام المتعلقة بهذه الاية ان تطلب الوالدة نفقةً اكثر مما هو متعارف عليه من الرزق والكسوة لمثل حال الوالد، أو أن تطلب من الوالد إرسال الطفل الى مرضعة اخرى بدون عذر. واما اذا كانت الوالدة مريضة او توقف الحليب عندها فَعَلى الوالد أو الوارث دفع نفقة المرضعة. وفي زماننا هذا حصلت طرق الإرضاع بوسائل معروفة بحليب البقر الخاص بالاطفال او بالمستحلبات النباتية المفيدة لمن يؤذيهم حليب البقر. وعلى الوالد او الوارث تدارك متطلبات هذا النوع من الرضاعة. وامر تعالى في كل ذلك بالتقوى وليعلم المؤمنون برقابة الله تعالى وتَبَصُّرِهِ بما يعملون.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (234)

تكون الارملة الشابة ومتوسطة العمر عُرضَةً للزواج بعد ترمُّلِها إذ لم يبق عليها حكم من أحكام الزواج سوى أن تعتدَّ اربعة اشهر وعشرة ايام بلياليها. وقد روى الشيخان عن ام حبيب وزينب بنت جحش من امهات المؤمنين رضي الله عنهن قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ((لا يحل لأمرأة تؤمن بالله واليوم الآخِر أن تُحِدَّ على ميت فوق ثلاثٍ، الا على زوجٍ، اربعة اشهر وعشراً)). أي لا تلتزم بالحِداد على ميت اكثر من ثلاث ليال إلا الأرملة على زوجها مقدار هذه العِدّة. والحداد في عرف الاسلام أن لا تتزين ولا تتطيّب، وأن تلبس السواد. وليس عليها اكثر من ذلك. وتعيش حياتها الاعتيادية ولا تقبل خلال هذه الفترة أنْ يتقدم أحدٌ بطلب الزواج منها سواءً قصَدَها بنفسه أو أرسل غيره إليها. فاذا انقضت العدة خلعت السواد ولها ان تتطيب وتكتحل امام النساء الاخريات او مَن أحلّ الله تعالى ان تبدي لهم الزينة. والغاية منها تعبيرها على انها تقبل ان تتقدم لها الخاطبات ليُعَرِّفْنَها لمن له رغبة في الزواج منها. عندئذٍ يمكن بعد التقدم لخطبتها أن يراها الخاطب من غير زينة أو تبرج ليرى مزاياها وليس لغرض آخر ولتراه عن قرب من غير خَلْوَةٍ بينهما.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ

النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (235)

في حالة رغبة احد الرجال الزواج من امرأة ارملة او مطلقة وكانت في عدتها وخشي ان يسبق غيره اليها فلا يُباح له التصريح لها بذلك بل ابيح التعريض بحيث تفهم غرضَه منها. ومِن قبيل ذلك العبارات التي تجري على الالسن كأن يذكر الحديث الشريف: ((عليكَ بذات الدين تَرِبَتْ يداك)). او يقول انني ارغب ان يزوجني الله بزوجة تتصف بكذا وكذا (من صفاتها). او يقول اذا حَلَلْتِ فأخبريني. او يقول أرى فيكِ الصفات التي أُحبُّها. وهكذا يتأكد انها فهمت غرضه منها اذا تحللت. فاذا رَغِبَتْ به انقطعت عن غيره فتردَّ ذلك الغير عنها بأن ترسل له من يبلغه بأنها ليست له. واما انشغال قلب الراغب الاول فلا جناح عليه. فاذا التقى بها عَرَضاً فعليه الالتزام بالحياء والعفة في مخاطبتها بالقول المعروف (التعريض بدلاً من التصريح). ولا يطلب العهد منها ان لا تقبل الزواج من غيره. وبعد انقضاء العدة يتقدم لخطبتها صراحة. وعلى هذا الخاطب ان يترك العزيمة على هذا الزواج خلال ايام العدة بل يترك الامر لمشيئة الله تعالى حتى تأتيه الموافقة على الزواج بعد العدة. ويحذِّر تعالى من خلاف ذلك لأنّ الزواج غير مباح حتى تنقضي العدة. فلا يجوز عقد العزم على حرام. وفي التعريض أي التورية مخرج من ارتكاب الحرام. وليذكر المؤمن علمَ الله تعالى بما في نفسه فيحذره ولا يقنط من مغفرته وحِلمه عالما أنه تعالى غفورٌ حليم.

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (236) وَإِنْ

طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (237)

اباح الله تعالى الطلاق قبل الدخول اذا قامت ظروف استوجبت عدم الاستمرار بالزواج بين عقد القِرانِ والدخول. ولا حرج أو إثم في ذلك. فإذا لم يكن الزوج قد فرض فريضةً أي حدد مهرا للزوجة المراد تطليقها قبل الدخول بها فقد اوجب تعالى ان تُعوَّضَ المرأة. وقد افتى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بان يُهدى اليها خادم أي أمَةٌ مملوكة، او مبلغ من المال او كسوة مما تلبسه في بيتها او خارجه. وفي زماننا تُؤَوَّل بقطعة من كل انواع اللبوس او بثلثمائة وخمسين مثقال من الفضة كما أفتى بذلك شُريح القاضي رحمه الله. ويندب للزوج ان يعطي ذلك من مروءته عن طيب نفس. فان كانت الفريضة قد حُدِّدَت (أي المهر المتفق عليه) فعلى الزوج ان يدفع نصف ذلك اليها إلّا أن تتنازل هي او ولي امرها. وفي ذلك تفضيل لما فيه تقوى الله والتفضل على الغير لوجهه تعالى وفيه حفظ لكرامة الزوجة واهلها. وقد ذهب بعض الفقهاء الى ان الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج الذي عليه نصف الصداق، وعفوُهُ: أن يعطيه كاملاً وهو الاتجاه الذي رجّحه شريح القاضي والشعبي. ولا يتنافى هذا مع القول الاول لان المقصود العفو وذكر الفضل بين المسلمين سواء من هذا الطرف او ذاك. انظر شرح الآية الثانية والأربعين بعد المائتين لاحقاً.

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (238) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (239)

كل الصلوات ذات اهمية في المحافظة عليها وهنا تخصيص للصلاة الوسطى وتتم المحافظة عليها بانتظار وقتها. فاذا دخل وقتها وقد تحضّر لها المصلي بالتطهر والوضوء فصلى كان هذا وقت فضيلتها، وتُفَضّل مع الجماعة في المسجد. وهناك وقت لأدائها قبل ان يفوت وقتها الى الاذان التالي. فاذا فاتت بعذر مشروع كالإغماء والنوم والنسيان قُضِيت من غير اهمال. واما فواتها بدون عذر مشروع فمن الكبائر. وقد اورد الامام احمد بن حنبل في مسنده حديثاً عن الامام علي بن ابي طالب كرم الله وجهه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله في غزوة الأحزاب: ((شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً)). فأرجح الاقوال فيها انها العصر لتوسطها بين فريضتين من النهار وفريضتين من الليل. واما القنوت في الصلاة فهو الحذر من مكروهات الصلاة كأن تَفسد الطمأنينةُ فيها. واما اذا اقتضت ظروف شديدة تأجيلها كمواجهة العدو مما يؤثر على الطمأنينة فيها فقد رخّص تعالى في الخوف الصلاة وقوفاً وبالايماء والاتجاه الى غير القبلة ان اقتضى الحذر ذلك، وأقلُّ اركانِها في لقاء العدو ركعة واحدة. وهنا لا تؤخر الصلوات عن وقتها إلا بأمر من الامير حيث امر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الغزاة رضوان الله عليهم يوم الاحزاب ان لا يصلُّوا العصر إلا في ديار بني قريظة (وتفصيل ذلك في سورة الاحزاب). فلما لم يدخلوا ديارهم حتى غابت الشمس فقد أخّرها البعض الى ذلك الوقت ولم ينكر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم منهم ذلك. وفي الاية الثانية بعد المائة من سورة النساء تفصيل لصلاة الخوف. فاذا ذهب الخوف فتؤدى الصلاة على ما هو معروف من اركانها وسننها

بالتمام. كما شرعت مع ذكر الله تعالى شكراً على ما جعل من فسحة في العبادة مع تمام الاجر منه سبحانه. والمقصود بالفسحة هنا الرخصة في الْجَمْعِ والقَصْر.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (240)

الوصية من الله تعالى للأرملة بأن لها الحق بإتمام السَنَة في بيت زوجها ولها ان تذهب الى اهلها بعد العدة او بعد الوضع ان كانت حاملاً. وهذه الاية نُسِخت بالآية الرابعة والثلاثين بعد المائتين فقد نزلت بعدها وتشير الى بقاء الارملة المعتدة مدة العدة في بيت زوجها المتوفى. واما ما تُمتَّع به بقوله تعالى ((مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ)) فقد نُسخت بآيات الميراث التي اعطت حقها في تركة زوجها المتوفى. ولها ان تبقى الى تمام السَّنة او ان تذهب الى بيت اهلها ان لم تتزوج ثانية بعد عدتها ويؤوِّل بعض الفقهاء قوله تعالى (وَصِيَّةً) بأنها غير ملزمة أي ان الارملة يمكنها الذهاب الى بيت اهلها خلال ايام العدة فتقضيها هناك ويُرَجّح قضاءها العدة في بيت زوجها ما رواه الامام مالك في الموطّأ من ان الفريعة بنت مالك بن سنان وهي شقيقة الصحابي ابي سعيد الخدري رضي الله عنها وعنه اتت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واخبرته بأن زوجها الْمُتوفَّى لم يتركها في مسكن يملكه ولم يترك لها نفقة وطلبت الإذن بأن ترجع الى أهلها فقال ((أمكُثي في بيتك حتى يبلغَ الكتابُ أجلَه)) أي تنقضي العدّة. وفي حالة خروج المرأة الى بيت اهلها فلا اثم ولا حساب على احد من تصرف المرأة مما هو متعارف عليه ومشروع.

وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (241) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (242)

جاء في شرح الاية السادسة والثلاثين بعد المائتين السابقة طلاق التي لم يُحدَّد لها المهر فالمتاع واجب فيها حقاً على المحسنين. فلما نزلت تأوّل البعض كلمة (المحسنين) بأن الزوج إن شاء أحسَنَ وإن شاء لم يُحسِنْ فنَزلت الآية التي جعلت المتاع حقاً على المتقين وكلمة (المتقين) لا يُعقلُ تأويلُها فسُمِّي هذا الحق بنفقة العدة. وقد استدل بعض العلماء الى ان هذا المتاع يُعْطَى للمطلقة سواء قبل الدخول بها او بعده، وسواء حُدِّد لها المهر ام لم يحدد. واستدل البعض على ان المتاع أي نفقة العدة خاصة لمن لم يُدخَلْ بها، وخاصة لمن لم يُحَدَّد لها المهر سواء دُخِل بها ام لا.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (243)

في التفاسير أن اهل قريةٍ حصل بها الطاعون هربوا منها حَذَراً من الموت فأذاقهم الله تعالى الموت بكلمة منه: (مُوتُوا)! ثم أحياهم. وفي هذه الاية عبرة للمؤمنين بأن الموت له اجل في علم الله تعالى وليس منه مهرب مهما حاول الإنسان. وعن الطاعون فقد امر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأن لا يخرجَ أحدٌ من بلد مصاب، وأن لا يدخلَه أحد فينحصر الوباء. فالخارج يحمل جرثومته الى المعافى والداخل يعرض نفسه له. واما الحياة بعد الموت فقد رقد اهل الكهف قروناً ثم بعثهم الله. وامات الله عزيراً مائة عام ثم بعثه. والمهم من هذه الاية فضل الله تعالى

على برهان البعث بعد الموت وعلى العبرة من ذلك للعمل لِما بعده. واما الاجل المكتوب والذي لا يعلمه من البشر احد فهو طمأنينة للمجاهدين في سبيل الله بأنهم يبلغون آجالهم سواء في القتال او في بيوتهم فلا يلتفتون الى اسباب الهلاك التي تحيط بهم بل ليعلموا أنّ الله تعالى اختارهم لإعلاء كلمته وأنّ الجهاد يحييهم بحياة ايمانهم وان الحياة الحقيقية هي بعد لقاء الله تعالى بعد آجالهم. وهكذا نرى الاية التالية تحث على الجهاد.

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (244)

نرجع الى الاية الثانية والتسعين بعد المائة من هذه السورة لنجد ان الجهاد الذي هو ذروة سنام الاسلام ما هو إلا إدامةٌ لعبادة الله تعالى في الارض ودرءٌ للخطر عن حياض الدين لتعلوَ كلمة الله في أرضِه. والقتال في سبيل الله له مقدمات من الصبر والدعاء وإعداد القوة من عُدّة ورجال وهذا يقتضي توفير المال للجهاد وقد جعله الله تعالى قرضاً عليه فقال:

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (245)

كل نفقة في سبيل الله ولوجهه الكريم، سواء كانت صدقة أو جهاداً بالمال، جعلها المولى عز وجلّ قرضاً يتضاعف وبهذا يكون العبد المؤمن قد أحسن بما بسط الله له. فالبسط منه عن حكمة. فإذا قدَرَ الرزق على عبده فهو مدّخر له وإظهارٌ لموقفه من الميل للدنيا. فالإبتلاء جاء لبيان الإحسان من الإساءة. فعلى المنفق أن لا يخشى الفقر، وعلى المفتقر أن يحسن ظنه بربه تعالى.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (246) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (247) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (248) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (249) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (250) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (251) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (252)

لجأ اشراف من بني اسرائيل الى نَبِيٍّ لهم بعد موسى عليه السلام بقرون تركتهم في ذل وقد سُلب منهم التابوت الذي كانت التوراة فيه مع بقية مما ترك موسى وهارون عليهما السلام. وكانوا يستنصرون بهذا التابوت وبالبقية. وطلبوا قائداً يملكهم ويقاتلون معه جهاداً لإعلاء كلمة الله تعالى إذ كان الكفار يحيطون بهم.

ولمس النبي منهم ضعفاً في النفوس لدى الغالبية ففاتحهم بذلك وبما يتوقعه من تراجع من هذه الغالبية. وصدق ظنه اذ تولى فريق منهم ولم يخرجوا للقتال. وأما الباقون فقد أخبرهم بأن الله تعالى إصطفى لهم مَلِكاً هو طالوت. واذا بهم يعجبون كيف يولَّى عليهم رجلٌ قليلُ المال. فذكّرهم نبيهم بما زاده الله تعالى في العلم والجسم، وكان اطولهم، فاطاعوا بعدما جاءتهم آية مُلكِه، وهو التابوت المذكور وما كان فيه، ينزل اليهم بقدرة الله تعالى. فسكنت نفوسهم لذلك في ثقة من عون الله تعالى لهم في القتال. وفي التفاسير ان سبب سلب التابوت هو ابتداعهم ما ليس في التوراة وميلهم للأهواء. واما وقد عادوا الى الله تعالى فقد عاد اليهم بالنصر. وفي هذه عبرة للأمة المحمدية والعودة الى حكم الله عزّ وجَلّ لقوم يؤمنون. وبقية المعركة فيها الاشارات الى طاعة ولي الامر من اهل الايمان والعلم وما فيها من فلاح ونصر وترْكِ الجدل والمعصية. فالنهر الذي نهاهم مَلِكُهم عن الشرب منه، ((إلّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً)) أي حفنة منه، كان يحمل ما يُضعِف قوّتَهم. فأما من حسبوا حساب لقائهم مع الله تعالى فقد أطاعوا وبقوا على قوّتِهم وحُسن ظَنّهم بالله تعالى اذ غلبت فئتهم القليلة بعونه تعالى فئةَ أهلِ الكفر. وبرز منهم سيدنا داود عليه السلام فقتل جالوت ملك اهل الكفر وآتاه الله تعالى الْمُلْكَ والحكمة وما شاء له من العلم. ولولا هذا الجهاد لكان الكفر قد طغى وظهر الفساد والله تعالى لا يحب الفساد فيبدل أهله بأهل الصلاح. وفي هذا عبرة لمن يحكم بأن يَحْسِرَ الفساد الى أبعد حَدٍّ كي يدوم الخير والنصر وإلا فإن لله تعالى جنوداً يدفع بهم أهل الفساد وتسلم منه الارض. والله هو المدبر الحكيم ولأمره الْمَضاء ولإرادته النفاذ سبحانه. وقد ايّد الله تعالى رسالته فذكر تعالى الأمر لرسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم فأغناه بما في

القرآن الكريم عن الرجوع الى التوراة او الكتب التي سبقت بل أتى الله تعالى بهذه الآيات ما كان بنو اسرائيل قد اختلفوا فيه ليبرهن تعالى على صحة رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما مبين في الآية التالية:

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آَمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (253)

الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم دينهم واحد وأزمانهم واقوامهم واماكنهم مختلفة ولهذا تختلف حجة كل منهم التي فضله الله تعالى بها عن حجة غيره من إخوانه المرسلين. وبهذه الحجة هَدى الله تعالى من هدى ونصر جنده وأعلى كلمته. وتميّز سيدُنا موسى عليه السلام بتكليم الله تعالى، وتميّزت درجاتهم بعِظَم الرسالة التي ارسل بها كل منهم. فمنها ما استوجب العزم لأولي العزم نوح وابراهيم وموسى وعيسى وخاتم الرسل الامين صلى الله عليهم وآله وسلم. وان اقوامهم استوجبوا هذا العزمَ لِما مكروا وفسقوا. واما روح القدس ففي التفاسير هو سيدنا جبريل عليه السلام. وفي تفسير النسفي (خاصة) هو الانجيل او جبريل عليه السلام. ومن هذه الدرجات تظهر درجة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم اذ كلّمهُ الله تعالى في معراجه وايده بجبريل عليه السلام وآتاه القرآن العظيم ونصره على اهل الشرك حتى اعطاه خير الامم. وحذّر الله تعالى هذه الامة مما حصل لأقوام الانبياء الذين سبقوها حيث اقتتلوا بعدما جاءتهم البينات أي العلامات الواضحة الدالة على ضرورة وحدة الكلمة في عبادة الله تعالى ونصرة دينه. وسبب الخلاف

بعد وضوح طريق الايمان هو اهتداء اهله اليه وضلال الذين في قلوبهم مرض عنه. فأهل الايمان لا يمكنهم السكوت عن اهل الكفر ولا بد من جهادهم لحماية عبادة الله في ارضه، وهذا ما يريده الله تعالى من المؤمن ان ينصر ربه بما آتاه من نِعَمِ المال والنفس والعُدّة والعدد. اذ يبتليه بظهور الكفر واهله ثم يدعوه لجهادهم ليميز اهل الصدق عن غيرهم ويفعل ما يريد سبحانه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (254)

كل خطاب موجه للمؤمنين هو لخيرهم فإما دعوة لخير او تحذير من شر. وهذه الاية جمعت الغرضين فهي دعوة لنيل الأضعاف ونُصْرَةِ الله تعالى، وتحذيرٌ من عاقبةٍ تجعل العاصي في صفوف الظالمين. واما أوجه النفقة فمحلها مبين في مواضع اخرى سيأتي شرحها إن شاء الله تعالى. اما الخُلّة فهي أن الْمُمْسِك لن يجد له ثمة خليلاً يمد له يد المساعدة. فالأخِلّاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌ الا المتقين. والشفاعة لا تكون إلا بإذن الله تعالى. والظلم هو ظلم النفس التي امسكت الفاني وخسرت الباقي.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (255)

تبين لنا آية الكرسي كمال الوحدانية في الصفات الواردة فيها والمقتصرة على أحَدِيَّةِ الله تعالى في الربوبية وعلى صلة خلقه به بالعبودية. ولهذا سُمِّيت الآية: سيدة الآيات. فقد روى الامام احمد بن حنبل في مسنده ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سأل أُبيَّاً بن كعب عن أي آية في كتاب الله اعظم؟ قال أُبيّ: الله ورسوله اعلم. وسكت قليلاً ثم قال: آية الكرسي. فقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ((لِيَهْنِك العلمُ أبا المنذر، والذي نفسي بيده إنّ لها لساناً وشفتين تقدس الْمَلِكَ عند ساق العرش)). واما شرح معانيها فالقيوم هو دائم القيام بأمور خَلْقِه ولا يُغَيِّبُه نعاس لأن النعاس لا يتفق مع قيامه بكل امور خلقه التي لا تنقطع. كما لم يترك مبادرة في الشفاعة لأحد إلا من بعد إذنه مع احاطته بخلقه عِلْمَ ظهورٍ وعلم غيب وعلم ماض وعلم مستقبل. وكرسيه دليل على سيادته الفردانية على خلقه من سماوات وأرَضين وخَلْق. بيده مقاليد امورهم، وبمشيئته يتم حفظهم، ولا يؤوده أي يشق أو يثقل عليه شيء امام تنفيذ ارادته في حفظ السماوات والارض وهو اعلى واعظم مما خلق. وتقرأ الاية بعد الفريضة وعند النوم تعبُّداً وتعظيماً لإستكمال فوائدها فعلى العبد العبادة وعلى الله الحفظ وهو يفعل ما يريد.

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (256) اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (257)

نفخة الله تعالى من روحه في الانسان أكسبته فطرة سليمة. والفطرة السليمة ترى الحق حقاً. وهذا من أوْجُهِ النور الايماني اذ تصفو به المعرفة فتميل القلوب

السليمة الى حقيقة الاسلام وتكفر بما يقف على الباطل المنكر. وهكذا يثبِّت الله تعالى الذين آمنوا في حمى نوره. اما الظلمات التي يخرجهم منها فهي كفر الآخَرين أولياءِ الطاغوت أتباعِ تيار الطغيان على الحق. فيتعرف المؤمن بنور الله تعالى حقيقةَ الظلمات وإن كانت قد بدت في زخرف من القول فيمقتها وبذلك يخرج من سطوتها على النفوس. واما من زاغ قلبه وغلبته نفسُه بهواها الضال على فطرتها فقد اسلم للطغيان بعد ما عرف النور وجاءته آياته. وهذا ما جعله في المسؤولية اذ تبين له الرشد من الغي ولم يُكْرَه على انحراف قلبه الذي هو موطن النية والعقيدة. فمن خالف اهل الطغيان فقد سعى لحفظ نور الله تعالى ولعلهم يعودون الى الرشد فيذوق الذي له استعداد منهم للايمان سعادة بشاشته في قلبه فيتفق قلبه المستنير مع الحق بهدىً من الله تعالى غافرِ الذنب وقابِلِ التّوب. واما من استحب الظلمات والعمى فمصيرهم الخلود في النار وبئس المصير الذي جرُّوه على أنفسهم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258)

مثل واضح للغي الذي اتبعه هذا الطاغوت. فقد جاءت محاججته وهي تختلف عن الجدل والمراء اذ فيها وضوح الحق واقامة الحجة. فكانت الحجة الاولى بالقدرة على الإحياء والإماتة؛ فإذا بالذي آتاه الله الْمُلكَ يدّعي إحياء من يعفو عنهم من المحكومين بالأعدام فيحيَون! ثم يَقتُل فيُميت! ولم يذهب الى ابعد من هذا في استقصاء من وهب الحياة لمن يقتله ومن يُحيي ثانيةً مَن أماته. فلما جاءت حجة

حركة الشمس الظاهرية، وليس في مقدوره الامر والنهي بشأنها، إنقطع وضجر. وفي التفاسير ان الله تعالى ابتلاه بالبعوض فكان لا يستطيع التخلص منه حتى هلك به.

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259)

هذه القصة واضحة ومنها نعرف ثلاثة احوال؛ حال الحياة المعروفة، وقبلها حال ما قبل الولادة، وبعدها حال البعث بعد الموت وما بينهما. وان بلغ مائة عام تكون هذه الاعوام في قياس الخلود يوماً او بعض يوم. وجاءت هذه الحادثة لتذكرنا بما سنكون عليه بعد الموت وما نحتاجه من الصالحات زادًا لذلك اليوم.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (260)

كان سيدنا ابراهيم عليه السلام موقناً (علم اليقين) بأن الله تعالى يحيي الموتى ولهذا قال للملك ما جاء آنفاً "رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ". واراد ان يعلم الامر عياناً أي (عين اليقين) فأراه الله تعالى هذه الاية وفي هذه القصة اشارة الى سرعة إحياء الموتى. بينما في قصة القرية التي احياها الله بعد خرابها استغرق ذلك مائة عام لما تقتضيه سنته في خلقه من المدة التي يستغرقها اصلاح البناء والعمران. وفي كلتا

القصتين كان هناك علم اليقين. وتحقق اليقين عياناً لهما؛ لإبراهيم وللعزير عليهما السلام.

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (261) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (262) قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (263) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (264)

يكرم الله تعالى اهل الكرم الذين ينفقون في سبيله كما يضاعف لهم في كسب الخلود الباقي بما أنفقوا من متاع الدنيا الفاني. وهذا من فضل الله تعالى فإذاً لا يرون لأنفسهم فضلاً. ولهذا لا يُتبِعون ما انفقوا مَنّاً او اذىً. واما الذي يملكه الانسان من فضل الله تعالى من غير المال فهو القول المعروف والصفح عن المسيء. وحذر تعالى من خسارة ثواب الصدقة بالْمَنِّ والأذى فهما آفتان للمال والأجر وذلك أشبه بما يُنفَق رئاء الناس من غير أن يكون الايمان بالله واليوم الآخر دافعاً للنفقة. واما الأضعاف التي وعد الله تعالى بها فهي من أفعاله الكريمة. وعنده ما هو أكثر وهو الرضوان من صفاته التي تقر بها العيون إضافةً الى أفعاله. كما في الآية التالية:

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (265)

هنا للإنفاق سببان؛ نيل مرضاة الله تعالى، وانقاذ النفس من الشح أي تثبتها بحصول الإنفاق من إخلاص القلب. فالعاقبة مضاعفة؛ بالرضوان من صفات الله، والثواب من أفعاله سبحانه.

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (266)

المصير يتوقعه العبد بالتفكير لأنه لا يُدرَكُ بالحواس، والإنسان مُعَرّض لمستقبلٍ مجهول وعاقبةٍ يرجو أن تكون سليمة حميدة. وقد أرشدَنا الله تعالى الى نيل هذه العاقبة بشكره وبالرجوع اليه في اوامره ونواهيه فقال في سورة النساء: ((مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)). وفي ما يخص المال يحصل الشكر بالإنفاق في ما يُرضي الله تعالى مع أداء الحقوق والتخلص من الشح. وفي هذه الآية مثل لحالتين؛ ففي الدنيا لمن يبدد ماله في معصية آخر عمره، وفي الآخرة لمن يخسرها بالكفر، كمثل جنة فقدت خيرها أحوج ما يكون إليها صاحبها في ضعفه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (267) الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (268) يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (269) وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (270) إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ

فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (271) لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (272)

الكسب الطيب هو الكسب الحلال سواء من زراعة او تجارة او مهنة مشروعة. ويؤكد المولى تعالى على ان تكون النفقة خالية مما يعيبها بحيث تبعث على السرور في نفس من يقبضها مع مراعاة الكمية والنوعية في ذلك. وهنا تحذير من وسوسة الشيطان الذي لا يطيب له ذلك فيبادر بمنع المنفق بتخويفه من الفقر في الوقت الذي فيه يبادر بالتشجيع على النفقة التي تؤدي الى الفحشاء وامثالها الزنا فهي شدة القبح في الذنوب. وعلى الرسول البلاغ وعلى المؤمن ان يراقب نفسه في ذلك طلباً لِمغفرة الله تعالى وفضله وهدايته. وعلامة ذلك أن لا يريد ممن انفق عليهم جزاءً ولا شكورا، كي تكون نفقته لوجه الله تعالى ودليلاً على سلامة التفكير وصفاء المعرفة اذ تخلص من الرياء فلا يبدر منه ظلم في هذا الصدد. واباح الله تعالى إظهار الصدقة ولا سيما إن كان إظهارها للإقتداء خاصة في الزكاة. وفضّل إخفاءها عن الغير لأن غيره لا يملك المغفرة والقبول. وعلى ذلك تكون الثقة بعلمية الله تعالى ميزاناً يتصرف المؤمن على ضوئه وهو من حُسْنِ التوكل عليه والثقة بوعده الحق الذي جعل النفقة في الدنيا هي من نصيب الْمُنفِق ذخراً يوفيه في الآخرة.

لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (273) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (274)

هؤلاء المتعففون عُرِفوا في ايام الهجرة اذ كانوا قد تركوا اموالهم وخرجوا مهاجرين الى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم. ومن صفتهم انهم ليست لهم وسيلة للكسب ولا يُفطَن الى فقرهم لتعففهم عن السؤال لا يستطيعون ضرباً في الأرض أي سفَراً للكسب. الا ان هزال اجسامهم وشحوب وجوههم جعل اخوانهم من الانصار يتعهدونهم بما لديهم من طعام وكساء. وفي الحديث المتفق عليه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان والأكلة والأكلتان ولكن المسكين الذي لا يجد غِنىً يغنيه ولا يُفْطَنُ له فيُتَصَدَّقَ عليه ولا يسأل الناسَ شيئاً)). وفي كل نفقة في كل زمان ومكان نيّة يعلمها الله تعالى ويجعل لها عاقبتها. ويعلم الله تعالى بنوايا اهل الكرم فجعل الصادقين في ذلك في مأمَنٍ في الحياة الدنيا، وفي سرورٍ عند الموت، وفي كَسْبٍ يوم الحساب.

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (275)

التوكل على الله تعالى في امور التجارة يجعل من التاجر المؤمن صدوقاً لانه قبل البيع لا يضمن أي ربح كما لا يأمل خسارة. بينما المرابي اتكل على نفسه لضمان ربح ماله عند من الجأتهم الحاجة الى اقتراضه ودفع الربا عنه. ومع هذا يسوّي المرابي فعله بفعل التاجر المؤمن الصدوق. وبهذا يتجاهل تقدير رب العالمين الذي هو خير الرازقين. وكما نرى بعض المصابين بحالات الصرع وغياب السيطرة العقلية على

الافعال كذلك يكون المرابي يوم يقوم الناس لرب العالمين متخبطاً لا يملك الرشد. فمن جاءه هذا العلم وعظاً ونصيحةً فانتهى فقد جعل الله تعالى له فسحة بأن يكتفي باسترجاع رأس ماله ويأمل المغفرة من رب غفور. ومن أصرَّ على هذه المعصية فقد أحَلَّ حراماً ومن أحلّ حراماً فقد أدخل نفسه في شعبةٍ من الكفر خالداً مع الكافرين في النار.

يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (276)

روى البخاري قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((من تصدّق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فان الله يتقبلها ثم يُربّيها لصاحبها كما يربي احدكم فُلُوَّه حتى يكون مثل الجبل)). والربا يمحقه الله تعالى أي يذهب ببركته. كما يجمع الربا لآكله صفتين لا يحبه الله بهما: شدة الكفر، إذ يعتبره المرابي حلالاً، وصفة دوام كسب الاثم. وكفى بالكفر إثما.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (277)

اضافة إلى قبول الله تعالى العمل بأركان دينه من المؤمنين اعاذهم تعالى بجنابه من الخوف في الحياة الدنيا ومن الحزن ساعة الموت مع ثبات اجرهم لليوم الآخر. ولا يقارن ذلك بمصير المرابي.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (278) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (279)

بعد ان بين الله تعالى سبيل التقوى في التخلص من الربا فما على المؤمنين الا ان يذروا الربا ويمقتوه ثم يأسف الذين تعاملوا به نادمين على ذنبهم مستغفرين تائبين. فمن لم يتوبوا فقد انذرهم الله تعالى بالحرب وجعل من ذاته الجليلة ومن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم الخصم الذي يبدأ بمحاربتهم وله المبادرة في الوقت والسلاح الذي يحاربهم به. فمن تاب تاب الله عليه واعاد اليه ماله صافياً ليتعامل به بما احل الله تعالى له. واما المدين فقد رحمه الله تعالى فقال:

وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (280) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (281)

يبقى المال الصافي لدى المدين وقد أمر الله تعالى بإستمهاله إلى ان يتيسر له الوفاء فإن لم يقدِر فقد اوصى به ان يتصدق الموسر على هذا المعسر. وهذا العمل افضل من استرجاع الدَّين فهو مدَّخر ليوم شديد تذهب شدته بهذه الصدقة حيث لا ظلم في الجزاء العادل فيه. ونُدِب التصدق بالمبلغ كله او بجزء منه إن تمكّن المعسر من دفع الباقي. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ما رواه عبد الله بن احمد بن حنبل عن سيدنا عثمان رضي الله عنه ((أظلّ الله عيناً في ظله يوم لا ظلَّ إلّا ظلُّه من أنظر مُعسِراً أو ترك لِغارِمٍ)). وهذه الاية في تقوى اليوم الموعود نزلت قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بتسعة أيام وقال له سيدنا جبريل بأن يضعها على رأس المائتين والثمانين من هذه السورة (البقرة). أورد ذلك ابن كثير في تفسيره عن ابن جريج عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ
(282) وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (283)

لم يكن قبل الاسلام يُعمل بِهَاتَيِنِ الآيتين وما فيهما من تشريع متسع وتخيير وندب وايضاح وارشاد. بل كان امر الدَّين، والكتابة والشهادة فيها والامانة، في تَخَبُّطٍ كما كانت الجاهلية تتخبط. وقد اوضحت الآيتان التشريع. فتسمية الاجل يمكن ان تكون بعدد من الشهور او بتعيين موسم كالحج او الحصاد او مجيء شخص غائب. وتوثق بكتابة تحتوي على الشروط بحيث تبقى من غير نسيان او جدلٍ من يختلف فيها. فهي تحفظ الحق سواء بقي احد الاطراف على قيد الحياة او توفي قبل انقضاء الشروط. وتُكتب بصيغة المتكلم المدين لإعطاء حق التملك للطرف الاخر كاملاً بلا نقصان. وتحوّطت الاية الاولى للحق اذا كان المدين ليس مؤهلاً عقلياً او سِنّاً للإقرار والاعتراف بالدَّين فأمرَ تعالى بنصب ولي على مثل

هؤلاء حرصاً على حسن التصرف بالمال. فالسفيه لا يُقدِّر المسؤولية ويبذِّر. والضعيف معرَّضٌ لأن يسيئ التصرف مهما حسنت نواياه. والشاهدان من الرجال ليس لهما سوى الشهادة بما حصل فإن لم يكن ثمة إلا شاهدٌ واحد من رجالِ المؤمنين فتشهد امرأةٌ ومعها من تكون الى جانبها لتذكرها فتكون شاهدة على شهادتها حيث تؤخذ شهادة الاولى منهما إن لم يبدر من الثانية تصحيح للسهو او الخطأ او تذكير بنسيان. ولا يُطلَب الشاهدان او الشاهد والمرأتان في حالة عدم انكار الدَّين او عدم حصول خلاف عليه. والعبرة بالحق هي صفة الحق وليس بِكِبَرِ حجمه او صِغَرِه. وهكذا يرضى تعالى ويرضى اطراف الدَّين ولا يُلْحَق ضررٌ بكاتب ولا بشاهد او شاهدة. ولكل من الشاهد او الشاهدة حق طلب ما ينفقه اذ استوجب مجيئُه للشهادة دفعَ اجور سفره ان كان بعيداً. اما توظيف المال بين اثنين او اكثر فلم تُشترَط عندئذ الكتابة ولا يُشترَط وجود شاهدين إلا اذا حصلت مبايعة في الحصص او البضائع. ولا يقلّ عدد الشهود عن اثنين. فإن لم يجد اطراف الدَّين كاتباً او قرطاساً في حالة السفر فقد اوصى تعالى بالرهان المقبوضة أي وضع عينات معادلة لمبلغ الدين رهناً لدى الدائن الا اذا كان التعامل بين طرفين بينهما ثقة بالامانة فعلى المدين الذي ائتمنه الدائن ان يؤدي الأمانة بتقوى الله تعالى. وعلى كل شاهد او شاهدة ان يبادر بقول الحق من غير كتمانه او الإضرار بأحد الاطراف فان لم يفعلوا ذلك فان سلامة قلوبهم تثلم وتسقط امام الله تعالى.

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (284)

القرآن الكريم هدى ورحمة للمؤمنين إذ جعله الله تعالى مُرشِداً إلى عظمة مُلْكِهِ وينبّه الى علميته بما يبديه الانسان وما يخفيه. وينبه الى الحساب على ذلك وما يراه من مغفرة او عذاب. فمن كان يرجو المغفرة ويخاف العذاب فما عليه إلّا ان يُطهِّر باطنه بالصدق مثلما يفعل ليصحح ظاهره. وفي هذه الآية بيان لمشيئة الله تعالى فأجدَرُ بالعبد أن يتفق مع ما يريد الله للعباد من رحمةٍ بهم ويحذرَ ان يُغضِبَ ربه المطلع على مكنونات نفسه.

آَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (285)

شهد الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالايمان الذي فصّل فحواه للمؤمنين ليكمل حظهم منه. فلينظروا إلى ما هم عليه من الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وأن يعلموا أن الرسالات واحدة وإن اختلفت ازمانها واماكنها واقوامها. وإذ علموا ذلك فعليهم الإقرار بالسمع والطاعة وطلب المغفرة والايمان بما يصيرون إليه من لقاء الله تعالى في اليوم الآخر.

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (286)

يطمئِن الله تعالى من آمن من عباده الايمان الصادق بان يكشف لهم سبباً من اسباب رحمته للنجاة من محاسبتهم على ما اكتسبوا وهو الدعاء من جنابه الكريم ان

يعفو عن مؤاخذتهم في النسيان والخطأ. فالنسيان قد يغلب فيتذكر الساهي ويعود لرشده والمخطيء يندم على ما بدر منه ويدعو ربه ان لا يجعل عليه تبعة على ما فعل بل تجاوزاً وصفحاً. وان يطلب المؤمن رحمة من الله تعالى للضعف الذي خلق به الانسان فلا يُحمِّلْه ما لا طاقة له به بل يعفو عنه ويغفر له ويرحمه واكثر من ذلك ينصر المؤمنين على القوم الكافرين. وهذا إرشاد الى الجهاد المتواصل لرفع راية الاسلام وحفظ نور الله تعالى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ال~م~ (1) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (2) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (3) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (4)

سبق الحديث عن المقطّعات في سورة البقرة. والاية الثانية ابتدأت بالشهادة لله تعالى بإنفراده بالأُلوهية بلا فناء. فلا يدبر الامور او يقوم بها غيره والا لانْقَطَعَتْ الأُمور لأن غيره يموت ويفنى. والله حيٌّ لا يموت، وقَيُّومٌ لا ينقطع ولا يغيب. وبينت الآية الثالثة أنه تعالى بهذه القدرة اظهر الحق بنزول ما وضع الحق في نصابه أي القرآن الذي جاء مصدقاً لما سبقه من توراة وانجيل وبهذا يكون قد انزل الفرقان الذي يفرق بين الحق والباطل وهو القرآن الذي فرّق بين الضَلال والهدى ولا يكون حُكمٌ فيه لغير الله تعالى. وهذا الدليل الواضح كَشَفَ أهلَ الكفر بما أنكروه عليه. ويكون حجةً عليهم في عذاب بالغ الشدة يثبت لهم عزة الله في رفيع درجاته ويذيقهم إنتقامه من أعدائه.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (5) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (6)

يبين تعالى لأهل الكفر عِلمَه بما في مكنونات قلوبهم. ويمهد للحجة التي تنفي أن يكون له ولد. فهو الذي يُقِرُّ في الأرحام ما يشاء ويُصوِّره كيف يشاء.

وهكذا أقرّ في رحم السيدة الطاهرة مريم الصديقة العابدة نطفةَ سيدِنا عيسى عليه الصلاة والسلام. وفي هذا حديث للرسول صلى الله عليه وآله وسلم؛ فقد أورد الإمام عبد الله بن احمد النسفي في تفسيره لهذه الآية انه لما قَدِم وفدُ بني نجران، وهم من نصارى اليمن، وكانوا ستين راكباً؛ أميرَهم العاقب، وعُمدتَهم السيد، وأُسقُفَهم أبا حارث. خاصموا في ان عيسى عليه السلام إن لم يكن ولداً لله فمن أبوه؟ فقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ((ألَسْتُم تعلمون أنه لا يكون ولدٌ إلا وهو يشبه أباه؟)) قالوا "بلى". قال ((ألَمْ تَعلموا ان الله حي لا يموت وعيسى يموت، وأنّ ربنا قَيِّمٌ على العباد يحفظهم ويرزقهم وعيسى لا يقدر على ذلك؟ وانه لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء وعيسى لا يعلم إلا ما عُلِّم؟ وأنه صوّر عيسى في الرحِم كيف شاء فحملته أُمّهُ ووضعته وأرضعته وكان يأكل ويُحْدِث وربنا منزّه عن ذلك كله؟)) فانقطعوا فنزل فيهم من بداية آل عمران الى أكثر من ثمانين آية.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (7)

ميّز المولى عز وجل الراسخين في العلم عن ذوي القلوب الزائغة وذلك بما يقفون من موقف مع فَهْمِ القرآن الكريم وشرحِ معانيه. فالراسخون في العلم عندما يشرحون معاني القرآن الكريم يرجعون الى السُّنّة في فهمه. فتظهر وحدانية الله تعالى وصفاتُه الحسنى وسبل تقواه. فيوردون المعنى الذي لا يثير الجدل أو الخلاف بين المؤمنين بل يوجِّهونهم الى الله تعالى ومحبة دينه وعباده الصالحين. فالآيات

الْمُحْكَمات هي الآيات التي يرجع إليها الصادقون في تفسير المتشابهات على هذا الاساس الناصح من التوحيد والتقوى. فكل تأويل يتعارض مع ذلك يدل على زيغ في القلوب المريضة. فنجد ذوي القلوب الزائغة يتخيّرون من القرآن ما يَحتمِل في الظاهر معنيين، أو يحمّلون ألفاظ القرآن الكريم من المعاني ما لا أصلَ له في اسباب النزول ولا صحة له في مراجع اللغة بغياً أو دسيسة على عبادٍ كُلُّ صِلَتِهم في عبادة الله تعالى أنهم أُعتبِروا قدوة صالحة. وهنا على ذوي القلوب السليمة ان ينتبهوا في قراءة تفسير آيات الله تعالى أو سماعه إلى أي تأويلٍ بعيد عن مقاصد الدين الطاهرة وأن يتحرّوا إيضاح الوحدانية وسبل تقوى الله تعالى والتمسك بأحكام القرآن في ما أمر الله تعالى ونهى في المعاملات الحسنة وتأليف القلوب. وهؤلاء هم أُولو الألباب الراسخون في العلم. فإنه لا سبيل لوسوسة الشيطان أو مكائده على قلوبهم لِحُسنِ نواياهم وصدقهم مع ربهم.

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (8) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (9)

الهدى حالةُ رؤيةِ الحقِّ حقّاً بفضلٍ من الله تعالى فهو الهادي. ولهذه الحالة سرورها في القلوب كسباً يخشى عليه المهتدي من فقدانه فيلجأ الى ربه القدير أن لا يعيده الى حالة كان عليها قبل ان يعرف الهدى. ويطلب المؤمن رحمة ربه، ويقرّ له بالايمان باليوم الآخر وبصدق وعد الله فيه سبحانه.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (10) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ

شَدِيدُ الْعِقَابِ (11) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (12)

الكفر المقصود هنا هو تكذيبُ مُترَفي قريش المشركين دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما نزل عليه من الحق اذ انكروا نزول كتاب الله تعالى على من كانوا يرونه (يتيمَ ابي طالب)! فكانت النعمة التي أُتْرِفوا فيها فتنةً لهم لم تُغْنِ عنهم شيئاً إذ كانت موجهة الى تعظيم انفسهم. ولو كانت موجهة لوجه الله تعالى لكانت سبباً لِهُداهم وذخراً لهم. ومَثَلُهم في استحقاق عذاب الله هو مَثَل آل فرعون ومن سبقهم من مُكذِّبي الرسل الذين اخذهم الله بذنوبهم الى عذاب شديد. ولن تُكتبَ النجاةُ لكُفّار قريش من مثل هذا العذاب بعد الخذلان في الدنيا. وهذا ما حصل لهم في معركة بدر الكبرى. وهذا ما حصل لمن حارب المؤمنين في ما بعد من يهود المدينة الذين قلّلوا من شأن معركة بدر ومما كتبه الله تعالى من نصرٍ للمؤمنين فيها.

قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (13)

الخطاب عام يأتي بمبدأٍ بَعثَ الثقةَ في المؤمنين ليقوّي عزيمتهم وإقدامهم إلى عاقبة ينالون بها احدى الحُسنَيين؛ النصر او الشهادة. ذلك بأن الله تعالى يُلقي في قلوب الكفار الرعب ويثبت المؤمنين. فالحافز الذي يدفع المؤمن للقتال يختلف لدى من لا يؤمن باليوم الآخر. وأما تأييد الله تعالى بالنصر فيقدّر الله تعالى لكل معركة او غزوة ما يسبب النصر فيها لمن يريد اعلاء كلمته سبحانه. فيكون تأييده سلاحاً اضافة الى ما أعدّوه من قوة وعدد يرهبون به عدوَّ اللهِ وعدوَّهم.

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ

وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (14) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (15) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (16) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (17) شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (19) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (20)

يبين الله تعالى مزايا السموّ عن الانحطاط؛ فاتّباع الشهوات المذكورة استجابةٌ لغرور النفوس، وما هي الّا كَسْبُ ما هو فانٍ لا يدوم. أمّا اتّباع أسباب الوقاية من هذه الشهوات فهو السمّو مع الملأ الأعلى في جنان ورضوان مع من رسخ ايمانهم وزكى إستغفارهم واتَّقوا بالصالحات عذابَ النار في صبر وصدق وطاعة وجود وكرم والقيام بالأسحار والناس نيام. وكل ذلك لوجه الله تعالى بأن يدوم ذِكرُه في علمهم وقلوبهم لا نِدّ له عزيزاً حكيماً. فمن اختلفوا وخرجوا عن هذا الصراط بعد علمهم فقد بَغَتْ أنفسهم عليهم وتنازعوا على مناصب التسلط والعُلُوّ بغير الحق في الارض. وهذا سبيل نحو الكفر. وهذا بلاغ من الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ودعوة لكي يختاروا الهدى تسليماً للحق وتوجيهَ وجوههم لله تعالى كما أسلم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وجهه لله وكما أسلم الذين اتَّبعوه.

ولا إكراه في الدين. فإن أعرضوا فما على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مسؤولية في ذلك اكثر من البلاغ. ثم أمْرُهم الى الله الذي لا يخفى عليه من عباده شيء. وبصيرة الله تعالى سابقة لأفعالهم وانما ابتلاهم لإقامة الحجة عليهم بأنهم أُوتوا أسباب النجاة إذ دُعوا اليها، كما أُوتوا اسباب الهلاك بالإستجابة للمتاع الفاني فتخلَّوا عن العلم وعن حق الله تعالى في عبادته وطاعته، وبالَغُوا في العناد.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (21) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (22)

آيات الله تعالى علامات واضحة المعالم قوية الحجة فما يكفر بها الا من يجحد الحق ويظلم اهل الحق الى درجة قتلهم. فالانبياء عليهم صلوات الله وسلامه معصومون لا سبيل إلى ما يوجب قتلهم. وكذلك اهل الامر بالحق والعدل من الناس، فانهم ورثة هذه الآيات (والعلماء ورثة الانبياء). ولا يريد التخلص منهم الا الجبابرة الذين يريدون التسلط والعُلُوَّ في الأرض بغير الحق مما يتعارض مع شريعة الله تعالى غافلين عن العذاب الاليم فنَزل الوحي يبشرهم به فلا يجدون لهم من يأخذ بأيديهم للنجاة. وقد جاءت رسالة الاسلام آياتٍ بيّنات فميّز الله تعالى اهل الكفر الجبابرة فما كانوا لِيُعرَفوا بجبروتهم وطغيانهم وغرورهم لولا الرسالةُ البيضاء. وقامت الحجة على الذين اعرضوا عنها وسوف يحاسبون على ذلك كما جاء في الاية التالية:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ

يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (24) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (25)

الذين سبق وآمنوا بالتوراة والإنجيل ثم جحدوا الحق ينكر عليهم المولى تعالى جحودهم فقد جاء يهوديان وسألا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: "على أيّ دينٍ أنت؟" فقال: ((على مِلَّةِ إبراهيم)). قالا: "ان ابراهيم كان يهودياً"! فقال صلى الله عليه وآله وسلم ((بيننا وبينكم التوراة فهلمّوا إليها))! فأبيا جحوداً. ويشير الله تعالى الى قولهم عن عذابٍ افْتَرَوه بأنه ليس (إلا أيّاماً مَعْدُودات) (كما جاء في الاية الثمانين من سورة البقرة) ولا حجة لديهم في أيّ كتاب على ذلك. فهو غرورهم في دينهم. ولم يتطرقوا الى التوبة من الذنوب او الى الإصرار عليها. وما أبعدَ الفرقَ بين الحالين في يومٍ يُجْمَعُون فيه للجزاء فتنال عندئذ كل نفس ما كسبت بعدل لا يُنسَب له ظلم.

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (27)

غفل اليهود عن مشيئة الله تعالى التي تحدد شؤونه الجليلة مع خلقه. فعندما فتح الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم مكةَ وعَدَ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم المؤمنين بِمُلْك فارسَ والروم. وسمع اليهود في المدينة المنوّرة بهذه البشارة التي إنتشرت فيها فقالوا "هيهات! من اين لمحمد مُلك فارس والروم؟ هم أعَزُّ وأمْنَعُ

من ذلك". وفاتَهم أنّ العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ولا يجد مَن أذلّه الله تعالى عزاً من مصدر غير الله تعالى. بيده الخير والقدرة ومشيئته شاملة في كرّ الجديدين؛ الليل والنهار، والحياة والموت، والرزق والْمَنْع. ولا يُسأل عما يفعل. فمن يجرأ على تأويل رسالاته جل علاه بالاهواء الضالة ليجعلوا لأنفسهم مزية لا يستحقونها. فما هو موقف المؤمنين من هؤلاء الجاحدين اهل الغرور؟ يقول تعالى في ذلك:

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (28) قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (29)

الموالاة لإنسان من الناس لها مظاهر مثل طاعته وإيثاره على النفس والاحتماء به ونصرته. وهذا في ظاهر الافعال والاقوال، واما في القلب فهي محبته والاعجاب به وترجيح قَدْرِه. وهي في الاخلاق اقتباس تصرفاته والاقتداء به. وهذه الحالة لا تنبغي أن تكون للمؤمن إلا مع ربه القدير في مؤازرة المؤمنين والعمل معهم ولصالحهم وفي نصرهم ومحبتهم والتمسك بالجهاد معهم. ولكن الله جلّ شأنه جعل فسحةً لمن كان في موقف ضعيف من المسلمين تحت سلطان غير المسلمين. وهنا يكون الاتقاء منهم في الاقوال والافعال على حال الضرورة. ولا مُوالاة لهم في القلب ولا إقتباسَ من اخلاقهم ولا الإعجابَ بهم ولا مَحبتهم. وجاء تحذير الله تعالى من ذلك لوقاية المؤمنين من الفتنة فمن ثبت على سلامة قلبه مع الله تعالى ثَبَّته سبحانه على الايمان ولم يحاسبه على موالاة الكافرين في الظاهر طيلة مدة إتّقاءِ شرهم إلى أن يُكتَب له الخلاص. وعلى المؤمن ان يبذل ما في وسعه في تقوى الله تعالى والهجرة

من موالاتهم والله تعالى يوفقه لذلك. ولا تنقطع الهجرة الى الله تعالى حتى تقوم الساعة.

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (30)

تكرر التحذير ليبقى ماثلاً في قلوب المؤمنين ليذكروا رجاحة الآخرة على الدنيا إذا نافَسَتْ إحداهما الأُخرى. ويُعرف صلاح المؤمن في دينه ما دام يختار ما هو أقرب الى الله تعالى بعيداً عما يجده سوءً يوم القيامة.

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (32)

هنا وجهان من المحبة؛ وأحد هذين الوجهين هو محبة الله تعالى لعبده، والوجه الثاني هو محبة من العبد لربه. وافضل مَثَلٍ لهذا هو محبة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لربه الجليل فلم يكن محجوباً عنها بحب الدنيا وما يحجبه عن مولاه فيها بل ينشد القُرب والرضوان. وهذا باب للمؤمنين لنيل القرب والرضوان بطاعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مع الإتجاه القلبي. فمن أبى فقد جحد هذه الحقيقة الناصعة واقترب من الكفر وخسر المحبة التي جعلها الله تعالى سبباً للمغفرة والرحمة. وتتمثل الطاعة بإقتفاء اثر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من غير بدعة. فـ(البدعة) تزيح احدى السنن لتحل محلها في ضَلال وغفلة وتُحَمِّل صاحبها وِزرَه فيها ووِزْرَ من يعمل بها عن جهل الى ان تُزالَ ويعودَ اهلها الى الهدى والمغفرة.

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33) ذُرِّيَّةً

بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (34) إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (35) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (36) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (37)

آل عمران ذرية من آل ابراهيم، وآل ابراهيم ذرية من نوحٍ وآدمَ؛ مُصْطَفَون من مُصطَفَين عليهم صلوات الله وسلامه. وسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم من آل ابراهيم من اسماعيل الذبيح عليهما السلام. وقد اصطفى تعالى هذه الذرية وجعلها سبباً للتعريف بعبادته تعالى. اذ ان عبادتَه تستوجب اولاً معرفتَه، ومعرفتُه تستوجب تبليغها من قبل الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام. وقد اشار تعالى الى معرفة امرأة عمران غاية الله في خلقه فنذرت له ما في بطنها ان يخدم المولودُ المعبدَ لِيُرفعَ ويُذكَرَ فيه اسمه الكريم. والمعبد المقصود هنا هو بيت المقدس في فلسطين وبذلك يكون المنذور مُحَرَّرَاً من العمل للدنيا. وجاء المولود: (مريم) الصديقة عليها سلام الله. وتقبلها سبحانه منذورة لا يقربها شيطان ولا يمكن ان تكون زوجة لأحد فهي اَمَةٌ تخدم ربها لتقديس اسمه وليهبَ لها من تَقَرُّ به الأعين، رسولاً من أُولي العزم برّاً بوالدته. واختارت ام مريم لابنتها هذا الاسم ويعني (العابدة) رجاءَ أن يعصمها الله تعالى من عبادة غيره. والام تخاطب ربها بما يعتمل في نفسها من رجاء. وهي تعلم ان الله تعالى يعلم ذلك منها من غير ان تخاطبه ولكنْ من لا يغفلُ عن الله تعالى يعرض له ما في قلبه كما قال سيدنا نوح ((رَبِّ إِنَّهُم عَصَونِي)) وهو يعلم أن

علم الله تعالى سابق بذلك. وامثالها عند الانبياء والاولياء كثيرة. وجاءت ام مريم بإبنتها مريم لِسَدَنة بيت المقدس الذين يُقدَّم لهم النذر. وتنافسوا على كفالتها بينما طلب سيدنا زكريا عليه السلام (وكان نبيَّ زمانه) ان يكفلها ولا سيما وأن أُختَها زوجتُه. إلا ان السَدَنة طلبوا الاقتراع فوقعت القرعة على كفالته لها فاجتمع لمريم شرف المولد والقبول الحسن وشرف المنبت الحسن والكفيل الذي لم يكن قد رُزق بذريته حتى ذلك الحين وبلغ به الكبر مبلغه. ومرت الايام وآيات الله تتوالى في رعاية مريم عليها السلام وكان يرى عندها رزقاً في غير موسمه فيسألها فتقول هو من عند الله. وهنا يخبرنا تعالى عما كان من زكريا عليه الصلاة والسلام بعد ما رأى ذلك منها:

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (38) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (39) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (40) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (41)

لم يكن لسيدنا زكريا عليه السلام علم عن نبِيٍّ من بعده ليرث العلم والنبوة والتوراة. ولم يكن في مَن عرف من بني اسرائيل من سيخلفه. وخاف على هذه الوراثة من العبث بها. فدعا ربه لوريث ينهض بالشريعة في قومه. وجاءته البشرى بأن النبي المرتقب هو من صُلْبِه وهو سيدٌ كامل الخلقة والخلق، وحصور أي لا يلتفت الى الدنيا ولا رغبة له في النساء، ويتلقى الوحي اهلاً لهذه النبوة. وعجب

عليه السلام من هذه البشارة ولكن الله تعالى ذكّره بقدرته فطلب علامة على حصولها. فكانت أنْ يُمنَعَ عن الكلام ثلاثة أيامٍ لم يُفتَحْ له الكلام خلالها مع الناس إلا بالرمز ذاكراً الله تعالى في تسبيحه بالعشي (أول الليل) والإبكار (الفجر). وحصل دعاؤه عليه السلام وهو في المحراب يصلي. وفي هذا إشارة للدعاء في السجود اقرب ما يكون فيه العبد من ربه.

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (42) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (43) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (44)

روى الامام مسلم عن حنظلةَ بن ربيع الأُسَيدي رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عليه عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طُرُقكم)). فلا عجب وقد بلغت مريم الصديقة عليها السلام مبلغ الكمال في ذكر الله تعالى أنْ جعل الملائكة يخاطبونها ويبشرونها شفاهاً ويباهون بها بقولهم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين أي استمري في الانقطاع الى الله تعالى. واما الاقتراع فما يحصل منه هو بمشيئة الله تعالى من لطفه الخفي يحسبه الجاهل من قبيل الصدفة، فكانت القرعة أن يكفلها زكريا عليه السلام بإرادة الله تعالى. وما لم يشأ لم يكن. وفي هذا الخبر من الغيب إختصاص من الله تعالى لتأييد صحة الرسالة التي جاء بها سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (45) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (46) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (47)

وكما تساءل زكريا عليه السلام: أنى يكون له غلام؟ ها هي مريم اذ جاءتها البشارة بالكلمة الربانية إسمه المسيح، وبما وهبه الله تعالى من جاهٍ في الدارين وقُربٍ من خالقه الجليل مكرماً بالمعجزات من المهد الى الوفاة كهلاً، تسأل عن الوسيلة غير المألوفة ليكون بها ولدٌ لها ولم يمسَسْها بشر! فأتاها الجواب بأن ذلك كائن من إرادة الله تعالى وبأمره وقضائه المبرم بـ(كُن)!

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (48) وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (49) وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (50) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (51)

هكذا المسيح عليه السلام موضع العناية الالهية في تعليمه واختصاصه بالرسالة الى بني اسرائيل مع المعجزات التي أظهرها الله تعالى على يده فكان رحمةً في التخفيف عنهم وليحل لهم بعض الذي حُرِّم عليهم لم يَنَلْ من هذا الخير الا من آمن به رسولاً يرشدهم الى ربوبية الله تعالى وعبادته على صراط مستقيم، أي وفق أحكام الشريعة.

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (52) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (53) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (54) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (55) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (56) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (57) ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآَيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (58)

دعا سيدنا المسيح عليه السلام بني إسرائيل الى الشريعة خاليةً من بِدَعِ وأهواء أهل الزيغ من أحبارهم الذين وجدوا ذلك شاقّاً عليهم بسبب ما كان لهم من دنيا في تلك البدع. ولمس منهم عليه السلام آذاناً صماء وغشاوة على بصائرهم فأحس كفرهم الا قليلاً ممن رحم الله دعاهم لنصرته فاستجابوا وبايعوه على نصرته وأشهدوه على إسلامهم ليشهد لهم عند ربهم. ولم يَرُق لأهل الكفر انتشار دعوة الحق فأخذوا يتدارسون مكيدةً يوقعون بها المسيح عليه السلام للتخلص منه قبل ان يلتَفَّ حوله القوم ويتخلَّون عنهم. ولكن الله تعالى انقذ رسوله عليه السلام وتوفاه ورفعه اليه وطمأنه على أتباعِه ومنْزلتهم فوق اعدائه الكافرين. وانه تعالى يعذب الكفار في الدنيا والاخرة. وهكذا بطل مكرهم في قتله. ويستدل من قوله تعالى ((وَرُوحٌ مِنْهُ)) انه لا يمكن قتل روح الله فمن اعتقد بأن المسيح صُلِب فقد نسي الثقة بقدرة الله تعالى على نصرته وبقدرته تعالى على تشبيه الخائن الذي مكر به على هيئة تشبه المسيح فنال جزاءه وصُلِب. واما المؤمنون فمن عمل صالِحَ الاعمال فقد وعدهم

تعالى بالاجر على ذلك وبين أنْ لا مكان للظالمين في محبة الله.

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آَدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (59) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (60) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (61)

جاء في شرح معاني الايتين الخامسة والسادسة من هذه السورة ان وفد نصارى نجران قالوا للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ((هل رأيت ولداً بلا أبٍ؟)) وبيّن لهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم خطأ ظنِهم وزيغَ عِلمِهم بالله تعالى اذ ينبغي للولد ان يشبه اباه بينما الرب لا يموت والمسيح يموت والرب يَرزُق وعيسى لا يقدر على ذلك وان الله يعلم غيب السموات والارض وعيسى لا يعلم الا ما عُلِّم. وجاء برهان الله تعالى في هذه الاية بأن آدم عليه الصلاة والسلام لا أبَ له ولا أُمَّ بل خُلِق من تراب ثم قال له: كن. وهكذا أمرُه تعالى ((كن، فيكون)) وهكذا اعطى الله تعالى الحجة للرسول صلى الله عليه وآله وسلم لا يحتاج معها ليكون من الممترين مع اهل المراء فان المراء ينقطع بالحجة الناصعة. ومع هذا ارشد المولى عز وجل رسوله صلى الله عليه وآله وسلم الى المباهلة، وهي هنا الْمُلاعَنَةُ أي الإبتهال إلى الله تعالى أن يجعل لعنته على الفريق الكاذب عندما لا تنفع معهم الحجة الناصعة. وقد بادر الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم إلى دعوة عليٍّ وفاطمةَ والحسنِ والحسينِ عليهم السلام وأدخلهم في عباءته للمباهلة مما دل عند وفد نصارى نجران على ثقته من حجته فلم يستجب له الوفد المذكور، خوفَ أنْ تلحقَهم اللعنة، مما يدل على حصول شك لديهم في هذه المسألة. وعندئذ رضوا بما اشترط عليهم رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم من دفع الجزية ومصالحتهم عليها وعادوا الى وطنهم في اليمن.

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (62) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (63) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (64)

بعد وضوح الحق، والحق أنْ يُعبَدَ الله، لا إله إلا هو، عزيزاً حكيماً، يطلب الله تعالى دعوة اهل الكتاب الى كلمة الحق هذه والتخلص في هذا الحِمَى من اتخاذ غير الله تعالى رباً. وهذا ما اجمعت عليه كُتبُ الله تعالى في إفراده بالعبادة فاستوى كلٌ منها على التوحيد فكان هو الكلمة السواء بين المسلمين وأهل الكتاب. فمن اختلف على ذلك فقد افسد عقيدته وأراد إفسادَ عقائدِ غيره، وما على المؤمنين من ذلك من شيء بل يوضحون موقفهم للمفسدين ويُشهِدونهم على الثبات على التسليم لله تعالى بوحدانيته وحقه على عباده بالإسلام له مخلصين له الدين.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (65) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (66) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (68)

لم يورد اهل الكتاب في محاجتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أي

شيء من صحف ابراهيم وتعاليم الله التي انزلت عليه بل جاءوا بما تأوّلوه من التوراة والانجيل فأوصلهم تأويلهم الى الشرك والزيغ فكيف يدّعون انهم على ملة ابراهيم عليه الصلاة والسلام (كما جاء في الاية الاربعين بعد المائة من سورة البقرة) وقد انشغلوا بتأويلاتهم التي نسبوا فيها إلى الله تعالى أنه حصر النبوّة في بني اسرائيل! بينما جاء سيدنا ابراهيم بالوحدانية ساطعة الانوار كما هي في القرآن الكريم. فيكون الأحق بإبراهيم عليه الصلاة والسلام هو من نزل القرآن على قلبه، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومن تبعه الى يوم الدين. والحجة قائمة على اهل الكتاب بأن الاسلام دين الحق الى يوم القيامة بما أيّد الله تعالى هذا الدين بنصره ولا يزال أتباعه مثالاً في التمسك به حفظاً ودراسة وتعليماً وعملاً وكل ذلك يدخلهم في ولاية من يجاهدون لوجهه الكريم سبحانه.

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (69)

جاء نفر من اهل الكتاب الى كلٍ من حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر ومعاذ بن جبل (رضوان الله عليهم) على إنفراد يدعونه الى اليهودية لكنهم إنقلبوا خاسئين وعجبوا من صلابة هؤلاء الأصحاب في دينهم. ثمّ بعد ذلك انقطعوا عن دعوة أيٍّ من الصحابة رضي الله عنهم. ومن كيد هؤلاء اليهود ان دعوتهم لم تكن من أجْل الثلاثة بل ليحاربوا بذلك دين الاسلام. ففي الجاهلية لم يسبق أن دَعَا يهوديٌ أحداً من عَبَدةِ الأصنام الى اليهودية. وفعلهم هذا ادخلهم في ضلال جرّوه على انفسهم من زيغ قلوبهم ولو انهم اتبعوا ما ورد في كتبهم من البشارات بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم لاهتدوا. ولكن قست قلوبهم وغلبها الحسد الى

ضلال مبين.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (70) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (71)

بلغ من غفلة اهل الكتاب عن الحق انهم مع البشارات المذكورة وصلابة المؤمنين في دينهم ونصرة الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم وللمؤمنين، كفروا بكل ذلك! فليبحثوا إذاً عن سبب تصرفهم هذا ليعرفوا حقيقة زيغهم. ولكنهم لم يُظهِروا ما عرفوا من الحق بل ألبسوا الحق بالباطل ليكتموه مع علمهم بكيدهم. فيتساءل رب العزة، بإنكار، عن دوافعهم، وهو تعالى أعلم بها، لعلهم يرجعون الى انفسهم.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (72) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (73) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (74)

مكيدة من طائفة من يهود أن يتظاهروا بالايمان فيُصَلُّون الصبح مع المؤمنين ثم يكفرون آخر النهار لعلهم يجدون من يرتد من الضعفاء على أن لا يُظهِروا ما عندهم من علم إلا لمن هو على دينهم. وهنا يواجههم الله سبحانه بأن سعة رحمته تشمل هدى غيرهم من الامم وإقامة الحجة على جحودهم. فإن فضل الله تعالى لا يُمنَع عن عباده فهو اوسع من أن يقصر فضله على يهود دون غيرهم. وإنه يعلم جيداً من يستحق من رحمته القَدْرَ الكبير فيتفضل عليهم بعظيم فضله.

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ

عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (76) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (77)

بعدما أورد المولى عز وجل عن اهل الكتاب من يمكر بالمؤمنين ليردّوهم عن دينهم ذكر تعالى صنفاً آخر من اهل الكتاب في ما يتعلق بالمال والامانة. فالامانة المالية من قبيل التجارة المشتركة وحفظ المال يحصل فيهما كلام ثقة او عقد مدوَّن او عهد موثق باليمين. فمن تحايل على خلاف ذلك فقد اشترى بذلك ثمناً قليلاً أي خسر الآخرة بشيء قليل. وقد نزلت الاية في يهودي يدعى فنحاص بن عازوراء استودعه قرشي ديناراً فجحده. بينما ردّ عبد الله بن سلام رضي الله عنه مبلغاً كبيراً كان مودعاً عنده وذلك قبل إسلامه. وفي بعض التفاسير ان جماعة من قريش لم يكونوا قد أسلموا بعد إشتركوا مع يهود في تجارة فلما أسلم القرشيون جحد اليهود حقوقهم بقولهم: "غيّرتم دينكم فليس لكم علينا حق نَجِدُ ذلك في كُتُبِنا"! وهذا ما أشار اليه تعالى بقوله ((وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)). وامتدح المولى عز وجل الذين يوفون بعهدهم وجعل ذلك من سبل التقوى التي تؤدي الى محبته بينما توعد الجاحدين بغضبه وعذابه.

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (78) مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ

(79) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (80)

هذا الفريق هم الذين يأتون بكلام من عندهم في سياق تلاوتهم للتوراة من اجل ان يصدوا عن سبيل الله بتشكيك المؤمنين. بينما يعلم الله تعالى من انبيائه ورسله انهم يؤدّون الامانة ويبلغون الرسالة. وقد جاء وفد من يهود الى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم (في ما رواه إبن اسحق عن ابن عباس رضي الله عنهما) فقالوا له: "أتريد ان نعبدك كما تعبد النصارى عيسى؟" فقال لهم ((مَعاذَ اللهِ أنْ نَعبُدَ غير الله او أن نأمرَ بعبادةِ غيرِ اللهِ. ما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني)).

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (81) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (82) أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (83)

في هذه الآية تمام النعمة في رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو الذي جاء مصدقاً لما سبق من الرسالات. وفي التفاسير ان الله تعالى اخذ من كل نبي ميثاقاً بأن يؤمن بالرسول الذي يجيء بمثل ما آتاهم الله (مِن) كتاب وحكمة وينصره. وهنا يدل حرف (مِن) للتبعيض أي أن ما اوتي الانبياء قبل بعثةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم سيكمل برسول يأتي من بعدهم خاتماً لهم مصدقاً لما معهم فما عليهم إلا الايمان به ونصرته. وفي هذه الاية حجة على المؤمنين بأن يبايعوا من يحمل لواء الاسلام على الوجه الصحيح الخالي من كل مزيّة او تمييز لنفسه لتعلو في

الارض. وهذا ما فعله الامام علي كرم الله وجهه في مبايعة من سبقه من الخلفاء الراشدين عليهم رضوان الله تعالى. فالمهم صدق من يبلِّغُ الرسالة بأن لا يبتغي من الدين إلا ما كان لله عز وجل وليس لنفسه أو لفرد معيَّنٍ. واما قوله تعالى ((فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)) فهو تحذير للمؤمنين بأن لا يتخلَّوا عن دينهم بل يؤيدوا من يرفع راية الاسلام بحقها فالله تعالى يعلم الغيب ولا يُعطي النبوة لمن يعلم انه سيتولى عنها بل التحذير موجّه لمن يتبعونهم الى يوم القيامة بأن لا يختاروا الا دينَ الله الذي حكم على خَلْقِهِ بأن يُسلِموا له شاؤا ام أبَوا طوعاً أو كَرْهاً.

قُلْ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (84) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (85)

الامر هنا للرسول صلى الله عليه وآله وسلم بينما طَلَبُ القولِ بصيغة الجمع للمتكلم يشمل كل المسلمين ليعلم الناس وحدة الدين الواحد مع جميع الرسل (عليهم الصلاة والسلام) وهو الاسلام لله تعالى فمن تأوّل غير ذلك فلن يقبل منه أي من ابتدع من الدين ما ليس فيه، كَنِسْبَةِ الأُبوّة الى الله سبحانه عن ذلك وتعالى علوّاً كبيراً، ومن نسب الخصوصية لبعض الأنبياء دون غيرهم في الدين فقد خسروا مفهوم الدين وخسروا في الآخرة ما وعد الله المسلمين به من نعيم مقيم. ثم يدعو تعالى من خرج عن الدين الى التوبة والاسلام له فيقول:

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (86) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (87) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (88) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (89)

الحارث بن سويد جاء من قومه الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فشهد لله تعالى بالوحدانية وشهد أنّ الرسول حق ورأى الايات الدالة على الحق. ولما رجع الى قومه بعد هذا الايمان دَخَلَه ما أدّى به الى الكفر. ولكن رأفة الله تعالى به وبمن سيكون على شاكلته ادركته لتدعوه الى التوبة والنجاة فنزلت الاية تحذرهم من لعنةٍ دائمة متواصلة العذاب من غير إمهالٍ، لا يرحمهم فيها ربهم ولا تعطف عليهم الملائكة ولا الناس اجمعون. ففتح المولى عز وجل باب التوبة ليستغفروا ويتوبوا ويعملوا الصالحات فيجدوا الله غفوراً رحيما. وسمع الاية رجل من قوم الحارث فلحقه وحمل البشارة اليه فقرأ الآيةَ فقال الحارث: "والله إنّك، ما عَلِمْتُ، لصادق وإن رسول الله لأصْدَقُ منك وإن الله لأصدقُ الثلاثة." ورجع الحارث وعُرِف بِحُسن إسلامه.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (90) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (91)

الذين آمنوا برسالة سيدنا موسى وكفروا برسالة المسيح عليهما الصلاة والسلام ولم يندموا على ذلك ثم كفروا برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد ازدادوا بذلك كفراً ولم يرجعوا إلى الحق وقد ظهرت الآيات والبشارات. فالآيات التي

جاء بها المسيح والبشارات الدالة على ظهور سيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام اوجبت الايمان بهما. الا انهم تجاهلوا ذلك فضلّوا ولم يهتدوا الى توبة. وهناك صنف آخر تشملهم الآيتان وهم المرتدّون والمنافقون، فإنهم كفروا بعد ايمانهم، فلم يُبيّن لهم المولى عز وجل طريق الهدى ليعودوا فهو يعلم من هؤلاء بأنهم لن يدخل قلوبهم من هذه الحقيقة شيء. واما من مات على الكفر فقد اخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما والامام احمد في مسنده عن انس رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ((يقال لرجل من اهل النار يوم القيامة لو كان لك ما على الارض من شيء أكُنتَ مفتدياً به؟ قال: فيقول نعم، قال: قال الله تعالى قد أرَدْتُ منك أهونَ من ذلك، قد أخَذْتُ عليك مِن ظَهْرِ ابيك آدم أن لا تُشرِكَ بي شيئاً فأبَيْتَ إلا أنْ تشرك)). كما روى الأمام احمد في مسنده عن انس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (من حديث طويل) ((... ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول (القول لله تعالى) يا ابن آدم كيف وجَدْتَ منزلك؟ فيقول: يا رب شرَّ منزلٍ فيقول له: اتفتدي مني بطِلاعِ الارض ذهباً؟ فيقول. أي رب نعم. فيقول: كذبت، قد سألتك أقَلَّ من ذلك فلم تفعل)).

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (92)

البِرّ في سلوك الانسان هو ما يوصله لرحمة الله تعالى في الجنة. وسمي التصرف مع الوالدين بما يكسب الولدَ الجنةَ (بِرّ الوالدين). وروى ابن ماجة عن عبد الله بن أبي أوفى أنّ مما عَلَّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اصحابه من الدعاء (طلب الغنيمة من كل بِرٍ والسلامة من كل إثم) فقابل السلامة من الإثم بطلب الغنيمة من

البِرِّ أي تجنُّب الإثم، والبر في نفقة المال تكون في حقيقتها ان المنفق قد اقرض الله تعالى افضل ما عنده من مال موقناً بأن الله تعالى سيدخر ذلك له أي سينال المنفق البِرَّ لنفسه. وقد اخرج الديلمي في الفردوس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله ((يقول الله تعالى: الْمُنفِق يُقرِضُني والْمُصَلِّي يناجيني)). وروى الامام احمد في مسنده عن ابي ثعلبة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله ((البِرُّ ما سكنت اليه النفس واطمأن اليه القلب)). فمن مزاياه يجعل الله في النفس سكينة وفي القلب طمأنينة.

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (93) فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (94) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (95)

مجموع الطعام هنا هو موضوع نزاع على حِلّهِ او حُرمته. واما المحرَّم من الطعام كالدم ولحم الخنزير فلا مِرْية في حُرمتِه. ومن حديث طويل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في اجوبته على اسئلة يهود وأخذِه العهدَ عليهم أنهم إذا أجابهم بما يعلمون أن يتابعوه، قال لهم ((أنْشِدُكُمُ بالذي انزل التوراة على موسى هل تعلمون أن إسرائيل (وهو يعقوب عليه السلام) مَرِضَ مرضاً شديداً وطال سقَمُه فنذر لله تعالى لئن شفاه الله من سقمه لَيُحرِّمنّ أحبّ الطعام والشراب إليه وكان أحبُّ الطعام اليه لحمَ الإبل، وأحبُّ الشراب إليه ألبانَها؟)) فقالوا: "نعم اللهم". فقال ((اللهم اشهد عليهم)). الحديث. والمعروف ان التوراة أُنزِلت بعد يعقوب بقرون كان بنو اسرائيل خلالها يحرِّمون على انفسهم لحومَ الابلِ وألْبانَها جرياً على سُنّة يعقوب عليه السلام.

ولما طالبهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ان يتّبعوا ملة إبراهيم (أي قبل ان يحرّم يعقوب ذلك على نفسه) لم تلْقَ هذه الدعوة استجابة منهم فجحدوا حقها ولم يأتوا بالتوراة التي تُصدِّق جواب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. ولا تزال الدعوة قائمةً على بني اسرائيل لإتباع ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين، وهي مِلَّة كلِّ الأنبياء عليهم السلام، فدينهم واحد على ذلك.

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (96) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (97)

آيات بيت الله الحرام معالم وخواص؛ فمن معالمه مقام ابراهيم أي موضع قدمي سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام على صخرة كان يقف عليها في بناء الكعبة. وقد حُفِظت الصخرة مؤخراً في غطاء زجاجي قائم قرب الكعبة. وجاء إسمُ مَكّةَ هنا (بَكّةَ) ولهذا قيل اسم مكة يشمل كل مكة، واسم (بكة) هو موضع البيت الى البطحاء. اما خاصيته في الارض لمن دخله فقد روى الترمذي وابن ابي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله عمّن يلتجيء من اهل الذنوب الى البيت هرباً من العقاب: "من عاذ بالبيت أعاذه البيت ولكن لا يؤوَى ولا يُطعَمُ ولا يُسقى فاذا خرج أُخِذَ بذنبه". ومن خواص البيت اجتماع المسلمين في كل موسم فلا يغيب بلد عن بلد في معرفة أحوالهم. وعلى الناس ان يحجوا البيت لمن ملك الزاد والراحلة والمقدِرة فكان الحج فرضاً فمن انكر فرضيته فهو المعنيّ بالكفر في هذه الاية. ويمكن للضعفاء الإستعانة بغيرهم أو قيام غيرهم بِالحج بدلاً عنهم، يقوم به من سبق له الحج عن نفسه.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (98) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (99)

لَمّا نزل قولُه تعالى ((وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ))، قال يهودٌ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "فنحن مسلمون". فقال لهم ((إنّ الله فرض على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا)) فقالوا: "لم يُكتَب علينا". مع أنّ كتبهم حملت البشارات بالنبي الأمي وأنّ عليهم إتّباعَه. وهكذا اراد اعداء الله سبحانه ان لا يكون حجٌّ ولا صلةٌ بين المسلمين ليصدوهم عن سبيل الله والله تعالى يقول للذين آمنوا:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (100) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (101)

فريق من أهل الكتاب (من اليهود بعد الهجرة) كفروا بما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأخذوا يكيدون ليصدّوا الناس عن الإيمان بالله وبرسوله وليردّوا المؤمنين عن دينهم إن استطاعوا. فكان منهم ما جاء ذِكره في الآيات السابقة من قبيل الدعوة لدينهم والتشكيك بالوعد والتقليل من قيمة الإنتصارات والتظاهر بالإيمان أول النهار ثم الكفر آخره وما إلى ذلك. وأخذوا يستدرجون المؤمنين بزخرف القول. وهنا حذّر المولى تعالى من مطاوعة ذلك الفريق فإن في ذلك خطوة نحو الردّة. ومع التحذير ينأى سبحانه بالمؤمنين عن تلك المطاوعة لسموِّ ما دخل في قلوبهم وهم يسمعون آيات الله يتلوها رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وفي

هذا عصمة بنور الله إلى صراط مستقيم. ويبين المولى عز وجل معالم التبصُّرِ للمؤمنين إلى يوم الدين فيقول سبحانه:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103) وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (105) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (107) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (108)

وهكذا الشريعة الاسلامية جعلها الله تعالى سوراً يعتصم داخله المؤمنون ويخشون ان يحدث فيه ثغرة تدخل الاهواء من خلالها. فكما تمنع الاسوار المنيعة آفات الأمن والسلام هكذا تقوى الله حق تقاته فالذين اعتصموا بهذا السور لا يلقَون الله تعالى إلا وهم مسلمون سالمون لم يفتحوا قلوبهم لمن يريد لهم غير الاسلام دينا. فمَن وَعَى هذا الإرشاد فليشكر الله تعالى اَنْ جعله فرداً بين أُمّة موحَّدة متآلفة القلوب ناجية. ويدوم هذا الاعتصام بالحذر مما يهبّ عليه من عواصف الزيغ وذلك بتخصيص فئة من ذوي الاحلام والمعرفة يتربصون للمنكر فينهون عنه ويوجّهون الأمّة للمعروف. وهذه الأُمّة التي فيها من يدعو لهذا الخير هي أُمّة مفلحة ما استقامت على الطاعة ثم التمسك بكتاب الله وإلا فالضياع والعذاب العظيم يوم لا

ينفع الظالمين معذرتهم ولا يشفع لهم أحد من دون الله. وليعتبر المسلمون بالأقوام الذين اختلفوا في ما بينهم بعدما جاءهم العلم والبينات فإنّ أُولئك لو تمسكوا بما جاءهم لَما دخلتْهم الأهواء بغياً بينهم ولَما اسودت وجوههم بإعراضهم عن آيات الله سبحانه وهو يبين معالم الحق في آياته وأنها محجة بيضاء يحاسب بها فلا ظلم بعدها.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (109)

عذاب من اسودت وجوههم ونعيم من ابيضت وجوههم تقدير حكيم من الله تعالى الذي يملك النواصي ويملك السمع والبصر والفؤاد ويملك يوم الحساب فلا يناقش في تصرفه ولا ينسب له ظلم في ملكوته.

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (110)

عرَّف الله تعالى خيرَ الأُمم هي التي تدوم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضمن الايمان بالله. ولو فعل ذلك جميع اهل الكتاب لكانوا في خير. إلا أن غلَبة الفسوق على اكثرهم ابعدتهم عن ذلك. فلو كانوا على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ايماناً بالله تعالى لما كثر فيهم الفاسقون، وقد ورد في التفاسير تفصيل احكام النهي عن المنكر بالزجر والتعزير على ان تحدد المنكرات المنهي عنها ليكون عامةُ الناس على بيّنة منها على قاعدة ((وَلا عُدْوانَ الّا عَلَى الظَّالِمِينَ)). اما الزجر فليس فيه عقوبة الحبس او الجَلْد. واما التعزير فمن حق الحاكم ان يفرضه بالقدر الذي يمنع المنكر من جَلْدٍ وحَبس وقتل. فاذا بلغ المنكر ما يستوجب إقامة الحدود

فيحال ذلك الى القضاء للعدالة وحفظ السلامة. ((وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حياةٌ يا أُولِي الأَلْبَابِ)).

لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (111) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (112)

الخطاب موجه الى خير أُمّة معتزة بشرع دينها بأن لن يضرها (ممن لم يؤمن من اهل الكتاب) الا اذىً. فالعزة التي كتبها الله تعالى لجنابه ولرسوله وللمؤمنين تجعل عدو المؤمنين الصادقين في خذلان حتى وإن بادر بقتال المؤمنين واراد النيل منهم فلن يتعدى حدود الاذى. ولن يجد كفَرةُ الكتاب العزَّ إلّا اذا دخلوا في ذمة غيرهم، وهذا ما جعلهم في ارض الاسلام (أهلَ ذِمَّةٍ)، وإلّا اذا دخلوا في صلح او عهد مع الناس. واما اعتداؤهم فهو تجاوُزٌ لحدود الله ومبادرتهم بالعدوان كلما وجدوا لذلك فرصة حتى عَدَوا على الانبياء فقتلوا منهم بغير حق. اذ لا يمكن ان يبدر من نبي ما يستوجب قتله. وبهذا استحقوا غضب الله تعالى فضَرَب عليهم ذِلةً ومَسْكنة.

لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (113) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (114) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (115)

كان نفرٌ من اهل الكتاب في صدق مع الله تعالى وتقوى وعبادة قبل البعثة المحمدية كما وصفهم هنا سبحانه حتى إذا بُعث سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم آمنوا به ومنهم ابن سيد اليهود وهو عبد الله بن سلام رضي الله عنه، وأسد بن عبيد وثعلبة بن شعبة واصحمة النجاشي ملك الحبشة. كما ايّد ورقةُ بن نوفل (وكان موحِّداً على دين سيدنا المسيح عليه السلام) صحة نبوّة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وكان قد بلغ من الكبر مبلغاً فقال للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ((ليتني كنت جذعاً اذ يخرجونك)). وقد ذكر الله هذه الفئة من اهل الكتاب تمييزاً لهم عمن تقدم ذمُّهم منهم، فقال (لَيْسُوا سَوَاءً). وكرّر ذكرَهم في آخر هذه السورة بقوله تعالى: ((وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)).

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (116) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (117)

تكون عاقبة النفقة حسب النية التي بُنِيَت عليها. فنفقة المؤمن الصادق تكون قربةً الى الله تعالى وليس فيها طلب دنيا من جاه ورفعة على الناس. واما النفقة التي لم تنفع اهل الكفر فقد بنيت على اساسٍ فانٍ. وشبّه تعالى هذه النفقة بالريح التي تحمل ما يفسد الزرع من آفات المناخ. و(الصِرّ) في التفاسير هو البَرَد او الجليد الذي يجمد به الزرع النابت والمحتاج للدفء والماء فيَهْلِك. كما أن الحريق يُهلِك

الزرع الذي آن حصاده. وما يحصل هذا ظلماً لهم بل بظلمهم انفسَهم في كفرهم ونفقة المال في الصد عن سبيل الله.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآَيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (118) هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (119) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (120)

كشف الله تعالى بما سبق من آيات عن اهل الكفر من اهل الكتاب نواياهم ومقاصدهم من اقوالهم وافعالهم مما يُحذّر المؤمنين من الركون الى تقربهم. فانهم سيكونون في سلوك مُعادٍ لا يرجى منهم سمو في العقل يسترشد به ولا يرجى منهم الوقوف في الشدائد مع المؤمنين ولا يؤمل منهم الاخلاص الذي موضعه القلب ولا المحبة التي تأتي منه ولا يقصّرون في الْخَبال أي جلب الشر والفساد خلافاً لما يكون المؤمنون عليه في ما بينهم من محبة واخلاص لبعضهم البعض. وقد ظهر من معاصري الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من كفرة الكتاب ما كشف جحودهم لآيات الله في نصر الحق. وكانوا يترقبون فشل الدعوة المحمدية. ومن كان هذا شأنه مع المؤمنين فلا يصح ان يستعان به في ادارة امور الدولة مهما ظهر منه علم او كفاءة فانهم بذلك ستكون لهم استطالة على المؤمنين وإطّلاعٌ على اسرار الدولة يمكن ان يفشوها عندما يرون ذلك لمصلحة اهل دينهم في اوقات الحروب. وقد جعل الله تعالى للمؤمنين سلوكاً ازاء كيد هؤلاء الحاقدين على الاسلام وهو التقوى

والصبر على التمسك بالشرع الحنيف الذي فيه يدخل المؤمنون بولاية ربهم وحفظه فهو الذي يتولى الصالحين ويكون بالمرصادِ لأعدائهم فهو محيط بكل عمل من اعمال هؤلاء. ويميز الله تعالى المؤمنين الصابرين عن المنافقين كما يميزهم عن كَفَرة اهل الكتاب في الايات التالية وفيها نبذة عن معركة أُحُد.

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (121) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (122) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (123)

في منتصف شوال سنة ثلاث للهجرة، وكان يوم سبت، خرج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في سبعمائة من اصحابه رضي الله عنهم للدفاع عن المدينة. وكان عدد جيش الكفار من قريش ثلاثة آلاف قدموا للهجوم على المدينة يوم معركة أُحُد وقبل ان يصلوا اليها أنزل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم المؤمنين منازلهم في شِعْبٍ في جبل أُحُد بحيث كان أُحُد في ظهر العسكر واوصى خمسين من الرماة ان يلزموا مكانهم ليصدوا الهجوم على ان لا يبرحوا مكانهم مهما شاهدوا من الجيشين. وانزل بقية الجيش مَيمَنةً وميسرة. إلا ان الرماة بعدما شاهدوا نصراً للمؤمنين تركوا منازلهم مما رجّح كفة الكفار لخلوّ المسالك لهم فكان ما كان من هجوم قُتل فيه سبعون من الشهداء فيهم الحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه. وتميز المنافقون في هذه المعركة بأنهم تخاذلوا عن الخروج لقتال الكفار وكان على رأسهم عبد الله بن أُبَيّ بن سلول في ثلث الجيش رجعوا الى المدينة. واما الطائفتان المذكورتان فهما حيّان من أحياء المؤمنين؛ بنو حارثة، وبنو سَلَمة. فقد هموا بالإنحياز الى عبد الله بن ابيّ بن سلول ولكن الله تعالى حفظ ايمانهم وعصمهم من التخاذل

وبقَوا مع المؤمنين. وفي هذا يأمر الله تعالى المؤمنين ان يتوكلوا عليه أي ان يطيعوا ما امر به من طاعةِ أُوْلي الامر منهم ولا يلتفتوا الى من يريد شق صفوف المسلمين. ثم ذكّرهم تعالى بنصره في معركة بدر وكيف امدّهم بأسباب النصر عندما توكلوا عليه ولم يعص احدٌ منهم قائدَهم سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فنالوا النصر بالتوكل والطاعة كما في الآيات التالية. وسيأتي الكلام على معركة أُحُد في الآية التاسعة والثلاثين بعد المائة وما بعدها إن شاء الله تعالى.

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (124) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (125) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (126) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (127) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (128) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (129)

روى ابن ابي حاتم عن حارثة بن مضرب أن علياً كرم الله وجهه قال ((كان سيما الملائكة يوم بدر الصوف الابيض وكان سيماهم ايضاً في نواصي خيولهم)) أي كان المؤمنون يعرفون بعضهم بعضاً بغير هذين الدليلين فلهذا استدلوا منهما على مدد الملائكة. ومع هذا اشترط سبحانه على المؤمنين الصبر في مواجهة العدو والتوكل على طاعة القيادة المؤمنة واتقاء المعصية ومن ثم يمدهم بآلاف الملائكة. ولم يقتصر وعده على مؤمني بدر او عصر النبوة بل الى قيام الساعة لإعلاء كلمته بالجهاد في سبيله. ولِحِكمة من الله تعالى في تمييز اهل الصدق عن غيرهم ابتلى

المؤمنين بقتال الكفار وهو اقدر على إهلاك عدوهم من غير قتال. وتكون نتائج القتال من اجل اعلاء كلمة الله تعالى؛ فإما النصر الذي وعده تعالى لهم، وإما الشهادة ليتخذ الله من المؤمنين شهداء، وإما هداية من يعلم الله فيهم خيراً من أسرى الكفار ومن غير الاسرى من الكفار. اضافة الى كشف المتخاذلين وتمييزهم عن اهل التقوى الصابرين. ولما اراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان يدعو بالهلاك على من حاربه من المشركين نزلت الاية ((لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ)) الى آخر الاية فان الله تعالى يتوب على من يشاء ويعذب من يشاء على ما يعلم من عباده من خير ومن شر فله ما في ملكوته. ومن شأنه المغفرة ومن بعدها الرحمة. وكل يوم هو في شأن.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (130) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (131) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (132) وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (136) قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (138)

اتسمت معاملات البيع والشراء في الجزيرة العربية بالتعامل مع اليمن والشام في رحلتي الشتاء والصيف. وأظهرُ ما كانت هذه التجارة في مكة المكرمة. ثم بالتعامل

في صفقات بين اهل المدن وبين اهل الزرع والرعي في القرى والبداوة. ولما كان مورد المشترين من الاعراب والبدو حوليّاً من زرع ومنتجات الرعي، فكان هؤلاء يؤجلون دفع الاثمان لتجار المدن الى حين تسديدها من وارداتهم الموسمية، كالصوف والوبر والانعام والمحاصيل الزراعية. فكان الدائن عندما يؤجل المدينُ تسديدَ الدين له لعذر من ظروف الطبيعة أو غيرها يحمّل المدين مبلغاً اضافياً بقوله: "إما أن تقضي واما أن تُربي". فاذا لم يقضِه زاد في الاجل مع زيادة على اصل المبلغ وهكذا إستمر الربا. أما اذا تكرر إعسار المدين حولاً آخر أو أكثر فالطلب يزداد وهكذا حتى يتضاعف المبلغ! وقد سبق شرح احكام الربا في الآيتين الخامسة والسبعين والسادسة والسبعين بعد المائتين من سورة البقرة ولا سيما في معنى التوكل على الله تعالى بعيداً عن الأهواء في أخذ الربا حذراً مما يؤدي الى كفرٍ ونار أمَر الله تعالى بإتقائهما بترك الربا. وأمَر بإطاعة المنهج الرباني لطلب الرحمة والمغفرة والجنة التي وصف الله تعالى عرضها بما لا يمكن لبشر ان يتصوره بهيئة محسوسة إشارة إلى سعتها. ورحمته وسعت كل شيء ويكتبها لمن لم يتعلق قلبه بغير العمل لوجه الله تعالى ونيل الجزاء الاوفى. ويورد الله تعالى من صفاتهم ما ذكره في هذه الاية واهمها النفقة لوجه الله تعالى وحُسن الخلق والاستغفار من الذنوب بما فيها الفواحش أي قبائح المعاصي، ومضامين التوبة من ندم وعدم الاصرار ثم الإقلاع عن المعاصي. وكلها من صفات تعلق القلب بالعمل لوجه الله تعالى، وفي سبيله وفي الإنابة اليه، وطلب مغفرته ورحمته. ثم ينبه الى مصير الذين عملوا للدنيا الفانية لا كسب فيها لهم سوى الحساب عليها. وفي تفسير النسفي: بكى إبليس لما نزلت هذه الآية.

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (140) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (141) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (142) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (143)

تترك الغزوات اثرها على الغزاة المجاهدين في سبيل الله تعالى بالعِبَر وفهم مراد الله تعالى من تصرفه الحكيم. ولهذا لا تَقِلُّ اهمية معركة أُحُد عن اهمية معركة بدر في ما تركتاه من أثر. فمن آثار معركة أُحُد فسحُ المجال للكفار في التقرب والسيطرة عندما ترك الرماة مواقعهم التي كان الغرض منها وقف هذا التقرب والسيطرة. وهكذا ادت مخالفة القيادة الى عواقب مؤسفة وكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد قال للرماة كما جاء في تفسير ابن كثير (انضحوا الخيل عنا ولا نؤتَيَنَّ مِن قِبَلِكُم إِلْزَموا مكانكم إن كانت النوبة لنا او علينا وإن رأيتمونا تَخْطَفُنا الطيرُ فلا تبرحوا مكانكم حتى أُرسِل إليكم) رواه الامام احمد عن البراء بن عازب رضي الله عنه. كما ان من آثارها التحفز لعمل اقوى من العمل الذي ادّى الى الكبوة فتكون الكبوة حافزاً للنهوض وزيادة الجهود. ومن آثارها تعلم الصبر ليقوى اليقين بنصر الله تعالى في ظَنٍ حَسَنٍ بعزته وبأن ما حصل ما هو إلا إبتلاءٌ لا بُدَّ منه لتمييز درجات اهل الايمان في الجهاد والعمل. وهكذا فوجيء المؤمنون بقتال يختلف عن معركة بدر. وكان فريق منهم يتمنى الموت فلما أراهم الله تعالى إياه عرفوا مبلغ صلابتهم في لقائه فمنهم من تخاذل ومنهم من صمد وجاءتهم الايات التالية لايضاح الحكمة الربانية وتعليمه ولطفه الظاهر والخفي سبحانه.

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (144) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآَخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (145)

ومن آثار معركة أُحُد إمتحانٌ كبير للمؤمنين ليعلموا انهم انما خرجوا لإعلاء كلمة الله جل علاه سواء قُتِل قائدُهم ام لم يقتل. اذ سُمعت صرخة من العدو بأن محمداً قُتل. والمفروض ان لا يثنيهم هذا عن مواصلة القتال والرجاء بالنصر الموعود للمؤمنين ولكن الذي حصل كان من منافقين اندسوا في صفوف المؤمنين قالوا (لو كان محمد نبياً لما قتل). والذين تخاذلوا قال قائلهم (ليتنا نأخذ عهداً من ابي سفيان) أي يستسلمون له لقاء اخلاء سبيلهم. بينما الصادقون قال قائلهم (يا قوم ان كان محمد قد قتل فإن ربَّ محمدٍ حيٌّ لا يموت وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه). ثم سكت ثم قال (اللهم اعتذر اليك مما يقول هؤلاء وابرأ اليك مما جاء به هؤلاء) واذا بنداء الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم يرتفع: (اليّ يا عباد الله انا رسول الله من يكرّ فله الجنة). وينبه تعالى من غفل عن تقدير الموت بأن للموت أجلاً لا يقدّمه غزو ولا يؤخّره قعود، وان المعارك كشفت من يريد الغنائم ومن يريد الجنة وللشاكرين جزاؤهم اذ لم تَصْرِفْهم المعارك عن شكر الله على نعمة الإيمان والجهاد لإعلاء كلمة المولى عزّ وجلّ.

وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا

ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (147) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (148)

الرِبّيّون هم صادقو العهد مع الله تعالى عند ابتلاء صدقهم في الجهاد والعابدون عند السلم لا تؤثر المصائب على يقينهم وثقتهم بالله تعالى حتى وان شهدوا مقتل انبيائهم، وهذا من الاحسان في العبادة. وفيه عبرة جديدة لإحدى صفحات القتال وهي الثقة بالله تعالى الذي لا يغيبون عن علمه في جهادهم وعبادتهم فيرى منهم ما يدل على صدقهم. فلا عذر للتخاذل في الاحوال الصعبة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (149) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (150) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (151) وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (152) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (153) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (154)

المؤمن اهتدى بإرشاد من ارشده الى الايمان بإذن ربه. فيخاطبه تعالى بان يبقى على طاعة من ارشده، أي على الالتزام بأوامر الشريعة ونواهيها، وله في رسول الله اسوة حسنة (صلى الله عليه وآله وسلم). فلا ينقلب خاسراً في هذا التوكل. فاذا اطاع كافراً بمعصيةٍ فقد تولاه وخرج من ولاية الله خاسراً إياها وخاسراً بعد ذلك نصر الله الذي يؤيد المؤمنين بنصره فيبعث فيهم روح الجهاد والصمود على خلاف ما يلقي في قلوب الذين كفروا مِن تَخاذُلٍ ورعب إذْ اتخذوا ارباباً من دون الله يؤول بهم ذلك الى النار لأنهم استحبوا عمى الباطل على نور الحق فلا يرون الامور على حقيقتها فيدركهم الوهم الذي يفتح للرعب باباً الى قلوبهم فيلقيه الله فيها وهذا ما تأيّد لأبي سفيان عندما كان على الشرك فأراه الله تعالى المؤمنين على قوة وشكيمة انخلع لها قلبه فذهب الى قومه قبل فتح مكة وانذرهم البطشة فلم يرفع احد منهم أي سلاح في وجه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم واتباعه في فتحها.

واما في معركة أُحُد فلم يتغير هذا اللطف الرباني في اول المعركة اذ كانوا على طاعة فأخذوا يحسّون (أي يقتلون) الكفار رمياً وطعناً. فلما خالفوا أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم توقف كَسْبُ المعركة بسبب ذلك فقال لهم جل عُلاه ((حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ)) أي في نزول الرماة نحو الغنائم ((وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ)). ولكنّ عَفْوَه تعالى أدركهم بعد اذ اعطاهم هذا الدرس فتابوا وصدقوا. اما المنافقون الذين دهم الوهم قلوبهم فقد كتموا ظنهم الخاطيء بالله تعالى وشكوكهم بوعد النصر وظنوا انهم لو كانوا في بيوتهم لما أصابهم قَتْلُ مَن قُتِل فكشف الله تعالى ما اعتمل في قلوبهم ليعلموا أن لا شيءَ يخفى عليه سبحانه. فمنهم من وعى وتاب ومنهم من استمر على الضلالة.

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (155) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (156) وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (157) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (158)

المقصودون هم أولئك الذين ندموا وتابوا على مخالفتهم التي غيّرت وجه الحرب. إذ سبَّب كسبُ الدنيا لهم الزلل الذي زينه الشيطان لهم فكان في ذلك تأديب للمؤمنين لكي يسدُّوا منافذ الزلل التي يفتحها هوى الانفس في الدنيا الفانية. ولكي يفضلوا عليها طاعة ولي الأمر منهم. ففي ذلك تفضيل الآخرة عليها. ثم أشار تعالى إلى محذور آخر خشية وقوع المؤمنين فيه فبين موقف الكفار من الموتى والقتلى وكم هو خاطئ لكي يتجنبه المؤمنون فلا يكون موت أحد اخوانهم حسرة في قلوبهم بل بهجة لمن ينال جنة الشهداء في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى. بينما يكون موت احد اخوان الكفار والمنافقين في الحرب حسرة في قلوب جماعته ويتوهّمون انه لو بقي عندهم لبقي حياً فَعَزَوْا سبب موته او قتله للحرب او الخروج من بين ظهرانيهم وغفلوا عن تقدير الله تعالى للآجال وعن الحشر وما أعدّ الله تعالى للشهداء.

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159) إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (160)

الرحمة التي القاها الله تعالى في قلب رسوله الكريم صلى الله تعالى عليه وآله وسلم جعلت الذين ندموا على مخالفته في أُحُد، ثم طابت نفوسهم بقبول توبتهم، يتطلعون الى تصحيح زللهم بأن يُبلوا بلاءً حسناً في الغزوات التالية. كما لم تُبقِ هذه الرحمة في قلب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم غيظاً عليهم بل سارع الى الاستغفار لهم. ثم اكرمهم باستشارتهم في امور الجهاد وغيره من غير إلتزام بمشورتهم. وهنا اشارة لولي امر المؤمنين بان يستأنس برأي ذوي المعرفة. وقد روى ابن مردويه عن الامام علي كرم الله وجهه عندما سئل عن العزم فقال ((مشاورة اهل الرأي ثم اتِّباعُهم)). وهذا لغير النبي صلى الله عليه وآله وسلم لانه لا يلتزم بمشورةٍ في ما ينزل به وحي. وتكون المشورة في غير ذلك مندوبةً اذا كانت في محلها الصحيح. ومن كان لا بد له من أن يستشير أحداً في أمر فليقصد أهل التقوى للعمل وفق الشريعة وهذا هو التوكل على الله تعالى. ويبقى وعد الله تعالى بالنصر في ذلك لأن الجهود المبذولة ليس فيها مخالفةُ أمرٍ أو إتِّباعُ هوىً بل إعلاءُ كلمةِ الله تعالى والحفاظ على دينه في ارضه سبحانه.

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (161)

مقام الأنبياء مقام رفيع فوق متاع الدنيا وقد عصمهم الله تعالى عن كل أوجه الطمع فيها. ومن بين هذه الأوجه: الغلول أي استغلال المنصب لكسب ما يزيد عن الحاجة التي خُصِّص له المالُ من اجلها. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ما رواه الامام احمد عن عروة بن الزبير عن ابي حميد رضي الله عنهم ((هدايا العُمّالِ غُلُول)). اما الانبياء عليهم صلوات الله وسلامه فَيُحذِّر الله تعالى

غيرهم من الناس أن يتوهموا حصول غلول منهم وهذا ما قد يساور المنافقين فأوضح الله تعالى نزاهة انبيائه سدّاً لِمِثْلِ هذه الوساوس.

أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (162) هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (163)

وكما ان الغلول يكون على درجات من حيث القلة او الكثرة كذلك فإن ما يوجب سخط الله تعالى يتفاوت في الدرجات. واذا قارنّا ذلك مع رضوان الله تعالى تبين مدى سموّ العفة فوق الأطماع التي لا تغيب نواياها والسلوك اليها على الله تعالى. والعفّة هنا هي اتقاء الشبهات والمناهي.

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (164)

كان معاصرو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، إلا من رحم الله، في جاهليةِ من العلم والدين حتى بعثه الله تعالى بآياته يتلوها عليهم. فيذكّر تعالى المؤمنين بالْمِنّة من لدنه إذ نقلهم به الى العلم والحكمة في الدنيا والى الجنان في الآخرة ليشكروه تعالى على ما هداهم اليه اذ لولا ذلك لكانوا في ضلال مبين. وفي هذه التذكرة دعوة للمسلمين للحفاظ على ما وصل اليهم من الهدى. وكان أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه يستعيذ بالله من الزيغ بعد الهدى.

أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (165) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (166) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا

قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (167) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (168) وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (170) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (171)

الذي كشفه الله تعالى هنا هو تقديره في نصر المؤمنين يوم بدر حتى اصابوا سبعين قتيلاً وسبعين اسيراً من المشركين وأنهم إذ ذاك لم يبدر منهم مخالفة وهذا هو الفرق بين معركة بدر ومعركة أُحد. وكشف تعالى تقديره في تمييز المنافقين اذ رجع عبد الله بن أُبَي ابن سلول بثلث الجيش قبل مواجهة العدو يوم أُحد مدّعين بأن لن يحصل قتال وانهم لا خبرة لهم في الهجوم او الدفاع. وتأيد نفاقهم بنسبتهم الموت للقتال ولم يفطنوا الى تقدير الآجال عند الله تعالى وان الاجل يحل في غير القتال فلا يمنعه قعود عن القتال. ولم يحسبوا حساب الشهادة في سبيل اعلاء كلمة الله وما بعدها من حياة ذات سرور عند ربهم الكريم. وقد ابلغ الله تعالى ضمناً في هذه الآيات من بقي من الأحياء بعد معركة بدر بشارة اخوانهم الشهداء بأن وعد الله حق لمن يبذل النفس في سبيله.

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (172) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (173) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ

سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (174) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (175)

حذراً من كفار قريش ان يكرّوا على المسلمين بعد موقعة أُحد مُنشرِحِينَ بما حقّقوه من قتل سبعين مؤمناً، وكان أبو سفيان قائدهم، وخشيةَ أن تكون العواقب سيئة فقد انتدب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المؤمنين لملاحقة قائدهم فقال (كما جاء في تفسير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما) ((إن أبا سفيان قد اصاب منكم طرَفاً وقد رجع وقد قذف الله في قلبه الرعب)). فلحقه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومعه اصحابه رضوان الله تعالى عليهم ولكنهم توقّفوا إذ كانت قبيلة خزاعة ذات نصح للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومنهم من أسلم ومنهم من بقى على الشرك مثل معبد بن ابي معبد الخزاعي، الذي (كما جاء في سيرة إبن هشام) عندما رأى ما حَلَّ بالمؤمنين جاء الى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقال: "يا محمد! أما والله لقد عزّ علينا ما أصابك في أصحابك ولَوَدَدْنا أنّ الله عافاك فيهم". ثم جاء الى ابي سفيان، وأبو سفيان يعلم أن معبداً يومئذ على الشرك، فسأله "ما وراءك يا معبد"؟ فقال معبد "محمد واصحابه يطلبكم في جمعٍ لم أَرَ مِثلَه يتحرّقون عليكم تَحَرُّقاً قد إجتمع معه مَن تخلَّف عنه في يومكم وندموا على ما صنعوا فهم من الحنق عليكم بشيءٍ لم أرَ مثله قَط". فقال ابو سفيان "ويلك ما تقول"؟ قال "والله ما ارى إلا ان ترحل حتى ترى نواصي الخيل"! فقال ابو سفيان "فوالله لقد اجمعنا الكَرَّةَ عليهم لنستأصل بقيّتهم". قال "فإني أنهاكَ عن ذلك". وهذا ما ثنى ابا سفيان عن عزمه. لكنه لقي قافلة ذاهبة الى المدينة فطلب منهم أن يُبلِّغوا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مَقُولةً! ووَعَدَهم إن بلّغوها أنْ يعطيهم في

موسم عكاظ. فقال لهم "أخبروه انه قد أجمعْنا المسير إليه والى اصحابه لنستأصل بقِيَّتَهم". فلما مرّت القافلة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم اخبروه بالمقولة فقال المؤمنون (حسبنا الله ونعم الوكيل). وقد ذكر ابن هشام ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ((والذي نفسي بيده لقد سُوِّمَتْ لهم حجارةٌ لو أُصْبِحوا بها لكانوا كالأمسِ الذّاهِب)). وعن النعمة روى البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: "النعمةُ" انهم سَلُموا، وقوله: "الفضلُ" أنّ عِيراً مرّت في ايام الموسم فاشتراها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فربح بها مالاً فقسمه بين اصحابه. فذلك قوله تعالى (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسَسْهم سوء)". وكان ذلك في موقع معركة بدر فسميت موقعة (بدر الصغرى). اما قوله تعالى ((انما ذلكم الشيطانُ يُخوِّفُ أولياءه)) فقد اشار الى وسوسة الشيطان ليوهم المؤمنين ان اعداءهم اقوى منهم وجاء قوله تعالى ((فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)) عامّاً لكل المؤمنين بأن يتوكلوا على الله بطاعته لينالوا نُصرتَه ولِيَكفِيَهم أعداءَهم وهو القدير على ما يشاء سبحانه.

وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (176) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (177) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (178) مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (179) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (180)

كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسرّه من يأتيه مؤمنا بالإسلام دينا. إلا أنّه صلى الله عليه وآله وسلّم كان يحزنه من لم يرتضِ هذا الخير بحيث يبادر الى المخالفة والشقاق. ولكي لا يَحزنَ عليهم كشف له الله سبحانه طوِيَّة ما في قلوب أُولئك الذين بادروا مسرعين بالكفر من سفاهة وبذلك علم سببَ حَجْبِ الايمان عنهم. فقد بلغ من خبث أحدِهم أنْ قال: "لو كان محمد نبياً لأنبأنا مَنِ المؤمنُ ومَن الكافر"! مِثْلُ هذا لا يستحق ان يتحسر احد من المؤمنين على مصيره وما استحقه من عذاب عظيم. ومَثَلهم مَثل من اشترى الشقاء بالسعادة مُصِرّاً على هذه الصفقة الخاسرة وقد رآها افضل إختيار له! وهذا ما لا يَضرُّ عزّةَ الله تعالى وغناه عن خلقه. وهكذا ميّزهم الله تعالى عن الطيبين. ولو اطّلع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على الغيب لما عرف منهم اكثر مما كشفه الله تعالى منهم بالابتلاء في الجهاد والايمان والصبر في الْمِحَن كما حصل في موقعة أُحُد فاظهر المؤمنين وفضح المنافقين. ثم بين الله تعالى سبب إمداد أهل الكفر بمتاع الدنيا بأنه ليكون مادة لعذابهم فقد علم انهم سيبخلون ويكنِزون المال بلا نفقة او زكاة. وقد روى البخاري عن ابي هريرة رضي الله عنه قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ((من آتاه الله مالاً فلم يؤدِّ زكاته مُثِّل له شجاعاً أقرعَ له زبيبتان يطوِّقه يوم القيامة يأخذ بلُهْزِمَتَيه يقول: أنا مالُك الذي كنزت)). والشجاع الاقرع: هي الافعى الغليظة. واللهزمتان: هما ملتقى الشفتين من الجانبين. ثم إن المال بحد ذاته سيؤول الى مالِكِه الحقيقي وهو الله تعالى الذي سيرث الأرض ومن عليها.

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (181) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (182) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ

كُنْتُمْ صَادِقِينَ (183) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (184)

روى ابن ابي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ان اليهود لما نزل قوله تعالى ((من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له اضعافاً كثيرة)) قالوا: "يا محمد أَفتقر ربُّك فسأل عباده القرض"؟ فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية ((لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ)).. الآية. وهذا القول على الله تعالى يُقارَن بقتلهم الانبياء ففيه تكذيب لرسالات الله تعالى مع وضوح الحق الذي جاء به الانبياء ويجيبهم الله تعالى بان لهم رداً على هذا القول الذي ظلموا فيه الحق فظلموا انفسهم بعذاب لا ظلم فيه بأن يذوقوا عذاب الحريق الذي قدموه لأنفسهم بأيديهم. ويوبخهم تعالى على ذلك بان يذكّرهم بمن جاءهم من الانبياء فكذبوهم وقتلوهم وفي هذا يقول تعالى مسلياً للرسول صلى الله عليه وآله وسلم بانهم كذَّبوا رسلاً غيره عليهم الصلاة والسلام جاؤا بالصحف والكتب المنزلة التي لا يُنكَر وضوحها وصحتها، فلا يؤثر ذلك في نفس الرسول ويضعف همّته في أداء الرسالة صلى الله عليه وآله وسلم.

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (185) لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (186)

إن ما حصل من موقف اليهود مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مَثَلٌ لِما سيأتي على كل فئة مؤمنة، ومَثَلٌ لِما سيلاقي الانسان بعد الموت جرّاء عمله إن

خيراً فخير وإن شرّا فشرّ، وعندها يتبين الانسان أنّ ماضيَ حياته الدنيا الذي انقضى ما هو إلا متاعٌ زائل اغتر به اهل الغفلة. وارشد تعالى عباده المؤمنين الى العلاج الذي يعالجون به موقفهم مع مثل هؤلاء الغافلين الحاقدين الذين يتربصون الاذى بالمؤمنين بأن يصبروا بانتظار النصر ويلتزموا بالتقوى والعفو عند المقدرة والإعراض عن الجاهلين وفي هذا ثبات يدل على سموّ العقول في معالجة الامور.

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (187)

كان يهود المدينة يبشرون في المدينة ومكة وغيرهما بقرب ظهور النبي الخاتم للانبياء عليهم الصلاة والسلام. فلما بعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالهدى الذي بشروا به فوجئوا أن كان من غيرهم! فكتموا ما سبق لهم ان اذاعوا به خشية ان تذهب الدنيا من ايديهم. وهذا هو الثمن القليل لأنه يفنى. وفي الآية ذمٌ للدنيا خلا ما كان منها لله تعالى. وبصدد كتمان البشارة فقد روى الامام احمد في مسنده والحاكم عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((من سُئل عن علمٍ فكتمه أُلْجِمَ يوم القيامة بلجام من نار)).

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (188) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (189)

تشمل الآية الاولى عملا لا يرضاه الله تعالى في الوقت الذي فيه يراه صاحبه مكسباً يفرح به. ومن قبيل ذلك فرح المنافقين في تخلّفهم عن الجهاد ظناً أنهم بذلك

سلِموا من القتل. وكذلك فرح اليهود بكتمان البشارة ببعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. ثم الرياء. ويختلف فرح هؤلاء عن سرور المؤمن بما آتاه الله تعالى من علم ووَفَّقَه الى صالح الاعمال التي أراد بها وجه ربه جل وعلا مما جلب له الثناء من مُرشِدِهِ او والديه او إخوانه من غير ان يتوقع او يطلب ذلك او يدخله سرور من حديث الناس بالثناء عليه. فالمؤمن ينسب الفضل لله تعالى ويزداد تواضعاً لمولاه الذي اكرمه ويستوي عنده المدح والذم. وعاقبة أعمال الظالمين اذا نسبوا الفضل لأنفسهم عذاب أليم. وعاقبة أعمال الشاكرين زيادة قربهم من الله تعالى. وافضل السرور ما كان للاعمال الصالحة التي لم يطّلع عليها سوى الرب الكريم الذي كان العمل لوجهه تعالى. ويبين سبحانه أن النعمة نعمته وله مُلْكُ السماوات والأرض ولا حَدّ لقدرته إذا قضى أمرا فإنه يكون بمشيئته.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ
(190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ
تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (192) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي
لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ
(193) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ
(194) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ
بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ
الثَّوَابِ (195)

من مكائد كفار قريش في تكذيبهم الرسولَ صلى الله عليه وآله وسلم انهم ذكروا له معجزات الله تعالى لموسى وعيسى عليهما صلوات الله وسلامه كما ذُكرت في القرآن الكريم وطلبوا اليه ان تكون له آيةٌ بأن يجعل جبل الصفا ذهباً. وجبل الصفا معروف بحجم صخوره البيضاء فنزل قول الله تعالى: ((إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآَيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)) أي انها آيات لمن تخلّوا عما حجب نور الفهم عن قلوبهم ونفوسهم فاستناروا بنور الالباب. فاللب هو القلب الذي أُزيح ما حوله من قشور حُبِّ الدنيا او أغلفة الغفلة وعندئذ يكشف له عِظَمُ قدرة الله تعالى في خلقه. فلو أنهم تخلوا عن تلك الحجب لَما تجرأوا على الآيات بالإنكار حسداً وكيداً ولما مكروا مكرهم البائر. ولذكروا الله تعالى الذي له في كل مخلوق آية ويكشف لهم في كل حال من أحوالهم: في قيامهم بالعمل، وقعودهم في الفراغ، وعلى جنوبهم عند النوم ما يدعو للتفكير في ما خلق الله العلي القدير فلا يغمطون هذا الحق، ولتابوا مؤمنين خائفين من عذابه وخزي يوم لقائه. وهذا ما يفعله أُولو الألباب في ذكرهم وفي دعائهم وما وعدهم تعالى من استجابة وأجر على صبرهم وعملهم الصالح وما أعدّ لهم من نعيم مقيم.

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (197)

طالما كانت الحياة الدنيا فترةً ليبلو الله بها عمل عباده فالذين تقلّبوا فيها ترفاً وكفراً فقد خُدِعوا بما استدرجهم اليه ربهم سبحانه وهو اعلم بما سيكونون عليه مع نعمائه من كفرٍ ومكرٍ سيئ. ولم يفطنوا الى قلّة متاعها وفناء نعيمها وشقائهم بعدها

بما عصوا وكانوا يعتدون. وهذا ما جعله الله تعالى تسلية لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (198)

بعد ذكر اهل المعصية وفناء متاعهم يُبَشِرُ الله تعالى اهل التقوى بما أعدّ لهم من خلود في جواره وهو خير الرازقين. و(النُزُل) هنا معناه الضيافة وما يقدم فيها من خيرات الله تعالى.

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (199)

تكرر ذكر طائفة من اهل الكتاب يؤمنون بالله ويهتدون الى الحق الذي جاء به القرآن الكريم مطابقاً لِما في البشارات الموجودة في التوراة والانجيل وكانوا على ايمان وتقوى قبل البعثة المحمدية كما سبق شرحه في الاية الثالثة عشرة بعد المائة من هذه السورة. ومنها انهم يؤمنون بالله واليوم الآخِر ويتلون آيات الله وهم يسجدون ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات مما جعلهم من الصالحين. كما قال تعالى عن هؤلاء بانهم يُؤتَون اجرهم مرتين وذلك في الاية الثالثة والخمسين من سورة القصص. وامتدحهم المولى عز وجل في الآيات الثلاث: السابعة والثامنة والتاسعة بعد المائة من سورة الاسراء. وأما هذه الاية فقد نزلت بعد وفاة النجاشي اصحمة – ملك الحبشة – فقد جاء في صحيح البخاري ان النجاشي لما مات نعاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم الى اصحابه وقال ((ان اخاً لكم في الحبشة قد مات فصلّوا عليه)) فخرج الى الصحراء فصفّهم وصلى عليه. وفي تفسير الطبري عن جابر رضي الله عنه قال: قال المنافقون (على اثر هذه الصلاة):

"يصلي على عِلج مات بأرض الحبشة"! فأنزل الله تعالى هذه الاية. وشُرّعت بهذا صلاة الغائب على من مات من المسلمين في أرض ليس فيها مَن يصلي عليه، فهي مشروعة، وتصلَّى جماعةً أو فرادى بعد سُنّة المغرب البعدية، ويكفي فرد عن المجموع.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (200)

مجال الصبر واسع طيلة الحياة لمن كان بالغاً عاقلاً. فالمؤمن أوْلَى بالصبر على عبادة ربه سبحانه. والمصابرة تعني وجود من يكيد للاسلام كيداً فلا يزال المؤمنون يصابرون هؤلاء أي يكونون بالمرصاد من حيث القوة في العُدّة والعَدَد حتى يعلم عدوُّهم أنْ لا مجال له عليهم. واما المرابطة فهي إما أن تكون في إرتباط المؤمن بالصلاة وانتظار التي بعدها، وإما الرباط في الثغور مقابل الاعداء بالمرصاد. وقد روى البخاري في صحيحه عن سيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله وأُجرِي عليه رزقُه وأَمِن الفِتان)). وأما التقوى فهي روح العمل والعبادة وقلب الصالحات كما ان محلها القلب. والفلاح في كل ذلك مأمول من الله لِما جاءت الاشارات إليه في هذه الآية.

سورة النساء

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1)

لهذه الآية مقاصد بعد التأكيد على التقوى: أن تظهر قدرة الله تعالى في خلق البشر من نفس واحدة وما في هذه الخلقة من إعجاز الولادات والوفَيات وسر العلم القليل الذي آتاه الله تعالى لأعلم الناس عن الروح التي هي من أمره تعالى وحده، والمقصد الآخر هو أهمية صلة الرحم، والمقصد الآخر هو رقابة الله تعالى الذي لا يفوته أمر ولا تنقطع رقابته إلى نهاية الحياة على الأرض. أما التقوى فهي سلوك عقلي يأتي من معرفة الإنسان يسدّ به منافذ الشر ومداخل السوء التي تبعده عن رضوان الله تعالى. وقد أكد عليها سبحانه ليبقى بها الإنسان في رحمة من الله تعالى. وقد جاء في التفاسير تفصيلٌ لصلة الرحم التي يسألنا الله تعالى عنها ومنها إيثار ذوي القربى على النفس إذا كانوا أحوج إلى ما في يد المؤمن من حاجته له، ثم محبتهم لوجه الله تعالى، وتفقدهم في الرعاية والمؤاساة، وحُسن الظن بهم، وستر غيبتهم، والدعاء لهم، والبشاشة عند لقائهم، والسرور بخيراتهم، وإعالة ضعيفهم، والنصح لهم من غير إنقطاع. وفي هذه الآية إشارة إلى إن أبناء البشرية هم من نفس

واحدة وإلى أن يحب المرء للناس ما يحب لنفسه ليسلم من ان يكون ذا ضررٍ واذىً لأحدٍ منهم.

وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (2)

يُنصَب وصيٌّ على مال اليتيم. وعلى هذا الوصيّ أن يتصرف في عين المال وفي كميته بما يرضي ربه. فبالنسبة لعين المال أن يُبقِيَ عليه بعينه فلا يبدله، وبالنسبة لمجموعه أن يحافظ على نمائه بالسلوك المشروع ما أمكن بحيث لا يُخرِج منه إلا ما شرّع الله تعالى من حقوق فيه كالزكاة. وأما الخسارة فهي قَدَرٌ لا يُسأل عنه ما دام قد أحسن الإجتهادَ في التصرّف. ويشترط أن لا يُقرِضَ شيئاً من النقد من مال اليتيم قرضاً حسناً ولا يتعاملَ فيه بالربا أو بأي سلوك غير شرعي وأن لا يرهن المال غير المنقول إلا لإنمائه وأن لا يُودع المنقول لدى من لا يؤتمن عليه فإذا فعل ونقص المال أو ذهب به أحد كان على الوصي العَوَض. وفي غير هذه الأوجه لا يَحِلُّ دمج مال اليتيم مع مال الوصي خشية أن يذهب بعضه إلى مال الوصي. وأما الحَوْب فهو الإثم أو ما يجر الإثم.

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا (3) وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا (4)

فإذا كانت هناك فتاة يتيمة، تحت وصاية من تَحِلُّ له كزوجه، وأراد أن يتزوجها فخاف أن لا يُعطِيَها مهراً مثل مهر غيرها من مثيلاتها، وفي ذلك غبن لها، فليعدل

إلى غيرها من النساء إلا إذا كان واثقاً من أنه أعطاها ما يعادل مهر مثيلاتها. ولا يتصرف بمالِها إلا بحقه. وأما اليتيمة الفقيرة فيسري عليها هذا الشرط بأن تُعطَى المهر الذي يُعطى لمثيلاتها من غير اليتيمات. وفي حالة رغبة غير الوصي في إحداهن فعلى الوصي صيانة حقوقها في زواجها وصُداقها حتى تبلغ سن الرشد أي يأنس فيها رشداً يمكنها من إدارة شؤونها المالية. ويحذر تعالى من التغاضي عن العدل بين النساء فمن وجد في نفسه ضعفاً فليقتصر على واحدة أو ما يشتريه من الإماء تجنباً للميل غير العادل لإحدى الضرائر أي أدنى أن لا تعولوا أي تميلوا. وليس للجارية المملوكة حقوق العدالة في الليالي التي للحرائر من الضرائر. فإذا حصل ما يستوجب تعدد الزوجات فالعدل بينهن يشمل كل سلوك تجاههن إلا الميل القلبي على أن لا يُظهِر الزوج ذلك لمن لا يميل قلبه إليها. ويأمر تعالى بإعطاء النساء مهورَهن، نِحلةً، أي عطاءً تطيب به نفس الزوج من غير مطالبة أو عَوَض. وفي هذا الأمر المقتصر على اعطاء الزوجة فإن كانت تحت وصايةٍ أن لا يأخذَ الوصيُّ من الزوج شيئاً من المهر. ويكون المهر محدداً بتسمية مبلغِهِ بحقه بدون كذب. فإن هي بعدما إستلمت مهرها تتنازل للزوج عن طِيْب نفس عن جزء منه فلا بأس بذلك حلالاً طيباً. ويستحب أن يتم التراضي على تحديد المهر على ضوء حفظ حقوق الزوجة ومراعاة حال الزوج وبذلك يُدفَع الحرج.

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (5) وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا

فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (6)

الذين يُحجَرُ على أموالهم من الرجال: هم المجنون وناقص العقل الذي لا يُدرِك عواقب تصرفاته، والمبذِّرون الذين لا يرجى إصلاحهم، وناقص الدِّين الذي تثبت إساءة تصرفه في مقاصد فاسدة، والمدين الذي رفع الغرماء (الدائنون) عليه دعوى مطالبة. وأما مِن النساء: فالمرأة التي لا تطيع في ما أمر الله تعالى قيّمَها من زوج أو ولي في ماله أو مالها، وكذلك البنت والولد قبل البلوغ. وهنا يُنصَب على الفرد منهم وصيٌّ على مالِه فلا يحق له التصرف بما يملك بل يُنفَق على حاجاته بالمعروف. وفي الآية إشارة إلى الاعتماد على النفس وعدم الاتكال على الغير ولا سيما الخدمُ من الذين لا يوثق بمروءتهم. وقد روى أبن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قوله عن السفهاء: "هم الخدم وهم شياطين الإنس". وفي هذا تحذير من الاعتماد عليهم في رعاية الأطفال لأن تربية الصغار في عهدتهم تسيء أخلاقهم بالاقتباس. ويستوي في هذا التحذير الخدم من النساء والرجال. وأما بالنسبة للأيتام فإن تحديد السن في مرحلة البلوغ يرجع فيه إلى القضاء ولا يكون على الوصي إلتزامٌ بذلك شرعاً إذ له الحق بان يدفع لليتيم ماله إذا كان قادراً على النكاح ولمس منه رشداً في التصرف ورجاحةً في العقل. وهناك في السُنّة الشريفة دلالة على بلوغ سن الرشد فقد روى البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "عُرِضتُ على النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم أُحد وأنا إبن أربعَ عشرةَ فلم يُجزني وعُرِضت عليه يوم الخندق وأنا إبن خمسَ عشرةَ فاجازني". وعن هذا الحديث قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: "إن هذا هو الفرق بين الصغير والكبير". وفي الآية جَمعٌ للوصي وذوي اليتيم في

تقرير رشده أن يقتنعوا جميعاً بذلك. وبالنسبة للغني من الأوصياء أن لا يأخذ أجرة على وصايته وبالنسبة للفقير فله أن يأخذ ما هو متعارَفٌ عليه من مصروف لأمثاله عندما لا يكون له دخل ومورد يسد حاجته. والأحوط أن يحسب الوصي الفقير كلَّ ما يأخذ من المال المستوصى عليه عنده فيعتبره ديناً عليه يسدده عند تيسر أموره وتحسن حاله وإن لم يحصل ذلك فلا حرج عليه. وبالنسبة للشهود، عند دفع مال اليتيم الراشد إليه، فيُستأنَس بآية الدَّين في سورة البقرة بقوله تعالى ((وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى)).. الآية. ويذكّرنا الله تعالى بتقواه فإنه حسيب على المال منذ الحَجْرِ عليه حتى دفعِهِ للبالغ العاقل منهم مكتوباً ليوم الحساب في صحيفة الوصي يقرأُها وكفى بنفسه عليه حسيبا.

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (7)

كانت المواريث قبل هذه الآية تُعطى للذكور الكبار من الورثة، ويُحرَم منها النساء والصغار، ونزلتْ هذه الآية لإبطال ذلك بتحديد نصيب الورثة حسبما تمليه القرابة والعلاقة الزوجية والولاء (ويقصد بالولاء أن الرجل إذا كان يملك عبداً فأعتقه فتوفي العبد ولا وارث له من قرابة أو أزواج فيرثه الذي أعتقه). والعبد المعتق لا يرث سيداً لا وريث له بل يخصص لبيت المال.

وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (8)

جاء في هذه الآية أقوال للفقهاء الأولين بان المقصود بأُولي القربى هم من غير الورثة، والمقصود في اليتامى المذكورين فيها هم الغرباء المساكين من اليتامى وقيل يُحجز لليتامى الغرباء والمساكين جزءٌ، وقيل في الآية أنها واجبة وقيل أنها معلّقة على شرطِ أخذِ موافقةِ الورثة عن طيب خاطر ليعطوا من التركة لهؤلاء غير المستحقين. وقيل أنها نُسِخَت بالآية الحادية عشرة بعد هذه الآية حيث قال تعالى: ((يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ)).. الآية فقد ثَبَّتت لكل ذي حقٍ حقه. وقد استأنس الفقهاء المتأخرون أي فقهاء القرن الثامن الهجري وما بعده بأن لا تكون القسمة مكتومة في خِفْيَةٍ إذا حضر أولو القربى واليتامى والمساكين المذكورون وذلك استئناساً بما جاء في سورة القلم عن الذين أرادوا جني ثمار بستانهم مبكرين قبل وصول الفقراء إليهم. وللوريث الذي يتصدق على هؤلاء مَنْزِلة ودرجة على من يُمسِك ويبخل.

وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (9)

في حالة رغبة أحد المؤمنين، ولا سيما من ليس له عَقِب ووالدان، أن يوصي بوصية مُجحِفة أي يَحْرُمَ بها بعض ورثته أو أن يُحِقّ عليه، كذباً، دَيناً مُضارّاً أي بمبلغ مَدِين يُقتطَع من تركته إضراراً بالورثة، فعلى من حضر هذا الموقف أن يُسدِّد الْمُورِثَ بأن ينصحه بترك ذلك. فالصواب في ما فرض الله تعالى للورثة. ويحذِّر تعالى هؤلاء الناصحين بأن لا يسكتوا عن هذا التسديد ويذكِّرهم بأنهم يوماً ما قد يتركون من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم. وقد أورد الطبري في تفسيره قول ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية "فليتقوا الله في أموال اليتامى". يقصد ذريتهم

القاصرين بإعتبار ما سيكون أي أن ما يرثونه كيتامى قد يكون بيد من يأكل أموالهم ظلماً.

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (10)

الأكل من مال اليتيم بالمعروف سبق إباحته للأوصياء الفقراء. أما أكله ظلماً، أي يتحقق فيه سوء النية، فحقيقة هذا نار في بطونهم وسعير لمأواهم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. وهناك حالة يتشدد فيها الوصي في رعاية مال اليتيم فيعزل طعام اليتيم عن طعامه، خوفاً من أن يظلمه، فإذا فضل من طعام اليتيم شيء فإنه سيُتلَف. فسئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك فنزلت الآية العشرون بعد المئتين من سورة البقرة بقوله تعالى ((وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ)).. الآية. وبهذه الآية أُبيح للوصي خلط طعام اليتيم مع طعامه في صدق نية من أجل حفظ مال اليتيم.

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (11) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ

وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (12)

روى الإمام أحمد في مسنده عن جابر رضي الله عنه أنّ سعداً بن الربيع رضي الله عنه أُسْتُشْهِدَ يوم أُحُد وله زوجة وابنتان فجاء عم البنتين وأخذ مالَ سعدٍ جميعَه. فقصدت زوجة سعدٍ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم وأخبرته بذلك فقال لها ((يقضي الله في ذلك)) فنزلت هذه الآيات فأرسل إلى عم البنتين فقال ((إعط إبنتَيْ سعدٍ الثلثين ولأُمِّهِما الثُمُن وما بقي فهو لك)). وكان العم أقرب الورثة بعدهن. وإن كن نساءً أي ليس معهن أولاد ذكور (فوق اثنتين)، يشمل الأثنتين، فلهن الثلثان في تركة أبيهما. وان كانت واحدة فلها النصف. والورثة في الآية الثانية عشرة هم من الدرجة الأولى أي لم يورث كلالة والقسمة فيها واضحة إلا إن الأب بعدما يأخذ قسمته له أن يأخذ ما تبقى من التركة بعد اخذ الأم قسمتها لأنه أقرب العصبات إلى المتوفى أي بالتعصيب أي بالصلة الأبوية وإن كان للمتوفّى زوجة فللأُم الربع أو كان للمتوفاة زوج فله النصف والباقي للأم السدس وللأب ثلثا النصف المتبقى من الزوج. ولكل حالة حكمها حسب تعدُّدِ الورثةِ وصِلَتِهم. وموضوع ذلك في كتب الأحكام مما يغني عن التفصيل هنا. ويستدل من الآية الأخيرة من هذه السورة (وقد جاءت إيضاحاً للآية الثالثة عشرة أعلاه) على أن حالة الكلالة هي خلوّ الورثة من أقارب الدرجة الأولى أي الأب والأم والزوجة والأولاد فيبقى الأخوة والأخوات من الأم وقسمة التركة لهم تقتصر على الثلث إن تعددوا ذكوراً وإناثاً بالتساوي وإن كان واحداً فله السدس. وقد روى البخاري

ومسلم من حديث جابر رضي الله تعالى عنه قال "دخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنا مريض لا أعقل قال فتوضأ ثم صَبّ عليّ او قال صبوا عليه. فقلتُ إنه لا يرثني إلّا كلالة (أي ليس لي أب أو أُم أو أولاد) فكيف الميراث فأنزل الله آية الفرائض". وهنا أورد تعالى ذكر الدَّين المضار ولم يذكر هذا الدَّين في الآية الحاديةَ عشرةَ لأن الورثة هنالك من الدرجة الأولى. أما الورثة هنا فمن الكلالة أي ما بعد الدرجة الأولى فيحصل أن المورّث في حياته يقر على نفسه بدَينٍ وهميّ لحرمان الورثة وهذا من الكبائر لما فيه من ضرر على من فرض الله تعالى لهم الميراث. ويجدر هنا إيراد ما جاء في ختام شرح المواريث في تفسير ابن كثير رحمه الله وهي خطبة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وفيها قوله "ألا إن الآية التي نزلت في أول سورة النساء في شأن الفرائض أنزلها الله تعالى في الولد والوالد، والآية الثانية في الزوج والزوجة والأخوة والأخوات من الأم، والآية التي ختم بها سورة النساء في الأخوة والأخوات من الأب والأم، والآية التي ختم بها سورة الأنفال أنزلها في أُولي الأرحام بعضهم أولَى ببعض في كتاب الله مما جرّت الرحم من العَصَبة". والخطبة المذكورة جاءت في تفسير آخر السورة وأوردتُها هنا لعلاقتها. وهذا الشرح لا يغني عن الرجوع إلى أحكام المواريث في كتب الأحكام وإنّ اقتصار الكلالة على من لا والد أو والدة له من المورثين ولا ولد له يتضح من هاتين الآيتين إذ لو كان له أب وأم لأخذا ما فُرِض لهما من التركة. وأما القسمة لباقي الورثة فواضحة في سياق الآيتين.

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (13) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (14)

في شرح الآيتين يَرِدُ ضمناً التحذير بصدد نعمة الله تعالى على عباده وسلوك العبد في التصرف بهذه النعمة سواء كانت مالاً أو ولداً أو عافية ولا حصرَ لنعمائه جل شأنه. وقد وضع تعالى حدوداً للسلوك في هذه النِّعم ويكون تجاوزها وَبالاً على المتجاوز. وهذا ما يفهم في صدد المواريث من حديثين لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقد روى الترمذي وابن ماجه وأبو داوُد في سُنَنِه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((إن الرجل ليعمل أو المرأة بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت فيُضِرَّانِ في الوصية فتجب لهما النار))"! وروى الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة فإذا أوصى وحاف في وصيته فيختم له بشرِّ عمله فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فَيَعْدِلُ في وصيته فيدخلُ الجنة))"! قال الإمام أحمد: "ثم يقول أبو هريرة أقرأوا إن شئتم ((تِلْكَ حُدُودُ اللهِ))". وأما الوصية المجحفة فلا تختلف عن الدَّين المضارّ إذ لو كان الورثة هم الأب والأُم والأولاد لما ورِث المال غيرُهم. والدَّين المضار سبق شرحه.

وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (15) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا (16)

بعد أن نزلت أحكام الجَلْد في سورة النور لم يعد العَمَلُ بالآية الخامسةَ عشرةَ قائماً فقد نسخها حكم الزانية. فقوله تعالى ((يَأْتِين الفَاحِشَةَ)) مع طلب أربعة شهداء يدل على ذلك أي إن المقصود بالفاحشة هنا هو الزنا وقد كان إمساكهن في مثل هذه الحالة في البيوت من العقوبات قبل الإسلام. والبيّنة العادلة في ذلك هو شهادة أربعة رجال على فعلهن. فلما نزلت سورة النور قام الحد. فقد روى مسلم وأصحاب السُنَن عن عُبادةَ بن الصامت رضي الله تعالى عنه عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قوله ((خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا)). وأما الآية السادسةَ عشرةَ فقد ذكرت الفاحشة نفسها ولهذا ذهب بعض المفسرين إلى إنها تخص الزاني والزانية لأن الحكم عليهما قبل الإسلام كان بالضرب بالنعال والشتم والتعيير فنسخ ذلك بحكم سورة النور. وذهب مفسرون آخرون (استدلالاً من اقتصار الكلام في الآية الأولى- أي الخامسة عشرة – على النساء والتي تليها على الرجال) بأن ذلك يُشعِر بإكتفاء المرأة بالمرأة والرجل بالرجل. والمهم حسر الفساد بالقَصاص. فقد روى أصحاب السنن عن ابن عباس رضي الله عنهما قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ((من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به)). وهذا من باب التعزير الذي يوقعه الحاكم على أهل المعاصي. وباب التوبة مفتوح من رحمة الله تعالى إذ ختم الآيتين بالإشارة إلى إثنتين من صفاته الحسنى (التوَّابُ الرَّحِيمُ) لمن أقلع وندم وثبت على ذلك. كما صرح بذلك في الآيتين التاليتين ترغيباً وترهيباً.

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (17) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى

إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (18)

إقلاع المؤمن عن المعاصي والندم على ارتكابها مع سلامة العقل والرشاد والنية في ذلك لكسب مرضاة الله تعالى ومغفرته هما توبةٌ نَصوح بَشَّرَ الله بخبر واضح بأن يتوب عليه أي يوفقه إلى الإقلاع عما تاب عنه، والله تعالى أعلم بسبب التوبة، وحكيم في قبولها. وأما من لم يقلع عن الذنوب حتى إذا حضره الموت قال "إني تُبْتُ الآن" فتوبة الله تعالى عليه أي توفيقه للإقلاع عن المعاصي لم يعد له وقت إلا أن يعفو، وأما الكفار الذين أصروا على الكفر حتى أدركهم الموت فقد ورد ذكرهم في الآيتين التسعين والحادية والتسعين من سورة آل عمران مما أغنى عن التكرار.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (19) وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (20) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (21)

في الجاهلية كانت المرأة إذا تُوُفِّي زوجُها لا يَسمَحُ لها ذووه أن تخرج من عندهم وذلك إما طمعا بميراث زوجها المتوفَّى وبما عندها من مال، أو لأن أحدهم يريد الزواج منها أو لكي تَتَنازل لهم عن مالها وميراثها وما يحق لها من صُداق. واستمر العمل بهذا السلوك حتى جاءت كُبَيشةُ بنت معن بن عاصم رضي الله عنها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد توفي عنها زوجها أبو قيس بن الأسلت وله ابن كبير من غيرها. فاعتبرها إبنُه هذا جزءً من تركة أبيه يزوجها لمن يشاء أو يحبسها

في بيته حتى تتوفى فيرثها فقالت: يا رسول الله، لا أنا ورثتُ زوجي ولا أنا تُرِكتُ فأُنكح. فنزلت الآية التاسعة عشرة فتركها الوارث لحريتها. وأما العَضْلُ فله ثلاثة أوجه؛ الأول أن يمنع ولي المطلقة (طلاقاً رجعياً) من أن يردَّها زوجُها الذي طلقها إليه إن أراد ذلك، والثاني أن يُضيّق الزوج على زوجته التي يريدها أن تفتدي نفسها بالخلع فتَتنازل له عن حقوقها وهذا هو موضوع هذه الآية، والثالث أن يكون العضْل مباحاً إذا أتت الزوجة بفاحشة مبيِّنة وهي القبيح من الأفعال التي تخدش الحياء وتصل إلى الزنا أو كانت من البذاءة بحيث لا تطاق، أو كثر أذاها لزوجها وأهله فالعَضْلُ هنا هو السلوك الذي يراه الزوج مناسباً لتترك ما بذمته لها مع طلب الخلع فهذا مستثنى من النهي. ولا يشمل العَضْلُ امتناع ذوي المرأة عن تزويجها لدرء عاقبة سيئة تأتي من عاهة في الخاطب أو عدم التكافؤ معهم أو اشتهاره بالفسوق. وأما المعاشرة بالمعروف فأحكامها متسعة وتشمل سد حاجة المرأة في المأوى والمأكل والملبس بدون تقتير، وتشمل العدل بين الزوجات في حالة تعددهن والقرعة بينهن في الأسفار ووعظهن قبل أي تصرف شديد لتصحيح الأخطاء. وتشمل بذل الجهد في مساعدة المرأة حتى في أُمور البيت، مع دوام البِشْر والبشاشة والتلطف فإن لها مثل الذي عليها بالمعروف أي كما يريد منها ظاهراً طيباً وباطناً صافياً فعليه أن يكون لها بمثل ذلك. وقد أوضحت الآية الحادية والعشرون مدى الإثم الذي يترتب على العَضْلِ الذي يضيع حقها إن أرادها أن تختلع. فإذا أراد أن يختار غيرها فيطلقها فعليه أن لا يأخذ من حقها شيئاً ولو كان قنطاراً من الذهب. والقنطار هنا دليل على كبر حجم المال وليس تحديداً. وقد بين سبحانه سبب ذلك بأنهن إنما دخلن مع الأزواج بعقد شرعي مشهود عليه ومعلن كما أمر الله تعالى. وافضى

بعضهم إلى بعض أي الخلوة الشرعية بلا حائل. فلا يجوز أخذ المهر بعد الإفضاء. والميثاق الغليظ هو أمر الله تعالى في الإمساك بمعروف أو التسريح بإحسان.

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا (22) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (23)

المقصود بما قد سلف محصور بما سبق في الجاهلية فأوجبت الاية حرمة زوجة الأب على ابن زوجها. فما حصل من قبل فلا يحاسب عليه وتحرم فوراً. وليس في الآيتين ما يستوجب الأحكام إلا موضوع الرضاعة لوضوح باقي الصفات. والتحريم يشمل المرضعة وما يدخل في ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها وهو قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم ((يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب)). أما عدد الرضعات التي تصح بها الحرمة فهناك من أخذ بظاهر النص عموماً فأفتى بالحرمة بمجرد الرضع. وهذا ما ذهب إليه فقهاء المالكية والأحناف، وهناك من أخذ بما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((لا تحرم المصّة والمصتان)) وهذا ما أفتى به الحنابلة. وهناك من أخذ بِخَمْسِ رضعات كما جاء في تفسير ابن كثير عن أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم لسهلة بنت سهيل رضي الله عنها أن ترضع سالماً مولى أبي حذيفة خمس رضعات. وهذا ما ذهب إليه الشوافع. وأفتى فقهاء الامامية بعشر رضعات على الأحوط كما جاء في كتاب

المسائل المنتخبة للإمام الخوئي رحمه الله. وهناك فتوى لإبن عمر رضي الله عنهما كما جاء في كتاب أحكام القرآن للجصاص ج/2 ص124 بقليل من الرضاع إذ قيل له أن إبن الزبير يقول: لا بأس بالرضعة والرضعتين فقال ابن عمر: قضاء الله خير من قضاء إبن الزبير. وهذا أحوط ما يكون في الرضاع. واتفقت المذاهب على إن سن الرضاع هو دون السنتين. ويجب تحذير المرأة المرضع من ارضاع حفيدها من ابنتها، أو أخٍ أو أُختٍ لهذا الحفيد من أبيه، ففي هذه الحالة يصبح الرضيع أخاً لأمه أو لضرتها. وقد شاع ما أُستُحدِث من رضاعة صناعية بالرضّاعات الزجاجية مما حصر موضوع الرضاعة في نطاق ضيق. وأما تحريم الجمع بين الأُختين فقد جاء فيه قوله تعالى: (إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ) أي لا جناح في ما قد سلف. لكن من جمع بينهما يطلق إحداهما. وحُكْم (إلا ما قد سلف) محدد بما سبق الإسلام.

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (24) وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (25)

في هذه الآية الرابعة والعشرين حالة السبي. فالمرأة التي سُبِيَت من دار الحرب، وكانت متزوجة ممن كان حرباً على دار الإسلام، تعتبر مُلكَ يمينٍ لمن تكون في

قسمته من المحاربين ولا يقربها إلا بعد انقضاء العدة أو الوضع إن كانت حاملاً. ويُعتبر سَبْيُها طلاقاً من زوجها المحارب. فالمحصنات من النساء المؤمنات وغير المؤمنات محرمات حرمة ما سبق في الآية السابقة إلا في سبي محصنات دار الحرب كما جاء آنفاً ولا جناح في ما سوى ذلك من الزواج بمن تحل إلى أربع نساء أو ما ملكت اليمين. وذكر الله تعالى شرط الإحصان أي ما شرع من زواج شرعي دائم من غير سفاح. وجاء قوله تعالى (فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ) وقد تأوّله الإمامية بأن المقصود به نكاح الْمُتعة أي المؤقت بعقد يُتفَق فيه على مدة وأجر ويفسخ بعد إنقضاءِ المدة المذكورة في العقد، إلا إذا تراضى الطرفان بزيادة أو نقص. وقد جاء في كتاب "النهاية" للطوسي، ص 489، و"شرائع الإسلام" للحلّي في فقه الجعفرية، ج2/ ص 305، 307: "هو عقد الرجل الزواج على إمرأة مدة معلومة بمهر معلوم". كما جاء في المصدرين المذكورين تسمية الزواج المذكور بإسم آخر هو "الزواج المنقطع". وتأوّلته المذاهب الأخرى على أنه ما يتم به النكاح بعقد شرعي دائم تام ينتهي بالطلاق أو الموت. وقوله تعالى (فآتوهن أجورهن) أي مهورهن بدليل قوله تعالى في سورة الأحزاب الآية الخمسين ((يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ)) أي مهورهن، ولم يكن لزواج المتعة مجال هنا. وقوله تعالى ((وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ)) أي ما تتنازل عنه الزوجة لزوجها من مهرها أو تهبه له، أو في ما يزيده الزوج للزوجة من المهر أو في ما يتفق عليه كلاهما من بقاء على العقد قبل الدخول أو من فراق. وقد جاء في المتعة حديثان؛ الأول منهما في صحيح البخاري وصحيح مسلم عن الإمام علي كرم الله وجهه قوله (نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن نكاح المتعة وعن لحوم

الحمر الأهلية يوم خيبر). والثاني: جاء في صحيح مسلم أن سَبْرَةَ بنَ مَعْبَدٍ الْجُهَنِيَّ رضي الله عنه غزا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم فتح مكة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاطباً في الناس يومها ((يا أيها الناس إني كنتُ قد أذِنت لكم في الاستمتاع من النساء وإن الله قد حرّم ذلك إلى يوم القيامة فمن كان عنده منهن شيءٌ فَلْيُخْلِ سبيله ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً)). وفي القرآن الكريم والأحاديث الشريفة دلالات وقرائن على حُرمة المتعة كما يلي:

1-لم يرِدْ ذِكرُ نكاح المتعة في قوله تعالى ((والذين هم لفروجهم حافظون* إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين* فمن ابتغَى وراء ذلك فأولئك هم العادون)) وردت الآيات في سورتي (المؤمنون)7-5 والمعارج 29-31.

فإن قيل إن نكاح المتعة زواج شرعي يجعل من المتمتَّع بها زوجة شرعية ففي هذه الحالة يجب أن ترث زوجها بحكم آيات الميراث السابقة. ولما كان نكاح المتعة لا يوجب الميراث فهو منسوخ بفريضة الميراث. كما إن الآية التاسعة والأربعين من سورة الأحزاب أوضحتْ أنْ لا طلاق إلا بعد عقد النكاح بقوله تعالى ((.. إِذَا نَكَحْتُمُ المؤْمنات ثم طلّقتموهن))، (ثم) تفيد التراخي أي بزمنٍ أبعد. وروى الإمام أحمد والترمذي عن أبي شعيب رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((لا طلاقَ لإِبْنِ آدمَ في ما لا يملك)) بينما نكاح المتعة يشترط العزم على الفسخ ضمن عقد النكاح من غير فترة. وروى إبن ماجة عن المسوّر رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((لا طلاق قبل النكاح ولا عتاق قبل مُلْك))، أي مُلك اليمين.

2- لم يشرع مثل هذا النكاح في الأديان السابقة وقد وردت الآية السادسة والعشرون بعد هذه الآيات بقوله تعالى ((يُريد الله لِيُبَيِّنَ لكم ويهدِيَكم سُنَنَ الذين من قبلكم ويتوبَ عليكم والله عليم حكيم)).

3- أمَرَ تعالى الذين لا يجدون نكاحاً أن يستَعْفِفوا حتى يجدوا نكاحاً فقال تعالى ((ولْيستعْفِفِ الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله)). وجعل تعالى مخرجاً في هذه الحالة فقال ((وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ أَنْ يَنْكِحَ المحْصَنَاتِ المؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمْ المؤْمِنَاتِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيْمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ)). ولم يَرِد نكاح المتعة كمخرج من حالة الإستعفاف إذ إقتصر ذلك على (ما ملكت الأيمان) من المؤمنات.

ومن المحاذير المحتملة من نكاح المتعة احتمال تعاقب أب وإبن من غير أن يعلما على امرأة واحدة في اوقات متباعدة كما يحصل في السفرات البعيدة الى مكان واحد. وفي هذا ما يوجب الحرمة وفقاً للمُحرَّم من النكاح. وقد روى الإمام أحمد في مسنده عن البراء رضي الله عنه قال: ((مرّ بي عمي الحارث بن عمير ومعه لواء قد عقده له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت له: إي عمّ أين بعثك النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال: ((بعثني إلى رجل قد تزوج امرأة أبيه فأمرني أن أضرب عنقه)). وكما لا يرضى المؤمن الزنى لأُمِّه وأُخته وعمته وخالته فعليه أن لا يرضى لمن لها مثل هذه الصلة معه أن يتمتع بها الرجال. وعليه أن يضع نصب عينيه حديثاً قدسياً أخرجه الديلمي يُكَلِّمُ الله تعالى فيه موسى عليه السلام: ((...يا موسى كما تدين تُدان)). أي كما تُجازِي تُجازَى. وينسب لأمير المؤمنين عمر بن

الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه حكم بتحريم المتعة، إذ أنه وقد ثبت له ما جاء في الحديثين المذكورين آنفاً قال ((من أتاني متمتعاً أقمتُ عليه حد الزنا)) ولم يعترض الإمام علي كرم الله وجهه على ذلك في بيعته له، بل قال (مما أخرج الحاكم له): ((....بايعتُ عمرَ ووفّيتُ)). وقال تعالى "وَلَكُمْ فِي رِسُوْلِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ" وكان يقترع بين زوجاته اللاتي لم يخرجن معه في خروجهن معه للغزوات ولم يلجأ إلى المتعة. كما لم يفعلها طيلة التاريخ الإسلامي أحد من الخلفاء الراشدين وأئمة المسلمين. وفي موازين المجتمع النظيف يصعب أن يحصل نكاح المتعة على الوجه الذي يقول به من يُحِلُّونه إذ يشترطون له ثَيّباً اِيّماً، أي غير ذات زوج، وتكون ذات دين، إذ أنّ ذات الدين تراعي أنها لن تفرّط في العِدَّة والأنساب وما حرُم من الرضاعة. فهل يُتوقع مِن مثلِ مَن إستمتع الرجال بها بهذا النكاح لسببٍ ما أن تتحرّى الأنساب لكي تمتنع أن يستمتع بها من سبق لأبيه أو إبنه فعل ذلك معها فحَرُمَتْ عليه حُرمةً أبدية؟ وهل يسهل عليها أن تعرف أن من يريد الاستمتاع بها لم يسبق له فعل ذلك مع أُمِها أو ابنتها؟ فإذا توفر شرط انعدم آخر وتعذرت نقاوة هذا الفعل من الحرام. وإلى هذا تطرّق الدكتور الوائلي رحمه الله في إحدى مواعظه عن (المتعة). بينما لا يمكن أن يكون للحرام والشبهات فسحة في الزواج الشرعي الدائم. والمؤمن مأمور بإتقاء الشبهات ليستبرء لدينه وعرضه. أعود إلى باقي هتين الآيتين. وقد ورد شرح شطرهما في موضوع المتعة وبقي منهما قوله تعالى ((فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ..)) الآية. ففي الزواج من الإماء المملوكات للغير سهولة من حيث المال ولكن فيه محاذير على الذرية. ونبّه تعالى إلى الأخوّة الإنسانية بين السيد والعبد والحر والأمَة بقوله تعالى ((بعضكم من بعض)). وفي هذا نهي عن تعيير من

يتزوج من أمَة مملوكة للغير. ويشترط في هذا الزواج إذن سيد المرأة ولا يُعْطَى المهر لها بل لسيدها مهما قل. وتكون الأمَة محصنة بهذا الزواج فإذا فعلت ما يوجب الحدَّ من أفعال الفحش فعليها نصف العذاب، فلا تُرجم إذا ما زَنت بل تضرب خمسين جلدة بدل المائة فالمائة هي عذاب الحرائر من غير المتزوجات. وروى عبد الله بن أحمد بن حنبل قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((إذا زنت أَمَةُ أحدِكم فتبين زناها فَلْيَجْلِدْها الحدّ ولا يُثَرِّبْ عليها ثم إن زنت فليجلدها الحد ولا يثرب عليها ثم إن زنت الثالثة فَلْيَبِعْها ولو بحبلٍ من شعر)). ويقاس عليه للمتزوجات من الإماء بإقامة نصف الحد ولا تُعيّر لقوله: ولا يثرّب عليها. وإباحة الزواج من إماء الغير مشروطة بخوف الرجل على نفسه من الزنا وما فيه من إثم وهو العَنَتُ فقال تعالى: ((وأَنْ تَصْبرُوا خَيْرٌ لَكُمْ)). وهذا ندب لترك هذا الزواج. والْمَخرج هنا هو انتظار الفرج. ومهما بلغ الإشكال في (المتعة) فإنه إستفتاء للقلوب يحاسب الله به. وهناك من إعتبره من الامور المطْلَقة في الفروع مما لا يدعو للخلاف في ما بين المسلمين..

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (26)

كل بيان من الله تعالى يأتي لإيضاح ما خفي من معالم العبادة والتقوى وموجبات الرحمة والمغفرة. وسنن الرسل الكرام الذين سبقت رسالاتهم الإسلام صلوات الله وسلامه عليهم داخلة في سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأورد الله تعالى من قصصهم ما يؤيد تصديقها في الكتاب والسنة وما يؤيد وحدة ما شرع الله تعالى لعباده لصلاح دنياهم وآخرتهم فيحذروا مما سوى ذلك وقال تعالى ((قُلْ

إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوْبَكُمْ وَاللهُ غَفُوْرٌ رَحِيْمٌ)) الآية 31 /آل عمران.

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (27) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (28)

يبدأ الباطل من ميل النفس للشهوات فإذا ضعفت النفوس وانقادت لمن يزيّن لها الشهوات فقد دخلت في دائرة من الهموم لها ثِقَلُها على الهمّة التي يتحلى بها من لم يحمل هذه الأوزار. وهذا ما يريد الله تعالى أن يبين فيه ضعف الإنسان وما يريده من تخفيف على ضمير التائبين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (29) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (30)

لم تَدَعِ الشريعة السمحاء حُكماً في الأموال إلا وأوضحته لأهمية حفظ الحقوق ورحمة الفقير والنفقة للجهاد وفعل الخيرات وترك المنكرات. وهكذا جاءت الحدود بالمال حتى بلغت قطع يد السارق بشروطه. واجتهد الفقهاء في أحكام التصرف بالمال وبيّنوا صور الحرام كالربا والميسر وصور الغش والخداع. وهنا يؤكد سبحانه على التراضي في أعمال التجارة فتكون مكشوفة للشركاء أو أطراف التجارة مثل حَمَلة أسهمها من غير تلاعب. وأما المرء يقتل نفسه فالقتل هذا إما أن يكون مجازاً بإرتكاب الموبقات وأما أن يكون حقيقياً. فقد روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله ((من قتل نفسه بحديدة

فحديدته بيده يُجأ بها بطنه يوم القيامة في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بسمّ تردى به فسمّه في يده يتحسّاه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً)). وفي قوله تعالى ((إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمَاً)) دعوة للصبر على البلاء وانتظار الفرج. فمن ملك عقله على علم ثم تغاضَى عن هذه الآيات وله فسحة في انتظار الفرج وعدم القنوط من رحمة الله تعالى ثم أقدم على الانتحار فقد توعده الله تعالى بالنار، وفي كلتيهما؛ أي الرحمة، أو العقوبة، ترغيب وترهيب لبيان ضرورة الصبر.

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (31)

روى الشيخان البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله ((اجتنبوا السبع الموبقات)) قيل يا رسول الله وما هنّ؟ قال ((الشرك بالله وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق والسحر وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتوّلي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)) وأضاف عبد الله بن عمر رضي الله عنهما إلى الكبائر: بكاء الوالدين من العقوق، وهو شدة الكلام معهما وقلة إطعامهما طيب الطعام. ولو رجعنا إلى الآيات الثلاثين السابقة من هذه السورة لوجدنا أن الله تعالى ذكر بعدها اجتناب الكبائر فيستدل على إن من الكبائر معصيةَ ما جاء فيها من الأوامر والنواهي في الفروض وفي التحذير من ترك الالتزام بما على المؤمنين أن يلتزموا به بفضيلة الطاعة، وكذلك ما يدخل في حدودها وفي ترك البدع التي تأتي من الأهواء الضالة والنوايا السيئة والمقاصد الخبيثة. وبهذا الالتزام يقابل الله تعالى أهله بالمغفرة والجنة. وحِلْمُه أوسع من جهل عبده.

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (32)

لم يحصل عطاء من الله تعالى لأي عبد من عباده عبثاً مهما بدا من ظواهره كحصيلةٍ لتصرفات ذلك العبد وتحصيله. فالعطاء يكون عن حكمة ورحمة ليبلوَ عبده ويفضّل به اولئك الذين يعلم في الغيب استعدادهم وأَحَقّيتَهم للأفضلية. وفي هذا أيضا إبتلاء! فما على المؤمن إلا أن يرى التفضيل ابتلاءً للعبد فإما يكسب رضوان ربه المنعم عليه بالطاعة والشكر وإما أن يخسر هذا العطاء الفاني وبعده العطاء الباقي. ولم يتميّز في الابتلاء رجل عن امرأة ولا الرجال عن النساء فالآية نزلت بعدما تناقلت بعض الألسن تفضيل الرجال على النساء قياساً على الميراث حتى قالوا بأن أجر أعمال الرجال ضعف أجر أعمال النساء المشابهة لها! ومقابل ذلك قال بعض النسوة بأن أوزار النساء تقل بالنصف عن أوزار الرجال! فصحح الله تعالى هذين القولين بأن لكل فئة نصيبَها مما تعمل كسباً أو اكتساباً وليس بحسب الميراث. فالله تعالى هو مصدر الفضل الذي لا تنفذ خزائنه فنبّهَهُم إلى طلب فضله فكما يوحّدونه في العبادة يوحدونه في طلب الفضل بأي شكلٍ كان.

وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (33)

أظهر الله تعالى حقيقة فناء نعماء الدنيا مع بقاء الحساب عليها وتركها للورثة.

أما تركة الذين لا وارث لهم؛ كالعبيد الذين أعتقهم أسيادهم ولم يكن لهم ورثة من الرحم، وكالذين يموتون ولم يعرف وارث لهم من غرباء ومهاجرين. ففي الجاهلية

كانت تعقد عقود بين أثنين من الاصدقاء بأن يرث أحدهما الآخر وبنفس الوقت يتحمل عنه تبعاته بعد وفاته. ولكن الله تعالى فرض المواريث لأُولي الأرحام كما سبق شرحه. ونزلت الآية ((وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُم أَوْلَى بِبَعْضٍ)) فبقيت العقود وفيها قَسَمٌ بالله تعالى وأنه تعالى شاهد عليهم. وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم في ما رواه الإمام أحمد في مسنده ((لا حِلْفَ في الإسلام. وأيّما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدّةً)). وجاء التوفيق بين نَسْخ التوارثِ بين المتعاقدين وبين إتمام الأحلاف بأن ينفذ الحلف إلا في ما يخص الميراث. وهنا تكون الوصية للمتحالف وصية غير مجحفة بل فسحة في الشريعة ولم يبق للمتحالف أي نصيب من الميراث ولم يغمط حقه في الحلف بوجود الوصية. وحتى إن بقي من حصص الورثة الذين فرض الله لهم حقوقهم بقية من التركة فلا تُعطى للمتحالف بل لأقرب رجل من العصبات أي الأعمام وأولادهم وينفذ ما بقي من الحلف من نصرة ونصيحة ولا تحالف بعد ذلك في الإسلام. أما التآخي بين المهاجرين والأنصار فلم يدخل في مثل هذا التحالف بل ضَمَن معونة الأنصاري لأخيه المهاجر في الكسب والسكن حتى تصلح له معيشته إذ إنه قد ترك ماله وهاجر إلى الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (34)

لقد فضل الله تعالى كلاً من الرجل والمرأة بمزايا جعلت الرجل أقدر على الحماية والكسب ومجابهة ظروف الدهر من المرأة التي حُبِّبَ إليها الدَعَةُ والإتكال على ما أعطى اللهُ الرجلَ من هذه المزايا. وأما نفقة المال فهي حصيلة مزية الرجل في الكسب حتى وفّر المهر وهيأ السكن وأسباب المعيشة لزوجته وعائلته. وبعد ذلك أوضح الله تعالى مزايا تلك المرأة التي لا تحتاج إلى موعظة ولا إلى هجر ولا إلى ضرب فمن هي إلا الصالحة في تقواها وعبادتها ومن مزايا ذلك طاعتها في ما شرع الله تعالى من حقوق للزوج والأولاد والبيت والمال. وقد روى ابن جرير الطبري في تفسيره عن أبي هريرة قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((خير النساء امرأة إذا نظرتَ إليها سرّتْك وإذا أمرتها أطاعتك وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك)) وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ((إذا صلَّت المرأة خَمْسَها وصامت شهرَها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها قيل لها ادخلي الجنة من أي الأبواب شئتِ)). أما المرأة من غير هذا الصنف فالرجل في ذلك قوّام عليها، في تأديبها، ولكن بسلوك يبدأ من الموعظة للالتزام بالشريعة ولتقدير العاقبة الحسنة للتصرف الحسن. فإن لم تنفع النصيحة معها يشعرها بهوان قدرها عنده وذلك بهجرها في ما أحل الله لهما دون غيرهما من الحياة الزوجية على أن لا يقاطعَها في الكلام أو يقتر عليها في الصرف على حاجاتها وحاجات بيتهما. فإن أبت إلا النشوز أي تجاهل الأمر بالمعروف وحق الزوج فقد شرع الله تعالى ضربها من قبل زوجها ولكنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن ضرب الوجه كما جاء في التفاسير وقال ابن عباس رضي الله عنهما ((ضرباً غير مُبَرّح)) وقال الحسن البصري رضي الله عنه ((يعني غير مؤثر)) أي لا يُحدِث أثرا من

الشدة. فإن أطاعت المرأة فلا حجة عليها وإلا فهناك حلّ أخير بأن تُطلّق ولا يعطى لها متأخر مهرها. هذا في حالة النشوز من جانب المرأة. وأما في حالة نشوز كلا الزوجين أي نفورهما هذا من زوجته وهي من زوجها فقد قال تعالى:

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (35)

قال الفقهاء "إذا وقع الشقاق (أي الخلاف الشديد) بين الزوجين أسكنهما (أي أرسلهما) الحاكم إلى جنب ثقة، أي مخوّل بالقضاء، ينظر في أمرهما ويمنع الظالم من الظلم. فإن تفاقم أمرهما وطالت خصومتهما بعث الحاكم ثقةً من أهل المرأة وثقةً من أهل الرجل ليجتمعا فينظرا في أمرهما ويفعلا ما فيه المصلحة مما يَرَيانِهِ من التفريق أو التوفيق لقوله تعالى ((إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا))". وقد فرّق الفقهاء بين حكَمَين يوكِّلُهما الأهل من بينهم فهما (وكيلان)، وبين حكَمَين يعيِّنُهما الحاكم. إذ يُنَفّذُ ما يقرره الوكيلان في الجمع أو التفريق. فقد أخرج عبد الرزاق عن عبيدةَ، وهو من اصحاب الإمام علي كرم الله وجهه، قال ((شَهِدْتُ عليّاً وجاءته امرأة وزوجها مع كل واحد منهما فئام من الناس (من أقارب كلٍ منهما) فأخرج هؤلاء حَكَماً وهؤلاء حَكَماً فقال الامام علي (كرم الله وجهه) "أتدريان ما عليكما؟ إنّ عليكما إن رأيتما أن تجمعا جمعْتُما" فقالت المرأة "رضيتُ الله لي وعَلَيَّ". وقال الزوج "أمّا الفُرْقَةُ فلا". فقال الإمام علي (كرم الله وجهه) "كذبتَ! والله لا تبرح حتى تَرضَى بكتاب الله عزّ وجلّ لك أو عليك". أما الإلتزام بما يراه الحَكَمان الْمُعَيَّنان ففيه إجتهادان: أن يكون مُلزِماً في الجمع والتفريق، أو ملزماً في

الجمع غيرَ مُلزِمٍ في التفريق. ويرجح الجمهور أن يكون قولُهما نافذاً في التفريق أيضاً وإن لم يُصَرَّحْ بتوكيلهما.

وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (36)

خير ما يفسر العبارة الاولى من هذه الآية ما اورده ابن كثير رحمه الله في تفسيره عن هذه الآية وهو قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه ((أتدري ما حق الله على العباد؟)) قال مُعاذ: "الله ورسوله اعلم". قال ((ان يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ثم أتدري ما حق العباد على الله اذا فعلوا ذلك؟ ان لا يعذِّبَهم)). وعبادة الله تعالى بلا شريك هي ان لا يكون في مقاصد المؤمن ونواياه وأفعاله رياء ولا يعمل لإرضاء الناس في سخط الله، بل يجعل الله تعالى واحداً في نيته بالعمل لوجهه الكريم. ومن العبادة ما جاء في العبارة الثانية عن بر الوالدين وما اكثر ما ندب لذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحذر من العقوق الذي جعله من الكبائر. واما الاحسان الى ذوي القربى ففي ذلك أجران؛ أجر الاحسان، واجر صلة الرحم. واما الإحسان الى اليتامى: فإن كانوا فقراء فالإحسان اليهم بالمال والحنان، وإن كانوا من اغنياء الناس فالإحسان اليهم بالحنان والنصيحة لوجه الله تعالى. واما المساكين فهم الذين لا يقوم دخلهم بسد حاجتهم فأمر تعالى بتأمين حاجتهم. وفي سورة التوبة تفصيل في الصدقات للمسكين والفقير. واما حقوق الجوار؛ فهناك الجار ذو القربى والجار الجُنُب (الذي ليس من الأقرباء) وقد يكون الجار مسلماً او غير مسلم. فالمسلم مشمول بأُخوّة الايمان (انما المؤمنون إخوة)، وغير المسلم فله حق الجيرة. وقد أكد أهمية هذا الحق حديث رواه الامام احمد عن ابي العالية عن رجل من الانصار قال: "خرجت من اهلي أُريد النبي

صلى الله عليه وآله وسلم فإذا به قائم ورجلٌ معه مقبل عليه فظننت ان لهما حاجة. ولقد قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى جعلتُ أَرثي له من طول القيام. فلما انصرف قلتُ: يا رسول الله قد قام بك هذا الرجل حتى جعلت أرثي لك من طول القيام. قال ((قد رأيته؟)) قلت: نعم قال ((أتدري من هو؟)) قلت: لا. قال ((ذاك جبريل ما زال يوصيني بالجار حتى ظننت انه سيورّثه)). ثم قال ((اما انك لو سلَّمت عليه لَرد عليك السلام))". واخرج البزّار عن جابر بن عبد الله رضي اللهُ عنهما قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((الجيران ثلاثة؛ جار له حق هو ادنى الجيران حقاً، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق، وهو افضل الجيران حقّاً. فاما الجار الذي له حق واحد فجار مشرك لا رَحِمَ له، فله حق الجوار. واما الجار الذي له حقان فجار مسلم فله حق الاسلام وحق الجوار. واما الذي له ثلاثة حقوق فجار مسلم ذو رحم فله حق الجوار وحق الاسلام وحق الرحم)). وقد يتساوى الجاران في حقيهما؛ احدهما الى اليمين، والآخر الى اليسار، فالأحقّ هو الأقربُ باباً الى باب جاره فقد روى الامام احمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها انها سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: "إنّ لي جارين فإلى أيّهِما أُهدي"؟ قال ((الى اقربِهما منكِ باباً)). واما الصاحب بالجَنْب فلذلك صور متعددة فقد يكون ضيفاً او زميلاً في العمل او صاحباً في السفر او الاجير. واما ابن السبيل فهو الذي يكون بعيداً عن اهله في سفر وحصلت له حاجة او طلب معونة فالإحسان إليه أمرٌ واجب. وأما ما ملكت الأَيمان، أي العبيد والإماء، فقد كان من الوصايا الاخيرة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((الصلاة، الصلاة، وما مَلَكَتْ أَيمانُكم)). وفي زماننا هذا حيث لا يوجد عبيد وإماء فالخادم بمقام ذلك فقد روى الامام احمد عن مقدام بن مَعْدِ يكَرْب رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حديث: ((.. ما أطعمتَ خادمك فهو لك صدقة))". ويكون الإحسان لهؤلاء ليس بالطعام فقط بل في كافة امورهم المسببة

لحاجتهم كالعلاج في حالة المرض. ثم ختم تعالى هذه الآية بالتحذير من إعجاب المرء بنفسه كأن يرى نفسه افضل من جاره او ذوي قرباه او اليتامى والمساكين والخدم فان ذلك يدخل في الاختيال والفخر فقال ((إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا)). ومن شأن من كان من هذا القبيل: البخل والحرص حتى يُخشَى عليه من الكفر. فقال تعالى في أمثاله:

الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (37) وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (38) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (39)

بعد ذِكْرِ الإحسان وذمِّ الخُيَلاء والفخر، وَصَم الله تعالى المعروفين بالخيلاء والفخر بالبخل والامر بالبخل ومَنْعِ الزكاة بكتمان نعمة الله تعالى وكفرها بتغطية العلم وستره عنها، وتَوَعّدهم الله بعذاب أليم ووصَمَهم بالعمل لغير وجه الله تعالى وهو اغنى الشركاء لا يقبل عملاً لغيره. ولو صح ايمانهم بالله واليوم الاخر لعملوا لوجه الله تعالى وتركوا الخيلاء والفخر ولما تسلط عليهم شيطان يلازمهم في توجيههم الى خسارة اليوم الاخر ويدعوهم الى البخل وما فيه من الغفلة عن رقابة الله تعالى، وعلمه بهم.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (40)

وبيَّن الله تعالى موجبات العذاب بإستحقاق من يناله العذابُ وليس من ظلمٍ، فلا يتصف المولى سبحانه بذلك، بل من رحمته حذّر في هذه الآية من العذاب ليتجنَّبه الانسان بالحسنات التي يضاعفها ويزيد من لدنه عليها.

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (41) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (42)

يشهد الله تعالى يوم القيامة لرسوله صلى الله عليه واله وسلم بالصدق والوفاء فتقوم الحجة له على الذين لم يتبعوا النور الذي جاء به؛ فمنهم من جحد الحق، ومنهم من كتم البشارة في التوراة والانجيل ببعثته، ومنهم من اظهر الايمان وابطن الكفر. وليس امامهم من مفر عن الإقرار بما فعلوه اذا شهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على ما شَهِدَهُ منهم. واما ما حدّثوا به انفسهم فلا يملكون كتمانه عن الله تعالى. وما اشدها من ساعة حرج يرتضي الكافر بدلاً عنها ان يكون تراباً لم يُبعث حياً!.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (43)

كان مبدأ تحريم الخمر بالنهي عن الصلاة في حالة السُّكْرِ لكي يتأكد المصلي مما يتلو ويدعو ويسبح وما إلى ذلك من افعالِ واقوالِ الصلاة. ولم يكن في هذا النهي بيانٌ شافٍ لهم، اذ تخيَّروا الاوقات التي تذهب بها سطوة الخمر لتكون مع اوقات الصلاة ثم لا يهمهم ان يكونوا سكارى بعد ذلك. ونزلت الآية ((ويسألونك عن الخمر والميسر)) فطلب سيدنا عمر رضي الله عنه ان يبين الله تعالى في الخمر

جواباً شافياً فنزلت الآية الاخيرة بشأن ذلك بقوله تعالى (رجس من عمل الشيطان) الى قوله (فهل انتم منتهون) قال: "انتهينا، انتهينا". ولم يرخِّص تعالى بالمكوث في المسجد لمن كان جُنُباً بل له ان يعبر من باب الى باب آخر فيه ان كان طريقه بينهما (وهذا رأي الشوافع) ثم عليه الاغتسال. ثم شرع التيمم لمن كان مريضاً يضره الغسل او يضره الوضوء ولمن لا يجد ماء او ثمن الماء في كل احوال الاغتسال والوضوء وما عليه الا ان يقصد موضعاً طاهراً وإن لم يظهر للعيان عليه غبار فيضرب بكفيه على سطحه ضربة لمسح الوجه وضربة لمسح اليدين الى المرفقين. وفي هذا يكون قد توفر الشرط للصلاة. ولا تجوز إمامة المتيمّم للمتوضئ. ومن لا يستطيع الوضوء عليه ان يتيمم عند دخول وقت كل صلاة وله ان يجمع ما مُرَخّص بجمعِهِ في المرض والسفر. وعند الاحناف تأويل (عابري السبيل): بالمسافرين، فقد ينعدم عادة الماء في اسفار ذلك الزمان. ولا شكّ ان التيمم جاء تخفيفاً من الله تعالى على اهل البوادي والرُّحَّل عندما لا يجدون الماء إلا للشرب وسقي الانعام. وكذلك على المريض الذي يضره الغسل حتى يشفى.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (44) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (45)

يذكر المولى تعالى أنه آتى أهل الكتاب نصيباً منه، أي ليس تمام الكتاب، إشارة الى تمام النعمة في القرآن. وهم من أجل الدنيا يستبدلون الضلالة بالهدى. ولَمْ تَمنعْهُم البشارة بسيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم من أن يكيدوا له ولأتباعه، فأرادوا ان يدعوا المسلمين الى اليهودية ولم يكونوا قبل نزول القران يدعون احداً الى دينهم مما يدل على سوء طويتهم للحق الذي عرفوه. وهكذا شأن الاعداء والله تعالى أعلم بهم. وكفى به ولياً للمؤمنين يُثَبتهم وينصرهم وله الحمد.

مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (46)

الكَلِمِ، أي صفة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وقد شرع من اليهود من تأوّل بشأنها معاني التوراة على غير وجه الصحة التي تتفق مع تقدير المولى عز وجل فواجهوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالتكذيب مع سماعهم على الوجه الصحيح. وقالوا: "إسمع غيرَ مُسْمَعٍ" (أي أصَمّ)! مع احتمالها للمدح، وقصدُهم الذمَّ. وقالوا (راعِنا) مع إشباع الكسرة مع العين في لفظ مشابه لِلَفْظ في العبرانية يدل على شتم. وقد جاء شرحها في الآية الرابعة بعد المائة من سورة البقرة وهذا دليل نيتهم من مجيئهم الى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لا ليتعلموا بل ليتهكّموا. وبذلك خسروا ما كان خيراً لهم لو سمعوا وأطاعوا. وما منع هذا الخيرَ عنهم إلا كُفرُهم الذي اوجب لعنة الله عليهم فجحد اكثرهم. والقليل منهم مَن اتبع الهدى.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (47)

وقف اهل الكتاب عند علمهم ولم يعرضوا القران على كتبهم ليجدوا تصديق ما عندهم من العلم بالربوبية والعبادة. وعاجَلَتْهم الظنون السيئة والريبة التي في قلوبهم فدعاهم تعالى الى الايمان بالقرآن من قبل ان يسلبهم ما هم عليه من ايمانهم بالكتب التي قبله. فعبّر تعالى عن ذلك بقوله ((مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى

أَدْبَارِهَا)) أي نردهم الى الكفر الذي يستحقون به اللعنة فلا يجدون نصيراً كما حصل لهم في سبي بختنصّر لهم فقال تعالى (وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً).

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (48)

إنّ عمل من أوتوا الكتاب من قبلُ، اذا لم يتفق مع ما آتاهم الله تعالى، فقد أرادوا به غير وجه الله تعالى ويدخل في باب الشرك فيبطل به عملهم لأنهم حاربوا الله به. وليس في القران من أمْرٍ ونَهْيٍ إلا مِن أجْلِ العملِ لوجهه الكريم، فالإثم العظيم هنا هو تجاهلُهم صفة صِدْقِ القرآن الكريم بالعمل لوجه الله تعالى. وبشَّرَ الله تعالى بمغفرة الذنوب التي لا تنال ربوبيتَه ووحدانيّتَه بما يُشرَك به. وقد سبق شرح أوْجُهِ الشرك في الآية السادسة والخمسين بعد المائتين من سورة البقرة. إذ أنّ حق العلم بالله تعالى واحداً لا شريك له هو عدم إشراك غيره في العمل ضمن هذا الايمان. وقد روى عبد بن حميد في مُسندَه عن جابر رضي الله تعالى عنه أنّ رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما الْمُوجِبَتان؟ فقال ((من مات لا يُشركُ بالله شيئاً وجبت له الجنة ومن مات يشرك بالله شيئاً وجبت له النار)).

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (49) انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا (50)

من أقوال أهل الكتاب ((نحن أبناءُ اللهِ وأحِبَّاؤه)) وبذلك نسبوا لأنفسهم سلامة العاقبة وكأنهم علموا بالغيب وما هذا إلا اتباعٌ لهوى النفس وتزكيتُها من غير برهان أي غير سلطان اتاهم. وهكذا كان فهمهم الخاطئ فتنة لهم. ولم يظلمهم الله

تعالى الى أي حد من الظلم ولو كان بمقدار الخيط الذي يتوسط اخدود النواة من التمر. ويعجب تعالى منهم في ذلك فينكره عليهم ويجعله إثماً مبينا.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (51) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (52)

الجبت هو ما يُعبد مما لا عقل له كالأوثان والاصنام والسحر. واما الطاغوت فهو تسلط فئات من الناس حتى يصل بهم الأمر الى دعوة الناس إلى عبادتهم. وكلا الجبت والطاغوت سبيلٌ الى الضلال. فمن سجد لصنم وكذب على الله تعالى إرضاءً لبشر مِثْلِه فقد آمن بالجبت والطاغوت وهذا ما فعله يهوديان هما كعب بن الاشرف وحُيَيٌّ بنُ أخطَبَ خرجا الى مكة مع جماعة من اليهود قبل غزوة الخندق ليحالفوا قريشاً على محاربة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. وطلب بعض القرشيين منهم ان يبرهنوا على سلامة نواياهم في ذلك بان يسجدوا لأصنامٍ لقريش كانوا يعبدونها. ولم يتردد اليهوديان ومن معهما في فعل ذلك ولم يكتفِ ابو سفيان بهذا بل سألهم: (نحن اهدى سبيلاً ام محمد؟) فقال كعب: انتم اهدى سبيلاً! وهكذا كان نصيبهم من التوراة انهم لم يأخذوا بعلمها في الوحدانية فسجدوا للجبت ولم يأخذوا بما جاء في التوراة من بشارة بسيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم ففضلوا عابدي الاصنام على من آمَنَ بالله رباً واحداً وباليوم الآخر. فكذبوا على الحق الذي في كتبهم فاستحقوا لعنة من الله لا يجعل لهم معها نصيراً. فأما كعب بن الاشرف فقد تولى قَتْلَه نفرٌ من الصحابة بطلب من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وذلك في السنة الثالثة من الهجرة. واما حُيَي بن اخطب فقد قُتل يوم خيبر في

السنة السابعة للهجرة. وقد ذكر التاريخ بعض اليهود الذين اشتدت عداوتهم للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وللمؤمنين فأخذوا يحرضون قبائلهم وقريشاً على محاربتهم واستحقوا بذلك الأمرَ بقتلهم وغزو قبائلهم. ففي السنة الثانية للهجرة قُتلت اليهودية عصماء بنت مروان وأبي عفك، وتم غزو بني قينقاع. وفي السنة الثالثة للهجرة قُتل كعب بن الاشرف وأبي رافع تاجر المدينة صاحب الحصن واسمه سلام بن ابي الحقيق ويقال: عبد الله بن ابي الحقيق. وفي السنة الرابعة للهجرة تم غزو بني النضير وإبعادهم الى خيبر. وفي السنة الخامسة للهجرة تم غزو بني قريظة بعد نقضهم العهد بعد يوم الأحزاب وتفصيلُه في سورة الأحزاب. وفي السنة السادسة للهجرة تم غزو اهل خيبر وقَتْلُ حُيَي بن اخطب النضري.

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (53) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (54) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (55)

يُنكِر الله سبحانه وتعالى على اعداء الاسلام من هؤلاء اليهود ما هُم عليه من غفلة عن الحق الذي جعله الله تعالى فرقاناً ينير العقول. فهم ليس لهم من مُلْكِ الله تعالى نصيب لكي يتحكموا به وعندئذٍ سيبخلون به حتى انهم لو كان بيدهم الانفاق لما حصل احد على شيء منهم ولو بقدر النقرة التي في نواة التمرة. فإذ لم يملكوا شيئا من ذلك مَلَكَهم حسدهم لمن آتاه الله تعالى من فضله وغفلوا عن كونه إبتلاءً زائلاً. بينما الملك الباقي يتمثل بالكتاب (الكتب السماوية) والحكمة وما جاء به آلُ إبراهيم. وهكذا حسدوا المسلمين على ما حباهم الله تعالى به من الرسالة المحمدية والجهاد. فمن انتبه الى هذا العطاء الرباني وما وعد الله تعالى اهله

وآمن به نال الجنة، ومن استمر على حب الدنيا بالبخل وعلى العداوة بالحسد فقد كفر بآيات الله تعالى. وتكفيه جهنم تتقد ناراً.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (56) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (57)

بين الله تعالى عاقبة السعير وفيه تُبَدّل الجلود بغيرها. فإصرار العذاب عليهم جاء من اصرارهم على التكذيب والكفر بآيات الله ليبقى العذاب في ذوقهم ويظهر الله تعالى عزته لمن جهل قدرته وكذّب بآياته. واما من آمن وعمل الصالحات في ما آتاه الله تعالى من ايمان ومتاع فمصيرهم الى جنان الخلد تجري الانهار تحت اشجارها يشاركون فيها الطاهرات في اجواء النعيم.

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (58)

ظاهر الآية أن الأمانات هنا تتعلق بالمال والمتاع وتبقى مُلكاً لأصحابها عند الإتفاق على إيداعها لدى المؤتمن إلى حين إستعادتها. فالله تعالى يأمرنا هنا بأن نؤدّيَها عيناً؛ مالاً، ومتاعاً، إليهم بحسب الإتفاق. إلا أن ثَمّةَ أماناتٍ أُخَرَ اُستُخلِف الانسان فيها وأوّلها امانة نعمة العقل الذي يلازمه ويؤاخَذُ ويُكْرَمُ به. ثم نعمة الله في المال أمانة تعاد اليه بالطاعة في أمره ونَهْيِهِ بشأنه. ونعمة العفة وحفظها أمانة في اعناق الرجال والنساء. وحرمة الدين وفرائضه والذود عنه امانة وهكذا. وكما تؤدى

أمانات المال والمتاع ينبغي النهوض بما يترتب على نعماء الله تعالى من صبر وصالح الأعمال. واما الحكم بين الناس بالعدل فهو امر للحاكم ولكل من يتولى امراً من امور الناس أن يتحلى بالسوية والإنصاف وأن يضع الحق في موضعه الذي حُدِّدَ له في الكتاب والسُنّة والمعروف. وبهذا العدل حقّ على المؤمنين أن يطيعوا أُولي الامر من المؤمنين كما مُبيَّنٌ في الآية التالية.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (59)

يُطاع أُولو الأمر المؤمنون ضمن المعروف أي ليس في منكر. وقد روى الامام احمد عن امير المؤمنين علي كرم الله وجهه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((انما الطاعة في المعروف)). واخرج الشيخان عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال "بايعْنا رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم على السمع والطاعة في مَنشَطِنا ومَكْرَهِنا وعُسرنا ويسرنا وأثَرِهِ علينا وأنْ لا ننازعَ الامرَ أهلَه قال (والقول لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) ((إلا أن ترَوا كفراً بَوَاحاً عندكم فيه من الله برهان)) بَوَاحَاً: أي ظاهراً. واما الشيء المقصود هنا فهو امور المؤمنين؛ فما يتعلق منها بأحكام الشريعة فمرجعه أهل الفتوى وهم المرجع في التنازع ليقولوا كلمة الشريعة فيه، واما امور الدنيا فمرجعها الأمراء. واذا حصل تنازع في شيء بين الأُمراء والناس فعليهم ان يأخذوا بحكم الشرع فيه أي بالإحتكام الى كتاب الله وسُنّة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا لأهل الايمان بالله واليوم الاخر وعاقبته خير في الحال والمآل أي في عاجل الدنيا والمآل في الآخرة.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (60)

الآية عامة لكل من يريد حكماً غير حكم الله تعالى وهذا دليل النفاق لمن يزعم انه مؤمن. فالمؤمن يرضى بحكم الله تعالى. وما كانوا ليتحاكموا للطاغوت، أي ليطلبوا التحكيم او القضاء في النزاع بغير ما حكم الله تعالى وبغير ما جاء في سنة رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم إلا لأن الشياطين قد غرتهم اذ تسلطت عليهم بتوكلهم على غير الله تعالى فليس للشيطان سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون أي بحُكمِهِ يرضَون.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (61) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (62) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (63) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (64) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (65)

اختصم يهودي ومنافق زعم بأنه مؤمن. فطلب اليهودي ان يتحاكما الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كونه لا يرتشي. الا ان المنافق طلب الاحتكام الى كعب بن الاشرف الذي سبق ذكره والذي كان يحكم لصالح من يُقدِّم له الرشوة. فلما أصرّ اليهودي على رأيه نزل عنده المنافق وقضى الرسول صلى الله عليه

وآله وسلم لليهودي فلم يرضَ المنافق بذلك. ومَرّا من امام باب سيدنا عمر رضي الله عنه فاخبره اليهودي بما حصل فقال لهما "مكانَكُما حتى اعود اليكما" فحمل سيفه وخرج اليهما وضرب عنق المنافق قائلاً "هكذا اقضي لمن لم يرضَ بقضاء رسول الله" (صلى الله عليه وآله وسلم). وجاء اهل القتيل الى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يطلبون الديّة مُدّعين ان قتيلهم لم يطلب إلا الإحسان والتوفيق وطلبوا دية القتيل فنزلت الايات لكشف نفاقهم ولِيُعرِض عن طلبهم الديةَ وليُذكِّرَهم بما هو حق من قبول قضاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولبيان ما في هذه الحادثة من نفاق وزيغ وانها عامة تشمل كل حالة مماثلة. فقد اظهر الله تعالى ضرورة تحكيم الشريعة وما شَرَعَه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند كل نزاع او خلاف. ومن ثَمّ الطاعة والاستغفار لأنفسهم إلتماساً للمغفرة. وتَحكيم السنة النبوية شرطُهُ أن لا يحصل منه حرج في النفوس وإلّا فلا ايمان لهم بل إظهارٌ للايمان واخفاء الكفر نفاقاً.

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (66) وَإِذًا لَآَتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (67) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (68)

عَلِمَ الله تعالى من المنافقين أنهم يضمرون التخلف عن الجهاد أو عن الهجرة في سبيل الله تعالى وعَلِمَ ما يبيتون في عدم الطاعة من أعذار واهية إلا قليلاً منهم كان فيهم استعداد للصدق في السمع والطاعة. فالذين لم تنفعهم المواعظ في طاعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقد فاتهم ما كان خيراً لهم من ثباتٍ وأجر عظيم وهدى الى صراط مستقيم. وبهذا تميز الرابح عن الخاسر.

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (69) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (70)

تقرير من لدن ربٍ كريم في الإلتزام بالأمر والنهي وفي طاعة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وهي في الظاهر تلبيةٌ كل نداء لجمع المؤمنين والإعداد للجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى ولبذل المال والنفس في هذا السبيل والاقتداء به في العبادة والمناسك. وفي الباطن هي الميل القلبي للتمسك بالسُنة الشريفة لا يفضلون عليها غيرها ما استطاعوا في ضوء قوله تعالى ((واتقوا الله ما استطعتم)) وقوله ((ولكم في رسول الله اسوة حسنة))، فعاقبة المطيع إمّا أن يكون صدّيقاً أو تكتب له الشهادة أو يلتحق بالصالحين. وفي الآيتين بشارة لأحد اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، (ثوبان رضي الله عنه) بعدما صرّح للرسول صلى الله عليه وآله وسلم بخوفه من أنه لن يراه فهو لا يضمن لنفسه الجنة، وإن دخلها فمزلته أدنَى. فنزَلت الايتان بشارة له بالاجتماع مع هذه الرفقة الحسنة فسُرِّي عنه. والأحاديث ذكرت تلاقي المؤمنين في الجنة وإن إختلفت منازلهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا (71) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (72) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (73) فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (74)

لاول مرة في تاريخ العرب تتحول المقاصد في الحروب من الغزوات القَبَلية الى تنظيم الجيوش لإعلاء كلمة الله بالجهاد بالمال والنفس في سبيله. وهذا ما يؤلب عليهم الاعداء. فأمَر الله تعالى المؤمنين أن لا ينقطع حِذرُهم وإعدادُهم القوةَ والعددَ وأن ينفروا حالما يَدْهَمُهم الخطر او يدعوهم داعي الجهاد. وأما تنظيم الحملات: فمن حيث الحجم فيتبع الغاية والهدف من القتال والخطة الموضوعة له. فاما تتطلب الخطة أعداداً قليلة يطلق على كل مجموعة اسم (ثُبّة) بضم الثاء وتشديد الباء (جمعُها ثُبّات) أي جماعات متقطعة تُهيأ للهجوم او الدفاع حسب حجم المهمة ويوفر لها مجموعة اخرى لنجدتها عند الحاجة ولهذا تكون متقطعة. أو تتطلب الخطة إستنفار كل المقاتلين وعبّر عنهم تعالى بكلمة (جميعاً) ويكون الجيش تحت قيادة موحدة لكافة المجموعات والتشكيلات من رماة وميمنة وميسرة وطليعة وساقة وفرسان وراجلين وتوابع. وهنا يكشف المولى تعالى خبايا اهل النفاق بدليل تخلفهم بالاستبطاء لتثبيط هِمَمِ غيرهم وقد فعل ذلك عبد الله بن أُبي بن سلول ولم يكن له عذر في ذلك مما دل على نفاقه اذ انه لم يحسب لتقدير الله تعالى ما يعرفه المؤمن من حساب بل يتوكل على تقدير نفسه الامّارة بالسوء ويترقب الموقف الذي سيتمخض عنه القتال ولم يدرك أنه إما شهادة او نصر، وهما الحُسنَيان اللتان وعدهما الله تعالى المجاهدين. ولم يرجع المنافق الى حقيقتهما عند الله وما اعد للشهداء في سبيله بل يعتبر تخلفه نعمة انقذته من الهلاك. ولم يرجع الى الغاية من القتال أي إعلاء كلمة الله تعالى بل يتأسف اذا غنم جيش المؤمنين الغنائم بأنه لم يكن معهم ليصيب من متاع الدنيا الفاني. ويحدد الله تعالى خلاف ذلك للصادقين بان يبيعوا الفاني من نفس ومال للشهادة في سبيل الله أو النصر وفيهما إعلاء كلمة

الله فهما من موجبات الاجر العظيم. وهكذا يغنم الصادقون دنيا وآخرة ويخسر المنافقون كلتيهما. ووَعْدُ الله حق.

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (75) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (76)

جعل الله تعالى نُصرةَ المستضعَفين من المؤمنين في دار الكفار قتالاً في سبيله حيث كان في مكة قبل فتحها مِنَ المؤمنين من اشتد عليه العيش فيها والإقامة بين ظهرانيَ الظَلَمة من كفار قريش وليس لهم ولي له مِنَ القوة ما يمكنه بها ان يخرج بهم وأن ينصرهم فطلبوه من الله تعالى فأوجب نُصرتَهم. وجاء تأييد الله تعالى للمؤمنين في قتالهم بأنه جعلهم جنده الذين يقاتلون في سبيله وهذا ما بعث فيهم النخوة وأَعْلَى همتهم. في نفس الوقت جعل الكفار جندا في سبيل اهل الطغيان مما جعلهم أولياءَ للشيطان. ويذكِّر تعالى جنده المؤمنين بأن هؤلاء وليَّهم ضعيفُ الكيد وكذلك يذكِّرهم بقدرته المتينة مما يكون موقفهم معه قويَّ الايمان.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (77) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (78) مَا أَصَابَكَ مِنْ

حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (79)

بعد ان نصر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في فتح مكة تحوّل المستضعَفون من المؤمنين فيها الى صفوف جند الله تعالى وبقيت في طباعِ نفرٍ منهم خَشيةٌ من الذين كانوا متسلطين عليهم من اعداء الله الآخرين، ولم يكن ذلك نقصاً في إيمانِهم، وقد علم الله تعالى ذلك منهم فذكّرهم بما يقوّي عزيمتهم على نصرته بأن وعدَه في الآخرة خير من متاع الدنيا الزائل وان الموت انما كُتب على الانسان اينما كان في سِلْمٍ أو حرب. وكان منافقون ويهود ينسبون السيئة للرسول صلى الله عليه وآله (تشاؤماً). وغفلوا عن الله تعالى اذ خلق الانسان بفطرة سليمة هي السبب في فعل الخير بفضله تعالى وبإذنٍ منه. وتكون وفقاً لإستعداد من يفعله. وعندما يخالف الانسان فطرته السليمة بما تهواه نفسُه يعصي ربه فتكون السيئات مقدّرةً عليه من نفسه بما عصى. فالحسنة من الله تعالى، والسيئة من النفس. وكفى بالله شهيدا على رسالة الإسلام للناس كافةً.

مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (80) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (81)

أظهر الله تعالى مَنْزِلة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بين الناس لتبليغ أمر ربه تعالى فهو لا ينطق إلا بوَحْيٍ من ربه ولهذا تكون الطاعة له طاعةً لربه. وهذه الحقيقة جعلت المؤمنين يبادرون الى السمع والطاعة. فمن حاك في صدورهم غير

ذلك بعدما سمعوه فإن الله تعالى كتب مابيتوا وأمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأن يُعرض عنهم ولا يأبه لهم في توكّله على ربه الكافي عبادَه. وفي هذه عبرة لمن يُبيِّت هذه الصفة من صفات المنافقين فإن نفاقه يعود بالضرر على نفسه ولا يضر الله شيئاً. والله يقبل توكّل من يتوكل عليه وفي هذا كفايته سبحانه.

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (82)

إذا اقترن تدبُّر القرآن بالنية الصادقة في طلب المعرفة الصافية والرغبة في افضل العبادة الخالصة فيكون ذلك سببا يرجى معه كشف المعاني المتكاملة والتناسق في آياته المحكمة التي ييسر الله تعالى بها بلوغ الهدف بيسر فتنكشف البراهين على وحدانية الخالق وما خص به الانسان من علم يوصله الى الحق والايمان والعبادة المتواصلة. فلا يمكن لغير الله تعالى هذا الإعجاز لأن هذا الغير لا يتسنى له كشف مقاصد الخالق وكنوز علمه سبحانه وتعالى. وهذه الآية دعوة من الله تعالى للتفكر أثناء تلاوة القرآن، وعليه تعالى أن يوفق إلى الصواب.

وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (83)

الذين لا يعرفون قدْرَ ما أنزل الله تعالى بلغ بهم الأمر الى الانخداع بالإشاعات التي تحمل اوهام اهل النفاق في الأمن او الخوف ثم إلى تناقُلِها. ولو كانوا على بصيرة من إتّباعهم لرفعوا الامر الى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أو إلى أُولي الامر من المؤمنين ليمحِّصوا هذه الاشاعات فيعلمون حقيقتها ويقطعون دابرها

واثرها في البلبلة والإحباط. وهذه الآية عامة لكل زمان ومكان اذا مرّ المؤمنون بظروف مماثلة. حيث نزلت الآية عندما شاعت اخبار واهمة بأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم طلّق نساءه! فسارع سيدنا عمر بن الخطاب للتأكد من الخبر منه. فلما تأيد كذب الخبر وقف على باب المسجد وقال بأعلى صوته ((لم يطلِّق رسول الله نساءه)). فأظهر الحقيقة واسكت المغرضين. وهذا ما يعنيه الاستنباط المذكور في الآية أي إستخراج حقيقة الواقع. وبهذا التعليم الرباني بالرجوع الى أُولي الامر ارشد الله تعالى المؤمنين (رحمةً منه) كيف ينجون من اولياء الشيطان الذين يطلقون الاشاعات الضالة وخاصة في زمن الحروب فتكشف للعدو ما لم يكن ليعلمه لولا الإشاعات. و((كفى بالمرء إثما أن يتحدث بكلِّ ما سمع)) رواه مسلم في المقدمة.

فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا (84)

هذا امر بمواصلة الجهاد رغم كل المعيقات. اذ وضع تعالى علاجاً لها وكشف انه تعالى هو الناصر وليس النصر من المقاتلين بل يحرضهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لكسب رضوان الله تعالى وشد عزائمهم وتوثيق ثقتهم بقدرة الله تعالى على أن يكفيهم بأس أعدائهم الكافرين.

مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا (85)

الشفاعة الحسنة هي السعي للخير لمن يحتاجون قضاء مصالحهم ولا يتمكنون من هذا السعي. ومن قبيل ذلك مَنْعُ الظلم ورفْعُه وتذكير من يلي أمراً بالصواب.

واما من يملك من أُولي الامر تنفيذ هذه المصالح فلا يعتبر شفيعاً في ذلك بل له اجر العدل ويشاركه فيه مَن شفع لتنفيذه. واما الشفاعة السيئة فلها وِزرُها سواء حصل اثرها ام لم يحصل. وقدر روى البخاري عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله ((اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما يشاء)).

وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (86)

تحية الاسلام هي (السلام عليكم) وفي الزيادة عليها بتعبير (ورحمة الله وبركاته) وتَكمل بتعبير (ومغفرته ورضوانه). واما الجواب؛ ففي الآية يأمر الله تعالى بالرد على التحية بأحسن منها ان لم تكن كاملةً بالتعبيرين المذكورين او بمثلها ان كانت كاملة. فاذا كانت كاملة فيكفي للمجيب أن يقول: (وعليكم). والاشارة بأن على الرد حساباً تعني أن الله يحاسب على التحية وعلى ما هو اكثر منها من حقوق المؤمنين وواجباتهم فلا يفلت من الحساب كل صغيرة أو كبيرة.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (87)

الحساب المكتوب يواجَه به صاحبه يوم الجمع أي القيامة. ولا ريب في يوم القيامة لدى المؤمنين إذ قد آمنوا ببراهينه ضمن ما آمنوا تصديقاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وجاء الإستفهام إنكاراً لجحود اهل النفاق في ريبةٍ ووَهْمٍ وفي غفلة عن قَدْرِ الله في صدق ما أوحى.

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (88) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (89) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (90) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (91)

إختلف المؤمنون فيما بينهم حول المنافقين اذ قال بعضهم: "ان هؤلاء مسلمون لا يحل قتلهم" وقسم قال: "هم كفار ويقتلون". وكان هؤلاء المنافقون قد اظهروا الاسلام واستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالخروج من المدينة لتحسين حالهم ثم العودة اليها ولكنهم لم يعودوا بل إلتحقوا بالمشركين. وهكذا ثبت نفاقهم بإظهارِهمُ الْإسلامَ كذباً. وينطبق ذلك على الذين انسحبوا في غزوة أُحُد من جيش المؤمنين إنسحب بهم عبد الله بن أُبَي بن سلول. ومن قبيل ذلك اولئك المنافقون الذين يكونون في صفوف المسلمين ويتحينون القول في التشكيك بالإيمان يأملون أن يثيروا الريبة ويودُّون لو يكفر المؤمنون مثلهم فيكونون سواء. وهنا يُعرف المنافقون من إختلاف فعلهم مع ادعائهم الايمان وهم يتردّدُون بين المؤمنين واهل الكفر فلا يُطمأنُّ اليهم. فواقعهم يدل على ان الله تعالى لم يهدِهم بل أركسهم أي أهلكهم بالضلال بما ارتكبوا من افعال الكفر. فهؤلاء لا يُؤمَنُ جانبهم حتى يستقروا

على الايمان بالهجرة والالتزام بها فان تولَّوا أي تركوا الهجرة فقد وجب قتلهم حيثما وُجِدوا. ثم إنّ الله تعالى استثنى اولئك الذين دخلوا في صلح مع قوم لهم ميثاق مع المؤمنين كما حصل في صلح الحديبية. ثم نُسِخ ذلك بعد فتح مكة بالآية الخامسة من سورة التوبة ((فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم)).. الآية، ثم استثنى سبحانه قوماً لا يريدون قتال المسلمين ولا يريدون ان ينفصلوا عن قومهم الى صفوف المسلمين في قتالهم. فهؤلاء حصرت، أي ضاقت، صدورهم ان يقاتلوا المسلمين او يقاتلوا قومهم أي لم يميلوا إلى قتال أي فئة فألقَوا السَلَم أي المسالمة ولم يبدر منهم عداء للمسلمين فلم يكن عليهم سبيل لقتلهم. واما الآخرون فهم الذين في الظاهر مثل السابقين ولكن يمتازون بعبادة الاصنام كلما خَلَوا الى قومهم ووصلوا الى صفوفهم عبدوها واذا جاءوا الى صفوف المسلمين اظهروا الايمان وفي نيتهم ممالأة اعداء الله في أي بادرة حرب بين قومهم وبين المؤمنين. واتضحت هذه النية بأنهم لم يطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبولهم ومعاهدتهم على المسالمة وكانوا قوماً من أسد وغطفان أسلموا في المدينة ليأمنوا على أنفسهم فيها ولما رجعوا الى قومهم كفروا. وتكرر منهم ذلك فهؤلاء يُطلب منهم الكفُّ عن هذا السلوك وإعطاءُ العهد للمسلمين بالمسالمة وإلا فإنهم يُقْتَلون حيثما يثقفهم المسلمون. وقد جعل الله تعالى عليهم سلطاناً بقتلهم. وهكذا اظهر الله تعالى هيمنته في النصر وفي تسليط المؤمنين وفي كفِّ ايدي الكافرين وفي النهي عن قتل المسالمين. وهو القاهر فوق عباده سبحانه.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ

رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (92) وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (93)

اضافة الى شرح معاني الآية الثامنة والسبعين بعد المائة من سورة البقرة وردت احكام الله في القتل في هذه الآيات فقد روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((لا يحل دم امرئٍ مسلم يشهد أنْ لا إلَه إلا الله وأنّي رسول الله إلا بإحدى ثلاثٍ: النفْسِ بالنفس، والثيّبِ الزاني، والتاركِ لدينه المفارق للجماعة)). هذا، وأما الحُكم في قتل القاتل فإن لإمام المسلمين وحدَه او من ينوب عنه ان يحكم بقتله ولا يحل لآحاد الناس فعل ذلك لأنه يستوجب اولاً اثبات نية القتل في الصنف الاول أي النفس بالنفس، وثانيا اثبات واقعة زنى الثيب. وثالثاً ثبوت الردة. واما القتل الخطأ فهو الذي يحصل مع ثبوت عدم وجود نية القتل. فإذا كانت نية القتل موجودة وأخطأ في الشخص فهو قتلٌ عمداً. وبهذا يختلف القاتل عمن لم يقصد القتل كونَ فعلِهِ لم يكن عادة من افعال القتل العمد. وأما الخطأ في الشخص الذي ينوي الفاعل قتل غيره فيترتب به على القاتل جريمتان؛ احداهما القتل العمد ويوجب عقابه عنها، والاخرى الشروع بقتل نفس مؤمنة يحاسب عليها. موضع ذلك كتب الاحكام التي تشمل انواع حالات القتل بتفصيلٍ في الحدود والقضاء. وفي القتل غير المتعمد يشترط الدليل بوضوح لا لَبْسَ فيه. ويَحكم بالدِيَة من بيده الحل والعقد ومقدارها يرجع فيها الى كتب الاحكام التي استندت الى السنة النبوية وسأذكرها. اما الصيام لمن لم يجد ديَةً

فيحكمه شرط الصيام وذلك بانقطاع التتابع لمرض او حيض واما من لا يتمكن من الصيام فقد رجع الفقهاء الى كفّارة الظِهار وهي إطعام ستين مسكيناً ولم يرد ذلك في هذه الآية لأن كفارة الظهار تسهيل وترخيص بينما كفارة القتل الخطأ تحذير من الوقوع فيها. وفي القتل العمد جعل الله سبحانه وتعالى لأولياء القتيل أي الذين يحق لهم المطالبة بدمه الخيار في الحكم بقتل القاتل او العفو عنه بالتنازل عن حقهم الشخصي او بأخذ الدية، وتكون مغلّظة وليس كَدِيَةِ القتل الخطأ. فهي أي الدية عن القتل الخطأ كما حكم بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: عشرون ناقة بنتُ مخاض أي إستكملت سنةً من عمرها فدخلت في الثانية ثم يزاد عليها عشرون بعيراً ذكراً دخل في سنته الثانية وعشرون بنتٍ لَبون أي دخلت في سنتها الثالثة او أن امها ترضع وليداً وُلِد بعدها ثم عشرون حِقّة (بكسر الحاء) أي دخلت في سنتها الرابعة فيكون المجموع ثمانين؛ منها عشرون ذكرا، والباقي من النوق الاناث. واما دِيَةُ القتل العمد فهي الديةُ المغلّظة عن القتل الخطأ وتشمل العمد المذكور انفاً بخطأ في الشخص. فالعدد هنا يكون بزيادة من الإبل أي ثلاثون فثلاثون من الحقة (وقد سبق بيانها) ومن الجَذَعة (بفتح الجيم والذال) وهي التي في سنتها الخامسة. واربعون خَلِفَة (بفتح الخاء وكسر اللام)، وهي الحوامل من النوق. واختلف الفقهاء في كفارة القتل العمد هل تجب على القاتل كفارة الصيام؟ (أي عتق رقبة او صيام شهرين متتابعين او اطعام ستين مسكيناً كما تقدم في كفارة الخطأ): فالامام الشافعي رضي الله عنه وطائفة من العلماء اوجبوا الكفارة. واما الامام احمد بن حنبل رضي الله عنه وعلماء آخرون فقد اعتبروا قتل المؤمن عمداً اعظم من ان يُكفَّر فلا كفارة فيه كما في اليمين الغَموس. وعند الامام ابي حنيفة رضي الله عنه: قتل المؤمن عمداً كُفرٌ اذا

قتل القاتل مؤمناً لأجل ايمانه او قتله مستحِلاً قتله بدون حق. واورد الامام احمد في مسنده حديثاً عن واثلة بن الاسقع رضي الله عنه قال أتى النبيَّ نفرٌ من بني أسلم فقالوا: ان صاحباً لنا قد اوجب (أي اوجب النار بالقتل العمد) فقال ((فليُعتِق رقبة يفدي الله بكل عضو منها عضواً منه من النار)). واول ما يُقتصّ في الحساب: الدماء. يقول المقتول للقاتل فيم قتلتني؟ فقد روى الشيخان البخاري ومسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((أوّلُ ما يُقضَى بين الناس يوم القيامة في الدماء)). وأجمع الفقهاء أنّ آية: ((ومَن يقتلْ مؤمناً متعمداً...)) الآية، لم تنسخ. إلا أن الاية الثامنة والستين من سورة الفرقان ((والذين لا يدعون مع الله إلَهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق))... الاية. قال ابن عباس رضي الله عنهما انها نزلت في اهل الشرك أي المشرك الذي يقتل مؤمناً متعمداً ثم يتوب بعد ذلك مؤمناً. فالاية السبعون بعدها استثنت من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً. اما المؤمن الذي عرف الاسلام وشرائعه ثم قتل مؤمناً متعمداً فقد ذكروه أمام الإمام مجاهد رحمه الله وذكروا توبته فقال: إلا من ندم. واستبعد ابن عباس توبة مثل هذا وندمه وذهب بعض الفقهاء الى ان صدق التوبة والندم والعمل الصالح ورجاء رحمة الله تعالى يدخل في ما يعوض الله به المقتول ويرضيه عن طِلابته. والأمرُ يومئذ لله. وجوّز الفقهاء الدِيَة لأهل الامصار بالذهب والفضة أي ما يعادلها من نقد. وقُدِّرت بألفِ دينارٍ ذهباً.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (94)

بعد الهجرة النبوية وذيوع العلم بالدعوة إلى الاسلام في جزيرة العرب، قصد المدينة رجال من اهل الجزيرة فُرادَى وأسلموا. ثم جاءوا جماعات وقبائل فأسلموا. ومن القبائل من بقي على الشرك ولكن كان بين ظَهرانيهم من يكتم إيمانه وإسلامه. وهؤلاء هم الذين يُلقون السلام أي يكون لقاؤهم للمؤمنين الذين يغزون عشيرتهم لقاءَ مَن أسلم وآمن وليس لقاء الدفاع او المكيدة. فهؤلاء حُرِّمت اموالهم فلا يقال لهم لستم مؤمنين طمعاً بأموالهم ابتغاء عَرَضِ الحياة الدنيا أي مالُها الزائل. بل يقبل منهم هذا السلام والله قادر على ان يعطي المؤمنين مغانم كثيرة. ويذكِّرهم تعالى بما كانوا عليه قبل الهجرة من كتمان ايمانهم بين كفار قريش ثم مَنّ الله تعالى عليهم فآواهم ونصرهم فعليهم ان يتبينوا قبل الاقدام على فعلِ أيِّ شيءٍ ضد اخوانهم المسلمين فالله تعالى يعلم الدوافع التي وراء اعمالهم.

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (95) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (96)

الدرجات تعني منازل القرب من الله تعالى. والقعود عن الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس يعني البعد عنه سبحانه. وفي هذه الآية بيان لذلك مع استثناء أُوْلي الضرر المعذورين في القعود. وبهذا يحث سبحانه عباده المؤمنين على التقرب اليه في الدرجات العليا ونيل المزيد من أُعطياته وفضله وتفضيله بالمبادرة الى بذل المال والنفس في سبيل الله وهو الكسب الذي يصبو اليه ذوو الألباب أي الذين صفت قلوبهم فأصابت المعرفة الصحيحة للحقيقة. واما القعود بلا عذر فيكون بإذنٍ من

ولي الامر. إذ لا يدْعُوهم الى الجهاد اذا كان الجهاد فرضَ كفاية، وذلك عندما لا يكون هناك خطرٌ على ارض الاسلام والمسلمين من اعدائهم في حالة قعود فريق منهم وإلا فالجهاد فرض عين على كل مسلم بالغ عاقل قادر على حمل السلاح (أي غير أُولي الضرر) اذا دهمهم العدو.

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (97) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (98) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (99) وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (100)

الذين دخلوا في الاسلام وهم بين ظَهْرانَي مشركي مكة ولم يهاجروا الى المدينة قسمان؛ قسم تيسرت لهم الهجرة على ان يتركوا المال والولد فلم يهاجروا بل قعدوا يكتمون ايمانهم واذا حدثت غزوة بينهم وبين المسلمين خرجوا ضمن المشركين تقيّةً. فهؤلاء قُتِل منهم نفرٌ في احدى المعارك وعرفهم بعض الصحابة فقالوا ((كان اصحابنا مسلمين فأُكرِهوا فاستغفروا لهم)). ولكن الله تعالى اعتبر قعودهم عن الهجرة ظلماً لأنفسهم ولا يقبل عذرهم بأنهم كانوا مستضعَفين لزوال هذا العذر. فإنّ أرض الله واسعة وفيها من سبل العيش ما يسدّ حاجتهم وأكثر. وهذا يزيل خوف المهاجر من الإفتقار إذا ترك ماله. وقسم لم يكونوا في حال من احوالهم قادرين على الهجرة ولم يهتدوا الى مخرج اليها فالله تعالى مُطَّلِع عليهم وفتح لهم باب الرجاء بالعفو والمغفرة. واما المهاجر بدينه الى صفوف اهل الايمان والجهاد فهو إمّا

أن يصل سالماً ويجد اخوة له هنالك يؤثرونه على انفسهم ويجاهد معهم، أو أن يدركه الموت قبل وصوله فهو في كَنَف ربه في حُسن الْمَثاب بِنَيل المغفرة والرحمة. وهذه الآية اصبحت بعد زمن الهجرة النبوية وفتح مكة عامة لمن يتسنى له الهجرة من دار الكفر اذا خشي على ايمانه وتوقع ضياع مُقَوِّماتِ الإسلام عنده فلا صلاة جماعة ولا جهاد ولا مدارس إسلامية فقد يضطر الجيل الذي بعده الى اكثر من ذلك ضياعاً. فعليهم ترك ما هم فيه إن تيسرت لهم سبل العودة إلى دار الإسلام والا فإن ذمة الاسلام في نصرتهم بريئة منهم.

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا (101)

قوله تعالى: (ليس عليكم جناح) يفيد الرخصة في العمل الذي يسمح الله تعالى بفعله في حالات معينة يختلف فيها عن نفس العمل في الحالات الاعتيادية. وهذا ما ذهب اليه الامام الشافعي رضي الله عنه. كما اعتبر الاحناف أنّ رفعَ الجناح عن عملٍ ما في حالة غير اعتيادية يدل على أن ذلك العمل هو من العزائم. ولهذا صار قصر الصلاة رخصةً عند الشوافع وعزيمةً عند الاحناف. وعند كليهما ثوابه واحد. والقصر في الصلاة هو الاقتصار على ركعتين في الفروض ذات الركع الاربع كالظهر والعصر والعشاء.. وجاء اجتهاد الفقهاء في هذا الباب موسعاً لإشتراط حالة الخوف من مكائد الكفار وهم العدو الذي لا يؤمَن جانبه؛ يقول الشوافع والحنابلة هو اشتراط كون السفر في طاعة الله تعالى وليس لمعصية او عبث. ويقول الاحناف ان الصلاة تقصر لِمُطْلَق السفر. وقد روى الامام مسلم في صحيحه من حديث ابن جريج عن يعلى بن امية رضي الله عنه ان سيدنا عمر بن

الخطاب رضي الله عنه سئل عن قوله تعالى ((إن خفتهم ان يفتنكم الذين كفروا)) فكيف وقد أمِن الناس؟ فقال: "عجبتُ مما عجبتَ منه فسألتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك فقال ((صدقةٌ تصدّق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته))". أمّا صلاة الخوف فهي على الراحلة بالإيماء مع تخفيف القراءة والركوع والسجود والتسبيح. وسيلي ايضاح مثل هذه الصلاة في الجهاد بعد هذه الآيات.

وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (102) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (103) وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (104)

الخطاب موجّه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم الا انه عامّ لكل فئة من بعده تكون في حالة حرب ويقوم الامام بتنفيذ هذا الخطاب؛ أي يجعل المجاهدين طائفتين؛ تقوم احداهما مع الامام مقتدية به فيصلي بهم، وتبقى الثانية بمواجهة العدو متيقظة لإستخدام الاسلحة عندما تقتضي ظروف المعركة ذلك. ويحمل المصلون اسلحتهم التي لا يشغلهم ثِقْلُها عن الصلاة فإذا اكملوا السجدتين وهما تمام الركعة الواحدة فليبادلوا الطائفة الثانية مواقعهم الراصدة. وتلتحق هذه بالركعة الثانية للإمام فتصلي وراءه مقتديةً حتى ينهي ركعتيه. وتبقى دروعُهم، وواقياتُ رؤوسِهم،

وخفيفُ سلاحهم، معهم. واذا اقتضت السيطرة على الموقف ازاء العدو ان يخرجوا من الصلاة فليخرجوا منها قبل اتمام السجدتين. وخروجهم هذا يقصد به تأخير وقتها الى حين سنوح الفرصة لأدائها. وهكذا لا يَترِكون وقتاً للغفلة عن تحرك العدو وعن اسلحتهم وامتعتهم. فالغفلة يتمناها العدو لمباغتتهم بمفاجأة لا تدع لهم وقتاً للمواجهة. ورُخِّص في صلاة الخوف في مثل هذه الظروف الحرجة ان يصلي المؤمنون فُرادى في الفرصة التي تسنح لأيٍّ منهم. ولهم ان يصلوا بدل الركعتين ركعة واحدة اذا حصرهم الوقت. ولا تكفي تكبيرة الإحرام فلا بد من تلاوة الفاتحة والركوع والسجود ولو بالايماء إن تعذَّر التمام. اما تأخير وقت الصلاة فقد حصل مثل هذا في غزوة بني قريظة اذ امرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان لا يُصلّوا العصر إلا في بني قريظة. فمن الصحابة من فهم ذلك بالحث على تسريع محاصرتهم وغزوهم فصلى العصر لوقتها قبل غروب الشمس. ومنهم من فهم هذا الامر بظاهر القول فأخّروا العصر وغابت الشمس ولم يدخلوا حصون بني قريظة إلا بعد الغياب فصلَّوا العصر في معاقل العدو بعد احتلالها. ويدل هذا التأخير على جواز تنفيذ أمرٍ يخولهم بذلك وليس اجتهاداً. وبعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم حصل التأخير ايضاً في حصار حصن تُستَر فجراً فلم يصلِّ بهم الامام الفجر حتى ارتفعت الشمس اذ كانوا في محاولات فتح الحصن فلم يمكن لأحد من المؤمنين ان يُصلّيَها إلا فُرادى. واما استقبال القبلة؛ فإن كان اتجاه الجيش على غير القبلة فيكفي الإلتفات السريع نحوها عند تكبيرة الإحرام ثم اتمام الصلاة على وجهتهم، وفي حالة هطول الامطار رخص في وضع الاسلحة مع الحذر الشديد. وفي حالة المرض رُخِّص للمرضى وضعُ الاسلحة مع الحذر الشديد. ويشترط أن لا يُظهِروا ضَعفاً للعدو فيطمع أن يتخلل

صفوفهم ان علم فيهم ذلك. وقد طمأنهم المولى سبحانه على هيمنته على مواقف القتال وقهرِهِ لأعدائه فبعث في قلوب المؤمنين ثقتهم بنصره بأنه أعدّ لأعدائهم الكفار عذاباً مهينا، وجعل حَذَر المؤمنين عبادةً لأنه طاعة لأمره جل علاه. ولا يعني انقضاء الصلاة انقطاعاً عن ذكر الله تعالى لانّها وسيلة للتذكير فلا غفلة مع دوام الصلاة. ولذكر الله تعالى بعد صلاة الخوف اهمية تفوق اهمية الذكر في الطمأنينة في أداء الصلاة بكاملها. اذ ان ذِكرَه اثناء طلب العدو لا يدع الوهن يتطرق اليهم كما لا يشغلهم بما اصابهم فهم مأجورون عليه خلاف ما ينال العدو من آلامٍ لا ثواب لهم فيها لأنهم يقاتلون في سبيل الطاغوت. ولله تعالى حكمته في ما يجريه على المجاهدين في سبيله وهو اعلم بذلك علم الحكيم القدير.

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (105) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (106) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (107) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (108)

مِن عِلم الله تعالى بالغيب أنزل الكتاب في احكامه على مجريات الحوادث. فقد كشف تعالى هنا صنفاً حقيراً من المنافقين يتمثل بواحد منهم اسمه "طعمة بن أُبيرق". فقد ثقب دار جاره وسرق درعا ودقيقاً في جراب (وهو وعاء للأغذية) وباعهما الى يهودي. وكان الدليل عليه ان الجراب كان به خرم انتشر منه الدقيق بشكل بسيط لا يُلاحظ فرسم خطاً من بيته الى بيت اليهودي فلما سئل اليهودي عن هذا الاثر قال ان طعمة جلب له الدرع والدقيق. وانكر طعمة التهمة ورُفع

الامر الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ولم يكن هنا شاهد عيان او اعتراف فأراد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تبرئة طعمة فنزل قوله تعالى ((انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما)) وما بعده. فهرب طعمة الى كفّار مكة وعاد الى صنيعته في ثقب الدور وشرع في ثقب دارٍ فانهار الجدار عليه فقتله. والدليل هنا هو شهادة اليهودي مع قرينةٍ هي اثر الدقيق من بيت السارق الى بيت اليهودي مما يقوّي هذا الدليل ويتعذر معه على المجرم الإنكار. وقد حذّر الله تعالى امثال هذا المجرم الذي لم يكن له حياء ممن يطَّلع ويسمع ويرى بأن ينتهوا عن التفكير في الجرائم والتحضير لها فهو سبحانه القادر على ان يكشفهم.

هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (109)

نزلت هذه الآية في أُسَيد بن عروة اذ اراد ان يبرئ ساحة ابن ابيرق واهله من السرقة لعدم ثبوت ذلك عليهم (حسب ظنه عندما رجوه ليشفع لهم عند الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم) وذلك بالجدل عنهم من أجلِ تبرئتهم. وفيها ينهى سبحانه وتعالى عن المبادرة بالشفاعة لِمُتّهمٍ إلا بعد القناعة ببراءته. بينما في هذه القضية كان ثَمَّةَ دليل وقرينة على السارق: شهادة اليهودي واثر الدقيق لا تحصل معهما قناعة. وفي القصة إشارة للمحامين بوجوب القناعة بالدفاع.

وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (110) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (111) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً

أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (112) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (113)

حث الله تعالى أولئك الذين أرادوا الشفاعة لِطعمةَ بنِ أُبيرق ان يستغفروا ربهم على تسرُّعِهم وما فيه من خطأ. ثم بيَّن أنّه سبحانه لا يخفى عليه إثم الآثم فلا يحمل الوزرَ إلا صاحبُه. ثم بين تعالى حكماً آخرَ من قصة طعمة بن أُبيرِق الذي أراد ان يبعد التهمة عن نفسه بإتهام أحد الصحابة رضوان الله عليهم يدعى لبيد بن سهل وكان معروفاً بالصلاح. فلمّا سمع بذلك لبيد خرج شاهراً سيفه يقول: "أنا أسرق!؟ والله لَيُخالِطَنَّكم هذا السيف أو لَتُبينُنّ هذه السرقة". قالوا: "إليك ايها الرجل فما انت بصاحبها". وهذا الموقف دعا الصحابي قتادة بن نعمان (وهو إبن أخي رفاعة بن زيد صاحب الدرع والدقيق) أن يتحرّى عن الفاعل. وبعد أن إستخبر عَلِم أن اهل طعمة استوقدوا ناراً ليلاً والمفروض ان يطبخوا في النهار. وتتبَّع الامر من مسار الدقيق إلى أن توصل للنتائج المذكورة سابقاً فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأخبره ونزلت الآيات تحذر من تهمة الابرياء وتبين للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ان لا يبرئ متهماً بشفاعة بعض الناس بل يتحرى من كافة الأوجُه صحة التهمة او عدم صحتها. وهذا يعم كل المحققين في كل زمان بأن يتقصوا كل جوانب القضية حتى لا تبقى ذريعة في التهمة ثم يَتِمّ بها القضاء.

لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (114) وَمَنْ يُشَاقِقِ

الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (115)

النجوى هي المسارة بين إثنين أو أكثر. وهنا أشار المولى تعالى الى النجوى التي فيها خير بأن تكون واحدة من ثلاث؛ الامر بصدقة، او الارشاد الى المعروف، او السعي الى الاصلاح بين الناس. وفي كل ذلك يكون القصد ابتغاء مرضاة الله تعالى. واجر من يفعل ذلك يعظم عند الله. واما قوله تعالى: لا خير في كثير من نجواهم. فالنجوى للمقاصد الاخرى غير هذه الثلاث إمّا أن تكون مباحةً او تكونَ إثماً. فالمباحة لا ثواب فيها اذا لم يقصد بها مرضاة الله تعالى، وقليلاً ما يحصل ذلك. فاما الكثير فهو ما لا خيرَ فيه. وقد روى الترمذي وابن ماجة عن ام حبيبة رضي الله عنها قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: ((كلام ابنِ آدم كلُّه عليه لا لَهُ إلا ذكرُ الله عز وجل أو أمرٌ بمعروف أو نَهْيٌ عن منكر)). وروى الامام احمد في مسنده عن انس رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لِأبي ايوب الأنصاري رضي الله عنه: ((ألا أدُلُّك على تجارة)) قال: "بلى يا رسول الله". قال ((تسعى في إصلاحٍ بين الناس اذا تفاسدوا وتَقَارُب بينهم اذا تباعدوا)). وقد بيّن الله تعالى طريق الهدى أي احكام الشريعة وما يجلب الخير ويرفع المنازل عند الله من تقوى وعبادات واخلاق. وجعل كل ذلك وسيلة للقرب منه فمن ابتعد عن ذلك فقد جعل فجوة بينه وبين ربه ودينه. أي شاقق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن عمد. ولا يمكن ان تجتمع الأُمّة على مثل هذا السلوك وبهذا فقد اتبع غير سبيل المؤمنين. ومن خرج من هذا السبيل بادر الشيطان ليزيّن له سوء عمله فيتولى ما يبعده ويُضِلُّه. ولا يأتيه الهدى الا بتوبة نصوح ورجاء من رب العزة ان

يغفر له ويتوب عليه من إشراك هواه في سلوكه الخاطئ. ومن اتخذ الهه هواه من غير هذه التوبة فلن يجد إلا طريق جهنم وساءت مصيرا.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (116)

ورد شرح معاني هذه الآية في شبيهتها الاية الثامنة والاربعين من هذه السورة مما يغني عن التكرار والإعادة. وأما الضلال البعيد هنا فهو الشرك والخروج بغير هدىً عن طاعة الله تعالى.

إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (117) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (118) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (119) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (120) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (121)

تسمية اصنام قريش كانت بصيغة الانثى من اللات والعزى ومناة. وكانوا اذا تحدثوا عن صنم قبيلةٍ ما قالوا: انثى بني فلان. ثم يدعونهم (بنات الله)! سبحانه. واما عبادة الشيطان الْمَريد فهي معصية الله تعالى في طاعة الشيطان. وقد جاء في الحديث القدسي الذي رواه مسلم عن عياض قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((قال الله عز وجل: اني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرَّمتْ عليهم ما حلّلتُ لهم)). وفي اللغة كلمة (مَريد) بفتح الميم تعني الخارج عن الطاعة البعيد عن الخير. فهو ملعون بذلك ومغرور بما يزيّن

للضالين من اعمالهم وينسيهم آجالهم. ولكنّه لا سلطان له على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون أي على شريعته يثبتون. واما المخدوعون فيه من اهل الجاهلية فقد كانوا يشقّون أُذُنَ الناقة كلما ولدت حتى اذا بلغ عدد الشقوق خمسة وكان المولود الخامس ذكراً حرّموا الامَّ عليهم فلا تُذبح ولا يُحمل عليها او يُركب عليها. واما الذكر من الإبل فإن جاء من صُلبه عشرة بطون يقولون عنه: (حَمِيَ ظهرُه) فهو حامٍ، فتفقأ عينه ولا يُحملُ عليه ولا يُركبُ ولا يُمنَعُ من ماء او مرعى! كل ذلك لم يتركه كفار قريش مع رؤيتهم وضوح الرسالة الاسلامية المنيرة للقلوب. فما جزاء جحودهم إلا خسارتهم خسراناً مبيناً إذ لا يحصلون من وعود الشيطان وامانيه لهم على شيء. وحكم الآيات عام لكل زمان. ولا سيما ونحن نسمع عن تلاعب بعض المتخصصين في علم الأحياء بالمورِّثات واستنساخ الحيوانات من غير الرجوع الى مخافة الله تعالى وهو لهم بالمرصاد.

وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (122)

العمل الصالح مقروناً بالإيمان الكامل له اوجهٌ تملأ حياة المؤمن. ولكنه ينبع من منبع واحد هو اختيار السلوك الأفضل لرضوان الله تعالى عندما تتعدد الاختيارات. ثم الرضا بما لا إختيار فيه لأنه من مشيئة الله تعالى إما أن يكون نعماء فيشكر أو إبتلاء فيصبر. وهذا ما وعد الله عليه بالجنة.

لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (123) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ

فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (124) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (125) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا (126)

بعدما حصل من اهل الكتاب في تكذيبهم للرسول صلى الله عليه وآله وسلم من الغلوّ في دينهم بأنْ إدّعَوا بأنهم ابناء الله واحبّاؤه وأنّ النار لن تمسَّهم إلا اياماً معدودات حصل لدى بعض المسلمين افتخار على بعض اهل الكتاب وهنا اوضح عز وجل ما في دين الاسلام من فضل ولكنْ بعدما حذّر من عمل السوء وحذر من الاماني (جمع أُمنية). فبالتمني لا تنمحي السيئات. فالاعتزاز بالدين يجب ان يكون بالعمل الصالح وإلا فلا بدّ من الجزاء في العمل السيئ. كما أن من رحمته تعالى ان يجازي في الدنيا على إساءة المؤمن. والعمل الصالح للمؤمن مُدَّخر ثوابه للجنة برحمة الله تعالى. وهنا أشار تعالى إلى أفضلية إسلام الوجه لله تعالى ديناً في إحسان العبادة ثم إتباعِ ملةِ ابراهيم عليه السلام بالاحسان واسلام الوجه لله تعالى حنيفاً أي لا يميل قلبه إلا لهذا الإسلام. ولله مُلْكُ السماوات والأرض وما فيهما محيطاً بكل شيء علماً وأمراً وتقديراً. ولا تبديل لكلماته.

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (127)

الإفتاء هو بيان المبهَم. ويحصل التساؤل في العلاقات الشرعية. وهنا اشار الله تعالى الى ما أنزل من احكام في القرآن وما بيّنه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ليرجعوا اليه. وفي هذه الآية جاء الإستفتاء في الرجل تكون عنده يتيمة تحت وصايته

فيريد أن يتزوجها لجمالها أو يتزوجها غيرُه لِمالِها. وفي كلتا الحالتين قد يكمن الطمع وراء ذلك. فجاءت الاية لتسد الطريق على الطمع بأن يدفع لمن أرادها لجمالها مهراً يماثل ما يُدفَعُ لمثلها من غير اليتيمات. واما ان لم يكن يرغب فيها ويخشى ان يتزوجها غيره لِمالِها فتخرجَ من وِصايته فعليه ان يعدل بأن لا يَمنعَ زواجها ممن يرغب فيها وترضاه ويرضاه لها. واما الوِلدان المستضعَفون فهم صغار الورثة الذين كان الورثة الكبار لا يعطونهم شيئاً من الميراث في الجاهلية فالقسط فيهم بأن يُحْفَظَ ميراثُهم تحت الوصاية الشرعية حتى يبلغوا رشدهم. وفي أول هذه السورة بيان في القيام بالقسط لليتامى. ويذكِّرنا المولى تعالى بأن فعل الخير معلوم عنده كما أحاط بكل شيءٍ علما. وهنيئاً لمن يفعل الخير لوجهه الكريم.

وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (128) وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (129)

يعرف نشوز الزوج اذا تغيرت معاملته لزوجته إلى حد الضرب والجفاء؛ من لينٍ الى شِدة، ومن إلفة الى نفور ومن عَوْنٍ إلى أذىً. وأمّا إعراضه فهو الصَدُّ عنها كالإنقطاع عن الحديث معها او عن مشاركتها في لطائف حياته. ودوافع النشوز والإعراض قد تسببها ظروفٌ ماليَّةٌ وإجتماعية او الفرقُ بالسنِّ والعقلِ أو سوءُ الخلق. وفي هذه الحالة لا جناح عليهما أن يتصارحا بنية الاصلاح. ورخّص تعالى بتنازل الزوجة عن بعض مطالبها او بعض مالِها خيراً من دوام الخصومة والتمسك بالشح. وافضل الاحسان هنا هو ان تتحلى الزوجة بحسن الخلق والصبر وان يتحلى

الرجل بالعدل والعون والبشاشة لحفظ كيان العائلة من التهدم. وفي حالة تعدد الزوجات فالْمَيْلُ القلبي للرجل لإحدى نسائه يجب أن لا يُؤثّر على العدالة بينهن وإلّا فالإثم يلحق من جراء ذلك. والله تعالى يوفق ذوي النوايا الحسنة والمقاصد العادلة الى ما فيه خيرهم وما يوجب رحمته ومغفرته لهم.

وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (130)

وعد الله تعالى ان يعوّض المطلقة خيراً ويغني كلا الطرفين من فضله وسَعَته. فهو الولي الذي لا تنقص خزائنه والواسع في حكمته سَعَةً لا يدركها عبده. فما على العبد الا الأمل برحمته تعالى وانتظار نعمائه.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (131) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (132)

في هذا النص حجة بالغة على من يعبد غير الله تعالى من طاغوت او وَثَنٍ او مال او دنيا اذ لا يملك المخلوق نفعاً ولا ضراً. فمن زاغ عن حقيقة عبادة الله تعالى فإنه لن يضر الله شيئاً. فالله تعالى غني عن سواه وحميد في اعطياته لخلقه. ومن البداهة ان يكون وليّاً على خلقه وكيلاً لكل حق. فويل لمن تعرّض للحق بالباطل فقد بارز ربه بالعداء. والله ينصر بهلاك أعدائه. يقول تعالى:

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا (133)

من رحمته تعالى قدّر الآجال وسبقت كلمته في ذلك ولذلك يؤخر اهل الظلم الى اجلهم. فإذا شاء ان يذهبهم ويأت بآخرين فلا شيء يمنع قدرته. وقد شهد

التاريخ من مشيئة الله في ذلك الشيء الكثير. وفي حكمته تعالى تثبيت للمجاهدين وتصبير للمستضعَفين حتى يأتي نصره القريب.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (134)

ثواب الدنيا إذا أعطاه الله تعالى لمن إقتصر جهدُه عليها ما هو إلا ثمرة الإستعجال في نيل متاعها الفاني. بينما يدّخِر الله تعالى لمن اراد الآخرة ما يشاء من خزائن جوده. ولا يمنع ذلك ان ينال العبد من ربه من نعيم الدنيا ولكن المهم للمؤمن أنْ لا يشتريَ الرديء الفاني بالغالي الخالد فيخسرهما معاً وهو يعلم ان له رباً خلقه لعبادته وليس لترف الدنيا وزينتها ولهوها ولعبها. وهو السميع الذي لا يفوته قول، والبصير الذي لا تغيب عنه النوايا في الصدور ولا ما تكسب الجوارح.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (135)

من اشرف الفضائل احقاق الحق، وهو القِسط ويشترط عدم الميل عن الحق الى الهوى. فالهوى الضال وجهته غير وجهة الحق لخروجه عن خط الشريعة، فينصرف بصاحبه عن الحق. وإن كان يظن الانسان ان هنالك ضرراً من نصرِ الحقّ فما ذاك إلا من حبه للدنيا وخشيته الناس. والشهادة تكون مفاتحة الناس بما كان بين القلب وربه بلا زيغ حتى وان كان في الْمَيل عن الحق شفقةٌ على فقير او مراعاةٌ لِغَنِيّ. فإن الله تعالى جعل الحق اصلح لهما من ذلك والله ولي الفقير وولي الغني.

يعلم سبحانه الظاهر والباطن فلا يصح لَيُّ الشهادةِ، أي تحريفها وتغييرها كما لا يصح الإعراض عنها اي كتمانُها وتَرْكُها فان ذلك لا يخفى عليه سبحانه. وفي هذا تحذير من المخالفة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (136)

الايمان الكامل هو ابتعادٌ تام عن الكفر والنفاق والشرك والرياء. ولا يكمل الايمان الا بإتِّخاذ الله تعالى معبوداً لا شريك له، والشهادة بالرسالة لمن جاء بالكتاب المصدق لما قبله وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه افضل الصلاة وسلم. وهنا برهان على صدق الرسالة المحمدية بأنها نقية من البِدَع والأهواء والتأويل الخاطئ والإخفاء أي لا يأتيها الباطل من أي جهة. ففي الاهواء بِدَعٌ وإخفاء وتأويل. ومصير ذلك الى الشرك والنفاق لكسب الدنيا والى الكفر والزيغ عن الحق وهو ان لا يستكمل الايمان بالله تعالى والملائكة والكتب الْمُنْزَلة والرسل واليوم الاخر. وهكذا يدعو رب العزة من سبق له الايمان بالكتب الْمُنْزَلة أن يؤمن بما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم لوضوح الدلالة فيها على كمال الايمان.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (137)

الكفر بعد الإيمان ارتداد فيُستتاب المرتد ويعود الى الايمان ثم يُعرف منه الكفر ثانية فيستتاب فيعود الى الايمان ثم يدخل في كفرٍ أشدَّ من ذي قبل من غير أن

يُظهِر ذلك بل يخفيه ما امكن. وهذا هو النفاق. وقد توعَّد رب العزة ان لا ينال هؤلاء مغفرةً ولا إرشاداً لسبيل العودة الى الايمان الكامل. فلو صدق المرتد في توبته المرة الاولى والثانية لتاب الله تعالى عليه وهداه الثبات على صراط مستقيم.

بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (138) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (139) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (140)

نزلت هذه الآيات في منافقين كانوا قد اظهروا الايمان وكانوا مع المؤمنين في غزوة أُحُد. وعندما ظنوا أنّ النصر سيكون لمشركي قريش ومن تحالف معهم أرادوا الإحتماء بأبي سفيان قائد المشركين آنذاك فبشرهم الله عز وجل بالعذاب الأليم لأنهم إبتغوا العزة عند غير الله تعالى وهذه الصفة توجب على المؤمنين البعد عن هؤلاء المنافقين والنفور منهم لأن المنافقين انما ابتعدوا عن معرفة عزة الإيمان كُفْراً بآيات الله واستهزاءً بها وانقطعوا بقسوة قلوبهم فاذا نَفَرَ منهم المؤمنون وازدروهم فلعلهم يكفون عن سلوكهم فلا يبدر منهم كفر او استهزاء. وتوعّدهم رب العزة بجهنم مع من اظهر الكفر صراحةً ووقف مع اعداء الدين. وهذه الآيات عامة لكل زمان وفيها تحذير من مماشاة المنافقين.

الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (141)

صفة اخرى تكشف نفاق المنافقين بأنهم يترقبون الساعة التي يتوقف فيها نصر الاسلام وتزول دولته. ومع ذلك يتودّدون للمؤمنين في حالة نصر الله لهم. فان ابتلى الله تعالى عباده المؤمنين ليمتحن ايمانهم وصدقهم وحصل الكفار منهم على بعض المكاسب لفترة محدودة فإن المنافقين سيمنّون على الكفار بأنهم انسحبوا من مقاتلتهم واحبطوا همّة المؤمنين. وهذا يؤيد قلة يقينهم بعزة الله والمؤمنين. واما حكم الشريعة في من يصانع في اقواله المؤمنين ويدعي انه معهم فلا عقوبة عليه إلا انها ستكون وبالاً عليهم يوم القيامة. واكد تعالى للمؤمنين دوام عزتهم في عزته وحصنه فلا سبيل للكافرين عليهم وهو يعلم منهم صدقهم ونصرهم لدينه.

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (142) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (143)

إنّ الله عز وجل مطّلع على قلوب العباد وما يُبيّتون فيها ومدى أهليتهم للهدى ورغبتهم فيه. فأمّا المنافقون الذين يبيّتون الخداع فإن الله تعالى قد أعدَّ لهم جزاء خداعهم رداً يجدونه في الوقت الذي ينسبه لهم سبحانه. واما صلاتهم فليس لها صلة مع الله تعالى لثقل الاهواء في انفسهم وخلوّ عاطفتهم من الشوق الى لقائه. ولهذا فصلاتهم هي لرؤية الناس لانهم قلما يرد الله تعالى في خواطرهم في الصلاة بل يرد ذكر الناس فيها كثيراً. واما تذبذبهم بين الكفر والايمان فقد اوضحه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حديث رواه ابن ابي حاتم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((مَثل المؤمن والمنافق والكافر مَثَلُ ثلاثةِ نَفَرٍ انتهوا الى وادٍ؛ فوقع احدهم (أي انحدر) فعبر، ثم وقع الآخر

حتى اذا اتى على نصف الوادي ناداه الذي على شفير الوادي (أي الذي لم يعبر): ويلك اين تذهب الى الهلكة! ارجع عَوْدَك على بَدئك، وناداه الذي عبر: هلم الى النجاة! فجعل ينظر الى هذا مرة والى هذا مرة)) قال ((فجاء سيل فأغرقه. فالذي عبر هو المؤمن والذي غرق فهو المنافق (مذبذبين لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء) والذي مكث هو الكافر))". وهكذا المنافق ليس لديه الاخلاص في ايمانه وليس لديه الجرأة على التصريح بكفره او شِركه وبهذا ينصرف عن طريق الهدى فلا يُشاهَد عليه أثر من دلائل الهدى اذ لم ينتفع به في البداية بالسمع والطاعة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (144) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (145) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (146)

بعدما كشف المولى عز وجل ضعف المنافقين،لم تعد ثمة حجة للمؤمنين في إتخاذ غير المؤمنين أولياء لهم. ففي ذلك نفاق يؤدي بأهله الى منزلة سُفْلَى في جهنم ولا ناصِرَ لهم. فكيف يطلب مؤمنٌ من كافرٍ حمايةً. اما المنافق فقد كاشفه المولى عز وجل بما يخبئه في قرارة نفسه من كذب وحسد وشكوك ومخادعة وهذا يكفي لتنبيهه الى ما هو افضل من ذلك من سعة رحمة الله تعالى في فتح باب التوبة والتخلص من الشقاء بإصلاح الشأن والإخلاص لله تعالى والالتحاق بصفوف اهل الايمان الموعودين بالأجر العظيم. وعداً على الله حقاً للمؤمنين.

مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (147)

نعمة الله تعالى لا تُعدُّ ولا تحصى وهي تجمل في صنفين على الانسان؛ صنف لجسده من عافية ورزق في مطعمه وملبسه ومأواه، وصنف لقلبه في الايمان وسلامة القلب من كل ما يشينه من قذارات الحقد والحسد والبغضاء والخصومات. فالشكر على هذه النعم يكون على وجهين معاً؛ وَجْهٍ بأن يرى النعمة حصراً من رب كريم غني حميد، ووجهٍ بأن يقصد بالنعمة المقاصد السامية. فمن المقاصد المنهي عنها المؤمنون: طلب مضاعفة الأجر في الدنيا. إذ يقول عز وجل لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم (ويقصد المؤمنين): ((ولا تَمْنُنْ تستكثِرْ)) أي الإنفاق لطلب المزيد من الدنيا. ومن المقاصد المندوبة: النفقة في سبيل الله لطلب الضعف في الآخرة بأداء الزكاة وحقوق ذوي القربى وغيرهم. ومن المقاصد الافضل: طلب مرضاةِ الله تعالى بزيادة النفقة في الصدقات. ثم طلب أسْمَى المقاصد بأن ينفق لوجه الله تعالى لا يريد المنفق جزاء ولا شكوراً. وأمّا نعمة الله تعالى في سلامة القلب فإن شكرها جَمْعُ هموم المؤمن في هَمٍّ واحد هو محبة الله تعالى وطاعته فلا فسحة فيه للدنيا. وهو اسمى شكر للقلب وهو شكر الايمان الذي تقوم به الحجة للمؤمن. وهكذا جعل الله تعالى الشكر والايمان سببين من فضله في رفع عذابه في الدنيا والآخرة.

لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (148) إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (149)

كل كلام يقصد به بغضاء او سوء ظن بلا برهان او يكون فيه تفحش، وكل تشفٍ سواء كان جهراً او من غير الجهر به يؤدي الى مقت الله تعالى لصاحبه باستثناء من يدعو على ظالِمه ويشتم من شتمه في حد غير متجاوز، أي ينتصر بعد ظلمه، فهذا القبيل لا سبيل على فاعله. والله تعالى يسمع شكوى المظلوم

ويعلم المحق من المبطل. ولم يجوّز الشرع في حالة الافتراء على شخص ان يفتري الكذب على من افترى عليه. ثم اظهر المولى عز وجل ما يحب للمؤمن في مثل هذه الأحوال هو ان يبدي المؤمن خيراً أي يقول مثلاً: حسبي الله، او يدعو الله أن يعينه. ويحب تعالى ان يضمر المؤمن بينه وبين الله العفو عند المقدرة او ان يبدي الحِلم عند الغضب. وقد روى البخاري عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حديثٍ قوله ((ولا زاد الله عبداً بعفوٍ الا عِزّاً)). ويذكّرنا تعالى بخُلُقِه الاعظم فهو مع قدرته عفوٌّ ومع علمه حليم سبحانه.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (150) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (151) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (152)

رغم ان اهل الكتاب يدّعون الايمان بالله تعالى إلا ان الدين في ظنونهم تفضيل نبي او رسول على أنه لا رسولَ غيره ولا نبيَّ غيرُه. ولم يهتدوا الى ان الدين هو حق الله تعالى في وحدانيته في العبادة واقامة الصلاة وايتاء الزكاة لوجهه. فاذا جاءت رسالة مصدقة لهذا كفروا بها وكأن الدين هو للرسول وليس لله العلي القدير. ولم يكن لديهم برهان يكذّبون به الرسل فالحجة عليهم تدينهم الى عذاب مهين. ولما كان الدين واحداً وهو حق الله تعالى فالمؤمنون بذلك لا يفرِّقون بين الرسل. وبشَّرهم المولى عز وجل بالأجر الذي يقترن بمغفرةٍ ورحْمَةِ الغفور الرحيم.

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا

جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا (153) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (154) فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (155) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (156) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (157) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (158) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (159)

سبق في الاية الخامسة والخمسين من سورة البقرة سؤال اهل الكتاب من موسى عليه الصلاة والسلام أنْ يَروا اللهَ جهرةً رغم ظهور الآيات لهم وأخْذِهم بالصاعقة. ويهود زمن سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم يعلمون ذلك ويعلمون أنّ الله تعالى لا يلبي مثل هذا الطلب الذي لا يتفق مع استجابةٍ من الله تعالى لأهوائهم. ولذلك يؤوَّل سؤالهم بالعناد وإنكار الحق الواضح في رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. ولقد علموا أنّ مَن إتّخذ العجل من اسلافهم اصبح عبرةً لهم بأن لا يعبدوا غير الله تعالى. وهذا ما دعا إليه الاسلامُ مما يقيم الحجة عليهم. ومع هذا قال أكثرهم بأن قلوبهم غلف (مغلّفة) أغلَقَتْ عليها أغلفةٌ فلا تقبل الإسلام. وها هم اسلافهم زمن سيدنا عيسى عليه السلام جاءهم مع آيات بينات من غير أبٍ ومعه تصديق ذلك بكلامه في المهد، ثم (وبإذن الله تعالى) يحيي الموتى ويبرئ الأكْمَه (أي الأعمى بالولادة) والأبرص. ومع ذلك رمَوا والدته عليها السلام

بما لا يتفق مع الآيات التي برّأتْها. فلما دعاهم لعبادة الله وحده وليخَفِّف عنهم أرادوا التخلص منه فاتّهموه بالدعوة لنفسه لِيُتوَّجَ مَلِكاً على بني إسرائيل. وهذه تهمة عقوبتها الصلب عند حكامهم آنذاك. ولكن الله تعالى رفعه إليه وهم لا يرون ان الله تعالى قادر على ان ينجيَه. وهكذا هم في حيرة من امره. وتوعد الله تعالى كل فرد من اهل الكتاب أنه ساعة موته تنكشف له حقيقة المسيح عليه السلام نبياً رسولاً لتقوم الحجة على اليهودي بما كفر برسالة المسيح عليه السلام ولتقوم الحجة على النصراني بان المسيح عليه السلام ليس ابناً لله سبحانه بل رسولاً مصدقاً لما جاء به الرسل من قبله داعياً الى عبادة الله وحده. ويوم القيامة يكون عليه السلام شهيداً عليهم في ذلك. وفي التفاسير، هناك من تأوّل حصول إيمان أهل الكتاب بالمسيح عليه السلام بعد نزوله آخر عمر الدنيا يَقتُل الدجال ويصلي خلف الإمام المهدي عليه السلام وعند ذاك لا يكون في الأرض إلا دينٌ واحد وهو ما بعث الله به رسله وهو الإسلام.

فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (160) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (161) لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (162)

استثنى الله عز وجل من اهل الكتاب اهلَ الصدق والعلم منهم. ويبين الفرق بينهم: فمن آمن بالقران الكريم كتاباً من الله مُنزَلاً على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم كان من الراسخين في معرفة الله وحقه في عبادته وفي مجيء القرآن بذلك

مع بيانٍ وتفصيلٍ لما اختلفوا فيه. ومن كفر منهم كان من أهل الباطل ورتع في الحرام كافراً. اما اهل العلم فهم الذين اهتدَوا للحق مثل عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعيد واخيه اسد بن سعيد واسد بن عبيد رضي الله عنهم دخلوا الاسلام تصديقاً وكان اليهود في زمانهم يقولون عن عبد الله بن سلام قبل ان يعرفوا بإسلامه بأنه سيدهم عِلْماً وابن سيدهم عِلْماً وعِبادةً، (رضي الله عنه). ولكنهم كفروا به عندما علموا بإسلامه، فقامت الحجة عليهم، ووعد الله تعالى الذين صدَّقوا بالقرآن الكريم واقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة بالأجر العظيم. وفي الآية قبل الأخيرة من سورة آل عمران بيان عن مؤمني أهل الكتاب. وبيّن الله تعالى اهمية الصلاة بقوله: (والمقيمين الصلاة) في حالة النصب على الإختصاص لفضلها.

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (163) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (164) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (165) لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (166)

يهوديان هما سَكَن وعَديّ إبنا زيد جاءا الى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له سَكَن: "يا محمد ما نعلم أنّ الله أنزل على بشر من شيء من بعد موسى"! فأنزل الله تعالى هذه الآيات وفيها نزول الزبور على سيدنا داود الذي جاء بعد موسى عليهما السلام بزمن بعيد. وهم – أي يهود زمن النبوة المحمدية – يعترفون بالأنبياء؛ نوحٍ، والمذكورين هنا عليهم السلام، وما جاؤا به من رسالات من ربهم

ليكونوا مبشرين ومنذرين، لمن آمن أو كفر، لإقامة الحجة لمن آمن والحجة على من كفر. فإن لم يؤمن أُولئك اليهود بما أُنزِل على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وبما فيه من حجة بالغة، فالله تعالى يشهد بما أنزل اليه، أنزله بعلمٍ لا يكون إلا منه تعالى وتشهد به الملائكة تصديقاً بما عَلّمهم الله تعالى. وشهادة الله تعالى هي الكافية.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (167) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (168) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (169)

يبتعد الكفار عن سبيل الله تعالى ويصدون غيرهم عنها فيدخلون في متاهة يزدادون بها بعدا وبهذا يظلمون أنفسهم. وهنا يبين المولى تعالى حكمه فيهم بأنه لا يغفرُ لهم ولا يهديهم إلى سبيله. فلا طريق لهم إلا الطريق الذي ساروا فيه إلى جهنم ولا مخرج لهم منها أبداً. وذلك على الله يسير.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (170)

الايمان هو للمؤمن خيرٌ ولا يعود ايمانه على ربه بشيء يكمل خزائنه الواسعة. والكفر لا يضر الله سبحانه شيئاً فالسماوات والارض له. ولا يغيب عن علمه وحكمته ايمان مؤمن ولا كفر كافر. فمن حكمته ارسل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالحق الذي فرّق بين المؤمن والكافر. ودعا سبحانه الناس كافة لتجنب مصير الكفر وللغنيمة من اجر الايمان فهو أفضل الخير لهم.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (171)

مقاصد الدين هي عبادة الله تعالى وتقواه ما استطاع العابدون ذلك. واما الخروج عن هذه المقاصد بتمجيد غير الله تعالى من ملائكةٍ أو بَشَرٍ إلى منزلة لا برهان بها فهو الغلوّ في الدين، ومن قبيل ذلك جَعْلُ الإلَه ثلاثة أُصول اسموها: الاب والابن وروح القدس إلَهاً واحداً. فقولهم ذلك غلوّ لرفع منزلة المسيح عليه الصلاة والسلام الى الالوهية ونسبوه ولداً للصمد الذي لم يلد ولم يولد وقد خلق العناصر التي خُلِق منها جسد المسيح، فلم يكن لله كفواً احد. ولا ينبغي لجليلِ قدْرِهِ أن يتّخِذَ ولداً. وليس المخلوق كالخالق. انما قال تعالى عن المسيح عليه الصلاة والسلام بأنه الكلمة التي القاها الى مريم، أي الأمر منه بأن تحمل به. وبأنه روح منه أي رحمة من ربه وفضل فقد نفخ تعالى في آدم عليه السلام من روحه نفخة بعثت الحياة في جسده ثم في زوجته ثم في ذريته الى قيام الساعة. وكيف يكون للخالق ولد وهو يهب الأولاد لعباده من جنسهم.

لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (172) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (173) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ

مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (174) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (175)

مما أورد الأحبارُ والرهبان عن بنوّة المسيح عليه الصلاة والسلام من تبريرات كونُه لا أبَ له. وهنا يقيم الله تعالى الحجة عليهم بأنّ الملائكةَ لا آباءَ ولا أُمّهاتِ لهم وهم عبيد الله تعالى. وكان مشركو مكة يدَّعون ان الملائكة إناثٌ وهن بنات الله! سبحانه. بينما الملائكة خَلْقٌ لا يتناسلون بل يُخلقون من نور الله تعالى بمشيئته. ولم يكن في المسيح او الملائكة المقربين (عليهم جميعاً السلام) صفة تتنافى مع العبودية التي اتصف بها أولياء الله له جل علاه. واما من كان فيه صفة تتنافى مع العبودية كالإستنكاف والإستكبار فلن يدَعَهم الله تعالى ان يفلتوا بلا عقاب جزاءً لجحودهم لحق الله في وحدانيته. ومقابل هذا يتفضل الله تعالى على من يؤمن ويعمل صالحاً، يحبهم ويحبّونه. وعلى هذا تأتي صحة نبوّة سيدنا محمد عليه وآله افضل الصلاة والسلام برهاناً لا غموض فيه، وعصمةً لمن اتَّبع رضوان الله تعالى. ونيلاً لوعده بالرحمة والفضل والهدى حتى يلقوه.

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (176)

افتى خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ابو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، بأن المقصود بالكلالة هنا وفاة المؤمن أو المؤمنة ولا أحد يرثه من زوج وأبوين وأولاد. بل عنده او عندها من الاخوة والاخوات واحد او واحدة او اكثر ذكوراً

وإناثاً أو ذكوراً فقط أو إناثاً فقط. فالاخ الوحيد للمتوفاة من هذا الصنف يرث أُختَه وراثة كاملة. والاخت الوحيدة للمتوفى من هذا الصنف ترث نصف تركته والنصف الآخر يذهبُ للقريب من جهة الأب. واذا كان لأحد المتوفيين من هذا الصنف اثنان من الاخوة الذكور فلكل واحد منهما نصف تركتها، وإن كان الورثة أختين فلكل واحدة منهما الثلث، والثلث الثالث يذهبُ للقريب من جهة الأب. وإن كان الورثة إخوةً: ذكوراً وإناثاً، فالتركة بكاملها تُقَسّم عليهم للذَكَرِ مِثْلُ حَظ الانثيين.

سورة المائدة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (2)

اذا كان العهد موثّقاً فيُسمّى عقداً تشبيهاً بالعقدة في الحبل ليكون مضمونه عزيمةً ذات محتوى محكم يتوجب الوفاء به قولاً وعملاً. وقد كان لبعض المؤمنين

احلاف في الجاهلية وإلتزامات اخرى وهنا أُمِر بالإلتزام بها ولم يُؤمَر بحلفٍ من الأحلاف بعد الاسلام. وفي ايراد هذا الامر مع ما ورد في هذه السورة من حلال وحرام اشارةٌ الى الإلتزام بما أحلّ الله تعالى وما حَرّم على عباده. وذَكَرَ اللهُ تعالى ما أحلّ من الأنعام، سواءً الصنف الذي يألف الانسان ويعيش معه مسخراً كالإبل والبَقَر والضأن والمعز، أو الصنف البَرّيّ كالغزال وبقر الوحش وحمار الوحش. وقد جعلها الله تعالى صافية النفس نظيفة في مطعمها النباتي. وأمّا المحرَّمَةُ، كالخنزير، فخبيثة وخبيثٌ مأكَلُها. وأباح الله تعالى صيدَ البرِّي من بهيمة الانعام لغير الْمُحرِمين للحج. اما للمُحْرِمِ فقد أُحِلّ له الأكل من الإنسي الاليف منها بدلاً عن البرِي الذي يُصطاد. ونهى سبحانه أن يُحِلّوا الشعائر الْمُتمثِّلة في المناسك من الإحرام والحَلْق والطواف والسعي والمواقف في عَرَفة ومرامي الجِمار. وحرمتها ان يتم اداؤها على الوجه الاكمل. ونهى سبحانه أن يُحِلّوا الأشهر الْحُرُم بل يلتزموا بحرمتها وهي اربعة اشهر؛ رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم. واما شوال فيدخل في أشهر الحج وليس في الأشهر الْحُرُم وجُعِلت له حرمة بقدر ما يتعلق بالحج من حرمات. والحرمة هي ان يفعلوا بما أُمِروا به وينتهوا عما نهوا عنه. ومن ذلك ان لا يُصَدَّ احدٌ عن الحج والعمرة او قصدِ البيت الحرام للتجارة او للحج والتجارة معاً. كما لا يُتَعرَّضُ خلال الاشهر الْحُرُمِ للأنعام المهداة للبيت الحرام بالمنع او السرقة. وتُعرف بقلادة في عنقها. وأما قوله تعالى: ((ولا يَجْرِمَنّكُمْ شنآن قوم)) أي لا يحملَنَّكم بغض قوم على الإعتداء عليهم. وبذلك نُهُوا عن الإنتقام والعدوان على من صدّهم عن المسجد الحرام يوم الحديبية. ونُدِب التعاون على البِرّ أي مكارم الاخلاق وفعل الخيرات وترك المنكرات ومراعاة الاحسان والمواساة والمعروف. وجاء في الختام الأمر

بتقوى الله تعالى بإتخاذ طاعته في ما أمَرَ ونهى وِقايةً من عقابه. فمن لم يفعل فقد أثِم ولم يتخذ الوِقاية.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (3)

الميتة من الانعام هي التي ماتت من غير أن يهرق دمها بالذبح او بالإصطياد، فحرمت. وميتة البحر تختلف عن ذلك فهي حلال. والدم هو الدم المسفوح او الخارج من الفَصْدِ اي من جرح اوعية دم الانعام وإسالة الدم منها (وكان هذا في الجاهلية يعمد احدهم الى بعير له فيفصد ساقه ويأخذ الدم منه لطعامه)، ولا يشمل التحريم الكبد والطحال. واما لحم الخنزير فهو كل ما يحمله الخنزير في جسمه من لحم وشحم. واما ما أُهِلّ به لغير الله فهو ما ذكر اسم غير اسم الله تعالى عليه، او ما تراهَنَ عليه اثنان او اكثر او ما تبارى عليه اثنان او اكثر من كل انواع الطعام. والمنخنقة هي ما حُبِس عنها النَفَس كإلتفاف الحبل على عنقها او حصر رقبتها بعارضٍ ما. واما الموقوذة فهي التي تُهْلَكُ بحصول شِدّة كالضرب بشيء ثقيل او صدمة عجلة ثقيلة. وبالنسبة للتي يراد صيدها من الانعام فاذا كانت وسيلة الصيد قد قتلتْها من غير أن يُراقَ دمُها فهي موقوذة. وقد روى الشيخان البخاري ومسلم عن رافع بن خديج رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((ما انهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه)). فالشرط إذاً: ذكر اسم الله عليه ثم

خروج الدم من أوعيته. واما المتردية فهي التي تَهوِي من شاهق فتموت أو تسقط في بئر فتهْلِك. واما النطيحة فهي التي تموت بالنطح. واما ما أكل السبع منه، أي أكل بعضه، فمات من جرحه فهو حرام فإن ادركه احد قبل موته اي قبل انقطاع اضطرابه فيذبح وبذلك يكون حلالاً. والتذكية هي ذبح كل ما يمكن إدراكه بما يُنهِر دمه قبل موته بسبب مميت كالخنق او سقوط او إصطدام او إفتراس أو نطح على ان يذكر اسم الله عليه. أمّا إذا لم يُتَوَقّع حصول الموت اي فُكَّ الخناق مثلاً والبهيمة في حالة مستقرة فتترك لتعيش وتذبح في حينها. واما ما ذبح على النُصُب فهي الأنعام التي كانت تذبح على احجار منصوبة حول البيت الحرام يعظّمها الناس فيذبحون عليها الانعام تعظيماً لها. وواحدة هذه الاحجار هي النَصْب (بسكون الصاد) وجمعها نُصُب (برفع الصاد)، وأنصاب. فإن ذكر اسمٌ غيرُ اسمِ الله تعالى عليها فهو من الشرك بالله وتدخل في التحريم. واما ما أُهِلَّ لغير الله به فيشمل ما كان يفعله اهل الجاهلية بالتوَجُّهِ برفع اصواتهم الى الاصنام بالذبح لها (كما جاء في الآية الثالثة والسبعين بعد المائة من سورة البقرة). والأزلام (جمع زَلَم بفتح الزاي واللام) هي أعواد ثلاثة تشبه السهام ويسمى احدها القِدْح (بكسر القاف). وكان اهل الجاهلية عندما يريد احدهم السفر وله فيه اختيارات هل يبادر ام يؤجل ام يتوقف فإنه كان يلجأ الى هذه السهام وقد كتب على أحدها: (إفعَلْ) وقيل (امرني ربي)، وعلى الثاني: (لا تفعل) وقيل (نهاني)، والآخر بدون كتابة، فتؤخذ سوية وتُرمَى في حوض به ماء. وأوّلُ ما يبرز منها على سطح الماء يطيعونه فإن خرج السهم الخالي من الكتابة اعاد المستقسِم رميَها حتى يخرج اليه غيره. وكذلك كانوا يفعلون في التجارة والزواج والغزو. ويدخل في الاستقسام بالأزلام كل ما يُستطلَع به

الغيب كالنجوم يستدل بها المنجمون على الحوادث او يظنون انها تأمر وتنهي. وقد روى ابن مردويه عن ابي الدرداء رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((لن يلج الدرجات من تكهّن او استقسم او رجع عن سفرٍ طائراً)) اي متشائماً. وهذا كله من الفسوق. وتحمل هذه الاية البشارة بإنقطاع امل الكفار من القضاء على دين الاسلام والبشارة بكمال الدين فلا يُزاد عليه بالبِدَع ولا يُنقَص منه بالتَرْك الى يوم الدين. فلا دينَ بعدَه ولا ينبغي لمؤمن صادق ان يخشى أحداً في ذلك وفي امور دينه غير المولى تعالى. ولم يُحرَّم شيء بعد هذه الآية. وكانت في حجة الوداع يوم عرفة يوم جمعة بعد صلاة العصر. اما الرخصة الربانية لأهل الإضطرار غير المتجانفين لإثمٍ اي غير المائلين لمعصية او الراغبين في الحرام فالرخصة هنا لا تُحِلُّ حراماً بل تجيز الأكل بالاضطرار الذي يُخشى معه الموت جوعاً كالمجاعات او الانقطاع عن البلد. ولا يرخص في ما يزيد على سدِّ الرمق اي اول شعورٍ بالشبَع. ويندب الاستغفار في فعله والانقطاع عنه حالما يشاهد المضطر بلداً قريباً فإن وضع في فمه لقمة وشاهد مساكن سواء كانت قرية او مدينة او اكواخاً أو بيوتاً من الشَّعر فعليه أن يقذف تلك اللقمة ويسرع اليها.

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (4)

الطيبات هي المذبوح من الأنعام بعد ذُكْرِ إسم الله تعالى عليه مع الإمتنان له تعالى على ما رزق والشكر على النعمة. ويلي ذلك ما جرى صيدُه منها بكلاب الصيد المتدربة او الباز والصقور المتدربة. وتدريبها انها حالما تمسك بالصيد تتركه

مشلولَ الحركة حياً ولا تأكل منه وتؤمر بالتوقف عن الاكل حالما يلاحَظ انها ستُقدِم على ذلك. اما مخالبها فهي الاداة الجارحة التي تريق دم الصيد. وهنا يذكر اسم الله على الصَيد حالما يمسك به الكلب او الصقر او الباز. فإن أكلن منه فمات فلا يحل لأن ذلك دليل على انها امسكتْه لنفسها والآية: ((أمسكْن عليكم)). واذا شوهد أحد الجوارح غير المتدربة يمسك ما هو من الصيد ويتركه وفيه اضطراب عندئذ يُذكَر اسمُ الله عليه ويُذبح وبذلك يحل أكلُه. واما الصيد بالسهام وما يجرح الصيد من طلق ناري فيريق دمه فأكلُه حلال بعد ذكر اسم الله تعالى عليه عند الرمي او عند اختراق جسمه بالسهم او بالْمَرميّ. واما الأطعمة التي لم تَحرُم كالذبائح التي يذكر اسم الله عليها، وكذلك ما خلق الله تعالى من غذاء تنبته الارض بإذنه فهي الطيبات الحلال إلا ما أُهِل به لغير الله تعالى. ويمكن استعمال الإناء الذي سبق وأُكِل به لحم الخنْزير (كما يحصل في بلاد النصارى كأوربا وامريكا واستراليا) وذلك بعد غسله جيداً وتطهيره بماء طاهرٍ حتى لا يُفتَرَضَ بقاءُ اثرٍ من حرام فيه.

الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (5)

عطَفَ المولى سبحانه طعامَ أهل الكتاب وهم اليهود والنصارَى على الطيبات (الحلال) ذلك انهم ساروا في الذبح على شريعة سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام متوارَثة من الاسباط ومحافَظاً عليها بما يعلِّمه الاحبار والربانيون وذلك بذكر اسم الله

عند الذبح او الصيد على ان يكون اصل الطعام حلالاً. فاذا تبين ان من اهل الكتاب من خرج عن ذلك (وذلك بإستحلال الخنق او ترك ذكر اسم الله تعالى متعمداً جاحداً) فلا يعتبر ضمن هذه الاية. وقد انتهج ذلك الان كثير من دول النصارى في اوربا وامريكا بحيث تعرض الدواجن الميتة سليمة العنق للبيع مما يدل على خنقها وبقاء دمها في اوعيته. ولهذا يشترط في زماننا هذا عند إستيراد دولةٍ مسلمةٍ اللحومَ منهم أن يحضر ممثلٌ مسلم منها عملية الذبح فيذكر اسم الله تعالى عندها ويتأكد من الذبح من غير صعق او خنق. اما طعامنا لأهل الكتاب فإن الله تعالى أحلَّه لكي لا يكون حرج على مسلم اذا دعا احداً من الذين اوتوا الكتاب الى طعامه او اذا دخل احدٌ منهم مطعماً لمسلم. واما اليهود فقد حرّموا على أنفسهم لحم الإبل وهو في الاصل حلال فإذا ذَبَح يهوديٌّ بعيراً وذكر اسم الله عليه فهو حلال بينما هو ليس من طعامهم وهذا نادراً ما يحصل إذ انهم لا يذبحون ما حرَّموه. هذا عن الأطعمة، واما المحصنة من اهل الكتاب فهي العفيفة في نفسها. وقد فرّق إبنُ عمر رضي الله عنهما بين اليهودية والنصرانية فأحل اليهودية وأدخل تحريم النصرانية في قوله تعالى ((ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ)) فقال: ((لا اعلم شركاً اعظم من ان تقول ان ربها عيسى)). إلا أنّ بعض الفقهاء ذهب الى ان المقصود بالمشركات في الآية المذكورة هن محصناتُ غيرِ الذين اوتوا الكتاب اذ وردت آيات عديدة في ذلك كقوله تعالى ((لم يكن الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة)) وهذا اوسع من قول ابن عمر رضي الله عنهما والفسحة في الاسلام يؤخذ بها. وكلمة (محصنين) و (محصنات) تشمل الرجل والمرأة الحرة من الذين يعفّون عن السفاح واتخاذ الأخدان، أي الخليل والخليلة. ولا يجوز

نكاح الزانية التي لم تَتُبْ، وسيأتي إن شاء الله تعالى شرح ذلك في سورة النور. وقد افتى عديد من الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم بأن الرجل اذا عقد على أمرأة ثم ثبت انها زنت قبل الدخول بها بأن يفرِّق القاضي بينهما ويسترد الرجل المهر الذي اعطاه لها. وهذا ما أيده الطبري في تفسيره مأخوذاً عن بعض الصحابة والتابعين. كما ان الامام احمد بن حنبل رحمه الله افتى بأن الزاني اذا عُرِف عنه الفجور لا يجوز تزويجه من محصنة عفيفة حتى تثبت توبته وإقلاعُه عن الزنا. وقد روى في ذلك حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو قوله ((لا ينكح الزاني المجلود إلا مثلَه)) وفي هذا الصدد ورد قوله تعالى ((ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله)) وقد روى الطبراني في المعجم الكبير عن شريك رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((من زنى خرج منه الايمان فإن تاب تاب الله عليه)). وقد ذهب الامام النسفي في تفسيره الى أن الكفر بالايمان عام يشمل الكفر بكل تشريع من شرائع الاسلام وبكل ما أحل الله وما حرَّم. وبهذا تكون غايةُ المؤمن سلامةَ ايمانه من كل كفر.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (6)

اورد الامام احمد في مسنده عن ابي أُمامةَ قال: "حدثنا عمرو بن عبسة قال قلت: يارسول الله اخبرني عن الوضوء قال: ((ما منكم من أحدٍ يقرُبُ وُضوءَه ثم

يتمضمض ويستنشق وينتثرُ إلا خرّت خطاياه من فمه وخياشيمه مع الماء حين ينتثِر ثم يغسل وجهه كما امره الله الا خرَّت خطايا وجهه من اطراف لحيته مع الماء ثم يغسل يديه الى المرفقين الا خرَّت خطايا يديه من اطراف أنامله ثم يمسح رأسه الا خرّت خطايا رأسه من اطراف شعره مع الماء ثم يغسل قدميه الى الكعبين كما امره الله إلا خرّت خطايا قدميه من اطراف أصابعه مع الماء ثم يقوم فيحمد الله ويثني عليه بالذي هو له اهل ثم يركع ركعتين الا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أُمُّه)) فقال ابو أُمامةَ: يا عَمْرُوْ انظُر ماذا تقول! سمعتَ هذا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ أيُعطَى هذا الرجلُ كلَّه في مقامِهِ؟ فقال عمرو بن عبسة يا أبا أُمامة لقد كبُرَتْ سنِّي ورَقَّ عظمي واقترب أجَلي وما بي حاجة أن اكذب على الله وعلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم)) الحديث. وهذا الحديث جاء تفسيراً هنا وفيه قوله صلى الله عليه وآله وسلم ((كما أمَر الله)) أي يُراعى التفصيل في اركان الوضوء وسُنَنِه. ويراعي تَجَنُّبَ نواقضِه ومكروهاتِ أدائه. والوضوء نورٌ يُضيء يوم القيامة فقد روى الشيخان عن ابي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله: ((ان امتي يُدعَون يوم القيامة غُرّاً محجّلين من آثار الوضوء فمن استطاع منكم ان يطيل غُرّتَه فلْيفعلْ)). (الغُرَّة: بياض في وجه الفرس، والحجل: بياضُ أسفلِ ساقيهِ). وأما التطهُّر من الجنابة فيكون بالإغتسال بِنِيَّة رَفْعِ الحَدَثِ الأكبر. وتفاصيل ذلك في كتب تعليم الصلاة وكتب الفقه. وشُرِّع التيمُّمُ للمريض الذي يحرجه الوضوء وللمسافر عند فقدانه الماء او غلاء ثمنه أثناء السفر فوق ما يملك. ويتم بضرب اليدين على صعيدٍ مُسَطَّح ليس فيه ما يدل على نجاسة او مستقبح من القذارة، ولا حرج إن لم يكن الغبار عليه ظاهراً للعيان. ثم يمسح بهما على الوجه

ويعاد ضربهما عليه لمسح اليدين الى المرفقين. وبذلك يتمكن المتيمم من الصلاة أو قراءة القرآن. على ان يتيمّم لكل وقت من اوقات الصلاة. ومما يسبق الوضوء والتيمم ان يكون المؤمن طاهر الجسد طاهر الثوب من غير ان يلحقه حرج في ذلك بل ليعلم انه يلقى ربه تعالى طاهراً نظيفاً. وهذا من تمام نعمة الله تعالى ومفاتيح شكره الذي يزيد به عباده فضلاً ورحمة.

وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (7)

الميثاق الذي ورد في السُنَّةِ الشريفة كان في ليلة العقبة وفي بيعة الرضوان. حيث قام الصحابة رضوان الله عليهم بمبايعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على نصرته وعلى السمع والطاعة. وصدّقهم الله تعالى عن علم بما في قلوبهم. واما غيرهم من المسلمين فإنّ تَقَبُّلَهم الاسلامَ هو مبايعة مثلها. وعليهم التقوى فيها ومراقبة قلوبِهم. فإنّ الله تعالى عليم بما يرد اليها وما يصدر منها. فالنعمة هي الاسلام والايمان. والميثاق هو السمع والطاعة. والتنفيذ هو التقوى التي دليلها الصدق في الطاعة بالإستطاعة. وفي سورة التغابن: ((فاتقوا الله ما استطعتم ..)) الآية.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (8) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (9) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (10)

اوضح الله تعالى في الاية الثامنة ان التوجيه الذي يرضاه للعاطفة والميل القلبي يجب ان يكون لله تعالى بالإلتزام بالعدل. فلا يؤثر على المؤمن مَيلٌ آخر او عاطفة من بغض او محبة. فلا يجرِمه أي يحمله شنآنٌ أي بغضٌ على أن يمنع حقاً عن مستحق أو أن يعطي حقاً لمن لا يستحقه. وفي الاية التاسعة يبيِّن تعالى عاقبة هذا العمل الصالح للمؤمن بأن له مغفرة واجراً عظيماً. وبعد ذلك جاء في الاية العاشرة أن من جحد الحق، كافراً مكذِّباً بصدق وعدِ الله فهو من أصحاب الجحيم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11) وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (12) فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (13) وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (14)

الثبات في حماية الله تعالى ضد كيد الاعداء يأتي بالتقوى والتوكل على الله تعالى اي الالتزام بأمره ونَهْيِه. وقد تعددت حوادث حماية الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم كما جاء في كتاب البخاري بان اعرابياً ارسله قومه ليقتل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فلحقه وفاجأه بالسيف قائلاً: من يمنعك مني؟ فقال

((الله)) وكرر الاعرابي ذلك فيقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ((الله)) وفي الثالثة سقط السيف من يد الاعرابي قرب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي دعا الاعرابي الى الجلوس الى جانبه وعفا عنه. ومن ذلك ذهابه صلى الله عليه وآله وسلم الى بني قريظة ليستقرضهم. فأراد قُرَظِيٌّ إلقاء حجر عليه من أعلى جدار كان يستند عليه ليكون الحادث عفوياً. فَشُلَّت يدُ الجاني قبل أن يدفع الحجر فوقه. وهذا عام للمؤمن ((الله يدافع عن الذين آمنوا)). واما من لا يلتزم بما امر الله تعالى ونهى فمثّل الله تعالى لهم ببني اسرائيل كيف استحقوا لعنة الله تعالى وقست قلوبهم، حتى تجرأوا على كلام الله تعالى يحرِّفونه وجُبِلوا على الخيانة الا قليلاً منهم مع ان الله تعالى بيّن لهم سعادتَيْ الدنيا والاخرة وعداً صادقاً منه إن هم اقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة وآمنوا بالرسل ونصروهم وتعاونوا في بذل المال للمنافع العامة والفردية. واما الذين إدعوا نصرة سيدنا المسيح عليه الصلاة والسلام فإنهم إنشغلوا بأهوائهم عن صحة العبادة بأن نسبوا لله سبحانه ما لا ينبغي له من ولد. فاختلفوا في ذلك ولم تبق بينهم المودة والرحمة التي يكون فيها المؤمنون رحماء بينهم. وهذا ما سيكشفه لهم رب العزة ويعلمون مدى ضلالهم في اهوائهم.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (16)

من قبيل ما اخفى اليهود من التوراة: رجم الزاني المحصَن. فأظهر الله تعالى للنبي، صلى الله عليه وآله وسلم، الاية التي تنص على ذلك في التوراة فأشار اليها. وكانوا قد احتكموا إليه في جريمة من هذا العمل إرتكبها واحد منهم فحكم عليه

بها. والقرآن الكريم ليس فيه غموض ويهدي الى عبادة الله تعالى وحده. وهذا ما ينبغي لِقَدْرِهِ العظيم في حَمدٍ وتنْزيه وتمجيد لا زيغ معه. فلا يليق أن يصد عنه من دُعي إليه ممن نسب الولد لربه الجليل سبحانه فذلك ظلام لا مخرج منه الا بتنْزيه الخالق عن أُبوّةِ المخلوق والثبات على عبادته وشريعته وهي الصراط الذي يوصل اليه. واما من اصروا على نسبة الالوهية الى المسيح عليه السلام فقد أغضبوا الله تعالى فقال فيهم:

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17)

لا يملك الإنسان إختياراً في ما يريده الله تعالى له. وهذا ما يشمل المسيح عليه الصلاة والسلام. فكيف يكون إلهاً من لا يملك دفع الضر عن نفسه، واما ولادته عليه السلام فدليل على ان الله تعالى خلقه في رحم أُمِّه الصديقة العذراء عليها السلام ولم يكن قبل ذلك شيئاً مذكورا. فكيف مَن هذا شأنه يكون خالقاً لنفسه أو إلهاً؟ ومن الذي كان يملك الشفاعة عند الله لو أراد أن يهلك المسيح وأمه ومن في الأرض جميعا؟ وبهذا يبين تعالى تصرفه في ملكوته مما يبطل كلَّ إدعاءٍ لا يتفق مع صفاته تعالى فذلك وَهْمٌ توهّمه من إدعاه وظنون خاطئة وكفر في هذا المنهج.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (18)

ثلاثة نفر من يهود: هم نعمان بن آصا وبحري بن عمرو وشاس بن عدي، جاءوا الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكلّموه وكلّمهم فلما دعاهم الى الله تعالى وحذرهم نقمته قالوا له: "ما تخوّفنا يا محمد (أي لا نخاف) فنحن ابناء الله وأحِبّاؤه". وكان من حديثهم معه انهم يُعَذَّبون أياماً معدودات بأربعين يوماً، وكذلك قال النصارى مثل قولهم فقال تعالى ((قل فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم؟)) اي ان الوالد يفدي ابنه في عقوبات الدنيا فكيف لهذا الوالد يدخل ولده في النار؟ فاذاً هم بشر وهو الذي بيده المغفرة والعذاب وله الملك واليه المصير وسبحانه عن الوالد والولد.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (19)

بعد الحجة الواضحة في صحة العبادة التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما دل عليها من بشاراتِ كتُبِهِم، وما في القرآن من بيان لزيغهم، لم يبق لهم عذر في الإدّعاء بأن الرسل انقطعوا من بعد عيسى عليهم الصلاة والسلام. فقد كان انبياء بني اسرائيل يتوارثون النبوة نبياً بعد نبي حتى بُعث زكريا ويحيى، ثم المسيح عليهم الصلاة والسلام ثم إن الفترة بين عيسى عليه الصلاة والسلام والبعثة المحمدية زادت على خمسة قرون فلو لم يبعث سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم لادَّعَوْا بانهم تُركوا بلا بشير ولا نذير. ولكن ها هو القرآن الكريم لم يَدَعْ نقصاً في الشرائع والبشارات ولا في النُذُر والعِبَر. فهو ضرورة الحياة الى يوم الدين. وقد ورد سبب نزول الاية هذه في شرح معاني الاية التاسعة والخمسين بعد المائة من سورة البقرة مما أغنَى عن التكرار.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (20) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (21) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (22)

بعد ان كان بنو اسرائيل قبل موسى عليه الصلاة والسلام في ذل وهوان ويحلف سَحَرَتُهم بعزة فرعون، تحوّلوا مع رسالة سيدنا موسى ونصره الى احرار يملكون امورهم بانفسهم. وجاءهم ما لم ينزل على احد من قبلهم، وهو التوراة، ففي ذلك تفضيل من الله تعالى على عالَم زمانهم. ولكنّهم في هذا الحال لا يدعهم الله تعالى من غير ان يدعوهم للعمل على اعلاء كلمته في ارضه بالجهاد في سبيله. ولقد حصل لهم من اسباب الجهاد ما لم يَدَعْ لهم حجة بالتخاذل. فلما امرهم سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام بدخول فلسطين بادرت اليهم اسباب الوهن. ولم يدركوا هيمنة الله تعالى في النصر. فطلبوا اخراج اهلها الذين كانوا في نظرهم جبّارين، حيث لم يستطع فرعون في زمانه ان يغلبهم. واما اللذَين أدركا معنى قوة الله تعالى في نصرته للمؤمنين فقد كانا اثنين منهم أورد الله تعالى عنهما:

قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (23) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (24) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (25) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (26)

الرجلان فطنا الى ان امر الرسول من اوامر الله فما يرشدهم سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام الا بأمر من الله تعالى الذي ينصر من يتوكل عليه ممتثلاً لأمره. ووجدا ان اسهل سبب لدخول السد المنيع هو الدخول من الباب. ولو اطاع اخوانهم هذا التوجيه لنالوا النصر لكنهم تخاذلوا وأصروا على موقفهم فحرمهم المولى عز وجل اربعين سنة من النصر. وعوقبوا فيها بالتَيْه. وطلب سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام من ربه ان يَفْرُقَه واخاه عن القوم الفاسقين. وبقيّة خبرهم في سورة البقرة. إلا أن ايراد هذا الخبر ثم قوله تعالى ((فلا تأس على القوم الفاسقين)) دليل على انهم ليسوا أحِبَّاءَ لِله فضلاً عن إدعائهم بأنهم أبناؤه. اذ لو كانوا كذلك لما ضعفوا في سبيله تعالى ولما قال لموسى عليه السلام: ((فلا تأس)) أي تحزن ((على القوم الفاسقين)).

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (29) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (30) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (31)

جاءت الاية هذه لإيراد قصة ابْنَي آدم عبرة لأولئك اليهود الذين جحدوا رسالة الاسلام المنيرة البيضاء حسداً ان تكون في غيرهم من الامم. وقد حاولوا قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما جاء في الاية الحادية عشرة من هذه

السورة. ونبَّههم الله تعالى الى عاقبة الحسد وما فيها من خسارة كما حصل لقاتل اخيه المذكور في الآية. وفي التفاسير ان ندم القاتل كان بعد ان وارى جسد اخيه الميت فارتاح من حمله فكان ندمُه منصباً على التعب في حمله والله اعلم. اما سبب القتل فإن الاية تذكر عدم قبول قربان القاتل. أمّا سبب عدم القبول فقد ورد عن القاتل بأنه لم يكن من المتقين.

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (32)

بَعْثُ الحياة في آدم عليه السلام إحياء للناس. ولو قُتِل لكانوا في حكم المقتولين. فجعل المولى تعالى من مقتل أحد إبنَيْ آدم حُكْماً كتبه على بني إسرائيل في التوراة وجات به الرسل من بعدُ بقتل النفس بالنفس وبالفساد في الأرض. ومع هذه

البينات أسرف كثير من بني إسرائيل ولم يلتزموا بالحكم فقتلوا من الانبياء وممن يأمر بالقسط ممن أرادوا إيقافهم عن التسلط الباطل.

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (33) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (34)

المقصود بالمحاربة هنا هي الجريمة بحق الدين كالكفر، وضدّ الأمن والسلامة العامة، ثم الذين يسعون في الارض فساداً، تكون جرائمهم اوسع مما يحصل ضرره على فردٍ او اثنين بشكل عفوي او بفترات متباعدة. فمن شأن قطع الطريق والسلب المقترن بالقتل ان يجعل المجتمع في خوف من قتل الآمنين. ومن شأن الفساد في الارض مثل السعي في خرابها كما جاء في الآية الخامسة بعد المائتين من سورة البقرة ان يقلق المجتمع ويشرّدَ اهله. وفي هذه الاحوال تتدرج العقوبات على الفاعلين بين القتل والحبس؛ فالجريمة التي لا تؤدّي إلى قتل وسلب بل تولد الخوف بين الناس عقوبتها الحبس، والجريمة التي فيها سلب المال من غير قتل عقوبتها قطع الايدي والارجل من خلاف حسب تقدير المخوّل بالقضاء، والجريمة التي فيها قتل النفس بغير حق عقوبتها القتل. فمن تاب عن قطع الطريق وإخافة الناس فأمْرُه الى الله تعالى. فإن كان لَدَيه مال فيُقسم على من سلبهم اموالهم بنسبة ما فقدوه. ويعفى من القطع والحبس ولكن يقتص منه بالدماء وهكذا. ولم يرد ذكر الديات او العفو في الجرائم التي تؤثر على المجتمع كالسلب في الطرق الخارجية لعدم وجود من يستنجد به المجنى عليهم كما يحصل في المدن. اذ تكون في اماكن منقطعة ليلاً في ظروف مشددة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (35) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (36) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (37)

إتقاء الله تعالى يكون بإتخاذ الوقاية التي دلنا عليها سبحانه تخلصاً من غضبه. وتكون الوقاية بطلب رضوان الله تعالى في كل سلوك. وهذا الطلب يصدر من القلب ويصدِّقُه عمل الجوارح. وبهذا يبتغي العبد وسيلة لرضوان الله تعالى، وبعد ذلك يؤهله تعالى للجهاد في سبيله. فغير الصادق لا يوفَّق للجهاد. وقد امر الله تعالى بالجهاد في سبيله في كافة الاحوال: ففي حال القوة يكون الجهاد بخوض المعركة. وفي حال السلطة بالعدل وقول الحق، وعند الضعف بالصبر إنتظاراً للفرج، وبالمصابرة إعداداً للقوة مع التقوى والدعاء عملاً بقوله تعالى في آخر سورة آل عمران: ((يأأيها الذين آمنوا إصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون)). وبهذا يبقى ضمن رضوان الله تعالى فلا يميل مع الأهواء الضالة إلى دواعي الكفر ومحاربة الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم من اجل دنيا يصيبها في بطر وفسوق، ثم يوم القيامة لن تكون له توبة أو جهاد للنفس. ولو ملك ضعف ما في الأرض ليفتدي به من العذاب فلن يتقبل منه. ولا مخرج له من النار وعذابها المستمر.

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (38) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (39)

السرقة هنا تقتصر على اخذ المال بوسيلة خافية على مالكه، او بقهره وسلب المال منه عنوة. وللسرقة مع السارق والسارقة احكام تشمل تحديد صنف السرقة وظروفها ووقتَ إرتكابِها ونصابَها (أي الحد الأدنى من قيمتها التي تقطع فيها اليد) وهذا كله من إختصاص القضاء. وفي زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان النصاب ثمن مِجَنّ وهو الترس ويقاس على ذلك. وبذلك لا تدخل خيانة الامانة في مثل هذه السرقة. كما تشمل الاحكام أهمية المسروقات ونوعها؛ فسرقة المال تختلف

عن سرقة الثمر، والسرقة في السلم تختلف عن السرقة في الغزو، والسرقة في المجاعة تختلف عن السرقة في زمن الرخاء. ويدل على توبة السارق صلاح عمله بعد التوبة ومن ضمن ذلك ردّ المسروقات او عوضها ما امكنه، وإستغفاره لنفسه ولخُصَمائه. وقد روى ابن جرير عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشّر امرأة تابت بعد ثبوت السرقة وقطْع يدها بقوله ((انتِ اليوم من خطيئتكِ كيَومِ وَلَدَتْكِ امُّكِ)).

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (40)

ارشد الله تعالى اولئك الذين يريدون الصلاح بعد ظلمهم الى قدرته على العذاب وعلى المغفرة، يمنحها لمن يشاء فتقيل عثراتهم، وتؤمن روعاتهم، فعذابه لا ظلم فيه لمن اصرّ على الجحود وعدم التوبة استكباراً وكفراً. بينما جعل السعادة في التوبة والعمل الصالح والثبات عليه وله الحمد في الاولى والآخرة.

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (41) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (42) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (43) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا

هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (44)

فريقان في عهد النبوة يبادر أفراد كل منهما في كل فرصة سانحة لهم بإظهار الكفر وهم المنافقون ويهودُ المدينة إلا من رحم ربي. فالمنافق يدّعي الايمان، والله تعالى مطّلع على قلوبهم التي لم تؤمن. ومن اليهود من يفعل مثلهم بشكل آخر لنفس الغاية. ومن هذا القبيل استحق يهودي ويهودية عقوبة الرجم، وكانا من اشرافهم فأرسل اشرافهم مبعوثا منهم الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليسأل عن الحكم فحَكَم بالرجم. وهذا ما اتفق مع التوراة لكنهم أخفوا آية الرجم في التوراة وتولّوا ولم ينفذوا الحكم وكان الدافع وراء ذلك هو اخذ المال من الجاني لِيُخفِّفوا عنه الحكم. وهذا من أكلِهم السحت. واعرض عنهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم (وبعد ذلك نُسِخ الإعراض عنهم بقوله تعالى ((وأنِ احْكُمْ بينهم بما انزل الله)). الاية التاسعة والاربعين اللاحقة). وينكر الله تعالى على أُولئك اليهود كيف لم يتبعوا احكام التوراة. فلما تولوا عنها إعتبرهم تعالى كفاراً بها غير مؤمنين. بينما أنبياؤهم كانوا يحكمون بها مسلِّمين بحكمها، منقادين لها. وهذه هي ملة سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام وهي دين الانبياء الذي حافظ عليه النبيون ومن استُحفظ من الربانيين والاحبار على هذه الاحكام ولم يجاروا أهواء حكّام زمانهم من أجل ثمن قليل من مالٍ (فهو رشوة)، او من خشية غير الله تعالى. وهكذا اقام تعالى الحجة على كُفْرِ مَن جحد بآيات الله. وقد روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: "من جحد ما انزل الله فقد كفر ومن اقَرَّ به (اي اعترف بضرورة اتباعه

واحقيته) ولم يفعل ذلك فهو ظالم فاسق". فلم يقتصر الامر على اليهود بل هو عام في أحكام التنزيل.

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (45)

فرض الله تعالى هذه الاية واحكامها في التوراة. فقاتُل النفسِ بغير حق يقتل اي تكون نفسه بنفس القتيل، حُرّاً كان ام عبداً، ذكراً ام انثى. وهكذا في العين والانف والاذن والسن. وتصنّف الجروح حسب مواقعها في الجسم فالجروح في المفاصل التي تسبب قطعها، وكسور العظام (غير الاسنان)، والجروح المفضية الى موت غير مقصود، والجروح التي تترك عاهة، والجروح التي تلتئم بلا ضرر لاحِقٍ، يكون لكل نوع حُكمُه على الجاني، فتقطع اليد او القدم بقطع اليد او القدم في المجنى عليه. وتؤدّى الديات في الجروح الاخرى. وشرع تعالى العفو يتصدق به الْمُجنَى عليه في الجروح أو ذووه إمّا في القطع او مبالغ الديات كلها او جزء منها. وهنا الحجة على من لم يحكم بذلك بأنه توهم ان هناك حكماً افضل من حكم الله العادل الرحيم، وبالنتيجة يكون احد اطراف القضية مظلوماً وهكذا وصمهم المولى تعالى بالظلم إن لم يحكموا بما انزل سبحانه.

وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (46) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (47)

بُعث سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام الى بني اسرائيل ولم يَنقُض من احكام التوراة شيئاً بل بُعث ليصحح مسارهم بموجبها وليُحِلَّ لهم بعض ما حُرّم عليهم. وآتاه الله تعالى الانجيل فيه مواعظ ترشد القلوب الى الله تعالى في ذكره وطاعته وعبادته. فالذين صدّقوا به واتبعوا دعوته الى الله تعالى عرفوا البشارات التي دلت على نبيٍ بعدَه هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فلما جاءهم ما بُشروا به لم ينفع اهل الانجيل آنذاك علمهم بذلك، إلا من رحم الله، وزاغت قلوبهم عن معرفة الحق الذي جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وبذلك خرجوا عن الطاعة التامة فتركوا الحق وهذا معنى من لا يحكمون بما جاء فيه بأنهم فاسقون اي خارجون عن الالتزام به.

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (48) وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (49) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (50)

صدّق القرآنُ الكريم رسالتَيْ سيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما الصلاة والسلام مثلما جاء تصديق التوراة في الإنجيل. وبيّن الله تعالى في كتابه الكريم ان الخلاف الذي جاء في الإنجيل عن التوراة هو رجوع الى صحة التوراة. ولم يأخذ به من بني اسرائيل إلا طائفةٌ صغيرة. ثم بين تعالى كون القرآن مهيمنا أي شاهداً على

الكتابين بما جاء فيه من بيان اكثر الذي كانوا فيه يختلفون. فما كان مخالفاً للقرآن فهو من التأويل الخاطيء للتوراة والانجيل، ويُصَحَّح بإتباع القرآن الكريم. وهكذا لا بد لمن يطلبون حكم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يرضوا بحكم القرآن لهم او عليهم. ولا يرفض الحكمَ الا من فيه ميل للباطل. واما المؤمنون، الذين آمنوا بالله ربّا وبسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم رسولاً وبالإسلام ديناً، فلا حُكمَ لهم بغيره شِرعةً وهي الحكم، ثم منهاجاً وهو التنفيذ. فهو أمانة الله يمتحن بها عباده. فما تمسكوا به كانوا اكثر سبقاً للخيرات وعاقبته الخير، وعاقبة سواه محذورة بما اكتنفها من هوى الانفس الذي يفتح باب الفتنة والخروج عن الحق او بعضه. ومن ثم إصابة المهالك بقدر خروجهم. وما أكثرَ الفاسقين من الناس! فضّلوا الخبيث من الحكم الجاهلي على الصالح من حكم أحسنِ الخالقين. وهذا من ضعف اليقين. وقد روى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((ابغض الناس الى الله عز وجل من يبتغي في الاسلام سُنّةَ الجاهلية)).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (51) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (52)

بعد ان بيَّن المولى عزّ وجل عاقبة التمسك بأحكامه، وبيّن عاقبةَ أحكام الذين اخطأوا في التأويل ونبذوا الاحكام الصحيحة، أمَرَ سبحانه أن يبقى المسلمون في ولايته بالتمسك بشريعته وهذا يعني أن الخروج عنها دخولٌ في ولاية غير الله تعالى أي خروج من ذمة الاسلام تحت ولاية يهودي أو نصراني. وبهذا يكون واحداً منهم

لا يجد سبيلاً إلا بالإنابة الى الله تعالى. فمن مال الى حب الدنيا ضعفت مقاومة قلبه فأصابه مرضُ حبِّها فتوهم النجاةَ في ولاية اعداء دينه ولم يحسب لقدرة الله تعالى حساباً بما يشاء من نجاة ونصر. فإذا جاء نصرٌ من الله وفتحٌ كتم رغبته في ولاية الكفار وندم على ذلك. ونزلت الآيتان في رأس النفاق عبد الله بن أُبَي بن سلول كان موالياً ليهودٍ من بني قينقاع ولم ينبذ ولايته يوم حاصرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى رضوا ونزلوا عند ذلك على حكمه. فقام ذلك المنافق يطلب الاحسان الى اوليائه من هؤلاء اليهود. بينما كان الصحابي عبادة بن الصامت رضي الله عنه موالياً لهم في الجاهلية فتبرأ منهم بعد اسلامه. والايتان للمسلمين عامة في كل زمان.

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (53) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (54) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (55) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (56)

أدَّى كذبُ المنافقين الى خسارتهم لأن اعمالهم لم ترتكز على أساسٍ من الصدق. ويحذِّر المولى عز وجل عباده المؤمنين من التهاون المؤدي الى موالاة غير المسلمين. وقد يكون ذلك سبيلاً للردة. وبهذا يخسرون فضل الله تعالى بالعزة التي كتبها للمؤمنين حيث سيكسبها قومٌ يتمسكون بصفات المؤمنين بالإلتزام بالدين والاعتصام بالله يحبهم ويحبونه أذلةٌ على المؤمنين يتواضعون بينهم أعزةٌ على عدوهم،

صغت قلوبهم، أي سمعوا وأطاعوا، وبيَّن ان الوليَّ الذي ينبغي اتباعه هو الله تعالى فتكون طاعةُ رسولِهِ طاعةً له، وطاعةُ أولياءِ الله تعالى من بعده طاعةً له وهي التمسك بالشريعة وإقامة الدين لله وليس لمصالح فردية. ووصف تعالى الأولياء الذين ينبغي أن يتبعهم المؤمنون بحِفاظهم على أركان الدين في المجتمع الإسلامي بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ولهذا حارب أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه مانِعي الزكاة. كما روى أسباط عن السدّيّ ان قولَه تعالى ((انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون)). قال: "في جميع المؤمنين ولكن علياً بن ابي طالب كرم الله وجهه مَرّ بِه سائل وهو راكع في المسجد فأعطاه خاتمه". ويستدل بذلك على مكانة الإمام علي من أئمة المؤمنين عليهم السلام. واما الاية التي بعدها فقد نزلت في عبادة بن الصامت رضي الله عنه عندما تبرأ من ولاية بني قينقاع اليهود ورضي بولاية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين . وجاء في تفسير ابن كثير رحمه الله: "فكل من رضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين فهو مفلح في الدنيا والاخرة ومنصور في الدنيا والاخرة وان حزب الله هم الغالبون".

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (57) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (58)

نظرة الذين اتّخذوا الدين الاسلامي، والصلاة بصفة خاصة، هزواً ولعباً هي نظرة من لا فائدة له من نعمة العقل فهو يرى التطهر والصلاة حركات يقوم بها المسلم ولا يرى المبرر لها وما فيها من اتصال مع المولى عز وجل في خشوع وصدق. ومن كان هذا مبلغه من العقل فلا يمكن ان يتخذه مؤمنٌ وليّاً اي يجعله موضع سره

وثقته ويعتمد عليه او يستشيره او يطلب حمايته. واما النداء للصلاة فهو الأذان وقد ثبتت مشروعيته في الآية الثانية منهما أي الثامنة والخمسين.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (59) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (60) وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (61) وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (62) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (63)

نزل القرآن ليدعو به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى الايمان بالله وما أَنْزل من قبله. فهل يُعاب مثل هذا النور إلا من قِبَلِ الفاسقين؟ فمن نقم على المسلمين ايمانهم (وكانوا الاكثرية من اهل الكتاب) فقد استحقوا صفة الفسوق أي الخروج عن الحق. وقد قال يهود المدينة آنذاك بأن الذين يؤمنون بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم سينالون عقاباً من الله ولكن الله تعالى انبأهم بشّرٍ مما تمنوه للمسلمين مثوبة أي جزاء بالمعاقبة وهو غضبه ولعنته عندما جعل من أسلافِهم مَن مُسِخ الى قرد او خنزير، أو جعله عبداً للطاغوت، وهذا هو الضلال. وقد روى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((ان الله لم يُهلِك قوماً)) او قال: ((لم يمسخ قوماً فيجعلَ لهم نسلاً ولا عَقِبا وإن القردةَ والخنازيرَ كانت قبل ذلك)). وكان نفر من اليهود اظهروا الاسلام كذباً وجاؤوا الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسمعوا منه المواعظَ

والمناهيَ وما عرض لهم من الدخول في الايمان والاسلام الّا ان نفاقَهم حجب قلوبَهم عن الفهم فخرجوا بالكفرِ كما دخلوا به ولو علم الله تعالى صدقَهم لَأفْهَمَهُم إلا انهم لم يحسبوا لعلْمِ الله تعالى بما في قلوبهم حساباً. وهكذا فقد اتصف اكثرهم بالمبادرة الى الكذب في اقوالهم بلا رادع من وَرَع، والى الظلم في افعالهم، والطمعِ في تعاملهم لجمع المال بالباطل وهو السحت. ومع اطلاع العارفين منهم بالشريعة والاحكام فانهم كان لهم نصيب من الاثم بالسكوت عن نهيهم فاسْتحَقّوا الذمّ من الله تعالى على صنيعهم الذي لا مبرر له.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (64)

وضُح تكذيب اليهود في المدينة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منذ هجرته بما كانوا يدسون على المسلمين من اكاذيب. واشتد في ذلك منهم فَنحاصُ، اذ كان اكثرهم جدلاً وإنكاراً وكان ذا سَعة ومال انحسر عنه مع عز الاسلام، حتى ضاقت موارده فقال: "يد الله مغلولة ". ولم يبادر احد من اليهود آنذاك، عالمٌ منهم أو جاهل، بأن يردّه عن قوله عن الخالق جل جلاله. فشملهم تعالى بأن غَلّ أيْدِيَهم بالبخل في الدنيا وبالأغلال في الآخرة ولَعَنَهم. ثم كشف حقيقة كرمه بأنه حاصل عن حكمةِ مشيئته. وهذا ما زادهم طغياناً وكفراً واستحقوا ما القاه تعالى بينهم من العداوة والبغضاء الى يوم القيامة. وكان لهم بالمرصاد كلما كادوا على العدوان هيأ

المولى سبحانه اسباب إنهائه وفضح نواياهم الفاسدة وراء ما ينشدونه من حرب بين الناس وهم يعلمون بأن الله لا يحب المفسدين.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (65) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (66)

استثنى الله تعالى افراداً قليلين من أهل الكتاب انهم التزموا بالعمل بالتوراة والانجيل وهم الامة المقتصدة أي المعتدلة والمهتدية الذين آمنوا برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم من اليهود والنصارى. وأمّا مَن لم يلتزم منهم، وإن قرأوا الكتب المنزلة اليهم، فهم لم ينتفعوا بها. وكما لم يقيموها أي لم ينتفعوا بها في الدنيا أي لم يطبقوا احكامها فقد حُرِموا جنات النعيم التي أُعِدَت لمن آمن واتقى اي تعلم وعمل بما عَلِم. اما الاكل من فوقهم فهو الثمار او المطر واما من تحت ارجلهم فالزرع والعشب، وفي هذه الاية اشارة الى ان العمل بطاعة الله تعالى من اسباب الرزق الحلال الطيب وسَعَةِ العيش.

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (67)

روى مسلم عن جابر رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اشهد اصحابَه في حِجّة الوَداع فقال ((اللهم هل بلّغتُ))؟ والبلاغ منه إمّا أن يلقَى قَبولاً وتصديقاً وإمّا أن يلقى جحوداً ممن لم يشأ الله أن يهديهم بما علم من ضلالهم

وكفرهم. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يَمنع أحداً من أن يحرسه فلما نزلت هذه الآية كما روى ابن ابي حاتم والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يُحرَس حتى نزلت هذه الآية: (والله يعصمك من الناس) قالت فأخرج رأسه من القبة وقال ((يا ايها الناس انصرفوا فقد عصمني الله عز وجل)). وحقق المولى تعالى حفظه فلم يصل اليه أحَدٌ بقتلٍ أو أسْرً او قَهْرٍ مع ما كاد أعداؤه له.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (68)

الذين نبذوا حكمَ الكتابِ الذي أُنزل اليهم من الله سبحانه تعالى فإنهم لم يبقوا على حق. وقد تقدم في الاية الثالثة عشرة بعد المائة من سورة البقرة ادعاء اليهود ان النصارى ليسوا على شيء وذلك لإبتعادهم عن أحكام التوراة. وادعى النصارى ان اليهود ليسوا على شيء لأنهم جحدوا مواعظ الانجيل. وهذا دليل على ان قلوبَهم لم تفقهْ ما في التوراة من أحكام وما في الانجيل من حِكَمٍ ومواعظ للسير على هذه الأحكام والحِكم. وهكذا لو كانوا على شيء من ذلك لفقهوا ما جاء به القرآن الكريم تصديقاً لما أُنزل اليهم وما بُشِّروا به. ولَمّا علم منهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما صاروا إليه من زيادة في الكفر والطغيان أسِفَ لهم على مصيرهم. ولكن الله تعالى بين له انما استوجبوا المصير بإستحباب الكفر على الحق فلا يؤسَفُ عليهم.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (69)

جاء الحديث عن هذه الآية في شرحها في الآية الثانية والستين من سورة البقرة مما اغنى عن التكرار.

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (70) وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (71)

ميثاق العبد لربه هو السمع والطاعة. ويرسل الله تعالى الرسل لإقامة الحجة على عباده بأنه يديمُ إرشادَهم ويبتلي طاعتهم. إلا أن بني إسرائيل كرِهوا بأهوائهم ما أُنزل اليهم من ربهم بسبب ميلهم الى الدنيا وانغماسهم في الضلال فكذّبوا فريقاً من الرسل وبذلوا الجهد لكي يتخلصوا من فريق آخر. وكان من كفرة بني اسرائيل من يقتل الانبياء لهذا الغرض فقد قتلوا زكريا وسببوا قتل يحيى عليهما السلام ولم يَرَ هؤلاء الكفرة فيما فعلوه خروجاً عن الدين، ولم يفطنوا الى الفتنة التي وقعوا فيها. اذ لم يروا الحق ولم يسمعوا النصح. فكأنهم عُمْيٌ وَصُمٌّ. وبعد ان اتتهم فرصة التوبة اصرّ كثيرٌ منهم على الضلال. وغاب عنهم أنّ اللهَ بصيرٌ بقيمة عملهم في موازين القسط يوم القيامة.

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (72) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ

وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (74) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (75) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (76)

نطق سيدنا المسيح عليه السلام في المهد صبياً فهل قال بأنه الله! (سبحان الله). وهذا لم يرد في كتبهم بل ((قال إني عبد الله)). ثم هل في كتبهم تهديد من المسيح بجهنم لمن لم يقل انه الله او أنه ثالث ثلاثة؟ ان اقواله مواعظ تهدي الى الله سبحانه. ولم يقل بأن الله تعالى ثلاثة. فالأجزاء في الواحد تدل على أن كلَّ جزءٍ لا يكمُل بذاته فيتمِّمه الجزء الآخر. ولكن الله تعالى صَمَدٌ لا يمكن ان يتجزّأ. فالتجزئة تكون بفعلٍ صادرٍ من غير الأجزاء. فإدعاؤهم لا يُمكن أن يُصدَّق. فإن انتهى من جاءته الآيات البينات فقد اهتدى. ومن لم ينتَهِ فعذابه اليم. والله تعالى يدعوهم للنجاة من هذا العذاب وذلك بالتوبة والاستغفار. وهنا ينبه الله تعالى إلى ضعف الإنسان في حاجته للطعام يعني أنّ هذا الضعف في وجود جهازَي الهضم والدوران في من يأكل ويتنفس لا يمكن أنْ يُنسبَ لِله تعالى. وها هي سيدتنا مريم عليها السلام أكلت الطعام فهل يمكن لها ان تكون إلهاً كما ادعى المتأخرون من بعض فئات النصارى؟ وينكر الله تعالى عليهم كيف يؤفكون، والإفك شدة الكذب، فيتجهون الى عبادة من لا يَملك لهم ضَراً ولا نفعاً ويغفلون عن الوحدانية الحقة.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (77)

حصل الغُلُوُّ في الدين لدى اليهود عندما أنكروا رسالة سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام. وحصل الغُلُوُّ في الدين لدى النصارى عندما نسبوا الالوهية له وجعلوه جزءً أو عنصراً من ثلاثة. واما غُلوّ اليهود فقد ضلوا فيه وأضلوا كثيراً من قومهم ولم يهْدِهم الله تعالى الى فهم الحق لِما اتبعوه من الأهواء. والغُلوّ هنا هو تجاوز الحد؛ إمّا استكباراً من اليهود، او نسبة الالوهية لبشر من قِبَل النصارى.

لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (78) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (79) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (80) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (81)

الزمن الذي بين داود وعيسى عليهما الصلاة والسلام بضعة قرون. ولم ينقطع خلالها اهل الكفر من بني اسرائيل عن موجبات اللعنة. فقد لعنهم سيدنا داود على أثر معصيتهم يوم سبتهم. فقد نُهوا عن الصيد ايام السبت حين كانت الأسماك تأتيهم فيه بكثرة ولا تأتيهم كذلك في الأيام الأخرى. فتحايلوا لصيدها إذ حصروا الاسماك أيام السبت في احواض ليصيدوها أيام الاحد. والله تعالى اعلم بنواياهم. وكان ذلك في ميناء إيلةَ. فدعا عليهم سيدنا داود عليه السلام ان يجعلهم الله تعالى عبرة فمسخوا قردة ولم يُنْسِلوا. واما سبب لعنهم على لسان سيدنا عيسى عليه السلام، فهو كفرهم بالايات التي اجراها الله تعالى على يده بما في ذلك آية نزول المائدة. فدعا عليهم فمُسِخوا خنازير. وقيل كان هؤلاء الكفرة خمسة الاف رجل. وقد روى الامام احمد بن حنبل في مسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((لما وقعت بنو اسرائيل في المعصية نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم في مجالسهم (أي تهاون العلماء في ذلك) وواكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض. ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم. ((ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون)). وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متَّكِئا فجلس وقال ((والذي نفسي بيده حتى تأطُروهم على الحق أطراً)) ومعنى (تأطروهم) ان تأخذوا بأيديهم الى الحق من غير إمهال. وهذا يشمل الحكّام اذا خرجوا عن الحق ويشمل اهل المنكرات. وهكذا قصصهم عبرة لمن يعتبر. أما موالاة الكثيرين منهم للذين كفروا فهو اعتمادُهم على قوة غيرهم في تنفيذ مآربهم الفاسدة وبث الفتنة بين الناس. فالذين كفروا من بني اسرائيل لو كانوا مؤمنين بالتوراة لَما التجأوا بالموالاة الى من يعتقدون بكفرهم بل اقتدوا بسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام اذ لم يقبل موالاة فرعون الذي رباه وليداً. وبهذا أوصلتهم أنفسُهم إلى نيل سخط الله ثم الخلود في عذابه. ولو كانوا أهلَ إيمانٍ حقاً لآمن هؤلاء الكفرة بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد عَرَفوه من البشارات في كتبهم وخرجوا بذلك فسوقاً عما عرفوه حقاً. فاستوجب الكثيرُ منهم ما حق عليهم من جزاءٍ على فسوقهم.

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (82) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (83) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (84) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ

تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (85) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (86)

تأتي العداوة من القلوب القاسية. وقد حَجَبَت هذه القسوةُ في قلوب كفرة اليهود نورَ الحق الذي جاء به سيدُنا محمدٌ صلى الله عليه وآله وسلم من ربه. ولَمّا رأوا مصيرَهم مع الاسلام لغير صالح أهوائهم في التسلط على اموال الناس مَلَكَتْهم البغضاء ووقفوا موقف العداء. فأخذوا يكيدون ويحاولون قتلَ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويرتكبون السحر من شدة عداوتهم. واما مشركو قريش فقد كانوا في دَعَةٍ من العيش ونُمُوّ في التجارة، وفاجأهم الاسلام فرأوا رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم اليتيم الذي اراد ان يسودَهم ففرق صفوفَهم وهدّد معتقداتِهم. ولم يفطنوا الى نور الحق الذي معه حتى نصَرَه الله تعالى وثبت صدقه ورأفته بهم في فتح مكة. واما النصارى فقد اختلف موقفُهم تماماً مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومثالهم في ذلك النجاشي اصحمة ملك الحبشة الذي آمن وصدّق بالرسالة المحمدية لما سمع القرآن يتلى على مسامعه حتى فاضت عيناه من الدمع. وهكذا فعل وفدٌ جاء من قِبَلِه الى المدينة بعد الهجرة فاستمعوا القرآن من الفم الشريف لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتعرّفوا شرفَ صفاته واحواله وكانوا سبعةً من القساوسة وخمسة من الرهبان فلما سمع النجاشيُّ منهم بعد عودتهم اراد (رضي الله عنه) ان يهاجر الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا أنّ الوفاة ادركته وصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلاة الغائب. وبهذا بشّر اللهُ بما اثابهم. ثم بيّن مصير من كذّب بآياته كفراً بأنه الجحيم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (87) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (88)

لا ينبغي للمؤمن الذي يسّر الله تعالى له ما شاء من الرزق الحلال الطيب ان يتزهد فيه خوفَ الحساب اذا لم يسرف فيه. ويبين الله تعالى الحد المعقول بلا تجاوز للفهم الصحيح للحلال والحرام ويقول الامام الحسن بن علي عليهما السلام عن الطيبات ((ان شرب الماء البارد هو اطيب منها)). وهكذا فان السلوك الذي يتفق مع الايمان في نعماء الله تعالى هو السلوكُ السويُّ. وقد درس الفقهاء في حال من يتزهد بغير مبرر فيحرِّم على نفسه مأكلا أو مشرباً من الطيبات؛ فأفتى الشافعي بأن لا كفارة عليه اذا فعله. وافتى الامام احمد بن حنبل بأن عليه كفارة اليمين، وإن لم يحلفها، فهي مضمرة في نية التحريم. وقد استند في ذلك الى ما ذهب اليه ابن عباس رضي الله عنهما بالرجوع الى قوله تعالى في الآية الاولى من سورة التحريم ((يا أيُّها النبيُّ لِمَ تُحَرِّمِ مَا أحَلَّ اللهُ لَكَ)) ثم الى قوله تعالى بعد ذلك ((قَدْ فرَضَ اللهُ لَكُم تَحِلّةَ أيمانِكُم)) ولم يكن في التحريم الذي أشار اليه المولى سبحانه ثَمَّةَ يمينٌ صراحة عليه.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آَيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (89)

يعتبر اللفظ باليمين، من غير أن يُقصَدَ التوثيق بحلف اليمين، لغواً او نوعاً من اللغو اذ ليس للغو نصيب من القلب كما لم ينعقد الإصرار على نيَّة القسم الذي

عليه الكفارة. فاللغو من هذا القبيل، (كأن يقول: والله، ولا والله، وبلى والله) ليس قسماً ولا يصحُّ لمؤمن أن يُكثِر من ذلك أو أن يَهزُلَ في النكاح والعتاق والطلاق فهزْلُهن جَدٌّ. ولا ينبغي الحلف على عمل لا يَرضَى الله تعالى عنه ولا على أمرٍ غير مؤكد بل يغلب الظن عليه. اما مقدار إطعام المساكين في الأَيمان التي يُترَك العمل بها بعد إصرار القلب عليها فالمعوّل عليه هو ما يُشبِعُهم بما يناسبُ طعامَ الحالف أو كِسوتَهم لمن يكون حالُه افضل او تحرير رقبة لمن كان افضل من كليهما حالاً. ومَن لم يجد فعليه صيامُ ثلاثة ايام ينوي صيامها لكفارة اليمين. وهذا المخرج من اثم اليمين ومن الشعور بالْغَمِّ تخفيفٌ اوجب الشكرَ من العبد لله الذي جعل له في الدين فسحة ومخرجاً. وهو أرحم الراحمين. وقد افتى الفقهاء بالتتابع في الصيام الا لمريض أو مسافر.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (91) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (92) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (93)

من سمات الإيمان طهر القلب وعفة النفس. ولا يحصل هذان مع الرجس الذي هو المستقبح القذر من الافعال. وقد تقدم الكلام عن الخمر والميسر في الآية التاسعةَ عشْرَةَ بعد المائتين من سورة البقرة من غير ذِكرٍ لأنواع الميسر. وقد تشعب الفقهاء في ذلك والمرجع فيه السنة الشريفة فقد روى الامام مسلم عن بُرِيدَةَ بنِ

حصيب الاسلمي قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه)) وروى ابن ابي حاتم عن الامام علي كرم الله وجهه قوله ((الشطرنج من الميسر)) وعدّ الفقهاء كل ما يلعب به الزهر (الزار) ويلهي عن الصلاة فهو من الميسر. واما المراهنات ولعب الورق واليانصيب فميسر صراح لأن الغرض من ذلك سحب اموال الآخرين بإجراءٍ مجهولِ العاقبة. واما الأنصاب فقد تقدم أنها الاحجار حول الاصنام كان المشركون يذبحون عندها قرابينهم للأصنام. وأمّا الأزلام فمذكورة في شرح الاية الثالثة من هذه السورة. وقد اشار الله تعالى الى قبح الخمر والميسر في إحداث البغضاء والبعد عن ذكر الله والصد عن الصلاة. وقد أدّى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ما عليه من البلاغ فما على المؤمنين الا ان ينتهوا عما فيه الرجس لتطهر قلوبهم وتعف نفوسهم، وبذلك لا سيئةَ عليهم في ما طَعِموا مع التقوى والعمل الصالح والإحسان في إتِّباع الأحسن لمرضاة الله تعالى فهو محب المحسنين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (94) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (95) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (96)

يكون ابتلاء الله تعالى بما يأمر به وما ينهى عنه وهو يعلم ما سيكون من عباده من تنفيذ وذلك لإقامة الحجة للعبد أو عليه. وقد حصل ابتلاء من هذا القبيل في عُمْرَة الحديبية حيث نهى الله تعالى عن قتل الصيد فكان يكثر بين ايديهم ولا يمسه أحد بسوء وهم مُحرِمون. ثم شرع تعالى جزاءً لمن فعل ذلك وهو مُحرِمٌ (وإن لم يبلغْه النهيُ، كالأعراب الذين دخلوا الاسلام حديثاً، إذِ المعوّل عليه تَعَمُّدُ قتل الصيد) فيحكم اثنان مؤمنان ممن عُرِفوا بالعدل بعد تثمين الصيد فإمّا أن يدفع ثمنه أو أن يقدِّمَ ذبيحةً بثمنه هَدْياً بالغ الكعبة فيذبح ويتصدق بلحمه في الحرم. وجوّز الاحناف التصدق بلحمه خارج الحرم على ان يذبح في الحرم. كما جوّز الفقهاء ان يشتري المكلف بالجزاء طعاماً بثمن الصيد ويتصدق به حتى وإن بلغ ثمن الصيد الذي قتله ما يُطعم ثلاثين مسكيناً. وأما إن لم يجد الثمن فإن الحكمين اللذين حكما بالثمن يحكمان هنا بعدد ايام الصيام؛ فإما ثلاثة او عشرين او شهراً حسب ثمن الصيد القتيل. واعطى بعض الفقهاء حق اختيار نوع الجزاء للمُحْرِمِ الذي قتل الصيد. كما أعطَوا هذا الحق للحكمين. كما افتى بعض الفقهاء ان يكون احد الحكمين هو المحرِمِ الذي قتل الصيد اذا عُرف عدلُه. واما قتل الصيد من قبل الْمُحرِمِ عن غير عمد (ويندر حدوث هذا) فيوقَع عليه الجزاء كما لو تعمد قتله وذلك لتغليظ التحريم. واما العَوْد الى الفعل ثانية او اكثر من مرة فقد توعّد الله تعالى فاعلَه بالانتقام منه وإن نال الجزاء المذكور. واما الأكل من الصيد الذي قتله المحرم لأجْل الطعام ففيه شبهة لعموم التحريم. واما اذا قتل الْمُحرِمِ ما لا يؤكل لحمه من الحيوانات البرية ففي قتلهن اجتهاد هل يكون القتل حراماً ام حلالاً؟ فقد جوّز بعض الفقهاء للمُحرِمِ قتلَ ما فيه خطر منهن رجوعاً بذلك الى ما رواه الامام مالك

عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((خمس دواب ليس على الْمُحرِمِ في قتلهن جناح؛ الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور)) فيقاس على ذلك الذئاب وما اشبه من السباع. واما ما ينتقل بين البر والبحر كالطيور المائية فحكم قتلها من قِبَل المحرم حكم قتل صيد البر. ونأتي الى قوله تعالى في الآية ((أُحِلّ لكم صيد البحر)) فقد أحَلّ الله تعالى للمُحرِمِ صيدَ البحر كما أحل ميْتَة البحر وهي الاسماك التي يلفظها البحر او ينحسر عنها فتموت على الساحل. اما ما لا يؤكل لحمه من صيد البحر فيُنتَفَعُ به لغير الطعام. والمقصود في الآية بمتاع السيارة هو السمك المجفف تحت اشعة الشمس في الهواء الساخن الجاف طعاماً للمسافرين مِمَن لم يكن اهله في الميناء او قرب الساحل.

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (97) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (98) مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (99) قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (100)

البيت الحرام، جاءت حرمته من عائديته لله تعالى فقد حرّمه اي لا يدخله الا مؤمن مسلم ليعبد ربه شاكراً نعماءه في توفيقه لزيارة بيته الحرام حاجّاً ومعتمراً إذ أمر الله تعالى بإتمام الحج والعمرة ليكونا سبباً لقيام الدين والنهوض به باجتماع المسلمين كل موسم من مواسم الحج والعمرة منيبين الى الله تعالى. وجعل الله تعالى الأشهُر الْحُرُمَ أمْناً للناس ومعاشاً طُمأنينةً للحاج والمعتمر والتاجر والمسافر. ولولا ذلك لضاقت سبل التعامل وتداول التجارة. واما الهَدْيُ فهو ما يُهدى من الأنعام

يتصدق به الموسِرُ على المعسِر. والقلائد هي علامة حول اعناق ما يهدى من الانعام فهي من مظاهر الحج وثوابها مرتجى من الله تعالى. وهذه الافعال والاحوال، مع ما حرم من الصيد وما نهي عن فعله، ضوابط للنفوس لتلتزم بالتراحم والتسامح فلا خوفَ فيه من بطش او انتقام. والله تعالى اعلم بما يصلح لعباده. ولكن عقابه شديد لمن لم يؤمن بهذه الشعائر ويلتزمْ بالاوامر. ووعد من يعظم هذه الشعائر بالمغفرة لآثامهم والرحمة بهم. فهم ضيوفٌ عند أرحم الراحمين. وها هو البلاغ قد جاء على لسان الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم. وقد يحصل بعد ذلك من الناس الذين بلغهم الامر استجابةٌ او عدمُ استجابةٍ. ولا يخفى ذلك على الله تعالى. وقد وصم تعالى الجحود بانه الخبيث ولا يمكن ان يستوي هو والطيب مهما بلغ به صاحبه من مال ومنزلة. ولهذا يأمر تعالى عبادَه أُولي الألباب بأن يلتزموا بالتقوى وهي ما يطيب لله تعالى لهم أن يختاروه. وأنه إنما يخاطب المؤمنين أُوْلي الألباب لأنهم اتّصفوا بصفاء النفوس ونقاء القلوب التي هي اللب الذي ازيحت عنه قشور المنكرات. وبذلك يؤمِّلُهم بالفلاح ونعم الوعد الموعود.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (101) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (102)

زخرت الجاهلية بالأوهام والبِدَع. وجاء القرآن الكريم بالحكمة والعلم وبيان الحلال والحرام وسبل العبادة. ومع هذا كان من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من يسأل من قبيل هل الحج كل عام؟ وهنا يبين تعالى ان الاسئلة قد

تؤدي الى تكليفهم بما لا يطيقون او الى ما يسوؤهم مثلما شقّت على من سبقهم وهم أهل الكتاب ولو أنهم لم يسألوا لَما أثِموا بتركها.

مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (103) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (104)

نَسَبَ أهلُ الجاهلية قدسيةً لأصنافٍ من الإبل والغنم! وذلك انهم جيلٌ بعد جيل إبتعدوا عن دين سيدنا ابراهيم صلى الله عليه وسلم، فقد روى البخاري عن ابي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انه قال ((رأيت عَمْرواً بن عامر الخزاعي يجر قُصَبَهُ (اي امعاءه) في النار كان اول من سيب السوائب)). وعَمْرو هذا هو ابن لَحْيٍ بن قِمعةَ كان أوّلَ من أدخل الأصنام الى الحجاز ودعى رعاع الناس إلى عبادتها وابتدع في الدين ما ليس فيه فحرّم الحلال. وذلك ادى الى ان تُسيّب الابل والغنم اي يُترَك ركوبها ولبنها لخدم الأصنام حتى تموت فيؤكل لحمها كما يلي شرحه. فالبَحِيرة هي الناقة التي ولدت خمسة أبطُنٍ آخرَها ذكرٌ. فيعمدون الى الذكر فيذبحونه و يأكله الرجال دون النساء. وإن كان البطن الخامس انثى جَدَعوا أُذُنَها اي احدثوا فيها شَقّاً لتُعرَف. واضافة الى ذلك يتركون التي تلد الخامس ذكراً فلا يركبها أحد ولا تُمنع عن مرعى او عن ماء. واما السائبة فهي التي ولَدت عشر إناث ليس بينهن ذكر. وأما الناقة التي ينذرها

صاحبها للأوثان بعد ما تفاءل بها اذا قضى عليها حاجة جاءته بخير (كالربح في التجارة او الغَلَبَةِ في الغزو) فهاتان ناقتان لا تُحلبان إلا لضيف ولا يركب أحدٌ عليهما. وان وَلَدَتْ إحداهما فولدها للأوثان يتصرف فيه خدم الاوثان. كما اطلقوا كلمة (السائبة) على النعجة التي تلد سبعة أبطُنٍ آخرِها ذَكَرٌ أو ذَكَرانِ يأكلُهما الرجال دون النساء. والوصيلة من الغنم هي النعجة التي وَلَدت سبعة أبطُنٍ كان آخِرُها مُفرَداً ذَكَراً ميتاً يأكله الرجال دون النساء. وان كان السابع أُنثى لم يذبحوها، أو إن كان توأمين: ذكراً وأُنثى لم يذبحوهما وقالوا: وَصَلَتْ اختُه فحَرَّمَتْه عليهم. واما الوصيلة من الإبل فهي الناقة التي تلد بطنين بأُنثَيَينِ ليس بينهما ذَكَرٌ فيشقّون أُذُنَها وتترك للأصنام. فاذا واصلت النعجة ولادة خمس إناث متتابعات ثم تلاهن ذَكَرٌ ذُبح للرجال دون النساء. وإن كان السادس انثى ميتةً اشترك فيها الرجال والنساء. وأمّا الحْامُ: فهو الذَكَرُ من الابل يأتي مِن صُلْبه عشرة أبطُن فيُقال: حَمِيَ ظهرُه فلا يُحمَلُ عليه شيء ولا يُقَصُّ وَبَرُه ولا يُرَدُّ عن مرعىً أو ماء. وجاء نور الاسلام واضحاً مبيناً ودعاهم للخروج من هذه الظلمات ولكن كان منهم من استكبر وفضل ما وجد عليه آباءه ولم يهتدِ إلى ضلال آبائه وجاهليتهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105)

في هذه الاية خطابٌ أكثَرَ ما يكون موجهاً الى المسلمين بعد قرن الصحابة والتابعين فقد كان الضلال قبلهم منحسراً والمعروف قائماً. وقد روى الطبري عن التابعي سعيد بن المسيب رضي الله عنه قولَه "اذا أمرتَ بمعروف ونَهيتَ عن المنكر فلا يضرُّك من ضلَّ اذا اهتديت." وروى عن التابعي ابي مازن قال "إنطلقتُ الى

المدينة على عهد عثمان فاذا قوم جلوس فقرأ أحدُهم هذه الاية فقال اكثرُهم: لم يَجِئْ تأويلُ هذه الآية اليوم". وروى ايضاً عن التابعي جبير بن نفير رضي الله عنه ان نفراً من الصحابة رضي الله عنهم قالوا له عن هذه الآية: "إذا رأيت شُحّاً مُطاعاً وهوىً متّبَعاً وإعجابَ كلِّ ذي رأي برأيه فعليك بنفسك لا يضرك من ضَلَّ اذا اهتديت". وروى الحاكم في مُسْتَدْرَكِه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله ((إذا رأيت الناس قد مَرِجَت عهودُهم وخفّت أماناتُهم وكانوا هكذا (وشبك بين أنامِلِهِ) فالْزَمْ بيتَك وأمْلُكْ عليك لسانَك وخُذْ ما تعرِفُ ودَعْ ما تُنكِرُ وعليك بخاصّة نفسك ودعْ عنك أمْرَ العامّة)). مَرِجَتْ: أي إختلطت. وينبه تعالى إلى لقائه وما ينبغي للأعمال من تقواه.

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ (106) فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (107) ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (108)

احد اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان في الشام واصابه مرض أحسّ معه بدنوّ أجَلِه فكتب رُقْعَةً بتفاصيل ما معه من متاع وأخفاها في متاعه وأوصَى رفيقين له من اهل المدينة كانا على النصرانية بأن يوصلا متاعه الى

اهله في المدينة اذا توفي في الشام او الطريق. وهذا ما حدث وكان في متاعه اناء من فضة فأخفياه وأعطيا باقي التركة لذويه الذين لَما فتحوا المتاع وجدوا الرقعة التي ذكر فيها الاناء. وإذ لم يجدوه رفعوا الامر الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاستدعاهما معاً واستحلفهما فحلفا بِخُلوِّ التركة من الإناء. ثم وُجد الإناء في المدينة وقال مشتريه انه اشتراه منهما. ثم أنّ أحدَهما أسلمَ وتأثَّم فدفع ما أصابه من الإناء الى ذوي المتوفَّى. واما الثاني فأمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بدفع ثمن النصف الثاني بعدما حلف اولياء المتوفى ان الاناء كان في التركة فَردّ بذلك يمينه. وبقي حكم هذا التشريع لكل مسلم يُتَوَفَّى في غير بلاد المسلمين وفي صحبته من اهل الكتاب او المجوس فيأتون بتركته فعليهما الحلف بأن تركته كاملة فإن ثبت لذوي المتوفى كذب الشهود احضروا من يشهد على كذبهم فتُرَدَّ أيمانُهم. وهذا التشريع تحذير للشهود الذين عُهِد إليهم بالوصية لكي يقولوا الحق فيُغْنِيَهم ذلك عن الفضيحة. وجعل الله تعالى الريبة في الشهادة فسوقاً يمنع الهدى فأمر بالتقوى من ذلك.

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (109)

مشهد العدل والحق من مشاهد القيامة التي لا ظلم فيها ولا باطل. ويقف الرسل صلوات الله تعالى عليهم وسلامه موقف العبد في سُمُوِّ أَدَبِهِ مع ربه اذ جاء بهم شهداء على اقوامهم في ظاهر ما شاهدوه واما ما خفي عليهم منهم فالله تعالى يعلمه فيكون جوابهم معوّلاً على قلوب اقوامهم التي لا علم لهم بما فيها فينفون علمهم مع علم الله تعالى بالغيوب.

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (110) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (111)

يخاطب الله تعالى سيدنا عيسى عليه السلام مُذكِراً إياه بما أنعم عليه وعلى أُمِّه عليها السلام أنْ جعلهما آية للناس وايّدَه تعالى بجبريل عليه السلام وبإظهار المعجزات المذكورة هنا وما قاله أهل الكفر من بني إسرائيل عنها بانها سحر، وهم يعلمون أن عمل السحر يكون للشرور وهذه المعجزات للهداية والرحمة، وبها يميز الله تعالى عباده المؤمنين عن الكافرين. ويُذكِّره بما أوحَى الى الذين صغت قلوبهم وهم الحواريون إلهاماً بأن يؤمنوا فآمنوا وأشهدوه بأنهم مسلمون.

إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (112) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (113) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (115)

لَمّا رأى الحواريون آياتِ الله تعالى تظهر على يد سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام طلبوا ان يُنْزِل الله تعالى عليهم مائدة من السماء. والمائدة هي الخِوان الذي

يقدم عليه الطعام للضيوف. ولكنْ من معرفة سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام بربه وبما ينبغي على عباده له، قال لهم ((اتقوا الله)) أي أن الله تعالى يريد منكم الإستقامة وليس طلب الكرامة. فلما الحّوا مع بيان معذرتهم استجاب لهم ودعا ربَّه، وربُّه أعلم بما سألوا، ولكنه تعالى أوحى مخاطباً إياهم بأنّ من يُنكر ويجحد هذه المعجزة سيكون عذابه مميزاً بالشدة عن عذاب غيره من العالمين. وفي هذا تحذير لكل مؤمن بأن لا يرتاب في قدرة الله تعالى وحكمته بل يستقيم على حُسنِ الظن به سواء جاءته كرامته ام حجبها عنه مدخراً اياها له، فالدعاء لا يخيب عند الله تعالى. وكان يوم نزول المائدة يومَ أَحَدٍ فصار عيداً لهم وصارت مناسبة نزول المائدة سروراً يعود بلا انقطاع.

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (118) قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (119) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (120)

مشهدُ صِدقٍ آخر من مشاهد يوم القيامة يُظهِر الله تعالى به براءة سيدنا عيسى عليه السلام من الإدعاء في نسبة الألوهية له ولأُمِّهِ من دون الله. وفي هذا معنىً موجّه الى الذين اتخذوه وأُمَّه إلَهينِ من دون الله؛ فالإستفهام استنكار وتعجب

من موقف الذين ادّعوا ذلك والله تعالى يعلم براءة المسيح عليه الصلاة والسلام من إدعاءٍ كهذا. وبنفس الوقت فالآيات تنبيه لأُولئك الذين لا يزالون ينسبون الأُلوهية للمسيح وأُمِّه عليهما السلام، ولا سيما للنصارى العرب الذين نزل القرآن بلسانهم، ليتدبروا ما ينبغي ان تكون عليه العلاقة بين الإنسان وخالقه تعالى. وها هو المسيح عليه السلام يُشْهِدُ مولاه تعالى على صدقه بتبليغ أمر ربه ما دام في قومه ويَشْهَد على ما عَلِمَه منهم في حياته بينهم ويفّوض امرَهم الى مولاهم تعالى الذي هو الرقيبُ عليهم بعدَه ليقرر خاتمتهم بعزته وحكمته. وبشره الله تعالى بالرضوان والفوز العظيم له ولمن صدق في العبادة الخالصة لله الذي لا شريك له في السموات والارض قديراً على كل شيء ولا قدرة لغيره الا به.

سورة الانعام

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (1) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ
تَمْتَرُونَ (2) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ
(3) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (4) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا
جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (5) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ
قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (6) وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ
كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (7)

ثاني سورة بعد الفاتحة تبدأ بـ(الحمد) الذي ندرك معناه تعظيماً وشكراً لله تعالى ولا ندرك مداه.كما أنّ غيرَ اللهِ تعالى عاجزٌ عن أي خلق، فكيف بخلق السماوات والأرض؟ ولا يتجاهل هذا الحمد والإنفراد بخلقهما إلا الكافرون الذين يعدِلون بربِّهم أي يجعلون له أندادا. واذا كانت السماء والأرض تراهما العيون، فكيف بالظلمة والنور؟ فاذا غشيت الظلمات شيئاً لم يدركه إنسان ببصره. وإذا كشف النورُ شيئاً فالنور لا يُدرَك بالبصر بل يُرَى المنظورُ بالنور. وينبّه تعالى بعد خلق السماوات والأرض الى خلق الإنسان من طين، وما قَضَى عليه من أجلٍ تنتهي عنده حياته، وأجلٍ آخرَ ليوم الحساب. والأجَلانِ من علم الغيب الذي هو عِلْمُ شهادة عند الله تعالى. وبعد ذلك يواجه تعالى أهل الكفر بخطأ موقفهم مع عظمته بعدما عرفوا انّه تعالى عليمٌ بما تُكِنُّ صدورهم وما يعلنون. ويواجههم

بجحودهم للحق ويتوعدهم على ذلك بجزاء عادل مُذَكِّراً إياهم بمصير من سبق من المكذبين وكانوا أكثر تمكناً وثراءً فأهلكهم بذنوبهم. ويعود سبحانه على أهل الكفر بالذمِّ مبيناً علمه عنهم بأنهم لو أنزَل عليهم كتابا من السماء ولمسوه بأيديهم لنسبوا ذلك للسحر بينما السحر من المتخيلات غير المحسوسة ولا أثر له إلا أن يشاء الله شيئا يفتن به الكافر.

وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (8) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (9)

مِن خصائص اهل الكفر معاندتهم بالحجج الواهية. وها هم يطلبون نُزول مَلَكٍ بالرسالة. وتدلنا الآيات القرآنية على نزولهم بأمر الله تعالى لِما يشاء فإذا كان نزولُهم لأمر قد قُدِرَ على أهل الكفر لنَزَلوا بنقمةٍ من العزيز الحكيم عليهم فلا يؤخَّرُ عنهم العذاب. ولو أراد الله تعالى نزول مَلَكٍ بالرسالة على مرآى من البشر كما طلبوا لأنزله على هيئة رجل يرونه. وعند ذلك يلتبس عليهم هل هو مَلَكٌ أم أنه رجل؟! وهكذا إلتبس عليهم حق الرسالة فكذّبوا صاحبها. وفاتتهم فرصة الايمان التي جاءتهم من رحمة الله تعالى وحِلمه لتكون سببا لنجاتهم، أو حجة عليهم.

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (10) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11) قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (12) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (13)

كثيرون إستهزأوا برسلِ الله تعالى قبل بعثة سيدنا محمد عليهم الصلاة والسلام فذكر الله تعالى له ما حاق أي أحاط ونَزل بالمكذبين تسليةً تخفِّف وقع التكذيب عليه. وطلب المولى تعالى لهؤلاء المكذبين أن يعتبروا وأن يتفكروا في خلق السماوات والأرض وعائديتهما لكي تَتَبيّن رحمة الله تعالى في حِلمه ورزق خلائقه وفي قدرته على جمعهم في يوم موعود لا يرتاب فيه إلا من كذبوا بالحق مع وضوح حجته هذه في ملكوته سبحانه. وبذلك خسروا كل ما اعطاهم الله تعالى من نعماء الدنيا والآخرة بخسارتهم أنفُسَهم التي لم تسكن الى طمأنينة الايمان. والسكون يكون بعد حركة، ويقصد بالحركة وجود الحياة التي هي من الله تعالى في حركتها وسكونها وفي يقظتها ونومها. وهذه من صميم الآيات الدالة على قدرته تعالى. إذ لا يملك السكون من لا يملك الحركة.

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (14)

الولي هو الذي يلجأ اليه الضعيف وعادة يكون الولي ذا قوة ومال فيحمي وليّه من عدو ومن فقر. ولكن الانسان في ذلك محدود وقد لا يتمكن في ساعة ضعف من قهر اعدائه واعداء اوليائه او من النفقة عليهم. فمن عرف سعة رحمة الله تعالى وقدرته لا يتردد ان يتخذ الله تعالى وليا. والتردد في ذلك شرك لأنه يدل على التفضيل. والفاطر هو الذي ابتدأ الخلق من عدم فمن الذي يفضل عليه احداً من خلقه! وهم لا يملكون لأنفسهم الحياة والرزق!

قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (16)

عذاب يوم القيامة يختلف عن عذاب الدنيا كإختلاف الآخرة عن الدنيا لأن عذاب الآخرة فيه عذابُ خسارةِ الجنة مع عذابِ النار. ومن هذا كان عظيم الوقع على الخاسرين. فإذا صُرِف عن عبد من العباد، برحمة من الله تعالى، كان فوزا مبينا أي واضح القيمة والنجاة والنعيم. وفي الاية إشارة الى من يُصرف العذاب عنهم وهم من أسلموا ولم يشركوا.

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (18)

من أوجه وضوح كمال حكمة الله تعالى هو تقدير شؤون عباده فهو يبتلي اَولياءه وأعداءه إمتحاناً لهم. ويكشف البلوى إنْ شاء فلا مانع لذلك. وقد اعد سبحانه من لطفه كل اسباب ارادته في ذلك قبل حصولها فهو يُظهِر لعباده ما سبق له علمه به ابتداء. والخطاب موجّه للرسول صلى الله عليه وآله وسلم لفظا وموجّه للخلق معنىً. فما على العبد إلا أنْ يتخذ اللهَ تعالى (بالعمل الصالح) ولياً يقيه السوء ويصرفه عنه ثم يحمد الله تعالى على العافية من البلوى. أمّا قهرُه تعالى في ذلك: فالقهر فوق الصالحين هو الحماية من الشقاء، والقهر فوق الكافرين (ما لم يتوبوا) هو ما أعدّ لتكذيبهم في الدنيا والاخرة ثم يكتب عليهم ما استوجبوه على انفسهم من غير ان يمنعه مانع او ينفع معه جِدٌّ او اجتهاد بكمال الحكمة وصحة الخبرة، وآخر حياة الجميع يقهر عباده بالموت.

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (19)

يوجِّه المولى تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم إلى أنّ الله تعالى أكبر من يشهد بين رسوله وبين مشركي مكةَ فلا توجد شهادة أكبر من شهادته سبحانه وقد أوحى هذا القرآن نذيراً منه سبحانه إلى يوم الدين لمن يشهدون بأن مع الله آلهةً أُخرى. والرسول لا يشهد إلا أنما المعبود الحق هو الله إلهاً واحداً. وعليه أن يقول ذلك لمشركي مكةَ ويعلن لهم براءته مما يشركون. وفي التفاسير دعوة لمن إتّبع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يدعو وينذر مثلما دعا وأنذر.

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (20) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (21) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (22) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (23) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (24)

ورد في الكتب الْمُنْزَلَةُ أوصافُ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مع الدلالة على زمن بعثته وهجرته والتعريف بأُمّته. وجاءت هذه الدلالة إلى أهل الكتاب لكي يعرفوه فيربحوا بالإيمان به فمن خسره بالكفر فقد خسر نفسه. ويحمل هذا الكفر حالتين لأشدِّ الظلم: هما حالة الإفتراء على الله تعالى بأنه لم يُنْزِل القرآن الكريم، وحالة التكذيب بما في القرآن الكريم من آيات الحق، وهي آيات يعجز سوى الله تعالى عن الإتيان بمثلها. ويخاطب الله تعالى المشركين مُذَكِّراً إياهم بمشهد ندامتهم

يوم الحشر إذ يسألهم عن موقع شركائهم فينكرون شركهم كذباً على أنفسهم كما كذبوا في الدنيا. فتكون فتنتُهم هي جوابهم بإنكارهم الشرك أمام من لا يخفى عليه ما يكتمون.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (25) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (26) وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (27) بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (28)

استمع مشركون من قريش وفيهم النضر بن الحارث بن كلدة الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتلو القرآن فالتفت بعضهم ينظر الى بعض نظرة حيرة واستفهام حتى قال أحدهم للنضر: ما يقول محمد؟! فقال: "والله ما ادري ما يقول إلا انه يحرك لسانه ويقول اساطير الاولين مثلما حدثتُكم عن القرون الماضية". وكان هذا يأتيهم بأساطير الفرس الغابرة. ولقد كانوا من فصحاء العرب، والقرآن آيات بيّنات بِلُغَتِهم، فلا بد من سببٍ حَجَبهم عن فهم ما سمعوه. فبين الله تعالى السبب: بأن القول لم يصل الى قلوبهم لعدم اهليتها للانتفاع به. فجعل الله جل جلاله على هذه القلوب أكِنّةً أي اغلفة مغلقة فهي سوداء مظلمة بما يملؤها من سوء وخبث. وكذلك اذا رأت ابصارهم شيئا فيه آية نقلت الى القلب تعليلا خاطئا بأن ما رأوا باطلٌ لا يمكن الايمانُ به. ومن هذا الزيغ بدأوا بالجدل منطلقين بفهمهم الخاطيء الذي أحال الايات البينات الى إعتبارها اساطير الاولين حالها حال ظنهم بالدعوات

التي سبقتها من الرسل لأنّها تدعو للحياة بعد الموت وهذا في فهمهم اسطورة. وبهذا الخطأ اخذوا (ينهون عنه) أي يصدون الناس و(ينأون) أنفسهم عن الحق وفي هذا هلاكهم ولا يشعرون. وهنا يذكّرهم سبحانه وتعالى بمشهدهم يوم القيامة وندامتهم وامانيهم بأن تعود اليهم الفرصة. وهنا يبين تعالى أنه إنما اماتهم كفارا من علمه بالغيب بانهم اذا اعيدوا للحياة الدنيا لعادوا لما نهوا عنه ولو علم تعالى انهم يتوبون لتاب عليهم قبل الموت فأبْدَى لهم ما كانوا يضمرون من عداء للاسلام فيعلمون عندئذ انهم كانوا كاذبين.

وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (29) وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (30) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (31)

وهكذا يبين سبحانه للرسول صلى الله عليه وآله وسلم مشهدا لاحقا لما سبق من مشاهد البعث والحساب اللذين انكروهما بإصرار في حياتهم الدنيا وها هم يقرّون بحقيقتهما وانهما ليس اسطورة فَيُتْرَكون في العذاب على كفرهم. وهناك مشهد آخر ساعة الموت وحسرة الندامة التي لا ترتد اليهم الى يوم القيامة على ما خسروا بهذا التكذيب وقد اثقلت خطاياهم البالغة في السوء ظهورهم فيكون عذاب حسراتهم سابقا لعذابهم بالنار في جهنم.

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (32)

الخير في التقوى، فإذا خلت الحياة من التقوى فقد بقي اللعب واللهو فيها. والاخرة هي حصاد ما يزرعون فمن زرع الايمان والعبادة حصد الجزاء الاوفر ومن زرع اللهو واللعب والكفر حصد سيئات يحملها وتدفعه الى بئس المصير. انظر شرح الاية العشرين من سورة الحديد ففيها مزيد.

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (33) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (34) وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (35) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (36)

لا يخفى على الله تعالى شيء فهو يرى رسوله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) يلقى من اهل الكفر ما يُحزِنه فيبين له من اسباب الصبر والتسلية ما يخفف عنه. فمن ذلك أنّ أهل الكفر ليس عندهم دليل على كذبه. ولكن ظلمهم دفعهم الى جحود ذلك، ولا سيما انهم رأوا في ما دعاهم إليه تسفيهاً لِمَا وجدوا عليه آباءهم، ودعوةً للإيمان باليوم الآخر والحساب فيه وهذا ما كفروا به. وقد روى الحاكم عن علي كرم الله وجهه قال: "قال ابو جهل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: إننا لا نكذّبك ولكنْ نكذّب ما جئتَ به". وبهذا فقد جحدوا بآيات الله. وجاءت تسلية أُخرى من اخبار الرسل الذين كذبتهم اقوامهم فنصرهم الله تعالى. فما عليه إلا أن يصبر على مشيئة الله التي لا تُرَدُّ في حكمةٍ كشفها له ليبين له أنْ سيكون هناك من يسمع ويجيب، كما أن هناك من مات قلبه. والامر بيد الله تعالى. ولهذا

لا ينبغي أن يرى إعراضهم ذا أهمية فلا حيلة له في الأرض أو في السماء لِهُداهم. ولو شاء الله لجمعهم على الهدى. وهذا ما ينبغي أن لا يجهله صلى الله عليه وآله.

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (37) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (39)

لم يطلب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم من ربه نزول الايات لِمَا في عاقبتها من عقاب شديد لمن سيكذِّب بها كما في قصة المائدة. إلا أنّ أهل العلم يرون المهم من الآية قدرة الله تعالى. وهذا هيِّنٌ على الله سبحانه فما من شيء عسيرٌ عليه فقد خلق دواب الأرض وطائر السماء مع قدرته على ان يحشرهم اليه. ولكن المكذبين قد تركتهم ظلمات قلوبهم لا يسمعون ولا يبصرون. ولو كانوا أهلاً للهدى لجعلهم تعالى على صراط مستقيم. فمن لا ينفعه سمعه ولا ينفعه بصره، إلا لِحاجات الدنيا وما تهوى نفسه من لهو ولعب، فكأنه قد فَقَدَ السمع والبصر. ولله تعالى مشيئتُه الحكيمة في إضلالهم، وله مشيئته الرحيمة في الهدى إلى صراط مستقيم.

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (40) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (41)

الذين يشركون غيرَ الله بالعبادة ويتخذونهم أولياء من دونه إذا فاجأتْهم أهوال العذاب الرباني او الساعة لا يحضرهم من أسباب الخلاص إلّا اللجوء الى من له

القدرة على نجاتهم وهو الله تعالى وحده فعندئذٍ يُفْرِدُونه بالدعاء وقد خرج من ذاكرتهم ما كانوا يعهدون من صنم او وثن او طاغوت. وينالون من مشيئة الله تعالى كشفَ العذابِ أو رحمةً اخرى. وهذه تذكرة؛ فالداعي الذي نسي غير الله في الشِدَّة ويعلم قدرة الله على كشفها عليه ان يفرده بالعبادة كما أفرده بالدعاء. فالعبادة في الرخاء رصيد للشدة التي تتطلب انتظار الفرج املاً برحمة أرحمِ الراحمين.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (43) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (45)

لا يترك الله تعالى عباده من غير هدى. فمن أوجُهِ هدايته أن يرسل الرسل بين الأُمم فعندئذ يمتحنهم إن أبطأوا فيأخذهم بالبأساء كالفقر وبالضراء كالأقدار لعلهم يتضرَّعون ويهتدون. فمنهم من قست قلوبهم وأصروا على ضلالهم فيمتحنهم برغد العيش ليظهر لهم تصرفهم مع نعمته فبدلا من الشكر قد ينصرفون عنه الى الفرح والبطر. فإذا جاءتهم الإرادة الربانية بسلب ما هم عليه نسوا رحمة الله قانطين قنوط الكفار لم يحسنوا الظن بالله. واستحقوا بظلمهم الهلاك. وقد روى الامام احمد عن عقبة بن عامر قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((اذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو إستدراج)). أي يستدرجه لإقامة الحجة عليه.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (46) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (47) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (48) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (49)

يذكر المولى سبحانه بنعم منحها من أجل عبادته. وقد ارسل الرسل وأرشدوا الخلق الى معرفته لعبادته وطاعته بالإستماع للوحيِ، وبالتبصر للحق دون الباطل، وبفقه القلوب والعقول. فإذا انشغل السمع عن الهدى وانصرف البصر عن الحق وزاغت القلوب بحب الدنيا والركون اليها ونسيان الاخرة فكأنما سُلِبوا نِعَمَ السمع والبصر والفؤاد فإذا بهم لم يتزَوَّدوا للمُفاجِئ من الأقدار. ولا يهلِك إلا الذي لا زادَ لديه. وهكذا لم تنفع الرسالات والنُذُرُ إلا الذين وَعَت قلوبهم حقيقة الايمان فعملوا بنوره صالِحَ العمل فكان زاداً لهم لا يخافون معه ولا يحزنون حزن من فاته الخير بالتكذيب والفسوق.

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (50) وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (51) وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (52) وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (53) وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ

عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (54) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (55)

لا يمكن لبشر ان يتجاوز ما خوَّله الله تعالى، ولا سيما عِلْمُ الغيب الذي قد يكشف منه المولى عز وجل لرسولٍ مِن الرُسُلِ مِن أجل البشارة للمؤمنين والنذير للمكذبين. وهكذا أمَرَ المولى عز وجل سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ان يبين للمكذِّبين كونَه بَشَراً وليس مَلَكاً وانه انما يتبع ما يوحَى إليه، وانهم لو تفكروا بصدقِهِ لتفتحت بصائرهم فهم كالعُمْيِ الذين لا يستوون مع من آمن ففتح الله تعالى لهم سبيل الهدى ونفعهم النذير فأشفقوا ان يخسروا رضوان الله تعالى يوم لا يكون بينه تعالى وبينهم وسيط يشفع لهم. واوصى تعالى بهم وقدِ الْتَفُّوا حول رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأن يبقيهم على قربهم منه. وكان بعض رؤوس الكفر من قريش قد مرّوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورأوا حوله من كان هؤلاء الكفار يستضعفونهم وفيهم بلال وعمار وصهيب وخبّاب (رضي الله عنهم) فاستكبر هؤلاء الكفار عن الاختلاط بهم وطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يبعدهم عنه لكي يتسنى لهم الجلوس اليه وقالوا: "أهولاء منّ الله عليهم من بيننا؟" وكانوا يقولون للرسول صلى الله عليه وآله وسلم "أرضيت بهؤلاء" ؟ فانزل الله تعالى آية الثناء بحق هؤلاء المؤمنين. وقوله تعالى: ((لعلهم يتقون)) أي ان الله تعالى علم من ضمائرهم استعداداً للهدى بالخوف والرجاء، خلاف من قست قلوبهم فلا يؤثر فيها النذير. واما طرد المؤمنين كما اقترح رؤوس الكفر، فقد أبدله الله تعالى من ذلك بتحيتهم اذا أتوه مؤمنين، وببشارة لهم بالمغفرة والرحمة بعد أن تابوا من الشرك

وأصلحوا العمل. وهذه بشارة عامة لكل مؤمن تاب واصلح. وبهذا اوضح تعالى سبيل المجرمين المستكبرين الذين يخسرون المغفرة والرحمة.

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (56) قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (57) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (58) وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (59)

القول الذي أمَرَ اللّهُ تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم أن يقوله لرؤوس الكفر اولئك انما هو جوابُ عالمٍ بالسرائر. فقد أجابهم عما في أنفسهم. وقطع عليهم طريق كيدهم الذي ارادوا به فتنة المؤمنين ليرتدّوا عن الاسلام الى دين آبائهم، وكشف تعالى لهم مدى وضوح الحق للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وللمؤمنين وكشف لهم مدى ضلالتهم إذ كذَّبوا به. وأمَرَه الله تعالى ان يوضح لهم بأن الله تعالى هو الحاكم بما تحدَّوا ان يفعله بهم. فهو تعالى اعلم بما يبرم فيعجل وبما يمهل فيؤجل. ولو كان الامر موكولاً للرسول صلى الله عليه وآله وسلم لاتّخذ بحقهم ما يردعهم. وأمّا (مفاتِحُ) الغيب هي إمّا جَمْعُ (مِفْتَح) بكسر الميم وفَتْحِ التاء وهو الإلمام بالْمُغَيَّبات عن البشر، أو جمع (مَفتَح) بفتح الميم والتاء، وهو الأمرُ بحدوث ما كان مغيبا عن البشر عندما يريد المولى عزّ وجَلّ أنْ يُبْديَه. فالمغيبات عنده معلومة. يعلم ما تخفي الأيام وما تُخفي الصدور وما تخون العيون وما تحجبه الأرض من رزق مقدَّر وما تحجبه البحار من مَكْنوناتها. ويعلم ما كان وما يكون من الأزل

إلى الأبد. وهذا يدعو الكفار الى الكفِّ عن طلب الخوارق فإنها ليست من قدرات البشر ولا تحدث إلا بمشيئة العليم القدير في الزمن الذي يختاره لحدوثها.

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (60) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (61) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (62)

روى ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله ((مع كل انسان مَلَكٌ اذا نام أخَذَ نَفْسَه ويردُّها اليه فإن أذِن الله في قَبْضِ روحه قبضها وإلّا تُردُّ اليه)). وعندما تؤخذ النَّفْس لا يحصل الموت بل تتوقف فعاليّات الحواس من سمع وبصر واحساس حتى يرد الله تعالى هذه الهبات وهكذا الى نهاية العمر. ولا تتوقف الحياة في النوم. أما في الموت، فإنّ النفْسَ التي تُتَوفّى تُبْعَثُ فتعود لها بصيرتُها لينكشف لها ما ينبّؤها الله به مما كانت تعمل. وهكذا قَهَرَ الله تعالى عباده بالموت وبما بعده، كما قَهَرَه في الحياة لِيَبْتَلِيَه، وقهر حواسه في نومه. وفي كل ذلك لله تعالى جندٌ يرسلهم لتنفيذ أمرِه بالحفظ الى نهاية العمر وعند ذاك يؤمرون بإستدعائه الى ربه فلا يفرطون أي لا يقصِّرون أو يُمهِلون. وكما بدأه يعيده الى فطرته الاولى فيعلم ان المولى الحق هو الله وحده له الحكم في المغفرة والحساب. وهو اسرع الحاسبين.

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (63) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (64)

من أمثلة القهر الرباني حصولُ المواقف التي يغلب فيها على المشركين اليأسُ ويتوقَّعُون الهلاكَ و يأمُلون النجاة فلا يرون قدرةً لها سوى أمْرِ الله تعالى. فيتضرعون أي يدعون رافعي أصواتهم، او يدعون خُفيةً في حديث قلوبهم، وينسَوْنَ ما يُشرِكون، ويعاهدون على أن يكونوا من الشاكرين إن أنجاهم الله تعالى. وهنا يوجِّه المولى تعالى رسولَه صلى الله عليه وآله وسلم أن يسألهم: "من ينجيكم من ظلمات البَرِّ والبحر"؟ وأن ينفي فعل ذلك من قِبَلِ غيره فيقول "ألله ينجيكم منها ومن كل كرب" فالنجاة لا يملكها أحدٌ سواه "ثم أنتم تشركون" السِّوَى به سبحانه!

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآَيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (65)

العذاب الذي من فوق فُسر على أنه الصواعق، والعذاب الذي من تحت الأرجل فُسر على أنه الزلازل. (وها هي أشكال جديدة من فوق مع تَقَدُّمِ العلم كالقاذفات والصواريخ، وكذلك من تحت الأرجل كالألغام). أما العذاب الأهون فهو الخلاف بين الفئات الإسلامية. وروى البخاري عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله: ((هذه أهون وأيسر)). ويحصل الخلاف بتفاوت العقول مع الحق وبإدخال البِدَع. فإذا صفت النفوس وسلمت القلوب يحصل فقه الحقائق والرجوع إلى حكم الله تعالى بإذنه. وآيات الله تعالى سبب لفقه القلوب وللتقوى لوحدة الكلمة لمن لا يريد رفعةً في الأرض ولا يغار لنفسه اكثر من غيرته على الدين وإعلاء كلمة الله تعالى.

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (66) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (67) وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (68) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (69)

تزيغ قلوب المكذبين فلا يرون الحق حقّاً. وقد جاءهم البلاغ الذي كلف الله تعالى به رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يجعله وكيلا عليهم أي مسؤولاً عن إيمانهم ولم يُترَكوا على ما هم عليه فسوف يعلمون أنباءَ أمرِهم وعاقبتَهم فيه. واما خوضهم في آيات الله تعالى فقد كان منصبّاً على التكذيب بالعذاب بعد الموت، والشك في القرآن الكريم، وتَحَيُّنِ الفرصةِ للتحدث بذلك اذا اجتمعوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وما على المتقي من حسابهم من شيء وعليه أن لا يَجْلِسَ إلى من يخوضون في آيات الله تعالى تكذيباً بها أو إنكارَ بعضِها او إستهزاءً بها، بل يتركهم تحقيراً لهم لعل عقولهم تدرك بطلان موقفهم فيتعرَّفون الحقَّ ويتقون العذاب.

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (70)

بعد ذكر الذين لم يعقلوا معنى الدِّين اذ دُعُوا اليه بل غرتهم الحياة الدنيا، أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأن يُقْبِلَ على من لم يبلُغْه الدين وأن يذكِّرهم بالقرآن لتحذيرهم من مصير لا محيد عنه لمن ينكره، أي أنّ الْمُنكِر يسلم نفسه للعذاب، وهذا معنى (تبسَل نفس بما كسبت) فالكافر بما جاءه من بلاغ سيلقى المصير فلا يَجِدُ من دون الله من يسعفه وينجيه منه.

قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (71) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (72) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (73)

بعد أن آمن كثير من الصحابة رضوان الله عليهم وذلك قبل الهجرة، إنبرى بعض أهليهم وأبناء بعضهم يدعونهم للعودة إلى دين آبائهم. فوجّههم رب العزة إلى إجابتهم: "أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا.." إلى آخر الآية. بينما يكون المؤمن قد سمع من قافلة الاسلام صحبا يدعونه للعودة الى ركبهم ويؤكدون له أن الهدى منحصر بما دل عليه الله تعالى. وفي الآية الثانية أمر تعالى بالتمسك به وبفروضه مع التقوى، أي اتخاذ ذلك وقاية من الزيغ، حتى يلقَوه في يوم الحشر. ويذكِّرهم تعالى بما عليه جنابُه من الحق الذي سبق خلق السماوات والأرض وبه خُلِقن وبما يملك من أمر وأمرُه كلمح البصر. ولا يكون لغير الحق نصيب يوم ينفخ في الصُور (والصُّوْرُ أشبه بالبوق الضخم ينفخ فيه إسرافيل) لجمع الخلائق يوم القيامة فلا يخفى على الله منهم شيء مما غاب عنهم وما شهدوه في حكمةٍ من الله تعالى وتمام العلم في خبرته. وهو الحكيم الخبير.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (74) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ

مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81)

أظهر الله تعالى موقف سيدنا إبراهيم عليه السلام كَمَثَلٍ واضح في ترك إستجابة المؤمن لأيّ دعوة تخرجه عن الايمان الحق بعد أن عرفه واهتدى إليه بهدى الله الذي هو الهدى رغم ان الذي دعاه كان أباه بالذات. فأنكر على أبيه ضلالَه. وواجه قومه بالحجة القوية في ضرورة ترك غير الخالق ثم الإتّجاه الى الخالق الجليل. وانكر عليهم تهديدهم إيّاه ببطش الآلهة الموهومة ونسب التقدير للمولى القدير وبذلك يطمئن آمناً عالما بما خص الله تعالى عباده المؤمنين به من وقاية وحفظ ونصر. ولنا وقفة مع ترك حب الآفلين إذ يذكِّرنا الأُفول بأُفول الحياة الدنيا وترك حبها.

الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83)

أوضح الله تعالى أنّ الإخلاصَ في العبادة في السرِّ والعلانيَةِ يوفِّر للمؤمن أمْناً في نفسه وسلوكه وأمْناً في تصرف الناس معه. وقد روى إبنُ مَرْدَوَيْهِ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله ((من أُعطِيَ فشكر ومُنع فصبر وظَلَمَ فاستغفر وظُلِمَ فغفر)) وسكت صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: "يارسول الله ما لَه"؟ قال: ((أُولئك لهم الأمن وهم مهتدون)). وهكذا بيّن لنا الله تعالى في حجة سيدنا ابراهيم

عليه الصلاة والسلام رفعة الدرجات أي الدرجات التي لا ينالها خوف من غير الله تعالى.

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (85) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (86) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (87) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (88) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (89) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (90)

اورد الله تعالى هنا اسماءَ عديدٍ من الانبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه وبيّن انهم مُفَضَّلونَ على العالمين ومهتدون الى الصراط المستقيم ثُمّ بيَّن لنا سبحانه مقصدا مهمّا في العبادة وهو إرادتُه تعالى في أن تكون أعمالنا لوجهه الكريم وفي تَرْك العمل لوجه غيره. ولو أن أحدهم طلب غير أجر الله تعالى لَحَبِطَ عملُه أي لا يوضع في ميزان الحسنات. وهكذا اوضح تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم عاقبة من يكفر بالكتاب والحكمة والنبوة وأوضح بأن يجعل لهذه الهبات من يخدمها مؤمنا. ثم امره الله تعالى ان يبين لمن دعاهم للايمان ان لن يطلب منهم اجراً بل يبدأ بهم ليذكِّرهم ثم تكون الذكرى من بعدهم للعالمين من الانس والجن. وقد حقق الله تعالى نصراً للدين قبل الهجرة بأصحاب العقبة من الانصار الصادقين إذ بايعوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ودعوه إلى الهجرة إلى المدينة. وهذا وعد قائم الى

قيام الساعة فمن يكفر بالايمان ويخذل الدين فإن الله تعالى ينصر دينه بقوم آخرين.

انظر شرح الاية الثالثة من سورة الجمعة.

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (91) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (92)

من كانت معرفته بالله تعالى تتفق مع العظمة الربانية لا ينسب لغير الله تعالى أي اثر في ما يجري من أمور فيؤمن بالرُسُل. لأن المولى تعالى أراد ان يُعرف ثم يُعبدَ بعد ان يُعرَف. ولا يُعرف إلا عن طريق الرسل الكرام. وفي هذا المعنى ردٌّ على كفرة اليهود الذين قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء. وردٌّ على كل من إدعى ذلك من أهل الجهالة في الوقت الذي فيه آمن مؤمنو اليهود بكتاب الله الْمُنْزَلِ على سيدنا موسى عليه السلام. وكان موقف فاسقيهم وكُفّارِهم أن أخفَوا كثيرا منه وجعلوه قراطيس. وجاء سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالقرآن الذي يصدق ما جاء به موسى وعيسى عليهما السلام، نذيرا للبشر الى يوم الدين فمن آمن به آمن باليوم الآخر وحافظ على الصلاة هي شعار الإيمان. وهكذا وَكَلَ الله تعالى خيرَ أُمّةٍ بالنبوة بعد زيغ من سبقها.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ

وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (93) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (94)

جعل المولى القديرُ مصيرا مخزيا للذين ادعَوُا النبوة كذِبا من أمثال مُسَيْلَمَةَ الكذاب. وجعل النصر للصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم. كما أنه سبحانه جعل الإفتراء على الذات الإلهية بغير الحق إستكباراً وظلماً ما بعده ظلم. وجعل للكذب والاستكبار ساعةً لجزاء المدعين المستكبرين تشرع فيها الملائكة بإخراجِ أنفُسِهم كارهين الى هوان وفقر بلا زاد ولا شفيع تاركين ما خُوِّلُوا، فكيف يكون حال من لا قوة له ولا مدد من غيره ازاء الحجة القوية والقوة القاهرة التي استكبر عن نيل رحمتها في حياته الدنيا فلم ينلها في الآخرة، وها هم فيها فرادى لا يجدون صلة تمدهم بعون من شركائهم المزعومين. وهكذا تبينت لهم أوهامهم وخطأ زعمهم في حياتهم الدنيا.

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (95) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (97) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (98)

الظواهر التي ذكرها رب العزة دليل على قدرته فهو الخالق العظيم. اذ لا يمكن نسبة أثر فيها لغيره وقد فصّلها تعالى لإثارة التفكُّرِ فيها والاستدلال منها على عزته وعلمه فقال: لقوم يعلمون. ثم ذكر خَلْقَ الانسان وتناسُلَه لينبّه ذوي العلم الى فِقْهِ

حقِّه تعالى في الإنفراد بالربوبية. فمن إدّعى لله أنداداً لم يفقهْ وضلّ وأشرك. وهكذا يتميز المؤمن بأنه قد فَقِه أي فهم وأصاب الحقيقة التي لا لَبْسَ فيها. (فَقِهَ بالكسر تخصُّ علوم الشريعة، وفَقُهَ بالضم: إتسع في العلوم والبحوث).

وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99)

نزول الماء من آيات الله تعالى جاعلاً إياه سببا لإخراج النبات ليظهر من قدرته ما لا ينبغي لغيره. فالمؤمنون يعلمون أن الذي وهب الحياة يديمها بما تنبت الأرض وهذا يثبت وحدانيته وغناه عن الشريك الموهوم والولد.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (100) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101)

مع علم المشركين أنْ لا قدرة لبشر على فعل ما يبدو لهم من ظواهر الحياة فقد ادّعَوا للجن قدرةً على فعل الخوارق ولجأوا اليهم في بعض امورهم ولم يتفكروا في الجن: مَن خلقهم؟ ونسبوا كذبا لله البنين والبنات فادّعَوا بأن الملائكة هم بنات الله! وادّعى غيرُهم من المشركين ببنوة البنين له. وليس لهم علم بأصل هذه الفكرة. فنَزّه المولى تعالى ذاتَه الجليلةَ عن هذا الوصف وبيّن انه مُوجِد ما لم يكن في الوجود معه فهو ليس بحاجة إلى ولدٍ. ففي نسبة ذلك له إشارة إلى حاجته للولد ولا يمكن ان

يُنْسَبَ له هذا النقص فهو لا يغيب كي يخلفه ولد ولا حاجة له كي يقضيها الولد. وهو سبحانه نور السماوات والأرض ليس له عناصر يتولد منها غيرها وهو صمد أي لا تنسب اليه أجزاء وليس كمثله شيء. والأحياء مخلوقون من عناصر الطبيعة ولا يملكون السمع والبصر والحركة والحس في حياةٍ الا بهذه العناصر التي نفخ الله تعالى فيها الروح. فما أبعدَ المشركين عن فِقْهِ قَدْر الإله العليم العظيم الغني عن مخلوقاته التي عُرِف بها ودلّت على وحدانيته سبحانه.

ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (102) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103) قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (104) وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (105)

بعد أن أشار الله تعالى إلى وحدانيته وتفرُّدِه وهو غنيٌّ عما خلق دعا إلى عبادته أي إلى حقِّه في إفراده بالعبادة وكونه وكيلاً على ما خلق، لا تدركه الأبصار لأنها ترى الأشياء التي ينعكس عليها الضوء وهو تعالى ليس كمثله شيء. وهكذا نبّه الى ما لا تدركه الحواس بأن يُدرَك بالفهم الذي هو رؤية القلوب وبها تُفهَم البصائرُ (أي البراهين) في معرفة حقيقة الوحي. فمن أبصرت قلوبهم وآمنوا نجوا بأنفسهم من عمى القلب. ومن تجاهلوا براهين هذه الحقيقة فقد اعموا قلوبهم عنها. وقد أعفى الله تعالى النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المسؤولية عن هؤلاء إذ لا يملك إكراهَهُم ولا هُداهم. وكذلك يبين الله الآيات، أي مقاصد القرآن، ولِيُنْسِبَه المكذِّبون الى تدريس البشر بينما يُظْهِرُ المولى سبحانه الحقيقةَ لقوم صفت قلوبهم بمعرفة الحقِّ الذي بيّنه تعالى لهم فيه.

اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (106) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (107)

الخطاب موجّه لفظا للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وموجّه معنى لكل مؤمن. وهذه الايات كانت ايام الدعوة في مكة المكرمة قبل الهجرة. وبذلك كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أُسوةً حسنة للمؤمنين في إعراضهم عن المشركين وفي تركِ أمرِهم لخالقهم الذي لو شاء لعافاهم من الشرك. ولكن لم يتحملوا الايمان لأنهم حملوا غيره ولأنهم بقَوا في غيّهم. وما على الرسول إلا البلاغ. فلا يُسأل عن حفظ أقوالهم وأعمالهم. وهكذا عليه أن لا يأبه لموقفهم المعاند.

وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (108)

اعتبر كفار قريش الدعوة المحمدية تسفيها لعقولهم وإهانةً لمقدساتهم. فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (كما رواه البخاري) ((لتَكُفَّنّ عن شتم آلهتنا او لنشتمنّك ونشتمنّ من يأمرك)). وبذلك ظنوا أنّ الامر ليس من الله تعالى. وهكذا كان حرصهم على التمسك بآلهتهم مانعاً لهم من الايمان اذ رأوا ذلك منهم حسناً فزُيّن في قلوبهم بينما زيّن المولى عز وجل للمؤمنين ايمانهم فاحبوا بذل النفس والمال لإعلاء كلمة ربهم. وسيتضح لأهل الزيغ خطأ اعمالهم عندما يرون أثر رضوان الله تعالى على اعمال اهل الايمان يوم يرجعون جميعا اليه.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (109) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (110) وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (111) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (112) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (113)

بعد أن سمع رؤوس الكفر والشرك في مكة بما جاء في القرآن من آيات ومعجزات أظهرها الله تعالى على ايدي الرسل، مثل عصا موسى وناقة صالح عليهما السلام، وجدوا فرصة لِتَحدِّي رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم بأنهم سيهتدون اذا جاءتهم آية خارقة للعادة بطلب منه. ولم يفطنوا الى سمو الحق الذي جاءهم به في كتاب الله تعالى مما لا يحتاج لآية. فأوحى الله تعالى إليه أن يَذْكُرَ لهم حجةً تعيها العقول النيّرة: بأن الآيات هي من أمْرِ الله ومتروكة لمشيئته. وأنهم قد ينكرونها اذا جاءتهم حتى وإن كانت قُبُلاً أي كثيرة متعددة ويرونها عِيانا. واستحقوا الزيغ وخطأ رؤية القلوب اذ لم يؤمنوا بما وضح لهم من حقٍّ أوّلَ ما جاءهم. ولهذالم يشأ الله تعالى ان يعيد اليهم الفرصة. فلو انهم آمنوا أول ما جاءهم الحق لاسْتقامت قلوبُهم من غير آية ولكن كفرَهم أول مرة صرف قلوبهم الى زيغ لا تنفع معه الآيات فتاهوا في طغيانهم. وكيف تنفعهم آية طلبوها تحدِّياً ومَكراً منهم؟ وكيف يستحقون من الله مشيئته بهداهم؟ وهكذا ميّز الله تعالى اعداء رسله وانبيائه ودعاهم بالشياطين همُّهم أن يعاندوا فاختاروا لذلك من القول ما ظاهره منمقٌ وباطنه تحدٍّ ومعاندة. ولا

ينخدع به الا من زاغ قلبه فلم يؤمن باليوم الآخر ورضي بالكفر فيصغى له ويقترف ما يمليه عليه كفره من سيئات الهوى الضال. فما على الرسول واجب اكثر مما بلّغ. ثم يتركهم لمصيرهم.

أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (114) وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (115)

القول موجّه للمشركين على لسان الرسول بأنه صلى الله عليه وآله وسلم لن يبتغي غير الله تعالى حَكَمَاً أي لا يُفَضِّل على كتاب الله حَكَماً آخر فهو حُكم الله في الأحكام والحلال والحرام وسبل العبادة. وقد وردت البشارات به في كتب اهل الكتاب فعَلِموا بصحة نزوله من الله تعالى بالحق. فكيف يجادل المشركين وقد ختم الله تعالى به الرسالات وجاءت به البشارات فالأمر الموثوق لا يحتاج الى ممارة فما لا ريبة فيه لا مِراءَ فيه. وقد وضح صدقه في ما أورد من خبر، ووضح طلبه العادل بالعدل فكان خبره صدقا في القول والوعد، وطلبه عدلاّ في الحُكم، لا بديل له.

وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (116) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (117)

الضالُّ هو الذي لا يملك اليقين بما جاءه من عقيدة أو عِلْمٍ. وهكذا أمثاله الضالون، فأوْهامُهُم تقذف بهم الى الباطل ويظنون انها الحق فيحرّمون حلالاً ويُحِلّون حراماً بغير سند من الكتب المنزلة فيكون ظنهم هذا كَذِباً على الله تعالى وهو

التَخَرُّصُ في القول ولا يخفى على الله تعالى ضلالهم بينما يعلم من اهل الهدى صدقَهم فيزكّيهم بعلمه. وهكذا الخَرْصُ في كافة أوهام الشرك والضلال ما هو إلا شطط في القول على الله تعالى قولاً ليس له برهان وليس لهم به علم يقين.

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (118) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (119)

من أوجُهِ الضلال لدى مشركي قريش ان الميتة من الانعام قد قتلها الله فهي افضل مما يقتله البشر! وبهذا أحلُّوا حراماً. بينما قد فصل الله تعالى ما أحلّ لهم وهو المذبوح الذي يذكر اسم الله عليه دون غيره من الاسماء. وأمّا حالات الإضطرار ففيها يباح أكل الحرام وإنْ لم تتغير صفة الحرمة فيه. وهكذا ضلّ الذين أحلُّوا الميتَةَ ولم يعلموا كونهم على باطل في اهوائهم فكانوا متجاوزين الحدود عدوانا على ما شرع الله تعالى، وهو أعلم بالمعتدين.

وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (120) وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (121) أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (122) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (123)

الظاهر من الاثم هو الذي يجاهر به أهلُ الفُسوقِ بينهم وبين الناس ومثال ذلك للنساء، هو إرتداء الأردية التي تكشف من أجسادهن اكثرَ مما أُبيح إبداؤه. واما الباطن فله صور متعددة؛ كالرياء، او فعل المنكرات في الخفاء، او الشرك غير المعلن، او أن يُبيّت الآثمون قولاً أو فعلاً لا يرضاها الله تعالى. وكل ذلك سيؤدي

بهم الى كسب الإثم ومن بعده الجزاء على ما يقترفونه في هذا الصدد. فالباطن ليس خافيا على الله تعالى وقد نهى تعالى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن في الآية الحادية والخمسين بعد المئة من هذه السورة. وفي الشريعة بيان الحلال والحرام ما يوجِّه الوجهة الصحيحة في الأقوال والأفعال والنوايا في القلوب. وهكذا جعل الله تعالى تحليل الحرام فُسوقاً. فلا يؤكل مما لم يُذكَرِ اسْمُ الله عليه مهما كانت تبريرات شياطين الانس والجن مُتّجِهةً خلاف ذلك. فمن أطاعوهم أو لم يطردوا وسوستَهم من قلوبهم فقد دخلوا في الشرك مثلهم. وشبههم الله تعالى بالموتى الذين لا حياة فيهم. فإن اتبعوا الحق واطاعوا فقد انتفعوا بنور الله تعالى فكانوا على هدى بين الناس وليس كمن بقي في الظلمات متبعاً اساليب المجرمين في الصد عن سبيل الله وعن الهدى جاهلين أنّ مكرَهم هذا مردودُه على انفسهم يوقعها في العذاب الذي يستحقونه. وفي هذا الصدد يجدر ايراد ما يوضح بعض الحالات التي يذكر اسم الله عليها فقد روى ابو داود عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قولَه: ((ذبيحةُ المسلمِ حلالٌ، ذَكَرَ اسمَ اللهِ أولم يَذكُرْ، إنّه إن ذَكَرَ لم يَذكرْ إلا إسمَ الله)). وروى البخاري حديث ام المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "إن أُناساً قالوا يارسول الله إن قوماً حديثي عهدٍ بالجاهلية يأتوننا بلحم لا ندري أذَكروا اسم الله عليه أم لا؟ فقال ((سمّوا انتم وكلوا))" أي أنّ شرط ذِكْرِ المؤمن لإسمِ اللهِ تعالى يمكن ان يتحقَّقَ صراحةً أو ضمناً بنسيانه. ويدل الحديثان على حالات النسيان. اما اذا تُرك ذكر اسم الله عند الذبح عمداً وإهمالاً فقد أفتى اصحاب المذاهب الإسلامية بعدم حِلِّ الذبيحة لِخُلُوِّ النية عند من يذبح بأن يذكر اسم الله تعالى. وفي الآية الرابعة من

سورة المائدة إشارة إلى الحالات الواردة في الحديثين أعلاه وهي قولُه تعالى ((فكلوا مما أمسَكْنَ عليكم واذكروا اسمَ الله عليه)).

وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (124) فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (125)

كان الاعتزاز بالكبرياء قد ملأ قلوب رؤوس الكفر من اثرياء قريش من امثال ابي جهل الذي ورد في التفاسير قوله: "زاحَمَنا بنو عبد مناف – يقصد جد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم– في الشرف حتى اذا صرنا كفرسَيْ رهان قالوا: منا نبي يوحَى اليه! والله لا نرضى به إلا ان يأتينا وحيٌ كما يأتيه". وهكذا يريد بغطرسته أن يأتيَه الوحيُ الذي خص الله تعالى به اهل الزهد والفقه من اتجهت قلوبهم الى الله تعالى عارفين بعظمته وكانوا اهلا لرسالاته. ووعد المولى القدير اولئك المستكبرين جزاءً يقابل استكبارهم بصَغارٍ وعذاب على ما دفعهم اليه من مكر وكيد. والصَغار هو الهوان والذلة على ما ضاقت به صدورهم من الحق كأنما رأوا الاسلام جبلا شاهقا صعب التسلق. وأمّا من رأى حقيقة الدين وما فيه من طهر وحبور ينشرح له صدره أي تتفتح له اسباب الرضى فهو الذي ينال من الله تعالى مشيئته من الهدى ويرى الاسلام ربيعا لقلبه. واما الرجس الذي يحمل معناه اللعنة والقذارة والعذاب فلا يجد له موطنا سوى القلوب المنكرة المستكبرة وما ظلمهم الله ولكن كانوا انفسهم يظلمون.

وَهَـذَا صِـرَاطُ رَبِّـكَ مُسْـتَقِيمًا قَـدْ فَصَّـلْنَا الْآيَاتِ لِقَـوْمٍ يَـذَّكَّرُونَ (126) لَهُـمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (127)

جعل المولى تعالى عبادته صراطاً مستقيماً وبيَّن سبلها لمن يتَّعِظون فلا يغفلون عما فرض عليهم فهو سبحانه يتولاهم بأعمالهم بالتوفيق في الدنيا، ويوطنهم دار السلامة في جواره في الجنة.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (128) وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (129)

بعد أن يوبّخ المولى عز وجل كَفَرة الجن في يوم الحشر على كثرة ما اضلّوا من البشر بوسوستهم للمعاصي، عندئذٍ لم يسع من أطاعوهم من الإنس إلا الإقرار بما اقترفوه حتى لقُوا الله تعالى من غير توبة. فأخبرهم تعالى بخلودهم في النار واستثنى لمشيئته أحوالا منهم كأن ينقلهم من عذاب الى عذاب او يخففه عن بعضهم او يخرج من كان من اهل الايمان وهذا في شؤون الله تعالى لا يملك غيره تفصيل ارادته في ذلك فيدخل من يشاء الجنة ويعذب من يشاء ولا ظلم منه في ذلك بل بما كانوا يكسبون ذلك الكسب الذي تسلطت به الشياطين من الجن عليهم.

يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (130) ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (131) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (132) وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ

يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (133)
إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (134) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي
عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (135)

المرجح في التفاسير أنّ الرُسُلَ هم من الإنس. ويقوم المؤمنون من الجن بإيصال رسالتهم الى اقوامهم كما جاء في الاية التاسعة والعشرين من سورة الاحقاف بقوله تعالى ((فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضي ولَّوا الى قومهم منذرين)). والمهم ان الله تعالى الحجة على ذوي العقول من الجن والانس بإرسال الرسل يدعونهم للهدى ولعبادة الله لا شريك له وللفوز في الاخرة والنجاة من النار. والخطاب في الاية موجَّه لمن كفر من الجن والانس رغم هذه الحجة فيشهدون على كفرهم بأنفسهم. وبهذا يثبت تعالى عدله فيهم اذ تركوا الدعوة وحجبوا عقولهم عنها فاستحقوا الهلاك فهو لا يُعجِزه أن يُهْلِك من كفر ويأتي بمن يؤمن بدعوة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي جاء رحمة للعالمين. فيذكرهم تعالى بنشأتهم من ذرية قوم آخرين نسلا جديدا من أصلٍ قديم. فإن بَقَوا على ضلالهم وكفرهم فان ذلك لا يضر الله شيئا. ولا بُدّ للظالمين من خيبة يتحقق فيها وعيد الله تعالى. (حبذا الإطلاع على شرح الآية التاسعة والثلاثين من سورة الزُّمَر).

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا
فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ
(136) وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا
عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (137) وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ
حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ

عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (138) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (139) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (140)

إضافة لِما ورد في الآية الثالثة بعد المائة من سورة المائدة من تحريم الاصناف، خاصة الانعام، بغير علم مما أغنى عن التكرار، فإن هؤلاء كانوا بالنسبة للمزروعات يخصصون الماء الذي يسقيها الى قسمين، قسم لشركائهم بزعمهم، وقسم لله سبحانه. فإذا سقى ماء الشركاء زرعا قد خصّوا الله سبحانه به ردّوا ذلك الزرع للشركاء. واذا سقى الماء المخصص لله زرعا لشركائهم لم يردوه الى الله! والمقصود بالشركاء هو اعطاؤه لِسَدَنَة الاصنام. وعند ذبح الانعام المنذورة للاصنام كانوا يقتصرون على ذكر اسماء الاصنام عليها. وعندما يزعمون انهم يذبحون لله يذكرون اسم الله سبحانه مع ذكر اسماء الاصنام ويكرمون بالذبائح المزعومة لله ضيوفهم والفقراء. ولا ينفقون مما زعموه لأصنامهم بل يقدمونه لسدنة الاصنام. وهكذا إلتَبَس عليهم الدين الذي ورثوه من ملة ابراهيم عليه الصلاة والسلام واحدثوا فيه البِدَع التي احدثها شياطين الإنس وزينها لهم شركاؤهم من الشياطين بوسوسة شريرة حتى بلغ بهم الهلاك في ذلك بأن يتخلّصوا من عار موهوم محتمل وذلك بِوَأد البنات الرُّضَّع خشية ان تُسبَى في الغزوات او تذل في الفقر. ومثل هؤلاء لم يؤمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأكثر من إبلاغهم بالرسالة وتركهم في اكاذيبهم وباطل القول والعمل.

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (141) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (142) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (143) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (144)

ما ذكره الله تعالى من فضله في الجنات المعروشات أي البساتين باسقات الشجر وغير المعروشات أي المتسلقات (مثل اشجار العنب). ومنها ما ينبت في الجبال ومنها في السهول متعددة الاطعام والالوان كل ذلك سبب لشكره تعالى ولإطعام من له حق في ما يخرج منه للصدقات والزكاة، وأقلُّه العُشُر، مع النهي عن الإسراف من أجل نيل محبة الله بذلك وحفظ الصحة والمال. واشار تعالى الى جانبٍ آخَرَ من فضله في الانعام، كبيرِها: كالذي يحمل الأثقال، وصغيرِها: للاكل. وبيّن تعالى استنكاره لمن حرّم ما أحَلّ الله سبحانه وتعالى منها بأهواء لا برهان لهم بها ولا تتصل بشريعة سيدنا ابراهيم وسيدنا اسماعيل عليهما الصلاة والسلام فكانت كذباً على ربهم سبحانه ومدعاة للضلال ولِحَجْب الهدى عنهم.

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (145)

الرجس يحمل معنى القذارة والاذى ويحمل اللعنة من الله تعالى. وهذا مايأتي من اكل الميتة او الدم المسفوح يُطبخ، أولحم الخِنْزير. واما الفسق فهو الخروج عن امر الله تعالى وذلك بأن يُهَلّ الذبح لغير الله تعالى أي ان يذكر اسم صنم مع نية التوجه الى الصنم فيه لنيل رضاه، ولا يذكر الله تعالى. وعند الإضطرار يباح الاكل من هذه المحرمات ولا تتغيرُ حرمتُها اِلّا أنّ الإثمَ يُرفع عن المضطر على أن لا يتجاوز أدنى حدٍّ لإقامة حياته، وان ينقطع عن الاكل اذا رأى مدينة او قرية يمكنه الوصول اليها من غير وجبة طعام. وبهذا الإضطرار ينال المؤمن المغفرة رحمةً من الله تعالى. وقد ورد شرح ذلك في الآية الثالثة والسبعين بعد المائة من سورة البقرة مع الكلام حول الباغي والعادي.

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (146) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (147)

ذو الظفر هو ما لم يكن مشقوق الاضلاف الى اصابع او اجزاء وهذا يشمل الابل والطيور الخواضة التي تلتئم اصابعها بغشاء كالبط والوز والنعام. فكانت حراما على اليهود وكذلك أكل لحوم الحُمُر الوحشية وشحوم البقر والغنم. وزعموا في ذلك ان النبي يعقوب عليه السلام حرّم ذلك على نفسه فكذّبهم المولى عز وجل بأن التحريم كان بتجاوزهم على الشريعة ومخالفتهم لأوامر الله تعالى وهذا هو بغيهم فإن لم يرضوا بما أُنزِل فيهم وادّعَوا بأن الله غفور رحيم لا يحرم عليهم ذلك فقد أمَر الله

تعالى رسوله صلى الله عليه واله وسلم بأن يؤيد سعة رحمة الله تعالى الواسعة والتي كتبها على نفسه ولكن بنفس الوقت لا يُرَدُّ بأسه عن القوم المجرمين.

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (149) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (150)

الحجة التي تقدم بها المشركون بأن ضلالهم كان بسبب مشيئة الله تعالى (قالوها ساخرين) فهي حجة باطلة لأنهم دُعوا الى طاعة الرسل فلو استجابوا لكانت مشيئة الله تعالى لهم الهدى لأنه تعالى وَعَدَ من يؤمن بآياته ورسله ان يهدِيَهم. وكذلك لم يكن عندهم من حجة في تحريم ما أحل الله تعالى إذ لم يرد في رسالات الله تعالى تحريم ما حرموه فلم يبق من سبب إلا الابتداع بظنونهم الخاطئة. وعند هذا الحد من بطلان حجتهم يبين تعالى شركهم بإتباع الأهواء الضالة وكفرهم باليوم الآخِر وتفضيل اوهامهم على الشريعة الْمُنْزَلة من رب العالمين. ويعدِلون بربِّهم أي يشركون.

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ

وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153)

روى الحاكم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قول رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ((أيُّكُم يُبايِعُني على ثلاثٍ))؟ ثم تلا صلى الله عليه وآله وسلم: قُلْ تَعَالَوا أتْلُ ما حَرّمَ ربُكم عليكم.. حتى فرغ من الآيات وقال ((فمن وفّى فأجره على الله ومن إنتقص منهن شيئا فأدركه الله به في الدنيا كانت عقوبَتَه ومن أُخِّرَ الى الآخرة فأمره الى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه)). والشرك المقصود هو الشرك الصريح الذي كان عليه المشركون في الجاهلية. واما الإحسان بالوالدين فمرجعه الى القلب والنية يصدقهما العمل على قدر الاستطاعة. واما قتل الاولاد من إملاق أي الفقر فكان من رذائل الجاهلية وهو وأد البنات أي التخلص منهن صغيرات بدفنهن. أمّا الإقتراب من الفواحش فما ظهر منها هو ما يكون بين العبد وغيره من الناس، وما بَطَن منها فبين العبد وبين الله تعالى. وقَتْلُ النفس بالحق من مسؤوليات القضاء والْحُكّام بعد دفاعِ مَن أُتّهِم بما يقام فيه الْحَدُّ أو التعزير. واما الإقتراب من مالِ اليتيم فيعتمد على نية من يُعَيّنه القضاء وصيّاً عليه أو مَن يُخَوَّلُ بإستثمار مالِه بأن يتصرف بالتي هي أحسن كما مشروح في الآية العشرين بعد المائتين من سورة البقرة. وأما تَوْفِيَةُ الوزن والكيل فبإعطاء الحق كاملاً بما في وسع الشخص. والعدل في القول هو الصدق في الشهادات. وأما الوفاء بالعهد الرباني فهو السمع والطاعة ما استطاع. وفي ثالثة الآيات هذه الأمرُ بالثبات على الشريعة. وعلى هذا كانت سُنّةُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أُسوةً حسنة يكون الخروج عنها سبباً للخلاف الذي يؤدي الى التفرقة والبعد عن السبيل الرباني المتمثل بها. فكانت

الوصايا في أوّل الآيات سببا ودليلا على أنّ من تمسك بها قد فهم أوامر الله تعالى ونَواهيَه والتزم. وكانت الوصايا في الاية التي بعدها سببا لتذكير العبد بربه اذا مسه طائف من الشيطان. وكانت الوصية في الآية الأخيرة وقايةً من الضلال.

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (154) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (155) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (156) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (157) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (158)

جاء سيدُنا موسى عليه الصلاة والسلام بالتوراة فيها تمام الدين من حيث العبادة والمعاملة في الدنيا والهداية لتمام النور في الآخرة ونيل الرحمة أملاً أن يؤمن بنو اسرائيل بلقاء ربهم راضيا عنهم. ولكن ما اكثر من كفر منهم وقَسَت قلوبهم عن الانتفاع واستحقوا بالمعاصي والسكوت عن المنكر ان لعنهم الله. وقد جاء القرآن الكريم يحمل البركة وما فيه من هدى ورحمة وشفاء لِما في الصدور من رِيَبٍ وظنون. فاذا بكفرة قريش المشركين يصدُّون عنه. فبين المولى عز وجل انما سيكون القرآن حجة عليهم لكي لا يتعذَّروا بعدم نزول كتاب عليهم. فالحجة تقام عليهم يوم يحاسبون. وحذّرهم تعالى من علاماتٍ لا ينفع بعدها إيمانُ كافرٍ. وهذه العلامات مثل خروج دابة الارض وطلوع الشمس من مغربها تتبع الوعد الحق من مجيء

الملائكة أو يأتيهم الله تعالى. وتوعَّدهم بتحقُّقها فلينظروا. والله تعالى لهم بالمرصاد لقوله تعالى ((قل إنتظروا إنا منتظرون)).

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (159)

الذين فرقوا دينهم اختلفت قلوبهم فظهرت فيهم البِدَعُ والشُبُهات والضلالات. وقد روى الامام احمد في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم محذرا من التفرقة في امته من بعده ((ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء وليسوا منك هم اهل البدع والشبهات واهل الضلالة من هذه الامة)). فأمّا البِدَع فهي ما لا أصل له في سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. واما الشبهات فهي البعد عن الورع والتقوى. واما الضلالة فهي الاصغاء لزخرف القول الباطل من اهل البدع والكفر والضلال. فالنفس التي انغمست في هواها المخالف للشريعة تَصْغَى إليهم وتنحدر معهم الى هاويتهم. ثم يحكم الله تعالى بالحق يوم ينبئُهم بما فعلوا في البدع والشبهات والضلال حتى مزقوا دينهم الواحد المتحد في ذاته بذاته والواضح لمن صغت قلوبهم فصدّقوا وصدَقوا والتزموا بالتقوى والعمل لوجه الله تعالى وللقائه الحميد. وفي شرح الآيتين الحادية والثلاثين والثانية والثلاثين من سورة الروم تفصيل لأسباب التفرق شِيَعا والعياذ بالله من الشرك.

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (160)

الحسنة دليل على الفطرة السليمة. وأمّا السيئة فتدل على وجود طاريء شيطاني او هوى نفسي يطرأ على الفطرة السليمة. وتبدأ السيئة بالنية لِعملها فإن عاد الى فطرته السليمة فتركها وجاء بقلب منيب قد خشي الرحمن بالغيب واستعاذ بالله تعالى فلا تكتب عليه. وأمّا إن فعلها فلنرجع الى قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي رواه البخاري ((إنّ ربَّكم رحيمٌ؛ مَن هَمّ بِحَسَنَةٍ فلم يعملْها كُتبتْ له حَسَنةً فإن عَمِلَها كُتبت له عَشراً وإلى سبعِمِائَةٍ إلى أضعافٍ كثيرة. ومَن هَمَّ بسيئة فلم يعملْها كُتِبَتْ له حسنة فإن عملها كتبت له واحدة او يمحوها الله عزّ وجلّ. ولا يهلِك على الله إلا هالك)). وتارك السيئة -كما جاء بالتفاسير – إن كان سببُ تركِها مخافةَ الله تعالى فالمخافة بحد ذاتها حسنة فتكتب له حسنة. وإن كان قد نسيها ولم يصر عليها فلا تحسب له ولا عليه وان تركها رغما عنه أو كسلاً منه وكان قد سعى لفعلها فالسعي والاصرار يوجبان الإثم. وفي ذلك جزاء الله تعالى عادل وهم لا يُظلَمون فالامر لله يفعل ما يشاء.

قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (164)

يوجّه الله تعالى رسولَه صلى الله عليه وآله وسلم إلى تبليغ المشركين بما يَدخُل في قرارة نفوسهم أي ايضاح الحق لهم لِيُعَرِّفَهُم بالصراط المستقيم الذي لا إعوجاج فيه ولا إنحراف عنه وهو الدين الذي قام ثابتا على ما كان عليه الخليل عليه

السلام، فإنه لم تكن ذبائحه لغير الله تعالى ولم يُؤَدِّ من العبادة والنسك لغيره تعالى. وهكذا بلّغ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بما أُمِر وبالصلة بينه وبين ربه تعالى موحداً إياه بالصلاة والنُسُك وما وَهَبَهُ الله تعالى من حياة. ويُنكِر صلى الله عليه وآله وسلم على المشركين ان ينحرفوا عن ذلك بإبتغاء غير الله ربّاً، فغيرُه مخلوق خاضع لربه. فإن أعرضوا فما على الرسول وِزْرٌ في ذلك ولا يُنقَص من ثوابه بضلالهم. فإنّ لهم ما كسبوا من العمل، أحسنوا أم أساؤا، فكتب عليهم. ويكشف لهم يوم الرجوع إلى ربهم فينبئهم بحقيقة ما اختلفوا فيه.

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (165)

الخطاب مُوجّهٌ لأُمّةِ سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلّم إذ خلفت الأُمَمَ التي أُنزِل عليها الكتب. ولكل عبد منْزِلتُه ودرجتُه ليبتليه ربه عزّ وجلّ في ما استخلفه فيه وكيف يتصرف في ما آتاه. ولن يمهل تعالى من سخّر نعماء ربه الكريم في الصدِّ عن سبيله من غير توبة وندم. كما وَعَدَ سبحانه أنه يغفر لمن تاب وآمن وعمل الصالحات ويرحمه وهو أرحمُ الراحمين.

سورة الأعراف

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المص (1)

وتقرأ: أَلِفْ لام ميم صاد. إشارةٌ ربانية. لله حكمتُه فيها. ولا إجتهاد بتأويلها. وقد نبّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم محذرا من تأويل القرآن بالرأي كما جاء في سورة البقرة.

كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2) اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (3)

هاتان الآيتان موجّهتان أوّلاً للرسول صلى الله عليه وآله وسلم لِيُبَلِّغَ ما أُنزِل إليه وينذر به. وعليه أنْ لا يأبَهَ لما سيجد من حَرَجٍ في صدره من إبلاغه كأن يخشى تكذيبه وبهذا آمَنَهُ من عاقبة ما يحرجه. وثانياً للمؤمنين لِيَتَّبِعوا التنزيل من الله تعالى بأن يقتفوا في ولاية الله تعالى أثر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فهو خيرُ مَن عمل بما أنزل الله. ونهى سبحانه عن إتباع أولياء من دونه. ومع هذا أكّد سبحانه قِلَّةَ من يتذكر هذه الدِّلالاَت لعدم التمسك الأمثل بالطاعة.

وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (4) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (5) فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (6) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (7) وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (9)

المقصود بالقرى الهالكة هم أهلها الهلكى بتكذيبهم الرسل فأوجبوا على انفسهم بأساً لا يردّ من ربٍّ غَضِبَ عليهم. فقد دعتهم رسلهم اليه فنفروا. فنصر الله تعالى رُسُلَه والذين آمنوا وأوقع أعداءَه بياتاً (ليلاً) او وقتَ القيلولة، وهنا إنكشفت لهم الحقيقة بأنهم ظلموا فأقروا على أنفسهم. وقد روى ابن حميد عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((ما هلك قومٌ حتى يُعْذِرُوا من أنفُسِهم)) أي يقيمون الحجة بأنفسهم على ظلمهم ولا ينسبون لله تعالى ظُلماً. وأمامَهم حساب يُسأل فيه كل عبد عما خوّله الله تعالى من عقل وعلم ونعماء. ويكون الرسل في موقف الصدق والتكريم. والله تعالى محيط بما كان من عباده فلا يخفى منهم شيء مهما كان له من وزن صغير في الموازين العادلة. والميزان لا يعرف إلا الحق فلا يثقل الخفيف ولا يخفف الثقيل. وبعد ذلك إما فلاح، وإما خسارة. والعياذ بالله منها.

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (10)

التمكين في الارض والأرزاق صُوَرٌ من نِعَمِ الله تعالى. والنعمة من الله ينبغي ان يقابلها الْمُتنَعَّمون بها بالشكر وفق ما عَلّمَ الله تعالى من التصرف بها وتوجيهها لطاعته، وترك معصيته بها. ومن علامات الشكر أن يتذكّر المؤمن هذا المعنى عندما يكون في كسب معيشته فينسب الفضل لله تعالى وحده. وفي الحديث الذي رواه البيهقي في شُعَب الإيمان: ((الحمد رأس الشكر..))

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي

مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (15) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17)

البشر في علم الله تعالى معلومون قبل أن يخلقهم. وبدأهم بأبينا آدم عليه السلام على صورة في أحسن تقويم تتميز بأن المولى تعالى أحسن خلْقَها. وها هم الملائكة وقد أخبرهم ربهم سبحانه أنه خالق في الأرض خليفة، رأوا أمراً جديدا عليهم في عظمة ربهم ما لم يكتموا تساؤلهم بشانه. وأمَرَهُم المولى عز وجل ان يسجدوا تكريما لآدم الذي وهبه النفخة من روحه والعقل والفطرة السليمة. ولم يكن من شأن الملائكة إلا طاعةُ الله تعالى فسجدوا. ولم يكن إبليس منهم بل من الجن واتضحت الحكمة في كشف ما كان عليه ابليس من حسد وكبرياء لا يليقان ردّاً على امْر ربه، وظهر خبثه وجحوده للحق ظنّاً منه ان لن يوجد من هو افضل منه عند الله تعالى. وهكذا فضّل النار التي خُلق منها على نفخة الله من روحه وفطرة الله السليمة. وهكذا لن يدع الله سبحانه من يعلم أنه سوف يُجرِم ما لم يمتحن موقفه إذا ما عرضت له الجريمة. وهكذا جعل الله تعالى من ابليس سببا لبني آدم لإبتلائهم بعداوته لهم وما سيلقون منه ومن اتباعه من كيد ليصرفهم به عن شكر الله تعالى. ولكن الله تعالى جعل لهم سبيلا للخلاص من كيده وهو السبيل الصلب المتين بشريعةٍ غرّاءَ جاءت بها الرسل عليهم الصلاة والسلام مُختَتَمة برسالة القرآن الكريم.

قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18)

لما أصرّ ابليس على المعصية امره الله تعالى بالخروج من الجنة متصفا بالذأم الذي هو أبلغ من الذم في التحقير، وبالدحر أي الطرد الذي يعجز عن رده. وكما يخرج منها فإن من يتبعه من الجن والانس بالكفر يتبعه الى جهنم.

وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (19) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (22)

في الاية الخامسة والثلاثين وما بعدها من سورة البقرة، ذكر الله سبحانه وتعالى ما كان من خلق ادم عليه السلام وما كان من معصية إبليس وما كشف تعالى من عداوته لآدم وزوجه ولمن يأتي من ذريتهما مما يغني عن التكرار هنا. والسوءات هنا الفروج أي ما يُستحَى من كشفه من الاعضاء وكانت متوارية بأردية الجنة ومستورة عن أعينهما بالنور فبدت لهما بعد المعصية.

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (24) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (25)

القَسَم بالله تعالى صدر من ابليس كَذِباً بانه لهما من الناصحين. ومن فطرة المؤمن السليمة فإنه يصدِّق اذ لا يظن أنّ أحداً يحلف بالله كذبا. وهكذا انطلت

خدعة إبليس على أبينا آدم عليه السلام وعلى زوجه فأمِلا ان يكونا خالِدَين. وبعد المعصية طلبا المغفرة والرحمة فأمَرَهُما تعالى بالهبوط الى الارض واخبرهما بعداوة الشياطين للمؤمنين وما ستؤول إليه الحياة في الارض من موتٍ وبعث بعده. وهكذا نال آدم وزوجه بالاعتذار والاستغفار نعمةَ التوبة. وخسر ابليس النعمةَ بالاصرار على المعصية.

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (26) يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (27) وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (28) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (29) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (30)

كما يستر اللباس المعروف سوءات الجسد فكذلك تستر التقوى وتمحو السيئات وقبائح الاعمال فتكون سببا لرضوان الله تعالى. ويحذر تعالى من فتنة الشيطان لينتزع من المؤمنين تقواهم (كما اخرج ابويهم من الجنة يَنْزِع عنهما لباسهما) وبهذا يكون ولياً لهم. وقد ارشد تعالى المؤمنين الى اساليب إبليس وجعل علاج التخلص منها بالتوكل على الله باتِّباع الشريعة. ومن قبيل ما فعل ابليس أنْ جعل اهل الجاهلية يطوفون عُرايا حول الكعبة (وهذا من الفحشاء) بعذر التخلص من الملابس التي عصَوا بها ربهم! ويدّعون ان آباءهم فعلوا ذلك ولبدّ بزعمهم أن

يكون ذلك من امر الله تعالى (سبحانه عما يقولون). وهكذا فتن ابليس اتباعه بان قالوا على الله ما ليعلمون. وبيّن الله تعالى انه أمَر بالقسط، وهو العدل والاستقامة للثبات على الحق واقامة العبادة على وجه الكمال أي لا يخالط نِيّةَ العبدِ فيها غيرُ وجهِ الله شيء. وهكذا في الوفاق مع الشريعة لا تحصل البِدَعُ. فكما بدأهم تعالى على الفطرة السليمة يعودون اليه بقلب سليم أي على الفطرة أيضاً. واما حال الضالين فقد غرتهم أهواؤهم وتسلط بذلك عليهم الشياطين ولم يتضح لهم (من عمى القلوب) انهم ابتعدوا عن الهدى بل ظنوا انهم على الهدى فلا يحاولون الرجوع عما هم عليه.

يَا بَنِي آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (31) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (32)

إن مما يَزِيْنُ المؤمنَ في اللباس سترَ العورة ونظافةَ الثوب من غير إسراف أو خُيَلاء. ففي الاعتدال زينة وكذلك يزين صلاته زينة معنوية بالخشوع والطمأنينة والذل الى الله تعالى، محفوفة بالمحبة والتعظيم. واما في الطعام والشراب فقد نهى المولى تعالى عن الإسراف. فالطعام الذي يوفر الغذاء الضروري للانسان قد يُنْفَقُ فيه الكثير من غير موجب او مبرر. ويمكن ان ينفق فيه القدر المعتدل. وبهذا يحب الله تعالى للمؤمنين ان لا يُسرِفوا ولا يَقْتُروا بل يكون بين ذلك قَواما. والاسراف في الشرب له معنى يتحقق في زماننا هذا اكثر مما كان يتحقق ايام القرن الاول لِما ابتكر الإنسان فيه من أنواع الأشرِبة المباحة ولكنها ذاتُ سعرٍ باهض. امّا الإعتدال

في زينة الأردية والطيبات من الرزق أي الحلال فلا حساب عليهما يوم القيامة وهذا معنى (خالصة). ويرجع الذين لا يعلمون الى اهل العلم في الاستفتاء عند الشبهات اذ قال تعالى انه فصّل الآيات لقوم (يعلمون). والمقياس لديهم هو ان يكون التصرف بالمال، أكلاً ولَبوساً، مما يرضاه الله جل وعلا خالياً من بطر وإسراف وخيلاء وتفاخر. وقد جعل سبحانه المبذِّرين إخواناً للشياطين.

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (33)

ما ظهر من الفواحش وما بطن موضح في شرح الايتين العشرين بعد المائة والحادية والخمسين بعد المائة من سورة الانعام. واما الاثم فهو كسب السيئات (حصيلتها). واما البغي فهو تجاوز حدود الشريعة في الافعال والاقوال. واما الشرك بالله تعالى فهو نسبة النعمة والفضل لغيره وتوجيه الاعمال لوجه غيره؛ فعبادة غيره شرك ظاهر. ونسبة النعمة لغيره شرك خفي. واما القول على الله تعالى ما لم ينزل به سلطانا فهو تحريم الحلال او إستحلال الحرام من غير دليل شرعي. وكذلك إفتراء الولد والصاحبة له سبحانه.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (34)

هذا ما حصل لمشركي مكة عندما أذِنَ الله تعالى بفتحها فانقرضت أُمّةُ الجاهلية بأصنامها وعبادتها وبِدَعِها في ساعة من نهار فلم يعد فيها من يفتري على الله تعالى الكذب فيعبد غيره. واما الامم الهالكة فأجلُها هلاكُها.

يَا بَنِي آَدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آَيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (35) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (36)

لا عذاب إلا بعد إرسال الرسل لإيضاح سبل العلم والعبادة. ورسولُ كلِّ أُمّةٍ يأتيهم من بين رجالهم بلسانهم. فمن اتخذ من التصديق والطاعة وقاية من الكفر والفسوق فقد ضمن الله تعالى لهم الامن من الخوف، والخلاص من الحزن. واما من كذّب بآيات الله العزيز سبحانه واتخذوا موقف الاستكبار عنها فخلودهم في النار جزاءُهم على ذلك. وفي هذا تهديد لمشركي قريش وترغيب بالنجاة لمن يؤمن ويتقي ويصلح العمل. والترغيب والترهيب هنا قائمان الى يوم القيامة.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآَيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (37)

هؤلاء المفترون المكذبون يستوفون كل نصيب لهم من الرزق وما قُدّر لهم من زمن. وكذلك يبلغون اجلهم أي ساعات موتهم. وما داموا يرون انهم يُرزَقون فلا يدركون مدى كفرهم حتى اذا جاء اجلهم وهم في اوهام الشرك بالله سبحانه سُئلوا عن شركائهم فلمّا لم يجدوا أحداً من الشركاء قالوا غابوا عنا بينما كان في أوهامهم انهم سينجون بهم. وهنا ينكشف لهم بطلان اوهامهم ويعلمون انهم كانوا كافرين فيشهدون بذلك على أنفسهم.

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (38) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (39)

الضالون الذين ماتوا على الضلال لا يملكون ساعة الحساب إلا لعنةَ الذين أضَلُّوهم. ويزداد حنقهم عليهم حتى انهم ليطلبون لهم ضعف العذاب من النار. ولكن خَفِيَ عليهم ان لكلٍّ منهما ضعف؛ فالحسرة على ضياع النعيم ضعف للضالين، والبغضاء والحقد ضعف للذين اضلوهم. ويجيب هؤلاء على اتهامهم بإضلالهم بانهم بريئون من ذلك اذ ان من ضل عن السبيل لم يكن افضل ممن أضَلّه وأنه إنما يُعذَّب بما كسبت يداه.

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (40) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (41)

الذين كذبوا بالآيات يحملون خبثهم معهم فلا يسمح لهم بدخول الجنة. وقُطِع الامل لديهم بمَثَلٍ يشير الى المستحيل إذ لا يمكن إمرارُ حبل سفينة (أي القَلوس) ويطلق عليه اسم (الجمل) من خلال ثقب احدثته ابرةُ خِياط. وتحيط بهم غاشيات جهنم بما ظلموا بآيات الله تعالى وجحدوا بها. والْمِهاد: هو ما يفترشه الناس. والغواش: الأغطية.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (42) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43)

لا يكلف الله نفسا إلا وُسْعَها، أي يعلم سبحانه الذي يسهل عليها في الأداء. فيكون الايمان والعمل الصالح للمؤمنين لا تَكَلُّفَ فيهما. ويجعلهما سبحانه سببا لدخولهم الجنة والخلود فيها. واما الذين حصل بينهم مظالم من المؤمنين نتيجة تفاوت حظوظهم من العلم والعقل وحسن التصرف فقد روى البخاري عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((اذا خَلَصَ المؤمنون من النار حُبِسوا على قنطرة بين الجنة والنار فاقْتُصّ لهم مظالِمُ كانت بينهم في الدنيا حتى اذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم في دخول الجنة. والذي نفسي بيده إنّ أحَدَهم بمنْزِلِه في الجنة أدَلُّ منه بمسكنه كان في الدنيا)). ولا يرون لهم فضلا عندما يحمدون الله تعالى على ذلك اذ لولا هُداهُ في ما أنزل لَما عرفوا الايمان. ويُنادَون أنهم في منازل بحسب عملهم.

وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (44) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (45) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (46) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (47) وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى

عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (48) أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (49) وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (50) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (51)

يطّلع أهلُ الجنة على من يعرفونهم من الضالين المضلين اي الذين كانوا لا يدَّخرون جهدا في صَدِّ الناس عن الاسلام. فيرونهم ويخاطبونهم تقريعا وتحدِّياً لهم على ما انكروا الوعد الحق. وهنا ترجح كفة الحق فينطقون به بكلمة (نعم). و يأتي نداء القدرة الربانية الغاضبة على الذين كانوا يزيغون عن سبيل الرُشد ويصدون غيرهم عنه ويزيّنون سبيل الغي والفساد والكفر، ويُظهِرون الشريعة السمحة على انها لا تطاق أو لم تَعُدْ صالحة. ويبلغ بهم الكفر الى تشكيك الناس باليوم الآخر الذي ظهر نوره على خلاف ما كانوا يحاولون إخفاءه. ولا بد ان يكون حجاب بين فريقَي الجنة والنار يحجب اجسامهم ولا يمنع حديثهم ورؤيتهم فيما بينهم. وأمّا الأعراف فهي الأسوار التي تشرف على الفريقين. وعليها رجال جاء عنهم في التفاسير انهم لم يدخلوا النار بِما كان من ايمانهم ما يمنعها عنهم ويمنعهم عنها، ولسببٍ ما كانوا على تلك الأسوار بإنتظار دخول الجنة برحمة الله لهم. وهذا المشهد من آيات الله تعالى ليعرِّفَنا نعيم اهل الجنة وشقاء اهل النار، وما سبّب لكِلا الفريقين مصيرَهم. فنرى اهل النار قد سبق وتكالبوا على الدنيا وجمعوا حولهم القوة الظالمة واستكبروا على المستضعَفين. ونرى أهل الجنة هم أهل الصبر الذين صبروا على سُخرية وأذى المستكبرين. فاليوم اختلف الميزان واخذ الشقاة يستجدون الماء

والرزق. ولكن هيهات لمن غرتهم الدنيا ونسوا لقاء الله تعالى. وهكذا الجزاء من جنس العمل اهمال بإهمال، وجزاء بجحود. ولم يُظلَموا فقد جاءهم النذير وعرفوا حجته عليهم. اذ يقول تعالى عنهم في الآيات التالية:

وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (53)

جعل الله تعالى كتابه الكريم هدىً ورحمة في تفاصيل معرفة جنابه وفي عبادته والعمل بأحكامه طاعةً في ما أحلّ وحَرّم. وكل ذلك لقوم مؤمنين. اما غير المؤمنين، فمن جحودهم ينتظرون ما يؤيد أوهامهم وظنونهم الخاطئة به. ولكنهم سيأتيهم تأويلُه، أي برهان صحة ما جاء به الرسل من الحق وصدق وعود الله فيه، يوم يكونون في موقف حسرة يوم القيامة لأنهم يكونون عندئذٍ في موقف لا تنفعهم هذه المعرفة فلا ينالون رحمة ولا يجدون شفعاء يأخذون بأيديهم الى مخرج للعمل به. فلقد سبق القول انهم اليها لا يُرجَعون. وتبينت لهم أوهامُ افتراءاتهم ثم خسارتُهم.

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54)

سبق ان أوضح الله تعالى قدرته كما جاء في شرح الاية الرابعة والستين بعد المائة من سورة البقرة فأوضح وحدانيته. اما الايام الستة فهي يوم لكل صنف من

خلقه وهو اسرع اذا شاء في كلمة واحدة. واما الإستواء على العرش؛ فالله تعالى ليس كمثله شيء، إذ أن استواءَ الانسان على شيء يدل على تصرفه فيه واستيلائه عليه. ولكن قدرة الانسان وعلومه محدودان ومعلومان بينما لا حدودَ لقدرة الخالق ولا إحاطةَ بتدبيره فما يمكن ان يفسر الاستواء الرباني على العرش إلا كما ورد في التفاسير عن الامام جعفر الصادق والامام الحسن البصري والامام مالك رضي الله تعالى عنهم بأن الاستواء معلوم والـ(كَيفُ) مجهول. فهو الرحمن يوجِّهُ رحمتَه الى ما خلق كما جاء في سورة (طه): ((الرحمن على العرش استوى)) وهو العزيز اذا أجرى على أعدائه أمراً إقتضته العزة الالهية. وهكذا في ما تقتضيه حكمته في ما يُظهِرُه من شؤونه. وقوله تعالى: (على العرش) يرمز إلى الإنفراد بالسلطان فوق كل سلطان فإنه لا يكون عرشان في مملكة واحدة. ومُلك الله تعالى ملك الكون كله. وتدبيره بعدما خلق الخلق يشمل كل حركة وسكون في علمه. فالليل يعم اذا دارت الارض حول نفسها فيصير اهل النهار في ظل عن اشعة الشمس أي في ليل. بينما ضوء النهار موجَّه الى الجهة الاخرى يطلب الليل دائباً بلا توقف وهكذا برهن تعالى على أن له الخلق ومن بعد الخلق له الأمر بالتدبير. ورحمته وهباته وأوامره لا تنقطع أي تتبارك في نماء ودوام بلا إنقطاع.

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (55) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (56)

بعد ان اتضح للمؤمن ما لله من سلطان ورحمة وقدرة فإنه لا يملك إلا اللجوءَ إليه دون سواه في ما أهمّه مع سَيْرِ حياته وتعاقب أيّامه. وما أحوجَه لذلك! والله تعالى يعلم من عبده المؤمن صدقه في ذلك فوجهه الى الدعاء وأن يخف دعاءه

بالثقة بربه فيتضرع من موقف عبوديته لربه. فيكون تضرعه، أي إبتهاله برفع صوته، تذلُّلا. وقد يكون دعاؤه نداءً مخفياً وكلاهما دعاء. إلا أن دعاء الخفية يحمل عمق اليقين بمن يعلم مكنونات القلوب والرجاء المخفي في اعماق النفوس المحتاجة الى حاجات لا يطلع عليها غير ربه العليم القدير. وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابي موسى الاشعري رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد ان سمع قوما يرفعون اصواتهم بالدعاء ((أربِعوا على انفسكم فإنكم لا تدعون أصَمَّ ولا غائباً إنّ الذي تدعون سميع قريب)). وللمؤمن في دعائه حالان؛ أحدهما خاص حسب حاله عند الدعاء يدعو ربه ليصرف عنه شراً أو يسوق له خيرا، والثاني حال عام لحياته الدنيا وحياته الأُخرى. وفي هذا علَّمنا الحبيبُ المصطفى من حديث له رواه الإمام أحمد في مسنده: ((... وأنّ بِحَسْبِكَ ان تقول: اللهم اني اسألك الجنة وما قَرَّب اليها من قول او عمل، واعوذ بك من النار وما قرّب اليها من قول او عمل)). اما النهي الرباني عن الفساد فيحمل معنيين: احدهما لأُولي الأمر أن لا يحيدوا عن الشريعة فيفسدوا حياة الرعية، والثاني للعامة ان يجتنبوا المعاصي التي تفسد عيشهم وتغضب ربهم فيسلط عليهم شِرارَهم. والله تعالى يدفع اهل الفساد كلما اضر فسادهم بالارض يدفع الناس بعضهم ببعض ولولا ذلك لفسدت الارض. ثم امر الله تعالى المؤمنين ان يدعوه في حالة الخوف من أمر يفسد حياتهم وفي حالة الرغبة بما يصلح حياتهم. وهذا الدعاء طلبٌ لرحمته فهي، وان كانت عامة لخلقه، لكنها قريبة من المحسنين. اذ يتحقق قربها لهم لتقربهم منها بالايمان والإحسان. ويتحقق بُعدُ القاسية قلوبهم عنها بما لم يدخُلْها من نور الايمان واليقين.

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (57) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (58)

الماء مصدر الحياة. وتوجيهه بالرياح مَظْهَرٌ من تدبيرٍ رحمانِيٍّ لأسباب الحياة في بلد انقطعت عنه الحياة بإنقطاع المطر. وهذه القدرة لا يعجز معها إحياء الموتى فليتذكر المؤمنون إذا رأوا نباتاً يخرج بأنّ عناصرَه كانت ولا حياةَ فيها مثلَ أجساد الموتى. وإن بَعْثَ الحياةِ في نمائها وثمرها يدعو للايمان بإحياء الموتى يوم يبعثون. ويُذكِّرُنا الله تعالى بالبلد الطيب الذي طاب بطاعة أهله لربهم في إقامة شعائر الدين بإستجابة نفوسهم الطيبة للموعظة والانتفاع بما اثمرت من عبادة وتقوى وعفة محفوفات بالصدق فأخرج البلد طيبات أُحِلت لهم. والبلد الخبيث هو الذي كثرت فيه النفوس الخبيثة فظهرت منها نتائج الشهوات المحرمة وعاد عليهم تصرفهم نكدا فلا ينالون إلا الأثرَ السيء والغضبَ من ربهم الجليل. وتتوالى الامثال على ذلك من قِصَص الأنبياء وأقوامهم من مؤمن وكافر فيقول تعالى:

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (60) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (61) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (62) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (63) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (64)

لم تكن بصيرة الكُبَراءِ من قوم نوح عليه السلام متفتحةً للحق فرأوا المنكر معروفا. ورأوا الدعوة لعبادة الخالق الواحد ضلالاً مبيناً! ولم يسألوا انفسهم: (لماذا)؟ وإذْ أكثرَ سيدُنا نوحٌ عليه السلام من ايضاح الحق وموقفه عن الرسالة والنصح فقد اكثروا من الجدل والتكذيب. وحق عليهم القول فغرقوا كما كانت قلوبهم غرقى في عمىً عن الحق. وسيرد عنهم تفصيل في سورة هود وسورة نوح إن شاء الله تعالى.

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ
(65) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ
(66) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (67) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ
رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (68) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ
لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا
آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (69) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا
فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (70) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ
أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ
مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (71) فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا
كَانُوا مُؤْمِنِينَ (72)

الملأ في كلِّ قومٍ هم أكابِرُهم وقادتُهم الذين يملكون المال والأعوان والخدم والعبيد. والكَفَرَةُ من هؤلاء الملأ يخشون الهوان والخسارة اذا تخلى قومهم عنهم بإتباع الرسل. ولهذا كانوا اولَ من يعارض الدعوة الى الله تعالى ويسفهها. وكَفَرَةُ ملأ قوم هود كانوا من هذا القبيل. فأخذ يوضح عليه السلام موقفه وصدقه ويذكرهم بنعماء ربهم ولكن ذلك لم ينفعهم حتى بلغ الامر بهم الى تحدي التهديد والنذر تمسكا

بترفهم في حياتهم الدنيا، واتبعوا شتى الأساليب لمنع قومهم من الخروج عن دين آبائهم واتّباع الرسول. فأخذ يقرِّعهم ويبين لهم مصيرهم من غضب الله تعالى ولعنته عليهم. وانكر عليهم الجدل او الدفاع عن اصنام لم يروا فيها حركة ولا سَمِعوا منها صوتا. وأوعدهم بالعذاب فما آمنوا حتى أتتْهم ريح سوداء يخرج منها (كما جاء في التفاسير) ما يهلك الذين كذبوا هوداً فرداً فرداً. ولم ينجُ منهم إلا من آمن والتجأ الى سيدنا هود عليه السلام في حظيرة مسوّرة مسقفة منعت عواصف الغضب الرباني عنهم بإذن ربها فنجَوا ثم هاجروا الى مكة حيث اقاموا وسمي الهلكى بإسم (عادٍ الاولى) وسمي الناجون بإسم (عادٍ الثانية) وقد وردت قصة عاد في سورة هود وسورة الاحقاف حسبما يناسب العبرة من جوانب كفرهم.

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ
مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ (73) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ
مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ
(74) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ
صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (75) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي
آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (76) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا
إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (77) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (78) فَتَوَلَّى
عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ
(79)

الكافرون من قوم صالح عليه السلام أنموذج من غافلي البشر لم يكن الله تعالى ليتركهم في كفرهم من غير ان يأخذهم بذنوبهم في ما أُترِفوا فيه. ولم يعتبروا بمن سبقهم من الهالكين. وتحدّوا رسول الله إليهم وهو سيدنا صالح عليه السلام بأن يأتِيَهم بآية. والمفروض إن جاءتهم ان يذعنوا لها ويؤمنوا. ولكنهم استكبروا وسخِروا من الذين آمنوا. وهذا شأن من غرّتهم الحياة الدنيا فما كان منهم إلا أن تجاهلوا وصية رسولهم ثم تآمروا على قتل الناقة بعَقْرِها أي بضرب قوائمها بالسيف ليتحدَّوه بإستعجال العذاب الذي كذّبوا به. فأتتهم بالرجفة ليلا فصبَّحتْهم جاثمين في اماكن جلوسهم. وجاءهم تقريع رسولهم بأنهم كرهوا النصيحة فما استحقوا رحمة وهدى.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (80) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (81) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (82) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (83) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (84)

اما قوم لوط فقد كانوا من البشر المنحطين الى الشاذِّ من المنكرات التي عبر عنها المولى تعالى بأنهم يأتون الرجال شهوة من دون النساء. ولم يكن الله سبحانه ليتركهم بلا عذاب. كما أنه لا عذاب إلا برسالةِ رسولٍ يدعوهم للتوبة والعزة وينذرهم العاقبة. إلا أنهم لَمّا جاءتهم الدعوة والحجة على سوء موقفهم من الفعل المنكَر وتماديهم في شذوذهم الذي ورد وصفُه في شرح الآية التاسعةِ والعشرين من سورة العنكبوت (ولقصتهم صلة بالآيات التي أولها السابعة والسبعون من سورة هود) أصروا على كفرهم وبلغ بهم الطغيان انهم طلبوا من سيدنا لوط عليه السلام ان

يسلمهم ضيوفه! فكانت الحجة على إهلاكهم قائمة وآن أوانها. واذا بالضيوف ملائكة قد جاءوا بالعذاب فامطرت عليهم السماء حجارة جعلت الهلاك عاقبة عادلة لهم وهكذا تكون عاقبة المجرمين امثالهم. ونُجّي سيدُنا لوطٌ عليه السلام واهلُه إلا امرأته فقد هلكت مع الهالكين لانها اخبرت قومها بمجيء الضيوف (الملائكة) وسيرد تفصيل اكثر في سورة هود ان شاء الله تعالى.

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ
بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ
بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (85) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ
وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ
وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (86) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ
وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (87) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ
اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا
قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (88) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ
مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ
تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (89) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (90) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي
دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (91) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ
الْخَاسِرِينَ (92) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ
فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (93)

لقد كان في قَصَصِهم عبرةٌ وليكون المؤمنون على بيّنة في السلوك مع أهل الكفر وفي الثبات على الايمان والاصرار على إعلاء كلمة الله تعالى. وجاء السرد القرآني البليغ لقصة سيدنا شعيب مع قومه مفصَّلا في هذه الآيات لا يحتاج الى تفصيل اكثر. انما العبرة لنا ان لا يأمن المؤمن مكر الله تعالى فقد خشي سيدنا شعيب عليه السلام ان يعود في مِلَّةِ الكفر فقال: ((وما يكون لنا ان نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا)) فقد أكّد تمسكه بالايمان وخاف عليه من امتحان الله. ولكن المؤمن يتقي هذا الخوف بان لا يمكر بنفاق او زيغ فقد قال تعالى: ((ويمكرون ويمكر الله)) أي فليحذر العبد المؤمن أولاً مكر نفسه. واما الملأ الكافرون المعاصرون للانبياء فهم مثل للمكورين بإشهار العداء على الرسل. ومن كان على شاكلتهم بعد الرسالات أشهروا العداء للدين في كل زمان ومكان ومن قبيل ذلك الحيلولة دون إظهاره على حقيقته. وهكذا جاءت العبرة في الآيات التالية:

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (94) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (95) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (96)

تكذيبُ الأنبياء يُسَبِّبُ للمُكذِّبين ابتلاءً من الله تعالى لحكمة منه في إفهامهم. فالفقر والمرض معناهما أن نعمةً تغيرت عليهم بأمر الله تعالى مما يدعوهم إلى الرجوع اليه. وطلبها يكون بالتضرع اليه عز وجل والايمان به وتصديق انبيائه. وهنا اتى الله تعالى بِمَثَلٍ لمن أبوا إلا المكر تكذيباً فابتلاهم الله تعالى على مكرهم بمكرٍ إستدرجهم به للهلاك بأن أبدل السيئة بما رأوه حسنة. ومع هذا لم يتوجهوا الى

المنعم القدير بالشكر بل انشغلوا بالاستزادة حتى عفَوا اي كثر مالهم وولدهم ولم يفطنوا الى تقدير الله تعالى لهدايتهم بما ارسل من نبي وما قدره عليهم. وتقديره حجة عليهم. بل تفكروا فيما حصل لآبائهم من بأساء وضراء ثم نعماء ورخاء فقالوا هذا هو شأن أيام الدنيا؛ شِدَّة ورخاء يتعاقبان. وتجاهلوا توعُّد الانبياء وتذكيرُهم فلم ينفعهم ذلك لإنغماسهم في التكذيب وتفضيل الدنيا على الآخرة. وهنا لا يُخْلِفُ الله الوعد لِرُسُلِه بأن ينفِّذ في هؤلاء المكذبين ما توعَّدَهم به بغتة من غير إمهال. فخسروا ما كان ينتظرهم لو آمنوا واتقَوا من فتح بركاتٍ من السماء والارض مباركة بدوامها. ولكنهم أُخِذوا بما كَذّبوا فحق عليهم ما اوجب لهم العذاب.

أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (97) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (98) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (99) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (100) تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (101) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (102)

القرى المقصودة هنا هي المدن التي يكفر اكثرُ أهلِها ويعملون بالمعاصي فهل أمِنوا العواقب أن تأتيهم بياتاً (ما تحمله الليالي) وهم نائمون؟ أو ضحىً وهم يلعبون؟ أفأمِنوا بأساً لا يُرَدُّ عن القوم المجرمين؟ ولا يشعرون أن تَرَفَهم هذا ابتلاءٌ يُمكَرون به أي يُستدرجون به إلى ما يوجب عليهم العذاب جزاء مكرهم بالمعاصي. وقد جعلهم الله تعالى خَلَفاً لأقوامٍ هلكوا بذنوبهم ولو شاء أن يصيبهم مثل أولئك

لهلكوا. ويطبع الله على قلوب المنغمسين بالملذات في شهوات الدنيا فيحجبها عن فقه دينه فيبقَون على تكذيبهم الأول ولا تتفتح قلوبهم بعد ذلك لنور الايمان والنجاة. وفي علم الله تعالى أنهم لن يؤمنوا فلم يشأ لهم الهداية. تلك القرى جعلها الله تعالى مثلا من أمثلة قَصَص القرآن الكريم ذات العبرة في نجاة الأقليّة المؤمنة وهلاك الأكثرية الفاسقة التي لم ترجع الى الفطرة السليمة التي كانوا عليها يوم أخذ الله تعالى ميثاقهم واشهدهم على انفسهم انه ربهم ثم أرسل إليهم الرسل. ولكن لم يكن لأكثرهم من عهدهم نصيبٌ يَسْلَمون به من العذاب!

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (103) وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (104)
حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي
إِسْرَائِيلَ (105) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (106) فَأَلْقَى
عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (107) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (108) قَالَ
الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (109) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ (110) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (111) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ
عَلِيمٍ (112) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (113) قَالَ
نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (114) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ
(115) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ
(116) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (117) فَوَقَعَ
الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (118) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (119) وَأُلْقِيَ
السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (120) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (122)
قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا

أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (123) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (124) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (125) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (126)

نبّه المولى عز وجل آنفاً الى عاقبة المفسدين وهنا يُفصِّل ما حدث بين موسى عليه السلام من جهة وبين فرعون وملئه من جهة اخرى. فالسحر كان شائعا، ولما جاءهم سيدنا موسى بما يفوق طاقة البشر ويخرق العادة المألوفة ظنوا أنه السحر بينما يُتّخَذ السحر في مجال الشرور. أما هذه المعجزة فتقيم الحجة على صحة دعوة رسول ربهم لخيرهم ليعبدوا الله تعالى إلهاً واحدا ويؤمنوا بلقائه ويدخلوا جنته. ولَمّا حضر السحرة وجاءوا بسحرهم وغلبتْهم المعجزة الربانية إعترفوا بأن ما حدث يفوق علمهم لأنّ حِبالَهم وعِصِيَّهم لم تبق على الارض فهو امر رباني. وهنا فوجيء ملأ فرعون بمصير ينتظرهم بزوال ترفهم ونعمتهم وحكمهم على المستضعَفين. واراد فرعون ان يعاقب السحرة بعقاب شديد فتوعَّدهم. ولكنهم طلبوا من الله تعالى الصبر على البلاء والثبات على الايمان.

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (127) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129)

أعَدَّ فرعون لبني اسرائيل، أي قوم موسى آنذاك، عقاباً جماعيا في تقتيل المواليد الذكور دون الاناث. ولم يجد سيدنا موسى عليه السلام من تغيير يُحَوِّل هذا الحال

الى افضل سوى الصبر بالله فإن الله تعالى هو القادر على التغيير. وانه يملك الْمُلك الذي عليه فرعون وسواه في كافة انحاء الارض وقادر على استخلافهم لينظر ماذا سيكونون عليه من تصرف.

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (130) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (131) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (132) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (133) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (134) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (135) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (136) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (137)

من زيغ الكفّار يتوهّمون أُموراً بعيدة عن الحقيقة. فلما دهمتهم الإبتلاءات على أثر تكذيبهم توهموا اسبابا اخرى غير الدعوة الى حمى الدين والسلامة. وتطيروا، أي غلبهم التشاؤم بموسى ومن آمن معه. ولهذا تحدَّوا الحق مبررين ذلك بعدم الرضوخ لما توهموه انه سحر. وازداد ابتلاؤهم بالفيضان، وبتكاثر الجراد حتى ازعج حياتهم، وبالقمل حتى اخذ يدب على طعامهم وفُرُشِهم، وبالضفادع المتطايرة في منازلهم وطرقاتهم حتى كان النائم يستيقظ فيرى الضفادع على وسادته ووجهه فاذا اراد

الكلام قفز ضفدع الى فمه فلا يَملك إلا السكوت! وفي كل ابتلاء يطلب فرعون وقومُه من موسى عليه السلام ان يدعوَ ربَّه ليكشف عنهم الرجز أي العذاب المهين. فاذا كشف الله تعالى ذلك عنهم نكثوا عهدَهم حتى أخذ الدم ينْزِف من انوفهم ويغلب على الشوارب فاستغاث قوم فرعون بموسى عليه السلام ليدعو الله تعالى لكشف هذا العذاب عنهم فيؤمنوا ويُرسِلوا بني اسرائيل معه. فدعا فكُشِف عنهم ولكنهم نكثوا! وهنا أذِنَ الله تعالى بهلاك فرعون وجنودِه إذ أمر رسوله وقومه ان يسلكوا الى البحر، وان يضرب البحر بعصاه. ولحقهم فرعون وجنودُه فانفلق البحر عن ممر يابس وجاوز موسى عليه السلام ومن معه البحرَ في الوقت الذي فيه وصل فرعون وجنوده أواسط البحر فاطبق عليهم الماءَ واغرقهم تعالى انتقاما منهم على تكذيبهم بالايات الواضحات. وبهذا انتهى طغيان فرعون على بني اسرائيل فملكوا امورهم من غير أن يستضعِفهم أحدٌ في مصر. ثم بدأ ابتلاؤهم ليميز الله تعالى منهم الخبيث من الصادق.

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (138) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (139) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (140) وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (141)

بعد ابتلاء سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام بفرعون وقومه، ابتُلي بسفهاء بني اسرائيل وجَهَلَتهم. فاما الجَهَلة فانهم حالما وجدوا بعد تجاوز البحر قوما يعكفون على اصنامهم أي يواظبون على عبادة أصنامهم وذلك بالقيام بأفعال تدل على

العبادة موجّهة لأصنامهم، طلبوا من موسى عليه السلام ان يجعل لهم رمزا او نَصْبَاً يباشرون مناسك العبادة عنده فزجرهم وبين لهم زيف عبادة غير الله وهلاك من يفعل ذلك وبطلان الاعمال التي يفعلها عبّاد الصنم، وان المعبود الواحد هو الله الذي له الفضل سبحانه في نجاتهم وتفضيلهم بالرسالة والكتاب الذي لم يسبق لغيرهم وانفلاق البحر اذ لم يفلق البحر لقوم سبقوهم.

وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (142) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143)

تلقى سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام دعوة من ربه ليأتيه في مكان محدد لزمن موقت بثلاثين ليلة ثم أتمها إلى أربعين ليلة. وقبل ان يذهب موسى أوصى اخاه هرون عليهما السلام بالانتباه لِما يصدر من الجْهَلة من بوادر تَحرِفُهم عن الرشاد. فالمفسدون من شأنهم الإنحراف عن الصراط السَوِيّ. وفي الميقات سمع سيدنا موسى النداء من ربه وكلّمه فأراد أن تشارك عيناه بما اكرمه الله تعالى به في أُذُنيه من سمع! فطلب رؤية ربه! والله سبحانه لا تدركه الأبصار وطاقات الرؤية بالعيون الفانية المحدودة عند البشر مغطاة بالضعف. فأخبره تعالى بأنه لن يراه ولينظر إلى الجبل فإن استقر فسوف يراه! وإذا بالجبل تدُكّه القدرةُ الإلهية. فما كان من موسى عليه السلام مع المعجزة إلا ان غاب شعوره عن الوجود حتى أفاق واخذ يسبّح بحمد الله تائبا معلنا تصديقه بما أخبره به ربُّه عن رؤيته. اما الرؤية ففيها

حديث طويل وتأويلات عن رؤية نور الله جل علاه او تجليه أي كشفه من أنواره يوم القيامة لعباده الصالحين فيشعرون بقربه المادي كما شعروا بقربه المعنوي في حياتهم الدنيا حيث لا يغيب عن المؤمن العابد الشعورُ بمعية الله تعالى معه حيثما حل مُنَزِّها ربَّه تعالى مسبحا بحمده. ورؤية العبد له تعالى في القلب هي معرفته وعبادته. اذ انه تعالى عَلَّمَنا كيف نعبده ولم يُعلِّمْنا كيف نراه ولذلك خلقنا. وذاته الجليلة ليس كمثلها شيء فهو نور السماوات والأرض والنور يُبين ولا يُبان. وللمؤمنين بشارات بما سيرون في الآخرة.

قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (144)

اجتمع لموسى عليه الصلاة والسلام التكليم والرسالة. وأمَرَه تعالى بالتمسك بما في التوراة شاكرا النعمة لله تعالى. ويبين تعالى ما كتب في الألواح التي أُنزلت:

وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (145) سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (146) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (147)

يقصد بالموعظة الواردة في الألواح: تذكيرُ المؤمنين بتقوى الله تعالى. ويقصد بالتفصيل: ما ورد فيها من مجموع الأحكام لِما ينبغي أن يُعمَل به في العبادة

والمعـاملات. وأمـر الله تعـالى سـيدنا موسـى عليـه الصـلاة والسـلام ان يتمسـك بهـا ويأمـر قومـه بأن يأخـذوا بأحسـنها، أي أن يفضـلوا مـا هـو اقـرب للتقـوى كتفضـيل العزائم على الرُخَص. وأما دار الفاسقين فهي المصير الذي ينتظر من يموت على الفسوق بلا توبة. إذ أن التكبر بغير الحق والتكبر على آيات الله كان للفاسقين حجاباً غفلوا به عن إتّخاذ طريق الحق أي سبيل الرشد الذي جاءت به آيات الله تعالى. وهذا يُعتبر تكذيبا بها إذ لو صدّقوا بها لأطاعوا الله تعالى. ولو أنهم صدّقوا باليوم الآخر لفعلوا ما يصير ذخراً لهم فيه. ولكن أفعالهم دلت على كفرهم فحبطت في موازين الحق فلا تُحسب لهم جزاءً عادلاً على غيّهم.

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (148) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (149)

لله تعالى حكمته في ابتلاء المؤمنين ولا سيما الذين انضَوَوا تحت راية الأنبياء والرسل ليُظهِر درجة صدق وعزيمة كل منهم. وفي هذه الحالة اتخذ الضعفاء والجَهَلَةُ من قوم موسى عجلا مصنوعاً من الذهب (بيانٌ عنه في سورة طه) يحدث صوتاً (خُواراً) يشبه خوار العجل كلما هبت الريح ودخلت في فمه. ورغم أن سيدنا هارون عليه السلام حذّرهم من الزيغ وبيّن لهم خطأهم، استمرت تلك الفئة على القيام بمناسك العبادة للعجل الذهب كرمز يدل على الإله! سبحانه. إلى أن افاقوا من غفلتهم وسُقِط في أيديهم (كناية عن شدة الندم)، أي عضُّوا عليها، من الندم على ما فرّطوا في جنب الله فطلبوا المغفرة والرحمة خشية الخسارة في الآخرة.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (151) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (152) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (153)

عندما اخبر المولى عز وجل سيدَنا موسى عليه الصلاة والسلام بأن قومه اتخذوا العجل من بعده كظم غيظه. والكظم هو إطباق الفم عن التصريح بالغضب او الغيظ. ولكنه لَمّا رأى قومه يعكفون على الصنم عنَّفهم على إستباقهم مجيئه بالتوراة وأسقط ألواحها ليتناول رأس أخيه ولحيته يعنِّفه. وبعد أن تبين له عذر اخيه طلب من الله تعالى المغفرة لهما والدخول في رحمة أرحم الراحمين. واما مصير من عَبَدَ العجل فقد لحقهم الغضب وارتسمت الذلة على وجوههم التي إفترت الكذب بجعل الصنم إلهاً. وهذا جزاء كل من يتخذ الها غير الله. إلا الذين يدخلون باب التوبة ثم يثبتون على الايمان فأمرُهم الى الغفور الرحيم. وهذه عبرة عامة لكل من تزلّ قَدَمُه بإشراك غير الله تعالى في مقاصد العبادة بما فيهم من يُعِيْنُ الكافرَ على كفره ويطيعه في معصية الله سبحانه. وقد تقدم في سورة البقرة كيف أمَرَ الله تعالى ان يكفِّر عنهم سيئاتهم بقتل الجَهَلة الذين عبدوا العجل على يد الذين اعتصموا بالله تعالى إذ سلط الله تعالى اهل الايمان عليهم كفَّارةً لهم.

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (154) وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ

رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (155) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآَخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآَيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (156) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آَمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157)

سكوت الغضب يأتي من سكينة تُسكِتُه. وهكذا اعاد سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام الالواح وما كُتِب فيها من هدى ورحمة للذين يعرفون قَدْر ربهم فتملكهم رهبة العابد المحب. واختار سيدنا موسى عليه السلام سبعين رجلا ليقفوا معه حيث دعاه ربه تعالى وذلك ليتضرعوا طلبا للمغفرة والرحمة اذ وجب اعتذارهم عما فعل قومهم الجَهَلَةُ. وفي التفاسير ان هؤلاء السبعين طلبوا في موقفهم في ميقات ربهم منه تعالى أن يفضِّلَهم بعلم يخصهم به دون البشر ثم طلبوا من سيدنا موسى ان يروا الله جهرة فاعتبر ذلك سفاهةً منهم وهنا أخذَتْهم رجفة زلزلت أجسامهم ثم همدت كالموتى وظن موسى عليه السلام ان الله تعالى مُهلِكُهم بما طلبوا فتضرع من اجل العفو عنهم وأن لا يؤآخِذَهم بفعل سفهائهم. فلما كشف الله تعالى عنهم أوضح ان التقوى واليقين برحمته وموجباتها خير وافضل لهم. فآيات الله نزلت على الرسل نورا للهدى. ثم إن المولى هنا بعدما ختم قصتهم بَيَّن لأهل الكتاب العبرة منها بأنّه سيكتب رحمته للذين سيؤمنون بالنبي الأُميّ الذي بَشَّر به في التوراة

والإنجيل يأمرهم بسبل تقواه ومناسك عبادته واحكام دينه وتخفيف ما حُرِّم على بني اسرائيل من الطيباتِ وإعفائهم من التكاليف التي ارهقتْهم (اذ كانوا يؤمرون بقطع الأعضاء التي يعصون الله بها). كما كانت الاحكام شديدة شق عليهم تنفيذها كقتل قاتل الخطأ إذ أُبدِل بدفع الدِيَة. وأحَلَّ المولى عز وجل الغنائم التي كانوا يحرّمون أخذها ووعد الله تعالى بالفلاح من يؤمن بهذه الآيات وينصر من جاء بها؛ سيدَنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158)

أتمَّ الله تعالى الدين وحفظه من الشرك إذ جعل الإسلام آخر الاديان وناسخا لما سبقه لشموله ووضوح احكامه فكانت رسالته للناس كافة الى يوم الدين لا تبطُل احكامها. وامّل من اتبع رسوله الأُمِّي بأن يهديهم. والمقصود بالأُمِّي: النبي الذي من أُمّةٍ غير بني اسرائيل اذ يعتبرون أمّياً كلَّ من كان من غيرهم من الأمم وهم اهل كتاب وغيرهم غير ذلك أي أُميون ولفظها عندهم (كوييم) [بالكاف الفارسية].

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (159)

هؤلاء هم الذين تحققوا مما عرفوا من كتبهم صحةَ نبوَّةِ سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصدقَ رسالته من الصفات التي وردت فيها عنه من حيث ذاتُه وزمانُه فاهتدوا واسلموا ولم تأخذهم اهواؤهم بعيدا عن الحق. ومنهم النجاشي رضي الله عنه (اصحمة) ملك الحبشة ومن اسلم من يهود المدينة مثل عبد الله بن سلام

رضي الله عنه وتشمل كل من يهتدي الى حق الإسلام ويؤمن به عن معرفة ويقين إلى يوم الدين.

وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (160)

الاية السابعة والخمسون والآية الستون من سورة البقرة تماثلان هذه الآية في شرح معانيها المماثلة مما يغني عن التكرار.

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (161) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (162)

بدلا من السمع والطاعة كما يناسب علاقة المؤمن بربه العظيم لينال رضاه ومغفرته ومزيدا من فضله لمن يحسن منهم، إذا بهؤلاء الْجَهَلَةِ يبدّلون قولاً غير الذي طُلِب منهم كما جاء في شرح الآيتين الثامنة والخمسين والتاسعة والخمسين من سورة البقرة. وظُلمُهم هنا هو الفسوق أي الخروج عن امر الله تعالى. والرجز هو العذاب مع الهم والغم في خسارة رضوان الله تعالى.

وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (163)

وردت الإشارة الى هذه الآية في شرح الآية الخامسة والستين من سورة البقرة فقد نُهُوا عن صيد الأسماك يوم سبتهم كي لا تفوتهم صلاة الجماعة، وذلك في مدينة إيلةَ على البحر الأحمر، فاحتالوا بأن اعدّوا أحواضا على الساحل ذات منفذ ضيِّق الى البحر فاذا اجتمع عدد من الأسماك في الحوض عمدوا الى سد منفذه وينتظرون يوم غدهم فيصطادونها وفي هذا الابتلاء فشلوا في غفلة عن ذكر الله الذي يعلم نواياهم وما أبدلوا من حق بالباطل. وقد ذكر الخطيب في تاريخه عن ابي هريرة رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحِيَل)) وهذه الحيلة تحمل في ظاهرها انهم لم يصطادوا الاسماك يوم السبت وفي باطنها تحمل العكس. وهذا شأن الحيلة ان يلبس صاحبها الحق بالباطل وهو يعلم.

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (164)

الامة المقصودة هنا هي واحدة من ثلاث؛ فالاولى التي احتالت على صيد السمك في احواض المكر، والثانية هي أُمّة منهم اخذت تعِظهم وتحذرهم من هذا الفعل، والامة الثالثة هذه التي لم تؤمن بفائدة الوعظ إذ لم ينفع المقصودين به. فكان جواب اهل الوعظ بأنهم انما فعلوا ذلك للنجاة من مساءلة رب العزة اياهم عن ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ولعل اهل الفسوق يتقون الله سبحانه وينتهون عما اقدموا عليه.

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (165) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (166)

نجاة الذين ينهون عن السوء دليل على عاقبة من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. واما من فسق عن امر الله فقد اخذه الله تعالى بما كسب. واما الفئة التي لم تشارك في الفسوق ولا النهي عن السيئات فليس لهم ولا عليهم شيء بقدر استطاعتهم ونواياهم في تصرفهم. واما مسخ الذين اعتدوا وتمرّدوا على أمْرِ ربهم فقد انحطت منزلتهم الى منزلة القردة أي نالتهم حقارة القرود ولم ينالوا الا الفشل وهو مكسب الخاسئين. وفي بعض التفاسير ان المسخ من البشر لا يكون له ذرية ممسوخة اذ ينقطع نسلهم. وهذا ما لم يرد به ان بشرا تحول الى قرد والارجح ان من شملهم المسخ انحطوا قَدْراً الى حقارة القرود.

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (167)

استحق هؤلاء الجَهَلَةُ الفاسقون ما كتب الله تعالى عليهم بأن يبعث عليهم الى يوم القيامة من يتسلط عليهم بعذاب فيه شدة. وجاء قول الله تعالى مشعرا بالقسم دليلا على العزم وهذا ما حصل لهم بدلاً من أن يصدِّقوا ويؤمنوا قالوا: "هذا ما نَجِدُه في كُتُبِنا". وقد وردت أخبار وأحاديث بقتال اليهود، من قبل من تضاربت مصالحهم معهم، تحققت وذكرها التاريخ. والأمرُ لله الواحد القهار الذي نسب لذاته الجليلة ما يشاء من سرعة العقاب ومن المغفرة والرحمة.

وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (168) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (169) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (170)

الامم المقصودة هي الفِرق اليهودية في مختلف ارجاء العالم. والصالحون منهم هم البقية من اولئك الذين ينهون عن السوء وتوارثوا التوراة جيلا بعد جيل. وأما الذين هم دون الصلاح فقد تلاحقت أجيالهم مبتعدةً عنه في الإنغماس بملذاتهم من متاع الدنيا. فكان يصيبهم البلاء وما فيه من شدة ثم يبتليهم جل شأنه بالرخاء ليرغبوا اليه شاكرين ويخافوا عودة الشدة. ولكنهم كلما جاءتهم الدنيا متعارضة مع الشريعة كالرشوة والإحتيال مالوا إليها مؤملين المغفرة! وبعد ان يستغفروا لا ينقطعون عن مثل ما اذنبوا من قبل. ونسوا مواعظ التوراة ولم تردعهم عقولهم إلا قليلا منهم ثبتوا على الايمان والعمل الصالح بانتظار تحقيق البشارات ببعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد اثنى عليهم رب العزة في ذلك وفي دوامهم على الصلاة التي خصها بالذكر لأهميتها. وجعل تعالى في كل هذا عبرة للمؤمنين بالتمسك بالقرآن الكريم والاصلاح والاحسان.

وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (171)

سبب هذه المعجزة الربانية ان اهل الاعتراض من بني اسرائيل لما جاءهم سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام بالتوراة وما فيها من فروض وحدود تخوفوا من ثِقَلِها عليهم فارادوا ان يؤخذ رأيهم فيها فأبلغهم سيدنا موسى عليه السلام بأن عليهم ان يأخذوا بما فُرِض عليهم فأعادوا الطلب فأرتفع فوقهم الجزء القريب اليهم من الجبل وكأنه سيقع على رؤوسهم فسجدوا ينظرون من طَرْفٍ خَفِيّ كيف سيقع عليهم ولكن الله تعالى امرهم بأنْ يتمسّكوا بأمره بعزيمة ثابتةٍ وأن لا ينصرفوا عنه بل يتخذوه نِبراساً لهم لكونه سببا للتقوى. وهذا إرشادٌ لنا الى التمسك بالقرآن الكريم للنجاة من العذاب برحمته تعالى.

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (172) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (173) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (174)

ارسل الله تعالى رسله ليذكِّر الذين تبلغهم الرسالة انما عليهم مسؤولية اقرارهم بربوبيّته تعالى. اذ ان فطرتهم الاولى عرّفتهم ربهم قبل ان يمتحنهم في حياتهم الدنيا. فاعطاهم الله تعالى العقل المميِّز واظهر وجودَهم على الارض وارسل الرسلَ اليهم مبشرين ومنذرين فلم يبقَ عذرٌ لأبناء المشركين في متابعة آبائهم في الشرك لوضوح الهدى للعقول المنفتحة فلا يمكنهم ان يقولوا: "أفتهلكنا بما فعل المبطلون؟" وبهذا تقوم للمولى القدير حجته البالغة على اهل العقول الذين اتبعوا ما فعل آباؤهم من شرك. فلا ينفعهم أن يقولوا يوم القيامة: "إنا كُنّا عن هذا غافلين".

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (177) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (178)

صحب رجلٌ من بني اسرائيل سيدَنا موسى عليه الصلاة والسلام والتزم الرجل بالعبادة فكان مستجاب الدعاء. والله تعالى يعلم كيف يمتحنه اذ اغراه أعداءُ سيدِنا موسى عليه السلام بمالٍ ليدعوَ عليه. فانسلخ مِن عِلْمِهِ ومال الى متاع الدنيا. فلما هَمَّ بالدعاء انخلع لسانه وتدلّى فكان أشبه بلسان الكلب اللاهث. وتكرر هذا الْمَثَلُ في كل قوم كذّبوا بآيات الله ومنهم أُمَيّةُ بن الصّلْت كانت له مواعظ وكان له شِعر يدل على الإيمان بوحدانية الله تعالى، وذلك قبل مبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم. فلما بُعِث لم يؤمن هذا الضال مع وضوح الايات والمقاصد التي يعرفها جيدا فقيل: آمَنَ لسانُه وكفر قلبه. ولو علم الله تعالى من أمثاله ميلاً للحق لهداهم.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (179)

لم تنفع قلوب الكافرين ولا أبصارهم ولا آذانهم أصحابَها بينما انتفع الحيوان من معرفة ما يضره فتَجَنَّبه، ومعرفة ما ينفعه فأقدم عليه. اما الغفلة فهي خُلوّ أسباب النجاة من قلوب الكفار وأبصارهم وأسماعهم بالانشغال مع داعي الكفر

والزيغ والهوى الضال. فالقلب المقصود هنا هو هدية المولى تعالى للاتصال به وفهم مراده من خَلْقِ الجن والإنس، أي العبادة. وضل مَن لم يعرف قيمة هذه الهدية.

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (180)

أسماء الله تعالى تشير الى صفاته. وتتضح صفاتُه من تصريفه وتدبيره ولطفه. ولكل انسان شأن مع الله تعالى في وقتٍ ما يختلف عن شأنه في موقف آخر. ففي فَقْرِه يطلب الرزق وفي جهاده يطلب النصر وفي مرضه يطلب الشفاء وهكذا. والله تعالى وصف نفسه انه خير الرازقين وانه خير الناصرين وانه ولي الذين أمنوا، اما الملحدون في اسمائه فهُم الذين يَحيدون عن حقيقة قَدْرِه في عظمته الحميدة ورحمته الواسعة وقدرته على ما يشاء، لا يحتاج الى معين إنما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن! فيكون! وكما يجيب دعوة الداعي اذا دعاه كذلك يجزي من يُلحِدون في أسمائه على ما كانوا يعملون. ومن أمثلة إلحاد الكافرين بأسماء الله تعالى أن أطلقوا إسم (اللات) الشبيه بلفظة: الإله، وهو للأُنثى، على صنم لهم. واسم (العُزّى) الشبيه بإسمه سبحانه: العزيز على آخر. وهكذا إلحادهم: عُدولٌ عن الحقيقة وإنحرافٌ عن فهمها ودخولٌ في أوهام الكفر التي لا حقيقة لها.

وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (181) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (182) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (183) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (184) أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ

حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (185) مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (186)

الهدى بالحق هو القيام به أي العمل والقول به من حيث الدعوة اليه والقضاء به لكي يعلو الحق في أرض الله تعالى. ولا يتسنى ذلك إلا لِمن يؤمنون بآيات الله تعالى صِدقاً وعدلاً بالوقوف مع الحق والدعوة اليه وهم الذين لم يرتابوا بصحة عقيدة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصِدقِ قوله وتأييدِ المولى القديرِ له فكان لهم أُسوةً حسنة. وهم الذين اتخذوا القرآن نبراسا يبطل كل ما لا يتفق معه. فمن زاغ عن هذه الحقيقة فقد تغافل عن منحة الله تعالى في عقله وبصره وفي ما يخبيء له القدر في يومه وغده. وهل يجد افضل من الصدق برهاناً على الهدى الذي يُخسَر بالزيغ والطغيان الذي يعمى معه البصر عن هذا الحق؟ فهذا وأمثاله استحبوا ما هم فيه على الهدى فتركهم سبحانه لا يبصرون ما هم فيه من مصيبة الضلال.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (187) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (188)

لم يكن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ممن يسأل ربه عن الساعة. بل يلتزم الادب في التسليم لمشيئة الله تعالى، ولم يفقه صنفان من السائلين هذه الحقيقة؛ صنف يسأل جحودا، وصنف دخل في الإسلام حديثا اخذ يسأل عن امور كثيرة منها موعد القيامة. وكان جواب المولى عز وجل لمن يسأل ان يقال له: انها ثقُلَت

في السماوات والارض أي انها لا بد منها وتأتي بغتة وليس الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بحفيٍّ عنها أي مُلِمٌّ بالعلم عنها فهي من علم الغيب الذي لو عَلِمه لاستكثر من الخير وتجنّب السوء. فهو العبد الذي يبشر بالله وينذر عقابه ويسلم لمشيئة ربه. وعلى المؤمنين ان يُحضِّروا لها ما ينجون به من أهوالها. وهذا الجواب فيه من الحكمة ما يرضي السائل على أي صفة كان ملحداً ام مؤمنا مع البشارة للمؤمنين.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (189) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (190)

المعنى ان أي رجل وزوجته اذا نسبا الفضل في ولادة أي ولد لهما لغير الله تعالى، كأن يُعزى ذلك للطب او لمن استنجدوا به من غير الله فقد أشركوا مع الله غيره في هذا الفضل. ولا يعني ذلك ان لا يطلب أحدُنا من إخوانه الدعاء له فالدعاء للإخوان في الغيب مندوب ويتقبل الله تعالى من المتقين. ولكن لا يُنسَب الأثر للدعاء ولا للداعي بل يوجَّه الشكر للواحد الخالق القدير.

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (191) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (192) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (193) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (194) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (195) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (196) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا

يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (197) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (198)

ينكر المولى سبحانه على المشركين اعتقادَهم القوةَ في من لا قوة له إلا مِن الله تعالى وهكذا يطلبون النصر ممن لا يملك لنفسه نصرا. فإذا جاءهم الحق لجأوا الى اصنامهم في التوكل عليها للكيد للحق. فيتحداهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (بأمر ربه تعالى) أن يدعوا شركاءهم لينصروهم. ويذكِّرهم بأنه عبد وليُّه الله الذي انزل الكتاب وهو يتولى الصالحين. ولا يمكن لغيره ان ينصرهم. وقد وصف الله تعالى اولئك المشركين بأنهم لم يستفيدوا من نعمة السمع والبصر لإعراضهم عن الحق الذي يُعرف بهما.

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (201) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (202)

ليس على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الا التمسك بأخلاق النبوة. فييسر التعبير عن الشريعة بأيسر الطرق. ويحبب الافعال الجميلة والخصال الحسنة ويعامل اهل الجهل والسفاهة بما يصلحهم اولا من حِلمٍ وموعظة حسنة. وفي تفسير النسفي قول الامام جعفر الصادق رحمه الله تعالى ((أمَر الله نبيَّه عليه السلام بمكارم الأخلاق وليس في القرآن آيةٌ اجمعُ لمكارم الاخلاق منها)). إلا ان الذين يستوجبون الحد أي المنصوص عليه في القرآن والسنة، او التعزير حسب أفعالهم تقام عليهم الحدود او يُعزَّرون اذا لم يشملهم الحد. والتعزير عقوبة يراها الامام مناسبة للفعل على ضوء ما حكم به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. ثم ان الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوجب على المؤمن العالِم الذي يخشى الله تعالى ان يصبر على التصرفات السمجة التي تبدو من اهل الجهل

والسفاهة. فإن رأى ان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر يجدي نفعا معهم فعل ذلك وإلا فيعرض عنهم. وهذا مما يجنب المؤمن نزغ الشيطان أي الغضب السريع بدون رويّة. ويتبادر الى ذهن اهل التقوى عاقبة تصرفاتهم فاذا وسوس الشيطان لمؤمن بتصرف خاطىء تذكر العاقبة ولم يهتم لمن يشجعه على الغضب او الاذى وان كانوا من اقرب الناس اليه.

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (203)

بلغ من سفاهة المشركين أن تحدَّوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليقوم بأعمال خارقة للمألوف لتكون آية على صدقه. فأتاهم بجواب رب العزة لهم ان يوضح بأنه ليس له ذلك بل يتبع أمر ربه. وهذا بيان بأن النبوة قد قامت بالله تعالى وحكمته وتدبيره وليس بالنبي الذي يبلِّغ الرسالة لتكون تبصرة لأهل البصائر ورحمة لهم فهم المؤمنون.

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (204)

الرحمة مؤمّلة لمن يتفرغ ذهنا وسمعا لتلاوة القرآن الكريم من غير ان يرفع صوته عند سماع آية دعاء او استغفار او عندما يقتدي بالإمام في الصلاة الجهرية فيكون ساكنا في انصاته من غير تلاوة او رفع صوت. ويقرأ بالفاتحة عند فراغ الإمام منها وقد افتى الامام مالك والامام احمد بأن قراءة الفاتحة لا توجَب للمأموم في الصلاة الجهرية إلا أنّ الإمام البخاريَّ اختار قراءتها بعد سكوت الامام منها في الصلاة الجهرية وقراءتها في الصلاة الخافتة واما في غير الصلاة فقد روى الامام احمد في مسنده عن ابي هريرة رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((من استمع الى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة)).

وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (205) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (206)

ذِكْرُ الله تعالى في النفس هو الاخلاص في الذكر لان القول سيكون للقلب الذي خلا من غير الله تعالى. وهو دليل على حضور القلب وانتباهه في التسبيح. واما وقت الذكر فالمقصود بالغُدُوِّ: الغدوات، جمع غدوة، وهي اول النهار، والمقصود بالآصال: أواخر النهار. وهذه الاية نزلت قبل فرض الصلاة فهي حث على الرغبة إلى الله تعالى بمداومة الذكر دون رفع الصوت مع خيفة أي رهبة مما لله تعالى من مهابة في القلوب الذاكرة وخشية الزيغ عن هذا الحال. ففي هذه المداومة تخلُّصٌ من الغفلة التي تأتي من إنشغال الفكر في ما ترتع به النفس وما تشتهي من غير أن تذكر المنعم سبحانه. فإذا تخلص العبد منها وعمل لوجه ربه فسيكون ذلك ذخرا يزيد من خشوع القلب، في طاعته، متواضعا لربه. واورد المولى عز وجل مِثالاً في ذلك وهم الملائكة الكرام في عبادته والتسبيح بحمده والسجود له. وقد عدت هذه الاية من سجدات التلاوة وهي اول سجدة تلاوة في القرآن. وصيغة سجدة التلاوة ان ينوي القاريء والسامع السجود لتلاوة القرآن كما يسجدون في الصلاة مع تسبيح الله تعالى ثم القعود والتسليم مباشرة. ولا بأس من الدعاء فيها او بعدها. وورد قول رسول الله صلى الله عليه واله وسلم في سجدة التلاوة (بعد التسبيح): سجد وجهي للذي خلقه وشق سمعه وبصره بحوله وقوته. رواه أصحاب السنن عن عائشة رضي الله عنها.

سورة الأنفال

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (1) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4)

أوّلُ معركةٍ أيّد فيها الله تعالى المسلمين بنصره هي معركة بدر. وكان هَمُّ المجاهدين ان ينصرهم الله تعالى. فلما حقق المولى عز وجل ذلك لهم ووضعت الحربُ أوزارها وغَنِمَ المسلمون من المشركين اسلابا (أي ملابس قتلى الاعداء ومخلفاتهم) واسلحةً وأمتعةً قَصَدَ المسلمون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسألونه ماذا سيفعل بها. ونزلت فيها الآيةُ الاولى لتحصر صلاحية التصرف بالانفال بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم وفي التفاسير أنه كان يكرهها. والانفال في اللغة هي كل احسان فعله صاحبه تطوُّعاً من غير ان يجب عليه فعلُه. وفي هذه الآية هي جمع (نَفَل) وهي الغنيمةُ من العدوّ المهزوم. أي انها من فضل الله تعالى إذ أحَلَّها للمسلمين. وليس لأفراد المسلمين ان يقسموها بل هي في موقعة بدر وغيرها للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وللخليفة او ولي الامر في القيادة من بعده. وفيها اقوال منها انها ما ينفله الامام، أي يخرجه من الغنائم لبعض الاشخاص الذين لهم دَور خاص كقتل احد الاعداء فيكون سلاحه للقاتل فهو خارج عن اصل المغنم. وقيل هي الفيء أي المال الذي يحصل عليه المسلمون من محاربيهم من غير قتال كأن تهرب دابة الى ارض المسلمين من محاربيهم او ان يتركوا متاعا

لهم. اما الغنائم فتقسم على فئات المحاربين سواء كانوا في مواجهة العدو او المواقع الخلفية للحماية او في متابعة العدو. وبعد نزول آية الخُمُس وهي الاية الحادية والاربعون من هذه السورة خمّس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الغنائم بعد ان اخرج الانفال قبل القسمة من سَلَبٍ لمن قتل صاحب السلب. كما ان للامام اذا وعد مقاتلين مُعيَّنين بأن يعطيهم متاعاً او سلاحاً معيّناً إذا أتمّوا مهمتهم ان يَخرج لهم ما وَعَدَهم من قسمه الأخْماس. وفي الحروب الحديثة فإن الغنائم كالطائرات والدبابات والاسلحة الثقيلة والخفيفة لا تنفع المجاهدين كأفراد وحكمها يرجع الى المصالح المرسلة للمسلمين ولا سيما ان للجند رواتبَ وتخصيصاتٍ وأُعطياتٍ تزداد في أوقات الحروب وبعدها. وقد جاء امر الله تعالى بالتقوى والاصلاح في ذات البين على اثر ما حصل من خلاف بين مجاهدي بدر قبل نزول الاية. فالايمان والهدى والعِلم رحمةٌ من الله تعالى خيرٌ من متاع زائل فلا يصح الاختصام عليه. بل تجب طاعة الامام. وهذا من صفة المؤمن الصادق يستجيب لربه خاشيا في قلبه خاشعا لاوامره مؤديا لفرائضه. والمؤمنون في هذا ينالون الدرجات عند الله تعالى فضلا عن المغفرة والرزق الكريم من رب كريم. وفي التفاسير حول وجل القلوب عند ذكر الله تعالى يكفي للمؤمن ان لا يشك في ايمانه بالله واليوم الاخر والملائكة والكتاب والنبيين عليهم الصلاة والسلام. اما الوجل فتقديره يوكل لعلم الله تعالى المطلع على القلوب وعلامة ذلك الطاعة بدون تردد والسبق للخيرات والوقوف عند كتاب الله بالعزائم ما امكن، ومعنى ذلك ان يؤدي الاوامر وينتهي عن النواهي بأفضل ما يستطيع حتى وإن كان له ثَمّةَ فسحةٌ في الرُّخَص.

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (5) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (6) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى

الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (7) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (8)

الجدلُ المذكور في هذه الآيات كان قد حدث قبل معركة بدر. وجاء ذكره هنا على اثر خلاف المجاهدين بعد معركة بدر على الأنفال. فظهر بذلك حكمُ الله تعالى في ما لا يصح فيه الجدل. فقد جادل بعض اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشأن الخروج لملاقاة كفار قريش والتصدي لقافلتهم. وانقطع الجدل إذ تم تخويلُ الرسولِ صلى الله عليه وآله وسلم بالبَتِّ في تقدير المواقف. فكان على المؤمنين إذ تبين لهم الحقُّ أن يتوقفوا عن الاجتهاد والجدل فيه. والطائفتان المذكورتان في الآية السابعة هما: غير ذات الشوكة (القافلة) والمقصود بالشوكة: القدرة القتالية، والأُخرى (مقاتلو قريش). والظاهر يدل على سهولة التصدِّي للطائفة الاولى أي القافلة وكانت تحمل تجارةً لكفار قريش قادمة من الشام ومعها اربعون فارسا على رأسهم أبو سفيان، بينما كانت الطائفة الثانية تتكون من مقاتلين من قريش يزيدون على الف مقاتل عليهم ابو جهل. ومما رواه محمد بن اسحاق بن يسار صاحب كتاب المغازي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم استشار المؤمنين. فلما طلب فريق منهم مهاجمةَ القافلة واغتنام تجارتها، بدا الغضب على وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقام عندئذ ابو بكر وعمر رضي الله عنهما فوعظا وقالا: "كيف ترون؟" فقام المقداد بن عمرو فقال "يا رسول الله امضِ لما امرك الله به فنحن معك. والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى: إذهب انت وربُّك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون، ولكن إذهب انت وربك فقاتلا إنّا معكما مُقاتِلون". وعاد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال ((اشيروا علي))! فقال سعد بن معاذ – وهو من سادة الانصار –: "والله لَكأنك تريدنا يارسول الله؟" فقال ((أجل)) فقال "وقد آمنا بك وصدّقناك وشهدنا ما جئت به هو الحق واعطيناك

على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامضِ يا رسول الله لما أمرك الله فوالذي بعثك بالحق ان استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما يتخلف منا رجل واحد وما نكره ان تلقى بنا عدونا غدا. انا لصَبْرٌ عند الحرب صِدْقٌ عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينك فسِرْ بنا على بركة الله". فسُرَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك وقال ((سيروا على بركة الله وابشروا ان الله وعدني احدى الطائفتين والله لكأني انظر الى مصارع القوم)). ويريد الله تعالى اعلاء كلمته بإحقاق الحق.

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (9) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (10)

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، إستعرض عدد المؤمنين وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر مجاهدا معه، وفيهم من لم يتهيأ للقتال ظنا انهم يخرجون لملاقاة القافلة، وكان قد وصله خبر عدد مقاتلي قريش ومَن معهم بما يزيد على الألف ومع علمه أن القوة لله جميعا فقد دعا الله القوي العزيز متبرئا من قُواهم البشرية، مستنجدا بالقوة الالهية. وجاء في التفاسير انه صلى الله عليه وآله وسلم استقبل القبلة وعليه رداؤه وإزاره ثم قال ((اللهم انجز لي ما وعدتني، اللهم ان تَهلِك هذه العصابة من اهل الاسلام فلا تُعبَد في الارض أبدا)) فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه ابو بكر رضي الله عنه فأخذ رداءه فرده ثم التزمه من ورائه ثم قال "يا نَبِيَّ الله كفاك مناشدتك ربك فإنّه سيُنجِز لك ما وعدك". فأنزل الله عز وجل هذه الاية وامدهم ونصرهم. اما قوله تعالى (مردفين) أي بعضهم على اثر بعض. وبقية اخبار المعركة معروفة في كتب السيرة ويذكر هنا أنّ حصيلتها كانت قتلَ سبعين مشركاً وأسْرَ سبعين من مقاتليهم.

وهكـذا بـدت حكمـة الله في اعـلاء كلمته عـلى ايـدي الصـادقين في الطاعـة والدعاء.

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (11) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (12) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (13) ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (14)

كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أخذتْه سِنَةٌ من النوم في عريشٍ. وكان معه ابو بكر رضي الله عنه. فلما أفاق تبسّم وقال لصاحبه ((أبشر أبا بكر هذا جبريل على ثناياه النَّقْعُ)). والعريش هو خيمةٌ من خشب وأغصان. والنقْع هو هنا غبار المعركة. ثم خرج من باب العريش يتلو قول الله تعالى في سورة القمر: ((سيُهزَمُ الْجَمعُ ويُولّون الدبُر)). وقد جعل الله تعالى في هذا النعاس سكينةً كانت لها اهميتها في هدوء النفس وتدبر مواقف القتال ونتائجها. واما نزول المطر فقد ساعد على تماسك أرضٍ رخوة كان المجاهدون يخشون من الدخول فيها فتسوخ قوائم الخيل والأقدام فيها. فلمّا تماسكت تمكن المجاهدون من إجتيازها الى العدو بعدما تطهروا وتوضأوا منه. وهكذا ربط الله تعالى على قلوبهم أي منحهم الشجاعة. ثم جاء مدد من السماء بالملائكة مقسومين يمينا وشمالا مما زاد الله بهم قوة المسلمين مع البشارة بالنصر مقترنةً بضَعف المشركين بما القى الله في قلوبهم من رعب. فكان للسيف اثره فوق أعناقهم. وهكذا عاقبة مشاقّة (معاداة) الله والرسول صلى الله عليه وآله عقاباً شديداً. ولا ينجو الكافرون في الآخرة من عذاب النار.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (15) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (16) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (17) ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (18)

للقتال في الحروب القديمة صفحاتٌ يحتّمها لِقاء العدو. فإذا كانت المبادرة بيد المؤمنين في الهجوم فهذا يتطلب الإقدام المدروس وفق خطة تناسب الموقف، اما اذا كانت المبادرة من الكافرين وقد زحفت جموعهم فهذا يتطلب الثبات والدفاع او الخدعة وتبديل المواقع الاكثر ملاءمة للدفاع. وعن هذا عبر سبحانه وتعالى بقوله ((إلا متحرِّفا لقتال)) أي خطة جديدة مباغتة للعدو. واما ((متحيزا الى فئةٍ)) فإلى جَمْعٍ آخر موقعهم أصلح للدفاع. وما عدا ذلك فالهزيمة لا تليق بالمؤمن مع ثقته بِربّه العزيز. ويترتب على الهزيمة غضب المولى الحكيم وعقابه. كما اعتبرها الشرع احدى السبع الموبقات: (الفرار من الزحف). اما في حالة ثِقَلِ العدو فقد جوّز الفقهاء الانسحاب على نِيّة التحصن وإعادة التنظيم على ان يحدِّدَ الأمير المواقعَ التي يفيء اليها المقاتلون او يوجههم اليها أُمراؤهم. فقد روى ابو عثمان النهيري قول سيدنا عمر رضي الله عنه "أيها الناس انا فئتكم" (أي الإنسحاب الى موقع الإمام أو الامير عند ثِقَل العدو). ثم قال رضي الله عنه "ايها الناس هذه الاية انما كانت يوم بدر، وانا فئة كل مسلم." حيث ان مثل هذه الاية لم تنْزِل في معركة اخرى. ونعود الى (بدر) التي حملت عوامل النصر وأظهرت ثقة الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم. ومنها عوامل خَفِيَتْ على كثير مِن المجاهدين لكثرة مَن قُتل ومَن أُسِر من الكفار. وكان المجاهدون قد دُهِشُوا مما أصاب أعينَ الأعداء من تراب فأخبرهم تعالى بالعوامل الخافية عليهم فقال في القتلى: ((فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم)) وقال في تراب الأعيُن: ((وما رَمَيْتَ إذ رَمَيْتَ ولكنَّ

اللهَ رمى)) إذ كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد تناول حفنةَ ترابٍ وألقاها بإتجاه الكفار قائلا ((شاهَتِ الوُجوه)). وهو قول يعني: قبّح الله هذه الوجوه. وهكذا اذا كان العمل لله تعالى أمَدّه تعالى بالتوفيق خلاف العمل لِهوى الأنفُسِ الذي عاقبته الخيبة. واما قوله تعالى ((ولِيُبْلِيَ المؤمنين منه بلاءً حسنا)) فهو ضرورة الجهاد مع قدرته على نصر جُنْدِه. ثم وعد الله تعالى عباده المؤمنين بأنّ الكفار اذا حاولوا الكرّة فهو موهنُ كيدِهم فلا بُدّ من قتالهم أيضا.

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (19)

القلوب الزائغة ترى قبيحها حَسَنَاً. وهكذا رأى ابو جهل (كما ذكره محمد ابن اسحق) انه وكفار قريش الفئةُ الْمُحِقّة في محاربة المسلمين. وسُمِع يومَ بدرٍ يقول: "اللهم ايُّنا كان أقْطَعَ للرَحِم وأتانا بما لا يُعرَفُ فأحْنِهِ الغَداة". هكذا رأى في الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم: (قاطعا للرحم اتاهم بما ليس بمعروف)! وكان كفار قريش قد تعلّقُوا بأستار الكعبة لدى خروجهم لقتال المسلمين ودعَوُا اللهَ أن ينصر أعلى الجُنْدَينِ وأكرَمَ الفئتين وخيرَ القبيلتين. وحقق الله تعالى نصر أكرمِ الفئتين: المؤمنين. وفي الاية ترغيب لقريش لينتهوا عن الكفر فإن أبَوا وعادوا فإن الله تعالى لم يجعل فئتهم الكثيرة ذات اثر، بل يكون بنصره مع المؤمنين. وقد تحقق للمؤمنين نصرُه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (20) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (21) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (22) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (25)

الاستجابة للحق دليل على صحة الإتجاه العقلي. وعلامتها الطاعة بدون تردُّد. ومن تولّوا عن الإستجابة لله تعالى فإن مَثَلهم كمثل دابة صماء، وهي شرُّ الدواب. فقد سبق علم الله تعالى بأنهم لو سمعوا لَما استجابوا فلا خير فيهم. وبعد هذا المثل يدعو الله تعالى عباده المؤمنين للاستجابة ويحذرهم زيغ القلوب الذي لا ينجو منه إلا الذين استجابوا والتزموا بالمعروف وانتهَوا عن المنكر. وقد روى الامام احمد في مسنده عن عَدِيِّ بنِ عُميرةَ رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((ان الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على ان ينكروه فلا ينكرون فاذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة))". أي ان شؤم عمل اهل المنكر وعدم انكاره عليهم يعم الاخرين الذين معهم. كما روى الامام احمد عن ام سلمة رضي الله عنها (ام المؤمنين) قالت: "سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ((اذا ظهرت المعاصي في أُمّتي عمّهم الله بعذاب من عنده)). قالت فقلت: يا رسول الله اما فيهم اناس صالحون؟ قال ((بلى)) قالت فقلت: فكيف يصنع اولئك؟ قال ((يصيبهم ما اصاب الناس ثم يصيرون الى مغفرة الله ورضوان))".

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (26)

المهاجر بنفسه يكون من الفقر والجوع بمكان شديد وقد هاجر لينجو من اعداء محيطين به. فهو اضافة الى فقره، خائف. وهكذا كان من يهاجر الى الله ورسوله من مكة قبل الفتح. ولكن الله تعالى تولّى المهاجرين فآواهم بتآخي كل منهم مع مؤمن من الانصار. ونصر الجميع ورزقهم ببركة الطاعة لله وللرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلّم ثمّ رغّبهم سبحانه بالزيادة في شكره.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (27) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (28)

للخيانة أوجُهٌ متعددة؛ فأمّا خيانة الله فهي التغافل عن رقابته معَ نِيّةٍ مُبيَّتَةٍ على ترك اوامِرِه وإغفال نواهيه وبَيَاتِ ما لا يرضى من القول، وأما خيانة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فبالنسبة لوقت نزول الآية فهي نفاقُ مَن آمن به بلسانِه وخذله في لقاء العدو، ولم يتصفوا بصفات الصحابة الصادقين رضي الله عنهم في حفظ أسراره وتنفيذ المهمات التي يوكِلُها اليهم بحزم وصدق وفي الصبر والعفة في صحبته صلى الله عليه وآله وسلّم. وبالنسبة للتابعين اي الذين عاصروا الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً ولأجيال المسلمين اللاحقة فالخيانة هي ترك سنته إهمالا متعمَّدا وخيانةُ ارض الاسلام وتربة الوطن. واما أوجُهُ الامانات الاخرى فهي ما يدخل في علم المؤتَمَن انها خيانةُ أمانةٍ، سواء وقع اثرها على الدِّين او المال او الاشخاص. ويشير المولى عز وجل في الآية الثانية إلى حب الدنيا، اذ ان اهم ما فيها الاموال والاولاد. وقد يكونان سببا للخيانة. فإما أن يُفتَتَن المرء بحبها، او يعتصمَ بالله تعالى فيكسب الأجر العظيم جزاء الإعتصام والنجاح فيه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)

يبشر الله تعالى اهل التقوى، في معنىً متّسع بما أعدّ لهم. فالفرقان هو تمييز الحق عن الباطل وكذلك المعروف عن المنكر. وهكذا يسدد خطاهم و يأخذ بنواصيهم الى الخير، ويبعدهم عن الشبهات. واما (التكفير عن السيئات) فقد ورد ذكره مع الصغائر من الهفوات والذنوب التي لا تُعتبر من الكبائر. بينما ورد ذِكر (الغفران) مع الكبائر. وبالطبع تكون بداية التقوى التوبة النصوح التي تطفيء غضب الرب جل جلاله على ما فعل التائب عن ذنب ومعصية قبلها. وهذا فضل من الله ذي الفضل العظيم.

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (30)

هذه اشارة الى نجاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في مكة من مكر كفار قريش قبيل الهجرة. اذ بيّتوا مؤامرةً لقتله بعدما طرحوا عدة اقتراحات للتخلص منه. منها: ليُثبِتوه أي بتعويقه وبذلك يُلزِمونه بيتَه فلا يدَعونه يبرحه فلا يتصل بأحد ولا يسمحون بذلك لأحد. ومنها لينفوه من مكة فيمنعون بعد ذلك دخوله اياها, ومنها قتلُه. حتى استقر رأيهم على هجْمةٍ متعدِّدةِ الرجال من عديد من القبائل ليتوزع دمه عليهم فلا يُعرَف عندئذٍ قاتلُه ولا تقاوَم قبائلُهم. ولكن الله تعالى اسرع مكرا. اذ امره ان لا يبيت في مضجعه واذن له بالهجرة وهكذا كان مكر هؤلاء الكفار وَبالاً عليهم اذ ان الهجرة الشريفة اضحت بدايةً للنصر عليهم واستِئْصال شركهم. وفي اللغة يطلق المكر من البشر على اخفاء النوايا السيئة للوقيعة بالآخرين ظلما وعدوانا. اما مكر الله تعالى فهو جزاء مكرهم عدلاً منه ونصراً للمؤمنين ويكون رداً على فعلهم.

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (31) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (32) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (34) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (35)

سبق في الاية الخامسة والعشرين من سورة الانعام ذكر النضِرِ بنِ الحارثِ الذي كان يأتي بأساطير الفرس وملاحمهم مثل ملاحم رستم واسفنديار مع احاديث العجم. وهو الذي قال بعد سماعه لآيات الله تعالى: "لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين" فردَّ عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله

((ويلك هذا كلام الله)). وهنا رفع النضر رأسه الى السماء ودعا الله بقوله: "إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطِر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب أليم". فبين المولى عز وجل انه ما كان ليعذبهم ورسوله فيهم او (وهم يستغفرون) وكان فيهم من يكتم ايمانه ويستغفر. والاستغفار يُزيل تراكُمَ الذنوبِ. ولما هاجر المستضعَفون من اهل الايمان من مكة انزل الله تعالى قوله عن المشركين: ((وما لَهُم ألّا يعذّبَهم الله ..)) وفيها إشارة الله تعالى إلى ما عذب به المشركين عند فتحِ مكة من جوع وضُرٍّ فاستثناهم من عفوه اذ لم يكونوا يستغفرون. كما لم يقبل منهم ادعاءهم ولاية أمرِ المسجد الحرام فكذبهم لِكفرهم ولِصدِّهم عن المسجد الحرام. وجعل اهل التقوى أولياءه. وكذَّب تعالى كونهم يُصَلّون عِنْد البيت إذ كشف كُنْهَ صَلاتِهم فلم تخرج عن كونها صفيراً وتصفيقا وهو التصدية. وصفيرهم يشبه صوت الْمَكّاء (بتشديد الكاف) وهو طير معروف عندهم. واما طوافهم فكانوا يعاكسون فيه طواف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم من اليمين الى الشمال. واستوجب كفرُهم عليهم من الله تعالى أن أذاقهم العذاب.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (36) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (37)

الأموال المقصودة هنا هي أموال القافلة التي سَلُمَتْ من المؤمنين خصّصَها كفار قريش للثأر لقتلاهم في بدر. فقد طَلَبَ ذوو قتلى المشركين في بدر أن تُنْفَقَ اموال القافلة لهذا الثأر والمقصود به القضاء على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه. فوافق أصحاب المال وتحضروا لغزو المدينة. وحكم الآية يعمُّ كلَّ ما يُنفَق للصَدِّ عن سبيل الله. أما تمييز الخبيث من الطيب فيكون في الدنيا كما يكون في الآخرة. ففي الدنيا يتميز الخبيث بنفقته لنعمة الله تعالى لمحاربة دينه،

وفي الآخرة يتميز بالشقاء في عذاب جهنم. فلولا ان الله تعالى اعطاهم هذا المال لَما ارتكبوا به ما اوجب لهم النار. وهكذا يتراكم اعداء الله تعالى حاملين صفة الخبث التي لا مكان لها في جنان الْخُلْد فتُلقى مجاميعُهم مجتمعةً في النار، وانقلب كسبهم للمال الى خسارة الدنيا والآخرة.

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (38) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (39) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (40)

من أوجُهِ رحمة الله تعالى في رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلّم أن تُوجَّهَ الدعوةُ للأعداء ليكفّوا عن معاداةِ الدِّينِ الحقِّ ولينتهوا عن الكفر وبذلك ينالون المغفرة على ما بدر منهم من عداء وصَدٍّ عن سبيل الله. وهذه الدعوة حجةٌ على من يُصِرُّ على الكفر ورحمةٌ لمن يثوب الى الرشد فيؤمن بالله ورسوله ودينه الحق. ويذكّر المولى تعالى الذين يُصِرّون على الكفر بما حصل من شقاء لخصوم الانبياء في الرسالات السابقة. وهذه سُنّة الله تعالى في من يُصِرُّ على عداوة الدين. وهؤلاء وجب قتالُهم كي لا يكونوا اقوياءَ يوماً ما بالمال والعُدة والعدد ليعملوا على إضعاف المسلمين او فتنتِهم عن دينهم أي ردِّهم عنه. ويقاتلون حتّى يكون الدين كله لله. وقاتَلَهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم. والله تعالى تولّى رسوله والمؤمنين بنصره حتى أذِنَ بفتح مكة. فكان تعالى نعم المولى والنصير. ودخل الناس في دين الله. والتفصيلُ في سورة التوبة إن شاء الله تعالى.

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (41)

لم تستَثنِ هذه الآية من الغنائم شيئا مهما صغُر. فقد روى الامام احمد بن حنبل في مسنده عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم اخذ بعد معركة بدر وَبَرَةً (أي شعرة وَبَرٍ) من بعير من إبل الغنائم وقال: ((ان هذه من غنائمكم وانه ليس لي فيها إلا نصيبِي معكم: الخمس، والخمس مردود عليكم فأدُّوا الخيط والمخيط واكبر من ذلك واصغر ولا تغُلُّوا فإن الغُلُولَ عارٌ ونارٌ على اصحابه في الدنيا والآخرة وجاهدوا الناس في القريب والبعيد ولا تُبالوا في الله لومة لائم واقيموا حدود الله في السفر والحضر فان الجهاد باب من ابواب الجنة عظيم ينجي الله به مِن الْهَمِّ والغَمّ)). وقد جاء في التفاسير ان المردود الذي قصده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو ما ينسبه الإمام كما فعل الرسول صلى الله عليه واله وسلم لذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تتطلبه امور الرعية من مصالح عامة تستحدثها الحكومة. وخصص سهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم لإعداد عدّة الحرب. وصُرِف سهم ذوي القربى لقرابته عليهم السلام من بني هاشم وبني المطلب. ويخرج من الخمس المال الموعود لخواص المجاهدين تنفيذا للدعوة المقطوعة لهم على تنفيذ ما وُعِدوا لِأجْله. (انظر ما جاء في شرح معنى الآية الاولى من هذه السورة). وهذه الوعود هي المقصودة بقوله تعالى هنا (وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) اذ سمي يوم بدر يوم الفرقان، أي يوم فَرّق الله تعالى بين الحق والباطل. اما عن الخُمُسُ الذي لله تعالى ولرسوله ولذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل فقد وردت ثلاثة أقوال في تفسير ابن جرير الطبري رحمة الله عليه نقلها ابن كثير في تفسيره لهذه الآية؛ الاول: اختار ابن جرير أنّ الخمس مردود على بقية الاصناف أي ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، والثاني: ان سهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسهم ذوي القربى مردود على اليتامى والمساكين وابن السبيل بمن فيهم من تشمله الصفة هذه من ذوي القربى. وعقَّب على ذلك بقوله "وذلك قول جماعة من اهل العراق". والثالث: بقوله "وقيل الخمس جميعه لذوي القربى" قال "سئل

محمد بن علي -يقصد الامام الباقر- وعلي بن الحسين -يقصد والده الامام زين العابدين عليهما السلام- فقالا: ((هوَ لنا)). قال: فقيل لعلي، أي زين العابدين رضي الله عنه: فإن الله تعالى يقول واليتامى والمساكين وابن السبيل؟ فقال: ((لِأيتامِنا ومساكيننا)). وهذا طبعاً بعد عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم حيث كان القِسمان أي الّذان لله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم يخصصان لعُدَّةِ الحرب. واما سهم ذوي القربى فيصرف لبني هاشم وبني المطلب. وبعد هذه الحقبة من الزمن أخذت الحكومة على عاتقها تخصص الخمس لمن كان في حاجةٍ من اليتامى والمساكين وابناء السبيل. واما ليتامى الاغنياء فلم يخصص لهم شيء. ويقصد بالمساكين كل من لا يتمكن من تدارك ما يسد به عَوَزُه وحاجاته الضرورية لقلة دخله ومورده. اما ابن السبيل فهو المنقطع عن أهلِه وبلده وعمن يساعده من معارفه ولمسافة تقصر فيها الصلاة وليس لديه ما ينفقه على سفره الى اهله او هدفه من السفر. وكذلك اخذت الحكومة على عاتقها تخصيص ما يلزم لعدة الحروب وهذا يدخل في المصالح المرسلة لعامّة المسلمين.

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (42) إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (43) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (44)

المقصود بالعُدْوَة الدنيا هي مقتربات الوادي وتخومه القريبة من جهة المسلمين في المدينة. والمقصود بالعدوة القصوى هي التخوم والمقتربات من الجهة الأُخرى من الوادي من جهة مكة حيث قدِم منها المشركون. والمقصود بالركب قافلة مشركي

قريش بقيادة ابي سفيان ومسارها في بطن الوادي اسفل منهم. ولم يكن أي من الفريقين على تقديرٍ للزمن الذي يلتقي عنده مع الفريق الآخَر. فكان الموعد من جملة اللطف الرباني في تقدير عوامل النصر. وقد قلل الله كل فئة في اعين الفئة الأُخرى مما جعل كُلاً منهما يصر على القتال فيهلِك الهالكُ مُصِرّاً على الكفر فلا حجة له في خلاف ذلك. ويَحْيَ اهل الحق مجاهدين في سبيله إذ لو لم يَرَ المؤمنون في الكافرين قِلّةَ في العدد لعلهم فاتحوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأكثر من مشورة مما يسبب التنازع. ولكن القلة لا تدعو للمنازعة اذ لا يحسب لها حسابُ الكَثْرَةِ. وهذا ما حصل في جهة المشركين. وهكذا اقدم كلا الطرفين على المواجهة التي ارادها المولى تعالى وجعلها سببا لنصرة دينه. وإليه تُرجَع الأمور.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (45) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (46) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (47)

في مواقف تتطلب الثبات يجعل المؤمنون أوّلَ تقديرٍ لهم في لقاء العدوّ أنهم على حق وان الله تعالى مع الحق ويريدهم ان يثبتوا عليه وهنا يوجِّه المولى تعالى إلى ذِكْرِهِ مكثرين من ذلك. وبذلك يؤملهم تعالى بالفلاح. وثاني تقدير لهم ان طاعة الله تعالى وطاعة رسوله الذي لا ينطق عن الهوى سبب في وحدة كلمتهم من جهة وفي إمداد صبرهم بالعزيمة من جهة اخرى. وان يعلموا انهم انما يدعون الى الله تعالى من غير شريك خلاف من يخرج لغير الله عز وجل وهم كفار قريش وقد ابطرتهم النعمة بسلامة القافلة فقد بشّرهم ابو سفيان بذلك اذ سبقها اليهم. فأصر قائدهم ابو جهل على قتال المسلمين وكشف نواياه بقوله: "حتى نَقدِمَ بدراً ونشرب بها الخمور وننحر الجزور وتعزف علينا القِيان ونُطْعِمُ بها العرب". أي

ينتشي بلذة النصر وتغني لهم الجواري والْمُغنِّيات بمديح وفخر. فخيبهم الله تعالى اذ حقق لهم وصول بدر وسقاهم كأس المنية وناحت عليهم النائحات وذاع خبر خذلانهم بين العرب ونصر الله تعالى دينه واعز جنده. وهذه المعونه الربانية في قهر العدو ونصر اهله بشارة لكل المؤمنين في كل زمان ومكان اذا توفرت عوامل الثبات والذكر الكثير والنية الخالصة لله تعالى والطاعة له ولِوليّ امر المسلمين منهم، فيكتب المولى عز وجل لهم صدقهم في طاعته وصبرهم على ابتلاءاته ويكون معهم فالله مع الصابرين.

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (48) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (49)

وكشف المولى عز وجل ما كان عليه المشركون والمنافقون من مفاهيم أوصلتهم للفشل يوم بدر على خلاف ما كان عليه المؤمنون مِن توكُّلٍ على ربهم العزيز الحكيم. فقد ذكر محمد بن اسحاق بن يسار في كتابه المغازي عن ابن عباس رضي الله عنه ان ابليس خرج مع قريش في صورة سُراقةَ بنِ مالك من قبيلة جشعم فلما حضر القتالَ ورأى الملائكةَ نكص على عقبيه وقال: "إنّي بريء منكم". فلما تشبّث به الحارث بن هشام نَخَرَ في وجهه فخَرّ الحارث صعِقا فقيل له "ويلك يا سراقة على هذه الحال تخذلنا وتتبرأ منا؟" فقال: "إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني اخاف الله والله شديد العقاب". وفي التفاسير ان قريشا كان لها عداوة مع بني بكر المتواجدين في المنطقة. وكان سراقة بن مالك بن مدلج سيد قومه بني جشعم من قبائل المنطقة من كنانة مما جعل كفار قريش يطمئنون الى ان احدا من اعدائهم من بني بكر لن يتعرض لهم في القتال مع المسلمين. واما المنافقون فانهم لما رأوا قلة عدد المؤمنين وثقة المؤمنين بربهم تعالى

توكّلاً عليه اعتبروا ذلك غرورا من المؤمنين لا مبرر له. ولكن الله تعالى خيّب ظنونهم وأعزّ جُنْدَه. وكان هؤلاء المنافقون والذين في قلوبهم مرض فئة من قريش لم تشهد القتال بل سمعت بقلة عدد المسلمين فأوّلوا ذلك بأن الدين قد بعث فيهم الغرور فقالوا كلمتهم الخاطئة تلك. ولو كانوا على الثقة التي كان عليها المؤمنون بربهم بأن ينصر من يستحق النصر ويخذل أعداءهم لآمنوا بالله وجاهدوا في سبيله.

وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (50) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (51) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (52)

تمتنع نفسُ الكافر عندما تعاين الموت عن الإذعان لما تراه من عذاب هي مقبلة عليه. فتهرب من قبضة الموكول بقبضها الى الوجه فتُضرَب فتهرب الى الادبار فتُضرب حتى تيأس فتستسلم لعذابٍ كفَرَتْ به. ويُكشَف لها العذاب بما يناسب اعمالها في الحياة الدنيا. وليس في ذلك ظلم ممن حرَّم على نفسه الظلم سبحانه وتعالى. ونزلت هذه الآيات في قتلى كفار قريش في بدر وهي عامة لكل كافرٍ يُشهِر الحرب على الاسلام كما حصلت لآل فرعون وتحصل لأمثالهم الكافرين بآيات الله. أي الذين يرتكبون ضدها ذنوب التكذيب والمحاربة حتى يأخذهم المولى اخذ عزيز مقتدر.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (53) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (54)

زالت نعمة فرعون وآلِ فرعون بعدما جاءتهم البينات بالحق ليعبدوا الله مخلصين له الدين. فكانت رؤيتهم لهذه البينات بعيدة عن الشكر والطاعة. وتغيروا عليها بالتكذيب. ثم فَعَلَ كفار قريش نفس الشيء في تكذيب الحق الذي ظهر لهم في رسالة الله تعالى مع سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلّم. وكما اهلك الله تعالى آلَ فرعون بالغرق فقد اهلك ابا جهلٍ ومن ناصره. وما أُهلِكوا إلا بظلمهم. وفي هذا من العبر ما يدعو الى النجاة ويحذر من الهلاك.

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (55) الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (56) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (57)

كشف المولى عز وجل تقويم اهل الكفر عنده بأنهم أسوأ الدوابِ شرّاً, والدواب: كل ما يدب على وجه الارض. فمن أُوتوا العقلَ وجاءهم رسول من الله تعالى ولم يؤمنوا كان غيرهم من الدواب افضل منهم لأنّ فطرة الدواب تبعدها عما يضرها. ومن صفات الكافرين نقض العهود كلما حانت لهم فرصة يظنون انها مؤاتية للغدر لا يراعون للأيمان التي اقسموا بها أي قيمة. وهنا يبشر المولى بغلبة المؤمنين في معركة بدر ففي هذه الحالة لا بد من النكال بالكافرين أي أخذهم بالعقاب الغليظ ليكونوا عبرة في الذاكرة تمنعهم وغيرَهم من الوقوع بمثل هذا المصير.

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (58) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (59)

الخيانة تكون بعد إبرام عهد من العهود فيبادر أحد أطرافه بنقضه صراحة أو بنقض جزء منه. وعند هذه المبادرة، أو ظهور دلائل على حصولها عند الطرف الآخر أو عند التخوف من ذلك، يبادر ولي الأمر بإتِّباع ما أمَرَ اللهُ تعالى به هنا رسوله صلى الله عليه وآله وسلّم بأن يُشعِر الطرف الذين يحتمل أن يخونوا أو إنقضت مدة عهدهم بأن العهد قد انتهى بينهم وأن يتوقعوا الدخول في حرب معهم؛ فإما أن يُسلِموا، او يعطوا الجزية، او يكونَ هذا الإعلام إنذاراً بالهجوم في ايّة لحظة عليهم. واشار تعالى الى ان الكفار الذين عاهدوا رسوله صلى الله عليه وآله وسلّم ويريدون الخيانة أو إنقضى عهدهم لن يتمكنوا من الإفلات من نطاق قدرته تعالى وقَهْرِه متى شاء.

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (60) وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (61) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (62) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (63)

مع أن الله تعالى بشَّر المؤمنين بقيادة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالتفوق والنصر الا انه يأمر ببذل المستطاع للعدة الحربية فهي مظهر يبعث الرهبة في قلوب الكفار، أي المعلنين كفرهم صراحة ثم خائني العهد ومَن خلفهم أي المنافقين الذين لم يصرِّحوا بكفرهم وأظهروا الايمان كذبا. فتلك القوة تحذرهم من إظهار كفرهم او ممالأة الاعداء. ويأتي دور الإعداد فانه يتطلب المال ينفقه المؤمنون عن

طيب خاطر لنصرةِ الله تعالى. فإذا بالوعد الرباني يأتي بانه سيخلف المال أي يوفيه اليهم فلا يلحقهم ظلم أي خسارة من غير كسب. وبعد المنابذة المذكورة والاعداد للحرب وارهاب قلوب الاعداء، يرجح احتمال طلبهم للسلم. وهنا يكون للمؤمنين نصر بلا قتال. ولهذا امر تعالى بأن يُلَبِّيَ طلبهم للسلم من موقف القوة والاتكال على حماية الله تعالى. فإذا تململوا للخديعة وظهرت بوادرها فإنها لا تضرّ من استعد وأعَدَّ ثم استعان بالله متوكلاً عليه. والسوابق تؤيد ذلك مع اخلاص المؤمنين وتآلفهم على قلب واحد بفضل الله تعالى وليس بالأموال مهما كثرت فالقلوب لا تأتلف إلا بفضله ويوفقها لنصرته سبحانه. كما أن النصر على الكفار لا يعني قتل الكفار بل قتل الكفر فاذا امتثل الكفار بأقل خسارة كان ذلك افضل للمسلمين وهو تعالى عزيز كتب العزة له ولرسوله وللمؤمنين واظهر حكمته في هذه القدرة التي لا تُقهَر.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (64) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (65) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (66)

جعل الله تعالى من ذاته في قُدرته كافياً للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وللمؤمنين في قتال اهل الكفر. واما تحريض المؤمنين على القتال فيشمل دعوتهم للقتال وحثهم عليه وتشجيعهم على مواجهة العدو وترغيبهم بالجنة. ثم امتحن الله تعالى شدة مصابرتهم إذ أن الصبر يزداد بازدياد العدو. وقد صابروا حتى أيقنوا ان المعادلة ثقلت عليهم لَمّا أُعتُبِر توقفهم عن مهاجمة عشرة اضعافهم فما دون فِراراً من

الزحف عند ذاك خفّف المولى عز وجل عنهم بتخفيف المعادلة فعادل المؤمن بإثنين من أهل الكفر. فإذا وُجد عددُ أهلِ الكفر أكثرَ من ضِعْفِ عددِهم يُرخِّص أميرُهم بالتوقف عن الهجوم على ان تكون النية هي لتوفير العدد وإعادة التنظيم ثم الجهاد. وفي التفاسير يُترَك للمؤمنين الخيار في القتال حتى وإن كان عددُهم أقلّ من نصف عدد الكفار. وهذه من العزائم الايمانية لدرء الخطر عن حياض الدين ((وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله)).

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآَخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (67) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (68) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (69)

اخرج محمد بن اسحاق بن يسار في كتاب المغازي عن ابن عباس رضي الله عنهما في غزوة بدر قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((إنّي قد عرفتُ أُناسا من بني هاشم وغيرهم قد أُخرِجوا كَرهاً لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقي منكم أحداً منهم فلا يقتلْه. ومن لقي البختريَّ بنَ هشام فلا يقتلْه ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتلْه فإنما أُخرِجَ مُسْتَكْرَهاً)). هؤلاء المؤمنون كانوا في صفوف كفار قريش يكتمون ايمانهم. وهذا القول يعطينا دلالة على صنف من اصناف الاسرى وفيهم من كتم اسلامه وخرج مكرها ولم يبذل الجهد الصحيح في القتال. واما الصنف الثاني فهم غير المؤمنين. وهم على شاكلتين فمنهم من لم يُرِدِ القتال ولم يشتد في العداء ولا يُخشى منه إن أُطلق سراحه، ومنهم من اشتدت عداوته وتوعد المسلمين لئن تمكن منهم ليفتكن بهم. وهنا يأتي ذكر النضر بن الحارث الذي ورد ذكره في الآية الخامسة والعشرين من سورة الانعام اذ استهان بكلام الله تعالى فاعتبره

اساطير الأوّلين، وفي الايتين الحادية والثلاثين والثانية والثلاثين من هذه السورة. اذ انه توعد المسلمين ان ظفر بهم ليفتِكَنَّ بهم ثمّ أسره المقداد في يوم بدر. فقد أمَرَ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بقتله (كما يحصل الان لمجرمي الحرب). اذ انه لو ترك لعاد لموقفه العدائي الشديد من المسلمين. وأمّا الفداء أي اخذ الفدية من الاسرى فمتروك للامام بشرط أن لا يقصد بذلك عَرَضَ الدنيا بل نصرة الدين. واوصى تعالى بإطعام الاسير من جيد الطعام وامتدح من يفعل ذلك. فكان الذين يُرجى صلاحهم للايمان يُتركون معززين مكرمين فيدخلون في الاسلام. وكانت حروب الجاهلية تبيح لمن يأسر من خصمه مقاتلاً ان يأخذ الفدية له فنهى الله تعالى عن ذلك اذ جعل الامر لتقدير الامام ايهما اصلح للدين، الاخذ ام الترك. ويجدر هنا ايراد موضوع الاسرى الذين يبادلون باسرى المسلمين، فقد اجيز احتجاز بعض الاسرى الذين لا يخشى شرهم اذا كان في ذلك تبادل مع العدو لفكاك اسرى المسلمين لديه. وكذلك يجدر ايراد موضوع الاسرى من طائفتين من المؤمنين اقتتلتا فقد عفي عنهم بعد الاصلاح بين الطائفتين وان استوجب ذلك قتال الطائفة الباغية. فان كان الاسير منها فيطلب منه ان يتوب الى الله عن البغي على اخوانه ثم يخلى سبيله. ولم تؤخذ الغنائم من المسلمين حيث رد الامام علي كرم الله وجهه غنائم قتلى معركة صفين الى ذوي القتلى ما عدا السلاح. وهكذا يكون موضوع الاسرى موجها لوجه الله تعالى وليس لعَرَض الدنيا. واما اخذ الفداء من اسرى بدر فقد حصل قبل نزول الاية اذ شاءت الحكمة الربانية ان ينجوَ منهم من علم صلاحه وايمانه بعدها. وكان سيدنا عمر رضي الله عنه قد اقترح قتل الأسرى بإعتبارهم عَدُوّاً شديداً على الاسلام أي لو ظفروا بالمسلمين لما رحموهم. كما لم

يؤخذ بعد معركة بدر الفداءُ لأغراض الدنيا من اسير. واما غنائم الحرب بما فيها ما أُخِذ من اسرى اهل الكفر فقد أحلّها الله تعالى ولم تكن حلالاً في الأديان السابقة.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (70) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (71)

الاسرى الذين أسلموا بعد دفع الفداء وفُكَّ اسرُهم يُبَشَّرون إن صدقوا بأن الله تعالى سيخلف لهم ما أُخِذ منهم، واكثر من ذلك سيُغفَر لهم. وقد نزلت في العباس بن عبد المطلب حيث اخرج الطبري في تفسيره قول العباس: "فيّ نزلتْ فاخبرتُ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بإسلامي وسألته ان يحاسبني بالعشرين اوقية (من الفضة) التي أُخِذت مِنّي (فداءً) فأبى فأبدلني الله تعالى بها بعشرين عبداً كلَّهم مالي في يده". أي يتّجِرون بأمواله لحسابه. وأمّا توقُّعُ الخيانةِ من الأسير الذي يُظهِر الإسلام وقد يتحين الفرصة للخيانة، فعلى الإمام أن لا يَحسِب لذلك أهميَّةً إذ أنّ الله تعالى لهم بالمرصاد. وكما امكن منهم فهو قادر أن يعود عليهم بالخذلان بما أعدّ من علمه وحكمته لهم ما يضلهم ويحبط اعمالهم. وهذه الاية تشمل كل حالة مماثلة لكل حرب للمؤمنين مع اهل الكفر.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (72) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (73)

الموالاة تعني المعاونةَ والنُّصْرَةَ. فالمؤمنون بعد الهجرة إما مؤمن بقي مع المشركين في مكّـةَ وغيرِهـا، أو مـؤمن مُهـاجر مـن مكـة وغيرهـا إلى المدينـة، أو مـؤمن مـن الانصـار. فالمهـاجرون والانصـار جاهـدوا بأمـوالهم وأنفسـهم في سـبيل الله وقـد آخـى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم بين المهاجرين والانصار حتى كان المهاجر يرث اخاه الانصاري الى أن نزلت: ((وأُوْلُو الأرحام بعضهم أَولى ببعض)) فنُسِخ توارث المؤاخـاة بـين المهـاجرين والانصـار، وبقيـت المـوالاة. وبهـذا تـرك المؤمنـون مـوالاة غـير المسـلمين. وامـا غـير المجاهـدين في سـبيل الله بأمـوالهم وانفسـهم لسـبب خـارج عـن ارادتهم فليس لهم نصيب من الغنائم والفَيْء. الا ان كونهم من المسلمين أوجب لهم حق طلب النصرة اذا استوجب لهم ذلك، أي اذا لم يكن هناك ميثاق لعدوهم مع المجاهـدين المسـلمين. و لمـا كـان مـن شـروط هـذه المواثيـق ان لا يبـدأ احـدُ طرفيهـا بالقتال فإذا نقض الكفار العهد يجب عند ذاك قتالهم لنصرة المسلمين المستضعَفين. ولا يباح لمسلم موالاة الكفار ولا التوارث بينهم مهما كانت صلة القربى بينهم. وأما مـن سـكن مـن المسـلمين مـع المشـركين في أرضـهم فلـيس لـه مـا للمسـلم في ارض الاسلام من ذِمّةٍ اذ ان اقامة المسلم الدائمة بين ظهراني الكفار مع استطاعة الهجرة الى ارض الاسلام تعتبر من الكبائر ولا يُلَبّى طلبُه بالنصر اذ استنصر المؤمنين إلا ان ذلك لا يخرجه من دين الاسلام وصِفة الايمان. وهذه الصفة تجعله غير متجانس مع اهـل الكفـر ويخشـى عليـه مـن الفتنـة فحـذر الله تعـالى مـن ذلـك. وهـذا مـن فوائـد حصر الموالاة بالمسلمين بعضهم اولياء بعض.

وَالَّـذِينَ آمَنُـوا وَهَـاجَرُوا وَجَاهَـدُوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَالَّـذِينَ آوَوْا وَنَصَـرُوا أُولَئِـكَ هُـمُ الْمُؤْمِنُـونَ حَقًّـا لَهُـمْ مَغْفِـرَةٌ وَرِزْقٌ كَـرِيمٌ (74) وَالَّـذِينَ آمَنُـوا مِـنْ بَعْـدُ وَهَـاجَرُوا وَجَاهَـدُوا

مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (75)

دليل صدق الايمان ايام الهجرة هو هجرة مؤمني مكة منها ثم الجهاد في سبيل الله مع المهاجرين والانصار. ودليل النصرة من الانصار هو ايواء المهاجرين ومؤآخاتهم. وبشّر المولى عز وجل جميعهم بالمغفرة والرزق الكريم. واعتبر من يهاجر بعدهم ويجاهد بأنْ يحسب معهم وذلك قبل فتح مكة. وهذا يدلنا على ان تأخُّرَ الايمان لا يَمنع فضل الله تعالى للسابقين. وجاءت الاية الاخيرة لنسخ توارث المتآخِيَيْن من المهاجرين والانصار (كما شُرح آنِفاً) وحصرت ذلك بأُولي الارحام. وهذا التوارث حكم الله المكتوب في اللوح المحفوظ كما فرض لكل ذي حقٍّ حقَّه.

سورة براءة (التوبة)

أُعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم

السورة الوحيدة التي لم تُبدأ بالبسملة ــــ

روى الامام احمد في مُسْنَدِهِ عن ابن عباس رضي الله عنهما ان ابن عباس سأل امير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه عن سبب عدم بدء هذه السورة بالبسملة فقال عثمان رضي الله عنه: "كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السُوَرُ ذوات العدد فكان إذا أُنزِل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ((ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا)). وكانت (الأنفال) من أوّلِ ما نزل بالمدينة وكانت (براءة) من آخر ما نزل من القرآن وكانت قصتُها شبيهةً بقصتِها وخَشِيتُ انها منها وقُبِض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يبين لنا انها منها فمن أجل ذلك قرنتُ بينهما ولم اكتب بينهما (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ووضعتُها في السَّبعِ الطِوال".

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (1) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (2)

بعد أن أعز الله جُندَه ومكّنهم من المشركين في جزيرة العرب بعد فتح مكة، ولم يبق فيها ما يؤثّر عليهم في مهادنة المشركين، أعلن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم براءة اهل الايمان من اهل الكفر وبراءة الله تعالى ورسولِهِ من مُهادنة أهل الكفر الذين سبق لهم إعطاء العهود غير المحددة بموعد زمني اذ وضع حدّاً لتلك العهود بأربعة أشهر لا ينالهم سوء من جانب المؤمنين مع تذكيرهم بقوة الله تعالى وقدرته.

واما الذين لم يعاهدْهم المؤمنون فقد أعطاهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم خمسين يوما من يوم النحر أي العاشر من ذي الحجة إلى نهاية مُحرّم كما سيأتي.

وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (3)

أذانٌ: أي إعلان وإعلام من الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلّم الى الناس يوم النحر بالبراءة من المشركين. ثم دعاهم للتوبة والدخول في الاسلام وإلا فالعذاب مصيرهم في الدنيا والاخرة. وتضمّن الإعلام انْ لا يحجَّ بعد عام الحج ذاك مشركٌ ولا يطوفَ في البيت عُريان. ومَن كان له عهد عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو له الى مدته. واما طوافُ أهل الجاهلية مع العُرْيِ فكان من أوهامهم بسبب نزعهم ملابسَهم التي إدّعَوا بأنهم ارتكبوا فيها المعاصي!

إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (4)

أكّد الله تعالى الوفاءَ بالعهد فكان الذين لهم عهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم ينقضوا منه شيئا لهم الحرية في التجوال الى نهاية مدة العهد وهذا في العهود المحددة بمدة معينة. وهذه فرصة لهرب الذين يُصِرّون على الشرك. وبعد ذلك يُخَيّرون بين الايمان أو السيف.

فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)

الذين عاهدوا وصدقوا يؤمل لهم الدخول في الاسلام لصدقهم. اما الذين لم يؤمنوا ثم انتهى المحرم بعد موسم الحج المذكور ولم يهربوا الى ديار الكفر فقد اذن الله تعالى بقتلهم اذا لم يتوبوا. فإن اظهروا التوبة واقاموا الصلاة وأعطَوُا حق الله في أموالهم فإن الله تعالى أمر بتركهم أحراراً كبقية المسلمين واشار الى قبوله التوبة منهم بقوله: (إنّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ). وهكذا وجّهَ الله تعالى المؤمنين للتصرف بعد النصر مع المشركين داخل جزيرة العرب في الوقت الذي فيه فتح لهؤلاء باب التوبة وسلامة انفسهم وأموالهم بحقِّها أي بالزكاة.

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُون (6)

المشركون الذين لهم حاجة في أرض الإسلام، كالوفود الموفدين من قبل أُمرائهم او التاجر المشرك الذي يقدم للتجارة من غير بلاد الاسلام، هؤلاء يكونون آمنين حتى يخرجوا بعد قضاء مهامِّهم فلا يمسهم احد بسوء. ويفترض في هؤلاء أنهم لم يكونوا قد سمعوا كلام الله فأمَرَ الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلّم ان يُسمِعَهم القرآن ثم يساعدَهم على الذهاب الى بلدهم او الارض التي يريدونها، وهذا الامر الربانيُّ كان له اثر كبير في دخول هؤلاء المستأمنين في الاسلام. اما اقامة المشركين إقامة دائمة في أرض الاسلام ففيه اجتهاد من حيث عددهم واثرهم في المسلمين فقد يسبب العدد الكبير أثراً سيئا فأفتى البعض بأن لا تزيد اقامتهم على اربعة اشهر وافتى غيرهم بأكثر من ذلك على ان لا تتجاوز السنة وافتى فريق ثالث بأقل من اربعة اشهر. والمستأمنون هؤلاء لا يمسهم احد بسوء في مصالحهم وانفسهم حتى يبلغوا مأمَنَهُم.

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (7) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا
عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ
فَاسِقُونَ (8) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
(9) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (10) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (11) وَإِنْ
نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ
لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (12) أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ
بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (13) قَاتِلُوهُمْ
يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (14)
وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (15) أَمْ حَسِبْتُمْ
أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا
الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (16)

مدة صلح الحديبية كانت عشر سنوات. لكنّ قريشاً نقضت العهد بعد سنتين حيث اعانوا قبيلة بني بكر على قبيلة خزاعة التي كانت في حلف مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. واظهر المولى عز وجل مدى شدة المشركين على المسلمين وقسوتهم حتى إنهم لو إنتصروا لا يُتوقع ان تؤثر عليهم صلة قرابة (وهم الآل) ولا ذمة (أي العهود). ومن هذه الاية يستدل على توقُّع نكث العهود من الكفار فلا بد من الحذر منهم ولا بد من إنزال ضربة لهم اذا نكثوا العهد لكي لا تقوم لهم قائمة اخرى. وقَتْلُ أَئِمَّةِ الكفر يعني حسر الكفر بذاته. ويحذِّر الله تعالى المؤمنين من أن يهابوا الكافرين مع ثقتهم بما وعد الله من نصر فإنه تعالى قد اعدَّ لأعدائه الخذلان ليشفي صدور المؤمنين مما تحملوا من اهل الكفر من هموم. واما من كان مستعدا للايمان من اهل الكفر ويدخل فيه فقد وعدهم الله تعالى بأن يتوب عليهم وهو اعلم بما في صدورهم وما يعملون. وفي هذا الموقف يبيّن المولى

تعالى بأنه لا يترك مَن يلتحق بالمؤمنين أن يدخل الجنة بدون إمتحان بالجهاد ليُظهِر فيه الصادقين وهو اعلم مسبقاً بالنوايا وبمن لا يتخذ من دون الله ورسوله والمؤمنين وليجةً أي بطانة وأهل قرابة ممن يعادي الدين الحق فيميل بقلبه إليهم.

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (17) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (18)

المسجد الحرام قام بأمْر الله تعالى على أيدي سيدنا ابراهيم وإبنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام. وأُسِّس لعبادة الله تعالى فلا يُعقل ان يعتبر عامراً بمن كفر فحبط عمله. كما أن المسجد رمزٌ لبقية المساجد بأن تكون لعبادة الله تعالى خالصةً لوجهه الكريم. وجعل الله تعالى المتقين اولياء أُمور المسجد الحرام، (الآية الرابعة والثلاثون من سورة الأنفال). ورسالة المسجد تتسع لجمع شمل المسلمين وتكاتفهم ليكونوا قوة لا يشعرون معها بخشية غيرِ اللهِ تعالى. وقد ميّز سبحانه عُمّار المساجد بثلاث صفات هي: الايمان به تعالى وباليوم الآخر، ثم إقامُ الصلاة وإيتاء الزكاة، ثم الثقة بالله التي تدفع عن القلوب خشية غيره. وبهذا يؤمِّلُهم تعالى أن يكونوا من المهتدين بمشيئته تعالى.

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (19) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ

الْفَائِزُونَ (20) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (21) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (22)

ما من عمل يقدر عليه مؤمن افضل من الجهاد في سبيل الله ايمانا به تعالى وباليوم الآخر. وفي هذا ردّ على من افتخر بكونه سادِناً للمسجد الحرام يسقي فيه الماء. فالفخر من الجهل. وأما الكفر فظلم يحجب الهدى. والدرجات لمن آمن وجاهد فنال الفوز والبشارة والأجر العظيم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (23) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (24)

الهجرة تعني ترك المال وفراق الأهل والولد. فهي أوّلاً اختبار للمؤمن في تفضيل الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم على هذه الصِلات. وبنفس الوقت جعل الله تعالى الهجرةَ باباً للفرج لمن كان مضطهَدا في مكة بين المشركين. وقد كان الكفار من اهل واقارب، اذا لمسوا عزم المؤمن منهم على أن يهاجر يبادرون لإقناعه بالبقاء ويحاولون منعه من الهجرة. كما كان كفار قريش لا يسمحون لمن يهاجر بأن يصطحب معه من مالِه شيئا. وأعماهم طيشهم عن رؤية الحق, فاستحبوا عمى القلوب. وهؤلاء توعّدهم تعالى بأمر منه بأن لا يهديهم حتى يُخرجوا هذه الدنيا من قلوبهم ويفضلوا الله تعالى فَيُهاجِروا إليه. وقد روى الامام احمد في مسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((اذا تبايعتم بالعِينَةِ

واخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلّط الله عليكم ذلاّ لا ينزِعُه حتى ترجِعوا إلى ربكم)).

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (26) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (27)

الذي يحسم المعركة هو نصر الله تعالى وليس العدد. فقد انتصر المسلمون ببدر وهم قلة بينما كادوا أن يخسروا المعركة وهم كثرة في حُنين ولكن الله تعالى ثبت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فثاب المؤمنون وجمع الله شملهم وايدهم بما شاء من جنده. وحُنَين هي المعركة التي وقعت على اثر محاصرة الطائف بعد فتح مكة فتجمعت القبائل الحليفة لهم في وادٍ بين مكة والطائف ليفكوا الحصار عن الطائف ويهاجموا المسلمين. وهنا كان عدد المسلمين من المهاجرين والانصار يقرب من عشرة آلاف ومعهم ما يقرب من ألفين من اهل مكة الذين اسلموا في فتح مكة. وخرج بهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لملاقاة قبيلة هوازن المعادية ومعها ثقيف وحلفاء آخرون واذا بكمين يفاجيء المؤمنين ليظهر الله تعالى حكمته بأن لا يعجب الجيش بعدده المتفوق بل يأمل النصر من ربه القدير. وفي مثل هذه المباغتة تضعف العزائم وتنتاب الحيرة. لكن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم طلب من عمه العباس ان ينادي: (يا أصحاب الشجرة)! وهم الذين بايعوا تحت شجرة الرضوان (وقد مرّ ذكرُها) فلَبَّوا النداء مشهرين سيوفهم وهجموا هجمة عارمة حتى ان من قعد به بعيرُه نزل عنه فهجم راجلا. وانزل الله جنوداً لم يروها. ودخل الرعب في

قلوب هوازن وثقيف واحلافهم تاركين اموالهم ونساءهم وصبيانهم، وهنا تتجلى اخلاق النبوة. فقد توقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن توزيع الغنائم والسبايا من نساءٍ وصِبْيةٍ معطيا المهلة للعدو ليأتي مؤمناً مسلما. وهكذا جاؤوا بعد عشرين يوما مسلمين فخيّرهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بين الغنائم والسبايا فاختاروا السبايا, أي أنقذوا النساء من السبي. واكثر من ذلك اعطى لسيدهم مالك بن عوف النضري مائةً من الابل واقرّه على سيادة قومه. وتاب الله تعالى على هؤلاء فكانوا اخوة للمؤمنين لهم ما لَهم وعليهم ما عليهم والله تعالى غفور رحيم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (28)

يتجلى الايمان بالطهر الذي به تتم طهارة القلوب الموحِّدة. أما الشرك فهو دنسٌ في القلوب فلا يليق بالمسجد الحرام ان يتدنس بوجود الشرك فيه. وهكذا نهى المولى تعالى في الآية عن حج المشركين وعمرتهم كما كانوا عليه في الجاهلية، وأمَر بعدم السماح لهم بالتقرب من المسجد الحرام. ولا ينبغي الخوف من انقطاع المنافع التجارية التي تأتي من المشركين إن إنقطعوا عن مكة ولهذا فليس من مبرر للسماح لهم بدخول البيت الحرام او التقرب منه. فالمنافع بيد الله تعالى، وهو أعلم بفضله واهل فضله. ونزلت الاية في العام التاسع للهجرة حيث امّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ابا بكر على الحج ثم أرسل معه علياً (رضي الله عنهما) لينادي بالناس أن لا يحج بعد ذلك العام مشرك ولا يطوف في البيت عريان وعلى هذا استند الفقهاء الى منع غير المسلمين من دخول كافة المساجد. إلا الشافعي رحمه الله

ذهب الى أن المنع هو من المسجد الحرام فقط. إلا أنه لم يؤخذ بهذه الفتوى بل اخذ العلماء بمنع المشركين من كافة المساجد كونها موضع الطهر.

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (29)

شُرِّعت الجزية على اثر منع المشركين من المسجد الحرام (ومكة كلها حرم والمدينة محرمة بتحريم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم). والجزية تفرض على اهل الكتاب والمجوس الذين يعيشون في ذمة المسلمين اذ لا بد من مساواتهم مع مواطنيهم المسلمين الذين فُرِضت عليهم الزكاة ولم تفرض على اهل الذمة. وغالبا ما كانت الجزية لا تتجاوز نسبة الزكاة ويعفى منها الفقير وتخفف عن كثيرين منهم. ولا يجوز أن يُعفى القادرون منهم من الجزية اسوة بفرضية الزكاة على المسلمين.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (30) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (31)

لو آمن اليهود والنصارى بما جاء في التوراة والانجيل من بشارات بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وموعد ظهوره ومكان بعثته ونصره والأمرُ بإتِّباعه لكانوا على هدى من الله مسلمين له الدين. وهكذا يعتبر التكذيب بالرسالة المحمدية إفكاً وجحوداً فضلا عن نسبة البنوة لله تعالى سبحانه مع ان الامر الذي جاء به موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام هو قَصْرُ العبادة على إلهٍ واحد هو الله الذي لا شريك له. فكان ضَلال اليهود وصدُّهم عن سبيل الحق نتيجة طاعتهم للضالين من

أحبارهم خلافاً للتوراة كما حصل هذا لمن أطاع من النصارى الضالين من رهبانهم في غير ما شرع الله تعالى كتحليل الحرام وتحريم الحلال مثلما ضل قبلهم اقوام كفروا بالله تعالى وأشركوا به بطاعة أهل الزيغ. فمن أطاع الضالين في زيغهم إتخذهم شركاء من دون الله سبحانه.

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (32) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (33)

لم يكتف أهل الضلال من الأحبار والرهبان بتكذيب الرسالة المحمدية التي جاءت منيرة لا لَبْسَ فيها ولا ظلام اذ ان ليلها كنهارها، وظاهرَها كباطنها. بل اخذوا يطلقون الأقوال بأباطيل وتسفيه لا ينطلي على من آمن بها وعمل صالحاً وكان له قلب وألقى السمع وهو شهيد. واتم الله نوره واظهر دينه على كُرْهٍ منهم. ولم يوجهوا الناس الى ما جاء في هذا الدين من عبادة الله الواحد من غير ان ينسب له شريك، والى ما جاء فيه من صدق الاخبار وصدق التوجيه الى صالح الاعمال والاخلاق والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي فلا يمكن مع ذلك لبشر (على مر العصور) ان يملك حجة مهما بلغت يعارض بها هذا الدين الحنيف. ويجدر هنا ذكر حديث رواه الامام احمد في مسنده عن تميم الداري رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ((لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمْرُ ما بَلَغَ الليلُ والنهارُ ولا يترك مَدَراً ولا وَبَراً (أي المدن والبوادي) إلا دَخَلَهُ هذا الدينُ يُعِزُّ عزيزاً ويُذِلُّ ذليلاً، عِزّاً يُعِزّ اللهُ به الإسلامَ أو ذِلاً يُذِل اللهُ به الكُفْرَ)). وكان تميم يقول: "وقد عرفتُ

ذلك في اهل بيتي، لقد اصاب من اسلم منهم الخير والشرف والعز ولقد اصاب من كفر منهم الذلُ والصَّغارُ والجِزية".

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (35)

اوضح المولى عز وجل عِبرةً من تصرف الذين يقدِّم لهم اتباعُهم من اهل الكتاب المال تقرُّباً الى الله تعالى فلا ينفقونها في سبيل الله بل يحتفظون بها لمآربهم الخاصة. واستثنى تعالى منهم قلة يحفظون الذمم في المال فيوجهونه للمستحقين وإعمار المعابد. وكشف تعالى ما سيؤول اليه المال الذي يوجه للباطل اذ سيكون اداة للكَيِّ بالنار ما كانت لتحصل لو انفقوا المال في سبيل الله, وهكذا المال الذي لا تُدفَع زكاته يعتبر مكنوزاً وتحكمه الآيةُ الخامسة والثلاثون هذه.

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (36)

العبادات تتبع الاشهُر القمرية مثل شهر رمضان، وأشهر الحج، والأشْهُر التي لا تنتهك حرمتها: رجب وذي القعدة وذي الحجة والمحرم. وهي الأشهر الْحُرُمُ فلا يتعرض لِأحدٍ فيها بظلم. إلا ان المشركين لا يَسْلَمون من القتال اذا بدأوا بقتال المسلمين في الأشهر الحُرُم. فاذا كانوا في حرب قبل الاشهر الحرم مع المسلمين ثم

دخلت الاشهر الحرم فلا يتوقف القتال من اجل ذلك. ويعوَّل في ذلك على النية التي اوصى الله تعالى ان تَلتَزم بالتقوى وهو سبحانه مع المتقين.

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (37)

بعد بيان الأشهر الحرم وتحديدها جعل الله سبحانه التأخيرَ فيها ضلالاً يضاف الى كفر الكافرين. اذ كانوا يؤجلون حرمة الشهر الحرام ليحرِّموا شهراً من غير الأشهرِ الحرمِ عوضا عنه فإذا جاء العام التالي للعام الذي حصل فيه التأخير رجعوا عن التأخير الى تحريم الشهر الحرام. ويعتبرون عملهم هذا صحيحا ما داموا يلتزمون بعدد الاشهر الحرم أي اربعة اشهر كل عام وهكذا بدا لهم سوءُ ما عملوا حسنا. فما استحقوا الهدى وبقَوا على الكفر.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39)

ما دام المؤمنون يعتقدون ان الجهاد من موجبات رضوان الله تعالى، وان التخلف عنه يسخط المولى لانه دليل على تفضيل المتاع الفاني للحياة الدنيا على الخلود في سعادة الاخرة, فلا عذرَ يقبل من غير المعذورين في التفريط بحق الله تعالى في إعلاء كلمته. والله تعالى قادر على ان ينصر كلمته بقوم آخرين. ويعذب المتقاعسين عن الجهاد كما فعل مع حَيٍّ من العرب (ذكَرتْهم التفاسير) لم ينفروا

مع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم مفضلين ظِلالَ الشجر على جهد الجهاد فأمسك الله تعالى عنهم المطر. ولا يبدل القول لديه ليكون ذلك عبرة في طلب الخير بالجهاد.

إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40)

أذِن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالهجرة من شدة ما أعَدَّ الكفارُ له من مكائد بلغت قرار الاجهاز عليه في فراشه من قِبَل جمع من شتى القبائل ليتفرق دمه. ولكن الله تعالى سبقهم حيث كان ابو بكر الصديق رضي الله عنه قد هيأ الراحلة والزاد والدليل المرشد تحسُّباً للهجرة. فأتاه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو في داره فقال الصديق: "الهجرة يا رسول الله"؟ وسارع في الخروج وانطلقا حتى اذا بلغا غاراً في جبل ثور بادر الصديق رضي الله عنه ليؤمّن المكان لهما فكان الصديق اول الداخلين وكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الثاني فقال تعالى (ثاني اثنين). ومكثا ثلاثة أيام فيه حتى يئس كفار قريش من قَصِّ اثرِهما فتخبطوا في البحث عنهما في كل المواضع ومنها الغار. وقد روى الامام احمد في مسنده قول الصديق رضي الله عنه للرسول صلى الله عليه وآله وسلم: "لو أنّ أحدَهم نظر الى قدميه لأبصرنا تحت قدميه" فأجابه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ((يا أبا بكر ما ظنُّك بإثنينِ اللّهُ ثالثُهما؟)). وتُرجّح التفاسير أن السكينة نزلت بهذا على الصديق رضي الله عنه لأنّ قوله صلى الله عليه وآله وسلم يدل على سكون قلبه ليسكن قلب صاحبه. وهذه السكينة انزلها المولى عز وجل على المؤمنين

في بيعتهم له صلى الله عليه وآله وسلم تحت الشجرة ولم يُذكر معهم في نزولها لسكون قلبه المطمئن بربه الجليل. وهذا ما وَرَدَ في الآية الثامنةَ عشرةَ من سورة الفتح ((لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعَلِمَ ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم واثابهم فتحاً قريباً)). واما الجنود الذين حجبهم الله تعالى عن الأبصار فقد جاء في التفاسير انهم الملائكة صرفوا وجوه الكفار عن الغار. ثم اعز الله تعالى دينه واهله بعد الهجرة. ثم أكرم الصديق بعد وفاته بدفنه في روضة من رياض الجنة، أي بين قبر ومنبر صاحبه عليه وآله الصلاة والسلام.

انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (41) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (42) عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (43) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (44) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (45) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (46) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (47) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (48)

الامر الرباني بالنَفَار مُوجّه للمؤمنين عامة (غير أُولي العذر) مهما كان عليه موقفهم الاجتماعي والمالي ومهما كانوا عليه من عُمُرٍ وعمل. إلا أنه مما يُثقل الجهاد على بعض المؤمنين أُمورٌ خارجة عن طاقتهم كالقحط والمناخ وكِبَرِ السن والانشغال

بكسب قوت اليوم وسد الحاجات. ومع كل ذلك لم يعذر هؤلاء في القعود والتخلف عن الجهاد فجاء الامر ان ينفروا خِفافاً في يُسرٍ وثِقالاً في عسر مع الجهاد بالمال ايضا. وكل ذلك خير لمن فعله فهو في سبيل الله تعالى. ويتمثل الجهاد بالمال بأن يدفعه المعذورون من المرضى مرضاً شديداً ومن اهل الاعذار البدنية لأنهم اذا جاهدوا بأنفسهم اعاقوا العمليات القتالية فيجاهدون بالمال. واما المتمكن فبالنفس والمال. واما الفقير القادر على الجهاد فبالنفس فقط اذ يجهزه الاغنياء بمتطلبات القتال وينفقون على عياله. وفي الجهاد جعل الله الخير وبشَّر به. واما المتقاعسون عن الجهاد فقد اختلفت مواقفهم فعندما تكون الدعوة للجهاد إلى عَرَضٍ قريب (أي مَغْنَمٍ سهل في متناوَل اليد) وسفر قاصدٍ (أي قريب المكان) لا يعتذرون. واما عندما يكون الهدف بعيدا وذا اهمية كما حصل في غزوة تبوك فإنهم يعتذرون بأعذار شتّى وينتظرون عودة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وجُنْدِهِ ليحلفوا بالله تعالى على أعذارهم بعدم الخروج معه للجهاد الذي دعاهم اليه. وغفلوا عما أدّى الى سقوطهم في مهالك انفسهم وخسرانهم الصدق مع الله تعالى الذي يعلم كذبهم. واما الإستئذان المقصود هنا فهو يختلف عن إستئذان المؤمنين لبعض شأنهم لأنه هنا استئذان يدل على نية القعود عن الجهاد وعلى عزمهم على التخلف سواء حصلوا على الإذن ام لم يؤذن لهم. فإن حصلوا على الاذن فلا حرج عليهم في حسبانهم. وأما إذا لم يؤذن لهم اختلقوا الاعذار للقعود بلا صدق ولا حياء. ويستدل على الصدق من قيمة الاعذار وتعليل اسبابها المعقولة او غير المعقولة ومن اللحن في القول فيها أي الهفوات العفوية في الكلام. فلذلك ذكر تعالى العفو من لدنه بصيغة العتاب قبل ان يعاتب على الاذن الذي اعطاه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

لهؤلاء من غير أن يستبين قيمة أعذارهم. ومنهم عبد الله بن أُبَيّ بن سلول والجَدّ بن قيس من عظماء بني سَلَمَةَ. واظهر تعالى كفر هؤلاء لمبادرتهم بالإستئذان مع عدم وجود دليل على عذر مقبول من عاهة او ضعف، كما يدل على نفاقهم انهم لم يستعدوا لمثل هذا الجهاد بالعدة وبدلاً عن ذلك أعدّوا الاستئذان. وبين المولى عز وجل ان مثل هؤلاء لا ينفعون في الجهاد بل على العكس يكونون عنصر ضعف في صفوف المسلمين بإفساد ذات البين بقوله تعالى (ولأوضَعوا خلالكم). وقد يكررون ما سبق ان فعلوه من فتنة مدروسة دبروا لها يوم رأوا تآلف القلوب حول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم وصل المدينة مهاجرا. فقال تعالى ((لقَد ابتَغُوا الفِتْنَةَ مِن قبلُ)) ولم يؤمنوا بل أدَّعَوُا الإيمان حين نصر الله تعالى المؤمنين، فقال رأس النفاق عبد الله بن أُبَيْ بن سلول: "هذا أمْرٌ قد تَوَجَّه". فأظهروا الايمان على غيظ ازداد في قلوبهم مع ايات النصر المتلاحقة وظهور أمر الله تعالى.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (49)

من رواية لمحمد بن اسحاق عن الزهري ان من الاعذار التي ابداها الجَدُّ بن قيس (الذي سبق ذكره) بعد ان قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((هل لك يا جَدُّ العامَ في جلاد بني الاصفر؟)) يقصد الروم. فقال الجدُّ: "أوَ تأذنُ لي ولا تفتِنّي، فوالله لقد عرف قومي ما رجلٌ أشَدُّ عُجْبَاً بالنساء مني وإني اخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن)). فاعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال ((قد اذنت لك)). وهكذا ذكر هذا المنافق عذرا واهيا ونسي جهنم التي لا مهرب منها كما هرب من الجهاد. وكان الجد سيد بني سَلَمة وكان بخيلا فأمرهم

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان يكون سيدَهم بِشرٌ بن البراء بن معزوز لكرمه وصدقه. وما اكثر العبر من هذه الحادثة فقد كان الجدُّ معروفا بالبخل في قومه. ولو خرج معهم لأطاعه بعض قومه في ما يفعله ويأمر به من فتنة تضعف قوة المسلمين.

إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (50) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (51) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (52)

من شأن المنافقين ان تكون معايير نظرتهم للامور لا تتجاوز حب الدنيا وملذاتها في اللهو واللعب. فإنهم يفرحون اذا اصاب المؤمنين مصيبةٌ وهم لم يحضروها. ففي هذا تفضيل متاع الدنيا ونسيان جزاءِ الآخرة. وينسبون الفضل لأنفسهم بأنهم اتخذوا العذر للقعود. واوضح تعالى ما ينبغي ان يقال لهم بأن ما حدث للمؤمنين مكتوب عليهم عن حكمة ربانية لِيُخلِصوا له النوايا ويتوكلوا عليه. وهذا من صفات اهل الايمان. والمصيبة لها نتيجتان للمؤمن؛ إما النصر، او الجنة. وأمّا القعود بلا عذر صحيح فله عاقبة العذاب فلا يهمُّ المؤمنَ من المصيبة شيءٌ فيصبر بإنتظار حُسنِ العاقبة وينجو من مصير اعدائه الكفار أي من عذاب النار او عذاب الدنيا بالقتل والسبي.

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (53) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (54) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ

لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (55) وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (56) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (57)

تكون الاعمال طوعا او كرها. فاذا كانت من منافقين او كفّار ولها مظهر أعمال الصالحين فنفقتهم طوعا تكون رياءً طلباً للسمعة، او لدفع شبهة، وهكذا. والنفقة كَرهاً بمظهر من أعمال الصلاح لا أجر عليها فلا تُقْبَلُ. وهكذا باقي الاعمال الأُخرى غير النفقة التي يقوم بها الفاسقون وظاهرها الصلاح وباطنها خالٍ من التقوى. ومَن فَعَلَها منهم رياءً او كَرْهاً فإن مردودَ ذلك في نفسه أسفٌ وعذاب على ما فعل ولا سيما في فَقْدِ المال الذي جَمَعَهُ لمقاصد أُخرى ولا يكون سببا للهدى. فالمولى عز وجل لا يهدي القوم الفاسقين ما لم يتوبوا ويعملوا الصالحات يرجون بها القبول من ربهم الكريم. وهو الذي يقبل من عباده التوبة ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون في طاعته يرجون رضوانه. وأما حصيلة الأعمال الفانية التي ارادها المنافقون فهي مردودة عليهم حتى إذا جاءت ساعة موتهم فإن انفُسَهم تزهق، أي تخرج بصعوبة عليهم، وهم صُفْرُ اليدين. ومن شأن هؤلاء المنافقين ان يغطوا نفاقهم وكذبهم بحلف الأَيمان بالله تعالى بأنهم من المؤمنين. وهيهات للأَيمانِ أن تجعل منهم مؤمنين ما لم يصدُقْ إيمانُهم. واما مخالطتهم للمؤمنين فذلك أنهم لا مفرّ لهم منها فلا ملجأ لهم كالمغارة أي الكهف في الجبال، أو المِدَّخل اي الى باطن الارض ليجمحوا أي يهربوا بسرعة إليه. وفي هذا ما فيه من فقدان طمأنينة القلب مع أهل الايمان والتعايش معهم.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (58) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (59) إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (60)

الرضا والقناعة من صفات المؤمنين الصادقين وشعارهم في ذلك قولهم: "حسبنا الله سيؤتينا الله من فضلِهِ ورسولُه". فهم متجهون الى الله رغبةً في رضوانه وَفي جُوده. ولم يكن في المنافقين اصنافٌ ممن تحق الصدقات لهم. فالفقير هو ما اقعده الضعف والظروف القاهرة عن تدبير المال لسد حاجته. والمسكين هو الذي ألجأته فاقة الى السؤال او طلب الزكاة وكلاهما فقير ومسكين. واما العاملون عليها فهم السُعاة والجُباة في تحصيل الزكاة على أنْ لا يكونوا من اقرباء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. واما المؤلفة قلوبهم فهم من يؤمّلُ لهم ان يهتدوا وذلك لصفاء سريرتهم، خاصة في ايام النبوة، ثم من يدخل الاسلام حديثا تاركين ما كان يأتيهم مما حرمه الاسلام من كسب وذلك لتستقر قلوبهم على الإسلام. و(في الرقاب) إعطاء العبد الذي يكاتب سيِّدَه على تحرير رقبته فقد يحتاج لبعض المال لهذا العِتْق. والغارم هو الذي كثرت ديونه واصابته جائحة فان كانت الصدقة تسد ديونه فلا حرج وان لم تكفِ فتوزع على نسبة كل دين عليه مع بقية الديون أي تطفأ بقسمة الغُرَمَاءِ. وليس للدائنين بعد ذلك شيء. واما ما كان في سبيل الله فهو للغزاة الذين لا يجدون عُدّةَ الحرب وفي هذا الزمن للمتطوعين الذين لم يحسب لهم من مخصصات الجيش النظامي تخصيص المال. كذلك للحجاج الذين نَفِدَتْ اموالهم لسببٍ ما.

واما ابن السبيل فهو المسافر الذين نفد مالُه فيُعطى من المال ما يلزمه للوصول الى غايته. وقد روى ابو داود في سُنَنِهِ أنّ زياداً بن الحارث الصدائي رضي الله عنه كان عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدخل رجل يسأل النبي من الصدقة فقال له ((ان الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم هو فيها فجزأها ثمانية اصناف فإن كنت من تلك الاجزاء اعطيتك)). لذا فالزكاة لا تخرج لغير واحد من هذه الاصناف. وارجح الآراء في الزكاة ان لا يُتوجّب قسمتها على هذه الاصناف بالتساوي بل يجوز تخصيص نسبة أكبر لواحد أو أكثر من هذه الأصناف حسب ضرورة الحال. ولا تُعطى الزكاة لمن له القدرة على الكسب ويملك قواه العقلية فقد روى الامام احمد في مسنده عن ابي هريرة رضي الله عنه قوله: اتى اثنان الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يطلبان الصدقة فقلّب فيهما البصر فرآهما جَلِدَين فقال ((ان شئتما اعطيتكما ولا حظَّ فيها لغني ولا لِقويٍّ مكتسب)). كما لا تحِل الزكاة لذوي قربى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كماء جاء في صحيح مسلم عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث رضي الله عنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم ((ان الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد انما هي اوساخ الناس)). ومن اخذ الصدقة مستحقاً فلا حرج عليه ان يهدي منها الى جيرانه او اصدقائه او ان يدعو الى طعام جاء منها حتى لو كان المهدَى اليه او المدعو للطعام غنيا فإنها تحل لهم ما اصابوا منها.

وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (61)

نظرة المنافقين لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا تصل الى حقيقة نقاء سريرته وصدق فؤاده ولا تصل الى صدق المؤمنين الذين يستأذنون منه لبعض شأنهم وهو واثق من ايمانهم فهو رحمة لهم. بينما تقوّل هؤلاء المنافقون بأنه يأذن عن غير ثقة بمن يستأذنونه وتفوته معرفة العذر الكاذب. فأظهر الله تعالى أن ما تقوّلوه كذبٌ على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وبيّن صحة ايمان المؤمنين وأنه رحمة لهم. وتوعد المنافقين بعذاب أليم. وقد أرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إليهم يسألهم عما قالوا فحلفوا منكرين فأنزل الله تعالى في كذبِهِم قوله:

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (62) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (63) يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (64) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (66)

نزل الوحي بتكذيب المنافقين مما ظهر معه كذب ايمانهم. اذ لو صح ايمانهم لكان همَّهم ارضاءُ الله ورسوله اذ جمع الله تعالى رضوانهما بفعل واحد بقوله (احق ان يُرضوه). ومع علمهم بعقاب الله فقد تجاهلوا ذلك مستهينين بخزي عظيم. ويحذرون من إفتضاحهم في ما ينْزِل في آيات الله تعالى. وعندما يُسألون عن طعنهم بصدق المؤمنين يدّعون انهم انما كانوا غير جادين في أقوالهم ولا يعدو ذلك منهم الخوض في الحديث. فوبخهم الله تعالى بانهم كانوا يستهزئون بالله سبحانه وبآياته فلا عذر لهم ولا مبرر لقولهم إلا بأنهم كفروا بعد ايمان. ومع هذا فتح المولى تعالى باب التوبة لمن

علم فيهم إنابة، وتوعد من يبقى على النفاق بالعذاب بأنه من المجرمين وبهذا فرّق بين المخدعين الذين فيهم خير وبين المصرِّين على النفاق ولا خير فيهم.

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (67) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (68) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (69) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70)

الذين يسيرون على طريق واحد يُعين بعضُهم بعضا. فكان المنافقون على طريق النفاق يصدون عن المعروف وعن النفقة في سبيل الله. فكما استمروا على التعاون على الامر بالمنكر استمر عليهم وعد الله تعالى بالعذاب المستمر وخسروا نعماء الله تعالى التي انعمها عليهم في الدنيا اذ لم يدخروها لهم وافسدوا اعمالهم بالسخرية والاستهزاء بما جاءهم من النذير ولم يفقهوا من الحق شيئاً ولم يتبصروا بالعاقبة. وقد سبق لأقوام ذكرهم الله تعالى ان استمتعوا بخلاقهم أي نصيبهم من نعماء الله وخاضوا في الباطل والطعن بعدما جاءتهم الرسل بالبينات أي بالْحُجَجِ الواضحة فكذبوا فهلكوا وما كان الله تعالى ليظلم احدا منهم لو لم يظلموا انفسهم.

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (72)

ولاية المؤمن للمؤمن هي وِلايةُ معونةٍ ونُصرةٍ يعين بعضُهم بعضا على الحق والعبادة وينصر بعضهم بعضا في اعلاء كلمة الله تعالى، مع الالتزام بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر واقامة الفروض وفي هذا لا يُشترَط في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ان يكون المؤمن او تكون المؤمنة من ذوي السلطة بل عليهم بذلك في حدود الاستطاعة. وهذا ما يدخلهم في رحمة المولى القدير وعداً عليه حقا في جنات لا يزول نعيمها، ورضوان لا يعقبه سخط, مجتمعَين ليكونا فوزا عظيما.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (73) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (74)

لا بد للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ان يتخذ موقفا محدّداً من الكفار والمنافقين وقد أوضح الله تعالى هذا الموقف بأن يُجاهدَهم ولا يبدي لِيناً معهم فهم اهل النار. فأما جهاد الكفار فيكون بالسيف واما جهاد المنافقين فيكون بفضح نواياهم وكشف أقوالهم التي يحلفون انهم لم يقولوها. ولقد همّ فريق من المنافقين ملثمين ان يعترضوا ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة تبوك لعلها تطرحه ارضا ولكنهم هربوا عندما انكشف امرهم وصاح بهم رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم. إلا انه لم يقتلهم لحكمة كي لا يقال انه يقتل اصحابه الذين يقاتل بهم. ومع هذا فتح المولى عز وجل باب التوبة للكفار والمنافقين وذكّرهم بما انعم الله تعالى عليهم من غنى وأمْنٍ ثم توعدهم إن لم يتوبوا بعذاب الدنيا والآخرة ولا يجدون من يحميهم او ينصرهم في الارض اذا ما حاق بهم شر او عدوان.

وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (77) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (78)

الذي قال العهد هو (في اغلب التفاسير) ثعلبة بن حاطب الانصاري اذ قال ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقال له ((وَيْحَكَ يا ثعلبةُ! قليلٌ تؤدّي شُكرَه خيرٌ مِن كثيرٍ لا تُطيقُهُ)). ودعا له: ((اللهُمّ ارزق ثعلبةَ مالاً)). ويؤخذ من رواية ابن جرير الطبري راوي الحديث عن ابي أُمامةَ الباهلي رضي الله عنه ان ثعلبة هذا اتخذ غَنَماً فنَمَتْ كما ينمي الدود. فضاقت عليه المدينة فتنحّى عنها فنَزَل واديا من اوديتها. ونَمَتْ وكثرت حتى ترك الصلوات مع الجماعة إلا الجمعة. ثم تركها فيما بعد. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((ما فعل ثعلبة ؟)) فاخبروه بما فعل فقال ((يا وَيْحَ ثعلبةَ)). ثم نزلت آية فرائض الصدقة فاعتبرها ثعلبة جزية او اخت الجزية. وامتنع! فلما نزلت الاية فيه وجاء الى الرسول بصدقته قال له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: ((إنّ اللهَ منَعَني أنْ أقبلَ مِنْكَ صَدَقَتَك)). فأخذ يحثو على رأسه التراب. فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((هذا عملُك قد امرتُك ولم تُطِعْني)). وكذلك لم يقبل ابو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم من ثعلبة

الصدقة. وتوفي في زمن عثمان. أما النفاق فقد حصل من خُلْفِ العهد على الصدقة. ووبخ ربُّ العزة أمثاله على تغافلهم عن رقابة الله تعالى وعلمه بالسر والنجوى والغيوب. فهو يعطي عبده المنافق والكافر ما يشاء لهم ليكون ذلك وَبَالاً عليهم. ويعطي عبده المؤمن إن شاء ليكون ذلك حجة له عندما ينفق النعمة لوجه المنعم سبحانه.

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (79)

يتوهم المنافقون أنّ غيرهم مصابٌ بدائهم. فلم يسلم منهم من تطوعوا بالمال فاتّهموهم بالرياء، وسخِروا ممن جاء بالقليل فتضاحكوا منه. وفوق علمهم عَلِمَ الله تعالى بصدق من جاء بالكثير وصِدقِ من جاء بالقليل. فكيف لا يسخر سبحانه منهم وهم غافلون عن عذاب اليم.

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (80)

من اخلاق النبوة ان سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم كان يستغفر لهؤلاء المنافقين. فنَزَلت الاية بأنهم ليسوا أهلاً للمغفرة لأنّهم لم يستحقُّوا الهدى الذي حجبه عنهم فسوقُهم.

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (81) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82)

كان الحر شديدا عندما دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى غزوة تبوك. فقال بعض المنافقين لبعض: لا تنفروا في الحر! فقال تعالى ((قُلْ نارُ جهنَّمَ أَشدُّ حَرّاً)). فكان فرحهم بالقعود عن الجهاد وَبالاً عليهم اذ بشرهم تعالى بعد هذا الضحك القليل بالبكاء الكثير على ما خسروا اذ جازاهم المولى تعالى على كسبهم الاثم بكسب العذاب.

فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (83) وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (84) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (85)

لقد علم تعالى أنّ طائفةً من هؤلاء المخَلفين سيبقون على النفاق. فاذا ارادوا الخروج للقتال في مرة تالية فلا يَسمح لهم بذلك رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم. والعلةُ كمنت في قُعودهم اول مرة وهذا القعود هو من شأن الخالفين أي النساء والعاجزين والصغار. وبصدد الصلاة على الميت من المنافقين، كالصلاة على عبدالله بن أُبَيَ بن سلول (رأس النفاق)؛ فقد نزلت الايتان الرابعة والثمانون والخامسة والثمانون كما رواه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "لما توفي عبدُ الله بنُ أُبَيّ بنِ سلول جاء إبنه عبد الله الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسأله أن يعطيَه قميصَه يكفن به أباه! فأعطاه. فسأله ان يصلي عليه. فقام ليصلي عليه! فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله تصلي عليه وقد نهاك ربك ان تصلي عليه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلَّم: ((انما خيّرني فقال إستغفر لهم او لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم. وسأزيده على السبعين)). قال عمر رضي الله عنه: إنه منافق. قال البخاري: "فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأنزل الله عزّ وجلّ الآية ((ولا تُصَلِّ على أحَدٍ منهم مات أبَداً ولا تَقُمْ على قبره))". وفي رواية لابي داود عن عثمانَ بنِ عفّانَ رضي الله عنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال ((إستغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيتَ فإنه الآن يُسأل))". فيُستدل من ذلك ان القيام على القبر يكون بهذه الصيغة. اما ما ورد عن المال والأولاد؛ فقد تقدم شرح ذلك في الاية الخامسة والخمسين من هذه السورة وان كانت قد نزلت في غير هؤلاء.

وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آَمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (86) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (87) لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (88) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (89)

المقصود بالسورة هنا مجموعة آيات قرآنية تخص موضوعا بذاته ومن ضمنها آيات في الايمان والجهاد. فما ان يسمع المنافقون نداء الجهاد إلا وبادَرَ أُولو الطَوْلِ (القدرة المالية) منهم الى الإستئذان لِيَبْقَوا قاعدين متخلفين مع المعذورين. وهذا يزيد من النفاق في قلوبهم فلا سبيل لها ان تفقه الحكمة من الجهاد والثواب الذي كتبه الله تعالى للمجاهدين. اما الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم والذين آمنوا فقد نالوا،

بجهادهم بالنفس والمال، الخيرات والفلاح في الدنيا ونالوا الجنات في الآخرة تجري تحت اشجارها الانهار ولا تتبدل عليهم نعماؤها ولا تنقضي أيامُها في فوز عظيم.

وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (90)

رجّح المفسرون صدق إعتذار الذين جاء ذِكْرُهم من الأعراب هنا، وكانوا نفراً من قبيلة غَفَار تقطن قرب المدينة، جاؤا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستأذنون معتذرين عن الخروج معه لكثرة عيالهم وقلة مؤونتهم وحاجة عوائلهم اليهم. والدليل على قبول عذرهم أن غيرهم الذين لم يأتوا ليؤذن لهم توعدهم الله تعالى بعذابٍ أليم. إلا أن بعض المفسرين وإن إستدلوا على ايمان المستأذِنين إلا أنهم وصفوا أعذارهم بأنها لم تكن مقبولة وإنْ أذِنَ لهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كما لم يتوعَّدْهم الله تعالى بعذاب على اعتذارهم. فرجّح المفسرون قبول اعذارهم بهذا السبب. وفي كلا الرأيين تأييد لإيمان المعذِّرين واقتصار العذاب على من كفر.

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (91) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (92) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (93) يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (94) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ

جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (95) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (96)

يظهر الضَّعْفُ على كبار السن وذوي العاهات التي لا تنفكُّ عنهم. واما المرضى فضَعفُهم مؤقّت حتى يُشْفَوْا. فهؤلاء جميعا لا حرج عليهم في القعود عن الجهاد بأنفسهم ما دامت اعذارهم قائمة. كما لا حرجَ على من لا يجدون مالاً يُنفقونه للجهاد في حالة صفاء سريرتهم التي تدل على النصح لله ورسوله فيجاهدون بأنفسهم بنفقة غيرهم. وهذا من الاحسان وتسعهم الرحمة والمغفرة. ومنهم من لا يجدُ الرسولُ صلى الله عليه وآله وسلّم نفقةً من غيرهم تعوِّض عن فقرهم ليخرجوا للجهاد معه فتفيض اعينهم من الدمع حزناً – وكانوا نَفَراً من بني مُقْرِن من مُزَيْنَة عَدَدَهم سبعة-. وأما من يعيقهم عذر مشروع فقد بشّرهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأجر المجاهدين فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ((إنّ بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً ولا سرتم سيراً إلا وهم معكم)) قالوا: "وهم بالمدينة" ؟ قال ((نعم حَبَسَهم العذرُ)). وأخبر المولى تعالى عن المستأذنين من الأغنياء بأنهم رضُوا بأن يكون حالُهم حالَ النساء (الخوالف) وطبع على قلوبهم أي سدَّها عن الفهم. ولذا لم يُصَدِّقهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبيّن لهم أن الله تعالى سوف ينبؤهم بما إطّلع عليه منهم. ولم يقبل عذرهم مهما حلفوا ليتخلصوا من المؤاخذة. كما امره المولى تعالى بالإعراض عنهم ترفُّعاً عنهم كونَهم خبثاءَ أنجاساً. ووصمهم تعالى بالفُسُوق (أي الخروج عن طريق الصلاح الى الإفساد).

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (97) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (98) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (99)

الكفارُ والمنافقون من الأعراب يتّسمُ كفرُهم ونفاقُهم بشدةٍ لها اثرٌ يفوق اثرَ كفارِ قريش ومنافقي اهل الحضر لِما يتصفون به من جفاءٍ ورعونةٍ وجهلٍ بالحدود القرآنية مما يوقِعُهم احيانا في إساءة الفَهم أكثر من غيرهم. فإن دفعوا الزكاة أو أنفقوا للجهاد إعتبروا ذلك مَغْرَماً وخسارةً وودّوا لو تدور دائرةٌ على المسلمين فيتوقفون عن دفع المال. وقد وبّخهم المولى عز وجل على هذا السوء الذي سيكون مردودُه عليهم. هذا الصنف يقابلُه صنفٌ مؤمنون من الأعراب بنقاء سرائرهم واشراقة الايمان بالله واليوم الآخِر في قلوبهم ويقصدون التقربَ الى الله تعالى وشمولَهم بدعاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بما ينفقون فبشَّرهم تعالى بقبول نفقاتهم اذ جعلها قربةً لهم ووعدهم بالجنة التي هي المقصودة بقوله تعالى: (في رحمته) غافرا لهم رحيما بهم.

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (100)

السابقون الأوائل هم الذين شهدوا معركة بدر، والذين بايعوا في صلح الحديبية بيعة الرضوان، والذين صلّوا الى القبلتين، وأهل البيعة الاولى من الانصار وتسمى بيعة العقبة الاولى، وكانوا سبعة، واهل بيعة العقبة الثانية، وكانوا سبعين. وأهل كلتا

البيعتين هم الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في مكة قبل الهجرة ودَعَوه الى الهجرة حيث يبذلون اموالهم وانفسهم في نصرته والذبِّ عنه. ويأتي بعدهم من تبعهم بالإيمان ونصرة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم مفضلين الآخرة. وهم كل المؤمنين الى يوم القيامة. بشرهم تعالى برضوانه حتى يرضوا وأعدّ لهم الخلود في نعيم الجنات وبهذا فازوا بتفضيلهم الخلود في الجنة على دنيا فانية.

وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (101)

سبق وصفُ المنافقين من الأعراب. ونظراً لبعدهم عن المدينة فقد كان امرُهم مجهولاً. أمّا منافقو المدينة فكانوا يعملون على اخفاء نفاقهم بتصرفهم في الظاهر كالمؤمنين. ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم يعلمهم على وجه التحديد بل يعلم بوجود منافقين من الأعراب ومن أهل المدينة حوله فقد روى الإمام أحمد عن جبير بن مُطعِم رضي الله عنه قوله صلى الله عليه وآله وسلّم من حديث له ((..إنّ في أصحابي منافقين)). وكانوا على شاكلة المنافق عبد الله بن أُبَي بن سلول يعرفهم من صفات المنافقين. والله تعالى يَعْلَمُهُم ولا يخفى عليه ما في قلوبهم وقد أعدّ لهم عذاباً في الدنيا وعذاباً ساعة يفارقون الدنيا. فهما عذابان. ثم ينتظرهم عذابٌ عظيم في الآخرة.

وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (102) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ

عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (104)

اهل العمل الصالح هم المؤمنون العاملون بالفرائض والمتأدبون مع السنة النبوية. ولكن نفراً من اصحابه صلى الله عليه وآله وسلم ركنوا الى الراحة فتخلّفوا. وبعد ذلك ندموا ندما شديدا جعلهم يربطون انفسهم بأعمدة المسجد عقابا لأنفسهم على ما بدر منهم بحق الجهاد وطاعة الدعوة اليه. فنَزَلت الاية ففكهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقدّموا من اموالهم ما طهرهم الله تعالى به واكثر من ذلك جعلها تزكية لهم والتزكية اكثر من الطُهْر. ودعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لهم وكانت سنّته انه يدعو لمن يقدِّمون الصدقات فتسكن قلوبهم لهذا الدعاء. وبيّن الله تعالى سبب القبول منهم بأنهم عرفوا قَدْر الله تعالى بقبول التوبة والصدقات وهو التواب الرحيم.

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105)

ما على التائبين من التخلف إلا الإلتزام بالعمل الصالح والجهاد في سبيل الله بلا تردد او تباطؤ. فالآية هنا كانت في الجهاد. وينبه الله تعالى اولئك وغيرهم من اهل التوبة في كل زمان بأن إلتزامهم ذو أهمية إذ سَيَرى الله تعالى عملَهم وسيراه الرسولُ صلى الله عليه وآله وسلم، هو والمؤمنون. ويكون مُدّخَراً لهم في يوم الرجوع إلى عالم الغيب والشهادة فيخبرهم سبحانه به.

وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (106)

يختلف هؤلاء عن المتخلفين المذكورين في الآية السابقة بأنهم لم يبدوا من الندم ومحاسبة النفس ما ابداه اولئك وقد علم الله منهم اسبابَهم وسيعاملُهم بحكمته على علم تام بنواياهم ودوافعهم. (وسيلي ذكر حالة مشابهة في الآية الثامنة عشرةَ بعد الْمِائة لاحقا إن شاء الله تعالى).

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (107) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (108)

يُفتَرَضُ في بناء المساجد النيةُ الصادقةُ والسريرةُ النقية ليُعبدَ اللهُ تعالى فيها. ولكن المنافقين بنوا مسجدا وفي نواياهم الكفرُ والصدُّ عن سبيل الله والتفرقةُ بين المسلمين. وليكون مثابةً يلجأ اليها من يعادي الدين تحت ستار الدين. ومنهم ابو عامر الراهب من اهل المدينة. فإنه عندما رحل النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم مهاجرا الى المدينة أُفتُتِن أبو عامر وكره الاسلامَ وهرب الى مكة لينصروه فلم يفلح. وهرب الى الروم لتحريض القيصر على محاربة الإسلام فلم يفلح. فأرسل الى منافقي المدينة يطلب اليهم بناء مسجد ليكون مقرّا له فيحارب الدين منه. وكان ذلك في السنة التاسعة للهجرة. ولما بَنَوا المسجد طلب هؤلاء المنافقون من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان يصلي فيه وغايتُهم إضفاء شرعيةٍ عليه في نظر الناس. فادّعوا امامه بأنهم انما بنوه مأوى للضعيف واهل العلة في ايام الشدة. ولكن الله تعالى خيّبهم فأوحى بكفرهم وامر ان لا يقوم فيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ابدا. وبيّن فضل مسجد قباء الذي بُنِي من (اول يوم) لأفضل غاية بأطيب النوايا, فكان ذلك اليوم بدايةً للتاريخ الهجري. وامتدح

المولى سبحانه المصلين فيه بالتطهر وبشرهم بمحبته لهم. فما كان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا ان امر بحرق مسجد الضرار وكان موقعه قريبا من مسجد قباء وانتهى امره.

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (109) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (110)

اظهر المولى عز وجل أهمية النوايا في الاعمال وأهمية التقوى فيها وهذا يعني إبتغاءَ وجه الله تعالى ورضوانه. وما لم يكن من الاعمال في هذه الأهمية فهو على خوف ان يقود اهلَه الى شبهات والى ضلال شبَّهه المولى تعالى بالجرف الهاري (حافة رخوة). وبيّن موقعَ اعمال الظالمين في قلوبهم بانها مريبةٌ لهم تحزُّ في نفوسهم الى ان تتقطع قلوبُهم أي يدركهم الموت وهم في ريبة وعذاب.

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (111) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (112)

الفرقُ بين المؤمن والكافر هو أن جنةَ الكافر شهواتُ نفسِه وتكاثرُ مالِه لأجلها. واما المؤمن فقد اشترى الله تعالى منه نفسَه أي وجهها اليه، واشترى مالَه، أي ليُنفق في سبيله ابتغاء فضله في الآخرة ومرضاته ووجهه الكريم. وبذلك أبدَلَهم سبحانه جنةَ الآخرةِ بالدنيا وعداً يوفَّى إليهم. ونزلت هذه الآية بالبشرى لأهل بيعة

العقبة من اهل المدينة في مكةَ قبل الهجرة وهي أوّلُ بيعة بايعها الأنصارُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه اذا هاجر اليهم أن يمنعوه مما يمنعون منه انفسهم واموالهم. فبشرهم بالجنة وقالوا "رَبِحَ البيع". ثم امتدح المولى تعالى من إشترى منهم أنفسهم وأموالهم فهم (التائبون): بدايتهم معه. (العابدون): بتوحيده. (الحامدون): إياه لفضله وحكمته. (السائحون): الصائمون، وتختلف سياحة الرجل عن سياحة المرأة، فهي للمرأة: الصيام، وللرجال: الجهاد وقيل الصيام وقيل طلب العلم. ولم يرد فيها مجرد السياحة في الأرض للتفرد بالتعبد في معزلٍ عن الناس فهذا مشروع في أيام الفتن. (الراكعون الساجدون) أي في الصلوات المفروضة والنوافل. و(الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر): في نفعهم لِخَلْقِه بالارشاد والطاعة ما كُلِّفوا بذلك واستطاعوا. (والحافظون لحدود الله): وحفظها هو الالتزام بما ينبغي فعلُه وما يجب تركُه في الحلال والحرام ومعالم الشرع في المعاملات والحقوق. ويحفظها وُلاةُ الاحكام بالتطبيق والعدل.

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (113) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114)

جعل الله تعالى بين المؤمنين صلة الأُخوّة الإيمانية بقوله في سورة الحجرات: ((إِنَّمَا المؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)). فهم إخوةٌ من غير رحم بينهم ويستغفر بعضُهم لبعض. ونهى ان يستغفرَ مؤمنٌ لمشرك وذلك لَمّا اراد بعض الصحابة الاستغفار لذوي قرباهم الذين ماتوا على الشرك. واورد تعالى في ذلك نبأَ استغفارِ سيدنا ابراهيم عليه السلام لأبيه لأنه في حياة ابيه رقَّ له مؤمِّلاً له الهدى. فطلب من الله تعالى ان يغفر له.

ولكنه لَمّا عَلِمَ ان أباه مات مُصِرّاً على الشرك تبدلت نظرته الاولى بدافع القربى الى نظرته الى الحقيقة وهي نظرة براءة الذين يريدون إعلاء كلمة الله تعالى ممن يعادي ربَّه بالصد عن دينه. وقد رضي الله تعالى لإبراهيم رِقَّتَه على ذوي الرحم ولا سيما الأبُ، ووصفه بأنه أوّاه أي فقيهُ القلب كثير الدعاء وبأنه حليمٌ أي يعفو عمن آذاه وتوعّده. وفي هذه الاية عبرةٌ بأن يتوقف المؤمن عند القضاء والقدر المقدر على من كان يرجو لهم خلاف ما حلّ بهم. وهذا هو الرضا بما يدبر الله تعالى من امور في خلقه ويدخل في معاني حمده على كل حال. ويدل على صحة المعرفة بشؤون الله في خلقه فيحمله الإيمان على الصبر وحُسنِ الظَنِّ بالله تعالى.

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (115) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (116)

لله تعالى الحجةُ البالغةُ على عباده إذ اقامها عليهم بعد ان بين لهم سبلَ الطاعة ليسلكوها، وسبلَ المعصية ليجتنبوها مع بيان عاقبة كل من السلوكين. ثم هو العالِم بما يكونون عليه مع الامر والنهي ومع الطاعة والمعصية في أي مكان او في أي موقع وَضَعَهم الله تعالى فيه. فإنه تُرفَع إليه الاعمال من كل بقاع الارض, ويملك لمن في السماوات والارض حياتهم ومماتهم ولا يملكون من دونه من يتولاّهم او ينصرهم.

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (117) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ

وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (118)

كان الخروج الى غزوة تبوك في سنة مجدبة وحرّ شديد وعسر في قلة الماء مما اجهدوا انفسهم جهدا وصل بهم الى حد لا يطاق. فتاب الله تعالى على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى المجاهدين معه في ساعة العسرة أي العسر في المال وفي الخيل والابل وفي الزاد والماء حتى تزعزعت ثقة بعضهم في هذا البلاء الشديد وهنا ادركتهم رأفةُ الله تعالى ليتوبَ عليهم. أي يثبّتهم على ايمانهم ودينهم. فأنزل الغيث ولم يتجاوز المطر الارض التي كانوا فيها. واعادهم تعالى من غزوتهم الى المدينة. اما الثلاثة الذين شملهم الله تعالى ببشارة التوبة فهؤلاء لم يشهدوا الغزوة وتَخلّفوا من غير عذر فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جاءه الثلاثة (وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع العامري وهلال ابن أُمَيّةَ الواقفي) متفرقين فصدَقوا بأنهم لم يكن لهم عذرٌ في تخلفهم. فما كان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الا ان ينتظر قضاء الله فيهم ونهى المؤمنين عن كلامهم فاجتنبوا الناس واستمروا في معاناة على أثرِ ذلك خمسين يوما في ندم وعهد على الصدق حتى نزلت الاية فيهم فبشرهم بها الناس فقصدوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهنأهم. وقد روى البخاري عن كعب بن مالك رضي الله عنه حديثه الطويل في قصته هذه جاء في آخره قوله: "...وعلى الثلاثةِ الذين خُلِّفُوا، وليس الذي ذكر الله مما خُلِّفنا عن الغزو وانما هو تخليفه ايانا وارجاؤه أمرَنا عمن حلف له واعتذر اليه فقبل منه". وهذه التوبة التي جاءت على اثر صدقهم في سبب التخلف وصدقهم في الصبر على المعاناة حتى ضاقت عليهم انفسهم توّجت عقيدتهم بأن الله تعالى هو

الذي يفرون اليه في التوبة وليس لهم ملجأ آخر منه. فصاروا قدوة في الصدق كما جاء في الاية التالية.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119)

اهل الصدق مصيرهم الى البِرّ والبرُّ يهدي الى الجنة. فقد روى الامام احمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((عليكم بالصدق فإن الصدقَ يهدي الى البِرّ والبِرُّ يهدي الى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرّى الصدقَ حتى يكتب عند الله صدّيقاً. وإيّاكم والكذب فإن الكذب يهدي الى الفجور وإن الفجور يهدي الى النار. ولا يزال الرجل يكذب ويتحرّى الكَذِبَ حتى يُكتَبَ عند الله كذّاباً)).

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (120)

بعدما بَيَّن المولى عز وجل ضرورة تلبية نداء الجهاد، يبين هنا مدى حرمان المتخلف عنه من الأعمال الصالحة المندرجة فيه. ففي الجهاد الابتلاء بالظمأ والتعب والجوع والجهد الجهيد وارهاب العدو والنَيل من قوّته فضلاً عن أجر الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى. وكل ذلك من أعمال المحسنين التي لا يُضَيَّعُ أجرُها عند ربهم الكريم الذي يُعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه.

وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (121)

تعطي هذه الآية الأهمية لبذل المال مهما كان صغيرا، وللبعد عن الاهل في قطع الأودية للجهاد بأن ذلك كُلَّه قُرْبٌ من الله تعالى لنيل الجزاء. ويلاحظ هنا فرق النفقة وقطع الاودية عن الأعمال الواردة في الآية التي قبلها فالأعمال التي في الآية السابقة تجري على المجاهدين في سياق إتمام العمل من غير إرادةٍ منهم. واما النفقةُ والإندفاع للجهاد فهما من الاعمال الصادرة عن ارادة المجاهدين. ولهذا قال تعالى ((لِيَجْزِيَهُم اللهُ أحسنَ ما كانوا يعملون)).

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (122)

إختصَّ المولى عز وجل فئات من المؤمنين بالإستعداد للعلم والتفقّه في الدين فأذِن لهم بالنِفار للفِقْه عند نِفار المسلمين للقتال. ولولا هذه الآية لكان نفارُهم للقتال مشمولا بقوله تعالى ((انفروا خفاقا وثقالا))، وقد نزلت الآية في نَفَرٍ من أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم خرجوا بأمرٍ منه صلى الله عليه وآله وسلم لدعوة الناس في البوادي. فقيل لهم هناك "لقد تركتم اصحابكم (أي المجاهدين) وجئتمونا؟" فوجدوا موقفهم محرجا لهم وتركوا البادية وجاءوا الى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فنَزَل عذرُهم وكانوا يلزمون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويحفظون القرآن فاذا عادت سرية من جهاد او غزوة ابلغوهم بما أُنزِل في غيابهم. كما كان بعض اهل البوادي يقدمون الى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

ويتلقون منه امره ونهيه في امور الدين ثم يرجعون الى اقوامهم منذرين ومبشرين ويدعونهم الى الاسلام وطاعة الله ورسوله واقامة الصلاة وايتاء الزكاة. وهكذا شُرّع التفقهُ في الدين لدوام قيام العلم للاجيال اللاحقة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (123)

من شأن الكفار أن لا تفوتهم فرصة للنَيل من الاسلام والكيد للمسلمين. فلا بد للمسلمين إذاً من مواجهتهم بجهادٍ تُكَفُّ به شرورُهم، فالكفر شرٌّ على أهله وعلى المسلمين وجب القضاء عليه. فالكفار الذين يلون بلاد الإسلام وجب قتل الكفر فيهم بغلظة بعد دعوتهم للإسلام لأنهم ان اسلموا كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم وإلا فَيُنذَرون قبل المبادرة بالقتال وهذا من التقوى فيكون الله تعالى مع المتقين. وهذا ما حصل في فتح مكة والزحف نحو فارس والروم والامصار التي تليهم. وهذا الأمر خارج عن مضمون الآية التاسعة والعشرين التي تخص الجزية.

وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (125)

ايمانُ المنافقين ليس له قرارٌ في قلوبهم لكي ترتكز عليه الزيادة. فكلما نزلت سورة (يُقصَد بها الآيات من السُوَر) يقول بعض المنافقين للبعض: "ايُّكم زادته هذه ايمانا؟". بينما كان المؤمنون يستبشرون كلما نزل الوحي؛ مترقبين بشارةً بخير، او نذيرا في نهي ليلتزموا ويزدادوا قربا من الله تعالى. واما زيادة الايمان بعد كمال نزول

القرآن فيكون بالتمسك بالقرآن الكريم؛ كلما استمعوا منه عملوا به في صدق، وكلما عملوا إزدادوا فَهْماً. واما اهل الريبة والشك فلا يجدون في قلوبهم سلامة من ذلك فلا مجال للإيمان، فضلاً عن الزيادة. فما دامت قلوبهم مليئة بغيره فلا تترك مجالا للهدى ويبقى الرجس أي قذارة النوايا وحيرة الشك ليتراكم عليه رجس آخر من لعنة وحقارة لا تنفك عنهم الى ساعة الوفاة وهم كافرون لم يتوبوا ولم يعملوا من الصالحات شيئا.

أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (126) وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (127)

إن أهل الكفر والنفاق بأهواء أنفسهم الضالة وبما سبب لهم زيغ القلوب من ضلال إنشغلوا عن الحق والصدق والايمان والتقوى وحُجِبوا عن العبرة من كل فتنة فيها إختبارٌ لهم. وكانت الفتن تتوالى عليهم؛ ومنها الغزوُ مرة او مرتين في السنة. فلا تؤثر في أنفُسهم للعودة الى الله تعالى والتوبة اليه ولا يستعيدون ما حصل لهم من سوابق الاختبار فلا يتزحزحون عن موقع النفاق والكفر. وما ان يبلّغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما يَنْزِل من القران وهو بين ظهرانيهم وايات الحق مبيَّنة في سيرته إلا وادركتهم الغفلة عن فقهها ودفعتهم الى الانصراف. وهذا من إنصراف قلوبهم فلم يوجِّهْهَا المولى عز وجل الى الفهم لأن الذي حاد عن طريق الحق لا يمكنه فقه معانيه.

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (128) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (129)

عُرف سيدُنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم قبل البعثة بأنه أكثرُ الرجال أمانةً وصدقاً، واعلاهم نَسَباً، وأطهرُهم سيرةً، وأعطفُهم على الفقير والضعيف، وأحرصهم على النفع والخير. وبَعَثَه الله تعالى بالشريعة السمحة السهلة الكاملة بِلُغَة قومه. فحرص على هدايتهم وهداية من يليهم الى كافة الناس. وامتاز للمؤمنين برأفته ورحمته فكان لهم رحمة من عند ربهم الذي علّمَهم تعالى به بعد جهل وهداهم به بعد ضلال وجمع به شملهم. ومع هذه الرحمات والمنن الربانية التي منّ الله تعالى برسوله على من اهتدى بِهَدْيِهِ، فقد تولّى أهلُ الزيغ وخرجوا من الرأفة المحمدية والرحمة. فأرشد المولى عز وجل رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم الى تسليم امره وامرهم اليه تعالى فهو الذي يكفي الذين صح توكُّلُهم عليه بصلاح أعمالهم، وهو رب العرش العظيم. وعروش عباده حقيرة فانية، بيده امر الخلائق يحيطهم بعلمه ويريهم آياته سبحانه.

سورة يونس

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (1)

تقرأ الأحرف: أَلِف لام را. أما اسم الاشارة (تلك) فيعني: أُشير الى آيات الكتاب المنزل بالحكمة. ويقصد به القرآن.

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (2)

يُنكِر المولى عز وجل على كفار قريش إستغرابَهم من نبوَّة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتعجُّبَهم مما أنذرهم به ومما بشّر به المؤمنين من ثباتهم عند الله تعالى. وإذ لم يجد الكافرون طعنا في آيات القرآن بل وجدوه مُعجِزاً جاء بما لا يتسنى لهم أن يأتوا بمثله، إعتبروه سحرا جاء به ساحر ظاهر السحر ولم يقدروا دعوته لعبادة الخالق إلهاً واحداً لا يُعبَد سواه.

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (3) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (4)

يبين تعالى خطأ الكفار وزيغهم بقولهم (ساحر). فليس من السحر إظهار الحق في وحدانية الله تعالى وقدرته في الخَلْق وما بعد الخلق في تدبير أُمور المخلوقات وحصر الشفاعة بما يسمح به. فالسحر من شأن أهل الشرِّ خِلافَ ما جاء به القرآن من حق مبين بوجوب إفراد الله تعالى بالعبادة. اذ لا يملك غيره للخلق شيئاً. ومعنى الإستواء على العرش هو التصرف بالْمُلْك بأحديته إذ لا يوجد عرشان في مملكة واحدة. فذُكِر العرشُ معرّفاً بـ(أل) كرمز لوحدانيةٍ لا شريك له فيها سبحانه. وبعد كل ذلك يتناسى الكفار هذه العزة وينسبون لغيره ما لا ينبغي إلا إليهُ. وقد جعل للناس مرجعاً إليه فكما بدأ خلقهم جميعا ثم أماتهم فإنه يعيد الحياة التي منحهم إياها في المبدأ لتكون الحياة الثانية ثمرة للحياة الأولى يحصد فيها المؤمن ما زرع من عمل صالح ولا يُظلم. ويحصد الكافر ما زرع من كيد ومكر وغدر وكفرٍ بآياتٍ بيّنات فيكون كسبه شراباً من حميم (أي ساخن) وعذابا أليما.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (6)

سبحان الله في التقدير المتسم في كل آياته بالحكمة والحق. فالشمس من مصادر الطاقة الضوئية تضيئ ما تسقط أشعتها عليه كالقمر الذي يعكس الأشعة إلى الأرض نورا، وليس مصدرا للضياء. ومن تقديره تعالى أن تدور الأرض حول نفسها دورة كاملة كل أربع وعشرين ساعة وتدور حول الشمس مرة واحدة بالسنة. وبهذا امكن حساب الأيام والسنين. وإذا بالقمر يواجه الأرض بوجه واحد اذ يدور حولها في وقت يدور فيه حول نفسه مثبتا وجهاً واحداً على الأرض. وهكذا جعل الله تعالى دورانه مختلفاً عن زمن دوران الأرض حول نفسها فعندما يكون في الظاهر

قريبا من الأُفق الغربي مع غروب الشمس تظهر منه حافة من الجزء المنير فنراه هلالاً ثم يتدرج ظهور الجزء المنير سَعَةً مع إرتفاع موقعه عن الأُفق الغربي اذ يتأخر كل يوم باثنتين وخمسين دقيقة عن ظهوره قبل يوم، فيظهر الجزء المنير اكثر مساحة حتى يكون بدرا في الأُفق الشرقي من المساء. ثم يتناقص ليعود فتظهر الحافة الأُخرى في أواخر الليل ثم يواجه المنير منه الشمس في الأُفق الغربي ويواجه الجزء المعتم منه الأرض في المحاق ليولد بعده شهر جديد من الأشهر القمرية. وهكذا تحدث الأشهر القمرية. ثم نعود الى انحراف محور الأرض بثلاث وعشرين درجة ونصف الدرجة لنجد اثره (مع دوران الأرض حول الشمس) على حركة المشارق والمغارب فيطول النهار في الصيف ويقصر في الشتاء وذلك بحركة تَعامُدِ أشعة الشمس المستمر دائبا (متواصلا) مع الحياة تتعامد بين مداري السرطان والجدي ويختلف المناخ وفق ذلك وتهب الرياح لتثير سُحُباً فأمطاراً بمشيئة مَن يرزق العباد فيعلم العبد ويشكر ويتقي سوء العاقبة وما يحمله كرُّ الأيام والسنين.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (7) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (8) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (9) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (10)

يخبرنا المولى تعالى عن الذين لا يرجون لقاءه كفراً بالآخرة بأن مأواهم النار إذ لم يحسبوا حساباً للقائه وقد حجبهم عنه رضاهم بالحياة الدنيا وسكونهم إلى طول الأمل فغفلوا عن رؤية آثار القدرة الربانية. ويبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأنهم في هدى من ربهم لا ينقطع حتى يُدْخِلَهم برحمته في جنات النعيم تسقي

الأنهار أشجارَها. وكما سبحوا بحمد الخلاق القدير في الإيمان بآياته في الدنيا ولم يغفلوا عنها، يعود تسبيحهم هذا تسبيحَ شكرٍ في الآخرة ويتلقَّون التحيات بالسلام ويُلهَمون الحمد فالله تعالى هو الذي استحق الحمد في الدنيا والحمد في الآخرة.

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (11)

يتضح حِلمُ الحليم جل شأنه إذ يلطف بعباده فلا يعجِّل لهم الشر الذي يطلبونه في الدعاء على بعضهم البعض في حالات الغضب والغيظ وإلا لسارعت إليهم الندامة. كما يمهل المولى عز وجل أولئك الطغاة الغافلين عن الله تعالى الى اجل لا يمهلهم عنده فتتملكهم الحيرة التي فاجأهم بها لقاء الله ثم حسابه عندما ينقطعون عما كانوا منغمسين فيه من الدنيا وهوى الأنفس فيها.

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (12)

الإنسان المقصود هنا غير الإنسان المؤمن الصابر في الضراء والبأساء والشاكر في النعماء بل هو الذي يجزع في الضر الذي جرّه على نفسه. فيكثر من الدعاء. فلما يكشف الرحمن بلواه يعود مسرفاً على نفسه بِنسيان الشِدّةِ ناسياً معها ما سبَّبها له فيعود إلى ما كان يعمل ويراه حسناً.

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (13) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (14)

الخطاب موجّه لكفار مكة بقوله تعالى: (القرون مِن قبلكم). وهم مكذّبوا الرسالات الهالكون قبلهم. فانذرهم المولى عز وجل من المصير الذي لقيَه أولئك المجرمون. ثم وجه الخطاب في الآية التالية الى من وصلت إليه وتصل إليه الرسالة المحمدية لتكون حجة لهم او عليهم إما في قبول هداها والعمل على نورها بما يرضي ربهم الذي استخلفهم في الأرض. وإما في تركها واتباع طرق الشقاء. والله تعالى يشهد أعمال من ضل ومن اهتدى ويضعها في موازين القسط.

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (16) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (17)

جعل المولى الحكيم لكل تَحَدٍّ من كفار مكة حجةً تَرُدُّ عليهم ليبلغهم بها رسولُه صلى الله عليه وآله وسلم. فإنهم لَمّا سمعوا الآياتِ الظاهراتِ بالحق ثقُلت على منكري لقاءَ الله تعالى اذ لو تحقق ذلك في نفوسهم لجزعوا من مصير الكفر الذي هم عليه. فكانت الحجة أن يقول لهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأنه لا يملك تغييرَ ما أحْكَمَه اللهُ تعالى من آياته فإنه مأمور بها من غير تبديل او نقص او زيادة بل عليه الطاعة وإلا فالمعصية تصير به الى عذاب يوم عظيم. وحجة أخرى عليهم في بعثته صلى الله عليه وآله وسلم على رأس أربعين سنة له، وهو عمر يكفي للحكم على صدق الصادق وكذب الكاذب فلم تحصل مشيئة الله تعالى أن يتلو عليهم الآيات قبل سن الأربعين. ولو بدّله كما أرادوا (حاشاه) لأقاموا عليه الحجة

بأن القول من نفسه وليس من ربه. ولو كان من عند ربه فبدله فبذلك يكون قد عصى ربه لعذاب يوم عظيم ولكان مجرما لا يستحق الفلاح صلى الله عليه وآله وسلم. وبهذه الحجج جعلهم أمام مخرج واحد هو أن القرآن وحي مُنْزَلٌ عليه ولا كذب فيه، وان مشيئة الله تعالى اقتضت تبليغهم بكتابه لهداية من يؤمن ثم يهتدي به، وعقاب من يكذِّب به ظالِماً لنفسه في الخاسرين.

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (18)

ويُنكِر الله تعالى على هؤلاء الكفار اعتقادَهم الخاطئ بآلهتهم التي جاءت من أوهامهم بأنها تضر وتنفع وتشفع! ولكن الخالقَ تعالى أكد أنها لا تضرهم ولا تنفعهم فهل كانوا أعلَم منه سبحانه بمن خلق في السماوات والأرض؟ ولا يتوهم ما إعتقدوه إلا مشرك. وسبحان الله عن الشريك.

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (19)

من بعد أبينا آدم عليه السلام كان الناس أُمّة واحدة لا يشركون بالله تعالى قرونا طويلة ثم اتخذ البعضُ منهم بعضَ صُلَحائهم وسيلةً للتقرب الى الله تعالى بغير سلطان أتاهم فصنعوا بعد وفاة صلحائهم تماثيل لهم منها وَدٌّ وسُواعُ ويغوثُ ويعوقُ ونَسْر. فانحرف من بعدهم مَن عبد هذه الأصنام كما جاء في قصة سيدنا نوح عليه السلام، ولم يكن الله تعالى ليعذبهم حتى تقوم الحجة عليهم فتركهم في غيهم الى الأجل الذي سبق لهم منه ليهلِك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة. فالبينة

هي الرسل والحجة هي الاستجابة للرسالات او تكذيبها. وسينبأون بما عملوا. وهكذا حصل للأقوام الأُخرى يختلفون بينهم إلا مَن رَحِم اللهُ من المهتدين الثابتين على التوحيد بلا زيغ.

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (20)

الآيات، التي طلبوا نزولها على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لها عند الله حكمٌ بأن يهلك من لا يؤمن بها إذا نزلت ويعذبه. وقد كذّب الهلكى الأولون بمثلها مثل ناقة صالح عليه السلام فاهلكهم الله تعالى. ومن عِلْمِهِ تعالى وحكمته لم يعاجل كفار قريش بالعقوبة فلم يُنْزِل الآيات التي طلبوها بل وجّه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ليبين لهم بأن علم العاقبة في الأمور هو من الغيب الذي عند الله. ويعلم عنادهم وتعنتهم في طلب الآيات. ولم يطلبوها للهدى والثبات. فلو أُنزِلت لحصلت منهم مكابرة وتقولات بأنها السحر. فما عليهم سوى الانتظار.

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (21)

من آيات الله تعالى الفرج بعد الشدة كالغيث بعد القحط. ولا يَنْسِبُ الكفار ذلك لآية ربانية بل يرون ذلك من طبع الزمان وتوافق الأقدار من غير تسبب وتقدير من الله تعالى! وهذا التكذيب هو مكرهم في آيات الله واستهزاؤهم بمن يدّعى ذلك. وقد سبقهم تعالى بان اعدّ لهم سجلا يكتب الرُسُلُ من الملائكة فيه ما يتقوّلونه ليُحسب عليهم يومَ لا يستطيعون تكذيبه.

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (23)

ينبه المولى تعالى إلى لطفه في حفظ المسافرين في البر والبحر. وعندما يكون تفادي الأهوال في البحر فوق قدرة البشر لا يجد الإنسان المشرك في شركائه من ينقذه منها فيفر الى الله تعالى في دعائه مُفرِدا إياه من غير شريك. ثم يَعِدُ بالشكر. فإذا مرت الأهوال وقد نجا منها نسيَ ما عاهد عليه وعاد الى بغيه أي يغمط الحق من أجل متاع زائل يُنَبّأ بما عمل من أجله في معاده الى الله.

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24) وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (25)

يفصِّل المولى عزّ وجلّ المشاهد التي يريد من أهل التفكر ان يتأملوها لفهم العبرة والأمثال منها. ثم يدعوهم للتفكير الذي يتميز به العابدون اكثر من غيرهم في درجات متفاوتة. وفي هذه الآيات مثّل الله تعالى الحياة الدنيا والمفاجأة من انقضاء أحوالها بالزرع الذي أخرجه تعالى ثمارا وزينة وعشبا يؤمل زارعُه وَفْرَةً في إنتاجه. ولكنه يفاجأ بأمر من الله تعالى لم يكن في حسبانه يدع خضرته يباسا ونضرته ذبولا كأنها لم تزدهر. وهذا شأن الدنيا في زوالها السريع من أيدي أهلها الذين حسبوا انهم

متمكنون من جني خيراتها. بينما الخيرات كلها في تلبية دعوة الله تعالى الى دار الطمأنينة في خلود لا مفاجأة فيه من نكد او خسارة. واسماها تعالى: دار السلام. أي الجنة في الآخرة والإسلام في الدنيا. ويَدُلّهم التفكير السليم بإذن الله تعالى وعونٍ منه الى العمل للآخرة بالرغبة اليه تعالى. أي العمل لوجهه في ما آتاهم من نعمائه وفق ما يرضاه لعباده الصالحين.

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (26) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (27)

المحسنون هم الذين أرادوا وجه الله تعالى في أعمالهم فوعدهم أن يضيف الى ثوابهم زيادةً. وفي ما رواه الأمام احمد عن صهيب ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعدما تلا هذه الاية قال: ((إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ وأهلُ النارِ النارَ نادى منادٍ: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد ان يُنْجِزَكُموه فيقولون: ما هو؟ ألم يُثقِل موازيننا؟ ألم يبيض وجوهنا، ويدخلْنا الجنة، ويُجِرْنا من النار؟)) قال: ((فيكشف لهم الحجاب فينظرون اليه فوالله ما أعطاهم الله شيئا احب إليهم من النظر إليه ولا اقرَّ لأعينهم)). وبهذا النعيم تعلو وجوهَهم نَضرةٌ وُسرور فلا يرهقها قَتَرٌ أي غبرة قاتمة، ولا ذلة تنكس الوجوه. وأمّا الذين كسبوا السيئات فَيُجزَون بكل سيئةٍ سيئةً مثلها ترهقهم فتظهر عليهم آثارها وهذا ما عبّر عنه تعالى بـ(الذِلّة). ولم يقدموا ما يعصمهم من أمر الله تعالى وتُلقي ظلمةُ سيئاتهم على وجوههم ظلالاً سوداء. وهذا حال أصحاب النار هم فيها خالدون.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (28) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (29) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (30)

يوم الحشر يحشر الله تعالى عباده جميعا. ومن مشاهد ذلك اليوم أن الله تعالى يوجه فيه الخطاب الى من أشرك منهم بالله ما لم يُنَزِّل به سلطاناً. فيؤمَرون الى مقام غير مقام المؤمنين. فهم يتفرقون فيُكشَف للمشركين شركاؤهم (أي تزال الحجب في ما بينهم) ويتبرأ الشركاء من عبادة من أشركوهم بالله تعالى. ويُشْهِدون الله تعالى انهم ما دَرَوا بما فعل أهلُ الشرك إذ عبدوهم. وهنالك تبلو (تختبر) كل نفس ما كُتِب لها او عليها وتعلم تفاصيل عملها وأنّ أمرها مردود الى الله تعالى وهو الحاكم العادل بالحق فلا يجد المشركون سواه. أما من أشركوهم بالعبادة مِن دونه سبحانه فلا يجدونهم إلى جانبهم ليشفعوا لهم كما كانوا يفترون ويعدونهم شفعاء لهم، فتخيب أوهامهم فيهم.

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (31) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (32) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (33)

بعد ان أورد المولى عز وجل مشهدا من مشاهد الحشر وعاقبة المشركين فيه يُسائل هؤلاء عن حقه في إفراده بالعبادة دون أحد من خلقه، وفي التقوى تكون صلتهم به. فهو الذي يرزق ويحيي ويميت ويدبر الأمور فلا يملك غيرُه حقّاً من

حقوق الإله خلاف ما يتوهمه الضالون. فينكر عليهم ضَلالَهم الذي صرفهم عن عبادته الى عبادة غيره. ومن اعترافهم بأنه الرزاق المالك للأمر يُحِقُّهم تعالى بأنهم فسقوا عن الأيمان الصحيح أي خرجوا عنه بلا مبرر سوى ضلالهم الذي اختاروه.

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (34) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (35) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (36)

حجة أُخرى تبطل أخطاء المشركين بحق الله تعالى. فما من مخلوق يبدأ خلقا ثم يعيده بل هذا لله فقط. فمن صُرِف عن هذا الحق فقد اتبع كذبا. وما من مخلوق يعبده المشركون يملك لهم الهدى للحق. فما يعقل أن يتبعوا من لا يهتدى بنفسه الا ان يهديَه غيرُه. وليس لهم سند يراه العقل صحيحا. وهذا ما ينكره المولى عز وجل عليهم لشدة بُعدهم في حكمهم عن الحق. فما يُعَلّلُ فعلهم إلا باتباع الظن. والظن لا يقف أمام الحق. وعلمُ الله تعالى بأفعالهم هو الْحَكَمُ الذي يقوم عليهم في كفرهم بتسوية المخلوق بالخالق جل علاه.

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (37) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (38) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (39) وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (40)

إن تحلّي القرآن بسموِ المعاني وصحة التوجيه وبالفصاحة والوَقْعِ المنسجم في اللفظ وفي الإنسياب في التلاوة مع البلاغة في الايجاز، صفات لا يمكن ان تجتمع في ما يكتبه البشر أو يقولونه لأن هيمنة من يمكنه أن يأتي بآياته لا يملكها إلا الله تعالى. فأوامره ونواهيه واحكامه وأخباره وأنباء المستقبل وسُبل الرضوان في القرآن حجةٌ مبينة تقطع الريبة عنه وتُثبِت أنه من رب العالمين. فمن ارتاب فليأتِ بسورة مثله مستعيناً بمن يستطيع من دون الله. وهكذا يظلم المكذبون بالكتاب انفسهم في سَفَهٍ وعُلوٍّ ولم يُدركوا علمه. وعليهم أن يحذروا مصير من فعل ذلك من الأقوام السابقة. فمن رجع الى الإيمان فقد نجا ومن مات على الكفر بُعِث إلى الهلاك. والله تعالى اعلم بمن هو أهلٌ للهدى فيصلح شأنه إليه، واعلم بمن يُفسِد فيتركه في الضلالة. وهم لا يُظلَمون.

وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (41)

ارشد المولى عز وجل رسوله صلى الله عليه وآله وسلم الى أن يتبرأ من أعمال أهل التكذيب. أي انه بريء مما يعبدون من دون الله. وأنهم ليس لهم حظ في هذا الإيمان وفي عاقبته الحميدة.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (42) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (43) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (44)

مع ميزات القرآن الكريم فإن الله تعالى بيّن لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم تعذر هداية من لم ينفعه سمعه إذ تحاشى الاستماع شأنه شأنَ الأصمّ. وكذلك يتعذر تصحيح النظرة الخاطئة لأهل الكفر، فهم كالعُمْيِ الذين فقدوا البصر وقد سقطوا في الكفر بما استحقوا من ميلهم إليه. فما ظلمهم الله تعالى بل ظلموا أنفسهم بحرمانها من الهدى، اذ أغلقوا دون نوره مداخل سمعهم وأبصارهم.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (45)

زوال كل شيء وفناؤه يجعل مكوثه عُمُراً قصيرا مهما طال به الأمد. فيوم ينقضى هذا الأمد يبدو لأهله ساعة من النهار يتعارف المرء بينه وبين المحيطين به. وعندها تتحقق خسارة الذين أساؤا الظن بالله تعالى فكذّبوا بلقائه وبالرسل معهم الآيات التي دلّت على لقائه جاءتهم حجةً لهم أو عليهم. فما استعدوا للهدى إلى الحق وما استحقوه فضلُّوا عن سبيله ولم تبق لهم وسيلة إليه.

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ (46) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (47)

كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم موقنا بصدق الوعد في الإنتقام من أعدائه الذين اشتدوا عليه ولم يبدر منهم هدى ورشاد. وجاءه حكم الله تعالى فيهم بأنه يقدِّر موعد ذلك سواء كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيّاً أو بعد وفاته. فالله تعالى مطلع على أفعالهم تجاه الرسالة المحمدية كما جعل لكل أُمّة رسولاً لكي يُقْضَى بينهم بموجب ما جاءوهم به. وسيُعرضون عليه فتكون الرسالات هي المحجة

التي يُحاسَبون على مقتضاها واحكامها ويُوفّون أعمالهم على ضوئها ولن يلحقهم في ذلك ظلم لانهم وَصَلَتْهم الرسالة وعرفوا أحكامها ويعرفون أفعالهم تجاهها.

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (48) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (49)

الريبة في قلوب المنكرين لِوَعيد الله على تكذيبهم تدعوهم للاستعجال بوقوع الوعد الذي حيّرهم أمره. اذ لو انهم آمنوا لأشفقوا من الساعة وأهوالها ومجهول عاقبتهم بعدها. ولكن سؤالهم عن موعدها موجّه لمن لا يملك الجواب عنها. وإنه صلى الله عليه وآله وسلم سيبين لهم ما عنده. فهو لا يملك لنفسه الضر والنفع ولا يملك من العلم إلا ما يشاء الله تعالى له فكيف يعلم عن شيءٍ إستأثر الله تعالى به. ولكن الجواب المناسب لهذا التساؤل هو أن الساعة وإن خَفِيَ موعِدُها إلا أنها حق. وإن لكل أمة أجلاً من السنين لا بد من دنُوّه ووقوعه. فإذا جاءهم فلن يملكوا تأخيره كما لم يملكوا تقديمه.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (50) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (51) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (52)

تحمل الآيات إشارة الى أن العذاب يبدأ من غير سابق إنذار. فلا يستطيع المجرم أن يملك ردّه أو الوقاية منه. فما معنى إستعجالِهم به؟ فإن كانوا يستعجلون به من أجل الإيمان بالساعة فإن ايمانهم آنذاك لن ينفعهم. فالعذاب خالد لا يُرفَع ولا يؤجل وما هو إلا جزاء ما كسبوا من ظلم.

وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (53) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ

بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (54) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (55) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (56)

في هذه الآيات، بعد سؤال أهل الشرك عن حقيقة الوعد، أمر الله تعالى رسولَه صلى الله عليه وآله وسلم أن يقسم به تعالى ربّاً بأن الوعد لَحَقٌّ (واليمين حجةٌ على من يسأل). وهنا يبين المولى تعالى لهم مدى ضعفهم أزاء قدرته التي لا قِبَلَ لهم على ردِّها. ويبين الله تعالى بعدها أن أهل الظلم في شركهم لو يملك أحدهم ما في الأرض يوَدُّ، حين يرى العذاب، لو يفتدي نفسه به. فلا يبقى لهم بعدما يقضي الله تعالى بينهم بالقسط إلا حسرةُ الندامة المكتومة في سريرتهم. ويذكِّرهم المولى عز وجل مُعقِّباً على تجاهلهم لآياته بأنه جل علاه هو المالك الحقيقي لما في السموات والأرض وان وعده الحق وانه كما أحياهم ويميتهم فلسوف يحييهم بعد الموت ويُرجعهم إليه.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (57) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (58)

الله تعالى هو المنان الذي يمن على خلقه بما يسعدهم. مبتدئا بالموعظة التي تبين للناس ما يُدْخِل الرَّوحَ والسرور في القلوب, وترشدهم الى سبل نيل رحمته بالإيمان والعمل الصالح. ثم يذكرهم بهذا الفضل وبرحمته فتطمئن بها قلوب المؤمنين طمأنينة لا تحصل في جمع المال وكثرة المتاع. فالطمأنينة الحقة لا تحصل بما يُتوقَّع زوالُه بل تحصل بما يثبت بقاؤه. ولا تحصل بوجود الشك والريبة بل تحصل باليقين الصادق. فالشك والريبة من أمراض القلوب وشفاؤها باليقين والثبات بين الخْشية من الزيغ والرجاء بنيل الرحمة بمعروفٍ من الله دائمٍ لا ينقطع أبداً ولا يحصيه غيره.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (59) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (60)

سبق بيان أوصاف الأنعام التي حرّمها المشركون على أنفسهم او على زوجاتهم من بحائر وسوائب ووصائل ولم يكن لهم بذلك من سند من أي كتاب مُنزَل بل حرَّموا ما حرَّموا حسب أهوائهم وآرائهم الخاطئة. وهنا توعّد الله جل علاه هؤلاء المشركين فقال (وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة) أي هل يعلمون ماذا سيكون مصيرهم على ذلك يوم يرجعون الى الله. فهنالك الحساب والعقاب. أمّا هنا فلم يعجل لهم عقابهم وذلك من فضله على الناس واكثر الناس مصروف عن شكره بإنشغالهم بنعمته سبحانه.

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (61)

المؤمن القائم بالفروض والواجبات والعامل بالسنن وتلاوة القرآن الكريم هو في رعاية الله تعالى الذي لا يخفى عن علمه ولا يغيب عنه كلُّ حركةٍ او سكون لصغير او كبير من مخلوقاته مهما افاضوا فيه أي خاضوا فيه واخذوا فيه واستغرقوا فيه. فكيف يغيب عنه العمل الصالح للعبد المطيع. وبهذا التعريف بهيمنة الله تعالى يُحبِّب الإحسان إلى أوليائه بأن لا يغيب عن فكرهم. أي انهم يعبدون الله كأنهم يرونه. ويفسر ذلك قوله تعالى بعد هذه الاية :

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (64)

التقيُّ المؤمن يتولاه الله تعالى بولايةٍ يشعر معها بإنتمائه الى مولاه. ولا يرى في هذه الولاية أمراً أهمَّ منها فلا يخاف من عاقبة سيئة في الآخرة. ولا يأسف على ما يفوته من الدنيا. كما أن البشرى في الحياة الدنيا تكون في نظرته الصائبة إليها بنور الله تعالى وزهده فيها وشكره لله تعالى على هدايته الى التقوى فيكون أُسوة حسنة يهدي به الله قلوباً تتفتح لمعرفة الله تعالى وعبادته. وبهذه الأخلاق وبهذا الصدق المبشر بالجنة ينال بشاراتِ وعدِ الله تعالى له بالحسنى. وأما البشرى التي له في الآخرة فتتمثل في ما يناله من كرم ربه الذي لا ينقطع ولا ينقص بل في ازدياد في جنات النعيم وطمأنينة الخلود. وهنا يلاحظ أن بشرى الدنيا تطمئن لها النفوس مهما ورد عليها من ابتلاء في النفس او المال ففيه رفعُ الْمَنْزِلة. وأمّا بشرى الآخرة التي ليس فيها ابتلاء ولا حرمان فتكون في طمأنينة القلوب والنفوس معاً مع المزيد الموعود. وذلك هو الفوز العظيم وعْداً حقّاً لا تبديلَ له.

وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (65) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (66)

أقوال أهل الكفر مِراء خائب لأنَها مستندة على الظن الخاطئ. ويشير المولى تعالى الى قولهم ويطلب من رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن ينظر إليه مثل نظرته الى قائليه الذين لا عِزّ لهم ولا بقاء. بينما النظر الى عزته تعالى بالتعظيم يُبعِد الْحُزنَ.

وأهل الكفر عبيد لشركائهم مملوكون للباطل وممكورون بالظن الخاطئ فلا تحمل دعواهم إلا الْخَرْصَ أي تمسكهم بالكذب.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (67)

الليلُ والنهار من آيات الله تعالى جعلهما للناس سبباً للسكينة وللمعاش. ولو تأمل أهل الكفر هذه الآيات لما أشركوا بالخالق بأن يجعلوا له نِدّاً. فلا يمكن لمن توهّموه نِدّاً لله (سبحانه) أن يأتي بالليل والنهار من دوران الكرة الأرضية حول نفسها. ولو أصغَوا الى الحق وتأملوه بقلوب سليمة ونية صافية راغبة في معرفة الحق لاهتدوا. ولكنهم لم يُصغُوا. لذا صار نفعُ الآيات لقوم يسمعون، أي لمن يُصغي.

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (68) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (69) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (70)

تقوم الحاجةُ للولد لدى الأبوين تحسُّباً لضعف وشيخوخةٍ واحتمالِ فقر ومرض وما الى ذلك. ولكن الله تعالى منَزَّهٌ عن كل حاجة. فمن أي مصدر اخذوا هذا الكفر؟ وأزليّة المولى سبحانه قديمة في غنى عن الحاجة لحدوث الولد. فنسبة الولد لله سبحانه تقوّل بما لا يعلمون وافتراء لا يفلحون به. فكانت حياتهم الدنيا مجرد متاع لم يكسبوا به الآخرة وعاقبة زواله رجوع الى الله تعالى ثم مواجهةُ جزاءِ ما افتروا على ربهم كفراً وتعنُّتاً يذوقون به عذاباً شديداً عليهم.

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (71) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (72) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (73)

كذّب قومُ نوحٍ عليه السلام نوحاً لَمّا دعاهم لعبادة الله وحده ونبذ الأصنام. فجاءهم بالحجة العقلية أن يتأملوا جميعا عناصر دعوته من غير أن يبقى لديهم غموض فيها. ثم ليتخذوا قراراً في موقفهم معه. فان لم يقتنعوا فالحجة التالية انه لم يطلب لنفسه منهم بل طلب لهم الهداية وجعل اجره على الله تعالى. فهو مأمور وأدّى الامانة مسلما لربه. ومع هذا لم يتعرفوا على نور صدقه فكان عاقبتَهم تنفيذُ الوعدِ عليهم بالغرق وعاقبة المؤمنين النجاة. وهذا المشهد يتلى على كفار قريش وفيه إشارة بأن يتخذوا موقفاً سليماً مع سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وليس كما صار إليه الْمُنذَرون.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (74)

البينات التي جاء بها الرسل من بعد نوح عليه الصلاة والسلام براهينُ واضحة على صحة ما جاءوا به. إلا أن أقوامَهم كانت في وادٍ آخر لغياب فقههم إياها. فقد كذبوا بها. ولا تلين قلوبهم بعد ذلك للتصديق بها لِما غلّف قلوبَهم من قسوة على الحق فلم يشأ الله تعالى أن تلين قلوبهم لفقدانهم الاستعداد للهدى. كما يفعل المولى تعالى ذلك بكفار قريش لموقفهم العدواني من الرسالة المحمدية.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (75) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (76) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (77) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (78)

الذي منع فرعون وحاشيتَه وكبراءَ قومه من التصديق بالآيات الواضحة التي لا يمكن أن تكون سحرا هو التمسكُّ بمكانتهم الدنيوية من عرش ووزارات ومناصب وذلك من تكبرهم على الناس. وهذا ما افصحوا عنه بقولهم لموسى وهارون عليهما السلام: (وتكون لكما الكبرياء في الأرض) وهم يعلمون أن السحر يحصل لأغراض باطلة وان الآيات جاءت بالحق للحق فهي الحق من الله تعالى. وقطعوا الجدل بقولهم: (ما نحن لكما بمؤمنين).

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (79) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (80) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (81) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (82)

تقدم في سورة الأعراف شرح قصة السَحَرَة مع سيدنا موسى عليه السلام. ووردت هنا بإيجاز لبيان مدى مكابرة فرعون في التصديق مع وضوح الحق في ما قاله سيدنا موسى عليه السلام من أن الله تعالى سيبطِل سِحْرَ السَحَرَةِ ويقهر المجرمين بإحقاق الحق وهم كارهون.

فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (83) وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (84) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (85) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (86)

اختلفت التفاسير حول انتماء الذرية المؤمنة، هل هم من قوم موسى، أم من قوم فرعون؟ والمرجح انهم من قوم موسى لورود اسمه عليه السلام في أول الاية. ويحتج القائلون بأنهم من قوم فرعون ذلك أنّ قوم موسى كانوا مؤمنين من السابق. والمهم أن تكبُّرَ فرعون وبطشَه كان يحسب له حساب في الإقدام على إظهار الإيمان. فكان من آمن من قومه يكتم إيمانه. وواجههم سيدنا موسى عليه السلام بأنّ من الإيمان أن يتوجَّهَ المؤمنون الى التوكل على الله تعالى إن إطمأنّت قلوبهم بإسلامهم. واتجهوا للتوكل على الله تعالى داعين إياه أنْ لا يُسلِّطَ عليهم قومَ فرعون كي لا يقع عندئذٍ في القلوب كونُ فرعونَ وقومِه على حق فتحصل فتنةٌ للظالمين. وبعدها طلب المؤمنون من الله تعالى النجاة برحمته من أهل الكفر. وهذا شأن المؤمن في المواقف الحرجة.

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87)

كان لبني إسرائيل كنائس يصلون فيها جماعة فلما خافوا من بطش فرعون أي أن يقتلهم في الكنائس أُمروا بأن يصلوا في البيوت ويجعلون صلاتهم فيها الى القبلة. والذي ورد في التفاسير عن تحديد القبلة في ذلك الزمان (حيث لم تُعرف القدس بعد) أنها كانت الكعبة. وبعد بناء بيت المقدس زمن سليمان عليه السلام اتخذوه قبلة. والكعبة كانت منذ زمن سيدنا ابراهيم عليه السلام قبلة المؤمنين ومثابة الحج. وهذا ما أحياه سبحانه بأمره: (فَوَلِّ وجهَك شطرَ المسجد الحرام). وأما الأمر بإقامة الصلاة فهي للاستعانة بها على الصبر الذي عاقبته البشارة للمؤمنين فالله تعالى مع الصابرين ينتظر منهم بلوغ المدى الذي يصلون إليه من الصبر، ولا يكلف الله نفسا

إلا وسعها، فيكتب لهم إحدى الْحُسنَيَيْنِ؛ النصر، او الشهادة. وفي هذا توجيه للإستعانة بالصلاة في الشدّة.

وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (88) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (89)

لم يَدْعُ سيدُنا موسى عليه السلام على فرعون وملئه بالهلاك إلا بعد أن تبين له أن فرعون وملأه لا يُرجى منهم خير. فغضب للدين الذي أبَوا قبولَه. وهو الحق الواضح. وأبدى نظرته الى فرعون ومَلَئِه الذين استغلُّوا أموالهم لإبعاد الناس عن الدين الحق. فكان طلب موسى عليه السلام أن يطمس الله تعالى على أموالهم أي يفنيها في غير ما أرادوا وان لا يجعل لقلوبهم منفذا للنور الذي هو الإيمان فلا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم الذي توعدهم الله تعالى به. وقد كان سيدُنا هارون عليه السلام يردد عند الدعاء قوله: (آمين). فكان ذلك دعوةً لسيدنا هارون واحدةً مع دعوة سيدنا موسى عليهما السلام فبشرهما تعالى بإجابتها. واما إجابة دعوتهما ففي التفاسير أنها جاءت بعد أربعين يوماً. وعلم الله تعالى انهما يستبطئان الإجابة فقال (فاستقيما) أي على الثقة بربكما ولا تتبعانِّ أهواء من لا يثق بإجابة الله تعالى للدعاء اذ لا عِلمَ لهم بالله العزيز الحكيم وما يحكم به من تقدير لوقت الإجابة. وفي هذا إشارة للثقة بالحكمة الإلهية.

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90)

آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (92)

أمر الله تعالى سيدنا موسى عليه السلام أن يتخذ طريقه الى البحر وفي التفاسير الخاصة بآيات مماثلة في سُوَرٍ أُخرى أنّ فرعون أراد العودة بعدما تورّط في اللحاق ببني إسرائيل عبر الممر اليابس في البحر. وكان بنو إسرائيل قد جاوزوا البحر فاطبق على فرعون وجنوده وغرقوا بما فيهم فرعون الذي أعلن إسلامه ساعة يأسه من النجاة. وهكذا أجيبت دعوة موسى وهارون عليهما السلام بأن لا يؤمن فرعون حتى يرى العذاب الأليم ولكن ايمانه جاء متأخرا فلا يقبل منه. وقد نَجّى الله تعالى فرعون ببدنه من غير أن يتغير منه شيء بفعل الغرق وعليه درعُه الذي عُرف به. وقذفه الماء الى مرتفع وبهذا اطمأن بنو إسرائيل وتحققوا موتَه فكان علامة على قدرة الله تعالى وعلى تحقيق الخلاص من هذا المفسد. ومع هذا فكثير من الناس غفلوا عن تقدير العزيز العليم في الحوادث التي تتغيّر من جرّائها الأحوال بأمره بغتة بالنسبة لمن تناالهم حتى وإن كان قد حذّرهم منها. وما أكثر الغافلين عن آياته سبحانه.

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (93)

بعد تدمير حكم فرعون إستقر الحكم في يد بني إسرائيل مما يلي بيت المقدس ونواحيه غربا. فحكموا بلاد الشام ومصر بكاملها واتجهوا شرقا الى الخليل ولكنهم نكلوا عهد الجهاد لوجود العمالقة في فلسطين. فشرّدهم الله تعالى في التيهِ أربعين سنة مات خلالها هارون وموسى عليهما السلام. ثم إنهم بعد التيه فتحوا بيت المقدس الى ان أخذها منهم بختنصّر (نبوخذنصّر). ثم عادوا إليها بعد عشرات

السنين ثم استولى عليها الرومان (الأوربيون) وبُعث خلال هذه الفترة سيدنا المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام. وحكم حاكمها الأوربي هذا على المسيح بالصلب بعد الوشاية به من يهود مدعين أنه يسعى ليكون ملكاً على بني إسرائيل وبيت المقدس. وعقوبة هذه التهمة كانت الصلب! فرفعه الله تعالى. وبعده بثلاثمائة سنة على وجه التقريب دخل الحاكم الروماني قسطنطين دين النصرانية. ولكنه كان فيلسوفاً شرَع بِدَعاً لا أصلَ لها في الإنجيل والتوراة. فظهرت منذ ذلك الوقت البِدع والخلافات بشأنها وبقي قليل من الرهبان على التوحيد الصحيح متخذين الصوامع والبوادي ملاذا بدينهم. ومن البدع التي أحدثها قسطنطين هذا تقديس الصليب ووضع الصور والتماثيل في الكنائس واحل لحم الخنزير. وبقي الرومان في القدس حتى حررها المسلمون في عهد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه حيث تسلم بنفسه مفاتيحها من الأُسقف الذي كان سيد أهلها. أما خلافات اليهود فقد ذكرها المولى عز وجل في سُوَرٍ من القرآن بان سببها البغي بينهم أي المنافسة على مناصب ومراكز رؤسائهم. والله تعالى يقضي بينهم يوم القيامة.

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (94) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (95) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (97)

كُتُبُ أهلِ الكتاب فيها البشارات بالرسالة المحمدية. والأحبار اعلم من غيرهم في ذلك. وأُوحي الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما في التوراة والإنجيل عن البشارات به. فعلى افتراض انه أراد أن يتأكد من أنهم يعلمون فليسألهم عن هذه

البشارات. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما جاء في التفاسير ((لا أشكُّ ولا أسألُ)). ومع أن المخاطَب هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا أن المعنى يحمل لكل مؤمن ان يثبت على اليقين ولا يدخل في مراء بشأنه ولا يلتفت لغير التصديق بآيات الله تعالى وبهذا تكون العصمة. فمن كان في شك فعند ذاك يسأل. أي لا يؤمر المؤمن بالسؤال ما دام ليس لديه شك في موضوع. واما الذين حقت عليهم كلمة الله تعالى (أي بأن يضلوا) فهم الذين كانوا يعلمون بالبشارات بالبعثة المحمدية وجاءت كما وجدوها ومع ذلك لم يؤمنوا! فهم قد ثبت عليهم ما كتب الله لهم لعلمه بما سيكونون عليه أمام الحق. وكما آمن فرعون لَمّا رأى العذاب سيؤمنون كذلك عند ساعة الوفاة ولكنّهم لا ينفعهم إيمانهم. انظر شرح معاني الآية التاسعة والخمسين بعد المائة من سورة النساء.

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (98) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (99) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (100) قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (101) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (102)

فلو تاب اهل القرى الهالكة لَمَا أُهلِكوا. فإن قرية قوم يونس عليه السلام لما آمنوا كُشِف عنهم عذابَ الخِزي وتمتعوا في حياتهم الدنيا الى الوقت الذي أجّله الله تعالى لهم. ويبين الله تعالى أن لا رادّ لمشيئته. فلو شاء لمن في الأرض أن يؤمنوا لَما تميز من يعلم منهم قبول الإيمان والعمل به والانتفاع بعاقبته ممن يختار الدنيا كافراً

بأنعم الله تعالى وآياته. فكان لحكمته تعالى دور في مشيئته عندما يأذن للنفوس المطمئنة أن تؤمن. ولهذا لا يُنسب الى الله تعالى مشيئة القهر على الإيمان فقد قال في الاية معقباً: (أفأنت تُكرِه الناس حتى يكونوا مؤمنين)؟ ولهذا يعتبر الايمان من عزيمة العباد لأنه تحقق باختيارهم فوفقهم الله تعالى إليه. واما الاختيار بحد ذاته فإن الله تعالى كشفه للناس من غير ان يُلجِئَهم اليه بل هو رقيب على تصرفهم فيه. وبهذا اللطف يكون إيمان الذين اختاروه قد حصل بمشيئة ربهم. كما يحصل السخط والعذاب وتسلط الشيطان (وهو ما عبّر الله تعالى عنه بالرجس) على الذين لا ينتفعون بدليل الإختيار، أي العقل الذي وهبه تعالى لهم. فهم لا يعقلون أي لا يوجهون عقولهم لنصح أنفسهم الضالة. ولو أنهم نظروا الى آيات الله تعالى البينات بالنِّعم التي لا تُحصى، سواء من السماء أو مما تخرجه الأرض، لتحركت عقولهم وقبلت نفوسهم ولكن ذلك ليس له اثر لدى مَن لا يؤمن. وقد مضت أيام الذين هلكوا من قبلهم فلينتظروا مصيرَهم.

ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (103)

اما الرسل ومن آمن بهم معهم فلا ينالهم ما شمل اهل الكفر من العذاب. وجعل الله تعالى للمؤمنين حقاً عليه في ذلك. وله الحمد.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (104) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (105) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ (106)

الخطابُ موجَّه للرسول صلى الله عليه وآله وسلم لبيان صفة دين الإسلام الذي كان موضع ريبة لكفار قريش. وهذا نذيرٌ لكل كافر من بعدهم. كما يعتبر الخِطاب موجها الى كل مؤمن إن علم بالشك الذي يبديه الكفار. فوصف الله تعالى الدين بأنه عبادة الواحد الذي يحيي ويميت وانه الآمرُ بالإيمان وإقامة الفروض بمَيْلٍ قلبي، أي حنفاء، وبهذا يتخلّصون من الشرك بتطهير القلب من الْمَيْلِ لأمرٍ آخر. ويشمل الأمر ايضا أن ندعو مَن بيده ملكوت كل شيء وغيره لا يضر ولا ينفع إذا دُعِيَ ففي تولِّي غير الله من دونه ظلم للحق وللنفس وإنّ الشرك لَظُلم عظيم.

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (107)

الضرُّ له أوجهٌ ولله فيه حكمة. فقد يكون مرضا يُكفِّر به السيئات ولا يكشفه إلا هو عن المبتلى. وقد وردت صفته (الغفور) في الآية إشارةً للمغفرة بالإبتلاء. وان أراد الله عبدا بخير فالمقصود بالخير كثرة الفضل، ولا راد له وهو إبتلاء. فالمؤمن يشكر ويطيع بالنعمة. والفاسق يعصي بها. واما مشيئة الله تعالى في الضر والخير سبحانه فهو اعلم بعباده ليبلوَهم أيهم أحسنُ عملا.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (108)

حدد الله تعالى مسؤولية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بتبليغ الرسالة والجهاد في سبيل نشرها. واما الهدى فيحمل معنى معرفة الحق حقاً ثم اتباعه فهو

من آلاء الله لمن اختار الهدى وفضّله على الضلال فزكّى نفسه. ومن اختار الضلال فقد جنى عليها ولا يُحاسَب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ضلالهم.

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (109)

يأمر المولى عز وجل رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالتمسك بالقرآن الكريم والثبات عليه مهما خالفه من الناس أحد فلا بد ان يكون لله تعالى حُكمٌ بان يفتح بينه وبينهم فهو المتفضّل بحكمته وعدله.

سورة هود (عليه السلام)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (2) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (3) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (4) أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (5)

تقرأ الحروف: أَلِفْ , لام , را. وبيان صفة القرآن الكريم بأنه محكم الآيات في التعبير بحيث أعطت الفاظُه معانِيَه المفصلة من الله تعالى بشكل وافٍ. ودل على وحدانية الله وحقِّه ان لا يُعبدَ سواه. وأن آياته حجةٌ إذ تنذر العذابَ وتبشر بالجنة. فما على من يؤمن بهذا الكتاب إلا الاستغفار عما بدر منه من رؤيةٍ مخالفةٍ قبل البعثة المحمدية. ثم التوبة أي الاستمرار على الإنابة الصادقة الثابتة إلى الله تعالى وتصديق وعده جل علاه بالمتاع الحسن، أي الحياة الطيبة، ومنها التوفيق للعمل بالشريعة التي فيها السعادة إلى يوم لقاء الله تعالى. وذوو الفضل درجاتٌ عنده فيكافئ من جنس العمل. فمن عجز عن نيل هذه النعمة الإيمانية والنعيم في الآخرة فإن الرسول الذي دعاه إلى الحق يخاف عليه من ان يناله عذاب يوم القيامة الموصوف بالكبر. فالمرجع إلى الله تعالى وهو واسع في قدرته على كل شيء. اما من كفر من قريش وسمع هذا الحق فلم يجرؤ على مواجهته بل اعرض عنه أي ثنى صدره

ليتجاهل ما سمع مستخفياً عن علمية العليم الخبير، فالله تعالى يبين له بأنه يعلم ما يسر وما يعلن، وان أخفى موقفه تحت ثيابه! والله سبحانه رقيب عليهم. وهذه الآية تشمل المنافقين الذين يُخفون الكُفرَ ويُظهِرون الإيمان وذلك لقوله تعالى: ((انه عليم بذات الصدور)) أي بمكنونات صدورهم.

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (6)

المقصود بـ(دابّة): كل حيٍّ في البر والبحر، رزقه على الله تفضلاً منه تعالى. وكتب له في اللوح مستقره في وطنٍ او مهجر، ومستودَعَه في صُلْبِ أبيه وفي الأرحامِ والبيض والبيوض.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (7) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (8)

الأيام الستة متروك بيان بدايتها ومدتها لعلم الله تعالى. ولا يؤثر ذلك على فهمِنا للقرآن سواء كانت بآلاف السنين او كانت دلالة بهذه الآلاف على عمر حياة الإنسان الدنيا بعد هبوطه على الأرض بهبوط أبينا آدم عليه السلام. والمهم قدرته تعالى على ما خلق فيها. و(كان عرشه على الماء) تعبير عن هيمنته على سبب الحياة لأنه قد جعل من الماء كل شيء حي. فجعل الماء سببا لإمتصاص النبات لعناصر غذائه، وجعل النبات مصدرا للغذاء فكان مصدرا لإدامة حياة

البشر من أجل مواجهة مشيئة المولى العزيز بما يمتحن به عباده بعد ما يريهم سبيل الرشاد وسبيل الغي. ويجدر هنا بيان شأن المؤمنين في الإبتلاء لبيان الأحسن بين الخوف والرجاء؛ فلا يأمن اهل الرشاد مَكْرَ الله، ولا ييأس اهل الغَيّ من توبته عليهم حتى يُقضى الاجل ثم يبعثهم. فباب التوبة مفتوح وخشية الزيغ لا بد منها لتستمر العبادة. واما ريبة كفار قريش في البعث فمن ظَنِّهم السيئ بقدرة الله تعالى لا يرون خبر يوم البعث إلا من قبيل السحر. ويستعجلون به تحدِّياً وتعنُّتاً. وقد أجّل الله تعالى لهم أجلا الى أُمّةٍ معدودة، أي حينٍ معلوم، لا يكون بعده مخرج كالتوبة في الدنيا. فيحيط بهم ما سخروا منه. وقد أهلك المولى سبحانه من بقي على الكفر والشرك وذلك في الغزوات. وتاب على من تابوا منهم وآمنوا. وهو اعلم بهم. ويبين تعالى موقف المؤمن في الخوف والرجاء فيقول:

وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (9) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (10) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (11)

رحمة الله تعالى متعددة الأَوْجُهِ بما لا يُعَدُّ ولا يُحصى فهي للفقير غِنَىً وللمريض شفاءٌ ولغير هذا وذاك رحمة غير هذه وتلك. فالإنسان إذا لم يصبر في الشدة، وإذا لم يعمل صالحاً في الرخاء، تراه ينتابه اليأس والكفر إذا نُزِعت منه رحمة. ثم هو فخور في فرح إذا ذهبت عنه سيئة. أمّا المؤمن الذي يصبر في الشدة ويعمل صالحا في الرخاء فإنه لا ينسى ربَّه في كلتا الحالتين عالِماً بأن الله تعالى يعطي ويمنع. فينظر إلى الشدة نظرةَ ربِّه إليها: إمتحاناً يؤمِّل منه نفعاً. ويكون في الرخاء شاكرا عالِما بأنه لا فضلَ لغير الله في رخائه فلا يفخرُ به إعجابا بنفسه. وافضل ما يبادر العبدُ به عند

النِعَم هو الشكرُ عليها واتِّخاذُها وسيلةً لرضوان الله تعالى الذي بشَّره في ذلك بمغفرة وأجرٍ كبير.

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (12) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (13) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (14)

إصغاء السمع للكلام دليل على قبولهِ مما يشجع المتكلم على بيان مقاصده. ولكن كُفّار قريش قابلوا دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالتعنت والجدل والتحدي مما ضاق معه صدره الشريف، ولا سيما عندما طلبوا اليه ما لا يطلبه إلا المكذِّبون من معجزات هي دون معجزة الحق في القرآن الكريم. فالله تعالى يبين أنه هو الوكيل وأن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم نذير لكفار قريش عليه أن يتحداهم إذ قالوا: "إفتراه"، وهم اهل لغة وفصاحة، أنْ يأتوا بعَشْرِ سُوَرٍ مثله، أي يفترون عَشْرَ سورٍ مثله كما ظنوا أنه مفترىً. وإن كان لهم ثقة بمن يعبدونهم من دون الله فليطلبوا إليهم أن يُعِيْنوهم إن كانوا صادقين كما يزعمون. وهيهات أن يستطيعوا. وهنا تقوم الحجة على الكافرين اذ لن يستجيبَ لهم صنم ولا وَثَنٌ ولا معبودٌ من دون الله تعالى. فما من تأويلٍ لإعجاز القران إلا ان يكون من الله العلي القدير. فهل تؤثر فيهم هذه الحجة فيسلمون؟

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ (16) أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (17)

يتّجِهُ الإنسان بإرادته إمّا الى رُقيٍّ أو الى سُفالةٍ. فالعمل الذي يُرادُ به وجهُ الله تعالى يكون في علّيين. والعمل الذي يراد به حبُّ الدنيا وشهواتُها فإن الله تعالى يوفِّي من عملوه أتعابَهم على حسب طلبهم. فإن كان ظاهرُ الأعمال عبادةً ومناسِكَ، وباطِنُهُ من أجل الدنيا، فهو إمّا رياء أو نفاق ويُجازَى من فعله بحسناته في الدنيا وهي كلُّ حظِّه فلا حظَّ له في الآخرة أي يبطل هناك عمله. ويشير تعالى إلى فئتين من الناس كان القرآن ينزل بين ظهرانيهم، وهاتان الفئتان هما: أهل الكتاب، وكفار قريش. فمِن أهل الكتاب من كان على علمٍ صحيحٍ بالتوراة وما فيها من حق ورحمة، فلما عَلِمَ بالقرآن رآه حقاً يتفق مع بشارات التوراة بالبعثة المحمدية، فآمن وأسلم. ومَن كان من كفار قريش على الفطرة السليمة لا يحجبه حاجبُ ظهورِ النفس أو حبِّ الدنيا عن معرفة الحق واتّباعه، فهو يؤمن بالقرآن مسلما مؤمنا متبعا للرسول صلى الله عليه وآله وسلم. ويُذكَرُ بشأن أهل الكتاب من العرب ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((والذي نفسي بيده لا يسمعُ بي أحَدٌ من هذه الأُمّة، يهوديٌّ أو نَصرانيٌّ، ثم لا يؤمنُ بي إلا دخل النار))". وأما اهل الأحزاب وهم قريش ومن حولهم فقد قال تعالى فيهم ((ومَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِن الأحزابِ فالنّارُ مَوْعِدُه)). فالقرآن يدعو إلى حقٍّ يعلم أُولو العلم أنه لا مرية فيه فلا يضره أن لم يؤمنْ به اكثرُ الناس.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (18) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (19) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (20) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (21) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (22)

المولى عزّ وجلّ (وعلى لسان الأشهاد وهم الملائكة والنبيون ومن في علم الله) يفضح أمام الخلق يوم العرض عليه تعالى أولئك الذين كانوا يفترون عليه الكذب من أجل إظهار الدعوة المحمدية بمظهر غير لائق بها كي يردُّوا الناس عنها إلى إتّباع غير الحق. أُولئك تلحقهم اللعنة بما ظلموا وكانوا لا يؤمنون بلقاء الله تعالى. والله تعالى لا يعجزه أمرهم ولم يُسْعِفْهُمْ شُرَكاؤهم إذ فاجأهم الموتُ بعذاب مضاعف فاستسلموا وظهر لهم كذبُهم مع صدق ما كانوا يرفضون سماعه في حياتهم الدنيا من الحق ويرفضون التفكير فيه ببصائرهم. فلا غرابة إذا كانوا الأخسرين في الآخرة.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (23) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (24)

الإيمانُ والعمل الصالحُ، إذا رافقهما انقطاعٌ لله تعالى في خشوع (وهو معنى الإخبات مأخوذاً من الأرض التي لا صلابة فيها وتسهل حراثتها وزراعتها)، فإن المصير بهذه العوامل هو جنات الخلد. ويذكر تعالى هنا الفريق الخاسر فيُشبِّه كلا الفريقين بمثلٍ فيه أعمى وأصَمّ وفيه بصير وسميع؛ فالأول مَن لم ينتفعْ بما يسمع من

الحق ولا يراه حقا، والثاني مَن يستجيب للحق فإذا سمعه رآه حقّاً فاتبعه. فليتذكر الناس هذين المثَلَين ليختاروا السمعَ والبصر بدلا من العمى والصمم.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (26) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (27) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (28) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (29) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (30) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (31)

أول من جاء ذكرهم من المشركين في القرآن هم الذين أرسَل الله تعالى إليهم سيدَنا نوحاً عليه السلام فأنذرهم إن لم يُفرِدوا الله تعالى وحده بالعبادة لَيُعَذِّبَنّهم الله عذابا أليما. واذا بالْمُترَفين من قومه يُفاجأون بأمر يسلبهم كبرياءَهم ويساويهم بالفقراء واصحاب المهن المتواضعة فأخذوا يجادلون بما يدل على جهلهم: قالوا بأنه بشر وما فكروا بالبينة أي الحجة التي معه، وقالوا بأنه اتبعه الباعة والحاكة وأشباهُهم بادِيَ الرأي أي من غير تبصّر ورويّة! وهكذا غفل الكفار عن صفاء قلوب الذين لا يتردّدون في إتّباع الحق حالما يتبين لهم. وهكذا لم يدرك المكذِّبون صحة الدعوة ودليلها أن الداعي عليه السلام لم يطلب منهم أجراً أي نفعا ماديا لنفسه بل ليرشدهم الى ما ينفعهم. واوضح موقفه لهم مع إطلاع الله تعالى على سرائر المؤمنين

كما يطلع على حذر رسوله من أن يظلم نفسه واتباعه. ولم يكتفِ هؤلاء المترفون المتكبرون بل تمادَوا كما يقول تعالى:

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (32) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (33) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (34)

استعجل هؤلاء المستكبرون عذابَ ربهم. ولم تصِلْ المعاني الساميةُ التي بيَّنها لهم سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام إلى قلوبهم. فطلبوا من قبيل التحدي أن يحقق ما وعدهم به. ولم يقُلْ لهم بأن العذاب من عنده بل أعاد عليهم بأن الله تعالى هو الذي يأتي بالعذاب عندما يشاء. وعندئذ لا مفر لهم منه. وان موقع الرسول هو موقع الناصح ولا يُجْدِي النصح من يريد الله فتنتهم لكي يدمرهم بذنبهم فهو تعالى يعلم ما سيكونون عليه من الجحود بالرسالة. فهو العادل لا يعذب حتى يبعث رسولا.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (35)

يؤكد المولى عز وجل في هذه الاية، وفي وسط قصة سيدنا نوح عليه السلام، تشابهَ موقف الجاحدين من كفار قريش وموقف المستكبرين من قوم نوح عليه السلام فيقول تعالى: ((قل إن افتريته فعليّ إجرامي)) أي فإنه هو صلى الله عليه وآله وسلّم الذي يتحمل مسؤولية ما يُبَلِّغ وهو أدرَى بهذه المسؤولية ولهذا لا يمكن له أن يأتي بالقرآن من عنده. ويبرأ الى الله تعالى من موقفهم.

وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (37)

في آيات آخرى لقصة سيدنا نوح عليه السلام من سورٍ أخرى انه دعا الله سبحانه على قومه بأن لا يذرَ اللهُ تعالى من هؤلاء الكفار من يَعْمُرُ الديار ولا مَن يُخَلِّفُ ذريةً منهم وهذا ما حققه له المولى عز وجل فأمَرَهُ بصنع السفينة التي ستكون مركبة النجاة للمؤمنين وأصناف المخلوقات الأحياء من الحيوان (وقيل من النبات ايضا) زوجين اثنين من كل صنف. وأمَرَهُ بأن لا يشفع لأحدٍ ممن كتب الله عليهم الغرق فقد قُضي الأمر ولا مَرَدّ له من الله. وفي التفاسير أوصاف للسفينة لا ينبغي الإنشغال بها ولكن يكفي أن نعلم بأن صُنْعَها كان بإلهام ووحي من الله تعالى وانه تعالى تعهد له بإتمامها بعنايته وحِفظِه فأتمّ صُنْعَها تحت سخرية المستكبرين اذ يقول تعالى:

وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (39)

طيلة الزمن الذي استغرقه صنع الفُلْك كان المستكبرون الكافرون من قومه اذا مرُّوا عليه أطلقوا كلمات السخرية والاستهزاء من الوعيد بالعذاب منكرين عليه تصديقَه فِريةً أطلقها كما ظنوا! فكان عليه السلام (وهو في ثقة من مصيرهم المخزي لهم) يبدي سخريته منهم، متوعدا إياهم بالعذاب المخزي، أي الغرق، وبالعذاب المقيم بعد الغرق، أي في الآخرة.

حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (40)

وحانت ساعة النجاة بإشارةٍ هي فَوَرانِ ماء من فُوَّهَةٍ في سطح الأرض جاء التعبير عنها بـ(فوران التنور) تعلن بدء الفيضان وهطلت الأمطار غزيرةً وتفجر الماء من ينابيع متدفقة. وأمر الله تعالى بتحميل السفينة بإثنين من كل صنف كما ورد آنفاً. وهنا يتمثل أهل العناد بإثنين من أهل سيدنا نوح عليه السلام هما زوجته وابنه. واما المؤمنون فقد كانوا قلةً ومنهم بقية أهله.

وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43)

بعدما تم شحن السفينة بما أَمَرَ الله تعالى طلب سيدُنا نوحٌ عليه السلام من المؤمنين الركوب في السفينة فإنها ستجري بإسم الله وترسو بإسمه تعالى ومع مغفرته ورحمته مبشرين بالنجاة. وتعالت الأمواج بعد أن ركبوا وجرت السفينة. وإذا بأحد أبناء نوح عليه السلام يمتنع عن الركوب متجها الى سفح جبل يتسلق فيه الى القِمّة ظنّاً أنّ الماء لن يُدْرِكَها. ولكن هيهات فقد سبق عليه القول وغرق مع الغارقين. وسيلي موقف سيدنا نوح عليه الصلاة السلام بشأنه.

وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44) وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ

أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (47) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (48) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (49)

أنجز الله تعالى ما وَعَد عبدَه نوحاً عليه السلام. فجفّت الأرض مع توقُّف المطر وهلك القوم الكافرون. واستقرت السفينة على جبل الجودي. ولم يبين المولى عز وجل مدة مكوث السفينة فوق الماء أو المسافة التي قطَعَتْها. وكل ما ورد في التفاسير عن ذلك لا يرقَى الى سند صحيح. وورد أنها رست يوم عاشوراء. وعَوْدَةٌ إلى الآية الأربعين السابقة حيث جاء فيها أمْرُ الله تعالى الى نوح عليه السلام ان يحمل أهله في السفينة إلا مَن سبق عليه القول. ومع هذا ظن نوح عليه السلام أنّ ابنه الذي لم يركب معه مؤمن ينجو ولكن الله تعالى أخبره بأنه ليس من أهل الإيمان وعاتبه على طلبه إياه فاستغفر وطلب الرحمة خشية خسارته. ثم بشّر الله تعالى الناجين وأُمَمَاً من ذريتهم بالبركات. وأخبر عن أممٍ يتمتعون في حياتهم الدنيا ثم يمسهم عذاب أليم. مبيّناً من أنباء الغيب ما لم يكن يعلمه الرسول وقومه صلى الله عليه وآلِه موصيا إياه بالصبر فإنّ العاقبة للمتقين.

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (50) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (51) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى

قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (52) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (53) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (54) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56)

قوم هود عليه السلام سبق ان ورد ذكرهم في سورة الأعراف في الاية الخامسة والستين وما بعدها. اما الجديد هنا فالإفتراء على الله تعالى بأنّ له شُرَكاءَ يُعبَدون من دونه. والإفتراء هنا هو تسمية الأصنام بأسماء أطلقوها عليها واعتبروها آلهه تضر وتنفع! فلما جاءهم سيدنا هود عليه السلام يدعوهم إلى الحق ويعدهم بالمغفرة والخير إن استجابوا، أجابوا بأنهم لم يروا منه علامة خارقة على نبوّته. وتمسكوا بآلهتهم التي ظنوا أنها مسّته بجنون! فتبرأ منهم وبين لهم توكله على الله الذي بيده مقاليد الأمور وهو الحق آخِذٌ بنواصي العباد. فلا تملك أصنامهم ولا يملك العباد لأحدٍ موتا ولا حياة ولا نفعا ولا ضراً. والذي يملك هو الله وهو العادل في أحكامه بالرحمة أو النقمة، على صراط مستقيم.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (57) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (58) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (59) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (60)

بعد ان قامت الحجة على قوم هود عليه السلام بيَّن لهم إن تولّوا فإنه قد أدّى البلاغ وأن الله تعالى يستخلف قوما غيرهم ولا يبالي بهلاكهم وأن الله تعالى أحصى وحفظ ما قالوا لرسولهم وما فعلوا. ولَمّا أتاهم أمرُ الله تعالى نجّى سبحانه المؤمنين من عذاب لا يشبه عذاب الحياة الاعتيادية للبشر بل مغلّظ لا مفر منه. وهذا ما استوجبه فعل عاد بترك الحق واتباع الطغاة الْمَرَدَةِ كُفراً بالله تعالى فحقّت عليهم لعنته في الدنيا ويوم القيامة فلا يجدون نصيرا فيهما. فبُعداً لهم أي فَلْيَهْلِكُوا.

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (61)

ثمود قوم سيدنا صالح عليه السلام سكنوا الحِجْر (بكسر الحاء) مدائن بين المدينة وتبوك. وبُعِث عليه السلام إليهم بين ظهرانيهم صادقاً بين رجالهم ليتركوا عبادة الأوثان ويعبدوا الله تعالى وذكّرهم بأنهم لم يكونوا شيئا فأنشأهم الله تعالى من الأرض (مشيرا الى خلق آدم عليه السلام) ومكّنهم من عمارتهم أرضَهم. وطلب منهم الإستغفار عما فعلوه من عبادة الأصنام والتوبة بالانقطاع الى عبادة الخالق جل عُلاه فهو قريب من المحسنين مجيب للتائبين وغفور للمذنبين.

قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (62) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (63)

قامت الحجة على أهل العناد من قوم صالح عليه الصلاة والسلام. اذ أيدوا انه كان مرجوّاً فيهم يأملون منه الخير لصدقه وعفته. فلماذا لم يسمعوا له عندما دعاهم

لعبادة الله تعالى وحده فارتابوا في هذه الدعوة؟ ولم يكن يريبهم شيء في سيدنا صالح عليه السلام قبل هذا. وسألهم وقد وثق من صحة موقفه مما بيَّن الله تعالى له: كيف يترك أمر ربه الذي آتاه هذه الرحمة فيعصيه؟ ومن ثُمّ لا يجد من ينصره. ولو إستجاب لهم ولم يبلّغهم رسالة ربه ماذا سيكون مصيره سوى الخُسران المبين؟

وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (64) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (65) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (66) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (67) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ (68)

حجة اخرى يظهرها سيدنا صالح عليه السلام لقومه (وهي ناقته الوارد ذِكرُها في الآية الثالثة والسبعين من سورة الأعراف مما أغنى عن التكرار) مع التحذير من عذاب قريب إذا مسوها بسوء. ولكنهم بادروا الى قتل الناقة بأن عقروها (قطعوا قوائمها). فبيّن لهم سيدنا صالح عليه السلام بأن الوعدَ غيرُ مكذوب. ومهلتُه ثلاثة أيام. وجاء أمرُ الله تعالى فنجّى صالحاً عليه السلام ومَن آمن به من صيحةٍ أخَذَتِ القوم وهم غافلون فأصبحوا في أماكنهم لا حياة في أجسادهم كأن لم يغْنَوا (لم يسكنوا) فيها. وقد جاء في التفاسير ان هلاكهم حصل بعد ان بيّت جماعةٌ منهم قتلَ سيدنا صالح عليه السلام بعد قتل الناقة. وكانوا تسعةَ رهطٍ قد عرضوا على قومهم عزمهم على قتل الناقة فأقروهم على ذلك فقامت الحجة على الجميع في هلاكهم. وفي نهاية المهلة أهلك الله تعالى ذلك الرهط أوّلاً، إذ أرسل عليهم حجارة قاتلة، وبقي قومهم حيث أصْفَرَّتْ وجوهُهم في اليوم الأول من أيام الوعد، وأحْمَرَّت

في اليوم التالي، ثم اسْوَدَّتْ في الثالث. وضعُفَتْ قوّتُهم في أماكن جلوسهم ليلا وأخَذَتْهم الصيحة (الرجفة) فترَكَتْ أجسادَهم هامدةً بلا حياة. ألا بُعْداً لهم.

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (69) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (70) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (71) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (73)

الرُسُل هم من الملائكة نزلوا بهيئة رجال وكانوا أربعة من الملائكة المقربين ورحب بهم سيدنا إبراهيم عليه السلام ورد التحية إليهم وعجل بالضيافة فذبح عجلا سمينا وجاء به حنيذاً أي مشوياً. ولكن الملائكة لا حاجة لهم بطعام البشر فلم تمتد يدٌ إليه وهذا ما دعا سيدنا إبراهيم للوجل وإنكار موقفهم وشعروا بخِيفته فقالوا "لا تخف"! واخبروه بمهمتهم في الإنتقام من قوم لوط. وكانت زوجة سيدنا إبراهيم واقفة إلى جانبه قد ضحكت من ضيف لا يأكل القِرى وكيف أوجس زوجها خيفة منهم فبشرتها الملائكة ببشارة الله تعالى بإسحق ثم ابنه بعده يعقوب عليهم السلام. وعندما تعجبت من هذه البشارة لكونها وزوجِها كبيرين في العمر عاتبوها على تعجبها من أمر الله القادر على كل شيء. وطلبوا لأهل بيتهما الرحمة والبركة إستغفاراً لها على تعجبها.

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (75) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (76)

بعد ان علم سيدنا إبراهيم بان الملائكة إنما أُمِروا بأمر آخر غير البشارة بإسحق ويعقوب وهو إهلاك قوم لوط، أدركته الشفقة على قوم فيهم مؤمن وسيأتيهم عذاب شديد. فاراد ان يجد سببا للشفاعة لهم فاستفسر من الملائكة هل يُهلَك قومٌ وفيهم مؤمنون؟ حتى لو كان مؤمنا واحدا؟ فقالوا: لا. فقال: "إنّ فيها لوطاً". قالوا: "نحن أعلمُ بمن فيها" فسوف ينجو هو وأهله إلا امراته. ولما علم بنجاة لوط عليه السلام اطمأن قلبه فإنّ لوطاً كان قد آمن له في موطنهما وهو ابن أخيه وهاجرَ معه إلى الشام وبُعِثَ إلى قومه في مدينة (سَدُوم) وقد تقدم ذكره في سورة الأعراف. والأوّاه هو رقيق القلب كثير الدعاء. وبهذا وصف اللهُ تعالى سيدَنا إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام بالأوّاهِ الحليم.

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (77) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (78) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (79)

لله تعالى الحجة البالغة في إهلاك من حَقّ عليهم العذاب. فقد راوَدوا لوطا عليه السلام عن ضيوفه الملائكة الذين كانوا في صورة شُبّانٍ حِسانِ الوجوه. ولم يسبق للوط عليه السلام خبرٌ بسبب مجيئهم أو بصفتهم وفوجئ بقومه المجرمين في هجمة واحدة يريدون منه ان يتخلى عن ضيوفه لهم وهم الذين عرفوا بالفساد في

شهوة الرجال للرجال. فأرشدهم إلى الإلتفات عما أجمعوا عليه إلى الزواج من النساء وعبّر عنهن بأنهن بناته. وهذا أطهرُ لهولاء الفَسَقة. ولكن أنّى لهم أنْ يرعَوُوا وقد طاشت عقولهم وهاجت أنفسهم؟ فلم يكن فيهم رجل رشيد واحد يقبل الحق ويترك ما نُهوا عنه. بل أصروا على ما أرادوا ولم يقبلوا تكرار النصح لهم. وصارحوه برغبتهم وان لا رغبة لهم بالنساء. فماذا حصل؟

قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (80) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (81)

من المعلوم ان لوطاً عليه السلام كان قد هاجر من العراق مع سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى بلاد الشام واستقر في سدوم كما سبق قوله. وبهذا لم يكن له عشيرة تسنده عند الملمات مثل ما حصل في هذه الليلة العصيبة. ولكن الملائكة الضيوف طمأنوه بكشف حقيقتهم كونهم ملائكةً رُسُلاً من الله تعالى لإهلاك قومه الفَسَقَةِ الْمَرَدَةِ. وهنا أوعزوا له ان يغادر ليلا مع أهله وزوجته التي قيل في التفاسير أنها هي التي أخبرت قومها بوجود الملائكة عندهم خيانةً منها لزوجها. وجعل الله تعالى ذلك سبباً وحجة عليها في تركها مع الهالكين. وغادر سيدنا لوط المدينة بعدما أذهب الله تعالى رؤية أعين قومه الذين تجمعوا على بابه فلم يروا لوطا عليه السلام يخرج ومعه أهلُه إذ كانت أعينهم قد طُمِسَت بغبار نثرته الملائكة. وما ان حل الصبح إلا وقد جاءهم الأمر الموعود.

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (82) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (83)

وعند طلوع الشمس رُفعت قرى قوم لوط وقُلِبت عليهم ورُشقت بحجارة من طين مستحجر وهو السجّيل، (والسجّين بمعنى واحد)، منضودةٍ أي متتابعة بلا توقف مسوّمة أي لها علامة خاصة بمن ستقع عليه. ومن لم يكن في القرية لحقته حجارته وأصابته من بين الذين كان معهم. وهذا عذابُ مَن فعلَ ويفعلُ فعلَهم بلا توبة إلى قيام الساعة، فما هو من الظالمين ببعيد.

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (84)

ارسل الله تعالى شعيبا إلى قومه. وكان من أشرفهم نَسَباً. وهم من العرب سكنوا ما بين الشام والحجاز قرب موقع معّان ولم يكونوا موحِّدين بل يعبدون أصناماً ويبخسون الحقوق وهذا مما يسلبهم النِّعَمَ فحذرهم من زوالها ومن يوم يحمل لهم عذاباً محيطاً بهم أي لا مخرج لهم منه.

وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (85) بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (86)

تعددت رذائل قومه بين الكفر وإنقاص المكيال والميزان بما جاوز الحد. وافسدوا في الأرض بقطع الطريق وسلب القوافل. وذكّرهم بالله تعالى رزّاقاً كريماً. فمَن ادّعى الإيمان به لزم ان يتبع وصيته تعالى في الإستقامة وترك المنكرات والرذائل التي كانوا عليها ثم في إدّخار الصالحات. وهذه هي بقية الله فهي الرزق الأفضل

الذي يبقى لهم من الربح بعد ان يوفوا الكيل والميزان. ثم بَيّن لهم موقفه منهم بأنه ليس حفيظاً عليهم أي لا رقابة له عليهم ولا يُسأل عن ذنوبهم فلْيعملوا لله تعالى.

قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (87) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (88)

تهكّم قومه على صلاته. وهم لم يعيروها أهمية او يروا نتيجة ملموسة منها. ولم يأبهوا لنصحه. اذ رأوا ان التصرف في أموالهم يخصهم فقط وعليه أن يلتزم بالحِلم والرشاد (تهكما على ما عُرف به بينهم). وأن لا يوجِّهَهُم إلى ترك الأصنام. فهذا من دواعي حريتهم في العبادة، ولا يوجههم في التصرف بأموالهم فهذا من دواعي حريتهم في التجارة والكسب! فكان جوابُه اليهم بأن ينظروا الى ما هو عليه وليس ما هم عليه. فهو ينظر بنور الله تعالى والحق واضح بهذا النور وهذا هو الرزق الحسن إضافة إلى الكسب الحلال المبارك ولا ينبغي لمن يأمر بهذه الفضائل وينهى عن هذه المنكرات أن يفعلها سرّاً بل يبذل جهده لإنقاذ قومه مما هم فيه فيصلح حالهم وقد اتبع أوامر الله تعالى متوكلا عليه فالله تعالى هو وَلِيُّ التوفيق واليه الرجوع في كل أمر بالطاعة.

وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (89) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (90)

ولما رآهم يواجهونه بما هو عليه وما يستغربونه منه أراد ان يعود بهم الى الله تعالى فلا يكون لضغينتهم عليه اثر بل ليتفادوا ما حصل لمن كذّبوا الرسل من قبلهم. فطلب منهم أن لا يَحْمِلَهم شقاقُه (أي خلافه معهم) على الكفر والفساد وعلى مواجهة مصيرٍ مُهلِك، ولا سيما مصير قوم لوط الذين كانوا في منطقة جغرافية ضمن أقاليمهم، ورغم الزمن بينهم كانت قصص هلاكهم تُذكَرُ فيهم. وأعاد عليهم الدعوة بالعودة إلى الله تعالى بالإستغفار لِما بدر منهم من شرك وظلم والثبات بالتوبة على طاعة الله تعالى الذي يقبل ذلك منهم برحمته ويقربهم إليه بِمَودَّته وعطفه.

قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (91) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (92)

مع وضوح موقف سيدنا شعيب عليه السلام وما تمناه لقومه من خير ونجاة ومخاطبته إياهم بلغتهم ببيان واضح وحجة بالغة، أشاحوا عنه بأنهم صَعُبَ عليهم فَهْمُ الكثير من قوله (مع كونه بليغ الخطاب حتى لُقِّب بخطيب الأنبياء عليهم السلام)! وخرجوا عن النصح واثره إلى الاهتمام بذاته دون دعوته وكشفوا رغبتهم في الخلاص منه وقد استضعفوه أنه لم يكن أحد من عشيرته قد آمن معه ولكنهم أي عشيرته لهم عِزٌّ بينهم ولهذا لم يَمَسَّه أحدٌ بسوء. فواجههم بضَلالِهِم بأن الرهط ليس أعَزَّ من الله تعالى، ويجدر بهم أن يروا العزة لله تعالى وليس لقومه وأنهم لم تلقَ وصاياه تعالى قبولاً عندهم بل أداروا لها ظهورَهم. وأنّ الله هو المطّلع بإحاطة تامة على كافة أفعالهم.

وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (93) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (94) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (95)

توقف سيدنا شعيب عن إبلاغ الرسالة والنصح اذ لم يعد لديه أمل في استجابتهم فتَرَكهم يَتّبِعون أهواءهم ويعملون على مكانتهم أي على طريقتهم, وانه يعمل بطريقته. والمستقبل الذي يعلمه الله تعالى سيكشف للجميع من الذي يكذب. وفي التفاسير فإنّه على أثر النصيحة الأخيرة أمر الله تعالى بصيحة من جبريل عليه السلام ليلاً صبّحتْهم في أماكنهم أجساداً بلا أرواح كأن لم يملأوها حياةً وحركةً. في الوقت الذي كان شعيبٌ عليه السلام ومن آمن معه قد نَجَوا. ألا بُعداً لِمَدْيَنَ أي سُحقاً وهلاكاً لأهلها كما هلكت ثمود فلم يأسف رسولٌ على الهالكين.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (96) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (97) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (98) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (99)

لم يكن في سلوك فرعون ورعونته ما يدل على رشادٍ او هدىً. وانما كان سلوكه ضلالاً وعناداً وكفرا. ولم يكن من مبرر لفرعون وملئه في منهجهم الطاغي. ومع هذا لما جاءهم سيدنا موسى بما هو أهدى من هذا السلوك وله برهان ناصع يستند عليه، ترك الملأ موسى واتبعوا الغَيَّ فلُعِنوا ولم يخرجهم المولى عز وجل إلى النور بما اختاروه من ظلام فبقَوا مع فرعون ليقودهم يوم القيامة إلى النار بالاضافة إلى لعنة الدنيا، وهذا بئس الرِّفدُ (العطاء) لهم جزاء على بئس العمل.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (100) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (101) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ

أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (102) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (103) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (104)

القرى هي مدن أقوام الأنبياء المذكورين في هذه السورة منها قائم (باقٍ) ومنها حصيد (مندرس المعالم) وقد أُهلِكوا بظلمهم بعبادة آلهة موهومة دون الله سبحانه فلم تَدفع عنهم نقمته وزادوهم تتبيباً أي خسارة. وجعل تعالى أَخْذَهُ الأليمَ الشديدَ آيةَ تحذيرٍ تدعو من يخاف الآخرة إلى تجنبه لينجوَ في يوم مشهود، يوم الجَمْعِ الذي هو واقع مهما تأخّر أجلُه المعلوم عند الله تعالى.

يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (105) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (106) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (107) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (108)

روى البخاري ومسلم من حديث الشفاعة قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن يوم القيامة: ((ولا يتكلم يومئذ إلا الرُسُلُ، ودعوى الرسل يومئذ: اللّهم سلِّم، سلّم)). فالمولى عز وجل قد أذِن لهم في طلب الرحمة والسلامة. وطلبهم هو الشفاعة. اما غير الشفاعة فإن الأصوات قد خشعت بانتظار المصير إما إلى السعادة او إلى شقاء. وأهل الشقاء خالدون في النار بشهيق المتحسر وزفير المتحسر ما دامت السماوات والأرض (أي ابداً) إلا ما شاء الله أي بإستثناءٍ زمَنِيّ إما بشفاعة الشافعين لاهل الكبائر والعصاة من اهل التوحيد فينجون من العذاب، وإما بأمر من الله تعالى لمن تدركه رحمته تعالى من أهل لا إلهَ إلا الله. او يكون الاستثناء بقدرة رب العزة تخفيفا او تشديدا إلى زمهريرٍ او غيره، واما من نال سعادة الآخرة فهو في درجة من الجنة ما دامت السماوات والارض (أي أبداً) مع إستثناءٍ زمني فُسِّرَ في دعوة الله تعالى لهم للقائه وتَلَقِّي كَرَمِه ثم العودة إلى جناتهم كما جاء في

التفاسير. وهذا العطاء غير مجذوذ (غير منقطع). وبذلك تطيب النفوس في خلود لا موت بعده.

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (109)

يؤكد رب العزة لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم حتمية وقوع العذاب على من اغفل الرسالة وعبَد غير الله تعالى. وأنْ لا يدخل فى مراء في بطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام فلا شك في ذلك وهم يتبعون آباءهم في عبادتها. والمقصود بـ(هؤلاء) هم كفّار قريش فإن سوء العاقبة واقع بهم لا محالة وسوف يستوفون نصيبهم من هذا العذاب لا ينقص من شدته شيء كحصيلة للشرك وتجاهل الحق الذي جاءهم من ربهم. وفي هذا تسلية له على ما لاقاه منهم.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (110) وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (111) فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (112) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (113)

وأكّد تعالى أن تأجيل العذاب إنما هو قضاء من علمه لإقامة الحجة على أهل الكفر والجحود. ولولا ذلك لقُضِي بين من اختلفوا على آياته. فمنهم من آمن ومنهم من كفر. كما حصل في بني إسرائيل. وسوف ينالهم جزاء ما عملوا من خير وشر. فالمولى تعالى مطلع خبير. وأمَر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ان يثبت على مبدأ الإيمان والعدل فهما من أسباب النصر، وان يتبعه المؤمنون في ذلك وإلا فان الطغيان (أي تجاوز الحق أو الحكم بغير عدالة)، حتى ولو كان على كافر، فهو مدعاة للخذلان. كما نهى عن الاستعانة بالظَلَمَة والركون إليهم ففي ذلك خروج

عن الاستقامة. وحذّر من النار على ذلك. وقَصَرَ المولى تعالى لِعزّته نصر المؤمنين والولاية لهم فإن لم يلتزموا بأمره فما لهم من دونه ولِيٌّ ولا نصير، ولا يُنصَرون.

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (114) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (115)

المقصود بِطَرَفي النهار: الصبح والمغرب. وقيل صلاة الصبح في الطرف الأول من النهار. ثم صلاتا الظهر والعصر في أواخره. وزُلَفا من الليل، أي ساعات من أول الليل. وهي صلاتا المغرب والعشاء. وهي الصلوات الخمس كفّارات للسيئات وتذكير عند الغفلة. ولا يتم الثبات إلا بالصبر إذ أمَر رسوله صلى الله عليه وآله بالصبر إحسانا لا يَضِيعُ أجرُه.

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (116) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (117)

أمر المولى تعالى بالمعروف ونهى عن المنكر. وفي هذه الاية عبرة في القرون التي سبقت فقد اهلك سبحانه أهل الفساد في الأرض بظلمهم إذ اتَّبعوا ما أُترِفوا فيه من الشهوات وكانوا مجرمين في ذلك وما ظلمهم. فلو أصلحوا لنجوا مثلما أنجى القلة منهم الذين كانوا ينهون عن الفساد.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (119) وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (120)

الأمة الواحدة يكون كل فرد فيها على خط واحد مع الجميع من حيث العقيدة. وهذا يعني انهم متساوون في الاستعداد والطاقات والقابليات لتحمل الأمر والنهي في مختلف المجالات. ولما كانت الحياة مختلفة الجوانب، ولكل عمل منها استعداد خاص، فلا بد من اختلاف الاستعداد لتعدد جوانب الرزق والأعمال والعبادة. وقد سبق علم الله تعالى عن عباده في ما يختارون وأين سيتجه كل منهم فلم يعطل جوانب الحياة وكلٌ مُيَسرٌ لِما خُلق له. ولذا يكون فيهم الاختلاف إلا مَن أدركته عناية الرحمن وهم أهل طاعته (ومن يؤمن بالله يَهْدِ قلبه). خلقهم لرحمته يملأ بهم جنته كما يملأ بأهل الكفر جهنم. فترى أهل الإيمان والطاعة على كلمة الحق مجتمعين وان تفرقت بهم الديار. وترى أهل الزيغ في شقاق وخلاف وان اجتمعت بهم الديار. وفي هذه السورة جاءت قصص الأنبياء مختصرة لإظهار العبرة في الهلاك والنجاة لتكون نذيرا لمن بلغ وبشيرا للرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالنصر، وسببا لثبات فؤاد سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وموعظة لتكون حجة على الكافرين وذكرى لتكون سببا لذكر الله تعالى في قلوب المؤمنين وفي أنفسهم وعقولهم توجههم إلى مرضاة الله تعالى في أعمالهم وأحوالهم واخلاقهم وأقوالهم. وبها يُنصرون.

وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (121) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (122) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (123)

المكانة هي المنهج والطريقة التي كان عليها الذين لا يؤمنون من كفّار مكة وغيرهم وحالهم في الشرك وفي التعامل الباطل. وينتظرون هلاك الرسول صلى الله عليه وسلم ويعملون على إطفاء نور دعوته وهذا كان عملهم على طريقتهم. واما طريقة اهل الإيمان فالعمل على نور الله تعالى للخلاص من حالة الاستضعاف في

مكة قبل الهجرة وينتظرون النصر في حالة القوة والجهاد. والأمر متروك لعالِمِ الغيب المدبر لأمور السموات والأرض فهم مأمورون بعبادته والإلتزام بمنهجه أي التوكل عليه. فاللهُ تعالى لا يغفل عن الصغير والكبير من الأعمال. وهذه السورة مكيّة فيها بيان عظمة كتاب الله تعالى وتصرف المولى القدير والعِبَر من الأقوام الذين هلكوا. وفي ذلك تسلية وتصبير للمؤمنين وبشارات بالنصر حقق الله تعالى وعوده بشأنها بعد الهجرة والجهاد.

سورة يوسف

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (1) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (3)

بدأت السورة بعد البسملة بالأحرف الثلاثة الْمُقَطّعة. أ. ل. ر. وتقرأ: ألِف. لام. را. ثم بإشارة إلى بيان القرآن الكريم للعلم والعبرة والعمل وكون القرآن عربيا أي واضح البيان، فالعربية هي اللغة التي يرجع أهل التفسير إلى أُصول معانيها لبيان غريبِهِ وتفسير مقاصده لتدركه العقول ولِيبيّنَ أهلُ هذه اللغة من الفصحاء مدى الإعجاز في كلام الله تعالى ليثبت أنه ليس من البشر بل من رب العالمين. واما احسن القصص فهي لكونها لأحسن المقاصد. حيث تظهر فيها العِبَرُ وحكمة الحكيم الخبير وضرورة الصبر بانتظار أمر الله في ما أراد وحَكَم. واما كون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قبل البعثة من الغافلين فواضح من الرجوع إلى ما كان عليه قبلها وما وفقه الله تعالى إليه بعدها. فمثلاً التعبد في غار حراء حيث لم يذهب إليه بعد البعثة فالله تعالى معه في حراء وغيره ومثل هذا قوله تعالى (ووجدك ضالاً فهدى) أي كُشِفت الحقيقة بما أُوحي إليه وزالت حيرته.

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (5) وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ

عَلَيْكَ وَعَلَى آَلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6)

الرؤيا التي يراها المرء قال عنها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ((ثلاثة؛ فالرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يُحَدِّث المرء نفسه فإن رأى أحدُكُم ما يكره فَلْيَقُمْ ولْيُصَلِّ ولا يحدّث بها الناس)). وقال: ((الرؤيا الصالحة من الله فإذا رأى أحدكم ما يُحبُّ فلا يحدِّثْ بها إلا مَن يحب، وان رأى ما يكره فليتفل على يساره ثلاثاً ولْيَتَعَوَّذْ بالله من شر الشيطان وشرِّها ولا يحدث بها أحدا فإنها لن تضرَّه)). رواهما أبو داود والترمذي. وفي حديث لهما قوله صلى الله عليه وآله وسلم ((ولا يُحَدِّثْ بها إلا لبيباً أو عالِماً)). فالعالِم يرجع في التأويل الى اصول قرآنية والى التشبيه بالألفاظ واقتران المواد بأهلها والى التفرس بحرفة الرائي وعقليته ومنْزِلَته وهكذا. وروى الأمام احمد قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((الرؤيا على رِجْلِ طائرٍ ما لم تُعبَّرْ فإذا عُبِّرَت وقعت)). وقد أعطى المولى سبحانه سيدَنا يوسفَ عليه السلام عِلْمَ التأويل فكان أن عبر هو هذه الرؤيا بعد تحققها كما سيأتي في لقائه أبويه واخوته بعد فراق طويل. ومن عِلم سيدنا يعقوب بنفسيات الاخوة، ولا سيما إذا كان أحدهم من ام غير ام الآخرين وكان ذا ميزة تفضل مزاياهم، فقد أمر ابنه المقرب الى قلبه (يوسف) ان لا يقصَّ هذه الرؤيا على اخوته فيثير فيهم دوافع إبعاده عن أبيه بكيد يكون للشيطان فيه دور عدوٍ لا تخفى عداوته، فهو اشد عداوة لأكثر الناس إيمانا. ثم في حال الكتمان والتوكل على الله تعالى في طاعة أبيه بشَّره بأن الله تعالى يُنعِم عليه بما جاء ذكره من علم التأويل ويعطيه من دون اخوته أي يختاره من بينهم بالافضلية فالله اعلم حيث يجعل رسالته.

(معنى يحدث المرء به نفسه أي ما أهمَّه في يومه ويتذكره ليلاً).

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آَيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ (7) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (8) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ

لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (9) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (10)

الآيات المتتالية في كل جوانب قصة يوسف عليه السلام هي العبر والمواعظ التي ينشدها المؤمنون. وتبدأ بعد ان اتفق رأيُ إخوةِ يوسفَ (من أم غير امه وهم الأسباط) على انه قد غدا حجابا بينهم وبين أبيهم. فقد ظنوا أنه أزاحهم عن قربه وحَلّ محلهم وهو صبي يصغرهم بسنوات اذ كانوا شبّانا وهو في عمر يجرؤ الذئب على أكله. ففكروا في إزاحته عن وجه أبيهم لِيَخْلُوَ لهم كما كان قبل ولادته عليه السلام. وقد عبروا عن موقف أبيهم انه موقف الضلال بينما لم يكن لهم علم بفراسة أبيهم في يوسف والمستقبل الذي يتوقعه له لِما توسم فيه من صفاء السريرة وسلامة القلب. وتفاوتت مقترحاتهم بشأن التخلُّص من هذا الحجاب فقال أشدهم قسوة بأن يقتلوه وقال غيره بل يوضع في أرض تطرقها القوافل وكان ارحم من السابق فاقترح إنزاله في غيابة جُبٍّ (اي ما يغيّب منه عن النظر. والجُبُّ بئرٌ لم يسيَّج بالبناء واسع الفتحة). فلا بد أنْ ينكشف أمرُه لقافلة فتخرجه ويعيش بعيدا عنهم. وهكذا استقروا على هذا الرأي. وهو كائن في علم الله تعالى لحكمةٍ ظهرت نتائجها بعد سنين والله لطيف لِما يشاء. فجاؤا أباهم:

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (11) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (12) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (13) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (14)

وهكذا مهّد إخوةُ يوسف الكبار للتخلص منه. فادّعوا رغبتهم باللعب في أرض مفتوحة تصلح للتسابق. وهي على مسافة من مساكنهم. ووعدوا أباهم بأنه إن أرسله معهم لِيرتعَ ويلعب فسوف يحافظون عليه. ولما أبدى خشيته من ذئب

يأكله استبعدوا ذلك لأنهم كثيرو العدد فلا يمكن لذئب أن يقترب من أحدهم وهم عصبة.

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (15)

كشف الله تعالى لطفه ورحمته للمظلوم هنا بأنْ طَيَّب نفس يوسف عليه السلام بوَحْيٍ صادق لعبده الصبي الذي (كما جاء في التفاسير) تعاون عليه جميعُ إخوته الذين كانوا معه لِيُدْلُوهُ في الجب ثم يقطعوا الحبل بحيث لا يمكنه التسلق والخروج. فلم يُبْدِ اعتراضاً مع يقينه بأنه سينتصر عليهم وينبؤهم بهذا الأمر الشنيع فإن الله تعالى سيهيئ له من يخرجه عن قريب.

وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (16) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (17) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (18)

ادعاؤهم ان الذئب أكل أخاهم يوسفَ عليه السلام لم ينطلِ على أبيهم رغم انهم أتَوا بقميصه ملطخا بدمٍ قال تعالى عنه انه (دمٌ كَذِب). ودليل عدم تصديقِ أبيهم لهذا الإدعاء هو قوله فيما بعد في السورة: "تحسَّسُوا من يوسف"، وقد قال الله تعالى عنه: ((وإنّه لذو عِلمٍ لِما علَّمْناه)) وفي التفاسير أن القميص لم يكن ممزّقا بل ملطخا فقط بالدم مما دل على الكذب ولهذا قال سيدنا يعقوب عليه السلام: "بل سَوّلَتْ لكم أنفُسكم أمْرَاً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون" فالصبر الجميل هو انتظار الفرج من غير شكوى. وسوّلت: أي زيّنت الأمر لِيَرَوْه سهلاً. واما الاستعانة بالله تعالى فهي بالرجاء للقاء يوسفَ عليه السلام فالله يعينه على ما ذكروه من الكذب وما لا يمكن تصديقه. ويلاحظ هنا ان اخوة يوسف تركوه في

الجب من غير قميص! وانتظر الفرج من الله تعالى فقد طمأنه بالنجاة والنصر على من كادوا له. وهكذا لم يمكث طويلاً في الجب.

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (19) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (20)

السيارة هي قافلة يقوم فيها أحد أُجرائها بجلب الماء كلما نزلوا قرب أحد أبار الطريق وكانت في طريقها إلى مصر. وهكذا عندما جاء هذا الأجير إلى الجب المذكور وأدلى دلوَه تعلق سيدُنا يوسفُ عليه السلام بحبل الدلاء فأخرجه الأجير ولكنه عليه السلام فوجئ بأنه الآن بضاعة يُعرض للبيع كأيِّ رقيق! ويعلم أنّ الله تعالى عليم بكل صغيرة وكبيرة من أمره. وعندما عرضوه للبيع كان يختلف عن الرقيق في الثمن إذ زهد المشترون به! وحالما وصلوا مصر عُرِض للبيع. ونظرا لزهد المشترين به فقد انخفض ثمنه. ولم يبين في التفاسير سبب زهد المشترين به ولكنْ لِلّهِ تعالى حكمة ستظهر. واشتراه وزيرٌ لملكِ مصر آنذاك. (وقيل أن الملك ووزيرَه أسلما فيما بعد).

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (21)

كانت فراسة عزيز مصر الذي اشتراه في محلها فقد توسم فيه النفع وطلب من إمرأته أنْ تعامله معاملة الكرماء. ورأى فيه أهلا ليكون ولداً له. وهكذا يكشف المولى القدير لطفه في تنفيذ ما يريد وإيجاد الأسباب لتعليم الصالحين ويكشف غَلَبَته التي لا تتيسر إلا بأمره. وأكثر الناس في جهل عن عواقب الأمور وعن لطف الله تعالى فيها.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22)

الأشُدُّ (أي كمال الحال) يختلف باختلاف البشر للفروق في ما بينهم في الذكاء والعقل. ولهذا يُعرَف ان الإنسان بلغ اشده عندما يتصف بكمال عقله في الحِلم والترفع عن صغائر الأمور وسفه الأقوال. وهكذا للمحسنين اختصاص من الله تعالى فقد علم اهليتهم لتحمل الحُكْمِ والعِلم.

وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23)

بعد الحكم والعلم وبلوغ الأشد، ابتلى ربُّ العزة يوسفَ عليه السلام بما حباه من نعمة الحُسْنِ في الوجه والسمو في الخُلُق مما دعا امرأة العزيز أن تراوده عن نفسه، أي حاولت معه لتدعوَه إلى نفسها. فقد حملها حبه على ذلك متناسية اعتصامه بالله وأخلاقه السامية. وقالت (هيت لك) وهذه الكلمة تعددت معانيها، فقد رجع المفسرون إلى لغات غير العربية لتحري معناها فهي بالنسبة للغة العربية ليس لها مصدر تُشْتَقّ منه ويمكن ان تعتبر (اسم فعل امر) بمعنى (هلم) وقيل بانها قبطية بهذا المعنى وقيل بانها (هلم لك) باللغة الحورانية. أي تعال تعال. والمهم أنها دعوة منها إليه بإلحاح. وقيل هي بالهمزة (هِئْتُ لك) أي تهيأت لك. والأرجح قراءتها بفتح الهاء والتاء وسكون الياء ولا تهمز ولا يجوز الخلاف فيها لأنّ كلَّ صِيَغِها تدل على طلب نفسه إليها ولا يرجح كونها كلمةً قبطية لأن القرآن عربي وقد وردت أقوال غير العرب بلسان عربي مبين. قال عندئذ قولاً افلح به عند الله وعند مولاه، وعند الملك في ما بعد: (معاذ الله) أي طلب الله تعالى ولياً يلجأ إليه. ثم ذكّرها بسيدهِ (زوجها) الذي اكرم إيواءه، وبخيبة من يظلم هذه الأمانة.

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24)

المهم في رؤية برهان الله تعالى ان سيدنا يوسف اتضح له من الله تعالى حقيقة ما تقام الحجة به عليه إذا عمل عملا. اذ ان لله تعالى الحجة البالغة. فإذا عرفها

العبد واطاع الله كانت له وإلا فتكون عليه. اما رؤيته البرهان بعد ان هَمّ بها فهو يفسر لنا معنى (هَمّ): اذ أنّ امتناعه عن الفعل سبقه تمحيص الفعل. فالمفسر الذي قال بأنه همّ بزجرها او ضربها يقال له ان هذا لا يحتاج الى رؤية برهان الله تعالى. والمفسر الذي يقول بأنه لولا البرهان لكان قد هَمّ بها لا يجاري سياق اللغة العربية في تسلسل الأفعال ففعل: هَمّ، (أي العزم قبل الفعل هنا) سبق رؤية البرهان. والمفسر الذي يقول بأنه خَطَر في قلبه أُمنيةٌ ان تكون له زوجة لا يُعطي معنى ورود العزم بهذه السرعة على اثر طلبها. ويُترَك تفسير ذلك إلى الطبع الذي غلب قبل البرهان الذي رآه ويترك إلى إطلاقِه لفظا كما قاله الله تعالى. والمهم ان سيدنا يوسف اعتصم بالله تعالى فصرف الله تعالى عنه هذا السوء والفحشاء (أي المعصية شديدة القبح). فهو عبد ملتزم قلبا وعملا بالإخلاص. وان هذا هو شأن المؤمن المخلص إذا ابتلاه ربه بما شاء أن يبتلِيَه به فالله تعالى يقيم الحجة للعبد أو عليه حسب موقف العبد وتصرفه. ويصرف السوء عمن علم فيه خيرا ويشرح صدره لإرضاء ربه فلا يكون منه إلّا الصدقُ والإستقامة.

وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (25)

فرّ سيدنا يوسف إلى الله تعالى بدينه متجها إلى الباب المغلق. فلحقت به امرأة العزيز وخشيت ان يفتح الباب فيفلت من دعوتها أو تسوء عاقبها. وأدركت قطعة من مؤخرة قميصه لتمسكه بها الا أن القميص تفتق وتمزق واذا بزوجها قد فتح الباب ووقف عنده. وقيل في التفاسير: كان معه مِن عمومة المرأة أحدُهم. وهنا انقلبت امرأة العزيز إلى موقف التملص من كل مشاركة او تهمة وأدركها الكيد والمكر المعهود من الضعيفات ليتخلَّص من مأزق. فاتهمت سيدنا يوسف عليه السلام بالمبادرة من جانبه وليس من جانبها! وطلبت أن يعاقَب بسجنه أو بتعذيبه!

قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (26) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (27) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (29)

بعد أن وجّهت المرأة التهمة إلى سيدنا يوسف عليه السلام كان لا بدّ له أن يوضح للعزيز ومن معه حقيقة موقفها اي انها هي المُبَادِرة بطلبه لنفسها. فما ينبغي أن يسكت عن الحق. وكان في تمزّق القميص بيّنةٌ تدل على صِدْقِه. اذ ان التابع يمسك بالقميص من الخلف. فاقتنع العزيز بهذه القرينة المبينة. واتخذ الموقف الذي أملته عليه ظروف منْزِلَته وحبه للستر وما عهد من يوسف عليه السلام فطلب منه أن يكتم ذلك وطلب من المرأة ان تطلب مغفرة ربها فقد أخطأت الفعل. ويلاحظ هنا شهادة القميص الثاني ليوسف عليه السلام بتكذيب خصومه اذ شهد القميص الاول على كذب إخوانه اذ لم يكن ممزقا وشهد القميص الثاني على كذب امرأة العزيز اذ كان ممزقا. واما قميصه الثالث فله خبر في الشهادة لوالده على حياة يوسف عليهما الصلاة والسلام ونجاته.

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (30) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (31) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ (32) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33)

لم يبق الخبر في طي الكتمان حتى تسرب إلى عدد من النساء من المقربات من إمرأة العزيز التي علمت بذلك وهي تعلم ضَعف من شاع بينهن الخبر. فدعتهن لطعام وبعده قدمت لهن فاكهة تُقشر بالسكين. وفاجأتهن بدخول يوسف (عليه

السلام) عليهن فشَرَدَتْ عقولهن عن حركة السكاكين فجرحن أيديَهن! وهنا أشارت إلى حالهن في رؤيته مرة واحدة فكيف وهي تعيش معه وعندها فرصة الخلوة به؟ وانقطع المنظر بموقف سيدنا يوسف عليه السلام بعد ما رأى منهن ما رأى وسمع تهديداً بالسجن ففضل العصمة في السجن خشية شدة الإبتلاء.

فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (34) ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآَيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (35)

واتفقت رغبة سيدنا يوسف عليه السلام مع مشيئة الله تعالى بدخول السجن ففيه انصراف عن مواطن الكيد. وكان الأمر بدخوله السجن من قبيل الظلم بالنسبة لمن أمر بسجنه اذ قرروا ذلك رغم يقينهم ببراءته. ولم تحدد له مدة السجن. بل أُطلِقت.

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآَخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (36)

توسم الفَتَيان في سيدنا يوسف عليه السلام الفراسة في تأويل الرؤيا وكانت سيرته في السجن قد جعلته موضع التقدير والمحبة فطلبا منه تعبير رؤيا كلٍّ منهما.

قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (37) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آَبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (38)

كان الوحي يأتي سيدنا يوسف عليه السلام، وهكذا أعْلَمَ صاحبيه في السجن بما سيأتيهما من طعام فهذا أمر بالنسبة لهما خارق للعادة. ولهذا بادر بارشادهما إلى ان علم ذلك من الله تعالى وليس تزكية لنفسه فانه من أُسرة تؤمن بالله واحدا لا ينبغي أن يُشرَك به صنمٌ او معبود غيره, وهذا من فضل الله تعالى، فضلاً لا يُمنع عن أحد من الناس إذا آمنوا واتقوا ولكن أكثرهم لا يشكرون.

يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (40)

في تلهف وانتظار السجينين لسماع تعبير رؤيتيهما، أراد سيدنا يوسف عليه السلام ان يدعوَهما إلى الله تعالى إلهاً واحدا خضع لسلطانه المخلوقات. وأنّ ما يُعْبَدُ من دونه أوهامٌ توارثها الخلف عن السلف من غير سند مبين مقنع. وأن الله تعالى هو الحاكم المتصرف بالأمور. له المشيئة النافذة. وقد أمر عبادَه اجمع أن يُفرِدوه بالعبادة. وهذا هو البرهان الثابت وان كان اكثر الناس لا يعلمون ذلك فالحق لا يقاس بالأكثرية بل بكونه حقا مهما قلّ أهلُه. وعاد إليهما بتعبير الرؤيَيْن:

يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (41)

كان أحد السجينين في خدمة الملك في الشراب. والأخر في خدمته في المخبز في قصر الملك. (وفي التفاسير أنهما سُجنا للاشتباه بأنهما أرادا دس السم للملك). ولما كان في التعبير أن أحدهما سيُصلب لم يقل للأول هذا تعبير رؤياه ولم يفعل كذلك للثاني بالإسم بل قال (اما أحدكما) ولم يحدده بالاسم فيسقي الملك خمرا أي يعود إلى خدمة سُفرة الملك. واما الثاني فيحكم عليه بالإعدام. وصيغته آنذاك الصلب. وقد تحقق ما اخبرهما به ولهذا قال الناجي منهما للملك ما سيأتي في الآية الخامسة والأربعين التالية.

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (42)

لم يكن من وسيلة آنذاك لسيدنا يوسف لإيصال قضيته للملك ليخرجه من السجن فوجد هذه الوسيلة في هذا السجين، الذي سينجو من السجن والقتل. فقال له: اذكرني عند ربك. وهنا يأتي خلاف في تفسير من الذي نسيَ هل هو

سيدنا يوسف أذ لجأ إلى بشرٍ مثلهِ ليكون سببا في خروجه من السجن؟ أم الناسي هو الساقي؟ والرب هنا هو الملك. وكان النسيان سببا لمكوثه في السجن سنوات لم تحدد ولكنها لا تتجاوز التسع، ولا تقلّ عن الثلاث. والأرجح هي سبع سنين. وهذا النسيان كان من مكائد الشيطان الذي يوجّه أكثرَ عداوَتهِ لأكثرِ الناس صلاحا.

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (43) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (44) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (47) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (48) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (49)

ما مكر به الشيطان من نسيان أبطله الله تعالى بلطفه الخفي في الوقت المناسب اذ جعل لنهايته سبباً أكثر وثوقاً ليوسف عليه السلام وهو رؤيا الملك ومن بعدها ادِّكار الساقي (وادَّكر اصلها إذتكر بإدغام الحرفين بالدال) وما اعقبه من تأويل لا ثانِيَ له لكل لبيب بحيث يقتنع به ويتخذ ما يلزم له فقد ارتاح الملك لتأويل البقرات الهزيلة بسنوات الجفاف، والبقرات السمينة بالسنوات الخصبة. وأعجبه تصريف الأمور لتدارك المجاعة. فطلب مثول سيدنا يوسف أمامه.

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51)ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ

بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53)

لم يبادر سيدُنا يوسف عليه الصلاة والسلام بالذهاب للملك بل فضل ان يتحقق الملك بنفسه عن سبب سجنه فيكون بذلك قد فوّض أمرَه لله تعالى. فطلب مِن الذي جاء إليه ليأخذه أمام الملك ان يثير سؤاله عن النسوة اللاتي دعتهن امرأة العزيز (كما جاء في الاية الثلاثين السابقة) فقطعن أيديهن. وانتقل المنظر من السجن إلى بلاط الملك وقد جمع النسوة وامرأة العزيز. وفي التفاسير ان العزيز كان قد توفي خلال مكوث سيدنا يوسف في السجن. ومع جواب النسوة بعفة يوسف عليه السلام ازداد اثر الضمير في امرأة العزيز حتى غلب الحق عليه وحصحص أي فرض على لسانها القول وظهر مبينا واضحا صريحا، بأنها راودت البريء المظلوم في السجن عن نفسه وتريد أن تبين ذلك ليعلم ان محبتها له صادقة ولم تخذله خيانةً له بل حفظت براءته في غيابه. وأنها في هذا الموقف تذكر الله تعالى غفورا رحيما. وهكذا تحقق الملك من براءة سيدنا يوسف عليه السلام ونزاهته في العفة مع من أُؤتُمِن عليها. وتعبير: (وما أُبرئ نفسي)كان على لسان إمراة العزيز لأن هذا القول حصل ويوسف كان ما يزال في السجن. وقولها: (إلّا ما رحم ربي ان ربي غفور رحيم) فيه دليل على صحة ايمانها بالله تعالى متأثرة بسيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام.

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (56) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (57)

وانتقل كلام الله تعالى إلى لقاء يوسف عليه السلام بالملك الذي استمع لحديثٍ من قلبٍ طاهر وعقل راجح ومنطقِ الصدق والكفاءة. وهنا يُنزَّه سيدُنا

يوسف عليه السلام عن طلب المنصب لنفسه بل لعلمه بأن سنوات الجَدْبِ تتطلب أمانة مع بصيرة وعلم متفتح للحق والتدبير السليم والتوجيه الرباني. وهكذا خوّله الله تعالى السلطة للتصرف بأرزاق الناس بجمع محصول الحبوب من مختلف الأصقاع التي تحت سلطة الملك وخزْنِه لأيام الجدْب ثم توزيعِه بالعدل والرحمة على الرعية. واشار سبحانه إلى ان ما حصل كان برحمةٍ منه يصيب بها من يشاء ويؤجر المحسنين، ولا سيما ما كان من يوسفَ عليه السلام من صبرٍ وعفّة، ومع هذا الأجر إدّخر له المولى عز وجل أجر الآخرة. وفي هذه إشارة إلى ان المؤمن يُثابُ على عمله في الدنيا والآخرة، أي ان الحسنةَ ترفع من منزلة المؤمن في الدنيا، وإن لم تكن هي غايتَه، ومَنْزِلَتَهُ في الآخرة وهذا من ثمار التقوى.

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (58) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (59) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (60) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (61) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (62)

وكما عم القحط بلاد مصر كذلك عم بلاد الشام. وفيها والدا يوسفَ وإخوتُه الذين ارسلهم ابوهم سيدنا يعقوب عليه السلام إلى مصر مع ثمن الميرة التي سيعطيها لهم عزيز مصر (يوسف عليه السلام) ومقدارها حمل بعير لكل شخص. ولما وصلوا عرفهم سيدنا يوسف عليه السلام وهم لم يعرفوه، ثم طالبهم بشقيقه الذي لم يُرسلْه ابوه معهم. وشدد على ذلك. ومع ذلك لم يَرِدْ في خاطر أحدهم أنه يوسف. ولم يجدوا بدّاً من وعده بإصطحاب أخيهم معهم فوضع بضاعتهم (أي المال الذي دفعوه ثمنا للحبوب) في رِحالِهم ليطمئنوا على سلامة نيَّتِه. وقوله (وانا خير المنُزلِين) يقصد به ضيافتهم واكرامهم. وهكذا خطّط بذلك لجلب اخيه الشقيق معهم.

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (63) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (64) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (65) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (66) وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (67)

بيّن إخوة يوسف عليه السلام لأبيهم ما حصل وطلبوا موافقته على إصطحاب اخيهم شقيق يوسف معهم واكتفى عليه السلام بأخْذِ موثِقِهم بأن يعودوا به إلا أن يحصل ما لا يستطيعون ردَّه. وهكذا ارسله مع توصية بالتفرق عند الابواب مع انه لا يمكن لأحد منع ما يقدِّر الله تعالى. وعلى المؤمن ان يتوكل عليه. وقد تأوَّل بعض المفسرين ذلك لخشية الاب من العين، وهذا فيه إشكال بالنسبة لعلم الأنبياء، ولعله أراد ان لا يكون تجمعهم نقطة ضعف فيهم.

وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (68)

ونفَّذ الابناء طلب ابيهم بالتفرق على الابواب مما كان سببا لسيدنا يوسف عليه السلام أن يراهم ولعل هذا من مقاصد ابيهم لحاجة في نفسه قضاها. ولم يشر المولى عز وجل إلى صفة العلم الذي علّمه ليعقوبَ عليه السلام سوى ان تصرفَ سيدِنا يعقوبَ عليه السلام قولاً وعملاً كان بدافع من عِلْمٍ يوقِنُ به. وان عاقبة ذلك هو انفاذ مشيئة المولى القدير بلطفه لِمَا يشاء.

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (69)

تسير الخطة التي بيّتها يوسف عليه السلام لإخوته سَيْرَها المقصود. وها هو اخوه الشقيق (وفي التفاسير يدعى بنيامين) مُكرَما مع اخوته الآخرين. حتى اذا وجد خلوةً معه أخبره بما يبيت لإخوته. وانه الشقيق المفقود يوسف. وطلب اليه كتمان الامر حتى يقضيَ الله تعالى له ما اراد.

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (70) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (71) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (72) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (73) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (74) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (75) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (76)

واستمر سيدنا يوسف في خطته لوضع إخوته في موقف حرج. وليأخذ أخاه في ديوان الملك قريبا منه. وهذا الكيد ايده الله تعالى فحقق ليوسف عليه السلام وعده في الجب عندما قال في الاية الخامسة عشرة (واوحينا اليه لتنبئنّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون). وبهذه الخطة وحدها تمكن من استدراج إخوته ليحكموا بأن من يسرق مالاً ويثبت ذلك عليه يصبح لصاحب المال عبدا. واثبت السرقة المزعومة واخذ اخاه في بلاط الملك. ولم يفطن احد من إخوته لهذه المكيدة لانه بدأ باوعيتهم قبل وعاء اخيه. ولم يتعرّفوا يوسف. وهذا العلم من لدن رب العزة يرفع به عباده المحسنين. وفوق علمهم علم الله الواسع العليم سبحانه.

قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (77)

كانت عمّةٌ ليوسف عليه السلام قد أهدته في صِغَرِهِ نطاقا جاء في التفاسير أنه نطاق كان ميراثاً أثيراً عندها. ولهذا شك إخوته بسرقته إياه ظنا أن عمتهم لا

تُهديه. فلمّا ذكروا هنا: (قد سرق أخٌ له من قبل) كتم حقيقتَها اذ لم يُرِدْ ان يكشف نفسه لهم في موقف لا يُحسَدون عليه.

قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (78) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (79)

حاولوا الخروج من هذه المباغتة التي اوقعتهم في محنة صعبة بان يتطوع احدهم ليفتدي اخاهم المحتجز فبيّن لهم سيدنا يوسف عليه السلام بأن من الظلم ان يسترِقّ شخصا بغير حقه. فيئِسوا من إسترجاع اخيهم.

فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (80) ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (81) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (82)

بعدما يئسوا من إسترداد اخيهم خلصوا (أي انفردوا) نجيا (أي يُحدِّث احدهم الاخر تناجيا) وامامهم الموثِق الذي اعطَوه لأبيهم بالمحافظة على اخيهم الاصغر ولكنهم وان صدقوا فقد كذبوا قبل ذلك بشأن يوسف عليه السلام. وهكذا قرر كبيرُهم البقاء في مصر حتى يرضى عنه ابوه ويأذن بالإلتحاق به او يحصل له من الله تعالى مخرج كأن يسترد اخاه او يقدر الله تعالى عليه ما يشاء. وعلَّمهم على ما يثبت لأبيهم صحة ادعائهم. وانتقل المنظر الى جواب أبيهم.

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (83) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (85) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (86)

ردّد سيدنا يعقوب عليه السلام عبارته الأُولى في التصبر على فراق يوسف عند ما سمع بخبر فَقْدِ أخيه الاصغر ولم يلتفت لكلامهم بل اتجه الى الله تعالى أملاً ورجاءً

بربه العليم الحكيم في يوسف الذي لم يغادر قلبه ولم يفارق فكره ولم تذهب عنه حسرة فراقه والاسف على السماح باصطحابه يوم غيّبوه عنه. ومع هذا لم يبدِ لغير الله تعالى ما اعتمل في نفسه وقلبه وفكره فهو يكظم ذلك. فظهر اثر ذلك على عينيه فتكدر سوادهما وضعف ادراكهما مع بقاء الحزن. ولم يكن احد ممن حوله يشعر بشعوره ويعرف مدى اسفه وحزنه فعتبوا عليه كثرة ذكر يوسف وحذروه من المرض ثم الهلاك فاخبرهم أن الامر بينه وبين ربه يرفع اليه بث الفؤاد (وهو اصعب الهموم) حزينا يعلم الله تعالى منه ذلك. ويعلم أن رحمة الله تعالى تأتي في وقت يحكم الله تعالى فيه بفرج لا يحتسبه المؤمن. وفي التفاسير أن سيدنا جبرائيل عليه السلام علَّمه هذا الدعاء: (يا ذا المعروف الدائم الذي لا ينقطع معروفُه أبداً ولا يُحصيه غيرُك فَرّجْ عني). فكان يدعو به.

يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (87)

وقد دنت ساعة الفرج فأمَرَهم ابوهم أن يتحسّسوا، (أي أن يستعملوا احساسهم وفراستهم في) خبر يوسف، فلا بدّ أن يكون له شأنٌ لِما عَلِم عنه من سُمُوّ في عقله وهمته. وذكّرهم برحمة مَن لا ييأس مؤمنٌ من رحمته سبحانه.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (88) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (89) قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (91) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (92) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93)

وانتقل الحديث إلى مصر بين يدي العزيز. وهو يوسف الصديق عليه السلام. فقد دخلوا عليه ومعهم بضاعةٌ مُزجاة (قليلة أي ما يقدمه اهل القِلّة) وطلبوا أن

يكيل لهم بها وان يزيدهم ويقبل بضاعتهم من قبيل الصدقة فقد عركتهم المجاعة من القحط المتواصل سنة بعد سنة. وهنا فاجأهم سيدنا يوسف في وقت رقّ قلبه فيه لهم ولوالديه. فأراد ان ينهيَ معاناتهم ويكشف لهم من هو. فذكرهم بما فعلوا به وبأخيه (يقصد أخاه الشقيق بنيامين كان متعلقاً به فشقَّ عليه غيابُه). وهنا كُشفت لهم الحقيقة وتذكروا صورته واذا بها امامهم ماثلة لم يفطنوا لها قبل ذلك فقالوا متعجبين مستفهمين (ءإنك لأنت يوسف)!؟ وتفيد هذه الصيغة الدلالة على التعجب والاستفهام. فأيّدهم وطمأنهم الى تجاوزه عنهم بدون تأنيب. وهو المقصود بالتثريب ويأتي بمعنى التعيير ايضا. وبيّن لهم الحكمة من البلاء وأن علاجه بالتقوى والصبر لنيل اجر المحسنين. واقرّوا له بعلوِّ مرتبته عنهم عند الله تعالى. ولما علم بما حلّ بعينَي أبيه من الحزن اعطاهم قميصه الذي يحمل البشرى لأبيه ويُذهِب عنه ما حلّ به بإذن الله تعالى. ثم طلب منهم المجيئَ بأهلهم إلى مصر.

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (94) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (95) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (96) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (97) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (98)

وينتقل المنظر الى الشام حيث الاب الحزين يفاجأ بريح القميص يأتيه من بعيد حملته اليه رياح هاجت من جهة القافلة التي معها. ولم يتمالك إلا ان اخبرهم بما وجد، على وجلٍ من عدم تصديقِهم إياه، فينسبون ادعاءه الى وَهْمٍ يأتي من التخوّف الذي يحصل لبعض الطاعنين في السن. وفعلا قالوا بأنه يتوهم ما لم يحصل. ولكن البشير الذي كان يحمل القميص فنّدهم بدلا من ان يفندوه فألقاه على وجه الأب المستبشر فردّ اللهُ تعالى اليه بصَرَه ليكون له في ذلك آية. وأيده المولى تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون. وها هم الذين عاشوا النصر الذي نصر الله به اباهم واخاهم واعلى به منزلتهما عنده مع علُوِّ منزلة يوسف عليه السلام في وزارته.

وها هم اخوته تفاجئهم الكرامة لمن ارادوا التخلص منه، ثم لأبيهم الذي انكروا عليه رجاءه في إبنه الغائب، ويَرَوْن موقفهم المبهوت وفشل سعيهم وخيبة ظنونهم، لم يملكوا إلا أن طلبوا شفاعة ابيهم في نيل مغفرة الله تعالى مع الإقرار بأخطائهم. وها هو يَعِدُهم بذلك مُنَوِّها برحمة الله تعالى في الغفران. وفي التفاسير انه وعدهم ولكن أجّل دعاءه حتى يتيقن من صدق توبتهم. وقيل دعا لهم بعد أن عفا يوسف عليه السلام عنهم. وقيل دعا لهم وقت السَحَر. (تنويها الى فضيلة الدعاء آخر الليل).

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (99) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101)

واجتمع شمل الابوين مع يوسف واخيه. واستقبلهم جميعا؛ أحدَ عشرَ أخاً ووالديه. وحيَّوه تحية كانت جارية عندهم بالانحناء من غير تعفير الوجوه بالارض بعد أن اجلس والديه على سريره. وهنا حان تأويل رؤيا يوسف الصبي أي ما آلت اليه الرؤيا بأن تحقق سجود ما رمزت له الشمس والقمر والنجوم من أُمٍّ وأبٍ وإخوة. ولم ينسَ فضلَ الله تعالى في هذه المنزلة خارجا من السجن وفي هذا اللقاء الذي جاء بأهله من البدو بعد فراقٍ لعب الشيطانُ فيه دوراً بالإفساد بين يوسف عليه السلام وإخوته. وفي كل ذلك يذكر لطف الله تعالى في تدبير ذلك بأن جعل أسبابا يراها الجاهل في الظاهر مجريات متوافقة. ويراها المؤمن لطفا من التدبير الأعلى. فاتَّجَهَ يوسفُ عليه السلام إلى الله تعالى شاكرا النعمة في هذا الْمُلك وهذا العلم وأسلم أمره لولاية العليم القدير في حياته ومماته مع الصالحين.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (102) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (103) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (104)

جاءت قصة سيدنا يوسف عليه السلام في ما حصل للأنبياء من ابتلاء. وتَحمِل عبرةً وتسلية لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن العاقبة هي الرفعة والنصر رغم ما أراد أهل الشر من هلاك وأذى لمن سبق من الأنبياء. ومهما حرص سيدُنا محمدٌ صلى الله عليه وآله وسلم فإن أكثر الناس في شك مما جاء به من خير ورشاد من غير أن يطلب لنفسه أجرا. بل ليكون هدى في الدنيا ونجاة في الآخرة لمن شاء أن يستقيم من العالمين. وما أرسله الله تعالى إلا رحمةً للعالمين.

وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (105) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (106) أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (107)

آيات السموات ما أكثرها من أفلاك ونجوم وأبراج وما ينزل من مطر ويكون من رعد وبرق وآيات الأرض التي ينبت فيها الزرع وتجري فيها الأنهار وتحمل السفن في بحارها وفي كل ذلك آيات هي بمثابة علامة تجلب انتباه ذوي الألباب وتفرض نفسها على عقولهم لتدل على الخالق جل علاه ومع هذا ينشغل عنها الغافلون ويتجهون إلى إشراك البشر في النفع والضر والاعتقاد بأوهام لا ترجع إلى مشيئة الله تعالى (ولا إلى ما قدَّره على عباده) كالتمائم والودع فقد روى الإمام احمد في مسنده عن عقبة بن عامر قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((من علَّق تميمةً فقد أشرك)). وروى مسلم عن ابي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله: ((يقول الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركتُه وشريكَه)). وتدل غفلتهم على تغافل عن أقدار الله تعالى، وعلى

تغافل عن قدرته على أن يشملهم عذاب لا يَردُّونه أو أن تقومَ عليهم الساعة بالندامة وهم على الشرك والأوهام.

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108)

بعد بيان ما لَطَفَ الله تعالى به وأنّه تعالى وحده الخالق المدبر لما يريد مما ينزِّه وحدانيته سبحانه وتعالى عن الشريك والند، أمر تعالى رسولَه صلى الله عليه وآله وسلم ان يبين للمشركين بأن سبيلَه أي منهجه وطريقه ومنهج من تبعه وطريقه هو الدعوة إلى الله تعالى على بصيرة أي ببرهان لا بطلان فيه والتسبيح بحمده غير مشركين به.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (109)

المقصود بالوحي إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام هو الرسالات معهم بالحق للتبليغ ومن بعده لإقامة الحجة لمن يؤمن بها فينجو وعلى من يكفر بها فيهلك. وهكذا يحسم المولى مصائرهم بالحق. وفي الأرض آثارهم دلت على عاقبتهم. ثم بيّن تعالى أن للمتقين دارَ الآخرة. وهي الأفضل. وهذا يدعو للتفكير والتقوى وإلا فالعقول غافلة إن لم يتعرف بها أهلُها مصائرَهم؟

حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (110)

يشتد البلاء بالرسل في ما يلاقونه من عناد وتعنت وجحود وأذى من أقوامِهم حتى تملكَهم الحيرة من موقف أقوامهم ودلائل تكذيب الرسالات التي جاؤا بها وبالحق الذي فيها مع سعيهم من أجلها. وبين عشية او ضحاها يأتي نصر الله تعالى في نجاة الرسل ومن آمن معهم وفي بأسٍ لا يُرَدُّ عن القوم المجرمين.

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111)

هكذا احسن القصص لأنها لأحسن المقاصد في العِبَر لـ(أولي الألباب) مَن أزاحوا قشور الدنيا عن ألبابهم (مواقع فهمهم) فدخلتها العبر أي وعتها قلوبُهم وفقُهتْها عقولُهم. فليس القرآن مما يُحدِثُه المفترون ولكنه مصدقٌ لِما قبله من الرسالات وتفصيل توحيد الله تعالى، ومعرفة الحلال والحرام والمناسك والطاعات ومكارم الأخلاق، وبيان أخبار العِبَر، وهدى ورحمةً للمؤمنين.

سورة الرعـد

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (1)

تقرأُ: أَلِف، لام، ميم، را. ويشير الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم تنويها بأهمية آيات كتابه الكريم. وأنها تحمل الحق الذي له بعبادته وتوحيده. ومع بيانه الواضح فإنّ أكثر الناس لا يصل بهم استعدادهم لبلوغ الإيمان به بسببٍ او آخر من النفاق أو العناد او الشقاء او حب الدنيا والخوف على فواتها.

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3)

وأورَدَ الله تعالى لأُولئك الذين لا يؤمنون بآياته الْحُجَجَ التي تظهر الايمان حقّاً. فالسماء لا يُعرف مداها. وفي الفضاء آيات. ولا يزال العلم يكشف المزيد عنه. واستوى تعالى على العرش فلا تعلو إلا مشيئتُه لأن العرش واحد في كل مملكة. وهو تعالى له ملكوت السموات والارض فلا شريك له. وقد هيأ أسباب الحياة الدنيا على هذه الارض بأنْ جعل الشمس ذات طاقة حرارية وطاقة ضوئية لولاهما ما وجدت الحياة. والقمر مسخر في دورانه حول نفسه وحول الارض في حساب مستقر يستمد ضوءه من الشمس فيبدو متزايدا من هلال ثم متناقصا من بدر حسب موقعه من الشمس والارض. ثم يبين المولى عز وجل من آيات الارض تضاريسها المهيأة للحياة. فالجبال توزع المياه وتخزنها وتندفع منها الجداول لتتحد في أودية فتسيل انهارا وتصب في البحيرات والبحار بعد أن تسقي الزروع ذات الصفة

في التنوع ولكل نوع شكل من الازدواج ليحصل تلقيح اشجارها وخروج اثمارها. كما يتقاسم النهار والليل نصفي كرة الأرض يتداخل الليل بالنهار (أي يغشي أحدهما الآخر) قبل الشروق وبعد الغروب مع دوران الارض حول نفسها. ويتوصل المتفكرون من هذه الآيات التي جعلت التناسق دليلاً على القدرة الربانية في الخلق والامر إلى اليقين بوحدانيته تعالى. وثمة تفصيلٌ آخرُ في معاني الآية الرابعة والخمسين من سورة الأعراف ذات علاقة ويمكن الرجوع اليها.

وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (4) وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (5)

ويشير تعالى إلى المشيئة الربانية في تنوع الأصناف وفضل بعضها على بعض وهي في ارض واحدة ماؤها واحد ومن صنفٍ ظاهره واحد ولا يُعرف إختلاف بعضه عن البعض الآخر إلا عند الأُكُل. فكيف تتجاهل العقول هذه الآيات وفيها عودة الحياة الى البذرة بعد انقطاعها من مصدر حياتها. وهكذا تعود الحياة بعد الموت فمن هذا البرهان يستدل على البعث بعد الموت. والعجب يكون ممن لا يفقه ذلك فينكر البعث بإعتباره خلقاً جديدا. فلا عجب إذا كبلت الأغلال أعناقهم في عذاب النار خالدين فيها جزاء ما انكروا من الحق.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (6) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (7)

إستهزأ الكفار بما توعدهم الله تعالى به من عقابٍ على التكذيب فطلب المكذّبون النقمة من قَبيل التحدي والمعاندة. وقد سبق على أمثالِهم وقوعُ النِقَمِ بهم وهي الْمَثُلات وهي العقاب الْمُمَاثِل أي من جنس العمل السيئ. وقد أمهلهم الله

تعالى بِحِلمه وبيَّن مغفرته وتوعدهم بشدة عقابه. وفي هذا البيان ترغيب مع ترهيب لتنكشف لهم الأمور على حقيقتها. ومع هذا أرادوا نزول آية ملموسة كما كانت عصا موسى وكما جاء به المسيح (عليهما الصلاة والسلام) من آيات محسوسة للبشر. فقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم (إنما انت منذر) أي مرسل لتنذرهم وان صحة ذلك واضحة في آيات القران الكريم. ولكل قوم من يدعوهم للهدى بما يشاء الله تعالى سواء بكتاب وآيات ملموسة كما جاء بها موسى، أو بكتاب مبين ومعجزات بإذن الله مع المسيح عليهما السلام. وذكر ابن كثير في تفسيره نَقْلاً عن الطبري رحمهما الله تعالى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: "لَماّ نزلت (إنما انت منذر ولكل قوم هاد) قال وضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده على صدره الشريف وقال ((أنا المنذر ولكل قوم هاد)) وأومأ بيده الى مِنكَب عليٍ كرم الله وجهه فقال: ((انت الهادي يا عليُّ بك يهتدي المهتدون من بعدي)) ورُوي عن الأمام محمد الباقر يرحمه الله تعالى نحو ذلك". ومن تحقيق ذلك ما فعله الإمام علي كرم الله وجهه في مبايعته مَنْ قَبْلَه من الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم فكان أُسوةً في توحيد كلمة المسلمين كما كان قدوة في تطبيق أحكام الله تعالى والزهد في الدنيا فسلام الله عليه.

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (8) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9)

في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ((إنّ خَلْقَ أحدِكم يُجمع في بطن أُمِّهِ أربعين يوما. ثم يكون عَلَقةً مثل ذلك ثم يكون مُضغة مثل ذلك ثم يَبعث الله مَلَكا فيؤمر بأربع كلمات؛ يَكتُبُ رزقه، وعمره، وعمله، وشقي او سعيد)). واما ما تغيض الارحام؛ فيشمل ما يعترض الحمل المعتاد من إسقاط او خِداج. واما ما تزداد: فيشمل التوائم، أو تجاوز مدة الأشهر التسعة في الحمل. واما المقدار فهو الحد الذي لا زيادةَ عليه ولا يُنقَصُ

منه عما في الأجل المقدر. فكل شيء له مقدراته عند الله تعالى. فهو عالم الغيب ما يغيب عن مشاهدة العباد وما يغيب علمه عنهم فلا يخفى عليه من ذلك شيء سبحانه وهو الكبير الذي لا يحيط به شيء وهو المتعالي الذي دون قدرته كل شيء وتعالت صفاته على صفات خلقه.

سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (10) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (11)

لله تعالى إحاطته بالظاهر والخفي من كل إنسان أينما يوجد وفي أي زمان يكون. وقد بيّن المولى ما خصص لهذا الإنسان من ملائكة أمَرهم الله تعالى بالتعاقب على تنفيذ ما يوجبه الله عليه. فهم يحفظونه حتى يُسلِموه لما قدَّر الله تعالى له. وبهذا لا ينال العبدَ سوءٌ إلا ما أذِن الله تعالى به، ولا يأتيه خير إلا ما كتب الله تعالى له. فإذا تحول العبد من معصية الله تعالى الى طاعته تحول عنه غضب الله تعالى وعذابُه الى ما يحب العبد من ربه. فهو الولي وليس للعبد من دون الله تعالى من له هذه الولاية الحقة عليه. وان تغير العبد من طاعةٍ الى معصيةٍ فالأمر الى الله تعالى إذا أراد به سوءً فلا مردّ له. ويذكر هنا حكمته وعفوه وصبره على عباده. وهو ارحم الراحمين.

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (12) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (13) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (14)

يحمل السحاب من الشحنات الكهربية ما يهلك الناس ويدمر. ويتم التفريغ الكهربي عندما تصطدم كتلة سحاب ضخمة تحمل شحنة موجبة مع مثيلة لها

تحمل شحنة سالبة ويحدث أولا البرق وقد قدّم المولى تعالى ذكر البرق على الرعد لأن الرعد صوت لهذا التفريغ الكهربي ويتأخر عن البرق لتفاوت السرعة في انتقال البرق الذي هو أشعة ضوئية يسير بسرعة الضوء عن سرعة الرعد الذي يسير بسرعة الصوت التي هي أبطا بكثير. فإذا لم يصعق البرق شيئا فيحترق فإن الرعد لا يضر بعد ذلك. واما إصابة الصواعق فقد حدث ذلك قبل نزول الآية؛ اذ توعد اثنان من رؤوس الكفر سيدَنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بعد هجرته للمدينة. إتفقا بان يكلمه أحدهما بينما يفاجئه الآخر بالسيف في خلوة لهما معه. وفعلا لقياه في مكان انفردا به فيه فلما مد صاحب السيف يده للسيف فَقَدَ الحركة فيها فانسحب وانسحب صاحبه ولَمّا وصلا مكانا بين عشيرتهما في بني سلول وبين المدينة أصابت صاعقةٌ أحدَهما واصيب الثاني بغدة طاعونية أهلكته عند إحدى نساء سلول كانا قد احتميا في بيتها فلم يُمهِلْهما الله تعالى. ويُقصد بشدة المِحال شدة الأخذ. اما الطمع الحاصل من رؤية البرق وسماع الرعد فهو الأمل برحمة الله تعالى، ورزقهم في السماء يُحيي الله تعالى بأمطارها الأرض للزرع والضرع. وتشير الأنواء أي ظواهر الجو في البرق والرعد والمطر إلى نعمةٍ تثير الحمد لله أي تدل عليه في تفكيرهم لأنه القادر على ذلك وهكذا يوحَّد في العبادة اذ لا شريك يمكن له أن يكون في هذه القدرة. فدعوة الحق هي توحيده تعالى اذ لا يمكن أن يستجيب شريك مزعوم فيرسل الرياح ويثير السحاب ثم يُنْزِل المطر فهل ينالون من الشركاء شيئا. ومَثَلهم كمثل من يمد يده الى الماء مبسوطتين فلا يحصل على ماء يبلغ فمه وهكذا يَخيبُ دعاؤهم كما خابت قلوبُهم بالكفر.

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ (15)

السجود يرمز في صلاة المؤمنين الى طَوْعِهِم في تعظيم الخالق الجليل ومحبة صفاته الكريمة الحسنى وشكره على كرمه وجوده، ثم طلب رحمته وفضله. ويرمز الى

تلبية دعوته لأداء فروضه ونيل ثوابه والنجاة في الدنيا من كيد شياطين الإنس والجن ومن سوء الأحوال ثم النجاة في الآخرة بقلوب سليمة خشعت وأحبت وشكرت ورضيت. واما السجود كَرهاً فهو سجود المنافقين وخضوع أهل الكفر للقهر الرباني القدير الذي أعدَّ لهم ما استحقوه بكفرهم. وأما الظِلال على الأرض عند الغدو (بعد شروق الشمس) وفي الآصال (والأصيل آخر النهار) فتكون فيهما ممتدةً على الأرض. والظلال تتفيّأ أي تتحول يمينا وشمالا وفي التفاسير: سجود كل شيء فيؤه (ظله).

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (16)

يعترف أهل الكفر بأن للكون خالقاً. والله تعالى يبين على لسان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأن الخالق هو الله تعالى الذي يدعوهم لتوحيده في العبادة. فهل يُعقَل أنْ يُترَك الخالق وتُطلَب الولايةُ من غيره؟ وغيرهُ لا يستطيع جلب النفع لنفسه ولا رَدَّ الضَرِّ عنها فكيف عن غيره؟ فمَثَلُ الطالبِ من غيره (أي يتخذ أولياء من دون الله تعالى) كمَثَلِ الأعمى يسير من غير معرفة الاتجاه الصحيح، بينما البصير يعرف وجهته برؤية عينيه. او كمن يسير في الظلمات فلا يتبين الاتجاه الصحيح بينما في النور يعرف الاتجاه الذي يريده فهل يستوي حال الأعمى مع البصير؟ ام حال المتخبط في الظلام مع حال المبصر في النور؟ ام توهموا وجود خالق غير الله (سبحانه وتعالى عما يشركون) فيكون له خلق مماثل لخلق الله تعالى؟ فالنتيجة من هذه الحجة أن الله تعالى هو خالق كل شيء. وان قدرته نافذة قاهرة واحداً فيها ولا قدرة إلا بمشيئته ومن قدرته.

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (17)

اليقين بالوحدانية الإلهية وبلقائه في اليوم الآخر هو العقيدة الحقة التي يتخلص صاحبها من الشك والوهم بشأنها كما يتخلص السيل من الزَبَد (الشوائب الطافية) فتسيح على الأرض ويبقى الماء النافع ليسقي الأرض. وكما يذهب صدأ المعادن وشوائبُها في النار ويبقى عنصر المعدن كالذهب والفضة للحلي وكالنحاس والحديد للمتاع والآلات. وهكذا يتخلص المؤمن في وصوله إلى التوحيد الصافي من الشك والوَهْم الْمُشَبَّهَين بالزَبَد والصدأ.

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (18)

الاستجابة هي تلبية دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام للإيمان بالله واليوم الآخر وللعمل الصالح فمن استجاب نال المصير الأسعد إحسانا بإحسان وزيادة. واما الذين اعرضوا عن تلبية النداء واصروا الى ساعة الموت لو أن لهم ضعف ما في الأرض لقدموه فديةً عنهم، وهنا ترهيب للمكذِّبين بسوء الحساب لسوء الفعل يصيرون به إلى منزل ممهّد لهم في جهنم بئس النُزُل.

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (19) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (20) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (21) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (23) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (24)

العلم بالحق لا يحصل إلا بمعرفة صافية لا يشوبها زَبَد الشك والأوهام. فمن كسبوا هذه الصفة بشأن رسالة الإسلام لا يتخلون عنها في سيرتهم. فقد استقرت في اللب أي ملكت قلوبهم. فهم يذكرونها مع العهد فيوثقونه، ويذكرونها مع الرَّحِمِ فيَصِلونه، ومع قدرة الله تعالى فيخشَونه، ومع سوء حساب الآخرة فيخافونه. ويذكرونها في مغريات الحياة الدنيا فيصبرون عما لا يرضي الله تعالى كما يصبرون على بلائه. ويذكرون هذه الصفة في النداء للصلاة والحج والصيام وفي حصول نصاب الزكاة ومواطن الجود. وإذا بدرت منهم سيئة تداركوها بالحسنات فهم اذاً على موعد لتحقيق وعد الله تعالى لهم بحسن العاقبة في جنات عدن مع أهل الصلاح من أُصولهم وفروعهم وأزواجهم (وفيهم من يرفع الله تعالى منزلته لأجْلِهم). وإذ يرى الملائكة منزلة هؤلاء السعداء عند الله مع ثناء الله تعالى عليهم يأتونهم للسلام عليهم وتهنئتهم على صبرهم وعقباهم الحميدة.

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (25)

اما هؤلاء فقد خلت قلوبهم من فقه الحق ومعرفة قَدْرِ ربهم الجليل فاستهانوا بما عاهدوا الله عليه، ولا سيما الذين تولّوا امور الناس وشَقُّوا عليهم وأرهقوهم، فهم في نفاق. وتشمل الاية المنافقين في كذبهم وخيانتهم وخِلْفهم الوعود. وتشمل من يقطع صلة الرحم ويسعى في الارض فسادا، فجزاؤهم أن لعنهم الله العزيز الحكيم وليس لمن يلعنهم الله سبحانه من نصير في الدنيا ومن نصيب في رحمة الرحيم سبحانه في الآخرة ولهم سوء المآل والعاقبة.

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (26)

الرزق من الله تعالى في الحياة الدنيا تخويل لا يملكه المرزوق. فاذا بسطه الله تعالى لعبد فإنما وسّع من زمن حسابه. واذا قَدَرَه لعبد آخر فإنما اختبر صبره. والله

يعلم من سيفرح بالحياة الدنيا لغفلته عن زوال نعيمها فيقيم الحجة عليه إذ يتجه بالرزق كلما بُسِط له في سخطه الله تعالى. أما عمل الصالحات الباقيات بالرزق الزائل فهو غافل عنه أي لم يكسب رزق الآخرة بالمتاع القليل.

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (27) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (29)

الذين كفروا بما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم طلبوا من قبيل التحدي أن تنْزِلَ عليه آية فحُجِبوا عن الهدى بكفرهم. والله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب. وأما الإنابة التي جعلها الله تعالى سببا للهداية فهي رجوع العبد بالتوبة النصوح الى الفطرة السليمة التي ولد عليها. ومن أناب وآمن بقلب سليم واطمأنّ قلبه بذكر الله تعالى إستقر جَنانُه على الرضا والتوكل وعمل الصالحات وكَسَبَ الغنى بالله تعالى في دنياه ونال الطُوبَى وحُسْنَ المآب في الآخرة. وهكذا بذكر الله تعالى تطمئن القلوب. واما (طوبى) فقد روى الامام احمد عن ابي سعيد الخُدري رضي الله عنه أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "يارسول الله طوبى لمن رآك وآمن بك". قال ((طوبى لمن رآني وآمن بي وطوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يَرَني))! قال له رجلٌ: "وما طوبى"؟ قال: ((شجرة في الجنة مسيرتها مِائة عام ثياب اهل الجنة تخرج من اكمامها)). وفي التفاسير معنى طوبى متعدد يدل على التهنئة عن غبطةٍ على خَيْرَيِ الدنيا والآخرة.

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (30)

جاءت الرسالة المحمدية بين عَبَدة الاصنام الذين لم يعرفوا لوحدانية الله تعالى قَدْرا. وانبثق نورها في امة قد خلت من قبلها امم هالكة بما كفرت وجحدت بآيات الله تعالى. وان على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ان يبلغ الرسالةَ لمن أُرسل

فيهم وهم في حال الكفر بالرحمن وان يصابرهم بتلاوة ما يوحَى إليه حتى تأتي عاقبة البلاغ في نصر الحق وخذلان الباطل. مردِّداً التعريف بالرحمن رباً لا اله إلا هو. عليه التوكل واليه المتاب (الرجوع).

وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (31)

الهدى من الله تعالى يكون عن علمه سبحانه للحال الذي يكون عليه العبد اذا اتاه الهدى من ربه. فان كان الانسان لا خير فيه أي غير مستعد لقبول هذه الهدية الجليلة، وغير راغب بالإنابة الى الله تعالى في فطرة سليمة، فما كان لينفعه قرآن يأتي بالخوارق كإحياء الموتى. ولهذا فالامر منوط بعلم الله تعالى وحكمته. وعلى المؤمنين أن يتبيّنوا ذلك وأن الله تعالى لا يعجزه هداية جميع الناس. وبدلاً من الهدى، ها هم اهل الكفر لا يزالون يتلقون من الله تعالى قارعة (شِدّةٌ داهية) أو تقع قريبا منهم فينالهم شرُّها جرّاء قبيح صنيعهم حتى يتحقق وعد الله للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وللمؤمنين بدخول المسجد الحرام وتحطيم ما كانوا يعبدون. وتحقق الوعد في فتح مكة.

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (32)

تصبير وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله سلم إذ كشف فيه رب العزة أنه تعالى أمهل الذين استهزأوا بالرُسُل من قَبله وأملى لهم أي متعهم بمتاع طويل الأمد ولكن ذلك لم يُنجِهم من العقاب الذي أعدّه لهم إذ أخذهم وهم في خَفْضٍ من العيش. فكان عقاباً مثيرًا.

أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (34)

يبين المولى عز وجل هيمنته وجبروته وسطوته وعلمه فإنه رقيب في صفاته على كل نفس بما كسبت أي أن له شأناً من شؤونه معها لكل كَسْب. فما أجهلَ من توهّموا ثَمّةَ شركاء لله تعالى! فليذكروا أسماءهم! هل فيها ما يؤلِّهُهم ولم يعلم الله بهم؟ أم انهم آلهة بظاهر من القول لا سند له من حقيقة ملموسة. ولم يكتفوا بنسبة الشركاء الوهميين لله تعالى بل زُيِّن في قلوبهم الكيدُ للاسلام مما دفعهم عن الايمان بالله إلهاً واحدا واستحقوا الضلال. فلم يكن يستطيع غير الله تعالى هدايتهم أو نجاتهم من وعد العذاب في القتل والأسْر وأنواع الْمِحَن. فلئن كان هذا العذاب زائلا مع الحياة الدنيا فإن عذاب الآخرة دائم فهو الأشقّ ولا يقيهم منه احد من دون الله عز وجل.

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (35)

الجنة الموعودة للمتقين، الذين اتّخذوا صالح الاعمال والصدق وِقايَةً من خسارتها، مَثَلُها أي صفتها أن الانهار تجري عند اقدام اشجارها. لا ينقطع كلُّ ما يُشتَهَى فيها من ثمار وطعام. ومع طِيب المناخ فظِلُّها دائم. وهذا مآل اهل التقوى بينما مآل اهل الكفر النار.

وَالَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآَبِ (36) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (37)

من أهل الكتاب من عرفوا الحق الذي جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم من البشارات التي في كتبهم فآمنوا. وقد كانوا ملتزمين بكتبهم. واما طوائف أُخرى، وقيل أهل البِدع من النصارى واليهود، فقد انكروا بعض الوحي وهو

الذي فيه تصحيح البِدَع التي كانوا عليها والاخبار التي أُسيئ فهمها في كتبهم فيقال لهم بأن الأمر يخص إفراد الخالق بالعبادة. وان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يدعو لعبادته تعالى من غير شريك وأنه إليه المآب. وعلى هذا الاصل من اخلاص العبادة نزل القران الكريم بلسان عربي مُحْكَماً لا ريب فيه أي لا يمكن لِأحدٍ أن ينسب اليه شيئا من الباطل. والخطاب للرسول صلى الله عليه وآله وسلم والمعنى موجّه للمؤمنين فإنهم إن اتبعوا اهواء اهل الضلال بعد وضوح العلم الذي جاء به الوحي فإن الله تعالى يكِلُهم الى انفسهم من غير ولاية او وقاية من لدنه فلا يبالي بهم كيفما هلكوا.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (38) يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (39)

يبين المولى عز وجل كون الرسل الكرام مِثلَ غيرِهم من البشر، يأكلون الطعام من جوع ولهم ازواج وذرية، ولم يكن لهم مبادرة بإظهار المعجزات بل يُحكِمها الله تعالى لغاية من مشيئته في وقتها وضرورتها ولكل أجل كتاب أي تأخذ الفترة التي تبدأ بها حتى تتوقف الى مدّةٍ مكتوبة. ويمحو المولى عز وجل شقاء التائبين ويثبت سعادتهم، ويَحرُم من العطاء بالذنب، ويَرُدُّ القَدَرَ بالدعاء. كما روى الامام احمد بن حنبل رحمه الله عن ثوبان رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله: ((ان الرجل لَيُحرَمُ الرزقَ بالذنب يُصيبُه ولا يردّ القَدَرَ إلا الدعاءُ ولا يزيدُ في العمر إلا البِر)). وروى البخاري عنه صلى الله عليه وآله وسلم: ((إنّ صِلَةَ الرحِمِ تَزيد في العمر)). وكُلُّ محوٍ وإثباتٍ مدونٌ في أُمِّ الكتاب، أي ما كتبه تعالى في الأزل في لوح القضاء السابق المصون عن الْمَحْوِ والإثبات لشموله إياهما وهو أُمُّ الكتاب أي اللوح المحفوظ.

وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (40) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (41)

الوعد للكفار وعيدٌ بالنَكال. كما أن موعِدَه لا يرتبط بحياة الرسل (عليهم صلوات الله وسلامه) ولا يؤثر على مهمتهم في إبلاغ ما أُرسِلوا به. وأمّا البلاغ فقد فَعَلَهُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وحساب من بَلَّغَهُم على الله. ويغفل المكذِّبون عن تصرفه تعالى بأرضه؛ ففي بعض التفاسير يفتحها للرسل وللرسالات، أو أن الأرض المشيدة في البناء والعمران تخرب في ناحية وتعمر في غيرها. وفي تفاسير اخرى: المقصودُ نُقصانُ الأنفُسِ والثمرات. (إنّ ظاهرة التصحّر أي زحف رمال الصحارَى، وكذلك ذوبان الثلوج في القطبين مما يخطر على البال كمعنى لنقصان الارض، لكن ذلك خارج عن هذا التفسير). وإن لله تعالى الامر في حوادث الارض فلا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ أي لا مُبْطِلَ له. واما سرعة الحساب فمعناها: بلا إمهال. فان الإمهال في الحياة الدنيا هو لإقامة الحجة. واما الحساب في الآخرة فلا تُعطَى فرصةٌ لتعديل الزيغ والتوبة. فقد رُفِع القلم عن الموتَى فلا يُكتَب شيءٌ لهم أو عليهم. ويجد الانسان ما عَمِلَ حاضرا ولا يظلم ربُّك أحدا.

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (42)

كفرة الأُمم السابقة عمدوا الى الْمَكرِ برُسُلِهِم في الخفية والله تعالى رقيب عليهم فدبّر لهم خذلانا ونصر الرسل. فهو العليم الذي له المكرُ جميعاً أي أن علمه أحاط بمكرهم وبمكره (وهو ما أعدّ لهم من جزاء عادل إذ أتاهم من حيث لم يحتسبوا). وقد رأى كفار قريش عاقبة مكرهم في بدر. وسوف يرون ما للمؤمنين في الدار الآخرة من عقبى حميدة، ونِعمَ عقبى الدار.

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (43)

تقوّل أحبارٌ من يهود المدينة بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إليها بأنه ليس مرسلا. فوجّهه تعالى ليبين لهم بأن رسالة الله تكفي للشهادة على كفرهم ومعها شهادة شاهد من سادتهم ابن سيدهم وهو الصحابي عبد الله بن سلام رضي الله عنه الذي جاء في التفاسير أنه بعد أن علم ببعثة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وتبين له كونه هو صاحب البشارة التي عنه في التوراة من حيث صفاتُه وزمانه وعلومه، ذهب إلى مكة قبل الهجرة وأسلم عنده. ثم عاد رضي الله عنه إلى المدينة مؤمناً وهو يكتم إيمانه. وبعد الهجرة إلى المدينة جاء أُولئك الأحبار إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليُحاجِجوه في صحة رسالة الإسلام. وكان عبد الله بن سلام عنده إلا أنه ابتعد إلى زاوية قبل دخولهم فلم يروه. وهنا سألهم الرسول صلى الله عليه وآله عنه فقالوا إنه سيدنا وابن سيدنا. فشرط عليهم على أن يسلموا إذا أسلم فوافقوا. فطلع رضي الله عنه إليهم وأشهر لهم إسلامه. إلا أنهم رغم إنقطاع حجتهم لم يسلموا! فهو الشاهد عليهم.

سورة ابراهيم (عليه السلام)

بِسْـمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (2) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآَخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (3)

وتقرأ: ألِف، لام، را. ويشير المولى تعالى إلى القرآن الكريم أنزله إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليكون وسيلته في سعيه لإخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ليحكِّم شريعتَه فيهم وهي صراطُه المستقيم، عزيزاً حميداً له مُلْك السماوات والأرض. فمن آمن فقد نال ما أذِن الله به. وأمّا من كفروا فلهم الويل من عذاب شديد فهم يحبّون من الدنيا ما خَسِروا به الآخرةَ ويصُدون عن سبيل الله ويبغون تأويل هذا السبيل عِوَجاً (بغير مقصده). فحقيقتهم انهم في تَيه بعيدٍ عن الهدى.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (4)

يبلِّغ الرسلُ عليهم الصلاة والسلام أقوامَهم، كل قوم بلسانهم ببيان لا لَبْسَ فيه فمنهم من استحق الهدى لقبوله الحق وتصديقه فجعل الله تعالى من مشيئته الهدى لهؤلاء. ومن لم يرد الا الحياة الدنيا فقد استغنى وابتعد عن نيل الهدى إلا أن يتوب فيعود يطلبه صادقا. فللّه تعالى العزة. وسلعته الجنة ويدبر بالحكمة لمن يسعى لها. ويأخذ بنواصي الناس إلى ما لا يتجاوز قَدْر كلٍّ منهم.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (5) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (6) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7) وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (8)

تلقى سيدُنا موسى عليه الصلاة والسلام الأمرَ بإخراج قومه من الظلمات الى النور كما هو امر الله تعالى لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم باخراج الناس من الظلمات الى النور باذن الله تعالى. وامر تعالى سيدنا موسى أن يذكّر قومه بنعم الله تعالى عليهم في النجاة والحرية. ولولا آيات (أي معجزات) الله في فلق البحر لما نَجَوا. وعليهم أن ينتظروا بصبر ما وعدهم به الله، وأن يشكروه سبحانه على ولايته ولطفه فيهم. وبين لهم عاقبة الشكر بأن يزيدهم من نعمائه. وجعل عاقبة جحود نعمائه العذاب الشديد وحذرهم من ذلك بان الجحود لا يضر إلا صاحبه، فإن الله تعالى غنيّ عن العالمين ومع غناه يتفضل على أهل طاعته من مقام الحمد بِهُداه.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (9) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (10) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (12)

بعد قصة موسى عليه السلام في موقف من مواقفه مع قومه في سياق إخراجهم الى نور الايمان من ظلمات الضلال وبعدما سبق في السُوَرِ السابقة من

قصص الانبياء وأقوامهم، يورد الله تعالى العبر المشابهة لما يَحصل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من كفار قريش. وهنا بعدما ذكّرهم الله تعالى بأنه غني عن العالمين، فإنّ دعوته لعباده على لسان الرسل هي رحمة مزجاة منه ليغفرَ لهم ثم يُمدَّهم بالخيرات. فما كان من الكَفَرة إلا الجدلُ والتعنُّت، وما كان من الرسل إلا الصبر والتوكل على الله تعالى. وفي هذا دعوة لمشركي قريش الى المغفرة، وبنفس الوقت تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للصبر وانتظار وعد الله. وفيه حجة ببرهان مبين بأن الدعوة لم تكن لتحصل من الرسل إذ لا يملكون هذا الحق لو لم يأمرهم بها الله تعالى ويؤيدْهم بآياته.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (14) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (16) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (17)

يتشابه قول الكفرة للرسل بمواجهتهم بواحدٍ من الإختيارين؛ اما اخراجهم من ديارهم، او صهرهم في مِلَّتِهم في عبادة الاصنام! وهنا أوحى إليهم رب العزة بوعده بالنصر على هؤلاء الظالمين. وهذا من بشائر الله تعالى للرسول صلى الله عليه وآله وسلم. اذ ما انفك ينصره نصرا بعد نصر حتى فتح مكة التي اخرجته. واما الرسل واقوامُهم فقد استفتح الرسل أي طلبوا من الله تعالى النصر على أعدائهم فكانت الخيبة للمشركين وقامت الحجة عليهم في ما استحقوا من العذاب في جهنم وما تسقيهم وما يرعبهم فيها وما يُنتظر من عذاب مثله لمن سار سَيْرَهم.

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (18)

العبرة بالأعمال ان تكون مؤسسة على تقوى الله تعالى في إستقامة لتكون ذخراً لصاحبها، او اصحابها، فان كانت على اساس الزيغ والضلال فلا ثواب عليها حتى وان كانت في الظاهر من اعمال الخير ذلك لأنها في الحقيقة موجهة لغير الله تعالى: للاصنام أو حب الدنيا والجاه أو لإرضاء الناس في سخط الله تعالى. فهذه الاعمال حابطة وقد ضرب الله تعالى لها مثلا بالرماد الذي اشتدت به الريح في يوم عاصف مهما دلت على الخيرات والنفع فان فاعلها لا يحصل على ثواب فيها لأنه لم يطلب لها ثوابا من الخالق الباقي جل علاه بل طلبه من الفاني كالرياء والنذور للاوثان ففَعَلَها لأجْلِهم وليرائي الناس كسبا لسمعة وشهرة وتقربا من اهل الزيغ. فهذا دليل ضلالهم بعيدا عن الحق والمعرفة الصافية.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (20)

يُظهِر الله تعالى اهمية الحق في خلق السموات والارض في عدد من آيات القرآن الكريم اذ لم يخلق ذلك عبثا بل ليقام الحق بما ينضوي تحته من صدق التقوى وعدل أُولي الأحكام وما بين ذلك من فضائل اوصى بها المولى تعالى ويرضاها مع وعده بثواب إتّباعِها وعقاب عِدائها. وبيّن تعالى مشيئته في الخلق فلا اعتراض على حكمه اذا اخذ اقواما واتى بآخرين، فالأمر عنده هيّن عليه.

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (21)

البروز لله تعالى إنكشاف لا يخفى فيه عمل احد. فيطلع الناسُ بعضُهم على بعض ويلتقون. وهنا، كما يلتقي اهل الجنة بعضهم ببعض، يلتقي اهل النار كذلك. فلا يملك الضعفاء منهم (أي الذين اتّبعوا اهل الكفر والضلال فمالأُوهم على ظلمهم واعانوهم على ضلالهم) عندما يرون الذين كانوا سادتهم في الدنيا من اهل

الاستكبار في النار إلا ان يقولوا لهم تقريعا واستخفافا "هل انتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء"؟ وكانوا قد تلقَوا الوعود منهم بذلك في الدنيا. وهنا يُبرّر المستكبرون إغواءهم بأن الله تعالى لم يهدِهم فلو هداهم لهدَوا غيرهم. وهذا ما توهموه ولم يبينوا حقيقةً إستقرت في انفسهم بانهم استكبروا على الهدى اذ جاءهم وأضلّوا غيرهم معهم. وعندئذٍ لا يجدون في الصبر فَرَجَاً ولا في الجَزَعِ منفذاً فيستوي عندهم الحال فما لهم مَهرب عن العذاب.

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (22)

وإذ حُكِم بالنار على الذين استجابوا لإبليس في حياتهم الدنيا وصدّقوا وُعُودَه بكسب الملذات الضالة، وفاتتهم وعود ربهم الحق، عندئذٍ لا يكذب عليهم كما سبق فيبين لهم بأنه لم يُكرِهْهم على الكفر بعد الايمان، بل زين لهم المعصية بوعده الكاذب ودعوته الباطلة، وأن الدعوة لا تحمل في معناها سلطانا. بينما سبق تحذيرهم منه على لسان الرسل. فأحرى أن يلوموا أنفسَهم. ويبين لهم ضعفه في إغاثتهم فما هو بمصرخهم أي مغيثهم، وضعفهم في اغاثته ويكفر بما اشركوه بالله تعالى، أي بما أطاعوه في معصية الله. وهكذا الألَمُ في الحسرة واليأس يجعل عذابَهم أليماً.

وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (23)

عَطَفَ المولى عزّ وجلّ، على حالِ ومآل اهل النار، بنعيمَ أهلِ الجنة بأنهم مكرمون بكثير من الكرم الرباني خالدين بإذنه في الجنة ويتلقون التحيات. وتحمل

تحيات الملائكة لهم التهاني كما في سورة الرعد (...والملائِكةُ يَدْخُلونَ عَليهِم مِن كُلِّ بابٍ. سلامٌ عَليكُم بِما صَبَرتم فنِعْمَ عُقبَى الدّار).

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (26) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (27)

ضرْبُ الامثالِ يقصد به جعل الشيء مثلا يقاس عليه شبيهٌ له. والشجرة مضرب أمثالٍ كثيرة لِما لها من اثر في الحياة. ففروعها ترتفع بها الى الأعلى وهذه صورة مادية ملموسة بالنظر. بينما الكلام موجات صوتية لا يراها البصر. فلما شُبِّهت الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة التي تسمو اغصانها كالنخلة مثلا فمعنى ذلك أن هذه الكلمة تعلو بصاحبها قَدْراً ومنزلةً عند الله تعالى فيضاعف الحسنة. ثم يسمع آخرون الكلمة الطيبة فتكون لهم سُنةً حسنة تُذكَرُ فيؤجر عليها قائلها مثلما تعطي الشجرة ثمارها كل حين بإذن ربها. فليتذكر الناس هذا المثل كلما همّوا بكلام ليجعلوه طيِّباً يقبله الله تعالى ويرفعه ويرفع صاحبه. واطيب القول هو ما يُفرِدِ الخالقَ جل علاه بالوحدانية والعبادة الخالصة وتتمثل بشهادة لا إلهَ إلا الله ويتفرع منها التسبيح والحمد والتكبير والطاعة والمحبة والجهاد والعمل الصالح لوجه من لا إله إلا هو. فأصلُها حقُّ اللهِ الثابت في وحدانيته، وفروعها الاتجاه اليه ورؤية حكمته في ما يجري في ملكه أن لا شريك له في نية المؤمن وعمله وتصديق رسوله النبي الزكي الطاهر الذي ادى أمانةَ رسالتِه الى العالمين. ثم الصلاة عليه وعلى آله وأصحابه واحبابه اهل الجنة. وعد الصدق الذي كانوا يوعدون. واما الشجرة الخبيثة التي لا تستند على حق فهي مَثَلٌ يُضرب للقول الزائغ بالشرك والسَفَه والصد عن سبيل الله بزخرف القول غرورا. فالحنظل مثلا تتفرع من أصله فروع لا ترتفع عن الارض لأن

اصلها لا يمكنه حمله فهو مستند على سيقان وجذور واهية ما لها من قرار واما ثمرها فمَثَلٌ للطعم الخبيث في المرارة فلا نجد من يزرعه او يجمع ثمره كما يُزرَع البرتقال مثلا ويعرض في الاسواق وينقل الى اقاصي المعمورة. ويأتي دور المؤمن في هذا المثل بأنه النموذج الثابت على اليقين والصادق في الايمان والمحسن في خُلُقه فهو في ذمة ربه محفوظ بحصنه وهو في الاخرة ممن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ويأتي دور اهل الظلم بالشرك لا يَعرفون من اين ينالون الخير لأن الله تعالى لم يأذن لهم بالهدى بعد ان هداه السبيل اليه تعالى فصَدّوا عنه. والله تعالى قادر على ان يردَّهم الى صراطه لو كانوا اهلا للهدى في توبة وندم ونية حسنة ويعلم منهم الخير والثبات عليه فالمشيئة الربانية حصيلة الحكمة والعلم المحيط بما كان وما لم يكن كيف سيكون فيما لو كان. ولا يَظلم أحدا.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (28) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (29) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (30)

ورد ذكر جهنم هنا على انها مستقر ومصير. فهي قرار لمن عجّل الله تعالى لهم الهلاك بعدما جاءتهم نعمة الدعوة للايمان والجنة فأبدلوها بالكفر وحملوا أوزار قومهم إذ أبعدوهم عن سبيل الله تعالى حتى أوصلوهم إلى دار الهلاك، وبيّن تعالى أن جهنم قرار لا نجاة بعده منه وساءت مستقراً ومقاما لمن يجعلون لله تعالى أنداداً أي أمثالاً في تشبيههم بالآلهة أو يجعلون أوامر غيره تعالى نِدّاً لأوامره فهم أطوع لها لموافقتها لهم في طغيانهم متمتعين في هذه الحياة الدنيا أي يجنون منها ما تميل إليه شهواتهم ولا يتوبون. وكم هو قليل. هؤلاء يقال لهم بعد إصرارهم على الضلال: (تمتعوا!). قولاً يحمل الإستهانة بهم لهوانهم في حقارة عمل أهل النار فإن مصيرهم إليها.

قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (31)

الثبات في السير الى الله تعالى هو الطاعة في اداء الصلاة المكتوبة والعمل لوجه الله تعالى واحداً في صِدقِ النوايا، وصَدَقَةُ السر دليل صِدْقِ النِيّة. وصَدَقةُ العَلَن أُسوةٌ حسنةٌ لمن يقتدي بها على ان يكون مبعثَها النيةُ الخالصةُ لله تعالى. فالأفضل للإنفاق في غير الزكاة أن يكون سرّا. ولا بأس في الزكاة والجهاد ان يكون علانيةً للإقتداء ودفع الشبهة. إذ لم يرد في الزكاة أن تُؤتَى سِرّاً، بينما ورد في الصدقة فِعْلُها سِرّاً. ومن أمسك ما امر الله به من واجب المال حتى الموت فإنه لن يجد يوم القيامة مجالاً لكسب الأجر إذ لا بيع ولا ما يجري بين الخليل وخليله من تعاون مالي.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (33) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34)

نِعَمُ اللهِ التي خلق الله تعالى مسبباتها من سماء وارض ومياه ووسائل الإستفادة منها تستوجب الشكر. والمولى تعالى يوفق المؤمن للعمل الصالح ويضاعف أجره له. والعمل الصالح جزء من الشكر يكمل بشعور المؤمن بأنه عجز عن الشكر وعندئذ فقد ادرك رضوان الله تعالى بإقراره بالنعمة منه وحده لا شريك له وبذلك يكون شكره قد حصل. ومن يوجِّه النعمة الربانية ناسيا شكر المنعم جل وعلا الى غير رضوانه فقد جحد نعمة الله تعالى وظلم بذلك نفسه. وعلى حجم النعم التي يجحدها يكون ظالما وكافرا بها اذا وجهها لهواه الضال. يجمعها بسخط ربه لسوء نيّته، وينفقها بغضب من المولى الكريم لسوء فعله. وبهذا فهو ظلوم لنفسه كفار بنعمة ربه، سبحانه.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (36)

استجاب رب العزة لسيدنا ابراهيم صلى الله عليه وسلم. فجعل مكة حَرَماً آمنا ودعا ابراهيم ايضا لذريته أن لا يعبدوا الاصنام وتبرّأ ممن عبدها ويعبدها. وتذكّر الضالّين منهم فما دعا عليهم بل وَكَل امرهم الى الله تعالى فقد وصفه رب العزة بأنه أوّاهٌ حليم، أي رقيق القلب كثير الدعاء لا يسرع في الغضب.

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37)

إن الله سبحانه وتعالى عالم بأن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد أسكن من ذريته بواد غير ذي زرع عند بيت الله الحرام. ومع هذا عرض الحال على الله تعالى ليبين سبب الدعاء. وها هو بعد الدعاء لمكة ولنبذ عبادة الاصنام يدعو ربه الكريم سبحانه وتعالى بالرزق يأتي لمن اسكن من ذريته بمكة لعلهم يشكرون. وها هي تُجبى اليها ثمرات من شتى انحاء العالم ويعمر مسجدَها (البيتَ الحرام) العددُ الاكبر من المصلين. وتذكِّرُهم هذه الاية بما تمناه لهم جدهم من القيام بحق هذه النعم شكرا وعملا صالحا، فما أبعد خسارة من عميت عليه أسباب النِعَم فلا يشكر بالطاعة.

رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (38) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (39) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (40) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (41)

تعظيماً لله تعالى بدأ سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام دعاءه من المولى تعالى بذكر ما يعلمه سبحانه من نوايا عباده مُقِرّاً له بذلك. وبعد ذلك حمد الله تعالى شاكرا هبته في اسماعيل واسحق عليهما السلام عن كِبَرٍ في سِنّه، وهذا لا يحصل في مثله إلا بمعجزة. وفي هذه المعجزة تعظيم لله تعالى بانه يستجيب الدعاء اذ كان قد دعاه لذلك. ودعا مولاه ليثبته على إقامة الصلاة ويجعل من ذريته من

يحافظ عليها لِما لها من أهمية. وان يقبل دعاءه له ولهم وان يغفر له ولوالديه وللمؤمنين يوم يقوم الحساب. وفي هذه الاية اسوة لمن يدعو الله عز وجل ان يشمل اخوانه المؤمنين بدعاء الخير. واما دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه فقد كانت قبل أن يتبرأ منه بسبب إصرار أبيه على الشرك.

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (43)

الخطاب موجّه للرسول صلى الله عليه وآله وسلم والمقصود به كل المؤمنين معه أنْ ينظروا الى أهل الظلم نظرةَ الله اليهم بأنه تعالى انما يؤخِّرهم ليومٍ تشخص فيه الابصار أي مفتحة لا تطرف ولا تتحول عما زاغت فيه. مهطعين (مسرعين)، مقنعي رؤوسهم (رافعيها)، لا يرتد إليهم طرفهم (أي لا يُطبِق جفن على جفن) وقلوبهم هواء أي لم تعُدْ تعي شيئاً يلهيها عن هول الشدة.

وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (44) وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (45) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (46) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (47)

عندما يجزم الظالمون ويُقسِمون على أنهم باقون لا زوال لهم يتجاهلون وجود القدرة الربانية فوقهم ويستخِفّون بما توعدهم الله تعالى به على ظلمهم من عذاب. فطلب المولى عز وجل من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ان ينذر الناس من الوقوف هذا الموقف والا فالعذاب يلحق الذين يظلمون فيتمنَّون العودة مع أجلٍ مناسبٍ للتوبة والصلاح. بينما كانت العِبرُ كافيةً لهم ليتخذوا موقفا حكيما. فقد سكنوا مساكن الهالكين من قبلهم فلم يعتبروا بل دبروا من المكر ما تزول منه الجبال

(أي هلاك أهل الحق الذين يُصلحون ولا سيما الانبياءُ عليهم السلام). وهنا يؤكد المولى عز وجل صدق الوعد بالنصر والعزة وأن ينتقم من أهل الظلم أمثال أُولئك الظالمين.

يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (48) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (49) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (50) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (51)

الارض المقصودة هنا هي حيث يوقِف اللهُ تعالى خَلقَه الذين بعثهم. فالأرض في الحياة الدنيا هي موطن البشر؛ خلقهم منها, واعادهم فيها, واخرجهم منها. والارض في يوم البعث حيث يجتمعون يوم الميقات المعلوم في صعيد يبدأون به الصراط الى حيث مصيرُهم. فالارض التي هم عليها آنذاك هي غير اوطانهم التي ماتوا فيها فهي قاع صفصف أي مستوية ولا عِوَج فيها أي انحراف وتعرج، ولا أمْتَ فيها أي مُرتَفَع. وأما السماوات فتكون ذات لون غير لون الزرقة التي يراها الناس في الجو الصحو بل يتبدل اللون الى لون يشير الى انها غير السماوات التي كانت تعلوهم في الحياة الدنيا. واما البروز الى الله تعالى فهو على معنيين؛ الأول في القيامة عند البعث من القبور، والثاني عند انكشاف الاعمال للحساب فيما بعد. وعند ذلك يكون اصحاب الاعمال السيئة قد قيدتهم اعمالُهم من غير ظلم فهم مقرَّنون بالاصفاد, أي مرتبط بعضهم ببعض بقيود حسب صنف جرائمهم اذ قال تعالى (احشروا الذين ظلموا وازواجهم) أي الذين من صنفهم. واما السرابيل فهي الملابس المخزية من القَطِران، وهو (كما جاء في التفاسير) مستحلب من شجر يسمى (الأبْهَل) يُجمع ويوضع على النار فينسجم ويتجانس ويكون سائلا كثيفا يُطلى به موضع الجْرَبِ من الإبل الْمُجْرَبّة ويؤثِّر فيها بألمٍ حادّ يحرق الجرَب بِحِدَّتِهِ، كما يكون قابلاً للاتقاد وتسرع النار فيه ذا لون اسود ورائحة نتنة. ويكون منه في ذلك اليوم الموعود قمصان أولئك المقرّنين بالاصفاد والنار تعلو وجوههم. وفي هذا الوصف

تمهيد لبيان سبب ما فُعل بالمجرمين وهو في الآية التي بعد هذا الوصف (ليجزي الله كل نفس بما كسبت). فأعمالهم قيدتهم مع امثالهم فلا يفارقونهم. وظاهرهم السيء في معاصي الدنيا جعلت ظاهرهم اسود بالقطران ولا امهال لهم في سرعة الحساب.

هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (52)

وصف بليغ لكتاب الله تعالى فهو في أول نزوله بلاغ لجميع الخلق من الانس والجن ليُبلَّغوا به للخروج من الظلمات الى النور ثم لِيُنذَروا به أي يكون موعظة للثبات. ثم ليحصل لهم اليقين بالوحدانية لله الإلَه الواحد اذ جاءتهم الادلة والبراهين فيكون حجة لهم. ثم ليرسخ في قلوب أُولي الالباب (ذوي العقول الواعية)كحقيقة لا زيغ فيها، فيكون معهم في حياتهم يعمر ذاكرتهم.

سورة الحِجْر

(بكسر الحاء، وسكون الجيم)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (1)

سبق الكلام على المقطعات وهي هنا مشتركة في هذه السورة مع سورة يونس وسورة هود وسورة يوسف وسورة ابراهيم بالأحرف الثلاثة: الف, لام, را. ولم ترد في سورة اخرى بعد هذه السورة بهذه الاحرف الثلاثة فقط. واشار الله تعالى بعدها الى آيات الكتاب, أي السورة, وقرآن مبين أي الجامع للكمال والوضوح بإعجازه وتفصيله.

رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (2) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (3) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (4) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (5)

من يُدرِكْهم الموتُ كافرين، أو كانوا في النار ويرون مِن المسلمين من يُنَحَّى عنها، فهولاء تملكهم الندامة ويودُّون لو أنهم كانوا قد أسلموا ونَجَوا. يقول تعالى عنهم: (ذرهم)؛ فعل أمر فيه إهانة وتحقير: دعهم والملذات الضالّة، يحجبهم طول الامل عن التوبة فسوف يأتيهم العلمُ بحقيقة سوء عملهم. وقد كشف تعالى ان هلاك المدن الظالمة بأعمال أهلها مكتوب عليها في اللوح المحفوظ. فإذا حل أجل هلاكها وقع بها العذاب فلا مهلة بعده ولا مفر منه وليس له من دون الله كاشف. وكذلك إمهال الأمم في ما كُتِبَ عليهم فذلك بسبب الأجل المعلوم فلا يُقدَّم ولا يؤخَّر. وفي هذا تحذير لمن تبلغه الدعوة للإيمان فلا يبادر إلى تلبيتها حتى يأتيَه الأجل فلا يجد له فسحة.

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (7) مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ (8) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9)

كيف ينزل الله تعالى من الملائكة واحدا او اكثر اذا لم يشبِّهْهُم بالرجال؟ وعندئذ لن يُعرَفوا بأنهم ملائكة كما جاء في الايتين الثامنة والتاسعة من سورة الانعام. وكشف تعالى أن الملائكة تُرسل وتنزل بما حق على الكفار من عذاب في اجله المكتوب فلا مهلة فيه. وتأكيداً للحق في القرآن أكّد المولى سبحانه بأنه هو الذي أنزله وهو حافظه. وليس كما كذّب كفار قريش وتحدَّوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إذ قالوا له عندما طلبوا أن يأتيهم بالملائكة: "إن كنت من الصادقين". فإنه لَصادقٌ معصوم. وإن كتاب الله تعالى لمحفوظ إلى يوم الدين.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (10) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (11) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (12) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (13) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (15)

يأتي المولى سبحانه بذكر الأوّلين تسليةً للرسول صلى الله عليه وآله وسلم. اذ كان كفار الأُمم يستهزئون بالمرسلين من قبله لأنهم حُرِموا من فهم الحق بما ارتكبوا من آثام. وهذا ما حصل من كفار قريش إذ كذّبوا مثل اولئك ولم يفتح الله لهم الفهم بل سلك (أي أدخل) الكفر في قلوبهم حتى لو أن الله تعالى فتح لهم بابا الى السماء يعرجون فيه لَما صدّقوا ذلك ولأوّلوا الامرَ على أن ابصارهم قد سُكِّرَت أي تحيّرت وتخيّلت. أو تأوّلوا بأنهم تحت تأثير نوع من السِّحر!

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (17) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (18)

عجائب السماء هي للعيون زينة، وللعلوم موضع درس، لِما فيها من منازل ظاهرة للشمس والقمر وهي حادثة بدوران الارض حول نفسها وحول الشمس وانحراف محور الارض عن تعامد الشمس بثلاث وعشرين درجة ونصف الدرجة. ففي الشتاء الذي يعم شمال الكرة الارضية تكون قبة السماء ليلا غير النصف المواجه لها الذي نشاهده صيفا وبإنتقال الرؤية الظاهرة تكون البروج لكل شهر موقعا فيه أشكال من النجوم متشبهة بالمسميات التي يتخيلها الرائي كالثور والميزان والعذراء والعقرب والسرطان والجدي وما الى ذلك. فلو كنّا في نقطة على سطح الارض الشمالي ورصدنا السماء ليلا بعد العشرين من كل شهر شمسي لرأينا شكلا من اشكال النجوم الثابتة والسيارة ترسمه نجوم متميزة النور على شكل المسمى الذي لذلك الشهر. وكان الاعتقاد الجاهلي أن للكهنة من الجن من يسترق السمع من السماء عما سيحصل من غَيبٍ آتٍ. فيلقونها الى اوليائهم من الإنس الكفرة الذين انشغلوا عن العبادة بضلال الأوهام. وكذّب العليم الخبير سبحانه هذا الاعتقاد فبيّن بأن السماء محفوظة من الشياطين. فمن صعد للسماع فقد هيّأ الله تعالى له شهاباً يلاحقه حتى يغوص معه في الارض او يحرقه معه بسرعة إحتكاكه بجوِّ الأرض. وأما عزل الجن عن السمع فقد ورد في آياتٍ منها قوله تعالى في سورة الشعراء: ((وما تنَزّلت به الشياطين (210) وما ينبغي لهم وما يستطيعون (211) انهم عن السمع لمعزولون (212)). وقوله تعالى في سورة الجن (وعلى لسانهم) ((وانّا لَمَسْنا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَديداً وشُهُبا)).

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (19) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (20) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (21)

الله سبحانه وتعالى ينبه عبادَه على الفضل في المعيشة مِن مَدِّ الأرض، أي توسيع سهولها للزراعة. ومِن جَعْلِ الجبال سببا لصد الرياح ولتوزيع المياه ولحصر السهول والاودية ولحفظ الثلوج ولِما لا يُعدّ من ضرورات المعيشة في الرعي والغابات ولطف الجوّ، فضلاً عن أثرها في التوزيع السكاني لمختلف الشعوب والقبائل. ثم يمنّ الله تعالى على عباده بالتقدير المتوازن في النبات من ثمرات الحبوب والفواكه والخُضَر والعشب وفي ما اخرج من الأرض من معادن ووقود وفي ما بث من أنعام تأكل في أرض الله ويملكها الإنسان. وقد دبر إخراج هذه النعم من خزائن قدرته بالقدر الذي لا يعلم تدبيره إلا هو. فما من البشر أحد يعلم غيب الزيادة في العدد السكاني والتطور العلمي المواكب لها لكي يدبر المتطلبات اللازمة من خزائن الله والنبات والحيوان.

وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (23) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (24) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (25)

الرياح مسخرة لحمل البخار من المسطحات المائية فتثير السحاب، ولها أثرها في حيوية النبات. وبهذا توفرت اسباب الغذاء للإنسان والأنعام. فالماء ينزل فيتسرب في حنايا الأرض ولا يمكن لبشر ان يخزن الكميات الهائلة من الأمطار لولا تسرب الماء هذا. وإذا بالينابيع تتدفق وتتجمع في جداول تلتقي لتكون انهارا تسقي الأحياء والزروع ثم تتكرر دورة الماء بين السماء والأرض. فهذا سبب الحياة ولا تدوم الحياة للخلق لأنهم لا يملكونها وقد كتب الرحمنُ آجالَهم فهو الوارث أي الباقي بعد فنائهم، يرثُ السماءَ والأرض. وهو العالم بمن سبق منهم ثم رحل ومن تأخر به الأجل ليتجمّعوا جميعا يوم يحشرهم، وهو في ذلك الحكيم في ما قضى، العليم بما كان ويكون.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (26) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (27)

الصلصال طينٌ من تراب يابس يجفّ كالفخار ناعما؛ وهو المقصود بالحمأ، أي الطين، وبالمسنون أي الناعم. وأما الجان فمن مارج من نار، أي من نار لا دخان فيها نقية العناصر يُبعث منها السَّموم، أي الريح الساخنة. وفي هذه الاية إشارة الى طيب عنصر الإنسان وطهر فطرته.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (31) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (32) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (33) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (35) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (38) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (42) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (43) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (44)

في شرح الآيات التسع من الثلاثين الى التاسعة والثلاثين من سورة البقرة ايضاح لمثل هذه الآيات عن خلافة الأرض. وفي هذه الايات إظهار لحقيقة ابليس (نعوذ بالله تعالى منه)، وتتبين مواقفه بعد امتحانه وفشله ووقوعه في الفتنة. فقد كان مأموراً أن يسجد لآدم بعد أن يخلقه الله تعالى ثم ينفُخَ فيه الروح. واستوى آدم عليه السلام بشراً سوياً، ولكن ابليس رأى نفسه افضل فلم يسجد! وهذا أول جانب من حقيقته فهو التكبر وتفضيل نفسه خلافا لتفضيل الله تعالى. وثاني جانب هو إصراره على المعصية عنادا رغم وعيد الله تعالى له. والثالث هو التحدي وطلبُ إمهالِه إلى يوم الدين لغواية البشر، إلا المخلَصين الذين اخلَصهم اللهُ لطاعته (وقد

أخذَتْه غصة عندما ذَكَرَهُم). فأوضح المولى تعالى بأن هذا طريق حق يراعيه. فليس لإبليس سلطان إلا على من يتّبِعُه وموعدهم جميعاً جهنم. أما ابوابها السبعة فحَسَبَ سبعةِ أصنافٍ من اعمال الشر تجمع الكفر والشرك ثم النفاق بعد الايمان. وفي التفاسير يكون لأهل هذه الأصناف ستة أبواب، أسفلها للمنافقين. وأعلاها السابع لأهل المعاصي من اهل التوحيد يُعاقَبون بقدر ذنوبهم في الدنيا. هذا الباب يدخله الرجاء بالشفاعة.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (45) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آَمِنِينَ (46) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (47) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (48)

يؤكد سبحانه (بعد بيان دور ابليس مع اهل النار) على نَجاة اهل التقوى الذين توكلوا على منهج الله تعالى، متّبعين اوامرَه فاتخذوه وقاية لهم من عقابه وسببا لرضوانه، فبشرهم بالجنة التي يمنحهم فيها الأمْنَ. وأمّا الذين كان في صدورهم غِلٌّ لإخوانهم (أي شعور متكدر يحصل منه ضغينة عليهم) فيكشف المولى تعالى لهم أعذارَ إخوانِهم في ما سبّب لهم الغِلَّ فينْزِعُه من صدورهم فكأنهم لم يختلفوا بعد وفاق. ويبشرهم بالطمأنينة فلا تعب معها، وبالخلود في هذا النعيم.

نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50)

في ما تقدم من بشارة تأكيد للمولى عز وجل انه هو الغفور الرحيم. وفي ما تقدم من وعيد لاهل الكفر والشرك والنفاق يؤكد تعالى ان عذابه هو العذاب الأليم. وعلى الذين بلغتهم الدعوة ان يختاروا نيل البشارة وتجنب العذاب. وبهذا يبين تعالى فضله على المؤمنين خاصة بذكر صفته الغفور والرحيم في الآخرة. ويدل على الحرمان من مغفرته ورحمته في الآخرة لمن صدّ عن سبيله.

وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (51) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (52) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (53) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ

الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (54) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (55) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (56)

قصة سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام تكررت في كتاب الله تعالى. وهي هنا تبين لطف الله تعالى تذكرة للمؤمنين بأن لا يقنطوا من رحمة ربهم العلي القدير الذي منح شيخا طعن في السن غلاما عليما كان قد دعا الله تعالى أن يهبه إياه. ولكون عدد الملائكة اكثر من واحد فقد توقّع سيدُنا ابراهيم أمراً آخرَ غيرَ البشارة ولهذا فاتَّحَهم:

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (57) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (58) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (59) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (60) فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (61) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (62) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (63) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (64)

وبعد جواب الملائكة لسيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام إنتقل المشهد إلى بيت سيدنا لوط عليه السلام والملائكة يبشرونه بالفرج له ولأهله إلا امرأته. وبالعذاب لقومه الْمُجرمين بحقّه.

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (65) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (66) وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (67) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (68) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (69) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (70) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (71) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (73) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (74)

وقد تقدم في سورة هود عليه السلام تفصيل حوادث هلاك قوم لوط عليه السلام حتى قُطع دابرهم (اي آخِرُ من بقي منهم). وتتميز هذه الآيات بإيراد ما حصل بشكل موجزٍ. فمن ذلك؛ طلبُه من قومه أن يتقوا الله فلا يسببوا له حرجاً

مع ضيوفه، وإستهانةُ قومِه المجرمين بحقه وكأنّ أمرَه بيدهم ينهَونه ويأمرونه! ورفضُهم وصيتَه بترك شذوذهم، ثم أَخْذُهم بالصيحة في غمرة طغيانهم.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (75) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (76) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (77)

المتوسِّمون (المتفرسون) وهنا هم المتأملون في حوادث التأريخ والآثار التي تركها المتقدمون، ومنها قرية سدوم، ماثلة في طريق القوافل بين الشام والحجاز. وأما آياتها لهؤلاء المتوسمين فللعبرة. وأما آيتها للمؤمنين فقد أحدثت أثرها بأن يحمدوا الله تعالى على ما هداهم إلى صراطه المستقيم.

وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (78) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (79)

اصحاب الأيكة (أي الشجرة) هم قوم سيدنا شعيب عليه السلام. وقد تقدم. وإقليمهم مجاور للأرض التي هلك فيها قوم لوط. واراد سيدنا شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه أن يعتبروا بهلاك قوم لوط. فذكّرهم اياهم بقوله في سورة هود ((وما قوم لوط منكم ببعيد)) فما نفعهم ذلك فانتقم الله تعالى منهم. وقال (وانهما لبإمام مبين) أي أن الأثَرَينِ لقوم لوط وقوم شعيب، على طريق القوافل الواضح.

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (80) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (81) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (82) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (83) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (84)

سبق ذكرهم مع سيدنا صالح عليه السلام في سورة هود وهنا في قوله تعالى (ولقد كذب اصحاب الحِجر المرسلين) اشارة الى أن من كذب رسولا فقد كذب الرسل الذين قبله لأن الرسالات واحدة جاؤا بها من ربهم عليهم السلام. وذكر تعالى هنا الآثار في بيوتٍ كانوا ينحتونها من الجبال فتكون منيعة لا تُمكِّنُ عدوَّهم من اقتحامها. ولكن ذلك لم يمنع الصيحة من أَخْذِهم مع الصبح في ديارهم جاثمين. وقد مر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ديارهم في غزوة تبوك

وجاء في تفسير ابن كثير انه صلى الله عليه وآله وسلم قنّع رأسه واسرع دابته وقال لأصحابه رضوان الله عليهم ((لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين إلا ان تكونوا باكين فان لم تبكوا فتباكوا خَشيةَ أن يصيبَكم ما أصابهم)). وأشار المولى عز وجل إلى أن ما كسبوا في زراعتهم وتجارتهم لم يمنع عنهم ما أوجبه عليهم كفرهم.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (85) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (86) وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (87) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (88) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (89) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (90) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (91) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (96) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99)

خَلْقُ السماوات والارض أعقب الإرادةَ الربانية في كشف أهمية الحق وأن الله تعالى يحقّ الحقَّ بالعدل في الجزاء والثواب وإن ساعة القيامة آتية للفصل بالحق. وعلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ان لا يَشْغَلَ قلبَه بمن آذاه فعليه ان يصفح عنهم, وذلك قبل الهجرة. وبيّن تعالى انه خلقهم كما خَلَقَه عن علم وآتاه السَّبْعَ المثاني أي التي تحمل الامر والنهي والبشارة والنذير والامثال وذكر النعم والانباء السابقة. وقيل السبع المثاني هي سورة الفاتحة. ولا منافاة بين القولين. واشار تعالى الى عظمة نعمته في القرآن الكريم حتى صَغُرت كلُّ نعمة من نِعَمِ الدنيا دونه. فنِعَمُ الحياة الدنيا بالمال واصناف المتاع أدعى لهواها أن لا يمد المؤمن عينيه اليها بعد نعمة القرآن. فالأجدر أن لا ينظر المؤمن الى متاع الدنيا. ولا يعني ذلك ترك الكسب (ابتغاء فضل الله تعالى) بل تكون نية العمل كسب قوام الحياة لدوام العبادة وليس للانشغال بالكسب عن آيات الله تعالى في قرآنه المجيد. وعلى الرسول صلى الله

عليه وآله وسلم ان لا يحزن على من شغلته أصناف النِعَم عن آيات الله تعالى وأن يخفض جناحه أي يلين لمن آمنوا سواء أكانوا أغنياء او فقراء. وبنفس الوقت يوجه النذير لمن لم يؤمن فيكون نذيرا يوضِّح عاقبةَ الكفر بما أنزل في القرآن كما أنزل على المقتسمين (أهل الكتاب) الذين من قبلهم الذين جعلوا القرآن عضين أي منقسماً أي أنه في بعض آياته يتفق مع ما معهم فأنكروا غيرها لعدم فقههم الحق وبهذا جعلوا القرآن اقساما. وقيل هم فئة من مشركي قريش قعدوا على أبواب مكة في مواسم الحج قبل الهجرة ليصدوا الناس عن القرآن واطلقوا عليه غير اسمه كالسحر. وهذا ما سوف يُسألون عنه. وأيَّ سؤال! مما دعا الله تعالى ان يقسم بذاته العزيزة على مساءلتهم! ثم يأمر تعالى رسوله ان يواصل الدعوة رغم ما يواجهه من جحود وتعنت، فيعرض عنهم. وقد كفاه ربُّه تعالى شر المستهزئين وجعل له الْمَنَعَةَ منهم. وأعدّ لهم ما يستحقون. فقد اهلك منهم في يوم واحد خمسة؛ منهم الاسود بن عبد يغوث، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والحارث بن قيس. وكان يرأسهم الوليد بن المغيرة في الاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ثم جعل تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم بديلا عن الاهتمام بهم بان يُسبّح بحمد الله تعالى ويستعين بالصلاة فهي التي تجعله مع ربه تعالى حتى يأتيه اليقين أي يلقاه. وفي هذه الايات مخرجٌ للمؤمن وإرشادٌ للصبر.

سورة النحل

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (1)

لم يكن أحد من كفار قريش يتقبل حقيقة البعث بعد الموت. وجاءهم مع البعثة المحمدية الوعد بقيام الساعة. فقابلوا ذلك بالإستعجال به تكذيباً وتحدياً في وقت كانوا يتقبلون فيه أوهام الشرك! فأوحى تعالى الى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأنّ أمرَه لتحقيق وعدِه في حكم الآتي لا مَحالةَ في وقت يقدِّره. كما نزّه ذاتَه سبحانه في علوّه الكبير عما يشركون به من دونه.

يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (2)

يبيِّن المولى تعالى أنه لا يترك الخلق في جهل عن خالقهم سبحانه. أي أراد أن يعرفوه ليعبده العابدون. لذا يختارُ من عباده من يشاء لتلقي الوحي منه وهم الانبياء عليهم الصلاة والسلام. لينذروا الناس بأن لا يتخذوا إلهاً إلا الله وأن يُطيعوه وِقايةً لهم من الزيغ.

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (3) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (7) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8)

تكرر ذكر الحقّ في خلق السماوات والارض وقيامهما به للتأكيد على حق الله تعالى على عباده الذين أعطاهم العقل أن يعبدوه لا يشركون به شيئا وأنه يحق

الحق فيجزي بإحسانه المحسنين وبعدله المسيئين. ومع وضوح هذه الحقيقة فقد بلغ بمن خلا قلبُه من نفحات هذا الايمان أن يظهر شكوكَه وسوءَ ظَنِّه بربه وبلقائه في اليوم الاخر. قائلاً "ءَإذا مَا متُّ لَسَوفَ أُخْرَجُ حَيّا"؟ ويضرب مثلا ناسيا أنه لم يكن شيئا فيقول "مَنْ يُحْيِي العِظامَ وَهْيَ رَميِم"؟ وسبحان الله الذي أوجَده ألا يقدر على نشأته من جديد؟ ويذكرنا سبحانه بنعمائه؛ فالأنعام مسخرة للإنسان ولولاها لما سد الكثير من حاجاته ولَما بلغ غايات أسفاره الا بجهد جهيد. ففي الخيل مثلاً جَمالها المحبب وهي ترعى ثم تعود إلى مراحها أي مأواها ليلاً، وهي مع قوّتها وضخامتها مطواعة للإنسان في حَمْله وحَمْل أثقاله. وفي الغنم والبقر يَنعمُ في غذائه من لحومها وحليبها وفي متاعه من جلودها ولها منافعُ اخرى. فالقدرة في كل ذلك هي قدرة من يحيي العظام ويحق الحق وهو بعباده رؤوف رحيم. وكشف من اسراره في خلقه بأنّ عِلْمَ الانسانِ لم يبلغ الإحاطة بما يخلق سبحانه. وقد اظهر من ذلك في تطور العلوم ما نشاهده من مسخرات الآلات والناقلات والأجهزة ما يؤيد قدرته.

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (9)

هكذا بعد بيان حقه تعالى وقدرته اوضح لعباده سبل عبادته وتقواه وترك لهم قصد السبيل أي اختياره ولو شاء لهدى الناس جميعا ولكن الهدى لمن ينيب اي لمن يرجع الى الفطرة السليمة. فمن كان خصيما أي ذا ريبة فلا تَقَبُّلَ لديه للهدى. ومِن حكمة الله تعالى في خلقه ترك الاختيار لكل مُكلّف (أي بالغ عاقل) فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. والكفر هو السبيل الجائر الذي يسلكه هؤلاء لزيغهم عن الحق. فكان لرحمته خَلْقٌ، ولعذابه خَلق وهو اللطيف الخبير.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً

لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (14) وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (17) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (18)

بعد ان بين المولى عز وجل مخلوقاته ذات الحياة والنمو والحركة يبين هنا وحدانيته في وحدة نظام الطبيعة المتجانسة مع بعضها والمتمم بعضُها البعضَ. ثم الزرع بما فيه من المراعي تسام فيها الانعام ومن حبوب الغذاء ومن الاشجار المثمرة. ويخص اهل التأمل في إظهار آياته ثم يبين تعالى آياته خارج الارض وفي فضاء الكون؛ فالليل في نصف الكرة الارضية يقابله النهار في النصف الآخر. ولا بد لذلك كله من امرٍ لرب واحد لهذا الانسجام. والواحد هو الله تعالى. فخص اهل العقول في اظهار هذه الآيات (ولا يزال علماء الفلك في دأَبٍ لإكتشاف اسرار الكون). ثم يبين منافع الارض وكنوزها من مختلف العناصر والمعادن ذات الخواص المتباينة والمتممة بعضها للبعض لتُشكِّل موادّ جديدةً كالسبائك والكيميائيات والعقاقير. وخص اهل الشكر في اظهار ذلك اذ يذكرونه في ما خلق وعُرِف به. ثم يبين تعالى فوائد البحار كمصدر للاسماك التي اسماها (لحما طريا) يُعَجَّلُ بأكلها قبل ان يدركها التفسخ أي طرية. ويبين بقية كنوز البحار وهدوئها لجريان السفن فيها ويبين اهمية الجبال في تضاريس الارض وضرورتها في مسالك المياه وسبل التنقل وتحديد الاقاليم. ويبين الاهتداء في السفر برّاً بعلامات من جبال وغابات وانهار ومدن. والاهتداء في البحار بالنجوم لما لها من مواقع تحدد الشمال كالنجم القطبي الذي يُعرَف به الشمال فهو مواجه للنهاية الشمالية لِمِحْوَر دوران الارض من غير تَغَيُّرٍ. وكل ما بيّنه المولى القدير حادث بفعل فاعل فالمخلوق له خالق. ولا بد ان يكون الخالق واحدا لعلاقة المخلوقات ببعضها بتنظيم منسجم. وهذا كله يجر اهل

التأمل الى بقية نعماء الحكيم الكريم فيعجزون عن احصائها ويستدلون من ديمومتها على انه تعالى لم يمنعها رغم ظلم الانسان فهو الغفور الرحيم. هذا في الدنيا وبعدها الآخرة نعيماً لمن إتّقى. وعذاباً لمن كفر بالله تعالى وجحد بآياته. فعلى العبد الإنابة عابدا لينال نعيم الاخرة بدلا من عذاب الله تعالى فيها وهذا ما يبيّنه سبحانه في الآيات التالية:

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (19) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (20) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (21) إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (22) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (23) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (24) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (25)

بعد بيان قدرته تعالى في المحيط الذي يعيش فيه الانسان ويبرهن على وحدانيته وحقه في إفراده بالعبادة دون غيره، يبين علمه بما يضمره عبادُه وما يعلنون ويبين إستحالة مثل هذه القدرة وهذا العلم على من يتوهم المشركون انهم آلهة ولا يرونهم أمواتاً يلفهم الفناء ولا يملكون شعورا بموعد بعثهم بعده. ومن لا يؤمنون بوحدانية الله تعالى ولا باليوم الآخر إستكباراً لا تصل قلوبهم الى الفقه ثم الى اليقين فهي في حَيْرَةِ الإنكار والشك. وهذا ما لا يخفى على الله تعالى. ولا عجب في ذلك ولا يمكنهم ان ينالوا نصيبا من محبة الودود الرحيم. ويؤوّلون هذه الحكمة والحجة العظيمة الواضحة كونها مثل ما جاء في اخبار الأولين والتي يعتبرونها مجرد اساطير! فاستحقوا الاثم الذي يحمّلهم كامل اوزارهم وأوزار غيرهم التي تأتي من تضليلهم وأوهامهم فيقترفون ما يغضب الله تعالى وهم لا يعلمون. فما أسوأَ ما كان منهم وما أسوأ ما كسبوا!

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (26)

المكر متعدد الأوْجُهِ؛ منه التحايل على إضلال الناس. فقد كان الطغاة من اعداء الرسل يبنون الصروح لتحدي الرسل عليهم السلام وتكذيبهم. ومنهم نمرود بن كنعان في زمان سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام اذ بنى صرحا اقتلعته الريح من حيث لم يحتسب وخرّ سقفه (كما جاء في التفاسير) وارسل الله تعالى على نمرود بعوضة دخَلَتْ مِنْخَرَهُ فكان يطلب من اتباعه ضرب رأسه لتخرج دون جدوى حتى اخذه الله تعالى اخذ عزيز مقتدر. ومن أوْجُه المكر ايقاد نيران الحرب بين الناس والسعي لإفساد الاخلاق وكل ذلك لتحدي نور الله تعالى فليعتبر المكذِّبون!

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (27) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (29)

المشاققة هي المخاصمة والمعاداة وسببها باطل من عبادة غير الله تعالى. وهي دأَب الكافرين في مواجهة الرسل واهل العلم. وجزاؤها في الدنيا الخذلان، وعند الموت إستسلام وحسرة وندامة، ويوم القيامة خزي أي إذلال. إذ يكشف الله تعالى مكرَ الذين شاقّوا الله والرُسُلَ والمؤمنين في ذلك اليوم وغدرَهم ويطلب منهم بيان مصير شركائهم الذين نسبوا لهم الربوبية. ويشهد مصيرَهم هذا اهل العلم حيث يرون الخزي الذي اراده الكافرون في الدنيا للصدق والصادقين والسوء الذي مَكَرُوا فيه قد تَبِعاهم ووقعا عليهم بعد أن ذاقوا حسرة الخسارة ساعة موتهم. وامامهم الخلود في جهنم حيث لا مأوى للمتكبرين سواها. فانقلب إستكبارُهم على الحق الى هوان وذل.

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (30) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (31) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (32)

الذين اتقوا هم الواقفون مع الشريعة في وِقايَةِ اللهِ تعالى من المعاصي والمناهي بعدما وقاهم من الشرك بإيمانهم به وبرسوله صلى الله عليه وآله وسلم. وحالما سُئلوا عن الوحي الذي جاءهم بالحق ذكروه بخيره عليهم فهو سببُ سعادتهم بجنة الدنيا التي هي افعال اهل الجنة، وجنة الآخرة جزاؤها أي جزاء تلك الاعمال برحمة الرحيم. كذلك من جزاء اهل التقوى أن ترحب بهم ملائكة الرحمة عندما يُدعَون (ساعة وفاتهم) الى ما أعدّ الله تعالى لهم. أما وصف الجنة فقد ورد فيه آيات عديدة في عدة سُوَرٍ من القران تُلَبّى فيها مشيئةُ أهلها ويأتيهم المزيد.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (33) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (34)

بالنسبة للكفار؛ ماذا ينتظرون بعد شركهم وغرورهم وأوهامِهم التي جعلتهم يقولون على الله ما لا يعلمون (جل علاه) إلا ان تاتيهم الملائكة الموكّلة بقبضهم بغتةً. فلا بد من ذلك، أو تقوم عليهم القيامة وهي أمرُ الله تعالى. وقد سبقهم اشباههم المتمادون بكفرهم فلقُوا مصيرَهم الذي استوجبه ظلمُهم لأنفسهم، وحاق (نزل وأحاط) بهم الوعيد الذي جاءهم على لسان الرسل اذ استهزأوا بهم وبما أُنزِل إليهم من ربهم.

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (35) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الْمُكَذِّبِينَ (36) إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (37)

لم تبلغ عقول المشركين بهم إلى الردع عن الغرور. فنسبوا لله تعالى بأنه قدّر عليهم إشراكهم به وعبادتهم لأصنام وأوثان تَبَعا لِما فعل آباؤهم مع تحريم ما أحلّ الله في تحريم بعض الانعام كما جاء عن الوصيلة والبَحِيرة والسائبة وغير ذلك. وقد رد المولى عز وجل عليهم بان الرسل ابلغتهم ببلاغ واضح أن لا يعبدوا إلا الله، وان يجتنبوا عبادة غيره من اصنام واوثان، وأن لا يلبوا دعوة طواغيتهم للاشراك بالله تعالى. فلو كان قد قدّر عليهم الضلالة من غير استحقاق لنسب الامر للقدر ولَما حاسبهم ولا جعل عاقبتهم الخسران. أما الذين عَلِم اللهُ تعالى منهم طلبَ الصلاحِ والثباتَ عليه فقد هداهم أي ارشدهم الى نيل ما طلبوا. وهذا من مشيئة الله تعالى لمن طلب الهدى. واما من لم يطلبوا الهدى فمشيئة الله تعالى أن يحق عليهم الضلالة من غير أن ينالهم ظلم. وفي هذه الايات تعريض لعناد كَفَرة قريش في الوقت الذي كان فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحرص على هداهم. فبيّن الله تعالى انه اضل الضالين على علم منه بقسوة قلوبهم على الحق فكيف يهديهم ومن يمنع حكم الله تعالى عنهم اذا أجراه عليهم فمن ينصرهم في هذا الامر وما بعده من عذاب؟ وهكذا يكتب الله مشيئته بغير ظلم على خلاف ما توهّموه.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (38) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (39)

غفل المشركون عن حكمة الله تعالى في المعاد ليبيّن الحق من الباطل ويميز الخبيث من الطيب فجهلوا ما يوجب البعث من حيث ضرورة إظهار الحق ومن حيث القدرة عليه ومن حيث صدق الوعد به. وعند تحقيقه سيعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين.

إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (40)

لا يحتاج رب العزة الى جهد وتأكيد او تكرار في اَوامِرِه فلا مؤخِّرَ لأمره ولا مانع يمنعه.

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (42)

من الطيبين الذين ميّزهم المولى عز وجل عن أهل الباطل هم أهل الهجرة الى الحبشة الذين كانوا موضع اذى اولئك المنكرين حتى اذا اشتد اذاهم أذِن لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالهجرة. فخرجوا من بين أظهر الكفرة مفارقين وطنهم واهليهم وكَسْبَهم. وكان منهم سيدنا عثمان ابن عفان رضي الله عنه وزوجته رُقَيّةُ بنتُ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومعهما جعفر بن ابي طالب رضي الله عنهما وما يقارب ثمانين من الرجال والنساء من الصحابة رضي الله عنهم. وقد إمتدحهم المولى تعالى بالصبر والتوكّلِ عليه وحقّق لهم وعده فعادوا بعد الهجرة الى المدينة حيث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عزيزا بين جند الإسلام. ويحقق لهم أكثر بأجره الكبير في الآخرة. والوعد عام لمن ظُلِم فصبر وتوكل على الله فهاجر ليحفظ له دينه.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44)

وكان من شدة الكفار على المؤمنين ان انكروا بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بحجة أن الله تعالى اعظم من أن يبعث بشرا رسولاً منه الى الناس، وفي هذا أخبر تعالى بقوله (وما ارسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم) فهم بشرٌ ويؤكد ذلك معرفةُ اهل الكتاب بأقارب وعشيرة موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام وبتفاصيل سيرة كل منهما كغيرهما من الرجال. فليرجع الكفار إلى أهل الكتاب

للتأكّد من ذلك. فما العجب إن أنزل سبحانه كتابه العزيز إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليبين للناس معرفة ربهم وعبادته جل وعلا ليتوجهوا بفكرهم الى برهانه لعلهم يفقهون ويؤمنون بما نُزّل إليهم وفيه النجاة من شقاء الدنيا والاخرة.

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (45) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (46) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (47)

مكرُ السيئات هو الأذى الذي لقيَه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنون من المشركين قبل الهجرة وبعدها. وهذا المكر مما يوجبُ على أهله من عذاب الله تعالى الخسفَ او غيرَه من العذاب يأتيهم بغتة عند أسفارهم وتنقلهم فهم اضعف من ان يمنعوا عنهم مثل هذا العقاب في الدنيا. او يوجب عليهم مكرُهم السيئُ حصولَ ما يتخوّفون منه مِن هَلاكٍ أو أخْذٍ شديد بشكل من اشكال الاقدار التي يتوقّعونها. وإذ لم يعاجلْهم ربهم سبحانه بالعقاب، حِلماً منه ورأفةً ورحمة، فإن ذلك إمهالٌ لهم ولا يملكون اذا جاءهم أن يردوه. وهذا ما يثير تخوُّفَهم.

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (48) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (49) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (50)

السجود ينفي الاستكبار. وما نفى الاستكبارَ من شيء فهو في معنى السجود لله تعالى. وقد اتصف كل مخلوق بصفة وجرى عليه حكم من الاحكام يجعله في هذا المعنى ساجدا شاء ام أبَى. وفي التفاسير: سجود كلِّ شيءٍ فَيْئُه، فالظل ينتقل من جهة الى اخرى مع حركة الشمس وهذا في الجبال والشجر والسحب التي تُلقي ظلالها على الارض وفي دواب الارض. وسجود ذوي العقول المكلفين بالعبادة من إنْسٍ وجن فإن كان في الصلاة أو التلاوة فهو عبادة وإلا فسجوده صاغِراً يكون بما يجري عليه من حكم. ويتسم سجود الملائكة بعلمهم بالله تعالى مما جعلهم في

خوف لا يستكبرون فهم لله تعالى في طاعة دائمة لا تشوبها شائبة. وفي ما قرأتُ: أن إبليس يؤخذ به إلى قبر آدم عليه السلام لتنفيذ أمر الله تعالى بالسجود له فيُرغم على ذلك قبل قيام الساعة!

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (51) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (52) وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (53) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (54) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (55)

إن قول المولى تعالى بصيغة الماضي: ((وقال الله)) خبرٌ عن قِدَمِ أمره بإفراده بالعبادة إلهاً واحدا. وقوله: ((واحد)) هو اثبات وحدانيته بعد قوله: ((انما هو إلَهٌ)) لأنّ العبادة تقتضي اثبات الوحدانية. واما الرهبة فتتعلق بالعبادة فإن مقام الرهبة أقرب في المعرفة من مقام الرغبة والرجاء. فالعابد الذي اطمأن الى الرغبة في ما عند الله من مغفرة ورحمة وعفو وفضل، واطمأن إلى الرجاء بِحُسْنِ ظنه بربه تعالى، فإنه إن زاده الله معرفةً أكثر وعِلْماً أوسع بقَدْر عظمة الخالق جل علاه فإنه عندئذ يشعر بالرهبة التي هي حصيلة التبصر بالحمد لكل صفة من صفات الله الحسنى (وكلها صفات حسنى وله الاسماء الحسنى) فلا يخشع قلبُه من رهبة الله تعالى إلا بنور اليقين وقَطْعِ أي رجاء من سواه. فله تعالى ما في السموات وما في الارض وله الدين أي الطاعة واجبة الاخلاص الواصب أي الدائم فلا تنبغي طاعة غيرِهِ بمعصيته أي بتركُ امرِهِ لأمرٍ غيرِ أمْرِهِ. فهو صاحب الفضل في كل النعماء ومرجع العبد في الضراء فيتضرع إليه بـ(الجؤار) أي يرفع الصوت بالدعاء مستغيثا. فإذا كُشِفَ الضرُّ عن المستغيثين يجحد فريق منهم نعمة النجاة فإما ينسبها لغير الله تعالى وإما أن لا يوفِّيَها حقَّ الشكر. وقيل المقصود بهم الكفرة لأنه تعالى توعّدهم، إن جحدوا وكفروا، بوعيد سوف يعلمونه بعد أن يُمتِّعَهم بالنعمة المكفورة. ولو أنهم شكروها إيماناً لزادهم من فضله.

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (56)
وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (57) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ
مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ
يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (59) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ
الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (60) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ
دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ
(61) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ
النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (62)

اقسم المولى عز وجل بذاته الجليلة أن المفترين سيُسألون عن افترائهم بشركاء لهم نصيب في ما يُرزَقون. وقد نسبوا البناتِ لله تعالى اذ قالوا ذلك عن الملائكة الكرام فأكسبوهم صفة الالوهية فعبدوهم مشركين إياهم مع الله سبحانه في الوقت الذي يخجل احدهم إذا رزقه الله تعالى بانثى ثم تأخذه الحيرة في ابقائها فيمسكها على هونٍ أي يسيئ في معاملتها تفريقاً عن الذكور، او يئدُها أي يدفنها في طفولتها المبكرة، ثم يشتهي أن تكون ذريته من البنين! والله تعالى جعل هؤلاء المفترين الذين لا يؤمنون بالآخرة مثلا في السوء أي الصفة السيئة في زيغهم عن حقيقة ما يهب لهم وفي شركهم كأنهم يرون ما يشتهون افضل من حكمته تعالى في صفاته التي لها المثل الأعلى. وقد امهلهم سبحانه مثلما أمهل الظالمين من العباد وإلا لأهلكهم واهلك الاحياء من غير البشر تبعا لهلاك البشر. وهذا يعني أن الظالم لا يضر نفسه فقط بل يجر الضرر على الاخرين. وللمهلة نهاية هي اجلهم الذي لا زيادة عليه حالما يحين. اما تقدير الاجل فلما تقتضيه حكمة الخالق عز وجل. وبالنسبة لأهل الصلاح فقد اخرج ابن ابي حاتم عن ابي الدرداء رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (إن الله لا يؤخِّر شيئا اذا جاء اجله وانما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها الله العبد فيدعون له من بعده فيلحقه دعاؤهم في قبره

فذلك زيادة العمر). ومن مكائد اهل الظلم بعدما نسبوا لله تعالى البنات سبحانه بقولهم ذلك عن الملائكة عادوا الى انفسهم بالرضى عن زيغهم وضلالهم وانهم يحسنون ولهم الحسنى في الدنيا فان كان ثمة معاد فكذلك لهم الحسنى فيه اذ يقول قائلهم: "ولئن رُجِعتُ إلى ربي إن لي عنده للحسنى" فكذّبهم المولى عز وجل وبشرهم بالنار وحق عليهم انه يُفْرِطَهم أي يتركهم منسيين فيها.

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (64)

لا يَدَعِ الشيطان من دُعي للاسلام من غير أن يعمل على صدِّه عن السبيل بأن يزين له ما هو عليه من عمل ووهم. وهذا ما حصل للاقوام الذين دعتهم الرسل كما حصل لكفار مكة فمن استجاب لوساوس واوهام الشيطان فقد بقي تابعا له يقوده الى عذاب اليم. بينما جاء القرآن الكريم مُنزَلاً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليبين على لسانه حقيقة كل خلاف وليكون دليلا الى رحمة الله لمن آمن واتبع هداه.

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (65)

نزولُ المطر على الارض الجُدُب ظاهرة ملموسة للعيان ونتائجها الخير في النبات الذي تحيا به الارض الميتة. وكذلك القرآن الكريم في هداه رحمة للقلوب التي تريد المعرفة وتحب الطاعة فهو هدىً ورحمةٌ لهم كما جاء في الآية السابقة. وهكذا يوضح المولى عز وجل الأمور المعنوية المجازية بالظواهر الملموسة بالحواس لتعيها القلوب وهذا هو سمع القلوب.

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (66) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67)

الانعام الأليفة هي الإبل والبقر والضأن والمعز. ومن يتأمل آيات الله تعالى يريه المولى تعالى فيها عبرة في الإلتفات إلى اللبن الحليب الذي يتصف بالطعم السائغ للانسان بينما يخرج من بين عناصر لها رائحة غير متقبّلة ولها الوان عَكِرة؛ فالفرث هو ما يتبقى من الطعام في معدة الانعام المنتجة للحليب أي في كرشها، بينما يخرج الحليب خالصا من الشوائب والالوان سائغ الطعم. وبعد الغذاء من الحيوان ثمة آيات الغذاء من النبات. وخص بالذكر النخيل والأعناب وهما مما يمكن للانسان أن يستخرج الضار والنافع من اصل واحد. فالخمر منهما لقوم لا يتبينون حقيقة ما يفعلون، والغذاء النافع قابل للخزن بتجفيفه كالزبيب والتمر أو بعمل العصير (الدبس) منه. فالخزن يحفظ منتوجه مدة طويلة بعد انقضاء موسم قِطافِه. وفي الْمَثَلَين آية لقوم يتبينون الحقيقة بعقولهم.

وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69)

الوحي الى النحل يناسب خواص الحيوان فيكون بإلهامِهِ وغرس غرائزه التي يتوجّه لإشباعها فيهتدي لِما يلائمُها من تصرّف تنفرد به من بين أصناف الحشرات المجنحة، فهي أطول أعمارا وتسلك طريقها ذُلُلا أي سهلة واضحة الى بيوتها دون بيوت غيرها فتعود إليها بعد امتصاص الرحيق الذي يتحول الى شمع وعسل بقدرة الخالق جل وعلا الذي جعل فيه شفاء للإنسان من اضطرابات الجسم وغيرها مما يَعْلَمه الله تعالى ويُعَلّمُه لذوي التخصص. وفي هذه الخواص ما يثير التأمل والتفكير في علاقة العسل بوظائف الجسم في خلاصها مما يؤثر في صحة أدائها.

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (70)

لِله سبحانه وتعالى تقديرُه في الإنسان عن علم وقدرة منذ الخلق حتى الوفاة. وجعل أرذل العمر سبباً لمن كان ذا علم وقوة بأن لا يزداد علما بل يكثر نسيانه وتضعف قوته. والارذل هو الادنى قدرا. ويتفاوت سن الانسان الذي يعتبر من ارذل العمر حسب الافراد. فمنهم من يبدأ به الضعف والنسيان مع بداية الشيخوخة. ومنهم من يتجاوزها في علم ونشاط وعافية. وفي الطب الحديث يعزى تدني القوى الى بطئ تجدد خلايا الجسم وإنحلال خلايا الدماغ. وقد رأيتُ في بغداد وبالتحديد سنة ثمان وتسعين وتسعمائة والف للميلاد من جاوز المائة السنة بسنوات يكتب ويقرأ و يركب الحافلات في تنقله ومراجعاته مدركا لتصرفاته حكيما في اقواله مع انه كان في الحرب العالمية الأُولى 1914-1918م اسيرا في روسيا ضمن اسرى الجيش العثماني آنذاك. وسبحان من بيده تقدير ما يشاء ويقضي أمراً كان مفعولا.

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (71)

بعد ذِكْرِ الخَلق والأمر يبين المولى سبحانه تفضيلَه بالرزق، خاصّةً بين المملوكين وبين أسيادهم، فإن أي مكذِّب من مترفي مكة لا يرضى أن يشاركه عبد مملوك له في رزقه. فلا ينبغي للرزاق سبحانه أن يشاركه مخلوق لا يملك لنفسه رزقا؟ فالله تعالى احق ان يُنَزَّهَ عن الشريك واحق ان يُشكَر في نعمته واحداً لا شريك له. ومن الجحود أن يجعلوا عباداً له شركاء له في ما يملك.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (72) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (73) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (74)

الجنس البشري شِقّانِ؛ ذكور وإناث من نفس واحدة أي أن كليهما من جنس واحد عبّر المولى عن ذلك بقوله تعالى: (من أنفسكم). ويكمل أحدهما الآخر في الزواج وجعل ذلك سبباً للرزق بالأولاد وأولادِهم وأسماهم الْحَفَدَةَ، (جمع حافد الذي يسرع في الخدمة). ورزق الجميع أسباب العيش من الطيبات (المأكل الحلال) وهذا لا يكون إلا من ربٍّ واحد. والإيمان بغير هذا باطل يحمل الكفر بنعماء الله تعالى إذ يَعبُد المشركون من دونه ما لا يملك لهم الرزق الذي سخر الله تعالى له السماوات والأرض. وهكذا يبين المولى عز وجل أنه لا يماثله غيره فلا يُضرَبُ له مَثَلٌ كما فعلوا في غفلة عن هذا الحق بأن جعلوا له من يماثل صفاته التي لا يملكها غيره. فهم لا يعلمون.

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (75)

لا يمكن أن يتكافأ المملوك الذي يخضع لإرادة غيره مع الذي يملك حريته غنيّاً عالِماً يتصرف برزق الله تعالى تصرفا يرضيه. فالله تعالى مُنَزَّه أن يكافئه من هو خاضع لمشيئته وتقديره. ومع وضوح هذه الحجة التي تدخل في فهم الأذكياء فهي لا تدخل في علم الكفار المشركين.

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (76)

الامر بالعدل يصدر من ذوي العقول الواعية التي تدرك اثر العدل بين الناس. فاذا كان مَن يأمر بالعدل على هدى من ربه فقد بلغ منزلةً في مقدمة الناس ولا يعقل أن يقارن برجل ابكم أي أخرس بالولادة ولا يفهم ولا يقوم بعمل يحصل الخير منه. ومن قبيل ذلك كان لسيدنا عثمان رضي الله عنه مولى ابكم كلما اراد سيده النفقة لوجه الله تعالى ينهاه في إشارة تدل على الفقر! وكان يأبى أن يوجهه سيده

الى معروف. فهذان مَثَلان لرجلين إثنين: عاقل عادل، وجاهل ظالم. فكيف يجعل اهل الشرك لله تعالى نِدّاً وهو اكرم الأكرمين في عدله وحكمته سبحانه.

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (77) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78)

ينبهنا المولى تعالى إلى ثلاث قدرات إلهية يخضع لها الإنسان ولا إرادة له فيها. وهن من الغيب الذي لله تعالى ويُظْهِرُ أمرَه فيهن في الوقت الْمُحكَم عنده فلا يتأخر تنفيذ أمرِه؛ أولها أمرُ الساعة لأن مسببات قيامها مهيأة بقدرته تعالى لتحصل كلمح البصر، وثانيها إفتقار المولود حديثا لكل علم وبهذا يستوي المولودون جميعا، وثالثها تفاوت أسباب العلم أي السمع والبصر والفؤاد بمنحه منها ما ييسّر العبدَ لِما خُلِق له لعلمه تعالى بما سيتجه إليه العبد بكامل عزمه. وفي كل ذلك يُعَرِّفه على تفرُّدِ ربه بالفضل لعله يعبده فيه فلا يشرك غيره به. وهذا وجه من أوْجُهِ الشكر.

أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (79)

وينبه الله تعالى الى ظاهرة مألوفة في الحياة اليومية للناس قلما يدركون اثر المولى القدير فيها وهي انطلاق الطير بجناحيه في الجوء فلا يدركه من البشر من يمسك به بينما لم يكن للطير أن يفعل ذلك لولا آيات الله تعالى في تركيبه وتسخيره. وتزيد هذه القدرة من علم المؤمنين وايمانهم فهي آيات لقوم يؤمنون.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (80) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (81)

وينبه المولى عز وجل الى جانب مادّيٍّ من الحياة في السَكَن فهو في المدن بيوت مشيَّدة، وللبدو بيوت متنقلة من جلود الانعام. وجعل من وَبَرِ الإبل وصوف

الغنم وشعر الْمَعْزِ مادةً لنسج الملابس والبُسط والسجاد وغيرها من الأمتعة شأن أي متاع دنيوي له وقت فيه يحين اجله. وينبه الى جانب الوقاية من تقلب المناخ حيث يتخذ الناس السُقُفَ للظل كما يستظلون بظلال الشجر في المناطق المشجرة. كما جعل الجبال ذات منافع كثيرة؛ ففيها أكنان أي سُتُور وكهوف ومعاقل، وهي مصايف ومراعٍ. ومنها ما فيه الغابات ومنها الجرداء. وينبه الى الوقاية من تقلُّب الجو صيفاً وشتاءً بالسرابيل أي القمصان المناسبة للفصول. كما علّم الانسان صنع الدروع للوقاية من بأس الحروب. وهكذا اينما يتوجه الانسان يجد النعمة بتمامها من رب لا شريك له فما يملك احد من اهل العقول والقلوب السليمة إلّا ان يسلم نفسه لله تعالى مؤمنا بوحدانيته في الخلق والامر.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (82) يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (83)

ذكر تعالى موقف اهل الشرك في جاهليتهم ثم مبعث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم برسالة الله تعالى لهم في ترك عبادة ما دونه من صنم او وثن او طاغوت. كما أورد الحجة (في بلاغ مبين أي موضَّح) على ما يحيط بهم من ظواهر ونعماء لا أثر فيها لغير الله تعالى. فاذا انكر الكفار من قومه كل ذلك وهو صلى الله عليه وآله وسلم حريص على هداهم فما عليه سوى تبليغ الرسالة. وقد دخلت هذه الحجج في علمهم وعرفوا النعمة الربانية فما لَقِيَتْ منهم القبول. وأكثرهم تولّوا وهم الكافرون. وروى إبن أبي حاتم عن مجاهد أن أعرابياً جاء الى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وسأل عن الدِّين فقرأ عليه الآيات السابقة وبعد كل آية يقول الاعرابي: (نعم)! فلما انتهى صلى الله عليه وآله وسلم الى قوله تعالى (كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهَ عَلَيكُم لَعلَّكُم تُسْلِمون) (الآية 81) ولّى الاعرابيُّ فنَزلت (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون).

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (84) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (85) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (86) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (87) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (88)

يبعث الله تعالى من كل أُمة من يشهد عليها يوم القيامة بما كان موقفهم من دعوة الرسل. وهنا يظهر للذين كذّبوا الأنبياء بُطلان أي عذر يبدونه ولا يؤذن لهم بإظهار ما عندهم من دفاع لأنهم سيُكذَّبون ويعلمون أن كذبهم مكشوف لربهم ولأنبيائهم. وبعد مجيء الشهداء يؤتى بجهنم فلا يجد الذين ظلموا فيها موطئا ذا عذاب خفيف ولا مهلة تعيق وصولها إليهم لأنهم لم يخففوا غلواءَهم في تكذيب الانبياء وسرعتهم في الصد عن سبيل الله. وبعد ذلك تتبرّأ أصنامهم وطواغيتهم منهم ويقولون لهم اننا لم نأمركم بعبادتنا وانكم لكاذبون فيها فيكفر بعضُهم ببعض. فلما لم يجدوا من يشفع لهم وقد تفتحت بصائرهم على الحق في وحدانية الله تعالى في ربوبيته يستسلمون لهذا الحق الأزلي. وهنا يجد من كفر عذاب كفره. ومن اشتد في صد الناس عن سبيل الله تعالى فأفسد عليهم حياتهم يجد زيادةَ عذابٍ فوق عذابه مثلما زاد فوق كفره إفسادا في الدنيا.

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (89)

يذكّر المولى عز وجل رسوله صلى الله عليه وآله وسلم (بعد بيان مشاهد الكفار في البعث) بيوم فيه يُظهِر الله تعالى فيه حق القرآن على من بلغته رسالة الاسلام. فقد شمل تفصيل كل حجة جالت بخواطر من آمن ومن كفر فكان للمسلمين مَعالِمُ يهتدون بها ونجاةٌ يُرحَمون بها وبشرى بالجنة يفرحون بها. فالمعالِم هي شريعة الله تعالى في الأحكام والحلال والحرام وفي المناسك والعبادات وفي المعاملات

والعيش. واما النجاة فهي شمول رحمة الله تعالى للمؤمنين واقتصارها عليهم يوم البعث. والبشرى هي تحية الملائكة وتبشيرهم بالجنة لهم بما صبروا فنعم عقبى الدار في خلود لا موتَ بعده وفي سعادة لا شقاء معها ولا بعدها. وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين.

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (91) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (92) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (93) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (94) وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (95) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (96) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (97)

العدل: هو الموازنة بين حَقَّينِ او اكثر بالقسط. ثم الإحسان: وهو الفضل الذي يندب الله تعالى له بقوله (ولا تنسوا الفضل بينكم) أي أن صاحب الحق مدعوٌّ بعد اخذ حقه الى تلبية نداء الرحمة والفضل بالتصدق على من يرى له استحقاقا للفضل وأن ذلك لا يضره في شيء. فالقَصاصُ عدل والعفو فضل فهو إحسان. واما إيتاءُ ذوي القربى حقوقَهم: فهي التي نص المولى عز وجل عليها في صلة الرحم والصدقات وما ندب اليه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من تراحم وإقالة العثرات وتخفيف الشدة والنصيحة لهم. وأما الفحشاء والمنكر: فمتعلقان بالظاهر والباطن في عمل الانسان ونيته فقد يعمل ما يبدو صالحا والنية من ورائه معصية او ظلم فهذا منكر. واذا كانت النية إفساد الفضيلة فهذا فحشاء لأن

الفحش شدة القبح في الذنوب. وأما البغي: فهم تعمد تجاوز الحد على حقوق الغير. وهكذا يبيِّن الله تعالى ما يُذكّر به المؤمنين جاعلاً أمرَهُ ونَدْبه موعظةً لهم تكون أمام بصيرتهم يذكرونها. وأما الوفاء بالعهود: فالعهد هو ما اعطى المؤمنُ عليه موثقا أي حلف عليه يمينا بالمحافظة على عهدٍ عَهِدَه لغيره أي أن هناك أمراً متفقا عليه بيمين. فَعَلَيه الوفاء به. واما التحلل من الأيمان التي يرى المؤمن خيرا مما حلف عليه فهي ما يتعلق بأفعال ينوي القيام بها ثم يرى افضل منها فَيُكَفِّر عن اليمين. ولكن الحلف أي التحالف لا يدخل في التحلل من اليمين. ولهذا لا حلف في الإسلام إلا ما كان في الجاهلية فلا بد من تنفيذه لمن حالفهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المشركين والكفار. وأما المعاهدات الدولية فتختلف عن الحلف لأنها يجب أن تكون ضمن تطبيق الشريعة الإسلامية وهذا إظهار للشريعة التي يوضحها المؤمنون لمن تكون معهم علاقة من غير الأُمم الإسلامية. أي أن الدولة المسلمة تبين لهم بأنها ستتبع هذا المنهج فهي تتفق معهم على شروطه فالإتفاق معهم إذاً تنفيذٌ للشريعة ولا يخالفها. ويشار هنا إلى مراعاة المصالح المرسلة للمسلمين وسد الذرائع ودرء المفاسد. وشرح ذلك بإختصار: هو أن يتخذ امراء المسلمين المخرج الأقربَ للشريعة فاذا اقتضت ضرورةٌ مُلجِئة لدفع خطرٍ، فعلى الأمير ان يستنفذ كافة الوسائل المشروعة لدرئه قبل أن يلجأ الى ما لا بد منه لدرئه بوسائل اخرى اقرب فاقرب للعدل والحق. على أن لا يلجأ لجلب المصالح للمسلمين بطرق غير مشروعة إلا اذا سُدت كافة الذرائع المشروعة وكان لا بد للمصلحة أن تتحقق فيلجأ الى ما هو أقرب للحق والعدل. مع مراعاة تقديم درء المفاسد على جلب المصالح، وهكذا. واما الوفاء بعهد الله تعالى: فهو اذا عاهد المؤمنون بالبيعة على الاسلام وفيها البداية بـ(إسم الله تعالى) فيعتبر يميناً ويكون الله تعالى عليه كفيلا ورقيبا لأن الكفيل يرعى المكفول ويوجِّهُه. والله تعالى عليم بكل ذلك ويجازي عليه. وشبّه تعالى نقض الأَيمان بتقطيع الغزل المتين بعد بذل الجهد في غَزْلِهِ متينا. فإن

تقَطّع فلا نفع منه. والأنكاث هي قِطَعٌ غيرُ مترابطةٍ ولا تنفع تتخلف بعد حَلِّ فَتْلِ الخيط. وبهذا النقض تُتَّخَذُ الأيمانُ دَخَلا أي تُدخِل الفساد والخيانة والخديعة بين المتعاهدين لمصلحة قوة أُمَةٍ (جماعة) على قوة أُمّة (جماعة) اخرى فمثلاً ينقض العهد مع الأُمّة الضعيفة ليعاهدوا القوية غدراً بالأُولى. فنهى الله تعالى عن ذلك ويشمل ذلك لزوم ترك الغدر بالعدو المتفِق على وقف الحرب (أي الجنوح للسلم) قبل إنقضاء مدة العهد كما جاء في سورة الأنفال. وقد عدّ سبحانه هذه الأحوال (التي فيها عهد) من أحوال الامتحان لبيان صدق الصادقين. وكل ما يحصل من خلافٍ بعيدٍ عن الشريعة سيحاسِبُ اللهُ تعالى عليه كما يثيب على موافقة الشريعة بالتمسك بالوفاء بالعهد بدون نقض. ولو شاء الله تعالى ان يهدي الجميع لما غرز في البشر صفة الإختيار (وهو غريزة توجِّه النَفْسَ بعد إستشارة العقل). وهكذا اقتضى حُكمُه تعالى أن يكلف الانسان العاقل بالطاعة ويُنير له طريقها ويترك له الاختيار فيهدي سبحانه من سبق علمه انه سيهتدي منتفعا بعلمه وفقهه رادعاً للنزعات التي تبعده عن الهدى، ولا يهدي من علم فيه اختيار الكفر والفسوق عن امر الله تعالى. ويبقى يوم القيامة ينتظرهم للجزاء على العمل. وكرر سبحانه النهي عن إتّخاذ الأَيمان التي اعطَوها أن يكون فيها الغدر وذلك تأكيدا للثبات على الإيمان ومبايعة اهل الإيمان كما بايع الاصحابُ رضوان الله عليهم رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم. وما لم يثبت المؤمن يُخشى عليه من زلة القدم بما أعرض عن الشريعة والأحكام الشرعية والطاعة المطلوبة ويخشى بعد ذلك من عذاب عظيم في الآخرة بعد أن يمسهم السوء في الدنيا. ونهى سبحانه عن التحول عن الطاعة وهي العهد الذي اعطاه المؤمن لله تعالى (اذ قالوا سمعنا واطعنا) باستبدالها بثمن دنيوي. وقد كانت فرقة من المشركين قد اسلموا وعاهدوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عندما كان بمكة قبل الهجرة فلما علم كفار قريش بهم بذلوا لهم مواعيد دنيوية إن هم عادوا الى الشرك بعد أن أظهرت قريش (كذباً) قوّتَها ومدى ضعف المسلمين.

ولكن الله تعالى ثبّت المؤمنين بهذه الآيات فبقَوا على العهد ونَجَوا من إغراء الكفار بالعودة الى نقضه. وهنا ينبِّه المولى تعالى الى فناء الدنيا وبقاء كرمه في الآخرة للصابرين. وبشَّر سبحانه أهل العمل الصالح المقترن بالإيمان بأنه قد كتب لهم الحياة الطيبة في الدنيا والجزاء بالحسنى في الاخرة. وفي التفاسير ان الحياة الطيبة في الدنيا هي إحسان الظن بالله تعالى، فإن أصاب المؤمنَ فقرٌ قنع، او ابتلاءٌ صبر، أو غِنَىً شَكَرَ وقَصَدَ وجهَ الله تعالى بغناه. ويضاف الى حياته سرور الطاعة والشعور بطمأنينة قُرْبِه من الله تعالى. وهذا ببركة الإيمان لأنه تأسس عليه فاتّجَهَ العمل لوجه الله تعالى. وما لم يكن لوجهه تعالى فهو رياء أو باطل لا ثواب عليه في الآخرة.

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآَنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (100)

في التفاسير أن الإستعاذة بالله تعالى تكون قبل قراءة القرآن. وجاء قوله تعالى: (فإذا قرأتَ) بالفعل بصيغة الماضي مع: (إذا)، وهي ظرف للمستقبل فكان الشرط تعبيراً عن القصد بالقراءة. فيكون المعنى: (فإذا أردتَ القراءة). ونبه تعالى الى مكائد الشيطان في وساوس الغفلة او عدم التفكُّرِ في آيات كتابه الكريم. وأما صيغة الإستعاذة فهي كما في السُّنَة: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم). وأما صفة الرجيم فقد لحقت بإبليس عندما طُرِد من الجنة لإصراره على المعصية. وقد بيّن الله سبحانه أن الشيطان ليس له سلطان على المؤمنين المتوكلين على ربهم تعالى في إتباع منهجه وهُم الملتزمون بالشريعة. إنما سلطانه على من يخرج عن الشريعة بما يزيِّن له الشيطان من المقاصد الباطلة. فإن أطاعه فقد تولّاه وكانت طاعته شركاً بالله تعالى والله تعالى أغنى الشركاء.

وَإِذَا بَدَّلْنَا آَيَةً مَكَانَ آَيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى

لِلْمُسْلِمِينَ (102) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (103)

ان إرتقاء المؤمنين في مراتب الايمان وتبدل احوالهم وما يجري من جديد في سياق حياتهم وجهادهم يجعلهم مؤهَّلين لأحكام وعلوم أعلى ينْزِل بها القرآن من رب العزة. فإن جاءهم هدى وبشرى إستوجبا نَسْخ آية انتهى حُكْمُ نُزُولِها قال كفار مكة بأن القول الأول اختراع! فأتاهم الجواب بأن الذي نزل به هو أمين السماء سيدنا جبريل عليه السلام الذي هو روح القدس أي الطهر او الروح الطاهر الْمُنَزَّه عن أن يبدل من عنده. قد نزل به من أجل حقٍّ يُحِقُّه الله تعالى لثبات اهل الايمان في مراتب رقيهم ودليل يرشدهم، وبشارة تطمئنهم. وكشف الله تعالى تقولات الكفار عن القرآن وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ قالوا بأنه موضوع يتعلمه من بعض مَن يقرأ التوراة والانجيل. وكان ممن يقرأهما رجل يدعى (يعيش) من الاعاجم مملوك لقرشي اسمه حويطب ورجل يدعى (جبر) رومي مملوك لعامر بن الحضرمي وكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يعرفهما قبل البعثة اذ كان احدهما بياعا يعرض بضاعته عند جبل الصفا وكان يقرأ من التوراة والانجيل فعُرِف بذلك ويشار الى من يراجعه بأنه يتعلم منه وقد اسلم الرجل وحَسُن اسلامه بعد البعثة فما كان من كفار قريش الا أن التفتوا الى تبريرٍ غير معقول بأن القرآن تعليم من هذا الرجل. وهكذا بلغ بهم ضعف عقولهم الى تجاهل فصاحة القرآن وبلاغته (بإقرارهم بذلك) مع كون لسان ذلك الرجل أعجمياً لا يملك هذه الفصاحة التي أعجزتهم.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (105)

اذا اختار اهل الكفر الوقوف موقف العناد والتعنت فإن الله تعالى يحجبهم عن الحقيقة لعدم إستعدادهم لنيل الفائدة منها، فلا يهتدون الى فقهها ويكون موقفهم موجباً لهم لعذاب أليم. ويكونون أَوْلَى بصفات الإفتراء من أن يلصقوها بالمؤمنين.

فالكفار لا يؤمنون بآيات الله تعالى. وبهذا لا يحسبون للقائه تعالى وقاية فلا يلتزمون بالصدق فتَحُقُّ عليهم عند الله تعالى صفة الكاذبين.

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (106) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (107) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (108) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (109) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (110)

ثلاثة امور مهمة في هذه الآيات؛ الأول اطمئنان القلوب وسكونها بالإيمان بالله ايمانا ظهر من مكمنٍ عندما تعرض لخطر، والثاني الايمان العارض الذي لم يغلب في قلب صاحبه على ما سوى الله تعالى بل تعلّق بالدنيا، والثالث الكفر بعد الإيمان بإكراه ثم العودة الى ما طابت به نفس المؤمن قبل الإكراه ففضّله عليه. فما هو أثر الإيمان بالله تعالى في ذلك على أهل كلِّ صنف منهم؟ فالايمان الأول لا يزعزعه اغراء والثاني يفلت في حب الدنيا. وأما الثالث: الكفر تحت وقع التهديد الى حد الإكراه فهذا لا يغيّر طمأنينة القلوب وسكونها بالايمان فهو لا يغير صفة المؤمن الى مرتد. فالمرتد هو الذي اختار الكفر من غير إكراه فطُبِع على قلبه أي أُغلق وغفلت بصيرته عن الحق فلا يرى او يسمع على وجه الصحة فلا عجب أن خسر الآخرة لأنه لم يقدّر عاقبة كفره. أما موقف الذين أُكرِهوا على الكفر لفظا فقد بشرهم تعالى بانه سيكون لهم غافرا وليس عليهم غاضبا. وفي التفاسير أن الاصرار على الايمان رغم اشد درجات الاكراه افضل. وأما من بدل كفرا بعد ايمانه أي اصر على الردة عن الاسلام رغم دعوته ثانية اليه فقد جاء في مسند الامام احمد أن معاذا بن جبل رضي الله عنه قَدِمَ على ابي موسى رضي الله عنه باليمن

وعنده رجل فقال: "ما هذا"؟ قال "رجل كان يهوديا فأسلم ثم تهوّد ونحن نريده على الاسلام منذ شهرين" فقال: "والله لا اقعد حتى تضربوا عُنُقَه"! فضُرِبت عنقه. فقال سيدنا معاذ رضي الله عنه "قضى الله ورسولُه أنّ من رجع عن دينه (أي من المسلمين) فاقتلوه" وفي لفظٍ: "من بدّل دينه (أي من المسلمين) فاقتلوه".

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (111)

الجدل عن النفس يدل على أنّ النفس لا تجد من يجادل عنها إلا دفاعَها، وذلك يوم الحساب فلا تجد زيادة على جزاء الشر ولا تجد نقصا في ثواب الخير ولو بلغ مثقال ذرة.

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (112) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (113)

اورد الله تعالى هذا المثل لمشابهة مكة آنذاك في أمنها وطمأنينتها للمثل ولِمَا يأتيها من رزق من شتى البقاع، ولا سيما في الأشهر الحُرُم مع ما لها من تجارة الصيف والشتاء. فكان المثل تحذيراً لأهلها لكي يشكروا نعمة الله تعالى في بِعثَةِ رسوله صلى الله عليه وآله وسلم. وأن لا يَجحدوا هذه النعم. فإن جحدوها كالقرية المضروبة مثلاً قدّر الله عليهم الجوع والخوف حتى يعمَّ فيهم. وإن كذّبوا بآيات الله تعالى يأخذْهم العذاب حال ظلمهم. وقد حصل مثله لهم اذ جاءتهم سَنَة من القحط اذهبت اموالهم ثم انتابهم خوف من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وممن معه بعد هجرته للمدينة وقوة المسلمين فيها. وأتاهم عذاب قتلى وجرحى بدر. واخيرا فتح الله تعالى على رسوله مكة وكُسِرت اصنامهم وجاءهم الاسلام بالحلال الطيب بعد أن كانوا يُحرِّمون ما أحَلَّ الله افتراءً عليه.

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (114) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (115) وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (116) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (117)

تقدم في معاني الآية الثالثة والسبعين بعد المائة من سورة البقرة معنى ما أُهِلّ لغير الله به اذ كان المشركون يقومون بالذبح لأصنامهم فيتوَجَّهون بأصواتهم اليها والذبح بإسمها. واما (الباغي) فهو المضطر ولكنْ يملك بقية من تحَمُّل الجوع فيتعجل فيأكل من المحرَّمِ قبل بلوغ خشية الموت جوعاً. واما (العادي) فهو الذي يتجاوز الحد في الاكل من الحرام اكثر مما يسد رمقه في امله ببلوغ الحلال. اذ المفروض أن يتوقع وصوله الى بلد فيه يجد الحلال فلا يتعدى سد الرمق. ويأمر الله تعالى بالشكر، وللشكر معانٍ؛ منها الإقرار بكون النعمة من الله تعالى وحده، وأن لا يستعين بها العبد على معصية، وأن يجعلها سببا للعبادة حامدا. فالحمد باب الشكر والله يحب أن يرى أثر نعمته عليه فلا يبخل في مَواطن العطاء. واذ اورد تعالى بيان الحرام فقد نهى عن تحريم ما ابتدعه مشركو قريش في جاهليتهم من حرام بزعمهم فأطلقوا عليه اسماء من عندهم كالبَحِيرةِ والحام والسائبة والوصيلة مما مرّ ذكرُه في شرح الآية الثالثة بعد المائة من سورة المائدة. وكل هذه البِدَع والأوهام كانت سببا لخيبتهم في حياتهم الدنيا الزائلة يُتوقع لهم منها عذاب أليم على الوصف الكاذب المفترى. وهذا الوعيد يشمل كل بدعة تُحلّل حراما او تحرّم حلالاً من غير سند شرعي.

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (118)

ورد التحريم على اليهود في الآية السادسة والاربعين بعد المائة من سورة الانعام وقد استحقوا ذلك كما شُرِح في تلك الاية لتجاوزهم على الشريعة في معصية اوامر الله تعالى.

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (119)

الجهالةُ هي حالةُ غياب تقدير العاقبة لدى المؤمن في عمل السوءِ لِغَلَبَةِ هوىً من أهواء النفس والمقصود به تحقيق ما كانت تصبو إليه نفسه وليس المعصية. فاذا انتبه الى فعله ندم وتاب ثم اصلح بالإستقامة. فقد أكد الله تعالى ولايتَه له بمغفرة الذنب ورحمتَه إياه بقبول التوبة.

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (123)

سيدُنا ابراهيم عليه السلام لم يقرأ كتابا عن الله تعالى ولم تبلغه رسالة من رسولٍ قبله ولكنه اتّبع سلامة الفطرة بقلب سليم فهداه الله تعالى وجعله مَعْلَمَاً للخير وهذا معنى (أُمّة) أي يمثل أُمّةَ الإيمانِ في وسَطٍ يمثل أُمّةَ الكفر. ولم يَقْصُرِ الايمان على نفسه بل بادر لنشر الدعوة للايمان بالله تعالى مطيعا من غير أن يرى من نفسه حرجا مما علَّمه الله تعالى. فهو قانتٌ لربه أي مطيع، وهو حنيف أي متّجهٌ الى الوحدانية مائلا عن الشرك وعن رؤية غير الله إلَهاً يُعبد من صنم أو من طواغيت البشر. فلم يكن راضيا عن حالة الشرك في قومه فانفرد عنهم بالايمان. ولما امره تعالى بالفروض قام بها مع شعور الإمتنان لربه الذي اجتباه أي اختاره واصطفاه ثم هداه الى شريعة الحق. وقد حقق له تعالى ما وعد به المؤمنين الثابتين على الصراط المستقيم من حياة طيبة ومنازل الصالحين في الآخرة. وبعد ذكر سيدنا ابراهيم وما

كان عليه أوحى اللهُ تعالى لرسولهِ محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن يتّبع ملته المبنية على الطاعة والشكر، المقصورة على عبادة الله تعالى بلا شريك. وفي هذا تكريم وتشريف لسيدنا إبراهيم عليه السلام، وتكذيب لكفار قريش بإدِّعائهم أنهم على ملته، وحجة على اهل الكتاب باتباع مِلّتهِ ولكنهم اختلفوا كما قال تعالى:

إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (124)

اختار بنو اسرائيل يوم السبت يوماً للعبادة لإعتقادهم بأنه اليوم الذي لم يَخلق فيه الربُّ شيئا كما جاء في أخبارهم بأن الخلق كمُل يومَ جُمُعَةٍ. وكان فريق منهم يلتزم بيوم الجمعة لسماعهم ذلك من سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام. فحصل الاختلاف فكتبه الله تعالى (أي كتب السبت) عليهم على أن لا يصطادوا فيه من البحر فابتلاهم بمجيء الصيد اليهم يوم سبتهم كما جاء في شرح الايتين الخامسة والستين من سورة البقرة، والثالثة والستين بعد المائة من سورة الاعراف. وأما الاختلافات الأخرى فهي إنكارُ رسالةِ سيدنا عيسى عليه السلام، واتجاههم الى بيت المقدس في صلاتهم مع تحولهم الى شرق الصخرة خلافا للنصارى المتجهين الى غربها. وما ظهر بعد المسيح عليه الصلاة والسلام من تقديس الصليب وإبدال السبت بيوم الاحد بعد اعتناق الامبراطور الروماني قسطنطين المسيحية في القرن الرابع الميلادي. ثم اختلافهم في الاعياد. مع أن سيدنا المسيح عليه الصلاة والسلام لم يترك من شريعة التوراة إلا الأمور التي بلّغه الله تعالى بنسخها ولا تدعو للخلاف. وبشّر بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فلم يأبهوا لذلك. وكل هذا وغيره في الاختلاف على المناسك والاشخاص سيُفصَل فيه بينهم بحكم الله به يوم القيامة.

ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (125)

على الرسل دعوة الناس الى سبيل الله أي سبيل الوصول الى قبوله ورضوانه ووجهه الكريم وهو صحة عبادته طبقا لأمره ونهيِه. وأما كيف يدعون فبالذي يرون انه ايسر الاساليب ومنها ايراد الحجة التي ترتضيها العقول، وهي ما يتحلى بالحكمة. وإبلاغ الرسالة، وهي الموعظة الحسنة، وبالجدل لإظهار ميزة الحق عن الباطل، ولكن بالتي هي احسن. أما عاقبة هذا النهج من اهتداء المبلَّغين او رفضهم للهدى فما تدخل في مسؤوليات النبي صلى الله عليه وآله وسلم. فان الله تعالى يعلم بذلك من الأزل ولكن ليعلم مَن يتبع الهدى ومن يبقى على ضلال. وهو اعلم بما سيكونون عليه من قبل أن يبعث الرسل عليهم السلام. وهذا (علم ظهور) أي إظهار الحجة لهم أو عليهم.

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (126) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (127) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (128)

نزلت الآيات بعد غزوة أُحُد حيث توعّد المؤمنون أن يمثِّلوا بمن يقتلونه من قريش بعدما شاهدوا ما حصل للشهيد الحمزة عليه السلام من التمثيل بجثته. فنهى المولى عز وجل عن ذلك وفضل الصبر. وطلب من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ان يكون صبرُه بالله بما يعلم عن حكمته تعالى في مجريات الأمور. وأن لا يحزن على من خالفه من كفار. فلا يغتم لذلك ولا يحزن على عداوتهم له فإن الله تعالى ناصرُه عليهم، وهذا ما تحقق فهو تعالى مع اهل التقوى والاحسان.

سورة الاسراء

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1) وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (2) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (3)

يقول العبد في عبادته: "سبحان الله". ويعني في ذلك أنه يُنَزِّه الله تعالى بعظيم الثناء لعظيم ما هو منه من كرم وقدرة ورحمة وصفاته الحسنى. وكل صفاته حسنى. وبذلك ينزه الخالقَ تعالى عما لا يليق به. وعندما يقول المولى عز وجل عن ذاته المثلى (سبحان الذي اسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى) الآية، فذلك دليل على عظيم ما أراد للناس وما يَنسِبُ لِذاتِه من قدرة ووحدانية. وكقوله تعالى (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) عندما يُنَزِّه ذاتَه عن الشريك في سورة الصافات. وكقوله (سبحان الله عما يصفون) عندما يبين ربوبيته للسماوات السبع والعرش العظيم وبيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، وما اتخذ من ولد وما كان معه من إله، وهو عالم الغيب والشهادة، فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم. وهذا ما بينه في سورة (المؤمنون). وهنا في تسبيحِهِ ذاتَه بيانٌ لقدرته على ما كان مستحيلاً على البشر فعله وهو الاسراء في ليلةٍ لمسافة تقطعها وسائط النقل آنذاك في عدة ليال، وما ذلك على الله بعزيز. فالمؤمن يصدق الخبر. والكافر ينكره لغفلته عن قدرة الخالق القدير. وفي هذه الآية دليل واضح على ان الاسراء كان بالكيان المحمدي عليه وآله افضل الصلاة والسلام روحاً وجسداً. اذ لو كان الامر بالرؤيا فذلك ليس بالامر العظيم المهم انما يسبحه فيه العبد الذي رأى الرؤيا في منامه. وبيّن تعالى مقصد الاسراء لِيُرِيَ رسولَه صلى الله عليه وآله وسلم من آياته. وقد وردت الاحاديث الصحيحة في اسراء الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ومعراجه حتى سمع صريف الأقلام وسمع ربه تعالى يناديه ويفرض على الأُمّة المحمدية الصلوات الخمس. وفي الاسراء والمعراج تنبيهٌ للمؤمنين بأن الوصول الى الله

تعالى في المعراج دلّ على ان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أول ما استجاب ترك الاهل والولد وأطاع امر الله تعالى في إسرائه بركوب البراق مع شعوره بقرب سيدنا جبريل عليه السلام منه، وثاني ما استجاب هو ترك الارادة بتلبية دعوة المعراج من غير حَيرة أو تساؤل عن معراجه، وثالث حال له بين يدي الله تعالى هو ترك العمل لنفسه بل لربه ولأُمّته عندما فُرضت الصلاة، ورابع أمر هو الرجوع لإعلاء كلمة الله تعالى متحلياً بما علم من أخلاق الله تعالى الذي وجده يتيماً فآواه وضالاً فهداه وعائلاً فأغناه، وشرح له صدره ووضع عنه وِزرَه ورفع ذِكرَه. فكان الحبيب المصطفى بالمؤمنين رؤوفا رحيما وقائدَاً للغرِّ المحجلين لنصرة رب العالمين. وجاء ذكر الاسراء الى المسجد الاقصى مع ذكر آية الله تعالى في رسالة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام في التوراة يرشد بني اسرائيل الى توجيه عملهم لوجه الله تعالى، والله تعالى عالم الغيب في ما سيفعله هؤلاء بعد أنبيائهم من استبداد أكثرهم في افعالهم من أجْل حظوظهم الدنيوية وحب التسلط بالكراهية والمكر والحروب والإفساد. وقد ذكّرهم المولى عز وجل بمن يجب الاقتداء به وهو جدهم سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام وكونه عبداً شكوراً عمل لربه مئات السنين وتحمل في سبيل ذلك ما تحمل من سخرية ومشاق حتى نصره الله تعالى. ومن عِلْمِ الله تعالى بما سيكون عليه هؤلاء الكفرة من اليهود من افساد وشر قال تعالى:

وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (4) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (5)

القضاء من الله تعالى الى عباده مع توجيه الخطاب اليهم هو إشعارهم بانهم سيفعلون الأمر. أي هنا في هذه الآية الإفساد الذي تمثل في قتل الانبياء وسفك الدماء والتجبر والطغيان على الناس. حتى اذا حان الموعد المكتوب للمرة الاولى بعث الله تعالى عليهم شعباً من جوارهم بقيادة ملكهم (وقيل بختنصّر من بابل)

فسلكوا في الديار طولاً وعرضاً وشرقاً وغرباً من غير مقاومة وخربوا بيت المقدس واسروا الرجال وسَبَوُا النساء. وتحقق عليهم وعد الاولى فلم يعتبروا.

ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (6) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (7) عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (8)

بعد السبي وصبر بني اسرائيل عن الفساد والعلو كما جاء في التفاسير، انقذهم المولى عز وجل من الاسر والذل وردّ مُلْكَهم الى قوةٍ ومَنَعةٍ وأمدَّهم الله تعالى بأموال وبنين وحذرهم من العودة للسوء فإن عادوا فإن وعد الكرَّةِ الآخرة بانتظارهم وعندها سيلقون الهوان والقهر من اعدائهم بدخول البيت المقَدَّس (بيت المَقْدِس) كما سبق وجرى عليهم ويُتَبِّرون أي يدمرون ويخربون ما عَلَوا عليه أي احتلوه. وهنا حذرهم تعالى من خسارة رحمته إن عادوا للفساد فسيعود عليهم بالنقمة والقهر من اعدائهم ومن وراء ذلك حَصْرُهُم في جهنم بكفرهم فلا محيد عن مكان يحصرهم الله تعالى فيه. ثم بيَّن المولى عز وجل ما أنزل على رسوله، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، من هدى:

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (10)

الحالة التي هي أقوم هي اكثر الطرق سَداداً وصواباً وهي طريقة السابقين المقربين واصحاب اليمين. فلهم البشرى لاعمالهم الصالحة واجرهم الكبير. واما اصحاب الشمال الكَفَرة بما بيّنه الخالق العظيم من لقائه يوم القيامة والخلود في الآخرة فإن العذاب الاليم مهيأ لهم عند ذاك.

وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (11)

الانسان معرض لحالات من الغضب واللهفة فتحكمه العجلة فإن لم يكن له ما يوقف لهفته بالصبر عند الصدمة الاولى فانه كما يستعجل الخير يستعجل الشر فيدعو به. وخير ما يردعه عن ذلك هو الصبر بالله تعالى والصبر لله تعالى واستمداد العون منه.

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (12)

الليل في الظاهر للعيان كأنه يقبل على الارض بينما هو كما بيّنه الله تعالى في هذه الآية ممحوٌ من النور أي محجوبٌ بظل الارض في الجهة المعاكسة لأشعة الشمس ويبقى ليلاً قد مُحِي نورُه وتُقبل الارضُ عليه بدورانها حول نفسها كما تقبل على نور الشمس بعد ذلك فان آية النهار مبصرةٌ أي دائمة الضياء. فالظاهر هو إقبال الشمس، والواقع هو توجُّه مواقع الارض الى مواجهة الشمس مع الدوران. وسبحان الله الذي فصّل ذلك وجعل للانسان سبباً في ديمومة العيش بابتغاء الرزق والسكينة مع ضبط اوقات الصلاة والصيام والاعياد والزكاة وموسم الحج، ومع معرفة حساب التاريخ والأعمار والعهود والمواثيق.

وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (13) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14)

بعد ذكر ابتغاء الفضل وما في النهار والليل من عمل بَيّن تعالى ان كل ذلك العمل مدوّن محسوب على الانسان يتحمله أي كالقلادة في العنق يراه الى آخر مثقال ذرة من خير وشر في كتاب مفتوح يؤمر بقراءته. فيرى فيه ذكرَ ما نسيَه ولم يُحْصِهِ على نفسه، ويجده حاضراً. اما كيفية القراءة فالمهم ان الانسان يطلع ولا

يخفى عليه منه شيء، ويعلم كيف يحاسب نفسَه عليه فهو الشاهد وهو الحكم على عمله قياساً على حقائق صحة العمل واسراره التي كُشِفت له، فتتمثل له الاعمال بهيئتها الحقيقية على ما يحكم بها الله تعالى من خير وشر، وليس على ما رآه الانسان حسناً او سيئاً. فالأمر يومئذٍ لله سبحانه، أي ما كان عند الله حسنا فهو الحسن.

مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (15)

للهدى سلامته، وللضلال وَيلاته. فالعبد يتلقى عاقبة اتجاهه واختياره لنفسه. فاما علامة الهدى فهو الايمان والتقوى ونَهْيُ النفس عن الهوى. واما علامة الضلال فهو الانغماس الضال بالملذات وسيطرة الشهوات على النفس فلا يردعها. واما رادع الدنيا فهو الإعتصام بالشريعة للخلاص من رادع النار في الآخرة. ولا تحمل النفس الا عملَها. ويُحاسَبُ العبد على أعماله حسب حكمها في الشريعة التي جاء بها رسول زمانه، ونيَّتِه من عملها على ضوئه. فالرسول شاهد على قومه، وتبليغُه حجة لهم او عليهم. وهذا ما يفسر قياسَ الاعمال في الآية السابقة.

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (16)

الفسوق من اهل الترف الجبابرة الطغاة هو الخروج عن الطاعة واستعمال نعمة الله تعالى في ما لا ينبغي لها. فاذا جاء أمر الله تعالى بإتباع الحق ثم فسقوا عنه، أي خرجوا عن طاعته، فقد استحقوا عندئذ الهلاك. وقد جعل الله تعالى زوالهم حكماً

بالحق وله اجلٌ سبق عِلْمُه عند الله تعالى، فيدفع فيه فساد الارض بدفع اهل الفساد. ويستبدل قوماً غيرهم ولا يكونون امثالهم.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (17)

وعلى ما سبق من بيان سبب الهلاك، يذكُرُ تعالى كثرة من حق عليهم القول بالهلاك من بعد رسالة سيدنا نوح عليه السلام، مثل عاد وثمود، اذ كذّبوا هوداً وصالحاً عليهما السلام. والله تعالى لا يخفى عليه ذنب فهو خبير بما خفي في الصدور، بصير بما استتر عن العيون. واما من سبقوا سيدنا نوحاً عليه الصلاة والسلام فلم يبين الله تعالى كفر قوم منهم. ولعل عبادة الاصنام حصلت قبيل بعثته، وكان ذلك سبباً لرسالته من أجل حسر الفساد في الأرض.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (18)

روى الامام احمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((الدنيا دارُ مَن لا دارَ له، ومالُ من لا مالَ له، ولها يجمع من لا عقل له)). وهناك من ينجذب لحال من الغفلة عن الآخرة ويجعل الدنيا همَّه، ولكن لا ينقاد له منها إلا ما يحصل بمشيئة الله تعالى سواء اراد العبد أم أبى. وبإنجذابه للحياة الدنيا الفانية يأتي الى الآخرة فلا يجد مما حصل عليه ما يشفع له الى الجنة. فإن خسِرَها فما يجد سواها الا جهنم. فهو مذموم عند أهل الدنيا، مدحور في الآخرة، محروم من رضوان ربه اذ لم يطلبه في حياته الدنيا.

وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (19)

يشكر المولى عز وجل سعي العبد اذا اراد العبد به الآخرة ورضوانَ الله تعالى ووجهَه الكريم مؤمناً بأنه يعبد مولاه متبعاً أثر رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، فالسعي للآخرة في سيرته صلى الله عليه وآله وسلم هو موضوع الأُسوةِ الحسنة للمؤمنين. وهو المقصود بقوله تعالى (وسعى لها سعيها). واما الشكر من الله تعالى (وهو الغني عن عباده) فمن الخُلُقِ الرباني الاعظم، فقد أحب عبداً سعى لخلاص نفسه من العذاب وللإحسان اليها في جنان الخلد، فكان منتفعاً برحمة الله تعالى في رسالة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم اذ لم يرسله الا رحمة للعالمين.

كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (20) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (21)

يستدل المؤمن من ظاهرِ الأمور على الخفيّ من تقدير الله تعالى فقد أعطى كُلاً من محبّي الدنيا ومحبّي الآخرة ما كتب لهم فظهر عليهم أثره؛ فأهل الدنيا ظهرت عليهم اسباب الشقاء، وأهل الآخرة ظهرت عليهم اسباب السعادة. فمن رجّح الدنيا فإن الله تعالى قد علم منه ذلك فكتب عليه ما يشاء لأهلها. ومن رجّح الآخرة فقد سمت روحُه اليها وعلم الله تعالى منه ذلك فكتب له درجته فيها. ويقول تعالى (انظر) أي انتبه الى سبب التفضيل. وأما درجات الآخرة فهي في سبق أهل الإيمان في تفضيل أمر الله تعالى على أمر غيره وسرعتهم في تلبية الدعوة إلى نصرته فلا يبقى لغير الله تعالى حظّاً في عبادتهم خشية إستدراجهم إلى الشرك فيحذر تعالى بقوله:

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (22)

أيها المؤمن! لا تتوقع نفعاً ما لم يأذن به الله تعالى ولا تجعل سواه تعالى سبباً لعطائه فقد روى الترمذي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من حديث لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله ((.. واعلم أن الامة لو اجتمعت على أنْ ينفعوك بشيء لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على ان يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعت الاقلام وجفت الصحف)). والمذموم يُذمُّ عادةً على رذائله. والشرك من أسوأ الرذائل. والمخذول هو العبد الذي خذله الله تعالى لإختياره التوكل على غير منهج مولاه فوكله تعالى الى المنهج الذي يُخيّبه ويجلب له الحسرة عندما لا ينفعه عمل. وبهذا قضى سبحانه أن لا يعبد إلا هو.

وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24)

القضاء من الله تعالى أمرٌ مُحكَمٌ مبلَّغٌ على لسان الرسل بأن لا يُعبَدَ غيرُه. ومن سُنّة الله في الحياة يحتاج الرجل والمرأة عند كِبَر السن إلى من يعينهما، فقضى سبحانه وصية بالإحسان للوالدين. وذكر تعالى بلوغَ الكِبَر شرطاً مؤكداً بـ(إمّا) فقال (إمّا يبلغن) مع نون التوكيد. فاذا حصل ما يُضجر الولدَ منهما فعليه أن لا يظهر ذلك لأحدهما او كليهما ولو بحرفين بقوله: (أُفٍّ). وبدلاً من ذلك يُظهر كرمه لهما بقولٍ كريم وهو المرادف للتوقير والادب واللِيْن، وبأفضل حُسنِ الخلق معهما. واما التذلل لهما فهو بالأفعال، ومنها التواضع. فيجتمع البِرُّ بهما قولاً وفعلاً محفوفاً بصدق السريرة. وأمر سبحانه بالدعاء لهما نصّاً: (رب ارحمهما كما ربياني صغيرا)، والصغير يُسامَحُ ولا يؤآخذ بل يُعامل بالحنان والرفق. فكأن الداعي طلب كل ذلك

لوالديه. روى البزّار في مسنده عن بُريدةَ رضي الله عنه أن رجلاً كان في الطواف حاملاً أُمَّه يطوف بها فسأل النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم: "هل أديتُ حقّها؟" قال ((لا، ولا بزفرة واحدة)). ثمّ ينبه تعالى على صلاح النفوس ونبّه إلى علمه بها وجعل ذلك عودة إلى الفطرة السليمة وسببا للمغفرة فقال:

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (25) وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (26) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (27)

فالمؤمن في بر الوالدين يكون مخلصاً لا ينظر الى ثواب ذلك وإن كُتِبَ له، ولا الى مديح او ثناء، بل يفعله كرماً لأن الله تعالى اوصاه بذلك. والله تعالى مطلع على ما في ضميره. وقد وعد الله تعالى بالمغفرة لمن بَدَرَ منه ما يخالف الوصايا ثم ندم على فعله وأناب الى الله تائباً. وهذا عام في جميع الذنوب. واما ذوو القربى فهم من أوجبت صلةُ الرحم بِرَّهم. أي ذوو الأرحام الأقرب فالأقرب. وحقهم الاحسان اليهم ما امكن والصفح عن مسيئهم والسؤال عنهم والسلام عليهم والدعاء لهم. واما المسكين وابن السبيل فهم كما جاء في سورة التوبة بأن المسكين من ألجأَتْه الفاقة للسؤال وطلب الزكاة. واما ابن السبيل فهو المسافر الذي انقطع عن اهله ولم يبق لديه مال للوصول اليهم او إلى مبتغاه. واما إنفاق المال ففيه تقدير في الكمية؛ فإن كانت كميته معتدلة بلا تقتير ولا إسراف نالت رضوان الله تعالى. واما التبذير فيكون في ما حرّم الله او في ما كان مباحاً ولكن بتجاوز الحد المعقول. وبعكسه يكون الكرم في ما احب الله تعالى هو السبيل الصحيح في التصرف بالمال. فاذا

حصل تصرفٌ يُغضِب اللهَ في المال فهو مماثِلٌ لفعل الشيطان فكأن فاعله أخٌ له في ذلك. وفي النفقة للشر والخير قيل: (لا خير في السَرَف، ولا سَرَفَ في الخير).

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (28) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (29) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (30)

قد لا يملك المؤمن ما يسد به حاجة السائل او ذي القربى اذا طلب احدهم منه ذلك، ففي هذه الحال يبدي من حُسن الخلق وطَيِّب القول ما يرضيهم به مع الوعد صادقاً بأن يكرمهم حالما يتيسر له اعطاؤهم. فالوعد فيه امل لهم خيراً من الخيبة. وخلاف ذلك إذا كان المؤمن ذا مال فليحذر البخل فهو داء يؤدِّي به الى الذمّ، ولكن تكون نفقته للخير في حدٍّ لا يتجاوز الى المال المقدر لسد حاجته وإلا تحصل له الملامة والحَسْرُ، أي يقعد مُقيَّدَ التصرف والتحرك في الكسب لقلة المال فعبر سبحانه عن ذلك بقوله (ملوماً محسورا). ولله تعالى حكمته في الرزق بأنه بعباده خبير بما في نواياهم بصير بما يصنعون بأموالهم فيقدر لكل انسان ما يلائمه ليبلوَه فيه.

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (31)

قَتْلُ الاولاد تَمثّل في الجاهلية بوأد البنات، أي دفن الوليدات بالتراب تخلصاً من عار متوقَّع لدى الذين يخشون الفقر الى حد الإملاق أي الشدة في الفقر. واذ

ضمن المولى الكريم رزقهم بيّن ان قتلهم من الاثم العظيم لوصف الفعل بـ(الخِطئ الكبير) بكسر الخاء وقريء (الخَطَأ) بفتح الخاء والطاء. واللفظان بمعنى واحد.

وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (32)

القرب من الزنى يشمل ما يسبق هذا الاثم من النوايا والافعال التي تمهّد له. وهذا من الفاحشة لقبح اثره فجاء النهي عن القرب للوقاية من الوقوع في الزنى. اما الزنى فقد روى ابن ابي الدنيا عن الهيثم بن مالك الطائي رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((ما مِن ذنب بعد الشرك أعظمُ عند الله من نُطفةٍ وَضَعَها رجلٌ في رَحِمٍ لا يَحِلُّ له)).

وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (33)

إباحة الدم لا تكون إلا بالقَصاص بالحدود او التعزير، وقد مرّ تعريفهما في سورة النساء. وتقدير ذلك يعود لولاة الاحكام، مع تقدير درجة الدفاع عن النفس والمال والعِرض أو حسر الفساد. وتفصيل ذلك في كتب الأحكام. اما الذي يُقْتَلُ مظلوماً أي أن يحصل عليه اعتداء متعمَّد لإزهاق روحه بغير ما اكتسب أي بغير ما يبيح دمه، فقد حددت السنة الشريفة وفق هذه الآية حقه؛ إما في إصرار وليّه على عقاب القاتل بالقتل ثأراً لِوَلِيِّه القتيل، او بالقبول بالدية عوضاً عن ذلك فلا ثأر له بعد ذلك، او أن يعفوَ عن القاتل. ولم يُبِحِ الشرعُ أخذَ الثأر من غير الفاعل الذي ثبت عليه الفعل. كما نهى عن تعذيب القاتل عند الثأر او التمثيل بجثته. وفي شرح

الآية الثامنة والسبعين بعد المائة من سورة البقرة، والآيتين الثانية والتسعين والتي بعدها من سورة النساء وردت أحكام القتل.

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (34)

مال اليتيم تركة مُورِثٍ لقاصر من أولاده لَم يبلغْ سن الرشد، وقد نُصِب له وصي مخول بالمال في كافة وجوه الإنفاق. ومن أوجُهِ ذلك أن أُعطِي الحق للوصي الفقير إذا كان عليه أن يتفرغ لإدارة اموال اليتيم بأن يتناول لمعاشه من أرباحها ما يكفي لمعيشة أمثاله من الناس على أن يحفظ المال بإستثماره بسبل الكسب الحلال. فاذا بلغ اليتيم أشُدَّه (أي احتلم وكان ذا رجاحة رشيدة لتثمير مالِه وحِفظه) فعندئذ تنتهي وِصاية الوصي عليه، ويسلم المال إليه لإنتفاء صفة اليُتْمِ عنه بعد البلوغ، وبحضور شهود. واما العهد المذكور في هذه الآية فهو ما يجري في المعاملات بين الناس بعقودِ تجارةٍ او مضاربة شرعية أو مرابحة في البيوع وما اليها. والمسؤولية في العهد تعني حق مطالبة أي طرفٍ متعاقدٍ بأن تلتزم الأطراف الأُخرى بالشروط المتفق عليها.

وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (35)

يحصل الكيل الموفَّى بمجرّد إمتلاء آلة الكيل حسبما متعارف عليه. اما الوزن فله انواع حسب كتلة الموزون. فالقبان للأوزان الثقيلة، والميزان للاوزان المتوسطة والخفيفة. والمهم هو تعادل المادة التي توزن بالمعيار المتعارف عليه بحيث لو وُضِعا في كفّتَي ميزان متقابلتين لَتعادلتا مع بعضهما من غير اضطراب. وهذا افضل وسيلة

للحقوق ولأفضل عاقبة أي تأويل أي مآل لا يؤدّي الى خلاف في الدنيا ولا إلى مُنقَلَبٍ سيئ في الآخرة. وأما آلات الوزن ذات المؤشر فهي من المعايير المتعارف عليها إذا صح ضبطها.

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (37) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (38)

ليس للمؤمن ان يتحدث عن شيء لم يسمعه ويتيقن منه، فيقول: سمعتُه، ولا عن شيء لم يرَه فيقول رأيتُه. فالمولى عز وجل ينهى هنا عن تحدث العبد المؤمن بما لا يعلمه يقيناً بل بالظن الذي قد يحمل في طياته إتباع الوهم أي يقفو ما لا يعلم او ان يرمي المؤمن شخصاً بما لا يعلمه منه يقيناً. او ان يشهد احدهم الزور، فلا يتحدث بذلك فالله تعالى يسأله عن ذلك السمع فيقول (لم اسمع)، والبصر فيقول (ما رأيتُ)، وعن الفؤاد فيقول (ظننتُ). ونهى عز وجل عن سيئةٍ خَتَم بها المكروهات التي تحط من صفات المؤمنين وتبعدهم عن مولاهم جل جلاله، وهي التبختر والتمايل تجبراً وتفاخراً، مما يدل على جاهلية وضعف في العقل والنفس. فلينظر مثل هذا الشخص الى نفسه في ضعفها ازاء ما خلق الله تعالى من قوة وعظمة في محيطه اذ لا يمكنه خرق الارض في مشيِهِ ولا مطاولة الجبال في طوله فليترك ذلك تواضعاً لله تعالى الذي يرفع اقواماً ويضع آخرين.

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (39)

أشار المولى تعالى إلى الحكمة الموحاة في الآيات السابقة من هذه السورة. والمخاطَب في هذا هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والمقصود به هو كل مؤمن مبلَّغ بها ليصحب بها عبادة ربه مع السماحة وحسن الخلق كما روى ابن عساكر عن جابر رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قوله: ((قال لي جبريل عليه السلام: قال الله تبارك وتعالى: ان هذا دين ارتضيه لنفسي ولن يُصلحَه الا السماحةُ وحُسن الخُلق فأكرموه بهما ما صحبتموه)). وأكد تعالى على عبادته دون سواه بقوله ((وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه)) بتوحيده في التوكل والطاعة في الجهاد بالنفس والمال. فلا يجعل من الهوى الضال أو الطاغوت معبوداً يحشر معه في جهنم.

أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (40)

ينكر المولى تعالى على الذين قالوا بأن الملائكة هم بنات الله! (سبحانه) فيحاججهم اذ أنهم كانوا يخجلون من ولادة البنات لهم حتى بلغ ببعضهم ذلك الى وأد البنات. أليس من الكفر بعظمة خالق الكون أن ينسب له ولادة البنات! والمعروف ان يكون للسيد أفضلية الاختيارات ثم لمملوكه ادناها. فكيف لعباد يجعلون لمولاهم تعالى ما يكرهون لأنفسهم؟ ومن أين يكون له بنات من غير ان يكون هناك أُمّ تلد؟ وهو تعالى منزّه عن الصاحبة. كما أن الولد مخلوق، فلا بد له من خالق غير أبويه. فقولهم قولٌ عظيم الكفر لمنافاته لقدْر الله جل شأنه وللحكمة والمعقول.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (41)

الحق غريب في نفوس المشركين ولا يتفق مع ما هم فيه من ظلم وافك مع الشرك. فاذا جاءهم الحق على شكل وعيد نفروا منه وازدادوا بعداً عما كانوا قبل تذكيرهم به ولم ينتفعوا بما أقام القرآن من حُجَجٍ وصرّفها فيه أي بتكرارها أو التأكيد عليها.

قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آَلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (42) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (43) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (44)

زعموا ان مع الله سبحانه آلهةً اخرى! ولا يكون هذا الإفك معقولاً لأن سبيل الآلهة المزعومة إلى الله إما بالشفاعة، وهي عبادة بحدّ ذاتها، وإما بالمغالبة وفيها يُنسب الضعف للخالق القدير بنسبة نِدٍّ منافس له جل شأنه. ولذا لا يمكن تصور ذلك. فالعابد عبد ولا يُسمى إلَهاً. ولا مبرر لمن يتصل بربه القريب السميع المجيب إذا دعاه ان يتصور ان هناك مِن خَلْقِ اللهِ من ينقل الدعاءَ إليه. فالشفاعة حصراً بإذن الله تعالى لمن يأذن لهم يوم يحتاج اهل المعاصي لمن يشفع لهم. وأمّا المغالبة، وتحمل معنى المنافسة، فتكون مع الأنداد ولا يعقل ان يكون مخلوقٌ نِدّاً للخالق العلي الأعلى. والأشياءُ كلُّها تشير الى قدرته وجبروته ولها تسبيح بحمده لا يفقهه البشر. ولكن البصيرة في أُولي الألباب تجد كل جزء في السماوات والارض ومن فيهن لا يبلغ كماله بذاته بل يكمل بمجموع المخلوقات. ومن قبيل ذلك لا يكمل رزق السماء من مطر إلا برزق الارض من نبات. وكذلك رزق الارض. فالخالق الذي اودع فيهما هذه الصفات هو واحد لا شريك له في الخلق والامر. وتسبيح المخلوقات هو إظهار وحدانية الخالق من غير لسان وكلام. واذا قال المؤمن في

التفكير بالقدرة: "سبحان الله" فقد اشار الى تسبيح القدير في ما خلق. وينبه تعالى الى حِلمه ومغفرته لمن قَصُرَ سَعْيُه عن معرفة تمام الكمال الرباني في مخلوقاته. فإذا علم المؤمن معنى تمام الكمال الرباني ولم يدرك مداه فذلك أقصى إدراكه لقوله تعالى ((وما أُوتيتم من العلم إلا قليلا)).

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (45) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آَذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآَنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (46) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (47) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (48)

ما يحجب الفهم إما ان يكون قصوراً في سرعة التفكير عن مستوى الكلام، او غفلةً، او إنكاراً وتكذيباً. والفقه يحصل بإنتباه السامع او القارئ لدقائق الموضوع بإمعان وطَوِيّةٍ حسنة لطلب العلم. فاذا لم تتوفر هذه الصفات فإن القلوب تعمى عن ادراك المعنى الذي يقصده سبحانه في القرآن الكريم، فعلى افتراض ان هناك من ينكرون البعث بعد الموت، فاذا ورد ذكر الحساب والجنة والنار فلن تتكون عندهم الصورة الذهنية عنهما لأن انكار البعث حجب لديهم التصديق بما وراءه مع اساءة الظن بصدق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فلا يرونه رسولاً. ولا يفطنون إلى سبب ما يحجبهم فهو مستور عنهم. واما قلوبهم فقد غشيتها أكِنّة وهي جمع كنان، أي الستور لأن الله تعالى يعلم كراهتهم للقرآن فجعل على قلوبهم الأستار أي حَجَبَها كي تبقى بعيدة عن حمله لثقله عليها. وأمّا الوَقْر في الأذان فهو أن ثقل الموضوع يسد مدخله الى قلوبهم. فاذا كان فكرهم منصرفاً إلى آلهتهم وأوهامهم عن

قدرتها ثم ذُكِر الله تعالى اِلَهَاً واحداً لم يملكوا انفسهم من الرجوع على اعقابهم نفوراً مما سمعوا. إذ لا يصل ادراكهم الى وحدانية الخالق لبعدهم عن طلب الحق. والله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه الحال الذي هم فيه عندما يستمعون الى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهم في سوء ظنهم به فيمثلونه بساحر او مجنون عندما يتناجون بينهم حوله. وما هذا منهم إلا ضلال لا يخفى عليه صلى الله عليه وآله وسلم فيلمس قصورهم عن الوصول الى فهمه اذ لا سبيل من صدقٍ أو نيّة وطلبِ علم يوصلهم الى ذلك.

وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (49) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (51) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (52)

انكروا البعث لضيق حدود تفكيرهم، وسألوا ما سألوا ليس من قبيل التعلم بل التهكم والسخرية من التصديق بعودة الحياة الى العظام وبقية الأجسام المتفسخة بعد الموت وهل يمكن ان تعود الى ما كانت عليه من حياة وحركة ونشاط؟ فهذا في نظرهم يناقض المظاهر الحاصلة على الاشلاء. ويجيبهم المولى بأن يسألوا عن اكثر من ذلك فيما لو كانوا حجارة او حديداً وليس عظاماً. او لو كانوا خلقاً اكبر حجماً. ويذهب تساؤلهم عندئذ عمن يتولى اعادتهم للحياة؟ ويأتيهم الجواب الذي غفلوا عنه أنه القادر الذي خلقهم من قبل ولم يكونوا شيئاً. وهذا ما يدير رؤوسهم عجباً الى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. وبدلاً من القناعة بدليل الخلقة والنشأة الاولى انكروا ساخرين بطلب بيان موعد ذلك. فيكون الجواب: (عسى ان يكون

قريبا)، وهذا للوجوب فلا بد منه وعند ذاك يا منكري البعث تدعوكم القدرة الالهية وتستجيبون بقهره وتعلمون أن الحمد له. ويدخل في خَلَدِكم انكم لبثتم أياماً قليلة في الحياة الدنيا والحياة البرزخية في القبر.

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا (53) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (54)

كثيراً ما يكون الكلام بين الناس مقدمة لفعل يُتفَق عليه، او يُختَلفُ فيه، فإذا كان القول طيباً ويحذر صاحبه زلل اللسان فالمرجو أن تكون عاقبته حسنة وإلا فإن ابليس يتصيده ليوسوس للسامع ما يوغر صدرَه على المتكلم فيحدث الخلاف ويتحول القول الى افعال تصل الى العداوة. ونزغُ الشيطان هو ايقاع الشر وافساد ذات البين. وقد روى الامام احمد بسند فيه حمّاد عن رجل من بني سليط قال: "أتيت النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم وهو في رفلةٍ من الناس فسمعته يقول ((المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، التقوى ها هنا))" قال حماد : "وقال بيده الى صدره (أي التقوى في القلب) ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((وما توادّ رجلان في الله ففرق بينهما الا حَدَثٌ يُحدِثه احدهما والْمُحدِث شرٌّ والمحدث شر والمحدث شر))". ولا يخفى أن المقصود بقوله: "شرٌّ" صفة على صيغة التفضيل أي ان احد الرجلين يقول قولاً فيه مجال لوسوسة الشيطان تكون منها عداوة. فمن احدث هذا فهو الأكثر شراً. والله سبحانه المطلع على قلوب عباده في تقواهم، فإن استحقوا الرحمة رحمهم بأن يوفقهم لطاعته والإنابة اليه، فهو يحب التوّابين. وأما إن

حقّ على عبدٍ ضلالٌ فأمره الى الله تعالى، وليس على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من مسؤولية في ذلك فإنهُ أُرسِل داعياً بشيراً ونذيراً فلا وكالة له عليهم.

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (55)

الناسُ عند الله درجات، وكذلك الملائكة والجن. والله تعالى اعلم بهذه الدرجات. ومنها الدرجات العليا للانبياء عليهم الصلوات والسلام. والله تعالى فضّل كل نبي بنوع من المعجزات والآيات البينات لذوي العقول في من بُعِثَ فيهم. ومن قبيل ذلك أُوتي داود عليه السلام زبوراً. وتفضيل البعض على البعض لا يعني على الكل بل بالإختصاص. وهذا قبل الرسول الكريم سيدنا محمد فقد أُوتي صلى الله عليه وآله وسلم القرآن مهيمناً على ما سبق من كتاب، وكانت أُمَّتُه خير أُمَّةٍ أُخرجت للناس، وبَشّر بلواء الحمد بيده المباركة، وآدم ومن سواه تحت لوائه يوم القيامة.

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (56) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (57)

الذين عبدوا ملائكةً أو أنبياءَ أو صالحين من دون الله مدعوّون ليدعوهم لكشف الضر عنهم أو تحويله. فلا يملك غيرُ الله تعالى ان يكشف ضُرّاً او يحوله عمن مسهم الضر. والحجة في ذلك إن كان المعبود مَلَكاً أو بشراً او من الجن فهم أحوَجُ ما يكونون الى القربة من الله تعالى ويتخذون رجاءَ رحمته وخوفَ عذابه وسيلة

إليه. فرجاء المؤمن يحفزه على الإكثار من الصالحات، والخوف يوقفه عن المعاصي التي عاقبتها عذاب من الله تعالى. وإن عذابه كان محذورا.

وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (58) وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآَيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآَيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (59)

كشف سبحانه في مواضع من القرآن الكريم أنه لا يعذبُ حتى يبعث رسولاً، ولا يعذبُ من يستغفره، ولا يعذبُ من يشكره مؤمناً. ومن علميته بالغيب جل جلاله أن أهل القرى، وهي المدن، سيَظْلِمون (إلا من رحم الله) قبل يوم القيامة فيرتكبون ما يذيقهم الهلاك، مُعرِضين عن أمر ربهم وعن سنن رسله عليهم السلام، منكرين الآيات كما فعل الهالكون من الأولين. ولهذا، عندما طلب كفار قريش إرسال الآيات، تحدياً، مثل إحياء الموتى وأن يُقلَبَ جبل الصفا ذهباً، لم يُستجَبْ لهم لأنها لو حصلت وكذبوا بها فإن الله تعالى كان سيستأصلهم كما أهلك عاداً وثمود. فما منَعَ الآياتِ إلا تكذيبُ أُولئك. وضرب سبحانه لذلك مثلاً الآية التي لا يَختلف عليها إثنان وهي معجزة ناقة سيدنا صالح عليه الصلاة والسلام كذّبت بها ثمود فعقروها أي قتلوها بضرب قوائمها بالسيف فأهلكهم. من هذا يُظهِرُ المولى سبحانه أنه حكم أن يؤخِّر أمر كفار قريش من أجل بقاء هذه الأُمَّة إلى يوم القيامة. ويرسل سبحانه بالآيات للتخويف وهي علم للساعة يوم لا ينفع نفساً ايمانُها لم تكن آمنت من قبل، ومنها طلوع الشمس من مغربها وخروج دابة الارض.

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (60)

يذكّر المولى تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ببشارته له بأنه معصوم من الناس أي أن الله تعالى قد أحاط بكفار قريش أي أنهم لو أرادوا به كيداً فهو معصوم منهم. وفي البشارة تثبيت للدعوة حتى يقضي الله تعالى النصر. واما الرؤيا ففي رواية هي رؤية عيان رآها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليلة أُسرِى به. فقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قوله: "هي رؤيا عين أُريها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة أُسرِيَ به". وفي رواية أنه رأى في الرؤيا مصارع رؤوس الكفر في موقعة بدر فلما سمعوا بذلك سخروا منه فكانت فتنةً لهم. واما الشجرة الملعونة في القرآن ففي التفاسير انها شجرة الزقّوم الوارد ذكرها في ثلاث سُوَر هي الصافات والدخان والواقعة. واما كفار قريش فلم ينفعهم التخويف من الله تعالى. وعلى العكس فقد كان التخويف باعثاً لهم على التمادي في طغيانهم حتى وصفه تعالى بأنه طغيان كبير!

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (62)

يذكّر المولى عز وجل رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وكل مؤمن بما كان من ابليس (نعوذ بالله منه) عندما طلب المولى عز وجل من الملائكة (معهم ابليس وليس منهم) ان يسجدوا لآدم، والله تعالى يعلم انها اللحظة التي أعدّها لإبليس وانكشاف

ما كان يعتمل في نفسه من كبرياء وافتخار مستورَين عمن هو معهم، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا هذا الأحمق فقد أظهر كوامن الكبرياء والافتخار معتبراً القيام بهذا الامر غريباً فهو يرى أبانا آدم عليه السلام مخلوقاً ضعيفاً. وغفل عن الحقيقة وهو انه عصى الخالق العظيم في ذلك. ثم اراد ان يبرر سبب امتناعه بأنه ضَعْفُ آدم وذريَّتِه بينما هو -كما زيَّن له غرورُه- في مستوىً من العقل والعلم اكرم منهم! فطلب تأخيره الى يوم البعث متوعداً بصيغة القَسَم بقوله (لأحتنكنّ) أي لأحتويَنّ واستولينّ، وقيل لأُضِلنّ، ذريتَه. ولكنه غَصّ غَصّةً عندما ورد الى فكره ان المولى تعالى لم يخلقهم عبثاً ولم يخلق الجنة عبثاً فلا بد من خَلْقٍ للجنة وخلق للنار. فقال في غَصَصِه: "إلا قليلاً". وهم السابقون واصحاب الميمنة. وغفل عن مشيئة الله تعالى في الهدى، فمن يَهْدِ اللهُ فما له من مُضِلّ.

قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (63) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (64) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (65)

قوله تعالى لإبليس: (إذْهَبْ)! هو جوابٌ لطلبه بتأخيره الى يوم القيامة ولكن بصيغة تحقير واذلال وخذلان وهو ان يمضي في ضلاله لينال هو ومن إتَّبعه جهنم جزاء وافراً أي تامّاً. ثم أمَرَهُ المولى سبحانه من قبيل الإستخفاف بغرور هذا الرجيم أن يبذل قصارى طاقته وإمكاناته لإستفزاز من يستطيع ان يستفِزّه من البشر، أي يستخفه، بما أوّلَته التفاسير بصوت ابليس أي الغِناء، ثم بالجلَبَة أي شدة الصياح من كل راكب وماشٍ من الفُسّاق كجنود له. واما المشاركة بالاموال والاولاد فالمال

الحرام يطعم آكلُه اولادَه فيكون ابليس شريكاً له بالمال والولد ويزين له حبّ المال حبّاً جمّاً، ويلهيه بالاولاد تفاخراً واحتجاباً بهم عن الله تعالى فينفق المال في المعاصي بعد ان جمَعَه في خبيث. واما المشاركة بالولد فمنها إتباع الأولاد لخطوات الشيطان الذي شارك اهليهم بهم بالمال الحرام والتربية الفاسدة. واما الوعود الشيطانية فغايتها تلبية رغبات النفس في الملذات المؤدية إلى الضلال بأفعال تفنى حصيلتها كالسراب لا ينال منه الظمآن شيئاً ويبقى إثمها ووراءه حساب عسير. كما تتمثل بما يوسوسه لهم من شفاعة موهومة لشركاء من دون الله وهذا من الغرور أي تزيين الباطل على انه صواب. ولكن كل ذلك لن يؤثر في من يتبع منهج الله تعالى في شريعته مقتدياً بالأُسوة الحسنة صلى الله عليه وآله وسلم ويداوم في محبة دين الله واتباع رضوان الله تعالى واتخاذه وكيلاً، أي مصدراً للارشاد والمحافظة على السلوك من الإنحراف عن منهجه القويم. وقد روى الامام أحمد في مسنده عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((إن المؤمن لَيُنْضِي شياطينَه كما يُنضي أحدُكم بعيرَه في السفر)). ومعنى أنْضاه: أتعبه وجعله هزيلاً. والبعير في السفر يكون منهكاً من قهره والاخذ بناصيته فلا يترك له حرية التنقل والرعي وهكذا حال الشياطين اذا التزم المؤمن بالشريعة، وهذا التشبيه النبوي البليغ يدعونا للتفكر في السلوك الذي يقهر وساوس الشياطين (جنود ابليس) وأساليبهم. فتعداد هذه الاساليب الشيطانية قد سود الصفحات في كتب الاقدمين. وقد يخفى كثير منها ولكن كمجموعة واحدة هي الدعوة للضلال المؤدي إلى الفساد والفحشاء، وإلى الشح والطمع، وإلى العداوة والبغضاء، وإلى الصَدِّ عن الصلاة وصحة العبادة، والصد عن الجهاد، وإلى رمي المحصنات المؤمنات، وإلى الجراءة في التقوّل على ذات

الله تعالى بغير علم وغير ذلك من الرذائل والمنكرات. فلا بد من وجود ما يقابل ذلك كله من خير في استعمال هبات الله تعالى في العقل والتحري عن الافضل. فإذا بالقلب يأتي دوره؛ فهو الذي ينقل للمرء فهم ما يتحسسه من محيطه أي ما يراه وما يسمعه وما يواجهه مع ردّ الفعل في نفسه، واذ تميل النفس الى الملذات فان خواطر العبادة تحضر معها فتردعها فاذا حُكِّم العقلُ فاستحضر عواقب الملذات والشهوات فقد وصل بالنفس الى مرحلة اعلى من الميل الى الزائل من مِتَعها، وفي هذا الصعود لا يصل من الشيطان شيء ما دامت النفس في هدى الله تتبع الرضوان. فاذا شردت في ميلها للشهوات بادر الشيطان الى دعوتها نحو اتباع الباطل في سلوكها فإما أن تدركها ذكرى العفة والصواب وعندها تعود الى السموّ الذي كانت عليه، وهذا هو التوكل على المنهج الرباني فلا تستجيب للشر بل تُخيِّب الشيطان، واما ان تنغمس في الملذات المحرمة فتهلك عن بيّنة لأن الحجة قامت عليها بما نقله اليها القلب ونصحها به العقل.

رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (66) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (67)

نبّه المولى سبحانه الى فضله في البحر وانه يزجي، أي يسوق ويدفع، السفن فيه ليحصل بتنقلها إبتغاءُ فضلِ الله سبحانه من نفع تجاري وغيره. ولولا رحمته تعالى ما جرى الفُلْك بهذه الحركة المنتظمة الى جهة محدودة تمر السفن فيها الى موانئ متقاربة ولولا ذلك لتعذر ركوب البحر. ثم ينبه تعالى الى وحدانيته في ابعد من هذا الفضل وهو أن القلوب تخلو من غيره عندما يدهم ركابَ البحر خطرٌ يطلبون فيه

النجاة فيذهب من قلوبهم الشركاء ولا يبقى فيها غير الله تعالى. فهل يجدر بمن ثبت له من الله تعالى القدرةُ على النجاة والرحمة فيها أن يُعرِض أي يتغافل عن الاخلاص بعد الخلاص من الخطر؟ فهذا ليس الا كفوراً من الانسان للنعم الرَّبّانية.

أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (68) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (69)

على الانسان، إن أنجاه اللهُ تعالى من خطر، ان يبقى على التوكل ولا يأمن عواقب الجحود. فالله تعالى ينكر على الذين نَجَوا بنعمته أن يجحدوا بها وأن يأمنوا عقابَه في البر او البحر، كما أوضحت لنا هاتان الآيتان. وخسفُ جانب البر هو كالغرق في البحر أي الطمر في التراب بنتيجة فجوة هائلة في جانب من جوانب البر او انهيار مرتفع لبناء شاهق. والحاصبُ من الريحِ هو بلوغُ الرياح من الشدة بحيث تحمل الحجارة فتهوي بها عند بلوغها المحل الذي قدّره الله تعالى لها. فلا يستطيع من أُرسِلت اليهم صدَّها او النجاةَ منها إلا برحمته تعالى. وأما القاصفُ من الريح فهو الرياحُ الشديدة في البحر تكسر الصواري وتمزق الأشرعة وتكسر الألواح. ولا يجد أهلُ السفن من ينقذهم غيرَ الله تعالى. فاذا لم يُنقذْهم فما يملكون من يسأله عنهم سبحانه لا يُسأل عما يفعل ولكنه تعالى كَرَّم الانسان في هذا واكثر واكثر كما يلي:

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (70)

إذا نظرنا الى ما وهب الله تعالى من نعماء في بدن الانسان ورزقه لعرفنا المزايا التي يختلف بها عن البهائم. ويكفي انه يأكل بيده والحيوان بفمه وانه يمشي على رجلين والحيوان على اربع او على بطنه. فضلاً عن استنبات الطيبات، وربُّه هو الزارع ينميها ويحفظها له. كل ذلك مع نظام حياته واسرته ومجتمعه والحرية في اختياراته. ثم تفضيله على اكثر المخلوقات بكثيرِ النِّعم. ثم نعمة الهدى لدين الحق والخلود في كنف ربه يوم يأتيه بقلب سليم. هذا اليوم الذي يقول تعالى عنه:

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (71) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (72)

الدعوة بالامام أي نداء يوم القيامة للناس بإسم الامام الذي كانوا يتّبعونه في الدنيا كقول المنادي يا أهل فلان يا اتباع فلان، فان كان الامام قد ارشدهم الى الحق والهدى فيؤتَون كتُبَهم باليمين يتعرّفون بقراءتها ما فيها فيجدون ما عملوا وجزاءه بالقسط والرحمة. واما من عمي عن الهدى ولم يسترشد في حياته عن دين الحق فكما خرج بذلك عن جادة الصواب رغم ما جاءه من العلم ولم يرجع بالتوبة فهو أكثرُ تَيْهاً إذ أنه عندئذٍ لا يُميز طريق النجاة كالاعمى بل أضل لأن للاعمى وسائلَهُ التي يستدل بها وهذا لا وسيلة له لأنه بُعِثَ على التيه الذي مات عليه.

وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (75) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (76) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (77)

ثبَّت المولى عز وجل رسولَه صلى الله عليه وآله وسلم ضد خداع فئة من كفار قريش لَمّا طلبوا أن يُصغِيَ إليهم. وكان صلى الله عليه وآله وسلم يرجو أن يؤمنوا إذا أصغى إليهم بمجرد السماع لمعرفة نواياهم أملاً أن يصل إلى قلوبهم بالحكمة والموعظة الحسنة فينزلوا عن شدة الانكار. ولكن الله تعالى نَبّهَهُ وثَبَّته لأن كثرة السماع منهم، في هذا الاتجاه، مدعاة للبعد عن الله تعالى، وفي ذلك ضعف العذاب له حَيّاً وميّتاً. وقد كشف تعالى كيد هؤلاء الكفار لإبعاد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن مكة بشتى انواع الكيد. ولم يكن ليلبثوا بعده في مكة بل لأهلكهم المولى القدير شأنهم شأن من جرَتْ سُنّةُ الله تعالى عليهم حالَما اخرجوا الرسل من اراضيهم. واما هجرته صلى الله عليه وآله وسلم فكانت بإختياره وليس بكيد منهم ومع هذا اهلك الله تعالى صناديدهم في معركة بدر، ومن لم يحضرها من كبار كفّارهم هلك كَمَداً.

أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (78) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (79)

استدلت التفاسير ان هذه الآية جمعت الصلوات اليومية الخمس فقد ذكرها المولى عز وجل بدايةً بزوال الشمس (دلوكها). أي بِحُدوث ظِلٍّ للانسان بعد زوالها عن سَمْتِ الرأس ظُهراً. والى الظلمة وهي غسق الليل. ففي تلك الفسحة من الوقت بين الدلوك وظلام الليل تُصَلّى اربعة فروض هي الظهر والعصر والمغرب والعشاء. ثم اعقب سبحانه بعدها بصلاة الفجر. وعن شهود صلاة الفجر روى البخاري عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((فضل صلاة الجميع عن صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، ويجتمع ملائكة الليل

وملائكة النهار في صلاة الفجر)) وقال أبو هريرة رضي الله عنه "إقرأوا إن شئتم (وقرآنَ الفجْرِ إنّ قرآنَ الفَجْرِ كان مَشهودا)". ثم جعل سبحانه نوافل الليل واجبة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكانت سنّة لأُمّته فكان يقوم من الليل في أوقات لا تحديد لها ولا تحديد في الزيادة عليها او النقص منها، لتكون سبباً للمقام المحمود الذي وعده تعالى في الشفاعة العظمى يوم تحتاج امتُه اليها اشد الحاجة.

وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (80) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81)

يُبَيِّن المولى عز وجل لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم ان السلطة القاهرة ضرورية لإحقاق الحق. وأن البشر لا يملك لنفسه ذلك إلا بسلطان من الله تعالى. وان الحق يتطلب العدل في البدء به والانتهاء من إحقاقه. وهكذا ادخل الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة مُدخَلَ صِدق بعدما أخرجه من مكة مهاجراً مُخْرَجَ صدق للحفاظ على دينه الحق. وأمَرَه تعالى بعد ذلك ان يبشر بظهورِ ونُصْرَةِ الحق وينذر قريشاً بخذلان الباطل الذي كانوا عليه. وقد روى البخاري عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: "دخل النبي صلى الله عليه وآله وسلم مكة وحَوْلَ البيت ستون وثلاثمائة نَصْبٍ فجعل يطعنها بِعُودٍ في يده ويقول ((جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا. جاء الحق وما يُبدِئ الباطل وما يُعيد))". ورواه الترمذي ايضاً.

وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82)

شفاء قلوب المؤمنين والرحمة الربانية من القرآن الكريم جاءت من زوال آفات زيغ القلوب حال إيمانهم ومواجهتها بما جاء في القرآن الكريم من الحق المبين. فإنّ صِدْقَ الإيمان يدخل أعماق قلب المؤمن ويستأصل الآفات المذكورة فيحصل شفاء القلب برحمة الله تعالى. وفي القرآن الكريم من صفات الله الحسنى ما يظهر في المخلوقات والطبائع وآيات السماء والأرض مما يعزز الايمان في القلوب. وبالعمل الصالح يذوق العبد قرباً من المولى تعالى يكسب معه قلبه وقايةً من كل آفةٍ. اما الظالمون من جرّاء الكفر والشك والرياء والنفاق والفسوق فقد حُجِبوا عن هذا الذوق وانغمسوا بشهوات النفس في الملذات السفلى فيدركهم العناء والمكابرة إذا سمع أحدهم ما يغيظه من النذير في القرآن الكريم ويزداد خساراً بِبُعده عن رحمة الله تعالى ما أصرّ على ظلمه.

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (83) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (84)

هذا الكيان الإنساني؛ نفسٌ تتصرف وفق ما تريد، وقلب ينقل اليها الخواطر المختلفة، وعقلٌ يُبَصِّرُها بالعواقب، وروح تحمل سِرَّ حياتها. فاذا تقبلت النفس الخواطر الطيبة وساعدها العقل على الثبات عليها كالوزير القوي فإن الانسان سيؤمن ويشكر الله تعالى على نعمائه. لكنْ اذا غلب الهوى الضال على النفس، وهي تعيش في وافرٍ من النعمة وتغفل عن حقيقتها كإبتلاء فقد تقع في فتنة مهلكة. أمّا إذا كانت النعمة محدودةً ومقدرة فقد تحجب شراً وتنجو بها النفس من الفتنة. والغافل محجوب عن معرفة حكمة الله تعالى في العطاء والمنع. بينما ينظر المؤمن بنور ربه. وهنا يعمل كلٌّ على شاكلته أي ما تتجه إليه نفسه. فاما المؤمن فيحمد الله

تعالى ويوجه النعمة لرضاه سواءً قلّت أو كثرت. واما الضالُّ فتحكمه الأهواء ولا يرى النعمة الا على ضوء أهوائه وطريقته أي على شاكلته. وبقي من الكيان الإنساني روحُه، فماذا عنها؟ يقول تعالى:

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (85)

صنفان من الناس سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الروح؛ صنفٌ مؤمنٌ برسالته يريد الهدى على نورها فيسألون عن امور دينهم، وصنف متعنتٌ مستهزئ يسأل للإحراج والمجادلة. والسؤال عن الروح جاء من الصنف الثاني فمنهم كفارُ قريش ومنهم يهود المدينة. فأما كفار قريش فقد إزدادوا جهلاً بصحة الرسالة، واما اليهود فقد اقيمت الحجة عليهم كما يلي: ففي كتاب "السِيَر" لمحمد بن اسحاق بن يسار ونقله ابن كثير في تفسير هذه الآية سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الروح فأجابهم كما أوحِيَ اليه: ((قُلِ الرُّوحُ من أمرِ ربي وما أُوتيتم من العلم إلا قليلا)). فقال له احد احبارهم: "إنك تتلو أنّا اوتينا التوراة وفيها تبيان كل شيء. فقال ((هي في علم الله قليل وقد آتاكم الله ما إن عملتم به انتفعتم)). فأنزل الله تعالى قوله في سورة لقمان ((وَلَو أَنَّ مَا في الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ اقلامٌ والبَحْرُ يَمُدُّه مِن بعدِهِ سَبْعَةَ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ إنَّ اللهَ عزيزٌ حَكيمٌ)). ويكفي تقدير وظيفة الروح في الانسان بأنها ليست مادة كالجسد فالجسم مرئي، وليست كالفكر ولا كالعقل فهما واضحان من إختلافهما بين شخص وآخر. وأما الروح فلا وضوح لها. فاذا جمعنا ظواهر حياة الانسان من حركة الجسد ومجال العقل والتفكير ووظائف الحواس وديمومة الحياة التي وراء هذه الظواهر لوجدنا ان وظيفة الروح

واحدة في كل انسان حي، وهي المدى المجهول الذي لا تصل اليه وظائف الحواس، والذي بغيابه تتوقف كل ظواهر الحياة في كيان الانسان فوجود الروح مُسَلَّمٌ به من حيث الإقرار، وسره امر من الله تعالى. وبهذا يقتنع الانسان انه لم يؤتَ من العلم إلا قليلا. وفي حياتنا أمثلةٌ عما لا نراه بل نعلم بوجوده كالتيار الكهربائي المسخر لأغراضه والذي نعلم بوجوده من اثره ولا نراه في أسلاكه.

وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (86) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (87)

فضلُ اللهِ تعالى في تنزيل القرآن الكريم يتبين عظيما لعظيم أثره فإنه برهانٌ قامت به الحجة لنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وحجةٌ للمؤمنين، وحجةٌ على المكذبين. ثم يتبين فضل الله تعالى في حفظه؛ اذ لولا ذلك لغاب العِلْم الذي فيه عن الاجيال اللاحقة فالمشيئة الربانية في حفظه اظهرت هذا الفضل والرحمة. وتشير الآيتان إلى التواضع في تعلُّم القرآن وتعليمِه.

قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (89) وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (93)

كفار قريش المشغولون بالامور المادية الدنيوية في حياتهم اليومية في المال والسلطة لا ترقى بهم هِمَمُهم الى تلمس الصدق مما جاء في القرآن الكريم من حكمة ومنطق وإعجاز لفظي ومعنوي لا يمكن لمخلوق مكلَّف – اي من ذوي العقول وهم الانس والجن – ان يأتي بمثله مهما تظافرت الأعداد على ذلك. فكان القرآن المثَلَ الاعلى لكل مَثَل. ومع هذا نجد كفار قريش يريدون إعجازاً مادّياً مثل الذي انشغلوا به من دنياهم المادية ومعاييرهم في الغنى والفقر. فطلبوا من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ما ورد في هذه الآيات. فمكة لم يكن بها ينابيع تتجمع لتصير نهراً. ولم يكن فيها جنان تجري خلالها الأنهار. وقد طلبوا ذلك عناداً وليس من اجل الايمان. وسبحان الله تعالى لا يرسل بالآيات إلا تخويفاً فإن هم كذّبوا بها ينالهم العذاب. وكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يدعو الله تعالى ان يأتي من أصلابهم من يعبد الله. ثم تمادَوا في تحدِّيه (اذ لم تُلبَّ طلباتُهم) بأن يأتيَهم العذاب. ولن يؤمنوا حتى تأتيَ الملائكةُ قبيلاً، أي شاهدين على صدقه. ويشهد الله سبحانه بذلك. ولحِقَ به أحدُهم بعد هذه الطلبات فزاد من تحديه بأنه لن يؤمن حتى يكون للرسول صلى الله عليه وآله وسلم البيت المذهّب ويرقى في السماء ليأتيَهم بكتاب. وهكذا حكموا على انفسهم بالكُفور. وكان جواب الله تعالى لهم بأنّ محمداً ما هو إلا بشرٌ رسول، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم.

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (94)

ينبه الله تعالى بأن الهدى يكون بمشيئته. ومشيئتُه في الهدى لمن اناب اليه أي آمن برسالته وبرسوله صلى الله عليه وآله وسلم. فالذين انكروا أن يكون بشرٌ مؤهلاً

لرسالة ربهم فقد بينوا ضعفهم في تحمل الايمان. وهكذا يمنعهم إنكارُهم هذا من أن تدركَهم مشيئةُ الله تعالى بالهدى.

قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (95)

الله اعلم حيث يجعل رسالته. وهكذا ارسل للأقوام رسلاً من أنفسهم. وكل رسول بلسان قومه. كلٌ منهم يمشي مطمئنا بين الناس. وقد جاء بالحق ويكفي للحق أن يُرَى حقاً سواء جاء من مَلَكٍ او من بشر. وحتى لو أنزل الله مَلَكاً لأنزله اليهم بصورة بشر وإذاً لَمَا آمنوا بأنه مَلَك، ولكانوا في شكوك اكثر من شكوكهم بالرسل من البشر، ولَمَا سلُم منهم الْمَلَك مما سلم منه الرسول من بني البشر. فالرسول البشر معروف لديهم منذ الصغر وكذبوه فكيف بمن لم يسبق لهم معرفته؟

قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (96)

وشهادة الله تعالى لرسوله هي تأييده له ونصره. اذ لو كان يكذب على ربه لأنتقم منه ولسلط عليه من يسفِّه قوله وفعله ويكشف زيف إدعائه فالله تعالى لا يَخفَى على علمه كاذبٌ ولا يُنْزِل كتابه بالحق إلا على رسول صادق. وقد تحقق فيما بعد ما فعل الله تعالى بِمُسَيْلَمَةَ الكذاب وأمثاله.

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (97) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا

(98) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (99)

مَن قَضَتْ له مشيئةُ الله تعالى بالتوفيق الى الهدى اذ صدّق بآياته تعالى واناب اليه فهو الفائز عنده تعالى. ومن جحد بآيات الله تعالى فقد استجاب لوساوس الشيطان التي تصده عن الهدى فلا ينفعه ارشاد مرشد او نصرة نصير من دون الله عزَّ وجلَّ. ومن كان موقفهم موقف الضلال والجحود حتى لَقُوا الله تعالى فيبقَون على ما كانوا عليه في الدنيا من عمى القلب، وصَمَمِ الاذن عن قبول الحق، وبَكَمٍ لا ينطقون معه مثلما كانوا لا يقولون كلمة الحق بالتوحيد والتصديق. فمثلما جذبتهم الأهواء السفلية إلى أسفل تجذبهم إلى جهنم على وجوههم فلا يملكون الخلاص منها. كلّما خَبَتْ، أي أوشكت نيرانها على الطُفُوء، أُوْقِدت من جديد بزيادة التوقد جزاء انكارهم لبعث رفاتهم وعظامهم كفراً بآيات الله تعالى وأمامهم قدرته في خلق السماء وقد جعل لهم أجلاً لا ريب فيه يوم يلقاهم عند بعثهم. هذا، ومع قيام هذه الحجة عليهم أصرّ الظالمون هؤلاء على كفرهم.

قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (100)

ليس من شأن اهل الكفر ان يكونوا كرماء. بل يخشون من تسرب المال من بين أيديهم. فللّه الحمدُ الذي جعل الإنفاقَ من خزائنه بيديه وهو أكرم الاكرمين وليس لغيره تعالى أن يرزق أحدا. فهو الكريم في العطاء والحكيم في المنع يرحم بهما اولياءه او يبتلي بهما غيرهم. وقد روى البخاري ومسلم قول رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم: ((يد الله ملأى لا يغيضها نفقةٌ. سحّاءُ الليل والنهار. ارأيتم ما انفق منذ خلق السماوات والارض فإنه لم يَغِضْ ما في يمينه)). والقَتُورُ هو الذي يُضيِّق على غيره. والصادقون إيماناً لا يتصفون بذلك. والتقتير على العيال من الكبائر.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (101) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (102) فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (103) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (104)

الآيات التسع هي لإقامة الحجة على صحة رسالة سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم، اظهرها لفرعون؛ فقد ألقى عصاه فإذا هي حية تسعى، ونَزَعَ يده من جيبه فخرجت بيضاء، وانقطع المطر واصيبوا بنقص في الثمرات ثم جاءهم الطوفان والجراد والقُمّل والضفادع والدم. وهذه الآيات التسع لفرعون لم تنفعه فقد علَّل أن ما حدث لا يعدو ان يكون سحراً! ولكن سيدنا موسى قال له "لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ" أي حججٌ بينات ثم قال "إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا"، أي مصروفاً عن الخير ومتجهاً نحو الثبور أي الخسران. فأراد فرعون ان يستفز بني اسرائيل أي يخرجهم خائفين فيخليهم من مصر. ولكنّ الله تعالى أخرجهم بأمر منه بقيادة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام وعبروا البحر إذ تيبس لهم فيه ممرّ آمِنٌ. ثم لحقهم فرعون وجنوده الذين اطبق عليهم الماء فكانوا من المغرَقين وقد جاء تفصيل لهذه الحوادث في سورة الأعراف بأكثر من ثلاثين آية

من الآية الثانية بعد المئة منها. وشاءت ارادة المولى تعالى لبني اسرائيل أن يسكنوا الأرضَ، والارضُ لله يورثها من يشاء من عباده. وهنا يخاطب المولى سبحانه بني إسرائيل بأنه تعالى سيأتي بهم لفيفا إذا جاء وعد الآخرة أي القيامة. وتعني كلمة (لفيفاً): جماعات وشعوب شتّى. وقد تكرر قوله تعالى: ((فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآَخِرَةِ)) هنا، وفي الآية السابعة من هذه السورة. والمقصود في تلك الآية (السابعة) هو، كما جاء في التفاسير، ما يعقب الإفساد الثاني لبني إسرائيل من هزيمتهم بقوله تعالى: ((لِيَسُوؤوا وُجوهَكُم ولِيَدخُلُوا المسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أوَّلَ مَرَّةٍ ولِيُتَبِّروا مَا عَلَوا تَتْبِيرًا)). وفي هذه الآيات لم يرد ذكر المكان والزمان الموعودَين للكرّة الثانية لتحقيق دحر فسادهم و(ليسوؤا) أي لِيُهينوا وجوههم. ويرجّحُ تفسيرُ قولِه تعالى: ((فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآَخِرَةِ)) هنا بظاهر اللفظ، وهو وعد يوم القيامة، يوم يؤتى بهم وبأعدائهم لفيفاً أي جماعات وشعوباً ثم يجري حكم الله تعالى بينهم فيتميز السعداءُ من الأشقياء.

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (105) وَقُرْآَنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (106)

قبل نزول القرآن لم يكن في المجتمع المكي، ولا في مجتمع الجزيرة، شريعة واحدة مقدسة تحكم منافع الناس وتفصل في مظالمهم. ولم يكن ثمة من يرفع راية التوحيد لإعلاء كلمة الله تعالى فرداً صمداً إلا آحادٌ من الاشياخ. وشريعة الاسلام في القرآن تقوّض باطل عبادة الاصنام وتعدل اوهام عَبَدَتِها فلا بد لها من قوة للعمل بها بين ظهراني من يؤمن بها ومن سيعيش مع المؤمنين بها. ولذلك ينبغي اولاً الايمان بكتاب يأتي بالحق. فأنزل الله تعالى مع أمين السماء (جبريل عليه السلام) على أمين الارض صلى الله عليه وآله وسلم كتابَه الكريم متسما بالحكمة والاحكام والمحجّة

البيضاء. واختار الله تعالى من يتحمل اداء امانة كتابه ومن يتقبلها ويجاهد من اجلها اذ لا بد وان سيكون ثمة من يقاومها. ويأتي دور الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لهذا التمكين وقد لبث عمراً في قريش معروفاً بالصدق والامانة فدعا مبشراً وحاجج منذراً، فتوالت معارضته ثم هجرته الى المدينة ثم محاربته فنصره المولى وظهر الحق مع القرآن فقد نزل بالحق وتدور علومه على الحق من توحيد واحكام وامر ونهي يحفظه الله تعالى ليحفظ به الحق والعلم. فلا يُزاد عليه ولا يُنقَص منه. وبهذا أُرسِل سيدُنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم يبشر المؤمنين العاملين به وينذر المكذبين الصادّين عنه الى يوم الدين، وقد فَرَقَه الله تعالى أي أخرجه من اللوح المحفوظ لينْزِلَ مُنجَّماً أي متفرق السور والآيات على حسب الوقائع المسببة لِنُزُولِهِ ليقرأه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على الناس على مُكْث، أي على توءدة وتَثَبُّتٍ مفصَّلاً كلما نزل.

قُلْ آَمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (108) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (109)

سبحان من لا يعبأ بالكثرة إن كانت على باطل بل يعبأ بالحق وبأهله وإن قلُّوا وبأهل الخشية من عباده العلماء. فمهما كثر اهل الباطل فلن يكترث إلا لمن يَظهر اثرُ القرآن على قلبه. فمن كان مُبَشَّراً بالرسالة في كتب اهل الكتاب وعرفها في بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ظهرت عليه سِمات الطاعة وهم صالحو أهلِ الكتاب، سمعوا القرآن وعرفوه حقاً فسجدوا لمن هداهم واكرمهم بالرسالة الموعودة فزادهم خشوعاً، أي ليناً حلَّ في القلب ورطوبةً في العين ايماناً

وتسليما فقد سجدوا في حال رؤية الحق تعظيما لله سبحانه وشكراً فلما أثر فيهم هذا اخذهم بكاء الرحمة والشكر الذي ازدادوا معه خشوعاً فالسجدة واحدة وعَطَفَ المولى صفة البكاء والخشوع على صفة السجود في قوله (وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ) فكان اولُ سجودهم شكراً وآخرُه خشوعاً وتسبيحاً وتصديقاً لوعد الله العلي القدير.

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (110) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (111)

بلغ من جهل أبي جهل انه لما سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول في سجوده (يا الله يا رحمن) قال: "إنه نهانا ان نعبد إلهين وهو يدعو إلهاً آخر!" فأجاب الله تعالى بأن له الاسماء الحسنى يمكن للمؤمن ان يدعوه بأي اسم من اسمائه، وكل اسمائه حسنى، والدعاء باسمه الرحمن يجمع الدعاء باسمائه كما هو الدعاء باسمه (الله) فالرحمن وسعت رحمته كل شيء. واما الجهر بالصلاة ايام كان في مكة قبل الهجرة فقد روى الامام احمد عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: "نزلت هذه الاية ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مُتَوَارٍ بمكة". وقال "كان اذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فلما سمع ذلك المشركون سبّوا القرآن وسبُّوا من انزله ومن جاء به". قال "فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ولا تجهر بصلاتك..." الآية. أي بقراءتك فيها فيسمع المشركون فيسبون القرآن. (وَلَا تُخَافِتْ بِهَا) عن اصحابك لكي يسمعوا القرآن وليأخذوه عنك و(ابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا)". والحديث مذكور في صحيح مسلم وصحيح البخاري ثم رواه الضحاك عن

ابن عباس وزاد قائلاً "فلما هاجر الى المدينة سقط ذلك، يفعل أيَّ ذلك شاء". وقد جهر صلى الله عليه وآله وسلم في صلاة الفجر والمغرب والعشاء والجمعة والعيدين والتراويح ووترها والكسوف إماماً ولم يجهر إماماً بصلاة الظهر والعصر. وهذا ما جرى عليه الراشدون والتابعون رضي الله عنهم. وبالنسبة لمن يصلي منفرداً فله ان يجهر في الفجر والمغرب والعشاء او ان يخافت. وجاء عن سيدنا ابي بكر الصديق رضي الله عنه أنه كان يخفض صوته فقيل له لِمَ يفعل ذلك فأجاب بأنه يناجي ربه. وجاء عن سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه انه كان يرفع صوته فقيل له في ذلك فاجاب بأنه يطرد الشيطان ويوقظ الوسنان. وختم سبحانه سورة الاسراء بآية العز بالحمد؛ فقد نفى عن ذاته كل نقيصة او ما لا ينبغي للذات الجليلة للمولى العزيز العلي القدير من شريك او والد او ولد أو ولي من الذل، أي ولي يدفع عنه الذل. وعلى العبد ان يعظِّم ربَّه الكبيرَ تعظيماً بإجلاله وتنزيهَه عما يقول الظالمون عنه وعما يصفه به اهل الشرك من صفات لا تنبغي له. فقد اشتط غير المسلمين بعيدا: فمنهم من نسب له ولدا، ومنهم من نسب للبشر اولياء اعزوا ربهم (سبحانه) عما يصفون فقد كذبوا فالبشر يمجِّد ربه وهو في الازل مجيد ويحمد المؤمن ربه وهو تعالى في الازل حميد. وان جاهد العبد المؤمن فإنما يجاهد لنفسه والله غني حميد. وكلمته هي العليا وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. الآية الاخيرة سميت "آية العز" سماها بذلك النبي وكان صلى الله عليه وعلى آله وسلم اذا افصح الغلام من بني عبد المطلب عَلَّمَه هذه الآية. وقيل إذا قُرِئت في بيت لا يقربه ليلتها لص والله تعالى أعلم.

سورة الكهف

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (1) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (2) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (3) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (4) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآَبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (5)

ثالثُ سورة بعد الفاتحة والأنعام تبدأ بـ(الحمد) الذي ندرك معناه إذا قصدنا تعظيم رب العزة ولا ندرك مداه مثلما لا ندرك مدى كلمات الله تعالى فله الحمد. وجاء الحمد في اول آية هنا مشيراً الى الفضل الذي لا يدرك مداه في نزول القرآن قيّماً (مستقيماً لا زيغ مع إتّباعه) لينذر بأساً شديداً من لدن رب العزة. ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأجرٍ حسن ماكثين في نعيمه من غير تحوّلٍ عنه. بينما ينذر بهذا البأس الشديد من ينسب لله تعالى ولداً. فقد كان مشركو العرب يقولون بأن الملائكة هم بناتٌ لله سبحانه وتعالى علواً كبيرا. وينكر سبحانه عليهم ذلك اذ اخذوه من غير تمحيص عن آبائهم الذين لم يتحرّوا مصدره ليعلموا بطلانه وكبيرَ إثمه في كلمة يتفوّهون بها وهي عند الله عظيمة البشاعة لِما حملت من افك يمس ذاتَ الفرد الصمد جل علاه.

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آَثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (6) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (8)

كثر من كفار قريش محاولاتهم لتكذيب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كما كانوا يظنون به. ومن قبيل ذلك انهم ارسلوا النضر بن الحارث وعقبة ابن ابي معيط من رؤوس الكفر الى يهود المدينة ليستدلوا منهم على كيفية اختبار نبوّة سيدنا محمد

صلى الله عليه وآله وسلم فأرشدوهم الى سؤاله عن اهلِ كهفٍ، وعن ذي القرنين عليه السلام، وعن الروح! ومِن هذا الشك من قريش ومن حِرص النبي صلى الله عليه وآله وسلم على هداهم اصابه الغم على ما سيؤول بهم هذا الكفر من مصير فقال تعالى له: فلعلك باخع نفسك! أي تهلك غمّاً من الأسف إن لم يؤمنوا. واشار تعالى الى ان الحياة الدنيا دار امتحان يختبر بها تعالى عباده بما خلق من زينة أي ما يتزيّن في النفوس؛ سواءً كان مباحاً، أم غير مباح. واخبر عن مصيرها الى صعيد جُرُز أي ارض لا تنبت ولا تنفع. وهي بذلك لا تَخدع الذين آمنوا بالله تعالى وعملوا صالحاً في ما آتاهم ربهم منها بل يُفتَتَنُ بها من لا يريد الآخرة فيرتع في حرام أو ضلال في الذي يناله من زينة الأرض.

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (11) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (12)

الاستفهام هنا هو بيان كون موضوع اهل الكهف ليس بذلك العجيب أزاء خلق السماء والارض وآيات الله فيهما، فإن رقود أهل الكهف طيلة القرون الثلاثة ثم بَعْثَهم أمرٌ يسيرٌ على الله تعالى. فقد آمن اهل الكهف بوحدانية الله تعالى خلاف ما كان عليه قومهم من عبادة أوهام اسموها آلهة. ولما خافوا تعذيبهم من اجل اعادتهم الى الكفر لجأوا الى الكهف مؤملين من الله تعالى ان يرحمهم ويجعل عاقبة امرهم نجاة. فرقدوا فألقى الله عليهم حالة رقود وعبر عن ذلك بقوله ((فَضَرَبْنَا

عَلَى آَذَانِهِمْ)) فكانت الاصوات لا توقظهم. ثم مرت السنون طيلة ثلاثة قرون ثم بَعَثَهم. وهذا تقديم لقصة آيتِهم تمهيداً لتفصيلها.

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آَمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (14) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (15) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفقًا (16)

وهكذا المولى الكريم اذا عَلِمَ من عباده الايمان زادهم هدى أي جعل من ايمانهم بالله تعالى بداية لرقيهم في منازل القرب منه. فكلما عملوا بعلمهم حمّلهم من كرمه علِماً أعلى فأعلى كما جاء في الاية الثالثة والثمانين بعد المائتين من سورة البقرة (واتَّقُوا اللهَ ويُعَلِّمُكُمُ اللهُ). واما قوله تعالى (وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ) فيعني تثبيتَهم بالصبر على ما وُفِّقوا إليه من الايمان ومخالفة قومهم الكَفَرَة ثم القناعة بشظف العيش بعد رفاه عيشهم فقد جاء في التفاسير انهم كانوا من عِلْيَةِ القوم. قيل كانوا لا يعرف احدهم الآخر وإن كانوا من مدينة واحدة اذ اعتزل كل واحد منهم عائلته التي كانت تسجد للأصنام بلا علم. ثم التقوا في مثابة وتصارحوا بالايمان فقالوا "رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا". فألهمهم المولى عز وجل الفرار الى كهف يعرفون مكانه فقصدوه وكان مع احدهم كلبه الذي لم يفارقه. وبإنتظار ما سيجري عليهم رقدوا رقدتهم تلك.

وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آَيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (17)

من آيات الله تعالى لأهل الكهف أنّ وضْعَهم في الغار وكان مناسباً لديمومة الحياة من حيث تبدل الهواء ووصول شعاع الشمس فكان الشعاع يتزاور أي يميل بعيداً عنهم رغم دخوله الكهف فيكون الى جهة بعيدة عن فجوتهم واذا غربت الشمس تقرضهم أي يعدل شعاعها عنهم فتتركهم ذات الشمال. وذلك ان اتجاه الكهف مطابق للشمال كما يبدو. اما مكان الكهف فقد اختُلف فيه وكل ما يمكن قوله ان معرفة المكان لا تدخل في مقاصد القرآن الكريم التي منها معرفة قدرة الخالق جل جلاله ثم العبرة من قصتهم ومعرفة اللطف الرباني في تعليمهم. ولو كان للمكان شيء من هذه المقاصد لأرشدنا الله تعالى إليه. ثم بين الله تعالى انما اهتدى فتية الكهف بهدى الله تعالى اذ عرف فيهم انكار الباطل في عبادة الاصنام فهداهم الى العبادة الحقة في تعظيمه واللجوء اليه وطلبِ رحمته والهدى لنوره. واما من أضلَّه الله فعلمه فيهم ان لن ينفعهم إرشاد مرشد فلم يهيئ لهم مرشداً.

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (18)

استدل المفسرون بان أعْيُن فتية الكهف لم تكن مطبقة اطباقة النائمين اذ ذكر الله تعالى انه ضرب على آذانهم ولم يرد ذكر لأعينهم ولهذا يحسبهم الناظر اليهم أيقاظاً لأن الذي لم تَغمَضْ عيناه لا يُحسب نائماً. واما تقليبهم فمن آيات الله تعالى لديمومة حركة الدماء فيهم. واما الكلب الذي كان لأحدهم فقد عرف بالغريزة مكانَه في مدخل الكهف أي الوصيد وهو الجزء الخارجي عند المدخل. وقد بسط ذراعيه على عادة الكلاب عندما تكون يَقِظَةً. وقيل ان لو إقترب أحدٌ من الكهف

لكان يجد ريحاً محرقة فيولي منها هارباً مرعوباً. وهذا سبب حراستهم طيلة رقودهم القرون الثلاثة.

وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (19) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (20)

يدل تساؤلهم عن لَبثِهم مع ظنهم بأنهم لبثوا يوماً او بعض يوم، بأنهم لم تكن هناك تغييرات في اشعارهم وهيئاتهم طيلة القرون الثلاثة والا لكانت اظافرهم مثلاً بالغة الطول وكذلك اشعارهم. وهذا من آيات الله تعالى. ولشعورهم بالجوع اخرجوا نقوداً عبّر عنها تعالى بـ(الورِق، وهي الفضة وقد تكون مسكوكةً او قطع معلومة الوزن) ليأخذها احدهم الى المدينة نفسها لجلب الطعام اليهم مع الحذر في التصرف كي لا يشعر بهم احد. وبهذا يستدل انها المدينة التي خرجوا منها فانهم يخشون ان يرجموهم لخروجهم عن دين آبائهم او يُكرِهوهم على الكفر فلا فلاح بعده.

وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (21) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (22)

وصل احدُ الفتية الى المدينة واستغرب من تبدُّلها وتبدُّلِ اهلها وتقرب من اقرب بائع طعام واعطاه الفضة أي الورِق الذي معه ثمناً للطعام فدُهِش البائع من قِدَمِ العملة فناولها جاراً له ثم تناولتها الأيدي حتى وصل الأمر إلى الملك فسأل الفتى عن امره فقص عليه الخبر وفيه ذِكْرُ مَلِكِ وقتهم فدلّ تاريخه على مرور ثلاثة قرون وتسع سنوات. وكان الملك من المسلمين فعانق الفتى وإصطحبه الى الكهف ليتعرّفوا فتيةَ الكهف الباقين فيه فلما دخل عليهم صاحِبُهم الكهفَ وعرفوا منه الخبر علموا أن الوعد بنجاة المؤمنين حق وتَثَبتوا من قيام الساعة. وفي التفاسير أنهم ودّعوا الملك المؤمن وتوفّاهم الله تعالى وكان ذلك برهان لأهل ذلك الزمان بقيام الساعة لأنهم كانوا بين مؤمن ومنكِر فقامت الحجة للمؤمنين الذين سدوا على الفتية الكهف واتَّخَذوا عليهم مسجدا. وخاض الناس في عددهم مما لا عبرة فيه. فأخبر بذلك رب العزة وامر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأن لا يدخل مع اهل الشك في جدل عنهم فما في ذلك عبرة إلا بمراءٍ ظاهر أي جدل هيّن سهل ولا يسأل عنهم ممن يدعي العلم بهم. وإستدل إبن عباس رضي الله عنهما بأنهم سبعة لورود هذا العدد بعد قوله تعالى (رجماً بالغيب) أي تخميناً. فالسبعة إذاً ليست كذلك.

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (23) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (24)

يؤخذ سبب نزول هذه الاية من حديث ذكره الامام محمد بن اسحق بن يسار في كتابه (السِّيَر) عن ابن عباس رضي الله عنهما حول سؤال النضر بن

الحارث وعقبة بن ابي معيط من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الوارد في تفسير الاية السادسة من هذه السورة هو أن رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم وعدهما بالإجابة في يومهما التالي. ولكن الوحيَ تأخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خمسة عشر يوماً إذ لم يستثنِ الوعد بـ(إن شاء الله). فأمَرَه الله تعالى بالاستثناء، أي بأن يستثني الموعد من الجزم، كأن يقول: إن شاء الله أو إلا أن يشاء الله، او ما في معناه. وهذا الامر لكل مؤمن ولا يقتصر على غدِهِ، أي اليوم التالي، بل للمستقبل مطلقاً وفي هذه الحالة من النسيان ان يقول المؤمن عسى ان يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً.

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (25) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (26)

اخبرنا المولى عز وجل بأن مدة مكوث اهل الكهف فيه كانت ثلثمائة سنة شمسية واذا احتسبت بالسنة الهلالية (القمرية) فتزيد على ذلك بتسع سنوات. وبهذا لم يحصل خلاف فالله اعلم بما لبثوا وهذا من الغيب الذي هو من اختصاص الله تعالى إذ لا يمكن لغيره ذلك ولا يغيب عن سمعه وبصره شيء فالخالق واسع عليم محيط بكل شيءٍ علماً. فما يتسنَّى للبشر ولايةٌ كَولايتهِ. فله تعالى الخلق والامر لا معقب لحكمه ولا يحتاج لأحد من خلقه ليشركه معه.

وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (27) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ

عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28)

يأمر المولى عز وجل رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ان يبين ما في القرآن بتلاوته اذا ما حدث قولٌ يخالفه أو طَلَبَ إليه المترفون من كفّار قريش تبديلَ كلماتٍ منه، فالقرآن هو الحق لا مبدِّل له ولا محرِّف له. وهو المرجع الذي لا يجد في غيره ملتحداً أي ملجأً. وإذا طلبوا تنحية بعض فقراء المسلمين عن مجلسه فليصبر نفسه مع صحبه وهم اهل المجلس الحق في ذكر ربهم واقامة الصلاة رجاءً للقاء ربهم لقاءً حسناً يزيِّنون المجلس بذكر الله تعالى فلا يتجاوزهم. ولا يأبه لمن يملأ المجلس بذكر الدنيا من مال وبنين وملذات وفخر وتسلط فهم قد فَرَط من يدهم امرُهم فلا يملكون الرشاد اذ يطلبون ان يتخلص من فقراء المسلمين ليجالسوه. وهذا من غفلتهم عن مقادير الله تعالى في الفقر والغِنى ومن مطاوعتهم أهواءهم الضالة. وكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يرجو لأولئك الكفار ان يهتدوا اذا ما حضروا عنده ولكن الله تعالى لم يشأ لهم الهدى.

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (29)

وهكذا الحق ليس فيه من شك اذ أنه من ربِّ العالمين يُحِق الحق بكلماته. ومن يبلغهم الحق المبين تقوم لهم أو عليهم الحجة في إختيار الايمان أو الكفر. وهنا يتوعد المولى عز وجل اهل الكفر فقد ارصد للظالمين ناراً لا مخرج لهم منها.

فسُرادقها، أي سورها، محيط بهم. واذا وضع الخالق سوراً فلا حيلة فيه لهم إلا أن يستغيثوا وعند ذاك توعّدهم المولى عز وجل بإغاثتهم بماء كالْمُهْلِ، أي الماء الكثيف اللزج الساخن كريه اللون، فلا مثيل له في البؤس ولا حال اسوأ مما هم فيه. والمرتفق هو ما يستند عليه مرفق اليد نِشْداناً للراحة فالمقصود فقدان الراحة في مواضعهم.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (30) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (31)

أكد المولى تعالى أنه يحفظ أجر الأعمال الصالحة للمؤمنين وبشرهم بجنات عدن، أي ذات المقام الطيب. واما السندس فهو الحرير الرقيق الناعم. والاستبرق هو الحرير ذو الخيط الاكثر سمكاً وله بريق ولكل نوع اردية تصنع منه؛ فالسندس للأردية الداخلية، والإستبرق للخارجية. واما الاتكاء فهو دليل التنعم والاسترخاء في هذا الثواب الحسن والمحيط الافضل، ووصف المولى عز وجل ذلك الاتكاء بالمرتفق الحسن. ووصفُه حَسَناً يدل على متكأ وثير يبعث على الراحة.

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (32) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (33) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (34) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (36) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا

(38) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (39) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (40) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (41) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (42) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا (43) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (44)

من كان مثل المترفين من كفار قريش الذين استنكفوا من مجالسة فقراء المؤمنين فلا بُدّ لهم أن يعرفوا موقعَهم من قدرة الله تعالى ومن حكمته في العطاء والمنع فليعتبروا إذ يبين المولى عز وجل هنا لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم ما ينبغي ان يذكّرهم به من أمثالٍ تتفق مع سِيرتهم وتكشف عاقبتهم قياساً عليها. فهم انما فُضِّلوا بالمال بعلم الله تعالى وتقديره ليبلوهم. فما معنى الاستعلاء على من قَدَر الله تعالى عليهم رزقَهم؟ وقد غفلوا عن نعمة الله تعالى ونسبوها لكرامتهم واعتزوا بالمال والعبيد والخدم. فقد كان لأحد الرجلين، وهو الغني المترف، محاورة مع صاحبه العارف بربه الشاكر لنعمته. وجرّه الحوار الى التفاخر بالمال والحاشية من عبيد وخدم. ثم غفل عن ربه الكريم واحسن ظنه بالأيام التي صفت من الكدر فاطمأن لها ولم يعتبر بما يأتي به القَدَر الذي قدره الله تعالى. ثم نسب لنفسه الفضل حتى تألّى على الله تعالى أي كأنه اقسم على الله ان يعطيَه خيراً مما اعطاه لئن رجع إليه، وقوله: (لئن) يأتي من الشك في ذلك! وهذا دليل كفره. فأنكر المؤمن على هذا الجاحد وذكّره بأنّ الله تعالى اوجده من العدم. وما ضَرَّهُ لو نسب القوة لله تعالى وشكره على مشيئته. وبهذا الحوار بيّن المؤمن لصاحبه قدرة الله تعالى على تبديل حال كل منهما الى

النقيض. ونزل القدر من الله على جاحد النعمة ولم يجد من دون الله تعالى من يردّ القدر وحصلت الندامة. وفي هذا تحذير لهؤلاء المترفين فقد جاء إلى جنتيه في صباحٍ بعدها ليرى أشجاره بلا ثمر. إذ أحاط به، أي جرى على الثمر ما كان مقدراً عليه، فلم يملك سوى الاسف على ما انفق وما أمّل ثم ما حصل فخيب امله، ولم ينفعه احدٌ ممن اعتز بهم اذ قال "وَأَعَزُّ نَفَرا" اذ لم تكن له فئة ينصرونه ولا وليّ ينقذه اذ الولاية لله الحق في النصر. وما كان منتصراً وقد خسر اكثر من ذلك؛ خسر ثواب ما كان سيفعله بالثمار لو كان صادق الايمان يخرج الصدقات والحقوق. فالاعمال التي يراد بها وجه الله تعالى هي خيرٌ ثواباً في الدنيا وخيرٌ عاقبةً في الآخرة.

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا (45) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (46)

الحياة الدنيا ظاهرةٌ تزول وحقيقتها مَثَلٌ لِما يراه الناس من هشيم أي نبات يابس متكسر الى قطع صغيرة هي الهشيمة لا تصمد امام الرياح. فلا يقدر أحد على شيء من دنياه إلا ما يوظفه للباقيات الصالحات؛ للعبادة الخالصة والذكر المتواصل لله تعالى. وفي التفاسير: مِن ذلك التسبيح والحمد والتهليل والتكبير يدّخرها المولى تعالى لأهلها فهي الأفضل في الثواب والأفضل للأمل.

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (47) وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (48) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا

الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (49)

إنه يوم القيامة، فلا تبقى جبال! بل تظهر الارض بلا عِوَج فلا يغيب احد عن المحشر ويُعرضون على الله تعالى. حينذاك يعلم ذوو الأفعال القبيحة والذنوب المتراكمة صدقَ النُّذُر. ولا ظلمَ في ما يواجهونه من حساب على اعمالهم مهما صغُرت. ولا يختلف هذا الجمع عن يوم الخلق الاول إذ اشهدهم الله تعالى على نفسه اذ اخذهم من صُلب ابيهم آدم عليه السلام فشهدوا لربوبيته. ولكن الفرق بين اليومين هو الاعمال الْمُحضَرة والتي تسلمهم الى العدل في الحساب.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (50)

يعيد المولى عز وجل ذكر بداية عداوة ابليس لبني آدم لأهمية ذكر هذه العداوة وتلمُّسِ اثرِها في الوساوس والأوهام والبِدَع والفحش وإستحباب الحياة الدنيا على الآخرة. وهكذا ينبه تعالى المؤمنين على ذلك. ويورد المشهد اذ امر الملائكة بأن يكرِّموا ويُحَيّوا آدم بسجدةٍ بعد ان نفخ فيه من روحه ففعلوا. غير أنّ تكَبُّرَ ابليس (المخلوق من نار) وحسدَه حالا بينه وبين الطاعة التي بادر بها الملائكة (وهم من نور الله تعالى). وهنا يُنكِر المولى عز وجل على اهل المعاصي اتخاذَ إبليسَ (العدو الواضح) وذريته أوْلياءَ يدعون الى النار بدلاً من الهدى إلى دين الحق. فما اشد بؤس من ابدل موالاة الله تعالى بموالاتهم!

مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (51)

المتفرد بخلق المخلوقات وبتدبيرها وتقديرها هو الله الذي لا شريك له ولا معين له. ولم يشهد ابليس ذلك الخلق كما لم يشهده غيره من الظالمين المضلين من ذريته او من غيرهم وهم لم يشهدوا خلق أنفسهم ولم يتخذْ منهم عضدا، أي اعواناً، فكيف يكونون اولياء من دون الله؟

وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (52) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (53)

وهو يوم اقامة الحجة اذ يطلب الواحد الأحد من هؤلاء الكفار أن يدْعُوا شركاءهم لكي ينقذوهم من عذاب النار! ويمتثلون لأمر الله تعالى ولكنهم لا يتلقون جواباً وقد حال بينهم ما يتعذر معه على الطرفين اللقاء ببعضهما وهو (الموبق) أي الأمر الْمُهلِك يحول بشدة العذاب. وقد يكون الشريك المزعوم في الجنان كالانبياء والأولياء فهم قد سبقت لهم من الله الحسنى وهم عن جهنم مبعدون. فكيف يصل منهم الى المشركين احد؟ ومن الذي يشفع إلا بإذن الله تعالى. وتعرض النار على مرآى من المشركين فيحصل اليأس من النجاة وتزداد ظنونهم بأنها ستكون موقعا لهم. ولم يجدوا مَعْدِلاً لهم عنها؛ مصيراً لم يجدوا فيه منفذاً لهم لينصرفوا منه الى غيره.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (54)

تصريف الامثال في القرآن هو إيضاح الحالات التي يوردها المولى عز وجل متشابهة مع حالات الناس ولا سيما أهل العناد او الانكار او الكفر او الجحود وما الى ذلك مما لا يترك حجة على من يتخذ مثل هذه المواقف المتعنتة. وهذا يدل على أصناف هؤلاء خلاف الذين هداهم الله تعالى طريق النجاة. فالانسان الاكثر جدلاً هو من صنف الغافلين او الضالين او الفاسقين او الاكثر شقاءً والعياذ بالله تعالى. وهنا لا يعتبر من الجدل إذا أبدى المؤمن عذراً او سأل عن امور دينه وعن تفاصيل الإجابة حتى يستقر مفهومه على صحة العبادة. ودليل ذلك العمل بما يعلم.

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (55) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا (56)

سُنّة الاولين هي منع الإيمان عن الذين كذبوا الرسل عليهم الصلاة والسلام ثم طلبوا منهم أن يأتيهم العذاب تكذيباً لهم. وهذا ما حصل للهالكين على مَرّ الازمنة القديمة. فالمولى عز وجل لا يعذّب حتى يبعث رسولاً. فإن كذّبه قومه انذرهم بالعذاب. فإن سخروا او طلبوا ذلك عناداً او تحدّياً أتاهم العذاب الذي لحق بمن سبقهم من امثالهم قُبُلاً أي مواجهة وعياناً، وقد تعلقت نفوسهم بالدنيا. وهكذا تكذيبُ الرسالات يَمنع الْمَرَدَةَ من الايمان ويُسْلِمُهُم إلى العذاب. واما الرسل عليهم الصلاة والسلام فقد بشروا بالسعادة وأنذروا عذاباً شديداً. وجادل أهل الكفر بالباطل فدل ذلك على الكفر والإستهزاء بالنذر. ولم يستفيدوا من البشرى لو تحلّوا بالحق وخافوا العاقبة.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (57) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (58) وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (59)

الإعراض عن الآيات هو تناسيها وعدم الاصغاء اليها وعدم الاهتمام بها. ولم يفطن من كانوا من أهل الإعراض إلى قبائح اعمالهم ليرَوا اين هي من آيات الله تعالى الداعية الى الخير والجنة. فهؤلاء سبق علم الله تعالى بما سيكونون عليه، فأعدَّ لقلوبهم أكِنّةً أي اغطية لأنها تحجب قلوبهم عن فهم القرآن الكريم وما بيّنه فيه المولى عز وجل من حق وما أبطله من غير الحق. وأعدّ لآذانهم وَقْراً أي ثِقَلاً. فحالهم كمن هو أصمّ لا يسمع فلا ينفعه النداء للهدى. ومع هذا تُدرِكُهم مغفرةُ اللهِ ورحمتُه إن أنابوا فأمهَلَهُم من اجل ذلك ليتذكروا فلم يعجّل لهم العذاب بل تركهم الى آجالهم وعندئذٍ فإن لم ينيبوا فلا محيد لهم يتجهون اليه كموئل، أي سبيل وملجأ، تخلصاً من العذاب. وقد جاءتهم فرصة التخلص فما رعوها. وهذا ما جرى للقرى التي ظلمت بآيات الله وكذبت الرسل حتى إذا بلغ أهلها آجالهم حلّ بهم الهلاك بلا فرصة أُخرى للتوبة والإنابة. ولا ظلم في ذلك. والمقصود بالقُرى المشار إليها: المدن التي هلك أهلها المكذِّبون.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (61) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (62) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي

نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (64) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (65)

بعد ان بين المولى عز وجل من آياته في هدى اهل الكهف إجابةً لسؤال كفار قريش، كما جاء في شرح الايتين السادسة والسابعة من هذه السورة. ثم بين من حكمته وما أعدّ لأهل الضلال والكفر وما أعدّ لأهل الايمان والصلاح، يورد هنا قصة العبد مع سيدنا موسى عليهما السلام. ثم يجيب عن سؤالهم عن ذي القرنين. فقد اوحى سبحانه الى موسى انه سيلتقي مع عبد من عباده آتاه رحمةً وعِلماً واختصه بما لم يخبر به موسى (عليهما السلام). وبهذا بيّن المولى تعالى من آياته في تدبير الامور وفق ما يعلم من عباده. وجعل علامةً للّقاء بين الرجلين بأنّ الحوت (أي السمكة التي كان سيدنا موسى قد ابقاها لدى فتاه للغداء) ستتسلل الى البحر بما يبعث على العجب. وهنا حان اللقاء وبدأ الحوار مقتصراً على الرجلين بعد أن إنصرف فتى موسى عنهما:

قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (70)

يدلنا العليم القدير في هذه الآيات على أوجُهٍ مما اخفاه عن البشر من أوامر ومراده منها. فإن سيدنا موسى من أُولي العزم من الرسل عليهم السلام تلطف مع العبد المشار اليه (وفي التفاسير انه الخضر عليه السلام) وسأله إن لم يكن لديه مانع

من إتِّباعِه للتعلم منه. (هكذا يطلب المتعلم من العالِم بالتواضع واللطف). فبيّن له الخضر عليه السلام بأن العلم الذي يطلبه منه مما لا يطيق معه صبراً. وفي هذه دلالة على ان العلم الرباني يُعطى لمن يريد الله تعالى ان يكلفهم بأعمال تبدو للناس من قبيل الصدفة او الاقدار او اللطف (وان خفيت مسبباتها عليهم) لتنفيذ ارادته. فارادته في الرسل أن يبلِّغوا رسالة التوحيد بما يشاء من النذر والبشائر والعِبَر للإيمان والتمسك بشريعته والجهاد من أجلِها. واما إرادته بأهل العلم الخفي فهي تدارك الاقدار والمجريات التي لا يقصدها أو يتوقعها من تجري عليهم فيظنونها من قبيل الصدفة والاقدار العفوية. وهذه الافعال التي وراءها علم لَدُنِيّ تجعل الرسل يدهشون لها ويُنْكِرون ما لا يتفق مع الشريعة منها. ولهذا اشترط الخضر من موسى عليهما السلام ان لا يبدأ بطلب الاسباب حتى يبادره بها. ولكن هذا ما لم يحصل من رسول يريد انفاذ احكام الشريعة التي جاء بها فيبادر للدفاع عنها أو لإبداء الرأي أو التساؤل بشأنها.

فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (72) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (73) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (74) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (75) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (76) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (78)

انفرد كل منهما بالآخر في هذه الصحبة التعليمية. وهي علم للعالمين لمن شاء الله تعالى لهم ان يعرفوه. فقد انتهز الخضر فرصة سانحة في سفينة في عرض البحر ركبا فيها فخلع لوحاً منها فتسرب اليها الماء الى حد أوشكت فيه على الغرق. وكان المفروض على سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ان يفي بالوعد فيصبر عن السؤال. ولكنه لم يسأل عن السبب بل كشف فهمه لِما حصل بأن الخضر ربما يريد ان يُغرِق اهلها فقال عن ذلك: (شيئاً إمراً). أي عجباً غير مفهوم السبب. ثم اعتذر عن هذا وطلب عدم المؤاخذة لنسيانه. واذا بالعمل التالي على البَرِّ يسفك فيه دمَ غلام لم يبلغ الحُلُم. وهذا في الشريعة قتلُ نفس بدون سبب ظاهر للقتل فنفسه زكية اذ لم يجر عليه القلم بعد. فهذا عمل منكر. وهنا أعاد الخضر (عليه السلام) عتابه بزيادة قوله (أَلَمْ أَقُلْ لَكَ) بدلاً من (ألم أَقُلْ إنَّكَ). فوعده سيدنا موسى عليه السلام إنْ سأله ثالثة فليفترق عنه فقد اعذره. وانطلقا الى قرية لم يطمئن اهلها الى ضيافتهما ومع هذا اقام الخضر جداراً فيها كان على وشك الانهيار ولم يتقاضَ أجراً على ذلك. فلما اقترح عليه سيدنا موسى عليه السلام ان لو شاء اخذ اجراً على عمله، انهى الخضر عليه السلام هذه الصحبة وشرع بتفسير اسباب الحوادث الثلاث والتي يقاس عليها ما يحصل في حياتنا العادية ولا نعلم له سبباً؛ فقد أنقذ مساكين من الخسارة الفادحة بأن أعاب سفينتهم لأن مِلِكاً طاغياً كان يغصِب السفن الصالحة فاضطر الى ترك هذه لأهلها. ثم اراح ابوين مؤمنَين من ارهاق عقوق ولدهما الذي علم الله انه سيكون من الطغاة الكفرة، فأمر بقتله. واخيراً حفظ الله تعالى كنزاً ليتيمين كان ابوهما صالحاً وكانا دون البلوغ فلو انهار الجدار وظهر الكنز الذي تحته لَما انتفع منه اليتيمان كما لو يكونان بالغَين. وهذه

الحوادث وتأويلاتها دلتنا على ولاية الله تعالى للمساكين ثم للمؤمنين ثم لذرية الصالحين. فعلى المؤمن أن يطمئن الى تقدير العزيز العليم. وهكذا بيّن المولى تأويل ما حصل في الآيات التالية:

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (82)

يتبين من هذا التأويل لطف العليم الخبير بعباده. وبذلك تطمئن قلوب المؤمنين به الى عنايته في قدرته. فان لم يعلموا اسباب ما حصل وجرى عليهم او على غيرهم فعليهم حُسن الظن بالله تعالى مع ترك الارادة الى إرادته في ما لا يملكون تغييره او نَيْلَه من امور دنياهم. وعليهم الاستقامة على العمل للآخرة فهي سبب النجاة والرعاية.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (83) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (85)

جاء الآن موضع سؤال النضر الذي ارشده اليه اليهود حول ذي القرنين كما جاء في اول السورة فأمر تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ان يتلوَ عليهم ما

يوحَى اليه بشأنه؛ فإن الله تعالى قد مكّن ذا القرنين أي هيأ له اسباب السيطرة والنصر في فتح الاقاليم. فانطلق نحو الغرب ثم الشرق ثم ما بينهما.

حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (86) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (87) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (88)

استمر ذو القرنين فاتحاً البلاد حتى بلغ أرضاً من جهة الغرب وكانت الشمس تغرب على الصورة التي تكون فيها في الافق لحظة الغروب أي منكسرة الحدة في الحرارة والشعاع وراء أرض من حمأة أي طين أسود، ووجد عندها قوماً أي سكان تلك البلاد ولم يكن بينهم من يدعوهم للأيمان بالله تعالى فدعاهم شأن اهل الايمان من الفاتحين فمن آمن منهم علَّمَهم أيسر العلم للعبادة، ومن ظلموا أي لم يؤمنوا إستدل بعض المفسرين على انه قتلهم بدليل قوله تعالى: (ثم يُرَدّ الى ربه).

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (89) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (90) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (91)

وسلط المولى عز وجل ذا القرنين على قوم آخرين كانوا في جهة الشرق من الارض. والشمس تشرق عليهم من غير ساتر ارضي أي انهم كانوا في سهول منبسطة وكان شأنه معهم الدعوة الى الايمان بالله تعالى. والله تعالى محيط بما حصل ولم يكشف ما ليس فيه عبرة.

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (92) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (93) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (94) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (95) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (96) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (97) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (99) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (100) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (101)

تتوقف قصة ذي القرنين ببلوغه موقعاً يتوسط جبلين عظيمين عندهما قوم لم يختلطوا في علاقات مع الناس فيألفون لغاتِهم فهم يتفاهمون مع الغرباء بصعوبة. ويظهر من حواره معهم انهم في حالة اقتصادية جيدة جعلتهم يخشون على اموالهم من هجمة اقوام لهم اعداد كاسحة اذا هجموا عليهم. فأرادوا المساومة مع ذي القرنين جهلاً بأمكاناته ليجعل بينهم وبين اولئك سدّاً. فطمأنهم الى انه سيعينهم من غير مقابل وفعلاً صهر الحديد وصب حممه بطريقة ما. وجعل لهم ردماً أي حاجزاً اكبر من السد لا يتمكن عدوٌّ من العلوِّ عليه او حفر نفق من تحته. اما التفاسير فقد اهتمت كثيراً بروايات لا سند لها كما لا اهمية لها. لأن اهمية قصص القرآن الكريم هي في العبرة. ويؤخذ في هذه السورة من ذلك العبرة في هداية ذوي القلوب السليمة حتى يؤمنوا بالله تعالى واليوم الآخر كما لطف الله تعالى بأهل

الكهف. والعبرة في معاملة الغني الطاغي والفقير القانع. وفي معصية ابليس وخسارته الرحمةَ من الله الرحيم. وفي حفظ مال مساكين يعملون لكسب عيشهم. وفي حفظ كرامة ابوين مؤمنين. وفي صيانة كنزٍ ليتيمين بسبب صلاح ابيهما. وفي لطفه تعالى مع الشعوب. وفي انذاره تعالى بأنه سيترك الناس يوم تقوم الساعة يموج (أي يتداخل) بعضهم ببعض في ذهول من اهوال جسام. وفي جهنم تُعْرَض على الكافرين الذين ميّزهم بأنهم كانوا اذا سمعوا الحق اعرضوا عنه لشدة ثقله في قلوبهم. وفي هذه العبر تذكرة لمن يخشى اذ بشَّر سبحانه في اول السورة بقوله ((.. ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجراً حسناً)). ويورد المولى عز وجل خلاصة هذه العبر والبشارة في آخر السورة كما يلي:

أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (102) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (105) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (106) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (107) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (108) قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (109) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110)

اظهر العليُّ القدير قدرتَه ولطفه لما يشاء. وبهذا يُنكِرُ على المكذِّبين الذين لم يؤمنوا بولايته، بدليل اتخاذِهم عبادَه من دونه اولياء، فخيب سعيهم وإن كانوا في

ضلال عن فهم اخطائهم في انكار البعث والهزء برسل الله تعالى. وختم تعالى سورة الكهف ببشارة المؤمنين وبسَعَة علمه وصِدْقِ رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وبإرشاد من يرجو لقاءه ربه راضياً مُرضِياً ان يعمل الصالحات ولا يرى أثراً لغير الله تعالى في ما يجري عليه او على غيره ولا يقوم بعمل يريد أجراً غير وجه الله الواحد الاحد، والا فإنه يُنادَى يوم القيامة ان يبحث عن اجره من ذلك الشريك والعياذ بالله تعالى.

سورة مريم

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ

كهيعص (1) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (3) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4)

لأول مرة تدخل هذه الأحرف الخمسة في المقطّعات. والله تعالى اعلم بمراده منها اذ لم يرد عنها سندٌ في مقاصدها، ولهذا فالجهل بمعناها لا يؤثر في العبادة او الاستقامة التي امر الله تعالى بها. وجاء بعدها خبرُ سيدنا زكريا عليه السلام النبي الصابر الصادق الورع ذي الحنان والرعاية والكرم والحرص على الشريعة والعلم بالدين والعمل به. فهو الذي دعا ربه، بعد أن عرض من حاله ما أهَمَّه والله تعالى اعلم بما هو فيه من مشيب وحاجة، فماذا دعا ولمن؟

وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6)

لقد خشي على علم الشريعة ومعرفة الله تعالى المعرفة الصافية وسبل التقوى بعد ما رأى مواليه أي اخوته وبني عمومته قد ابتدعوا في الدين لمكاسب الدنيا ورؤية الانفس غروراً، فطلب من يرث هذا الصدق وينال رضوان الله تعالى.

يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (7) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (9)

اتفق دعاء زكريا عليه الصلاة والسلام مع ارادة الله تعالى في حفظ علم عبادته ومعرفته فبشر عبدَه الداعي بتلبية دعائه بغلام لم يجعل له من قبل سميّاً، أي مشابها في الاسم والعلم والمنزلة النبوية المجاهدة الصابرة. وتملكت الحيرة هذا الشيخ المؤمن، والله اعلم بما في نفسه، فتساءل عن المعجزة التي سيتم بها هذا الامر مع شيخوخةٍ ابلغته من الكبر عِتيّاً أي متجاوزاً الحد المألوف من الشيخوخة، اضافة الى عقم الأُم، فطمأنه المولى جل جلاله مذكراً إياه بأنه خُلِق من قبلُ ولم يكن شيئاً.

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (10) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (11)

طلب آيةً لأن البشارة سماعٌ ليس له مظهر مادي فأراد سيدنا زكريا عليه الصلاة والسلام ظاهرة مادية على هذه البشارة فأوحى اليه ان لسانه سوف يحبس ثلاث ليال فلا يتمكن من مخاطبة الناس إلا بالإشارة عنها، أو أن يشغل بالذكر والتسبيح فلا يكلم خلال ذلك أحداً. فخرج من المحراب الذي بشره الله تعالى فيه وطلب بالاشارة من المحيطين به ان يسبحوا الله تعالى في اول النهار واول الليل، وقيل في صلاتي الفجر والعشاء، زيادة على اعماله واعمالهم العبادية شكراً لله تعالى. وقيل في بعض التفاسير انه كتب لهم طلبه على الرمل.

يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12) وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (13) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (14) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (15)

هذه الآيات هي آيات فضلِ الله تعالى على يحيى عليه الصلاة والسلام. فقد كان اترابُه من الصبية يلعبون وكان هو يطلب العلم بدراسة التوراة مع الربانيين والاحبار. وهكذا الرحمنُ جل علاه ما دام العبد يطلب علما ليقربه الى الله تعالى فإنه تعالى يعطيه. وقوله (خُذِ الكِتابَ) أي افهم علومَه واستوعب احكامه. وزاده تعالى من الفضائل بالحنان أي المحبة المحفوفة بالعطف والشفقة ولا سيما في رعاية الابوين الشيخين. وعطف ذلك بالزكاة أي النقاء من ادران المعاصي في تقوى وبر الوالدين. ولم تكن فيه صفة يمكن لبشر ان ينسب اليه بها ذمّاً او سوءً. واكرمه تعالى في اشد حالات الشدة على البشر بالسلام والامن والطمأنينة. وهي حالة الولادة وساعة الوفاة ويوم البعث. وفي هذه الحالات اشارة ليضعها المؤمن امام عينيه فيعمل لأجل السلامة في ختام الحياة الدنيا وفي منازل الآخرة.

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (18) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (21)

قصة السيدة العابدة مريم عليها السلام مذكورة في سورة آل عمران وقد عُرِفت في قومها بالورع والعفة والعبادة. وفي هذه السورة بيّن تعالى ان سيدنا جبريل، الذي اشار اليه تعالى بقوله (روحنا)، تمثل لها بشراً سوياً. فتذكرت رحمة الرحمن فلجأت الى مولاها تستجير به من هذا الذي حسبته بشراً فلما كشف لها حقيقته وسبَبَ مجيئِه تملّكها العَجَب واستغربت الأمر. اذ لم يكن قد حصل في قومها والذين قبلهم

مثل هذا! ولكنه عليه السلام ذكّرها بقدرة الله تعالى في ذلك فصدّقت واسلمت امرها لله واثقة من براءتها وتبرئته إياها.

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (22) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (23)

كانت النفخة من روح الله تعالى سبباً لتحقيق ارادة الله تعالى في خلق رسوله عيسى عليه الصلاة والسلام نطفة طاهرة زكية. وحملته الصدّيقة على هَمٍّ عظيمٍ من كلام الناس بما فيهم اهلها الذين هم اكثر الناس ثقة بعفتها وطهرها. وعرفت ان هذا الامرَ المقضيَّ من رب العزة ابتلاءٌ لها سيكون بعده برهان بصدقها وجاءها البرهان بنداء من تحتها:

فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (25) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (26)

لا تذكر التفاسير سنداً واحداً صحيحا عمن نادى مريم عليها السلام، ولكن فاعل (نادى) ضمير مستتر يمكن ان يعود لواحد من اثنين مذكورين في الآيات السابقة. الا ان المرجح ان يكون صوتاً ورد مجيئه من تحتها ونظرت تحتها لتجد جدولَ ماءٍ هو (السَريُّ) على الارجح. واتصل الحديث معها بأن تَهزَّ اليها بجذع النخلة، وهذه كرامة اخرى بعد الجدول، لان جذع النخلة ليس من السهل ان يهتز ليتساقط الرُّطبُ الناضج. وهكذا اجتمعت الآيات الدالة على صدق هذه السيدة الصديقة سلام الله عليها. وتتوالى الكرامات بعدها.

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33)

الام تحمل وليدها، ناذرةً الصوم عن الكلام، تحمل دليل صدقها بمعجزة كلام المولود حديثاً مما لم يسمعوا بحصوله. ويفاجأ اهلها بمفاجأة يعبّرون عنها بإنكار. ولكن البريئة فاجأتهم بدفاع ربها القدير إذ أنطق وليدها بما حباه الله تعالى من كتاب ونبوة وبركات وعبادة وبِرٍّ بوالدته وتواضعٍ وطاعةٍ لربه ونيله منه سلامة الطمأنينة والرضا في أهمِّ الظروف في ساعات: الولادة والموت والبعث حيّاً.

ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (35) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (36) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (38)

بعد بيان حقيقة سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام، اشار تعالى الى جرآءة من ينسبه ولداً لخالقه جل علاه. ونزّه المولى ذاتَه الجليلة عن ذلك إذ لا ينبغي للعلي القدير الذي جعل امره نافذاً بقول (كن) أنْ يتخذ ولداً. فلا يحتاج تعالى الى ما يحتاجه الإنسان من الولد. وقد انطق تعالى عبدَه الوليد بأن الله ربُّه وربُّ اولئك الممترين فيه. والعلاقة بين الرب والعبد ان يعبدَه العبدُ ليكون على هدى في سيرهِ الى الله ولقائه. ومع هذا انبرى اليهود للطعن في مريم الصديقة عليها السلام. ولما

وُوجِهوا بكلامه قالوا هذا من قبيل السحر. وانبرت طائفة اخرى لتأليه عيسى عليه السلام بقولهم: انما تكلم الله فيه! وانبرت اخرى للقول بأنه ابن الله (سبحان الله وتعالى). وانبرت طائفة اخرى لتقول انه الجزء الثاني من ثلاثة في ذات الله تعالى سبحانه. وقال الموحِّدون عنه: إنه عبدالله ورسوله. وهذا هو ما اشار اليه تعالى بقوله (ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ) أي انه القول الحق في بنوَّته لمريم عليهما السلام وصحة نبوَّته ورسالته. وانذر الله تعالى اولئك الذين كفروا في صحة حقيقة سيدنا المسيح عليه السلام يوماً يُعرَضون فيه امام الله تعالى وقد انجلى كذبهم وظلمهم امام أبصارهم واسماعهم. ودونهم ما يفزعهم فيقولون معه: (يا ويلتنا يا ويلنا). اما من لا يتوب عن ذلك فهو في حياته الدنيا في ضلال لا يخفى على اهل الحق. وقد جاء في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله ((لا أحدَ اصبرَ، على اذى سَمِعَه، من الله. انهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم)). وجاء فيهما (أي في الصحيحين) عن عبادة بن الصامت قولُه صلى الله عليه وآله وسلم ((من شهد أنْ لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له وأنّ محمداً عبدُه ورسولُه، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته القاها الى مريم وروح منه، وأنّ الجنّةَ حقٌّ والنارَ حق. ادخله الله الجنة على ما كان من العمل)).

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (39) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (40)

الحسرة علامة الندامة وتكون بعد استقرار الخسارة للكفار. فلا مخرج منها والخلود محتوم. وهذا معنى قضاء الأمرِ وسُمِّيَ يوم الحساب بيوم الحسرة. وأُمِر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بإنذار من يبلغهم الامر ليخرجوا من غفلتهم فلا يكونوا

كالذين كفروا في غفلة حتى اذا جاءهم الوعد الحق تحسر كلٌ منهم حسرة لا تَرتَدّ إليه. وينبه تعالى عباده ويذكِّرهم بمآل الارض وما عليها. وانها تعود الى وارثها الحق سبحانه مع رجوع خلائقه.

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45)

مواقف سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع ابيه ومع قومه متكررة في القرآن الكريم في عدة سُوَر. فهو في موقفه مع عَبَدَةِ الأصنام كموقف سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وجاء ذكر إبراهيم عليه السلام مع ابيه تذكرة لكفار قريش الذين ينتسبون في الأُبوّة اليه بأنّ جدَّهم دعا الى الله وحده والى ترك عبادة الاصنام فليكونوا على ملته. واما كلامه مع ابيه فهو العبرة الموجهة لمشركي قريش لماذا يعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئاً؟ ولم لا يتبعون العلم الحق الذي اتاهم ليخرجهم من الظلمات الى النور بإذن الله؟ ولماذا يتبعون اوهام الشيطان؟ ومن وراء ذلك كله عذاب بجعلهم في ولاية للشيطان العدو المبين. وولاية غير الله تعالى لا قدرة لها فما عاقبتها الا الخذلان.

قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48)

بدلاً من ان يُصغي هذا الاب لقول المنطق والعقل من إبراهيم عليه السلام، ابدى استغرابه لخروج إبنه عن خط عبادة الاصنام فما كان منه إلا أن وقف الموقف الحدّي في تخييره بين الكف عن ذكر الاصنام بسوء او الرجم، وهو القصاص عندهم لمن يهين الآلهة! ثم امره بالابتعاد مَلِيًّا أي بعدا طويل الأمد عن معايشته قبل ان يعاقبه على ما دعا اليه. وهنا تدرك سيدَنا ابراهيم عليه السلام عاطفةُ البنوة وبرُّ الوالد فالقى السلام أي انه لن يكون منه مع ابيه إلا الخير بلا مكروه وانه سوف يستغفر له الله تعالى ربه فهو حفيٌّ به، أي كثير العناية به، اذ هداه واولاه خلته الجليلة وعوّده اجابة الدعاء. ولهذا لم يملك إلا هجْرَهم إلى عبادة الله تعالى والبراءة من الاصنام، فلا يدعو غيره رباً املاً ان يحظى بالسعادة من لدنه. فكان الخليلَ المقرَّبَ صاحب اللسان الصدق في الآخرين. وفي التفاسير ان سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام إنقطع عن الاستغفار لأبيه بعد ان أيقن ان ذلك الاب عدوٌّ لله تعالى حيث قال تعالى ((وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)). (سورة التوبة، الاية الرابعة عشرة بعد المائة).

فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50)

جاءت المكافأة الربانية لسيدنا ابراهيم عليه السلام بأنْ وَهَبَهُ الله تعالى بعد إسماعيل نبيين من زوجته سارة هما إبنه إسحق وحفيده يعقوب (عليهم السلام). ووهب لهم من الرحمة ما شاء للانبياء العظام وقيل أُوحي إليهما في حياته. واكرمهم الله تعالى بالصدق الذي رفعهم به منزلة عليّةً في الدنيا والآخرة. وجاء في التفاسير

ان الموضع الذي اعتزل به سيدنا ابراهيم هو بلاد الشام تاركاً أباه في ارض بابل. والى هذا الحد من سيرة سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام جاء ذكره في هذه السورة. وفي القرآن الكريم جوانب اخرى من سيرته في الموضع المناسب للعبرة والاسوة الحسنة.

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (51) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (52) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (53)

يأتي ذكر سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام بعد سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام. فكلاهما من أُولي العزم. وأوّل ثناء عليه كان اختياره صفياً لله تعالى في زمانه. وقد كلّمه سَماعاً في سيناء، اذ جاءه صوت من يمين جبل الطور بالنداء: ((يَا مُوْسَى إِنِّي أَنَا اللهُ لَا إِلـهَ إِلا أَنَا ...)) الآية. وقد وردت قصة سيدنا موسى في عديد من سور القرآن الكريم منذ ولادته حتى بعثته ونجاته من فرعون وجندهِ مع ذكر المعجزات التي رافقت دعوته ومعه اخوه سيدنا هارون عليهما الصلاة والسلام الذي طلبه ليحمل عبء الرسالة معه.

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (54) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (55)

إسماعيل عليه الصلاة والسلام انفرد بجزيرة العرب، ومن نسله قريش. وقد اثنى عليه الله تعالى بصدق الوعد لِحادثةٍ جاءت في تفسير الطبري انه وفّى وعداً كلّفه الانتظارَ طويلاً ليلقى رجلا طلب منه اللقاء في مكان معين فلم يبرحه وبات فيه حتى جاء الرجل واعتذر بنسيان الموعد في وقته. وقد اجتباه المولى عز وجل لإحياء

ملة ابيه ابراهيم عليهما السلام رسولاً نبياً. وامتاز عن اخيه اسحق عليهما السلام بأن إسحق وُصِف بالنبوة دون الرسالة. وعُرف اسماعيل عليه السلام بالصبر الى درجة رضاه بأن يُذبَح إمتثالاً لرؤيا والده بذبحه. وقد أثنى المولى تعالى عليه إذ كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وفي ذلك اسوة حسنة للمؤمنين والمؤمنات في كسب رضوان الله تعالى وذلك بأمر الأهل بهاتين العبادتين لأهميتهما.

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (56) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (57)

ورد في صحيح البخاري ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرّ بسيدنا ادريس عليه السلام ليلة المعراج وكان في السماء الرابعة. وفي الآيتين بيَّن الله تعالى نبوة سيدنا ادريس عليه السلام ولم يذكر بعثته الى قوم معروفين. ولم يذكر هل رفعه حيّاً ام توفّاه ثم رفعه. والارجح انه توفاه ورفعه كما جاء عن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام. واما اخباره الاخرى فلم يرد عنه سوى صبره في الآية الخامسة والثمانين من سورة الانبياء وصلاحه في الآية التي بعدها. وقد ورد في التفاسير عنه ما لم يذكر له سند في السنة الشريفة بأنه كان أوّل من خطّ بالقلم وأول من أُوحي إليه بعد آدم عليه السلام وكان خياطاً كثير التسبيح أثناء العمل.

أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (58)

بين المولى عز وجل نعمته على كل الانبياء في هذه الاية لذكرهم جميعاً بعد ذكر بعضهم في هذه السورة، فقد اجتبى من عباده من يقيم الدين ويحكم به فهداهم

وخصّهم بالنبوة وجعلهم اهلاً لإقامة دينه بين عباده. ووصَفَهم عند تلاوتهم آياته بالمبادرة بالسجود والبكاء من خشية الله وذلك من سلامة الفطرة ومحبة المولى وشكره والصبر على حمل امانته. وهم قدوة اقوامهم لمعرفة الله ربهم وعبادته. أمّا البكاء من خشية الله تعالى، سواءً في الصلاة أو في غيرها فهو من اثر حضور القلوب امام هيبة الله تعالى وشعور الرهبة في ذلك والشوق الى مَلِك القلوب السليمة المؤمنة والخشية من ضياع هذا الهدى. فالباكي عند ذكر الحبيب إما يريد اللقاء، وإما بعد اللقاء يخشى الفراق! وهذا البكاء الخاشع عند المؤمن يجمع الاثنين، يجمع الشوق الى الله تعالى والخشية من عاقبةٍ فيها خسارة ربه. فما أطيبها للمؤمنين إذا كسبوا صفة: ((وَالّذِينَ آمَنوُا أَشَدُّ حُبّاً لِلّهِ)).

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (60) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (61) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (62) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (63)

الكلام عمن اضاع الصلاة جاء بصيغة الماضي بعد الكلام عن المفضَّلين الذين انعم الله تعالى عليهم. فدل على اجيال سبقت الامة المحمدية ولكن بعض المفسرين قالوا سيكون ذلك في الاسلام كما دلت عليه احاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن هذا يفهم أن إضاعة الصلاة مع اتِّباع الشهوات سبيلٌ الى شر من الشرور. وقد ذُكِر (الغَيّ) في موضع من القرآن بعد آية الكرسي في سورة البقرة ((لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ

بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)). فجعل سبحانه الايمان بالطاغوت غَيّاً وهذا شر من الشرور. وجعل الكفر بالطاغوت رشاداً وهذا من الخير. واما اتباع الشهوات فمصيره حجب العقول عن الله تعالى فقد اورد ابو الاشهب العطاردي (كما جاء في تفسير ابن كثير) ان الله تعالى اوحى الى داود عليه السلام: "يا داود حذِّر وأنذِر اصحابك أكلَ الشهوات فان القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة وإن أهْوَنَ ما اصنع بالعبد من عبيدي اذا آثر شهوةً من شهواته أنْ أحْرِمَه من طاعتي". وذهب بعض الفقهاء الى أن معنى إضاعة الصلاة هو التهاون في أدائها وعدم الدوام عليها. وليس تركها فهو يختلف عن إضاعتها لأن تركها إن كان جحودا بفرضيتها فهو كفر. وذهب آخرون الى ان معنى الاضاعة هو ترك الصلاة المفروضة. وقد جعل الله تعالى مخرجاً من هذا الشقاء بالتوبة والايمان والعمل الصالح ويؤدي كل ذلك الى جنان الخلد. وتأويل: (وَلَا يُظلَمُونَ شَيْئَاً) ان سيئاتهم السابقة على التوبة لا تُحسَبُ أي لا تَحْبَطُ بها حسناتهم بل تكتب لهم الحسنات واضعافها. ثم يرغِّبنا المولى عز وجل بأن يصف الجنة لكي يحذر التائبون خسارتها فيتقون هذه الخسارة بالعمل الصالح والمواظبة على الصلاة والاستمرار بإصرار على ترك الشهوات الضالة المضلة. اما ما ورد في وصف نعيم الجنة فيكفي النص القرآني البليغ من غير ذكر الاخبار الواردة في التفاسير فالبليغ القرآني يغني عن ذلك. والمهم من وصف الجنة ان يدخلَها من اهتدى بالسير في طريقها راجياً عونَ ربه تعالى وحَذِراً من الفِتَن المضلة.

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (64) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (65)

روى الامام احمد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لجبريل عليه السلام ((ما منعك أن تزورنا اكثر مما تزورُنا؟)). قال ابن عباس فنزلت الآية. وكان الوحي قد ابطأ فوجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك خشيةَ أن يظن المشركون في ذلك ظنا سيئاً كما اعتادوا. وأما قوله تعالى على لسان جبريل عليه السلام ((لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا)) فقد بين أن الله سبحانه وتعالى هو المهيمن بعلمه وامره ومشيئته على أعمال الملائكة. فلم يسبق لهم عمل إلا بأمره ولا يفكرون بعمل لمستقبل بل ينتظرون أمره. وله ما يكونون عليه بين ذلك. وما كان سبحانه نسيّاً أي ما نسي رسوله المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا يدل على أن إبطاء الوحي تقديرٌ حكيم منه. وذكر المولى سبحانه هنا ربوبيته للسماوات والأرض وما بينهما أي ليس هناك من إلهٍ غيرُه. فما على العبد إلا عبادته والصبر عليها بالطاعة. وترك الإلتفات إلى أمر يصدر من غيره فهم ممن خلق وهل يسمى المخلوق خالقاً ليكون للرحمن سمياً أي مضاهيا له؟

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (67) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (69) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (70)

الإنسان هنا هو أُبَيٌّ بن خلف يفتت عظما ويقول "أنبعث بعدما نصير كهذا"؟ ويردّ عليه المولى القدير هذا الإنكار بأن يذكّره بالنشأة الاولى اذ لم يكن قبلها شيئاً. وهذا القول من الكافر فيه من الجرأة على الله تعالى أن ينكر قدرته مع أنه (أي المستفسر) يعلم انه أُنشئ من العدم بقدرة لا يُعْجِزُها اعادته للحياة بعد موته. وهذا الإنكار دعا المولى عز وجل أن يقسم بذاته الجليلة انه سوف ينتقم من أهله. فيحشرهم مع الشياطين يقترن كل كافر بشيطانه الذي اغواه فيسحبون لكي تُحضِرَهم الزبانية حول جهنم جثياً أي في وضع البروك على ركبهم إذلالاً لهم. ثم تبدأ الزبانية بقادة الكفر ثم الذين يلونهم في العُتُوِّ أي الاستكبار على الحق. والله تعالى اعلم بمن استوجب العذاب فيلقونهم تباعاً في جهنم؛ أوّلَهم أشدَّهم عُتُوّا، فالأقلَّ شدة. وقد جاء العُتُوّ هنا بقوله تعالى (عِتِيّاً) وهو تجاوز الحد المألوف من الشدة في الخصومة والتمرد على الحق.

وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (72)

روى الامام احمد في مسنده عن سليمان بن مرة رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن جهنم: ((لا يبقى بَرٌّ ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن برداً وسلاما كما كانت على ابراهيم حتى إنّ للنار ضجيجاً من بَرْدِهم. ثم ينجي الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جِثِيا)). وقد ورد في التفاسير ان التقوى المقصودة هنا هي اتقاء الشرك. وهذا من صدق المؤمنين. وورد معنى الورود هو الدخول في جهنم وليس المرور عليها لأنه بعد نجاة المؤمنين يذر الله تعالى الكافرين فيها جثيا أي يبقيهم كما دخلوا فقال تعالى: (ونذر الظالمين) أي نتركهم فيها بعد

نجاة المؤمنين. معنى ذلك ان الجميع دخلوها فنجا المؤمنون وبقي الكافرون. وفي الحديث الذي رواه الامام احمد عن عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى (وإن منكم إلا واردها) قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((يرِد الناس كلهم ثم يصدرون عنها بأعمالهم))". أي بترتيب صلاحها، أي ان المؤمنين من اهل المعاصي يتأخرون في الصدور عنها أي في الخروج منها. وهكذا الحتمُ المقضيُّ قَسَمٌ اقسم الله تعالى به. والعبرة بأن يعملوا الصالحات مع إيمانهم لتسرع بهم النجاة. ثم لا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها وهم الكفار يذرهم المولى فيها. وفي الآية الرابعة والعشرين من سورة البقرة عن النار: ((أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِيْنَ)).

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (73)

كفار قريش المترفون كانت لهم مجالسٌ ذات اثاث مما يدل على النعيم والترف. ولهم في المجتمع الجاهلي منزلتهم بين الناس. فلما بَعث الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله تعالى عليه وآله وسلم رسولاً، وآمن به فقراء من مكة وكانوا يجتمعون به في الوقت الذي لم يجتمع أحد من المترفين معهم فكان الجهلاء ينظرون اليهم بغير النظرة الى المترفين. وكان المترفون معتزين بما هم عليه فلا يرون فضلاً للمسلمين. بل يرون نواديهم احسن مقاماً في الناس وافضل مجلساً حتى بلغ بهم الضلال ان قالوا: "لو كان خيراً ما سبقونا اليه"! وهنا قد غفلوا عن اقوام مثلهم وافضل حالاً اهلكهم الله تعالى حيث قال سبحانه:

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (74)

والرِئْيُ: هو المنظر الباهر لمتاع اهل الترف من الكفار الذين اهلكهم المولى القدير. وكانوا في معايير الدنيا الفانية افضل منظراً واحسن مجلساً من مجلس المؤمنين كما جاء انفاً.

قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (75)

الْمَدُّ المقصود هنا هو المهلة قبل الأجل، أي المهلة للكفار في ما هم فيه من غفلة ونعيم ينسى الكافر فيه اقدار الله تعالى غيرَ مؤمنٍ بلقائه فلا يصحو من غفلته حتى يفاجئه ما وعده الله تعالى في انقضاء المهلة وحلول أجَلِ العذاب؛ فإما عذاب الاقدار، او الموت، أو الساعة. وهي للذين يكونون في آخِرِ زمن الحياة. وعندها فقط يدركون أن قيمتهم سراب وقدرتهم ضَعف يُسلمانهم الى شرِّ مكانٍ واضعفِ حالٍ. وفي هذه الاية تحدٍّ للكفار بالوعيد بالعذاب الشديد الذي لا بد منه لهم إن استمروا على ضلالهم. وقد حقق الله تعالى لهم عذاب يوم بدر وعلموا انهم هم الأضعفَ أعواناً والأسوأ مكاناً.

وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (76)

في الوقت الذي كان الرحمن يمهل أهل الضلالة كان أهل الهدى يزدادون منه هدىً فهم في شكر وذكر لربهم تعالى فكل تسبيحةٍ وحمد وتهليلة وتكبيرةٍ زيادةُ منزلةٍ، وقربٌ منه. وقد ورد ذكر الباقيات الصالحات في الاية السادسة والاربعين من سورة الكهف. ورُويَ عن ابي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال "لأُهَلِّلَنَّ ولأُكبِّرَنّ الله

ولأُسبّحنّ اللهَ حتى اذا رآني الجاهل حسب اني مجنون" فكان يكثر من قول لا إله إلا الله والله أكبر، ومن التسبيح بحمد ربه سبحانه.

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (77) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (78) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (79) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (80)

نزلت هذه الاية بحق احد طغاة قريش. فقد روى الامام احمد في مسنده عن خباب بن الأرَتّ رضي الله تعالى عنه قال: "كنت رجلاً قَيناً —كان حَدّاداً — وكان لي على العاص بن وائل دَينٌ فأتيته اتقاضاه فقال: لا والله لا أقضينّك حتى تكفر بمحمد. فقلت: لا والله لا اكفر بمحمد حتى تموت ثم تُبعَث. قال: فإني إذ مِتُّ ثم بُعِثتُ جئتني ولي ثَمّ مالٌ وولد فأعطيتك". فأنزل الله تعالى هذه الآيات التي أنكر فيها على العاص ما قال وسيكتبه عليه ويحاسبه به في عذاب ممدود ويأتي ربه بلقاء غير محمود معه مقولته بغير مال ولا ولد، أي بمفرده.

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (82) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (84)

سيأتي على الكفار (الذين اشتد اذاهم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى من آمن معه، وعلى غيرهم) يومٌ يكفرون فيه بمن عبدوه من الاصنام ويكفرون بإعتزازهم بها، وذلك هو يوم القيامة، يوم يكون الشركاء ضِدّاً أي خصماء لمن عبدوهم من دون الله تعالى فيلحقهم الذل. وهذا مقابل ما اتخذوهم عزاً فحصل

الضد. ثم يبين المولى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم سبب ضلالهم: (ألم تَرَ) الأمر الذي عجِبْتَ منه بإطلاق الشياطين على الكافرين تؤزّهم أي تُغريهم وتحثهم على الشر وتحرضهم على الطغيان. فهم قرناؤهم في الدنيا ومعهم في النار في الآخرة. وبعد بيان مصيرهم وتصريف الله تعالى فيهم فما على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلا ان يتوقف مع ارادة مولاه بحقهم وانتظار أيامهم المعدودة عليهم عدداً ليلقَوا مصيرهم المعلوم في أجله المحتوم.

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (85) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (86) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (87)

هنا يُظهِر اللهُ تعالى مَن هو من الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسن نديّا (مجلساً) يوم القيامة. فالمتقون يَقْدُمون وفداً رُكباناً دلالةً على إعزازهم وتكريمهم يُحشَرون يليق بهم لقاء الله تعالى. بينما يساق المجرمون الى جهنم كما تورِدُ الماشيةُ الماءَ عطشى. وقوله تعالى (لا يملكون الشفاعة) يحمل معنيين من غير منافاة: إما (لا يؤذَن لهم بها)، أو (لا ينالونها). واستثنى مَن تكون لهم الشفاعة: وهم من اتخذوا عند الرحمن عهداً أي بما عهدوه إلى الله تعالى إذ شهدوا لله تعالى بأن لا إلهَ إلا هو، ولسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بصدق الرسالة، وأعطَوا حق الشهادتين من صالح العمل واعلاء كلمة الله تعالى. وهذا عهد يوفّيه بإذنه يوم القيامة لمن مات عليه في صالح العمل.

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (95)

زعم كفار قريش ان الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى عما يصفون. وغيرهم قال مثل ذلك في بنوّة سيدنا عيسى بن مريم رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويقول تعالى لهم أن ما جاء في قولهم هو (إدّ) فضيع أي ذو منكر عظيم ثقيل حتى ان السماوات تكاد تتفطر منه أي تتشقق وكذلك الارض تنشق منه والجبال تَخِرُّ منه. ولا يصح مع صفات الله تعالى وعظمته أن يتخذ ولداً. وقد سبق بيان ذلك في الكلام على الآية الخامسة والثلاثين من هذه السورة. وليس من مكلَّف عاقل إلا وسيلقى الله تعالى بصفة العبودية مستجيباً لأمره. واسم الموصول (مَن) يدل على العاقل أي المكلفين بالعبادة وهم في السماوات الملائكة، وفي الارض هم الإنس والجن. وما منهم من يغيب عن علم الله تعالى وقد أحاط بعددهم علماً في إحصائهم عدّاً. وكل واحد منهم يأتي بمفرده إلى الله تعالى ليريَه عملَه في لقاء يفرح به الصادق. ويقول فيه الكافر يا ليتني كنت ترابا.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (96) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (97)

وعدٌ من الله تعالى انه سيجعل لمن آمن وعمل صالحاً وُدّاً. ورُبَّ مَن يسأل: كيف إذاً كان كفار قريش يعادون المؤمنين؟ والجواب: أن الودّ هو من وداد الله تعالى ينظر إليه المؤمنون بنور الله فيوادّون بعضهم بعضا. وينظر إليه الذين في قلوبهم زيغ نظرة خاطئة. ومن الودّ الرباني أن يجعل للمؤمن الصالح القَبول، وفيه مهابة في قلوب خصومه. والحمد لله الذي يسر القرآن لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم بلسانه العربي، بشرى للمتقين ونذيراً لخصومهم اللُدّ أي شديدي الخصومة.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (98)

تخويفاً للمشركين جاء ذكر الهالكين وجاءت تسميتهم بـ(القرون) لانهم أُمَمُ القرون الخوالي. فكل أمّةٍ منهم لها زمنُها وجاءها رسولها وكذّبه من كذّبه منهم فأهلكهم الله تعالى تاركين وراءهم آثارا تدل عليهم ولم يبق فيهم من له حركة يحس بها الأحياء او صوت يُسمع مهما كان خافتاً وهو (الركز) المذكور هنا. وها هو التاريخ بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم مليء بمجاهدين وعلماء في أُمّته حفظ الله تعالى بهم كتابه وسيُظهِر الله تعالى دينه على الدين كله ولو كَرِهَ المشركون. ليُحِقَّ توحيدَه ويبطل الباطل المتمثل بالكفر والفساد ولو كره المجرمون. ثم تعلُو خيرُ أُمّةٍ أُخرجت للناس تحت راية التوحيد في الحياة الدنيا وتحت لواء الحمد يوم الحشر.

سورة طه

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ

طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (3) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا (4) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (8)

الجديد في الاحرف المقطعة هو حرف (ط) ورد مع الهاء في آية واحدة والعلم بهما عند الله تعالى في حكمة يأتي وقتها والله اعلم. وفي الاية الثانية ردٌّ على كفار قريش الذين قالوا: "نزل القرآن على محمد ليشقى". وكان صلى الله عليه وآله وسلم في تعبده يقوم الليل فقالوا ذلك بينما كان يريد لهم عز الاسلام ورضوان الله تعالى. فنَزَلت الاية وكانت رحمة ونوراً وكان القرآن دليلا الى الجنة وتذكرة لمن يخاف مقام ربه فيَلين قلبُه. فكيف يكون القرآن سببا للشقوة وقد انزله الرحمن الذي إتصف في تصريف امور خَلْقِه بالرحمة؟! وهنا يفهم من كلمة العرش انه ليس مادة تحتوي الجالس فيها وفي ذلك قال الامام علي كرم الله وجهه (كما جاء في تفسير النسفي رحمه الله) ((انه تعالى كان ولا مكان فهو على ما كان قبل خلق المكان)). فالإستواء يعني تصريف الامور. ويستدل العلماء من ذلك على ان المقصود بالعرش هو التحكم المطلق الذي يُصرِّف المولى تعالى به امورَ عبادِه وخَلْقِه، مالكا ما في الكون ظاهراً او خافيا. ويعلم ما يصدر من عباده ظاهراً وخافِياً. وما سيكون من الاسرار والأخفى عليهم من اسرارهم الخافية. أي انه تعالى يعلم ما سيكون لديهم

سراً وهم في غفلة عنه قبل علمهم به. ولكل اسم من اسمائه (وكل اسمائه حسنى) امر يُبْرم مِن حِفظٍ او قَدَر.

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (16)

قوله تعالى: (هَلْ أَتَاكَ) يدل على خبر منه. والخبر عن موسى عليه السلام وفيه إشعار لرسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأنه سيحمل اعباء الرسالة السماوية كما حدث لموسى عليه السلام. ثم يخبر سبحانه عما حدث لموسى عليه السلام ذلك انه بعدما قضى الأجل المذكور في الآية التاسعة والعشرين من سورة القصص إستأذن من سيدنا شعيب عليه السلام وسار بأهله بإتجاه سيناء ولم يُتم الرحلة وذلك لتقدير العزيز القدير في مبعثه. فكانت ظروف وجوده قرب وادي طُوى تحتاج لنار للتدفئة ليلاً في ليلة باردة. فلما رأى ناراً على مبعدة منه اتاها فاذا بها نور يصدر منه خطاب من الله تعالى يعرِّفه بذاته الجليلة ويبلغه بإختياره إياه لإعلاء كلمة ربه العظيم وعبادته واحداً لا إلَه إلا هو ولإقامة الصلاة ودوام الذكر. وفيه اصول العبادة فأولها الشهادة بحق الوحدانية لله تعالى ولا إلَه الا هو معبودا حقاً. وثانيها إقامة الصلاة. وثالثها التصديق بخبر مجيئ الساعة أي يوم القيامة. ورابعها بالاستقامة والثبات وتجنب اهل الاهواء الضالة المضلة. وهذا كان أول

الوحي إليه. ثم نزلت التوراة في ما بعد بالهدى إلى تفصيل هذه الأصول وشرائعها وأحكامها.

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (21) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (22) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23)

أنقذ الله تعالى سيدنا موسى عليه السلام بعدما قضى على قبطي وجاءه تهديد بالقتل بأن أخرجه الى بيت نبيٍ في مدين زوّجه من إبنةٍ له. وبهذا ثبّت الله تعالى إيمانه. ولكنه الان سيؤهَّل لرسالة يحملها ليكون من أُوْلي العزم. وها هو برهان ذلك يأتيه بمعجزة عظيمة في استدعاءِ ربه إياه وخطابِه بكلام مسموع. ثم بتحريك العصا اذ ألقاها من يده وكان يظنها عصاً لا فرق لها عن غيرها من العصي يتوكأ أي يتساند عليها ويهش بها على غنمه أي يخفف الضرب عليها لجمعها. وقد يستفيد منها في غايات اخرى. وتوالت البراهين في بياض يده بعد ان ادخلها في جيبه تتلألأ بياضاً ساطعاً من غير شَيْنٍ. وهكذا جعل المولى عز وجل لقاءه لموسى عليه السلام آيةً كبرى.

اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (24) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (34) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (35)

العودة الى الملِك الذي هرب منه موسى عليه السلام صدر بها الأمر من الله تعالى. فقد طغا فرعون، أي تجاوز حد العبودية، فقد ادعى الالوهية ولا بُدّ لأمر الله تعالى من عاقبة منصورة تتطلب اسبابا دعا سيدنا موسى ربه ان يهيئها له. فقد تعرّفَ فرعون عن كثب وعرف مدى تمرده ومدى جبروته ولا بد لمن يواجهه أن يكون عنده سبب يطمئن معه الى النصر. فطلب ان يشرح الله تعالى له صدره لهذه المهمة بالطمأنينة الى عاقبتها وان ييسر له اسباب النصر. وان يفتح عليه النطق بالصواب وطلاقة اللسان. (فقد ورد في التفاسير ان عقدة كانت في لسانه، وان يده كانت متغيرة اللون من جمرة نار في اول طفولته تناولها الى فمه أمام فرعون وفي ذلك آيتان إذ سيجد فرعون أن موسى مُفصِحَ القول، ثم يرى يده بيضاء من غير سوء). بعدها طلب سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم من الله تعالى أن يؤيده بنصير من أهله هو أخوه سيدنا هارون عليه الصلاة والسلام. وكان عالماً ورِعاً طلبه سنداً ظهيراً وهو ما عبر عنه بـ(شدِّ أزْرِهِ) أي قوته، ومشيراً حكيماً يشركه في امره كوزير. وفي تعاونهما فسحة للتسبيح وذكر الله تعالى اكثر مما لو حمل الرسالة احدهما وحده (كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا). والله تعالى ألْهَمَ سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم هذا الدعاء لأن ارادته سبقت علم موسى بما ينبغي فأبلغه تعالى بالمشيئة المتفقة وبشره بإجابة الدعاء.

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (36) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (37) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (38) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا

تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (40) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (41)

بعد أن اخبر المولى عز وجل عبده موسى عليه السلام بإجابة دعائه ذكّره تعالى بنعمائه عليه منذ اول ساعة رأى فيها النور. فهو الطفل الوحيد الذي نجا بوحي من الله تعالى من قتل المواليد الذكور بلطف لا يُتَصوَّر حدوثه فإذا بموسى عليه السلام في قصر فرعون تُخرِجه احدى الجواري من صندوق ظنت بمحتوياته عدة ظنون إلا ان يكون فيه طفل حديث الولادة! وقد حباه الله تعالى بنعمة اخرى هي محبة في قلوب من يجده وهكذا بدأت حياته التي لم تغب عنها رعاية الله تعالى في قوله: (ولتصنع على عيني) أي بعناية مني ابدا. ولم يقبل موسى ثديَ امراةٍ غير ثديِ أُمِّه التي دلت أُختُه عليها، كمرضعة ناصحة. وهكذا لم يغب الوليد عن امه كثيراً وشب عن الطوق في محيطَين على غير تشابه بينهما؛ فالأول محيط عائلة مؤمنة برب واحد على شريعة ابي الانبياء سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام التي نقلها الى مصر ابناء حفيده يعقوب ايام يوسف عليهما السلام. فنشأ طفلاً وصبياً حتى شب على الايمان الكامن في قلبه، والمحيط الثاني قصر فرعون يتربى فيه صبياً وشاباً محترماً محبوباً نال اعجاب من يحيط به. محيط على خلاف المحيط الأول فيه كفر وتأليه لفرعون. إلا أن سيدنا موسى عليه السلام قد وعى كيف يكون مع الايمان عندما يدعوه داعي الايمان للعمل. وهكذا ما أن أراد ان ينتصر لمظلوم من شيعته (أي من قومه بني اسرائيل) يعتدي عليه قبطي فرعوني حتى قضى على القبطي (ولم يتأيد أنه قصد قتله) فأصابه الغم من الشعور بتجاوز ما اراد من الضربة. وذكّره تعالى كيف اخرجه خائفاً بعدما نصحه رجل اتاه مسرعاً بأنّ أعوان

فرعون يريدونه ليقتلوه. وهذا من الفتون الذي قال عنه تعالى (وفتناك فتونا) فهرب الى مدين ولم يكن له علم بمن فيها فكان ان تزوج احدى بنتي سيدنا شعيب (عليه السلام) كما سيأتي في سورة القصص ان شاء الله، وبعد قضاء المدة المتفق عليها بينهما وسار بأهله نحو مصر حلت ساعة التكليف بالرسالة. وهكذا كشف الله تعالى لموسى عليه السلام لطفه في سير حياته فلم يكن شيء مرّ عليه الا بِقَدَر ربه ولم يكن من الصدفة ان تلتقطه من اليمّ جواري امرأة فرعون فيهبه فرعون لها بعدما اختبره بالجمرة واللؤلؤة المذكورتين في شرح الآية السابعة والعشرين المذكورة آنفا فلما اختار عليه السلام الجمرة بلطف ربه تعالى فهم فرعون من ذلك ان الطفل لا يُدرِك ما يفعل وانه على الفطرة. كما لم يكن من الصدفة رضاعته ولا خصام الفرعوني مع الاسرائيلي ولا لقاؤه في مدين بنبيٍ زوّجه ابنته. اذاً كل ذلك تحت رعاية الله تعالى لتعلو كلمة الله تعالى في الارض فَيُرِى فرعون واعوانه الهوان والقهر. والآن على موسى اتباع التوجيه الرباني لتنفيذ ما كتب الله تعالى له، ثم ما كتب لفرعون ومَلَئِه.

اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (42) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (47) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (48)

امر المولى عز وجل ان يبدأ سيدنا موسى واخوه هارون عليهما السلام بدعوة فرعون ومعهما الحجج الربانية وأن يستمرّا على ذكر الله تعالى ليكون ذكره تعالى لهما عوناً على لقاء فرعون. فإن هيبة الله على خلقه لا تدع مؤمناً يخشى لقاء ظالم.

وفرعون قد طغى أي تجاوز وتعدى حدود العبودية الى ادعاء الالوهية كما جاء آنفاً. ومع هذا اشار المولى الحليم الى حسن الخلق في الدعوة الى عبادته سبحانه بالقول الليّن. فالقولُ الليِّن لا تحضر معه النفس الأمّارة بالسوء فتعتز بالاثم. وعندها لعل فرعون يتذكر صِغَر موقفه وضَعْفَه أزاء عظمة ربه فيخشى العاقبة وبذلك يرجع عن غيِّه وتحصل له الطاعة. واما الرسولان فقد ارادا من الله تعالى ضماناً اكثر لمنع فرعون من ان يبدر منه انتقام أو قسوة فطمأنهما المولى عز وجل بأنه معهما وان عليهما ان يُبَيِّنا لفرعون صفتهما التي قصداه بها وهي الرسالة وان يطلبا تحرير بني اسرائيل من ذلٍ لحقهم من طغيانه. وها هي الحجة معهما آية واضحة. فإن اهتدى فقد دخل في سلامة وسلام. أما تكذيبه وصده فعاقبتهما العذاب. فماذا كان موقف فرعون؟

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51) قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (52)

فرعون الذي ينكر وجودِ إلهٍ آخَرَ غيْرِه، يستفسر عن ربهما! ولم يقل: من الرب الذي تدعوان اليه؟ فاوضح له موسى عليه الصلاة والسلام انه الرب الذي، بالإضافة لخلقه كافة المخلوقات، اعطى لكل مخلوق ما يخصه في دوام الحياة من رزق ومعونة. كما هدى كل مخلوق لما يسّره الله تعالى له ليبتليه في ما سيكون عليه. واما القرون الاولى أي الامم السابقة التي استفسر عنها فرعون ولم يأتهم رسول أي هل هم اشقياء ام سعداء فهذا ليس من ضمن الرسالة. فالقرون قد خلت ولكنْ

ثَبَتَ في علم الله تعالى كلُّ ما يخصها. ولئن جَهِل البشرُ شأنها فالبشر لا يحيط بكل شيء علما بينما الله تعالى لا يفوته علم ولا يُنقَص علمُه بالنسيان.

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (53) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (54) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (55) وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (58) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59)

جاءت الايات السابقة على لسان سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام. وفي هذه الآيات انقطع الحوار الذي دار بينه وبين فرعون (ولأربع آيات فقط) ليبين المولى تعالى فيها المعاني التي تحدثها قدرة الله تعالى في الخلق والامر. فالارض (قرار) مستقر تقوم عليه أوجُهُ الحياة ومظاهرُها من اقامة وسفر ومن زرع وثمر. فأهل النُهَى أي العقول السليمة خاشعون لله تعالى في رؤية آياته في الخلق من طبيعة الارض، وإعادةِ اجزاء النبات التي فارقتها الحياة الى أصلها ثم بعثِها بالقدرة الالهية التي أُنشِئَت بها أول مرة لتخرج نباتا تارة اخرى. ثم يعود الخبر عن الحوار ليبين المولى تعالى تعزيز موقف موسى عليه السلام مع فرعون بالآيات التي سبق ذكرها في الاية الاولى بعد المائة من سورة الاسراء، وصدود فرعون عن التصديق بها، إذ لم يجد تأويلاً لدعوة الحق سوى أن موسى عليه السلام يريد إخراج فرعون وملئِهِ من الحكم. فقد إعتقد بأن الآياتِ سحرٌ. ولعلمه بتأثُّر الناس بالسحر خشيَ أن يؤمنوا بموسى عليه الصلاة والسلام عن هذا الطريق ثم خاف على مُلكه منه. فقرر المبادرة

بإظهار سحر السَحَرَةِ الذين يؤيدونه وتواعد على مقابلة السحرة مع موسى عليه الصلاة والسلام يوم عيد فيه فرحة للناس أن يشهدوا ما سيحصل وذلك في وضح النهار.

فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (60) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (61) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (62) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (63) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (64)

جاء شرح موقف السحرة مع سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام في سورة الاعراف حول الايات التي تبدأ بالثالثة بعد المائة منها الى الاية السادسة والعشرين بعد المائة منها. وفيها خوفُ السحرة وفرعون وملئِه مما جاء به موسى عليه الصلاة والسلام واستقرار رأي فرعون والسَحَرَةِ على مقاومة ذلك بما في استطاعتهم وتعاونهم عليه والا فإنه إن استعلى عليهم فسوف يخسرون ما وعدهم به فرعون من جوائز ومَنْزِلة بين الناس ومنزلة لدى فرعون وملئِه في أرض مصر.

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (65) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (66) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (67) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (68) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (69) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70)

كانت خطةً حكيمةً من سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام أنْ طلب من السحرة المبادرة أوّلاً لأن إبطال ما صنعوا سيكون أبلغَ أثراً من إمتناعهم لو بادر هو قبلهم. ولكنهم لما القَوا حبالهم وعِصيَّهم وخالها تتحرك خشي على الحاضرين أن يُفتَنوا قبل أن يلقيَ عصاه. فأضمر في نفسه خيفة من ذلك. وثبّته المولى تعالى بأنه سيكون الأعلى بإلقاء عصاه فألقاها فإذا بها تلقف أي تتناول بسرعة ما صنع السحرة أي حبالهم وعصيهم التي كانت لَمّا تَزَلْ لا حِراك فيها، وهذا ما كان السحرة يعلمونه، فلما لم يجدوا ما القَوه علموا أن المعجزة ربانية وليست سحراً. فسجدوا إقراراً بقدرة الله تعالى. وفوجئ فرعون بخيبة لم يكن يتوقعها واراد ان يصب نقمته على سَحَرَته:

قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71)

جحد فرعون الآية إذ خشيَ أن يتّبع الناسُ السَحَرَةَ في إيمانهم فبَرّر المعجزة بأنها سحرٌ أتى به كبير السحرة (لأنّ سحرهم فشل مع آياته). واوعدهم بالعقاب المذكور في الاية ليبرهن انه الأقوى في التعذيب المستمر. ولكن الايمان الذي غمر قلوب هؤلاء المؤمنين دعاهم للثبات عليه.

قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا

(74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (76)

واجَهَ السحرة المهتدون فرعون بغير الوجه الذي جاؤوا به قبل الايمان. فهم الان قد تذوقوا بشاشة الايمان في قلوبهم فهان فرعون في نفوسهم فأعلموه بذلك. واما قولهم (والذي فطرنا) فيحتمل انه قَسَم او يحتمل انه لن نؤثرك على (الَّذي فَطَرَنا) وهو الله تعالى. واستهانوا بما توعدهم به بإزاء خلود السعادة في الاخرة املاً بأن يغفر الله تعالى لهم ما كانوا عليه من السحر الذي قيل في التفاسير أن فرعون قد اختارهم منذ الصغر ليتعلموه فيسخرهم لمآربه وخداع شعبه. وقيل كانوا أربعين شخصاً. وبينوا لفرعون اختيارهم الباقي من السعادة على الفاني منها. ولم يذكر في التفاسير مصير هؤلاء المؤمنين فلو كان فرعون قد نفّذ وعده فيهم لكانوا قد دخلوا سحرة وخرجوا شهداء. وان كان الله تعالى قد شغل عنهم فرعون بما ابتلاه به من القحط ونقص الثمرات والرجز (العذاب المقترن باللعنة، كما جاء في معاني الايات من سورة الأعراف من الاية الثلاثين بعد المئة الى ست آيات بعدها) فقد نَجَوا. وتبين بذلك لفرعون النذير من النار والترغيب بالجنة كما وصفتهما الايات الثلاث الاخيرة لمن عمل على تزكية نفسه من الكفر والشرك.

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (77) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (78) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (79)

وهكذا كانت نجاة بني اسرائيل مع موسى عليه الصلاة والسلام من فرعون وجنوده وقد سبق شرح المعنى في سورة الاعراف. وكل هذا الخبر عن مجريات الحوادث بين موسى عليه الصلاة والسلام وبين فرعون تمهيدٌ لبيان فضل الله تعالى على بني اسرائيل وما ينبغي لهم من شكر ولكن الذين طغوا منهم فعلوا خلاف ذلك فيقول تعالى عنهم:

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (80) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (81) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (82)

الخطاب موجه الى بني اسرائيل. والمواعدة هي لقاء سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام في تلقي التوراة. والْمَنّ مادة سُكّرية تظهر في الزرع. والسلوى طائر. وقد تقدم ذكرهما في سورتَي البقرة والأعراف. ونهى المولى عن الطغيان في هذه النعم، وهنا يعني تجاوز الحد عن الحاجة. واما عاقبة غضب المولى تعالى فهي المعاقبة في الدنيا والآخرة ما لم تحصل التوبة النصوح ففيها مخرج من لدن رب العزة الغفور الرحيم لمن تاب وآمن وعمل صالحاً وتحرى الهدى بالثبات بلا زيغ.

وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (86) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87)

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَى فَنَسِيَ (88) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (89)

كان موسى عليه الصلاة والسلام قد إختار سبعين رجلاً من قومه ليصحبوه لميقات لقاء الله تعالى فسبقهم مبتغياً رضوانَ الله تعالى. ففوجئ بخبر العِجل. ثم بعد ان تلقى الواح التوراة رجع إلى القوم غاضبا. إلا أنه بعد أن هدأ غضبه استفسر عن اصل الفتنة فعلّلوها بعذر غير مبرر وذلك ان السامري غلب عقولهم بتمثال من الذهب يُخرج صوتاً كلما هبّت عليه ريح. وكان الذهب حُلِيَّ قومٍ في مصر مؤمّناً لديهم وارادوا التخلص منه فصهره السامري والقاه في قالب عجل وايده منهم من قال "هذا إلَه موسى". وهنا ذكر المولى تعالى النسيان بقوله (فنسي) والضمير فيه يعود الى المفرد ولم يرد ذكر المفرد في سياق جواب الذين خاطبهم سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام إلا السامري. ففي هذا دليل على انه هو المقصود بالنسيان أي الغفلة عن ذكر الله تعالى والتي شاركه فيها من قال (هذا إلَهُكم وإلَه موسى). وأنكر المولى تعالى على هؤلاء أنهم لم يدركوا إنحرافهم إلى عبادة ما لا يضر ولا ينفع.

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (91)

قبل أن يعود اليهم موسى عليه الصلاة والسلام قال لهم هارون عليه الصلاة والسلام قولة الحق. ولكن الذين ضلوا منهم إستهانوا بنصحه وبقَوا في ضلالهم مصرّين على الشرك بانتظار عودة موسى عليه الصلاة والسلام وقد عاد فاذا به يتناول اخاه.

قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93) قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (97) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (98)

ورد في سورة الاعراف شرح للموقف بين سيدنا موسى واخيه هارون عليهما الصلاة والسلام فكانت حجة هارون أنه كان مطيعاً لأخيه فقد قال له موسى عليه السلام (اخلفني في قومي وأصلح). ولهذا لم يبادر باللحاق بموسى عليهما السلام ليخبره بما حصل. وذكر صلتهما بالأُمِّ ليرفق به من الغضب الذي دعاه ان يأخذ بلحيته ورأسه لما رأى حال زيغ فريق منهم بعد الهدى. ولما علم موسى عليه السلام بفعل السامري سأله عن دواعي فعله بصنع التمثال فما كان جواب هذا الاحمق الا قوله (بصرت بما لم يبصروا) وفي التفاسير أنه رأى سيدنا جبريل عليه السلام راكباً على فرس يوم تركهم موسى عليه السلام للقاء ربه فتناول بقبضة يده حفنة تراب من اثره، وقد وقع في قلبه أنه ينال بذلك كرامة بتحقيق مبتغاه. وهكذا القى هذه القبضة في سبيكة الحلي المنصهرة فتجوفت السبيكة في قالب العجل فخرج مجوفاً اذا دخله الهواء احدث صوتاً كخوار الثور. كما أن فعله هذا الذي يدل على أوهام وضلال جعل فريقا من بني اسرائيل يعكفون على هذا الجماد الذي لا ينطق فيسجدون له! ولكن مصيره كان للحرق والقذف في اليَمِّ أي البحر. ومصير من

عكف عليه كان القتل تطهيراً لهم. واعاد سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام تذكير بني اسرائيل بوحدانية الخالق الذي لا إلَه في الوجود إلا هو وأن علمه محيط بكل شيء. وعاقب السامري بالطرد فلحقه الخبال واخذ يخشى ان يمسه احد فيقول (لا مساس). كما أوعده بعذاب يوم القيامة.

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (99) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (100) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (101) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (102) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (103) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (104)

أنزل المولى عز وجل كتابه (القرآن الكريم) المنير الحق لطريق الهدى وقصّ فيه ما فيه الكفاية من العبر. فهو الذكر يدعو للتفكر والإعتبار فمن أعرض عنه أي إبتغى غير سبيله فهو امّا مكذِّب بالحق او متكبر عليه، والا لاتّبعه. ومن كان على غير الصرط المستقيم فسوف يقوم بأفعال ويقول أقوالاً لا تُرضي الله تعالى فتكون أوزاراً لا فِكاك له منها ما أصر عليها. وما اسوأ ما حمل! ويتحقق ذلك يوم القيامة يوم يأذن الله تعالى لنافخ الصور (وهو بوق عظيم) ان ينفخ النفخة الاولى فهو ينتظر الأمر لتقوم الساعة ويُبعَثَ الخلْقُ وفيه يتميّز المجرمون بزرقة ممقوتة يُعرَفون بها. وفي التفاسير ان الزرقة حصلت من شدّة الأهوال حتى إزْرَقَّت حدقات عيونهم ويكون حديثهم في ما بينهم خافتاً كمن يسارر غيره. ويتذاكرون حياتهم الدنيا كأنها إستغرقت عشرَ ليال. فينبري اكملهم عقلاً ليقول (إنْ لبثتم الا يوماً). وفي هذا المشهد الموعود عبرة للحاضر ليتذكر من يتذكر فيعتبر. وأما من أعرض فقد فضّل

على الخلود في نعيم الآخرة ما سيكون في حسبان أهل النار يوماً واحدا لم يصبروا فيه على سبل تقوى مولاهم جلّ وعلا.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (107) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (108) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (109)

يفهم من قوله تعالى (ويسألونك) إما ان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد سئل عن الجبال يوم ينفخ في الصور أو انه قد يُسأل. فاذا سئل يجيب بما بيّنه تعالى من انها ستكون قاعاً صفصفاً أي انها تستوي كالبساط صفته امتداد الاستواء بلا عِوَج، اي بلا منخفض ولا مُرتَفع، أي الأمْت. وعند ذلك لا يملك الخلق إلا اتباع كل دعوة توجه اليهم من غير صدود. أي ان اتباعهم مستقيم بلا عِوج. وأمّا حديثهم فخافت يهمس به المتحدثون كما يُسمَع وطءُ أقدامهم خافتاً في سكون وخضوع. وعندئذ تقتصر الشفاعة على ما يرضاه الله تعالى ويأذن به. فهو ادرى بالعابدين الشاكرين جل علاه وتقدست أسماؤه. فيأذن لهم (وهو الرحمن) من أجل نيل رحمته فيشفعون لمن لم ينجيه عمله من أهل الإيمان. فالله اعلم بأعمال عباده وما يحتاج منها للشفاعة. واذا كانوا قد نسوا شيئاً فقد أحصاه اذ يقول سبحانه:

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (110) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (111) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (112)

إحاطة الله تعالى عِلماً تتمثل في علم ما كان وما يكون أي ما مضى من اعمال الخلق وما سيكون منها. أما الخلق فهم أبداً في عجز عن الإحاطة بما سيجري عليهم وبما قضت به حكمة الله تعالى في كثير مما جرى عليهم. وهكذا في يوم القيامة اتجهت الوجوه إلى قضاء الله تعالى بالذل والخضوع بانتظار الأمر والْحُكْم. فأما من حمل معه وزر الشرك فلا يؤمل رحمة ربه أي يُحشر يائساً. وفي صحيح البخاري قوله صلى الله عليه وآله وسلم ((اياكم والظلم فان الظلمَ ظلماتٌ يوم القيامة والخيبةُ كل الخيبة من لقيَ الله وهو به مشرك فإن الله تعالى يقول إن الشركَ لظلمٌ عظيم)). وأما من جاء بصالح العمل في ايمان صادق فإن الله تعالى ضمِن له الأمن؛ فلا يخاف (ظلماً) بأن توضع عليه سيئات غيره، ولا يخاف (هضماً) أي إنقاصاً من حسناته.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (113) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (114)

وعلى هذه العاقبة التي لا محيد عنها نزلَ الوعيد بلسان عربي مبين أي بلُغة مشركي مكة لعلهم ينبذون الشرك والمعاصي أي يتقون. ولعلهم أيضاً يتخذون القرآن مواعظ لا تغيب عن ذاكرتهم فتنفعهم في الإستغفار والتوبة والإستقامة. وانه تعالى هو الحق في وعده ووعيده فهو المنزه عن كل باطل. وأمَر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يهدأ في تَلَقّي الوحيِ فلا يردِّد كل آية بعد سيدنا جبريل بل ينتظر ما ينزل عليه حيث طمأنه المولى تعالى الى جَمْعِهِ محفوظاً في صدره الشريف. فاذا فرغ جبريل من قراءته بادر بعده بالقراءة محفوظاً فيبلّغ به الناس. وأمَرَه تعالى أن يدعو

ربه للزيادة من العلم. فالقرآن ذو معانٍ يتفاوت الناس في فهمها. وزيادة العلم لمن طلبها صادقاً في تقوى الله تعالى تحصل في فهم القرآن على وجه أفضل وتؤدي إلى زيادة الإنتفاع فقد روى الترمذي قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ((اللهم انفعني بما عَلَّمْتَني وعَلِّمْني ما ينفعني وزدني علماً والحمد لله على كل حال)). وفي رواية اخرى زاد: ((واعوذ بالله من حال اهل النار)).

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (116) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (117) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (119) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (120) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (122)

النسيان لازَمَ الانسانَ منذ ساعات حياته الاولى في هذا الوجود. وأول من نسيَ من البشر ابوهم آدم عليه الصلاة والسلام. وأول ما نسيَه كان نَهياً عن أكل ثمار شجرة عرّفها ربه تعالى له ونهاه وزوجَه من الأكل منها. وقد تقدمت القصة في سورة البقرة والاعراف والحجر والكهف بِصِيَغٍ تعطي مختلف التفاصيل عن خلق آدم عليه الصلاة والسلام وعن أمْرِ المولى عز وجل للملائكة ان يسجدوا له، وعن تحذيره من عداوة ابليس له ولذريته. فيذكر تعالى هنا امتناع ابليس عن السجود فاوضح المولى عز وجل لآدم بان ابليس هذا عدوّ له ولزوجه. وحذرهما من طاعته التي تؤدي الى الخروج من الجنة وما وراء ذلك من شقاء في عناء كسب الرزق

ومقارعة الأعداء وكبح الشهوات.كما يفقد نعيم الجنة التي لا يجوع نزيلها ولا يعرى ولا يظمأ ولا يضحى أي لا تناله شدة الحر. وقد تقدم بيان ما وسوس الشيطان به لآدم وزوجه عليهما السلام وما فعلاه من اكل وما حصل لهما بعد ذلك. وبعد ندمهما وتوبتهما تاب الله عليهما واجتبى أبانا آدم عليه السلام فكان من الانبياء مهتدياً بِهَدْيِ ربه.

قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (126)

ورد الحديث عن هبوطهم جميعاً في الآيات التي تبدأ بالخامسة والثلاثين من سورة البقرة حتى التاسعة والثلاثين منها. وفي الآية العشرين من سورة الأعراف. وأرشدنا الله عز وجل إلى إتباع الهدى وجعله سببا للعصمة والحياة الطيبة. واما الإعراض عن ذكر الله تعالى فهو ظُلْمُ آياته تعالى بالتكذيب بها واستهانته بها وعدم الإكتراث للوعيد الذي يأتي من ذلك بالعذاب في الدنيا والآخرة. وفي الآخرة يحشر أعمى بسبب هذا التجاهل فلا يدخل في رحمة الله تعالى. ويتمثل ضَنَكُ الدنيا بفقدان الطمأنينة وترقب زوال النعمة والتهرب من ذكر الموت، خلافَ ما يستبشر به المؤمنون من رحمة الله تعالى وبشائر الآخرة. وفي التفاسير ان العمى المقصود في الآخرة هو ظلماتُ ظُلْمِهِ لآيات ربه فلا حجة له وتعمى بصيرته عن الرجاء والامل برحمة الله تعالى.

وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (127)

الإسراف هنا إسرافٌ مجازي على نفس الكافر. أي انه اوغل في الكفر عناداً واستهزاءً، متجاهلاً ما جاءه من حجج الله تعالى على لسان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. وأما عذاب الدنيا فمهما اشتدّ فإنه مع الأمل يهون بإزاء عذاب الآخرة الذي وردت الآيات بشدته، فكيف بدوامه مع اليأس!

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (128)

لقريش رحلتا الصيف والشتاء في طريق قوافل تجارتهم ومسافريهم عبر الاراضي التي كانت الاقوام الهالكة تسكنها. فالله تعالى يستفهم إنكاراً كيف لم تكن آثار الهالكين دليلاً يهديهم للعبرة؟ فإن تلك الاثار عند أصحاب العقول النيّرة والنفوس المستقيمة آيات من الله تعالى تبعث فيهم العبرة. وهكذا تأريخ الامم السالفة عبرة لمن خلفهم، أي يتأدبون في سلوكهم خشية الهلاك. فالغابرون درسٌ لمن يأتي بعدَهم من أولي النُّهى (جمع نُهْيَة) أي أصحاب العقول النيّرة.

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى (129) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (130)

الحجة الربانية توجب العذاب وهكذا سبقت كلمته تعالى ان لا يعذب إلا بعد قيام الحجة الموجبة للعذاب. وقد سبق أن كتب سبحانه أجَلَ العذاب فوعد بتأجيله إلى ذلك الأجل ولولا ذلك لعجل العذاب على المكذِّبين. وهذا تصبير لرسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم وتعليم لأُمّته بالصبر على مشيئة الله تعالى وانتظار أمره الحكيم في ما يجري عليهم وعلى خصومهم. وليدخل في قلوب المؤمنين ذكرُ حكمةِ الله تعالى وسَبْقُ كلمته فينزهونه. كما أوجب على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم التسبيح بحمده جل جلاله قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فهو سنّة للمسلمين. وذلك افضل ما يكون في صلاة الفجر وصلاة العصر وقبل الغروب ثم من آناء الليل في فريضتَي المغرب والعشاء، وفي أوقات الفراغ، ثم في النهار في صلاة الظهر وفي أوقات الفراغ واثناء العمل والسعي في طلب الرزق. وبذلك يؤمل من الله تعالى ان يبعث الرضا في القلوب.

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (131)

الامر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأما المقصودون به فهم أُمّته. فقد كان عليه وآله الصلاة والسلام ازهد الناس في الدنيا مع القدرة عليها. اذ ينفق ما يحصل له منها في عبادة الله هكذا وهكذا أي يميناً وشمالاً. ولم يدّخِرْ لنفسه شيئاً في يوم ليوم يليه انما ادخر اللهُ له كرامتَه فلم يُفتَتَن بالدنيا وزهرة حياتها. بل كتب له الخير بالعلم والرحمة فهما الأبقى في الاخرة. والعبرة من هذا ان النعماء اذا حلت بالمؤمن جعلها قُربة الى الله تعالى. واذا حلت بالفاسق جعلها لِملذاته في شهوات نفسه. ولكن ذل المعاصي يلوح على وجهه، ووخز ضميره ينغص عيشه.

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (132)

في سورتين من القرآن الكريم أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين بالإستقامة. والمقصود كافة الأُمة. وهنا في هذه الآية الأمر موجّه الى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، والمقصود به أُمته، بان يتولى ولي أمر العائلة أن يأمر أهله بالصلاة ويقيمها بنفسه على كل حال يتطلب الصبر على العبادة. وهذه دعوة لِإبعاد المؤمن في همّته واهتمامِه عن حب الدنيا. فالرزق مقسوم من الله تعالى وكَفَافُه بالقناعة خير من البطر في كثرته لأن عاقبة التقوى ليست مثل عاقبة حب الدنيا أي جَعْلِها الهَمَّ الشاغل. روى ابن ماجه عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: سمعت نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم يقول ((من كانت الدنيا همه فرّق الله عليه أمْرَه وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِب له ومن كانت الآخِرَةُ نِيّتَه جمع له أمرَه وجعل غناه في قلبه وأتَتْهُ الدنيا وهي راغمة)).

وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (133) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى (134) قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (135)

اهل الكفر في قريش كانوا يَصِفون النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل البعثة بالصادق الامين وذلك لِما لمسوه من قوله وفعله الْمُتّسمَين بالصدق والأمانة. ولكنهم بعد البعثة طلبوا منه علامة على صدقه وغفلوا عن القرآن الكريم الذي جاء يبيّن ما في اخبار الاولين من الأقوام الذين كتب الله تعالى عليهم العذاب لإصرارهم على تكذيب الرسل. فقد ارسل اليهم الحجة لتقوم عليهم. اذ انه تعالى لو عذب كُفّارَهم قبل الرسالة لحاججوه بانه لم تأتهم رسالة لكي يتّبعوها قبل تعذيبهم. فها

هي رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم مُبِينة الحجة واضحة التفصيل لا مجال للطعن فيها. وقد جاء في السيرة الشريفة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بعد دَفْنِ قتلى المشركين في بدر، قال لهم ((لقد وجدنا ما وعد ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً))؟ وكان وَعْدُ اللهِ تعالى له بالنصر ولهم بالهلاك بالعذاب. وكان قد قال لهم بأنه يتربص بهم كما يتربصون به. وها هُم قد علموا بمن كان على الصراط السوي مهتدياً عليه نحو الحق. وهذا من بشائر القرآن الكريم.

سورة الانبياء

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (3) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (4) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (5) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (6)

الحساب يأتي في نهاية مطاف الحياة. وفي هذا الخبر تحذيرٌ من دُنُوِّهِ. والناس المقصودون هنا هم اهل الشرك من قريش وممن بلغته الدعوة فأعرض عنها. لأن الاوصاف المذكورة هنا هي أوصاف المشركين. واما الغفلة فهي غير اللهو الْمُضِلّ. فاللهو المضل يكون بالانغماس في الدنيا بعيداً عن ذكر الله تعالى. والغفلة تكون في نسيان الحساب والإعراض عن ذكر الآخرة وحسابها وعذابها أو نعيمها. وعندما يأتيهم من الله تعالى ذكر من القرآن مُحْدَثاً أي ليس فيه تحريف، فبدلاً من الانصات والتّعقّل عندما يستمعونه، تزيغ قلوبهم في الضلال ويُبْدُون إستنكارهم بالمساررة في ما بينهم. وخص الله تعالى الظالمين منهم اذ يناجي بعضهم البعض، لدى السماع من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، بأن الذي تستمعون القرآنَ منه بشرٌ مثلكم فهل يطيب لكم أن تحضروا ساحراً وأنتم تبصرون؟ أي في بصيرة أو عقيدة لغير ما يقول؟ وكان الرد بأن الله تعالى الذي انزل هذا الحديث يعلم ما تناجَوا به من أوهام إذ لا يخفى عليه قول عباده. واقتادتهم اوهامهم الى الحيرة في أمر البعثة؛ أهي أحلام

يتحدث عنها في اليقظة، ام افتراء من عنده، أم أنها شعر جديد عليهم؟! وهكذا تقصر عقولهم عن الحجة القوية فيطلبون علامة على صدق سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بمعجزة خارقة للمألوف. فأوضح الله تعالى أنما أرسل الآيات قبلهم لأقوام لم يؤمنوا بها فأهلكهم. وهو أعلم بأن هؤلاء لن يؤمنوا بها اذا جاءتهم. فإنهم لو جاءتهم الخوارق لكفروا بها واعتبروها سحراً يخدع أبصارهم اذ تشابهت قلوب المشركين وإن بَعُد بينهم الزمن.

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (7) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (8) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (9)

انكر المولى عز وجل على المشركين تناقضهم في باطلهم؛ فهم تارة يطلبون آيات كمعجزات الذين سبقوا من الرسل، ثم تارة اخرى ينكرون النبوّة لبشر مثلهم. فيقول تعالى بأن المرسلين الأوَل هم أيضاً رجال من البشر. وهذا ما لا يختلف فيه اهل الملل السابقة. فاذاً ليس رسولُهم بدعةً جديدة في الرسل. بل لا بد ان يكون الرسل بشراً يتجاوبون مع أقوامهم بالحجج والبراهين، عارفين بِأحاسيسِ المؤمن والكافر منهم. بينما لو كان الرسل من الملائكة وهم لا يملكون أنفس البشر فلن يُخَمِّنوا بما تتحسس به قلوب البشر. فالأحاسيس مكانها القلب والقلب مستور إلا عن خالقه سبحانه. كما أن الرسول (أيَّ رسولٍ عليهم الصلاة والسلام) لا يضره إن كان بشراً أو إن مشى في الاسواق واحتاج للطعام والشراب والملبس والمأوى فهذا لا يمنعه أن يكون رسولاً طالما كان مؤهلاً للرسالة. ثم بعد أداء الرسل أماناتهم يدعوهم المولى الى جنابه ويستخلف على دينه من يشاء من عباده بعد أن يحقق

لرسله وعده بالنجاة ومعهم المؤمنون. ويحقق وعيده للمكذبين الذين اسرفوا في الإنكار والتكذيب بلا رُشْدٍ ولا توبة.

لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (10) وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (11) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (12) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (13) قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (14) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (15)

يكون ذكر القوم في القرآن إمّا تشريفا لهم أو عبرة لغيرهم. فذِكرُ امّةِ سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو تشريف لها، وحديث اليها، ودين يرشدها، وبشارة تحدوها، فليتدبر المسلم نعمة الله تعالى فيعقلها أي يجعلها من اسلحة عقله التي يعقل بها النفس عن الهوى. ويشير المولى عز وجل الى من وقع عليهم غضبه بأنهم كثيرون في قرى عديدة (ويقصد المدن) استحقوا بظلمهم (وهو الشرك وتكذيب الرسل) الهلاك بقوله تعالى "قَصَمْنَا". والقصمُ أشدُّ من الكسر فقد يلتئم الكسر واما القصم فلا يلتئم فهو الهلاك التام. وذرأ تعالى أي خلق امما بعدهم. واما ما قبل الهلاك فتحصل مقدمات تدل على قرب وقوعه وهو بأس الله الشديد أي العذاب قبله فاذا احسوا دُنُوَّه بادروا للركض. والركض اسرع حركة للانسان. و يأتيهم نداء الحال او نداء من الملائكة أنِ ابْقوا في ترفكم وأسبابه من سعة العيش الذي لم يكن معه همٌّ. وهذا هو الترف. والنداء استهزاء بكبريائهم في الاستجابة كما استهزأوا من الرسالات فنالوا جزاءً من جنس العمل. وكما تجاهلوا مَن طلب منهم العون فخذلوه فلعلّهم يُسألون مرة اخرى. وهنا يدركون وقوع الهلاك لا محالة بهم

فيكون الويل صراخهم حتى نهاية الأنفاس يكونون بعدها بلا حراك كالنبت المحصود الملقى على الارض خامداً أي لا حركة فيه.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (17) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18)

إثباتاً للحق الأزليّ في وحدانية الله العلي القدير حصل خلقُ السماوات والارض وما بينهما فقد خلقهم تعالى فعُرِف من خلالهم بصفاته الازلية. ولا يصح ان يكون هذا لعباً أو شيئاً مما يلهو الناس به ثم يفنى ذلك الشيء بعد حين مع فنائهم. بل يقذف المولى تعالى بحق وحدانيته (وإنه الحي الذي لا يموت ولا يحتاج الى غيره) على باطل اعتقاد المشركين بنسبة الولد، (وهو من اسباب اللهو)، اليه. ويقذف بقدرته على من ينسب لغيره اثرا في الخَلْق والنصر والرزق. ويقذف بِعَدْله على من يطغى. ويقذف ببطشه على من استوجب الانتقام ممن نالوا غضبه. وعندئذ فإن ما احدثوه من أوهام عن الله تعالى او هزل أو تكذيب او مكر بالانبياء والمرسلين والصالحين يهلك فانياً الى عدم. ويبقى حق العزيز المقتدر في صفة الربوبية فرداً لا نِدَّ ولا شريك له، حقاً خالداً أزال ما توهمه الكفرة والمشركون. وبهذا فإن ما يدخل في الحق من قدرة وصدق ونصر ورزق وكرم ورحمة ومغفرة وامثالها من تجلياته بأسمائه الحسنى، وما يدخل فيه من المؤمنين مما يُثقِل موازينهم يوم القيامة، يختلف عمّا يدخل في الباطل من مكر وتكذيب ولَهْوٍ مُضِلّ وما يماثل ذلك مماكسب المجرمون لا وزْنَ له في الآخرة كالسراب يدمغه الحق. ويَلقَون الويل بعده.

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (19) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (20)

من في السماوات والارض هم مخلوقات الله تعالى. ويتنافى هذا مع وجود ولد أو شريك مع الواحد الأحد. واما الملائكة فقد ألْهَمَهُم الله تعالى التسبيح كما يحصل التنفس في الانسان من غير توقّفٍ ولا مَلَلٍ وهم في ذلك يمثلون العبودية بما تحمل من ذُلٍّ، خاليةً من أيِّ تكبر في تَنْزيهه تعالى ونِسْبَةِ الحمد له بلا انقطاع أو فترة من الفتور.

أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (21) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (23) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (24)

لا يستطيع من يدّعي أن له من دون الله (سبحان الله وتعالى) ربّاً غيرَه ان ينسب الى ذلك الإله الموهوم إحياءَ الموتى وبعثَهم في نشور الخلق. ويُبيّن الرحمن رفعة درجاته عن الشريك بأن لو كان ذلك يصح لما صلُح امر السماء والأرض اذ يُفسِد المنافسُ عمل منافسه. وهو تعالى فوق شبهات الظن السيئ فلا يُسأل عما يفعل لأن الذي يسأل أي يسائل الفاعل عن فعله يكون وليّاً للمسؤول اعلى منه وله سلطة عليه. وهذا إفك لا ينبغي ان يُنسب لمن خلق كل مخلوق في السماء والارض وهو الذي يسائلهم عما يصفونه به ويسأل من يشاء عن ذنوبهم. وبعد ان يقيم المولى عز وجل الحجة العقلية على بطلان الشرك يُنْكِر تعالى مرة اخرى في قوله (أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُم) على من يصف الله تعالى وصفاً لا ينبغي

له، وهو حاجته لشريك، فيطالبهم ببرهان على قولهم. اذ لم يرد ذلك في أي خبر جاءت به الكتب المنزلة. وهكذالم يأتوا بالبرهان على وصفهم، فاكثرهم لا يميّز الحق عن الباطل. ولا يريدون أن يعلموا. فهم مُعرِضون عمّا دُعوا إليه من معرفة الحق معرفةً صافية فضلاً عن إتّباعِه.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25)

وفي تعقيب على منكرات الشرك العقلية فإن الله تعالى ينبه إلى حقيقة ما أوحى إلى الرسل عليهم السلام وهو انفراده تعالى بالالوهية، وما يستدعيه ذلك من إفراده معبودا واحدا فلا صلة لخلقه به إلا بالعبودية. في سورة مريم: ((إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدَاً)).

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (26) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (27) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (28) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (29)

نسبت احدى قبائل الجزيرة العربية قبل اسلامها، وفي التفاسير هي خُزاعة، الى الملائكة انهم بنات الله، سبحانه عن ذلك، فان الملائكة عباد مكرمون بالعصمة عن المعصية وعن التقوّل بأيّ حديث قبل ان يؤمروا بذلك. والله تعالى يعلم منهم ذلك ويعلم غيب ما سيقولون ويفعلون فهم لا يمكن ان يبادروا بالشفاعة في غير رضى مولاهم تعالى. وحالهم في الشفاعة والطاعة حال الخشية الى حد الاشفاق من أي

غفلة. ولم يَرِدْ في كلِّ دعوةِ شركٍ بأنْ نُسِبَ الى مَلَك من الملائكة ادعاؤه بالأُلوهيّة فذلك ظلم مصيره الجزاء بجهنم وكذلك مصير الظالمين مدّعي الأُلوهية.

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (30)

الرتق هو الخلوُّ من المنافذ. والفتق هو حصول منفَذٍ لخروجِ ما في ذلك الشيء الذي فُتِق. وفي التفاسير ان رتق السماء هو انحباس الماء. فلا ينزل منها، وأن رتق الأرض هو انحباس النبت فلا يخرج منها. ففَتَقَ الله تعالى السماء بالماء وفتق الارض بالنبت، وهكذا حصل للحياة قوامها وهو الماء ويؤيد ذلك قوله تعالى هنا ((وَجَعَلْنَا مِنَ المآءِ كُلَّ شَيءٍ حَيّ)). ولا يصح التكلف في تأويل الآية على أنها تشير إلى النظرية القائلة بأنّ المجموعة الشمسية وأمثالها كانت رتقاً ففُتِقَتْ.

وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (31) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (32) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (33)

الرواسي هي الجبال. وما أكثر ما حققه المولى عز وجل فيها! فهي اسباب لتوزيع المياه وصدِّ الرياح التي تحمل السحاب. هي الحافظ للسهول الرسوبية ولولا سلاسلها في الأرض لاضطربت السهول بما يسقط من ماء المطر عليها فلا تحصل فيها جداول وسيول تؤدي الى احواض الانهر لتسقيَ أرضَها ثم تصبَّ في البحار او البحيرات. وتُبرِز الدراسات الطبيعية للممرات في الجبال والمسالك التي يختارها مهندسو الطرق لِأجل المواصلات البرية بين الاقاليم والاقطار بأن مواقعها وبدايتها

ونهايتها لم تكن عفوية بلا تقدير من حكيم عليم. وأما السماء فقد سئل عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما جاء في رواية ابن ابي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: "جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: يا رسول الله ما هذه السماء؟ قال: ((موجٌ مكفوفٌ عنكم))"، وهذا ما كشفه العلم عن طبقات الجو التي لا تدركها الأبصار. وينبه المولى العليم القدير الى آيات السماء ويشبهها بالسقف فحيثما يتحرك الانسان في سطح الكرة الارضية يرى الفضاء من غير تفاوت محفوظاً من ذلك بانسجامه وتعدد النجوم والكواكب ومواقعها المنتظمة وما لها من قُوَى الجذب من غير إضطراب ولا إختلاف. وها هي المراصد تكشف احجام كواكبها ومسافاتها مقاسة بالسنين الضوئية. حتى وقف العلماء في خشية مقرّين لهذا النظام الذي لا مجال للصدفة فيه بأن خالقه واحد لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الارض. وقد جعل من دوران الكواكب السيارة حول الشمس حصول سقوط اشعة الشمس عليها متواصلَ التنقلِ بانتظام فيحدث النهار على مساقطها ويسلب الضوء منها في الجهات المقابلة لها وفي سورة يس ((وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ)) دلالة على ذلك. وجعل القمر يدور حول الارض بأيام تتفق مع دورانه حول نفسه بحيث لا يرى أهل الارض منه إلا وجهاً واحداً. وسبحان الله من بديع السماوات والارض.

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (34) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (35)

لم يبق لكفار قريش حجة تحكم بها على البعثة النبوية الشريفة فدخل في تقديرهم انه صلى الله عليه وآله وسلم سيموت ويشمَتون به، وهذا من جهلهم

لتقدير المولى عز وجل. فأوحى تعالى انكاراً لهم في هذا التقدير أنهم لن يفلتوا من الموت. وان الحياة فترة من الزمن تتابع فيها تقديرات المولى القدير؛ من رخاء وشدة، ومرض وعافية، وغنى وفقر، ثم يُظهِر تعالى لكل إنسان موقفه من ابتلاء ربه. فالمؤمن يصبر على مشيئة ربه في البلاء ويؤدي ما يريده الله تعالى منه. ويشكر ربه تعالى في النعماء والشكر ان يعلم وحدانية المنعم وأنّ النعمة اختيار ليتوجّه بها الانسان الى ربه فلا يعصيه فيها، ولا يأمن الأيام حتى يلقى ربه شاكرا صابراً، يعمل الصالحات ويرجو رحمة ربه ويخاف عقابه، ويحذر الاخرة. فالرجوع لا مَحِيْدَةَ فيه عن هذا الموقف مع الله تعالى.

وَإِذَا رَآَكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آَلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (36) خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (37) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (38) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (39) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (40) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (41)

إقترن تكذيب كفار قريش أيام الدعوة في مكة بالإشارة إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إستهزاءً به أن يذكر آلهتهم بسوء وهم أجدر بالسخرية لكفرهم بالرحمن. واستعجلوا العذاب تكذيباً به. ولكن حكمة الله تعالى لا تعبأ لإستعجال الإنسان. فتَوَعَّدَهم بعذاب نار لا يمكنهم كفها بأيديهم عن وجوههم أو ظهورهم لأن أيديهم تكون مغلولة، ولا يجدون من ينقذهم من العذاب. اما موعده الذي تساءلوا عنه فهو من المكتوم ولكنْ سيُريهم الرحمنُ آيات العذاب بغتة فتبهتهم أي

تفاجئهم على حين غفلة فلا تتأخر عن ميعادها الذي اجله تعالى. وهذا ما حصل لمن سبقهم في الاستهزاء فوقع عليهم ما استهزأوا به واحاط بهم فلا مخرج منه.

قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (42)

يتحداهم تعالى أن يذكروا بديلاً عن الله في حفظ عباده (أي يكلأُهم) إلا أنهم لا يُقِرّون بذلك وينسبون الحفظ لشركائهم معرضين عن ذكر الله تعالى. وما أبعد ذلك عن أُولي الألباب ذوي المعرفة الصافية الصائبة.

أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (43)

يستفهم تعالى منكراً على الكفار إعراضهم وهل لهم ثمة آلهة تمنع عنهم الاقدار؟ ثم يبين أن مثل هذه الآلهة بحاجة للنصر فلا تملك لنفسها ذلك فكيف تملكه لغيرها؟ وما لها مَن يجيرها ويمنعها من الله.

بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (44) قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ (45) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (46) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (47)

من اسباب غفلة اهل الكفر انهم يعلّلون ما مُتّعوا به من نعيم الدنيا على انه دليل على صحة سلوكهم الدنيوي، وأنهم في هدىً وبيّنة من أقوالهم وافعالهم. وقد ورد شرح لقوله تعالى ((أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ...)) في الاية

الحادية والاربعين من سورة الرعد وهي تنبيه الى قدرة الله تعالى يتصرف في ملكه ولا مشيئة لغيره في الخلق والامر. وفي بعض التفاسير ان ارض الكفر تنقص بنقص عدد سكانها من الكفار. وفي بعضها تشير الاية الى هلاك الأقوام المحيطة بمكة؛ وهي عاد وثمود وسبأ ومديَن وأرض قوم لوط (عليه الصلاة والسلام). وفي بعض التفاسير ان الاية تشير الى تناقص ما يراه الانسان قد تكامل ومَثَلُ ذلك ضعف المتقدمين في السن من حيث القوة والذاكرة وما الى ذلك. واما الارض التي نعيش عليها فإنّ تقدُّمَ العلوم بطبيعتها كالتصحّر وذوبان ثلوج القطبين يظهر حقائق لها اشارات ودلالات مطابقة لها في القرآن الكريم. وهذا مما يخرج عن نطاق هذا الكتاب الملتزم بالتفاسير السابقة ولله الحمد والمنة. ويشير تعالى الى الإنذار بما يوحيه الى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وهو اعلم بأن الذين لا ينفعهم النذير حالهم كحال الأصمّ أي كأنهم لم يسمعوا هذا الحق ولم ينظروا الى ما وراءه. إلا انهم يتخلون عن غرورهم وتعاميهم وسَدِّ آذانِهم عندما يتبين لهم أن ما كذّبوا به هو الحق وذلك على أثر عذاب يمسهم فَيُقِرّون مع الويل والثبور بما كانوا عليه من فسوق. ويوم القيامة يكون الحق ميزاناً لتقويم الأعمال الصالحة وغير الصالحة فلا يُترَك العمل مهما صغر بغير وزن. والله تعالى لا يحتاج الى غيره في الوزن. فلا يكلف من يزن للخلق. وحسابه سريع لا يستغرق ما تتطلبه حسابات الدنيا من وقت. وهو تعالى على ذلك قدير. فيعلم كل انسان انه انما لقيَ عملَه وان الميزانَ جاء من العدل الذي حفظ به صفة كل الاعمال على حقيقتها فلا يُظلم أحد.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (48) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (49) وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (50)

هنا مزايا من التوراة: بتفريقها الحق عن الباطل، وبيان سبل العبادة، ودوام تذكيرها لمن التزم بأحكامها وتعاليمها وصدّق بمعانيها في تقوى وخشية فيها إخلاص لله تعالى مع إشفاق أي حذر من مباغتة القيامة. فكانت نبراساً وفُرقاناً بين الحق والباطل. وهذا ما جاء به الرسولان موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام. ويشير سبحانه إلى القرآن الكريم الذي أنزله مباركاً ومصدقاً للتوراة والإنجيل فلا معنى لإنكاره. وفي كثير من الآيات يقترن ذكر سيدنا موسى بذكر سيدنا محمد صلى الله عليهما وسلم لكي يكون أهلُ التقوى على حذر من نبذ القرآن كما نُبِذت التوراة إلا من قليل منهم ممن آمنوا بالأنبياء من بعد موسى عليه السلام.

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (54) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (56) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (65) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ

مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (67) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آَلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (72)

الرُشْدُ من الله تعالى هو هُداه لمن يكون اهلاً له. فالله أعلم أين يودع نعماءه كما حصل لسيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام. وبدأ الهدى بحديث لقومه (ومنهم ابوه) بتساؤل فيه إنكار واستهزاء إذ سَمّى آلهتهم على حقيقتها: (تماثيل)! وانكر عكوفَهم عليها أي إقامتهم على عبادتها. فلم يجدوا دليلاً على أُلوهية التماثيل سوى أنهم وجدوا آباءهم يعبدونها. ففاجأهم بما هم عليه من ضلال وارادوا تبيُّنَ موقفِه الجادّ منهم إن كان عنده حق يقنعَهم فأرشدهم الى أنّ آلهتهم مخلوقة وانهم مخلوقون كما هي السماوات والارض فهل يُترَك الخالقُ ليُعبَد المخلوق الصامت. ثم عزم على أن يبادر بإثبات الحق بتحطيم الأصنام عندما يخلو بها. فلما خرج القوم الى عيد خارج البلد عمد الى فأس حطّم به الاوثان والأصنام (وكانت على أشكال منها شكل انسان ومنها أشكال طيور وسباع) إلا صنما واحداً أبقاه (وكان على شكل انسان) فعلّق الفأس في عنقه فكانت حجة بالغة بُهِتوا بها. وبعد التحري تذكروا الذَمَّ الذي وجّهَهُ ابراهيم عليه السلام لآلهتهم. فاستدعاه الحكام للتحقق من الشبهة التي حامت حوله وهنا استغل الموقف ليكشف حقيقة الاصنام بانها لا يمكن ان تفعل شيئاً فقال بأن هذا من فعل كبير الاصنام. والفأس في عنقه. فأقاموا الحجة على أنفسهم بأن قالوا "لقد علمت ما هؤلاء ينطقون"! وناقشهم في ذلك. فلم يملكوا إلا الإعتزاز بكفرهم واعدوا له منصّة يقذف منها الى النار التي لم تعد عليه إلا برداً وسلاماً بأمر ربها سبحانه. وفي التفاسير اعقب ذلك هلاك القوم الكافرين

ونجاة سيدنا لوط عليه السلام معه وهجرتهما الى فلسطين. واعقب سيدنا ابراهيم عليه السلام من اسحاق الذي اعقب من يعقوب عليهما السلام. وكانت النبوة في ذرية سيدنا إبراهيم عليه السلام مختتمة ببعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلّم من نسل اسماعيل عليه السلام.

وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (73) وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (74) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (75)

جعل المولى تعالى إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام صالحين ليكونوا أسوة حسنة للهدى فكانوا هم ومن ورث علومهم وسار على سُنَنِهم أئمةً فالعلماء ورثة الانبياء. إلا أن استعداد الرسل والانبياء عليهم السلام يرقى الى تقبّل الوحي الرباني فقد ارشدهم المولى تعالى بذلك أي بالوحي الى اختيار افضل العلاقة مع الخلق وافضل العلاقة مع الخالق؛ ففِعلُ الخيرات يكون نفعُه للناس، وإقام الصلاة وايتاء الزكاة اداء للفرضين فهما صلة مع الله تعالى وطاعةُ عبادةٍ له. وشهد الله تعالى لهم بهذه العبادة. وكان ذكر سيدنا لوط عليه السلام قد ورد معهم فأشار تعالى الى أنه آتاه حُكْماً وهو التصرف بالحكمة وأخلاق النبوة مع قومه قبل هلاكهم، ثم علماً هو الفقه في امور دينه ودنياه. واما نجاته من القرية الفاسدة فقد ورد ذكرها في الآيات الاربع المبدوءة بالثمانين حتى الرابعة والثمانين من الاعراف، وفي الآيتين: الثمانين والحادية والثمانين من سورة هود. وفرَّق تعالى بينه وبين قومه؛ فهو عليه السلام الى رحمة ينالها الصالحون، وهم الى هلاك وخزيٍ مبين.

وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (77)

ورد شرح لموقف سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام مع الكفار من قومه في الآيات التي تبدأ بالسابعة والثلاثين وتنتهي بنهاية التاسعة والاربعين من سورة هود مما اغنى عن التكرار. والمهم من هاتين الآيتين هو سنة الله تعالى في الذين كذّبوا الرسل. ولا تبديل لِسنَّته عز وجل وبهذا تحذير لمن يُكذِّب بالرسالة السماوية الْمُنزَلة على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (78) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (79) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (80) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (81) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (82)

في هذه الآيات من العبر الكثير؛ فالفهم الذي اراده المولى تعالى لسيدنا سليمان عليه السلام جعل أباه داود عليه الصلاة والسلام يتفرغ للعبادة طالما كان هناك من جعله الله عز وجل اهلاً للفهم والحكم. اذ لو شاء سبحانه ان يبقى داود يحكم لما ساق له هذه القضية وجعل حكمها عند غيره. والحرث هو النبْت الذي أثمر وحان قِطافُه. والنّفْش هو الإقتحام ليلاً ويختلف حكمه عن الْهَمْل الذي يحصل نهاراً. وقد حكم فيها سليمان عليه السلام خلاف ما حصل من إجتهاد داود عليه السلام بأن تُستَغَلَّ الغنمُ من قبل صاحب الزرع الذي أضرّت به حتى يثمر فيعيدها

لصاحبها. ولما ترك داود الحكم اكرمه الله تعالى بتسخير الجبال والطير يسبحن معه وعلّمه صنع الدروع المرنة بعد ان كانت من الصفائح فصنعها من حلقات متراصة في مسامير فكانت واقية من النبال والرماح والسيوف مدعاة للشكر على السلامة. وسخر تعالى لسليمان عليه السلام الريح تنقل ما يشاء الى حيث يريد وذلك لإعلاء كلمة الله تعالى فمن يريد إعلاءها يكرمْه المولى باسباب النصر. وعزز الله تعالى مُلكَ سليمان عليه السلام بتسخير الجن لأوامره شاؤوا ام أَبَوا، فلا يتجاسر أحد منهم على مخالفته. فقد سلّطه تعالى على الْمَرَدَةِ منهم بأن قَيَّدَهم بالسلاسل.

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (84)

الضُرّ بضم الضاد هو ما يصيب البدن من مرض او هزال اما الضَرُّ بفتح الضاد فهو الضرر في كل شيء. والذي مسَّ سيدَنا ايوب عليه السلام هو بلاء ظاهر في جلده اعتقده النّاس جُذاما فتحاشَوا القرب منه إلا زوجتُه التي واصلت رعايتها له حتى شفاه الله تعالى على اثر هذا الدعاء. فإن الصابر على البلوى يعلم أنما يصبر على مشيئة الله تعالى مع حُسن الظن بربه الرؤوف بعباده الحكيم في حكمه بما يجري على عباده. وقد دعا سيدُنا ايوب عليه الصلاة والسلام بعد صبر طويل فامتدحه المولى عز وجل في غير هذه الاية اذ صبر على البلوى حتى كشفها الله تعالى واعاد اليه عافيته. وأما أهله فقد ورد فيهم اكثر من رواية ومنها تفسير ابن كثير رحمه الله عن مجاهد قال: قيل له (أي ايوب عليه السلام): يا ايوب ان اهلك لك في الجنة فإن شئت اتيناك بهم وان شئت تركناهم لك في الجنة وعوضناك مثلهم.

قال لا بل اتركهم في الجنة. وعُوّض مثلهم في الدنيا. وهذا من رحمة الله تعالى جعل ما حدث في قصة سيدنا ايوب عليه السلام عِلماً لمن يقتدي من اهل العبادة بالصابر ايوب عليه السلام بأن الله تعالى لا يبتليهم لهوانهم عليه بل ليعطيهم من رحمته وفضله بعد صبرهم وثقتهم مع حُسن الظن بالحكيم الخبير. ولا يخلو إبتلاء المؤمن من مغفرة لذنب أو منْزِلةٍ لم يعملْ لها. أما من تراه يرد البلوى بلا صبر فلعلها عقوبة يذوقها في الدنيا أو نقمة تؤدِّبه.

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (85) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (86)

بالنسبة لسيدنا اسماعيل ولسيدنا ادريس عليهما الصلاة والسلام فقد ورد ذكرهما في الايات المبتدئة بالاية الرابعة والخمسين وما بعدها من سورة مريم. واما عن ذي الكفل عليه السلام فقد رُجّحَ كونُه نبياً لورود ذكره معهم في هذه السورة، ولم يرد عن نبوته او بعثته شيء. وقيل في بعض التفاسير أنه إلياس عليه السلام ولُقِّب بـ(ذي الكفل)، أي الحظ، ولم ترد قصة عن صبره الذي اشار المولى تعالى اليه في هذه الاية.

وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88)

سيدنا يونس عليه السلام هو المقصود بكنيته (ذي النون) أي صاحب الحوت. وقد ذهب مغاضباً قومَه لما كذّبوه في بادئ امره معهم. وكان غضبه لله

تعالى. وكان قد أوعدهم بأجلٍ ثلاثة ايام يأتي بعدها عذاب الله تعالى على من لم يؤمن. ولم ينتظر منهم الايمان فذهب عنهم وركب البحر مع ركاب آخرين في سفينة كادت تغرق ولا بد أن يخففوا عنهم بإلقاء احدهم كما جرت العادة بالاقتراع. واذا بالقرعة تصيب سيدنا يونسَ عليه السلام واذا به في بطن الحوت ولم يكن يظن ان القدَرَ الربانيَّ سيناله فرجع الى نفسه لعله قد اخطأ في خروجه من بين اظهر قومه قبل ان يؤمر بذلك فنادى نداءه الذي سبح به ربه منزهاً اياه فنجّاه الله تعالى. وفي التفاسير أن قومه آمنوا خوفاً من عذاب الله فكشف الله تعالى عنهم العذاب ووعد الله تعالى هذه النجاة للمؤمنين. وفي هذا تعليم للمؤمن بحسن الظن بربه تعالى والرجوع إليه. ولا يتنافى الغم المذكور مع حُسن الظن بالله تعالى لأنه لم يحصل من يأس من رحمة الله تعالى بل من حراجة الموقف في تلك الوحشة.

وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (90)

وردت قصة سيدنا زكريا عليه السلام في اول سورة مريم، وقبلها في سورة آل عمران. فقد كان نداؤه في قلبه خفيّاً. وقيل لم يشأ ان يَسْمَعَه أحدٌ من قومه. واراد الولدَ لإعلاء كلمة الله تعالى ليرث النبوة منه. وكان في موقفٍ من تقدّم العمر وعقم زوجته ما لا يتوقع الناس فيه الإنجاب. إلا أن الله تعالى أكرمه بـ(يَحيَى) عليه السلام وأذهب عن زوجته ما إستوجب إصلاح شأنها له. وامتدحه وأهله على الإحسان في الأفعال والصفات كالمسارعة في الخيرات والدعاء من الله تعالى رغبةً بعطائه ورهبة منه في خشوع يَحمِل في معانيه التواضع والتذلل والطاعة.

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (91)

أكثر من اعطاء الولد لشيخ كبير إثارةً لدى الناس هي معجزة خلق سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام من غير أب. وقد وردت قصة السيدة مريم عليها السلام بعد سيدنا زكريا صلى الله عليه وسلم في سورة آل عمران وسورة مريم وجعلها الله تعالى مثلاً للذين آمنوا كما جاء في سورة التحريم اذ صدّقت بكلمات الله وبشارة المسيح عليه السلام فكانا، هي في حَمله وولادته من غير أن تتزوج، وهو في خَلْقِهِ من غير أبٍ، كلاهما آية واحدة للعالمين.

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (93)

كون الدين لله تعالى جعله سبباً في وحدة الرسالات. فالامة الواحدة هي امة الدين الواحد، وسننها شريعة واحدة. فليس من رب غير الله تعالى يُعبَد. وفي هذا البيان حجّةٌ. فمن ثبت على التصديق والعمل فالحجة له ومن انحرف فالحجة عليه. واذا بأجيال اعقبت الرسل فاختلف بعضهم عن بعض فبقى المصدِّقون امةً واحدة. وانقطع المبتدعون عنها فتوعدهم المولى بالجزاء والفصل يوم يرجعون اليه.

فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (94)

الايمان مشترط لقبول العمل الصالح ويكتب لصاحبه غير منقوص، والله تعالى يجزل الثواب لمن يشاء.

وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (95) حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (96) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (97)

كتب الله تعالى على من أهلكهم من اهل القرى أن لا تبقى لهم باقية من الكفار فلا يرجع منهم أحد وفي بعض التفاسير ان الله تعالى قدّر عليهم أن لا يتوبوا لقسوتهم على الدين حتى يهلكوا. واما يأجوج ومأجوج فموعدهم كما في التفاسير يعقب هلاك الدجال وآنذاك يكون سيدنا عيسى عليه السلام قد نزل الى الارض فيدعو الله تعالى عليهم فيهلكهم بآفة من انواع الديدان يقال لها النغق. ويبعث الله تعالى عليهم بعد هلاكهم جوارح من الطير ضخمة ترفعهم وتقذف بهم بعيداً عن مدن المسلمين. واما إنسلالُهم من كل حدب فهو اندفاعهم من فوق التلال الواقعة على تخوم اوطانهم مع غيرهم. وبعد هلاك يأجوج ومأجوج بزمن يعلمه الله تعالى يحصل تنفيذ وعده الذي اقترب وهو قيام الساعة التي يذهل لِهَولِها اهل الكفر فيشخصون بابصارهم أي تكون اجفانهم مرتفعة لا تغمض من الاهوال التي يرونها فلا يملكون إلّا الويلاء على ما فرّطوا وظلموا مقرّين على انفسهم بانهم كانوا ظالمين.

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (98) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (99) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (100) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (102) لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (103) يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (104)

بعد أن يورد المولى القدير مشهد هلاك الكاذبين المكذبين ومشهد خروج يأجوج ومأجوج واقتراب ساعة القيامة، يخاطب الله تعالى كفار قريش بأنهم ما لم يؤمنوا فقد جعلوا من انفسهم وقوداً لجهنم فيجدون اصنامهم وطواغيتهم فيها وتتعالى اصوات حسرتهم بالزفير على ما فعلوا من إعراض عن عبادة الله تعالى الى غيره ممن ورد معهم جهنم. فكيف غفلوا عن ذلك وصاروا الى هذه المحنة! ويُغلَق عليهم السمع كما أغلقوا اسماعهم عن الحق في حياتهم الدنيا. وأمّا من إتّخذوهم أنداداً من دون الله تعالى فمن كان شيطاناً أو صنما أو طاغية فهو في النار. ومن كان نبيا أو رسولا أو رجلاً صالحاً فقد استثنى رب العزة اولياءه من هذا الوعيد لان الحسنى سبقت لهم بصلاحهم فهم عن جهنم مبعدون كما هو الوعد لأولياء الله ذوي الايمان والعمل الصالح. ويبين الله تعالى احدى نعماء الجنة بأن هؤلاء الأولياء إذ يدخلونها برحمة الله تعالى يجدون ما تاقت اليه أنفسهم من رضوانه تعالى ونعيمه مهيأً لهم في خلود لا يُخشَى معه فناء. فلا يذوقون هذا الحزن الاكبر. وتستقبلهم الملائكة بالبشارة والتهنئة بنيل الوعد الحق فهذا يومهم الذي وُعدوا به. وقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حديث له ((...وإن الله يقبض يوم القيامة الارضين وتكون السماوات بيمينه)). وهذا من شؤون المولى القدير. وهو اشارة الى نهاية مدة حياة الإنسان على الارض. فكُلُّ مَن عليها فانٍ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام. ويختم الله سبحانه على ما كُتِب من الحسنات والسيئات فلا يضاف عليها ولا ينقص منها. متروكة لحكمه الحكيم في الحساب او المغفرة او العقاب او العتاب.

ويعود الناس الى البداية التي بُدِئوا بها في أول خَلْقِهم كما وعد الرحمن بذلك ويبدأ عندها ما وجب لكل فرد من لقاء او حساب او نعيم او عقاب.

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (106) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (107)

بَيّن المولى عز وجل صدق وعده في كتبه المنزلة التي منها الزبور الذي أُنزل على داود عليه السلام بعد الذكر الذي أُنزِل على موسى عليه السلام وفيهما: ان الارض لا تصلح الا بأهل الإصلاح. فلولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضهم ببعض لفسدت الارض. ولهذا يدفع الله تعالى اهل الفساد بعد اقامة الحجة عليهم بما أفسدوا. ويأتي بآخرين لا يكونون أمثالهم. واما الصالحون فهم الذين ينتصرون لله تعالى في اعلاء كلمته فينصرهم. وهذا تعليم للعابدين الذين لا يجعلون لغير الله تعالى نصيباً في اعمالهم، وهذا من بواطن اسباب الرحمة التي ارسل تعالى رسوله ليمثلها بين الناس كافة وجعل إتّباعَه وسيلة لنيلها في الدنيا نصراً، وفي الاخرة فلاحاً، من رضوان الله تعالى وجوده وكرمه سبحانه.

قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (108) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (109) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (110)

وبناءً على هذا الوعيد للكفار والوعد للمؤمنين الصالحين يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يُعلِم اهل مكة بما ارسل به من عبادة الله وحده ويسألهم عن موقفهم بإستفهام فيه دعوة للإيمان ليكون الرسول صلى الله عليه وآله

وسلم على بيّنةٍ منهم. فإن تولّوا عن تلبية الدعوة فإنه قد آذنهم أي أعلمهم على سواء أي شَمَلَهُم بدون إستثناء ولا يعلم ساعة وقوع ما وُعِدوا به من حيث قُرُبُه أو بُعدُه. فعِلْمُ ذلك عند الله تعالى عالم الجهر من القول وما تخفيه السرائر.

وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (111) قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (112)

واما الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقد بيّن غياب علمه عن سبب تأخير العذاب عن المكذبين. فلعل ذلك ابتلاء لبقائهم في غيّ التكذيب. ولكن لا بدّ من حينٍ يتحقق فيه الوعيد. وهكذا قال الرسل من قَبْلِ أنْ يفتح الله تعالى بين كلٍّ منهم وبين قومه المكذِّبين بالحق لِيَهْلِكَ من هَلَكَ عن بيّنة من تكذيبه، ويحيى من حيِيَ عن بيِّنة من تصديقه. والرسول صلى الله عليه وآله وسلم يلجأ بذلك الى الرحمن مستعيناً به على ما يصف المكذِّبون أي يسلم أمره لله تعالى بانتظار ما سيفتح له من نصر يختزي معه من يلصق الصفات التي لا تنبغي لله تعالى به فهو المعين عليهم في وصفهم المنزه عنه.

سورة الحج

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2)

المولى عز وجل يذكِّر الناس بنهاية الحياة الدنيا بعد أن يخاطبهم ليتقوه تعالى أي أن يجْعَلوا طاعته وقاية لهم من زلزلة الساعة وهي أشد من غيرها تفاجئ بالذهول اكثر المواضع انتباهاً. وضرب له مثلاً بالأُمِّ ترضع وليدها الرضيع وهي ترقبه في لهفةِ قلبٍ عطوف فإذا بها تذهل عما ترضع، وبالمرأة الحامل تسقط جنينها، وذلك من أثرِ شدة الزلزلةِ ومفاجأة نهاية عمر الحياة على ظهر هذه الارض من غير إمهال. ولذلك اليوم مشهد آخر مع المفاجأة الرهيبة التي تضطرب لها عقول الناس مثلما يحصل غياب العقول عند السكارى فيتصرف الناس بدهشة العقول مثلما يتصرف السكران الذي فقد الصحوة. كل ذلك من تباشير العذاب الذي يبدو لهم شديداً في وقوعه المحتم. وأمّا قوله تعالى: ((وتَرَى الناسَ سُكارَى وما هُمْ بِسُكارَى)) فذلك الحال لا يشمل المؤمنين الذين وعدهم بالأمن في السورة السابقة بقوله تعالى: ((لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكبَرُ)).

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (3) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (4)

الجدل في الله تعالى بغير علم يكون ممن يسألون المؤمنين عن الله تعالى تعنتاً. ولأنهم يعبدون أرباباً من مواد الأرض فيسألونهم عن الله تعالى من أي مادة هو! وفي التفاسير ان يهوديا قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((يا محمد اخبرني عن ربك من أي شيء هو من دُرٍّ ام من ياقوت))؟ فجاءته صاعقة. وفي سورة الرعد: ((ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد الْمِحال)). وبهذا الجدل يتّبِعُ المجادلون في الله تعالى كل شيطان مَريد أي عاتٍ من شياطين الجن والإنس ممن يدعو مَن يستجيب له الى الخروج عن الايمان. ومصيرهم عذاب السعير، أي النار شديدة الحر. واما دعوة المضلين فتكون (كما في التفاسير) بالبِدَع التي يسنها المضلون لتأخذ مكان الشرائع السماوية ويرتضيها اهل الزيغ وبذلك يتركون المناسك التي امر الله تعالى بها. وهكذا يكون من تولاهم قد أضلّهم عن طريق الجنة الى عذاب السعير.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (7)

البعث هو قيام الارواح والاجساد يوم القيامة. فمن كان من الناس في ريب من بعث الحياة في جثث متفسخة وعظام نخرة في قبور مندرسة، فإن الله تعالى اتى بدليل على قدرته على ذلك والدليل هو النشأة الأُولى للبشر من عناصر الارض في ترابها ومن الماء الذي جعل الله تعالى منه كل شيء حي. فالبدء في الخلق من تراب هو طين أبينا آدم عليه الصلاة والسلام. ثم جعل نسله في صلبه نطفة أنبتها من الأرض (والله أنبتكم من الأرض نباتا) تستقر عند الام فتتطور (وقد خلقكم أطوارا) حتى تكون ذات روح وصورة وهي المخلّقة او تسقط في ايام الحمل الاولى وهي غير المخلقة. واما الصورة والجنس والمستقبل فكل ذلك يكون بتقدير المولى الحكيم مكتوباً على كل نسمة حتى الوفاة بعد عُمُرٍ مُقَدَّر إما قبل الشيخوخة أو خلالها أو بعدها الى ارذل العمر وذلك عندما يجهل الإنسان ما كان قد تعلّمه. ويشير المولى القدير الى بدء حياة النبات من أرض جرداء تحوي بذور نبات لا يدل شيء فيها على الحياة. فإذا سقيت نرى البذور قد نَمَت في التراب وأثمرت أصنافاً من نبات شتّى وهذا الدليل يدفع إلى التفكير في القدرة وراء بدء الحياة في النشأة الأُولى ثم إلى ما هو أيسر أي النشأة الثانية للتوصل إلى أن الله تعالى هو الخالق الحق في قدرته على أن يهب الحياة في بطون الأُمهات وعلى أن يبعث الاموات من قبورهم على ما ماتوا عليه.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (8) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (9) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (10)

هذا الصنف من أهل البِدَع والأهواء الضالة لا يكتفي بضلاله عن الحق بغير علة معقولة، مديراً عنقه عن الاستجابة لله، بل يريد ان يُضِلَّ الآخِرين بأن يبديَ التجاهل والاستكبار بينما مقصودُه هو الدنيا وعلوّ نفسه. فيجازيه المولى العزيز بما يذله ويخزيه في الدنيا لأنها همُّه ومبلغُ علمِه وقد وعده بحريق يذوقه أي يُعذَّب في نارٍ ذاتِ لهب. وهذا جزاء ما فعل من إضلال وجدل مريض. وجاء ذلك عدلاً عليه فالله تعالى لا يظلم احدا. ومن هذه الاية يُعرف المستكبرون بفراغ وعيهم أي بغير علم، وباتجاههم للضلال أي بغير هدى، وبعجزهم عن الحجة لانها تكون حصراً من القرآن المنير ولا حجة لهم.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (11) يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (12) يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (13)

صنف آخر من اهل الجهل والضلال والشك. فإنّ أحدهم عند الابتلاء يفشل في اهم مظاهر الايمان أي من حُسْنِ الظن بالله تعالى. فهو على حرف: حافة اليقين داخلاً في الشك. فإن أصابه خير لم يحسبه فتنةً تزول متى شاء الله لها أن تزول، وهذا قد يحصل بغتة، والصبر عند الصدمة الاولى، وهذا ما يفتقده المرتاب فيفشل. والاية نزلت في من كان يأتي من الأعراب ليسلم فإن وجد خيراً بعد إسلامه امتدح الاسلام والا انقلب الى دينه. وقد ضُرِب هذا الخاسر مَثَلاً في هذه الاية لفقدانه الوعي العقلي لِما ينفعه ولِما يَضُرّه فلم يستحق الهدى. وذلك هو

الضلال المتضح بخسارة التوجه الى العلي متوجّها الى بئس المولى وبئس العشير أي بئس الناصر وبئس المعاشر.

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (14)

أما اهل الثبات على الايمان فمهما زعزعتهم الابتلاءات فهم على نور من ربهم يختارون الموقف الصالح بالصبر والرجاء فبشارتهم من الله جنات تجري من تحتها الانهار وهذا من فضل الله الذي كتب الهدى لأهل الايمان والرجاء، انه تعالى يفعل ما يريد.

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (15) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (16)

فاذا بلغ الوهم بصاحب الريبة والشك بأن هذا الدين لن يظهر دلّ على أن قلبه إمتلأ غيظاً. وهذا لا يضر سوى صاحبه وليفعل من الكيد ما يبلغ به أن يَمْدُدَ حبلاً الى سقف بيته ويتدلى منه لكي يخنق نفسه. وبهذا يوضح المولى عز وجل مواقف أهل الزيغ فلا ينالون الهدى لأن الهدى هدى الله لمن آمن ورغب الى الله تعالى منيبا إليه.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (17)

يعدد المولى عز وجل أصناف الناس في مواقفهم من الاسلام. فكل صنف يرى أن الحق معه ويصف مواقف غيره بالباطل مما يجعله غير مقتنع بقول من يقيم الحجة البالغة على اهل الباطل. وهكذا لا يحصل لديهم اليقين بالرسالة المحمدية مثلما حصل بها عند من آمن به من آلٍ وصحب عليهم السلام وجاهدوا في سبيل الله لنشر الرسالة الموحِّدة للخالق في ارضه تعالى. فاليقين بها هديةٌ ربانية لمن صفا قلبه للحق ولم يفضِّل الحياة الدنيا على الآخرة. ويوم القيامة يتم الفصل الرباني اذ تبيض وجوه اهل الايمان بالرسالة المحمدية فيسعى نورهم بين ايديهم، واما المكذبون بهذه الرسالة فتكون وجوههم مُسْوَدّةً ويعلمون أنهم كانوا على الباطل إذ لم يعرفوا لله تعالى قَدْرَ وحدانيته فنسبوا له ما لا ينبغي لجلاله. وهذه النسبة لا توجد في الاسلام فللّه الحجة البالغة ولو شاء لهداهم اجمعين.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (18)

للسجود لله تعالى صور تتعدد بتعدد اصناف المخلوقات. فسجود ذوي العقول ممن في السماوات أي الملائكة فهو سجود ذوي العقول والطاعة. وأما سجود مَن في الارض منهم فهو سجود المؤمنين من الإنس والجن. وأمّا سجود الجبال والشجر فمهما بلغت إرتفاعاتها فإنها مطواعة لما يجري عليها وظلالها تسجد في الغدوِّ والآصال. واما سجود الشمس والقمر والنجوم فهو إنقيادهم طوعاً في تنقلهم المنظور في دوران الارض حول الشمس ودوران القمر حول الارض وتغيُّر مواقع النجوم. وكما نحن لا نفقه تسبيح ما لا ينطق فكذلك لا نفقه صيغة سجود

ما لا يَعقِل. وأمّا من الناس من لم يسجد طوعاً من ذوي العقول المتعلقة بهوان الحياة الدنيا فهو خاضع لمشيئة الله في خَلْقِه وإبتلائه في الرزق والعافية ومصيره يحق عليه العذاب في هوانٍ وما له من مُكرِم.

هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (19) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (20) وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (21) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (22)

تشمل الآيات هذه كل خصومة في الله تعالى بين مصدِّق يريد اعلاء كلمة الله وبين مكذب كافر يصد عن سبيل الله تعالى. وتمثل المبارزة في معركة بدر بين المسلمين والكفار نموذجاً لذلك حيث برز من مشركي قريش ثلاثة هم شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وابنه الوليد. فبرز لهم الحمزة وعلي وعبيدة عليهم سلام الله فكان نصر المسلمين برهاناً من الله تعالى على نصرة الحق واهله. واما عاقبة الخصومة الكافرة عناداً وغرورا فقد توعدهم المولى بثياب من النار ويصب من فوق رؤوسهم اشد السوائل حرارة وهو الحميم الذي يصهر ما في البطون والجلود ثم ترفع فوق رؤوسهم سياط من حديد (أي المقامع) يُضرَبون بها اذا حاولوا الخروج من النار من هولها وقد ملكهم الغم (وهو شدة الضيق والحزن) ويقال لهم: ذوقوا عذاب الحريق. والحريق انتشار النار المتعاظمة المهلكة.

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (23) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (24)

البشارة لمن يُقتلون في سبيل الله وكذلك للمؤمنين الصالحين خلاف ما وُعِد به الاشقياء في الآيات السابقة. فالذين آمنوا وعملوا الصالحات يلبسون الحرير وأساور الذهب واللؤلؤ في انهار وجنات، وفي طمأنينة، ويطيب كلامهم بالشكر والثناء اذ يُلهَمون الحمد. ويُهَيّأ لهم من يأخذهم الى جناتهم يهتدون إليها كما اهتدوا الى الاسلام وهو الصراط الحميد في حياتهم الدنيا.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (25)

العذاب الاليم وعيد من الله تعالى لصنفين من الناس في تصرفهم ذي العلاقة بالبيت الحرام. اولهما الذين كفروا ومنعوا خصومهم ومناوئيهم من دخول المسجد وهو بيت لا يعود اليهم وليسوا اولياءه. فهم اذ يصدون المؤمنين عنه فقد صدوا عن سبيل الله. بينما جعل الله تعالى المسجد الحرام مخصصا لمن أقام في مكة او غيرها سواء كان عاكفاً فيه او ناويا القصد اليه. والصنف الثاني من يريد الإلحاد وهو العدول عن القصد وهم ذوو النوايا السيئة في معاملة غيرهم ممن يقصدون المسجد الحرام، ومن امثالهم محتكرو الطعام لرفع سعره فيه او مضايقة الحجاج او شتم الضعفاء او السخرية ممن يقصده او الاحتيال عليهم. وكذلك يشمل هذا الصنف من كان عند المسجد الحرام او بعيداً ويوقع الاذى في من يقصده. وقد اهلك الله تعالى ابرهة الحبشي لما اراد هدمه. وقوله تعالى (بظلم) متعلق بنية الظالم أي انه ارتكب الجرم او الاذى عمداً وهو عالم بما يفعل. ويختلف الالحاد حسب اهمية الشخص من حيث اثر موقعه او اهمية العمل من حيث اثره على الاخرين.

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (26) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (28) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (29)

اختيار مكان البيت اختيارٌ ربانيٌّ. ارشد المولى عز وجل اليه سيدَنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام ليكون موضعاً لا يُعبَدُ فيه غيرُ الله تعالى. فعلى قريش ان يوحِّدوا الله تعالى اقتداءً بسنة ابيهم ابراهيم. وفي هذا توبيخ لكفار قريش الذين عبدوا غير الله فيه بينما صح لديهم ان سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام لم يفعل ذلك. ثم أمَر الله تعالى بتطهير البيت في كل مواضعه، أي مواضع الطواف والصلاة. وأما دعوة سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام الناسَ ليحجوا البيت فقد بدأت بعد انتهاء التشييد. ونادى مَن حوله لأداء الحج. وانتشر النداء الى بقاع الارض حيث قصده القريب والبعيد الى يومنا هذا متخذين شتى الوسائل للنقل فمنهم الراجل ومنهم الراكب على الراحلة مثلما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الحجة الاولى والاخيرة له. والآن يتخذ الحجاج وسائط النقل براً وبحراً وجواً من كل فج عميق أي من كل طريق بعيد العمق. وذكر تعالى منافع الدنيا والآخرة بكلمة (منافع) ففي الدنيا رياضة الابدان والتجارة والتعارف واطعام الفقير، وفي الآخرة رضوان الله تعالى لمن ادى فرائضه وذكره وشكره في ايام فضيلةٍ لا مثيل لها إلا كما روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((ما العمل في ايام أفضل منها في هذه)) قالوا: ولا جهاد في سبيل الله؟

قال ((ولا جهاد في سبيل الله إلا رجل يخرج يخاطر بنفسه ومالِه فلم يرجع بشيء)). وأما الأيام المعلومات فهي عند ابي حنيفة رحمه الله عَشْرُ ذي الحجة وآخرُها يوم النحر. وعند الشافعي واحمد بن حنبل رحمهما الله هي ايام النحر وهذا ما يؤيده قوله تعالى ((في ايام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام)). واما البهيمة فقد بين المولى تعالى منها الانعام دون بقية البهائم أي حدد الابل والبقر والضأن والمعز فلا تصح الأُضحية إلا بها. وقد رخص الله تعالى لمن يضحي ان يأكل من اضحيته ويكرم منها. وامر بإطعام البائس الفقير؛ فالبائس هو الذي يبدو بؤسه للعيان اضافة لفقره، والفقير هو المتعفف الذي لا يخفَى فقرُه على اهل العلم. وبعد ذلك شرع التحلل والحلق أي يقضوا تفثهم، وهو وَضْع الإحرام وقص الأظافر ولبس الثياب وقضاء المناسك الاخرى ووفاء النذور ومنها الذبائح وما كان البعض قد نذر فعله في الحج من ذبح او عمل صالح. واما الطواف بالبيت العتيق فهو الطواف الواجب يوم النحر، وهذا ما فعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث طاف بالناس ثم بعدها رمى سبع حصيات في منى. وهذا رمي الجَمَرة. ثم نحر هَدْيَهُ. ويكون آخر عهد الحجيج بالبيت بالطواف فيه. وفي الاحكام يُستثنى من هذا الطواف المرأة الحائض ولا حرج في ذلك فحجها صحيح بدونه لعذرها. واما المقصود بالطواف بالبيت العتيق فهو أن يكون الحِجْر، وهو الجدار المستدير في اطراف الكعبة، مشمولاً به لأنه مع اصل البيت الذي اقامه سيدنا ابراهيم عليه السلام. وقد طاف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ورائه. وقد سمي المسجد الحرام بـ(البيت العتيق) كما في التفاسير بأنه اول بيت او انه أُعتِق من تسلط الجبابرة أي حُفِظ من

ذلك فلم يَظْهَرْ عليه من الطغاة أحد ولن يكون ذلك بإذن الله تعالى حتى يخربه ذو السويقتين (ضعيف الساقين) مع قيام الساعة.

ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (30) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (31) ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (32) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (33)

يشير المولى عز وجل بقوله (ذلك) إلى ما بيّنه من امره بالطاعات في المناسك وثوابها. ثم بشَّر مَن كان في قلبه التعظيم لهذه الحرمات بالافضلية في رضوان الله تعالى. والحرمة هي ما لا يحل هتكها. فالبيت هو البيت الحرام مع حرمة الشهر الحرام والمشعر الحرام والبلد الحرام والمسجد الحرام. وبيّن تعالى اهمية اجتناب ما حرَّم الله تعالى وما جعله رِجساً (أي قذارة ولعنةً من اصنام وأوثان) ثم ما امر باجتنابه من قول الزور وقَرَنَه بالشرك فهو من اكبر الكبائر. فقد روى البخاري ومسلم عن ابي بَكْرَةَ رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((ألاَ انبِّئكم بأكبر الكبائر؟)) قلنا "بلى يارسول الله". قال ((الإشراك بالله وعقوق الوالدين)) وكان متكئاً فجلس فقال: ((ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور)) فما زال يكررها حتى قلنا: "ليته سكت"! وارشد تعالى عباده المؤمنين الى الاخلاص وذلك بقوله (حنفاء لله) أي منحرفين عن كل باطل، مائلين الى وجهة واحدة هي الحق مقصداً مقصوداً. وإلا فالمشرك هالك في ضلالِهِ كالساقط من السماء تُقَطِّعُه الطيور في الهواء. او الذي يهوي الى واد فيه الهلاك المحتم لعمقه. وقد توعد المولى عز وجل في

اكثر من سورة بمثل هذا العذاب كما جاء في سورة ابراهيم عليه السلام. ثم امتدح المولى عز وجل من يعظم شعائر الله ومنها اختيار افضل الانعام للذبائح كدليل على بذل اقصى التعظيم، ثم الجود بالمال والعمل باخلاص القلوب النقية الخاشعة لله تعالى. ومن ساق الْهَدْيَ للنحر فله ان ينتفع بما فيها من منافع أي حليبها وصوفها ووبَرِها وما الى ذلك حتى تبلغ البيت الحرام على ان لا يُلحِقَ بها ضرراً يَحط من قيمتها، ولا يُرهِقَها.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (34) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (35)

المَنسَك في هذه الاية هو المناسبة التي يذبح فيها والمكان الذي يذبح فيه من الانعام لله تعالى، فقد جعل الله تعالى لكل ملة من الملل أن تذبح الانعام بذكر اسمه عليها على ما رزقهم من فضله. وقد وردت التسمية هذه (أي المنسك) من ذبح النَّسِيكَةِ (وهي الذبيحة وجمعها نُسُك بضمتين). وهذا التشريع الرباني يذكّر الفاعلين بِنِعَم الله تعالى أنْ رَزَقهم فيُذكَر بالشكر والتكبير. وقد روى الشيخان البخاري ومسلم ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل: "ما هذه الاضاحي؟" فقال ((سنة ابيكم ابراهيم)) قالوا: "ما لنا منها؟" قال: ((بكل شعرة حسنة)). فالسُنّة الابراهيمية على صاحبها الصلاة والسلام هي التي شرعها الله تعالى رب العالمين وإن تنوعت الشرائع بعد سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام، اذ نَسخ بعضُها بعضاً حتى شرعت الأُضحية في يوم النحر. ولهذا دعا المولى عز وجل الى التصديق برسالته والاستسلام لحكمته والعمل بطاعته مع البشرى لمن يتذلل قلبه

طائعاً مطمئنا كما وصف المخبتين (أي الراضين بالطاعة والمطمئنين بخشوع فيها) بما جاء في الاية الخامسة والثلاثين بوجل القلوب أي شعورها بالخشية من عظمة ربها، وبالصبر الذي يدل على الرضا بمشيئة الله تعالى وانتظار الفرج منه في حُسْنِ الظن به، وأداء ما أوصى تعالى به من صلاة وزكاة، وما ندب اليه من صدقات. وهذا كله ينفي صفة النفاق عمن يحذر هذه الصفة. فالنفاق صفة من قَسَى قلبُه لذكر الله تعالى وكسل عن العبادة وامسك المال فلا يزكيه وهكذا.

وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (36)

البُدْنُ تشمل البقر والابل وقيل هي افضل ما يُهدَى للبيت الحرام. وجعلها الله تعالى من شعائره. وقيل يطلق لفظ (البُدْن) على الإبل فقط. وشرعاً يجزي البعير عن سبعة اشخاص وكذلك البقرة عن سبعة اشخاص. وفي حديث رواه الامام احمد تجزي كل بَدَنة عن عشرة اشخاص. ولمن يذبحها كتب الله تعالى خيراً أي منفعة آنية واجراً مدّخراً. وقد روى الامام احمد في مسنده عن ابي رافع رضي الله تعالى عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان اذا ضحّى اشترى كبشين سمينين أقرَنَيْنِ أمْلَحَيْن. فاذا صلى (أي صلاة عيد الاضحى) وخطب الناس أُتِيَ بأحدهما فيذبحه بنفسه بالمدية ثم يقول ((اللهم هذا عن أُمّتي جميعِها من شَهِد لك بالتوحيد وشهد لي بالبلاغ)) ثم يؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه ثم يقول ((هذا عن محمد وعن آل محمد)) فيعطيهما للمساكين ويأكل هو واهله منهما. كما يجب ذكر اسمُ الله على الذبيحة عند ذبحها مع التكبير. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "قِياماً، وعلى

ثلاث قوائم، معقولةً يدُها اليسرى يقول: بسم الله والله اكبر لا اله الا الله. اللهم منك ولك". وروى البخاري ومسلم ان ابن عمر رضي الله عنهما رأى رجلا قد اناخ بَدَنةً وهو ينحرها فقال له ((إبعثها قياماً مُقَيَّدَةً سُنّةَ ابي القاسم صلى الله عليه وآله وسلم)). أي ان يدها اليسرى مقيدة فتقوم على ثلاث وتذبح. وهذا معنى (صوافّ) أي مُعقَلَةً قياماً. وقيل في (صَوَافّ): "صافية لله تعالى ليس فيها الشرك الذي كان في الجاهلية". وقوله تعالى (فاذا وجبت) أي إذا لم تبق بها حياة فسقطت على احد جنبيها حتى همدت حركتها. وقد روى الامام مسلم في صحيحه عن شداد بن اوس رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ((ان الله كتب الاحسان على كل شيء فاذا قتلتم فأحسنوا القتلة واذا ذبحتم فاحسنوا الذُّبحة ولْيَحِدَّ أحدُكم شفرته ويُرِحْ ذبيحَته)). وامر تعالى بإباحة الاكل منها. وعند الامام مالك يستحب الاكل منها لمن ذبح هو واهله. واما اطعام القانع فهو الذي ينتظر وهو في داره ان يؤتى بأُعْطِية من اللحم ولا يتعرض بالطلب. واما المعترّ فهو الذي يخرج من بيته في طلب الأُعطية من لحوم الاضحيات ولكنه لا يَسألُ بل ينتظر وهو حاضر الذبح وحاله يدل على السؤال وكذلك السائل يعتبر معترّاً. وممن يندب اهداؤهم منها: الجار وان كان غنيا. وقد روى البخاري ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ((اني كنت نهيتكم عن إدّخار لحوم الاضاحي فوق ثلاث فكلوا وادّخِروا ما بدا لكم)) وفي روايةٍ: ((فكلوا واطعموا وتصدقوا)). وقد اجتهد بعض الفقهاء بأنّ للمضحي ان يأكل او يدخر النصف والنصف الثاني للقانع والمعتر. ونهى صلى الله عليه وآله وسلم عن بيع الجلد وقال بعض العلماء يباع الجلد للتصدق بنصف ثمنه شأن اللحم. ويكون بعد صلاة العيد. فما ذبح قبل الصلاة

فلا يُعتبر أُضحيةً بل لحماً قدّمه الذابح لأهله واطعم منه وليس من النُسُك. فقد روى الامامان البخاري ومسلم في صحيحيهما عن البراء بن عازب رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((ان اول ما نبدأ به في يومنا هذا نصلي (أي جماعةً، صلاة عيد الاضحى) ثم نرجع فننحر فمن فعل فقد اصاب سُنَّتَنا ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم قدمه لأهله ليس من النسك في شيء)). واما اهل القرى الصغيرة التي لا تقام فيها صلاة العيد فيذبحون بعد طلوع الشمس. وافتى الاحناف بجواز ذبحهم الأضاحي بعد الفجر اذ لا صلاةَ عيدٍ تُشرَع عندهم. ويستحب لأهل المدن الذبح يوم النحر، ورخص بالذبح ايام التشريق. فقد روى الامام احمد عن جُبَيرٍ بن مُطعِم رضي الله عنه قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ((ايام التشريق كلها ذبح)). وهذا التسخير من الله تعالى مدعاة للشكر فقد ذلل الأنعام فتكون منقادة خاضعة سواء في ركوبها او حلبها او ذبحها. جلت قدرته وله الشكر والثناء الجميل.

لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (37)

كان الذبح في الجاهلية للاصنام. فكانوا اذا ذبحوا وضعوا شيئاً من لحوم قرابينهم على الصنم الذي ذبحوا له وهم يذكرون اسمه على الذَّبيحة، ثم نضحوا عليه من دمائها. وقد بين تعالى سخف هذه البِدَع اذ انه تعالى يتقبل الذبائح ولا يناله منها لحم او دم بل يتقبل عالِماً بأن الدافع للذبح هو التقوى أي الحذر من كلّ ما يشوب خلوصَ النيةِ لله جلَّ شأنه. ولهذا سخرها تعالى لتكون سببا للتقوى والاخلاص والتقرب اليه سبحانه. فَيُكبَّر المولى تعظيماً وإمتناناً على ما هدى الى

الشريعة والعبادة ونيل رضوانه والبعد عما يكرهه ولا يرضاه. وهذه النُسُكُ (جمع نَسِيْكَة – بِفتح النون- أي الذبيحة) مجال لبيان إحسان المحسنين أي المتّبعين لِما شرع الله لهم والقائمين بحدوده المصدقين برسوله صلى الله عليه وآله وسلم. كما يحمل (الاحسان) في ما يخص الاضاحي مراعاة أحكامها من حيث سلامة الذبيحة من العيوب والهزال وانها قد جاوزت من عمرها السنوات الخمس بالنسبة للبعير، وبلغت ثلاث سنوات للبقر أي جاوزت السنتين ويستحسن للبقر ما له ثلاث سنوات ودخل في الرابعة، ومن المعز ما له سنتان ودخل في الثالثة، ومن الغنم ما جاوز السنة وقيل ما جاوز عشرة اشهر وأقلُّ ما قيل ستة اشهر على ان يكون ذا هيئة مقبولة كهيئة من بلغ السنة، ويعرف هذا من طول صوفه بحيث يميل فينفرق عن بعضه ولم يبق منتصباً كما هو صوف الحَمَل الذي دون ستة اشهر حيث يكون صوفه واقفاً لعدم اكتمال نموه طولاً.

إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38)

دفاع المولى القدير يكون عمن لم يتخذ ولِيّاً غيره. وهم المؤمنون به، الأُمناء على شريعته. ويكون دفاعه عنهم بما يشاء، ومن ذلك دفع كيد اهل الكفر لهم، وما يُبيَّت لهم من شر. ولا يحب المولى من يُبيِّت الخيانة او يجحد النِعَمَ. أما الخيانة فتشمل الرياء والنفاق وخيانة الامانة وخيانة العهود. واما كفران النعم فهو إرتكاب المعاصي جحوداً بها ونكران فضل الله تعالى فيها.

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ

صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40)

الاذن في القتال حصل بعد آيات عديدة نهت عنه عندما كان المسلمون موضع اذى وظلم من طغاة الكفر في مكة قبل الهجرة. ونزلت الاية بعد الهجرة فكانت فاتحة الامر بالجهاد وقد وعد الله تعالى فيها بالنصر وهو قدير على نصرهم مهما كان القتال. ولكن يريد منهم أن يُبْلُوا في سبيله بلاءً حسناً. وقد زاد عددهم وتوفّرت عُدّتُهم للقتال بعدما أُخرجوا من ديارهم وأُوذوا، لا لسبب سوى ايمانهم بالواحد الاحد سبحانه وكفرهم بالطاغوت. أما سبب تأخر الاذن بالقتال فواضح من توازن القوى. اذ كانت مكة دار كفر ولم يكن للمسلمين قبل الهجرة دارُ اسلام منطلقاً وملجأً اليها. واوضح المولى القدير من سُنتِه في عباده وفي عبادته على ظهر هذه الارض ان يكف شر الطغاة بأُناس يوفر لهم القوة والقيادة الماهرة. وبهذا اللطف الخفي حفظ الله تعالى الارض من الفساد وهدم اماكن عبادته. فالصوامع هي الاماكن الصغيرة للرهبان ومعابد الصابئة. وهي اشبه بالبيوت الصغيرة على الطرق. واما البِيَع (جمع بَيْعة) فهي المعابد الاوسع لعدد اكثر من العابدين من النصارى وهي على غرار كنائس اليهود التي يسمونها (الصلوات). وقيل ان معابد الصابئة كانت تسمى الصلوات ولها اسم بالآرامية غير هذا ولكل ملة زمانها قبل الاسلام. واما المساجد فهي للمسلمين تسمية ربانية تقام فيها الفرائض الخمس وصلاة الجمعة والعيدين والسنن (يذكر فيها اسم الله كثيراً) لدوام الصلاة فيها من ساعات الفجر الأولى إلى قيام الليل. وقَرَنَ الله تعالى الامر بالجهاد بوعده بنصرِ مَن يَنصُرُه، وهو القوي على تنفيذ وعده، العزيز في ملكوته.

الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (41)

بعد ذِكر المهاجرين ذَكَرَهم الله تعالى مع الأنصار تحت لواء سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم اذ انهم هم الذين مكّنهم الله تعالى في الارض. وتشمل الآية من تبعهم بإحسان فقد نصرهم في فتح الامصار ودخولها في الاسلام مشترطاً عليهم إقامة الفرائض والامر بالمعروف والنهي عن المنكر سواءً كانوا ولاةً ام رعية قال عنهم الخليفة الزاهد عمر بن عبدالعزيز ((ألاَ انها ليست على الوالي وحده ولكنها على الوالي والمولى)) أي للوالي حقٌ وعليه واجباتٌ في نطاق هذه الاية، فعليه اقامة الحق، وله طاعة الرعية في طاعة الله تعالى. ولله عاقبة الامور أي ثوابها أو حساب من يخالفها.

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (42) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (43) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (44) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (45) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46)

أورد المولى عز وجل من أنباء الأقوام الذين كذّبوا الرسل من قبل. فهذا اذاً ليس بالجديد. ولم يسلم من المكذِّبين احد فالوعيد واحد لاولئك ولكفار قريش. وأما إمهال الكافرين فقد حصل لأمر قضاه الله تعالى عليهم ليأخذهم بغتة. فكيف أضحى حالهم! فقد انقلب نعيمهم نقمة وعَمارُهم خراباً. وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابي موسى رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم ((إن الله ليُمْلي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْه)). واما القرى التي هلكت اذ كذّب قومُها الرسلَ فقد خَرِبَت منازلُها وتعطلت آبارها أي لم يعد أحد يستقي منها بعد ما كان الكثيرون يرِدونها. والقصر المشيد هو المنيف العالي البنيان والمنيع الحصين. ولم يَحُلْ ذلك دون خرابه بعد هلاك ساكنيه. وقد كان لهؤلاء الهلكى عبرة في من سبقهم من الهالكين ولكن لم تفقه قلوبهم سبب الهلاك فكأنما عميت. وكم من العِبَر في حياة كل قوم عندما تأتيهم اخبار من سبقهم. وقد قال ابو محمد عبدالله بن محمد بن حيان الاندلسي في قصيدةٍ له:

ليس الاصَمُّ ولا الاعمى سوى رَجُلٍ لم يهدِهِ الهاديانِ: العَيْنُ والأثَرُ

فالعين إن رأت أثرَ مَن سبق ولم يفقه القلب العبرة من ذلك فكأنه لم يَرَ ولم يسمع، أي كأنّه أعْمَى وأصَمَّ لم تنفعه حاستا السمعِ والبصر.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (48)

يحمل الوعد تأكيداً على تحقيقه ولكن الكفار استعجلوا بالعذاب استهزاءً واعتبروا تأخُّرَه خُلْفاً للوعد! (والمعلوم ان الوعد لا يُخْلَفُ على عكس الوعيد الذي يكون التجاوز عنه بالعفو وارداً من باب الكرم). واليوم الواحد عند الله تعالى يعدل الف سنة مما نَعُدّ، ولهذا فالتأخير مهما طال فهو قصير الأمد وتأجيله يكون لحكمةٍ. وأتى سبحانه بمثل لعديد من المدن تأخر الوعد بعذابها فطال عليها الأمد وهي ظالمة فجاءها امره تعالى فأخذها وصار أمر مصيرها إليه سبحانه.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (49) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (50) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (51)

الرسالة الربانية واضحة النذر. جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للناس كافة. ويترتب عليها ايمان أو كفر. فمن آمن بها وصدّق بالنُذُر (جمع نذير)، وتجَنَّب المخالفة والتزم بالعمل الصالح فقد كتب الله تعالى لهم المغفرة والرزق الكريم كناية عن الجنة. وهؤلاء دخل النذير مدخل تصديق عندهم لإستعدادهم للايمان والعمل الصالح. أما من سلك النذير في نفوسهم الماكرة على غير حقيقته وسَعَوا يثبطون الناس بإفساد اثر النذير عندهم قبل أن يسبق إليهم التصديق به فيؤمنوا فأُولئك كتب المولى عز وجل أن يكونوا من اصحاب السعير. ويبين المولى عز وجل ما يحصل للنذير في نفوس كلا الفريقين فيقول تعالى:

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (53) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (54) وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (55)

القلوب المؤمنة تقبل النور الرباني والقلوب المنكرة تزيغ عن الفهم الصحيح لأنها عميت من معصية نفوسها للحق. ومن هذا الواقع فإن الرسل عندما يبلّغون ما أُنزل اليهم من علم وحكمة ورحمة يتمنون لمن يسمعونهم أن يستجيبوا ويعبدوا الله مخلصين له الدين. ولكن الشيطان يُلقِي من وساوِسِهِ ما يقصد به أنْ يصُدَّ السامعين عن

الذكر والفهم الصحيح. فأما ذوو القلوب المؤمنة فإن الله تعالى يُدرِكُهم فينسخ ما يُلقي الشيطانُ ويُحكِمُ آياتِه في قلوبهم. واما الذين في قلوبهم مرض فتكون وسوسة الشيطان فتنة تصدهم عن الحق لقسوة قلوبهم عليه، فالحق نور تحجبه القسوة ويحجُبُه ما يحمل اهلها من ظلم. فالظلم يبعدهم عنه. وأما من اطمأنت قلوبهم بما جاءها من الحق فلا تبقى لديهم حيرة ويتولاهم المولى الهادي عز وجل فيرشدهم الى العبادة الخالصة وهي الصراط المستقيم في الدنيا والنجاة على الصراط في الآخرة. ويبقى الضالون بعيدين عن الحق في ريبة وشك مما جاءهم. واذا بلقاء الله يأتيهم بغتة، او يدركهم قبل ذلك عذاب لا يكون بعده فرج. وهذا ما قدره الله تعالى على رؤوس مشركي قريش يوم بدر. واما بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن المؤمنين الذين يستمعون الإرشاد يحصل لهم تثبيت بفضل من الله تعالى. وأما الذين في قلوبهم زيغ فيُبعِدُهم الشيطان عن الرشاد كما جاء في هذه الاية. فتُعرَف درجة الإيمان من الإستجابة للحق من مصادره الصادقة كأقوال الصالحين أو ما يُقرأ أو يُدرَس من علم يهدي الى صراط مستقيم. (تفسير هذه الآيات الاربع أُخِذ معناه شفاهاً من العلامة محمد بن احمد النَّبهان، رحمه الله، مؤسس "المدرسة الشرعية" في حلب سنة 1384هـ-1964م، ثم أسس بعدها "دارَ الحديثِ"، ثم "جمعية النهضة الاسلامية" في حلب ايضاً. وقد اورده احد تلاميذه: هشام عبد الكريم الآلوسي في الصفحة 229 من كتابه "السيد النبهان").

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (56) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (57)

ملوك الدنيا كانوا مخوّلين بالحكم ويفنى مُلكهم. ولهذا فلا يمكن تسمية أحدهم ملكاً حقاً. فإذا أتت الساعة بغتةً، يومئذٍ يحكم الله الذي لا يفنى مُلكُه، وهو الْمَلِكُ الحق، بالحق فيوفّي ما وعد به المؤمنين في جنات النعيم. وما توعّد به الكافرين المكذّبين بآياته من عذابٍ يُلحق بهم الهوان.

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (59) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (60) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (61) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (62)

خص الله تعالى من بين اعمال الصالحين الهجرة في سبيله تعالى لإعلاء كلمته، او لطلب العلم في الدين ونشر دعوته، أو للخلاص من دار الكفر لينجو المؤمن بدينه إن خشي على توحيده أو خشي ان يتخذ الكفار اولياء من دون المؤمنين ثم تمكن من الهجرة كما ورد في شرح الاية المائة من سورة النساء. وكل هجرة لله تعالى يُقصد منها القرب من الله تعالى وحفظ الدين. وقد استوى فيها من يقتلُ في سبيل الله مجاهداً، ومن يدركُه الموتُ اثناءها لأن الهجرة كانت في سبيله تعالى. وقد وعد الله تعالى هؤلاء بالرزق الحسن فهو خير الرازقين ويدخلهم في امن ورحمة وطمأنينة ما بعدها من شقاء. وقد وعد الله تعالى بأن ينصر من فُرِض عليه القتال وهو على حق. فقد نزلت الاية الستون في سَرِيَّة من الصحابة لقُوا جمعاً من المشركين في شهر محرم الحرام فناشد المسلمون المشركين ان لا يقاتلوهم لحرمة الشهر، فأبَى المشركون وبغَوا على المؤمنين، فنصر الله هؤلاء الصحابة على أهل البغي. ينصر أولياءه على

أعدائه وهو القدير على ذلك كما هي قدرته على تكَوّرِ الليل على النهار وتداخل النور مع الظلام حول الارض. والله تعالى سميع من غير آلة للسماع بصير من غير آلةٍ للإبصار وليس كمثله شيء هو الحق ربّاً واحداً، لا إلَه إلا هو. وأما من نُسِبت له الالوهية من دون الله تعالى فذلك أُلوهيّتُه باطلة إذ لا حقيقة لها بل اختلقها الوَهْمُ من كيد الشيطان. فلا شأنَ أعلى من شأن الله ولا سلطان اكبر من سلطانه.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (63) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (64) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (65) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (66)

يورد المولى عز وجل الدلالة على سلطانه الشامل وقدرته وفضله في نزول الماء وظهور النبت. فجعل السماء والارض في تسخير مشترك لذلك. وهو الغني لا يحتاج الى شيء مما حصل وحميد في كرمه لمن لا يحتاج إليهم. وجعل من البحار مسالك للتجارة والسفر بإتخاذ السفن. وجعل من قوة الجاذبية لكل نجم وكوكب وجرم سماوي ما يحفظه من التجاذب والسقوط على البعض منها. فلو حصل ذلك كأن تكون الشهب أكبر حجماً لهلك الأحياء على ظهر الارض. ويذكِّرُنا تعالى بوجودنا من العدم وبمصير مَن على الارض من الأحياء وبعده بِبَعْث الأموات الذي يؤمن به من يرى من القدرة الإلهية ما هو اكثر من ذلك، أي خَلْقَ السماوات والارض ليزداد المؤمنون إيماناً، وهو النعمة العظمى. ومع هذا في بني الانسان من يجحد هذه النعمة!

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ (67)

المنسك في اللغة يعني المكان المعيَّن الذي لا يتبدل لغرضٍ معيَّن. وهنا يقصد بالمنسك اماكن الذبح. كما يعني ايضا طرائق العبادة. وقد شُرِّعَ الذبحُ لكل اهل الاديان. واوّلُ أُضحيةٍ كانت لسيدنا اسماعيل عليه السلام. والمنازعة كانت من كفار قريش لما نزل تحريم الميتة. فقد ذكر النسفي في تفسيره انهم قالوا للمسلمين: ما لكم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتله الله؟ (يعنون الميتة) فنهى المولى تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أنْ ينازع من قال ان الذبح ليس بشريعة الله فهو شريعة كل امّة فهم ناسكوه أي فاعلوه. وبدلاً من الالتفات إليهم أمَره بالدعوة الى جنابه تعالى فهو على الهدى المستقيم أي الطريق الواضح في إستقامته لبلوغ المقصود من الرسالة الربانية.

وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (68) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (69) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (70)

كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يتجنب مجادلة اهل العناد السفهاء. وقد أرشده تعالى ليبين لهم بأن الله تعالى ملم تمام الإلمام بما هم عليه من عمل وسوف تنكشف لهم حقيقته ويُحكَم عليهم به يوم القيامة ففيه يفصل بالحق بين اهل الحق واهل الباطل. فلم يكن ليخفى على الله تعالى موقفهم جميعاً فقد كان شهيداً على عملهم. وهذا وعيدٌ لأهل الباطل لأنهم يعلمون من اعمالهم ما يخزيهم

يوم القيامة. فيُحكَم للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولأهل الحق معه بالصدق. ويعلم أهل الباطل انهم كانوا كافرين. وهذا المشهد من علم الله تعالى في كتاب ينطق بالحق، وما أيسَرَه على قدرة الله تعالى وعلمه، فقد علم ما سيختار أهل الباطل ويصرّون عليه من كفر فيكون حجة عليهم. وعلم ما يكون عليه اهل الايمان في صدقهم فيكون حجة لهم.

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (71) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (72)

السلطان من الله تعالى هو الحجة والتفويض. فكفار قريش عبدوا ما لا يمكن أن يُعبَد بالحق. فلا معبود بالحق غير الله تعالى. واما علمهم بغير الله سبحانه كمعبود فلا صحة له لأنهم تلقَّوا العبادة الباطلة تقليداً بدون علم إذ وجدوا آباءهم على ذلك ولم يتفكروا ليتعلموا. وبهذا ظلموا حق العبادة وظلموا أنفسهم فلا يَلْقَون النصر من الله تعالى، ولا نصرَ إلا من عنده سبحانه. وقد جاءهم الحق في آيات بيّنات إذا تُتلى عليهم تتبدل هيئتهم الى الحقد فيعرف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ذلك منهم وكأنهم يهمّون بالبطش بمن يتلون الآيات. وكما أمره الله تعالى ينبئهم بأنهم سوف يقفون موقفاً اكثر شراً من موقفهم هذا وهو النار مصيراً لأهل الكفر وبئس المصير.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (73) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (74)

ضرب الله تعالى بالذباب مثلاً لبيان ضعف اولئك المتكبرين ومن يُعجَب المشركون بهم الى حد عبادتهم. فالذباب مخلوق حقير هيّن يمتص غذاءه بدون استئذان فلا يمكن إستنقاذه منه. فكيف يُعبد من لا يستطيع خلق ذبابة او استرجاع ما تمتصه؟ وتدل عبادةُ مثلِ هذا الضعيف على غفلةٍ عن قَدْرِ خالق الكون، أي عن تعظيمه سبحانه، وعن قوّته وعزته مما لا يحتاج معه الى شريك.

اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (75) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (76)

ان الله تعالى يعلم ما يكون من كل صنف من الناس اذا بَلَغَتْهم رسالاتُه. فهو تعالى يختار مَن هم أهلٌ لنقلها الى الرسل من بين ملائكته، ومن هم اهلٌ لتبليغها من بين أنبيائه، عليهم الصلاة والسلام، ويعلم مُسبَقاً من سيؤمن بها ومن سيُنكِرُها من الناس، ويعلم سبب انكارهم إياها. فقد قال المشركون من قريش: "ءَأُنْزِلَ الذكر عليه من بيننا"؟! والله تعالى يعلم منهم ذلك ويسمع قولهم ويعلم مصيرهم وبهذا التدبير الرباني تقوم الحجة لأهل الحق، وتقوم الحجة على أهل الباطل. والامر بعد ذلك يرجع الى المولى عز وجل يحكم ما يشاء ولا معقب لحُكمِه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (77) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ

أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (78)

الامر الرباني بالركوع والسجود جعلهما ركنين في الصلاة فلا تصح بغيرهما. وجعل العبادة اشمل من الصلاة بما يوجبه الايمان على المؤمنين من الطاعة والتقوى. وامر بفعل الخير من صلة رحم، ومعونة، وأمرٍ بالمعروف ونَهْيٍ عن المنكر، وحُسْنِ الخلُق. وجعل في ذلك أملاً للفَرَج. ثم امر تعالى بالجهاد الذي يُتوِّج الاعمال الصالحة لأن في الجهاد جهاد للنفس وهو التزكية المثلى لها لتكون خالصةً لله تعالى فجهاد النفس صِدقٌ يمهِّد لتضحية الصادقين فيجتبيهم ربهم للجهاد في سبيله. وفي الجهاد مواقف محرجة وما جعل الله في الدين من حرج ففسح في الرُّخَص في الجهاد والسفر والمرض، كصلاة الخوف وقَصْر الصلاة وجمعها والتيمُّم. ويبين المولى عزّ وجلّ هنا ما سار عليه سيدنا ابراهيم إذ إتسم عمله بسلامة القلب فلا شيء فيه لغير الله جلّ عُلاه. فأطلق اسم (المسلمين) على من سار على هذه الملة الصادقة التي تمسكت بسُنَّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيشهد لمن قام بها. ثم من بعده يكون المسلمون شهداء على الامم في صحة العبادة وسلامة الإيمان والتمسك بكتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم. فالله تعالى يتولى الصالحين بولايته المتينة وينصرهم. وأَنعِمْ به ربّاً مجيداً يمجده العبد بالايمان والطاعة ويؤمِّل لقاءه راضياً. وهكذا الإسلام؛ هو السابق في ملة سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام وخاتم الرسالات بكتاب الله الكريم وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

سورة المؤمنون

بِسْـمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحـيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ
مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى
أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ
يُحَافِظُونَ (9) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11)

هذه الآيات بشارة بالفردوس، وهو أعلى الجنة، لمن وَقَرَ في قلوبهم التوحيد مصدِّقين بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، رسولاً من ربِّ العالمين، وشهدوا بذلك. ثم اتّصفوا بأفضل الأحوال في إيمانهم؛ وهي الخشوع في صلاتهم، أي السكون في خشية الله تعالى وتعظيمه، والإعراض عن سفاسف القول والشعر الكاذب والادب الماجن وما أشبه، وإخراج الحق المعلوم من المال حسب احكام الزكاة كما وردت في سورة التوبة، وغضوا البصر وحفظوا النفس من الميل الى الشهوات الجنسية أو إتيان ما حرّم الله تعالى منها. (فقد أحَلَّ الزواج ومُلْكَ اليمين ولا يؤاخذ على ذلك فمن تجاوزوا حدود الله في ذلك فقد دخلوا في العدوان على انفسهم وعلى غيرهم). والذين اتصفوا بالأمانة وحفظ العهود والمحافظة على صلاتهم أي لا يفوتهم فرض ولا يؤخّرونه عن وقته الا بعذر. وقد ورد ذكرُ الصلاة هنا مرتين لأهميتها في الصلة مع الله تعالى.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (16)

الانسان الاول هو ابونا آدم عليه السلام. خَلَقه المولى القدير من عناصر مستخلصة من الطين فلم يكن نطفة او علقة او مضغة. فكان من بعده ذرية له يُقِرُّها الرحمن في الأرحام فتدخل اطوارَ النموِّ المعروفة طيلة مدة الحمل (... يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقَاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ/سورة الزمر/6). وتكون النطفة وهي البيضة الملقّحة كالبذرة المزروعة (...أَنْبَتَكُم مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً/سورة نوح/17) ثم تُخلَق منها العلقة وهي أُولى مظاهر الصنف الحيواني تنمو حجما أكبر لتُخلَق مضغةً ثم يتشكل منها الهيكل العظمي الذي يُكسَى بباقي الجوارح وتُنفخ فيها الروح فتكون خَلقاً آخر. فسبحان من أوجد الانسان ولم يكن شيئاً. ثم يأتي عليه حين لا يكون فيه شيئاً مذكوراً حيث يموت الذين يذكرونه من بعده! ثم يبعثه الذي أنشأه أول مرة يوم يقوم الناسُ أجمعون.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (17) وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (18) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (19) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ (20) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (21) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (22)

الطرائق (كما رجّحت التفاسير) هي السماوات لإقتران ذكرِها بالعدد المقترن بالسماوات السبع، وبمشهدها الظاهر فوق الارض. وعلمها لا يخفى منه شيء على خالقها سبحانه. فالله تعالى لا يغفل عن خَلْقِه. وأمّا حجم الأمطار فمُغيَّبٌ لدى الناس إلا ان مقاديرها معلومة عند الله تعالى فلقد قدّر حجم ما يُنْزِل من الماء ومكان تجمُّعِه في اجواف الارض. واستوجب هذا الفضل الشكر على نزول الماء والشكر على حفظه فلم يذهب سُدىً، والشكر على النبت الذي نبت به. وخص تعالى شجرة الزيتون فثمارها تنبت ومعها زيتها فكانت الثمرة إداماً والزيت للأكل والإدّهان. وقد ذكر النخيل والعنب من قبل لما فيهما مع الزيتون من نفع مجتمِعٍ في ثمارها. وهكذا يدعو هذا التخصيص للتأمل في آلاء الله تعالى ولشكره. ثم يذكر تعالى بعد النبات ما في الانعام أي الابل والبقر والضأن والمعْز من منافعِ الأكل والحمل والحلب والشعر كالصوف والوبر وشعر الماعز. ثم يذكر تعالى وسائط السفر ولا سيما السفن في البحار (الفُلك)، وفي البر الإبل وها هي وسائط البر الآلية ووسائط الجو كما قال تعالى في الاية الثامنة من سورة النحل ((ويخلق ما لا تعلمون)).

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (23) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (24) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (25) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (26) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (27)

فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (28) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (29) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (30)

قصة سيدنا نوح عليه السلام مذكورة في سورة هود عليه السلام. ووردت هنا لبيان نجاة المؤمنين وهلاك الظالمين. وامَرَ تعالى سيدنا نوحاً ان لا يخاطِبَه في الهالكين أي لا يشفع لهم. فاذا بزوجته وابنه بين الهالكين فلم تنفعهما القرابة. بل الذي ينفع في النجاة هو الايمان. وهكذا ابتلاء الله تعالى واظهار آياته. ثم إن على المؤمن اذا استقل واسطة السفر أن يدعو الله تعالى ان يُنْزِلَه مُنْـزَلاً مباركاً بعدما دعاه بدعاء السفر فيه يسأل الله تعالى من سفره البر والتقوى ومن العمل ما يرضيه عنه، مستعيذاً بالله من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في المال والاهل والولد، سائلاً إياه أن يُهَوِّنَ عليه السفر ويطْوِي له الطريق. مستبشرا بالسلامة حامدا: (آيبون تائبون لربنا حامدون).

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (31) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (32) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (33) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (34) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (35) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (36) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (37) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (38) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (39) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (40) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (41)

قوله تعالى ((فأخذَتْهم الصيحة بالحق)) يدل على ان المقصودين بـ(القرن الآخَرين) هم قوم هود عليه الصلاة والسلام. فإنهم كانوا مستخلَفين بعد قوم نوح عليه السلام وقد اخذتهم الصيحة. وقد اورد المولى عز وجل قصتهم في سورة هود عليه الصلاة والسلام وهم هنا من غير تحديدٍ لإسم القوم لأن الغاية هي العبرة؛ فقد كذبوا رسولهم، وكفروا باليوم الآخِر، وصدوا الناس عن سبيل الحق والهدى، واتهموا الصادق بالكذب. فتوعدهم الله تعالى بعد ما طلب رسوله النصر ثم حقق وعيده فكانوا غثاءً (أي الشوائب التالفة التي يلقيها السيل على جوانب الوادي الذي يغمره). أي أنهم هلكوا ولم يبق منهم ما ينفع. وقد وردت قصة قوم هود عليه السلام في الاية الخمسين وما بعدها من سورة هود، مما يغني عن التكرار.

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آَخَرِينَ (42) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (43) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (44)

القرون هم الخلائق من الامم التي اعقبت من هلك. ولكل قرن، أي قوم، أجَلُهم المؤجل لهم من وعد الله تعالى لسبق معرفته بما سيكونون عليه. ثم توالى إرسال الرسل تترا (متتابعين) لكل أُمة رسولها مبشِّراً ومنذِراً. وتوالى تكذيبهم الذي سبب الهلاك فتتابعوا فيه وكانوا مدارَ أحاديثِ الذين تداولوا أخبارهم من بعدهم. فبعداً لهم، أي فلتَبْعُد اخبارهم! وذلك تحقيراً وإهانةً لهم.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآَيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (45) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (46) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ

(47) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (48) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (49)

مع ان الحجج التي جاء بها سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام كانت واضحة إلا أنّ إستكبار فرعون ومن حوله من اشراف قومه جعلهم يتعالَوْن على الحق فأهلكهم الله تعالى كأمثالهم من المكذِّبين، بأن أغرقهم كما جاء في اخبارهم في السُّوَر السابقة. ثم اكرم الله تعالى سيدنا موسى عليه السلام بالتوراة، ويلاحظ هنا بعد نزول التوراة وحصول الإيمان بها لم يهلك من الأقوام قوم برُمّتهم، بل سلط الله تعالى المؤمنين على الفاسقين يقاتلونهم كما حصل لمن عَبَد العجل في غياب سيدنا موسى عليه السلام. والمقصود بمن آتاهم التوراة هم قوم موسى عليه السلام لعلهم يتبينون سبيل العمل بأحكامها وشرائعها. وبذلك يكونون على هدى من أمرهم.

وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (50)

وها هي الرسالة قبل الاخيرة مع آخِرِ مَن سبق سيدَنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم من الرسل وهو سيدنا عيسى عليه السلام، فقد كان حجة للناس على قدرة الله تعالى في خلقِه من غير أب مثلما خلق سيدنا آدم عليه السلام من غير أُمٍ وأبٍ. كما أن حمل سيدتنا مريم آية متممة لآية إبنها عليهما السلام فكانا آية واحدة. وآواهما الى أرض مرتفعة خصبة فيها ماء ظاهر لا ينضب أي مَعين. ولم يرد في السنّة تحديدٌ لمكان الربوة أو تسميةٌ لها لكن التفاسير رجحت كونها بيت المقدس.

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (51) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (52) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (53) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (54) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (55) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ (56)

الأمرُ للرسل عليهم الصلاة والسلام بالطيبات وهي الطعام الحلال وتشمل ما يستطاب منه بغير تبذير. وفيه دلالة على عون الله فيه على العمل الصالح، والانبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من التبذير، فالأمر تكليف وتحبيذ لأُمم صدّقت بهم واتّبعتْهم. وأما الامر بالعمل الصالح فهو اتباع الشريعة. وهو تكليف للأُمّة فقد أمَر المؤمنين بما أمر به المرسلين كما روى الامام مسلم عن ابي هريرة رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((يا أيها الناس إنّ الله طَيِّبٌ لا يقبل إلا طَيِّباً وإنّ الله أمَرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً اني بما تعملون عليم)). والمقصود بالأُمّة الواحدة هم المؤمنون لأن الدين الواحد جعلهم امةً واحدة. والدين واحد هو الدعوة الى عبادة الله تعالى لا شريك له فقد ختم جل جلاله الاية بقوله (وَانَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُوْنِ) تحذيراً من الشرك. وسبق ذكر ذلك في الاية الخامسة والعشرين من سورة الانبياء ((وَمَا اَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُوْلٍ إلَّا نُوْحِيْ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)) أي انفراده تعالى بالالوهية وعلى ذلك إقتضى رفض ما يتعارض مع شرعه. ولكن الضالين لم يهتدوا الى هذا المعنى فصدقوا نبياً وكذّبوا آخر فتقطعوا زُبُراً (جمع زُبْرَة وهي القطعة) تعنُّتا فضلّوا وانقطعوا عن الحق فرحين بما هم فيه من الضلال. وجاءهم التهديد بأن يتركهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في ضلالهم إذ لم يصَدِّقوه الى أن

يتحقق الوعيد بهم. فقد حسبوا أن ما يمدهم به الله تعالى هو مبادرة بالخيرات تفضيلاً لهم! كلّا بل هو استدراجهم بعد إمهال فلا يشعرون بذلك حتى تحل ساعة الحسرة والندامة على التكذيب بالحق عندما يحين الذي أُجِّل لهم.

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (57) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (59) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (61)

الاشفاق مع الايمان والاحسان يمثل الحال بين الخوف والرجاء. فالمؤمن الذي يعمل الصالحات يرجو رحمة ربه ويخشى على حاله أن تتبدل أي يخسر الذي كان يرجوه، او يحرم من رضوان الله تعالى. وقد جعل المولى عز وجل الإشفاق صفة للمؤمنين المسارعين في الخيرات مع كونهم يؤمنون بكل الآيات التي جاء بها رسل الله عليهم الصلاة والسلام، ثم استقاموا على التوحيد وانفقوا بقلوب تحسب حساب الوقوف بين يدي الله تعالى خشية ان يشوب النفقة شيء من النَفْس. فبشرهم المولى عز وجل بانهم في الرعيل الاول من اوليائه لسبقهم في الخيرات وصدقهم في العبادات والنفقات وهذا السبق في الخيرات سِبْقٌ الى الجنة بإذنه تعالى. وهم درجات عند الله.

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (62) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (63) حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (64) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ (65) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ (66) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (67)

الخالق العليم أعلم بكل نفس وما في وسعها فلا يكلِّفُها بأكثر مما تتسع له. كما ان الاعمال الصالحة تحصل ضمن طاقةِ مَن قام بها. فمن بلغ فيها أبعد من غيره فهو دليل على إستحقاق سعة أكثر. فالله تعالى يمن على المذكورين في الاية السابقة بسبقهم إلى الخير والمسارعة في الفضائل فيوسع لهم في انفسهم ما اشتاقوا الى نصرة الحق وفعل الخيرات. وكل ذلك في كتاب لا ظلم فيه. وأما اعمال اهل الزيغ من حب الدنيا وانغماسهم في ملذات المناهي وقد غمرت الغفلة قلوبهم فإن لهم اعمالاً خبيثة تناقض اعمال اهل الصلاح. وكلا الفريقين في سير حثيث للقاء الله تعالى؛ فالمؤمنون على استعداد لذلك، والغافلون يفاجأون بنهاية ما أُترِفوا فيه ولا يجدون من ينصرهم من دون الله تعالى. وقد حقق المولى عز وجل وعيده لأهل الزيغ في يوم بدر فلم ينفعهم صراخهم او استغاثتهم فذنوبهم اثقل مما تصل اليهم معها رحمة. واعظم تلك الذنوب هو نكوصهم أي إحجامهم عن آيات الله تعالى عندما تتلى عليهم. فقد كانوا يرجعون القهقرى استهزاء بالذكر الحكيم ويشغلهم الهَجْر أي الهذيان في اوقات السمر بذم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والهزء من القرآن بأنه سِحْرٌ او كذب من مجنون. وهم في بيت الله الحرام وليسوا أولياءه فهم أبعد ما يكونون عن ولايته.

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (68) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (69) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (70) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (71) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (72) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (73) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (74) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (75)

لم يتدبر هؤلاء الكفار ما في القرآن من حق وصدق وبيان لم يكن في حظوظ آبائهم الاولين مثله. أم ينكرون صدق سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وشرفه وصحة نسبه وهم اعلم الناس به وقد لبث فيهم عُمُراً من قبله؟ فإنكارٌ مثلُ هذا يدل على حسدهم وبغيهم. وهل يصح ان ينسب الجنون له وهم لم يجدوا اختلافاً في أقواله لكي يرموه بالجنون ولم يجدوا اختلافا في ما أُنْزِل عليه مما يثبت سلامته في اقواله وسلامة صدقه في ما أُوحي إليه. وقد تحداهم أن يأتوا بمثل ما يُوحَى اليه فلم يبرز منهم أحد للتحدي. ونسبوا القول للجن وزاغت قلوب اكثرهم فكرهوا الحق وقليل منهم لم يكرهوا الحق بل حسبوا لقومهم حساباً في ما لو أظهروا الايمان. ولو اتبع المولى عز وجل أهواءهم أي اعطاهم ما في اهوائهم وعقائدهم من باطل لفسدت السماوات والارض فهم يؤمنون بآلهةٍ متعدِّدةِ الإراداتِ مما يفسد السماوات والارض لو صح. فسبحان الله عما يشركون. وقد فاتهم هذا الحق الواضح الذي بيّن لهم حقيقة ما هم فيه وما ينتظرهم من عاقبة تتفق مع مواقفهم تجاهه. وينكر المولى عز وجل على هؤلاء الكفار تعنتهم في الوقت الذي لم يسألهم الرسول صلى الله عليه آله وسلم شيئاً من دنياهم بل صرّح لهم بأن اجره على الله تعالى ويريد لهم النجاة. ولكن الذين لم يدخل الايمان في قلوبهم لن يستقروا على هدىً. ولو اتضح لهم الفهم الصحيح وبيّن لهم المولى عز وجل المعرفة وكَشَفَ البلاء الذي جاءهم من القحط لتمادَوا في تكبرهم وفي طغيان العداوة التي أعمت قلوبهم

عن حقيقة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. فالله تعالى يعلم مدى بعدهم عن الصراط وانحرافهم نحو الضد فتركهم في عمى طغيانهم ضالين.

وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (76) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (77) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (78) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (79) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (80) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (81) قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (82) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (83)

لم تُجْدِ مع الكفار آيات الله تعالى ولا ما اصابهم من القحط ولم يعتبروا من كل ذلك ولم يرجعوا الى الله تعالى بالايمان والتوسل والدعاء. فكيف بهم إذا أتاهم اشدُّ من ذلك: عذاب فيه بأس فيسلمهم عنادهم لليأس والحيرة إذ لا يكون لهم عندئذٍ ما يردّون به عذاب الله تعالى. وهذا ما يحصل لهم يوم تقوم الساعة أو ساعة موت أحدهم (وكأن هذا الوعيد نذير لما سيحصل يوم بدر فالسورة مكية) فلا ينفع تضرعهم الذي لم يفعلوه. ويبين المولى القدير من نعمائه في الجوارح والافئدة ولم يهتد اكثرهم الى حقها في شكرها. ويعدد تعالى المزيد من نعمائه الظاهرة في مَحْياهم ومماتهم مع تكرر الليل والنهار. وأنهم سيحشرون إليه. فاذا بهم يعودون الى فتنتهم فيردِّدون ما تواتر اليهم من آبائهم من ضلال وإنكار للبعث بعد الموت. وجعلوا هذا النور الساطع اسطورة من اساطير الاولين. والاسطورة في نظرهم هي ما كتب الاولون أي اسطارهم وهي جمع للمسطور الذي لا حقيقة له في مفهومهم. ولكن القرآن الكريم بيّن لهم من المولى عز وجل الحجة كما يلي:

قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (85) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (87) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (88) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (89) بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (90) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (91) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (92)

الارض ومن فيها وعليها، والسماوات والعرش وتدبير أُمور الخلق جميعاً والقدرة والْمَنَعة حقائق لا جدال في وجودها ويُقِرُّ أهلُ الشرك بأن ذلك كله للواحد الأحد الذي لا يمكن أن يشاركه غيره فيه. ويذكِّرهم تعالى بناءً على ذلك بأن يتّقوا عبادة غيره. أي أن يحذروا عقابه في عبادة غيره فلا منقذ لهم سواه فهو المجير ولا يناله جَوْر. فليحكِّموا عقولهم قبل أن تذهب كالمسحورين. هكذا جاءهم الحق ليظهر كذبهم فما يمكن ان يعقل لمن بيده ملكوت كل شيء ان يتخذ ولداً او ان يكون له شريك. فالشريك يتصرف مستقلاً، وبتعدد الشركاء يحصل خلاف يؤدي إلى نزاعٍ وتعالِي البعضِ على الآخر. وهذا ما لا يمكن أن يحصل مع من عنده علم كل الغيوب. بل يُنزَّه عن كل حاجة فلا ينسب اليه شريك أو ولد أو صفات لا تنبغي له.

قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (93) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (94) وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (95) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (96) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (97) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (98)

ان وعد الله تعالى حق في عقاب اهل الجحود. وهنا يطلب المولى تعالى من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الدعاء بأن لا يجعله معهم عندما يُعَذَّبون. وبيّن تعالى قدرته على أن يُرِيَه فيهم ذلك. وأمر بالافضل في مخالطة الناس أي بالصبر على دفع السيئة بالتي هي احسن. والسورة مكية أيام إساءة المشركين. فالإحسان لمن اساء يجعل عاطفة المسيء متجهة نحو المحبة بدلاً من البغضاء. وهذا الامر مندوب في الصفح عن الاساءة ومقابلتها بما امكن في الاحسان من غير ثَلْم في الدين. والله تعالى لا يضره ما يصفونه به فهو العزيز الحميد وسيجازيهم على ذلك. وأمر تعالى بالإستعاذة بالله من هَمَزات الشياطين. والاستعاذة هي اللجوء الى قدرة الله تخلصاً مما يفسد العبادة. وفي هذه الآية بيان لمعاملة عدو الإنس بالاحسان معه من غير معصية. ومواجهة عدوان الشياطين بإتباع الشريعة واللجوء الى الله تعالى من همزاتهم أي من خطراتهم المفسِدة التي تُلقَى في تفكير المؤمن فتُميت قلبه وخواطرهم التي تصده عن الذكر ومن أن يحضروه عند غضبه، أو وفاته، أو في بدء الأكل، أو عند ذبح الأنعام، أو في الحياة العائلية أو عند التصدق والشكر وأداء الفروض والنوافل.

حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (100) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (101) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (103) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104)

لا يزال المشركون ينسبون لله تعالى ما لا ينبغي له حتى يحين أجلهم. وما بين بلوغهم سن الرشد وموتهم فترةٌ نالوا فيها من الله الحليم المهلة ليتذكروا، ثم الرسالة ليتدبروا. ولكن حانت ساعة الندم على ما فاتهم. فيطلبون العودة الى البداية لإصلاح ما خربوه. ولكن هيهات أن يحصل ذلك وأمامهم برزخ (حاجز) ثم نفخة الصُّوْرِ، وهو بوقُ نداءِ البعثِ من الموت، حيث تُشغَل كل نفس بهمِّها، فلا تبحث عن نسب ولا تسأل عن صديق أو شفيع بل تنظر ما سيوضع لها في موازين الصدق؛ فإما رجاحة الخير والفوز، وإما الخسران. وهذا في موقف شديد لا يتساءلون فيه! بينما يتساءل الذين يوضعون على صراط الجحيم بعد الحساب كما قال تعالى ((وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاْءَلُونَ)) في الآية السابعة والعشرين من سورة الصافات التي فيها يتهم التابعون من أضلّوهم بانهم سبب خسارتهم. فالتساؤل الأول هو بحث عن شفيع. والتساؤل في سورة الصافات هو الاتهام والتلاوم والمقت. وثمة تساؤل لأهل الفوز يتساءلون عن اصحاب لهم في الدنيا خسروا الاخرة كما في الآية الخمسين من سورة الصافات. كما ان اهل الجنة يتساءلون أي يتحدثون عن اعمالهم وإشفاقهم في الدنيا، كما في الاية الخامسة والعشرين من سورة الطور. ويأتي دور الميزان الحق وبه يُعرَف صنف النجاة للجنان وصنف الخسارة للنار وهم الكفار الذين غبنوا انفسهم وعرّضوا وجوههم للنار تلفحها أي تلمسها في هبوبها فهم فيها كَالِحُون أي عابسون منها.

أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا
شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107) قَالَ
اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (108) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا

وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (111) قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (113) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (114) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115)

عذاب اهل النار يزداد مع تقريع المولى عز وجل لهم. وهذا حاصل عند إقامة الحجةِ عليهم. وهنا يظهر إنخداعهم. فقد كانوا ظالمين ولم يقروا بذلك بل اعتبروا موقفهم موقف الضال الذي يحتاج الى فرصة اخرى ليهتدي. فإن عاد فعندئذ يكون (بزعمهم) ظالماً. ولكن المولى عز وجل كشف ظلمهم بكفرهم بآياته لِما بَدَا منهم من سخرية لَمّا سمعوا إقرار المؤمنين بالإيمان وطلب المغفرة والرحمة. وبلغت سخرية الظالمين مبلغاً جعلهم ينْسَون الخالق عز وجل كفراً واستهتاراً. وتأتي زيادة اخرى في عذاب اهل الشرك إذ يخبرهم تعالى بما أكرم به المؤمنين من نعيم ونور. ثم يذكِّرهم تعالى بما اضاعوا من أعمارهم إذ يسألهم عن فترتها وهي مدة قصيرة كان اجدر بهم ان يصبروا فيها على العبادة والتمسك بالشريعة فيقولون: (يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ) أي الملائكة الذين حسبوا عليهم العمر او الحاسبين من أهل العلم. فيجيبهم بان مدتهم كانت يسيرة فانية فآثروها على الخلود في جنات النعيم. فكأنما اشتروا جهنم بيوم او بعض يوم من الدنيا فبئس الصفقة الخاسرة! ويختم المولى معهم تقريعَه بأنه لم يخلقهم عبثاً بل للعودة اليه ونيل الجزاء العادل بما أعطاهم من نعمة العقل. فالعقل موجب للحساب وليس كالبهائم التي لا عقل لها.

فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (117) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (118)

يبيّن المولى عز وجل قدسيته بعد ان بين انه لم يخلق ذوي العقول عبثا بل لا بدّ من مساءلتهم عن رسالاته وآياته ومِنْحَةِ العقلِ لهم ليوفّوه تعالى حق تفرده بالالوهية وهو رب العرش الكريم. أي عرش الألوهية الذي جمع السمو والمكارم التي تنبغي له فمن ينسب ربوبيةً لغيره فإنما يتعرض للحساب ولا برهان عندئذ يبرر موقفه. فلا فلاح ولا فوز. ثم أرشدَنا تعالى الى الدعاء للمغفرة والرحمة وفي ذلك محوٌ للذنوب بالمغفرة وسترُها كأنْ لم تكن. واما الرحمة المطلوبة فهي في تسديد الخطى والتوفيق لما يحب الله تعالى من اقوال وافعال في عافية. فالمغفرة ازالة ما يعيق الثواب، والرحمة عون على الكمال. والله أعلم وأجلّ.

سورة النور

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (1) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (2)

السورة في القرآن الكريم هي مجموعة الايات المستقلة عن غيرها حيث تُفتَح بمعنى جديد عما سبقها وتُختَمُ من غير حاجة لتكملة في مقاصدها. وهنا بدأت بأحكام الزنى وعدد الجلدات وأن لا يلتفت الذي يقوم بالجَلْد الى الشفقة التي تبدر منه على الفاعل او الفاعلة. وأن لا يشفع أحَدٌ بالتخفيف وإن عطفت الطبيعة البشرية الى الرأفة. فالرأفة غريزة لا يمكن إبطالها، ولكنْ في هذا الموضع يتجاهلها الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر طاعةً لله تعالى ولإنفاذ أمره. وقد ورد في السُنة الشريفة وفي أحكام الخلفاء الراشدين رجم الزاني المحصَن والزانية الْمُحصَنة. والمحصن يجب ان يكون مسلماً بالغاً عاقلاً غير مملوك ومتزوجاً بنكاح شرعي مع الدخول بالزوجة. والمحصنة من النساء هي ذات الزوج. واما البيِّنة على الزنا فإما اعتراف أو شهود عيان أربعة أو إذا حملت غير المحصنة من سفاح إرتضته. ومن حديث رواه الامام احمد في مسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله ((اياكم أنْ تَهْلِكوا عن آية الرجم))، وروَى أيضاً عن الامام علي عليه السلام انه حكم على زانية اسمها سراحة، وهي محصنة، فجلدها في يوم ورجمها في اليوم التالي. فقال ((جلدتُها بكتاب الله، ورجمتُها بسُنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم)) وأخذ بهذا

الفقهاء. واكتفى البعض منهم بالرجم للمحصن من غير جَلد. وهذا بحثه في كتب الاحكام. وبالنسبة لغير المتزوجين فيُجلَدان مائة جلدة ويغرّب الزاني (أي يُنفى عن البلد الذي يقيم فيه) عاماً كاملاً كما حصل في السُنّة الشريفة. وعند الامام ابي حنيفة رضي الله عنه ان التغريب حسب اختيار الامام. وقيل نسخ بآية الجَلْد. وبالنسبة للجَلد فيكون ألَمُهُ على الجِلد بحيث لا تصل الآلام إلى اللحم أي لا يكون الضرب خارقاً للجلد. أما الطائفة التي يجب أن تشهد عذاب الزاني والزانية في إقامة الحد فالراجح أن يكونوا اربعة نفر فما فوق. وفي هذا كله عبرة وتذكرة لِلحَدّ من الزنا في هذه العواقب الوخيمة.

الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (3)

يكون الزاني عادة معاشراً لأهل الفسوق ولا يتعرّف إلا الزانيات كما لا ترضى به العفيفة الطيبة زوجاً لها. والمشرك هنا هو الذي لا يعتقد بتحريم الزنا. وهكذا يتميز مجتمع الفاسقين عن مجتمع الصالحين. وفي هذا السياق يُفهم الامر الالهي بالنهي عن تزويج العفيفات للفجّار. وبهذا حرم الله تعالى الزنا وحرم نكاح البغايا. وفي سورة النساء ورد قوله تعالى ((مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ)) وقوله تعالى ((مُحْصَنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ)).. أما التوبة النصوح للبغيِّ فهي بحسب مذهب الامام احمد بن حنبل رضي الله عنه سبب لصحة النكاح. وقد روى ابو داود في مسنده عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((لا يدخل الجنة ديّوث)) أي الذي يُقِرُّ الخُبْثَ في أهلِهِ. وروى ابن ماجه عن انس بن مالك رضي الله تعالى عنه قول رسول الله صلى

الله عليه وآله وسلم ((من اراد أن يلقى الله وهو طاهر متطهر فليتزوج الحرائر)). والآية الثانية والثلاثون من هذه السورة يقول تعالى فيها ((وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ..)) الاية. وفيها ندْبٌ لتسهيل زواج الايامى أي العازبات. والمرأة الأيِّمُ هي التي لا زوج لها فقد تكون باكراً او مطلقة او أرملة. ويقابل ذلك في الرجال من يحق له الزواج. وفي التفاسير ان هذه الاية نَسَخَت الاية الثالثة اذ أن كلمة الأيامى تشمل التائبات والتائبين من الزواني شأن الاحرار والحرائر من المسلمين والمسلمات. واما من لم تَتُبْ من الزانيات فيحرم نكاحها اذ لم يأذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الزواج ممن كانت هذه صفتها لأن الديوث كما تقدم لا يدخل الجنة. وهناك حالة مستقلة وهي (كما جاء في تفسير ابن كثير) ان رجلاً سأل ابن عباس رضي الله عنهما قائلاً "اني كنت ألُمُّ بامرأةٍ آتي منها ما حرّم الله عز وجل عليَّ، فرزقني الله عز وجل من ذلك توبة، فاردت ان أتزوجها فقال أناس إن الزاني لا ينكح إلا زانية او مشركة". فقال ابن عباس ((ليس هذا في هذا. إنكَحْها فما كان من إثم فَعَلَيَّ)) رواه ابن ابي حاتم. ويفهم من ذلك أن المرأة لم تكن من البغايا وأن الرجل كان يعاشرها معاشرة الازواج دون غيره ومن غير عقد نكاح.

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (4) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)

نزل حكم القاذف في هذه الآية. والقاذف هو الذي يتّهِم بالزنا إمرأة حرّة بالغةً غافلة أو يتهم به رجلاً، سواء أكانا من الأحياء او قد تُوُفِّيا. فإذا جاء بأربعة

شهود فلا يشمله الحكم، والا فيأمر الإمامُ بجلده ثمانين جلدة، ويتْبَع ذلك أن يرد القاضي شهادتَه في كل قضية وأن يُعْتَبر في المجتمع فاسقاً. فاذا تاب وأصلح، أي لم يُعرَف عليه فسق واعلن أنه قال البهتان وتاب ولن يعود، فيرفع عنه الفسق ويبقى حكم شهادته وفيه اقوال لبعض الفقهاء بان لا تقبل شهادته كما ذهب الى ذلك الاحناف. وبعضهم قال تقبل شهادته اذا تاب ويرفع عنه حكم الفسق وهذا في مذهب الامام الشافعي والامام احمد بن حنبل. فالامام ابو حنيفة رضي الله عنه جعل الاستثناء يقتصر على حكم الفسق فقط. وأما غيره فقد جعل الاستثناء يشمل قبول الشهادة ورفع الفسق. وأما الجَلد فلا يُعفى منه اذا اعلن التوبة فإن فعله بالقذف يوجبه.

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (6) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (7) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (8) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (9) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (10)

جعل الله تعالى في احكام هذه الاية مخرجاً وفرجاً لمن يشاهد زوجته مع غيره من الرجال في وضع الزنا ولم يكن بإمكانه وقت المشاهدة أن يأتي بأربعة شهداء. وذلك بأن يقسم بالله اربع مرات بانه صادق في ادعائه الزنا على زوجته. ثم يقسم بعد ذلك بالله تعالى أنّ لعنةَ اللهِ عليه إن كان قد كَذَب عليها. واما هي فيؤتى بها وتُواجَه بالتهمة فإن أقرّت رُجِمَتْ وإن لم تُقِرّ فتُقسِم اربعَ مراتٍ بالله بأن زوجها لمِن الكاذبين في اتهامها وتقسم الخامسةَ بالله أنّ غضبَ اللهِ عليها إن كان من

الصادقين. ثم لا تُرجَم. وهذا المخرج يرضي الحق وجعله تعالى فضلاً ورحمة تاركاً معرفة الصادق فيهما لعالِم الغيب الذي لا يخفى عليه. ويلحق هذا الحكم من السنة النبوية ان يفرق بين الزوجين بغير طلاق واذا ولد مولود للمرأة بعد ذلك بمدة فلا يدعى لأبيه بل لأُمِّه ويرث الزوجان احدُهما الآخر. ولا يقال للولد هذا ابن الزنا ولا يقال للمرأة انها زانية، فاذا رماهما احد بذلك اقيم عليه حد القذف. وقضى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الحالة بأن لا يقع على الزوج نفقة الولد لأنهما افترقا بغير طلاق او موت. وأما (اللعنة) على الزوج فتقوم مقام حد القذف لو كان كاذبا. وكذلك (الغضب الرباني) في حالة كذب الزوجة المتهمة فيقوم مقام حد الرجم.

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11)

الافك شدة الكذب. والعصبة جماعة. وحديث الإفك في كتب الصحاح. وخلاصة ذلك ان الله تعالى برَّأ امَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها فقد غار المولى العزيز جل جلاله على عِرض رسوله صلى الله عليه آله وسلم بعدما تحدث نفرٌ عن ام المؤمنين عائشة رضي الله عنها بسوء بأنها تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اثناء عودته من غزوة غزاها، وكانت تصحبه فيها. وكان المفروض انها في هودجها لكنها كانت قد نزلت منه لحاجة عند توقف الركب قبل وصول المدينة عائدين من الغزوة وعندما حمل الركبُ الهودجَ على الراحلة وسارت القافلة كانت ام المؤمنين تقضي بعض شأنها. وانفرط عِقْدٌ كانت تتقلده فانشغلت به ولما عادت الى محل هودجها وجدت الركب قد سار بعيداً. فانتظرت من يأتيها بعد ما يكتشفون

انها لم تكن في الهودج. واخَذَتْها سِنَة من النوم. ووصل الى موقعها احد الصحابة، وكان في ساقَةٍ لحماية مؤخرة الركب، فحملها على بعيره وقد غطّت وجهها بخمار ولم يتكلما بكلمة سوى قول الصحابي ((انا لله وانا اليه راجعون)). ومشى في ركابها الى المدينة. ولهذا تحدث بعض النفر عنها. فنَزلت براءتُها وقد بين تعالى أن ما حدث كان في علم الله تعالى خيراً. واعتبر الصحابة ذلك خيراً لآل أبي بكر رضي الله عنه لبيان سمو شرفهم في الدنيا والاخرة. وقد أقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حدّ القاذف، وهو ثمانون جلدة، على من تقوّل اول الامر بهذا الافك. وأما الذي قال عنه تعالى ((الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)) فهو رأس النفاق عبد الله بن أُبَيّ بن سلول وقد تقدم الكلام عنه في شرح معاني الاية الرابعة والثمانين من سورة التوبة.

لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (12) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (13)

تميز المؤمنون بأنهم حالَما سمعوا الإفك ظنوا خيراً لصفاء نفوسهم وثقتهم بأن مثل هذا الخبر لا يمكن تصديقه لِما عرفوه عن اهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وسموّ عقولهم وصدق ايمانهم. ولم يأت أحد من اهل الافك بما نص عليه الشرع بأربعة شهداء مما جعلهم من صنف الكاذبين. وقد ظهر الكذب هنا رذيلة قبيحة اذ ان الكذب متعلق بنعمة الله تعالى بالنطق فقد ميزهم بالنطق عن الحيوان. وهذه من اشرف النعم فاستعمالها في القذف يدل على كبر اثم الفعل.

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (14) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (15) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (16) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (17) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (18)

يتجلى أي يتوضح بجلاء فضل الله تعالى بقبول توبة من خاض في سيرةٍ طاهرة وكان مؤمنا اذا أُقيم عليه الحد. وذلك في الحياة الدنيا. ثم الوعد برحمته في الاخرة. اما المنافقون فلا صلاح لعملهم ما لم يتوبوا من النفاق. والخطاب هنا هو للمؤمنين بدليل قوله تعالى في هذه الايات (إن كنتم مؤمنين). واما التلقي بالألسِنة فهو تداول الإفك نقلاً من شخص لآخر. وهو قول غير مبني على علم. وكأنهم في ذلك يتحدثون بحديث ليس شديداً في حسبانهم ولكنه شديد الخطأ في ميزان الله تعالى. وكان الاجدر بمن تداول هذا القول أن ينظر الى منزلة موضوعِ الحديث وهي ام المؤمنين وينبغي حُسن الظن بها اكثر من غيرها. فإنْ وسوس له الشيطان بخلاف ذلك زجر نفسه عن الخوض في ما لا يعلم ولجأ الى التسبيح الذي فيه إعتبار الأمر ليس بالهيّن وهذه موعظة لا تنقطع لكل حال مماثل. ويقيم المولى عز وجل بها الحجة على من خالفها.

إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (19) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (20)

اشاعة الفاحشة المقصودة هنا هي ليست بإرتكابها بل بكثرة التحدث من الكلام السيئ واذاعة اخبار المعاصي القبيحة. واما من يحب هذا الإتّجاه أي الذين يرمون الناس عندما يتحدثون بما يوجب حد القذف فقد توعدهم المولى تعالى بإقامة الحد عليهم في الحياة الدنيا وبعذاب أليم في الاخرة. والافضل للمؤمن ان يَرُدَّ الامر الى الله تعالى فهو أعلم بمن فعل المعاصي. وذَكَر المولى العزيز هنا فضله بإقامة الحد على المفتري تطهيراً له وبرحمة من يتوب اليه ويستغفره.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (21)

للشيطان سبل ومسالك يأمر بها اتباعه اولئك الذين يتبعون الأهواء ليضعهم على سبل الفحشاء، أي الذنوب شديدة القبح، وعلى سبل المنكر من الأقوال والأعمال فيرتكبون المعاصي. وينهى رب العزة تعالى عن إتّباع الخطوات الشيطانية وهي متعددة التدرج من المعصية الصغيرة الى الكبيرة حتى يتدرج الشيطان بمن يستجيب له الى الامر بالفحشاء والمنكر. وهنا فإن العبدَ المؤمن، الذي يعلم الله تعالى فيه خيراً، تدركه رحمةٌ من ربه تعالى فيرزقه التوبة وتزكية النفس من كل دنس وفجور وخُلُقٍ رديء. ومن كان في قلبه صدود عن آيات الله تعالى فقد ضل طريق الإنابة إليه. والله تعالى اعلم بمن يستحق الهدى فيزكيه، ومن لا يستحقه فيتركه.

وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (22)

نهى المولى عز وجل المؤمنين الذين اعتادوا على التصدق على أقربائهم الفقراء أنْ يأتلوا, أي يحلفوا بسبب غضبهم لأنفسهم، على التوقف عن مساعدة أُولئك المساكين ولا سيّما أُولئك المهاجرين منهم في سبيل الله. وهذا التوقف كان قد حصل من ابي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه لإبن خالته مِسْطَحٍ بن أثاثَةَ عندما اشترك في الإفك على ام المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها. فلما اقيم الحد على مسطح وتاب من زلته هذه وكان من مساكين المهاجرين جعل المولى له ولأمثاله مخرجاً بأن تعود اليه الصلة المالية التي كانت تصله. فأعادها اليه ابو بكر رضي الله عنه. ويقصد بالعفو هنا: الستر. وبالصفح: الإعراض عن العقوبة والتجاوز عن الجفاء.

إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (23) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (25)

المحصنة هنا هي المرأة العفيفة. والغافلة هي ذات القلب السليم التي لا تشك بأنّ احداً يظن بها سوءً. فمن يرمِ مؤمنةً عفيفة غافلة من المؤمنات بتهمة الزنا تلحقْه اللعنة في الدنيا والآخرة مع عذاب عظيم استحقه لعظيم إفترائه بإلصاق ما توهّمه من دَنَس بالطاهرات البريئات. وعذاب الاخرة يحق عليه بشهادة جوارحه التي يُنطقها الله تعالى عليه. وعندئذ يلقَى حسابَه ثم الجزاء الحق الذي لا ظلم فيه. ولا ينسب للمولى العزيز ظلماً في ما عاقبه به اذ أقام عليه الحجة. وبهذا جعل الله تعالى من ام المؤمنين في براءتها سبباً لحفظ سمعة المؤمنات العفيفات الغافلات وكرامتهن الى يوم الدين. وفي احكام القرآن: إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لا تقبل

لهم شهادة أبداً (وإن فتح الله تعالى لهم باب التوبة) عملاً بالاية الرابعة من هذه السورة. فيقبل الإمام توبتهم بعد إقامة الحد عليهم ويردّ شهادتهم.

الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (26)

يتّصِفَ الإنسان بصفة الخبيث نتيجة أقواله وأفعاله التي تنبئ عن رداءة صاحبها. واما السلوك الحسن فينبئ عن طيب صاحبه. ولهذا ترى الخبيثة من النساء لا يرضاها زوجة الا الخبيث الذي لم يذق طيب النفس ليميز به خبث النفوس. والصالحة منهن لا ترتضي إلا زوجاً طيباً تعرفه من إستقرار قلبها على طيبها. فالطيبون لهم الطيبات. وهذا المعنى فيه اشارة لطيب ام المؤمنين عائشة سلام الله عليها اذ ارتضاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زوجةً له في الدنيا وبشرها بمعيته زوجةً له في الآخرة. والطيبون والطيبات إمتدحهم الله تعالى ببراءتهم مما يقوله اهل الافك. فهم مترفعون عن أهل الافك في خوضهم ومبشرون بالمغفرة في الدنيا وبالرزق الكريم في الاخرة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (27) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (28) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (29)

الإستئذان من الآداب الإجتماعية جعله الله تعالى شرعاً في كتابه. وفي السُنّة يتم الاستئذان بثلاث مرات فإن دُعِي المستأذِن للدخول عندئذٍ يدخل. وأما إذا لم يسمع ذلك صراحة فعندئذٍ ينصرف. فقد روى البخاري عن ابي موسى رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((إن استأذن أحدُكم ثلاثاً فلم يؤذنْ له فَلْيَنْصَرِفْ)). ويستخلص من الآثار الواردة في التفاسير أن يكون الاستئذان بإلقاء السلام تحيةً لمن في الدار أي يكفي ان يطرق الباب ويسلم ثم يسلم الثانيةَ فإن لم يسمع جواباً يسلم الثالثةَ فإن لم يسمع جوابا إنصرف حتى وإن كان يعلم بوجود أهل الدار فيها. وأما إذا سمع المستأذن ما يدل على إعتذار أهل الدار عن إستقباله فليرجع فذلك أزكى له أي أدعى إلى سلامة الصدور عنه وإلى إحترامه. وإن سمع المستأذن ما يدل على سماعه فعليه أنْ لا يقِفَ بمواجهة الباب ولا يحاول النظر ليرى من يلبي إستئذانه وأن يجيب على استفسار اهل الدار عمن يكون هو بإيضاح اسمه أو كنيته التي يشتهر بها. ويقصد بالإستئناس هنا أن يأذن أهل الدار له بدخول الدار او أن يخرج أحد من سكانها لإستقباله. واما البيوت التي قد خرج منها أهلها لفترة ويعلم قاصدها ذلك فليس له ان يدخلها إلا اذا حصل له اذن مسبق لدخولها بغيابهم. أما البيوت التي أعدها أصحابُها لإستقبال الزوار في أوقات فتحها لهم، سواء كانت بإجرة كالفنادق، او كانت مضايف في القُرى، أو مقرات لأغراض عامة، فلا يُسْتَوجَبُ الاستئذان. ويبين المولى تعالى علمه بنوايا القادمين الى غير بيوتهم وبتصرفاتهم فيها وبانطباعاتهم داخلها أي ما يبدون وما يكتمون فليحذروه.

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30)

المقصود بِغَضِّ البصر خفضه عن منظر امرأة من غير محارمه او توقع مواجهتها وكذلك يصرف نظره الى ما يبعده عن رؤيتها. واما اذا وقع البصر من غير قصد على ما لا يباح النظر اليه فليصرفه سريعاً بأن يُطرِق إلى الارض او لجهة اخرى يخرج المنظر غير المباح منها ولا ينشغل به. وفي هذا جعل الله تعالى زكاة للنفوس وسلامة في الصدور وبعداً عن الريبة. واما ما يكون في القلب من النظرة المفاجئة فيزول بذكر الله تعالى فهو خبير بما في القلب منها. روى ابن ابي الدنيا عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله ((كل عين باكية يوم القيامة إلا عيناً غضت عن محارم الله وعيناً سهرت في سبيل الله وعيناً يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله عز وجل)).

وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31)

المؤمنة وزوجها المؤمن موضع غيرة الله تعالى وعنايته شأن كافة المؤمنين في ولايته لهم، والتي من ضمنها وصية الله تعالى للنساء في تجنب ما كانت عليه المرأة في الجاهلية. من هذه الوصية ما رواه ابو داود والترمذي عن ام المؤمنين ام سلمة رضي

الله عنها انها كانت عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعها ميمونة (ام المؤمنين). قالت "فبينما نحن عنده أقبل إبنُ امِّ مكتوم (المؤذن الضرير) فدخل عليه وذلك بعدما أُمِرنا بالحجاب. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((إحتجبا منه)) فقلت يا رسول الله أليس هو أعمى لا يُبصِرُ ولا يعرفنا؟ فقال ((أوَعَمْياوانِ انتما))؟ وفي رواية ((أوَ لَسْتُما تبصرانه))؟ وقد جوّز بعض العلماء نظر النساء للرجال من غير تخصيص احدهم اذا كانوا جماعة في مناسبةٍ كما حدّث البخاري في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جعل ينظر الى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد في المسجد وعائشة ام المؤمنين تنظر اليهم من ورائه وهو يسترها منهم حتى ملّت ورجعت. هذا في غض البصر اما الوصية في تتمة الآية ففيها النهي عن الفواحش وما لا يحل للمؤمنات، وفي حفظ مواضع ظهور الجسم من الملابس بسترها. كما يَتّخِذْن الخِمار لأجل ذلك. وعليهن بعد ذلك ان لا يُظهِرْن من الزينة لغير الرجال المذكورين في الآية، إلا ما لا يمكن اخفاؤه كالوجه والكفين والخاتم وما يبدو من وجه القدم من اسافل الثياب. واما الخلاخل فتكون مفردة تحت الثياب فلا يسمع لها صوت في المسير. أما ضَرْبُ الرِّجْل لإحداث صوت الخلخال فمنهي عنه. والمقصود بكون الخلاخل مفردة اي لا يكون خلخالان سويةً في ساق واحدة يُحدِثان صوتاً. واما الزينة للنساء فقد ورد في التفاسير انها الحلي والكحل والخضاب. وما عدا أمام الزوج فلا يباح اظهار ما تنحسر عنه الثياب من الجسم للرجال المذكورين فتبقى إباحة رؤية الأسْوِرَة والأقراط والأخْمِرة (جمع خِمار) والظاهر من الثياب من غير تبرج لمن أُبيح اظهار الزينة لهم. والمشهور عند الجمهور أن ابن عباس رضي الله عنهما ومن تابَعَه ارادوا تفسير ما يظهر من الزينة: بالوجه والكفين. اذ

روى ابو داود عن عائشة رضي الله عنها قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لاختها اسماء ((إنّ المرأة اذا بلغت المحيض لم يصلح ان يُرى منها إلا هذا)) واشار الى وجهه وكفَّيه صلى الله عليه وآله وسلم. واما تحديد الاشخاص (فالآباء) يقصد بهم الاب والجد. ولا يشمل ذلك العم والخال لانهما قد ينعتانِ لأبنائهما. (وللزوج) ما لا يكون لغيره. واما (ابناء الزوج) فهم ابناء وأحفاد الزوج من النساء الأُخريات. واما (نساؤهن) فهن الحرائر المسلمات. واما (ما ملكت ايمانهن) فالمقصود الإماء دون العبيد. واما (غير اولي الإرْبَة من الرجال) فهم الرجال الذين ليس لهم قصد في النساء لعلة في عقولهم او ضعف او شيخوخة صالحة او نقص يمنعهم عن النساء. واما عادة تقبيل النساء للنساء عند اللقاء فقد نهي عن تقبيل غير المسلمات. واما توليد النساء فيكون على يد قوابل مسلمات إلا عند الضرورة كأن تكون المسلمة في بلاد ليس فيها قوابل مسلمات. وفي هذا السياق ورد في التفاسير النهيُ عن تَطَيُّبِ المرأة اذا خرجت من بيتها فقد روى الترمذي عن ابي موسى رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((كل عين زانية والمرأة اذا استعطرت فمرت بالمجالس فهي كذا وكذا)) يعني زانية". وأمَر تعالى بإنقطاع الرجال والنساء عما كان عليه أمرُهم وأمرُ أسلافِهم في الجاهلية من نظر وتعطّر وتزيُّنٍ وما الى ذلك فقال ((وَتُوبُوا إلى اللهِ جَميعاً)).

وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (32) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا

عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (33) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (34)

الايامى جمع ايِّم وهي المرأة التي لا زوجَ لها. وتطلق التسمية على الرجل الذي لا زوجةَ له سواء كان قد سبق له الزواج وفارق ام لم يسبق له ذلك. وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءةَ فلْيتزوّجْ فإنّه أغَضُّ للبصر وأحصنُ للفرج ومن لم يستطعْ فعليه بالصوم فإنه له وِجاءٌ)). ويستدل من ذلك (كما ذهب اليه طائفة من العلماء) وجوب الزواج على كل من يقدر عليه. والوِجاء نقص يمنع الرجل عن النساء أُستعير هنا للدلالة على الصبر. والله تعالى قادِرٌ على أن يرزق الفقير بما وَعَدَه من فضله. فالمؤمن يطيع المولى عز وجل في ما امر عسى أن ينال ما وعده من الغنى فقد روى ابن جرير الطبري والبغوي عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله: ((إلتمسوا الغِنى في النكاح يقول تعالى: إنْ يكونوا فقراءَ يُغْنِهُمُ اللهُ مِن فَضْلِه)). وهذا الحديث يبعث على الأمل وحسن الظن بالله تعالى وهو عند ظن عبده به أن يرزقه تعالى من فضله. ويشمل الامر (اضافة للاحرار والحرائر) العبيد والإماء. واما من لم يستطع النكاح اذ لا يجد مالاً لذلك فقد وجهه الله تعالى الى الصبر عن ذلك حتى يغنيه تعالى فلا يقدم على ما حرم الله تعالى. وفي هذا اشارة لعزة النفس ونَهْيِهَا عن الهوى. واما العبيد الذين يريدون تحرير انفسهم فصيغة ذلك ان يقول المالك لمملوكِه: "كاتَبْتُك على (كذا) فإن أدّيتها أعتقتَ نفسك وعليك أن تفي بذلك". ويُتّفَق على الاقساط والتأجيل. واشترط المولى عز وجل ان يتوسم السيدُ الخير في عبده، أي قدرته على الكسب

كأن يكون عنده حرفة مع الأمانة في الأداء. واوجب تعالى إعانة العبد المكاتِب من اموال الزكاة لقوله تعالى ((وفي الرقاب)) ويندب ان يُحطَّ عنه من المبلغ. وقد صنفت الشريعة العبيد اربعة اصناف منهم للخدمة ويسمى واحدهم (قِنّاً) ومنهم المأذون بالتجارة، ومنهم المكاتِب وهو موضوع الآية ومنهم الآبِق أي الهارب. ويشبِّه تفسير النسفي رحمه الله البشر بهذه الاصناف الأربعة؛ فمنهم المنقطع للعبادة ويأكل من كسب يده، ومنهم الذي يقوم بامور الدنيا، سواء كان موظفاً او تاجراً، ومنهم من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله يحاسب نفسه ويعمل بالفروض ويتقرب بالنوافل كأنه اشترى نفسه بذلك، ومنهم الآبق (هنا العاصي) سواء كان من الحكام او المحكومين او الذين يأكلون الدنيا بالدِّين أو العُصاة والفُسّاق! وهذا من لطائف التأديب للعبرة. ويأتي الامر الرباني لقطع الطريق على المنافق عبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول في اكراه جارياته على تعاطي البغاء من أجل المال. وليكون حُكماً عاماً. والكراه معناه يقع على التي لا ترضى لنفسها بالبغاء وفي هذا تقريع لمن اكرههن. وما حصل من ذلك قبل هذا الامر قد وعدهن الله تعالى بعد ذلك بالمغفرة مقتصرة عليهن. ونزلت الاية بعد ما جاءت اثنتان من جواري هذا المنافق الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للشكوى من طلبه منهما بل محاولته إكراهَهُما على البغاء. فجعل الله لهما عصمةً، وجعل في ذلك توبيخاً لمن كان مثله بأن يكون أحَقَّ من إمائه بالعفة والتحصن. واتفق العلماء على ان المغفرة هي للمُكرَهات، واما توبة من يُكرِهُهُنَّ فموكولة الى الله تعالى. وشُرِّعَت الحدود على الزُناة فانقطع دابر هذا الفسوق الذي كان في الجاهلية. وهكذا يمن الله تعالى على المؤمنين بما بيّن لهم من احكام في آياته

وما قصه من عبر في اخبار الذين خَلَوا من قبلُ لتكون ذات منفعة في التقوى والعمل الصالح وترك المنكرات.

اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (36) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (38)

وكما ان الهدى في سلوك الطرق والمسالك ليلاً لا يتُمُّ إلا بتسليط النور امام الرائي فيتبين طريقه، كذلك لا يتمّ الهدى أي الخروج من الظلمات الى دين الحق إلا بنور من الله في قلوب المنيبين اليه. فهو تعالى النور الذي بيّن لهم الطريق. وبدون مشيئة الله لا يكون هدى. وقد شبّه المولى هذا النور، الذي لا يمكن لبشر معرفته الا بتشبيهه بما هو معروف، بأنه منبعث من مصدر يتضاعف نوره اضعافاً ولا مصدر له سواه. فهو في قلب المؤمن هدىً من الله تعالى جعل قلبه مثل كوّة بمنفذ واحد فلا يخرج منها النور إلا الى وجهة واحدة. هذه الكوة فيها مصباح، وهو السراج الذي يصدر منه النور. كما نعت الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بانه سراج منير، أي تصدر منه معرفة الله تعالى. والزجاجة لا تمنع هذا النور وتحفظه بنفس الوقت فهي القنديل من الزجاج الذي من فَرْط ضيائه ينسب الى الدر وهو الحجر الكريم الذي يضرب به المثل في الصفاء والنقاء والشفافية. والكوكب من هذا

العنصر يكون اسطع من غيره يستمد طاقته من زيت شجرة مباركة صفتها في البركة كما توصف شجرة الزيتون التي لا مثيل لها في الشرق او الغرب يكاد زيتها يضيء ذاتياً من غير شرارة تبعث فيه الوهج. وهكذا يتمثل النور، الذي لا مثيل له في الواقع المادي، على ابهى صورة في ذهن المؤمن فيعلم ان هذا الهدى هو المرشد الى الصراط المستقيم (ألا إنّ الْهُدَى هُدَى الله). وهكذا يكون قلب المؤمن دليلاً له كما كان سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم سراجاً منيراً يهدي به الله سبل السلام ويخرج المؤمنين به من الظلمات اليه. فلو لم يتكلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لكان بذاته نوراً هادياً بأعماله وسنته فكيف اذا نشر دعوته وعمل بها فالعمل والقول نور على نور. واما ما قاله بعض المتأخرين بأن هذه الآية اشارة الى المصابيح الكهربائية او غير ذلك مما تقدم علمه وتطور فلا يؤخذ به اذ لا يجوز التأويل بالآراء من غير سند في الكتاب والسنة. واما البيوت المقصودة هنا فقد أجمعت التفاسير انها المساجد. فهي عامرة بذكر الله تعالى، مطهّرة من الاعمال التي لا عبادة فيها، مزينة بتقوى من يدخلها وبنظافته وبصدقه. يملأ ارجاءها التسبيح بالغُدُوِّ (وهنا الغدو مفرد وهو اشارة لصلاة الفجر) والآصال، (وهنا الآصال جمعٌ، اشارة الى بقية الصلوات الخمس). ولا يسمح فيها باللغو واللهو بل هي للصلاة وانتظار الصلاة وللخُطَب والمواعظ العبادية في امور الدين. ولا ترفع فيها الاصوات ولا يكون فيها صخب. واما عُمّار المساجد حقّ العمارة فهم الذين يكون همَّهم الاولَ ذكرُ الله تعالى إن كانوا في أعمالهم في غير أوقات الصلاة. وخص الله تعالى البَيع وان كان داخلاً في التجارة لإهتمام التاجر بالبيع الذي غالباً ما يكون ذا ربح، اكثر من اهتمامه بالشراء وهو مخيّر فيه. فحالما يسمع المؤمن النداء يلبي ليزور الله تعالى وقد

تطهر وتوضأ فيكون بين يدي ربه في بيت ربه وينال منه حق الزائر المطيع من الجليل الكريم. وفي الآية اشارة الى بناء المساجد لله تعالى وقد وردت الاحاديث بأن زخرفة المساجد مكروهه فقد روى ابن ماجه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم "ما ساء عمل قوم قط إلا زخرفوا مساجدهم" وروى البخاري قول سيدنا عمر رضي الله عنه ((إبْنِ للناس ما يُكنُّهم وإياك أنْ تُحَمِّر أو تُصَفِّرَ فتفتِنَ الناس)). وهذا الاهتمام بذكر الله مصحوب بإقامة الصلوات المفروضة والمندوبة كالنوافل، ومصحوب بإيتاء الزكاة المفروضة. وامام المؤمن الحساب يوم الدين فلا يعلم هل الى جنة او الى نار. هو يوم فيه الهول الذي تتقلب فيه القلوب وقد كشف عنها الغطاء وعرفت الحق حقاً. وتتقلب الابصار الى العيان أي رؤية الحق بلا زيغ. واما اهل الايمان الذين كان همُّهم واحداً هَمَّ الآخرة فجزاؤهم من ربهم اضعاف ما أمِلوا من غير حساب.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (39) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (40)

السراب انعكاس اشعة الشمس على حافات ما على وجه الارض من رمال متقاربة جداً في أرضٍ منبسطة فيكون منظرها كسطح الماء الذي يعكس ضياء الظهيرة فيحسبه الرائي ماءً فإن كان ظمآنَ اسرع اليه حتى اذا اقترب منه ابتعد عنه النور المنعكس وبدت الارض خالية جافة لا ماء فيها. فالكافر الظمآن للنجاة يرى انه قد عمل اعمالاً تنجيه من خير وبرّ. ولكنَّه، على خلاف ظنه فيه، لا يجد ثواباً لعملِه كالسراب ذلك أنّ عملَه لم يكن صادراً عن ايمان بالله تعالى ولوجهه الكريم بل

لدنيا ولنفس كافرة فقد لَقِيَ اجره في الدنيا كما اراد ولم يبقَ لعمله أجرٌ في الآخرة لأنه كفر بلقاء الله تعالى. وشبّه المولى عز وجل عمل الكافر بتشبيه آخر هو الظلمات في بحر لجّي (عميق) أي يكون الماء فيه على شكل لُجُجٍ، أي أن مُعظَمَ أجزائه تكون امواجها عالية متلاحقة تعلو بعضها بعضاً في يوم عاصف تراكمت فيه السحب القريبة التي تحجب ضوء الشمس فتشكل مع طبقات الموج ظلمات ثلاث يفاجأ بها الرائي بأنه لا يكاد يتبين يده اذا وضعها امام وجهة لإعتياد عينيه على النور الساطع قبل العاصفة المظلمة. فمن قسي قلبه على الحق في آيات الله لم يجعل الله تعالى له نوراً يهتدي به الى العمل الصالح، فتسيء أعماله بظلم ويجد ظلمَةُ يوم القيامة ظلاماً متراكماً يرديه في جهنم لأن النور الذي يُهتَدَى به على الصراط المستقيم لا يُعطى لمثله اذ لم يكن يفتح له قلبه في حياته الدنيا أي لم يؤمن بآيات ربه مع علمه بحقها. وهذا العلم هو ما قال عنه تعالى في الآية 126من سورة طه: ((..كَذَلِكَ أَتَتْكَ آياتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى)).

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (41)

يخاطب المولى عز وجل رسوله الكريم محمداً صلى الله عليه وآله وسلم: أليس يعلم علماً مشهوداً كأنما يراه بعينه (فالرؤية هنا هي العلم المشهود) بان الله تعالى هو المشهود الذي عُرِف بما خلق. فالموجودون في السماء والارض موجودون بوجوده ويشيرون اليه وفي هذا تسبيح بحمده. فأهل السماء الملائكة لهم تسبيحهم واهل الارض من إنسٍ وجن وحيوان والطير بين السماء والارض في تسبيح أي ثناء وتنزيه لأحَدِيَّتِه في ملكوت السموات والارض وما بينهما. وكل فعل هو تعالى به عليم

و(إِنْ مِنْ شَيءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) فتسبيح اهل العقول تنزيههم اياه عن الشريك وتسبيح غيرهم دليل أحديّته سبحانه.

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (42)

ويبين المولى عز وجل ان الذي خلق هو الذي يملك. وأمّا غيره فمُلكُه استخلاف وتخويل منه يَنْزَعُه متى شاء. ومصير ذلك الى الله تعالى.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (43) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (44)

يخاطب المولى عز وجل رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأن يخبر عن ربه تعالى ما يُعرَفُ به من قدراته وجميل صفاته. وبهذا يكون المؤمن في كل ظواهر حياته متصلاً بالله تعالى. فهو جل شأنه المؤثر في الكون وأحداثه. ومن هذا القبيل انه يزجي (أي يسوق) حيث يشاء سحاباً، ويضم بعضَه الى بعض. وهذا الضم يُحدِث تصادما وتفريغاً كهربيا بين قِطَعِ السحب عرف العلماء به مسببات البرق وما يصدر بعد ذلك من رعد ثم يخرج الودق أي المطر من خلال ذلك فاذا هبت رياح باردة تَجَمّدَ القَطْرُ فاستحال الى بَرَد. فاذا بالماء المؤمّل منه أن يكون خيراً يصبح مصيبة على الزرع اذا لم يصرفه المولى عمن يشاء. والمقصود بالجبال دلالة على الضخامة والكثرة. ويبين تعالى ما يقدر من تعاقب اوجه الارض على النهار والليل كما جاء في شرح الآية الرابعة والستين بعد المائة من سورة البقرة مما يغني عن التكرار. وفي كل

ذلك عبرة لمن يتفكر في ما خلق الخالق جل علاه فيعلم انه الحق في احديته المنزهة عن كل شريك. وهكذا أقام المولى عز وجل في خاتمة الرسالات الحجج على وحدانيته لمن صفت معرفتهم بسلامة قلوبهم بعدما احدث الذين زاغت قلوبهم ما احدثوا من بِدَع في الرسالات السابقة فنسبوا لله تعالى الولد ونسبوا لغيره آثاراً من قدرته وأسباب نصره.

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (45) لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (46)

ويكشف المولى عز وجل قدرته في تعدد اصناف الأحياء الذين يَدِبُّونَ على وجه الارض. وجعل الماء أصلاً في خِلقتهم. فمنه النطفة التي تحمل سر الخِلْقَة ثم منها العظام واللحم والعصب ثم النمو في حياة وحركة ومنها المشي. وقد صنّفهم حسب المشي فالحية وأصنافها على البطن والإنسان على رجلين وغيرهم على أربع وغيرهم كما شاء لهم. وبعد بيان آيات قدرته في الطبيعة وفي الأحياء يبينها في عقل الإنسان وهو موطن الهداية إلى الإستقامة ويظهر فيها عدله الأمثل فهو لا يبخل بالهدى على من علم فيه خيراً، ولا يُحمِّلُ من لا خير فيه فيثقل عليه، بل يتركه في غفلة لا يرضى سواها. وبهذا يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. ويفصل سبحانه خصائصهم كما يأتي:

وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (47) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (48) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (49) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ

يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (50) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (51) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (52)

فالصنف الذي لم يستحق الهدى هم الذين يتخلفون في الجهاد في سبيل الله. وبهذا قامت الحجة على نفاقهم. اذ لو أنهم كانوا مؤمنين ولا شيء يعيقهم لبادروا بلا تردد لنصرة الله تعالى. وعندما يُدعون الى حكم الله يكون إذعان المنافقين للحكم اذعاناً غير مبني على ايمان بل على مصلحة لانهم عندما يرون الحكم لصالح غيرهم الذي معه الحق يُعرِضون ويطلبون تحكيماً آخر. فهولاء اما لمرض في قلوبهم لا يرون معه الحق حقاً، او لريبة تنفي عنهم صفة اليقين فيداخلهم شك في عدالة احكام الشريعة! وهذا من ظلمهم بما اشركوا وارتابوا فلم يتخذوا سبيلا للهدى. بينما الصنف المؤمن يلبي داعي الجهاد ويذعن لحكم الشريعة يحدوهم في ذلك رغبة في الطاعة، وخشية من المعصية، وتقوى من الزيغ في استقامة. وبهذا نالوا المشيئة بالهدى والبشارة نحو الفوز والنجاة.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (53)

ومن صفات الصنف المنافق ان سجيتهم الكذب ويدور في خَلَدِهم انهم لن يصدِّقهم احد فيلجأون للقَسَم كما فعلوا في هذه الاية انهم اقسموا لما يستقبل من الزمن بطاعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فكان الجواب المفحم لهم ان ما

اقسموا عليه لا يحتاج الى قَسم لأنه طاعة متفق على ضرورتها للمؤمن المخلص فالله تعالى خبير بالأعمال وما وراء كل عمل من سريرة.

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (54) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (56)

يخاطب المولى عز وجل رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ان يدعو المنافقين إلى الطاعة. فإن تولّوا فإن الله تعالى يبين لهم أن على الرسول تحمّل تبليغ الرسالة وعلى المبَلَّغين تحمل التَّبِعات. فيخاطبهم بذلك ويبين لهم سبيل الهدى بالطاعة. وعندها يتحقق وعد الله تعالى لمن آمن وعمل الصالحات منهم بأن يجعلهم على صحة الخلافة في الارض متمكنين من تنفيذ احكام ربهم وينصرهم سبحانه فلا يعودون الى حالة الخوف ما داموا على توحيد هَمّهم لإعلاء كلمة ربهم. فإن استحبوا الكفر فقد خرجوا من هذا الوعد. وامر تعالى بالقيام بما فرض في الصلاة والزكاة وبطاعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم (وتكون في إتّباع سنته من بعده) كسبب لنيل الرحمة الربانية، وتكرر الامر بالطاعة لوجوبها. وهذه الآية عامة لكل زمان. وشواهد التاريخ على تحققها واضحة.

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (57)

الذين كفروا في حرب مع الله تعالى ومع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم. وفي حسبانهم انهم على شيء من القدرة لا ينقضي اجله. ولكن الله تعالى قد أعدّ لهم مصيرين من القهر؛ فهم لن يفلتوا من أمر الله في حياتهم الدنيا، ولن يجدوا لهم مأوى سوى النار في الآخرة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (58) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (59)

يكون عادة الثياب الخارجية موضوعة عند النهوض قبل صلاة الفجر، وعند تخفيف الثياب للقيولة في الظهيرة، وعند هجعة الليل بعد صلاة العشاء. وهذه الأوقات تدعو الى إختلال التستر فيها. والعورة هي الخلل أي الفرجة بين شيئين فعند الرجل من السرة الى الركبة، وعند المرأة سائر جسدها سوى الوجه والكفين ووجهَي القدمين. والإستئذان في هذه الأحوال الثلاثة يُؤمر به من يساكن البيت من خدَمٍ ومن السكنة دون البلوغ وبعده (وفي ما يخص الأولاد؛ أوجب الأمر للبالغين منهم الإستئذان على كل حال أي في كل وقت، وهذا ما قاله سعيد بن جبير وذهب إليه الأوزاعي رحمهما الله تعالى). أما طواف البعض على البعض الآخر بعد هذه الاوقات فيكون بالدخول على الاهل في حجراتهم واجزاء البيت الاخرى المعدة للسكن او الاستراحة او الاعمال المنزلية. وهذا ما تقتضيه أسباب الطواف وبذلك

لا يحصل حرج لأهل الدار ولا للذين امر الله تعالى ان يستأذنوا. ولم تنسخ هاتان الآيتان لقوله تعالى: (وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ). وهذا الإستئذان ليس له علاقة بما جاء في الآية السابعة والعشرين والتي بعدها من هذه السورة بخصوص الغرباء.

وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (60)

يخبر المولى عز وجل النساء اللاتي بلغ بهن العمر ما لا تتشوَّف به المرأة الى الزواج، اذ لا ترجو الانجاب، بأن يضَعْن ثيابهن او يبقين على ما كُنَّ عليه قبل ذلك من التعفف. واما وضع الثياب فيقصد به الاردية التي تلبس فوق الملابس العادية المنزلية لغرض الخروج خارج البيت والتي تغطي الرأس وتحت الوجه الى القدمين وما تغطي الاكتاف والايدي الى الكفين ومنها الخمار أي غطاء الرأس والرداء الساتر لباقي البدن. واشترط المولى عز وجل لهن ان يتجنبن التبرج بالزينة وهو الخضاب والكحل والتزين بالحلي على الصدر والعنق والرأس والاذن والعضد والساق. ولكل موضع زينته الخاصة كالإكليل على الرأس والاقراط في الاذنين والقلادة على الصدر والسوار في المعصم والخلخال في القدم وهناك الوشاح والحزام وما اشبه. وأحَبَّ المولى عز وجل لهن التعفف وجعله خيراً لهن من وضع الثياب فالمرأة الجليلة اَولى بها اختيارُ الافضل.

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا

فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (61)

كانت اسباب الحرج كثيرة في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بسبب الخروج للغزو ولا يزال في كل زمان ومكان حصول حرج اجتماعي في العلاقات اليومية. ومن قبيل ذلك الاكل في غير بيت الرجل واكل ذوي البلاء في غير بيوتهم. واكل الوكلاء وأوصياء القاصرين في بيوت موكليهم او الذين يقومون على رعايتهم. ومن قبيل ذلك ضرورات اكل الاجير في بستان مستأجره او الراعي من لبن ماشية يملكها غيره او العبيد في بيوت مواليهم. كما كان الغزاة يوكلون القاعدين من الرجال ويعطونهم مفاتيح بيوتهم فيتحرج هؤلاء الوكلاء من الاكل من مال موكليهم وان كانوا قد أُذِن لهم. كما كان الذي يأكل مع الاعمى يتحرج من ذلك خشية فوات لذيذ الاكل على الاعمى. وقد رفع المولى عز وجل هذا الحرج بأن رخص تناول الطعام في بيوت من ذُكِروا في هذه الآية. وتشمل كلمة (بيوتكم) بيوت الابناء والزوجات فقد ورد في مسند الامام احمد قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((أنت ومالُك لأبيك)). كما رُفِع الحرج عن المؤمن من إصطحاب ذوي البلاء الى بيوت الاقارب المذكورين لإطعامهم ان لم يكن بإمكان الرجل ايصال الطعام اليهم. ويستدل من الآية كما ذهب اليه الامام ابي حنيفة والامام احمد بن حنبل على وجوب النفقة على ذوي البلاء وتقديم حوائجهم اليهم. واما الاكل مع الجماعة او منفرداً فقد رفع الحرج فيه بتخيير الاكل في كلتا الحالتين من غير تفضيل سوى ما ذكر في مسند الامام احمد عن رجل قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم "انا نأكل ولا نشبع!" قال ((لعلكم تأكلون متفرقين؟ اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله

يُبارَكْ لكم فيه)). وذكر غيره من حديث في الاكل جماعةً ومن هذا القبيل ما رواه ابن ماجه عن عمر رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((كلوا جميعاً ولا تَفَرَّقُوا فإن البركة مع الجماعة)). واما التحية من عند الله تعالى التي جعلها مباركة تطيب بها النفوس فقد اوضح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ما رواه البزار عن انس رضي الله تعالى عنه قال ((يأنس إسبغ (أي أتمم) الوضوء يُزَدْ في عُمُرِك وسلم على من لقيت من امتي تكثر حسناتك واذا دخلت (يعني بيتك) فسلِّم على اهلك يكثُرْ خيرُ بيتِك وصلِّ صلاة الضحى فانها صلاة الأوّابين قبلك، يا أنس إرحم الصغير ووقر الكبير تكُنْ من رفقائي يوم القيامة)). وعن السلام ورد في تفسير ابن كثير ((اذا دخلت المسجد فقل السلام على رسول الله)). واما السلام على الاهل فهو الشائع بقول الداخل السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. واما من الدخول الى بيت ليس فيه احد فقد اوصى مجاهد رحمه الله ان يقول الداخل "بسم الله والحمد لله السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين". وينبغي تدبُّر هذه الوصايا وهذه الاحكام التي بيَّنها الله تعالى هنا لكي تُدْرِكَ العقول فوائدها لقوله تعالى: ((لَعَلَّكُم تَعْقِلُونَ)).

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (62)

الامر الجامع هنا اما ان يكون للجهاد او للشورى او للتدبر في امور المسلمين ومواجهة كل شأن يهم الجميع. وهنا يبين الله تعالى اهمية ان يكون المؤمنون مع الرسول او أُولي الامر في الامور التي تهم المسلمين اهمية عظيمة كالجهاد والكوارث.

فاذا طلب أُوْلو الامر اجتماع ذوي الحل والعقد واجتمعوا فلا ينبغي ترك الاجتماع بـدون اذن ولي الامـر. ولِـوَلِيِّ الامـر ان يأذن او ان لا يأذن لأن الاذن انمـا يكـون لشـأن خـاص لا يهـم المجمـوع ويسـن في ذلـك الإسـتغفار بعـد الإذن لمـن إسـتأذن. وأكد الله تعالى أنه غفور رحيم يلبي طلب المغفرة من ولي الأمر لمن دعا له.

لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63)

يبين المولى عز وجل اهمية تلبية طلب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إذا دعا للاجتماع لانه ليس بأمر اعتيادي مما يحدث بين افراد جماعة معينة. وحذر تعالى من مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تجنباً لواحدة من عقوبتين اما الفتنة أي الضلال بعد الهدى واما العذاب الاليم ومنه القتل، والقتل أهون من زوال الإيمان. وفي هذا التحذير عبرة لمخالفة أُولي الأمر من المؤمنين.

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (64)

يُذَكِّر تعالى عبادَه في ختام السورة المحكمة هذه انه وليُّ أمرِ السماوات ومن فيها والارض ومن فيها وما فيها. وهو العالم حقاً بما يكون عليه عبادُه من عملٍ وعبادةٍ وحالٍ وقولٍ وخُلُقٍ وسوف يأتي اليوم الذي يواجههم بكل صغيرة وكبيرة من أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم وأخلاقهم فهو العليم بكل شيء.

سورة الفرقان

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1)

من كلمات التعظيم التي عرّف المولى بها ذاته الجليلة كلمة (تبارك). وهي دليل تكاثر فضله وخيراته، وهو اعظم واكثر. وما من خير حصل إلا ببركاته وبفضله فهو مصدر الفضل والخير. ومن هذا الخير رحمته تعالى في رسالته ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم. إذ نزّل الفرقان وبه تميز الحق عن الباطل. وقد أنزل القرآن متفرّقاً وأنزل ما قبله جملةً واحدة. أنزل احكامه وعلومه متتابعة ليثبِّت به فؤاد رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ويكون نذيراً لمن بلغه من الانس والجن. ينذرهم رقابة الله تعالى، واحاطة علمه وعدل حسابه ويبيّن الحلال ليُرتَضَى ويبيّن الحرام ليُجتَنَب، ويبيّن الحق ليُتّبع ويبيّن الباطلَ ويحذر منه. وتَرَكَ الخيار بعد كل ذلك لمن شاء أن يستقيم.

الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2)

بعدما بيّن سبحانه إنذاره في القرآن للعالمين يبيّن إنفراده في ملك السماوات والأرض وتنزيه ربوبيته عن الولد والشريك فقد خلق كل شيء وهيأه لما خُلِق له بتقدير ضَلَّ عنه المشركون فقال:

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (3)

هكذا بيّن تعالى ضلال المشركين بإتخاذهم آلهة من دونه تعالى عاجزةٍ عن خلق أي شيء ولا يملكون لأنفسهم شيئاً مما يملكه لهم ولغيرهم من نفع وضر ولا يملكون ما إنفرد به من قدرة في الموت أولاً ثم الحياة الأولى ثم الموت ثم إحياء الموتى ونشورهم أي بعثهم للحساب يوم القيامة.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (4) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (5) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (6) وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (7) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (8) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (9)

ماذا كان موقف اهل الضلال من الرسالة المبينة والرسول المبين والمحجة البيضاء؟ لقد اتجه تفكيرهم الى أنّ ما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم إفتراء! وهنا تحيروا في مصدر الأمر هل جاء به من عنده، ام ان قوماً آخرين أعانوه، أم جاء بأساطيرَ مما سمعوه من اساطير الاولين يمليها عليه غيره فيكتتبها وينسبها للوحي؟! بينما الإفتراء كان ظلما منهم. فالرسول عليه الصلاة والسلام أُمّيٌّ لم يكن يخط حرفاً بيمينه. معروف عنه الصدق طيلة عُمُرٍ قضاه بينهم. ولا يمكن لبشرٍ أن يأتيَ بآية معجزة كآيات القرآن. وفاجأهم جواب المولى تعالى يقوله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لهم بأن الْمُنزَلَ من الذكر جاء من عالِمِ الغيب والشهادة وعالِمِ كلِّ خَفِيٍّ في السماوات والأرض. فقد اشتمل القرآن على الغيوب التي لا يملك مخلوق ان يأتي بما لا يعلم تَحَقُّقَهُ منها. وان المولى عز وجل أمهلَهم على تكذيبهم بما اتصف

به من مغفرة ورحمة. وعادوا الى التفكير الحائر في أمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: "ما لهذا الرسول؟" (وإشارتهم للإستهانة وليس إعترافاً بصفته كرسول) يأكل الطعام ويمشي في الأسواق! أي انه يماثلهم في الاكل والكسب. وتساءلوا: لِمَ لَمْ يَنزِلْ معه مَلَكٌ ولِمَ لَم يُمَلِّكْه الله تعالى كنْزاً او بساتين يأكل منها ويكرمهم منها؟ وذهب الظالمون منهم أي أشَدُّهم تكذيباً الى ان الرجل مسحور (حاشاه صلى الله عليه وآله وسلم). والمسحور عندهم يكون ذا سحر أي يتحدث بالتنبؤات كالكُهّان. وهكذا تناقضوا في حكمهم على الرسالة وعلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بتشبيهات أي امثال اخذتهم بعيداً عن الهدى والحق ولا يجدون طريقاً إليهما يسلكانه.

تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا (10) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (11) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (12) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (13) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (14)

عظيمٌ خير الله تعالى! لو شاء لرسوله أن يُمَلِّكه الجنان والقصور لفعل، ولكن الحكمة تقضي من أجْل أداء حق الرسالة أن لا يحصل ذلك. ثم بيّن تعالى ان هؤلاء الكفار لم يصدِّقوا بالبعث بعد الموت. وبهذا لم يعرفوا للقدير قدراً. فالذي انشأهم أولاً اقدر على اعادة الخلق الذي بدأه. لذا فالسعير أي النار التي لا تخمد ستكون مصيراً لهم. حتى إذا كانوا على مرأى من موقعها سمعوا زفرات غضبها وزفيرها. وعليها زبانية يُلقُونَهم في مكان ضيق مُقرّنين أي مقيدين إما مع قرنائهم من الشياطين او بالسلاسل التي تشد ايديهم الى اعناقهم مثلما كانوا قد قيدوا انفسهم

بالشرك في الدنيا. وعندئذ تبدر منهم آهات الندامة يدعون: (وا ثبوراه) أي يطلبون الهلاك. فيقال لهم تحقيراً: أُدعُوا ثبوراً كثيراً.

قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (15) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (16)

ويوجه المولى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم الى التساؤل: أذلك خير أم مراتع السعادة في خلود لا موت بعده في جنة يؤول اليها مصير المتقين تنفيذاً للوعد الحق؟ وعندها يبدل حالهم الى انطلاق في نعيم لا ينفد وحرية في اختيار ما تشتهيه انفسهم التي صبرت على مكاره الدنيا. ويتفضل سبحانه بفضل منه وكرامة وهو اهل الجود والكرم بأن ما بينه من نعيم هو عهد عليه يوفيه. فلا بد ان يتحقق ذلك. واما من الذي يسأل الله تعالى عن وعده؟ فقد ورد في التفاسير هم المؤمنون لقوله تعالى في سورة آل عمران ((رَبَّنَا وَآتِنا مَا وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنا يَوْمَ القِيَامَةِ إنَّكَ لا تُخْلِفُ المِيعَادَ)) الاية الرابعة والتسعين بعد المائة. وقيل هم الملائكة قبل ذلك يقولون كما جاء في سورة المؤمن: ((رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُم جَنَّاتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدْتَهُم..)) الآية الثامنة منها.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (17) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (18) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (19)

يوم الحشر هو يوم جَمْعِ الناس يبعثهم المولى عزّ وجلّ للحساب، يومئذٍ يأتي تعالى بأُولئك الذين أتتهم الرسل بالحق ولكنهم أعرضوا وعبدوا اصناماً او اوثاناً او ملائكة او بشراً مثلهم، ويأتيهم بالمعبودين من دونه سبحانه، (إلا الذين سبقت لهم من الله تعالى الحُسْنى الوارد ذكرهم في الآية الحادية بعد المئة من سورة الأنبياء)، لِيُسْألوا إن كانوا قد دَعَوا أُولئك المشركين إلى عبادتهم أم بادرهم المشركون بتلك العبادة؟ فيُنطِقُهم الله تعالى فيتبرّأون من تلك العبادة الباطلة مُسبحين مُقِرّين له بالوحدانية وبأن المشركين تمادَوا في الطغيان بما تمتعوا به في الأموال والأولاد والسلامة فشُغِلوا عن ذكر الله تعالى وتوحيده وكانوا قوماً بورا (هلكى). ثم يوجه الخطاب لهؤلاء الهلكى بأن معبوديهم شهدوا عليهم بالكذب فما لهم من منفذ ينصرفون منه عن العذاب، ولا ناصرَ يشفع لهم. وبعد هذا الايضاح يأتي النذير لمشركي قريش وغيرهم من بعدهم بأنّ من يَظلمْ، أي يشركْ بالله سبحانه، فسوف يذيقه المولى القدير عذاباً كبيراً أي عذاب خلود الكفار في النار.

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (20)

في مواضع عديدة يبين تعالى بأن رسلَه الكرام عليهم الصلاة والسلام كانوا كغيرهم من البشر في حاجة للطعام والكسب. واثبت بهذا سبحانه أنهم أُسوة حسنة فقد منحهم كمال الاخلاق والفضيلة مع اختياره إياهم لرسالاته وما يستلزمه ذلك من معجزات وادلة ظاهرة على صدقهم. ثم صَدَقَهم الوعد بنصرهم او نجاتهم. وهم الذين يُمَيَّز بهم المؤمن من العاصي بطاعتهم أو مخالفتهم. وبهذا إبتلى بهم المكذّبين وابتلاهم بالمكذبين وجعل الله تعالى الصبر مع الانبياء في جهادهم

ودعواتهم حجةً على صدق المؤمنين وطاعتهم وهو البصير بالنوايا والهِمَمِ في نصر دينه.

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (21) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (22) وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (24)

اهل الزيغ من الذين لم يؤمنوا بلقاء الله تعالى لم يأملوه اذ لو آمنوا لخافوا العذاب ولرَجَوا الرحمة. ولكنهم عَتَوا (أي تجاوزوا) أقدارَ انفسهم وتَعَدَّوا حد الظلم بطلب رؤية الملائكة تُنْزَل عليهم او اكثر من ذلك رؤية الله تعالى! وأنّى يحصل ذلك مع ضعف البشر عن هذين المطلبين اذ ان الملائكة من غير مادة مما تراه اعين البشر. بل يكشف للمحتضرين منهم رؤية من يقبضهم من الملائكة ولا بشرى لهم يوم يرون الملائكة فهو يوم نهاية حياتهم الدنيا ولا يمكن لهم ان يستبشروا وهم في يأس وندامة على ما فاتهم. اذ يرون أعمالهم ليس لها اساس من الايمان. ويسمعون قول الملائكة "حجرا محجورا" أي يَحْجُرُون عليهم (يحرمونهم) البشرى بالنجاة. وأما ما عملوا من خير فيصبح هباء منثوراً أي متفرقا مبعثرا (والهباء هو ما تظهره اشعة الشمس من الغبار وغيره اذا دخلت من مَنفَذٍ) فقد حصل اجرهم في الدنيا إذ لم يعملوا للاخرة التي لم يؤمنوا بها. واما اصحاب الجنة يوم يرون الملائكة فإن البشارة تأتيهم برؤية منازلهم في مستقرهم أي المكان الذي يكون فيه اغلب اقامتهم ولهم فيها مقيل أي مواضع الاستراحة والخلوة. واما اوصاف الجنة فقد وردت فيها احاديث تبين ما خلق الله تعالى فيها وهيّأ لمن فاز بها تحت ظل عرش ربه العظيم.

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (25) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (26) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (29)

وزيادة في النذير يذكِّر المولى سبحانه باليوم الموعود حيث تبدو السماء من خلال الغمام وكأنّها قد أُحدِثت فيها الشقوق. والغمام هو اكثر السحب ضياءً ونوراً ساطعاً يبهر العيون وعندها يكون جمع الخلائق في المحشر فتحيط الملائكة بهم ويقام العدل بين الناس: لهم او عليهم. فيكون العدل عسيراً على الكافر ويبلغ به العسر والندامة الى عض يديه متحسراً على فوات النعيم الذي أضَلَّهُ عنه خليلٌ له في الدنيا إتّبع خطوات الشيطان فأغوى صاحبه هذا ويا ليته لم يُطِعْه ولم يعصِ الرسول ولم يضلَّ عن القرآن. وهكذا في إتِّباع الشيطان خذلانٌ لأتباعه من الضالين.

وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (31)

عبَّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن إعراض المشركين لدى سماع القرآن وعن اللغو فيه عندما يتلى بأنهم إتخذوه مهجوراً. ويذكِّره المولى تعالى بأن هذا ما حصل للانبياء من قَبله مع مجرمي زمانهم من الكفار. وأنّ عليه البلاغ وكفى بالله تعالى للمؤمنين الذين هداهم ان ينصرهم. وقد نزلت الآيتان بعدما اثر في نفسه قيام المشركين بصدِّ الناس عن إتباعه ايام الدعوة في مكة فأسماهم الله تعالى بالمجرمين

اعداء الانبياء. وفي التفاسير أن من أنواع هجر القرآن: ترك الإيمان به، وترك العمل به، وترك الإصغاء إليه وتدبُّرِه، ومنها إتِّباع طريقة مأخوذة من غيره.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (32) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (33) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (34)

غفل كفار قريش عن المقاصد الربانية في نزول التوراة جُمْلَةً واحدة وفي نزول القرآن متفرقا على مدى سنوات في مكة آنذاك فانكروا نزول القرآن متفرقاً فقال تعالى (لنثبت به فؤادك). فقد كان سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام في مجتمعٍ مؤمنٍ من بني اسرائيل لأنّهم آمنوا كما جاء في الآية الثالثة والثمانين من سورة يونس. فلا بد لهم من أحكامٍ تامةٍ ليسيروا وفقها ويُحكَموا بها فنزلت جملة واحدة، واما سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد أُرسِل الى الناس كافة، وأوّلهم المجتمع المكي وكان في جاهلية الاصنام بين كافر ومشرك، إلا آحاداً من الموحدين. وهذه السورة مكية وهذا ينطبق على نزول القرآن في المدينة ايضاً في ما بعد فقد ظهر منافقون من مكة والمدينة وبين الأعراب، وظهر منكرون من اهل الكتاب. وهدى الله تعالى اصحاباً ازداد عددهم بالتدرج فكان لا بد من تعدد احوال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: من داعية يضطهده قومه، الى مهاجر يُعِدّ للجهاد، الى مجاهد لاعلاء كلمة الله تعالى، الى منتصر ابدَله الله تعالى واتباعه من بعد خوفهم أمنا يحكمهم حكم الله تعالى في كافة امور حياتهم ايماناً وجهاداً وأحكاماً ومعاملات. فكان القرآن الكريم ينزل موجّهاً لفؤاده الشريف الوجهة الثابتة ومرتلاً للتبيين، أي مُقَدّراً تقديراً في تتابع سُوَرِه وآياته. وجاء بالحق والتفسير الأمثل لكل مثل باطل من

الكفار الذين كانوا على أشدّ الطرق ضلالاً في أسوأ المواجهة مع الحق. وتوعَّدهم بأنهم كما اشاحوا بوجوههم عنه بأن يحشرهم على وجوههم الى جهنم. فإنهم في شرِّ مكان وأضلِّ سبيل.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (35) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (36) وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (37) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (38) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (39) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (40)

يذكر تعالى في هذه الآيات أقواماً من الهالكين الذين كذبوا الرسل فقد دمَّر الله تعالى مَن كذّب موسى بالغرق، واغرق من كذّب نوحاً وجعلهم عبرة، وأهلك من كذب هوداً وصالحاً (عليهم الصلاة والسلام) واهلك اصحاب الرس (وهو بئر ولم يُوضَّح رسولُهم في القرآن) وقروناً آخرين كقوم تُبّع واصحاب الأيكة اتتهم الرسل بالحجج الواضحة فكذبوهم فتبرهم (أهلكهم) في الدنيا وأعدّ لهم عذاب الآخرة. ويذكِّر تعالى أهل مكة بهلاك قوم لوط عليه الصلاة والسلام اذ يمرون في رحلتهم الى الشام على قرية أُولئك القوم والتي أُمطِرت بالحجارة. ولكن أنّى لهم العبرة وهم يكفرون بلقاء الله تعالى ولهذا لا يخشون ما لا يؤمنون به فأساءوا سلوكهم مع آياته سبحانه.

وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (41) إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا

(42) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (43) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44)

أوهام الشرك والكفر جعلت أهلهما يرون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم غير جدير بأن يختاره الله تعالى لرسالته! وتجاهلوا الكمال فيه فنسبوا له النقص والعيب واعتبروه ضالاً مضلاً حاشاه. وبلغ بهم الضلال ان اعتزوا بما كانوا عليه من عبادة الاصنام واعتبروا ثباتهم على ذلك صبراً. وتوعدهم المولى على ذلك بانهم سيعلمون الضالَّ من الصادق ولكن عندما يُقْبِلون مرغَمين على عذابِ مَن تولّى وكفر. وينبّه المولى عز وجل إلى حقيقة عبادتهم وهي اتجاههم نحو هوى انفسهم من غير تبصر. فما على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلا البلاغ فلا يُسأل عن زيغهم فاكثرهم يزيغون عن السمع كأنهم يُخاطَبون بلغة لا يعرفونها شأنهم شأن الأنعام. ولا يرجعون الى عقولهم فهم أضَلُّ من الأنعام التي لا عقل لها. وبهذا إشارة إلى ترك الإهتمام بهم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (46) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (47)

يبين المولى تعالى قدرته في ما خلق. فالشمس عندما تشرق تكون قريبة من الافق في الظاهر، ويكون ظل الاشباح طويلاً طولاً يتقلص كلما ارتفعت الشمس ثم يعود الى الطول قبيل المغيب، ثم يزول حتى إسفار الفجر. ولو شاء الله للشمس أن لا تغيب لأمر بذلك فيبقى الظل ملازماً للجسم ساكنا. وقريب من هذا ما يحصل

في اقصى القطب الشمالي صيفاً حيث ظاهرة تحرك الشمس بين المغيب والفجر مع الافق واضحة. ولو كانت الكرة الأرضية تدور حول محور متجه في شماله الى الشمس لأصبح الظل ساكناً والشمس متعامدة عليه على الدوام فسبحان مقدر الليل والنهار. وقبض سبحانه محور الارض اليه بإنحرافٍ بثلاثٍ وعشرين درجة ونصف الدرجة فحصل ما ذكرتُه في الاية الرابعة والستين بعد المائة من سورة البقرة. وهكذا سبحانه جعل الليل للسكون، والناس قد لفّهم الظلام وخَلَدوا الى الراحة، وجعل النوم حداً قاطعاً بين الحركة والسكون أي سباتاً وهو الراحة. فإذا أشرقت الشمس دعت الناس للمعايش فانتشروا في طلبها. وفي هذه الظاهرة اليومية ما فيها من العبر: فالسبات كالموت، والنشور كالبعث، وفي تعاقب الليل والنهار تَقَرّبٌ نحو النهاية واللقاء.

وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (49) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (50)

الرياح هي المسخرة لإثارة البخار وحمل السحب. فلذلك عندما يرسلها المولى عز وجل تهب فتسبق نزول المطر في موسم الحاجة إليه تكون بشارة بنُزوله ماءً لا شائبة فيه ولا شبهة في صفائه وطُهْرِهِ جاعلاً منه سبحانه العامل في إحياء الآمال لنمو الزرع وللرعي بعد قحط وجفاف. وبهذا تدوم حياة الانسان وغيره من الأحياء. واما تصريف الماء في تفاوت كميته بين سَنَةٍ وأُخرى فهو سبب من أسباب التفكير بتدبير الله تعالى وحكمته. فمن كفر يؤوِّل تفاوتَ الكمية بأنه حصل بتأثير

الكواكب فقال تعالى عنهم ((فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا)). وقليلٌ من عباده الشَكور.

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (51) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52)

النذير نبي يدعو الى الله وينذر عذابه. وقد ختم الله تعالى رُسُلَه بسيدنا محمد صلى الله عليهم وآله وسلم إذ أرسله إلى الناس كافة من غير أن يكون نبي آخر معاصراً له. وبيّن تعالى له ما يواجه به أي دعوة للكافرين بأن لا يستجيب لها بل يجاهدَهم مستعيناً بالله تعالى من كلامه الذي له الوقع الكبير. والخطاب أيضاً للمؤمنين بالثبات وتفضيل رضوان الله تعالى على أهواء الكفرة.

وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (53) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (54) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (55) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (56)

البحر العذب هو الصالح للشرب والسقي أي الانهار وموارد المياه العذبة الاخرى. والبحر المالح الأُجاج هو البحار والبحيرات الكبيرة والأهوار. فاما البحر العذب فقد مَرَجَه المولى القدير أي ارسله في الارض في تصريفٍ حكيم متعدد الظهور؛ فهو ينابيع مرئية، أو آبار لا يُرى ماؤها بل يستقى منها في البوادي والمدن، أو جداول وانهار تنشأ على شواطئها المدن والقرى، يرسلها المولى تعالى من مياه المطر المحفوظة في جوف الارض أو الجامدة في سفوح الجبال. واما البحر الملح فلأنه

ملحٌ لا تتغير رائحته وتحصره شواطئ يتحرك داخلها بتيارات مائية فيكون بخاره نقياً طيب الرائحة لِتَسوقَه الرياحُ فينزلَ قَطْرُه عذباً. وجعل من تضاريس الارض وتفاوت الكثافة برزخاً (حائلاً) يحول دون امتزاج البحرين او النهرين. وجعل من سطح الارض حِجراً محجوراً أي ستراً ممنوعاً للمياه سواءً على السطح أو بين المياه الجوفية. ولله الامر والله أعلم. وبعد بيان توزيع المياه العذبة وانتشار الحياة على ضفاف الانهر وحول الآبار والسدود كشف سبحانه انه خلق من الماء بشراً أي من النطفة التي قوامها الماء وما خلق الله تعالى فيها. قال تعالى في سورة السجدة (ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ) وأقرّها في الأرحام بمشيئته. ثم جعل قرابات بالنسب والمصاهرة. وهو وحده الذي يُقَدِّرُ كلّ ذلك. ويقرّع المولى القدير من يتخذون معبوداً سواه لا نفع منه ولا يضرّهم. فكل ما يجري عليهم هو من أمر الله ولكن الكافر لا يهتدي لهذا وينصر آلهته الباطلة الموهومة ولا ينتصر للدعوة لعبادة الله وحده سبحانه وقد جاء بها رسول السلام صلى الله عليه وآله وسلم اذ دعا الناس كافة لعبادة الواحد القهار ويبشر المؤمنين وينذر الكافرين.

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (57) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (58) الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (59) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (60)

المبشر والنذير كما جاء في الآية السابقة صلى الله عليه وآله وسلم مرسلٌ من ربه للتبليغ الذي لا يطلب عليه أجراً بينما يترك الاختيار لمن يريد الوصول الى

رضوان الله تعالى. وعندئذ يكون المؤمنون المطيعون قد بعثوا الرضا في نفس الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي اراد الخير برسالة السماء الى الناس كافة متوكّلاً في سلوكه بالطاعة لما يوجهه اليه مولاه تعالى من غير توكل على النفس بل على الاوامر الربانية فهي اسباب التوفيق. ويحمل التوكل على الله تعالى ثناءً عليه تسبيحاً بحمده بأنه يتولى المتوكل ولا يكله الى غيره. كما ان غيره لا يلمّ بذنوب العباد ليعامل التائب خلاف معاملته للفاسق. وليس لغيره اثر في خلق السموات والارض وقد قدّر مدة خلقها بالايام التي يعرفها هو، وهي أيامه اذ لم تكن ارض تدور حول الشمس لكي يكون الجزء الذي يواجهها في نهار ويكون الذي لا يواجهها في ليل فتحصل الايام المعروفة للناس. واستواؤه تعالى على العرش اشارة الى تولي الامور وتصريف ارادته في خلقه بصفة الرحمن التي يرحم بها المؤمن والكافر. وافضل من له المعرفة الصافية بالله تعالى هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي بيّن ان الرحمن يرحم المؤمن والكافر في الحياة الدنيا. وكان كفار قريش لا يعرفون لِلَّهِ تعالى إسْمَيهِ: (الرحمن الرحيم). ففي صلح الحديبية قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لكاتبهم (اكتب بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) قال: لا نعرف الرحمن الرحيم ولكن اكتب كما كنت تكتب (باسمك اللهم). ولهذا عندما طلب اليهم طاعة الرحمن والسجود له قالوا: (وما الرحمن) وانكروا سجودهم لمن لا يعرفون فلم يستجيبوا لأمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. وهكذا ازدادوا بعداً عن الايمان ونفروا منه. وهذه الآية فيها سجدة تلاوة بعدها القعود فالتشهد فالسلام.

تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (61) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (62)

البرج هو الجزء المرئي من السماء ليلاً في الموقع الذي تشرق فيه الشمس نهاراً. ولكل جزء أي برج مدةُ شهرٍ وله اسمه المستمد من الشكل الذي يظهر فيما لو سحبنا خطاً متخَيّلاً بين النجوم والكواكب الاكبر حجماً المتواجدة في ذلك البرج. فمن هذه الاشكال ما يشبه الميزان، ومنها ما يشبه الدلو وهكذا. واما السراج المنير ففي التفاسير هو الشمس. وهي مصدر نور القمر ليلاً حيث يبدو للارض الجزء الذي تشرق عليه الشمس فاذا كان القمر في دورانه حول الارض مواجهاً للشمس كان بدراً لأن الارض تكون بينهما فيرى أهلها الوجه المنير كاملاً. واذا كان القمر بين الشمس والارض فإن وجهه المنير لا يمكن رؤيته في الارض لمواجهة الوجه المظلم لها. فاذا تزحزح في اليوم التالي بمدة اثنين وخمسين دقيقة رؤي مبتعداً عن موقع غروب الشمس فيكون الجزء المرئي منه الحافة الجنوبية له بالنسبة للارض على شكل هلال. وهكذا يتأخر غروبه كل يوم باثنين وخمسين دقيقة فيكبر الجزء المنير حتى يبدر. ثم يظهر الجزء المظلم منه فيتراجع المنير إلى الوجه الذي لا تراه الأرض حتى يبقى منه هلالٌ قبل اليوم الاخير من الشهر القمري ويشاهد فجراً قبل شروق الشمس. وهكذا فسبحان مقدر الليل والنهار. وهذا من قدرته وحده سبحانه أي لا يمكن لغيره ان يجعل دوران الارض حول الشمس ودوران القمر حول الارض بهذا التوقيت المحكم. واما قوله تعالى (خِلفة) لليل والنهار فهذا بالنسبة لأهل الارض يتعاقب عليهم ضوء الشمس مع دوام وجود الليل والنهار يلفان الكرة الارضية. وبهذا تتعين اوقات الصلوات وفيها ذكر الله تعالى وذكر نعمائه وأداء ما فرض على عباده وقضاء ما يفوت نهاراً بالليل وما يفوت في الليل بالنهار.

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا
(63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ
جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ
يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا
يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68)
يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا
صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (70) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ
صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا
كِرَامًا (72) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (73) وَالَّذِينَ
يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74) أُولَئِكَ
يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (75) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا
وَمُقَامًا (76) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (77)

المشي الْهَوْن هو المشي بوقار وسكينة بلا استكبار او مرح او بطر. فالمؤمنون لا يُبدون ذلك في المشي رياءً او تمارضاً او تصنّعاً، بل تكون القوة ظاهرة في المشي. واما المخاطبة من اهل الجهل فتكون عادة ذات شدة ولا تليق بالمؤمن الحليم أن يقابلها بالمثل. وقد روى الامام احمد في مسنده عن النعمان بن مقرن الْمُزَنِي رضي الله عنه قال: سبَّ رجلٌ رجلاً عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجعل المسبوب يقول: عليك السلام، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((أمَا إنّ مَلَكاً بينكما يذُبُّ عنك كلما شتمك هذا قال له: بل انت وانت أحَقُّ به. واذا قلت له وعليك السلام. قال: لا بل عليك وانت أحَقُّ به)). والسلام هذا قول سديد ليس فيه منكر فلا يغضب المؤمن إلا لدينه. والسورة مكية أيام أذى قريش.

واما ليل المؤمنين الذين وصفهم تعالى بـ(عباد الرحمن) فهو ليلُ عبادةٍ ورجاءِ رحمةٍ وخَشيةِ عذابٍ فقد وَصفهم بصفات تُرجى بها رحمته بأنهم يقولون (ربنا اصرف عنا عذاب جهنم). فعذاب جهنم غرام أي لا ينفك عن المعذبين. واشار تعالى الى صفة التصرف بالمال بلا تبذير ولا بخل فكلاهما من الادواء التي تضر دين المؤمن. وقيل في التبذير بأنه النفقة في ما جاوز العبد به امر الله تعالى أي النفقة في معصية أو مكروه. واما النفقة في سبيل الله تعالى وفي ما أباحه من غير إسراف فليس فيها تبذير. واما الاشارة للبخل فمتعددة؛ منها التقصير على العيال، وغمط حقوق ذوي القربى في المال الذي يزيد عن الحاجة، وتفضيل خَزْن المال على ايتاء اليتامى والمساكين وابناء السبيل وفي سبيل الله سبحانه وهو الغني الحميد. والبخل يورث الجبن والغمّ ويورث الندامة ساعة الموت، وامّا الشرك فظاهرٌ وخفيٌّ ويُعرَف بحب العمل لغير الله تعالى، ورؤية النعمة من غيره، وايثار عمل الدنيا بالملذات على عمل الآخرة بالطاعات. واما قتل النفس بغير موجب شرعي للقتل فمن السبع الموبقات التي هي السبع الموجبات لجهنم من الكبائر. وحق القتيل بعد قتله ظلما هو القصاص. واما الزنا؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (في ما رواه ابن ابي الدنيا عن الهيثم بن مالك الطائي): ((ما من ذنب بعد الشرك اعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحمٍ لا يَحِلُّ له)). ثم فتح المولى عز وجل باب التوبة من كل إثم. وفيها الندم والاصرار على ترك ما كان من الآثام والتحول الى العمل الصالح. وبذلك يوفق الله تعالى التائبين كما وعد بإبدالهم بالحسنات بدل السيئات فيحبب اليهم الحسنة ويكرّهِ اليهم الكفر والفسوق والعصيان، ويستجيب دعاءهم الصالح ويغفر لهم في الآخرة ما تابوا عنه. واما شهادة الزور فهي نظرة رضا إلى

الباطل من كفر وكذب وفسوق. وكذلك يعتبر من شهادة الزور حضور مجالس اهل الفسق والخمر. ومنه قول الكذب من قبل شاهد اذا دُعِيَ الى شهادة حق. وفي صحيح البخاري عن ابي بكرة رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((ألا أُنَبِّئُكم بأكبرِ الكبائر)) ثلاثاً؟ قلنا: "بلى يا رسول الله" قال ((الشرك بالله وعقوق الوالدين)) وكان مُتَّكِئاً فجلس فقال ((ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور)) فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت". وأكّد تعالى ترك حضور الزور فقال: ((واذا مرّوا باللغو مرّوا كراما)) فمن الكرم أي سمو الخلق الإعراض عن اللغو، وفي التفاسير هو غناء الغواني ولا سيما ما فيه ما يسخط. واما آيات الله في نفوس عباد الرحمن فوطيدة تتفتح لها عيونهم واسماعهم فيعي احدهم موقفه منها مستبصراً مطيعاً. فهي الحق، والحق أحَقُّ أنْ يُتّبع. وهذا معنى ((لم يخروا عليها صُمّاً وعميانا))، أي تمسكوا بها ولم يتجاهلوها كمن هو أعمى وأصم. واما الازواج والذرية فمنهم من يُقْلِقُ الزوج او الأب فلا ترتاح له العيون وقد فتح الله تعالى قلوب المؤمنين للايمان فاذا كانت الزوجات او الذرية على طرفي نقيض معهم فكيف يهدأ لهم بال؟ وهذا ما يدعوهم أن يطلبوا من العلي القدير ان يكتب لهم من الازواج والذرية من يطيع الله تعالى ويعبده وبذلك تَقَرُّ أعينهم أي يطمئنون على مصيرهم وعلى بِرِّهِم ودعائهم له بعد موته. فقد روى مسلم في صحيحه عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((اذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، او علم ينتفع به من بعده، او صدقة جارية)). وكذلك يطلب المؤمن ان يكون بين المتقين على حال حسن يُقتدى به في الخير فيكتب لهم به عمل صالح كالعلم النافع والصدقة الجارية، ولا يطلب إظهار عمله

الصالح إلا للإقتداء به، وقد قيل: إن حُبَّ الظهورِ يكسر الظهورَ! وبعد وصف العباد المؤمنين يبشرهم تعالى بالغُرفَةِ وهي المنزلة العالية لأن تسمية: (الغُرَف) تطلق على ما كان في الطوابق العليا، والحجرة تطلق على ما كان في الطابق الارضي. واعتبر تعالى هذه الصفات الحميدة والاعمال الجليلة صبراً للمؤمن على الطاعة وبهذا تُنال الدرجات فقال ((بما صبروا)). وكما ان ذلك من الإحسان كان جزاؤهم حُسْنَ المقر والمقام. ثم وجه المولى خطابه للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليبلغ الذين كفروا بأنّ ربه تعالى لا يعبأ بهم، أي لا يكترث لهم، إلا بقدر ما يتوجهون به اليه من دعاءِ وهم مؤمنون. ولا يمنع عنهم المغفرة إلا الإشراك بالله جل علاه. واما المكذِّبون فإن الله تعالى لا يكترث لهم ولم يحبب اليهم الايمان ليهديهم ما لم يرضوه، فهم قد أعرضوا عنه وسيكون ذلك الإعراض وَبالاً عليهم لازِما بهم يوم القيامة.

سورة الشعراء

بِسْـمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحـيمِ

طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ
(3) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (4) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ
ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ (6) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (7) إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (8) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (9)

هذه السورة واثنتان بعدها سُمِّيَت بالطواسين، أي بدأها الله العزيز الحكيم بِحَرْفَي (ط) و(سين) وهذه وسورة القصص باضافة (ميم). واشار الى أن آياته البيّنة الواضحة تفصِل بجلاء بين الحق والباطل وبين الرشد والغي. وخاطب رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأنه تعالى لا يأبه لمن بلغته الرسالة فكفر بها. فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يحرص على ايمانهم رغبة منه في نجاة من يبلّغهم. وحَرَصَ على اعلاء كلمة الله تعالى بينهم فهدّأه المولى عز وجل بأن لا يغتم باخِعاً (أي مهلِكاً) نفسه لكفرهم وأعْلَمَه بأنه قادر على أن يُنَزِّل آية عليهم تضطرهم للايمان قهراً. ولكن الايمان يجب ان يحصل بإختيارهم لأنه متعلق بالقلب ولله تعالى الحجة عليهم بإرسال الرسول برسالة الحق. وها هم مُعرِضون فسوف يلقَون من جرّاء استهزائهم خبر صحة ما استهزأوا به والْمُنقَلَب الذي يؤولون اليه. (وقد اتاهم النبأ في فتح مكة وظهور الدين). وكان الأجدر بهم ان ينصرفوا في تفكيرهم إلى آيات الله تعالى ومنها ما كان من أسباب الحياة؛ فنزول الماء وما يُنبِتُ اللهُ به من اصناف الغذاء الطيب

يكفي دليلاً على انفراد المولى بالربوبية والقدرة ولكن اكثرهم فضلوا عبادة الاوثان.
والله تعالى في عزته لم يعجّل لهم عقابهم من غير أن تقام عليهم الحجة ويأتيهم الذكر
لينيب اليه من يُصغي بسمعه ويتفقه بقلب سليم.

وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (11)
قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى
هَارُونَ (13) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ
مُسْتَمِعُونَ (15) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي
إِسْرَائِيلَ (17) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) وَفَعَلْتَ
فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (19) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20)
فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ
تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22)

يورد المولى عز وجل العبرة من قصة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام في هذه السورة لمناسبتها مع موقف كفار قريش من سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ورسالته. فوصف تعالى قوم فرعون بالظلم لعبادتهم غير الله من غير تقوى وها هو سيدُنا موسى عليه الصلاة والسلام يتلقى التأييد من الله تعالى بعدما بيّن ما يحتمل ان يعيقه عن الدعوة ثم طلب تأييده بأخيه هارون ووجّهه المولى الى القول السديد والطلب الذي يحرر بني اسرائيل من قهر فرعون. ولكنّ فرعونَ بعد أن عرف مطالب سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام بالإيمان وإرسال بني اسرائيل أراد أن يذكِّره برعايته إيّاه منذ الطفولة ويذكِّره بقتل القبطي واعتبر ذلك كفراناً للنعمة. فاوضح له سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام بأنه كان يجهل الرسالة قبل أنْ يُوحَى

اليه. واما بعدها فقد وهبه المولى الحكمة وفصل الخطاب والحجة الخارقة التي لا تُقهَرُ. ولا يعني ان فرعون (وقد رعى أمر طفل حتى بلغ اشده) سيُترك مستمراً في إساءته لشعب مُضطَهد بدون حساب. فإحسانه الى فرد منهم لا يوازي اساءته اليهم جميعاً. وهنا ينتبه فرعون الى ما دعاه موسى إليه من ربوبية الله تعالى فيتساءل ويأتيه الجواب ثم يحاور:

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (25) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (28)

اجاب سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام بأن للعالَمين رباً واحداً هو رب كل ما يعلمون بوجوده من المخلوقات من سماوات وارض فلا بدّ لهما ولِما بينهما من خالق واحد أوجَدَهُنّ بوجوده. وقطع فرعون اصغاءه معرضاً عن خبر لا يعجبه وتحول الى مَلَئِه مستغرباً. فاسترسل سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام لبيان ربوبية الله تعالى للبشرية جميعاً. وهذا ما دعا فرعون للشك في صحة عقلية موسى عليه الصلاة والسلام الذي واجهه بحجةٍ خرى بأن الله تعالى هو الربُّ الذي قدر الشروق والغروب والازمنة التي تأتي من ذلك فهل لبشر ان يفعل ذلك؟ ولكن فرعون اتخذ موقفاً متشدداً مهدداً كما اخبر عنه المولى سبحانه وتعالى:

قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (30) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (32) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (33) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ

(34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (35) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (36) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (37)

لجأ فرعون الى الشدة لكي يوقف الحق. فالنبي موسى عليه الصلاة والسلام يعرف سجون فرعون وقد عايش حياته في قصره. ولكنه كان مؤمناً بحقه وعون ربه. فاستفسر من فرعون هل يؤمن اذا اتاه ببرهان واضح؟ فتحداه فرعون ان يأتي بذلك. ولكنه فوجئ بالعصا تُلقى أمامَه ثعباناً واضح المعالم وفوجيء بيد موسى تخرج من جيبه بغير اللون الذي دخلت به فهي بيضاء منيرة. وبدلاً من ايمان فرعون بهاتين المعجزتين واعتبارهما برهانَيْنِ على صدق الرسول، نسبهما للسحر الذي كان شائعاً يتخذه عديد من الناس قد اكرههم عليه فرعون. وهنا إستخف ملأه أي كبار رعيته الذين من حوله واستغل انغماسهم في امور الدنيا والسيادة على الناس فخوَّفهم من سلب الدنيا منهم بقوله "يريد ان يخرجكم من أرضكم" فاشاروا عليه بأن يواجه موسى بالسحرة ظنا منهم ان سحر الغالبية الكبيرة سيردُّ ما جاء به موسى عليه الصلاة والسلام. وهذا ما جعل الناس تترقب المباراة آملين غلبة السحرة ليتبعوهم!

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (38) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (39) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (40) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (41) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (42) قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (43) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (44) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (45) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (46) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (47) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (48)

جاء شرح قصة ايمان السحرة بعد بطلان سحرهم في الآية الثالثة بعد المائة من سورة الأعراف وما بعدها. وفي هذه الآيات اشارة الى جهل الناس الذين قالوا (لعلنا

نتبع السحرة) ولم يقولوا: لعلنا نتبع الحق. واما السحَرَةُ فإنهم لم يجدوا بُدّاً من الايمان لانهم كانوا اعلمَ اهل السحر ولا يبطل سحرُهم إلا بقدرة الخالق سبحانه فآمنوا. وكان ايمان السحرة كافياً للبرهان على صحة رسالة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ولكن فرعون لم يرضخ للحق مع أنه رأى بنفسه ان ما جاء به موسى عليه الصلاة والسلام امر معجز.

قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (49) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا
إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (50) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (51)

من جوانب استكبار فرعون ان توعّد السحرة الذين آمنوا برب العالمين لأنهم لم يستأذنوه في ما قرروا اتخاذه. ثم لم يفطن الى انهم لم يجتمعوا بموسى عليه السلام قبل تجمعهم فكيف يكون كبيراً لهم. ولم يجد هؤلاء السحرة بعدما آمنوا حرجاً في تقبُّلِ ما توعَّدهم به فرعون لِما أملوا من جزاء طيب من الله تعالى ومغفرة بسبب مبادرتهم ليكونوا الأولين في الايمان.

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (52) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ
حَاشِرِينَ (53) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ
حَاذِرُونَ (56) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَلِكَ
وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59) فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (60) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ
أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنَا إِلَى
مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ
الْآخَرِينَ (64) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (66) إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (68)

أذِن الله سبحانه وتعالى- بعد ايمان السحرة بزمنٍ لم يُذكر- بهلاك فرعون وملئه فأوحَى إلى سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم بأن يتَّجِهَ ببني إسرائيل ليلاً الى الشرق نحو سيناء وأمامهم الجزء الشمالي من البحر الاحمر. وما كان فرعون يظن أن هؤلاء الشرذمة أي العدد القليل الضعيف حسب تقديره سيعبر البحر فليس لديهم من وسائل العبور شيء. ولا يمكن اجتيازه سباحةً بما يحملون معهم. فلما علم فرعون بما قرره سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ومن معه سارع الى حشد جنوده من شتى مدن مصر وبعث فيهم الحمية بالاستهانة ببني اسرائيل ومخالفاتهم محذراً بشدته في قمع كل معارض لحكمه. وهكذا اجتمع قومه ولحقوا ببني اسرائيل الذين فوجئوا بتقرب فرعون وجنوده مع تباشير الصباح فأبدَوا ريبةً من المصير فنهرهم سيدُنا موسى عليه الصلاة والسلام وذكّرهم بحسن الظن بوعد المولى القدير العظيم سبحانه. وجاءه الوحي بضرب وجه الماء ففعل فانفلق أي إنشق. وجاء في التفاسير أنّ إنفلاقه تشعَّب إلى اثني عشرَ فِرْقاً أي شَقّاً فظهرت ارض قعر البحر فيها يابسةً فعبر بنو اسرائيل وأتْبعهم فرعون وجنوده الذين إلْتَأم الماء فوقهم فكان في ذلك هلاكهم. وقوله تعالى ((وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)) إشارة الى ايمان ثلاثة من قوم فرعون وهم آسية امرأة فرعون ورجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه كما جاء في سورة المؤمن وامرأة عجوز مؤمنة قيل انها لحقت ببني اسرائيل هي والمؤمن المذكور فَنَجَوا معهم من الغرق. وظهرت عزة كلمة الله تعالى العليا في نصر دينه ورحمة عبادة المؤمنين ممن أرادوا بهم كيداً.

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ

يَضُرُّونَ (73) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77)

لم يكن في قوم ابراهيم سواه مؤمن بالله وحده وفي ذلك عبرة للمؤمنين للاقتداء والتوكل على الله تعالى والتبرئ من الشرك فقد رفض عبادة الاصنام. ولما استفسر من ابيه وقومه عن ذلك لم يكن لديهم برهان سوى انهم وجدوا آباءهم يفعلون ذلك فسألهم عليه الصلاة والسلام عن قدرة الاصنام فأقَرُّوا بأنْ لا قدرةَ لها بل وجدوا آباءهم كذلك يفعلون فصارحهم بحزم وجرأة بعداوته لهذه الاصنام ولِما يعبدون من دون الله فالله وحده هو المعبود. وبيّن لقومه ايمانه بربه كما اخبر الله تعالى عنه. ولم يؤمن له سوى سيدنا لوط عليه الصلاة والسلام وقيل هو ابن أخٍ له.

الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82)

لا بد للمخلوق من خالق لا يُشرِكُ معه أحداً. وكما خلق بقدرته يهدي برحمته ويطعم ويسقى بكرمه ويشفي من يشاء بأمره. ثم يحيي الموتى ويبعثهم لحساب يوم الدين. والمؤمن يطمع من ربه ان يغفر له في ذلك اليوم. ودعا ربه لأكثر من المغفرة كما اخبر عنه تعالى:

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (86) وَلَا

تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89)

الْحُكْمُ المقصود هنا هو السبيل المحكم للعلم بالله وعبادته؛ سواء كان إلهاماً، او وحياً للانبياء والرسل، أو كان فهماً لصُحُفِ الله الكريم. وهذا ما يُعطَى للصالحين. فطلب سيدنا ابراهيم صلى الله عليه وسلم أن يُلحِقَه الله تعالى بهم في خاتمة الحياة ويبقى اثره للاقتداء في الصدق. فقد دعا كما في مكان آخر من القرآن: ان يبعث الله تعالى في ذريته رسولاً منهم اشارة الى سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وهكذا ورد ذكر سيدنا ابراهيم بالثناء الحسن في القرآن الكريم. ثم طلب الجنة وطلب المغفرة لابيه مُقِرّاً بضلاله. ولأبيه خبر آخر في القرآن الكريم كما جاء في سورة الانعام في الآية الرابعة والسبعين منها وسورة التوبة في الآية الرابعة عشرة بعد المائة اذ قال تعالى ((وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ ابراهِيمَ لِأَبِيهِ إلا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيّاهُ فَلَمّا تَبَيَّنَ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ ابْرَاهِيمَ لَأَوّاهٌ حَلِيمٌ)) مما يغني عن التكرار. وذكر عليه الصلاة والسلام يوم الدين حين لا تخفى من أهل الزيغ خافية في خزي. فدعا ربه الرحيم ان لا يُخْزِيَهُ ومعناه ان يثبته على سلامة قلبه من حب الدنيا ومن الخروج عن الشريعة فَيُبعَث سليماً يوم لا ينفع مال ولا بنون .

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (91) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (93) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (94) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (95) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (96) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (98) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (99) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (100) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (101) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ

الْمُؤْمِنِينَ (102) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (103) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (104)

تُقَرَّبُ الجنةُ من مواقع الذين سُعِدوا وعبروا الصراط وكتبهم في ايمانهم وقد ثقلت موازينهم بما كانوا يعملون للآخرة فيرون منازلهم عن كَثَبٍ. وفي الوقت نفسه تُكشَفُ جهنمُ لمن عبدوا غير الله أو أشركوا ولم يتوبوا اليه فيقال لهم أُطلبوا النصر من الذين عبدتموهم من دون الله! فتكون الحسرة والاقرار بالضلال فتكبُّهم الزبانية أي يصرعونهم بطرحهم مع اصنامهم الآلهة الموهومة والغاوين الذين غَوَوْا بعبادتهم وكُلِّ من استعمله الشيطان لاغراضه فاستجاب له فكان من جنوده. وإذ اجتمعوا أخذ الضالون يقرِّعون من أغووهم ويقرون بشِرْكِهم. ولا يجدون من يشفع او ينفع ويتمنون لو أعاد الزمن نفسه ليؤمنوا بالله وحده مع من آمن من القلة السعيدة بعزة الله ورحمته.

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (108) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (109) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (110) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (111) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (112) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (113) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (114) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (115) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (116) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (118) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (119) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (120) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (121) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (122)

قوم نوح عبدوا الاصنام بعد اجيال من الموحدين من بعد آدم عليهما الصلاة والسلام. فلما جاءهم بالحق ليتركوا اصنامهم طلبوا منه أن يترك من اتبعه ممن كان نصيبه من الدنيا قليل. وهكذا لم يفهموا حقيقة الدعوة التي لا تفرق بين غني وفقير ولا تنقب عن نسب المؤمن وماضيه ولم يفهموا أن الرسول لا يطلب لنفسه رفعة او اجراً بل يطلب لهم النجاة بعبادة الواحد الاحد. وطال العمر معهم حتى اراد اهل الكفر ان يرجموا رسولهم فدعا عليهم طلباً للنجاة. فاستجاب الله تعالى وهو نعم المجيب. واغرق الكفار وأنجى المؤمنين في الفُلْك المليء بهم وبأمتعتهم ومعهم من حُمل معه من كلِّ زوجين اثنين من الانعام والحيوان. وقيل من النبات أيضاً. وجعلها تعالى آية لمن يخاف من مثل مصيرهم واظهر بذلك عزته في اعلاء كلمته. وأظهر رحمته في نجاة المؤمنين.

كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (124) إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (126) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا
عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (127) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ
لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ
(131) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (132) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (133) وَجَنَّاتٍ
وَعُيُونٍ (134) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (135) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ
أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (136) إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (137) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ
(138) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (139) وَإِنَّ رَبَّكَ
لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (140)

قوم سيدنا هود عليه السلام ذُكِروا بعد قوم نوح عليه السلام وقد وردت قصتهم في سورة هود. إلا أن هذه الآيات تبين شدتهم في البناء على المرتفعات ويتخذون حصوناً لحمايتهم. وأمّا عبثهم فكان استكبارهم على من يكون من غيرهم وكانت قلوبهم قاسية في البطش ومع هذا افتتنهم الله تعالى بالخيرات المذكورة من انعام وبساتين وعديد من الذرية الرجال. وهذا ما يستوجب الشكر. إلا أنهم كفروا بما جاء به رسولهم ولم يروا ذلك إلا أساطيرَ سمعوها من أسلافهم فلا بعثٌ ولا عذاب، وبهذا استوجبوا الهلاك. واظهر المولى القدير عزته فيهم ورحمته لمن آمن منهم مع رسوله هود عليه الصلاة والسلام.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (144) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (145) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (149) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (150) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (152) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (153) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (154) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (155) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (156) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (157) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (158) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (159)

في الآية الحادية والستين من سورة هود والآيات التي اعقبتها قصة سيدنا صالح عليه الصلاة والسلام مع قومه. فقد دعاهم للتقوى بطاعة الله ورسوله والشكر على

النعماء وترك طاعة أهل الفساد الذين لا يُرجى منهم صلاح. وجاءهم عليه السلام من ربه بآية مبصرة، أي تحمل معها برهانها، امام أعينهم وهي الناقة وفصيلُها أي وليدها، ولكنّ عَبَدَةَ الدنيا وما حُفّت به من شهوات مُحَرَّمَةٍ لم يَرُقْ لهم تركُها فأبَوا وضربوا قوائم الناقة بالسيف فهلكت فلم يُمهِلْهم المولى فأخذهم واعز الله تعالى كلمته والرسولَ ومن آمن معه، وما كان اكثرهم مؤمنين. ومن اسباب عدم ارسال امثال الناقة من آية هو تكذيب هؤلاء الكفار كما جاء في الآية التاسعة والخمسين من سورة الاسراء.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (161) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (162) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (163) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (164) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (166) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (167) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (168) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (169) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (170) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (171) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (172) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (173) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (174) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (175)

وردت قصة سيدنا لوط عليه الصلاة والسلام في الآيات التي أوّلها السابعة والسبعون وما بعدها من سورة هود عليه السلام. وجاء شرحها وافياً وجعل الله تعالى من هلاكهم آية واعز الله العزيز الرحيم تعالى نبيه المؤمن وأهله ورحمهم بنجاتهم إلا امرأته كانت من المعذبين.

كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (177) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (178) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (179) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (180) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (181) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (182) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (183) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (184) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (185) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (186) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (187) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (188) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (189) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (190) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (191)

وردت قصة سيدنا شعيب مع قومه في الآية الرابعة والثمانين من سورة هود مما اغنى عن التكرار هنا. واما الجِبِلّةُ الاولون فهم الاجيال السابقة. وفي الرجوع الى قصص الانبياء المذكورين في هذه السورة نراها من جهة الانبياء عليهم الصلاة والسلام في نسق واحد وهو الدعوة الى عبادة الله تعالى وحده والى تقواه والرجاء برحمته. وانهم (عليهم السلام) لم يطلبوا أجراً لأنفسهم. ثم يتوعدون المكذبين. وتأتي الآيات في هلاك الكفرة ونجاة المؤمنين. اما من جهة الاقوام الذين كذّبوا فالرذائل فيهم متنوعة فهم في عبادة غير الله تعالى لكل قوم رذيلة شركٍ تُمَيِّزُهم عن غيرهم. فلو استمروا على غَيِّهم لفسدت الارض وهذا ما لا يُمكِن ان يكون فالله تعالى قادر على اخذهم واستبدالهم بمن لا يقوم بالأعمال الرذيلة. وفي هذه القصص البرهان المبين على صحة رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو خاتم النبيين رحمة للعالمين فلم يُهْلِك الله تعالى بعد رسالته قوماً بأجمعهم ويقول تعالى:

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (196) أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (197) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (199) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (201) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (202) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (203) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (204) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (207)

اشار تعالى الى القرآن الكريم كما بيّن في اول السورة في الآية الخامسة منها حول إعراض المشركين عنه. وهنا يبين المولى تعالى بأنّ القرآن تنزيل من لدنه نَزَلَ به جبريل عليه السلام على قلب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليكون منذراً من المنذِرين أي الرسل الذين وردت قصصهم آنفاً في هذه السورة. والحجة على قريش انه نزل بلغتهم وهي لغة جُرْهُم (وهي قبيلة سكنت مع سيدنا اسماعيل عليه الصلاة والسلام مكة وتزوج منهم) وقد بشّرت كتب السماء الاولى بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتَعرّفَه علماءُ أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام رضي الله عنه والمطارنة الذين ادركهم سيدنا سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه. ولو نزل القرآن على غير سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبغير لغة لَمَا آمن اهل الكفر والشرك من قريش وغيرهم لأن قلوبهم لا تتقبل الحق او تَرْكَ بحبوحة حياتهم ونعيمها من اجله حتى يفاجئهم العذاب الأليم يأتيهم وهم غافلون فيطلبون مهلةً ولكنْ في يومٍ لا تنفع معه المعذرة، وقد كانوا يتحدّون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

متعجلين النقمة التي لم يؤمنوا بها. فإذا تحل بهم عندئذٍ لا يُغني عنهم نعيم الدنيا مهما طال فيها العمر فقد سخروا وكفروا بالحق لما جاءهم.

وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (208) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (209) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (210) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (211) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (212)

في اعقاب ذكر هلاك الأجيال الكافرة يذكّرنا تعالى بعدالته بأنه لم يُهْلِكْهم ظلماً فقد ارسل فيهم منذرين، وفي هذه الآيات تنبيه لقريش ومن بلغهم الأمر أن يتذكروا فلا ينسبون للشياطين ما جاءهم من الحق إذ لا يُرجى من الشياطين الهداية للخير، ولا قدرة لهم على الاستماع من السماء بعد أنْ عَزَلَهم المولى القدير عن السمع منها وأكّد عزلهم من غير عودة للسمع منها.

فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213)

الخطاب هنا من الله جل شأنه آمراً بعبادته وحده لا شريك له والمقصود به كل من بلغته رسالة الله تعالى. ويعني هذا الأمر نبذ كل حالة شرك تحصل من الناس سواءً بعبادة آلهة موهومة أو الإستجابة لمن يصد عن عبادة الخالق الواحد سبحانه. هكذا، وإلا فما يلقى المشرك الا العذاب.

وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216)

وفي هذه الآية اشارة الى ان القرابة لا تشفع لكافر او مشرك ان لم يكن مؤمناً بربه ومؤمناً برسوله. واما المؤمنون فعلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ان يبلغهم

على قدر ما هم عليه من العلم ثم يرفع من درجة علمهم بما علمه الله تعالى. وجاء تعبير خفض الجناح لأن الطائر اذا اراد الهبوط خفض جناحيه وان اراد الارتفاع رفعهما. وهذه اشارة تربوية للمربي بان ينزل الى مرتبة التلميذ او الولد ثم السير بهم في طريق المعرفة. فاما اذا لم ينفع هذا التواضع والبيان الواضح فان قلوب العصاة أغلظ من ان يدخلها نور العلم والايمان فما يكون عند ذاك من مسؤولية على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. فهو مبرأ من أي عمل فيه العصيان.

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (220)

ان عبئاً مثل عبء الرسالة السماوية يعرّض حامله لكثير من أذى مترفي كفار قريش وكيدهم. فأمر تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالتوكل على الذي يعصمه من الناس ويلقي عليه من عزته عزاً ويرحمه. فهو في أعيُنِ الله تعالى، أي وقايته الناجزة في القيام بهذا الامر وحين الصلاة بين ظهراني الكفار في البيت الحرام وغيره منفرداً او مع جماعة فهو تعالى السميع لعبده والعليم بما يعمل. وهذا الامر عام لكل داعية من دعاة الدين ان يجاهد بقدر ما استطاع لإعلاء كلمة الله تعالى.

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (223)

بعد ايراد آيات اعجاز القرآن وصِدق الوحي وصدق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وامانتهما، يردّ الله تعالى على من توهَّم أنّ القرآن إلقاءٌ من شيطان يسترق السمع بأنْ لو كان ثمة شيطانٌ يُنزل علماً لأنزله على الكاذبين الذين يشتد

كذبهم واتهم في ذلك. وأما الشياطين الذين كانوا قبل البعثة المحمدية يسترقون كلمة او اكثر من اخبار السماء فيلقونها في أذان الكهنة والمدعين للنبوة مثل سطيح وطليحة الاسدي ومسيلمة الكذاب فقد كان أكثرهم يكذبون معها اضعافاً ثم يكذب بعدهم الكهنة والمدَّعون. وقد بين الله تعالى ان الشياطين قد حُجِبوا عن الإستماع منذ بداية الوحي فمن فعل ذلك أتْبَعَه شهابٌ أحرقه.

وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (227)

كان الشعراء في الجاهلية يطرقون اغراض الشعر التي لم تَخْلُ ان تكون غَزَلاً لا يرضاه الدين، او مدحاً فيه مجاملة وكذب ونفاق املاً بكسب المال، او هجاءً فيه آثام التجني والكذب للحط من شرف المهجوّ، أو حماساً وفخرًا جاهلياً. وكان احدهم يلقي شعراً فيتبعه الضالون فيعجبون به ويرددون اشعاره. وكان في شعر الحكماء منهم حِكَمٌ إلا أنها قلما دعت إلى العبادة التي بيّنها المولى القدير في كتابه الكريم. فلما جاء الاسلام أخذ بعض شعراء الجاهلية يهجون سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم. فمن أسلم من الشعراء وقالوا حقاً انتصروا للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهَجَوا الكفار بما هم أهله. فكان هجاؤهم سلاحاً اسكتهم فاستثنى المولى سبحانه من الذم كل شاعر مؤمن يعمل الصالحات ويشعر ان الله تعالى رقيب على عمله وعلى قوله فلا يقول إلا حقاً مستمداً من الايات الحكيمة والتعاليم النبوية ومرشداً للخير والصلاح. واذا امتدح اقتصر مديحه على بيان عظمة الخالق ورحمته وصفاته الحسنى وعلى بيان فضل رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم

وعلى فضل الائمة الذين نشروا دين الحق من غير ان يكون لمديحهم غرض مادِّي في ذلك بل ابتغاء رضوان الله تعالى. وبعد البعثة النبوية ظهرت أغراض الزهد والمواعظ كقصائد الإمام علي عليه السلام والشافعي رضي الله عنه وشعراء الصوفية. كما ظهرت أغراض وصف الجهاد والمجاهدين لإعلاء كلمة الله تعالى. ولشعراء المدائح النبوية في مدح الرسول وأهل بيته صلى الله عليه وآله قصائد فيها الحكم وبيان منزلتهم ومحبتهم في قلوب المسلمين.

سورة النمل

بِسْـمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحـيِمِ

طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُـرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (1) هُـدًى وَبُشْـرَى لِلْمُـؤْمِنِينَ (2) الَّـذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (3)

طس؛ تُقرأ: طا، سين. وأشار المولى تعالى الى آيات القرآن وآيات كتابٍ مبين قيل اللوح المحفوظ يبين الأقدار، وقيل آيات القرآن فهو الدليل والمبشر للمؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة في يقين بخبر القرآن في لقاء الآخرة مع ربه العظيم. وهنا إظهار لأهمية الصلاة في إستمرار الصلة بالله تعالى، وأهمية الزكاة في التكافل الإجتماعي، وأهمية الإيمان بقدرة الخالق على البعث.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (4) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (5)

يؤكد المولى عز وجل صفة الذين لا يؤمنون بالآخرة بانهم ضالون لأن الذي يرى أنّ إنغماسه في الملذات المحرمة الفانية افضل من اتجاهه للحق والقرب منه لا شك انه مخدوع لا يعرف الطريق الى ما فيه خيرُه مثلما يجهل الاعمى طريقاً لم يسبق له سلوكه. وفي النهاية يذوق عذاب فقدان ملذاته وفي الآخرة يذوق عذاب خسارة المال والاهل والشفيع مما يجعلهم الأخسرين.

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6)

وفي هذه الآية تأكيد لمن داخَلَهم الشك في صحة الرسالة المحمدية بأنه كتاب رب حكيم أي اتى بالحكمة، وكتاب رب عليم أي جاء بالعلم الحق وبصدق الاخبار التي فيه كما سيأتي سرده من اخبار وعِبَرٍ فيها بيان لحكمة الله تعالى في مشيئته وفيها العبرة في قضائه. فأول خبر كان عن سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام وعبرة عن مصير الجاحدين برسالته والمفسدين في سلطانهم كما يلي:

إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (11) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (12) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (13) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (14)

من عوامل الثبات في مواجهة عوادي الزمن تذكّر العبرة مما سبق في محن مماثلة يقع فيها المؤمن وتتجلى فيها حكمة الله تعالى وعزته وعزة من يعزهم. وهنا يذكِّر ربُّ العزة رسوله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بايراد جانب عام لبعثة اخيه موسى عليه الصلاة والسلام ونهاية فرعون وملئه وجنوده. فقد اظهر الله تعالى صدق رسوله موسى عليه الصلاة والسلام بآيات تسع سبق ايرادها في السور الاولى. وكل آية تدل على قدرة الله تعالى وصدق رسوله. فسيدنا موسى اذ رأى النور الذي ظنه ناراً

في طريق سيره بأهله خارجاً من مَدْيَن باتجاه سيناء اراد ان يستطلع خبر النار لعله يأتي منها بقبس يوقد عليه من الأحطاب للتدفئة في ذلك الليل البارد. وبدأت بعثته بآية العصا فصدّق وهو المؤمن الصادق بأن الله تعالى اصطفاه، ولم يقل اني مسحور. ورأى يده بعد اخراجها من جيبه منيرة ببياض لم يعهده فيها، آية اخرى. اما فرعون فانه رأى الآيتين واستيقن من الخوارق التي تدل على صدق من جاء بها إلا أنه وملأه قالوا هذا سحر وجحدوا بهما. فكان قولهم يخالف ما استقر في انفسهم لِما إتصفوا به من ظلم واستكبار. وهذا ما استوجب عقابهم كما جاء في شرح قصة غرقهم في السُوَر السابقة. وبهذا صار ملأُ فرعون عبرة لمن يبلغهم القرآن؛ فإما مؤمن، وإما كافر. فما كان الله تعالى ليعذب كافراً حتى يبين له سبيل الرشد وسبيل الغيّ ويبصره بسبل تقواه ثم يجزيه الجزاء العادل، وانما يجزون ما يعملون.

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (15) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (19)

يؤتي المولى العليم من رسله من العلم ما تتطلبه الرسالة أو النبوة لإقامة الحجة على صحتها لدى من تبلغهم الرسالة. وفي هذه الآيات يبين الله تعالى فضله على سيدنا داؤود وسيدنا سليمان عليهما الصلاة والسلام وفضل العلم على سائر النِعَم

كفضل الانبياء على الناس. ويبين تعالى شكرهما على هذه النعمة ولا سيما سيدُنا سليمانُ عليه الصلاة والسلام اذ فهم قول النملة فكان منفرداً عن غيره بهذا العلم. اما تفاصيل حشر الجنود من غير البشر ففي التفاسير أقوال في خلاصتها العبرة بأن تكون النعمة موضع الشكر والتواضع لله تعالى وطلب حُسنِ العاقبة كي لا تكونَ شاغلاً للعبد عن التقرب بها إلى الله تعالى وعن نيل رضوانه في الدار الآخرة. فالنعمة تزول في الحياة الدنيا ويبقى منها للآخرة ما كان لإعلاء كلمة الله تعالى وفي طاعته تعالى وشكره.

وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (21) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26)

وعندما حشر الجنود من اصناف المخلوقات وهم يوزعون اي يلتئم آخر كل صنف بأوَّلِ كل صنف يليه في وضع منتشر لم يجد سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام الهدهد. والظاهر ان هذا الهدهد متميز عن قومه فلما جاء نجا من العقاب بالخبر الذي اتى به من سبأ وهي في بلاد اليمن اذ قصّ عليه ما ذُكِر في الآية. وفي التفاسير تفاصيل لا سند لها، ففيها من الخوارق ما ليس فيه عبرة في زمن كزماننا سهلت فيه المواصلات والاتصالات والتصوير من الجو وما الى ذلك. إلا ان الخبر

الذي جاء به أدّى الى إعلاء كلمة الله تعالى في سعة ملك سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام ثم اسلام ملكة سبأ كما يلي:

قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27) اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (32) قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (33) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (34) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (35) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (36) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (37) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38) قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40) قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (41) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (42) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (43) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44)

تفاصيل هذا السرد القصصي الوارد في التفاسير مأخوذة من مصادر غير موثوقة الاسناد في الوقت الذي لا يحتاج فيه اعجاز القرآن وايجازه وبيانه في هذه الايات الى البحث عن تفاصيل من مصدر آخر. فالتفسير ينبغي أن يأتي بشرح معاني غريب اللغة وايجاد العلاقة بين مراد الله تعالى واسلوب طاعته ثم استنباط المعاني الخافية التي يُستَدَلُّ عليها من معرفة مراده تعالى وصفاته الحسنى لكي يبلغ المؤمنون العمل بكتابه وسنّة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في حدود الاحاديث الشريفة على وجه أتم. وعلى هذا المبدأ يُستدل من تفاسير هذه الآيات أن سيدنا سليمان عليه السلام اراد الدليل المادي في عذر الهدهد عن غيابه ليتأكد من صدق إدعائه بما شاهد في سبأ، وأن ملكة سبأ اكرمت في نفسها كتاب سليمان مما يدل على معرفتها بأخباره من غير تصديق بنبوّته فهي تعتبره مِلِكاً من الملوك فاستشارت رؤساء قبائل قومها ولكنها لم تأخذ برأيهم لعلمها ورجاحة عقلها فقد أشاروا عليها بالمواجهة والقتال! وهي اختارت الكياسة في معاملة الملوك. فبادرت الى إرسال هدية وانتظرت الرد فلما أعيدت الهدية مع أخبار عَظَمَةِ ما كان عليه سيدنا سليمان عليه السلام من نعمة الله تعالى وتأييده اختارت أن تقصده بنفسها لتكون على بينة من أمره وامرها معه. وكان معها اثنا عشر رئيسا من رؤساء القبائل ومعهم رجال كثير. ولكن التدبير الرباني سبقها اذ هيأ من يأتي بعرشها الى سليمان عليه السلام فكانت مشاهدتها لعرشها مع عجائب الصرح الممرّد أي الأملس المستوى كالماءِ الصافي الساكن والذي حسبته ماءً مما يبعث على الايمان بصحة الدين الذي فيه توحيد الرب الواحد الأحد ونبذ الأوهام والآلهة الموهومة فأسلمتْ. وفي هذه الآيات ما لم يسبق ذكره يضاف الى ما جاء في سورة الانبياء.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45)
قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46)
قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (47) وَكَانَ فِي
الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (48) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ
وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (49) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا
مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ
(51) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ
آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (53)

سبق في الآية الحادية والاربعين بعد المئة من سورة الشعراء قصةُ سيدنا صالح عليه الصلاة والسلام مع قومه، ثمود، ولم تُذكَر هنا ناقتُه ولا التفصيل في بيان آلاء الله تعالى عليهم. بل بيّن تعالى إيمانَ بعضِهم وكفرَ الاكثريةِ وتطيُّرِهم وتشاؤمَهم من رسول ربهم وغفلتَهم عن الحق وهو واضح لدى رسولهم عليه الصلاة والسلام بانهم انما يُمتَحَنون ليهْلِك من يهْلِك عن بيِّنة وليحيي من يحيي عن بينة. فلما مكروا ليقتلوه ثم ليفتروا الكذب للتضليل في معرفة القاتل اخذهم الله تعالى بصيحة قد اعدها لهم بعد انذارهم مع مهلة ثلاثة ايام. فحق عليهم العذاب الذي ألحق الدمار بهم. وأنقذ المؤمنين إذ إتّخذوا اِيمانَهم وتقواهم وِقايةً لهم من العذاب.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ
شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا
أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (56) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا
مِنَ الْغَابِرِينَ (57) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (58)

حديث سيدنا لوط عليه الصلاة والسلام لقومه يحمل الإنذار لهم ويطلب منهم التوبة والتقوى. إلا ان إنغماسهم في فسوقهم كرّه اليهم الدعوة فكفروا بها وأرادوا إسكات من دعاهم للخير والحق. وسبحان الله الذي يعلم منهم ذلك ويعلم قيام الحجة عليهم وقد وردت في الايات التي اولها الآية السابعة والسبعون من سورة هود قصة نزول الحجارة عليهم امطرها المولى القدير من طين مستحجر لم تتوقف عنهم حتى هلكوا عن آخرهم بعد ان نُجِّيَ لوطٌ ومعه اهلُه إلا امراته كانت مع الهالكين بتقدير من الله تعالى بما أعلمت القوم بمجيء الملائكة ظنا منها انهم شباب مُرْد (جمع أمرد وهو الذي لم ينبت له شعر ذقنه).

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59) أَمَّنْ
خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا
كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ
قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (61) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ
الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (62) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ
يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (63) أَمَّنْ يَبْدَأُ
الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ (64) قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ
يُبْعَثُونَ (65) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ
(66)

الحمد لله في أفعاله وصفاته ومنها القدرة والرحمة، وفي مضمونهما حكمةٌ في تقديره تعالى ونعمته. فبعد أن بَيّن سبحانه الاخبار الواردة في قصص الأنبياء وما فيها من جهاد وصبر وحكمة ذات أوْجُهٍ متعددة ظاهرةٍ وباطنةٍ، ينبِّه عباده للتوجه اليه بالحمد ثم بالصلاة على من حملوا رسالته الى البشرية وهذه هي النعمة الكبرى ورضى الله عن حَمَلَةِ راية الاسلام من بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فهم الذين اصطفاهم الله تعالى لإعلاء كلمته وحفظ شريعة دينه. ومن نعمائه تعالى ما فعل بنجاة رسله والذين آمنوا معهم وبهلاك اعدائهم. ومن آياته في دوام اسباب العبادة واسباب الحياة فيذكر تعالى تفرده في خلق الكون وما حوى وفي الرزق باشكاله المتعددة من السماء بنزول المطر، ومن الارض بالنبات. فمن سواه يمكنه ذلك؟ ومن اياته طبيعة الارض من سهول وجبال وسبل النقل وجريان الانهر لتلبي حاجات البشر ومصالحهم، وملوحة البحار لتحفظ الهواء من التعفن وتحفظ احياءها المائية من آفاتها. ثم بيَّن تعالى مدى حاجة البشر لكل ذلك؛ فمنهم المترفهون، ومنهم من يسّر له العسير، ومنهم من يصلون الى حال الاضطرار في الشدائد فجعل له تعالى في الدعاء متنفسا وسببا للفرج. وجعل الأجيال متعاقِبَةً، سَلَفاً وخَلَفاً، وَفَيَات ووِلادات. وتبقى الحياة مستمرة. فمَن مع الله تعالى يشاركه؟ ومن آياته الاهتداء الى الجهات بالدلالة في السفر، في البحر والبر، بالنجوم وبالتضاريس الارضية والعلامات الدالّة على المدن والبراري. اضافة الى النجوم ليلا فلا برهان خلاف ذلك. واخيرا اظهر تعالى عجز غيره عن معرفة الآجال وموعد قيام الساعة فقد غاب ذلك عن قوم يعدلون بربهم مهما تعلموا فادّارك بذلك علمهم أي انتهى. فهم في شك يعمِهم بل هم في حيرة من موقفهم اذ لم تنتفِعْ

قلوبُهم بالحجة البينة فدخل فيها إنكار لقاء الله تعالى كما اخبر عنهم في ما يلي، واعتبرهم مجرمين:

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (68) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (69)

اتضح لكفار مكة (والسورة مكية) ما حصل لمن كذّب الرسل من هلاك، وما نال الرسل ومعهم من آمن بهم من نجاة. فهذا دليل على صدق الرسالة والرسل. وفيها جميعاً الوعد بالبعث بعد الموت وهذا دليل على صحة الوعد وصِدقِه. ولكن الذين كفروا بدلاً من ذلك اعتبروا الوعد أمراً يتلقاه قوم بعد قوم من الأوّلين وها هو يأتيهم ممن كذبوه. فكان موقفهم هذا موضع اشفاق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عليهم فقال تعالى:

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (70) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (71) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (72)

ومن مقومات ايمان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ان يرى بعين البصيرة ما سيحل بهؤلاء المكذبين فكان يحزن عليهم ويضيق صدره بما يحوكون للخلاص منه. فاوحى الله تعالى إليه بما ينبغي ان يقف عليه تجاههم وبأن علاج عنادهم وتحديهم وتعجُّلِهم للعذاب هو ترك الوعد الذي استعجلوه لمستقبل الزمن الذي يشاء الله تعالى ان يحققه فيه ولعله قريب. وقد حقّ عليهم يوم بدر فقد ردِف لهم العذاب أي تبعهم في زمن غير بعيد عن ذلك.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (75)

لم يعجِّل ربُّ العزة العذابَ على كفار قريش عندما سألوا تحدياً وإنكاراً: "متى هذا الوعد". ولهذا عندما تأخّر عنهم بيَّن سبحانه السبب بأنّه فضلٌ من عنده ولكن اكثرهم (أي الكفار) لا يشكرون. وعليهم أن لا يدور في خَلَدهم بأن ظنونهم خافية على الله تعالى فهو يعلم ما تُكِنُّ صدورهم وما يبدر منهم من قول وعمل. فما من شيء أينما كان في الوجود مهما غاب عنهم الا وله ذكر في اللوح المحفوظ ومثال ذلك أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم كان يُعرَف باسمه (محمد بن عبد الله) وبما اتصف به من صدق وامانة فدعي بالصادق الامين وذلك قبل البعثة. وبعد البعثة اسماه الكفار (يتيم ابي طالب) استقلالاً لشأنه ثم وصفوه ساحراً ومجنوناً. ولكنّ المؤمنين دعوه: (رسول الله). وقبل كل ذلك غاب عن الكفار انه في اللوح المحفوظ (حبيب الله ورسوله) منذ الازل. وهكذا بقية الاشياء حقيقتها الازلية في اللوح المحفوظ فقد كان للشيطان قبل معصيته اسمٌ معتبر بين أسماء الملائكة ولكن اسمه المثبت في اللوح المحفوظ هو (إبليس) لسبق علم الله تعالى بإستحقاقه له. وأول ما نودي به (يا إبليس) كان بعد معصيته في السجود لآدم عليه السلام.

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (77) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (78) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (79) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ

الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (81)

اختلف بنو اسرائيل في ما بينهم لزيغ اكثرهم عن الحق. فقد بعث الله تعالى فيهم سيدنا المسيح عليه الصلاة والسلام فمنهم من كفر به ومنهم من غالى في حقيقته. وجاء القرآن الكريم مبيناً لهم حقيقة الامر وحقائق أُخرى مثبتة كالقبلة فقد اختلفوا فيها بين شرق المسجد الاقصى وغربه. وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء. واما الذين آمنوا به فقد صغت قلوبهم أي ابعدت كل شيء يخالف القرآن منها. فتهيأت لفهمه والعمل به مما صار لهم هدى ورحمة. فمن بقي على الإنكار فان قضاء الله تعالى لا يفلته حتى يوفيه حسابه. والله تعالى هو العليم بسرائرهم. وعلى هذا لا يبقى لرسوله سيدِنا محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم الا التوكل على الله تعالى؛ أي يترك إرادته لمشيئة الله تعالى، ويوجِّه عملَه لِأوامِرِه، ويوجه اقواله لِوَحْيِه. فما ينطق عن الهوى. وبهذا يتوفق من يتوكل على الله تعالى في كل صغيرة وكبيرة من شرعه الحكيم الصائب الذي يحمل في عاقبته الفلاح والتوفيق لمرضاة الله تعالى. وبعد ذلك ليس عليه شيء ممن يصل القرآن إلى آذانهم المثقلة بالتعنت فلا يصل السماع إلى قلوبهم التي لن ترضاه لإمتلائها بما يتنافى مع حقه لأنهم والصمّ سواء. وكذلك لا يأبه لمن رأى الرسالة سحراً او شعراً لم يصل النور الى بصيرته فهو كالاعمى. اما اهل الايمان فهم الأحياء في السمع والبصر بين موتى القلوب. حياتهم في إيمانهم وفي إنقيادهم للحق وطاعتهم للمولى ورغبتهم اليه وحُسن ظنهم به.

وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (82)

(القول) سيكون، بمشئية الله تعالى، خاصّاً بمستقبل حياة الارض وهو الوعد الحق بأشراط الساعة أي العلامات الدالة على قرب وقوعها. والاية التي تظهر من قدرة الله تعالى (عندما يقع القول) هي دابّة: عناصرها من عناصر الارض تدب وتنطق بكلام فصيح مؤداه أن المؤمن سيُعرَف مؤمناً حقّ المعرفة، والكافر يُعرف كافراً حقّ المعرفة. وقد روى مسلم في صحيحه عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله: ((ان اول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وايّتُهما كانت قبل صاحبتها فالأُخرى على أثرها قريب)). وهذا القدْر من الشرح يكفي. إذ ان العبرة للمؤمنين بأن يبادروا الاعمال الصالحة خشية قرب هذه الاشراط فلا ينفع بعدها ايمان من لم يؤمن قبلها حسبما ورد في القرآن الكريم. (وخارجاً عن نطاق التفاسير، يجدر إيراد نبأ جرم سماوي رصده علماء الفلك ينطلق من مجرة غير مجرتنا بإتجاه الارض له كتلة صغيرة نسبيا ولكنه اذا مس سطح الارض فإن دورانها ينعكس لمدة ثلاثة ايام. وبذلك ينعكس دوران الارض حول نفسها. فمثلاً من جهة المحيط الهاديء بدلاً من إتجاه اليابان نحو الشمس يتغير الدوران فتتجه نحوها القارة الامريكية ثم المحيط الاطلسي ثم اوربا وافريقيا ثم اسيا واستراليا فالمحيط الهادي وهكذا ثلاثة ايام بينما الآن تدور الارض حول نفسها باتجاه الشمس من المحيط الهاديء الى اسيا واستراليا ثم اوربا والمحيط الاطلسي والقارة الامريكية فالمحيط الهاديء). وهنيئاً لمن يكون على الايمان عند ظهور أشراط الساعة.

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83) حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (85) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (86)

يوم الحشر؛ سُمِّيَ بذلك لأن الله تعالى يأمر فيه بحشر افواج منتخبة من كل أُمة كانت قد كذّبت بآيات الله تعالى واستكبرت عن قبولها بما ظلمت إذ تجاهلت تمحيص الحق والتفكير بالمصير فهم يوزعون، (أي يساقون بجمعِ أوَّلِهِم إلى آخرهم)، وأمامهم المساءلة. فيسألهم تعالى عن سرعة تكذيبهم من غير تروٍّ أو تفكير لمعرفة حقيقة الآيات الدالّة على صدق الرسل عليهم صلوات الله وسلامه. وهو تعالى اعلم بما عمل المكذبون فلا صدَّقوا ولا عبدوا. وعندها تقوم عليهم الحجة فلا يكون لهم جواب سوى انهم بُهِتوا فلا ينطقون. ولو كانوا يتفكرون في آيات الله تعالى وقدرته في ما يحصل من ليل ونهار بين ظلمة ونور مما لا يتسنى لغير الله تعالى أن يأتي بهما بما هما عليه من إنتظام لكانت قلوبهم تصغى كما يفعل الموقنون، فإنها لآيات لفقه قوم يؤمنون.

وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (87)

الصُوْرُ على شكل مخروطي شبّه بالبوق يوصف في التفاسير بالضخامة ويَنفخ فيه مَلَكٌ من الملائكة المقربين هو اسرافيل عليه السلام. وفي سورة الزمر عن النفخة الاولى يصعق منها الخلائق إلا من استثناهم رب العزة من ملائكةٍ واولياء. ومن النفخة الثانية يبعثون ويجمعهم المولى تعالى الى المحشر كما سياتي شرحه ان شاء الله

في الاية الثامنة والستين من سورة الزمر. وهذا المشهد يجمع الخلائق فلا يفلت احد بل ينقادون داخرين اي انهم هم مقهورون على الحضور (شاؤا ام أبَوا).

وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (88)

فُسِّر مرور الجبال مرَّ السحاب من غير ان يشعر الرائي بذلك بل يحسبها جامدة (أي ثابتة) بأن ذلك يكون يوم زوالها يوم النفخ في الصور. وسَيْرُها هو إزاحتها من مكانها. وهذا لا يتنافى مع قوله تعالى: ((وترى الجبال تحسبها جامدة)) أي أنّ مرورَها مَرَّ السحاب متزامن مع رؤيتها في الحسبان ثابتة باقية على ما هي عليه لثبات المسافة بينها وبين من يراها. اما زوالها يوم القيامة فثابت بآيات أُخَر؛ منها الاية الخامسة بعد المائة من سورة طه ((وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفَاً)) ومنها الاية العشرون من سورة النبأ عن يوم الفصل ((وَسُيِّرَتِ الجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً)) وهذان المنظران يراهما الناظرون عيانا بينما في هذه الاية يحسبها الناظرون ثابتة وهي تَمُرُّ مَرَّ السحاب ولم يرد فيها ذكر يوم الفصل. (ولهذا، وخارجاً عن نطاق التفاسير، يجدر هنا ايراد ما يخص حركة الجبال مع الارض في دورانها والله تعالى اعلم اذ يقطع الجبل الذي يقع على دائرة الاستواء أكثر من ألف وستمئة وسبعين كيلو مترا من فضاء الأرض في الساعة. وتقل المسافة كلما ابتعدنا عن خط الاستواء شمالاً وجنوباً نحو القطبين. ويُظهر المولى عز وجل صنعه الذي لا يمكن لسواه ان يتقنه وقد أوردتُ هذه الحقائق منفصلة عن التفسير او التأويل لإثارة الانتباه الى آية كروية الارض ودورانها حول نفسها. وهذا من الإعجاز القرآني الى قيام الساعة).

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آَمِنُونَ (89) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (90) إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآَنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (92) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آَيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (93)

الحسنة بعشر امثالها وعاقبتها الطمأنينة يوم يفزع اهل المعاصي والسيئات من نفخة الصور. ولا تعتبر الحسنةُ حسنةً ما لم تكن خالصةً لوجه الله تعالى أي اخلاص العمل بقلب سليم أي معافى من الرياء والشرك. واما اهل الشرك فهم اهل السيئات اذ عملوا لغير الله تعالى واشركوا مقاصدهم لغيره سبحانه فهي انما تضع صاحبها في النار على وجهه، والجزاء من جنس العمل إذ كان مقصده سفلياً أي فيبقى مكباً وجهه للاسفل. ولو رفع عمله للمولى الغني الحميد لكان مرفوع الرأس سويًّا على صراط مستقيم. واما موقف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقد اتضح مما امره الله تعالى به بأن يكون الاسوة الحسنة في العبادة الخالصة لمن جعل مكة حرماً آمنا وبيده ملكوت كل شيء وان يفوّض اليه امره وان يبلِّغ كتاب الله تعالى وينذر به ويترك الاختيار لمن بلغ وينتظر امر الله تعالى في العاقبة التي تحمل آياته الدالّة على صدق سيدنا محمد صلى الله عليه واله وسلم. والله تعالى رقيب لا يغفل ولا يغيب عنه ما غاب عن غيره.

سورة القصص

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6)

الأحرف المقطّعة تُقرأ: طا، سين، ميم. وتليها إشارةً ألى آيات القرآن مبيناً للحق والوعد الصادق والوعيد المتحقق، يتلوها جبريل عليه السلام بأمرِ اللهِ من نبأ سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون مثلاً للوعد والوعيد؛ لوعد المؤمنين بالنجاة والنصر والتمكين في الأرض، ووعيد فرعون وهامان وجنودهما بالهلاك. حقق الله تعالى وعده لسيدنا موسى عليه السلام ومن معه فأنجاهم ثم اغرق فرعون وهامان وجنودهما رغم حذرهم من هذا المصير. وأمّا الحذر فقد كان بسبب تحذير كاهن لفرعون بأن هلاكه سيكون على يد مولود ذكر من بني إسرائيل، وكان يستضعفهم، فأصدر أمرا على أثر ذلك بذبح أطفالهم الذكور حال ولادتهم. وهذا شأن الطغاة المفسدين.

وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7)

وإذ حان وقت ولادة الطفل المرتقب أخْفَتْ أُمُّ موسى عليه وعليها السلام الامر فلم تستدع المولّدة واتبعت ما جاءها في ما أُوحي اليها من أمرين ونهيين وبشارتين؛ فالأمران هما بالإرضاع وإلقاء الطفل في نهر النيل في صندوق عائم، والنهيان بأن لا تدعَ للخوف عليها سبيلا وأن لا تحزن، والبشارتان بأن الله تعالى سوف يردّه اليها ويجعله من رسله.

فَالْتَقَطَهُ آَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8)

اللطف الرباني الخفي اوصل الصندوق العائم الى الشاطيء الذي عليه قصر فرعون من جهة النيل حيث كان عدد من جواري إمرأة فرعون هناك فشاهدن الطفل في الصندوق المذكور، وهذا مما أثارهن لغرابته اذ لم يحصل امامهن مِن مِثلِه وأخذْنه الى سيد القصر فرعون والى سيدة القصر زوجة فرعون ومن معها وهم لا يعلمون ان هذا الوليد قد قدَّر الله تعالى ان يقهر فرعون به في وقت لم يكن فيه لفرعون وهامان وجنودهما من يجرؤ على المجاهرة بمعاداتهم او اغاضتهم واثارة احزانهم.

وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9)

تحققت نتيجةُ الوحي. فاطمأنت ام موسى الى نجاته ولكن فؤادها له شأن آخر؛ قال تعالى عنه:

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (10) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (11)

وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (13)

نشاط الفؤاد الفكري يعمل عندما يتبين للانسان اختياره وتوقعاته. ولكن ام موسى لم يكن لها اختيار. فكان نشاط فؤادها صفرا حتى اقتربت من إفشاء ما في صدرها. وهنا أدركها المولى بما اوحى إليها من بشرى ملأت قلبها فاطمأنت مؤمنة بالوعد وأرسلت اخت وليدها عليه السلام لتأتيها باخباره فاذا بها تجده مع أعوان فرعون يبحثون عن امرأة حديثة الإنجاب قد يقبل الرضاعة منها حيث لم يرضع من المرضعات. وهنا تقدمت اخته وكأنها مستطرقة بشكل عفوي لترشدهم الى أُمِّه من حيث لا يشعرون. واخذتهم اليها فحقق الله تعالى للام البشارة الاولى بعودته اليها وواصل سيدنا موسى حياته في قصر فرعون وفي بيت أُمِّه مؤمنا بما آمنت به كاتماً ايمانه عن فرعون ويظهر بنوته لإمرأة فرعون. ولبث في قصرهما من عمره سنين حتى بلغ أشُدّه.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16)

في هذه الآيات نتلمس اللطف الرباني في إبعاد سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام الى مَدْيَنَ فكان بداية على طريق تنفيذ الإرادة الربانية لرسالته. والحوادث في

علم الله تعالى تحصل بمشيئته فيلطف في تنفيذها وتبدو للغافلين كأن الامور تجري بأقدارٍ آنيّةٍ لا يتعلق بعضها ببعض. وتبدو لأهل العلم دليلاً على لطف الله تعالى بشكل خفي. وهذا ما يجري في كل زمان ومكان. ويستدل من دعاء سيدنا موسى بعد ان قتل القبطي على لجوئه إلى الله تعالى اذ طلب منه المغفرة مقِرّاً بظلمه لنفسه وعرف ان ما فعله كان من مكائد الشيطان. ولا توجد إشارة على تعمده قتل المجني عليه.

قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (17) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (18) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21)

شأن المؤمن أن يشعر بمعيَّة الله تعالى فيرفع اليه ما اهمَّه ويعاهده على مرضاته ويناجيه ويدعوه فلا متسعَ في قلبِه لغير ربِّه ناشداً مرضاتِه وقُربَه. وهكذا عاهد موسى ربَّه ان لا يكون ظهيراً للمجرمين، أي لا ينصرهم أو يرضى بعملهم، فاذا باللطف الرباني يضع في طريقه حادثة مماثلة لما وقع في أمسه واذا بالاسرائيلي الذي إستغاثه سابقاً يطلب إغاثته من قبطي آخر! فقال له موسى: "إنك لَغَوِيٌّ مبين"! أي ظاهر الغواية. وجاء في التفاسير أن هذا القول أوقع في نفس الاسرائيلي ان موسى سيبطش به إذ لم يكن احدٌ سواه يعلم بما حدث في أمسه فقال لموسى (اتريد

ان تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس؟). وهكذا عرف القبطي قاتل الامس ونشر الخبر، فتآمر مَلأُ فرعون أي فئةٌ من حاشيته على قتل موسى عليه السلام. وأتاه بالخبر رجل (قيل هو مؤمن آل فرعون) يبحث عنه ليحذره من المصير اذا لم ينجُ بنفسه فخرج طالبا من ربه تعالى النجاة.

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24)

تزامن وصول سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام الى آبار مدين مع موعد سقي قطعان الماشية واذا بالرعاة من الرجال مجتمعون على الآبار ولم يكن بينهم من النساء واحدة. واذا باثنتين شابتين ترعيان الغنم تهشان (أي تخبطان بالعصا تلويحاً) على قطيعهما كي لا يتفرق فتذودانه عن بقية القطعان. فسألهما عن سبب انعزالهما فأجابتا بالسبب المذكور فتقدم نحو البئر القريبة منهما وسقى لهما ولم يتكلم معهما وانسحب الى ظل شجرة. وقد ورد في التفاسير انه كان في حال من التعب والجوع فعرض حاله على ربه العليم بحاله: (ربِّ إني لِما انزلتَ اليّ من خير فقير). وفي التفاسير أن إحداهما سمعت قوله فأثّر فيها. وبعد أن أخبرا أباهما عنه أرسل إحداهما إليه ليجزيه.

فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ

أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (28)

يتمثل اعجاز القرآن الكريم بتجنّب تفاصيل الحوادث إذا لم يكن فيها لزوم الربط بين الحوادث او العبرة المرجوة. وعلى هذا الاساس جاء هذا الشرح خاليا من ذكر صلة المؤمن الذي حذر سيدنا موسى عليه السلام، ومن ذكر اسم ابي البنتين، أو عدد سني الاجل الذي قضاه موسى عليه السلام مهراً لزوجته، أو هل كان من العرف السائد أن يستفيد والد البنت من مهرها أم يدفع لها بدله؟ ومع ذلك يفهم أن أبا البنتين كان الرجل الوحيد في العائلة وكان محتاجاً لمن يعينه، ورُجّح انه النبي شعيب عليه السلام كما جاء في التفاسير، وأن البنت التي قالت يا أبتي استأجره هي التي جاءت سيدنا موسى على استحياء وهي التي تزوجها وكانت قد لمست منه غض البصر، وقد تقدّمها في السير إلى أبيها وهي توجّهه كي لا تكون في مرآه عليه السلام. وكانت السنوات التي قضاها موسى عليه السلام كافية ليتهيأ بمشيئة الله تعالى لتلقي الرسالة.

فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ

كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (32) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (35)

لقد وردت اخبار سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام بعد احداث هذا السورة في الايات العديدة من سورة طه وأوّلها التاسعة والى نهاية الآية الثامنة والتسعين منها. كما جاء شرح موقف سيدنا موسى مع اخيه هارون عليهما الصلاة والسلام في سورة الاعراف. وفي هذه الايات ينتهي أوّل لقاء لسيدنا موسى عليه السلام مع ربه سبحانه وتعالى. وفيها أراه تعالى معجزتين واضحتي البرهان تؤيدان رسالته، وطمأنه تعالى بإرسال اخيه هارون عليه السلام معه ردءً أي عوناً يؤازره، ووعده تعالى وأخاه ومن يتبعهما بالتصديق والطاعة بالغَلَبَة مما بَعَثَ الثقة والثبات في نفسه.

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (36) وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (37) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40)

إضافةً الى ما جاء في الآيات التي بدايتها الثالثة والاربعون من سورة (طه)، فإن هذه الايات تبين إستكبار فرعون على المعجزات واعتبرها من السحر، والسحر

يحمل الافتراء وهو شدة الكذب. وبعدما أوضح له سيدنا موسى عليه السلام عن علم الله تعالى بمن ينال الدار الآخرة ومن سيخسر بما ظلم حجَبتْه نفسُه المتكبرة عن الحق ونفى أُلوهية غيره وطلب بناء صرح، وهو البناء العالي، تحدياً، ليطلع الى ما ظنه كذبا من أنّ هناك إلَهاً غيره. وهكذا قامت الحجة على فرعون لِيَسْتَوجِبَ على نفسه العذاب فقد إدّعى لنفسه الالوهية واستكبر هو وجنوده بغير الحق على بشر مثلهم ولّاهم الله تعالى امرهم ولم يدخل لقاء الله تعالى في حسبانهم فلا يرجون نشوراً ولا يعلمون ما أخفته لهم الايام وما أعد الله تعالى لهم فقد ألقاهم في اليَمِّ. أي النهر العظيم او البحر.

وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (41) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (42)

هذا العذاب الذي فاجأهم في الدنيا من غرقهم وذهاب ملكهم لم ينتهِ أثره عليهم في الدنيا اذ ان لعنةَ الله تعالى لحقتهم بسبب تكذيبهم فبذلك سنّوا سنّةً سيئة لمن سلك وراءهم مثلهم. وترددت اللعنة عليهم على ألْسِنَةِ الانبياء والمؤمنين فنالهم خزي الدنيا وتقبيحهم يوم القيامة بما دعَوا الى النار. وفي شرح معاني الاية السادسة والاربعين من سورة المؤمن العبرة من عذابهم.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (43)

المرحلة التي اعقبت هلاك فرعون نزل بعدها الكتاب أي التوراة فكان الهلاك الذي كتب على القرون الاولى (أي اقوام شعيب وصالح ونوح ولوط وابراهيم عليهم

الصلاة والسلام ومن لم يذكر من الاقوام) هلاكاً عاماً. امّا بعد التوراة فلم يهلك قومٌ بأكملهم بل حصل اقتصاص من أفراد وجماعات صغيرة لم يقطع دابرهم حتى بُعِث سيدُنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أرسله المولى تعالى رحمة للعالمين فبيّن الحقُّ تعالى منزلته في ما بين الامم ومنزلته في العالَمين. فقال:

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (46)

اذ بين المولى تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم تفصيل جهاد سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ومكوثه في مَدْيَنَ فقد جعل الله ذلك تذكرة لبني اسرائيل واهل الكتاب عامة اذ نسُوا حظا مما أُوتوا لتطاول العمر ومضيّ القرون (أي الأُمم) المتعاقبة. ولينذر برحمة من الله تعالى الملة الجديدة المتمثلة في الصحابة المؤمنين رضوان الله تعالى عليهم حتى بلغ استعدادهم كافيا لقبول الرسالة والتضحية من اجل اعلاء كلمة الله تعالى حداً جعلهم خير امة اخرجت للناس فقد ثبت لهم صدق الرسالة والرسول صلى الله عليه وآله وسلم اذ جاءهم باخبار امم لم يكن حاضراً بينهم او معاصراً لهم. وقد قامت الحجة في الاتّباع وقامت الحجة على الذين تولّوا وهم معرضون كما اخبر بذلك تعالى:

وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ

كَافِرُونَ (48) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (49) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50) وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51)

ما تُقَدِّمه الايدي من الاعمال لها دوافع حصلت أولاً في النوايا التي محلها القلب. فلو اصاب المولى جل علاه قوماً بمصيبة، بما إرتكبوا من شرك، ولم يكن قد ارسل اليهم قبلها رسلاً، فعندئذ سيقولون لو كان قد ارسل (إليهم) رسولا لما أشركوا. وهذه الحجة لن تحصل لأنّ الله تعالى يسبق بالرسل ليقيم الحجة على من يكفر. وهذا ما جرى للمكذبين في مكة وما جاورها إذ جاءهم الحق برسالة الاسلام قرآناً مبينا فيه ذكرهم وذكر الاولين وبيان الرشد من الغي أي الهدى من الضلال فالمكابرون يريدون آيات، كالعصا في يد سيدنا موسى عليه السلام، فرد الله تعالى عليهم بأن الكفر حصل بما جاء به موسى فنسبه آل فرعون للسحر. وها قد بُعث سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فنسب المكذِّبون إعجاز القرآن إلى السحر إذ إعتبروه والتوراة سحرين ثم كفروا بهما. والحجة عليهم ان لو كان هذا سحراً، فليعمدوا الى أعلمِ السَحَرةِ فليأتِهم بكتاب يرونه اكثرَ إعجازاً إن كانوا متأكدين من أقوالهم. ولا حيلة لهم في ذلك ولكنهم إتّبعوا أهواءهم وظلموا بآيات الله جحوداً وتكذيبا فكيف ينظر المولى عز وجل اليهم نظرة الهادي. وقد نزل القرآن فيه صلة لهم بأخبار ما سبق وبيان للعبر لعلهم يتذكرون كي لا ينالهم ما نال اهل الكفر والجحود.

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (52) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (53) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (54) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (55)

من اوتي الكتاب هم الصفوة من اهل الكتاب الذين القى الله تعالى في قلوبهم الحق وأَلْهَمَهُم التوحيد وهم الذين أُوتوا العلم بالبشارات ولم يؤثر فيهم اختلاف اهل الزيغ. فلما سمعوا القرآن الكريم آمنوا به. وهذا ما حصل لسبعين من قسيسي الحبشة ارسلهم النجاشي (أصحمة) ليجتمعوا بالرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم في مكة على أثر هجرة بعض اصحابه رضوان الله عليهم الى الحبشة. فلما اجتمعوا به قرأ عليهم سورة (يس) واسلموا بعد تفهم معانيها وفاضت اعينهم من الدمع عند تلاوتها فعادوا الى الحبشة واسلم معهم النجاشي رضي الله عنه وبقي على الاسلام. وعند وفاته صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلاةَ الغائب اذ قال كما ورد في التفاسير ((صلوا على اخيكم الغائب)). فبشرهم تعالى وامثالهم من اهل الكتاب الذين آمنوا كعبد الله بن سلام رضي الله عنه بأنّ لهم أجرَ إيمانهم قبل الإسلام وأجرَ إسلامِهم فيما بعد. وقد بين المولى سبحانه صفاتهم التي اهّلتهم للهدى: (وفيها للمؤمن معرفة مَن يتصف بمثلها فعندئذٍ يدعى للاسلام) بأنهم على خلق حسن، لا يقابلون السيئة بالسيئة بل يدفعونها بالحسنة، ويكرمون المحتاج والصديق، ويعرضون عن لَهْوِ الحديث كالغناء المحرم واللغو الذي لا علم فيه ولا نفع. وإن سمعوا شيئاً من اللغو اعرضوا مع بيان موقفهم بانهم فضلوا ما هو اسمى من ذلك، ثم يقصدون اهل العلم بدل اهل الجهل. وقيل ان رؤوس الكفر من قريش

اعترضوا الذين اسلموا من نصارى الحبشة لِيردُّوهم عن ذلك فأجابوهم بقولهم: "سلام عليكم لا نُجاهِلُكم. لنا ما نحن عليه ولكم ما انتم عليه". فخيبوهم فنزلت فيهم.

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56)

في هذه الآية بيانٌ لعلم الله تعالى علماً لا يُدركه بشرٌ لِما فيه من كشفِ مكنونات القلوب وما سيحصل في الغيب الذي سيكون في المستقبل، وما يُخْتَمُ به لمن يقترب أجلُه. فالله تعالى كلّف الرسل بالبلاغ، وكلف المؤمنين بالإستقامة والطاعة والتقوى بقدر الاستطاعة. وجعل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الأُسوةَ الحسنة في كل سُنّتِهِ الشريفة ولا سيما الدعوةُ بالحكمة والموعظة الحسنة. ولكنّ الهدى لا يؤتيه إلا الله تعالى العالم بإنابة القلوب ولا يعلم إلإخلاص في الإنابة إلا هو سبحانه، فلا يطلع على الإخلاص مَلَكٌ فيكتبه ولا شيطان فيُفسِده. والرسول صلى الله عليه وآله وسلم يؤمن للمهتدين بعد الهدى بما يُعَلِّمُه الله تعالى. وكان يدعو ربَّه أن يهدي قومه. ومن ذلك دعا الله ان ينصر الاسلام بأحد العُمَرَين؛ أحدِهما سيدنا عمر. وكان الصديق معه فقال (آمين) وفي رَوْعِه أن يكون المهتدي منهما عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما). وعلى أثر ذلك أسلم سيدنا عمر وقال فيما بعد عن الصديق في قوله آمين: "أنا حَسَنَةٌ في صحيفة أبي بكر".

وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (57)

قصرت عقول اهل الكفر عن مقدار رعاية الله تعالى وولايته لعبادة الصالحين. فما قَدَرُوا الله حق قدره. وتوهموا أنهم إنْ خالفوا دين آبائهم ثم عَلِمَتْ بهم القبائل ومن حولهم مِن احياء العرب فقد يسلبوهم الأمن فلا يأمن قرشي على نفسه! وهذا القول يدل على انهم لمسوا الحق في دعوة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولكنهم لم يفطنوا الى ان الله تعالى اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف على كفرهم فكيف لا يتولاهم على ايمانهم. وهكذا قال تعالى عنهم (وكانوا الاكثرين) بانهم لا يعلمون. اما الثمرات التي اشار الله تعالى اليها فهي كل ما يمكن ان يحتاجه اهل مكة من امتعة وثمار وتجارة من الاماكن القريبة كالطائف والبعيدة كالشام واليمن وما بعدهما.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (58) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (59)

الخبر عن هلاك العديد من المدن هو لتحذير كفار قريش من عاقبة التكذيب لئلا يكون مصيرُهم مصيرَ تلك القرى التي وجهت نعمة الله تعالى في معيشتها الى بطر العيش. أي كان اهلها يقابلون النعمة بإساءة التصرف والإستهانة بها ولم يَسْتَبْقُوها بالشكر الذي به تدوم النعم وبه يستجلب غيرها بما وعد الله تعالى بقوله ((لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُم)). فكانت المعاصي من طغيان وشرك وبطر سببَ زوالِها وسببَ هلاكِهم فما بقي لهم من يَشْغَل ديارَهم إلا مستطرقٌ او مسافر مع انهم كانوا على بيّنة من جحودهم اذ بعث الرحمن فيهم رسلا أوضحوا لهم مراد الله تعالى في

اصلاح دنياهم وأُخْراهم. فما كان المولى ليهلكهم لو اصلحوا ولكن ظلموا فاستحقوا الهلاك واصبحت ديارهم خراباً موروثاً لله تعالى.

وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (60) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61)

ما ورد من ذكر في القرآن لـ(المتاع) فهو للنعمة الدنيوية الزائلة من مساكن واثاث وتجارة رابحة ووسائل الراحة. واما الزينة فقد ورد ذكرها في القرآن ليبلو اللهُ تعالى بها كالمال والبنين والانعام وزخرف الحياة الدنيا مما يقع في النظر موقع الاعجاب. فما أُفْنِيَ منها لوجه الله تعالى من بِرٍّ وإحسان وعمل صالح فهو مَجْلَبَة للخير الدائم الخالد الذي لا يفنى. يدَّخره الله تعالى لأصحابه. فهؤلاء الكفار (وقد حذرهم المولى تعالى في الآيات السابقة من مصير الهالكين) هل قصرت عقولهم ليفضلوا الزائل الفاني على النعيم الباقي؟ فالمؤمن الذي إدّخر الحسنات وقدمها لحياته الحَقّةِ موعود بها وعداً حسناً. والكافر الذي اذهب طيباته في الدنيا واستمتع بها يؤتى به يوم الحساب مع من تُحضِره الزبانية للعذاب.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (62) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (63)

يذكّر المولى عز وجل بيوم القيامة. فليذكر المشركون يوم يأتيهم من الواحد القهار نداء التوبيخ متسائلاً (وهو يعلم الاجابة) أين من زعموا له صفة الالوهية من

غير الله او مَن أوقفوا حياتهم لتقديسهم من غير الله تعالى؟ فيعلم عبيد الدنيا وعبيد من زيّنها في اعينهم من شياطين وأنداد أنهم المقصودون. كما يسمع النداء كلُّ داعٍ الى الكفر وكل شيطان كان يُعبد او يصد عن سبيل الله وكل طاغوتٍ عُبِد من دون الله فيشهدون على الذين جعلوهم شركاء أو إستجابوا لهم على عبادة الشركاء، فيتبرأون منهم ومما فعلوه من اجلهم. وهنا إلتفاتةٌ الى استثناء المؤمنين الذين عُبِدوا من دون الله وهم في غفلة عن ذلك بأنهم سبقت لهم الحسنى فلا يحشرون مع من عبدوهم كما جاء في شرح الآية الحادية بعد المائة من سورة الانبياء.

وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (64)

بعدما يتبرأ المعبودون من دون الله ممن عبدوهم وهم معزولون عنهم يُطلب بأمر من الله تعالى من المشركين أنْ يدعوا الشركاء ولكن اذ يفعلون ذلك ولا يلقَون ردّاً يفاجأون بظلمهم ويتحقق عندئذ ما توعّدهم الرسل به من عذاب المشركين فيتمنّون لو انهم كانوا مهتدين.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65)

هذا النداء موجّه لكل من بلغته رسالة الله تعالى مع رسول زمانه عليهم السلام ولأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى يوم القيامة ليراجعوا اجاباتهم عندما بلغتهم فمنهم من سبق وآمن ومنهم من اقتدى ثم آمن ومنهم من أظهر الإيمان ولم يؤمن ومنهم من كفر فلا حجة له.

فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (66) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (67)

الانباء التي عميت عليهم هي الحجج التي يتذرعون بها إختفت من عقول المشركين والكفار فيتحيرون من كنهها ولا يتساءلون، أي لا يسأل البعض من البعض عن الحجج فهم في جهلها سواء فكيف يوضح احدهم لغيره. كما لا يحصل تساؤل قريب عن قريبه. واما المؤمنون الذين آمنوا وعملوا الصالحات في توبة نصوح فموقفهم موقف الفلاح والنجاح تبيض وجوههم بصحة الجواب لصدق استجابتهم اذ هداهم المولى تعالى بما انابوا اليه وبما صغت قلوبهم لدعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (68) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (69) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (70)

الله يختار ممن خلقهم بمشيئته مَن علم فيهم الخير وصفاء القلوب. وما كان لبشر في ما قضاه الله تعالى ان يقترح او يختار. فمِن صحة الإيمان أن يلجأ إليه العبد. ومن يلجأ الى غيره فقد اشرك. فيحاسِب تعالى من أشرك واضمر المعصية والفسوق فهو العليم بما تستره صدورهم وما تعلنه ألسِنَتُهم. فله الحمد اذ يحكم على خلقه بالعدل والحكمة البالغة وله القهر والغلبة في الدنيا والاخرة يوم الرجوع اليه فلا يتخلف احد عن امره. ثم يبين المولى تعالى تفرده بالألوهية فما غيره يخلق من يشاء ويختار من يشاء. فالذين كملوا من خلقه فقد اختار الله تعالى لهم الكمال عن علم

بما اختاروه من إنابة تسترها صدورهم وبما يعلنون. ومن حَجَبَتهم الاهواءُ فقد اختار لهم المولى العادل الخذلان بما اختاروه من حُجُب. ويعطيهم من صفاته؛ فهو أرحم الراحمين وهو شديد العقاب. فيُسعد من يدخل في رحمته بحمده تعالى. ويُشقِي من استحق عذابه بعَدْلِه. وله الحمد.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (73)

الظروف الملائمة للعمل أو للراحة هي من نعم الله تعالى. وقد يغفل عنها البعض. فالأجسام كما هي بحاجة للراحة والسكون كذلك يطلب منها الحركة والانتقال والشغل لكسب العيش ولولا تعاقب الليل والنهار لشق على الناس عيشهم. وهذا ما يستوجب التفكير والوصول الى الإمتنان والشكر بالعبادة وفعل الخيرات.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (74) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (75)

الذين اغضبوا رب العزة الواحد الاحد بنسبة الشركاء له، يطلب اليهم تقديم الحجة التي استندوا عليها بذلك. فيطلب اليهم بيان موضع وجود الشركاء واحضارهم فلا يملكون علماً بذلك فيؤتى بالانبياء والرسل مع براهينهم وكل منهم شهيد على من بَلَغَتْه رسالته فاستكبر واصر على الشرك فعندئذ، وإذ خاب ظنهم

بشركائهم المزعومين، تتكشف لهم افتراءاتهم الباطلة. فالحق لله تعالى ولا نفع لهم ممن اشركوا بهم.

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (80) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (81) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (82)

قارون كان من النوع الذي يفتنه المال عن دينه ففي التفسير انه كان ذا صوت حسن يتلو التوراة حتى سمي (المنوّر) وله صلة قربى بسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام. الا ان علم الله تعالى بدناءة قلبه منحرفاً عن الدين لم يتركه على ما كان عليه اذ لم يأخذه حتى آتاه الفتنة التي يعلم انها تكشف حقيقته المكتوبة في اللوح المحفوظ. ولم يرد في التفاسير شيء عن بداية ثرائه او مصدر ماله إلا انه قال إنما أُوتيتُه على علم عندي فنسب الفضل لنفسه ولم ينسب ذلك لفضل الله تعالى ليبلوه أيَشكرُ ام يكفر. اما بغْيُه على قومه ففي التفاسير: إما ان يكون تكبراً او استغلالاً

لمنصبه او استعلاءً بمالِه. وفي كل ذلك بَغْيُه يحمل الظلم. ووصف تعالى ثراء قارون بكثرة الكنوز، والكنز هو مخزون المال المقفَل عليه من غير تصريف، وبلغ من كثرتها ان مفاتيح الكنوز أثْقِلَتْ على مجموعة رجال اقوياء. وقد نصحه المؤمنون من قومه وطلبوا منه العمل للآخرة أي ان يفتح قلبه للفقراء فيعطيهم من كنوزه حقوقهم فيها، وأن يَصلَ رَحِمَه بإيتاء ذي القربى، وان يتقرب الى الله تعالى ابتغاء رضوانه في الدار الآخرة برحمة اليتامى والمساكين بما يسد حاجاتهم الدنيوية ويصلح حالهم أُسوةً بأهل اليسار. وبهذا يطلب الآخرة بالدنيا فهي فرصته لكسب الآخرة. وان ينتهي عن الفساد في الارض أي من الإساءة الى عباد الله. وقيل اراد الكيد لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام. ولكن قارون كان في واد آخر إذ زين له الشيطان سوء عمله ونفخ فيه الغرور بأنّ عِلْمَه سبّب له الثراء وأن علمه جاء من عنده اذ لم يتعلمه من معلم. وهكذا كان عبرة لمن ينسب الفضل لنفسه ولا يذكر فضل الله تعالى عليه فيقابله بالشكر في طاعته سبحانه. ولم يعتبر هو بمن اهلكه المولى القدير ممن كان اكثرَ جمعاً وأشدَّ قوّةً توعدهم تعالى بدخول النار من غير ان يُسْألوا وذلك لإعترافهم بكثرة سيئاتهم وخُلُوّ ميزان الحسنات منها فلم يعمل بالنصيحة بل خرج في زينته مع خدم وعبيد على خيول ذات زينة. وهنا اصبح فتنةً لمن يريد الدنيا. فافْتُتن البعض من قومه إذ تَمَنَّوا مكانه واعتبروه عظيم الحظ! أما الذين أُوتوا العلم بالله سبحانه وما إدّخر لعباده بعد فناء الدنيا الزائلة فقد زجروا اولئك الغافلين وذكّروهم بثوابٍ أفضل للمؤمنين يُلَقّاه اهل الصبر على الطاعة وعلى ترك الشهوات. وفي اليوم التالي فوجئ من تَمنّوا مكان قارون بِخَسْفٍ شَمَلَ قارون مع داره على سعتها وضخامتها. فلم يَجد له من يأخذُ بيده. وقيل ان الله تعالى اهلك قارون مع امواله لكي لا يرثه أحد. واذا

بمن تمنَّى مكانه يقول كلمة الندم على الخطأ وهي (وَيْ) وقولهم (وَيْكَأَنَّ اللهَ) إقرار لله تعالى في حكمته. وقولهم (وَيْكَأَنَّهُ) إقرار بِمصير الكافرين.

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83)

أشار تعالى إلى الدار الآخرةِ وإلى وعده بأن يجعلها للذين زهِدوا بالدنيا وفَناءِ مخلفاتها وزوالها وزوال مناصبها وأنصِبَتِها فالتزموا بالعِفَّة عنها ونأَوا بأنفسهم عن الفساد فيها، واتَّخذوا من طاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وقايةً من سوء العاقبة. فبلغ بهم ذلك ان لا يرى أحدهم فضلا لنفسه على غيره ولا ينشغل عن ربه بما في يده أو يراه خيراً مما في يد غيره.

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (84)

يذكِّرنا المولى الكريم بعد هذه العِبَر بأن نجتهد في الحسنات لنيل ما هو افضل. واما اهل السوء فَيُجْزَوْن على اعمالهم كما يشاء الله تعالى لهم. وقد جاء شرح لمثل هذه الآية في معاني الآيتين التاسعة والثمانين والتسعين من سورة النمل.

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (85) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (86) وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (87) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (88)

نـزلت سـورة القصـص جميعهـا في مكـة إلا الآيـة الخامسـة والثمـانون- أعـلاه- فقد ورد في التفاسير من صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنّ المعاد المقصود هنا قال عنه (الى مكة). وقد اورد ذلك الطبري في تفسيره والنسائي في تفسير سُنَنِه مع القول بأن الآية نـزلت في طريق الهجرة من مكة الى المدينة في الجُحْفَة. والى جانب ذلك اوردت التفاسير احتمال كون (المعاد) هو الآخرة بدليل الآيات التي سبقتها والتي تضمنت السؤال من الكفار عن جوابهم للمرسلين وذلك يوم الحساب كما جاء في الاية الخامسة والستين آنِفة الذكر. وكما جاء في الاية الرابعة والسبعين بعدها بالاستفسار من المشركين عن مصير شركائهم المزعومين. ثم قوله تعالى بعدها ((وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا)) أي الانبياء والرسل مع براهينهم ولهذا قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم ((إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)). كما طلب تعالى من رسوله ان يبين علم الله تعالى بمن هو على الهدى ومن هم في ضلال وشك. وبين تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأنه موضع عنايته جعله اهلا للرسالة مخصوصاً برحمةٍ ما كان يدور في خاطره نوالها بنزول القرآن الكريم على صدره ونيل أسباب إعلاء كلمة الله تعالى لحمل الرسالة بالوفاء والشكر مما يدعوه الى اقتصار الصلة على الله تعالى وعدم إعانة المشركين على شركهم بما لا يكون لوجه الله تعالى. وفي هذا أمرٌ لكل مؤمن مسلم بأن لا يُنَفِّذَ مقاصده لغير وجه الله تعالى فكل شيء هالك إلا وَجْهَهُ. فمن يعمل للهالِكِ يفنَى ذلك العمل معه فإن كان إثماً فعليه وِزرُه وإن كان مباحاً فلا ثواب فيه. فلا بقاء ولا حكم ولا رجعة إلا لله العليّ العظيم.

سورة العنكبوت

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3)

الاحرف المقطعة (تقرأ أِلِف، لام، ميم). وقد جاءت هذه الأحرف الثلاثة بعد البسملة في سورتَي البقرة وآل عمران وفي هذه السورة والسور التي بعدها الروم ولقمان والسجدة. وجاءت مع زيادة (ص) في سورة الأعراف، و(ر) في سورة الرعد. ولله تعالى مراده والله اعلم. وقوله تعالى ((أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)) إستفهامٌ عما يجري في حُسبان الناس عندما يفاجأون بأمرٍ كانوا غافلين عنه. أي هل اطمأن من قال (آمَنْتُ) الى انه لن يُختبَرَ لِيُظهِرَ الله تعالى له صِدْقَه إن ثبت ثم صبر على متطلبات الايمان من جهاد وعبادة وزهد والتزام ونهي النفس عن الهوى؟ أو ليظهر كَذِبَه إن خَلَدَ الى الدنيا فلم ينهض باعباء الاختبار فهرب منه. وعِلْمُ اللهِ تعالى هنا هو علم ظهور وإثبات الحجة وإلا فهو العالم من الازل وعلمه في كتاب كما جاء في شرح الاية الخامسة والسبعين من سورة النمل. وقد نزلت الآيات أعلاه لبيان فضل الصادقين من اوائل الصحابة رضوان الله عليهم في ما عانوه من المشركين.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (4)

في هذه الاية يدخل في وعيد الفتنة أُولئك الذين لم يدخلوا في الايمان. وفتنتُهم من نوعٍ غيرِ الفتنة التي يُمتَحن بها المؤمنون. فقد دخلوا في فتنة السيئات التي تُرديهم في عذاب غليظ. فإن المولى تعالى اَعدّ لهم مسبقاً ما توعّدهم به لعلمه بما سوف يُصِرُّون عليه. وهكذا كان حسبانهم سوءً في الحكم انقلب عليهم. فإبتلاء المؤمنين فيه مجال للنجاة بالصبر والطاعة. اما هذا الاختبار الثاني لأهل السيئات فقد جاء من ظنهم السيئ بأنّهم لن يُحاسَبوا أو يُعاقَبوا. وذلك جحوداً بآيات الله تعالى.

مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآَتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (5) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (6) وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (7)

بعد بيان مصير الذين لا يرجون حساباً ذكر تعالى الذين يرجون رضوان الله تعالى وثوابه. فبين تعالى أن الأجل المرجوّ لهذا اللقاء آتٍ لا محالة فهو اعلم برجائهم واقدر على تحقيق وعدِ الصدق لمن عمل من اجل يوم اللقاء. فجاء جهادهم عن إيمان مقرون بالعمل الصالح فيحقق الله تعالى من مغفرته لهم ما يرجّح به ميزانَ حسناتِهم فيجزِيَهم بأفضلِ اعمالهم. فكما اكرموا يكرمهم الله تعالى بكرمه الكريم وهو اكثر وهكذا ينفع المؤمنَ صدقُه في جهاده بنيل رضوان الغني عن العالمين سبحانه.

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (9)

الوصية بالوالدين من رب العزة لها مظهر بأوامره تعالى بالإحسان اليهما والدعاء لهما، ولها من الفطرة نصيب لورود الخبر عنها في قوله تعالى في سورة الاسراء ((وَقَضَى رَبُّكَ أَلّا تَعْبُدُوا إِلّا إِيّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)) الآية. فالفطرة التي يولد عليها الانسان موحِّدة نقية ملتزمة بالوصية. ومن سورة لقمان يقول تعالى ((وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ)) الآية. وقد يخالف الوالدان الفطرة في اولادهما يدعوانهما للشرك وفي هذا لا يُطاعان. فحقُّ الله مقدم على حقهما في طاعته. وسوف ينبئُهما المولى بما كانا عليه من الضلال. واما المؤمن الذي يتبع أصلحَ ما يمكن من العمل والقول فَيُكتَبُ عند الله تعالى صالحاً. وقد امتدح المولى الصالحين وفيهم الأنبياء اذ قال عن سيدنا ابراهيم ((وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينِ)) في الاية الثلاثين بعد المائة من سورة البقرة.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (10) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (11)

إذا لم يكن لمن يقولون: "آمنا بالله" ثمّةَ أصلٌ ثابت في ذات الصدور بلا ريبة او شكوك فالأقوال تتهاوى امام الابتلاء. وبهذا يعرف الصدق من الكذب. اما الابتلاء هنا فهو الاذى بسبب إعلان المرء إسلامه بين مجتمع مشرك. فالايمان الراسخ لا يتزعزع بالأذى او غير ذلك كالخسارة او تسلط الاعداء. كما أن النفاق

ينكشف عند هذا الإبتلاء إذ يفضل المنافقون مودّة الناس غير آبِهين لعذاب الله. فلا يطيب لهم جهاد الكفار ويتخلفون بشتى الاعذار. فاذا جاء خير من انتصار المؤمنين بادروا لطلب نصيب من الغنائم باعتبارهم قد اعلنوا اسلامهم. والله تعالى يعلم كيف يعد الاختبار الملائم لكل منافق ليقيم عليه الحجة ويشهدهم على انفسهم انهم كانوا كاذبين.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (12) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (13)

لجأ الكفار الى شتى الطرق والاساليب لصد الذين آمنوا عن سبيل الله تعالى. فآذوا من تمكنوا من ايذائه. واما من استغنى عنهم ومُنِع منهم فقد بادروا اليهم بالاستمالة وعاهدوهم بتحمل ما يمكن ان يكون خطيئة اذا عادوا الى دين آبائهم. فكذّبهم المولى تثبيتاً للؤمنين بان هؤلاء الطغاة لن يحملوا من اوزار من يصدّونه عن الإسلام بل يحملها صاحبها بنفسه. ثم يوضع مثل ثِقْلِها على من أضلّه فسبّب له الوزر. وقد قال تعالى في الاية الخامسة والعشرين من سورة النحل ((لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)). وبعد ذلك على هؤلاء الكاذبين ان يقدموا جوابا وبرهانا يوم القيامة على قولهم فلن يجدوا ذلك لانهم لا يملكون تخويلا من هذا القبيل في الدنيا، ولا عذر لهم في الاخرة.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (15)

يأتي المولى العزيز بقصة سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام في أكثر من سورة لتكون مدعاة للصبر بالنسبة لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتسلية له. اذ ان القرون العشرة التي لبثها سيدنا نوح عليه السلام في قومه يدعوهم خلالها إلى الهدى لم تنقذ منهم إلا قليلاً من المؤمنين. وبهذا يكون على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يصبر كما صبر أُولو العزم من الرسل ولا يكترث لمن لا يهتدي لأنه إنما أُرسل رحمةً ينالها من يطلبها بأسبابها فيدخل في اجوائها الرحيبة. فمن أبى فلا يُسأل عنه. والله يهدي من يشاء. ونجاة اصحاب السفينة كانت بمشيئة الله تعالى ولتكون السفينة علامة على قدرة الله تعالى على أن ينجي المؤمنين بتهيأة اسباب نجاتهم قبل وقوع الهلاك الذي أعده للكافرين. وتفصيل ما جرى لسيدنا نوح عليه السلام مع قومه في سورة هود.

وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (16)
إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ
لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17) وَإِنْ تُكَذِّبُوا
فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (18) أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ
يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (19) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا
كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآَخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) يُعَذِّبُ
مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (22) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ
أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (23) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا
اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (24) وَقَالَ إِنَّمَا

اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (25) فَآَمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (27)

وفي قصة سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام العِبَر المناسبة للظروف التي مرت على الدعوة الاسلامية في عهدها المكي وما قاسى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من كفار قريش. كفروا بآيات الله تعالى وأشركوا به ما لم يُعقَل بعد بيان القرآن الواضح لأُلوهية العزيز العليم. فقد تماثل الموقف في عبادة الأوثان ونسبة الأقدار إليها إفكاً-أي كذباً صراحاً شديداً- يبطله الواقع مع موقف قوم إبراهيم عليه السلام. فمَن غير الله تعالى قادر على توفير الرزق واستحقاق الشكر وإحياء الموتى؟ وأصروا على التكذيب كما فعل الذين من قبلهم عندما بلَّغهم رسولُهم بأنْ لا إلهَ إلا الله وانه القادر على الخلق وعلى البعث بعد الموت وعلى كل ما يشاء. ومن ذلك رحمته لمن يشاء وعذابه من غير أن يُنسبَ اليه ظلم. وأنّ الخلق سيحشرون عنده وليس لهم في قهره أيُّ قدرةٍ في الارض او السماء. ولا يمكن لغيره نُصرةُ أحدٍ منهم. والذين لا يؤمنون بلقائه جل علاه لا يرجون نصيباً لهم من رحمته بل ييأسون منها ويلاقون ما أعدَّ لهم من عذاب شديد الألَم. واوضح سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام لهم بعد نجاته من النار أنما جمعتهم صداقة الدنيا على عبادة الأوثان وستنقلب هذه الصداقة الى لعنات عندما تنتهي اسبابها وتنكشف لهم حقيقة الاوثان يوم القيامة ومصير ذلك الى النار. أما نجاته من النار فإن قومه بدلاً من التصديق اقترحوا ان يحرقوه ليكون عبرة لغيره. ولما ابرموا امرهم بذلك فوجئوا بنجاته.

وهكذا يؤكد المولى عز وجل قدرته على نصرة دينه ونجاة رسله فيثبِّت بذلك عباده المؤمنين. ويبين تعالى مدى جحودهم بتعنت بما أتاهم من خبر يقين لسعادتي الدنيا والاخرة حتى بلغ بهم الانكار الى قتل من يدعوهم الى عبادة ربهم الواحد الاحد. واقترحوا قتله او حرقه حياً. ثم اعدوا المنجنيق وهو وعاء يحمل الحجارة الكبيرة الثقيلة ويتصل بذراع طويل يرتكز جزء منه على محور فإذا سُحِب الجزء الاسفل من المحور ارتفع الجزء الاعلى قاذفاً الحجارة من وعائه بعيداً نحو هدفٍ ما. فاستعمل القوم هذا ليرموه في النار وخابوا إذ اكرمه المولى بالنجاة واهلكهم. وكان سيدنا لوط قد آمن بسيدنا ابراهيم فتبرَّأ من قومه واكرم الله تعالى سيدنا ابراهيم بإسحاق، ومن بعد إسحق بيعقوب حفيدا، عليهم الصلاة والسلام. وله عند الله ما للصالحين يوم ينفع الصادقين صدقهم. وقد نزلت قصص الانبياء في مكة قبل الهجرة وفيها تسلية لرسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتثبيتٌ للفؤادِ الذي يصدقه الصبر والاستبشار حتى حقق المولى له فتح مكة وكسر اصنامها وتحطيم اوثانها ودحر شياطينها بكمال الدين وتمام النعمة بالاسلام دينا يرضاه الله تعالى لخير امة اخرجت للناس.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (28) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (29) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (30) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (31) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (32) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ

بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (33) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (34) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (35)

الافعال التي نسبت الى قوم لوط في التفاسير (اضافة الى المنكرات في ما بين الذكور): التحرش بالمارة بقذف الحصى، وقطع الطرق البرية للسلب، والتفحش وبذاءة في الاقوال ومبارزة الدِيَكة ومناطحة الكباش، والتضاحك، وفرقعة الاصابع، والسباب والمزاح البذيء. ولم يكن احد ينكر على قومه في ناديهم ذلك أي في مجالسهم (والنادي هو اجتماع الناس في اوقات الفراغ في أي مكان عام بين الدور او خارجها). وفوجئوا بسيدنا لوط عليه الصلاة والسلام ينكر عليهم هذه الافعال، ويطلب اليهم الايمان والعمل الصالح وإلا فالعذاب واقع بهم. ولكنهم تحدوه بإسلوب ساخر بأن يأتيهم بما توعَّدهم به. فقد ظنوا كذبه. وهكذا الرسل يطلبون من الله تعالى النصر عندما لا يجدون غير نصر الله تعالى سبيلا للخلاص من تكذيب وبطش اقوامهم. كما جاء في سورة هود والاعراف فإن الملائكة الذين امرهم تعالى بإنزال العذاب على هؤلاء الكفرة مروا بسيدنا ابراهيم فبشروه بولادة اسحق ابناً ومن وراء إسحق يعقوب حفيداً، وأنبأوه بما سيحصل بقوم لوط بما فيهم إمرأته من عذاب ينجو منه لوط واهلُه إلا امرأتُه. واما سيدنا لوط عليه الصلاة والسلام فقد فوجئ بما سيؤدي الى المواجهة بينه وبين المفسدين اذ سيتحرشون بمن يظنون انهم ضيوف وقد جاءوا بصورة شباب مُرْد (أي لم ينبت لهم شعر في الوجه) وهذا ما فيه من جرأة المطالبة بهم ولا قِبَلَ له بصدِّها حسبما رآى من موقفه، فضاق ذرعا، (أي طاقة) بالموقف. وإذا بالضيوف ملائكة! وباقي المشهد الذي يصف

الهلاك والنجاة مشروح في الايات التي اولها السابعة والسبعون من سورة هود عليه السلام. واما الاية التي تخلفت عن عذابهم الذي فيه اللعنة والخزي فهي في بعض التفاسير خراب منازلهم وسواد الماء على ارض سدوم عاصمة قراهم. وكراهة الروائح المنبعثة من ذلك.

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآَخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (36) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (37)

تقدمت قصة سيدنا شعيب عليه الصلاة والسلام في ثلاث سور سابقة هي الاعراف وهود والشعراء بما فيه تفصيلٌ وافٍ. وامّا قوله تعالى (وارْجُوا اليَوْمَ الآخِرَ) فمعناه يحمل تحذير عذاب الآخرة ورجاء لقاء الله تعالى بعملٍ صالحٍ ونجاة صاحبه كما قال تعالى في آخر سورة الكهف: (فمن كان يرجو لقاء ربه فَلْيعملْ عملا صالحا) الاية. والعُثُوُّ في الأرض هو الإفساد فيها بالقيام بالأعمال التي تتعارض مع الفضائل والإحسان إلى الناس مما سبب لأهل الكفر في مَدْيَنَ هلاكهم.

وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (39) فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (40)

مساكن عاد كانت في (الأحقاف) قريباً من حضرموت، وهم قوم سيدنا هود عليه السلام. وأمّا مساكن ثمود فهي الحِجْرَ (بكسر الحاء وسكون الجيم) وهم قوم

صالح الذين كذَّبوا بالآية الواضحة، أي الناقة. والْحِجْر في الأردن قريبا من وادي القرى. وكانت مساكنهم معروفة لعرب الجزيرة في أسفارهم بين الشام واليمن. وكانت اعمال ثمود السيئة التي ورد ذكرها في سورة هود قد صدَّتْهم عن قبول الحق وعن الايمان، وكانت سبباً في تسلط الشيطانِ عليهم بها فزينها لهم في الوقت الذي فيه كانوا على علم وتبصرة في أعمالهم التجارية ومنافعهم، متمكنين من النظر في أُمورهم. وبهذا تقوم الحجة عليهم اذ لم يَعرُضوا على بصيرتهم وعقولهم الحق الذي جاء به الرسل. واما قارون وفرعون وهامان فقد ورد إيضاح لبغيهم الفساد في الأرض في سورة هود عليه السلام وسورة القصص. وكانت السمة الغالبة على أفعالهم هي التكبر والاستعلاء والخيلاء واستعباد الناس، وكانوا بذلك هدفاً للقدر الرباني بهلاكهم فقد سبقهم تعالى بما أعدّ لهم من عذاب كالريح التي حملت الحصباء المهلكة لعاد والصيحة لثمود والخسف لقارون والغرق لفرعون وهامان. والعبرة من ذلك انهم استحقوا الصنف المقدر من العذاب لفعلهم القبيح مع قيام الحجة عل قبحه فلم يحصل عذابهم ظلماً.

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (42) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (43)

الامثال التي يضربها الله تعالى بالمرئيات المادية تعطي المعاني المجازية لإيضاح حقيقة كل شيء على الوجه الذي يريدنا أن نعلمه أي حقيقة ذلك الشيء عنده سبحانه. فعبادة غير الله تعالى لا تقي العذاب مَثَلُها مَثَلُ بيت العنكبوت لا يمنع

الريح والحر والبرد لعدم تلاحم أجزائه. فالوَهْنُ أن تكون القوة في الشيء لا تكفي لمقاومة الخطر خارجه. واما هذا الحال فقدكان خافياً على من زُيّن له أن يتولى ما لا يمنع الخطر عنه. وهكذا حقيقة المشركين معلومةً عند الله تعالى على اصح وجه وهو في عزته غني عنهم وحكيم في أخذهم في أجَلِهم سبحانه. وهكذا الامثال المادية. فأهل العقول والعلم عندما يعرضون أعمال أهل الزيغ على الاوامر الربانية تتضح لهم حقيقتها الخافية.

خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (44)

بعد المثل بالحيوانات صغيرة الحجم يوجّه المولى تعالى تفكير المؤمنين الى خلق السماوات والارض والى الحكمة في خلقهما لتتكامل اسباب حياة الجن والإنس ليعبدوه. وفي عبادته إظهار حقه فيها حصراً فلا يعبد غيره. ويكون كل حق مداراً في العبادة والأحكام والمعاملات. وبذلك تبرز أهمية الحق في إقامة العدل والتضحية في سبيله وإظهاره بإعطاء كل ذي حق حقه.

اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (45)

وللوقوف على اوامر الله تعالى في عبادته، وللتعرف على نواهيه في ما لا يرضاه، لا بد من تَدَبُّر القرآن مع الرغبة في التقوى والإستعانة بأهل العلم. واما للتذكير بالعمل بالأوامر والنواهي فيبرز دور الصلاة المفروضة في أوقاتها، والنوافل في الليل والنهار إضافة إلى كونها الناهية العملية عن الفحشاء أي قبيح الذنوب ومنها الزنا، وعن المنكر أي ما لا تقرّه الشريعة. وينبّه المولى تعالى إلى ذكره فهو تعظيمه

وطاعته ومحبته وطلب عونه ونصرهِ إيانا لنصرته على الدوام مما يبعث على خشيته عند دواعي المعاصي، ويبعث على رجائه بالإستغفار للزلات. وهو تعالى العليم بما وراء الأفعال والأقوال من النوايا؛ سواء حسُنت لوجهه تعالى، أم ساءت في حب الدنيا.

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (46)

المعاملة مع اهل الكتاب تتبين بوضوح لأهل الايمان من معرفة التوجيه الرباني حتى استقر معهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أُسُسٍ في معيشتهم مع المسلمين. وأهل الكتاب وهم اليهود والصابئة والنصارى، منهم الذِمّيُ المقيم في ارض الاسلام وليس له وطن اخر غيرها، ومنهم المستأمن وهو من يدخل ارض الاسلام من غير المسلمين برضى اولياء المسلمين لغرضٍ من الاغراض الاقتصادية او الاجتماعية او العلمية او الوفادة او الوظائف كالسفارات والوفود الرسمية وما الى ذلك. اما المجادلة معهم فهي موضوع هذه الاية. فالمجادلة تخصّ الايمان بالله واليوم الاخر والملائكة والكتاب والنبيين. فمنهم من تنفعه الذكرى لإستعداد فطرته لقبول الحق الرباني في وحدانيته والاخلاص في عبادته فهؤلاء يُجادَلون (بفتح الدال) بالتي هي أحسن كما قال تعالى في سورة النحل: ((ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)) الاية. اما الذين لا يُرجى منهم قبول الحق تعنتاً ومكابرة فهؤلاء لا يؤمن جانبهم في الكيد للاسلام والمسلمين ولهذا قال تعالى ((إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ)). فيكون موقف المسلمين منهم التربص لِما يقومون به من كيد او

دعاية او مجاهرة بالعداء. وعندئذ يتخذ المسلمون معهم موقف الردع. وقد يُبيِّن بعض اهل الكتاب من العلم ما يتفق مع العقيدة الاسلامية كالايمان باليوم الآخر والجنة والنار فهذا لا جدال فيه. كذلك الاخبار التي لم ترد في القرآن ولكنها ليس لها ما يكذبها فيه فلا يُجادَلون فيها. اذ انه لو كانت باطلة فانها لا تضر الاسلام. وقد روى البخاري في صحيحه عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه قال:"كان اهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((لا تُصدِّقوا أهل الكتاب ولا تكذِّبوهم وقولوا آمنا بالذي أُنزِل الينا وما انزل اليكم وإلهُنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون))". ولما كانت احتمالات التحريف والتبديل والتغيير والتأويل وعدم دقة الترجمة واردةً فإن ترك الخوض في ذلك واجب مع ان التوراة لا ينسب فيها لله تعالى ولد ولا شريك ولا والد سبحانه. اما نسبة الولد لله تعالى فلا تصح المناقشة فيها لتناقضها مع الوحدانية التي جاء بها القرآن الكريم.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (47) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (49)

بعد ذكر اهل الكتاب، فكما أنزل الله تعالى التوراة والانجيل فكذلك أنزل القرآن وقد سبق في كتب اهل الكتاب البشارات به. فأهل العلم منهم يؤمنون بالقرآن لأنه مصدق لما معهم مع بشارات بنزوله من حيث الزمن والمعنى والنصر الرباني. ومن قريش من يؤمن به ايام الدعوة في مكة وهم يكتمون ايمانهم. أما

المنكرون رغم وضوح الآيات فهم الكافرون. وقد نبه تعالى الى جانبٍ من حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قبل البعثة بأن قريشاً كانت تعلم بأنه لا يقرأ ولا يكتب. وبهذا لا يستطيعون نسبة الاقتباس اليه من الكتب السابقة. اما اهل الكتاب فقد وجد اهل العلم منهم ان البشارات تكون لرجل أُمِّي فلو كان يقرأ ويكتب لقالوا هذا غير النبي الأُمِّي. فالمبطلون هم المنكرون سواء كانوا من كفار قريش او من كفرة اهل الكتاب. ولم يبقَ لهم عذر للريبة. ووصف تعالى القرآن بأنه آيات بَيّنات – واضحات – يحفظه الله تعالى اذ حفظه اهل العلم في الصدور. وهو الكتاب الوحيد الذي حفظه الله تعالى في الصدور. اذ ان اهل الكتب السابقة كانوا يقرأونها من المدونات التي لديهم ويسمعونها ممن حفظ منهم شيئاً من احكامٍ ومواعِظَ غيرِ متكاملةٍ مع بعضها. وبهذا يكون الْمُنكِرون لآيات الله تعالى قد ظلموا بها أي استيقنوها وحادوا عنها استكباراً وجحوداً. والجحود هو إنكار الشيء مع العلم بصحته، وهذا من أفعال الظالمين.

وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (51) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (52)

طلب كفّار قريش تحدّياً بأن تُنزَلَ على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم آية من ربه ولم يقولوا: (آيةٌ من الله) وهم يعلمون أنه يدعو إلى الله تعالى. فوجّهه سبحانه إلى ردِّهم بأن الآيات التي طلبوها أمرٌ يسيرٌ عليه تعالى إلا أنه أرسله لينذر الناس ببيان واضح. وكان يكفيهم إعجاز القرآن وها هو يتلى عليهم يوجههم الى

بواطن الرحمة واسباب الهدى وذكرى لمن صدّق بآياته. كما وجّهه تعالى ليذكِّرَهم بأنه تعالى ليس غائباً بينهم فهو الذي يعلم ما في السماوات وما في الأرض. وفي هذا قيام الحجة لله تعالى فهو الذي يسمع ويرى فلا يمكن لعبد ان يكذب على الله تعالى ثم ينصره. ويؤيد تعالى أن من كفروا به، وآمنوا بما لا برهان لهم به فقد خسروا الآخرة.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (53) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (54) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (55)

قال كفار قريش تحدِّياً (فأمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّمَاءِ او إئْتِنَا بِعَذابٍ أَلِيمٍ) كما اخبر عنهم تعالى في الاية الثانية والثلاثين من سورة الانفال. وقد فاتهم من علم الله ما يُكتَب من أجَلٍ مسمى لكل حادث عن حكمة بالغة. وقد توعدهم تعالى بالعذاب الذي تحدَّوا وقوعه ويأتيهم من غير أن يكونوا قد تهيأوا له أي انه تعالى قد كتب لكل حادث اجله وليس تبعاً لأهوائهم. وتوعدهم بعذاب مفاجئ جزاء التكذيب والاستعجال للانغماس في جهنم. وقد بيّن الله تعالى صفتها بالإحاطة بحيث لا تَدَعُ موضعاً منها يؤدي للخلاص إلى غيره يوم القيامة. فيغشاهم العذاب أي يغطيهم وذلك من جهتيهم العليا والسفلى وبتقريعٍ بأن يذوقوا ما عملوا من سوء.

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (56) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (57) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (58) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (59)

يخاطب المولى عز وجل عباده المؤمنين، وهم اهل خاصته ويريد لهم سعادة الدارين، أن يفضِّلوا الإقامة حيث يجدون عيش الاخرة في ارض الدنيا. أي في الارض التي يتمكنون فيها من افضل احوال العبادة في الجهاد والطاعات. ولما كانت ارض الاسلام هي المأوى الذي تتوفر فيه اقامة الدين فعلى المؤمن الذي يقيم في بلدٍ لا يقدر ان يقيم فيه الدين (أي لا يستطيع فيه التوحيد والعبادة بل يُكرَه على كتم ايمانه وعلى ترك عبادته جهراً هناك) ان يهاجر الى حيث يمكنه ذلك. وقد ورد شرحٌ من هذا القبيل في شرح معاني الاية السابعة والتسعين من سورة النساء. ويُذكَر هنا فضل المهاجرين الى الحبشة ايام الدعوة في مكة قبل الهجرة الى المدينة فآواهم الله تعالى عند النجاشي أصحمةَ الذي حماهم واكرمهم واسلم معهم عليه رضوان الله تعالى. ويذكّر تعالى بالموت الذي هو الهجرة التي لا بد منها من أي ارض يكون فيها العبد ولا يبقى له من الدنيا سوى ما عمل في طاعة الله تعالى واليه المرجع. فمن كان همُّه كله تبعا للشريعة فقد وعدهم المولى الجليل بالغرف (وهي الطوابق العالية من بيوت الجنة) تجري الأنهار تحت أقدام أشجارها وبالخلود في نعيمها. نِعْمَ الجزاء على صبرهم وعلى ترك التوكل على انفسهم واهوائهم بل على امر الله تعالى ونَهْيِه.

وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (60)

قطع المولى عز وجل حجة من خاف على مالِه اذا هاجر في سبيل الله، وذلك في آياتٍ منها هذه الاية. فهو تعالى ذو المعروف الدائم الذي لا ينقطع أبداً ولا يحصيه غيره. وضرب لذلك مثلا في ما يرزق به كل ما يدبّ من غير البشر. فالحيوانات تختلف عن الإنسان فهي لا تعرف الخوف على المال. والله تعالى قد كتب رزقها ورزق الانسان فما يخفى على علمه قول او عمل. وفي هذا امان لمن يهاجر في سبيل الله تعالى بالثقة به ثقةً تحمل القلوب على الطمأنينة.

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (61) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (62) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (63)

من متناقضات واقع مشركي قريش انهم يقرُّون لله تعالى بخلق السماوات والارض وتسخير الشمس والقمر. ومع هذا يخالط عقولَهم ما هو باطل بوجود شركاء توهموا قدرتهم في النفع والضر من دون الله. وبعد ان يبين تعالى مشيئته في الرزق (وفي ذلك حكمته في ما يصلح لعباده) وانه تعالى المستقل بتدبير الأرزاق يبسطها للإبتلاء ويقدرها للإبتلاء بحسب علمه بكل امور خلقه. يأمر الدنيا لتمرَّ على أوليائه ليرى مدى تعلقهم بها فالصادق لا تغره. ويأمرها لتبتعد عنهم فالصادق لا يأبه لها. أما نزول ماء السماء الذي هو مبدأ كل رزق، فالمشركون يقرون في ذلك على ان الله تعالى المنفرد فيه فلماذا لا يجعلونه المحمود وحده عليه؟ هكذا لا تدرك ذلك عقولُ أكثرهم.

وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآَخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (64) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (65) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (66)

اسماها المولى تعالى (الحياة الدنيا) لأن الأدنى يكون مزدرىً وصغيراً في أعيُن الناس وكذلك اللهو واللعب فهو عمل لا فضيلة فيه سريع الزوال ولا يبقى من الدنيا إلا ما كان لله تعالى من عمل صالح. أما الدار الاخرة فإسمها يدل على انها الباقية، فالاخير في الشيء هو الأكثر بقاءً. وهي الحياة المستمرة فهي الْحَيَوان (بفتح الحاء والياء). وجاءت الكلمة في دلالتها على البقاء المستمر لانها مصدر الفعل (حَيِيَ) ولا تحمل معنى الموت بعدها. ولو علم اهل الكفر والشرك والنفاق فضل الباقي على الفاني لتركوا من حياتهم ما كان لغير الله تعالى. ولرجعوا الى انفسهم فانهم في شدائد ركوب البحار ينسون الأنداد فلماذا لا يبقون على هذا التخلص الى الله تعالى ممن توهّموهم أنداداً وتوهموا لهم القدرة ونسوا دعاءهم عند الشِدّة؟ فإذا زالت الشدة دهمَتْهم الاوهام فكفروا بنعمة المنعم تعالى؟! وما هي إلا حياة زائلة يتمتعون بها ثم يناهم الوعيد الذي انكروه.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آَمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (67) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (68)

الحَرَم هو المكان المصون المنيع مما يدعو من يدخله الى الطمأنينة. وهذا من خصائص مكة المكرّمة عُرِفَتْ حرمتُها منذ أن أسكن سيدنا إبراهيم عليه السلام من ذريته عندها ثم نادى في الناس بالحج. بينما لا يأمن مَن حولَهم من السلب والقتل

والسبي أيام الجاهلية. وقد آمنهم تعالى من خوف وهم مشركون فكيف إن آمنوا؟ وهكذا كفار قريش كفروا بنعمة الرسالة الايمانية تكذيباً بها فما أشدَّ ظلمَهم بتكذيبهم بالحق الذي جاءهم او الكذب على الله تعالى بجعل شركاء له وقد جاءهم البرهان بحق الله تعالى في ربوبيته فلا مثوى بعد ذلك لهم إلا جهنمُ مثوى الكافرين.

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69)

المجاهَدة في الله تعالى وردت بشكل مطلق لم تُقَيّدْ بعمل معين ولذا فانها تشمل مدافعة النفس عن الميل الى الاهواء الضالة وحثها على الطاعة والجهاد والالتجاء الى الشريعة والى ما يرضاه الله تعالى للمؤمن من ذِكر وشكر وعزم على ترك الآثام، وعلى العمل لوجه الله تعالى تعظيماً له واعلاءً لكلمته، سواء في مجاهدة اعداء الدين او مجاهدة وساوس الشيطان، او مجاهدة نوازع النفس للدنيا. وفي ذلك ورد في التفاسير اقوال الصالحين مما يفهم منها ان العمل بما يعلم المرء يزيده علماً، وان الجهل هو نتيجة التقصير في العمل. وان العمل بالسُنّة يهدي للجنة، وان العمل بالطاعة يهدي للثواب. والعمل بالرحمة والبر يهدي الى التوفيق والخير. والمجاهدة في التوبة تهدي الى الاخلاص. والعمل بالنوافل يهدي الى الطمأنينة بذكر الله تعالى فتستأنس القلوب في الدعاء والعبادة بمناجاة الله تعالى. والعمل بالاحسان على الاساءة يهدي الى العفو الرباني. وان العمل مع شعور المرء بمعية الله تعالى ورقابته هو الاحسان الذي يكون الله تعالى فيه مع عبده كما جاء في حديث طويل رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه سؤال جبريل عليه السلام من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن الاحسان فقال ((أنْ تعبدَ الله كأنك تراه فإن

لم تكن تراه فإنه يراك)). وهكذا ختم المولى عز وجل هذه الآية بقوله ((وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)) أي تأكيد معيته لهم يعينهم على ذكره وشكره وحسن عبادته وعلى نصرة دينه وتسديد خطاهم إلى ما فيه خير الدنيا وحُسن الخاتمة وبشاشة اللقاء في الآخرة.

سُورَة الرُوم

بِسْـمِ اللهِ الرَّحمـنِ الرَّحِـيمِ

الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5) وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآَخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (7)

تقرأ الأحرف المقطّعة: ألِف، لام، ميم. وقد تقدم ذكرها في السورة السابقة. واخبر تعالى بأن ما يجري على ظهر الارض بين الشعوب القريبة والبعيدة يرجع امره، في النصر والغَلَبة، الى الله تعالى لحكمةٍ مُثلى تخفى على الناس إلا من أفهَمَهُ المولى معرفةَ بواطن الأسباب من معرفة ظواهرها على وجه الصحة. فالفُرس غلبوا الروم على أيام الدعوة للإسلام قبل الهجرة وكانت المعارك قد دارت في ارض الشام. والفرس آنذاك مجوس يعبدون النار أو كسرى. بينما كان الروم اهل كتاب يؤمنون بالله واليوم الآخر مما دعا كفار قريش الى الشماتة بالمسلمين بإعتبار المسلمين اهل كتاب والروم كذلك، وبإعتبار مجوس الفُرْس وكفار قريش في عبادة رموزهم سواء. وعلى ذلك تفاءل كفار قريش بأنهم سيغلبون المسلمين! فلما نزلت الآية في نشوة انتصار الكفار اقسم ابو بكر رضي الله تعالى عنه للمشركين بأن الروم سوف يَغلبون الفرسَ بعد بضع سنين. فراهَنَه أُبَيّ بن خلف من رؤوس الشرك على مِئة ناقة اذا لم يغلب الروم خلال سبع سنوات ولكن أُبيّاً هذا قتله المسلمون في يوم بدر قبل انقضائها. فلما غَلب الرومُ الفرسَ بعد ذلك اعطى ورثةُ أُبَيّ النوق لابي بكر رضي

الله عنه. ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أَمَرَهُ بالتصدُّق بها واعتبرها من السُحت. ثم نزل تحريم الميسر ومن أشكاله المراهنة. فقد جاء في الحديث الذي رواه ابن ابي حاتم عن البراء رضي الله تعالى عنه قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن النوق التي اخذها ابو بكر لقاء هذه المراهنة ((هذا سُحْتٌ)) وقال ((تَصَدَّقْ به)). وذلك قبل نزول تحريم الميسر كما جاء اعلاه. وتعتبر العقود التي يتعاقد فيها مسلمون مع كفار في غير دار الإسلام على مواضيع نزل فيها تحريمٌ عقوداً فاسدة لا تجيزها المذاهب إلا عند أبي حنيفة. وأُعتُبِرَ الخبر في هذه الآيات بنصر الروم على الفرس من المعجزات التي حققها المولى عزّ وجلّ للرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقد كان الفرس أرجحَ كفةً عند قريش في تقدير الفريق الذي سينتصر. وقد أسلم كثيرون على اثرها. اما العلم بظاهر الحياة فهو أن تقتصر معرفة الإنسان وإهتماماته بأمورها المادية. فمن لم يفكر في حقيقة الحياة الدنيا وانها انما تكون معبراً الى الآخرة فإنه سينشغل بها ويعرف تفاصيل كسبها وهو غافل عن معرفة العبادة ووعيها في القلب. وهذه غفلة عن الآخرة.

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (8)

التفكير في النفس هو مواجهة النفس بما يدور في القلب من فكر عن الخَلْق ومقادير الخلق، وظهور عظمة الله تعالى وحكمته من وراء ذلك وان الكون لم يُخلق عبثاً ولم يخلق فيه جزء من اجزائه الّا ليدلّ على حق الله تعالى في انفراده بالْخَلْق وانفراده بالربوبية ووحدانيته في العبودية وحتمية لقائه بعد انقضاء الأجل الذي أجّله الله تعالى فسمى له موعداً. فكما بدأه فقد وضع له أجلاً معلوماً عند الله تعالى فلا

يتغير بإنكار مُنكر. وكذلك الخلائق كما لهم بداية مع الله تعالى فلهم اجل معه ولكن إدراك ذلك يخفى على اهل الغفلة وهم كثير، كفروا بلقائه في الآخرة.

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9)

وزيادة في الحجة على كفار مكة، ليصدقوا رسالة الله تعالى في سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، يُذكّرهم بما يرون في مسيرهم في الارض بين الشام واليمن من عواقب لمن كذّب بآيات الله مع رسله مع ان تلك الاقوام بلغت شأواً بعيداً في استغلال الارض وعمارتها فما نفعهم ذلك لأن الذي يأبه له الله تعالى هو الحق لينصر أهله، وينظر الى الباطل فيهلك اهله فلا تنفعهم عمارة الارض واستغلالها. فهم لَمّا كذّبوا الرسل مع وضوح الرسالات بالدليل العقلي وبالآيات اوجبوا على انفسهم تلك العاقبة العادلة. فقال تعالى:

ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (10)

الإساءة من البشر اوجبت أسوَأ الاثرِ عليهم. فالسوآى هي مؤنث أسوأ فالجزاء من جنس العمل: كذّبوا فكُذِّبوا، واستهزأوا فأصبحوا عبرةً لمن يعتبر.

اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (13) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (14) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (15) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (16)

إعادة الخلق عندما تُقارَن ببدايته ليست بِمُستغرَبةٍ على الذين يتفَكّرون في الخَلَق كيف بدأ. فالقدرة التي أنشأته ولم يكن شيئاً لا تعجزها إعادته كما بدأته. فهي قدرة الله الخالق الذي وضع الاجل للخلق. فكما بدأه يعيده في البعث للرجوع إليه تعالى مع قيام الساعة التي يحشر بعدها الناس. فالذين أشركوا بالله يُبلِسون أي ييأسون متحيرين لا يجدون من آلهتهم من يشفع لهم فيكفرون بهم. ويومها يأمر المولى تعالى بالتفريق حسب الإيمان. فالمؤمنون الذين عملوا الصالحات يُحْبَرون أي ينعمون بالسرور في روضات الجنّات. والروضة في البستان هي البقعة التي تطيب فيها النُّزهة. وأما المكذِّبون بآيات الله فيجمعهم تعالى في عذابٍ أوجبوه على أنفُسِهم.

فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (19)

لا يملك المؤمنون الذين فتح الله قلوبهم لفهم قدرته تعالى على بدء الخلق واعادته إلّا ان يخشعوا تعظيماً لربهم مُثنين على لطفه ورحمته وهُداه وتعليمِه وتثبيته وترك ما يبعدهم عنه في أيّ وقتٍ من اوقات اليوم؛ مساء وصباحاً. وفي أي مكان من كونِه المتسع، له الحمد، ومهما تعاقب الليل والنهار عشياً وظهيرةً. وهذا من التسبيح والوفاء لله تعالى. وقد امتدح المولى عز وجل سيدنا ابراهيم عليه الصلاة السلام إذ قال ((وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)) كما روى الامام احمد في مسنده عن انس رضي الله تعالى عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم "ألا أُخبركم لِمَ سَمّى اللهُ إبراهيمَ خليلَه الذي وفّى؟ لأنه كان يقول كلّما أصبح وكلّما أمسَى: ((سُبْحَانَ الله

حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والارض وعشياً وحين تُظهِرون))". وأمام أُولي الالباب ظواهر دوام الحياة بما يكون من الولادات والوفيات وما تُخرج الارض من نبات اذا أُنزل عليها الماء. وهذا كله يشير الى عودة الحياة لموتى البشر فقد انبتهم المولى عز وجل من الارض نباتاً ويخرجهم منها إخراجا. وفي ذكر أوقات التسبيح (مساءً وصباحاً) اشارة الى الصلوات الخمس. فإن الصلاة تحمل التسبيح في كل ركوع وسجود وبعد تكبيرة الإحرام في التوجه الى الله تعالى.

وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21)

هنا الاية هي الدليل على القدرة الربانية في خلق أبينا آدم عليه الصلاة والسلام من تراب. وخَلَق من نفسه زوجَه ثم انتشر منهما البشر الكثير في الارض من اقصاها الى اقصاها كل مُيَسّرٌ لما خُلق له. وقد روى الامام احمد في مُسنَده عن ابي موسى رضي الله تعالى عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ((إنّ الله خَلَقَ آدمَ مِن قَبْضَةٍ قَبَضَها مِن جميع الأرض فجاء بنو آدم على قَدَرِ الأرض، جاء منهم الأبيضُ والأحمرُ والأسوَدُ وبين ذلك، والخبيثُ والطَيّبُ والسهلُ والْحَزِنُ))". والْحَزِن صفة من الْحَزْن (بسكون الزاي) أي غلظة الطباع. لأن الحَزْنَ هو ما غلُظ من الارض أي فيه حزونة. وهذا الحديث يشير الى آيات الله تعالى في إختلاف ألوان البَشَرة وتعدد اللغات واللهجات. وأما خلق الأزواج من الأنفس فالمقصود بالأزواج إناثاً من نفس الجنس مختلفات في الالوان والذكاء كما هو الحال بين الرجال. والسكون هو الْمَيل إليهن. ولهذا يتم التجانس. ويضاف إلى هذا

التجانس ما يجعل المولى تعالى بين الزوجين مودّة للشابة ورحمةً للمُسِنّة مع حاجة كل منهما للآخر. فإن حصل تباغظ بينهما فمن الشيطان عند المعاصي.

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (22) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (23) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (24)

آيات أُخَر بيَّنها الله عز وجل تمس حياة الانسان؛ فالسماء مصدر الماء، والارض مصدر النبات والمعادن. كما ان اللغات صارت وسيلة للتخاطب ليعبر المتكلم ويعي السامع. والنوم سكون بعد جهد النهار. وفي القيلولة عون على عبادة الليل. وجعل اكتساب الارزاق سبباً لِلمقسوم منها. وهذه الايات تتعلق بالوعي أي استيعاب معانيها الدالة على القدرة والتدبير الحكيم لقوم واعين. ومن ظواهر حياة الانسان طلبه لرزقه رجاء ان يرزقه مولاه، وخوفه من شحته. وتتمثل هذه المشاعر عند مقدمات المطر من برق يعقبه رعد يبشران بهطول الامطار ولكن مع الخشية من كثرتها المؤدِّية إلى غرق الزروع والبيوت. فتحدث مشاعر الرجاء والخشية طمعاً بالخير وخشية من الخسائر. فإذا بالرحمن يحيي الارض بالقدر الملائم للنبات من غير زيادة مهلكة. وفي هذا التقدير الرباني إثارة للعقول التي تقف موقف المؤمن الشاكر في السراء والصابر في الضراء.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (25) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (26) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ

ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27)

أمرُ اللهِ تعالى نافذٌ في مُلكِه. فتقوم السماء بما سخّرها له والارض بما سخّرها له. ونُبعث خارجين من الارض بدعوته إيّانا يوم تبدل الارض غير الارض والسماوات فكل ما في السماء والارض لا يملك إلا تنفيذ الأمر الذي لا يمكن أن يردَّه أمرٌ دونه. وإعادة الخلق أيسر على الله تعالى. وبعد ذلك فإنه سبحانه أكثرُ وأجَلّ مما تنتهي اليه عقول أُولي الالباب. فلا مَثَلٌ يحد المعرفة به. فلا يُضرَبُ له مثل. فهو الذي لا يحتاج لِمُعين بل قهر عباده بما أجراه عليهم فلا يحاسبهم على ما ليس لهم إختيار فيه. ولكن يُكرمهم أو يحاسبهم بما ملكوا من أمرٍ لهم فيه الإختيار. وهو العزيز الحكيم.

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (28)

لله المثل الاعلى فوق المعاني الحسية التي لا يدركها بشر. وللبشر مَثَل من واقع حياتهم يدركها من يعقل الامور أي يفهم مسبباتها ومجرياتها. فهل يشترك عبد مملوك مع سَيِّدِه في ما يملك السيد؟ بل ان المملوك يعمل فما كسب فَلِسَيِّدِه. والا لما كان العبد إلا شريكاً يمكنه التصرف بسهمه، لكنه لا يملك ذلك بل لا يَحُق له التصرفُ بمال سيده إلا أن يكلّفه. وبذلك لا يُسأل السيدُ امام العبد عن مُحاصَصَةٍ أو سوء

تدبير. وفي هذا التفصيل توجيه لتنزيه الخالق جل علاه عن مشاركة عبدِه له. إنما جعل العباد مستخلَفين في ما رزقهم ليبتليهم أيُّهم أحسن عملاً.

بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (29)

يأتي دور الظلم، ظلم الحق، أي عدم تَقَبُّلِهِ. والحق أعَزُّ في حصنه ممن يتقبله او لا يتقبله. فيعود ظلم الانسان على نفسه إذا غلبه الهوى فتوهّمَ الباطلَ حقاً. وكل ما ليس له سند من علم صحيح فهو من الأوهام الباطلة. والهوى يهوِي بصاحبه بعيداً عن الهدى. فإذا كتب المولى عز وجل ضلالاً على الذين لم يتقبلوا الهدى بظلمهم للحق فما لهم هادٍ في الدنيا أو ناصرٌ في الآخرة.

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32)

بعد ان توالت الادلة والآيات والبراهين المعجزة على وحدانية الله تعالى وصحّة العبادة في التوجه اليه بالقلب والنية والعمل، (وهذا هو معنى الحنيفية)، يأتي دور الفطرة التي فطر اللهُ الناسَ عليها. إذ أنه سبحانه لَمّا أخذ من بني آدم من ظهورهم ذريتهم، واشهدهم على انفسهم: أَلَسْتُ بربكم، (الاية الثانية والسبعون بعد المائة من سورة الاعراف)، لم يكن هناك شريك أو نِدٌّ متصوَّر ينفع أو يضرّ. وهذه الفطرة لم تتبدل بإنتشار الناس وكثرتهم من صالحين وطغاة وأصناف بينهم. فوجّه الله تعالى

قوله مخاطبا رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وكلَّ من بلغته الرسالة بأن يُسدِّدوا تَوَجُّهَهُم للدين وفق الشريعة التي شرعها الله تعالى ليثبتوا على الفطرة وليتحصل لهم التوفيق منه في صحة العبادة. فالخروج عن الفطرة تَكَلُّف، والثبات فيها هو الإستقامة. وهكذا تَحصل الإنابة والتقوى. وتأتي أهمية الصلاة (في صيغة الأمر) فهي رمز الطاعة ثم الحذر من الشرك الذي هو صفة أهل الخلاف. فالخلاف يعنِي أن هناك تعلقاً بغير الله تعالى الذي لا خلاف على التعلُّقِ به. فإذا ما حصل إهتمام بغيره فيتفرقون؛ هذا شيعة هذا، وذاك شيعة ذاك. فيكون الإتجاه للأغيار. وهكذا تحصل أسباب التفرقة. فلا يقتنع كل حزب بوجهة غيره. يظن انه على حق. الا القليل وهم اهل العلم الذين استجابوا وأقاموا الوجوه أي أداموها على الفطرة السليمة لله تعالى، من غير الإلتفات يميناً او شمالاً. وبهذا لا يجد الشيطان سبيلاً على من توكل على ربه تعالى بإتباع أمره مؤمناً به رباً. روى الامام احمد في مسنده عن عبد الله بن عمر، رضي الله تعالى عنهما قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ((كل مولود يولد على الفطرة حتى يُعرِب عنه لسانُه فإذا عبّر عنه لسانه فإمّا شاكراً وإما كفوراً)). فمن إستقام فقد شكر ومن اتبع البِدَعَ فقد تكلف وخرج عن الفطرة.

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (33) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (34) أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (35) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (36) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ

يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (37) فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (38)

يتعرض الانسان (وهو يجهل ما يُخبئُه مستقبلُ ايامِه) إما لِسرّاء او لضراء. فالناس في الضراء يبادرون الى منفذ للخلاص مما اصابهم من مرض او قحط او شدة او هموم أُخَر فلا يجدون غير الله ملجأً يدعونه، وهذه إنابة الى الفطرة التي ادركوا حقيقتها عند الشدة. فإذا كشف الرحمن عنهم الضر كان منهم الشاكرون الذين صبروا فأفلحوا، ومنهم الذين ينسبون كشف الضُّرِّ إلى من توهموا فيهم الضُّر والنفع بعد إقتصار اللجوء إليه وبذلك يعبدون غيره عن علم. فاذا بهم يكفرون نعمة ربهم أي يتجاهلون حصولها منه فينسبونها لمن توهموا فيهم النفع والضر. وهنا توعّد سبحانه الجاحدين بأنهم سيعلمون زلتهم وعاقبتها إذ أنّهم لم يكن لديهم برهان يشير الى مصدر كشف الضر عنهم كما توهموا. وفي حالة تعرضهم لِما يَسُرُّهم فإنهم ينشغلون بالفرح بالنعمة من غير الشكر ومن غير توجيهها الى خدمة الله تعالى وإعلاء كلمته أو إلى ما أباحه. فمن فرح وافتخر بما آتاه الله تعالى من خير متعالياً به على غيره فإنه اذا اصيب بما يسوؤه، تأديباً له على سيئةٍ عملها، نسي معه رحمة الله تعالى ولم يتجه للرجاء بل يسلم نفسه للقنوط. ففي حالتَي السراء والضراء فإنّ الجاحد الذي انشغل بالدنيا يغفل عن المنعم والمنقذ وهو الله تعالى الذي بيده تقدير الامور يبسط الرزق لمن يشاء ويَقْدِر. وهذا ما يدعو المؤمنين لكي يتهيئوا للنجاة من الضر بالعمل الصالح وليحفظوا النعماء بالشكر الذي يزدادون به خيراً. وهكذا يرشدنا المولى الى آياته في تصريف اقداره. ويرشدنا الى مصارف الشكر بإيتاء ذي

القربى والمساكين وأبناء السبيل. ففي ذلك الخير لمن يريد رضوان الله تعالى في الآخرة محباً للناس ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لها.

وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (39)

الربا هو كل قرض جرّ منفعةً من جنسه. فهذا حرام وتوعد المولى من يفعله بالحرب منه ومن رسوله. وامر بالتوبة عنه والاكتفاء برأس المال او أفضل من ذلك: بالتصدق على المعسِر. والاية تشير الى ابعد من ذلك؛ فإيتاء المال في غير حالات الربا يجب ان يكون لوجه الله تعالى وليس رياءً. ولا يوجَّه لمعصية او للإستكثار طلباً لرد الجميل بأكثر منه. اما الزكاة فهي فرض ينقي المال مما يشوبه تُؤتَى لوجه الله الكريم فتنمو عنده حتى تكون التمرة من الصدقة الخالصة لوجهه الكريم كالجبل يوم القيامة. ورضوان من الله اكبر من الضعف. فالمضاعفة جزاء كريم من أفعال الله تعالى، ويتبعه الرضوان من صفاته تعالى. والشعور برضوانه خير من الأضعاف. وأطيب من كل ذلك: القرب من وجهه الكريم أي بمعيته للمحسنين في الدنيا، وبمبعثه مع المقربين في الآخرة.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (40)

يخاطب المولى تعالى اولئك المشركين بأنّ خَلْقَهم، وتقديرَ رزقِهم، وموتَهم وإحياءهم أثر لأمر الله تعالى؛ يولد الانسان وما عليه من ثوب، ثم يبدأ رزقه طيلة حياته من مال وولد وعافية وعلم، مع ما اعطاه الله تعالى من سمع وبصر وفؤاد،

وكل ذلك من ربٍّ لا شريك له. ثم يميت ويبعث وكل ذلك معلوم عنده. فهل للشركاء من دونه أثر في الخَلق أو الرزق أو الموت أو البعث إلى موازين القسط؟ فالمشرك زاغ قلبه عن هذه الحقيقة. وسبحان الله عن كل شريك.

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (42)

سبق في الآية السادسة والثلاثين معنى اصابة السيئة بما قدمت الأيدي. وهذه الآية الحادية والاربعون يبين المولى عز وجل فيها ظهور الفساد بما كسبت الايدي. والفساد في البَرِّ له أوجُهٌ كثيرة منها جرائم السرقة والسلب والقتل ومنها تسلط الاشرار يهلكون الحرث والنسل. اما في البحر فتشمل القرصنة والجرائم في الموانيء البحرية والآفات في الأحياء المائية. وهذا الفساد يعم اذا لم تُنفّذ الحدود او التعزيرات والعقوبات الاخرى التي تحسر الشر وتزجر أهله. ويكون الفساد عقابا دنيويا متمثلا في ما يذيقُه اللهُ تعالى من نقص الزرع والثمرات في اهل المعاصي كالتعامل بالربا واتباع الشهوات المحرمة. وتكون الحياة الفاسدة مقترنة بالإبتلاء الذي يضع اهله في مواقف صعبة يعملون على التخلص منها بالأدب مع الله تعالى ليرجعوا اليه. واما فساد الدين بالشرك والتكذيب وكفر النعم فقد اهلك الله تعالى به من كذّب الرسل أو اشرك بالله تعالى شركاء من دونه. وهذا الفرق بين معاصي المؤمنين ليبتلي الله تعالى ايمانهم بالرجوع اليه والتقوى. وبين معاصي المشركين بالتكذيب والشرك ليهلكهم تعالى ويحشرهم الى عذاب شديد. والله تعالى أعلم.

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (43) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (45)

الدين القيّم فحواه وحدانية الخالق معبوداً لا شريك له، وشريعته صراط مستقيم لا عِوَج فيه جاءنا به رسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وإقامة الوجه للدين تعني جعله الهدف الاسمى الذي لا ينحرف الوجه عنه إلى سواه. واما اليوم الذي لا مردّ له من الله فهو يوم القيامة اذ سبق القول عليه: بأنه إذا أمر المولى تعالى به فلا يكون بعد ذلك ما يردُّه من الله. وفيه يوزّع كل صنف ممن بعثهم الله تعالى الى الصَدْع أي الجزء الذي ينسبه اليه. فيصّدّعون أي يتفرقون أصنافا. فمن كفر يحدد كُفْرُهُ موقِعَه. والله تعالى غني عنه. ومن آمن وعمل صالحاً فقد هيأ لنفسه المحل المريح الذي لا تنغصه ندامة او حسرة. وبهذا التمهيد ينال المؤمن الصالح جزاءه من عطاء الله الكريم اضعافاً، ويفهم ان الله تعالى كتب له المحبة التي لا ينالها الكافرون، إذ تقتصر محبته على المؤمنين.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (46)

من الايات الدالة على قدرة الله تعالى ما يبعث على الإيمان ومنها ما يبعث على الخشية ومنها ما يبعث على الرجاء. وهي جميعاً تبعث على التسبيح بحمده سبحانه. ومن الآيات ما يستوجب بعد ذلك الشكر. وهي الاسباب التي تبشر بالرزق والرحمة كالرياح التي تسبق هطول ماء السماء الموعود ليحمل الرزق بالنبات

زرعاً ومرعىً وثمر رزقاً حسناً للإنسان والحيوان. كما تُبشّر بأمرٍ آخر هو سير السفن بأشرعتها التي تحركها فتتوجه الى نقل البضائع بين البلاد المختلفة فيرتزق من ذلك الفلاح والتاجر والناقل وسواهم ممن يعمل في التجارة والاسواق. فاقترن بيانه سبحانه بهذه النعم بوجه من اوجه العبادة وهو الشكر، ودليله ان يعلم العبد ان الرزق من الله وحده ولا اثر لغيره فيه، ثم يسخر العبد هذا الرزق لطاعة الله تعالى في الاستقامة للدين وتحري الحلال والزهد والبذل لوجه ربه الكريم.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (47)

مع معاني التوحيد والتعظيم كَفَر رؤوسُ الكفر من قريش وكذّبوا بآيات الله. فكان رسول الله صلى عليه وآله وسلم في ضيق من ذلك فكان الوحي ينزل في مثل هذه الحالات بأخبار الرسل واقوامهم تسليةً له ووعداً بالنصر أوجَبَه تعالى على نفسه وذلك بنجاة المؤمنين بعد الانتقام ممن اجرموا بحق رسالة الصدق المبين.

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (49) فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (50) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (51)

هذا شرح وافٍ لمسلسل المياه في الطبيعة ولا يحصل إلا بأمر الله تعالى اذ يرسل الرياح فتثير من سطوح البحار والمحيطات بخاراً يخف حمله وهكذا ينقل الهواء ما هو

اثقل منه لسرعته التي يندفع بها البخار حتى يأذن تعالى بخروج الودق أي المطر من خلال قطع السحاب المتراكمة متكثفاً في قَطْرٍ ينهمر فوق الارض التي اعدّها اصحابها حراثةً وبذراً بانتظار الرحمة الربانية فيقول تعالى في سورة الواقعة ((ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ)) فينمو طرياً ويجف ويُحصد. اما من قبل نزول المطر فاللهفة اليه مصحوبة بالخشية من حبس المطر حتى تصل بأهلها الى اليأس. وينقلب اليأس الى استبشار تظهر اثاره على بسماتهم وافراحهم وهذه من آثار رحمته تعالى فقد دفع موت الارض الى اليأس، ودفعت حياتها إلى الأمل. ودل ذلك على قدرته جل علاه على إحياء الموتى فالقدرة على ذلك جزء من قدرته تعالى على ما يشاء. اما اذا كانت الريح قد مرت على صحارى جافة ذات غبار اصفر فهي تحمل اليأس الى قلوب القانطين من رحمة الله تعالى. وهذا من شأن اهل الكفر إذ يقنطون في الصدمة الاولى، بينما المتوكلون على الله تعالى يعلمون ان الابتلاء يكون لتمييز القانط عن الذي يحسن الظن بالعزيز القدير. فالمتوكل المؤمن بدلاً من البطر والفرح بما انعم الله تعالى عليه يشكر ويوفي حق ربه في ما آتاه، واذا ابتلي بإقتار يصبر منتظراً للفرج. وسيلي تشبيه الطرفين بحالتي الموت والحياة. فالضال كالميت والمهتدي كالحي.

فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (52) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (53)

الموتى المقصودون هنا من ماتت قلوبهم مطبوعاً عليها لقسوةٍ فيها فحالها حال الميت. والصم المقصودون هنا هم الذين يفهمون بالإشارة من غير سماع. واما العُمْيُ المقصودون هنا فهم اهل القلوب الزائغة التي ترى الباطل حقاً فيُزَيّنه الشيطان لها

فهم في ضلالةٍ لا تصل بهم الى الحق كالاعمى الذي يضل طريقه فلا تنفعه اشارة تهديه. أمّا المؤمنون؛ فإن الله تعالى يَسْلِكُ الحق في قلوبهم صافياً يروي شوقهم اليه فينقادون اليه مستجيبين. ولهذا فإن الآية لا تخص موتى المؤمنين الذين يتوفاهم الله تعالى ويُسمِعهم دعاء اهليهم وأحِبّائهم وسلامَهم عليهم. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((ما من رجل يزور قبر اخيه ويجلس عنده الا استأنس به وردّ عليه حتى يقوم))". وعن ابي هريرة رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((اذا مرّ الرجل بقبرٍ يعرفه فسلم عليه ردّ عليه السلام)). الحديثان رواهما إبن أبي الدنيا في (كتاب القبور).

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (54)

حالة الشباب هي حالة القوة، بعد ضعف الطفولة والصبا، جسماً وعقلاً وذلك بتجدّد خلايا الجسم مع النمو بشكل متزايد يحمل القوة. ثم بتقدم العمر تبدأ خلايا الجسم بالتجدد بشكل متناقص القوة ويبدأ لون الشعر يتغير بتغيُّرِ الصِّبغةِ الى بياض ويضعف الجسم دون العقل حتى يبلغ من الهرم ارذل العمر يضعف فيه نشاط العقل من ذاكرةٍ وملاحظةٍ فلا يعلم بعد علم شيئا. ولا يحصل عند الجميع، فقد يبكِّر الخَرَفُ أو يتأخر وقد لا يحصل فالله تعالى يخلق ما يشاء. وتُكتب للصالحين أعمال صالحة كانوا يعملونها فعجزوا عنها لضعف قدراتهم. والله هو العليم القدير.

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (55) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ

وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (56) فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (57)

الساعة هي الساعة الاخيرة من ساعات الدنيا تأتي بَغْتَةً. فلا يملك اهل الكفر والمعاصي الموبقة (أي التي توجب عذاب جهنّم يوم القيامة) إلا ان يُقسِموا، من هول وطول شدائدها، بأنّ مكوثَهم في الدنيا والقبور لم يكن إلا ساعة من ساعات الدنيا لأنهم رأوا مدة حياتهم الدنيا ليست بأكثر منها. ثم إتخذوا عذراً لموبقاتهم بأنّ قِصَرَ حياتِهم لم يَترُكْ لهم الفرصةَ للإنابة والايمان. وهكذا كانوا مخدوعين مغترّين. ويأتيهم الجواب من اهل العلم بأنهم قد عاشوا كما قضى لهم رب العزة الى يوم بعثهم. فها هو يتحقق فيُثْبِت لهم صحة النبأ الذي جاءهم. وهكذا لا تجدي معاذيرهم (أي التبريرات والأعذار) نفعاً ولا يستعتبون أي لا يسمح لهم بإسترضاء الله تعالى.

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (58) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (59)

الامثال المضروبة للناس في هذا القرآن هي كل قصة ووصف ووقائع البعث والعذاب والجزاء والتحذير. فلم يَدَعِ المولى تعالى في القرآن مثلاً للناس يوصلهم الى الهدى إلا وضربه لهم. ولكن اهل الزيغ لا يتوصلون به الى الهدى! ولو اظهر الله تعالى آيةً تأييداً لرسولٍ من رُسُلِه، سواءً طلبها الكفار ام لم يطلبوها، لكانت عندهم مجرد سحر باطل. وهكذا استَخَفّوا بآيات كتاب الله الكريم، وبهذا استوجبوا من الله

تعالى ان يطبع على قلوبهم (أي يوقفها عن الفقه) فلا يتخلصون من الجهل الذي به استحبوا الضلال على الهدى ونسبوا البطلان للحق وهم اهل الباطل.

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (60)

لا بد إذاً للرسول صلى الله عليه وآله وسلّم من الصبر على مخالفات الكفار وأذاهم وعلى تحمّل أعباء الرسالة نحو تحقيق وعد الله تعالى بالنصر. ويثبِّت الله تعالى بهذا رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأن يزيل أثر شدة اهل الكفر ومكائدِهم عليه، وأن يزيده عزما. لهذا كان ثباتُه اشدَّ على الكفار من شدتهم عليه صلى الله عليه وآله وسلم.

سورة لقمان

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ

الم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (2) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (3) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5)

سبق الكلام في سورة العنكبوت عن الأحرف المقطّعة، وتقرأ هنا (ألِف، لام، ميم). ثم يبدأ تعالى السورة بالإشارة الى القرآن الذي اتصف بنقل حكمة الحكيم فأكسبه الله تعالى صفة الحكمة من صفاته يهدي به ويرحم به مَن يتوخّون الإحسان في العبادة (اي يخلصون النية فيها) بأداء الفرائض موقنين بلقاء الله تعالى في الآخرة غير غافلين عنه سبحانه في الدنيا. فهم يعبدونه كأنهم يرونه او يشعرون برقابته الحكيمة. وهؤلاء ينالون الهدى من ربهم في الدنيا والفلاح في الآخرة.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (6)

لَهْوُ الحديث ويشمل ما يقال وما يُسْمَعُ مما يبعد عن الخير من أساطيرَ وغناءٍ ماجنٍ ومطالعاتٍ في أدبٍ رخيص او باطل أو قول منحط. فضلاً عن الزور وزخرف القول غروراً أي كذباً. فمن ذلك ما يلهي عن ذكر الله تعالى ومنه ما يُهزأُ فيه بالعقيدة والايمان أي الاعتقاد بصدق الرسالة النبوية واليقين باليوم الآخِر. ومنه ما يهدف الى اطلاق العنان للشهوات الضالة ومنه ما يعلّم الجريمة بإيراد افعال

المجرمين على شكل قصص وهكذا. ولهذا القول شواهد في التفاسير فقد روى الطبري في تفسيره عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه وقد سئل عن لهو الحديث فقال: "الغناء والله الذي لا إله إلا هو". رددها ثلاث مرات. وفي تفسير ابن كثير والطبري قول عبد الرحمن بن زيد بن اسلم: "كلُّ كلامٍ يصُدّ عن آيات الله واتباع سبيله"، وقول مجاهد "...، يتخذ سبيل الله هزواً ويستهزيء بها". وكل ذلك بغير علم أي جهلاً بما يجره من اثم او وزر او غفلة. واما شراؤه فهو إمّا بذل المال من أجْلِه، او استبدال الشر بالخير كقوله تعالى ((إِشْتَرَوا الكُفْرَ بالإِيمَانِ)) كما جاء في الآية السابعة والسبعين بعد المائة من سورة آل عمران. وقوله تعالى ((اشْتَرَوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُم)) الآية السادسة عشرة من سورة البقرة.

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (7)

الصنف الذي اشترى الضلالة بالهدى، اذا عُرض عليه الهدى الذي تَحْمِلُه آيات القرآن الكريم ينفر منه. ذلك ان قلبه مملوء بالهُراء واللّهو فلا مجال فيه لغير ذلك فلا يؤثر فيه الحق وإنْ سَمِعَهُ فكأنه في أُذنيه وَقْرٌ (ثِقَلٌ) يمنع السمع. وقد ظلم نفسه فليتجهّز للعذاب الأليم.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (8) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9)

جنات النعيم بشارةٌ من الله تعالى في الدنيا، ورحمةٌ منه في الآخرة لمن تنعَّموا بتصديق الرسل وانشغلوا بالعمل الصالح عن اللهو واللغو. واذا انقضت أعمالهم مع

انقضاء آجالهم فإن نعيم الاخرة لاينقضي وعداً من ربهم الذي صدقوا في طاعته واعتَزّوا في عبادته فهو العزيز، وهو الحكيم يعلم في أيِّ القلوب يُحكم آياته. فأورد من صفاته هنا: العزيز الحكيم. فالذين إتخذوا القرآن لهم هدى في حياتهم الدنيا جعله الرحمن لهم نوراً أوضح لهم السبيل إلى جنات النعيم في الآخرة.

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (11)

خلق المولى الحميد بإرادته وقدرته السموات والارض عن حكمة يكشفها تعالى في آياته فلم يجعل بين السماء والارض صلة من موادّ عينية تراها العيون. في الوقت الذي فيه جعل من تضاريسِ الأرض ما يُمسِكُ تحركَ أجزائها الترابية، ألا وهي الجبال التي توزع مصارف المياه وتصُد الرياح فتوزع سقوط المطر وتصريف المياه بإذنه تعالى فينبت الزرع وتعيش كل دابة تدب على ظهرها. واخرج الثمرات رزقاً كريماً لا شائبة فيه من حيث اللون والمذاق والفوائد كشف العلمُ اسرارَ كثيرٍ منها؛ كالفيتامينات والبروتينات والزلال والنشاء وغيره من الكاربوهيدرات بنظام اشار الى حكمته سبحانه. هذا خلقه تعالى ويخلق ما لا نعلم. فمن ظلم هذه الآيات بأن ينسب الى مخلوق صفة من صفات النفع والضر او أي اثر يؤثر في الكون وفي حياة الناس فقد ضل ضلالاً مبيناً. وهكذا يتحدى المولى سبحانه وتعالى من يدعو من دونه ما لا يملك قدرة على النفع والضر أن يأتوا ببرهان منظور على إدعائهم.

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (12)

لَمّا لم يرِدْ في التفاسير ولا الكتب الاولى كونُ لقمانَ الحكيم من ذرية إبراهيم عليه السلام التي جعل الله تعالى فيها النبوة والكتاب لذا رجّحت التفاسير كون لقمان من الصالحين وليس نبياً. وقد آتاه الله تعالى التبصرة الصائبة المتفقة مع علم الله تعالى في العبادة او المعاملة. واتفق المفسرون انه كان حبشياً أو نوبياً وقيل كان نجّاراً. فلما ظهر فَضْلُ حكمته واخلاقه اختاره بنو اسرائيل قاضياً لِما آتاه الله تعالى من فقه في الاحكام وفهمٍ للاحوال والاقوال وعلمٍ بالصلاح وتعبيرٍ بليغ في النفوس. وفي هذا كله كان عبداً شكوراً لربه الكريم. وقد بين المولى ذلك عنه ليكون مثلا للشاكرين ممن آتاهم الله تعالى من فضله. فمن شكر فإنما قد زاد نفسه خيراً واما من كفر بالنعمة (أي جحدها) فإنه لم يضر الله الغني الحميد في كرمه وإنّما أساء المسيئُ على نفسه.

وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13)

أظهر المولى تعالى موعظة لقمان لإبنه بأن لا يُشرِكَ بالله تعالى. فالشرك ظلمٌ عظيمُ الأثر في الخسارة. فقوله تعالى: (إذ) يعني: (أُذكر إذ) لِيتذاكرَ بها المؤمنون. وفيه مدح على حُسْن التربية.

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا

تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15)

مقابل شفقة الوالدين ومحبتهما لأولادهم وما يتمنّونه لهم من الخيرات، اورد المولى عز وجل هنا وصيته للإنسان، وهي وصيةُ إلهامٍ للفطرة التي فطر اللهُ الناس عليها، بأن يُحسنَ المرءُ لوالديه. وبدأ بالأُم التي تحمل الجنين وَهْناً على وهْن أي ضَعفاً مع جهد. والإحسان هنا أن العبد يجعل الله تعالى نصب عينيه في مواقفه لهما وهذا من الشكر بعد شكر الله تعالى. وأما ابواه، فإن كانا على ايمان فخير على خير. وأما إن كانا مُشرِكَين ويريدان لولدهما أنْ يتبعهما وقد آتاه الله تعالى بصيرة عادلة فما للوالدين حق الطاعة في ذلك. ومع هذا يبقى على حسن المصاحبة، في غير العقيدة، بِرّاً بوالديه. وعليه في العبادة اتباع من يسلك به سبيل الرشاد من اهل الايمان والعمل الصالح. فكما كان الوالدان سبباً للحياة، يكون الولي المرشد سبباً للنجاة. وفي ذكر الرجوع الى الله تعالى تبصرة للمؤمن بأنه سيلاقي ربه فينبؤه بما عمل مقاساً على هذه الوصية في بِرِّه بوالديه بما يخص أُمور دنياهما، وفي الإنابة الى الله تعالى واتّباع الصالحين في ما يخص كسب الآخرة.

يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (16) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (18) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19)

بعد وصية لقمان لإبنه وبعد وصية الله تعالى بالوالدين والتذكير بلقائه تعالى، تأتي وصية أخرى من لقمان لإبنه بشأن العمل صغيرِهِ وكبيرِه الى مثقال حبة من خردل فسوف يلقاه فاعله وقد احصاه الله تعالى واحضره. وتبين الآية لنا أهمية الأعمال تباعاً بإقامة الصلاة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر. وأوّلُ من يأمرهم في ذلك وينهاهم نفسه. ثم يأتي دور الصبر على الالتزام بالعبادة والصبر على كل ما يحصل من مشيئة الله تعالى فذلك لا بدّ منه، وفي هذا كله حزم وعزيمة على نصرة الدين. واما مع الناس فالمؤمن ذو خُلُقٍ حسن من غير خُيَلاءٍ ولا استعلاءٍ أو طيشٍ يقوده إلى المرح والفخر. اما الاستكبار فقد شُبّه بالصَّعَر، وهو مرضٌ في الإبل يجعل البعير يدير رأسه الى الأعلى. وأما القصد في المشي فالاعتدال بين بطءِ المتماوُتِ ووثوبِ الراكض. وقد اخرج الخطيب في التاريخ قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((السرعة في المشي تُذهِبُ بَهاءَ المؤمن)) أي تقلل من مهابته. واما غض الصوت في حال السكون أو سَوْرَةِ الغضب فهو دليل على تحكم العقل مما يضفي الرزانة على المتكلم في كل احوال الكلام. وندب ذلك حتى في الدعاء وفي مخاطبة من ينبغي توقيرهم من علماء وكبار السن. والصوت المرتفع مُستهجَن ويجر الى ضجر السامع وتحاشي تكرار سماعه. كما اقترن ذكره مع أنكر الأصوات: (صوت الحمير)!

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (20) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (21) وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ

بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (22) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (23) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ (24)

للإنسان فوائد لا تعد ولا تحصى في كل ما في السماء من شمس وقمر وكواكب ونجوم وجوّ. فالتسخير هنا هو حفظ هذه الفوائد بنظام قدَّره الله تعالى تقديرا. وتدخل أشعة الشمس والسحاب في جملة ما مُسخّر في السماء. فتسخيرهما هو إرسال السحاب الى البلد الميت رزقاً للعباد بتوافق مع أشعة الشمس. اما في الارض فالتسخير هو التذليل وإنسجام الخواص بحيث تتفق خواص الارض اليابسة مع الماء وتتفق تضاريسها مع المعيشة وبهذا تتكامل النِعَم الظاهرة لمعيشة المخلوقات. واما النعم الباطنة للإنسان فهي مما لا يُعَدُّ ولا يُحصى أيضاً؛ كالعلم والإيمان والبصيرة والرحمة ودفعِ الشر وسَوقِ الخير. ولكل عبد من ذلك إختصاص حسب صلاحه وإستعداده. ومع وضوح هذه المنن يكون في كل زمان ومكان من يريد الانحراف عن الحق جهلاً بقَدْر منعم هذه النعم فيجادل في وحدانية الله تعالى وينسى أنْ لا صلة معه تعالى إلا بالعبودية فينسب المشرك له ما لا ينبغي ان يكون له كالولد أو الشريك. واذا دعي هذا المشرك لإتباع رسالة التوحيد فضَّل الشرك ولا برهان له في إشراكه إلا انه وجد آباءه عليه فاتّبعهم. ويغفل عن تحكيم العقل وعن دور الشيطان في عداوته للإنسان ودعوته إياه الى عذاب السعير. ولا مخرج من هذا الزيغ الا التوكل الصادق على الله تعالى بإتباع أمرِهِ ونَهْيِه والشعور برقابته تعالى وبهذا ينال الْمَوثِقَ الربانيّ بالنجاة وقد اسماه تعالى ((العُرْوَةُ الوُثْقَى)) أي ذات الإتصال الْمُحْكَم مع الله تعالى ففيها التوكل والرضا به والاستقامة. وعاقبة هذه الأُمور لها عند الله

جزاء كريم. واما أهل الكفر فلا يستحقون الشفقة من المؤمنين اذ ان الله تعالى أبعد الهدى عن الكافرين لقسوة قلوبهم على الدين ولا حجة لهم يوم تعرض افعالهم امامه تعالى وينبؤهم بما كانت عليه نواياهم. ومهما حصلوا عليه من نعماء الدنيا فمتاع قليل أي لا يلبث أن يفارقوه حينما لا يجدون مخرجاً إلا الى عذاب ثقيل ذي شدة.

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (25) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (26)

يُفْتَرَضُ لمن يجيب بأنّ الله تعالى خلق الْخَلْقَ أن يلتزم بأن لا يَعْبُدَ سواه. ولكن المشركين، مع إقرارهم بأن الله تعالى هو وحده الخالق، يتخذون من دونه شركاء. فهم في جهل من هذا الالتزام ولم يبلغوا من العلم بأنّ من لم يُشارِكْه غيرُه في خلق السموات والارض لا يشاركه غيره بالتمجيد والتأليه والله تعالى الحميد بعزته هو الغني عن مخلوق يكون له شريكا.

وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (27)

سعة ملك الله تعالى لا تُدرَك، وكلماته لا تفنى. وفي هذه الاية جواب لمشركي مكة عندما قالوا (هذا كلام يوشك ان ينفد)! فأظهر المولى عز وجل ديمومة امره بِمَثَلٍ من إتخاذ ما في الأرض من شجرةٍ أقلاماً والأبحر مِداداً فلن ينفع ذلك في إستيعاب كلماته التي لا نفاد لها.

مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (28)

اذا فَنِي الخلق وبقيت كلمات الله تعالى فالكلمات، التي امر أن تكون بها الكائنات، يعيد بها الخَلْق. وهكذا تكون النفس الواحدة في أمره تعالى وجميع الخلق على حَدٍّ سواء. والآية جواب للمشركين عندما قالوا: لا بعثَ بعد موتهم. ولقد سمعهم يقولون ذلك وهو بصير بموقفهم من الشرك والعناد.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (29) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (30)

الليل والنهار يتعاقبان وحقيقتهما دوران الارض حول نفسها كل اربع وعشرين ساعة وسَبَق بيان اثر مَيَلان محور الارض بثلاث وعشرين درجة ونصف الدرجة عن تعامد اشعة الشمس على فلك الأرض أي مسارها حول الشمس فيكون الصيف في النصف الشمالي من الكرة الأرضية يزامنه شتاء في النصف الجنوبي الذي يزامن صيفَه في النصف الشمالي شتاء. واما تسخير الشمس والقمر فهو حفظ الفوائد منهما في حركتهما الظاهرة مع حركة المجموعة الشمسية بأكملها مع زمنٍ له اجله عند المولى في يوم قال عنه ((وجُمِع الشمس والقمر))، في الاية التاسعة من سورة القيامة. ثم ينبّئ عباده بما عملوا فالله تعالى، كما بيَّن هنا، خبير بما يعمل عباده. وهو خبير بهم يوم الاجل المسمى. وعندها يعلم الذين اشركوا ان الله هو الحق وان ما كانوا يدعون في الحياة الدنيا من دونه وَهْمٌ باطل. فالله تعالى أعلى وأكبرُ قَدْراً إذ أحاط علماً بما خلق وأثبت في أُم الكتاب ما يحدث لخلقه بما إستحق كل منهم فما الحاجة للشركاء والولد؟! وكل شيءٍ عنده بمقدار مُسَبَّق.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (31) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (32)

ينبه المولى عز وجل على ما جعل في السوائل من قوةٍ لحمل المواد الصلبة اذا تناسب وزنها مع سعة السفينة (الفُلك) وحجمها بحيث تطفو فتحمل التجارة عبر البحار بين الموانئ. وفي حركة السفن الشراعية آياتٌ للعباد فوقها: فإذا ابطأت الجري ببطئ حركة الرياح صبروا ثم إذا أسرعت بسرعة الرياح شكروا. ففي كل ذلك علامة على لطف اللطيف القدير. ويتمثل لجوء الانسان في البحر الى الله تعالى في وحدانيته بلا اشراك عندما تعصف الرياح فتثير الامواج العالية التي تحجب مع السحب ضوء النهار، فالله تعالى له القدرة الاولى والاخيرة في النجاة. عند ذلك ينسى المشركون غيره سبحانه ويدعونه بإيمان لا يشوبه شرك أي مخلصين له الدين. وهنا بعد النجاة الى البر يتفرق كل صنف عن الآخر. فمنهم من لا ينسى فضل ربه في النجاة شاكراً عابداً، ومنهم من يجحد وينسب النجاة لخفة الأنواء وانحسار الموج وسكون العواصف من جراء هذه الانواء وينسى آيات ربه ولجوءه اليه. وهؤلاء وَصَفَهم المولى عز وجل بأنهم (كلِّ ختّارٍ) أي غادر اشد الغدر، و(كفور) أي لا يشكر النعماء وينسبها لغير الرحمة الربانية او ينساها منشغلاً بهوى النفس والدنيا.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (33)

يأمر المولى عز وجل كل الناس من اجل النجاة ان يلتزموا بتقواه وبِخشيَةِ يومٍ لا يستطيع الشفيق من الآباء ان ينفع أحَبَّ اولاده اليه بشيء من الشفَقَةِ، ولا البارُّ من اولاده ان ينفع والده ببِرّ أو خيرٍ. وذلك في يومِ الحقِّ الموعود، يوم الحساب. كما يشير تعالى إلى ان الذي يحوج الاباء والأولاد آنذاك هو تقصيرهم في حياتهم الدنيا حيث يحذِّر هنا من غِرَّتِها في فنائها. ويحذر من العدوِّ الغَرورِ (إبليس) في خِداعه بالاكاذيب داعياً حزبَه إلى التفريط والجهل بحق الله سبحانه.

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34)

هذا بيان للناس بأن يفوِّضوا لله في خمسة علوم غيبية: في الساعة، موعدها. وفي الغيث (ويندب له دعاء الإستسقاء)، وفي صنف الجنين في الرحم (ويندب طلب قرة العين من الذرية)، وفي الكسب في أقرب مستقبل (ويندب الدعاء بطلب الخير)، وفي ظروف الوفاة اينما يشاء الله تعالى (ويندب الدعاء بحُسْن الخاتمة). والمولى لا يخفى على علمه وخبرته شيء. وتسليم الامر اليه هو المطلوب من البشر في كل ذلك فلا يجدي الاجتهاد فيه. والمؤمن يدعو ولا يقطع الرجاء.

سورة السجدة

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ

الم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (3) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (4) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5) ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (6)

الأحرف المقطّعةُ سبق الكلام عنها. وهنا تقرأ: أَلِف، لامّ، ميم. وقد ورد في فضل هذه السورة ما رواه البخاري عن ابي هريره رضي الله تعالى عنه قال "كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ في الفجر يوم الجمعة: (أَلِف لام ميم، تنْزيل) السجدة، و(هل أتى على الإنسان)..."، أي سورة الدهر. وروى الامام احمد عن جابر رضي الله عنه قال "كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا ينام حتى يقرأ: (أَلِف لام ميم، تنْزيل)، السجدة. وتبارك الذي بيده الْمُلْك". وقد تقدم الكلام عن الأحرف الْمُقَطّعة. ولم يُشِر المولى تعالى في هذه السورة بإسم اشارة لآياته وكتابه. بل ابتدأ الكلام بنفي الرِيَب عن القرآن وتنْزيله من رب العالمين. فما بالهم يقولون افتراه؟ ومن المؤكد انه الحق من الله تعالى لما فيه من نذير لقوم لم يأتهم قبلَه مَن ينذرهم رجاء أن يهتدوا الى معرفة وعبادة الله تعالى وحده فهو خالق السموات والارض وما بينهما في ستة أيامٍ، وهي أيّامه المعلومة عنده بما لا يقاس بأيام الدنيا جزماً. فأيام

الدنيا حصلت بعد خلق السموات والأرض وحصول دَوَران الأرض الذي تَحصل منه الايام. والله تعالى اعلم بمراده من ذلك. اما الاستواء على العرش فقد ورد شرحه وافياً في شرح الاية الرابعة والخمسين من سورة الاعراف فهو مالك الملك، ولا يوجد عرشان في مملكة واحدة. وأما استواؤه فهو تصريفه للأُمور كيف يشاء برحمة منه وفضل ولا يظلم أحدا. ولا يملك الانسان من دونه ولِيّاً ولا شفيعا. وطوبى لمن لم يغفل عن هذا الحق فتوكّل على ربه في التوفيق الى ما يحبه لعباده الصالحين في عافية منه. وبيده سبحانه كلُّ أمْرٍ إذ يُدَبِّرُه من مقام عليائه فيتنفَّذ في الأرض. ويحصي ما حصل في خزائن عزته اذ يعرج إليه ليحكم عليه مستغرقا سبيله إليه في يوم مقداره ألفُ سنةٍ من سِنِيّ الارض. وقيل أنّ يومُ القيامة هو بهذا العدد. وهنا يشير سبحانه إلى علمه بالغيب والشهادة فما عرفناه مما نشهده فهو اعلم به وما لم نعرفه من الغيب فهو أدرَى به. وإنّ جهْلَنا بما اخفاه عنا لا يؤثرُ على صحة العبادة التي لا تغيب عن علمه، وتصعد إليه تفضُّلاً من مقام عزته وخزائن رحمته.

الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (9)

بعد ذكر خلق السموات والارض وتدبير الامر بينهما وبيان علمه تعالى، ذكر المولى عز وجل الخَلْقَ. فقد تهيأت ظروف الحياة على الارض فكان كل مخلوق له من الاوصاف والاشكال ما يدل على إعداده بأحسن ما ينبغي مما يُنظر اليه بالتسبيح بحمد الخالق. وبدأ تعالى خلق الانسان الأوَّل في أحسنِ تقويمٍ من عناصر الارض التي ستعيش عليها ذريته. وبين تعالى خلق النسل من خلاصات من ماء

ضعيف خفيف سهل الإنسياب يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة (أي مقدمة صدرها) ليبدأ خَلْقُهُ في أحسن تقويم. وبعد خلق ابينا آدم من طين نفخ فيه من روحه أي منحه سبب حياة كل جارحة من جوارحه. وكما دلت المخلوقات على قدرة الله تعالى فقد دل خَلْقُ الانسان على أُنموذجٍ مفضَّلٍ بحيث يتقبل النفخة من روح الله تعالى ليكون ذا عقل لا يملكه الحيوان، مستبصرا بنشاط الفكر في ما يبصر ويسمع، وهذا ما يُرمَز اليه بالفؤاد لإتساعه للمعرفة، وذا نظرة صائبة لِما يتعرف عليه، وذا مبادرة للعمل على ضوء ما يعرف. وهنا يتميّز المؤمنون بمواقفهم ولا سيما الشكرُ لله تعالى بأن يعلموا بأنه المنعم الظاهر في جوده والباطن في لطفه، وبأن يتصرفوا بنعمائه وفق مرضاته، ثم بيّن سبحانه القِلّةَ في الشكر فما يصعد إليه من الشكر قليل.

وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (10) قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (11) وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (12)

ويذكر تعالى وجهاً من الجحود بآياته وبقدرته قولَ الكفار اعلاه. وكان مشركو مكة لا يؤمنون بالآخرة فقد قال أُبَيّ بن خلف لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (وقومه يرضون بقوله فكأنهم هم القائلون معه): (ءَإذا ضَلَلْنا في الأَرْضِ) أي تبعثرت اجزاء اجسامنا واختلطت بعناصر التراب (ءَإنا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)؟ فكان جواباً لهم تذكيرهم بالموت والرجوع الى الله تعالى وعندئذٍ يثبت الشيء الذي انكروه بعدما يكشف عنهم المولى ما حجبهم عن الحق فتنكسر نفوسهم ذِلاً وصَغاراً تنتكس معه

رؤوسهم معترفين يطلبون الرجعة لملافاة تقصيرهم فهم آنذاك على يقين. وفي هذا الصدد يجدر بيان التوافق بين قوله تعالى ((اللهُ يَتَوَفّى الأَنْفُسَ حِيْنَ مَوْتِها)), وبين قوله تعالى ((تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ)) وقوله تعالى ((قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ المَوْتِ الّذِي وُكِّلَ بِكُم)). والله تعالى هو الآمر بِتَوفِيَةِ الأنفُسِ أي استيفائها بقبض الروح منها كما يقول دائنٌ: "إستوفيتُ الحق من فلان" اذا ارسل اليه من يأخذه منه. واما مَلَكُ الموت فهو الموكل بقبض الروح فيدعوها ويأمر اعوانه الموكلين بكل منها بقبضها. وبهذا يتضح التوافق بين الآيات.

وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (13) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (14)

إذ وهب الله تعالى للجِنِّ والبَشَر عقولاً فقد بيَّن لهم بها الرُّشْدَ من الغيّ. فما ينبغي ان يكون عليهم اكراه مع قدرة عقولهم على الإختيار. ولو اكره المولى عز وجل كلَّ نفسٍ على الهدى لما كان لها اختيار. ولكنه تعالى علم بعد الإختيار ماذا سيحصل من الحساب فحق القول منه، أي سيكون بأمره الحق، بأن تمتليء جهنم من الجِنَّة والناس اجمعين. ويكتب للمؤمن النجاة برحمة إستحقها لَمّا اختار الهدى وصالح العمل، كما يمنع النجاة عمن تجاهل الحق بعد أن جاءه فلم يذكر في سلوكه انه سيلاقي ربه فكان جزاؤه من جنس عمله بأن يتناساه الله من رحمته فإنه تعالى لا يضل ولا ينسى. وعذاب الخلد مصير من لا ينال رحمة الرحيم يوم ينالها اهل الايمان فينجيهم ربُّهم ويذر الظالمين في جهنم جِثِيّا.

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (15)

يشهد الله تعالى بالإيمان للذين اذا وُعِظوا بآياته تعالى خشعت قلوبهم وسجدوا له تعالى سجوداً يحمل التعظيم بالتسبيح بحمده ويحمل الشكر على نعمة الإسلام. وتكون آياته نبراساً لرشدهم في كل حياتهم ولا يستكبرون عن العمل بها وطاعتها. وفي هذه الآية سجدة تلاوة.

تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (16) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (17)

التجافي لغةً: التباعد. والتجافي عن المضاجع هو صلاة التطوع بعد العشاء بدلاً من الإضطجاع. والنهوض من الفُرُشِ لصلاة التهجد قبل صلاة الفجر وهي اشارة الى قيام الليل، وكذلك حضور صلاتَي العشاء والفجر مع الجماعة ما امكن. واعتبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم صلاة الليل من ابواب الخير كما روى ابن جريج عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((ألا أدلُّك على ابواب الخير؟ الصوم جُنّة، والصدقة تكفِّر الخطيئة، وقيام العبد في جوف الليل))". الجُنَّة هي ما يُستَتَرُ به. وفي هذه الصلوات تحصل الصلة بين العبد الذي لا يعلم ولا يقدر إلا بعلم الله وبقدرته وبين ربه فيدعوه تعالى في صلاته طامعاً برحمته وخائفاً من عذابه وسَخَطِه. أمّا النفقة من رزق الله تعالى فالمقصود كل ما يخرج من يد العبد للزكاة والواجبات لذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين والصدقة لغيرهم. وبهذا يبشرهم المولى تعالى بما يثير الحبور في انفسهم من

ثواب لا بد ان يكون ذا اثر بليغ. والمنحةُ من العظيم منحةٌ عظيمة. واشار تعالى في الاية الخامسة عشرة من سورة (آل عمران) الى رضوانه بعد أُعطيات الجنات. ثم قال عن مستحقي الرضوان في الآيتين اللتين بعدها ((الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آَمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ)). ورضوان الله تعالى لا سَخَطَ بعده. وبهذا تَقَرُّ الأعين أي تستقر على الطمأنينة.

أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (18) أَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (19) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (20) وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآَيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (22)

المؤمن الذي كتب الله تعالى له حُسنَ الخاتمة بالايمان والعمل الصالح يرزقه الله تعالى منزلة من الجنات على حسب ما عمل. وذكر المولى تعالى جنات المأوى وهي في التفاسير مأوى أرواح الشهداء. والنُزُل هو العطاء الذي يقدَّم لمن ينْزِل مدعواً في غير بيته. ويُظهر المولى عز وجل ذلك بالمقارنة مع مصير اهل الكفر والتكذيب، وهنا أسْماهم الله تعالى بـ(الفاسقين) لخروجهم عن أمرِه تعالى. وهذا الفسوق مما يستوجب عذاب النار التي لا يستقر للمعذبين فيها قرار خلافاً لما استقرت عليه عيون اهل الايمان من الطمأنينة. فإذا حاول اولئك الفاسقون البحث عن منفذ للخلاص وارادوا الخروج منه ادركتهم زبانية العذاب بإعادتهم الى عذاب النار الذي كذّبوا به وسخروا من أخباره. اما في الدنيا فإن المولى عز وجل يبقى على رحمته

للفاسقين في الدنيا فيبتليهم بعذاب دون عذاب الاخرة لكي ترقَّ قلوبهم فيتضرعوا مؤمنين. ولكن من قسى قلبه على الحق يبقى مُعرِضاً عن الآيات الدالّة على توحيد الله تعالى وحكمته ورحمته وبهذا يكون مع المجرمين الذين لا يُترَكون بدون انتقام رباني على ما اجرموا بحق انفسهم وغمطوا حق الوحدانية والايمان بلقاء الله تعالى وقد جاءتهم الرسل بالنذير.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (23) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (24) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (25)

الكتاب الذي آتاه الله تعالى لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام هو التوراة. واللقاء الذي طلب المولى عز وجل من رسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم ان لا يدخلَ في مِراء منه هو لقاء سيدنا موسى عليه السلام بربه يوم آتاه الكتاب. فكان الكتابُ دليلَ الرُشد لهداية من سار على نَهْجِه من بني اسرائيل فجعل تعالى منهم أئمّةً يَقتدي بهم من يريد الهدى اذ صبروا على التقوى والزهد في الدنيا موقنين بآيات الله تعالى. فكان من ثمرة الصبر الإمامةُ للهدى بأمر الله تعالى. اما من خالفهم من بني إسرائيل فالله تعالى سوف ينبؤهم بما كانوا عليه من خلاف. فيفْصِل بين اهل الحق واهل الباطل بالحكم العادل فتقوم الحجة لأئمتهم بما اطاعوا وبما التزموا بالتوراة. وتقوم الحجة على من اختلف معهم بما حرّفوا من كتاب الله بغياً وطمعاً بمكاسب الدنيا.

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (26) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (27)

لقد بين الله تعالى لأهل مكة مصير من كذّب الرُسُلَ. وها هي آثارُهم على جوانب طرق التجارة تُشاهَد بيوتُها من غير أن يُرى فيها أحد مع ان ظروف الحياة لم تتغير. فلو لم يهلكهم المولى بتكذيبهم لبقيت بقية كاثرة منهم يعبدون الله تعالى. افلا يدخل هذا المعنى في اسماع هؤلاء المكذبين من قريش فتفقه قلوبهم العبرة؟ كما أن أمامهم مَثَلٌ في إحياء الموتى؛ كيف ان الله يرسل فيضان المياه في الانْهار الكبيرة كالنيل والفرات يحمل الطين من الارض التي مر عليها. فبعد انحسار الفيضان يرون الارض الجُرُز، أي اليابسة التي لا يكفيها مطر الموسم رغم خصبها، تتحول عندئذ الى حقول مخضرّة بالزرع الذي جعل الله تعالى في حباته طعاماً للناس وفي عشبه للانعام. وهاتان عبرتان في الإماتة والإحياء أفلا تُثيران في مشركي مكة التفكيرَ بقدرة العلي القدير لينبذوا ما هم عليه من كفر ويتوبوا الى الله عزّ شأنه.

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (28) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (29) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (30)

مما عرف المؤمنون قبل الهجرة بما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يستبشرون بالفتح ويعنون به إما النصر على كفار مكة او التخلص من أذاهم. فيقولون بأن الله سيفتح لنا على المشركين او يفتح بيننا وبينهم. فإذا سمع المشركون ذلك سخروا من المسلمين في قِلّتهم وتخفِّيهم فيخاطبون الرسول صلى الله

عليه وآله وسلم والمسلمين تكذيباً وكأن الامر من المستحيل متسائلين عن موعد هذا الوعد إن كانوا صادقين في إدِّعائهم. وهنا يؤيد تعالى حصول هذا الفتح ويطلب ان يجيبهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأنهم يوم الفتح سوف يتأكد لهم صدق الايمان فيؤمنون آنئذ ولكن لن ينفعهم إيمانهم. وعندئذٍ لن يؤخر المولى تعالى آجالهم بل يأخذهم ويوقِع بهم ما كتب لهم من مصير ويتحقق الفتح الذي كذبوا به وهم في غفلتهم على الشرك. وأما موقف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من استعجال المشركين الذي يحمل التكذيب فهذا الأمر يتطلب أولاً الإعراض عنهم، ثم انتظار الفتح ثقةً بوعد الله تعالى. كما أنهم منتظرون به وبالمسلمين الهلاك. وسبحان الذي أنجز وعده كما جاء في أخبارهم بعد الهجرة.

سورة الأحـزاب

بِسْـمِ اللهِ الرَّحمـنِ الرَّحِـيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (1) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (2) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (3)

السورة مدنية، والخطاب موجّه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بأربعة أوامر؛ الاول: تقوى الله تعالى؛ وذلك أن أبا سفيان وعكرمة بن ابي جهل وأبا الأعور السَلَمي قَدِموا المدينة بعد غزوة أُحُد فأخذوا الأمان من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليكلِّموه. فلما أذِن لهم طلبوا منه أن لا يَذكُرَ آلِهَتَهم بسوء بل يقول انها تنفع وتضر! واذا ببعض المنافقين يؤيدونهم! فاراد المؤمنون ان يقتلوا هؤلاء الوافدين فأمر الله تعالى بإتقاء الله فلا يُنقض عهد الامان لهم، وأمره الثاني سبحانه: هو أن يقف موقف الحزم من طلبهم ولا يساعدَهم في شيءٍ ويحترسَ منهم ومن المنافقين الذين استصْوَبوا مقترحهم. والله تعالى اعلم بأعداء دينه حكيم في معاملتهم. واما الأمرُ الثالث: فالإلتزام بإتباع ما يوحى إليه من ربه، ويحمل معنى التقوى التي هي باب الاخلاص واضعا أمامه رقابة الله تعالى. والخطاب هنا يعمُّ كلَّ المؤمنين لأنه ورد بصيغة الجمع بقوله تعالى: (.. بما تعملون خبيرا). والامر الرابع: العمل بتوجيه الله تعالى أي التوكل عليه في ما أمر ونهى. وبذلك يكون المولى عز وجل هو الوكيل في وحدانيته لا يعلو امرٌ على أمره. وكفى بالله وكيلا يكفي المتوكلين ما أهَمّهم.

مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (4) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (5)

القلب المقصود هنا هو العاطفة التي موضعها القلب فلا يملك الانسان لشخصين عاطفة متساوية لكليهما في الوقت الذي يكون فيه أحدُهما أقرب من الثاني إليه. فكما لا يملك رجل قلبين في جوفه فإنه لا ينظر الى زوجته نظرته الى أُمِّهِ اذا ظاهر الزوجة، أي قال بأنها عليه كَظَهْرِ أُمّه او كظهر أُخته. كما لا يمكن ان يقع موقع الولد من الصُلْب من يدعيه الْمُتبَنِّي ولداً له. فقد كان التبنّي، أي إدّعاءُ رجلٍ بنوّةَ ولدِ غيرِه ولداً له يأخذ حقوق الولد من الصُلْب، امراً مقبولاً حتى نزلت هذه الاية فنَسَخَتْ ما كان قبل نزولها من حالات التبنّي واعطت الاسم الصحيح لمثل حالات ضم الصغار الذين من غير عائلة الى عائلة أُخرى؛ فإن عُرِف أبو الصغير دُعي به وإن لم يُعرَفْ فيقال: (مولى فلان) بدلاً من: (ابن فلان) الذي ضمّه اليه. اما ما يقال لأيِّ صغيرٍ: (يا بُنَي) نداءً له فلا اثم فيه. واذا ادعى رجل أُبوّته لصغيرٍ او كبير، ذَكَرٍ أو أُنثى، فيُنظَر الى سن الولد فإن كان مناسباً ليكون ولداً للمدعي من حيث العمر فيلحق به. وان كان في عمرٍ لا يناسب فلا يثبت النسب. وأما ذو النسب المعروف فلا يُنظَر الى إدعاء من يدّعيه ولداً له. ولا جناح في الخطأ ويصحح فور ظهوره. والخلاف في إثبات النسب موضعه كتب الاحكام

ويبت القضاء فيه. وقد بين المولى عز وجل مغفرته ما سبق من إدعاء لمن تاب عما ادعى ويصحح إدعاءه.

النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (6)

ولاية النبي صلى الله عليه وآله وسلم هي ان يكون ولياً للمؤمنين في الشفقة عليهم ورعاية امورهم وحفظ مصالحهم وإقالة عثراتهم كما روى البخاري عن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ((ما من مؤمن إلا وانا أولَى الناس به في الدنيا والاخرة إقرأوا ان شئتم (النَّبِيُّ اَوْلَى بِالمؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِم) فأيما مؤمن ترك مالاً فَلْيَرِث عَصَبَتُه مَن كانوا. وإن ترك دَيناً او ضياعاً فليأتني فأنا مولاه)). وهكذا كان ضامناً لإقالة عثرة المؤمن. واما امومة امهات المؤمنين فتقتصر على حُرمَتِهِنّ من بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كحرمة الامهات في النكاح. ولا يجوز للمؤمن معهن ما يجوز له مع امه التي ولدته كالحديث مواجهةً. كما لا يجوز لغير ذي مَحْرَمٍ التحدّث اليهن او معهن إلا من وراء حجاب. كما لا تَحْرُمُ اخواتهن على من يحل لهن من المؤمنين. وأما إطلاق عبارة: (خال المؤمنين) على اخوة امهات المؤمنين فيقصد به عند بعض المذاهب اطلاق العبارة وليس إثباتا للحكم. واما إطلاق عبارة: (والد المؤمنين) فلا يجوز لقوله تعالى ((مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُم)). وأمّا ما ورد في ما اخرجه ابو داود عن ابي هريرة رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((انما انا لكم بمنْزلة الوالد أُعلِّمُكم...)) فهذا من قبيل التعليم والنصيحة تشبيهاً لموقف الآباء اذ أن سبب هذا الحديث كان الكلام عن الإستبراء من الغائط وعن أحكام الطهارة كي لا يتحرجوا من السؤال. واما أُولو الارحام في كتاب الله أي في حُكْمِه تعالى فهو توارث القرابات نَسخاً لما

كان قبل ذلك من توارث المتآخين بين المهاجرين والانصار أو توارث الأحلاف. وقد كان التحالف في الجاهلية فقط فلا حِلْفَ في الاسلام. واما فعل المعروف الذي استثناه المولى سبحانه فهو يتمثل في البِرِّ ونصر الحقّ والاحسان في ما بينهم والصلة المستديمة ثم الوصية بدلاً من الميراث أي تُترَك وصيةٌ يوصَى بها للمؤمنين والمهاجرين الذين تآخَوا في الدين ولم يكونوا من أُولي الارحام. وهذا الفصل في الميراث بين أُولي الارحام وبين المتآخين هو فرض مسطور في الكتاب الاول وهو اللوح المحفوظ.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (7) لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (8)

إن تبليغ الرسالة والدعوة الى الدين ميثاق غليظ اخذه تعالى على الرسل، ولا سيما على أُولي العزم الخمسة المذكورين في الآية، فهم المبعوثون بهذا الميثاق الذي لا بد منه لبيان الهدى الى كمال العبادة وصحة المعاملة مع المولى العظيم الذي يحاسب الرسل على حفظ الميثاق، ويحاسب من بَلَغَتْهُم رسالاتهم على تصديقها والالتزام بالدين مثلما فعل الرسل. فالميثاق سبب للمحاسبة وأساس لشهادة الرسل عليهم الصلاة والسلام. فالذين صدّقوهم وصدَقوا بإتباعهم نَجَوا. ومن كفر فالعذاب الاليم مهيّأ له. (أُنظر شرح معاني الآيتين 23 و24 من هذه السورة).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (9) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (11)

بعد غزوة أُحُد بعام إشتد حقد كفار قريش على نجاح الدعوة للإسلام في المدينة، وأخذ يهود بني النضير الذين أجلاهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى

خيبر يحرضون قريشا على قتاله مما دفع قريشاً للتحالف مع قبائل غطفان وبني كنانة واهل تهامة وهوازن، والتعاهد سراً مع يهود بني قريظة وبني النضير، فكان حلفهم يسمى الأحزاب وبلغ جمع مقاتليهم قريباً من عشرة آلاف فقرروا جميعاً غزو المدينة. ولما سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقدومهم، وأشار عليه سيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه بِحَفْرِ خندقٍ يحيط بالمدينة، بادر الى ذلك وجمع من المجاهدين قريباً من ثلاثة آلاف مقاتل في مواجهة العدو. فكان الخندق بينهم وبين الغزاة طيلة شهر. وفي تجمع كفار قريش وحلفائهم وبني النضير وبني قريظة إنكشف للمؤمنين أن يهود بني قريظة القريبين من المدينة قد خانوا العهد الذي كانوا قد عقدوه مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتحالفوا مع العدو سرّاً. وبهذا اشتد البلاء وزُلزِل المؤمنون زلزالا شديداً مع الخوف على دعوة الحق ومصير النساء والأطفال. واقتصرت الحرب بين الفئتين على رمي النبال والحجارة ولم يحصل قتال سوى اقتحام الخندق نحو المسلمين مِن قِبَل عَمْرو بنِ عبد وُدٍّ العامري من الكفار وكان شديد البأس في القتال فبرز له سيدنا علي كرم الله وجهه وبارزه حتى نصر الله علياً فقتله فكان ذلك بشارة بالنصر. وبعد ذلك اشتدت الرياح الباردة حتى عصفت في صفوف العدو وقلعت خيامهم فانسحبوا خائبين. أما المنافقون فيقول تعالى عن موقفهم طيلة هذه الشدة:

وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (12) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (13) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ

أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (14) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (15)

هذا البلاء كشف نوايا المنافقين الذين لا بصيرة لهم في الدين بل تابعوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم من غير ايمانٍ في قلوبهم. ومنهم المنافق معتب بن قشير فقد قال ((يَعِدُنا محمد فتح فارس والروم وأحدُنا لا يستطيع مغادرة مكانه فَرَقاً! ما هذا الا وعْدُ غرور!)) أي وعدٌ كاذب. اما عبد الله بن أُبَي بن سلول رأس النفاق (والذي تراجع يوم أُحُد مع ما يقارب من ثلث جيش المسلمين) فقد خاطب اهل المدينة: "يا أهل يثرب لا مُقام لكم فارجِعوا"! ولعله قصد الرجوع عن الايمان مع الرجوع عن العسكر المسلم. واما بنو حارث فقد إدّعَوا بأن بيوتهم مكشوفة يسهل اقتحامها وما هي كذلك بل أرادوا الفرار. ولو بَغَتَهُم العدو وسألهم الردة عن الإسلام لاستجابوا من غير تلبث أي من غير تريث واتفقوا مع الغزاة ولو حصل ذلك لهلكوا بما خانوا الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم اذ انهم سبق لهم ان بايعوا على الثبات وهذا عهد يسألهم الله تعالى عنه.

قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (16) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (17)

جاءت العبرة من موقف هؤلاء لبيان قِصَر نظرهم في الايمان كما سبق وجاء عنهم انهم لا بصيرة لهم في الدين فلَو كانوا على صحة علم وايمان لعلموا انه لا عاصِمَ لهم إلا الله سبحانه فهو الولي النصير.

قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (18) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (19) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (20)

المعوِّقون هم مسببو تأخير النصر وهم المنافقون. فهم يريدون سحب عدد من الملتفين حول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من مواقعهم واذا دُعوا الى مواجهة العدو فعلوا ذلك لوقت قصير على قَدَرِ ما يراهم المؤمنون. واما نفقتهم للجهاد فقد كانوا أشِحَّةً في إخراجها اذ لو حرصوا على النصر لبذلوا ما امكنهم بذله. واما حالهم اذا اشتد عليهم الأمر (إمّا بِتَقَرُّب العدو، او برقابة المؤمنين لهم) فتكون نظراتهم غير مستقرة يميناً وشمالاً كنظرات الذي أحَسّ بِدنُوِّ أجله فخاف الحساب فزاغت نظراته يميناً وشمالاً. فإذا حُسِمت المعركة كان لهم كلام شديدٌ بالمطالبة بقسمتهم من الغنائم وكأنهم هم سبب النصر. وهذا من صفات البخل والشح بطلب الكثير والبخل بالقليل. وهذا دليل ايمانهم بألسنتهم بينما قلوبهم مُنكِرة فلا أساس لأعمالهم من التقوى فتنهار حابطةً ولا يأبه رب العزة بها وذلك يسير أي سهل عليه. وكانوا يظنون أنّ قريشاً وأحلافهم (الأحزاب)لم يذهبوا خلافاً للواقع إذ كانت العواصف قد أجبرت الأحزاب على الرحيل. واما المنافقون فقد كانت قلوبهم تنشد سلامتهم ولا تهتم بنصرة الدين حتى إنهم لو يأتي العدو كرة ثانية لتمنوا لو أنهم تركوا المدينة قبل الغزوة فبقوا بين الأعراب في البادية يتسقطون اخبار المعركة. واما لو

كانوا في المؤمنين لَما اشترك منهم في القتال إلا القليل، إما رياءً او حَمِيَّةً ولو لوقت قصير. والْحَمِيّةُ من مزايا القتال في الجاهلية وهي التعصب للقبيلة في الحق والباطل!

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (21) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (22) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (23) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (24)

جعل المولى عز وجل من موقف رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في صبره وثباته ورجاء الفرج في النصر وإعلاء كلمة الله عز وجل مثالاً في حالات الشدة التي يبتلي بها المولى تعالى صبر عباده المؤمنين، وثباتَهم، وايمانَهم بوعْدِ ربهم. وكل ذلك حجة للمؤمنين في رجائهم بالله تعالى ورجائهم اليومَ الآخر ويجعلهم في ذكرٍ كثيرٍ لله. وهكذا واجههم المولى عز وجل بِعَدُوٍّ حاقد اضعاف عددهم هاجماً عليهم يترقب الفرصة لكي يستبيح حرماتِهم فلم يتزعزع ايمانُهم بالله تعالى وتذكروا ما وعدهم من إبتلاء ونصر فازدادوا إيماناً. ومنهم من قضى نحبه أي مدة عُمُرِه ومنهم من سَلُمَ، (والنَّحْبُ هنا نذْرُ المؤمنِ نفسَه لله تعالى). وهنا نعود الى بداية السورة في الاية السابعة لمعرفة كُنْهِ الميثاق للرسل وفي الاية الثامنة منها لمعرفة كيف يمتحن عباده ليسأل الصادقين عن صدقهم. وقد عُرِف اهل الصدق في الشدة وما بدّلوا العهد ليجزيهم الله تعالى. ثم ليجازي المنافقين على موقفهم ما لم يرجعوا عن النفاق تائبين ليتوب الله تعالى عليهم انه غفور رحيم.

وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (25)

تتجلى حكمة الباري عز وجل في تدبير امور المسلمين لَمّا جاءهم الكفار من فوقهم ومن اسفلَ منهم فهيّأ جنداً من الملائكة وسخر الرياح كما جاء في الاية التاسعة من السورة. وهنا يبيّن بأنه أراد بذلك ان يحفظ قوة المؤمنين من غير قتال وأن يُلحِق بعدوهم الهزيمة من غير أن يحقق ما أمّله. وبذلك ضعفت قوته وانتاب جندَه اليأس من النصر على جند الايمان فشدوا رحال الخيبة ولم تقم لهم بعدها قائمة. وبعد انسحاب قريش واحلافها بقيت جولة للمؤمنين مع ناكثي العهد، مع بني قريظة اليهود الذين عادوا خائبين الى حصونهم قرب المدينة فقال تعالى:

وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (26) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (27)

جاء في شرح الاية الحادية عشرة من هذه السورة ان بني قريظة نقضوا العهد مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. وبهذا لم يَبْقَ لهم عهدٌ ولا ذِمةٌ عند المسلمين. وكان جزاؤهم أن يُعتَبَروا محاربين خسروا الحرب وعليهم حكم الله تعالى. وكانت ديارهم على بعد اميال من المدينة فأمّر الرسولُ صلى الله عليه وآله وسلم سيدَنا علياً كرم الله وجهه على الحملة التي أُعِدّت لمحاصرتهم حتى يستسلموا. وتم حصارهم لمدة خمس وعشرين ليلة. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((تنْزِلون على حكمي))؟ فأبَوا فقال ((على حكم سعد بن معاذ))؟ وكان حليفهم في الجاهلية

فرضوا به. فقال سعد رضي الله عنه "حكمتُ فيهم أنْ تَقْتُلَ مقاتليهم وتَسْبِيَ ذراريهم ونساءهم". فكبّر النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال ((لقد حكمتَ بحكم الله)). فأنزلهم من صياصيهم أي حصونهم، وقد مَلَكَهم الرعب، فقتل الرجال، وكانوا أكثر من سبعمائة، وسبى النساء والذين لم يبلغوا الحُلُم من ذريّاتهم. وغَنِم المسلمون المواشي والنقود والأمتعة. وأسكن الرسولُ صلى الله عليه وآله وسلم المهاجرين ديارهم لأن الانصار لهم سكناهم في المدينة فقال لمن أسكنهم ((انكم في منازلكم)). وبشر الله تعالى المؤمنين بأكثر من ديار بني قريظة بقوله تعالى ((وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا))، وفي هذا بشارة بأنّ قريشاً لن تَغزوَهم بعدها. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ما رواه محمد بن اسحاق ((لن تغزوَكم قريشٌ بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم)). وهذا ما حققه المولى تعالى في صلح الحديبية اذ لم يتجرّأْ من قريش أحدٌ على مهاجمة المسلمين الذين توالت إنتصاراتهم بعد ذلك في خيبر وفتح مكة.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (28) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (29) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (30) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (31)

لم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يريد من الدنيا غير ما يكون لإعلاء كلمة ربه العزيز ورجاء الدار الآخرة. وهذا يعني أن على أزواجه إن أرَدْن البقاء معه أن يرجُونَ اللهَ ورسوله والدار الآخرة وإلا لتنافرت القلوب. والله تعالى امر

بتخيير نساء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بين ترف الحياة الدنيا، وعندئذ يطلقهن، وبين الله ورسوله والدار الاخرة، وعندئذ يُكتَب لهن الاجر العظيم لترقى منْزِلتُهن الى منازل أهل بيت النبوة معه صلى الله عليه وآله وسلم. وحصل التخيير وقد أردْن جميعاً اللهَ ورسوله والدار الاخرة كما هو معروف. واشترط المولى عز وجل في خطاب مباشر لهن بضعف العذاب لمن تقوم بعمل او قول يخالف امر الله ورسوله صراحة وذلك ان معصية العالِم اقبح من معصية الجاهل وان خفّت عنها. وهذا الشرط لا يعني انه محتمل الحدوث اذ لم يحصل ذلك بل كان ذلك مقدمة لبشارتهن بضعف الاجر مع الرزق الكريم. رضوان الله عليهن جميعاً.

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (32) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (34)

وفي خطاب مباشر لهن بَيّن المولى عز وجل ميزة مجموعتهن عن غيرهن بما فضلهن الله تعالى بزواجهن من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبتقواهن فإن تقوى العالمة تكون مثالية فيكون تكريمها متميزاً. ومن سبل تقواهن أنّ كلامهن مع الرجال، وعادةً يكون من وراء حجاب، يتسم بالترفع ويُكتَفَى فيه باللفظ البليغ والمعنى الحسن بما قل ودلّ فلا يخرج عن المقصود الى فرعٍ غيره. وبهذا يقف من لم يكن سليم القلب موقف الإعزاز والتكريم فلا تحدثه نفسه بأكثر من طلب العلم والنصيحة والحديث الصحيح، ومما أمرهن المولى تعالى أن لا يخرجن من بيوتهن فقد

اغناهن عن الحاجة الى ذلك ولم يسمح لهن بالتبرج لأنه يحط من منزلتهن الى منازل الجاهلية. ويوصيهن سبحانه بالإنشغال بأداء الصلاة وإيتاء الزكاة وتحرّي طاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم. وبيّن المولى عاقبة ذلك بنيل ما أعد الله تعالى لأهل البيت من طُهر ونقاء لا يبقى معهما رجس أي ذنب يلوث صحيفةَ مُرتكبِه. وقد ورد في التفاسير، كتفسير ابن كثير للآية الثالثة والعشرين من سورة الشورى سيرد ذكرها إن شاء الله تعالى، شمولُ اهل البيت لسيدنا علي وسيدتنا فاطمة الزهراء وابنيهما الحسن والحسين عليهم السلام. وهنا النداء موجه لنساء النبي رضي الله عنهن مما يفيد بأنّهن مع اهل بيته المذكورين. وقد أَمَرَهُن المولى القدير ان يقَين مع آيات الله تعالى، وهي القرآن، ومع الحكمة التي تأتي من أقوال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم واخلاقه وافعاله. وبعد هذه الوصية اورد المولى تعالى إسمين من اسمائه الحسنى مما يشير الى لطفه تعالى بهن عن خبرة بما في النوايا والمقاصد. وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهن في عصمته راضياً عنهن.

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (35)

المغفرة والاجر العظيم جائزة لمن اتفقت افعاله واقواله واخلاقه مع هذه الاية الكريمة؛ فأول ما يُدخله في نيل ذلك هو الاسلام والايمان والقنوت لأمر الله تعالى أي الطاعة عهداً وميثاقاً. ثم الصدق في ذلك. فإن الاسلام هو شهادة لا إلَه إلا الله محمدٌ رسول الله، وإقامة الصلاة، وايتاء الزكاة، وصيام شهر رمضان وحج البيت

من استطاع إليه سبيلا. والايمان؛ الايمان بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبيين مما يجب ان يصدِّق به المؤمنون قلباً وعملاً. ثم الصبر يكون على مشيئة الله تعالى وابتلائه والصبر في النعمة والصبر على الطاعة. ثم الخشوع يحمل التواضع لله تعالى بالقلب والجوارح مع الخوف من سوء العاقبة. ثم الصدقات المفروضة كالزكاة، والنافلة كالعطاء لوجه الله والنفقة في سبيله وابتغاء مرضاته. اما الصوم ففيه النَفْلُ بعد فريضة صوم رمضان كصيام الايام البيض من كل شهر، الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر منه وصوم الاثنين والخميس. واما حفظ الفروج فهو حفظها عما لا يحل لها. واما ذكر الله تعالى كثيراً فإضافة الى اقامة الصلاة يكون ذكر الله تعالى ليلاً ونهارا دليلا على النجاة من الغفلة فيكون ذكراً بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير أي سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر. ويكون بقراءة القران والشكر على النعم والاشتغال بالعِلم النافع الذي يقرب المؤمن الى الله تعالى ويقترن بتركيز الفكر أي ما يسمى بحضور القلب في تدبُّر المعنى. ويكون اخلاصاً بين القلب والرب لا يطلع عليه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده. وفيه المناجاة في التسبيح والدعاء فيبقى المؤمن متصلاً بربه فيذكره الله تعالى كما وعد في سورة البقرة في الاية الثانية والخمسين بعد المائة ((فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُم)) يذكره العبد داعياً فيذكره مجيباً ويذكره سائلاً فيذكره معطياً ثم يذكره شاكراً فيذكره بالزيادة وهكذا لا يبقى مع ذكر الله تعالى حبٌ للدنيا وما يزينه الشيطان فيها من الشهوات والبخل والملذات المحرمة البعيدة عن الزهد وعن الكرم اللذين يحبهما الله تعالى. وفي شرح هذه الاية في التفاسير احاديث وامثلة كثيرة اكتفي منها بما رواه الامام احمد في مسنده عن ابي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: "قلتُ يا رسول الله أي العبّاد افضل درجة

عنـد الله يـوم القيامـة"؟ قـال صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم ((الـذاكرون الله كثـيراً والذاكرات)). قال: "قلت يا رسول الله ومِن الغازي في سبيل الله تعالى"؟ قال ((لو ضرب بسيفه في الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دماً كان الذاكرون لله كثيراً افضلَ منه)). وهذا يدل على ان المجاهدَ الذاكرَ كثيراً أجره أعظم لإجتماع الفضْلَين، والصائم الذاكر افضل من صائم لا يوازيه بالذكر، وطاعة الله تعالى ذكرٌ، وإستغفارُ المستغفرين ذكرٌ، والصلاة على النبي وآله عليهم الصلاة والسلام ذِكْرٌ.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (36)

كـان القـرآن ينـزل بالتشريع والأمـر والنهـي لبيـان حكـم الله تعـالى في حـالات تحصل او امور تجري على اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ومن ذلك خطبة إحدى عقيلات قريش لأحد الصحابة، خطبها له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلما ابدت رفضها وامتناعها نزلت الاية فرضيت المرأة. والايات عامة بان يترك المؤمن الاختيار في ما ليس فيه تخيير لوجود الامر والنهي الصريحين. فإذا اراد المؤمن امراً فيه إباحة فهو مُخيّر بفعله او تركه، واذا تفاضل امران كلاهما مباح فيتبع الافضل. وتكون المعصية ضلالاً مبيناً اذا اختار امراً مخالفاً لِما لا إختيار فيه. اما في المباح فلا توجد معصية اذا ترك امراً من أمرين مُباحَين كما جاء آنفاً ولا سيما بعد صلاة الاستخارة.

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا

وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (37) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (38) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (39) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (40)

زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه انعم الله تعالى عليه بالايمان وانعم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالإعتاق وبعد ذلك (وقبل ان ينزل النهي عن التبني) تبناه فكان يُدعَى زيداً إبنَ محمد. وأمّا زينب بنت جحش رضي الله عنها ابنة عمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أميمة بنت عبد المطلب فقد تم زواجها من زيد على يد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. إذ بادر بخطبتها لزيد. ومكثا قريباً من سنة من الزمن حتى دب بينهما الخلاف. وفي ايام زواجهما الاخيرة اشتد الخلاف ولم يبق مجال للصلح بينهما. عندها اخفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما وقع في نفسه حول الزواج منها بعد طلاقها من زيد (ان حصل). وأمر زيداً ان يمسك عليه زوجه أي ان لا يطلقها وان يتقي الله تعالى في ذلك. ولكن حكمة الله تعالى اقتضت ان يظهر بطلان تحريم الزوجة التي يطلقها المتبنَّى على من تبنّاه (كما كان متبعاً في الجاهلية من غير سند أو أصلٍ تشريعي). ولم يجد زيد بُدّاً من الطلاق فطلق زينب. فلما نزلت الاية السابعة والثلاثين هذه تزوجها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأمر الله تعالى الذي أوضح فيه للناس حُكمَهُ في جواز مثل هذا الزواج وفي ما شق على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من إبدائه للناس دفعاً لتقوّل الكفار والمنافقين. فأوضح تعالى مراده من اقتصار الخشية على خشيته

تعالى وترك خشية الناس في ما يرضي الله تعالى. ولا بد في ما فرض الله تعالى من أمرٍ أن لا يدخل الحرج مانعاً منه. وهذا ما سار عليه الرسل عليهم الصلاة والسلام من العمل بما قدر الله تعالى لهم. وهم الذين امتدحهم بأداء الامانة في تبليغ رسالاته فلا تأخذهم لومة لائم في كل امر في سبيل ذلك. وكفى بالله تعالى ان يكون هو الذي يتعاملون معه في الخشية فهو وحده الذي يحاسبهم. وما كان زيد ابناً لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم لكي تحرم عليه زوجة زيد بعد طلاقها. ولكنه صلى الله عليه وآله وسلم اعم من ذلك فهو لكل امته اشفق وانصح من الاب وزيد واحد من امته. ولم يكن يحصل شيء من هذا إلا بعلم الله سبحانه وتعالى.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (42) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (43) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (44)

في شرح الاية الخامسة والثلاثين التي مرت بنا بيانٌ واضحٌ وافٍ عن ذكر الله. وهنا في هذه الاية يأمر تعالى عباده المؤمنين بالذكر والتسبيح في اطراف النهار الذي ينبغي ان لا يُشغِل سعيُ المؤمن فيه لطلب الرزق عن ذكر الله تعالى. والذكر الكثير متفاوت بين المؤمنين على قدر ما علَّمهم الله تعالى عن ذاته؛ فالتاجر يذكر في البيع والشراء وصايا الشريعة فلا يغفل عن ذكر الله تعالى، والصانع يذكر وصايا النصيحة في العمل فيذكر الله تعالى. والموظف يذكره في حفظ العهد والامانة والرفق فينصح لله تعالى. ويستديم العبدُ الذكرَ بإقامة صلاة الفجر وصلاتي الظهر والعصر ثم ينتهي الاصيل الى صلاة المغرب فالعشاء فالتهجد. وهكذا لا يمنع العمل والليل عن الذكر الكثير كما لا يمنع الذكر الكثير عن الكسب والعمل من اجله فينال الذاكرون رحمة

ربهم ودعاء الملائكة لهم وهكذا يبقى المؤمن مع نور الله تعالى على بيّنةٍ من فعله وقوله بعيدا عن ظلمات الغفلة حتى يلقى ربه الرحيم راضيا. وعلامة رضاه تحيتهم يوم يَلقَونه (سلام). سلام من الله تعالى وسلام في ما بينهم وأعدّ لهم من كرمه الاجر الكريم.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (46)

الشاهد هو الذي يقبل الله تعالى قوله في الشهادة على الصادقين والمكذبين. والمبشر هو الذي يبشر اهل الايمان بالجنة وذلك بايضاح ما يقرّب اليها من قول وعمل. وقد بشر الرسول صلى الله عليه واله وسلم بعض اصحابه عليهم رضوان الله تعالى بالجنة. والنذير هو الذي ينذر بالنار من يكفر بالله واليوم الاخر والملائكة والكتاب والنبيين وينذر من يمنع الزكاة، وينذر المرتد عن الدين.كما أن الداعي الى الله بإذنه هو المتبع لأمر الله تعالى المؤمل بتيسيره وتوحيده وحق (لا اله الا الله محمد رسول الله). واما السراج المنير فهو تبليغ القرآن الذي هو نور الله تعالى ينتشر من سراج النبوة. وكل هذه الصفات تشمل علاقة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مع الناس فهو شاهدٌ لهم او عليهم، ومبشرٌ ونذيرٌ لمحسنهم ومسيئهم، وداعٍ إياهم للحق يوضحه لهم ويبيّن المولى تعالى له موقفه من الناس كما يلي:

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (47) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (48)

الفضل الكبير لله تعالى وعدٌ لمن آمن. وعلى الرسول البشارة بذلك. وعليه ان يقف موقف الحزم ضد رغبات اهل الكفر في ما يؤمّلونه من مداهنة. اما اذى الكفار والمنافقين فيجب أنْ لا يؤثر على الدعاة بل يجب النهوض بأمر الله تعالى وإلتماس التوفيق منه. ويحصل التوفيق بإتفاق إرادة الدعاة مع ما يريده تعالى منهم ولهم. ويكون العبد في توافق مع ربه برحمة وهدىً من الله تعالى ما دام يستبصر طريقه وفق الشريعة والأمر والنهي ويتصرف بالرحمة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (49)

يستنبط من هذه الآية إضافة إلى عدم وجوب العدة على من يطلقها زوجها من قبل الدخول بها ما يلي؛ 1- أنّ النكاح تم وإن حصل قبل الدخول فالمرأة تحرم على الابناء والاحفاد والآباء والاجداد، 2- كما تبين الاية ان لا طلاق ما لم يعقد اولاً عقد النكاح مما لا يتفق معه نكاح المتعة الذي يُضمَر فيه الطلاقُ قبل عقد النكاح ثم يُشترَط في العقد. أُنظر شرح معاني الآية الرابعة والعشرين من سورة النساء، 3- العدة في حالة الطلاق بعد النكاح وقبل الدخول لا وجود لها اذ تتمكن التي حصل طلاقها قبل الدخول بها من الزواج يوم حصول الطلاق وعلى الزوج أن يخرجها من بيته، 4- لم تُذكَر الكتابيّاتُ دِلالة على تفضيل المؤمنات، 5- أما المتاع فمذكور في شرح الآية السادسة والثلاثين بعد المائة من سورة البقرة للتي لم يحدد لها مهر، 6- السراح الجميل نصف المهر إن كان قد سُمّيَ لها.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (50)

كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد مهر لنسائه أي آتاهن اجورهن. (والأجر هنا هو الصَّداقُ وليس فيه الفريضةُ وهي المهرُ المؤجل). وكان قد اعتق صفيّة وجويرية رضي الله عنهما كانتا أَمَتَيْنِ وجعل عِتقَهما صَداقاً لهما. وكان عنده اثنتان لم يعتقهما. وذكر المولى عز وجل بنات الاعمام أو العمات أو الاخوال أو الخالات تحليلاً للمؤمنين في نكاحهن. وأما قوله تعالى ((وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ)) فقد حصل ذلك له صلى الله عليه وآله وسلم وقد زوّج احداهن لأحد اصحابه ولم يتزوج أيّاً منهن. وقوله تعالى: (خالصةً لك) أي بدون صَداق. وهذا اختصاص له دون المؤمنين إذ أوجب المولى تعالى عليهم الصداق والفريضة أي المهر المؤجّل في النكاح لقوله تعالى: ((...خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ)) أي كافة حقوقهن. فلا حرج على النبي صلى الله عليه وآله وسلم اذ لم يوجب عليه المهر.

تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (51)

في هذه الاية تخويل للرسول صلى الله عليه وآله وسلم. فكما خصه الله تعالى بخصائص دون المؤمنين في عدد الزوجات فقد خصه بالتصرف معهن. وقيل في تفسير الآية ان هذا الحكم يكون في حالة قبول النبي صلى الله عليه وآله وسلم من تَهَبُ نفسها اليه. وقيل في زوجاته ولم يثبت انه ميّز بين نسائه في حقوقهن إلا ما كان من سودة بنت زمعة رضي الله عنها فإنها وهبت ليلتها لعائشة رضي الله عنها وارادت ان تبقى زوجة له حتى تُحشرَ في زمرة نسائه. وأمّا قوله تعالى ((وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ)) فهو تحذير لمن لا ترضى بحكم الله وهو تحذير لكل من لا يرضى بحكم الله تعالى عن طيب نفس بأن يتذكر حكمة الله تعالى في خلقه وانه عليم حليم لا يُعَجِّلُ العقوبة.

لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (52)

هذه الاية حددت الحد الاعلى للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بما كان عنده من النساء وقت نزولها وهن عائشة وحفصة وام حبيبة وسودة بنت زمعة وام سلمة وصفية وميمونة وزينب بنت جحش وجويرية. فلو اراد التقيد بهذا النصاب والزواج من غيرهن فالمفروض انه يطلق احداهن ولكن نُهي عن ذلك بقوله تعالى ((وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ)). وكان آنذاك قد بلغ الستين. اما الاعجاب بالحُسن فقد كان في الظاهر بما توصف به المرأة من جمال ولكن الحُسن الصحيح هو في سمو الإيمان ولم يفعله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقد جعل الله تعالى في ذلك إقتداءً فأولى بالمؤمنين ان لا يلجأوا الى تطليق المرأة من بين أربع نساء للزواج من اخرى. والله تعالى احل بعد ذلك مُلْكَ اليمين من الجواري وحذر برقابته على ما يعتمل في

النفوس. وفي هذه الآية اشارة الى رضا الله تعالى عن ازواج الرسول المذكورات فلم يفضل عليهن أُخرى. كما تضمنت الاية فضل الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عليهن ذلك أنه لم يفضل غيرهن.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (53) إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (54)

نزلت هذه الاية يوم تزوج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من زينب بنت جحش رضي الله عنها. فأولَمَ لذلك وجاء من جاء الى الوليمة، وفيهم من لم يكن مدعوّاً فدخلوا بغير إستئذان، وجلسوا ينتظرون حضور الطعام فنهى المولى عز وجل عن دخول البيت دون استئذان قبل احضار الطعام، والـ(إنَى) في قوله تعالى: (إِنَاهُ) هو وقت احضاره ساعة الاكل. وأوضحت الاية ما يجب أن يحصل بعد الطعام بأن يغادر المدعوون البيت من غير جلوس للحديث، فإن الحديثَ ذو شجون يدخل بعضُه ببعض ويأخذ وقتاً غير مقصود مما يؤذي النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وكان الحياء يمنعه عن تنبيههم حتى انه قام عن الطعام فقام من قام وبقي ثلاثة منهم فلما رجع عرفوا انهم قد اثقلوا عليه في المكوث فأبتدروا الباب خارجين فنزلت الآية، وفي الآية النهيُ عن التحدث مع نساء النبي إلا مِن وراء حجاب. وبهذا يكون تصرفهم لا يؤذي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. كما نهى المولى عز وجل ان

يتزوج اصحابُه من بعده امهات المؤمنين فهن حرام عليهم. وقد كان احد الاصحاب قد لَمّح بذلك قبل نزول الاية فاستغفر وندم ندماً شديداً على ذلك. وبهذا الادب بيّن المولى عز وجل عِظَمَ منزلة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وشَمائله الخُلُقية العظيمة في الحياء من اصحابه كما بيّن لهم السلوك الذي ينبغي ان يكونوا عليه معه.

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آَبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (55)

استثنى المولى عز وجل ذوي الصلة المذكورين في هذه الآية من شرط التحدث من وراء حجاب مع ازواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم. ولغيرهن من النساء الإقتداء. ويعتبر كلٌّ من الخال والعم مشمولَين بهذا الإستثناء لأنهما من الأُصول. ويعتبر العبيد من الأجانب. وأمَرَ تعالى هنا أُمّهات المؤمنين بالتقوى، وفي ذلك إشارة للمؤمنات جميعا للإلتزام بهذه الوصايا.

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (56)

يأتي هنا معنى الصلاة في ثلاث حالات؛ فهي من الله تعالى ومن الملائكة ومن المؤمنين، وهي لله تعالى منهم، كما أنها من الله تعالى عليهم. فصلاة الله تعالى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم هي رفعُ منزلته في الدنيا والآخرة، وصلاة الملائكة عليه هي دعاؤهم له بذلك، وصلاة المؤمنين عليه هي في قولهم اللهم صلِّ على

محمد (وقد طلب منا أن نشمل آلَهُ معه) ومعناها الرجاء من الله تعالى ان يعظِّم منزلته ومنزلة آلِهِ الكرام. وصلاة الله تعالى على عباده المؤمنين هي ان يخرجهم من الظلمات الى النور وان تسبق رحمتُه بهم غضبَه عليهم. واجر الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعشرة أمثالِها واكثر. فقد روى الامام احمد في مسنده عن انس رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((من صلى عليّ بصلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات وحط عنه عشر خطيئات))". وهناك احاديث كثيرة في فضيلة الصلاة عليه اذكر منها ما رواه اسماعيل القاضي عن الامام محمد الباقر رحمه الله تعالى قال "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((من نسي الصلاة عليَّ أخطأ طريق الجنة))". أمّا السلام فيُجْمَع مع الصلاة وله من المعنى معنى الصلاة في جَمعِهِ معها، وله معنى التحية في قولنا السلام عليك يا رسول الله. ويقال تكريماً لأولياء الله الذين لهم في الاسلام منزلة القرابة والصحبة والجهاد المشهود وفيه تكريمُ دعاءٍ لهم بقولنا (عليه أو عليهم السلام). أمّا التحية للمخاطَب فالسلام تحية الاسلام الطيبة من الله تعالى. اما الرسل والانبياء الكرام فقد روى اسماعيل القاضي عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((صلُّوا على انبياء الله ورسله فإن الله بعثهم كما بعثني)). وهذه الاية هي الاية الوحيدة التي خوطب فيها المؤمنون في وسط الاية وليس في اولها، أي جاء نداؤه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) في وسطها بينما في غيرها يأتي النداء في بداية الآية.

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (57) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (58)

جاء في صحيح البخاري عن ابي هريرة قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((يقول الله عز وجل: يؤذيِني إبنُ آدمَ يسُبُّ الدهرَ وانا الدهرُ أُقلِّبُ ليلَه ونهارَه)). فقد كان المشركون في الجاهلية يقولون (يا خيبة الدهر فعل بنا كذا وكذا)! فيسندون ما قدّره الله تعالى الى الدهر فيسبون الدهر فكأنما يسبون من فعل الشيء الذي كرهوه. واما اذية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فهو نِسبةُ ما لا يليق به اليه مما وصفه به الكفار. واما اذية المؤمنين فهو لصْقُ الْتُهَم بهم بغير حق ووَصْفُهم بما لا يليق بهم. كما أن من الإفتراء التصوير او الرسم الذي ينسب من الوجوه ما ليس له في الحقيقة شَبَهٌ في العيون او الفم او اللحية كما نرى من فعل جُهّال العوام في التصوير الْمُتخيَّل. والغِيبة مما يؤذي المؤمنين فقد روى ابو داود عن ابي هريرة رضي الله عنه انه قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يارسول الله ما الغيبة؟ قال ((ذكرك اخاك بما يكره)) قيل أفرأيت إن كان في اخي ما أقول؟ قال ((ان كان فيه ما تقول فقد اغْتَبته وإن لم يكن به ما تقول فقد بَهَتّهُ)) أي اتيت ببهتان. وروى ابن ابي حاتم عن عائشة عليها السلام ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ((أربَى الربا عند الله استحلال عِرض امرءٍ مسلم)). أي الخوض في عرضه او شتمه او نسبة العيوب اليه او الطعن في نسبه وما الى ذلك من أقوال.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (59)

كان الفُسّاق في الجاهلية لا يتعرضون للحرائر لِما في ذلك من عاقبة وخيمة، ولكن كانوا يتعرضون للإماء بالقول كالغزل والاطراء والوصف. وقد امر المولى تعالى نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونساء المؤمنين أن يُدنين عليهن من جلابيبهن

أي يغطين ما لا يباح ظهوره من الجسم بالملابس التي لا تصف ولا تشفّ، وهما صفة الجلباب لكونه محافظاً وسميك القماش لتجنب التشبه بالفواسق وتجنب الاذى. واما قوله تعالى: ((وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)) فيخص ما كان من الفساق في الجاهلية قبل إسلامهم. وكان اكثر الاذى ما يكون في أوقات خروج النساء بعد حلول الظلام الى فضاء المدينة قبل ان تُتخذ الكُنُف (جمع كنيف وهو بيت الخلاء) في البيوت.

لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (60) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (61) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (62)

سبق التعريف بالمنافقين. وأمّا الذين في قلوبهم مرض فهم أهل الفسوق بمختلف اشكاله؛ فمنهم من قال تعالى عنهم (فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ) أي يتسقط كلام النساء ليدخل معهن في علاقة مريبة، ومنهم المجاهرون في الفسوق، ومنهم الذين يتْبعون عورات النساء أي يرمونهن بما لا يرضي الله تعالى. وهذا كله من انواع التفحش الذي كان له مظهر في الجاهلية. واما المرجفون في المدينة فهم الذين يبثون الشائعات بما يقصد به إحباط همة المجاهدين بأخبار موهومة كتفَوّق الاعداء وهجوم موهوم منهم، وهكذا. وقد تَوَعَّدَهم المولى عز وجل جميعاً بتسليط الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عليهم ليعاقبهم ويطردهم وتوعدهم بتسليط المؤمنين عليهم في أخذهم وقتلهم وقد لحقتهم لعنة الله فلا يكون هناك من ينصرهم. وهذه في كافة الازمان لا تبديل لها. وفيها طمأنينة للمؤمنين بحماية الله تعالى لدينه بنصر المجاهدين في سبيله. أما أمثال هؤلاء الذين في قلوبهم مرض فهم عرضة لإقامة الحدّ وللتعزير

من قِبَلِ القضاء بما في ذلك القتل ولا تبديل في سُنّة الله تعالى فيهم. وفي الآيات دعوة لأُولئك للتوبة المبكِّرة قبل حلول الوعيد فيهم.

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (63)

هذه الاية نزلت في المدينة. كما نزلت مثيلَتُها في مكة وهي الاية السابعة والثمانون بعد المائة من سورة الاعراف. وردَّ عليهم المولى عز وجل في كلتا الآيتين بأن علم الساعة من المكتوم عند الله تعالى. واشار تعالى الى انها تأتي بغتة وما يدري احد من الناس بموعدها بل لعلها تكون قريبة الوقوع. و(تكون) هنا بمعنى تقوم وتحصل وهي نهاية الحياة على الارض وبدء البعث والحساب. أما قربها الزمني عند الله تعالى فيختلف عما عند البشر فهم يرون الامر بعيداً ويراه الله تعالى قريباً وقد كان السائلون عن الساعة في ايام مكة صنف ملحد يسخر، وصنف دخل في الاسلام حديثاً يتساءل لمزيد من المعرفة. وكان الجواب مرضياً للجميع بأن هذا العلم ليس من تكاليف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. كما فيه إشارة لترك التخمينات والدلالات عليها.

إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (64) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (65) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (66) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (67) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (68)

اللعنة هي الحرمان من الرحمة وافتقاد النصير. والسعير هي جهنم في هياجها. وخلود الكفار فيها خلوداً للأبد يكون بتجاهلهم من قِبَلِ ربهم سبحانه فلا يأذن لأحد من الشفعاء بالشفاعة لهم. وهم في هذا العذاب الذي من شأنه ان يلحق وجوه الكفار بالنار اينما وجهوها يتمنون في حسرة ندامة لو أطاعوا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم. وأقروا لله تعالى بأنهم اطاعوا اعداءه من سادتهم وكبرائهم طاعة ضلوا بها طريق السعادة فيطلبون لهم ضعفين من العذاب. وفي غير موضع أي في الاية الثامنة والثلاثين من سورة الاعراف يقول تعالى ((لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلكِنْ لَا تَعْلَمُونَ)). وفي شرح الاية المذكورة من سورة الأعراف مزيد عن هذا الموضوع.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (69)

روى الامام احمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه: ((لا يُبلِغَنّي اَحَدٌ عن اَحَدٍ من اصحابي شيئاً فإني أُحِبّ ان اخرج اليكم وانا سليم الصدر)). فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم مالٌ فقَسَمَهُ، فمررتُ برجلين احدهما يقول لصاحبه: والله ما اراد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الاخرة! فثبتُّ حتى سمعت ما قالا ثم اتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت: يا رسول الله انك قلت لنا لا يبلغني احد عن اصحابي شيئاً، واني مررت بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا فأحمر وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وشق عليه ثم قال: ((دعْنا منك! لقد أوذي موسى بأكثر من هذا فَصبَرَ)). أما أذى بني اسرائيل لموسى عليه الصلاة والسلام فقد كان

بتقوّلات باطلة تؤذيه وكان شديد الحياء ستّيراً فصبر على ما قيل فيه. وقد جاء في القرآن الكريم خبر طلبهم ان يجعل لهم آلهة، وخبر صنع العجل. وكان سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام مجاب الدعاء وهذا من وجاهته عند الله تعالى.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71)

القول السديد هو الكلام الذي يسدده الصدق والعدل فيحمل الصواب ويحفظ اللسان من زلاته التي تكب من لم يتب منها في جهنم. وتحمل الاية الامر بالتقوى في كل قول وعمل. وبهذا يهدي الله تعالى الى صالح الاعمال والمغفرة لما يحصل من ذنوب لا إصرار عليها. وقد أمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم اصحابه والنساء بذلك. فقد روى ابن ابي حاتم عن ابي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: "صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلاة الظهر فلما انصرف اومأ الينا بيده فجلسنا فقال ((إن الله تعالى أمرني أن آمركم أن تتقوا الله وتقولوا قولاً سديداً))، ثم اتى النساء فقال ((إن الله أمرني أن آمرَكُنّ أن تتّقين الله وتَقُلْن قولاً سديداً))". أما الفوز العظيم فهو وعدٌ من فضل الله تعالى لمن أطاع الله ورسوله وهو منزلة في الجنة جاءت بها الآيةُ التاسعة والستون من سورة النساء بقوله تعالى ((وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا)).

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (72) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ

وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (73)

النفاق والشرك خيانةٌ لِما وجب من طاعةٍ لله تعالى ورسولِه صلى الله عليه وآله وسلّم في الأمر والنهيِ. وأما حمل الامانة فهو إما نيل ثواب أدائها بالطاعة، وإما تحمُّلُ الإثمِ الذي يترتب على غمطِها، وغمطها هو معاصي كفر يؤدي الى النفاق والشرك وتكون علامة عليهما. فالإنسان مكلَّفٌ بالتمييز بعقله بين الطاعة والمعصية. فأما السموات والارض بما فيها الجبال فقد أطَعْنَ الله تعالى إشفاقاً من حمل الأمانة. ففي سورة (فُصِّلَت) بعد أن خُيِّرَتا بين الطوعِ والإكراه ((قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)) فلم يكلفهما بالعقل. كذلك لا تبقى الامانة على من يؤدّيها. أما النفاق والشرك من المنافقين والمشركين، ذكوراً وإناثاً، فهما علامةٌ للظلوم الجهول الذي ترك الأمانة ولم يستعمل عقله في ما يساعده على حملها فيكونون عرضة لعذاب من الله وعدهم به. وأما المؤمنون والمؤمنات في عبادة الله تعالى من غير نفاق او شرك فإن الله تعالى يتوب عليهم غفوراً رحيماً بهم.

سورة سبأ

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (1) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (2)

الحُكْمُ الذي لله تعالى في جميع ملكه من سماوات وأرض وما بينهما يعطي معنى الحمد الذي لا ندرك مداه لعجزنا عن إدراك سعته في الدنيا لِما فيها من حكمة مثلى ونِعَمٍ لا تحصى، ولا في الآخرة لِما فيها من الجزاء لمن أحسن أو أساء. خبير في خَلْقِه واسع في علمه بِمَا خفي في أرضه ويصعد منها، وبما يُنْزَل من سمائه ويعرج فيها. رحيماً لا يعجل بالعقاب، غفوراً لمن أناب.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (3) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (5) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (6)

كفار قريش لما سمعوا الذكر الحكيم وفيه قيام الساعة قال بعضهم لبعض: لا تأتينا الساعة! إذ لم يدركوا قدرة الله تعالى في جمع اجزاء الاجسام البالية وقد تبعثرت في الارض، فوَجَّه المولى تعالى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنْ يثبت بالقسم ما نفَوْهُ: ((بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ)). وعِلْمُ الساعة من علوم الغيب، واثباته له دليل من

سعة قدرة الله تعالى وسعة علمه. فهو لا يخفى عليه شيء ولا يغيب عنه موقع كل ذرة من ذرات الاجساد. فهي مثبتة عنده في اللوح المحفوظ. وفي هذا لا يفوته منها ما يريد جَمْعَه وبَعْثَ الحياة فيه كما أحياها اول مرة. ولإثبات اليقين بخبر الساعة يقسم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالله على قيامها فلا بد منها لمكافأة اهل الايمان والصلاح بالمغفرة والرزق الكريم ولإيقاع العذاب السيئ، وهو الرِّجز، على من يسارع وكأنه في مسابقة للدعوة إلى الضلال بالردِّ على آيات القرآن ظاناً بالله تعالى ظن السَّوء. كما أن اهل العلم ممن أسلم ومَن آمن مِن اهل الكتاب يرون أنّ ما أُنزِل على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو الحقٌ لدلالته إلى معرفة الله تعالى في عزته وتفضُّلِهِ عليهم من مقام الحمد بالهدى إلى صراطه المستقيم.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (7) أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (8) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (9)

فوجئ الكفار بخبر قيام الساعة وأنكروا ما بعدها من جزاء وما قام عليها من دليل. وبدلاً من التصديق أخذوا يتأوّلون ما حيّرهم من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: إما أنه يفتري ذلك أو أنه خولِط في عقله بوَساوِس الجن! (حاشاه). فقد تأوّلوا الحديث في ما بينهم مشيرين اليه بذلك ولم يفطنوا الى ما هم فيه من اتجاه نحو العذاب اذ أخطأوا طريق الصواب فضلّوا ضلالاً بعيداً. ويكذِّبُهم المولى عز وجل بما يُظهِر لهم من آياته تعالى وقدرته في محيطهم من السماء وما ينْزِل منها وبين أيديهم

أخبار ما نزل على أصحاب الأيكة منها. وقدرته تعالى في الأرض فإن شاء لهم خسف بهم. وقد فعل ذلك بقارون وبداره. اما عباد الله المنيبين إليه فيرون من ذلك علامة لهم على صحة ايمانهم وإنابتهم الى الله تعالى.

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (10) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (11) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (12) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (13) فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (14)

بدأ سيدنا داود عليه الصلاة والسلام محارباً شاباً صادقاً حمل السيف في سبيل اعلاء كلمة الله تعالى. وقد وفقه المولى تعالى لقتل جالوت الذي طغى بكفره. وبعد ان استقر النصر جعله الله تعالى خَلَفاً لطالوت على مُلك بني اسرائيل وأوحى اليه ليكون خليفة في الارض يمثل العدل والسلطة الربانية على الوجه الصحيح. وفي هذا من الشكر ما فيه. فمن الشكر شعور المؤمن بأن ما به من نعمة هو من ربه، وأن يطيعه بها. وحباه المولى بصوت حسن كان اذا سبح الله تعالى رجّعت الجبال والطير تسبيحه معجزةً له. وكان يأكل ويطعم عياله ويتصدق من كَدِّ يده اذ علمه الله تعالى كيف ينظم حلقات الدروع ببعضها بحيث تكون مرنة الحركة ومنيعة ضد الطعنات والسهام. واعتبر المولى تعالى ما قام به مثلاً للعمل الذي يصلح للقبول

عنده. واما ما اعطى الله تعالى سيدَنا سليمان من نعمائه فلا يسهل حصره، فقد أُفهِم اسلوب التوصل الى حقائق الشكاوى بين الناس بنهج حاذق يحصر التهمة بالفاعل ويفصل بالحق الذي يرضي اطراف الشكاوى. وخلف والدَه في الْمُلْك وآتاه الله تعالى أسباب تثبيتِ مُلكِه كتسخير الريح في النقل، والجن في البناء وعمل الجفان أي قصاع الطعام واسعات كالجوابي (جمع جابية وهي الحوض) ونصب قدور ثابتات لكبر حجمها. وقد أوردت بعض التفاسير تفاصيلَ من أهل الكتاب لا يُرجَع اليها بل يؤخذ التعبير الرباني في القرآن كافياً لمعرفة جزاءِ الله تعالى للشاكرين والعاملين على إعلاء كلمته بما أعطى كُلاً منهم من نعمائه. ثم حل أجل سيدنا سليمان عليه السلام، وكان قد اتخذ وضعاً للاستناد على عصاه، فقُبِض على ذلك. وكان استناده بوضع الجلوس فكان الذي يراه يظنه حيّاً. ولهذا عمل الجن المسخَّرون له بإستمرار خشية التوقف الذي يؤدي بهم الى عذاب السعير. حتى اذا اخذت الأرَضَةُ تأكل منسأته (وهي العصا التي إستند عليها) خَرّ جسدُه على الارض هامدا. وفي التفاسير: بعد وفاته بسنة حُفِظَ خلالها جسده. وعندها ثبت للبسطاء من الجن ان مُدّعي الغيب من كُهّانِهم إنما كانوا كاذبين إذ لو كانوا يعلمون الغيب لتنبأوا بوفاة سيدنا سليمان عليه السلام قبلها. وفي هذه القصة عبرة في الشكر وأن الله تعالى يسخر لأوليائه ما يعينهم على اعلاء كلمته.

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17)

وكما بين المولى عز وجل آيات فضله للشاكرين في الايات السابقة يبين في هذه الايات ما حل بمن جحد نعمة الله تعالى فصد عن التوحيد الى عبادة الشمس كما جاء في قصة الهدهد في سورة النمل وقد ورد في التفاسير أن الجنتين كانتا من ما يلي سدَّ مأرب المقام بين جبلين والذي يجمع مياه السيول والينابيع لتكون مدّخرةً فيه طيلة ايام السنة. وكانت الجنتان زاخرتين بالثمار والمزروعات. ولما اعرضوا عما جاءتهم به الرسل وكفروا بنعمة المولى سلَّط الله تعالى عليهم ما نخر في السد فلما فاض وادي العَرِمِ بالمياه وسالت سيوله نحو السد لم يحتمل السد المنخور ثقلها فتوسع النخر وتدفقت مياهه واغرقت الزرع والشجر والمنازل. ثم شحت المياه فلم ينبت على قلتها الا الشجر الشوكي وتكون ثماره ذات مذاق غير مذاق الشجر المورق. والخمط هو البشع من الفاكهة، فكان السدر وهو النبق افضل ما تُرِك لهم بديلاً عن جنتيهم الوارفتين. وجعل الله ذلك جزاءً للكفور.

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آَمِنِينَ (18) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (19)

وجهٌ آخرُ من جحودهم نعمةَ الله تعالى ونسبة الفضل لأنفسهم ولشركائهم؛ ذلك ان الله تعالى يسّر لهم طرق التجارة ذات مراحل للإستراحة والأمن. فكانوا يصلون الى مدن الشام ذات البضاعة والتوسعة فى الرزق وهم سالمون غانمون يبيعون ما معهم مما يحتاج اليه اهل الشام وما بعد الشام ثم يمتارون من الشام ما فيه تجارة رابحة على طول طريق عودتهم. ولم يقنعوا بهذا الفضل وطلبوا التوسع الى ابعد من ذلك لتكثر تجارتهم مع مدن اكثر وبضاعة اكثر. ولما جاءهم امر الله تعالى اضطروا

للهجرة من بلدهم الذي شحت ارزاقه فكانت القبائل تشد الرحال؛ فقد هاجرت قبائل غسان الى الشام، وانمار (وهم الأوس والخزرج) الى المدينة (وكانت تسمى يثرب)، والازد لحقوا بعُمان، وجذام هاجروا الى تهامة. فضُرِب بهم المثل القائل (تفرقت أيدي سبأ). وكانوا عبرة من ايات الله تعالى نفعت وتنفع أهل الصبر في الطاعة واهل الشكر في النعمة وهما مما تجاهلهما أهل سبأ.

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (20) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (21)

بعد ذكر المصيبة التي وقعت لمن جحد نعمة الله تعالى بيّن المولى عز وجل اثر الانفس الامارة بالسوء والتي كانت تهوى الدنيا وملذاتها الضالة وشهواتها الْمُحرّمة فلم تتقيد بالحق فتسلط ابليس بما وسوس لهم من انكار الاخرة والشك في حصولها ((إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)) وهم الذين ثبتوا على الايمان بالله واليوم الاخر. وكانوا قليلين بين اهل سبأ وبهذا اقيمت الحجة على الكافرين بأن ابليس ليس له سلطان إلا على من يستجيب لإغوائه بحب الدنيا والشك بالاخرة. فإن الشك بالاخرة مع شدة حب الدنيا من مكائده. والله تعالى كما حفظ ايمان القِلّةِ فإنه يُحصي جحود الكثرة منهم ليوم الحساب فهو محافظ على كل شيء.

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (22)

بعد بيان العبرة في قصص من أشرك بالله ومصيرهم أوحَى الله تعالى الى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ان يطلب من مشركي قومه ان يسألوا اصنامهم وآلهتهم الاخرى الحفظ او السلامة او الشفاعة. ثم يبين تعالى خيبتهم إن فعلوا. فما فيهم من شريك يملك ذرة من مخلوقات السموات والارض او انه شريك فيها او ينال المشركون منه نفعاً او يظنون قدرته على الضر. كما لا يمكن لمن أشركوهم ان يكونوا لله ظهيراً. والظهير: المعين، صفة تطلق على المفرد والمثنى والجمع.

وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (23)

ويشير المولى تعالى الى الشفاعة التي يرجوها العبد عند الله تعالى بأنْ لا شفاعةَ إلا بإذنه. واما المشرك الذي تدركه الوفاة او في يوم القيامة فيأخذه الفزع فإذا كُشِف الفزع عن قلوب المشركين وفارَقَتْهم وساوسُ الشيطان التي أضلّهم بها إستفسروا عن حصول الاذن من رب العزة بالشفاعة وماذا امر سبحانه في ذلك فتجيبهم الملائكة بأن الشفاعة الحق هي من الله تعالى لمن ارتضى من شفيع صادق وليس كما كانوا يتوهمونها لشركائهم فإن الله تعالى في ما يأذن أعلى قَدْراً في كبريائه.

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24) قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (25) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (26) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27)

يقر كفار قريش بأن مُنزِلَ المطرِ ومُنبِت الارضِ هو الله تعالى. وعلى هذا يجب ان يعلموا أنْ لا إلهَ إلا هُو. فإن خالفوا ذلك فإنهم على غير الحق اذ لا بد للفريقين المختلفين ان يكون احدهما محق والاخر مبطل. ولما كان الحق ان ينفرد القادر العزيز بالالوهية فإن الباطل يكون في ادعاء القدرة والعزة لغيره. وطلب تعالى ان يقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ما يدل على التَبَرُّءِ من اعمالهم وعقائدهم. فكما انهم لن يُسألوا على مخالفة المؤمن إن أجرم فكذلك المؤمن لا يُسأل عما يعمل الكافر. والجريمة ليست من افعال المؤمن وفي هذا استبعاد قيام المؤمنين بها. بينما يطلب من الكفار ان يؤمنوا ويعملوا صالحاً وهم مُعرِضون. وفي هذا التبرُّءِ من عملهم دعوةٌ لهم للحق ليكونوا مؤمنين ولهم ما للمؤمنين وعليهم ما على المؤمنين. فإن أبَوا فالموعد الذي يفصل الله بينهم فيه هو يوم القيامة وهو يوم الفصل ويوم الفتح والله تعالى هو الفتاح الحاكم والعليم كيف يفصل بالحجة البالغة. ثم طلب تعالى إيراد حجة عليهم بقوله تعالى: ((قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)). أي بيّنوا لي مقدرة الذين زعمتم أنّ لهم من صفات الله تعالى الرزق في السماء والأرض، وعزتهم، بينما أقررتم بأن ذلك لله تعالى فيزجرهم لينفي الباطل ويوضح رفعة مقام عزته وحكمته عن إلحاق الشركاء به فيقول: ((بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)).

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (28) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (29) قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (30)

جهل اكثر الناس شمول الرسالة المحمدية لكافة الناس بالبشارة والنذير فمن أقرّ جاءته البشارة ومن أصرّ على الإنكار فالجزاء العدل في انتظاره. ولما قال الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم لمشركي قريش كما جاء آنفا: ((يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ)) سُئل عن موعد ذلك تحدِّيا وتعنُّتاً فأكّد المولى عز وجل أنّ لهم ميعادَ يوم، أي زمنا محددا، لا يجدي معه استعجالٌ لأمره ولا إستمهالٌ في وقوعه ولو بمقدار ساعة.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (31) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (32) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (33)

نُسِب هذا القول بالإصرار على الكفر بالقرآن والكتب المنزلة من قبله الى ابي جهل ورهطٍ معه. فكان جواب العزة الربانية بأن أظهر مشهدهم بالحساب بين يدي العليم الخبير سبحانه وهم فريقان؛ فريق كان متسلطا بالمال والعشيرة كأبي جهل، وفريق مالَ الى الدنيا ضعفا منه فاتّبع الفريق الاول وقلوبهم قاسية على الحق. ويكشف المولى تعالى مشهد ضعفاء الحياة الدنيا الذين بذل المستكبرون جهدا معهم لِصَدِّهم عن الايمان ولولا ذلك لكان (في ظنهم) انهم كانوا سيؤمنون، فيوجهون اللوم الى المستكبرين. إلا ان هؤلاء ينكرون دورهم في ذلك وينسبونه الى

مَيلِ أُولئك المستضعفين إلى الكفر، الذي هو في نظرهم الآن جريمة. إلا أن المستضعفين يذكِّرونهم بما كانوا يتدابرونه في الليل من اساليب لإظهار الدعوة المحمدية بمظهر الكذب فيذيعون ذلك نهارا ويأتون بأوهامِ الشرك للدلالة على صحة موقفهم. وهنا يتوقفون عن حوارهم وتملكهم الندامة مع ما يُكشف لهم العذاب. يندم المستكبرون على فعلهم والمستضعفون على طاعة أُولئك. ويأمر المولى تعالى بهم أن تجمع الاغلال، أي السلاسل التي في أيديهم جميعاً، الى أعناقهم. فكما طوّقوا قلوبَهم بالكفر يُطوِّق الله تعالى أعناقَهم بالأغلال. وهذا الجزاء على ذلك العمل.

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (34) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (35) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (36)

اشتد تكذيب الكفار من قريش وهم يُدعَون للايمان. وأكثرهم شِدّةً كانوا من الْمُترَفين. فبيّن المولى عزّ وجلّ لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم أنّ هذا حصل في كل قرية جاءهم رسولهم بالبينات. وفي ذلك تسلية له على ما لاقى من اهل الكفر والشرك. وقالوا مع تكذيبهم بانهم اكرم على الله تعالى من المؤمنين، لأنه اغدق عليهم المال والولد، فلن يعذبَهم بعد إكرامِهم اولاً؟ فأجابهم المولى تعالى بأنه يقسم الرزق من غير إعتبار لمنزلة الناس عنده. فقد يُملي للعصاة ليزدادوا بُعْداً عنه ويمنع فتنة الدنيا عن الأتقياء أو يبسط الرزق لهم لينفقوه في سبيله فيخلفهم به رضوانه. ولكنْ أنى للكفار أن يفقهوا هذ العلم؟ وكذلك أكثر الناس لا يعلمون. ثم يبيّن المولى جل شأنه بأن المال يُعْطَى مع الولد بمشيئة الله تعالى ويلزم لذلك الإيمان والعمل الصالح للقرب منه:

وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (37) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (38) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (39)

روى الامام احمد في مسنده عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه قولَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ((ان الله تعالى لا ينظُرُ الى صُوَرِكم وأموالِكم، ولكنما ينظر الى قلوبِكم واعمالِكم)). وفي هذا ايضاح لما يقرِّبُ الى الله تعالى وهو الايمان والعمل الصالح. فمن عمل صالحاً في ايمانه وفي ما آتاه الله تعالى من نِعَمٍ فقد وعده تعالى بالضعف فالحسنة بعشرة امثالها واكثر وبعد ذلك الطمأنينة في الغرف، وهي الحجرات العالية من البناء، في أمنٍ ودَعَة في جنات النعيم. واما من وجه عمله جاهداً متسابقاً الى تكذيب آيات الله تعالى فقد أعدّ لهم عذاباً يناسب شدتهم على الايات وبيّن تعالى انه يوسع الرزق لمن يشاء من عباده وانه يرزق المقدَّر منه وان المال الذي ينفقه صاحبه في ما امر الله تعالى وفي ما أباحَه وضمن ما اوصى به فهو مخلوف بالبدل في الدنيا وبالثواب في الاخرة. وفي التفاسير توسيع في معاني هذه الاية تتضمن النصيحة التي بيّنها الله تعالى في مدح الذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً. واما عن القناعة فقد روى الامام مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((قد أفلح من أسلم ورُزِق كَفافاً وقنّعه الله بما آتاه)). والكفاف هو ما أغنى عن الناس.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (40) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (41) فَالْيَوْمَ

لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (42)

كان من الاصنام مَن إدّعى كفارُ قريشٍ بأنها على صور الملائكة! وهذا من تضليل الشياطين لهم. ولَمّا جاءهم الحق في الرسالة المحمدية جحدوه واستمروا على عبادة من نسبوا لهم النفع والضر والشَبَهَ بالملائكة. فيوم الحشر يرى الكفار مشهد الملائكة وقد سألهم المولى عن عبادة هؤلاء الكفار لهم. وفي ذلك تقريع لأهل الكفر. ويكون موقف الملائكةُ هنا التسبيح وتنزيه ربِّ العزة عن الشريك ويوضحون بأن العبادة كانت طاعةَ للجنِّ الذين أوهموا الكفار بأن الملائكة ستُقرِّبهم الى الله زلفى! وهذا من المحال. فلا ينفعهم ذلك ولا يملك بعضهم (أي الملائكة) لبعض (أي للكفار) نفعاً ولا ضراً. ويقال للظالمين الذين كذّبوا بعذاب الآخِرة: ((ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)). وبهذا يثبت صدق الرسالة لحصول الوعيد عياناً، أي عين اليقين.

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (43) وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (44) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (45)

كانت نظرة مشركي مكة الى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نظرة خاطئة على انه يتيم ابي طالب يريد أنْ يفرِّق شَمْلَهم ويُسَفِّهَ دينهم. ومن جراء ذلك كانت نظرتهم الى الايات البينات الواضحات اذا تتلى عليهم أنها إفتراء. فإذا انبهروا بمعناها

قالوا: هذا سحر. ولم يكن لهم من سند لهذا القول فما عندهم كتُبٌ بذلك ولم يرسل فيهم قبل سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم رسولٌ ينذرهم. وهكذا كان دأبُهم كما فعل من كذّب الرسل من قبلهم وقد كانوا أشدّ منهم قوة واكثر منهم جَمْعاً فما اغنى ذلك عنهم من العذاب. وبقيت آثارهم عبرة لأُولي الالباب.

قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (46)

مما ارشد المولى سبحانه رسولَه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم من الحجج: أن يثير قرارة نفوسهم برفقٍ ولِينِ الواعظِ بأن يتخلصوا أوّلاً من التعصب والهوى ويتداولوا في ما بينهم؛ هل سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ظهر عليه عارض من أعراض الجنون لكي يوصموه بذلك؟ أم انه عُرف بالصدق والأمانة ورجاحة العقل؟ فكيف يأتي بفرية على الله تعالى؟ فلا بد إذاً أن يكون قولُه حقاً. فقد روى الامام احمد عن بُرَيْدَةَ رضي الله تعالى عنه قال: خرج الينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً فنادى ثلاث مرات فقال ((ايها الناس اتدرون ما مَثَلي ومَثَلُكم)) قالوا: "الله ورسوله اعلم". قال ((انما مَثَلي ومَثَلُكم مَثَلُ قوم خافوا عدواً يأتيهم فبعثوا رجلاً يتراءى لهم (أي يستطلع) فبينما هو كذلك إذ أبصر العدوَّ فأقبل لينذرهم وخَشِيَ أن يدركهم العدو قبل ان ينذر قومه فأهوى بثوبه (أي نزع ثوبه ولوح به اليهم من بعيد اشارة للخطر): ايها الناس أُوتيتُم أيها الناس أُوتيتم أيها الناس أُوتيتم)). وهكذا شبّه لهم العذاب الشديد وقُربَه (أي بين يدي العذاب) بالعدو المتقرب فهو (النذير العريان) ينذرهم وقوعه.

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (47) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (48) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا

يُعِيدُ (49) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (50)

حججٌ اخرى تَلْقَى في القلوب السليمة صدقاً وتنبه اهل الكفر الى حقها. فالذي يعمل لله تعالى لا يرجو من البشر أجراً فلا يسألهم عطاءً، فهو يمنح النصيحة ويهدي السبيل. وقد وعده المولى الكريم بالأجر نصراً في الدنيا وقرباً في الآخرة. والذي يقول الحق فالحق من عند الله تعالى يلقيه في قلب من يشاء من عباده لِيُبَلِّغَه. والله تعالى علام الغيوب فلا يُعقَلُ أنَّ عالِمَ الغيب الذي يشهد على كل شيء يفوته بشر يتحدث إفتراءً عليه وبعد ذلك ينصره وينصره ويؤيده بملائكةٍ وعبادٍ صادقين! فما من صفة من صفات الباطل توجد في الحق الذي جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. فالباطل من شأنه ان يزهق أمام الحق فهو زائل ممقوت. وحجة اخرى ان الضلال يعود على النفوس بالشقاء والخذلان لأن مَنبعَه النفوس التي تهوى الغي والقلوب التي فيها مرض. اما إهتداء الرسل عليهم الصلاة والسلام فلا يكون إلا مِن الله تعالى يوحي به إليهم فيهدي به من يشاء ممن يرتضون الهدى لسلامة فطرتهم وقلوبهم، ويصرفه عمن يشاء ممن تحجبهم الأهواء عن الحق. والله تعالى قريب في سماع كل دعوة، وحكيم في الإستجابة.

وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (51) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (52) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (53) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (54)

يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأنه يعلم بأن من كذبوه سيفزعون يومَ القيامة فزعاً لا يجدون منه مخرجاً يفوتون منه. ثم يؤخذون من فورهم حين خروجهم من الاجداث فقد تهيأ بالقرب منهم من يأخذهم من اول وهله. وعندها يقرون بصدق الرسالة ويؤمنون بما آمن به المؤمنون في الدنيا. ولكن هيهات فقد كانت الحياة الدنيا مكاناً لقبول الايمان ثم زالت فلم يبق قبول بعد البعث. فأنى لهم تناوش أي تناول الحياة الدنيا من مكان بعيد؟ وكما حالوا في الدنيا بين الحق وبين قلوبهم فإنه يُحال بينهم وبين تدارك ما فاتهم من التصديق شأن أشياعهم أي أمثالهم ممن كفر من قبلهم. فقد كانوا في شك يبعث على الريبة. ومن مات على شك حيل بينه وبين ما يشتهي. فالحذر الحذر.

سـورة فاطر

بِسْـمِ اللهِ الْرَّحمـنِ الْرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1)

هـذه هـي السـورة الخامسـة والأخـيرة الـتي تبـدأ بـ(الحمد) الـذي نـدرك معنـاه تعظيما ولا ندرك مداه. فقد أورد مع الحمد تفرُّدَه في ايجاد السموات والارض من العدم، وإسناد واجب الرسالات الى من خلق من ملائكة حباهم بوسائل الانتقال الخاطف الى قضاء ما يشاء. وكما وهب الملائكة صفاتهم التي تناسب إرادته فيهم فكذلك للبشر صفاتهم ومؤهلاتهم كما يشاء. فهو المقتدر لما يشاء فلا وجود لنعمة إلا بنعمته جلّ جلالُه، ولا لقدرة إلا بقدرته ولا مُلْكَ إلا بِمُلكه. وهكذا يبدأ المولى هذه السورة المباركة لبيان آلائه وبيان مواقف الناس منها ومصير اعمالهم فيها. كما يكشف من علمه وتدبيره ما يفسر الظواهر والامور التي تجري على العباد وفيها ما يرشـدهم وينـذرهم ليبلـوهم أيُّهـم أحسـن عمـلاً في مـا يؤتيهم ومـن وراء ذلـك تقـدير حكيم في رحمته التي يفتح ويمسك منها ما لا يقدر سواه على أي أثر فيها فيقول تعالى:

مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (2)

الرحمة العامة للناس هي ما كتب الله تعالى لهم من خيرِ حياتِهم الدنيا. وتتفاوت مقاديرها لهم عنده تعالى. فالمطر مثلاً رحمة عامة ولا يملك بشر ان يمنحها او يمنعها بل تتجلى عزة الله في تقديره وتتجلى حكمته في تدبيره. فيذكِّر الناس فيقول:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (3)

اتضح البرهان على انه لا اله إلا الله سبحانه. فما هي حجة من يعبد من دونه آلِهةً؟ يقول تعالى عن هؤلاء المشركين وعن المكذِّبين بأن هناك ما يصرفهم عن الحق الإلهي في توحيده وعبادته وهو الزيغ عن الحق بحب الدنيا واتِّباع الشيطان فيقول تعالى:

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (4) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (5) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (6)

رُسُلٌ من الله تعالى سبقوا سيدَنا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم كذّبتهم أقوامهم إلا أنهم أدَّوا ما أمَرَهم الله تعالى به. فاهتدى من إهتدى وكفر من كفر. وفي ذلك تسليةٌ له صلّى الله عليه وآله وسلّم بأن عليه البلاغ ولله تعالى المرجع والأمر في الهدى. وعلى الذين تبلغهم الرسالة ومعها النذير بالحساب وعداً من الله تعالى حقاً أن يعلموا أنّ الدنيا تصرفهم بخداع شهواتها الضالّة عن النجاة. فإذا اتبعوها بأهوائهم

بادرهم الشيطان الغَرورُ ليغريَهم بأوهام ضالّة ليقطع صلتهم بربهم الكريم. فمن عرفه عدوّاً فرّ إلى الله تعالى. ومن أطاعه كان من حزبه من أصحاب السعير.

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (7) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (8)

كفر الكثير من قريش برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولن يسلموا من عاقبة ذلك. وآمن مَن آمن واتبعوا الحق بالإيمان والعمل الصالح فوعدهم المولى عز وجل بمغفرة منه وبأجرٍ على عملهم الصالح أجراً كبيراً، فلا يكون من الكريم تعالى الا الكثير. وهل ينال مثل هذا الاجر من مالت نفوسهم الى شهوات الدنيا وملذاتها الْمُلْهِيَةِ عن صلتها بربها الجليل فإن الله تعالى لا يوجه قلوبهم إلى حال أفضل طالما كانوا منغمسين فيها. فما على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ان يتحسر لهم فلن يقع عليهم ظلم بل ينالون ما اوجبه لهم صنيعهم الذي لا يخفى على الله تعالى في حاضرهم ومستقبلهم. فلو علم فيهم خيراً لهداهم.

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (9)

يتسائل فريق عن النشور حباً في زيادة العلم. وقد اوضح المولى عز وجل في الايات الخامسة والسادسة والسابعة من سورة الحج ذلك. وممن سأل عن ذلك ما رواه الامام احمد عن ابي رزين العقيلي رضي الله عنه (واسمه لقيط بن عامر)، قال: "أتيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت يا رسول الله كيف يحيي الله

الموتى؟ قال: ((أَمَرَرْتَ بأرضٍ من أرض قومك مُجْدِبَةٍ ثم مررت بها مُخْصِبة؟)) قال: فقلت نعم. فقال: ((وَكَذلِكَ النُّشُورُ))".

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (10)

العزة لله تعالى وتتمثل في إعتزاز الصادقين بدينهم الحق. وبالتالي يضفي عليهم المولى العزيز من عزته ما ينصرهم. وهذا يزيدهم إلتزاماً بطاعته تاركين اتخاذ غير الله والمؤمنين اولياء من دون المؤمنين. وبذلك تُعرَف العزة ظاهرةً على أهلِ الطاعة والعفّة؛ فأقوالُهم سديدة ترضي الله تعالى، وإليه يصعد الكَلِمُ الطيِّب. وأعمالهم بما أمرهم سبحانه حميدة، والعمل الصالح يرفعه. فيزداد المؤمن علماً وقرباً. قال الإمام عليٌّ كرم الله وجهه "العِلمُ يهتُفُ بالعمل. فإن أجابه وإلا ارتحل!" ولا يملك العزة إلا الله تعالى فهي له جميعاً ويجعل التقوى سبباً لمنحها لأهل القلوب السليمة. اما ذوو القلوب المنكرة فدَيْدَنُهم المكرُ السيء، وهو تدابر الكيد الخبيث للمؤمنين. وقد كان كفار قريش مثلاً للسوء، فأعمالهم فاسدة باطلةٌ لهم فيها خِزْيُ الدنيا وعذاب الآخرة مثلما حصل لهم من خزي يوم بدر بعد ان كادوا بمكرهم البائر لقتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الهجرة. ومن أوجه مكر السيئاتِ إظهارُ المحبة للمؤمنين خلافَ ما في قلوب أهله من بغضاء لهم.

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (11)

عِلْمُ الله تعالى بما في ملكوته مكتوب في اللوح المحفوظ. والعلم بالنسبة لنا إما علمٌ بمَا سبق او عِلمٌ بما نحن عليه او علمٌ بما سيكون. ويَغِيْبُ عنا الكثيرٌ مما مضى، والخافي في الحاضرِ، ومُغيَّبات المستقبلِ. ويظهر الله تعالى ما جرى ويجري من حوادث كانت غيباً عند الناس وهي معلومة عنده. وهكذا أخبرنا سبحانه أن الانسان الاول خُلِق من تراب وهو سيدنا آدم عليه الصلاة السلام. واما ذريته فمن نطفة تستقر في الرَحِم تحملها أُمّها وتضعها بعلم الله تعالى، فإما تسقط قبل تمام اشهر الحمل واما تعيش لتلبث عمراً على ظهر الارض يكون من الطول ومن القِصَر بما مقدر له في اللوح المحفوظ. فما يصيبه من احداث وما يقسم له من مواهب او ارزاق مكتوب ايضاً. وقد قال تعالى في الاية الحادية والخمسين من سورة التوبة ((قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)). وفي هذا تعليم يحمل للمؤمن الهدى والرحمة والشفاء لما في الصدور. فالمؤمن يُخلِص نواياه لله تعالى فيصبر في البلاء ويعلم أنّ لله تعالى حكمتَه. كما يشكر في الرخاء ويعلم ان الله تعالى مبتليه به. واما اهل الزيغ فنفوسهم تجزع في البلاء وييأسون، وتبطر في الرخاء في طغيان يُعمي بصائرهم، وفي الحالين خسارة.

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12)

يكشف تعالى لعباده ظاهرة من ظواهر فضله لعلهم يشكرون، فالماء في البحر الراكد غير الماء في الانهار والينابيع والجداول والروافد التي صرّفها المولى بين الشعاب والأودية وعند سفوح الجبال. مياهها عذبة أي تروي العطاش فتكسر ظمأهم لخلوِّها

من الاملاح وسهولة انحدارها عند الشرب أي (سائغ شرابها). اما الماء الراكد فقد حوى من الأملاح في هذه المحيطات والبحار بين القارات والبحيرات العظمى ما جعله لا ينفع للظمأ لملوحته ومرارته أي (ملح اجاج). ومع هذا فالاسماك تعيش في كلا المائين ولا يختلف لحمها عن بعضه. ويخرج من البحر اللؤلؤ والمرجان وتطفو السفن النهرية والسفن البحرية ذات الحجم الكبير حسب قوانين العوم فتمخر بين الامواج فتكون واسطة نقل سهلة قليلة الكلفة تحمل الاقوات والآلات والسلع الاخرى بين القارات. افلا يشكر الناس من سخر لهم كل ذلك؟ سبحانه.

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (13) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14)

سبق في الاية الرابعة والخمسين من سورة الأعراف الإشارة الى تداخل الليل بظلمته مع النهار بضيائه في ما يسمّى بالشَّفَق وهو بقية آخر النهار مع بداية أول الليل. وبعده الغسق والظلام ثم اول خيوط الفجر اذ يتداخل ضياء النهار فيمحو آية الليل، وذلك باقتراب الجزء الذي يكون فيه الرائي في سياق اتجاهه نحو الشمس منها مع دوران الارض نحو الشرق. فالليل لم يسبق النهار، والنهار لم يسبق الليل فهما يلفّان الكرة الارضية التي تدور حول نفسها معرِّضةً اجزاءها الدوارة الى الشمس والى الظلمة فيخيل للإنسان ان الشمس في حركتها الظاهرية تجري ولكنها بالنسبة للأرض مستقرة كما جاء في سورة يس~ ((وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا)). والقمر يدور حول الارض في شهر قمري ولكن دوران الارض يوهم الإنسان بأن

القمر يتحرك من الشرق الى الغرب وتسمى بـ (الحركة الظاهرية للقمر). وقد وضع الله تعالى لهذه الحركات من الدوَرَان حول المحور ودوران حول الاجرام اجلاً معلوماً عنده وهو يوم القيامة. ومما تقدم من الآيات التي لا يمكن لمخلوق ان يظهرها اشار تعالى الى تفرده بهذا الخلق وهذا النظام بينما كان كفار مكة يدعون اصناماً من دونه سبحانه لا يملكون اللفافة التي تغلّف نواة التمرة وهي القطمير. كما لا يسمعون من يستغيث بهم. فإذا كان المعبود بشراً وسمعهم فليس له مقدرة على الاستجابة ويتبرأ يوم القيامة من شرك هؤلاء الكفار. والغيب لا ينبيء به إلا من له علمه وهو الله جل علاه.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (16) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (17)

مما بينه الله تعالى فقد ظهر فقر عباده اليه وغناه عنهم سبحانه مع كونه الحميد الذي مع غناه يرحمهم ويكرمهم ويؤجل عقابهم فهو الحميد في ذلك ومع كرمه ورحمته يبين قدرته على افناء من يكفرون وخلق غيرهم وما ايسر ذلك عنده فلا يعز عليه شيء.

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (18)

ويوم القيامة لا تحمل نفس إثم أُخرى. وسُمّي وِزراً أي ثِقْلاً لِثِقلِه في ذلك اليوم. ويحمل المعنى عدل الله تعالى فلا يُحمّل نفساً وِزرَ غيرِها. وأيما نفس أثقلتها الخطايا

إن ناشدت أحداً مِن أقربائها ليحمل عنها فلن يستجاب لها. وهذا مشهد يكون لأهل الخشية وهم الذين بصدقهم في السر والعلن سلموا من الرياء والنفاق وحافظوا على صلواتهم واختاروا إتّباع ما يدعوهم الى تزكية حياتهم بطاعةٍ طهّرَت أنفسَهم طهراً يليق بلقاء من تصير إليه الأُمور سبحانه.

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (19) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (20) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (21) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (22) إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (23)

ينبه المولى عز وجل الى الفرق بين المؤمن والكافر لا يستويان كما هو الحال بين الظلمات والنور وبين الأحياء والأموات. فأهل الايمان عند الله تعالى أحياءٌ مبصرون. فإذا شاء الله تعالى أن يُسْمِعَ أحداً فإنه يختار من ينتفع بما يسمع. أما الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فما له علم بمن سيصدّون عنه إذا دعاهم ومَثَلُهم كمثل من في القبور. ومن هذا يبين المولى عزّ وجلّ أنّ على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم البلاغ وينذر الناس من عذابٍ شديد. وعلى الله تعالى هداهم.

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (24) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (25) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (26)

اظهر المولى تعالى الحق جلياً في الرسالة المحمدية بما فيها من بشارات ونُذُر كما سبق للأمم التي جاءها الحق من قبل. فإذا كذّب كفار مكة بهذا الحق فقد سبق تكذيب رسل جاءوا بمعجزات باهرة وبصحف وزُبرٍ كزبور داود عليه السلام

وبكتابٍ كالتوراة والإنجيل. فكان تكذيب المكذبين كفراً منكراً فأخَذَهم الله بعذابه فكيف كان نكيره. والنكير هو تغيير المنكر.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (27) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28)

العلماء هم الذين يستدلون على الحق من أثره الطيب كالعدل، وعلى حق الله في توحيده من صفاته تعالى في قدرته وتعدد مخلوقاته مع تجانس العلاقة بينها؛ فالماء واحد والثمرات عديدة، والجبال فيها الجدد (جمع جُدّة) المسالك والطرق البيضاء والحمراء والسوداء التي شبهت بالغرابيب (جمع غربيب) أي المفرط في السواد، وفي ألوان البشرة عند الإنسان مع تعدد اللغات، وفي الحيونات عديدة الأصناف ولكلٍّ لونه. وخشية العلماء دليل على أن علمهم قد نفعهم إذ أوصلتهم نتائج مكتشفاتهم إلى عظمة الخالق الفرد مما دعاهم إلى خشية الله تعالى، والبعد عما يسخطه. وكان عالم مسلم قد زار صديقاً له من علماء الغرب في مختبره ورآه خاشعاً فتذكر الآية ((إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)) فقرأها له. ولما علم هذا أنها من القرآن صدّق بصحته وأسلم.

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (29) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (30)

تلاوة كتاب الله تعالى تؤدي الى معرفة الخالق واحدا في الحمد، اهلاً للثناء والمجد، معبوداً تقام الصلاة لذكره، ويُنفَق المال ابتغاء مرضاته، سراً في ما لم يفرضه الله تعالى، وعلانية في ما فرضه الله تعالى. وهذه اشارة صريحة الى ان تلاوة أحكام الله تعالى تكون من أجل أن يعمل بها. وبهذا يحصل الكسب الثابت الذي لا تفسده آفات الرياء والرذائل وما الى ذلك فهو تجارة وربحها مرضاة الله تعالى مُرْبِحَةً ولا كساد لها إذ يقبلها سبحانه ويثيب عليها مع زيادة من فضله غفوراً للذنب شاكراً للعمل الصالح الذي هو بِحَدّ ذاته مَظهَرٌ من مظاهر الشكر.

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (31)

الذي أوحاه الله تعالى هو القرآن من بين الكتب المنزلة وحددّ به الحق محفوظاً بالله جلّ وعلا علماً متكاملاً يغني عما سبقه منها لأنه مُصَدِّقٌ لها ورسالةٌ لمن يؤمن وحجة على من لا يؤمن فهو تعالى خبير بهم خبير بمن بلّغه لعباده صلى الله عليه وآله وسلم، بصير بمن سينتفع به وهم الذين يرثونه.

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (32)

وارثو الكتاب هم المسلمون. وظالِمُو الأنفُسِ المقصودون هنا مؤمنون يتمثل ظلمهم في المعاصي وفي ترك الواجبات مما يؤدي إلى حرمان النفس من الأجر، ومع هذا فتح المولى عز وجل لهؤلاء باب الإنابة والمغفرة. والمقتصد هنا هو في منْزِلةٍ وسطٍ؛ يقوم بالواجبات الدينية المفروضة مع ترك المحرمات إلا أنّ عزيمة المقتصدين

بذلك لم تصل بهم الى الحزم في ترك المكروهات ولا في فعل المستحبات من النوافل. وقد وعدهم تعالى بالحساب اليسير. اما السبق الى الخيرات فهو بإذن الله تعالى لمن علم صدقهم في اتباع الافضل والتقوى الى اقصى المستطاع بتسليمهم القلوب السليمة لأمر ربها والبعد عن نواهيه. مع محاسبة النفس قبل ان تُحاسَب. فقد اشتراها الله تعالى وما تملك عندما بايع المؤمن بدون تردد فجعل نفسه وماله مُلكاً لله تعالى وحده ويطلب النصر من الله بالله ولله مؤتسياً برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي ترجى شفاعته يوم القيامة وذلك هو الفضل الكبير. فقد روى الامام احمد في مسنده عن ابي الدرداء رضي الله تعالى عنه انه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بعد قراءة هذه الآية، يقول ((فأمّا الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب، واما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حساباً يسيراً، واما الذين ظلموا انفسهم فأولئك الذين يُحْبَسون في طول المحشر ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته فهم الذين يقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إنّ ربنا لغفور شكور)). وفي هذا دعوة للتخلص من طول المحشر ومن الحزن الذي يلحقه وذلك بالإنابة الى الله تعالى والمسابقة بالخيرات.

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (33) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (34) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (35)

عَدْنٌ أي إقامة. وسُمِّيَت الجناتُ بذلك لخلود الإقامة فيها. والداخلون فيها هم اهل الايمان بتفاوت اصنافهم المذكورة آنفاً. ونعيمها أنْ أذهب الله تعالى عنهم حَزَنَ الوقوف في المحشر وأذهب الذي كان عليهم في الدنيا من هموم أبدلها بالذهب

واللؤلؤ والحرير وأحلّهم دار المقامة من فضله وليس بإحسانهم. لا حُزنَ فيها ولا لُغُوب (أي مشقة). دار إقامة لا رحيل عنها ولا إغتراب.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (36) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (37)

الذين كفروا هم الذين كذّبوا بالحق وأصرّوا على الكفر ولو أُدخِلوا النار ثم أُعيدوا منها لعادوا الى ما نهوا عنه مِن كفرٍ وذلك من علم الله تعالى بغَيْب مصائرهم. فكما ثبتوا على الباطل في الحياة الدنيا، فهم ثابتون في العذاب تتجاهلهم الرحمة جزاء كفرهم ولا يستجاب لصراخهم وتعهدهم بالصلاح فقد تجاهلوا النذير ونعمة العقول فلم ينصروها طيلة العمر فليس لهم من نصير.

إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (38)

علم الله تعالى بالغيب وعلمه بما يعتمل من نوايا في صدور الناس لا يدع انساناً له حجة على الله تعالى. فقد اعطى لكل منهم ما يتفق مع العدل والرحمة والحكمة فلا اعتراض لحكمته تعالى.

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (39)

الخلائف هم الأجيال يخلف بعضهم بعضاً ممن أُوتوا العقول فَيُسألون عن العمر والرزق والعلم والرسالة التي جاءتهم بالهدى. ويتعاقبون وتبقى الرسالة السماوية

أمانةً يحملونها. فمن كذّبوها فقد حَمّلوا أنفسهم بكفرهم وِزراً يزدادون به مقتاً من الله تعالى، وخسارةَ رضاه وجنَّتِهِ.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (40)

إقامة الحجة على فسادِ باطلِ الشركِ تضع المشركين في موقفٍ منقطعٍ عن كلِّ مخرجٍ. واذا وُجهت اليهم اسئلة ليس لها من جواب إلا جواباً واحداً يناقض ما هم عليه تبينت أوهامهم. فقد بَيّن المولى عز وجل ذلك بما أنكره عليهم: فالأرض مخلوقة فما الذي خلقته اصنام قريش منها؟ وأي مجال لصنم او وثن أن يشارك في السماء؟ وما هو سَنَدُهُم في عبادة الاصنام بشكل مقنع كالكتب السماوية؟ فالوصف الوحيد لموقفهم هو انه وَهْمٌ باطل لا يقف ازاء الحق في وحدانية الخالق سبحانه في العبادة. واما وعد الظالمين بعضهم بعضا فهو نسبة الشفاعة للأصنام! وما دامت هي صماء بكماء مصنوعة بأيديهم فما هذا الوعد إلا غُرورٌ أي كَذِبٌ باطل.

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (41)

النظام الدقيق المتقن من الجذب بين الكواكب والنجوم والاقمار، مما اثبته العلم، يجعل الارض وغيرها مما في السماء في صمود يمتنع معه زوالها إلا بإذن من فَطَرَها. ولا تعليل لهذا المنع من الزوال إلا بأثر الاتقان في صنع الله عز وجل. وعلى

سبيل الافتراض أي لئن إضطرب الأمرُ فمن غير الله تعالى يمنع الزوال أي يمسك كُلَّ جُرمٍ منها في موقعه؟ ويستدل على الحِلم الذي اتصف به المولى الحليم من إستمرار هذه القدرة مع ذنوب العباد وإمهالهم. فهو حليم يمهل من يشاء من المشركين حتى لا تبقى لهم حجة، ثم يخزيهم. وغفور لأهل الايمان المستغفرين لذنوبهم.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (42) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (43)

بيّن المولى جل علاه سبب نفور كفار قريش من الدعوة الى عبادته تعالى وحده فقد سبق لهم ان عاهدوا انفسهم وأقسموا بالله تعالى أن يسبقوا بالهدى حتى يتفوقوا على من كان قبلهم من اهل الكتاب اذا جاءهم رسول ينذرهم ويرشدهم ويعلمهم. فلما حقق الله تعالى ما رجوه من رسالة انكروا ذلك فما سبب ذلك؟ لقد بيّنه تعالى بأنه الكِبْرُ الذي في نفوسهم من حب العُلُوِّ في الأرض وما جَرَّهم اليه ذلك من تسفيهِ الصادق صلى الله عليه وآله وسلم، ومن بذل جهودهم ليصدُّوا الناس عنه بمكرٍ سيئ كان وبالاً عليهم في بدر وفي ما أعدّ الله تعالى لهم من عذاب. فلم يكن لهم من يحوّل عنهم ما قُضِي لأمثالهم من خزيِ الدنيا وعذابِ الآخرة.

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (44) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (45)

توالت الحجج على كفار قريش مما لم يترك لهم عذراً في الإنكار والتكذيب. وها هي العبرة ممن سبقهم من الهلكى الذين كان سبب هلاكهم تكذيبهم فلم يسلموا من العاقبة التي هي سُنّة الله في امثالهم رغم ما تفوقوا به عليهم من قوة. ومع هذا فقد أجّل المولى امره فيهم لعلهم يثوبون الى رشدهم ليخرجوا مما صاروا اليه. ومن سُنة الله تعالى إمهال اهل الكفر والشرك حتى تقوم عليهم الحجة ولو عجّل لهم ما استحقوه لما سقاهم المطر الذي جعله الله تعالى سبباً للحياة على ظهر الارض ولكان الحيوان والنبات عرضة للهلاك من جرّاء ظلم اهل الكفر والشرك. واما الاجل الذي أخّرَهم المولى اليه فهو اجل المؤاخذة على المعاصي أي يكون عندما تجمع كافة الاعمال ولا يبقى للعبد فرصة للكسب منها، أي بعد الموت وهذا الأجل هو يوم الحساب، يوم يقوم الناس لرب العالمين فتطرح اعمالهم في موازين القسط فلا تظلم نفس شيئاً وهو المولى البصير بعباده فلا يخفى عليه منهم شيء.

سـورة يس

بِسْـمِ اللهِ الرَّحمـنِ الرَّحِـيمِ

يس (1)

تُقرأ: يا، سين. وهي من علم الله تعالى، ولعلمه نبأ قال عنه تعالى ((وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَّهُ بَعْدَ حِينٍ)). المهم ان الجهل بمعناها ومراد الله تعالى منها لا يؤثر على فهم تعابير القرآن ولا على صحة العبادة. وإن العلم يزدادُ بالعمل بما تعلم المرء. يقول تعالى ((وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعلِّمُكُم اللهُ)).

وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5) لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (6) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7)

روى البزّار عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "قال النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ((لَوَدَدْتُ انها في قلب كل انسان من أُمّتي)) يعني هذه السورة". وهذه اشارة الى أن من حفظها عن ظهر غيب قد حقق للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ما يودُّه لأبناء أُمّته كرامةً لمن جعله الله تعالى بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً. وأما قوله تعالى ((وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)) الى آخر هذه الآيات السبع؛ فإن الله تعالى يقسم بما يشاء من مخلوقاته كما يقسم بذاته الجليلة، وهنا اقسم بالقرآن الذي حوى الحكمة من لَـدُنه، بأن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم من المرسلين على الطريق القويم والمنهج الذي لا عِوَج فيه، رسولاً من رب العزة الذي كتب على

نفسه الرحمة. لينذر مَن كان القرآن يُتْلَى بين ظهرانيم وهم مشركو قريش، كانوا على ضلال وشرك، ليبين انهم والذين على شاكلتهم المقصودون بالغفلة وان القول بالعذاب قد حق على أكثرهم ممن لا يدخل الايمان في قلوبهم لقسوتها على الحق. أما القِلّة الذين لم يحق القول عليهم فهم المستعدون للايمان والجهاد واتَّبعوا الذكر إذ جاءهم بعدما كانوا غافلين عن التوحيد قبل أن تبلغهم الرسالة. ثم قال الله تعالى عن الكفار الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم ولم يتَّبعوا الذِّكرَ إذ جاءهم:

إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (8) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (9) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (10) إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (11)

الْمُقْمَح من الإبل هو المصاب في رقبته فيرفع رأسه أي يجعله مُقْمَحاً. وقد شبّه المولى تعالى المستكبرين، الذين صدوا رؤوسهم عن سماع الحق، بهذه الابل المصابة وكأنهم قد جُمعت أيديهم بأغلال الى اعناقهم فرفعوا رؤوسهم لِثِقَلِ الأغلال عليها. وجعلهم المولى العزيز مترددين بين إثنين من السدود: من أمامهم ومن خلفهم صارا لهم حجابين عن الحق فهم في الضلال محصورن لا يرون مخرجاً كأنما غطت عيونَهم عتمةٌ لا يرون خلالها وذلك لتعاميهم عن الحق. فلم ينتفعوا بعقولهم ولم تتفتح قلوبهم لقبول الاسلام وغطى الشرك أبصارهم عن رؤية الحق. وهكذا لم يجد النذير اليهم سبيلاً فهم قبل النذير وبعد النذير على حالهم لم يتغير فيهم الباطل. لكنما بقية القوم اهل الاستعداد الذين انتفعوا بما جاء من الحق فقد بادروا للإسلام ونَجَوا من عبادة الاصنام وملأت قلوبَهم الخشيةُ من الله في كل حال وانقلبوا من مُنذَرين

الى مُبَشَّرين بمغفرة واجر كريم. وقام الاسلام منتصراً بهم وبمن لَحِقَهم رحماء بينهم أعِزّة على الكافرين أذِلّة على المؤمنين.

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (12)

في اكثر من مرة يذكر الرحمن إحياء الموتى بعد ذكر قسوة القلوب أي موتها كما جاء في الايتين السادسة عشرة والسابعة عشرة من سورة الحديد اذ بيَّن تعالى حدوث قسوة قلوب الذين طال عليهم الأمد ثم قال ((اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا..)) الاية. ففي هذه الايات اشارة الى مشيئة الله تعالى بأن يهدي من يشاء من كفار قريش، وقد أسلم الطُلَقاءُ في فتح مكة فدخلوا هم وعربُ الجزيرة في دين الله افواجاً. ويكتب الله تعالى لهم أعمال الخير التي كانت منهم في الجاهلية حسنات، أي ما قدّموا، ويكتب لهم ما حصل منها في الاسلام، أي آثارهم. وينبأ الانسان بما قدَّم وأخَّر فهو مكتوب في اللوح المحفوظ أي الإمام المبين.

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (14) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (15) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (16) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (17) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (18) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (19)

ارشد المولى عز وجل رسوله الكريم محمداً صلى الله عليه وآله وسلم الى كل سلوك يمكن ان يبلغ مبلغه في نفوس المشركين والكفار في مكة وما جاورها. ومن قبيل ذلك العِبَرُ ممن هلك من الأقوام الذين كذّبوا الرسل. وكان كثير من تُجّار قريش يأتون بأخبار اليَمَن والشام في رحلتي الشتاء والصيف فكانت قصة القرية التي هلكت بعدما كذّب اهلُها المرسلين (وقيل هي أنطاكيا) معلومة لديهم كخبر من اخبار التاريخ من غير ان يتحرَّوا عن الأسباب والعِبَر. ولكن الله تعالى بيّن العبرة من قصة القرية بأنّ سببَ هلاكِ أهْلِها هو تكذيبُهم الرسلَ الذين دعَوهم الى ترك الاوثان والى عبادة الواحد الديان. فقد كذّبوا الرسل الثلاثة وأنكروا نزول الوحي على بشر مثلهم وتشاءموا منهم لأن قرى اخرى قبلهم جاءهم شؤمٌ فنسبوه إلى ما دعتهم رسلهم إليه. ولهذا تشاءم هؤلاء من الرسل الثلاثة وتوعَّدوهم بالرجم إن لم يكفوا عن دعوتهم. فأجابهم المرسلون بأن تكذيبهم هو سبب الشؤم عليهم فهو منهم وليس من الرسل.

وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (23) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (28) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (29) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (30)

وهذا رجل من أهل القرية كان في مشارف المدينة عندما دخلها الرسولان فآمن بما معهما. وسمع بتكذيب قومه فأتاهم ناصحاً بأن الذي جاء به هؤلاء الرسل هو الهدى وعلامة ذلك انهم لا يريدون أجراً من القوم. ولما سألوه عن عبادة الله تعالى وترك الاصنام قال: وَمَا لِيَ لا اعْبُدُ الّذِي فَطَرَنِي؟ فذكّرهم بخلق الانسان من العدم بقدرة الله تعالى. وأخبرهم بأنهم سيرجعون اليه فهو الخالق القادر على بعثهم اليه بينما الآلهة الموهومة عاجزة عن دفع الضر إذا أراده ولا تملك شفاعة عنده، وعبادتها ضلال (أي تيهٌ) عن الحقيقة. وايّد المؤمن ايمانه وقيل في التفاسير انه رُجِم حتى مات! واخبر تعالى عنه انه ادخله الجنة وانه كما نصح لقومه في حياته الدنيا تمنى لهم أن يعلموا بعد موته بما غفر الله تعالى له واكرمه. واما قومه فقد اخذتهم صيحةٌ واحدة جعلتهم خامدين. وهنا موقف الحسرة عليهم في هذه المواقف؛ أنهم خسروا كل شيء بإستهزائهم بمن جاءهم بالحق فيا حسرةً عليهم! واجدر بكفار قريش، مع هذه العبرة في أهل هذه القرية، ان يتذكروا من هلك من قبلهم من القرون فقال تعالى:

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (31) وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (32)

الرؤية هنا هي الاتعاظ بمن هلك بعد بيان سبب الهلاك وهو الكفر وقد وقع فيه كفار قريش ومن كذّب بالرسالة ايّام الدعوة في مكة قبل الهجرة. واخبر تعالى بعد ذلك ان عذاب الدنيا وخزيها ليس هما النهاية. بل ان الجميع سيعرضون على الله تعالى وينالون الوعد الذي انكروه من عذاب الآخرة وقد كانوا ينكرون البعث فأكد المولى تعالى بأنهم جميع مُحضَرون عنده.

وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (35)

توالت الحجج على من بلغتهم الدعوه المحمدية للدلالة على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى كما يحيي الارض بعد جفاف تربتها وتشقق قشرتها وانعدام الحياة فيها فاذا بها تقبل الماء وتُخرج النبات من حب وثمرات وتحفظ الماء ليخرج منها ينابيع. ولا يمكن لبشر أن ينسب لغير الله تعالى أيَّ أثر في كل ذلك. فما عليهم إلا الإقرار بنعمته، وهو الشكر الذي يُقَدَّم إليه تعالى ويحمل الإقرار بوحدانيته في الربوبية كما هي في الرزق.

سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (36)

هذا الخَلْق يشير الى قدرة المولى عز وجل وعظمته مما دعا ذاته الجليلة إلى التسبيح بحمده المعجِز فقد خلق الذَكَر والانثى في الإنسان والحيوان والنبات وانزل الماء الذي جعل منه كل شيء حي وخلق الزرع قوام الحياة للإنسان والحيوان فتناسلوا ووهبهم الروح التي لا يعلمون سرها بل علمُها عنده. وبعد هذه الاية يُنَبِّه سبحانه إلى بديع صنعه في الكون فقال تعالى:

وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (37) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ

(39) لَا الشَّـمْسُ يَنْبَغِي لَهَـا أَنْ تُـدْرِكَ الْقَمَـرَ وَلَا اللَّيْـلُ سَـابِقُ النَّهَـارِ وَكُـلٌّ فِي فَلَـكٍ يَسْبَحُونَ (40)

ويشير المولى الى تقديره وهو رب العزة العليم بما خلق ولأيّ شيء خلقه. فالليل والنهار يغلفان سويةً الكرة الارضية فهي أبداً مشمولة بليل ونهار. فإذا ابتعد موقعنا عن الشمس فقد انسلخ منه النهار وحَلّ الظلام. وتبدو لنا الشمس تنتقل بحركتها الظاهرة للعباد من الشرق الى الغرب وحقيقتُها أنها في مُستَقرٍ بالنسبة لمجموعتها وبقية توابعها، ومنهن الارض التي تدور وهذا ما يجعل ضياء الشمس ينتقل من الشرق الى الغرب. واما القمر فقد قدّر له المولى ان يدور حول الارض، وفي الوقت نفسه يدور حول نفسه بحيث يواجه الارض بوجه واحد. ولا يمكن رؤية الوجه الثاني إلا بمركبة فضاء. وأمّا مَنَازِلُه فهي في نهاية الشهر القمري يكون وجهه الذي يواجه به الارض على خط مع الشمس فلا يرى في الليل لأن الوجه الاخر يكون منيراً، ثم يختلف موقعه في اليوم التالي بحيث يتأخر بمقدار إثنتين وخمسين دقيقة فيرتفع عن موقع غروب الشمس وبذلك يظهر لنا نور حافته السفلى مقوساً وهو هلال الشهر الجديد ثم يتوالى تأخره بنفس المقدار في الليلة التالية فيبدو نور حافته السفلى بالنسبة لنا اكبر من نور الليلة الاولى وهكذا حتى يكون بدراً أي تراه الارض مشرقاً من الشرق مع غروب الشمس فيكون وجهه المواجه لنا مواجهاً بنفس الوقت للشمس فيكون منيراً بجميع اجزاء وجهه في منتصف الشهر ثم يتناقص حتى يعود كالعرجون القديم. والعرجون هو البقية اليابسة المنحنية من اصل عثق الثمر بعد قطعه من النخلة. ولبعد الشمس بحوالى ثلاثةٍ وتسعينَ مليونَ ميلٍ عن القمر وعن الارض فلا مجال لأن يدرك احدهما الآخر. واما السباحة في الفَلَك فهو اثباتٌ

لِكُرَوِيَّة الأجرام اذ لا يسبح إلا ما كان سائباً من جميع الجهات والاطراف. ومن جملة ذلك الأرض. واما سباحة الشمس فحركتها بمجموعتها. (وتسمى حركة المغزل في يد الغازل: فَلَكَ الْمِغْزَل. ومن دورانه جاء المعنى المتعلق بالسباحة في الأفلاك).

وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (41) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (42) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (43) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (44)

قصة سفينة نوح عليه الصلاة والسلام كانت معروفة تتناقلها الأجيال. وضرَبها المولى تعالى مثلاً بأنها آية على قدرة الواحد الأحَد. اذ لم يُبْقِ الطوفان آنذاك مشركاً من قوم نوحٍ عليه الصلاة والسلام أو شريكاً يُعبد من دون الله تعالى. وسُمّيت سفينتُه بالفُلْك المشحون أي الْمُثْقَل بالحِمل، والحمل هو الذرية الناجية فيه من بشر وغيرهم. وأما قوله تعالى ((وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ)) ففي التفاسير إستدلال على أن صنع سفن النقل والركوب حصل بعد هذه السفينة. ويذكّرهم تعالى بأنهم اذا أدركهم خوف الغرق فلا منقذ لهم إلاّ مشيئة الله تعالى، والمغيث في الملمات يسمى صريخاً. كما لا ينقذهم إلا الله برحمته فيؤجلهم أي يمنحهم البقاء متاعاً حتى يحين اجل الفناء. فالمتاع يطلق على ما هو زائل، والنعيم على ما هو باقٍ.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (46) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (47)

واذا دعاهم داعٍ الى اتخاذ وقاية من مصيرٍ كمصير ما بين ايديهم، أي ما تقدم قبلهم من مصائر الهالكين ثم إلى إتخاذ وقاية من حساب ما تقدم من ذنوبهم لعلهم ينالون ما يوعدون من مغفرة ورحمة في مستقبل حياتهم كمؤمنين، ثم اذا اتتهم آيةٌ يستدل العقل منها على الحق في هذا القول فإنهم سيُعرِضون عن النصيحة بشأن المصير وعن آيات الحق. واذا قيل لهم طهّروا مكاسبكم بالنفقة في سبيل الله يجيب الكافرون، وقد انحرفوا الى جدل بعيد عن الحق بأنهم اذا فعلوا ذلك فقد اطعموا الذين حرمهم الله! ولهذا رأوا أن يحرموهم كذلك لأن الله تعالى حَرَمَهُم! ويعتبرون من دعاهم الى ذلك انهم قاصرون عن التوصل الى صحة الفهم وفي تَيْهٍ واضحٍ عن ذلك!

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (48) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (49) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (50)

الوعد المقصود هو الذي قيل لهم: ((وَمَا خَلْفَكُم)) أي عذاب يوم القيامة. وقد استبعدوه من جهة التكذيب، بينما استعجلوه تحدياً للوعد الذي لم يؤمنوا به. فأخبرهم تعالى ان الوعد هو وقتُ صيحةِ الْمَلَكِ الْمُوَكَل بنفخ الصُّور النفخة الاولى التي يفزع عنها الناس وهم في غمرة تعاملهم في الاسواق وغيرها. قال تعالى عنهم انذاك ((وَهُمْ يَخِصِّمُونَ)) أي يعارض بعضُهم بعضاً في امور المعايش والارزاق. وبعدها في النفخة الثانية لا يتمكنون من تسوية امورهم او وصول مساكنهم فقد خمدت ارواحهم وتأتيهم فيما بعد نفخةُ الْمَحْشَرِ فقال تعالى:

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (53) فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (54)

نفخة البعث تنبعث من الصُّوْر أي القَرْن الذي على شكل بوق ضخم. ويمكن ان يكون المعنى، كما في بعض التفاسير، في كل صورة من صُوَر المخلوقات فتبعث من الأجداث أي المدافن كالقبور وغيرها. وهنا تقوم الخلائق مبتعدة مسرعة عن اجداثها تلبية لنفخة الجَمْع عند الله تعالى. فإذا انتبه الكفار من رقدتهم تأوَّهوا بكلمةِ العذاب: "يَا وَيْلَنَا"! وتساءلوا عمن بَعَثَهم فيأتيهم الجواب (ولَعَلّهُ ممن كان يشهدهم من الملائكة او من اهل العلم او من أحد الكفار فيصحو ويعلم انه بعث للحساب): ((هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ))! فمن لم يكن يظن أن المرسلين (عليهم الصلاة والسلام) كانوا قد صدقوا تحقَّق له عندئذٍ صدقهم. ثم صيحة أخيرة تحشرهم وتحضرهم بين يدي رب العزة فيسود الحق في هذا الموقف ولا ظلم فيه بل الجزاء على الاعمال.

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (55) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (56) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (57) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (58)

لقد حلّ اليوم الذي عَمِل أهلُ الايمان له بما اتفق مع ايمانهم. وحان وقت قِطاف ثمار ما كانوا يعملون فهم منشغلون بالنعيم مع ازواجهم في ظلال الاشجار فاكهون، أي متلذِّذون. فـ(الفاكهة) تعني اللذة الطيبة، وسميت الفواكه منها. ويجدون

ما كان يَرِدُ على خواطرهم من انواع كانوا يتمنّونها فهي تأتيهم. ويطيب عيشهم بأمن يحمله السلام لهم وعداً من الربِّ الرحيم، وقد ورد اسم (الرحيم) مع مشاهد الآخرة، وبهذه الصفة ينال المؤمنون الرحمة وكانوا في الحياة الدنيا هم وغيرهم ينالون رحمة (الرحمن) حيث ورد هذا الاسم مع مشاهد الحياة الدنيا. ولهذا ورد في الأدعية: ((يا رحمنَ الدنيا ورحيمَ الآخرةِ)). ومِثْلُ هذا في معاني سورة الفاتحة.

وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (59) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (62) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (63) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (64)

وبعد ذكر ما نالَ أصحابُ الجنة، يخاطب المولى تعالى بالتعنيف الذين كفروا ويذكِّرهم بموثقهم الأول بأن يعبدوه ولا يطيعوا عدوَّهم الشيطان. هذا العهد أُخِذ عليهم كما جاء في الاية الثانية والسبعين بعد المائة من سورة الاعراف. واعطاهم المولى تعالى عقولاً وأرسل إليهم رسلاً يدعونهم إلى صراط مستقيم أفلا تقوم الحجة على جرمهم؟ فالآن يتميز المجرمون الذين كفروا فيُعزَلون عن اهل الطاعة. ألم تكن لهم عقول؟ ويوجِّههم إلى جهنم مشيراً إليها بأنها الوعد الذي انذرهم الرسل منه فيؤمَرون بالدخول في نارها، (وهذا معنى: إصْلَوْهَا!) بما كانوا يكفرون.

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (65)

الذين أطاعوا الشيطان أعدَّ المولى عزّ وجلّ لهم ختماً على أفواههم يمنعهم به عن الكلام كي لا ينكروا ما ارتكبوه بحق الرسالة السماوية. ويُحوَّل الكلامُ الى

الأيدي، ويأمر الأرجل بأن تشهد عليهم. فتعترف الأيدي وتشهد الأرجل بما كانوا يكسبون فلا يملكون إنكاراً له.

وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (66) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (67)

ولو شاء الله تعالى للمكذبين أن يُعَجِّل لهم في الدنيا ما أوجبوه على أنفسهم لطمس على أعينهم أي محا قابلية الرؤيا منهم فيتركهم عمياً في متاهة على صراط مجهول لأنهم زاغوا عن الحق. أو لمسخهم على مكانتهم أي حيث هم ولبدّل صورهم إلى قبحٍ لقبح تصرفهم وإصرارهم عليه. فلا يمكنهم آنذاك أن يمضوا الى الهدى، او يرجعوا الى ما قبل الضلال. وهذا تحذير لهم.

وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (68)

ويمضي بهم العمر على هذا الحال حتى يُرَدّوا الى عُمُرٍ ينقلبون فيه الى ضعف في العلم والفهم بعد القوة التي لم تنفعهم اذ لم يغتنموها ولم يعقلوا أي يتفهّموا ويتدبروا ما أتاهم من تحذير.

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (69) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (70)

إتصف كلام اللهُ تعالى بالعذوبة والتجانس اللفظي الذي له موقعة في النفوس اضافة الى المعاني الجليلة والمقاصد السامية التي تعلو بالمؤمن من ظلمات الجهل الى نور الحق. ولما لم يتقبل كفار قريش معاني الحق نسبوا عذوبة اللفظ وتناسق تعابيره الى الشعر وهم ادرى بما وضع للشعر من عَروضٍ وموازينَ ورَوِيٍّ مُتَّسِقٍ وقافيةٍ لا

مَحيدَ عنها. فأجابهم المولى بهذه الآية فما ينبغي لرسول كريم ان يبلِّغ المقاصد الإلهية بالشعر الذي له مقاصدُ غيرُها؛ كالمديح، والحماس والفخر، والهجاء، والغزل، وغيرها من الاغراض الانسانية التي تدور في حدود قدرة الإنسان. فما علّمَ اللهُ تعالى رسولَه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم نَظْمَ الشِّعر بل أمَرَهُ بأن يبلغ ما أنزَله اليه من غير تحريف وتبديل او اخفاء او تأجيل. فهو ذكر او وعظ للذكرى وكتاب سماوي لا يُسمَّى غيرُه (قرآناً) معرَّفاً ب(أل). ويكفي أنه يُبَيّن المقاصدَ الربّانية بأوضح السبل، وأحكمِها حجةً، وأيسرِها حفظاً وفهماً، ليكون للعالَمين نذيرا. فمن بلغه فكفر به فقد حقت عليه كلمة العذاب.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (72) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (73)

يقول الله تعالى في الاية السابعة عشرة من سورة الغاشية ((أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)). وكنموذج لهذه الانعام نرى الإبل مُسخَّرةً ولولا ذلك لما ملكها الناس فهي ذليلة لطفل صغير. وقد جعل الله تعالى فيها من المنافع ما تسد حاجات كثيرة للإنسان في الحمل والسفر واكل لحومها وشرب حليبها ونسج اوبارها. وقد كانوا ينتفعون بابوالها في علاج بعض انواع الامراض الجلدية. وجعل سبحانه منافع أُخرى ومشارب في الأنعام الأليفة. واهل الشرك يُقِرُّون بأن من خلقها هو الله تعالى وان النِعَم تستوجب الشكر لكنهم نسبوا النعمة لشركائهم وقدّموا لها النذور وطلبوا منها الرزق في شرك صريح وخفي. واكثر من ذلك يقول تعالى عن كفار قريش:

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آَلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (74) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (75) فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (76)

لم يدرك المشركون من القدرة الالهية هيمنتها في النصر، مما لا يتسنى لقدرة أُخرى. فلجأوا الى اصنام لا نفع لها ولا اثر ولا صفة من صفات العقول لها لتنصرهم! وهيهات. ومع ذلك يكونون منتصرين للأصنام غاضبين لها اذا مسها سوء مستعدين للدفاع عنها. وهذا مما يحز في نفس الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فواساه رب العزة آمراً بأن يبعد عنه الأسف عليهم والحزن مما يؤذيه من تقولاتهم الباطلة. فالله تعالى عليم بطواياهم وما يظهرون وجعل جنده لهم بالمرصاد.

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (81) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83)

يريد المولى عز وجل من الإنسان أن يحصل على العلم أوّلاً، أي ان يفكر قبل الحكم على شيء، فيثير رغبته في التعلم والوصول الى ما تتوق اليه نفسه من علم يجهله. وهنا فليعلم الانسان ان الله سبحانه وتعالى خَلَقَه من نطفةٍ في صُلْبِ أبيه استقرت بأمره تعالى في رحم الأُمِ. ثم نمت بقدرة خالقها ثم وُلِدت بِلُطْفِهِ فتنفست الهواء حالَما خرجت من ظلمات ثلاث لا يدخل اليها الهواء. وكبرت لتكون انسانا سميعاً بصيراً عاقلاً. وبدلاً من التفكير بالقدرة الاولى (ويستدل منها على القدرة في

الخلقة الثانية) إتّخذ الإنسان المجرد من الإيمان موقف الخصم يتساءل عمن يحيي العظام وهي رميم؟ أي بالية. وهذه الاية نزلت في المشرك أُبَي بن خلف حين أخذ عظماً بالياً وجعل يَفتُّه بيده ويخاطب سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: "يا محمد! أترى الله يحيي هذا بعدما رُمّ"؟ فقال ((نعم، ويبعثُكَ ويُدخِلُك جهنم)). ويقال لأمثاله: ((يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)). ثم بين تعالى قدرته بإحتراق النباتات التي تسقى بالماء، فقد جعل من الشجر الأخضر ناراً، فكيف بخلق السموات والارض بقدرة لا تعجز عن خلق مثلهن وهو وحده الخالق ولا يعجزه ان يخلق. إذ يكفي ان يقول لشيءٍ يريده: (كُنْ) فإذا هو مخلوق كائن. ولا يعلم العبد مدى الثناء على ربه العظيم إلا بما علَّمه جل علاه. ولولا ذلك لأُرْتِجَ علينا القولُ فلا نبلغ التعبير المناسب في الثناء عليه وتعظيمه. ولم يملك الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقد اراد اقصى الثناء على ربه العظيم إلا أن قال: ((لا أُحصي ثناءً عليك. أنت كما أثنيت على نفسك)). وعلَّمنا تعالى ان نسبح بحمده ذاكرين قدرته ولطفه وعظمته ورحمته ووَعْدَه الحق وما تفضل به من نِعَمٍ لا تُحصى، وكل نعمة تشير إلى صفة من صفاته وتسبح بحمده. فقال عن ذاته الكريمة ((فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ)) فكل شيء خاضع لسلطانه. واما الملكوت فهو صيغة جمع وهنا جاءت لِمُلْك الكائنات كلها فالله تعالى بيده مُلْكُ كلِّ شيءٍ وإليه الرجوع.

سورة الصافّات

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (1) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (2) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (3) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (4) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (5)

يقسم المولى عز وجل بما يشاء من مخلوقاته. وفي هذه الايات يذكر في القَسَم اصنافاً من الملائكة؛ وهم الصافّون في الصلاة، ثم المكلفون بسَوقِ الغمام (أي زجره)، ثم الموكّلون بالقرآن. وفي هذا القَسَم يؤكد المولى تفرده بالالوهية، وبربوبيته للسماء والارض وما بينهما، وبربوبيته للمشارق وهي مواقع شروق الشمس في حركتها الظاهرية لكل يوم من ايام السنة بحيث يكون الفرق بين مشرق كل يوم وبين مشرق اليوم الذي سبقه واليوم الذي يليه بما يزيد قليلا عن ربع الدرجة من درجات الدائرة الافقية لموقع وقوفنا. ويُعرَف المشرق الحقيقي للارض يومَي الحادي والعشرين من آذار (مارس) والحادي والعشرين من أيلول (سبتمبر) أي عندما تكون اشعة الشمس متعامدة على خط الاستواء فتنتقل المشارق شمالاً حتى يصل تعامد أشعة الشمس مدار السرطان ثم تعود المشارق جنوبا حتى يصل تعامد أشعة الشمس مدار الجدي خلال ستة اشهر.

إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (6) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (7) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (8) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (9) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (10)

ذكر المولى القدير ما يراه الانسان من كواكب في السماء، ولولاها لَما اكتسبت السماء هذه الزينة. ثم بين تعالى كيف يمنع من يحاول من الشياطين سماع أخبار الملائكة خِلسةً وذلك بحفظ السماء بما يمنع وصولهم إلى مواقع الإستماع من قذائف تدحرهم من جميع الجهات، وينتظرهم عذاب واصب (دائم). واستثنى من يدرك كلمةً فيتبعه شهاب ثاقب. وهذا الذي ادركه لا يخفى على الله تعالى ولكن لتكون الكلمة فتنةً له استحقها واستحق معها الشهاب الثاقب. وهذا البيان له أثرُه في عبادة الله تعالى اذ يوبّخ المشركين على أوهامهم فيقول بعد ايراد عظيم ما خلق:

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (11) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (12) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (13) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (14) وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (15) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (16) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (17) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (18) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (19)

بعد ذكر ما هو اصعب خَلْقاً من الانسان في حسبان البشر (وهو على الله تعالى هيّن) يطلب رب العزة السؤال من الذين كفروا وكذّبوا وسخِروا من خبر البعث بعد الموت: هل أن خَلْقَهم في نظرهم أصعبُ وأشقُّ من المخلوقات العظيمة التي يحكمها نظام دقيق لا يمكن ان يكون إلا بالله تعالى؟ ثم أكد تعالى أنه خلق الإنسان من طين لازِبٍ (متماسك متلاصق)، وأصله طبعاً تراب. وهذا ما يذكّرُهم بأن التراب الذي انكروا بعث الحياة فيه هو اصل خلقتهم الاولى. فعلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إن عجب من تعنتهم الباطل وسمع سخريتهم ونسبتهم القول إلى السحر أن يؤكِّد لهم أنهم سيبعثون صاغرين بعد الموت بأمر واحد هو

زجرة، أي صيحة واحدة يُبعَثون بعدها أحياءً ترى عيونُهم ما هو حق وليس بسحر او كذب كما توهّموا من قبل.

وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (20) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (21)

واخيراً رجعوا على انفسهم بالويل في ملامة وندامة مُقرّين بأنهم بُعِثوا في يوم الدين يوم الحساب فيأتيهم التأكيد ممن سبق لهم الايمان في الحياة الدنيا ومن الملائكة بأنه يومٌ كانوا يكذِّبون به. وفيه الان يفصل الله تعالى في ما بين الحق الذي كذّبوا به وبين الباطل الذي توهَّموه.

احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (22) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (23) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (24) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (25) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (26)

يؤمر بالظالمين فَيُحشَرون أصنافا، أي يُحشر المجرم مع قرينه أو من كان مماثلاً له في نوع الجرم الذي اجرماه سواء كانوا في زمن واحد او ازمان متفرقة. ويحشرون ومعهم اصنامهم وما كانوا يعبدون من دون الله. (هنا من كان يعبد نبياً او ولياً فالأنبياء والصالحون سبقت لهم من الله الحسنى كما جاء في شرح الاية الحادية بعد المائة من سورة الانبياء). ومما يزيد من عذاب الظالمين انهم يُسْتَوْقَفُون قبل الجحيم للسؤال منهم عن سبب خذلانهم من قِبَل من كانوا يتوهمون شفاعتهم ونُصرَتهم. فلا يكون منهم جواب سوى الإنقياد الى المصير. فترشدهم الملائكة الى طريق الجحيم. ثم إن هذا السؤال عن التناصر بينهم يثير ملامة بعضهم وهم المستضعفون للذين

استضعفوهم في الدين فأضلّوهم وصَدّوهم عن الهدى بعد اذ جاءهم فيقول تعالى عنهم:

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ (27) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (28) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (29) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (30) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (31) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (32) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (33) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (34)

ورد معنى هذه الايات في شرح الاية الحادية والثلاثين وما بعدها من سورة سبأ. إلا ان تلك الآيات نزلت في ابي لهب وامثاله في إضلال المستضعَفين وهذه الايات عامة لا تقتصر على المستضعَفين بل تشمل من ضل بسبب المسايرة والانخداع بزخرف القول غروراً كما جاء عن معنى الاية الثانية عشرة بعد المائة من سورة الانعام في هذا التفسير مما يغني عن التكرار. وهذا الاشتراك في العذاب يكون لكل المجرمين من امثالهم مهما بَعُد بينهم الزمان والمكان كما جاء انفاً.

إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (35) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (36) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (37) إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (38) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (39)

المستكبرون هم الذين يعتزُّون بما هم عليه من الشرك ولا يرون الحق حقاً مهما اتتهم بذلك الآيات البيّنات بل يتمسكون بما يصدهم عن الحق ويرونه شعراً نَظَمه مجنون! ولا شك أن أي شاعر مجنون لا يأتي إلا بالهزيل من القول المتفكك في المعاني. ولكن الذي جاءهم معجز لغيره ومصدِّقٌ لِما سبقه لا يأتيه الباطل من أي

جهة. فما يكون لهم جزاءً على ذلك إلا الحرمان من اسباب النجاة يوم يقع العذاب عليهم فيكون اليماً ذا حسرة لا ترتدُّ إليهم.

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (40) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (41) فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (42) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (43) عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (44) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (45) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (46) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (47) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (48) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (49)

المخلَصون هم الصفوة الذين تخلّصوا من الرياء فاختصتهم العناية الربانية فلم يواجهوا حساباً بل سبقوا الى جنات النعيم، فقد كانوا السابقين في الطاعة. ويورد تعالى جانباً من النعيم يبدأه بالرزق المعلوم، تفصيله الفواكه، وخدمة تزيد كرامتهم، ومعهم احباؤهم في طعام وشراب لذيذ لا يغتال العقل كما تفعل خمر الدنيا ولا يتبعه إثمها، زوجاتهم قاصرات الطرف أي أن كلاًّ منهن موجّهةٌ نظرةَ حُبّها لزوجها دون غيره، واسعات الأعين، بياضهن كبيض النعام في الصفاء.

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (50) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (51) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (52) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (53) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (54) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (55) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (56) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (57) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (58) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (59) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (60) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (61)

الحديث متشعِّب ويأخذ الحديث الاحباب في الجنة فإذا ببعضهم يتذكرون زملاء او جيراناً في الدنيا جمعتهم ظروفهم في المعيشة او العمل او السكن وفيهم

المشرك الكافر الذي كان يدعو الى إنكار اليوم الآخِر والحساب على الاعمال. عندئذٍ يذكر أحد أهل الجنة واحداً من أولئك بأنه كان يغريه بالكفر. فيكشف للمؤمن موقعه ويقال له "(هَلْ أَنْتُمْ مُطّلِعُونَ)"! فيطّلِع ويراه في الجحيم ويناديه مؤنباً إياه على محاولة إغوائه وممتناً لنعمة الله تعالى في نجاته وإلا لكان من المحضرين في العذاب معه. ويواصل تساؤله بإنكارٍ على الكافر: "أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ". وقد جعل المولى تعالى هذا الحديث ترهيبا وترغيباً فقال: ((لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)). وهكذا تحصل المخاطبة بكشفٍ بإذن الله بين أهل الجنة وأهل النار كما جاء هنا وفي سورة الأعراف قول أهل النار: "أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُم اللهُ".

أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (62) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (63) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (64) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (65) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (66) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (67) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (68) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (69) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (70)

النُّزُلُ هو ما يُقدَّم للنازلين ضيوفاً من طعام وأرزاق. فأين ذلك النعيم من شجرة الزقوم؟ وهنا وصف لما يلقاه المقلّدون لآثار من سبقهم في الضلالة فلم تنفعْهم عقولهم. ينتظرهم الطعام الذي يسعون إليه من شدة الجوع وهو من نَبْتٍ سيئ الطعم والرائحة والطبع، إنه الزقوم وهو الضريع. ولشجرة الزقوم اسماء منها الشُبْرُق. ونبتُها الغِسْلين يُشبَّه بما يسيل من الأخلاط الكريهة. وقد سَخِرَ ابو جهل من هذه الآية بقوله (انما الزقوم التمر والزبد أتزقَّمُهُ)! ومن فتنة المشركين قالوا كيف يكون في النار شجرة والشجر يحترق بالنار؟ فأجابهم تعالى بأنها شجرة (تخرج في

أصل الجحيم) أي غُذِّيَت بالنار ونبتت في قعر جهنم. طَلْعُها أي حَمْلُها المشبَّه بطلع النخلة يكون من البشاعة كرؤوس الشياطين. امّا رؤوس الشياطين فهي رؤوس أفاعي بشعة المنظر يسمونها (الشياطين) لِما يعتقدونه من قبح اشكال الشياطين. وليس لهؤلاء المجرمين الضالين المكذبين من طعام آخر فلا بدّ من مَلْءٍ بطونِهم منه. فلما يحسون بالعطش لا يجدون إلا شَوْباً أي أخلاطاً ساخنة من حميم، السائل الساخن، وبعد هذا النُزُل يعودون إلى الجحيم وكما كانوا تبعاً لآبائهم يتمرَّغون في الضلال فهم اليوم يُهْرَعون (يسرعون) في تقليدهم يتمرغون في عذابٍ كذَّبوا به.

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (71) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (72) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (73) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (74)

الخبر تسلية لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأنّ اكثر الذين أُرسِل اليهم الرسل من الأقوام السابقة بقَوا في الضلالة رغم ما أنذرهم به المرسلون وبأن الله تعالى لم يأخذْهم من غير أنْ ينذرَهم وهو أعلم بما سيفعلون. فكانت عاقبتُهم هلاكاً في الدنيا مع الخزي، وعذاباً في الآخرة. إلا الذين نفعهم الإنذار وهم القليل فآمنوا وأصلحوا فكان صلاحهم تزكية لهم جعلتهم المخلصين أي صفوة عباد الله تعالى فلم يعبدوا إلهاً آخر غيره.

وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (75) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (77) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (78) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (79) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (80) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (81) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (82)

صبر سيدنا نوح صلى الله عليه وسلم على تكذيب قومه قروناً حتى احس منهم نية سيئة وكاد كيدهم ان يقهره فقال داعياً العزيز القدير ((إِنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ)). وكان الكفار وهو يصنع الفُلْكَ (سفينته) بأمر الله تعالى يسخرون منه حتى ناله كرب عظيم فغضب المولى عز وجل لغضبه وامضى في مكذِّبيه ما استحقوه فأُغْرِقوا ونجا ومن معه من المؤمنين وجعل الله تعالى لذريته استمراراً بعد ان قطع دابر الكفار. وقد ذكره تعالى في كتبه المقدسة ولا سيما في القرآن الكريم كما سبق بيانه. وفي سورة نوح عليه السلام إمتدح صبره وعزمه فكان من أُولي العزم وصار يُذكر في امة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيُسَلِّمون عليه، فسلام على سيدنا نوح في العالمين. وفي هذه عبرة للمحسنين بأن جزاءهم حاصلٌ ونجاتهم حاصلةٌ فعليهم الصبر والعزيمة على التمسك بما امر الله تعالى ونهى. أما المكذِّبون من قومه، بما فيهم إبنٌ له وزوجته فقد أُغرقوا مع المعذَّبين.

وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (83) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (85) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (87) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (88) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (89) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (90) فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (91) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (92) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (93) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (94) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (95) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (96) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (98)

اشار تعالى الى تشابه موقف سيدنا ابراهيم مع موقف سيدنا نوح عليهما الصلاة والسلام وذلك بتشابه نظرتهما بسلامة القلب مع الفطرة التوحيدية في مجابهة

الشرك. والقلب السليم لدى المؤمنين هو الخالي من الشريك بصفاءٍ لله تعالى مع الجرأة على الباطل كما واجَهَ سيدنا ابراهيم عليه السلام أباه وقومه (وقيل هم قوم نمرود في العراق) بأنهم يفترون الكذب على الله تعالى لِكَدَرِ ظنونهم به تعالى مما أدّى الى عبادة الاصنام. ثم أخذ يفكر في ما ينبغي أن يفعله حتى استقر على عمل إنتواه. وتعبير (نَظَرَ نَظْرَةً فِي النُجُوْمِ) كناية عن التفكير. حتى قرّر ان يحطم تلك الأصنام وينسب الفعل الى كبيرها. فأبدى عذراً لقومه لكي لا يماشيهم في الخروج الى إحتفالهم في عيدٍ لهم خارج البلد. وبهذا اختلى بالأصنام ومعه فأس. وشاهد ثمة طعاماً وضعه قومه للتبرك! (فَرَاغَ إِلَيْهِم) أي أقبل على الأصنام قائلاً (أَلاَ تَأْكُلُونَ)! وبالطبع لم يكن منهم جواب فقال: (مَا لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ)؟ (فَرَاغَ عَلَيْهِمْ) أي أقبل عليهم بالفأس حتى حطّمهم إلا كبيراً لهم وضع الفأس في عنقه. فلما جاء قومه يزِفُّون (أي مسرعين) أنكر عليهم عبادة ما ينحتونه بأيديهم والغفلةَ عن عبادة الله العظيم الذي خلقهم وخلق ما صنعوا. فلم تؤثر فيهم هذه العبرة فقرّروا إلقاءه في النار. ونجّاه الله تعالى وخيّب قومه الذين لم تنفعهم هذه الآية. وقرر سيدنا ابراهيم ومعه لوط وقد آمن معه (عليهما السلام) الهجرةَ الى فلسطين. وفي التفاسير ان نمرود وقومه هؤلاء أُهلِكوا بكثره البعوض، ولم يرد في ذلك أثرٌ من السُّنَّةِ إلا انه يتفق مع قوله تعالى (فَجَعَلْنَاهُمْ الأَخْسَرِينَ).

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (101) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ

الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآَخِرِينَ (108) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (109) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (110) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (111) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (112) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (113)

الهجرة التي وردت في التفاسير كانت بأمر الله تعالى قبل هلاك قوم نمرود. وطلب سيدنا ابراهيم من الله تعالى أن يهب له من الصالحين عِوَضاً عمن كان معه من المشركين. فأتته البشارة بولادة سيدنا اسماعيل عليه السلام، وهو إبن السيدة (هاجر) التي هاجرت به مع ابيه الى موقع مكة اذ لم تكن مكة قد بُنيت بعدُ. وكان سيدنا ابراهيم قد تركهما ودعا لهما. وأظهر الله تعالى لهما بئر زمزم الذي طلبت قبيلة (جُرْهُم) العربية من هاجر أن تستقر حوله. وبلغ اسماعيل عليه السلام مبلغ الفتيان وتزوج من جُرْهُم وكان ابوه يزوره بين حين وآخر. وفي إحدى الزيارات (وقد بلغ السَّعْيَ أي مبلغ الرجال في السعي والعمل) رأى أبوه في المنام أنه يذبح ابنه! ولم ينفذ الامر ولكنه اراد صحة المعرفة اذا ما تكررت الرؤيا. فلما تكررت في اليوم التالي عرف ان الامر من الله تعالى فسُمّي بيوم (عَرَفة). ولما أخبر إبنه طاوعه وطلب إليه تنفيذ الأمر واتفقا على النحر من غده فسمي (يوم النحر). وتَلَّهُ اي صرعه (كَبَّهُ) على الجبين. وهذه شِدّة ابتلاء الانبياء في تلبية اوامر ربهم سبحانه مع حسن ظنهم به. فكان أن تعذر الذبح وفداه تعالى بذِبْحٍ (بكبش) عظيم. وصار النحر من مناسك الحج. والذي تركه الله تعالى على ابراهيم هو السلام عليه في هذه الأُمة ويذكر في الصلاة الإبراهيمية. وبيّن سُمُوَّ قَدْرِه إذ اتخذه خليلا. وأما ولادة سيدنا

اسحق فقد حصلت بعد ولادة سيدنا إسماعيل عليهما السلام بسنتين وقيل بعشر سنين وقد خصه الله تعالى بالنبوة دون الرسالة وخص سيدنا اسماعيل عليه السلام بالنبوة والرسالة لوجوده بين من لم تكن قد بلغَتْهم رسالة الحق في وحدانية الله تعالى فأسلموا. وذكر الله تعالى نعمته بالبركة على سيدنا ابراهيم وسيدنا اسحق عليهما السلام. والبركة هنا تعني نماء النِعَم ورفعة المنزلة. واما ذريتهما فذرية سيدنا ابراهيم من اسحق كان منهم انبياء بني اسرائيل وعلماؤهم وصُلَحاؤهم والمجاهدون في سبيل الله تعالى. كما كان منهم أيضاً من عَبَد العجل وجحد رسالة عيسى عليه السلام فقال تعالى عنهم ((وظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ)). فجعل ظلمهم على أنفسهم. وأخبر عن كَفَرَةِ بني اسرائيل أنهم كانوا يقتلون الأنبياء والذين يأمرون بالقسط من الناس، ويسعون في الارض فساداً ويوقدون للحروب ناراً. واما ذرية سيدنا إسْماعيل عليه السلام فمباركون جعل الله افئدة من الناس تهوي اليهم وارسل فيهم سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم ونصرهم فكانوا خيرَ أُمة تبقى على الحق حتى يُظهِر الله تعالى دينه على الدين كلِّه فالبشارة متواترة بظهور المهدي عليه السلام يملأ الارض قسطاً وعدلاً بعدما تكون قد مُلِئَت ظلماً وجَوراً.

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (114) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (115) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (116) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (117) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (118) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (119) سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (120) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (121) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (122)

من الفضل الرباني كان مما مَنّ به ربُّ العزة عليهما هو النبوة والرسالة عليهما الصلاة والسلام ثم المعجزات التي ادت الى نجاتهما وقومِهما من شدة فرعون ومن الغرق وبذلك كتب الله تعالى لهم الغلبة. وانزل التوراة تبين بوضوح ما يريده المولى تعالى من عباده وأرشدهما الى طريق الشريعة الذي يُجَنِّبهما وقومَهما الضلال. واثنى سبحانه وتعالى عليهما في القرآن الكريم الذي حفظه تعالى إلى يوم الدين فجاءت سيرتهما على الوجه الصحيح غير الذي اتهمهم به كفرة بني اسرائيل. وترك عليهما الثناء بالسلام عليهما كلما ذُكِرا (صلى الله عليهما وسلم) وجاء في ما ختم الكلام عنهما تأكيد ايمانهما. وهكذا جزاء الله تعالى لمن احسن من عباده النصح لدينه وربه وامته وجزى الله عنا سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم خيراً.

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (124) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (125) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (126) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (127) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (128) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (129) سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ (130) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (131) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (132)

إلياس عليه الصلاة والسلام مذكور في التفاسير على روايات اهل الكتاب ولم يرد عنه في السنّة النبوية شيء ولهذا فإن ايراده في التفسير يقتصر على بيان العبرة من قصته؛ فقد أُرسِل الى قوم يعبدون صنماً هو (بعل) ويذرون خالقهم. وأراد تعالى ان يقيم الحجة عليهم في محاسبتهم على ذلك فأرسل سيدنا إلياسَ عليه الصلاة والسلام اليهم من أنفُسِهم لتكون الحجة اوثق عليهم فدعاهم الى تقوى الله تعالى ونَبْذ عبادة الصنم فالصنم انما هو من صنعهم. فمن مضى من آبائهم قبل صنعه،

أي اجدادُهم، لم يكونوا يعبدونه فالأصحّ عبادة ربهم ورب آبائهم الاولين. ومع هذه الحجة البينة الدالة على صدق الناصح بها فقد كذَّبه الأكثرون وتوعدهم المولى تعالى بإحضارهم في عذاب الآخرة واستثنى المولى عز وجل عباداً اخلصهم (إصطفاهم) لدينه فَنَجَوا. وترك على إلياس عليه السلام بأن يذكر في الآخِرين. وكرّم بالسلام مَن وصَلَتْه الرسالة منهم فآمن بها، وهم المعنيون بقوله تعالى ((سَلامٌ عَلى إِلْ يَاسِينَ)) وقُرِئت: (آل ياسين). وقيل في (بعلبك) انها تعني صنم بعل الذي في (بك) ولم يرد عن ذلك شيء من السُنّة النبوية الشريفة ولعلها من التشابه اللفظي لا أكثر.

وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (133) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (134) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (135) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (136) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (137) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (138)

قصة سيدنا لوط عليه السلام مذكورة في سُوَرٍ سابقة، ولا سيما سورةِ هود عليه السلام وسورةِ العنكبوت. وجاء ذكره هنا لتنبيه قريش بقوله تعالى (أَفَلَا تَعْقِلُونَ). اذ ان قوافل الحجاز الى الشام تبلغ في أيام أرض قومه صباحاً في سفرها الى الشام وتبلغها مساءً في العودة إلى الحجاز.

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (139) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (140) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (141) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (145) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (146) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (147) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (148)

ورد عن سيدنا يونس عليه الصلاة والسلام في سورة الانبياء ما يغني عن التكرار. وهنا، قد يتبادر الى ذهن احدنا كيف يغادر نبيٌّ قوماً أمره الله تعالى بدعوتهم اليه؟ وهذا ما بيّنه المفسرون من السلف بأنّ غَضَبَ سيدِنا يونس عليه الصلاة والسلام كان لله تعالى، إذ كيف يدعو اليه فلا يجيب احد! فخرج وحده من بين اظْهُرِ قومِه. فلما خاف قومُه من العذاب تابوا الى الله تعالى. وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان يُنسَب الى سيدنا يونس عليه الصلاة والسلام مخالفة في ذلك فقال في ما جاء في صحيح البخاري وصحيح مسلم ((ما ينبغي لعبد ان يقول انا خير من يونس بن متّى)). وفي الاية فَضْلُ التسبيح في الرخاء والشدة فعاقبةُ ذلك النجاة. واليقطين هو القرع وقيل هو كلُ شجيرة تمتد اوراقها فوق الارض من غير ساق يرتفع بها. واما القوم الذين أُرسِل اليهم فقيل: اهل نينوى. وله ضريح ينسب اليه في قمه تل مشرف على مدينة الموصل. وفي السيرة النبوية ذكر ذلك: إذ أن أهل الطائف آذَوا رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى أُدمِيَ عَقِبُهُ يوم اراد أنْ يدعوَهم للاسلام وتوارى عنهم الى بستانٍ حيث واساه العامل الذي كان يعمل فيه، وإسْمُهُ عدّاس، ولما سأله النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن بلاده قال انه من نينوى. فقال ((بلد اخي يونس)). وهم القوم الذين آمنوا ورفع الله تعالى عنهم العذاب بذلك. وقوله تعالى: ((أَوْ يَزِيدُونَ)) معناه: إن لم يكن عددُهم اكثرَ فليس بأقلَّ من ذلك.

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (149) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (150) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (151) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (152)

أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (153) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (154) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (155) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (156) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (157)

اعتقد كفار قريش (من غير ان يُحدِّدوا مصدرَ اعتقادهم) بان الملائكة بنات الله! سبحانه وتعالى. فجاء إنكاره جل وعلا على ذلك إذ كيف يرضون أن يُنسِبوا إلى الله تعالى ما يكرهون لأنفسهم (أي الإناث)؟ فإنهم لو وُلِد لأحدهم الأُنثى يظل وجهه مسوداً وهو كظيم أي يكتم تغيظه. وكيف حكموا على جنس الملائكة بانهم اناث؟ هل شهدوا خلقهم؟ وهكذا إفكهم فلا يمكنهم أن يأتوا بدليل على نِسْبةِ ذريةٍ لله سبحانه. واكثر من ذلك لم يقولوا لماذا اختاروا الإناث تفضيلاً؟ افلا يرجعون الى عقولهم لعلهم يصلون الى حكم معقول؟ ام عندهم من كتب السماء ما يدلهم على ذلك فأين تلك الكتب؟ ولا ينبغي ان يحصل ذلك فالله تعالى أعلى وأجل.

وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (158) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (159) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (160)

والنَّسَبُ بين المولى العظيم سبحانه وبين الجِنَّة، على زعم كفار قريش، جاء جواباً على انكار ابي بكر الصديق رضي الله عنه اذ سألهم عن الملائكة على زعمهم (فمن أُمّهاتُهم)؟ فقالوا: زوجات من الجن! وما أعجبَ هذا! وقد علمت الجنة ان هؤلاء على ضلال وان عذابهم لواقع. فسبحان الله عما نسبوه اليه. واستثنى تعالى مِن قريشٍ مَن سبق علمُه بهم أن فيهم خيراً فاستخلصهم للدين القيِّم، فهم على الفطرة لم يكونوا لِيَصِفوا المولى بما لا ينبغي له.

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (161) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (162) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (163)

يخاطب المولى عز وجل هؤلاء الكفار بأنهم بعبادتهم الأوثان والأصنام لن يُضِلّوا أحداً إلا أُولئك الذين ليس لهم حظّ في الايمان بسبب ما ارتضوه لأنفسهم من الدنيا فلا يرغبون في ما يتنافى معها من الإيمان فهم الى مصيرهم في الجحيم.

وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (164) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (165) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (166)

هذا تنزيه للملائكة من اكاذيب كفار قريش التي نسبوها اليهم فما منهم (أي الملائكة) إلا ولَهُ موضع من امر الله تعالى في عبادةٍ وطاعة وتكليف لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون لا يتعدون ذلك، وكلهم في الصلاة صفوف يسبحون ويمجدون وينزهون الخالق جل علاه عن كل أوهام الشرك.

وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (167) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (168) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (169) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (170)

كفار قريش انكروا على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم صدق رسالة الله تعالى وصحتها معه بينما كانوا قد أخذوا على أنفسهم عهداً لو يأتيهم الحق مع رسولٍ من الله بكتاب لاهتدوا به مخلصين بالتقرب من الله تعالى. وها قد جاءهم الحق واضحاً ببرهان ساطع فكفروا به فتوعدهم المولى عز وجل بأنهم سيعلمون عاقبة تكذيبهم وخروجهم من عهدهم هذا.

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (172) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (173) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (174) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (175) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (176) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (177) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (178) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (179)

سبق حكم الله تعالى ان ينصر رسله وينصر من يجاهد لإعلاء كلمته سواء في الحجة على اهل الكفر او في تلاحم القتال (وهذا في الدنيا) او في عُلُوِّهم على اعداء الله تعالى في الاخرة. ولهذا أمر تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلّم هنا بالإعراض عن الجاحدين حتى يحكم الله بشأنهم. وأمره بالإنتظار فسوف يعلم ويعلمون ما يوعدون. فكأنهم يستعجلون العذاب قبل حينه، بينما له أجل محدد فإذا حلّ بهم فويل لهم من صباح سيئ. وقد حل بهم يوم بدر ويوم فتح مكة ما حَلّ من نصر المؤمنين وقَتْلِ رؤوس الكفر. وبعد ايضاح مراد الله تعالى من انتظار حكمه كرر الطلب بالانتظار حتى يحين موعده فعندئذٍ سوف يعلم عن عذابهم ويعلمون بباطلهم.

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (181) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (182)

رب العزة سبحانه هو مانح العزة. فهو رب كلِّ أسبابها يُعِزُّ بها من يشاء. فسبحانه عزيزاً فوق كل وصف لا يليق بحمده المطلق ومقامه الأمثل. وينبه سبحانه على إختصاصه بالسلام على من حملوا رسالاته لِهدي عباده ونيل رحمته. ويُحمَد المولى على هذا الحكم من العزة والسلام، ويُحمَد على تفرده بالالوهية. وعرّفنا سبحانه في هذه الآيات الثلاث على ما يقول المؤمنون للتسبيح بحمده والسلام على

رسله. وورد عنهنّ ما رواه ابن ابي حاتم عن امير المؤمنين علي كرم الله وجهه قال: ((من احب ان يكتال بالمكيال الأوْفَى من الأجر يوم القيامة فَلْيَكُن آخِرَ كلامه في مجلسه: سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين)).

سورة ص

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (2) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (3) وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (4) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (5) وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (6) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (7) أَؤُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (8) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (9) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (10) جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ (11)

ص، وتقرأ (صاد). يقسِم المولى تعالى بكتابه الكريم ذي الشرف الذي يعم ذِكْرُه الحميد كلَّ مكان وزمان لِما فيه من هدى وبشرى ورحمة وشفاء ونذير وخبر وعبرة وأحكام. فاجتمعت صفاته لبيان سبل العبادة والتقوى وقَدْرِ الخالق الواحد الأحد الذي جعل صلته مع خلقه رباً يحب المؤمنين ويحبونه. وجواب القسم: ((بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ))، خسِروا نفعَ هذا الكتاب فهم في اعتزاز بأصنامهم وفي استكبار عن الهدى وفي حَمِيَّةٍ جاهلية وفي مخالفة ومعاندة. وها هم في كفرهم في شقاق (انشقوا) الى هلاك حل بمن كذّب من قبلهم من القرون الاولى رغم تناديهم بنداء الاستغاثة من العذاب لما جاءهم وما كان أبعدَهم عن المغيث الذي توهموه من دون الله! ولم تُجْدِهم الاستغاثة فليس الموقف موقف إمهالٍ وتأجيل أي لا مناص

(منجا) منه بل موقف ندامة على فوات التوبة. وأما موقف كفار قريش مع سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد استبعدوا ان يختاره الله تعالى من دونهم رسولاً لدينه العظيم فعلّلوا دعواه بانها سحر يصرّف به الكذب. فقد كانوا في عبادة اكثر من رب واحد وهذا سبب استبعادهم تعجباً. وارتبكوا فما كان منهم إلّا أن انطلقوا للصدِّ عن الذكر الحكيم لأجل الحفاظ على الآلهة الوهمية اذ لم يسمعوا بحصول شيء من هذا القبيل من قبل. فقد تعاقبت فيهم اجيال لم يظهر فيها مثله فكيف يكون هو من بين رؤوسهم وكبرائهم. وكان كبراؤهم قد طلبوا من سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم التوقف عن سب آلهتهم فدعاهم الى قول (لا إله إلّا الله) فانْفَضّوا عنه وانطلقوا يحذرون منه فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون ((أَجَعَلَ الْآَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)) فنزل قوله تعالى ((بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ)). وهذه الحادثة مروية في مسند الامام احمد عن ابن عباس رضي الله عنهما. ثم ينكر المولى عليهم شكوكهم وسوء ظنونهم فيتساءل هل هم الذين يتخيرون الرسل من عندهم حسب هواهم؟ وهل أن الله تعالى خوّلهم العطاء من خزائنه؟ ام لهم قدرة في ملكوت الله تعالى وملكه الواسع؟ بينما لا يملكون التحرك سيراً إلّا بقدرته تعالى ونعمته. فتوعدهم بالهزيمة وهذه السورة مكية قبل الهجرة. ثم تحققت هزيمتهم بعد الهجرة في (بدر) مصداقاً لوعده تعالى.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (12) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (13) إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (14)

لقد كان في عقاب أولئك الأحزاب عبرةٌ فقد استحقوه بتكذيب الرسل. وهذا تحذير لكفار قريش ووعيد بقرب عقابهم. والاوتاد كانت من ألعاب فرعون وقيل

كـان يعـذِّب بهـا. واما بقيـة الاقـوام الهالكـة فقـد فُصّـلت قصصُـهم في سُـوَرٍ أخـرى كالاعراف وهود والعنكبوت وغيرها.

وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (15) وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (16) اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (17) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (18) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (19) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (20)

الوعدُ بعقابهم صيحة تلقي الفزع في قلوبهم لا تتأخر اذا حلّ موعدها. فما لها من مهلة، ولا فرصة لاستجماع الرأي او للإفاقة من المفاجأة، والفَواق هو الوقت القصير بين حَلْب الناقة مرة وحَلْبِها مرة اخرى بعدها. فما يتيسر للكفار فرصة تعدل هذه الفترة. واما موقف الكفار من هذا الوعد فكان الهزء بحيث طلبوا تعجيلَ قِطِّهم قبل اليوم الذي أنكروه. و(القِطّ) قطعة مقتطعة من اصلٍ مُقسَّطٍ. وطلب المولى عز وجل ان يصبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على تقوُّلاتِهم مهما كان لها من اثر على دعوته بين الناس. وصبر الأنبياء هو انتظار مشيئة الله تعالى ليهدي مَن يشاء مِن الناس، فلا يستعجلون بطلب العذاب. وهنا يذكِّرنا المولى عز وجل بسيدنا داود عليه الصلاة والسلام في استعجاله الحكم على المشكو منه قبل سماع اقواله فكان ذلك امتحاناً له فتاب الى الله تعالى ونال الكرم منه بالتسبيح وتسخير الجبال معه يسبحن معه ليلاً في العشي ونهاراً في شروق الشمس، وسخر الطير تجتمع من كل فضاء للتسبيح معه. والضمير في (له أوّاب) أي لداود عليه الصلاة والسلام تسبّح معه أي تُرَجِّع التسبيحَ معه لتمجيد ذات الله تعالى والثناء عليه وتنزيهه عن الشركاء والأنداد. وقد حفظ الله تعالى لداود الْمُلْكَ قوياً محروساً شديد

التماسك عزيز الهيبة. وآتاه المولى العليم من علمه ما اجرى على لسانه الحكمة، أي رؤية الامور على حقيقتها وإحكام عاقبتها، مع صواب اللفظ الذي يصيب كبد الحقيقة فيدخل في القلوب محكماً لا يرده عقل ولا يوجد له بديل يرادفه. فتطمئن له القلوب المؤمنة وتفاجأ به القلوب الحائرة فتهتدي، كما تُبْهَتُ به القلوب المنكرة فلا تملك جدلاً يعارضه. وكان قبل ان يبين مراده أو يجيب على سؤالٍ يحمد الله تعالى ويذكره بالثناء عليه وتحميده ثم يقول: (امّا بعد) ثم يبين المراد ويوضح المسائل فلا يبقى غموض او إبْهام بين الحق والباطل وبين الصحيح والفاسد.

وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (21) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (22) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (23) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (24) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (25) يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (26)

الاستفهام هنا بقوله تعالى: (هَلْ أَتَاكَ) يعني سيرد خبرٌ له دلالته العجيبة وهي قصة خصمين جاءا من طريق غير معتاد إذ دخلا على سيدنا داود عليه الصلاة والسلام بعد ان تسلقا حائط صدر الدار الذي فيه المحراب. وكان عليه السلام يجلس للقضاء في ايام محدودة فإذا دخل بيته للتعبد لا يؤذَن لأحدٍ بالدخول عليه

ولا سيما الخصماء. وهنا كان دخولُ الخصمين قد سبب فزعاً له لعلمه انه محاط بحرس لا يسمحون لأحد بالدخول عليه فطمأنه الخصمان وعرضا قضيتَهما. وطلبا الحكم بالحق وأن لا يُشْتِطَ أي لا يتجاوز الحد وان يوجههما الى ما يحقق العدل بينهما. وادعى احدهما بأن الآخر اخ له ويملك تسعة وتسعين نعجة بينما لا يملك الْمُدّعي إلّا واحدة فطلبها اخوه ليضمها الى نعاجه. وعَزَّهُ في الخطاب، أي كان اقدر عليه في الخصومة. وهنا (قبل ان يسمع من المدعَى عليه دفاعاً) اجابه بما يفيد تصديق المدعي والحكم على المدعَى عليه بأنه باغٍ وان البغي ليس من شيم الذين آمنوا وعملوا الصالحات. وهنا إنتبه سيدنا داود الى سرعة حكمه واتهام الخصم الثاني بالكفر بينما كان عليه أن يسمعه فلعله معذورٌ ومؤمن ذو عملٍ صالح، ولا سيما وان المدعي لَمّح بأن خصمه قد غلبه في الخصومة لسببٍ جَعَلَه أقدرَ عليه إذ قال (وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ). وذكرتْ بعض التفاسير تأويلاً أي ايضاحاً مستنداً الى اسرائيليات ومنها ما لا يليق بعظمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام فنرجع الى ظاهر الايات القرآنية ففيها العبرة بأن سيدنا داود عليه الصلاة والسلام تلقى موعظة في التحقق من الإدعاءات قبل الحكم عليها فأستغفر وسجد. وبذلك رجع الى الحق وقَبِلَ منه ذلك ربُّ العزة وبيّن قرب منزلته عنده فالزلفى هي القرب مع مرجع حسن عند الله تعالى. وخاطبه المولى بأنه استخلفه على المِلْك في الارض بعد من كان مستخلفاً قبله من الانبياء فعليه ان يجعل الحكم مستمداً من الله تعالى أي من احكامه وليس مما تميل اليه الانفس اي الهوى. فالهوى اذا تعارض مع الاحكام الالهية يبعد صاحبه عن سواء السبيل أي احكام الدين وهذا ضلال يتبعه عذاب

شديد لأصحابه لأن ميزان يوم الحساب يعول على الاحكام وليس على الميل الى ما تهواه الانفس فمن مال عن الحق فقد نسي ذلك الحساب.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (27) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (28) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (29)

بعد الوصية الربانية لأولياء الأُمور والأحكام بالحكم بأحكام الله تعالى المنزلة على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وتَرْك الالتفات الى النفس اذا تعارض هواها مع الحكم الرباني، يبين تعالى ان قيام السموات والارض لم يكن إلّا بالحق فليس يقوم مُلْكٌ ويدوم إلّا به. اما الكفار فقد غفلوا عن الحكمة البالغة في إحكام الحق وعرفانه وفي إبطال الباطل وانكاره. وبهذا غفلوا عن استعمال العقل على الوجه الصحيح فويل لمن كفر بالحق من عذاب النار. ولو بطل الجزاء بالجنة على العمل الصالح، والعقاب على الكفر بالنار لاستوى حال الصالحين مع حال اهل الضلال ولنجا المفسدون في الارض كما ينجو المتقون. وهكذا يتلمس المولى بتدرج الحجة البيضاء عقول الذين يتدبرون آياته أي يتفكرون في آياته ليقفوا على مغزاها وليس بالاكتفاء بالتلاوة كما يحفظ الصبيان حروفه ولا يدركون حكمة الله تعالى فيه وبهذا يتذكر أُولو الالباب أي أُولو الضمير الذي ازيحت عنه قشور الهوى وحب الدنيا فظهر اللب السليم عندهم مرشداً هادياً من هدى الله تعالى الى وجهه الكريم فمن اتجه قلبه الى مولاه هداه وأعانه وأوصله إليه.

وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (30) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (31) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (32) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (33) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (34) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (35) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (36) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (37) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (38) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (39) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (40)

بعدما ذكر المولى عز وجل لرسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وآلِه وسلم العبرة من قصة سيدنا داود عليه الصلاة والسلام في توبته وإنابته بعد الموعظة التي تلقاها وعظمة الحق الذي به قامت السموات والارض وما بينهما. وبعد بيان ولايته لاوليائه وبركة آياته في كتابه، ذكر هنا قصة سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام كيف لم يتغير على الايمان في إنتظار الفرج فكان في كل بلاء يرجع الى الله تعالى فقال تعالى عنه (إِنَّهُ أَوَّابٌ) فقد استعرض ما كان عنده من الخيول الاصيلة وهي الصافنات أي التي تقف على ثلاث قوائم مستوية وعلى حافة حافر الرابعة. والجياد التي تجود في الهذب السريع. وقيل انه اعرض بعد ذلك عن الانشغال بها خشية فوات الصلاة عليه. ومهما ورد في التفاسير عن غروب الشمس عليه ولم يُصلِّ العصر، وعن مَسْحِه الاعناق أي قتل الخيل ككفارة الانشغال، او المسح على رقابها اعجاباً بجمالها، فلم يرد عن ذلك شيء في السنّة. والمهم من ذلك العبرة بالرجوع الى ذكر الله تعالى والمحافظة على الصلاة مهما عرض للناس من امور الدنيا المباحة. اما فتنة الجسد على كرسي سليمان فقد ورد في ذلك حديث في الصحيحين

(البخاري ومسلم) عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ((قال سليمان بن داود عليهما السلام: لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأه تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله فقيل له: قل ان شاء الله: فلم يقل: فطاف بهن فلم يلد منهن الّا امرأة واحدة نصف انسان)). ثم قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ((والذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله لم يحنث ولَقاتَلوا في سبيل الله فرساناً اجمعين)). اما الجسد الملقى على الكرسي فهو جسد المولود الجديد كما جاء في اقرب الروايات الوارده في التفاسير الى المعقول. وهنا كانت إنابة اخرى وسأل اللهَ تعالى المغفرة والعوَض بِمُلْك لا ينبغي لأحد من بعده اذ كان يرجو لذريته الجهاد في سبيل الله ليكون الحكم لله تعالى وتكون كلمته هي العليا فطلب لهذا الهدف مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده. وهذا ما يستدل من حديث الرسول صلى الله عليه واله وسلم بأنّ طلبَ سيدِنا سليمان عليه الصلاة والسلام ذلك هو لإعلاء كلمة الله تعالى؛ فقد روى الامام احمد رضي الله عنه من حديث طويل عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال في فصله الاخير ((... وسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ان سليمان عليه السلام سأل الله تعالى ثلاثا فأعطاه اثنتين ونحن نرجو ان تكون لنا الثالثة: سأله حكما يصادف حكمه فأعطاه اياه. وسأله مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه اياه وسأله ايما رجل خرج من بيته لا يريد الّا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته كيوم ولدته امه. فنحن (والقول لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) نرجو ان يكون الله عز وجل قد اعطانا اياها)). ومّما أُعطي سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام تسخير الريح ((غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ)) كما جاء في الاية الحادية عشرة من سورة سبأ تجري رخاء حيث اصاب،

وكذلك تسخير الشياطين للبناء وللغوص في البحار فمن عصى امره سلطه المولى تعالى عليه فيقيده بالسلاسل. وأكثر من ذلك قربُه من الله تعالى بهذا الْمُلك اذ كان كله لإعلاء كلمة الله تعالى. وفي هذا اشارة الى اختيار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم النبوة فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما خُيّر بين ان يكون عبداً رسولاً (وهو الذي يفعل ما يؤمر به وانما هو قاسم يقسم بين الناس كما امره الله تعالى) وبين ان يكون نبياً مَلِكاً يعطي من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جُناح، اختار المنزلة الاولى بعدما استشار جبريل عليه الصلاة والسلام فقال له: تواضع! فاختار المنزلة الاولى لانها ارفع قدراً عند الله عز وجل واعلى منزلة في المعاد، وان كانت المنزلة الثانية وهي النبوة مع الْمُلك عظيمة ايضاً في الدنيا والاخرة اذ قال تعالى في هذه الايات عن سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام: ((وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ)).

وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (42) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (43) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44)

ورد ذكر قصة سيدنا ايوب عليه السلام في الاية الرابعة والثمانين من سورة الانبياء مما اغنى عن التكرار. اما قوله: ((أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ)) فأرجح ما ورد في التفاسير انها الوسوسة التي مضمونها تعظيم ما نزل به من بلاء طال أَمَدُه، واغراؤه بالجزع ورد البلوى أي الشكوى منها. ولكنه كمؤمنٍ صادقٍ

تمسك بالصبر على مشيئة ربه الحكيم وانتظر الفرج الموعود للمتقين وعلم ان البلاء يرفع منزلة الْمُبْتلَى إن صبر واحتسب. فكان ان امتدحه المولى عز وجل صابراً أوّاباً.

وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (45) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (46) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (47) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ (48) هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (49) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (50) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (51) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (52) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (53) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (54)

يذكّر المولى عز وجل رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالانبياء والرسل الكرام الاخيار الذين جعل الله تعالى فيهم رسالاته وهداية الناس إليه فأخلصهم بالعمل للآخرة أي يذكرون بعملهم الدار الآخرة. واصطفاهم وجعل ذكرهم ذكراً للمتقين أي تذكرة لينالوا حُسن المآب. وبيّن ذلك بالجنات ونعيمها وما فيها من وعد حسن ليومٍ يُرزقون فيه رزقاً لا ينقطع. وفي هذه الاية اشارة للمؤمنين ان يكونوا اقوياء فى دينهم (أُولي أيدي) وذوي بصيرة في الفقة في امور دينهم ويشمل ذلك القوة في الحق ومعرفته اي البصر فيه، وهذه صفة اولي الأبصار.

هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (55) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (56) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (57) وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (58)

الطاغون هم الخارجون عن طاعة الله تعالى بمخالفة احكامه وأوامره ونواهيه اصراراً وعناداً وقد توعدهم تعالى بسوء المنقلب الذي فسره تعالى بجهنم ووصفها

بأتعس مستقر. واما المهاد فهو ما يفترشة النائم. فليذوقوا طعامها الحميم اي شديد الحرارة والغسّاق أي السائل اللزج شديد البرد فلا يطاق. ثم من قبيل هذا الذوق ذوقٌ آخر لأصناف أُخرَى تعافُها الانفس.

هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (59) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (60) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (61) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (62) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (63) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (64)

اشار المولى عز وجل الى مشهد فيه استقبال فوج مدفوع الى النار. وبدلاً من التحيه الطيبة يقال لهم: لا مرحباً بكم (أي لا وجدتم مكاناً رحباً). انكم داخلون في النار. وكان القول من امّة سبقت اختها الجديدة الى النار. فيرد عليهم المقحمون الجدد ((بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا)). وهكذا كلما دخلت امة لعنت اختها فإن الاولين من اهل الكفر قد دعوا الاخرين الى هذا المصير. فتقول كل امة ممكورة: ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار. حتى اذا اجتمعوا واغلقت عليهم وكانوا ينتظرون افواجاً اخرى يتساءلون عمن كانوا يظنون انهم من الاشرار! وهم المؤمنون الذين كانوا يسفهون عقول اهل الشرك وينكر أهل الشرك ذلك ويعتبرونه شراً من اشرار. فما لهم لا يرونهم الان معهم!؟ فيتحقق لهم نجاة المؤمنين. وهنا حسرة ندامة على فوات الاستجابة للناجين وهذا مشهد حق في تخاصم اهل النار.

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (65) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (66) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (67) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (68) مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (69) إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (70)

لما زعم المشركون في مكة متهمين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأنه مُدّعٍ، وساحرٌ، وشاعرٌ، وما الى ذلك! امره تعالى ان يقول لهم انما هو منذر يخبرهم بأن الله تعالى يقهر كل شيء وله الغلبة والربوبية في ملكه عزيزاً غفاراً، وبأنّ الذي جاء به من مولاه وهو القرآن خبر عظيم ولكنهم لم يعرفوا نفعه فأعرضوا عنه. وبأن يقول لهم أنه ما كان ليدري ما حصل في الملأ الاعلى أي ما حصل من وقائع في خلق ابينا آدم عليه الصلاة والسلام وتساؤلِ الملائكة بشأنه ومعصية ابليس لأمر السجود له. فإنما جاءه هذ العلم بالوحي ليكون نذيراً مفصِحاً بأبلغ القول المعجز.

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (74) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (75) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (76) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (77) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (78) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (79) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (80) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (81) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (84) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (85)

هذا ما حصل في بدء خلق الإنسان، وجاء شرحه في الايات العشر التي اولها الاية الثلاثون من سورة البقرة. أما في هذه الايات فيذكر المولى عز وجل ما لم يكن

لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من علم به فلم يكن لأحد أن يخبره بما اختصم به الملائكة وما قالوه بعدما قال تعالى لهم انه خالق بشراً من طين ليكون خليفةً في الارض (وتفسيرها في آيات سورة البقرة المذكورة). وها قد سوّاه الله تعالى أي اتم خلقه فأحياه بنفخة من روحه جل وعلا فرأوه يتنفس ويحس بما حوله فعليهم ان يحيوه تكريماً لروح الله تعالى فيه بأن يسجدوا له. وقيل تحيتهم انحناءة تواضع وطاعة لله تعالى فسجود العبادة هو لله وحده سبحانه. واجتمع كل الملائكة فسجدوا وكان بينهم ابليس من الجن فلم يسجد. والله تعالى يعلم انه استكبر، أي تعظّم عن السجود، فكان بذلك (أي بمعصية أمرِ ربه) كافراً. مع أنه كان قد رأى كيف خلقه المولى عز وجل بلا واسطة. والأمر المهم هو المعصية فالذي يعصي إمّا ان يكون مستكبراً او يرى ان الامر يخص من هو دونه لأنه اعلى. ولإظهار ذلك سأله المولى عز وجل عن سبب معصيتهٍ فبرّر فعله بأن المخلوق من نار خير من المخلوق من طين، ففي نظره أن النار لا ينجسها شيء والطين معرّض للنجاسة! ولم يستغفر ويعتذر وينيب الى الله تعالى فنال من غضب الله تعالى ما امره به ان يخرج من المنزلة التي هو فيها فلا يبقى حيث كان. ودعاه بإسمه المخزي (إبليس) وطرده من الجنة وجعل عليه لعنته الى يوم الدين. فلعنة الحياة الدنيا التي حلت عليه لا تقترن بعذاب بل هي إياس من رحمة الله إلى يوم الدين وغضبٌ من الله عليه في يوم الدين يوم خلود ابليس ومن يتّبعه في النار. وتحدى إبليس ربه ليثبت افضليته وذلك بإغواء الجنس البشري فطلب إمهاله حيّاً الى ذلك اليوم، أي الوقت الذي حدده تعالى له ملعوناً فيه. واقسم بعزة الله لَيُفسِدنَّهم فلا يثبتون أجمعين على الطاعة. وهنا غص اذ تذكر العباد المتوكلين على اوامر الله تعالى فأخلصهم المولى لدينه فاستثنى اللعين العباد المخلَصين. وبيّن المولى مصيره ومصير من يتبعه قولاً حقاً مشعراً بالقَسَم لَيَملأن جهنم منه وممن يتبعه اجمعين.

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (86) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (87) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (88)

وبعد ايضاح حجة صدق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وصحة الرسالة ارشده المولى عز وجل ان يوضح للمشركين ما يبلغ في انفسهم حداً يثير التفكير بأنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يطلب على تبليغ القرآن أجراً منهم من عَرَضِ الدنيا. وانه لا يمكنه ان يزيد او ان ينقص الامر الذي انزل اليه فما له من اثر فيه يتكلفه بنفسه ويتصنّعه. فهو للعالمين من الله تعالى نذير ليذكروا، وبشير لينتفعوا. وأما تحقيق ما فيه من نبأ فلا بد منه بعد حين، والحين له تقدير في علم الله تعالى: إما في حياتهم أو عند موتهم أو يوم تقوم الساعة فالميت قد دخل في حكم القيامة.

سورة الزُمَـر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (2) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (3)

رب العزة ذو الجناب المنيع الحكيم فى شرعه والجليل فى ربوبيته يريد لعباده العزة والحكمة فانزل بهذا الحق كتابه العزيز بلُغَةٍ لا لَبسَ فيها، مُحكمةِ المعاني بليغةِ المقصد ليبين إخلاص العبادة له دون غيره. فلا دين (أي تَعبُّد) إلّا أن يتجه العبد به إليه خالصا من الرياء أو إدخال الاهواء والبدع. فمن اراد غير ذلك فقد اتجه الى عبادة غير الله تعالى وإن كان يدّعي أنما يريد من ذلك التقرب الى الله بفعل الشركاء! وهكذا يتولّون غير الله تعالى وينسبون اليهم الاثر من علم ورزق وحماية من دونه. وبهذا يحصل الخلاف بين من يتجه لهذا الولي ولذاك الولي فيختلفون في ضلالهم كذباً وكفراً. ولو تركوا الشركاء لاتفقت قلوبهم مع الحق، والحق واحد في اخلاص الدين للرب الواحد فلا يختلف عليه اثنان. وسوف يتلقى المشركون الحكم عليهم فيما اختلفوا فيه ولم يهتدوا ما داموا على الافتراء والكفر وبهذا الحكم يفرِّق المولى عز وجل بين المسلمين وبين اهل الكفر.

لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (4)

تعددت الاوهام بنسبةِ الولدِ لله تعالى؛ فقد نسب كفار قريش الملائكة بناتٍ له سبحانه، ونسب النصارى المسيح عليه الصلاة والسلام ابناً له، ونسبت يهود للعزير هذه الصفة. والله تعالى في عزته وحكمه لا ينبغي أن يحتاج سبحانه لولد

يخلفه. فهو خالق كل شيء فلا يكون ولد إلّا مخلوقاً، فكيف يكون من ارادة الله تعالى أن يخلق بشراً فيكون من نسله! وهو تعالى الواحد في الخلق، والغنيّ عن مخلوقاته، قهار في مشيئته في عباده قضى عليهم الموت لِيرجعوا إليه سبحانه.

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (5)

دوام السماوات والارض حاصل بالحق أي بإظهار الحق الذي لله تعالى بأن يُعبَد بلا شريك او نِدّ او والد او ولد. وقد جاء في شرح الآيتين الرابعة والخمسين من سورة الاعراف والثالثة عشرة من سورة فاطر ما يشرح تسخير الشمس والقمر والاجل المسمى. واما تكوير الليل فهو دوام وجوده حول النصف من الكرة الارضية عندما يكون معارضا للشمس. وأما تكوير النهار حول النصف الآخر من الكرة الارضية فعندما يواجه الشمس. والارض دائبة الدوران يتعاقب على سطحها الليل والنهار مع دورانها حول نفسها. والشمس مع مجموعتها لها انتقال في المجرة فلا يمكن لغير الخالق تعالى تقدير ذلك بل هو الله في عزته وغناه كتب لنفسه الرحمة ومنها كثرة المغفرة وإمهال من ينسب له الولد، سبحانه، فلم يعجل لهم العذاب.

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (6)

يخاطب العلي القدير من أتاه العلم بالرسالة بأنه خلقهم من سيدنا آدم الذي جعل منه زوجه ثم تناسلت ذريتهما. وخلق من الانعام التي يُنتفع بأكلها ومنافعها الاخرى من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين ذكراناً واناثاً. فذرية الانعام كذرية البشر فالكل من نطفة في الارحام ثم من علقة ثم من مضغة فعظام فلحم في ظلمات ثلاث هي اغشية المشيمة والرحم. فأما الانسان فله خلق آخر في تركيب العقل وكتابة مصيره في السعادة أو الشقاء. فكيف يُنسَب لله

تعالى في ملكوته وربوبيّتِه شريك؟ سبحانه. وكيف تنصرف عقول المشركين الى ذلك! وانصراف عقولهم يدعو إلى الإنكار فبدلاً من الإهتداء بها إلى التوحيد زاغوا إلى الشرك.

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (7)

بعد ان بين المولى وحدانيته وعرّف خلقه بها بما لا يقبل المعارضة، خَيَّر الذين اعطاهم العقل بين الكفر والشكر. فإن يكفروا فما اغناه عن ايمانهم وعبادتهم ولكنه لا يرضى ذلك لمن خلقهم وعرّفهم بذاته واعدّ لهم الجنة بل يرضى لهم ان يكونوا شاكرين شكراً يبدأ من الفكر. وشكرُ الفكرِ هو الوصول الى الحقيقة. وأن يكونوا متوكلين عليه تعالى وذلك بالعمل بشرعه. ثم الاتصاف بأخلاقه بالرحمة والكرم والعفو والمغفرة وان يحب المؤمن للناس ما يحب لنفسه عزيزاً في دينه شديدا على اعداء ربه. وكل ذلك إحسانٌ لنفس المؤمن فلا يطالَب غيرُه بأمر نفسه ولا يُطالَبُ هو بأمر غيرِه فلا يحمل عن غيره ولا يحمل غيره عنه. والله تعالى لن يترك الناس بدون مطالبته بحق ما اعطاهم من نِعم وما فعلوا بها. فإن لهم مرجعاً قد أعدّ الله تعالى لهم فيه انباء ما كانوا عليه من عمل ظاهر أو نوايا أخفتها الصدور.

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (8) أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (9)

الضرّ له شدة؛ ومنه انواع البلاء، أو ما اشبه، يمس الانسان بتقدير حكيم من الله تعالى. فالانسان القوي في الإيمان له موقف يختلف عن موقف الانسان الذي لا دلالة على ايمانه إلى درجة الغفلة عنه ونسيانه. وكلاهما يدعو الله ليكشف عنه

الضر. فالمؤمن بعد كشف الضر له شكر وثناء. والآخر ينسى في النعمة دعاء الشدة وينسب النعمة الجديدة لمن نالها على يده ولم يذكر ان الله تعالى سخره له فلا يشكر المنعم الذي بلطفه كشف الضر وخوّله النعمة بأسباب يقدرها إمتحاناً لإيمان العبد بربه واحداً لا شريك له في كل نعمة. وبهذا يخرج عن جادة الحق الى تيه الاوهام ومن ورائه نار وندامة. ويذكر تعالى هنا اهل الايمان الطائعين بصفة الشكر والذكر على دوام يومهم ولهم في الليل قيام وسجود وقد حسبوا لعذاب الآخرة حساب الحذر ولرحمة ربهم حساب الرجاء. فالمؤمن في خوفه من العذاب يؤمل النجاة منه ونيل رحمة ربه وهي الجنة. وللرجاء حدّان؛ حسن الظن بالله تعالى من حيثُ رحمتُه مقترناً بحسن العمل، وتحذيرُ النفس من طول الأمل خشية أن ينقلب الى الأمن من مكر الله تعالى. والخشية يرافقها الحذر من اليأس من رحمة الله تعالى فلا ييأس منها إلّا الكافرون، فيدرك المؤمنَ رجاؤه من الله الرحمن الرحيم فينتفي القنوط. وقد روى الامام عبد بن حميد في مسنده عن انس رضي الله عنه قال: "دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على رجل وهو في الموت فقال ((كيف تَجِدُك؟)) فقال: ارجو واخاف. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن الّا اعطاه الله عز وجل الذي يرجو وآمَنَه الذي يخافه)). وفي هذا اشارة الى الرجاء ساعة الموت بقوله: "اخاف وارجو". فجعل الرجاء آخِرَ العهد. وحبذا الخوف في الحياة الدنيا وادِّخار الرجاء الى ساعة الموت، وبهذا لا يستوى مع من تمادى في غيّه فأمِنَ مكرَ الله تعالى حتى اذا جاءت ساعة الموت يئس من الرحمة. وجعل المولى تعالى هذا العِلم تذكرةً لأُولي الألباب أي الذين لم يغلف قلوبَهم التلذّذُ بالشهوات والاطماع.

قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (10)

الخطاب للعباد المؤمنين لبيان درجة الإحسان في الحياة الدنيا أي عبادة الله؛ يعبده العبد كأنه يراه فله بذلك حسنة إمّا يعجِّلها المولى او يدّخرها. فإن ادخرها له في الاخرة ليمنحه في الدنيا فرصة الصبر فقد فتح له مخرجاً بأن يهاجر وينال اجر صبره في الهجرة بغير محاسبة. وأما الهجرة في ارض الله الواسعة فلا تكون الى دار حرب بل الى ارض الاسلام فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ما رواه الطبراني والبيهقي عن جرير وقال حديث صحيح ((من اقام مع المشركين فقد برئت منه الذمة))، أي ليس له حق طلب مدد لنصرته. وعلى المؤمن المهاجر في غير ارض المسلمين أن يهاجر إلى أرض الإسلام إن خشي على دينه ودين اهله ومن يأتي بعده منهم فليس له عذر في عدم التمكن على احسان العبادة إن امكنه ذلك في بلاد اخرى. وأجور الصابرين يأتي من شعور الغريب بالغربة وحنينه الى وطنه.

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (11) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (12) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (13) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (14) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (15) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (16)

ما اكثر ما واجه كفار قريش، ولا سيما رؤساؤهم، سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بتساؤل يحتاج الى حجة واضحة فكان الوحي ينزل مبدوءً بكلمة (قل). وعندما قالوا له: ألَا تنظر الى ابيك وجدك وسادات قومك يعبدون اللات والعزى؟ كما وقيل له: إن خالفت دين آبائك فقد خسرت! فأمره تعالى ان يقول لهم بأن الامر من الله تعالى بأن يَعبدَ اللهَ بإخلاص أي خلوص العبادة له جل علاه واحداً أحداً، وان يكون اول من اسلم من أُمّته (أُسوة حسنة)، وأنّ معصية الله تعالى هي سبب الخوف من عذاب الاخرة فهذا مشروط. فكيف وهو رسول الله؟ وفي ذلك تحذير لكل من بلغه الحذر من ذلك. والخسارة التي خوّفوه منها في ترك دين آبائه

ليست خسارة بل هي خسارة انفسهم واهليهم يوم القيامة ذلك هو الخسران المبين لأنهم ضلوا واضلوا اهليهم فخسروا الجنة وهذه ابلغ خسارة. فبدلاً منها ومن درجاتها يدخلون دركات جهنم التي تحتوي اهل الكفر بطبقات من النار تعلوهم وتكون اسفل منهم. افلا يكفي هذا للخوف ويدعو للتقوى؟

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (17) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (18) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (19) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (20)

عبادة الاوثان هي استجابة للطواغيت فمن تركها منيباً الى الله تعالى فقد اجتنب الطاغوت او الطواغيت وهم شياطين الانس والجن يدعون الى عبادة غير الله تعالى، بينما جاءهم القول الحسن أي الدعوة الى عبادة الله تعالى. فالذين اتبعوا احسن القول هم الذين سلمت فطرتهم من آفات عبادة الدنيا فملكوا الاستعداد للهداية فهداهم الله تعالى ووصفهم بأُولي الالباب وجاء وصفهم في الاية التاسعة من هذه السورة. واما من كتب الله تعالى لهم الشقاء بنبذهم الأخْذَ بالقول الحسن وبميلهم الى الاوثان والاصنام والطواغيت فقد استحقوا الشقاء أي كلمة العذاب. وهل يملك لهم من أبلغهم القول الحسن ان ينقذهم من نار أُدخِلوها؟ واما الذين اتخذوا الإيمان والإحسان وقاية من هذا العذاب فقد مُنِحوا غُرَفاً أي قصوراً شاهقة ذات غرف فوق غرف وتحتها تسلك الانهار خلالها تحت اقدام الشجر. وهذا وعدٌ باقٍ غيرُ مكذوب أي لن يُخلَف، فالله تعالى لا يخلف وعده بل يحققه في ميعاده.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (21)

من تقدير الخالق المبدع جل علاه حصول دورة المياه في الطبيعة فيؤدي الماء (من ضمن منافعه وما خُلِق له) إلى سقي المزروعات بالمطر والآلات فينبت به الزرع الذي له اشكال متعددة من فاكهة وخضر وحبوب وازهار. فإذا تبخر الماء منه ليكمل دورته جف الزرع أي هاج وخفّ بلا ماء وذهبت الوانه فشحب مصفراً بعد نضارته ثم ينكسر بفعل الطبيعة او الحصاد والدّرس. فالذي يتكسر بفعل عوامل الطبيعة فقد استحال حطاماً لا ينفع. وهذا ما يدعو الانسان المؤمن الى التفكير بمراحل حياة الانسان من ماء مهين الى شباب وقوة الى ضعف وشيبة الى موت ثم بعث. وهذه هي الذكرى لأُولي العقول السليمة. وكل هذه التقديرات لا يمكن ان تكون إلا من مُقدِّر واحد لا يملك قدرتَه غيرُه، ولا حول عن الزيغ ولا قوة على الثبات إلّا به.

أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (22)

انشراح الصدر هو انكشاف حقائق المعاني للعقول بلا لَبسٍ ولا حيرة بحيث يطمئن القلب بها فيتصرف من غير زلل او تخوّف من العاقبة. فمن شرح الله صدره للأسلام أي كشف له الحقيقة فهو مهتدٍ بنور الله (أي معتصم بالله تعالى بالطاعة) فيرتاح مطمئناً. اما من قست قلوبهم أي تصلبت في قبول الحق فإنهم لن يصيبوا العاقبة الحسنة لإنحرافهم عن الهدى بالإصرار على المعصية فضلُّوا ضلالاً مبيناً عن طريق الجنة الى طريق الويلات فويل (أي سوء العاقبة) لهم.

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (23)

ابتدأ المولى العظيم بإسمه فنَسَبَ إحسانَ الحديث اليه ليبين قدْر كتابه الكريم. فلا أحسن منه. فهو متشابه أي متماثل في رُقِيِّ سياقه وإعجازه مهما كان الموضوع

الذي يبينه، سواءً في الاحكام او العبادات او المعاملات، (غير التشابه المقصود في سورة آلِ عمران من تشابه النقائض لمن في قلوبهم زيغ). ثم اوضح المولى تفصيل صفاته (أي صفات القرآن) وتشابهه بالمثاني: فمن يقرأ القرآن بتدبُّر معانيه الشاملة وألفاظِه الْمُحكمة يخرج من ذلك وفي قلبه منتهى الاعجاب والتقدير مما لمسه؛ فهو من حيث المعنى يورد خبر الحقائق ويردفها بقصص ذات عِبَرٍ تُرَسِّخ معناها، ومن حيث التفاضُل بين الحق والباطل يقرن بين الاثنين كقوله تعالى (إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) وقوله تعالى (كَلّا إِنَّ كِتابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ) ثم بعدها يورد المقابل فيقول (كَلّا إِنَّ كِتابَ الأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّين)، ومن حيث المواعظ يورد ما اعد للمتقين في وصفه للجنة ويردفه بما اعد للضالين من عذاب جهنم، او يورد العذاب قبل النعيم. ومن حيث التلاوة يقع موقع الرضا مهما ثنّى القارئ وكرر فلا يَمَلُّ منه، ومن حيث التفاصيل تأتي تارةً موسعة وتارة موجزة في موقع لا ينبغي فيه إلّا ذلك كما أورد تعالى في سورة هود عديدا من الايات عن ثمود، ثم اوجزها في سورة الشمس بِسِتِّ آياتٍ قِصار، ومن حيث ترادف المعاني فيورد معنى بلفظ ويوضح تفصيله بلفظ غيره وهذا ما يبعث الخشية في متدبر التلاوة والمتمعن في معانيها. ومن علامات خشيتهم ان يشعروا بقشعريرة ترتعد في جلودهم ثم يليها لِيْنٌ في الجلد وتصديق في القلب فيلين القلب أي يذهب منه ما داهمته به الدنيا. وهذا من الهدى الذي يخص به المولى عز وجل اولئك الذين اخلصوا النية في التلاوة والتدبُّر من اجل التصديق والاتّباع. (ويجدر هنا القول بأنه لم يحدث بين الصحابة رضوان الله تعالى عليهم هياج ولم يبدر منهم الصياح بل رعدة جلودهم من الخشية ونزول السكينة عليهم عند سماع القرآن الكريم). ووردت تسمية الفاتحة: بـ(المثاني) فالفاتحة فيها الاعجاز باللفظ والمعنى في سبع مواضع فسماها المولى عز وجل (سبعاً من المثاني) كما جاء في الاية السابعة والثمانين من سورة الحجر مشروحة في هذا الكتاب والحمد لله تعالى.

أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (24) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (25) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (26)

تحصل مواجهة خطرٍ يقترب من الوجه بمبادرةِ اليدين لردِّهِ عن الوجه. ولكن الظالمين تُغَلُّ ايديهم فلا يتمكنون من وقاية وجوههم بها فيتقون سوء العذاب بوجوههم، وفي هذا ما فيه من فزع، فيقال لهم ذوقوا ما كنتم تكسبون. وقد أُذيق مَن كذَّبوا قبل قريش مفاجأة العذاب إذ لم يكونوا يصدقون بوقوعه معتزين بما كانوا عليه من مقام كريم. فأبدَلَهم المولى عز وجل عِزَّهم بِذُلٍّ وخزي تمثّلا بما ذاقه الذين أتاهم عذاب الخسف او المسخ او الجلاء عن الديار التي اعتزوا بمقامهم فيها. هذا خزي الدنيا ولعذاب الاخرة أكبر! فلو علموه لصدّقوا به ولآمنوا ولكن لم يعقلوه.

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (27) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (28)

تأتي الامثال لبيان المقصود بأيسر الأساليب. وقوله تعالى ((مِنْ كُلِّ مَثَلٍ)) هو من كل حال من احوال الهداية ومن احوال الضلال لعل الذين يبلغهم القول يفهمون المعنى فيكون لهم موعظةً يتذكرونها كلما استدعتها احوالهم. ونزل القرآن عربيا أي ينقل معاني كلام الله تعالى بألفاظ اللغة العربية ذات الوضوح فجاء لا لَبْسَ فيه. فهي اللغة المرجع في إيضاحه فتصيب تعابيرُها بمعانيها المحكمة في انفس من يبلغهم موقعاً بليغاً لعلهم ينجون من الكفر أي يتقونه بالتصديق.

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (29)

المثل مأخوذ من واقع الحياة اليومية لزمن نزوله ثم للعبرة لمن يبلغهم فقد كان ثَمَّةَ عبيد يمتلكهم أسياد؛ منهم من يملك عبداً، ومنهم من يملك اكثر، ومنهم من لا يملك. فأثار المثل في اذهانهم صورة عبد يشترك فيه اكثر من سيّدٍ واحد وليس بينهم

وفاق فهم متشاكسون أي متنازعون مختلفون هل يرتاح هذا العبد مثلما يرتاح الذي له سيد واحد يعرفه ويعرف كيف يرضيه. وهكذا المشرك يريد إرضاء اوهام الذين أضلّوه ووجهوه لعبادة اكثر من إلَه. وهكذا الموحِّد لربه الواحد الأحد يعرف قدره وكيف يرضيه. والمثل واضح فقال تعالى في ذلك الوضوح: الحمد لله، أي الحمد الذي لا يُحمَدُ به سواه أي كل الحمد لأنه لا إلَه إلّا هو ولكن اكثر الذين بلغهم هذا العلم لو فهموا هذه الحقيقة لآمنوا، ولكنهم لم يتحرَّوا عنها فلم يهتدوا إليها.

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (31) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (32) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (33) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (34) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (35)

عندما قال كفار قريش (شاعر نتربص به رَيب المنون) أي انه لا بد من موته وسوف يموت معه خبره! أتاهم ردُّ الله تعالى بأن ما ترقبوه له سيكون لهم مثله فهم في الفناء سواء، وهل يشمَت فانٍ بفان!؟ ولكن الذي بَدَرَ منهم لن يُترك سدى فسوف يُسألون اذ يخاصمهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيكون الحق معه عليهم. وكان حقه ان يصدقه من بَلَغَتْه الرسالة لأنه لم يأت بإفتراء فهو ليس بظالم بينما هم قد كذبوا على الله بإدِّعاء الشركاء وكذَّبوا بالصدق فهم في ظلم بالغ بكفرهم ولهم مثواهم الذي توعدهم به رب العزة في جهنم. اما الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فهو الذي جاء بالصدق فمن صدق به فقد دخل في وقاية من العذاب ونال من الله تعالى الكرامة بأن الذي يأمُلونه منه من رضوان وجنات سيتحقق لهم فجزاء احسانهم بالتصديق والعمل بنوره هو إحسانُه بتحقق وعده. وبذلك يكونون قد نالوا المغفرة بتكفير سيئاتهم ونيل جزاء الاعمال بالاجر على افضلها، أي يمنحهم رب العزة من أفعاله المغفرة، ومن صفاته الرضوان. وهذا ما

أمَلُوه منه في التصديق. وتشمل الآية خصومات اهل الايمان مع اهل الكفر عند الحاكم العدل سبحانه. وتطلق كلمة (ميّت) بالتشديد على من لم يمت بعد، وبالتخفيف على من تُوُفِّي.

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (36) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ (37) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (38) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (39) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (40)

بلغ الضلال بكفار قريش أن قالوا للرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأنهم يخافون عليه من آلهتهم أن تَخْبِلَه وتضُرَّه لأنه عابها. فأنكر المولى عز وجل عليهم هذا القول (الدال على بعدهم عن الاهتداء) فمع أنهم يقرّون بأن الله تعالى خلق السماوات والأرض، يخوّفون عبده بالذين من دونه! فيقول تعالى (أَلَيْسَ اللهُ بِكافٍ عَبْدَهُ)؟ وتوعدهم المولى بإنتقام منهم اذ ينصر دينه فلا يملكون لهذه الرحمة ان يمنعوها ولا تستطيع آلهتهم ان تمسكها. وجاءت صيغة آلهتهم بالتأنيث وبضمير المؤنث (هُنَّ) تهكُّماً بالكفار وما اشركوا به فلما سألهم عن قدرتها سكتوا فنزل قوله تعالى ((قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ)) وامره ان يقول لهم ((اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ)) أي على ما أنتم عليه من معاداة الدعوة للإسلام فإنه صلى الله عليه وآله وسلم عامل على تبليغ ما أُرسِل به والله تعالى ناصره فسوف يعلمون من تكون له العزة ومن يخزيه العذاب الذي لا خلاص منه.

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (41)

يبين المولى عز وجل في هذه الاية حق ربوبيّته ورحمته وحُكمِه وهُداه ومعرفتِه. فقد حوى القرآن إيضاح الحق لكل الناس ثم بين موقف الناس من كل ذلك. فإما منتفع وإما مُعرِض في تيهٍ يخطئ معه طريق الجنة. ويبين تعالى للرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأنّ موقفه التبليغ وتعليم الكتاب والحكمة والدعوة للهدى فإنه لا يملك القدرة على هداهم ولا يُسأل عن ضلالهم.

اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (42)

تثير هذه الاية اياتٍ في فكر من يرسل فكره في ملكوت الله تعالى. فالنفس لها يقظة تتنفس فيها وتحس وتدرك وتتحرك وما الى ذلك من مظاهر الحياة. فإذا نام الشخص يُقبَض منه الإحساس والادراك واغلب التحرك ويبقى فيه التنفس ونشاط اجهزة الجسم من قلب ومن هظم وتململ وتقلب وغير ذلك. اما اذا قضى الله تعالى على النفس بالموت فتتوقف كل مظاهر الحياة بغياب أسبابها. فأما وفاتها وهي نائمة فتكون بتوقف القلب وبالتالي تنطفئ اشعة الحياة. وآية اخرى هي سرعة اليقظة للنائم مما يدل على قرب اسباب الحياة لحواسه ومداركه منه كالمصباح الكهربائي الذي يفتح له التيار. آيات وآيات لمن يتفكر اكثر فأكثر والله تعالى يهدي من يريد الهدى الى وجهه فيحسب حساب ختام يومه ان يكون صالحاً راجح الحسنات فلا يدري سيُرسَل حيّاً ام يُقْبَض. وآيةُ الآيات قدرةُ المولى عز وجل وعلمُه بمن خلق وهو اللطيف الخبير.

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (43) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (44)

يُسفِّه المولى عز وجل عقول من توهّموا الشفاعة في من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ومن لا يعقل كالاصنام والاوثان ويوضح لهم بأن الشفاعة منوطة برضا الله سبحانه فمن علم الله تعالى ان الشفاعة تنفعه لإنابته وايمانه فإنه يأذن بالشفاعة له.

والمسلمون مُبشَّرون بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما صدّقوا وآمنوا. وما الشفاعة إلّا مظهر من مظاهر ملكوت الله تعالى في السماوات والأرض وتحمل دلائل رحمته يوم الرجوع إلَيه.

وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (45)

عندما يكون الذين يكذِّبون بالبعث بعد الموت وبالساعة وبما بعدها من حساب وجزاء في حال من الإنبساط، ثم يسمعون الذين آمنوا يرددون الشهادة (لا اله الا الله) وليس فيها من ذكر لآلهتهم، ينقلب حالهم الى إنقباض! فإذا رأوا او سمعوا من يتقدم للاصنام بالإلتماس او بذكرهن بالتعظيم تعود حالة الانبساط اليهم اذ يرون ان هناك من يجاريهم في شركهم وتكذيبهم بالبعث.

قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (46)

المؤمن باليوم الآخر يعلم ان الحكم العادل والفتح والفصل بين العباد سيحصل. وان الله تعالى سيبيّن لأهل الكفر أنّهم كانوا كاذبين. وبذلك تطمئن قلوب المؤمنين. وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله تعالى عنها قولها: "كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا قام من الليل افتتح صلاته: ((أللهمّ ربَّ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ فاطرَ السماوات والأرضِ عالِمَ الغيب والشهادة انت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختُلِف فيه من الحق بإذنك انك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم))". وروى الامام احمد رحمه الله عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ((من قال اللهم فاطر السماوات والارض عالِمَ الغيب والشهادة إنّي أعهدُ إليك في هذه الدنيا أني أشهد أن لا إله إلّا أنت وحدك لا شريكَ لك وأن محمداً عبدُك ورسولُك فإنك إن تَكِلْني إلى نفسي تُقَرِّبْني من الشر وتُباعِدْني من الخير وإني لا أثق إلّا برحمتك

فاجعلْ لي عندك عهداً تُوفِّيْنِيهُ يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد، إلّا قال عزَّ وجلَّ للملائكة يوم القيامة إنّ عبدي قد عَهِدَ لي عهداً فأوفوه إيّاه فيُدخِلُه اللهُ الجنة)).

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (47) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (48)

الظلم هنا متعلق بالنوايا وما يدخل في حسبان الانسان. فمن حسب انه يُحسِن صُنعاً عندما يعمل لغير وجه الله تعالى، او يتوجه بالطلب من غير الله تعالى وهو غافل عن إفراد المولى العزيز بالمقاصد، فان الشدة التي لم يَحسِب لها حساباً يوم القيامة سوف تتبعه. فلو مَلَك ما في الارض لتَخَلَّى عنه كفدية للخلاص من العذاب. فقد كان يعمل من أجل ما في دنياه وليس من اجل ما في الاخرة. وتظهر مكاسبهم السيئة محيطة بهم لا فَكاك منها وقد استهانوا بها، وهم الذين أخبر تعالى عنهم في سورة الكهف في الاية المائة والآيات الْخَمسِ بعدها بأن أعْيُنَهم كانت في غطاء عن ذكره تعالى واتخذوا من دونه أولياء وأنهم كفروا بآيات الله ولقائه واتخذوا آياتِه ورُسُلَه هُزُوا.

فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (49) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (50) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (51) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52)

الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم حال ثابت في العبودية مع الله تعالى في السراء والضراء: بالشكر والصبر في طاعةٍ وبُعدٍ عن المعاصي. اما الانسان البعيدُ عن الإيمان، السيئُ عملُه فإنه يلجأ الى الله تعالى في الضرّ وينساه في الاعمال فيعمل لغير وجهه الكريم. وعندما يبتليه المولى عز وجل ليبين له الحجة؛ له أو عليه، في

الطاعة والمعصية، فيرزقه نعمة زائلة وهي نعمة المال والجاه يوفّران له ملذات الهوى الضال يقول الغافل بأنها اختصاص بعلم من الله تعالى لفضله بما عنده من علم. ولكن الله تعالى يبين له ان ما رزقه هو ابتلاء في إظهار طاعته ومعاصيه. وان ادعاءه بتكريم الله تعالى إياه على علم هو مجرد قول قاله أمثال قارون ممن هلك عنهم سلطانهم الذي لم ينفعهم ساعة الهلاك ووقعوا في شر اعمالهم وقد فقدوا القدرة على النجاة بأي ثمن او جهد. فليعلموا ان الله تعالى يبسط الرزق لمن يشاء ويزوي الدنيا عمّن يشاء لتمييز من شكر وصبر عمن بطر او كفر. فهنيئاً لمن جعل كسبه من فضل الله تعالى سبباً لنيل رضوان ربه. فالدنيا مزرعة الآخرة.

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (54) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (55) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (57) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (58) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (59)

الاسراف يعطي معنى الغُلُوِّ في الشيء فإذا كان جناية على النفس فهو اسراف عليها بما يبعث فيها خشية العاقبة او الندم مع تذكّر الآخرة. وهذا لمن كان عنده الايمان بالله واليوم الآخر وعناهم الله تعالى بان خاطبهم (يا عبادي) فأمهلهم برحمته التي لا يقنط منها إلّا الكافر. والرحمة المأمولة هي العفو إلّا عن الشرك بالله وانه تعالى هو الغفور أي الذي يستر عظائم الذنوب فالمِغفَرُ هو ما يستر الشيء أي يغطيه ومنه جاء إسم غطاء الرأس (الْمِغفَر). فمن لم يفقد الايمان يحيى عنده الامل. والله تعالى عند ظن عبده به. وهنا ينبّه تعالى الى ضرورة الميل الى الحسنات وترك الميل الى السيئات فانها إن لم يعقبْ فعلَها الندمُ والتوبة أماتت القلب فاستساغ

صاحبه الضلال الذي يُفقِده حساب نفسه واحتساب العذاب الوارد ذكره في الايتين السابعة والاربعين والثامنة والاربعين السابقتين فعندها تكون مفاجأةِ العذاب حسرة على ما فرَّط وتقام الحجة عليه في تكذيبه بآيات الله التي دعته الى أن ينيب ويسلم له فلم يفعل بل استحب الكفر بنعمة الله وهذا ما أسلمه إلى اليأس. فالإنابة رجوع إلى الفطرة ولكن الانغماس الى نهاية العمر يفوّت فرصتها.

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (60) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (61)

هذا الكذب يقصد به الشرك اذ يكذبون على الله تعالى اما بتجسيمه، او نسبة الولد اليه، او مساواته مع مخلوقاته، او ينسبون اليه ما لا ينبغي ان يكون من صفاته سبحانه. وهذا من تكبرهم الذي ينقلب سواداً في وجوههم يوم القيامة. أما من اتخذوا التوحيد والعمل الصالح وقاية بنبذ الرذائل فينجُون بإذن الله تعالى بهذا المكسب من النجاة أي إبعاد السوء عنهم واذهاب الحزن عنهم.

اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (63) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (64) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (65) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (66)

عناصر الطبيعة، وإنْ تحدّد عَدَدُها فهي الاصل في الاشياء. وإذ خلق المولى عز وجل هذه العناصر فمعنى ذلك انه قد خلق كل ما يحصل من إختلاطها وتفاعلاتها مع بعضها البعض، ومن تداخل جزيئاتها وانفلاق ذراتها وما الى ذلك مما توسع العلم في اغواره بدراسة خواصها فهي مسخرة له في الآلات المدمرة. ولكن الله تعالى لم يترك ذلك بدون ان يكون مهيمناً على ما يحصل او ينتج. فلا يخرج شيء إلّا بعلمه ولا يحصل خير إلّا بتوفيقه ولا نصر إلّا من عنده. ومقاليد (جمع مِقْلَد) أي مفاتيح كل ذلك بيده. فمن نسب لغير الله تعالى أثراً لمخلوق سواه فقد بلغ جهله

حد الكفر بآياته تعالى الدالة على بديع خَلقِه وسَعة مُلكه ووكالته على كل شيء. وهذا كفر فيه خسران الآخرة. وكان من جهل كفار قريش أن اقترحوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان يجعل لآلهتهم نصيباً من العبادة مع عبادة الله تعالى لكي يتفقوا معه! فأنكر المولى تعالى ذلك وامره ان يقول لهم ((أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الجَاهِلُونَ))؟ ويبين تعالى أن عبادة غير الله لا يمكن أن تحصل من الانبياء عليهم الصلاة والسلام اذ أنّ ما اوحي إليهم هو إخلاص العبادة له سبحانه وتحذير من الخسران والتوجُّه بالشكر له جل وعلا وليبلِّغوا الناس بفضل العبادة والشكر.

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (67)

تجاهل الكفار عن الله تعالى عظمته في وحدانيته وقدرته وصفاته الحسنى. ولم يعطوا من أنفسهم حق قَدْرِهِ الحميد العظيم. ففي التقدير الذي كانوا عليه هو أنّ لله تعالى أصابعَ يحمل عليها الخلق! فكان سبحانه في معتقدهم الباطل ذا جسم. فبيّن تعالى ان من كان بصورة البشر لا يمكن ان يهيمن على السموات والارض. فالارض يوم القيامة قبضة ربها أي لا يخرج منها شيء عن قهره وسلطانه. وتكون السماوات غير السماوات فقد تغير كل ما عرفوه عنها واصبح طي المجهول لهم. فكيف لغيره ان يكون له شريكاً في كل هذا القهر وهذه الهيمنة ولا سيما وان قسماً من اهل الكفر نسبوا الهيمنة على البحر لشريك وعلى السحاب لشريك وعلى الريح لشريك وعلى الخْصْبِ لشريك وعلى الحروب لشريك وهكذا! شركاء مُتَخَيَّلون من أوهام الشياطين.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (68) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ

بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (69) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (70)

الصعق هو اول الموت والمدخل اليه عندما يأمر الحي القيوم اسرافيل عليه السلام بالنفخة الاولى فَيُصعق عندئذٍ من في السماء والارض إلّا من شاء ربك وهم المؤجل موتهم الى موعدٍ غير هذا مثل حَمَلة العرش والملائكة المقرّبين وحارس الجنة وخازن النار والآمنون من الفزع الأكبر. وجاء ذكرهم في التفاسير من غير الإشارة إلى سند في السُنّة ولكن يُقوِّيه الاستثناء كما تقويه الإشارة إلى واجبات أولئك الملائكة عليهم السلام، وإلى المحسنين المقصودين بالاية التاسعة والثمانين من سورة النمل ((..وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَومَئِذٍ آمِنُونَ)). ثم يقبض المولى الباقين. وكما كان تعالى هو الاول فهو الآن الآخِر. ثم يحيي الله تعالى اسرافيل لينفخ النفخة الثانية فإذا الخلائق قيام ينظرون. ويوصف العدل الرباني بالنور اذ يتجلى سبحانه عادلاً لا يظلم أحداً. فتشرق الارض، وهي أرض المحشر، بنور الله تعالى عدلاً وإنارةً. فلا يبقى فيها ظلام كما لا يبقى فيها ظلم. ويوضع الكتاب أي صحائف الاعمال واللوح المحفوظ ويؤتَى بالنبيين فيشهدون على حصول التبليغ لإقامة الحجة على المبلَّغين. ويؤتى بالشهداء، وهم الذين رضي الله تعالى عنهم بإقامة الدين وإن اقتضى ذلك قتلهم في سبيله كما حصل للحسين عليه السلام. فيكونون حجة على الناس وبعد القضاء بالحق تُجزى كل نفسٍ بما عملت فلا تُحاسب إلّا في حدود أعمالها التي لا يخفى منها على الله خافٍ.

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى

وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (71) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (72)

بعد إستحقاقِ الكفارِ عذابَهم في جهنم يساقون اليها جماعات. وفي التفاسير شرح لأحوالهم الشقية وما ينالون من شدة وعنف حتى يُدَعّون أي يُدفَعون الى نار جهنم دعّاً وقد فتحت ابوابها حال اقترابهم منها ويبادرهم الخزنة وهم غلاظ شداد يسألونهم: "ألم تأتِهم رُسُلُهم برسالات الله تعالى وكُتُبِه وبإنذارهم تحذيراً من هذا المصير"؟ فيؤيدون ذلك فيقولون: "بلى". ولكنهم إذ كفروا بالحق لَمّا جاءهم حقّ عليهم العذاب الذي أُنذِروه. وهكذا يشهدون على أنفسهم فيُقال لهم أُدخلوا أبواب جهنم (ولكل صنف باب حسب عذاب أهله) من غير ان يكون لهم مخرجٌ منها في خلودٍ هو مثوى الْمُتكبرين عن آيات الله. ويلاحظ هنا أن عصاة المؤمنين الذين تدركهم الشفاعة غير مشمولين بصفة هؤلاء الكفار الذين يقال لهم ((ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا)).

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (73) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (74)

ويُساقُ الْمُتَّقون (سَوقَ دلالة وتكريم) على رواحل (أي ما يركبه الناس في الرحيل) نحو منازلهم في الجنة فإذا وصلوا اليها، وابوابها مُفَتّحة، سمعوا سلام الترحيب من الملائكة. و(الواو) في (وفتحت) ليست للعطف بل واو إبتداء لجملة اعتراضية بان ابواب الجنة مفتحة لقوله تعالى ((جَنَّاتُ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ)) أي وابوابها مفتوحة بعدما استفتحها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو اول من يُفتَحُ له قبل كل أُمة فقد روى الامام احمد عن انس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم قوله: ((آتي باب الجنة يوم القيامة استفتح فيقول الخازن: من انت؟ فأقول محمد فيقول بك أُمِرتُ ان لا أفتح لأحدٍ قبلك)). ورواه مسلم ايضاً عن انس رضي الله تعالى عنه. فتكون الابواب مفتوحة اذا جاء المؤمنون دخلوها فيقال لهم ((سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)). وكلمة طبتم أي اصبحتم لائقين لطيب الجنة. وقد طابوا من تطهرهم من دنس المعاصي بصدق التوبة وطلب المغفرة في الدنيا فناسب طهرُهم طهرَ الجنة فيذكرون الرب جل جلاله الذي تفضل عليهم بالطِيْبِ في الدنيا والجنة في الآخرة. فيقولون: ((الحَمْدُ للهِ الّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ)). نفّذ وعيده في الكافرين وانجز وعده للمتقين. فالآخرة دار كرامة وجزاء فيجدون في ارض الجنة متسعاً لرغباتهم ونعيمهم لا يعارضهم في ما أُورِثوا منها غيرُهم. فنعم اجر العاملين. أي الذين عملوا صالحاً في ما آتاهم الله وصبروا على مشيئته في ما سوى ذلك.

وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (75)

(ترى) عندئذٍ (هنا معنى ترى: اخبرك عن موقف) الملائكة فإنهم قد أحاطوا العرش متلذذين بالتسبيح بحمد الله تعالى. وقُضِي بين الخلائق بالحق فقيل (والقول للخلائق): الحمد لله رب العالمين. وطاب لأهل النعيم ما قُضِيَ لهم به فكانت دعواهم فيها سبحانك اللهم، ((وآخِرُ دَعْوَاهُم أنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ)). بدأوا بالحمد عبادةً وشكراً في الدنيا ونالوا سرورهم به في الآخرة.

سورة غافر

وتسمى ايضا سورة المؤمن

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (1)

وتقرأ : حا، ميم. وسبق الكلام على المقطعات. وهي هنا بداية ما اسماهن ابن عباس رضي الله عنهما (آل ح~م~) وهي سبع سور نزلت بمكة. ويكره تسميتها: (الحواميم). ويسميها العامة (حاميمات) ولا كراهة في ذلك. وقد روى ابو داود والترمذي ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ((اذا بُيِّتُّم الليلةَ فقولوا: حا ميم لا يُنصَرون)) أي اذا بوغِتّم ليلاً من قِبَل عدوكم فقولوا ذلك. وفي رواية: (قولوا حا ميم، لا يُنصَرُوا) بالجزم بحذف النون جواباً لفعل الطلب: قولوا (حاميم)، وجواب الطلب: لا يُنصَروا.

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (2) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3)

نزل القرآن من الله تعالى ذي العزة المحيط علماً ويستر الذنوب ويقبل التوبة فمن ابى تلبيةَ أوامرِهِ والانتهاء عن نواهيه فالمولى تعالى شديد العقاب. ولا يكون الطَوْل أي الفضل والْمِنّةُ إلّا له. فلا إله إلّا هو. ويصار الخلق اليه يوم البعث. وقد كتب سيدنا عمر رضي الله عنه هذه الآيات الثلاث لرجل افتقده فقيل له هو في

الشام يعاقر الخمر! فكتبها له ودعاه لترك ما صار إليه والإقبال الى المدينة. فلما قرأها الرجل أخذ يكرر الآيتين ثم قال: يعدني ربي بالمغفرة وقبول التوبة ويتوعدوني بالعقاب! فتاب الى الله. وهذه القصة رواها عبد بن حميد وقال ان سيدنا عمر طلب ممن حضر الرسالة الدعاء لهذا الرجل. فلما قيل له عن توبته قال ((هكذا فاصنعوا اذ رأيتهم اخاً لكم زل زلة فَسَدِّدُوه ووثقوه وادعوا الله له ان يتوب ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه)).

مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (4) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (5) وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (6)

المجادلة في آيات الله من الكفار هي مُمَاحَلةٌ أي الجدل بالباطل. والباطل زاهق. فلا ينبغي الاغترار بما هم عليه من الدنيا فإنها زائلة عنهم كما زالت ثروات ومناصب عمن كذّب قبلهم من أقوام جادلوا الرسل بالباطل واستهزأوا بهم. فقد كان من كُفّارهم من هَمّ بقتل رسولهم الذي ارسله الله تعالى اليهم مبررين ذلك بمعارضة ما كانوا عليه من باطل فأخذهم الله تعالى إلى عقابٍ جاءت شدته بصيغة تعجب. وهكذا الذين كفروا إستحقوا من الله تعالى انهم اصحاب النار.

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (7) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ

وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (8) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9)

يكشف المولى الرحمن من أوجه رحمته ان جعل الملائكة المقربين انصح للمؤمنين. فهم، أي حَمَلَةُ العرش ومن حوله، مع تسبيحهم بحمد ربهم (أي تنْزيه ربوبيته تنْزيهاً مطلقاً) ومع تعظيم ما يُكشَفُ لهم من مشاهداتهم في قُربهم منه تعالى، يرجون لمن آمن بالله تعالى واليوم الآخر ان ينالوا المغفرة في توبة تضعهم على سبيل ربهم للنجاة من عذاب الجحيم، وان يدخلهم المولى جنات عدن، ويرفع منازل مَن يسألون عنهم من اقاربهم وازواجهم وذرياتهم اليهم لتقرّ أعينُهم بهم. والله تعالى في ذلك كله غالب بعزته حكيم في قدرته كما بين تعالى دعوة الملائكة المقربين من الله تعالى ان يوفق المؤمنين بحسن عنايته الى تجنب ما يبعدهم عن جنات عدن فيجعل لهم وقاية من السيئات وبذلك يجمع لهم اسباب الفوز بنيل رحمته. كما يظهر من هذه الايات لطف الله الخفي في ما يريده لمن يرجع اليه بالتوبة إذ ألقى محبتَهم في مشاعر الملائكة المقربين وسمع دعاءهم الذي الهمهم إياه للمؤمنين. وفي هذا ترغيب بالتوبة وطلب المغفرة والرحمة والمعافاة مما يبعدهم عنه.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (10) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (11) ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (12)

يُرجّح اغلب المفسرين ومنهم الطبري ان نداء الملائكة يحصل عندما يتبين للكفار حقيقة شركهم وكفرهم وذلك يوم القيامة فيمقتون أنفسهم بسبب ما كانوا

عليه في حياتهم الدنيا، فيقال لهم بأن مَقْتَ اللهِ تعالى إياهم حاصل منذ حياتهم الدنيا واكبر من مقتِهم أنفسَهم في الآخرة لانهم مَقَتُوها بعد حلول العذاب ومعرفة شركهم بينما كان المولى الجليل على علم بذلك قبل موتهم. وذلك بأنهم لَمّا دُعوا للإيمان به واحداً لا شريك له جحدوا هذا الحق وآمنوا باطلاً بالدعوة لغيره. فيقرّون بالذنوب ويطلبون الحياة الثالثة للخروج من الحياة الثانية فيأتيهم الجواب بأن ما حَلّ بهم حصل من حكم الله عليهم لرضاهم بالشرك وجحودهم التوحيد. فهذه السجايا لا تقبل التوحيد. أي أنهم لو رُدّوا لعادوا لما نُهوا عنه كما في الآية الثامنة والعشرين من سورة الأنعام.

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (13) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (14)

تنزيل الكتاب، وعقاب المكذبين، وتسبيح حَمَلَةِ العرش ومَن حوله واستغفارهم ودعاؤهم للمؤمنين، ومَقْتُ الله عزّ وجلّ للكافرين، وتوسلهم بالعوده الى حياة ثالثة بعد حياتهم الدنيا وبعثهم الثانية، كل هذا الكشف الرباني أورده المولى تعالى ليُرِيَنا آياته. كما يذكرنا برزقه الذي لم يكن لنا أن نناله لولا مشيئتُه سبحانه. فالسماء لا يمكن أن تُستَثْمَر بجهد الانسان مثلما تُستثمر الارض. واقتصر تذكّرُ ذلك على من يُنيب الى ربه أي يرجع بتوبةٍ الى الفطرة السليمة. وهنا لمن اناب يُطلب منه ان يدعو الله أي يجعل همّه كلَّه رضوان ربه وذلك باخلاص الدينِ له وحده بلا شريك يحجبه عنه ولو كَرِهِ الكافرون. وان بين المنيب (أي الذي يرجع الى الله تعالى) وبين الكافر الذي يغفل عن التوحيد بعدما تَبَصّره أي أبصر برهانه، فرقاً غير منظور هو حضور قلب المؤمن مع ربه في الرجاء والتوكل والتسبيح بالحمد أي كثرة الحمد

وطلب وجهه في كل ما أمر به مع الانتهاء عن مناهيه فلا سبيل للشيطان عليه. بينما غفل قلب الكافر فاتَّجه الى غير الله تعالى واتبع هواه وما زيّنَه له الشيطان في نفسه من قبيح فرآه حسناً.

رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (15) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (16) الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (17)

رِفعَةُ درجات العزة الإلهية لا يعلم مداها إلّا هو سبحانه. ويكفي للمؤمن ان لا يرى لغير الله تعالى أمراً أعلى مما أمَرَ الله به. فالدرجة الأرفع هي لأوامر الله تعالى. وهو ذو العرش، والعرش رمز لوحدانية السلطة؛ فالمعروف عن اقطار الارض لا يكون عرشان في مملكة واحدة. يلقي الروح من امره أي يرسل بالوحي أوامِرَه وحُجَجَه وبشارته ونذيره وما شاء من تشريع وحِكمَةٍ على من اصطفاهم من عباده ليبلّغوا ذلك للناس لكي يعرفوا ربهم واحداً لا شريك له فيعبدوه. وبعد هذا التبليغ ينذر يوماً يلتقي فيه الأوّلون بالآخِرين عند ربهم وذلك يوم لا مخبأ فيه لمن اراد التخفي. فالله تعالى لا يخفى عليه شيء. وقد نزع المولى جلت قدرته كل متاع خوّله لعِباده ويرجع الْمُلك إليه فلا يبقى لأحد سوى الجزاء فهم مقهورون بعزته في حسابه العادل وهو الواحد القهار. وعندئذ تعرض المكاسب الدنيوية موزونة بميزان الحق لحسابٍ سريع لا ظلم فيه. فتُجزى كل نفس على عملها عدلاً حقّاً. وسرعة الحساب هي حصول حساب كل الخلق في وقت واحد كحساب نفس واحدة وذلك على الله يسير فقد قال تعالى في الآية الثامنة والعشرين من سورة لقمان ((مَا خَلْقُكُم وَلا بَعْثُكُم إلّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ)). فالبعث يكون للحساب.

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (18) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (19) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (20)

الآزِفةُ هي القيامة التي تقع في يوم يراه الله قريباً. أي يوم انقطاع الناس عما يكونون فيه من متاع وعشيرة فتكون اذ ذاك القلوب مخلوعة لا تخرج ولا تعود الى مكانها وقد شدت ايديهم عليها أي كظموها كما يشد فم القربة وهو معنى الكظم. ولا يجد الكافر اذ ذاك حوله من كان يرجوهم لنجاته من صديق او وسيط يشفع له بل يجد أعماله الظاهرة والباطنة معروفة عند الله تعالى منها كل نظرة اخفاها عن غيره أي خائنة الأعين، وكل نظرةٍ خاطئة ارتضاها في قلبه ولم يطلع عليها الناس. وقد قيل (نظرةٌ لك ونظرة عليك) بحسب ما يقع في القلب فالأفضل للمؤمنين غضُّ البصر ودفعُ اثرها في الصدر بذكر الله تعالى. وهكذا الرجوع الى الفطرة السليمة. هنا مع معرفة الله تعالى ببواطن الامور وخفايا الصدور يتحقق الدليل بالحجة القائمة فيحصل العدل أي القضاء بالحق فيجازي الحسنة بالحسنى. واما أمْرُ السيئات فموكول الى مشيئة الله تعالى. ولا يمكن لمن ظنهم الكفار آلهة أن يقضوا بشيء. فإنّ معرفة الخفايا تتطلب علم الغيب ولا قدرة لمعبودٍ غيرِ الله تعالى أن يعلمه ولا سيما الأصنام والأوثان فهي لا تسمع ولا تبصر. والله تعالى هو السميع البصير.

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (21) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (22)

لقد عرف كفار قريش مصير من كان قبلهم في الكفر اذ كانوا يمرون في تجارتهم على آثار قوم لوط وقوم صالح وقوم شعيب وقوم هود وتتواتر اليهم اخبارهم كيف كانت عواقبهم. ومع ذلك فقد غفلوا عن تشابه واقعهم في التكذيب مع واقع اولئك الذين كانوا أشدّ قوة وعمارةً في الارض فلم يكن لهم لَمّا أخذهم الله بذنوبهم وقايةٌ أزاء قوّته تعالى. ولقد أتتهم رسلهم بالبينات أي (الدِلالات الواضحة) بلسانهم ومع ذلك كفروا بها فأخذهم الله تعالى أخْذَ قويٍ شديدِ العقاب. فليعتبر كفار قريش الذين جاءهم الحق مع سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (23) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (24) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (25) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (27)

الايات التي ارسل بها سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام مفصلة في سورة الاعراف. وأما الاشارة اليها هنا فهو لبيان الرؤية الخاطئة لها من قبل فرعون وهامان وقارون وامثالهم من آل فرعون. إذ اعتبروا الحجة الواضحة بالمعجزات سحراً كما رأوا قهرها وسلطانها على السحرة كذباً! فلما لم يستطيعوا قهر معجزاته بَيّتوا قتل ابناء الذين آمنوا به وإبقاء الاناث! ولكن الله تعالى القى في روع فرعون المحاذير من قتل موسى وسوءِ عاقبة ذلك على ملكه. ودليل ذلك انه خشي من ان يدعو عليه موسى عليه السلام فقال: ((وَلْيَدْعُ رَبَّهُ)) فلو لم يكن يميل الى الاعتقاد بصدق موسى عليه السلام لَما قالها. ثم ادّعى بأنه يحرص على دين آبائه ويخشى من ظهور

الفتن وفساد الحياة من جراء الصراع بين مؤمن وكافر. ولكن سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام بيّن بأنه لجأ الى الله تعالى مستجيراً به من هذا المتكبر الذي لم يتقبل الدعوة الى الايمان باليوم الآخر.

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (31) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (34) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35)

الرجل المؤمن من آل فرعون الذي كان يكتم ايمانه عن فرعون والمقربين اليه كان واحداً منهم بحيث يجلس في مجلس فرعون مع مَلَئِهِ أي اشراف القوم. وقد وجد الظرف مناسباً للنصح فقال متوخياً اقرب الكلام للمنطق الذي يفهمونه. ولم يعلن انه مؤمن بل جاء من باب النصيحة والاقتراح. فأوّل ما تطرق اليه هو قتل النفس بغير موجبات القتل حسب قوانينهم وشرعهم؛ فالذي يقول (ربي الله) لم

يرتكب ما يوجب القتل. والامر الثاني ان ما جاء به موسى عليه السلام من معجزات لا يكون من بشر لأنها قهرت السحر. والثالث أن الْبَتّ في أمرِهِ يستوجب بيان قيمة حقيقة قوله؛ إمّا ان يكون كذِباً، وفي هذه الحالة فإن كذبه لا يضرهم بل يضره ويكون وبالاً عليه، وإمّا أن يكون صِدقاً فإنْ لم يصدِّقوه ينالهم من العذاب بعض ما توعدهم به. والامر الرابع هو تأييد الله تعالى لموسى عليه السلام، إذ لو كان مسرفاً لما اهتدى الى عبادة ربه. وفي هذا تعريض لفرعون بأنه هو المقصود بالمسرف. ثم ذكّرهم المؤمن برفعة مكانتهم بين اقطار الارض فهم على خير بفضل الله تعالى. فإن اراد الله تعالى بهم خذلاناً فمن ذا الذي ينصرهم؟ وإنّ موسى عليه السلام يدعوهم الى من بيده النصر. وهنا قاطعه فرعون برفض هذه النصائح فإنه لا يكترث لرأيٍ غيرِهِ لثقته بأنه على سبيل الرشاد أي سبيل الصواب والصلاح. وعاد المؤمن ليذكِّرَهم بحالات مماثلة سبقت قريباً منهم ووصلت اليهم اخبارهم بتواتر عن هلاك مَن كذّبوا دعوات الرسل وهي نفس الدعوة التي جاءتهم. وهذا عذاب الدنيا استحقه أُولئك من غير ظلم. فالذي قدره عليهم هو الله المنزَّه عن الظلم سبحانه بعد ان كان دأبهم الإستمرارَ على التكذيب والإنكار والجحود. ثم بيّن المؤمن تخوُّفَه عليهم من عذاب أشدّ، أي عذاب الآخرة، فلا انقطاع له يوم التنادي يوم يُنادَى الشقي الى العذاب ويُنادَى السعيد الى الجنة، والظالمون ينادي بعضهم بعضاً بالتلاوم واللعنات فلا يجد احدهم ناصراً أو شفيعاً ولا يَجد عاصماً من العذاب. والذين كانوا في علم الله أنهم لن يؤمنوا فما هداهم ولا هادي لهم غيره. وذكّرهم المؤمن بما أنكروا على سيدنا يوسف الصديق عليه السلام فقد كان يدعوهم، مُتَفضِّلاً عليهم، الى عبادة الله تعالى فلم يكذبوه لكنهم كانوا في شك من دعوته

حتى اذا تُوُفِّيَ عادوا الى غَيِّهم في عبادة غير الله فأضلهم تعالى بسبب تجاوزهم الصلاح الى الفساد أي اسرافهم في امرهم وارتيابهم بغير يقين وجدلِهم بغير حجة فأبغضهم الله تعالى وأبغضهم المؤمنون. وهكذا يختم الله تعالى على قلب كل متكبر من الجبارين أي المتكبرين بالتسلط. وفي كل ذلك تعريض لحال فرعون وملئه المشابه لمن سبقهم من الهالكين.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)

وجد فرعون وسيلة لإبعاد شعبه عن تصديق موسى عليه الصلاة والسلام بأن يبني له وزيرُه هامان صرحاً أي بناءً شاهقاً يشاهَد من بعيد ليرتقي الى قمته مُوهِماً إياهم انه سيجد الاسباب أي السبل التي تمكنه من الاطلاع وهي هنا الطرق الى السماوات. وبذلك يستطيع ان يقول لهم بأنه طالما لم يجد إلهاً فيها فمن إدعى بوجوده فقد كذب عليهم. وهكذا رأى فرعون عمله هذا حسناً ولكن كيده هذا لم يُنجِه من التباب، أي الخسارة المخزية.

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (40) وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (42) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ

النَّارِ (43) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (44) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46)

لما رأى مؤمن آلِ فرعون تَمَرُّدَ قومِه على موسى عليه الصلاة والسلام دعاهم بنفسه معلناً إيمانه موضحاً سبيل الرشاد غير السبيل الذي اسماه فرعون سبيلا للرشاد. ثم فصّل لهم معنى كلامه بان الحياة الدنيا زائلة ولا بد من الرحيل عنها وان الآخرة قرارٌ لا رحيل عنه، وان الإساءة تسبب الجزاء بمثلها، وان صلاح العمل من كل ذكر وانثى مع ايمانهم بالله واليوم الاخر يسبب لهم الرزق الوفير الدائم في الجنة. وأن هذه دعوة للنجاة وسواها منهم دعوة للنار ففيها الشرك والكفر بالانقياد لمن لا تأثير له بينما دعوته لله العزيز بالغ المغفرة واليه المرجع الحتمي. فمن تجاوز الحد موغلاً بالكفر فالنار مصيره وهو من اصحابها. وسوف يذكرون عندئذٍ اثبات صحة النصيحة اذ يتحقق لهم ذلك ويذكرونه. واما المؤمن فقد برّأ ذِمَّتَه بالنصيحة وبلّغ قومه واسلم امره ومصيره لعناية الله الذي وقاه مكرهم اذ همّوا بقتله فلحقوه فأعاقهم الله تعالى بالامراض والاقدار ونجّاه مع موسى عليه الصلاة والسلام وقومه في عبور البحر. واما قوم فرعون بعد غرقهم فيُعرَضون على النار غُدوّاً وعشياً حتى تقوم الساعة وعندئذٍ يأمر رب العزة بهم الى اشد العذاب. وقد روى البخاري في التاريخ قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((اشد الناس ندامة يوم القيامة من باع آخرته بدنيا غيره)) وروى الطبراني عن ابي أُمامةَ قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((ان من شر الناس منزلةً يوم القيامة عبداً اذهب آخرته بدنيا غيره)) وهذا

متفق مع قوله تعالى ((أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَونَ اشَدَّ العَذابِ)) فانهم خسروا آخرتهم بدنيا فرعون.

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (47) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (48) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (49) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (50)

يذكّر المولى عز وجل بما سيكون عليه صنفان من المكذّبين برسالات الله تعالى يوم تقوم الساعة يدخلون النار؛ المستكبِرون من الرؤساء أمثال فرعون، والتابعون لهم في الحياة الدنيا. فيتخاصم التابع يومئذٍ مع المتبوع وقد كان مُستضعَفاً أمامَه، أمّا الآن فهو خصمه. فيقول الضعفاء للمستكبرين بأنهم قد أطاعوهم اذ دعَوهم للكفر فَلْيتحمّلوا عنهم قسطاً من العذاب. فيأتيهم جوابهم بأنهم يكفيهم أنهم في جهنم فقد حكم به الله تعالى بينهم. ويطلبون جميعاً من خَزَنَة جهنم الدعاء لهم ليخفف الله عنهم يوماً من العذاب. وهنا يسأل الخزنة هؤلاء المعذبين عما حصل منهم لَمّا دعتهم الرسل الى النجاة؟ فيقرون بكفرهم. فيقولون لهم (فادْعُوا) انتم. ولا يدعون لهم لأنهم يعلمون أنْ لا جدوى من ذلك وأنّ دعاء الكافرين يخطئ الإستجابة فقد سبق القول عليهم.

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (52)

يؤكد العزيز العليم نصرته لمن يرسلهم الى الناس (عليهم الصلاة والسلام) ولمن يؤمن بهم. فأما نصره في الحياة الدنيا ففي هلاك الكفار وإن نالوا بالأذى من الرسل واتباعهم إذ جعله المولى سبحانه إبتلاءً لعباده المؤمنين. وأمّا يوم يقوم الأشهاد فهو اليومُ الذي يشهد فيه الرسلُ والحَفَظَةُ على الظالمين الذين لا حجة لهم ولا تنفعهم المعاذير لِبُعد اسباب رحمة الله تعالى عنهم بما حل بهم من لعنة وما كُتب لهم معها من سوء دار الآخرة أي سوء العاقبة إذ لا راحة لهم بعدها.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (53) هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (54)

يبين تعالى ما حصل لبني اسرائيل بعد فرعون وآل فرعون انهم ورثوا ما في التوراة من هدىً وتذكرة للذين سلمت قلوبهم من قشور الدنيا فظهر لُبُّها فقيهاً يعرفون بصفائه الحق وهم قليل. ولم ينتفع بها أهل الغيّ الذين طغا عليهم حب الدنيا فكتموا بعض العلم من أجل متاعها.

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (55)

بعد هذا القَصَصِ عن سيدنا موسى عليه السلام، وما قاسى من فرعون وملئه وعن العاقبة التي كتبها الله تعالى له، يبين المولى تعالى أنّ وعده بنصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبنصر المؤمنين سيكون حقاً في موعد محكم التقدير. وفي إنتظار الوعد الحق يأمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلّم (وهو الأُسوة الحسنة) بالصبر والإستغفار والتسبيح اشارة لأُمته بأن تصبر لدينها وتستغفر مع التسبيح في اواخر النهار واوائل الليل وفي الفجر حتى يأتي وعد الله.

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آَيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (56)

الجدل والْمُماحَلة (أي الوقوف مع الباطل بغير حجة) يحصلان بدافع من الحسد والبغضاء وضعف التبصر والتخوف من إنتصار الإسلام وسلب الرئاسة من كفّار قريش مما يحرك الكِبْرَ في صدورهم ويكون هَمُّهم أن يحاولوا إظهار حق الطرف المقابل لهم على أنه باطل. وهذا لا يتحقق لهم. فيضمرون الشر للرسول صلى الله عليه وآله وسلم. فعليه ان يستعيذ بالله تعالى من شرورهم ومكرهم فالله تعالى هو الذي يبطل ذلك. وهذا الملاذ الرباني حصن لكل مؤمن يرى في اهل الشرك والكفر كبرياءً وجحوداً فيلوذ بالله تعالى منهم حتى ينصره الله كما وعد سبحانه.

لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (57) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ (58)

يبين المولى القدير لهؤلاء المجادلين في البعث بأنهم يرون ما لا يمكن إنكاره وهو عظمة خلق السماوات والأرض. وإنّ خلق الناس حصل من عناصر الأرض فهو إذاً أهون. وأيسر منه البعث الذي هو أهون من النشأةِ الاولى. واكثر الناس لا يعلمون. واما العالمون المؤمنون فقد تفتحت بصائرهم. فهل يستوى الجاهل والعالِم وهل يستوي المصلح والمسيء؟ فليذكر المؤمن اين موقعه من هذا العلم! وإن دليل مبلغه منه هو مبلغه من الإيمان والعمل الصالح بعيداً عن الإساءة فيه.

إِنَّ السَّاعَةَ لَآَتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (59)

تأكيد رباني بقيام الساعة لإقامة العدل. فأتى سبحانه بالبرهان على قدرته على البعث فجعل له ساعة لا يرتاب فيها أهل العلم وهم قِلّة مؤمنة، والكثرة في غفلة لا يؤمنون كأنما خُلِقوا عبثاً! قال تعالى في سورة المؤمنون: ((أَفَحَسِبْتُم أَنَّما خَلَقْنَاكُم عَبَثاً وَأَنَّكُم إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ)).

وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (60)

الدعاء يحمل في مضمونه عبادةً يشترك فيها القلب واللسان مع الشعور بالمهابة. وهذا ما يليق من العبد لربه الجليل. والاجابة تحمل في مضمونها الوفاء الرباني والتجلي على العبد بالكرم والحكمة الخفية؛ فإما أن يُعَجِّلَ له الإجابة، أو أن يدَّخِرَها له اذا كان ذلك اكرمَ له. فالدعاء عِبادة ودليل ذلك قوله تعالى بعد أن أمر بالدعاء: ((إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي..)) الآية. وأكد تعالى أن المستكبرين أي الذين لا تلين قلوبهم له جل علاه (مع علمهم ان الخير بيده) قد حجبتهم صفة التكبر في انفسهم وأدّت بهم إلى دخول جهنم مغلوبين. وينبغي أن يتخير المؤمن ما يدعو من أجله من مقاصد أن تكون في ما يرضي ربه تعالى ويقربه إليه ولا يطلب ما قد يطغيه في ضلال أي في ضياع. ومن آداب الدعاء: الحمد، والصلاة على النبي وآله الأطهار وصحبه الأخيار، والتسبيح. ويحفظ ضميره من المجاملة فيه. ويطلب الخير للمؤمنين والنصر للدين.

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (61) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (62) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (63)

النعماء اما ظاهرة مشكورة، او تكون مغبونة لا يؤبهُ لها. فالانسان ذو حاجة للكسب كما يحتاج للراحة بشكل متعاقب. ومن نعم الله تعالى ان هيأ أسباب الحياة على الكرة الارضية لتلبيَ الْمَطْلَبين في العمل والسكون بتعاقب النهار والليل. فالمؤمن لا يغفل عن حكمة هذا التقدير الذي يستوجب الشكر، أي يرى أن النعمة من الله تعالى فيحمده شاكراً. والغافل يعمل ويخلد إلى السكون ولكنه في شغل عن التبصر بنعم الله تعالى ثم الحمد عليها. ولو رجعنا الى المشركين الذين ينسبون الفضل لغير الله سبحانه وتعالى، مع إقرارهم بأنه خالق كل شيء، لوجدناهم من الغفلة عن تناسق وتكامل الخلق من هذا الكون بحيث جعلوا لله انداداً فوجهوا عبادتهم لهم فأدى بهم هذا الجحود الى الضلال الذي اراده لهم دعاة الصد عن التوحيد من شياطين الانس والجن. وفي هذا تحذير لكل من لا يهتم للعبادة الخالصة لله تعالى بأن يتبصر بنعمة الله عليه فيتوجه اليه بأعماله.

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (64) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (65) قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (66) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ

لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (67) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (68)

بعد ذكر دليل وحدانية الله تعالى في تتابع الليل والنهار، ينبه المولى عز وجل الى تفرده بالخلق في مُلكه وملكوته؛ في الارض يستقر عليها الانسان، وفي السماء وما فيها، وفي حُسْنِ تقويم الانسان، وفي تشريع الكسب الحلال الطيب لتمييزه عن الخبيث والحرام. فجعل الشعور بالرضا والراحة النفسية في الحلال الطيب، وجعل النكد في الحرام بوخز الضمير. فتبارك الله أي جعل النَمَاء مع الرزق ببركاته. وهو رب العالمين الحي وغيره يموت. وهو الإله وغيره ممن اسموهم آلهة اوهام باطلة فلا يُقصَد في الدعاء غيرُه، بل يكون الدعاء خالصاً في القلوب له بالإقرار بوحدانيته وبتنزيه ذاته من كل نقص. وقد خفيت هذه البينات على كفار قريش إذ لا يُعْقَلُ معها للرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يعبد وثناً او صنماً لهم فقالوا له "نعبد إلَهَك وتعبد إلَهَنا"! (كما جاء في الآية الرابعة والستين من سورة الزُمَر). فأجابهم على قَدَرِ عقولهم بالنهي والأمر المذكورَين وإسلامه لمن خلقهم من ترابٍ (المقصود خلق أبينا آدم عليه السلام) ثم جعل ذريته من نُطَفٍ وعَلَقٍ وينمي أجسامهم وعقولهم ونفوسهم بين الطفولة والصبا والشباب وتمام القوة أي (الاشُدّ)، ثم بعده تناقص القوة في الشيخوخة وهناك من يتوفاه الله تعالى قبل كل طور. ولكل انسان اجله المكتوب في اللوح المحفوظ يبلُغه بأمر الله تعالى. وكل هذا يستوجب الرجوع فيه الى العقل بقلب سليم متجهاً الى الخالق ومعرفة عظمة قدره وحكمة تدبيره في الحياة وفي الموت والبعث بعد الموت، وفي تنفيذ أمره بلفظة تدين لها السماوات والارض

والمخلوقات فتأتي طائعة لمشيئته مقهورة بإرادته سبحانه وتعالى فانما امره اذا اراد شيئا ان يقول له: (كُنْ) فيكون.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (69) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (70) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (71) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (72) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (73) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (74) ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (75) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (76) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (77)

الاستفهام هنا لإثارة العجب من كفار قريش الذين انصرفت عقولهم عن معاني الهدى ومقاصد العبادة مع وضوح الحجة بآيات الله تعالى فأخذوا يجادلون. والجدل هنا والذي قبله في الايتين الرابعة من هذه السورة وفي السادسة والخمسين منها كله في آيات الله الظاهرة؛ ففي المجادلة الاولى كان تصبير الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم ان لا يأبه لتحكمهم في امور الدنيا فمصير ذلك الى النار. فكانت دنياهم وما اترفوا فيها حجاباً عن قبول الحق. وفي المجادلة الثانية كان تصبير الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم ان يستعيذ بالله تعالى من شرور حسدهم وكبريائهم فقد اعمى الكفر أبصارهم وقلوبهم واصمّ أسماعهم وان مكرهم سيبطل بما وعد الله تعالى به بقوله (ما هم ببالغيه). وفي الثالثة، في هذه الآيات، كان تصبير المولى عز وجل لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم يتمثل في كشفِ مصيرهم وهم يسحبون إلى جهنم بالسلاسل والأغلال، (أي الاصفاد التي تشد

ايديهم الى أعناقهم) فيوبخهم خَزَنَتُها بالسؤال عن شركائهم أين هم الآن ليناودوهم للشفاعة؟ فيعترفون بوَهَم عقيدتهم ويدَّعَون بأنهم لم يشركوا ولم يعبدوا شيئاً! وبيَّن المولى سبب جدلهم في الدنيا مع ظهور الايات هو ترفهم ومَرَحُهم في الدنيا بما استحلوه لأنفسهم من كيد ومكر وتكبر أودى بهم إلى خلود في جهنم لتكون مثواهم. ويوجِّه المولى عز وجل رسوله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الصبر مع اليقين بالنصر وبأنه سوف يرى مصيرهم عاجلاً في الدنيا او آجلاً في الاخرة فإليه مرجعهم. وقد حقق له وعده في معركة بدر .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (78)

في الايتين الرابعة والستين بعد المائة والخامسة والستين بعد المائة من سورة النساء ورد نص مماثل عن رسل الله تعالى عليهم الصلاة والسلام وذلك عندما انكر إثنان من اليهود نزول أي كتاب على البشر من بعد موسى عليه السلام فجاءهم الجواب بِنُزول الزبور على داود من بعده. واما هذه الآية فإنها تبين ان الرسل جاءوا بالآيات بإذن الله تعالى للدلالة على صدقهم مثلما جاء القرآن والمعجزات النبوية الاخرى حجةً تُصدِّقُ سيدَنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم. فما لَهم يقترحون عليه آيات أُخَر؟ وفي الرسالات نُذُرٌ تسبق قضاء الله تعالى في الذين بلغتهم لكي ينجّي الله المؤمنين ويهلك الكافرين. وهذا هو الحق في هلاكهم نتيجة سلوكهم مع الرسالة وهذا ما قد حصل وخسر هنالك المبطلون، أي أعداء الحق. و((إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً)).

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (79) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (80) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (81)

في سورة الانعام وسورة النحل بيّن المولى عز وجل ما خلق من فوائد في الانعام وفي نعمائه الاخرى. وهنا في هذه الآيات تذكرة لمن يتجه برؤية الفضل والاثر لغير الله تعالى بأن يرجع الى التفكير في آيات الله تعالى في الأنعام. ولو تدبرنا في فوائدها لوجدنا انها منسجمة في احجامها مع الحاجة اليها في الركوب والاحمال مع طيب لحومها وفائدة اوبارها واشعارها وصوفها ومنافع جلودها. فالابل تصلح للركوب والحمل. والابقار للحليب والسمن والحراثة. والغنم للحوم الطيبة والحليب مع باقي فوائدها. وهذا ما لا يتوفر في الحيونات الاخرى. ويذكِّر المولى بفضله بما خلق من وسائل النقل النهري والبحري. وها نحن في عصر مخترعات الطائرات والقاطرات والعجلات الاخرى ذات الاصناف العديدة فما على العبد إلا ان يقرَّ لربه الجليل بالإيمان والتوحيد ويعمل لمرضاته بدلاً من إنكار آياته والجحود برسالاته وقد مضت اجيال جحدوا فهلكوا.

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (83) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (84) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (85)

الاثار التي تتركها الاقوام الغابرة تدل على نهايتهم ومن ذلك هلاك الذين كذبوا الرسل. ومن هذه الاثار ما يدل على حضارة وثراء وقوة. وتتواتر اخبارهم بعد هلاكهم لتكون عبرة. وإن خير من يخبر عنهم هو العزيز الحكيم الذي ارسل اليهم رسلاً منهم بآيات بيّنات تدعوهم الى عبادة الله تعالى وحده والايمان باليوم الآخر والإلتزام بتقوى الله تعالى فإذا بهم يبدون من الأعذار ما يبرّرون به رفضَهم التصديقَ والإتباع. ومن قبيل ذلك قيل لأحد الفلاسفة اليونانيين بأن هناك رسولاً يدعو الى الايمان والتقوى ويبشر بالجنة وينذر بالعذاب فقال: (نحن اناس مهذبون ولا نحتاج الى من يهذبنا)! أي فرحوا بما عندهم من علم الدنيا. ومن هذا القبيل من يربطه علمه بمكاسب الدنيا بينما علوم الدين تشمل العمل للآخرة وتجعل الدنيا مع تَقَدُّمِ علومها مطيةً لها. فحبذا العلوم لإعلاء كلمة الله تعالى. وهكذا قامت عليهم حجة الكفر حتى قُضِي عليهم الامر بالهلاك وأتاهم البأس كما جاء لفرعون الغرق وعندئذ يتبين لهم صدق الرُسل ولكن عندئذٍ لا ينفعهم الايمان. وهذا من شؤون الله تعالى في عباده وتحقيق الخسارة لمن استهزأ بالحق لما جاءه.

سورة فصِّلت

وتسمى: (حا ميم، السجدة)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3)

سبق الكلام على (حم) وتُقرأ: حا، ميم. وهي هنا آية تشير الى نزول القران الكريم ممن تجلى على عباده بالرحمة في افضل صُوَرِها فأنزل القرآن مفصّلَ الاياتِ عربياً. أي ببيان معاني آياته من معاني اللغة العربيّة ذات الوضوح. فهو رحمة لقوم يعلمون أنه الحق من ربهم ولينتفعوا بهداه.

بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (4) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (5) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (7) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (8)

القرآن يحمل البشائر بالهدى للمؤمنين إذْ سمعوا آياته المفصّلة فاتَّبعوا أحسنَها. ويحمل النذير لمن دُعوا فأعرضوا كأنهم لم يسمعوا، وكانوا أكثريةً في مجتمع قريش وقد نزل القرآن بلسانهم واضحاً مبينا ولكنهم وجدوا قلوبهم في أكِنّةٍ (تحت أغطية) تعزلهم

عن الدعوة، ووجدوا في آذانهم وَقْراً (ثِقَلاً) ورأوا من ذلك حجاباً بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فتَحَدَّوه بأن يعمل على تبليغ دعوته، ويعملون بِدَوْرِهِم على صدِّ الناس عنها. ثم وجهه المولى تعالى ليقول لهم انما هو بشر مثلهم يأتيه الوحي ليبين للناس وحدانية ربهم الواحد وهو الله تعالى بلا شريك. فليستقيموا إليه مستغفرين لِما أسلفوا من إشراك يأتي بالويل (بالشقاء) في الشرك ومنع الزكاة والكفر باليوم الآخر. بينما ينال المؤمنون الذين يعملون الصالحات اجراً غير مقطوع ولا منقوص.

قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (13) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (14)

إختار كفار قريش رجلاً منهم وهو عتبة بن ربيعة ليحاجج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويُغْرِيَهُ بالمال والجاه والسيادة عليهم على أن يترك دعوته. وهذا من حبهم لدنياهم فلم يهتدوا. فلما جاء إليه واخذ يحاججه تركه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حتى فرغ من كلامه، فقرأ عليه بداية هذه السورة الى قوله تعالى ((فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ اَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ))..الايات. وعاد الموفد الى

قومه خائباً حائراً في ما سمع ويدّعي انه لم يفهم سوى انهم منذَرون بصاعقة. وهكذا: بليغُ القوم يُخاطَب بلُغةِ قومه فلا يفهم! وكان في ما تلاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بياناً وافياً لهم لِما هم عليه من كفر بحق الله تعالى ومن أوهام عن القدرة في أصنامهم. فجاءت هذه الآيات لتنذرهم وتذكرهم بخلق السموات والارض واوامر الله تعالى فيهما وهم يجعلون له أنداداً! ويبين هنا سبحانه أنه هو الذي خلق الارض في يومين من أيّامه التي يعلمها هو وفي زمن سبق خلقها. فَعِلْمُ الله تعالى سابقٌ لِما اكتشفه العلم الحديث فلم يبينه لأهل زمنٍ لم تصل بهم علوم الطبيعة الى ما وصل اليه علماء هذا القرن بعدهم. ويكفي تذكيرهم بخلق الارض لكي يقتصروا على عبادة الخالق لإستحالة وجودِ نِدٍّ يخلق خَلقه. ومع هذا أشرك كُفّار قريش به سبحانه وكفروا بلقائه. ثم بين تعالى تصرفه في الأرض لتصلح لحياة الانسان عليها فجعل الجبال الراسيات في الارض حدوداً لتوزيع المياه فهي تصد الرياح المثقلة ببخار الماء فتسقط الامطار وتتوزع المياه حسب مسالكها وتختزن في اجوافها لتنبع وتسيل وتجري وتصب. فقدّر تعالى بذلك الأقوات والارزاق. واما السماء التي كشف فيها العلم اجواء الارض وطبقات الغازات وتركيب الهواء فقد جاء ما فيها مهيئاً لتكييف حياة البشر من ايصال اشعة الشمس ومنع بعض اشعاعاتها الضارة. وهكذا ينَبِّه تعالى على تقديره فيها وفي نظام النجوم التي تزين السماء ليلاً ويهتدي بها من يبحث عن الاتجاهات في البر والبحر بواسطة نجومها الثابتة والسيارة. فكانت السماوات والارض بهذه التقديرات طائعتَين لله تعالى لتهيأة اسباب الحياة والمعرفة وحفظ الانسان من اخطار محيطِهِ كالأشعة والضغط الناتج من ثِقَلِ طبقة الهواء. فالإشعاعات محجوبة بطبقة غير منظورة، وخطر الضغط مدفوع بضغط الدم

الذي يعادله. وهكذا يصل الانسان بالعلم الى العزيز العليم والى أن ينسب الأثر اليه وحده بلا نِدّ ولا شريك، وأن يَعبُدَه وحدَه فهو الذي بيده الخير من بركاته في الارض وهو على كل شيء قدير. ومع بيان القدرة المعجزة فقد اعرض اكثر اهل مكة وانذرهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعذاب كما جاء في تفسير الآيات الأولى. وذكّرهم بصاعِقَتَي عاد وثمود جزاء تكذيب الرسل الذين ارسلهم الله تعالى يدعونهم للهدى فكفروا وقالوا ((لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً) وكفروا بالرسالات. فأما نزول الملائكة فله شرح في غير هذه الآيات. ويبين الله تعالى كيف أخَذَ عاداً وثمودَ فقال:

فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (15) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (16) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (17) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (18)

في سورة الاعراف وسورة هود ورد ذكر قوم هود عليه الصلاة والسلام وهنا اوضح المولى بإيجاز استكبارَهم بما آتاهم الله من قوة في العدد وفي عُدّة القتال وفي الحصون التي كانوا يشيدونها فأتاهم ما أخزاهم وأظهر لهم مدى ضعفهم امام شدة قوة الله تعالى بعد أن كذّبوا. وفي تلك السورتين أيضاً وردت قصة ثمود قوم صالح عليه الصلاة والسلام. وفي هذه الآيات يبين المولى عزّ وجلّ فرحهم بما كانوا عليه من عمى القلوب فصدوا عن الهدى الذي يفتح القلوب إلى نور الله تعالى وينير السبيل إلى معرفة الخالق والوصول إلى حقه بأن يعبد وحده بلا شريك ولا نِدٍّ،

عبادة شكر ومحبة وعرفان بالفضل. ولكن ثمودَ تحدَّوا الوعيد الرباني فنالوا بما كسبوا صاعقة حذر الله تعالى بها (على لسان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم)كُفّارَ قريش الذين فرحوا بما هم عليه من شرك. واما الذين آمنوا من ثمود فإن الله تعالى كتب لهم النجاة تفضلاً منه تعالى.

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (20) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (21) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (22) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (24) وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (25)

يوم الحشر وما يناله فيه الذين وقفوا موقف العداء للرسل والرسالات تحذير آخر من النذر التي حذرت من خزي الدنيا والآخِرة. ويأتي الخزي من شهادة اعضاء المجرم على جرائمه. فيومئذٍ تقوم الزبانية بجمع من سبق ومن لحق من اعداء الله فيسوقونهم الى النار حتى يقفوا عليها عندئذ يظهر ما كان خافياً عليهم. فقد جعل المولى عز وجل منذ خلق الانسان اول مرة شهوداً على المكلفين من ذريته من انفسهم ينطقهم يوم يريد الكفار التنصل من جرائمهم التي ماتوا وهم يصرون عليها في عداء للرسالات التي بلّغهم بها الرسل عليهم الصلاة والسلام. فيشهد السمع على ما اسمعه صاحبه من كفر ارتضاه، ويشهد البصر على وظيفته مثله، وتشهد

الجلود مثل ذلك. وفي ذلك تقريعهم على تغافلهم عن رقابة الله تعالى وما في ذلك من إساءة الظن بالعلي القدير. وهذا ما سبب لهم التردي في النار وخسارة الجنةِ واكثر من ذلك خسارة رضوان الله سبحانه. فما يملكون من مخرج في مثواهم وقد قهرتهم القوة التي كفروا بها وناصبوها العداء. ولئن طلبوا العفو فماذا عليهم لو طلبوه في الحياة الدنيا لينالوه في الاخرة فما هم بمعتبين أي بمعذورين. ويذكّرهم تعالى بما سخروا به من الحق فيقول لهم ((إِخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ. إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ. فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُم تَضْحَكُونَ)). ومن كان هذا سلوكه في العداء والسخرية فان الله تعالى لا يعصمه من قرناء الجن والانس الذين يتسلطون على الكفار ويزينون لهم سوء عملهم الذي فعلوه، أي (مَا بَيْنَ ايدِيهِم)، والذي يصرون على فعله، أي (مَا خَلْفَهُم). فلا توبة بل آمال كاذبة واوهام باطلة للمستقبل فَيَحِقُّ القول عليهم أي يصدر الحكم العادل عليهم كما حق على الخاسرين من الجن والانس. ومن قبيل تسلط الكفار بعضهم على بعض يقول تعالى:

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (26) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (27) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (28)

قول الكفار هذا من زخرف القول الوارد في الآيتين الحادية عشرة والثانية عشرة من بعد المائة من سورة الانعام فما يُخدع به إلّا الذين زاغت قلوبهم فزين الشيطان لهم وأوهمهم بأن هناك طريقاً للغلبة في حربهم مع الله تعالى بأن يبادروا الى التصفيق والصفير والتخليط في المنطق اذا تلى عليهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم آياتِ

الله تعالى. ثم اذا سمعوا شيئاً اخذوا يعيبونه وينكرونه ويبدون عداءهم له فاستحقوا من الله تعالى العذاب الشديد وهذا جزاء الجاحدين بالحق.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (29)

بعد ان يئس اعداء الله من الإفلات من العذاب رجعوا الى ما سبب لهم هذا وهم الذين قالوا (لَا تَسْمَعُوا لِهَذا الْقُرْآنِ) ثم رجعوا الى من وسوس لهم من شياطين الجن فزينوا لهم سوء اعمالهم وأرادوا ان يصبوا نقمتهم عليهم فطلبوا من الله تعالى ان يسلطهم عليهم مثلما تسلطوا في الدنيا لكي ينالوا منهم بالأقدام ليذيقوهم هوان الأسفلين. ولكنهم قد حكم الله تعالى بينهم ونال كل منهم جزاءه فليس لهم ما يشتهون كأهل الجنة الذين يقول الله تعالى عنهم:

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (32)

قول المؤمنين: (رَبُّنَا اللهُ) هو عهد بتوحيده تعالى. و(إستقامتُهم) تنفيذٌ بإخلاص العمل لهذا القول. ودليل ذلك الطاعة ثم الثبات عليها فلا عودة للكفر ولا إلتفات الى ما يُعبَدُ من دون الله. والاستقامة رزق من الله تعالى لمن علم فيهم ان قولهم (ربنا الله) هو عزيمة على وحدانيته في نواياهم واقوالهم وافعالهم في اداء الفروض وبهذا يبشرهم المولى بالجنة المؤملة لهم من وعد الله تعالى. وتخاطبهم الملائكة ساعتها بانهم أي المؤمنون كانوا تحت رعايتهم بأمر ربهم جل شأنه طيلة حياتهم الدنيا

يثبتونهم ويسددونهم نحو التوفيق الى مرضاة الله تعالى ويمنعونهم من كيد اعدائهم. وهم الآن يؤنسونهم بدل وحشة القبر ويؤمنونهم عند نفخة الصور ويسددونهم على الصراط الى جنات لهم فيها ما يشتهون نُزُلاً من غفور رحيم، أي رزقاً منه يأمر به لأهل الجنة بعد مغفرته.

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (36)

الدعوة الى الله تعالى بالقول ممن يعمل الصالحات هي اقتداء برسوله صلى الله عليه وآله وسلم فهو الداعي الاول، فمن يعمل ذلك معتقداً قولاً وصدقاً بأنه من المسلمين فقد وصفه الله تعالى في المقام المفضل. وهذا التفضيل عامٌّ في من أمَر بالمعروف وعَمِل به ونهى عن المنكر وهو مجتنبه، وفي المؤذنين يدعون الى الصلاة والفلاح، وفي من يتولى مهمة الوعظ والتربية يدعو الناس الى الله تعالى. والفرق كبير بين ما هو حَسَنٌ في القول والعمل وما هو سيئ في التصرف. وأمَرَ المولى المؤمنين ان يتخذوا موقف الإحسان ازاء الإساءة ففي هذا وصول الى قلوب الذين اساؤا اليهم. ومن قبيل ذلك العفوُ عند المقدرة والكلمة الطيبة عند سماع الخبيثة. وان لا يبلغ ذلك حداً يتغاضى به المؤمنون عن الإساءة الى الدين. وهذا التصرف المتسم بالحِلْم يُبعِد نفخة الشيطان التي منها الغضب بالصبر ويدفع الجهالة بالتحلُّم ويدفع الإساءة بالعفو. وقد نزلت الآية فيما كان المؤمنون قبل الهجرة يتلقون الإساءات. وأمّا نزغ الشيطان (أي الوسوسة بما يبعث في الانسان ما لا ينبغي للمؤمن من غضب بل

يزيد السوء) فيُطرَدُ بالرجوع الى الله تعالى بالاستعاذة به منه. وقد ورد الأمر بالاستعاذة بالله من نزغ الشيطان (أي من حثه على السوء) في مواضع من القرآن ومنها الآية المئتان من سورة الاعراف ((خُذِ العَفْوَ وَامُرْ بِالْعُرْفِ وَاعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)). والاية السابعة والتسعون من سورة (المؤمنون) قوله تعالى ((ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ)) فما يلقى هذه المزية إلاّ من لم يغضب لنفسه وابقى غضبه لدينه وهذا من سُمُوِّ الحظوظ.

وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ (38)

من دلائل وحدانية الله تعالى ما يحصل في عِلم الانسان عن تعاقب الليل والنهار واختلاف اطوالها وتعاقب الشمس والقمر وما يتبع ذلك من تأثير على حياة الناس. فليس من المعقول أن يتجه المشرك الى المخلوق فيسجد له وينسى الخالق جل علاه. وهذا البيان دعوة للمشرك بأن يترك ما يسجد له من دون الله تعالى ويتجه الى السجود له سبحانه. والسجود دليل العبادة والقرب منه تعالى، فان استكبر المشركون عن السجود لله تعالى فهذا يضرهم وحدهم إذ يبعدهم عنه فلا يؤبه لهم. فالله تعالى غنِيٌّ عنهم. ومَن عنده (أي من كان من المقربين عنده) لا يسأمون عن التسبيح ساجدين قائمين قاعدين وعلى جنوبهم ليلاً ونهار وهم الذين

ينالون القسط الاوفر من رحمته ومحبته وعلمه وتوفيقه لمرضاته سبحانه. وفي هذه الآية سجدة تلاوة.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39)

أُستعير الخشوع صفةً للأرض المتعطشة للماء للدلالة على حالها فاذا أنزل المولى تعالى عليها الماء تحركت بحركة النبات في جذوره وسيقانه وتغير جفافها وربت أي إرتفعت مواضع النبت مما يدل على حياتها بقرب الإنبات منها بعد موت النبات فيها وجفافه. وهذا دليل ملموس على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى وعلى كل ما يشاء.

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (40) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (41) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (42) مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (43)

الإلحاد في الشيء هو أن تنسب حقيقته الحقة المبينة الى غير مقصدها كأن ينسب الكلام الى غير مقصد صاحبه. فآيات الله تعالى لها في قلوب المؤمنين تصديق وإعزاز فانه كتاب عزيز، ولكنها في قلوب من زاغت قلوبهم عن الحق بكفرهم وعنادهم لا يدركون برهانا لها ولا عزة! ((قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)). وهؤلاء هم اعداء الله تعالى وهو اعرف بأعدائه وقد كتب لهم النار يُلقيهم فيها خَزَنَتُها.

فهل يُفضَّلون على من كُتِبَ له الأمن من عذاب يوم القيامة؟ ولهذا لا يأبه المولى تعالى لمن كفر بالذكر. فلْيعملوا ما شاؤا فانهم لن يضروا بشيءٍ كتابَه العزيز المنيع المحفوظ. فما فيه من حق لا يمكن للنفوس الخبيثة ان تفهمه أو تُغَيِّرَه، ولا للعقول الضعيفة ان تحط من منزلته في قلوب الصادقين. فأحكامه محكمة، وحقه حق مبين لا يأتيهما باطل. فليس من جهة في الكتاب العزيز يمكن للباطل ان يأتي منها. ويصبِّر المولى عز وجل رسوله على كيد أهل الباطل وإلحادهم وعنادهم وما يقولون في دعوته فان ذلك قد قيل لمن قبله من الرسل عليهم صلوات الله وسلامه. وإنّ من شأن الله تعالى ان تُنَفَّذَ مشيئتُهُ فيغفر او يعاقب وهو ذو مغفرة وذو عقاب أليم.

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (44)

لم يرضَ الكفار بآيات الله تعالى لأنها لم تدخل قلوبهم العمياء مع انه قرآن عربي فصيح مبين فلو كان بلسان اعجمي لقالوا نريد معناه باللسان الذي نفهمه ولتساءلوا: "كيف وأن الذي جاء بالقرآن عربيٌّ، وقرآنه أعجمي"؟ أي بلسان غير عربي. فيجيب المولى هؤلاء الكُفّار على تعنتهم وعنادهم بأن القرآن مرشد للصراط المستقيم ويوجِّه المؤمنين عليه فلا يساور قلوبَهم شك او اساءة فهم. ولْيجعلوا همّهم في معانيه. فأما من لم يؤمن فقد ثقلت اسماعهم فلا تعي لأول وهلةٍ ما يُتلى عليها فتكفر به تعجلاً وتُلقِي ظلاً من الشك على معانيه فتعمى به بصائرهم ولكن سمعهم الذي صد عنه سيأتيه نداءٌ يوم يُدعَون الى الحساب فلا يفهمون ما فيه كأنه من

مكان بعيد ويبهتهم النداء بعدما لا يملكون رد البأس عنهم والرجوع الى الحق الذي صدّوا عنه.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (45)

يبين الله تعالى أن اختلاف الاقوام في ما بينهم على الكتب المنزلة قد حصل مِن قَبل. فقد اختلف الناس على التوراة فمنهم من قال هي حق ومنهم من دخل الشك في قلوبهم. ولم يعجل المولى عز وجل قضاءه بهلاك من كفر بالتوراة لِسِبْقِ أمْرِهِ بالفصل بينهم يوم القيامة. وهكذا يبين للرسول صلى الله عليه وآله وسلم سبب إمهال الذين كذّبوا ويبين له ان الكفار في شك يبعث الريبة في نفوسهم من القرآن فلا يتدبرونه ولا يتهيأون لقبوله.

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (46) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (47) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (48)

لعمل كل انسان عاقبة تعود عليه. فإن صلح عمله فقد انتفع به وان ساء عمله فضرره عليه. ولكن ما هو النفع وما هو الضَرُّ عند الله؟ النفع جنات والضر عقاب ولا ظلم في ذلك بل عدل بعدما بيّن لكلِّ عملٍ مصيره وذلك في بيانٍ لكلٍ منهم على لسان رسوله. ولا يخفى على الله تعالى شيء. وضرب لذلك مثلاً بأُمور تبين انفراده بالأُلوهية: فعلم الساعة لا يعلمه الا هو ولا يفوته خروج ثمرة من

اغلفتها أو ولادة المواليد. ومع هذا يشركون به. فهذا من سوء العمل الذي يُسألون عنه يوم التنادي. ويطلب في النداء منهم أن يأتوا بالشركاء المزعومين فيقولون (آذنّاك ما منا من شهيد) أي تعلم منا اننا الآن ليس فينا إلا من يشهد لك بالوحدانية. واما ما كانوا يدعون من شُرَكاءَ لله من دونه سبحانه فقد غابوا عن عقيدتهم. وهنا يكون ظنهم اقرب لليقين بأنهم ما لهم من مخرج من العذاب الذي حق عليهم وسيحل بهم.

لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (49) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (50)

عندما يخبر المولى تعالى عن (الإنسان) لا يشمل ذلك راسخي الإيمان. أما المخدوع في إيمانه فيفقده إذا يئس من رحمة الله تعالى حالما يمسه الشر. بينما كان قد ضج بالدعاء طلباً لِما يراه خيراً. كما يعود الى الكفر اذا كُشِف عنه الضر فينسب الفضل لنفسه! ومن كانت هذه شاكلته تلحقه ريبة في اليوم الآخر فاذا افترض حصول البعث من غير يقين فإنه يتوقع لنفسه الحسنى كما لقيَها في الدنيا وينسى سوء عمله وقنوطه وكفره. وهنا يخيب توقعه فَيُنَبِئُه المولى جل جلاله بما عمل من سوء في كفره فيقيم الحجة عليه ويأمر به الى عذاب غليظ، أي نكال شديد عليه.

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (51)

حالة اخرى من حالات الانسان في ريبته وحبه للدنيا تتمثل في موقف من يتصف بهما ازاء النعماء والضراء؛ فبدلاً من الرجوع الى تقدير العلي الحكيم، والشكر على نعمائه، وتوجيهها الى عبادته، وادِّخارِها للآخرة، واعتبارها ظلاًّ زائلاً لا يتعلق القلب بها، نرى هذا المتصف بالريبة والشك وحب الدنيا قد أبطَرَتْه النعمة ونأى بجانبه (تباعد بنفسه) عن ذكر الله تعالى وسارع اليه العُجْب والكبرياء. وأما في حالٍ من الشر تراه لا يصبر على تقدير المولى الحكيم في حَجْبِ بعض النعم عنه ولا يعتبر مشيئة الله تعالى من رحمته وحكمته، بل تهتاج نفسه في طلب الدنيا وزخرفها ويدخل بتلهف في دعاء متسع لم يكن يفعله من قبل. ولكن المؤمن القوي في ايمانه ودينه شكور صبور، وهمُّه همُّ الاخرة تاركاً ما يعيقه عن رضوان الله تعالى من الدنيا، اقبلت ام ادبرت، ما دام قد سعى في حدود الشريعة واتبع الصدق في مصدر ما يأتيه ومصارف نفقاته.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (52)

في هذه الآية تذكرة في موقف العبد المعاند مع ربه اذا كفر بما أنزل الله تعالى فماذا سيجيب ربه على موقفه من القرآن الذي قام البرهان على صحته؟ وهذه التذكرة لبيان حالة ضَلال الذين يشاقّون الحق أي ينكرونه متباعدين عنه مفضلين باطلهم عليه فيصفها المولى عز وجلّ بأنها حالةُ ضَلالٍ بعيد على قَدَر بُعد مشاققتهم له.

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (54)

السورة مكية قبل الهجرة وما كان يقع في بال المشركين فتح آفاق الدنيا للإسلام وفي أنفسهم في مكة. فأشار سبحانه إلى وعده من جراء تحطيم اصنامهم التي ستتهاوى تحت اقدامهم فيعلمون كم كانوا خاطئين وأن ما حصل لم يكن غائباً عن الله تعالى بل بتوفيقه فهو على كل شيء شهيد. وها هم آنذاك في مرية من لقاء ربهم فمن يتحقق له الحق ويبقي على الشك فإن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً فلا يخفى عليه صدق المؤمن ولا نفاق المنافق.

سورة الشورى

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (1) عسق (2) كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (4) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (5)

تقرأ الاية الاولى: حا، ميم. والثانية : عين، سين، قاف بدون وقفٍ بين الايتين. وقد فُصِلت هنا الأحرفُ الثلاثة الثانية بآية بينما في سورة مريم لم تفصل الاحرف الخمسة عن بعضها. ولله تعالى نبأ في هذه المقطّعات. فإن كانت خاصة بتعريف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقد مضى القول فيها، وإن كانت لنبأ مقبل فما هو بمؤثرٍ على العبادة والمعرفة. ويبدأ الْمَتنُ بعدهما بـ(كذلك)، أي مثلما أُوحِي الى الرسل من قبلُ فإن الله تعالى يوحي لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. والوحي من الله تعالى إلى الرسل عليهم الصلوات والسلام هو نُزول سيدنا جبريل بالآيات على قلوبهم كما قال تعالى في سورة الشعراء: ((نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ)). والوحي لغيرهم هو لتنفيذ ارادة الله تعالى كما أوحَى لأُمّ موسى عليه السلام وكما أوحَى الى النحل. وأمّا تكرار الوحي المتشابه في الكتب المنْزَلة فهو للتشريع والتنبيه للأزمنة التي أُوحِيَ فيها. ويبين تعالى ان السماوات والارض مُلْكُه وحده؛ تدل عظمة السماء على عظمته وصفاته المثلى، وتدل طبيعة الارض على لطفه بعباده وحكمته وكرمه ومشيئته بتهيأة اسباب الحياة

عليها. اما السماوات فلو كانت قد وعت عظمة الإله وصفاته لتأثرت وتشققت من جهتها العلوية كما قال تعالى في سورة الحشر: ((لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)) ولكن القرآن أُنزِل على أسْمى العقول ولا يُنْزَل على من لا يعقل. اما الملائكة فهم (عليهم السلام) ارباب عقول نَيِّرة لا تكدرها شهوات النفوس لتجرُّدها منها. وبهذا كملت صفاتهم بحسب ما خُلِقوا لأجله وحمدوا الله تعالى على ذلك وهذا تسبيحهم ثم استغفارهم لمن في الارض مما يشاهدون من ميل أهل الهوى للدنيا. والله تعالى هو الغفور الرحيم.

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (6)

الاولياء من دون الله صُوَرٌ من الشرك من دونه سبحانه. فمن عَبَد غير الله تعالى أي لجأ الى غير الله تعالى في النفع والضر نسب للشريك الأثر في ذلك او عبده ليقربه الى الله زلفى فان الله تعالى قد احصى عليهم افعال الشرك واقوالهم فيها رقيباً لا يفوته شي. واما موقف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم منهم فلا يسأل عنهم في ذلك بل هو نذير لهم لتقام الحجةُ عليهم.

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (7) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (8) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (9)

وهكذا كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نذيراً بلسان قومه لينذر اهل مكة (ام القرى) ومن حولها ليرجعوا عن عبادة الاوثان والاصنام الى عبادة مولاهم

الحق الذي سيجمعهم ليوم القيامة لا شك فيه حيث سيفصل بين الفريقين؛ اهل الجنة، واهل النار. وما على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ان يجعل الناس امة واحدة فلو شاء الله تعالى لفعل ذلك وله شأن يجعله قديراً على ذلك. ولكنه تعالى يتجلى برحمته الى الانفس الراضية المرضية. ويترك الظالمين الذين ظلموا نعمة العقل ما لهم من دون الله ولي او نصير. وهذا ما لم يحسب له حساباً من اتخذ شريكاً يعبده من دون الله. فالله تعالى وحده المعبود يُحيِي الموتى ولا يُعجِزُه شيء سبحانه.

وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (10) فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (11) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (12)

يتضح من هذه الآيات موقف المشركين من المؤمنين. فاختلافهم على الايمان مفوض الى الله تعالى. كما يتضح توجيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للمؤمنين بأن كتاب الله تعالى (ومنه سنته الشريفة) هو الحَكَم الذي اليه يُرَدّ الخلاف مهما تنوع بين اطراف المؤمنين. فحُكْم الله تعالى هو السداد الذي يسدد مَن توكَّل عليه واناب اليه الى صحة التصرف والاتّباع. هو الله الرب الواحد في سمائه وارضه فقد اوجدهما من العدم واوجد الانسان الاول اذ خلق آدم عليه السلام وخلق له من جنسه زوجة واعطاهما الذرية وجعل لهذه الذريات ازواجَ الانعامِ، أي الإبل والبقر والضأن والمعز زوجين زوجين تتوالد ذريتهم. فكما للبشر اجيال كذلك للأنعام. فليس من شيء إلّا وهو مخلوق من عناصر خلقها ولهذا قال تعالى (ليس كمثله شيء) ليعلم المؤمن ان الله تعالى علّمه ما تدركه عقول الإنس والجن في ذكره وذكر

نعمائه وشكره وعبادته. وحجب ما لا تدركه العقول من الإلمام بمعرفة ذاته الجليلة. اذ يكفي ان تدرك عظمة خالقها فتعبده سميعاً لذكرهم بصيراً بعملهم وخبيرا بنواياهم متولياً امور السماوات والارض مقدراً للرزق بحكمة وعلم وخبرة بعباده فلا يفوته شيء. وقد خلق العقول وقدَّر لها سعتها. وقال تعالى في الاية الثامنة والعشرين من سورة النساء ((وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا)). ولله مقاليد كل شيء كما جاء في الاية الثالثة والستين من سورة الزمر أي مفتاح كل امر من خيرات وأقدار السماء وكل امر من خواص الارض ومن ذلك الأرزاق يبسطها لمن يشاء وهي تخويل وامتحان، ويَقْدِرُها لمن يشاء وهي ابتلاء لبيان مكانتها في القلوب. فيعلم كل تصرف ونِيّةٍ يتعلقان بالأرزاق والنعم الاخرى.

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (13) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (14) فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (15)

التشريع الذي جاء وصيةً لأولي العزم من الرسل وهم نوح وابراهيم وموسى وعيسى وخاتمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وعليهم وآله وسلم يفسره تعالى بأن يقيموا الدين. وفسّر اقامة الدين بأن يدوم المسلمون على كلمة واحدة فاعِلَةٍ في نصرة الدين. واما المشركون في مكة فقد شق عليهم نبذ آلهتهم والاستجابة لاقامة

الدين. وبهذا كشف المولى عز وجل من استحق من جنابه الهدى لسلامة قلوبهم وفطرتهم. وكشف من قدّر عليهم الضلالة بعدما فضّلوها بديلاً عن طريق الرشاد. وهذا ما جرى على كل من بَلَغَتْه دعوة الرسل، ومنهم اهل الكتاب، فمن اتصف بالبغي والعناد فقد شق عليهم القيام بالدين واختلقوا المعاذير يبغونَها عِوَجاً أي بنوايا غير صادقة. ولولا ان الله تعالى قضى ان يؤجَّلَ حسابُهم الى يوم الدين لعجّل لهم الهلاك. ويبين المولى عز وجل موقف اهل الكتاب في زمن الدعوة المحمدية ومن سبقهم في الفترة التي سبقت بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبعد القرن الاول من كل رسالة بانهم ليسوا على يقين من امرهم بل مقلدون بغير دليل فهم في حيرة وشقاق. ولهذا، وتحذيراً لهذه الأُمة، أمر المولى تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ان يدعو لإقامة الدين أي الدوام عليه وهو الأُسوة الحسنة في الاستقامة على الدين فلا تؤثر عليه اهواء من يشاقق الدين أي يعارضه من اهل الكتاب. وبعد الاستقامة ومخالفة المختلفين وعَبَدة الاوثان في أهوائهم، بيّن المولى وصايا اخرى له في ختام هذه الآيات وهي أن يبين لأهل الكتاب إيمانه بما أنزل الله من كتاب، وأن يعدل بينهم إذا احتكموا إليه، وأن الله تعالى ربه ورب اهل الشقاق والشك، وأن اعمالهم لا تضره وهو بريء منها فله عمله ولهم اعمالهم، وأن لا داعي للخصومة بايراد الحجج فالحجج البيضاء لا تقاومها حجة، وان الله سيجمع بينه وبينهم واليه المصير. ثم بعد الهجرة شرّع المولى عز وجل مقاتلة اهل الكفر الذين يكيدون للإسلام. ثم بعد فتح مكة شرع تعالى مقاتلة مشركي الجزيرة، كما جاء في اول سورة التوبة، وشرع اخذ الجزية من اهل الكتاب والمجوس المقيمين في ارض الاسلام لكون الزكاة غير مفروضة عليهم.

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (16)

انتشرت الدعوة التي أُرسِل بها سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بين ظهرانيَ المشركين وهذا الانتشار هو الاستجابة للحق. فكانت إستجابة المؤمنين حجة على الذين حاججوا في الله عن خصومة وإنكار. وبهذا دحض المولى عز وجل حجتهم عنده أي اعتبرها باطلة لا تعرف حقاً مما أوجب غضبه فعذابه الشديد. وكانوا كلما علموا بإسلام أحدٍ يحاولون صدّه عن ذلك ولكنهم لم يفلحوا مع أي منهم مما اثبت لهم بطلان حجتهم. وقد قال تعالى فيهم في اول سورة (محمد) صلى الله عليه وآله وسلم: ((الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)).

اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (17) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (18)

المقصود بالكتاب هو ما أنزل الله تعالى من كُتُبِهِ. فقد نزلت بالحق أي بتعريف ما هو حق. واول ذلك حق الله تعالى في توحيده بالعبادة. وانزل الميزان. وللميزان دلالة على العدل والانصاف. واما قرب الساعة فتحذير بأن الشريعة قد نزلت والاعمال قد وُزِنت وحسابها كائن ولعله قريب. فمن لم يوقن بها لا يهمه أن يستعجل بها تحدياً وعناداً لأنه يعتقد غيابها. ومن آمن بها يَحذَرُها على وجل من سوء الخاتمة. واما المماراة أي الجدل الباطل في الساعة فقد بين المولى تعالى سببه

وهو التخبط في متاهات الجهل بعيداً عن الحق وعن تصديق القدرة الالهية في البعث بعد الموت رغم الدليل في خلق السموات والارض وإحياء الأرض بعد موتها.

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (19) مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآَخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (20) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (21)

اللطف بالعباد هو التصرف الخفي عن علم بالغيب لا يملكه إلّا الله سبحانه في تقدير وتدبير مصالح العباد بحيث يُخَيَّل لمن لا إيمان له ان الصدفة وحدها تحكم ما خَفِيَ عليه من تقدير. ولكن المؤمن يعلم أنّ ما جرى عليه كان بمشيئةٍ حكيمةٍ من ربٍّ حكيم. فمن كان همُّه كلّه همَّ الآخِرَةِ، أي يحسب لها حسابها في حرثِه أي كسبه ونفقته لينال رضوان الله تعالى، فإن الله تعالى يضاعف الحسنة بأضعاف كثيرة. ومن كان همُّه كله كسب الدنيا وفقَ هواه متجاهلاً الحساب على عمله فإن عطاء الله تعالى له من الدنيا غير محظور كما جاء في الايات الأربع: من الثامنة عشرة الى الحادية والعشرين من سورة الاسراء. فالآن وقد رضي المؤمنون بالشرع الذي أُنزِل اليهم فهل ثمة آلهة من دون الله تعالى يُشَرِّعون للظالمين ما لم يشرعه الله سبحانه فيُحِلّون الحرام ويحرِّمون الحلال بأهوائهم فتفسد حياتهم بقدر ما أحلّوا من حرام؟ حاشا لله. اذ ان الله تعالى احل الطيبات وحرم الخبائث ولا إله إلّا هو. وقد سبق القول منه أن يقضي بين الفئة المهتدية والفئة الظالمة يوم لا ينفع الظالمين فدية ولا معذرة. وها هو مصيرهم كما يبينه المولى عز وجل في الآيات التالية:

تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (22) ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (23) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (24) وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (25) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (26)

يبين الله تعالى حال الظالمين المنكِرين، الذين أهمّتْهم الدنيا اكثر من الايمان والعمل بالشرع، وهم في عرصات القيامة خائفين من عاقبة اعمالهم التي ظهر ووَضُح بطلانُها وسوء عاقبتها. وهذه العاقبة واقعة بهم لا محالة. بينما ينعم اهل الايمان والعمل الصالح (الذي يصلح لقبوله عند الله) في روضات الجنّات (والروضة هي البقعة الطيبة من كل جنة تطيب النُزهةُ فيها) وتُلَبَّى طلباتُهم من نعيمها. وذلك هو الفضل الكبير، أي أصل الفضل الذي يُبَشَّرون به. اما فضل الدنيا ففضلٌ فرعيٌّ ليس كفضل الاخرة. اما اجر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك كله فإنه لا يسأل من بشر أجراً فالأجر منهم منفيٌّ أصلاً ويستثني منه ان يكونوا من محبي عِتْرَتِهِ ولهم الاجر في ذلك. فمحبتُهم محبتُه صلى الله عليه وآله وسلم. وقد اورد المفسرون احاديث كثيرة عن المودّة في القربى أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم اخترتُ منها اكثرها ايضاحاً؛ فقد روى الامام احمد ورواه مسلم والنسائي حديث التابعي يزيد بن حيان اذ قصد، ومعه حُصَين بن مَيْسَرَةَ وعمر بن مسلم، قصدوا احد

اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورضي الله تعالى عنه وهو زيد بن ارقم قال يزيد بن حيان: "فلما جلسنا اليه قال حصين: لقد لقيتَ يا زيد خيراً كثيراً، رأيتَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسمعتَ حديثه وغزَوتَ معه وصلَّيْتَ معه. لقد لقيتَ يا زيد خيراً كثيراً. حدثنا يا زيد بما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا ابن اخي لقد كَبُرَ سِنّي وقَدُمَ عهدي ونسيتُ بعض الذي كنت اعي من رُسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فما حدثتكم فاقبلوه وما لا، فلا تُكَلِّفونيه. ثم قال رضي الله عنه: قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً خطيباً فينا بماء يدعى (خُمّاً) بين مكة والمدينة فحمد الله تعالى واثنى عليه وذكر ووعظ ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: ((اما بعد ايُّها الناسُ انما انا بشرٌ يوشكُ ان يأتيني رسولُ ربي فأُجيب، واني تاركٌ فيكم الثقَلَين؛ اولهما كتاب الله تعالى فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به)) فحث على كتاب الله تعالى ورغّب فيه وقال صلى الله عليه وآله وسلم: ((وأهل بيتي اذكّركم اللهَ في اهل بيتي)) فقال له حصين (أي لزيد) ومن اهل بيته يا زيد؟ ألَيس نساؤه من اهل بيته؟ فقال زيد رضي الله عنه ((نساؤه من اهل بيته، ولكن اهل بيته من حرّم عليه الصدقة بعده)) قال حصين: ومن هم؟ قال ((هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل العباس، رضي الله عنهم)) قال حصين: أكُلّ هؤلاء حرّم عليهم الصدقة ؟ قال نعم". وروى الترمذي عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال: "رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم في حجته يوم عرفة وهو على ناقته القصواء يخطب فسمعته يقول ((يا ايها الناس اني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا ؛ كتابَ الله، وعِتْرَتِي أهلَ بيتي))". ثم روى الترمذي ايضاً عن ابن عباس رضي الله تعالى

عنهما قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((أَحِبُّوا الله تعالى لِما يغذوكم من نِعَمِهِ، وأَحِبّوني بحب الله واحبوا اهل بيتي بحبي))". وفي تفسير النسفي عن السدّي قال: "انها المودة في آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نزلت في ابي بكر ومودّتِهِ فيهم" رضي الله عنه وعنهم. وهي عامة تكسب بها الحسنات. واما اقتراف الانسان فهو اكتسابه الناتج عن نِيَّته وعن فعله أو قوله الصادِرَين عنها. فمن يكسب حسنةً يُجازَى عليها بزيادة؛ أي إما أجر الآخرة في أضعاف وزيادة، وإما توفيق في الدنيا لحسنة أُخرى. فان الله تعالى غفور يمحو السيئة بالحسنة وشكور لأنّ طاعة العبد معرفةٌ لقدْر الله تعالى وتعظيمٌ له. ويعود المولى الى انكار موقف الكفار مع كل هذه الحجج البيضاء فيدّعون بأن القرآن ما هو الّا كذب منسوب الى الله تعالى من قِبَل سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. ينسبه الى ربه ليؤثر فيهم! ((قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)). وهنا يجيبهم المولى بأنه تعالى عليم بذات الصدور فلو حدث ما يدّعون فإنه تعالى لن يرضى لعبدٍ أن يأتي بقول من عنده فينسبه الى مولاه، بل يختم على قلبه أي يسد عليه منافذ الفهم فلا يتمكن من التعبير او الفهم. بينما القرآن حق لأنه يمحو الباطل. وهكذا يصل تعالى بهم الى حدٍّ مُقنِع ويدعوهم للتوبة فيبين انه يقبلها من التائبين ويعفو عن السيئات وهو العليم بها وبصدق التوبة. فأما من دخل الإيمانُ قلبَه وعمل الصالحات فهو المستجيب لهذه الدعوة ينال الزيادة في الفضل. والذين كفروا به لهم عذاب يتميز بالشدة.

وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (27) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (28)

جعل المولى عز وجل قارون وفرعون واغنياء عاد (قوم هود عليه الصلاة والسلام) عبرة في ما جرّ المال عليهم من كبرياء وظلم فقد بغوا في الارض. ولهذا يبين سبحانه ان رزقه ينزل عن خبرة بصيرة. وجعل خير العيش في ما لا يُلهي ولا يُطغي. وجعل من رحمته تعالى اليسر بعد العسر والغيث بعد قنوط العباد ووسع رحمته حتى شملت اوجه الحياة جميعاً. فهو الولي يتولى امور عباده بما يراه خيراً لهم وهو غني عنهم وهو الحميد الذي استوجب الحمد على كل تقدير.

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (29)

هذه الاية دلت ببلاغتها على عظمة الله تعالى فلا يحدها حدٌّ بعدما بيَّن شمولَ رحمته في الايات السابقة. فبين اولاً الخلق وثانياً نشر المخلوقات وتوزيعها حسب الاماكن؛ كالملائكة في السماء أو حيث يشاء، والبشر والحيوان في الارض، والجن حيث يكونون بمشيئته وعلمه. ثم بحسب الزمان والظروف التي مرت بأجيال تعاقبت وسَجَّلَ لها التاريخ حوادث حروبها وسِلْمِها. وبعد بيان هذه القدرة أيّدَ قدرته على جمع ما بث من دابة في السماء والأرض متى شاء سبحانه.

وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (30) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (31)

ومن ايات الله تعالى تقدير ما يصيب الناس؛ اذ جعل لكل مصيبة ما يسببها من تصرف الانسان. فهناك من يُغْضِبُ ربَّه تعالى فينتقم منه. فقد قال تعالى ((فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُم)). ولا يكون غاضباً الاّ بعد حِلم يعفو به عن كثير مما كسبت الايدي. وبهذا يضع المولى عباده امام الامر الواقع بان المقادير تجري عليهم مهما حاولوا الحذر من حدوثها إلّا إذا اتخذوا خشية الله تعالى واقياً مرشداً مطاعاً في امره ونهيه وعملوا على اعلاء كلمته في القلب والنفس والاهل، وفي ذلك نصرة الله تعالى فينال العبد ولاية ربه ونصرَه، وهو الولي النصير نعم المولى ونعم النصير.

وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (32) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (33) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (34) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (35)

صورة اخرى من الامر الذي ليس للانسان قدرة على التحكم فيه، وهو نجاة السفن في البحر. فمهما تحسنت صناعتها فانها تكون خاضعة لعوامل الطبيعة – ولا سيما الرياح – فاذا شاء المولى تعالى إغراق أيٍ منها ارسل عليها عاصفة من الريح ولا يكون ذلك الا نقمةً من كسب الانسان الخاطئ بعد ان يمده الله تعالى بعفو وحِلم فلا يشكر ولا يصبر. ففي النجاة آياتٌ لأهل الشكر والصبر. وفي الاية الاخيرة ردٌّ قاطع للذين يأتون بالباطل ليُماحِلوا به الحق (أي يريدون الجدل فيه تعنتاً) فانهم لا حُكْمَ لهم في الاقدار ولا مخرجَ لهم منها. ويوصلنا المولى العليم الى حقيقة كسب المتاع الزائل وكسب النعيم الباقي مبيناً عباده الذين عرفوا الحقيقة واتخذوا سبيل الرشاد وما أعظمها من آيات رشيدة لأُولي الابصار. فيقول سبحانه:

فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (36) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (37) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (38) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (41) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (42) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (43)

كشف المولى القدير آنفاً جانباً من أسباب تقديراته. وهنا يبيّن سبيل الرشاد الذي فيه الأمن والبشرى. فقد بين تعالى ما عرضه للانسان ليختار بين ما آتاه من متاع زائل وبين نعيم باقٍ أرشد إليه وامتدح من يتبع السبيل إليه؛ أولاً بالإيمان، وثانياً بالتوكل على الله ويعني ترك التوكل على النفس والاهواء التي تبعدهم عن الشريعة، وثالثاً بالثبات على منهج الله تعالى في السلوك اليه. ورابعاً بإجتناب كبير الاثم وهو الشرك، وكبائر الفواحش وهي الذنوب البالغ قبحها مبلغ الافراط ومنها الزنا الذي عُدّ من اعظم الذنوب بعد الشرك (كما جاء في شرح الاية الثانية والثلاثين من سورة الاسراء)، وخامساً بالحِلم فإذا غضبوا لأنفسهم تذكروا الله تعالى وولايته لهم وحاجتهم الى مغفرته فغفروا. واما الغضب لله تعالى فهو نصرة دينه بحسر المنكر ودرء المفاسد. وامتدح سبحانه الإستجابة له، ولا سيما قبل الهجرة (كإستجابة الأنصار فكانت استجابتهم تمهيداً لها وما كتب المولى تعالى لإعلاء كلمته). ثم إقامة الصلاة وفيها إدامة الصلة مع الله تعالى مع تكرر الأذان والدعوة للقائه. ثم ترك الإنفراد بالرأي لأنه من مسببات الأخطاء فأثنى على اهل التشاور

الذي يكون بين أهل الايمان فيهديهم المولى تعالى إلى ما يحب ويرضى. ثم الى الكرم في الصدقات والى ضبط النفس في الانتقام بحيث لا يتعدى الى غير الظالم. فاذا كان في الانتقام شمولٌ لغير مَن ظَلَم فهو تجاوز يستوجب ردَّه بالعفو والاصلاح. اما سيئةُ الظالم اذا قوبلت بمثلها فليس من سيئة في ذلك إلّا أن للإصلاح والعفو بعد المقدرة أجراً على الله تعالى لم يبين مداه. ويبقى على الظالم ما يستحقُّه من الله تعالى. ومن قبيل الظلم تجاوز حد الإنتقام. اما عذاب الله تعالى فيكون على الذين يظلمون الناس مستعينين بما عندهم من نِعَمِ الله تعالى فيبغون بغير الحق. وعلى النقيض من ذلك مكافأة الله تعالى بالحسنى لمن صبر حتى ينصره الله تعالى، ولمن غفر عند المقدرة. وهذا نَدْبٌ من المولى العلي للصبر على المكاره أي على ما لا بد من الصبر معه حتى يغيره الله تعالى. وعلامة الصبر أن لا يجزع العبد ولا يشكو فالله تعالى معه. وهذا من عزم الامور أي الرضا بمشيئة المولى تعالى.

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (44) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ (45) وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (46)

بعد أن بين المولى عز وجل ولايته ونصره لمن توكل عليه واتبع سبيله، يبين المولى مصير الظالمين وقد بدأ ظلمُهم بالخطوة الاولى نحو العصيان والجحود بآيات الله بلا توبة فأوجبوا على أنفسهم الضلال فلا هادي لهم مِن بعد الله تعالى. وفي أوّل مشهد للظالمين لما رأوا العذاب يُسمَع تساؤلهم عن مخرج للرجوع إلى الدنيا. ثم

في ثاني مشهد لهم وقد عرضت لهم جهنم تخشع قلوبهم من الذل يَستَرِقون النظر إلى ما أُعِدّ لهم، ولم تكن قلوبهم في الحياة الدنيا تَوْجَل لآيات الله سبحانه. أما المؤمنون فإنهم في الحياة الدنيا يرون ببصيرتهم مصير الظالمين. فإذا رأوه قد تحقق قالوا إن الخاسرين الذين خسروا انفسهم واهليهم يوم القيامة في عذاب ما للظالمين خلاص منه وما لهم مِن ناصرٍ من دون الله تعالى. وهكذا فما من سبيل لمن اتخذوا غير سبيل المؤمنين فأضلّهم الله.

اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (47) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (48)

بعد بيان مشاهد الآخرة يدعو المولى الى الإستجابة لربوبيته بطاعة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قبل أن يأتي يومُ قيامِ الساعة وليس من أحدٍ غيرِ الله تعالى بعد ذلك يستطيع ردَّه. وعندئذٍ لا يكون للناس ملجأ ولا مقدرةٌ على إنكار أفعالهم. ويحصل تصديق الكافرين بالبعث وقد كانوا ينكرون حصوله. وها هم كفار قريش مخيرون في هذه الحياة بين الاستجابة أو الإعراض. فإن أعرضوا يكُنْ موقف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم موقف الذي أدَّى ما عليه من بلاغ فلا يُسأل عن موقفهم بعده. ويبيّن المولى تعالى ما يكون عليه الناس الغافلون عن معرفة الله تعالى والايمان به فاذا جاءتهم نعمة منه فرحوا بها، ولكن اذا اساءوا التصرف بها وحَقّ عليهم كفرانها فأصابتهم سيئة بما قدمت أيديهم يصفهم تعالى بأنهم كفورون أي ينسون المنعم سبحانه.

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50)

من النعم الربانية هبات الذرية من الله تعالى الذي له الْمُلك وله الخلق وله الامر؛ إما يهب إناثاً، أو ذكوراً، أو من كلا الجنسين في آن واحد، او يجعل من يشاء من الرجال عقيماً فلا يولد له او من النساء فلا تلد. وليعلم الانسان أن كل ذلك يجري بعلم وبتقديرٍ حكيم من رب عليم قدير. وفي هذه الآيات اشارة الى أنّ مشيئة البشر في الذرية مما لا إختيار لهم فيه. فليس لمن يفضل الذكور أن ينجبهم بينما له الإختيار في حسن الظن بربه والرضا بما يقدّر الله تعالى له شاكراً إياه وصابراً.

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (51) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (52) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (53)

حصر الله تعالى تكليمه للبشر بأمره وبتقديره؛ فهنا وحي فيه معاني كلامه سبحانه كما أوحى لأمِّ موسى، ووحي مع جبريل عليه السلام كما نزل به القرآن، ورؤيا الانبياء وهي من الوحي كرؤيا إبراهيم بذبح إبنه عليهما السلام، او بإلهام من الله تعالى بفهم معنىً يورده على القلب. فقد روى ابن حِبّان في صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انه قال ((إنّ روحَ القُدُسِ نفث في رَوعي أنّ نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها واجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب)) أي ان الرسول

عليه الصلاة والسلام اذ يَرِد الى قلبه معنى واضح لا ينسبه إلّا الى الله تعالى لأن العصمة من خصائصه. وكلام في قوله تعالى ((مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ)) فمَثَلُه سماع سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام خطاب ربه فلما طلب رؤيته حُجِب عن ذلك. وإما أنه عز وجل يرسل رسولاً من الملائكة فيلقي بإذنٍ من الله تعالى الوحي لمن يريد الله تعالى الوحي اليه فالملائكة يفعلون ما يؤمرون ولا يفعلون ما لم يأذن به الله تعالى. وقد يكون الوحي تبليغاً لمشيئة الله كما حصل لمريم الصديقة ولأُمِّ موسى عليهما السلام والى يوسف الصديق عليه السلام في البئر وهو صبي. وكما حصل في تبليغ الرسالات الى الرسل. وهكذا كان الوحي الى سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم لآيات القرآن الكريم فلم يأتِهِ برؤيا ولا بِنَفْثٍ في الرَّوع بل بفصيح القول من سيدنا جبريل عليه السلام الذي كان يراجعه بالقرآن مرة كل سنة وفي السنة الاخيرة مرتين. واما وحي الروح من امر الله تعالى فالروح هنا هو القرآن، فقد احيا الله عز وجلّ به قلوب المؤمنين وبيّنه تعالى بأنه الكتاب، وان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ما كان يدري ما يحتوي عليه القرآن ولا تفاصيل الايمان على سعة معناه. وبهذا جعل الله تعالى الكتاب نوراً منبعثاً من المصحف باللفظ والكلام البليغ المبين وله اثر النور الذي يُخرج به الله تعالى أولياءه، (وهم الذين استعدوا للايمان وارتضَوه) من ظلمات الجهل والغفلة إلى نور الإيمان. وهنا أيد سبحانه موقف رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بأنه يهدي الى الطريق الذي يسدد المؤمن الى الحق مستقيماً لا عِوَجَ فيه وهو الطريق الذي لم يجعل المولى طريقاً سواه يُعرّف المؤمنين بربهم ويبين لهم فيه أحكامَه وسُبُلَ تقواه ومناسِكَ عبادته مسلمين لربهم مالكاً ما في

السموات وما في الارض والذي وعد مبشراً وتوعد منذراً بقوله تعالى: ((أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ)) فأمْرُ المؤمن الى نعيم وأمْرُ الكافر الى عذاب مقيم.

سورة الزخرف

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (4) أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ (5) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (6) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (7) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (8)

سبق الكلام على الأحرف المقطّعة. وهنا لم تأتِ للإشارة الى القرآن الكريم بل مستقلة بذاتها. ثم اورد المولى الاية الثانيةَ يُقسِم فيها بكتابه الكريم الْمُنْزَل واختار له اللغة العربية تفي بمعانيه لعل من أُنزِل بين ظهرانيهم يتدبَّرونها ليفهموه إن صغت قلوبهم له وأصغت اليه. وأكّد المولى تعالى أن القرآن الكريم ذو عُلُوٍّ في أُم الكتاب أي في اللوح المحفوظ من حيث الإعجاز متميزاً ذا حكمةٍ مُحكَمة في تفصيل التعريف بالتوحيد والأحكام والمعاملات والعِبَر. ويوجهنا الله تعالى إلى حُسْنِ الظن برحمته أنه لم يُهمل أهلَ الجاهلية أن كانوا مسرفين في إعراضهم عن توحيده من غير أن يُنْزِل ذِكراً يدعوهم للتوبة ويقيم الحجة له سبحانه. فلما كذّب المكذبون ذكر المولى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم ما يسليه من أخبارٍ عن أنبياء كثيرين ارسلهم في الاولين وكان الكفار يستهزئون بهم فنالوا مصير المكذبين مع انهم تميزوا ببطش وسطوة أشَدَّ فما اغنى عنهم ذلك وصاروا عبرة لمن بعدهم في عاقبة تكذيبهم ومضَوا في أُمَمٍ غابرة أي معذبة تضرب بها الامثال.

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (9)

ومع تكذيب كفار قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهم يُقِرُّون بأنْ ليس هناك من يقتدر غير الله تعالى على خلق السموات والارض وانه عزيز عليم. فبين المولى مزيداً من صفاته وقدرته لنفي أي شريك له فلا ينبغي ان يُشرَك به فيقول جل علاه:

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (10) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (11) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (12) لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (13) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (14)

والخطاب موجّه لمن تبلغهم الرسالة بأنّ من نِعَمِهِ إنْ مهّدَ في الأرض مواضع للإستقرار وجعل بين المواضع طُرُقاً لترشدهم في اسفارهم. ورزقهم من السماء المقدار المفيد من الماء ففيه النماء والسلامة فيسد الحاجات وتَحْيَا به الأرض. وفي هذه القدرة إشارة الى القدرة في إحياء الموتى أي خروجهم من قبورهم وفي ذلك حجة عليهم. وقد خَلَقَ مِن قَبْلُ ما لم يكن مخلوقا من كل الأصناف. ثم يُذكِّر بما يسّر من وسائط نقل قديمة وحديثة مثل العجلات والسفن وها هي وسائل اكثر تطورا. وقد خلق الأنعام مسخرة للركوب وهذا يذكِّرهم بأن يُسبِّحوا بحمد الخالق الْمُيسِّر ويُفصِحوا عن ذلك بألسنتهم تسبيحاً مع بيان ضعفهم. فما كانوا له مُقرِنين أي مُطيقين له، أي لا يمكن لضعيف أن يكون قريناً لأمر قوي ما لم يسخره المولى تعالى له. ثم يتذكرون المعاد الى الله تعالى. وما ابلغ ما وصل بهم الرحمن الى لقائه! وكان

أحد الصالحين يذكر آخِرَ مركبةٍ له وهي ما تُحمَل فيه جنازته وذلك كلما ركب عجلة او دابة مع قوله ((وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ)).

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (15) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (16) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (17) أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (18) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (19) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (20) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (21) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (22) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (23) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (24) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (25)

في هذه الآيات يبين المولى عز وجل ما كان عليه الكفار الذين انكروا بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم من إسراف في امرهم وعلى انفسهم بالشرك والظن السيئ بالعلي العظيم. فقد بين مدى جهلهم وتناقض عقولهم اذ نسبوا لله تعالى بنات، ويقصدون الملائكة! وأحدُهم اذا بُشِّر بالانثى توارى من الناس خجلاً. ومن اين أتوا بهذا الافتراء هل اشهدهم الخالق ذلك؟ حاشاه عن ذلك. بل سيحاسبهم على هذه الفِرية التي لم يأتوا باستدلال عليها. فكيف أحاطوا بها علماً ولم يأتهم خبرها؟ وهم ادرى بميل الاناث الى الحلي والزينة وبمواقفهن المنقطعة في الخصومات. ومع هذا جعلوا الملائكة إناثاً! وهذا منكر في تقدير العقول الواعية ولا

يدل على سلامة قلوبهم الزائغة. ثم بيَّن سبحانه من تناقض عقولهم أن نسبوا الضلال الذي هم فيه الى مشيئة الله تعالى ولم يأتهم علم بذلك. فالإعتقاد بذلك باطل لا أساس له. فقد ركّب المولى عز وجل في الانسان عقلاً وخلقه على فِطْرَةٍ سليمة وهداه السبيل ليختار الشكر او الكفر. ثم تتفق مصائرهم مع مشيئة الله تعالى الذي علم مسبقاً بإختيار العبد. فما ادّعَوه ما هو إلّا من الخَرْصِ أي الكذب وتوَهموا الكذب صدقاً. فان ادعوا ان هناك اساساً في عملهم الباطل فانهم عاجزون عن ذكر البرهان أي الكتاب أو الأثر الذي يحوي هذا الباطل. فلما أعيتهم الحجة إدّعوا انهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون فساروا في اثرهم ولم يُمَحِّصوا بعقولهم ما هو اهدى من ذلك. فلما جاءهم الحق هادياً الى الْمَحَجَّة البيضاء فعلوا كما فعل اقوام مكذبون من قبلهم كانوا مترفين فما هان عليهم النُزُوع إلى إعلاء كلمة الله تعالى وترك ما هم عليه من ترف، فاعتذروا بما كان عليه آباؤهم وصارحوا الانبياء بكفرهم بما معهم. وحلت عليهم نقمة الله تعالى. وفي هذا تسلية وتصبير للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ووعيد لكفار قريش بعاقبة من مثلها.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (28) بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (29) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (30) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (32)

أشار الله تعالى الى كلمة التوحيد التي قالها سيدنا ابراهيم عليه السلام لأبيه وقومه اذ تبرأ مما يعبدون إلّا الذي فَطَره أي الله سبحانه وتعالى فكأنه قال شهادة (لا إله إلاّ الله) ثم توكل عليه في هداه محسناً به الظن منتظراً العواقب الحميدة وجعل كلمة التوحيد أساساً يثبت عليه من ذريته مَن ثبت من الموحدين. وها هم قريش من ذريته لعلهم يرجعون اليها وقد جاءهم رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بها. وهكذا الله تعالى لهؤلاء لم يضرب عنهم الذّكر صفحاً فبعث اليهم بالحق ليخرجهم من ضلالهم الذي كانوا فيه. فما كان من كفارهم إلّا أن إعتبروه سحراً وكفروا به، ولا سيما وانهم كانوا يرون العظمة في الرجال على قدر اموالهم ورئاستهم وليس على قدر عقولهم أو الصلاح والصدق الذي يتحلون به. فقد كان سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم يوصف بينهم قبل البعثة بالصادق الامين وبعدها كذّبوه! فبيَّن المولى عز وجل خطأهم في ذلك وسوء حكمهم على اختيار الله تعالى إياه. فليس لهم ان ينتخبوا من يستحق الرحمة فقد سبق ان قسم المولى تعالى معيشتهم لدوام الحياة والكسب إذ أحوج بعضهم للبعض فهذا مخدوم وهذا يخدم على حسب درجاتهم الدنيوية. فكان الاثرياء من القريتين؛ مكة والطائف، هم العظماء في أعيُن هؤلاء الكفار. ولكن رحمة الله تعالى، وهي نبوّة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم لم تكن لتخص أحداً ممن أعلَوا انفسهم بالثراء والرياسة وانهمكوا بما حصلوا عليه حسب قسمة الله تعالى. فالنبوة خير من ذلك لعلو قدرها في الدنيا والآخرة خيراً مما يجمعون. ويبين المولى عز وجل زوال متاع الدنيا وتفاهته مما يزيل عنه صفة النعيم فيقول سبحانه:

وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (34) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (35)

الناس المقصودون هنا هم الذين ليس لهم الإستعداد للإيمان بل للصدِّ عنه الى ملذات الدنيا الفانية. فلولا أنّ الله تعالى كَرِهِ لهم الكفر لَجَعل لبيوت الكفار سُقُفاً من فضة ومعارج (مصاعد) يظهرون بها على سطوحها. مع أبواب وآثاث من فضة وزخرف (مزيَّنة بالذهب) وكلُّ ذلك من متاع الدنيا الفانية ومغرياتها الْمُبْعِدة عن الآخرة التي إدّخرها الرب الكريم لمن خاف البعد عنه.

وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (39)

الذي يعشو عن الشيء ليس في عينه أي آفة بل يتعمد تجاهل الشيء كأنه اعشى أي مصاب بعمى الليل! فالذي يعرف الحق ويتعامى عنه فقد جحد ما استيقنَتْه نفسه واستحق من الله تعالى ان يخلي بينه وبين شيطان يتسلط عليه يوسوس له سوء العمل ويزينه حتى يحسب انه على هدى! ولعدم إنابته وتوبته يبقى على ذلك حتى الموت، فيلقى الله تعالى ومعه قرينه الشيطان فعندئذ يعي ما كان عليه من ضلال ويتمنى لو كان بينه وبين قرينه الشيطان بُعدُ ما بين اقطار الارض في جهة واقطارها في الجهة المقابلة فإذ تشرق الشمس على هذا تغرب على ذاك فلا

يلتقيان. ولكن ظُلمَ هؤلاء وقرنائهم حجب عنهم ما يقيهم العذاب فهم فيه مشتركون يوم الجزاء.

أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (40) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (41) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (42) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (43)

بعدما بيّن المولى اصناف اهل الضلال، يوجه خطابه للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليدلّه إلى ما يزيل عنه ما أهمّه من هؤلاء فلا تذهب نفسه حسرات عليهم. فانه مكلف بالبلاغ والله تعالى اعلم بمن ينتفع به لسلامة فطرته، ومن لا ينتفع به ممن انغمسوا في متاع أشغلهم عن تَقبُّلِ دعوة الرسل. فحالهم حال الأصم الذي لا يعي، والأعمى الذي لا يرى، والضالِّ الذي عَلِمَ الله تعالى عنه أنّه لن يهتدي. ثم بيّن تعالى ما يحتمل لمن عادَوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فهم على خسارة وهلاك سواءً قدّر الله تعالى وفاة رسوله فعند ذاك ينتقم منهم. أو ينصره عليهم حتى يرى ما وعدهم ربهم. وقد هلك منهم في معركة بدر رؤوس العدوان. وعلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم التمسك بالقرآن. وأكد له أنه على الصراط المستقيم أي السبيل الصحيح. وهذا فيه عبرة للأمّة من بعده للتمسك بالدين الحنيف من غير هوىً ضالٍّ. فبيّن ذلك بقوله تعالى:

وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (44) وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (45)

فالقرآن الكريم وما سار عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من تسديد الخطى على الصراط المستقيم لن يقتصر على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بل يُسأل عنه كل مسلم بقدر ما كُتِبَ له من تكليف أي حسب إستطاعته. ويقول تعالى بأن ما بُعث به الرسل هو ترك عبادة الشركاء في مختلف أشكال الشرك. ثم التمسك بعبادة الرحمن. وأمّا السؤال ممن سبق من الرسل عليهم السلام فهذا من المجاز للتعبير عن تصديق الإسلام للاديان السابقة والكتب التي اختصت بها. كما أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يعلم الجواب عن ذلك مسبقاً لأن هذه الاية تحمل بنفسها جوابا على ذلك من الإستفهام: ((أَجَعَلْنَا))؟ ويعني إستحالة وجود آلهة من دون الرحمن.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (47) وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (49) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (50) وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (55) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ (56)

اعْقَبَ المولى عز وجل ذكر من يتغافل عن الحق ويصدّ عن سبيله بذكر ما يدعو للصبر وانتظار النصر المماثل لنصر الرسل من قبل. ومن العبر التي أذلّ الله

تعالى بها اكثر الناس تكبراً (فرعون وملأه) ما جاء في قصتهم مع سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام. فان فرعون وهامان وقارون وعِلْيَةَ قومِ فرعون سَخِروا من آيات الله تعالى في العصا وغيرها مما ذكر من الآيات في سورة الاعراف من الآية الثالثة بعد المائة الى السابعة والثلاثين بعد المائة منها. فالايات الباهرة التي جاء بها سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام كانت تتميز عن السحر الذي كان شائعاً في قوم فرعون، ثم أبطلته. وكانت خارقة للمألوف ولم يتوقعوا ان يحصل مثلها. ثم بعث المولى تعالى اخيراً عليهم عذاباًلم يجدوا منه في طبِّهم ولا معرفتهم مخرجاً فلجأوا بعدما أعْيَتْهُم الحِيَل الى سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام مما اقام الحجة عليهم بالجحود اذ استيقنوا بشفاعته لهم عند الله تعالى. ونادَوه بما كانوا يعتبرونه اعترافاً بالعلم والمقدرة بقولهم (يا ايها الساحر)، أي يا ايها العالم المقتدر. اذ كانت هذه نظرتهم للسَحَرة. فكشف الله تعالى العذاب. لكنهم لم يفوا بوعودهم بالتصديق بالرسالة والرسول بل شرع فرعون بالعمل على إسكات الحق بالقوة فجمَّع جنوده. وهنا بيَّن تعالى انهم اغضبوه (معنى آسفوه) مما استوجب الإنتقام لأنهم لم يكتفوا بالتكذيب والسخرية بل عمدوا الى الحرب فأغرقهم الله تعالى في موقف قاهر لا قدرةَ لهم على ردِّه فأخزاهم وأذلَّهم وتواتر خبرهم فكانوا سَلَفاً أي أحاديثَ للعبرة. وفي ذلك عبرة لقريش وتسلية لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن الله تعالى سينتقم له في أجَلٍ يعلمه تعالى. وهذا ما انجزه تعالى في بدر.

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (59) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (60) وَإِنَّهُ

لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61) وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (62) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (63) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (64) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (65)

هذه صفة اخرى من تعنت كفار قريش مع الحق وجدلهم في الآلهة الأُخرى. فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد دخل مع فريق منهم في حديث عن آلهتهم حتى افحمهم وتلى عليهم قوله تعالى (إِنَّكُم وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ اَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ) فلما سمع احد بُلَغائهم وهو الشاعر عبد الله بن الزبعري بذلك الحديث، ولم يكن قد حضره، قال لهم: إسألوا محمداً: (أَكُلُّ ما يُعبَد من دون الله في جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيراً والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم). فلما ذكر سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام اذا هؤلاء الكفار يصِدّون (بكسر الصاد، من التصدية) أي يُحدِثون جَلَبَةً من السخرية. وقال الامام محمد بن اسحق ابن يسار، الذي اورد هذه القصة في كتابه"السِيَرْ"، بأن هؤلاء الكفار قد سألوا فعلاً سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فقال (كلُّ مَن أحبّ ان يَعبُدَ من دون الله فهو مع من عَبَدَه فإنهم انما يعبدون الشيطان ومن أمَرَهم بعبادته). فأنزل الله تعالى (كما قال ابن اسحق) قوله: ((إِنَّ الَّذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الحُسْنَى أُولئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ)) الاية الحادية بعد المائة من سورة الانبياء. (بهذا فإن من عبد الملائكة أو الأنبياء والصلحين إنما عبد من أضلّه ويحشر معه). ثم بيَّن الله تعالى حقيقة امر سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام

بأنه عبدٌ رسولٌ جعله الله تعالى مثلاً لبني اسرائيل أي دليلاً على صحة العبادة يُقْتَدَى به في نبذ ما كان بعض احبارهم قد ابتدع في الدين ما ليس فيه. واما إرسال الملائكة رُسُلاً بدلاً من البشر بحيث يخلف احدهم الاخر حاكماً عدلاً قائماً بأمور الدين فهذا ما قال عنه تعالى في الاية الخامسة والتسعين من سورة الاسراء ((قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا)). واما سيدنا عيسى كعِلم للساعة ففيه قولان؛ الأول بأن الآيات في إحياء الموتى بإذن الله تعالى على يدي سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام دليل على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى يوم تقوم الساعة أي ساعة القيامة التي يقوم فيها الناس لرب العالمين مبعوثين بعد الموت، والثاني أنه ينْزِل الى الارض مع ظهور الامام المهدي عليه سلام الله فينصر الله تعالى الدين الحق وهو عبادة الله تعالى من غير بدعة او ضلال او ظلم. وذلك قبل قيام الساعة بزمن غير قليل. واما المِراء في الساعة فهذا من الكفر فقد اخبر عنها الرُسُل وَانذَروا جميعاً بها. واما الجدل في المثل الذي ضربه تعالى في عيسى عليه الصلاة والسلام فان كفار قريش ذكروه جَدَلاً فلم تكن لهم به علاقة عبادية لأنهم عَبَدَةُ الاصنام. والجدل بحد ذاته دليل على التيه والبعد عن الحقيقة. فالهدى مرشد الى طريق واحد واضح لا يجادل عليه أحد. وقد روى الامام احمد في مسنده عن ابي امامة رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((ما ضل قوم بعد هدىً كانوا عليه إلّا أُورِثوا الجدل)) ثم تلا قوله تعالى: ((مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ)). ووجَّه المولى تعالى رسولَه سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ان يدعُوَهم للإسلام وهذا صراط مستقيم وان لا يستجيبوا لدعوة الشيطان الذي لا تنقطع عداوته الواضحة لبني آدم. وبعد بيان حقيقة سيدنا

عيسى عليه الصلاة والسلام بيّن تعالى كيف ضلّ قومٌ بعد الآيات التي جاء بها فاختلفوا فقد حوى الانجيل الذي جاء به مواعِظَ وحِكَماً تردّهم الى أحكام التوراة ليحكموا بما انزل الله تعالى. وبهذا يزول بعض الخلاف المتعلق بالدين لو صدقوا وآمنوا واتقوا ربهم واطاعوا رسوله فهو سبحانه لا إله إلا هو فلا مجال لآلِهَةٍ اخرى تسد فراغاً ليس له وجود. فأما الذين اشركوا وجادلوا فإن الله تعالى توعّدهم بساعة القيامة التي يُغلق عندها باب التوبة. وتُفْتَحُ حُسْنُ الخاتمة للمتقين، فقال تعالى:

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (66) الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (69) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (70)

يشير المولى تعالى إلى المكذبين المتمسكين بالكفر تبعا لفريقهم وهم منهمكون في الخصومة؛ ما الذي يأملون من موقفهم؟ وبإنتظارهم الساعة تبغتهم فتبهتهم من غير أن يسبقها ما يشعرهم بها؟ عندئذٍ تنقطع اسباب المودة الدنيوية فلا تبقى خُلَّةٌ حصلت لمصلحة دنيوية، فتنشأ العداوة كما قال سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه كما جاء في الاية الخامسة والعشرين من سورة العنكبوت ((وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)). اما المودّةُ والخُلّةُ اللتين تنشآن للآخرة في تقوى الله تعالى فانهما تتوثقان لإتصال اسبابهما في الدنيا والآخرة. وفي ذلك اخبار كثيرة في التفاسير يغني عنها بيان حقيقتها هنا والحمد لله

ربِّ العالمين. ويكون بذلك طمأنينة وسرور وجمع الشمل في جنات اكرمهم بها رب كريم. ثم يُظهِر المولى جانباً من نعيم الجنة:

يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (71) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (72) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (73)

هنا بين تعالى صفحة من اسباب الراحة في الجنة بوجود من يقوم على الخدمة منهاِ لأهلها خلاف ما عانوه من مشقة في سبيل الله تعالى. وتأتيهم أواني الذهب والفضة (وكانوا قد زهدوا بها في الدنيا) فيها لكل نفس ما تلتذ به بعد زهدهم بملذات الدنيا وغض البصر عن الْمُحَرَّمات. ومن أسباب الطمأنينة شعور أهل الجنة بالخلود الذي ليس بعده كفن وقبر. كل ذلك بمنازل على قدر اعمالهم بعد شمولهم برحمة الله تعالى. فدخول اهل الجنة فيها برحمته جَلَّ وعَلَا، ومنازلهم فيها بأعمالهم. وختم الوصف الموجز سبحانه بكثرة الفاكهة بأنواعها؛ فالأكل يكون من بعضها. وهذا الوصف مما يثير الحبور الذي ورد في الآية السبعين لأن اسباب النعيم المذكورة فيه لا تتيسر في الحياة الدنيا لمن كان يعمل لوجه الله تعالى من غير الاهتمام بنعيم الدنيا فذلك من عزم الامور.

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (74) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (75) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (76) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (77) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (78)

هنا تظهر الفروق البعيدة بين حال المتقين وحال المجرمين يوم الجزاء الأَوْفى للمتقين وعذاب جهنم للمجرمين فهُم مبلسون أي يائسون لا يأملون فيه وقتاً من التخفيف فينتابهُم اليأس من الخلاص. وهذا ما استحقوه بظلمهم لآيات الحق لَمّا جاءتهم فهو سبب عذابهم فلا ينسب ظلم لله تعالى سبحانه. واذ لم يجدوا تخفيفاً نادَوا أقرب الملائكة اليهم وهو خازن النار (مالك) بطلبٍ أخيرٍ للخلاص، وهو القضاء عليهم، فأكّد لهم بأنهم مقيمون فيها كما أقاموا على كراهية الحق.

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80)

كان كفار قريش يجتمعون في دار الندوة وقد أهمّهم امرُ سيدِنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيتبادلون الحديث للكيد به فسخِر منهم المولى عز وجل واستهان بمكرهم وغفلتهم عن سبقه بما أبرمه أي أحكمه سبحانه من نصرٍ لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم. وقد كان يعلم ويسمع سرهم ونجواهم (مساررااتهم). وكل شيء محتضَر لهم يوم الدين فقد كتبته رسله عليهم.

قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83)

هذا السياق في الكلام يأتي لنفي إدعاء المشركين بأن لله تعالى ولداً. فإن الشرط في الآية هو على سبيل الفرض. فلئن عُقِل ذلك لكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أوّلَ من يعقله. ولكن سبحان رب السموات والارض والعرش

العظيم عن نِسْبَة ما لا ينبغي أن ينسب له. فذلك من قبيل الخوض في التخرص ولا يمكن ان يؤتَى ببرهان عليه فهو لعب الغافلين الى ان يصير بهم الى لقاء ما يوعدون. وقد ذهب قِلّةٌ من المفسرين بأن (إن) نافية بمعنى: قل ما كان للرحمن ولد. وهذا بعيد، لأن (الفاء) في (فأنا) دليل على كون (إن) شرطية لإقتران جوابها بالفاء، بينما لا يكون للنفي جواب، وفي الآية تنبيه للمؤمنين ليكتفوا بإيضاح الحق للكفار بدلا من مجادلتهم.

وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (84) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (85) وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (87) وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (88) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (89)

إن الذي يعبده أهل السماء وأهل الارض بالحق هو الله تعالى لا تُدرَك حكمته، ويعلم ما كان وما يكون، ولا يخرج شيء من السموات والارض وما بينهما عن مُلكِه. وبإسمه المبارك ينزل رزق السماء ويخرج رزق الارض، مُقَدِّراً ما يكون الى قيام الساعة يوم الرجوع اليه. وقد حصر الشفاعة بإذنه فلا يملكها احد وهو اعلم بمن يشهد بالحق ويشفع به. ولا جواب من المشركين اذا سئلوا عمن خلقهم إلّا ان يقولوا: "الله". فما الذي صرفهم عن إفرادِه بالعبادة الى عبادة شركاء من دونه؟ أليس زيغهم عن الحق. ويعلم سبحانه ما يقوله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأنّ هؤلاء قوم لا يؤمنون بالآيات فيوجّهه تعالى للصفح عنهم أي أن لا يَرُدَّ عليهم بمستوى كلامهم بل يتألفهم بالحِلم والأناة فمصيرهم إما مؤمن يهتدي او كافر يلقى

العذاب إن لم يقبل بالحق ثمّ يعمل به. وسوف يعلمون عندما يحاسَبون حقيقة ما كانوا عليه ثم يُجزَون به.

سـو رَ ة ا لـدُ خَـا ن

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4) أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (6) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (7) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (8)

الاحرف المقطعة سبق الحديث عنها. وهنا اعقبها قَسَم بواو القسم مثل سورة (يس) وكذلك في سُوَر: (ص، الزخرف، ق، ن). اما بقية المقطعات فلا يعقبها قَسم. وكلها عن القرآن الكريم ما عدا (ذِكرُ رحمةِ ربِّك عبدَه زكريا) في سورة مريم، و(ما انزلنا عليك القرآن لتشقى) في سورة طه، و(أحَسِبَ الناس ان يتركوا) في سورة العنكبوت، و(غُلِبت الروم) في سورة الروم، و(كذلك يوحي اليك ربك في سورة الشورى). أما في سورة القلم فالقَسَم جاء بالقلم. وهذه كلها لا تؤثر في مقاصد القرآن الكريم في التشريع والعبادة والمعاملات. والحمد لله تعالى. والقَسَم بالقرآن من اختصاص المولى جل علاه ليبين نُزولَه المبارك الذي كان في اشرف الليالي من أشرف الأشهر. وفي التفاسير ان نزول القرآن جملةً واحدةً في الليلة المباركة هو نزوله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا. ثم نَزل متفرِّقَ السوَرِ والآيات نزل به جبريل عليه السلام بأمرٍ من الله تعالى في كل أوقاته بتقديره تعالى لموجبات نزوله. ومن تفصيله: النُذُر والتحذير من العقاب، والبشائر والترغيب، مع غاياته الاخرى. وأشار تعالى

الى الليلة المباركة بأن الامور التي يقدِّرها المولى عز وجل للسَنَة التي تعقبها تخرج من اللوح المحفوظ على ما قضته حكمته تعالى. ثم بين تعالى رحمته في بعثة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم كما قال ((ومَا أرْسَلْناكَ إلّا رَحْمَةً لِلعَالمِينَ)) فالله تعالى أعلم بمن يحمله رسالته ويملك اليقين بتفرُّد الله تعالى في خلق الكون وما فيه، وفي تقدير الحياة والموت، وفي ربوبيته على من كان ومن يكون من الاجيال المتعاقبة.

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (9) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (10) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (11) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (12) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (13) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (14) إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (15) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (16)

يُشَبِّهُ ربُّ العزة كَفَرَةَ قريشٍ الذين يُقِرّون بأن الخالق هو الله تعالى، ومع ذلك يُشرِكون به، يشبِّهُهُم بمن يستهين بأمر عظيم لحصول الشك في قلبه وكأنه في لَعِبٍ لا يُسأل عنه. فأخبر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأن دخاناً مبيناً سيغشاهم اي يغطي الجو المحيط بهم إستجابة لدعائه، وكان قد دعا عليهم، إذ أصروا على الكفر، بِسِنِيٍّ كسنِيِّ يوسف. فمَنَعَهم الله سبحانه المطرَ فجُهِدوا من الجوع حتى كان يخيّل اليهم عند النظر الى السماء ان هناك دخاناً يتراءى لهم بين السماء والارض. وإذ طلبوا كشف العذاب أبدَوا ايمانهم ولكن الله تعالى وبخهم بأنهم ابدَوا الايمان في آية لمسوا فيها العذاب ولم يؤمنوا بما هو أدعَى للإيمان أي الدعوة للحق مع الدلائل الواضحة بإعجاز القرآن. فإن الايمان بسبب وقوع العذاب قد يزول مع زوال سببه أي بعد كشف العذاب. بينما لم يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وقالوا عنه "معلَّمٌ مجنون". وذهبوا في إفترائهم إلى أن الذي يُعَلِّمُه شخص إسمه

(عدّاس) من الأعاجم كان غلاماً لبعض ثقيف! ولم يبرروا كيف تكون لأعجمي آيات الإعجاز بلسان عربي مبين! واستسقى لهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وكشف المولى عنهم العذاب وعادوا بعد الرفاه الى الكفر. فتوعدهم المولى بيوم فيه بطشة كبرى وهذا ما حصل يوم معركة بدر من انتقام لم يستطيعوا ردَّه.

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (18) وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (19) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (20) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (21) فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (22) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (23) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (24) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (28) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (29)

لوجود تشابه في مواقف فرعون وقومه من دعوة الله تعالى برسالة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام، مع مواقف كفار قريش من نفس الدعوة برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، قبل الهجرة، يورد المولى عز وجل (بتفصيلٍ أحياناً أو بإيْجاز كما في هذه الآيات) جانباً من فتنة قوم فرعون مشابها للمواقف التي كان يعاني منها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع كفار قريش. ويبين المولى في هذا السياق مصير فرعون وقومه ليكون عبرة تهدأ بها نفوس المؤمنين الى امل قريب بالنصر وظهور الدين واستخلافهم في الارض. وفي هذه الآيات بيَّن المولى عز وجل الجانب المشابه لِما حصل في دعاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مما أدّى الى القحط؛ وذلك ان سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام لَمّا دعا فرعون وقومه للإيمان

ولإرسال بني اسرائيل معه وأراهم آيات الله تعالى وسخروا منه واتهموه بالسحر والجنون طلب منهم مسالمته وعدم شتمه أي رجمه بالسباب وقذفه بالتُّهم الباطلة فلمّا لم يكفوا بأسهم عنه وعن بني اسرائيل دعا ربه فأنجاه بعبور البحر وأغرق فرعون وجنوده وعاد بنو اسرائيل ليرثوا ما ترك أُولئك الغارقون من جنات أي بساتين وزرع ومساكن فارهة كان عيشهم فيها رغيداً ولكنّهم كانوا في مَقْتٍ من السماء إذ لم يصعد الى الله تعالى منهم عمل صالح، وفي مقت من الارض أي لم يعبدوا الله تعالى عليها حق عبادته. فما كانتا لِتَبْكيا عليهم لَمّا ذهبوا. وفي هذا دلالة على أن المؤمن الذي يصعد عمله الصالح كما قال جل علاه ((إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)) في الآية العاشرة من سورة فاطر، فإن انقطع عملُه بوفاته افتقدته بقاع الارض التي كان يذكر الله تعالى فيها ويسبح بحمده مصلياً متعبداً، وافتقدته مسالك السماء التي يرفع العمل الصالح منها الى الله تعالى. وفي بعض التفاسير أن بكاء السماء هو بكاء أهلها، وبكاء الارض هو بكاء أهلها.

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (30) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ (31) وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (32) وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ (33) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (34) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (35) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (36) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (37)

العذاب المهين من فرعون كان متمثلاً بقتل الذكور واعمال السحرة والاضطهاد متعالياً مسرفاً في التكبر. ثم إن الله تعالى إختار بني اسرائيل بنزول اول الكتب السماوية وهو التوراة عالما بخيرتهم على من عاصرهم. أُنزلت جملة واحدة.

فكان بنو اسرائيل هم الامة الوحيدة في زمانهم الذين آمن منهم من صدّق رسلهم. وآتاهم الله تعالى ما لم يؤتِ احداً قبلهم من الآيات كالعصا التي انفلق بها البحر وظلّل عليهم الغمام وانزل عليهم المن والسلوى وغيرهن من الآيات امتحاناً لهم ليقوموا باحكام التوراة وليدعوا الناس للإيمان وينشروا الدين. وأما ما حصل منهم وما جرى عليهم فقد ورد في سُوَرٍ أُخرى. إلا ان انقطاع الخبر بهذا الحد عنهم كان لمناسبة ذكر قوم فرعون وموقفهم الشبيه بكُفّار قريش. فقد كذب قوم فرعون كل تلك الآيات وكذب كفار قريش آيات الله فأخبر تعالى عنهم بقوله: ((إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ))! ينكرون البعث بعد الموت ويتحدَّون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يأتِيَ بآبائهم! فَيُنْكِرُ المولى تعالى تكذيبهم وينذرهم بأنهم ليسو بأفضل من قوم تُبَّع ومَن قبلهم. وقد علموا بِهلاكهم وهلاك من كان قبلهم إذ كذّبوا فكانوا مجرمين. وهذا تحذير لكفار قريش لئلّا يكونوا مثلهم.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (38) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (39) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (40) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (41) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (42)

سبحان الله عما ينكرون من البعث. اذ لو لم يكن ليحصل البعث لم يكن للحق أن يظهر مما لا ينبغي للعدالة الإلهية. فالحق عند الله تعالى سبق خَلْقَ السماوات والأرض ليحقه ويبطل الباطل يوم الفصل المؤقت للجميع. فكيف يجزي الخالق القدير من أساء ومن أحسن على اعمالهم إذا لم يبعثهم؟ وكثيرون لم يصلوا الى هذا العلم لأنهم تعامَوا عن الحق ولا يريدون ان يعلموا. وسيأتي يوم الفصل حين لا

يجد الوليُّ من وَلِيِّهِ عوناً ولا يجد أحدهم ناصراً إلّا مَن رحم اللهُ برحمة الآخرة. فهو تعالى العليم بمن تَحُقُّ له الرحمة عندئذ وبمن لا يستحقها وهو العزيز القاهرُ لِأعدائه الرحيم بأوليائه.

إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (43) طَعَامُ الْأَثِيمِ (44) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (45) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (46) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (47) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (48) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (49) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (50)

الاثيم بالنسبة للرسالة المحمدية هو الكافر الذي جحدها وكذّب بها. وتطلق صفة الأثيم على من يأثم بأقوالِه وأفعاله. فالمقصود هنا هو الكافر الذي يَصْلَى جهنم وطعامه فيها (زَقّومٌ)، طعام يُفسِد كل شيء يمر عليه. وشبّهه المولى تعالى بالْمُهْل وهو الزيت العَكِر اذا كان ساخناً لا يبرد عندما يصل الى البطن فيغلي كالماء الذي انتهى الى الغليان. ويُؤخذ الكافر بعد ذلك من قبل ملائكة العذاب بأمر الله تعالى بأن يعتلوه أي يقودوه بغلظة وعنف الى وسط الجحيم، أي اشدها عليه، ويعذب بصب الحميم فوق رأسه والحميم هو الماء شديد الحرارة. وهنا تُذكِّرُه الملائكة بما كان يعتبر نفسه عزيزاً كريماً في إستكباره على آيات الله تعالى، وتُذَكِّرُهُ بما كان يماري فيه أي يجادل بتعنت وتكذيب وشَكٍّ في وقوع العذاب. وها هو عندئذٍ العذابُ حقٌّ لا يمكنه الْمِراءُ فيه.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (51) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (52) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (53) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (54) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (55) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (56)

فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (57) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (58) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (59)

المقام الامين صفة للجنة ووصفت بالأمان يأمن فيها المتقون. فتكون إقامتُهم ذات بَهجةٍ في روضاتها وفي اللبوس وفي غيره. فلبوسهم سندس أي حرير ذو نعومة يكون على الأجسام، واستبرق وهو ما يلبس فوقه وله بريق ولمعان مع طياته كالقطيفة. واما تَقَابُلهم فهو طِيْبُ اللقاء بين المتحابّين فتكون مجالسهم مجالس أُنسٍ وحمد. (كذلك) أي ومع ذلك فقد جعل المولى الكريم لأهل النعيم زوجات صافيات العيون لشدة بياضها وسوادها، واسعات العيون سعة تبهج الواحدة منهن زوجها إذا نظر إليها فهذا مقام أهل الجنة ومجتمعهم وحياة أحدهم الخاصة مع زوجاته. اما الطعام فممّا يشتهون من فاكهة وغيرها آمنين بطمأنينة لا يُكَدِّرُها الموت. في حياة خالدة لا تُرهِبُهم ساعةٌ ينقطع فيها عيشهم أو يفارقون فيها من ألِفوه. فقد ذاقوا الموت ولا عَودة الى تلك الساعة. يضاف إلى كل ذلك وقايتهم من عذاب الجحيم فضلاً من الله ذلك هو الفوز العظيم. وهكذا يُقَرِّبُ المولى تعالى ما يمكن للأذهان ان تعيَه وللخيال ان يتصورَه. والأمرُ أطيبُ وأهنأ للمتقين مما لا عَيْنٌ رأت ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ. بل جاء الوصف بقوله تعالى: ((بِلِسَانِكَ)) أي بِلُغَتِهم ويقربها الى فهمهم بما يعرفون من حياتهم الدنيا. ففي الحياة الدنيا أمانٌ أو خوف، وحدائق ذات بهجة أو مكان ضيق، واصحاب وأعداء، ورفاه أو حرمان. ثم فراق لا بد منه. ثم إلى بعث ولقاءٍ في جنة أو نار. فليتذكر المؤمنون الآخرةَ فإنها لا يعقبها زوالٌ أو فراقُ. اما مصير المكذِّبين فليرتقبه الرسول عليه وآله الصلاة والسلام وهم يرتقبون أي يتربصون دوائر السوء به وبالمؤمنين.

سـو ر ة ا لجا ثية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حـم (1) تَنْزِيـلُ الْكِتَـابِ مِـنَ اللَّهِ الْعَزِيـزِ الْحَكِـيمِ (2) إِنَّ فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آَيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْـزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آَيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5)

سبق الحديث عن (حا ميم). ويخبر المولى عز وجل عن تنزيل كتابه الكريم من رفيعِ عزَّتِهِ وبليغِ حكمته. فينبه الى السماوات والارض من حيثُ وجودُهن من العدم ودِقّةُ النظام الذي به إستقرت أجرام السماوات وحركة الأرض مما كشف للمؤمنين الآيات على قدرة الخالق سبحانه. ثم يشير سبحانه الى آيات مظاهر الحياة على الارض فيبعث كل ذلك على اليقين بِالخالق القدير. وينبه المولى تعالى الى اسباب دوام الحياة من ملاءمة المناخ وتصريف الرياح من حيث سرعتُها ورطوبتُها المثقلةُ بماء المطر. فإما هي أنسامٌ هادئة أو رياح عاصفة فيها الأعاصير أو هَبُوبَةٌ تثير الغبار. وكل هذه الاسباب مردها إلى تقدير العزيز الحكيم في مَيَلان محور الارض كما جاء شرحه في تفسير الآية الرابعة والستين بعد المائة من سورة البقرة. فمن تفكّر بصفاء قلبٍ خشع للرحمن موقناً. فإنما تتملك الخشيةُ من تقدم في علوم الطبيعة وكُشِفَ ما شاء الله له من أسرارها.

تِلْكَ آَيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآَيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (6) وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (7) يَسْمَعُ آَيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (8) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آَيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (9) مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (10) هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (11)

المقصود بالآيات التي تُتْلى هو القرآن الكريم نزل بالحق فاذا لم ينفع معهم الحق من ربهم فأي حديث بعد الله وآياته يمكن ان يدخل قلوبهم وقد عجزوا أن يلقَوا مثله أو أن يأتوا بمثله؟ فمن ادّعى ان القرآن كلام البشر شأنَ الأساطيرِ التي ورد ذكرها في الآية الخامسة والعشرين من سورة الانعام فإنه شديد الإفك اثيمٌ في إدعائه مستكبر على الحق. فويل له وعيداً من الله بعذاب أليم. وهذا ما نزل في النضر بن الحارث وفي غيره من الساخرين. وهنا الوعيد عام في كل مستهزئ بآيات الله الى يوم الدين. ووراءهم جهنم، أي انهم مقبلون الى جهنم في خسارة كل ما كسبوا فلا يجدون من ذلك شيئاً ينفعهم عند الله تعالى لأنّ اساس اعمالِهم الكفر والاستكبار فلا يصدر عنهم أيُّ كَسْبٍ لوجه الله تعالى. كما لا يجدون من اشركوا بهم من أوثان أو أصنام إلا حصباً أي وقوداً لجهنم معهم فقد كانوا يعبدون اوثاناً واصناماً لم يسبق لها عند الله من الحسنى شيء. وهكذا القرآن جعله الله تعالى كما في اول سورة البقرة هدى للمتقين. واما من كفر بآيات الله تعالى فله عذاب من رجز، وهو صنف من العذاب فيه شدة تزيد من آلام العذاب.

اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (13)

بعد ذكر آيات كتاب الله تعالى ينبه تعالى عباده الى آياته في مخلوقاته؛ فيبين اولاً حجم الانسان إزاء حجم البحار المحيطة باليابسة ومع هذا فالمحيطات مسخرة للبشر للمواصلات التجارية ولنِعَم أُخرى تدعو للشكر، فإضافة الى نعمة الله في تسخير البحر تأتي نعمة الشكر للمؤمنين، ثم بيّن تعالى آياته في نظام الكون فاذا بالسموات والارض منسجمات في التكامل في ما بينهما لتوفر اسباب الحياة والمعرفة والهدى. وهذا يستوجب التفكير للوصول الى وحدانية الخالق من انسجام المخلوقات وتوافق تدابير امورها. وقد كشف التفكير العلمي آيات السماء من قوى الجذب وتعيين الجهات ومواقع الكواكب ومعرفة الازمان وتنبؤات الانواء الجوية وما الى ذلك. كما قاد التفكير في آيات الله تعالى في الارض الى دراسة العناصر وخواصها والاستفادة من ذلك في علوم الكيمياء والطبيعة (أي الفيزياء) وفي اختراع الآلات والاجهزة حتى وصل الانسان الى آفاق بعيدة في الجو والفضاء فهل يمكن لمشرك ان ينسب شيئاً من هذه القدرة وهذا التدبير وهذا التناسق والإنسجام لشركاء من دون الله سبحانه. ومن الواضح أنه من بداية السورة الى هذا الحد ينبه المولى عز وجل أرباب العقول على الإستدلال على حقيقة الوحدانية بظهور صفات الله تعالى في خلقه، فهو القدير على ما يشاء، الحكيم في العطاء، الاول فلم يكن شيء قبله مما هو موجود، ولا يمكن لِفانٍ ان يبقى بعد الباقي فالله تعالى هو الآخر، وهو الظاهر من مظاهر قدراته، وهو الباطن من إتضاحِ خفيِّ لطفِه في الخلق. فاليقين

بوجوده حاصل لأُولي الألباب إذ قال تعالى في اول السورة ((وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آَيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)) أي حصل اليقين ببعث الحياة من بعثها الاول وإن لم يظهر الخالق بل اخفى ذاتَه واظهر صفاتِه. ثم حرك في العقول نوازع التفكير ليحصل الايمان. فكل موقنٍ آمن بوجود الخالق واحداً لا يجد راحة إلّا في العبادة. وهكذا يبين المولى صفات المؤمنين ويوصيهم على لسان رسوله صلى الله عليه وآله وسلّم فيقول:

قُلْ لِلَّذِينَ آَمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (15)

وصية الله تعالى أمَرَ بها للصفح عمن لا يعرف قَدْرَ المؤمنين وقربهم من الله تعالى فأُولئك الجَهَلة الذين آذوا المؤمنين في مكة قبل الهجرة لا ينالون أيام الله أيام نعمائه، ويغفلون عن أيام شدته. فإنهم سيجزون بما عملوا. أما المؤمنون فقد أُمروا بالصبر والصفح. فكان ذلك عملاً صالحاً للمؤمنين يعود بإحسان عليهم. وتعود الأساءة على أهلها في مرجعهم جميعاً إلى الله تعالى.

وَلَقَدْ آَتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (16) وَآَتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (17) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (18) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (19) هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (20)

في سياق هذه الآيات يبين المولى عز وجل تصرف بني إسرائيل مع نعمائه العظيمة وليعتبر المؤمنون بما فات بني اسرائيل من مكارم جزاء خلافاتهم. فقد جاء سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام بصُحُفٍ وبالتوراة وسار على ضوئهما في الاحكام. وتعاقب بعده الانبياء مع رزق طيّب وتفضيل بالتوحيد وبالتوراة على من عاصرهم من الناس. حتى اذا اتضح كلُّ أمرٍ على حقيقته زاغ عن ذلك ذوو القلوب المتعامية عن الآيات الواضحة التي لا ينبغي الاختلاف عليها لَمّا استهوتهم شهوات الدنيا وطمعُ بعضِهم وتنافسُهم على الدنيا فحصل حسد بعضهم البعض اذا وصلوا للرئاسة والعلم والسيادة على الناس. فنشأت العداوات التي ابعدتهم عن التفسير الصحيح لأحكام الله تعالى. فاختلفوا في الحلال والحرام والاحكام التي يجب ان يكون الناس فيها سواسية. فكان خلافهم بعد علم وليس عن جهل فهذا سيكون له فصل من قضاء الله تعالى يوم القيامة فيحق الحق ويبطل الباطل. فحذر المولى عز وجل من هذا البغي الذي ادى الى خلاف، فقد شرع المولى عز وجل شريعةً قائمة الى يوم القيامة وأَمَرَ بإتباعها كما قام بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبَيَّن أنّ اتباعَ أيِّ هوىً يخالفها يبعد صاحبه عن الصراط المستقيم فيخرج من ولاية الله تعالى. وهذا الخطاب موجه للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويقصد به كل مسلم ولّاهُ الله تعالى امراً من امور الدنيا والدين. فإن اتباع أهواء البشر المخالفة لهذه الشريعة بعيد عن التقوى، وإن الله تعالى وليٌّ من اتقى أي من اتخذ الشريعة وقاية من الأهواء. وإلّا فالظلم يضع متّبِعَ الهوى في ولاية غيره من الظالمين وهؤلاء لا يملكون دفاعاً او حماية لمن اتبعوهم فهم في تيه يتولى بعضهم بعضاً. ولا يؤدي ذلك الّا الى الهوان والخزي. وفي هذه الآيات استدلال لمن ايقن أي وصل الى اليقين

بوجود الخالق ان يهتدي للايمان وينال الرحمة بالعمل الصالح ليكون في ولاية الله تعالى اذ لا يكفي ان يقرّ بأن الله تعالى هو الخالق ثم يدعو من دونه شركاء. ويحذر تعالى من ذلك فيقول:

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (21)

يدعو المولى عز وجل كل عباده للدخول في رحمته ونيل أفضاله. فمنهم من يرفع هِمّتَه الى السماء أي يتطلع الى نيل الآخرة، ومنهم من يخفض هِمّتَه نحو الارض أي يريد الحياة الدنيا ويجترح أي يكسب السيئات في سبيل ذلك بالمعاصي. والله تعالى يجعل حياة الذين يلبون دعوته مليئةً بالطاعات وكسب الخيرات لوجود النية لديهم في نيل رضوانه. واما في الممات فيفرق بين الفريقين بما تفرقت به اعمالهم عدلاً منه. فهو اذ لا يظلم اهل السيئة بل يجزيهم بما يشاء سبحانه فقد وعد اهل الحسنات بالأضعاف والرضوان وبشاشة وجهه الكريم يوم لقائه. وبهذا يحق الحق لأهل المعاصي ويفيض الكرم لأهل الطاعة. فلا يُسأل عمّا يفعل وهم يُسألون ويقول تعالى:

وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (22)

يبين تعالى في ما سبق أنْ يُعْبَد وحده وأن لا يُنسَبَ اليه ما لا ينبغي ان يُنسب للحق فلا يمكن ان ينسب الباطل للحق ولا الأمر بالمعاصي للحق ولا الأهواء الضالة للحق. وبالحق يقام العدل. فالحق سابق لخلق السماوات والأرض

وبه تتميّز العدالة التي تُعرِّف المعروف ليؤمرَ به، وتميز المنكر ليُنهى عنه. وبالعدل تجزى الصالحات وعداً حقاً. اما غير ذلك من الكسب فالوعيد يحق على مرتكبه وهم لا يُظلَمون.

أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (23)

من المظاهر المادية يعلمنا الله تعالى المعاني المجازية فلنتصور شخصاً اصم واعمى ولا يفقه هل يستطيع معلم ان يرشده الى ما يريده له من علم؟ فالذي ترك طاعة الله تعالى في توحيده في العبادة والطاعة في أوامره ونواهيه فقد انحرف عن اسباب الانتفاع بالسمع، اذ سمع وكأنه لم يستمع، وعن اسباب الإبصار، اذ ابصر ولم ينتفع، وعن اسباب الفقه اذ دُعي الى الخير فلم يتبع! وبهذا اختار عبادة الهوى الضال فلم يأخذ المولى عز وجل بيده الى الصلاح لان استعداده كان لاشباع شهوات نفسه من دنياه وكلما انشغل بها نسي الآخرة فخسرها افلا يتذكر الانسان الآخرة اذا عمل للدنيا وحدها!. ولو كان اهل الهوى على يقين من الآخرة لأسرعوا في رجاء حُسْنِ العاقبة وخشيةِ سوء العاقبة.

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (24) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (26)

الذين اتخذوا آلِهةً بأهوائهم لم يبلغوا بتفكيرهم الى اكثر من الظنون الآتية مما يرونه في الظاهر وهو استقبال مواليدهم ثم دفن موتاهم، فقالوا نموت ونحيا. واما مسبب الفناء في ظنهم فهو الدهر أي مرور الزمن الذي لا يتوقف ولا يُعلَم أوّلُه أو آخرُه. اما البعث فلم يتكلفوا بالتفكير في قدرة من خلق النشأة الاولى ولا يُعجِزُه البعث الى النشأة الثانية. فلما اخبرهم المولى بما هو حق في البعث والحساب وانهم لم يُخلَقوا عبثاً ما كان لديهم من حجة إلّا قولُهم: ((إئتوا بآبائنا))! بينما العلم الذي اوصلهم اليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقنع أُولي الألباب بأن إحياء الموتى يكون يوم القيامة يسيراً على الله تعالى كما انه يسير عليه ان يحييَ الموتى قبل ذلك ولكنّ كلمته سبقت ((أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ)). وهذا العلم يتفاوت فيه من يبلغهم وأكثرهم لا يعلمون.

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (27) وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (29) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (30) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ (31)

ويخبر تعالى (تذكيراً لهؤلاء الكفار) بأنه كما يملك أقدار خلقه ومصائرهم في الارض فهو يملكها في السماء ويوم تقوم الساعة. يومئذ يتحقق لمن لم يؤمنوا، أي للمبطلين، انهم قد خسروا. ويتوزع يومئذٍ كل صنف الى من يماثله ويجتمع فريق كل منهم مع بعضهم فيكونون أُمماً تجثو، كل أُمّة منهم على الرُكبِ فيُكشَف كتابُ أعمالهم ويصدر لهم النداء: ((الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)). ولن يجدوا في ما كُتِب

عليهم وكُتِب عنهم إلاّ الحق فيعلمون انه الحق من ربهم. فمن يجد في كتابه عمَلَه الصالح وتصديق ايمانه يدعى الى الفوز برحمة ربه في الجنة. واما الذين استكبروا وكفروا فيُوَبَّخون اولاً بما يذكِّرُهم بمواقفهم المستكبرة المجرمة وما تصرَّفوا إزاء دعوته تعالى فيقول تعالى:

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (32) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (33) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (34) ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (35) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (36) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (37)

تجاهلوا قدرة الله تعالى في قيام الساعة وداخَلَهُمُ الشكُّ وحانت ساعة صدق الوعيد فعُرِضت سيئاتهم التي لم يتوبوا عنها فلم يجدوا مخرجاً مما حاق (أحاط ونزل بهم وكانوا به مستهزئين. ويبين لهم تعالى عدله بالجزاء من جنس العمل فقد تجاهلوا الحق فخرجوا من رحمة الله تعالى أي تناساهم في قسمتها فليس لهم رحمة تنجيهم مما أحاط بهم في مأوى الكافرين النار. ولم يكن من يشفع لهم اذ فقدوا اسباب الشفاعة والنصر فقد سخروا واغتروا حتى لم يبقَ لهم ما يرضَى به الله تعالى عنهم أي يُستعتبون. وفي ختام هذه المشاهد يعلمنا سبحانه وجوب الحمد لجنابه حمداً نبلغ معناه من تعظيمه ولا ندرك مداه إذ يتجاوز اعلى مراتب الثناء الى ما يليق بمن ليس كمثله شيء فهو ربُّ كل شيء وله ما يليق بذلك من الكبرياء. عزيزاً في قهره حكيماً في حكمه.

سـو ر ة ا لأحـقا ف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (3) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ اِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (4) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (5) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (6)

سبق الكلام على الأحرف المقطعة. وهذه السورة هي الاخيرة من السور المعروفة بـ (آل حا ميم) وتسمى ايضاً: ديباج القرآن، ولُباب القرآن، والعرائس، والفضائل. وهنا جاء بعد (ح~م) بيان من الله تعالى الذي وصف ذاتَه هنا بالعزة والحكمة بأنّ القرآن الكريم منزل منه على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. ثم يؤيد ما سبق أن أيّدَه مِن خَلْقِ السموات والارض بأن ذلك ما كان إلاّ متسماً بالحق أي بآيات تظهر الحق وتبطل الاوهام التي بها يشرك المشركون ويكفر الكافرون، ويؤيد ان الاجل آت في موعده الذي سماه. ومع هذا الحق (في نزول الكتاب وفي الإنذار من عذاب شديد وفي دعوة الحق لسبيل الرشاد) نرى الكافرين لاهين عن ذلك كلّه. وسيأتي الأجل لإحقاق هذا الحق وإبطال ما هم عليه. ويسأل رب العزة ان يأتي أحدٌ منهم بخبر عن شركائه؛ هل منهم من له قسم من الارض قد خلقه، ام قسم في السماء يملكه؟ فإن جعلوهم شركاء في العبادة فمن

اين لهم هذا العلم هل هو في كتاب غير التوراة والانجيل والقرآن والزبور وهي تدعو الى الله تعالى وحده ام انهم عثروا على اثرٍ (مُدَوَّنٍ أو متواترٍ) ممن سبقوا وفيه علم يدعو الى ما يشركون ؟! وفي هذا توبيخ لهم وبيانُ مدى ضلالهم اذ يَدعون من لا يسمع ولا يستجيب! فاذا انقطعت في يوم الحشر صلتهم بما اشركوا، وعلموا انما عبدوهم لمكاسب الدنيا وليس لرجاء الآخرة، كفروا بشركائهم وكانوا لهم اعداءً بدل الإجلال، وكفاراً بدلاً من الثقة الموهومة.

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (7) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (8) قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (9)

الآيات البينات هي الحجج الواضحة التي تشهد على صحتها العقول والقلوب السليمة. فإذا تُلِيَت على الكفار وأحسّوا بميزة الحق والإعجاز فيها نسبوا ذلك للسحر! وكأنهم لهم إلمام تام بالسحر فقالوا "هذا سِحْرٌ مُبِينٌ". ثم يعودون لما قالوا فينسبونه الى بلاغة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وانه اختلقه من عنده! (حاشاه). وبذلك غفلوا عن قدرة الله تعالى كيف يسمح لعبد يفتري عليه كذباً فيُمْهِلَه ويؤيّدَه. فمَن يملك للمفتري حفظاً من أمر الله؟ وهو تعالى أعلم بما يفيضون فيه أي يندفعون فيه بباطل لا يخفى عليه تعالى فقد علم مِن رسوله الصدق، وعَلِمَ منهم ما ألصقوه به باطلاً. فإنه تعالى الشاهد على صدق رسوله وعلى جحود الكفار وانكارهم. وهذا وعيدٌ لهم وإنذار ليتوبوا، وباب التوبة مفتوح، فالله تعالى هو الغفور الرحيم. ويعود تعالى الى هؤلاء الكفار بذكرى لا تغييرَ فيها، وهي ان الدعوة

جاءت كما جاء قبلها من الدعوات على لسان الرسل عليهم الصلوات والسلام. فليس سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بِدْعَاً من الرسل لم يسبقه منهم احد. بل هو لا يدري ما سيكون عليه أمْرُه. وهذا قبل نزول قوله تعالى في سورة الفتح: ((لِيغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً. وينصُرَكَ اللهُ نصراً عزيزاً)). كما لم يكن يدري ما سيكون امرهم عليه بعد هذا الموقف فالله تعالى هو يهدي ويضل ويحيي ويميت وهو على كل شيء قدير وما على الرسول الا اتباع الوحي وتبليغ الرسالة بما فيها من بشائر ومن نُذُر مبينة. صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (11) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (12) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (13) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (14)

((قُلْ أَرَأَيْتُم)) تعني: أخبروني، إنْ كان القرآن من عند الله تعالى وكفرتم به وإنْ جاءت شهادة عالِمٍ بني اسرائيل وهو عبد الله بن سلام رضي الله عنه بأنّ الرسالة والرسول صلى الله عليه وآله وسلم مذكوران في بشارات الكتب السابقة فآمن واستكبرتم فأيهما ارجح حجةً؟ أليس إعجاز القرآن وإيمان الذي عنده علم بالكتب الْمُنْزَلة أرجحَ من إستكباركم الذي هو ظلم للحق يحجب عنكم هدى الله تعالى؟ والله لا يهدي القوم الظالمين. وجاءت فتنة اخرى لمترفي كفار قريش؛ فقد تعرضوا

بالقول على المؤمنين أنْ لو كان الإيمان بما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم خيراً لَمَا سبقهم إليه هؤلاء (يقصدون فقراء المؤمنين من أمثال بلال وعمّار وخباب رضي الله عنهم وجارية كانت تُعذَّب لأنها أسلمت تدعى رنين إشتراها الصديق رضي الله عنه وأعتقها). فتوهموا أنْ لو أراد الله تعالى إرسال رسول لَاخْتاره من مترفيهم المعتزين برئاستهم وأموالهم ولَما اختاره فقيراً! وقد سبق مثل هذا القول في الاية الحادية والثلاثين من سورة الزخرف: ((وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)). فهذا تبرير أرادوا به مخرجاً مُبَرَّراً لكفرهم فقال تعالى عنهم ((وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ)). كما سبق وقالوا "أساطيرُ الأوّلين". وهكذا فُتِنوا بالمستضعفين وبِمَنْزِلَتهم ثم بأساطير الأولين. (وهنا ينبه المفسرون الى العبرة من هذه الآية بأنّ القَرن الأول من المسلمين رضي الله تعالى عنهم قد سبقوا القرون اللاحقة بتطبيق القرآن من حيثُ أحكامُه ومعانيه وأوامِرُه ونواهيه. واثبتوا ذلك في اقوالهم وافعالهم، ونقلته الينا اخبارهم الصحيحة. فما خالف اقوالهم وافعالهم من بعدهم ما هو إلاّ مُستَنْبَطٌ من البِدَعِ، إذ لو كانت البِدَعُ خيراً لسبقهم اليه أئِمّة المسلمين الأوائل رضي الله تعالى عنهم). ونعود الى قوله تعالى ((وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً)): فقد أنزل الله تعالى التوراة مرشدة الى عبادة الله تعالى، ونال بها مؤمنو بني اسرائيل رحمة الله تعالى. فحَكَم بها انبياؤهم والصادقون من أحبارهم حتى دب الخلاف بين اهل البدع فيهم. ولم ينتفعوا بنُزولِ الانجيل فانزل الله تعالى القرآن مُصَدِّقاً للتوراة والإنجيل ((مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمشْرِكِينَ)) بلسان قريش وفيه لهم انذار وفيه لمن آمن البشرى فهو تحذير من مصيرِ مَن لعنهم الله تعالى وهم كَفَرَةُ بني اسرائيل. وفيه تثبيت للمؤمنين إذ يبشر المحسنين بالفوز فيقول تعالى

عن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، أي إلتزموا بشريعة الاسلام في اقوالهم وافعالهم لإعلاء كلمة الله تعالى على سُنّةِ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: بأنهم آمنون يوم القيامة فلا ينتابهم حزن ساعةَ الموتِ، بل يُبَشَّرون بالخلود في الجنة. وهذا من أجرهم عند الله سبحانه.

وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (16)

في اكثر من آية في القرآن الكريم يذكر المولى عز وجل وصيته بالوالدين بعد ذكر التوحيد كما في سورة الاسراء وسورة لقمان. وهنا يورد تعالى بعد ذكر الاستقامة على التوحيد وصيته بالوالدين إحساناً لهما. والإحسان يحمل معنى الاخلاص في بِرِّهما. وبدأ بذكر فضل الأُمّ وما تتحمل في وظيفة الامومة مما تكره طيلة اشهر الحمل وساعة الولادة واحتضان الرضيع بعد ذلك ورعايته حتى يقوى. وقد استدل الفقهاء، وأوّلُهم الامام عليٌّ كرم الله وجهه، على ان أقلَّ مدةِ حَمْلٍ ستةُ أشهرٍ فلا يجوز انكار ذلك على من تَلِدُ بعد الشهر السادس من زفافها إلى بيت الزوجية. فالرضاعة سنتان تقل عن الفصال في نهاية الشهور الثلاثين بستة اشهر. اما بلوغ الأشُدّ فقد قيل فيه تجاوز الثلاثين عاماً من العمر بسنوات يستكمِل بها الإنسان مرحلة الشباب التي تستحكم فيها القوة حتى يبلغ الأربعينَ عاماً وله من الخبرة وتحكيم العقل ما يوجهه الى ذكر العاقبة ودُنوِّ الموت. عندها نجد المؤمن الذي

يرجو الآخرة ويخاف العذاب يتوجه الى المولى القدير الذي علّمه أن يُوْزِعه أي يُحَبِّب إليه أن يشكر النعمة، ولا نعمةَ كالتوحيد وهو بذلك يقصدها اذ يقول: (أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ) أي انها الايمان والعبادة المستمرة في المؤمنين جيلاً بعد جيل. فيذكر ذريته وأنْ يكون بعمله الصالح قد سبقهم به ويتمناه لهم وهو يعلم بأن الله تعالى يعلم منه توبته ويقبلها ومع ذلك يقولها المؤمن تطميناً لنفسه بأنه سَلَّم أمرَه الى الله تعالى وبأن هذه الإنابة جعلها تعالى موضع وعده أنْ يتقبل أحسنَ عمل المؤمن وان يتجاوز عن سيئاته في اصحاب الجنة يجده ناجزاً اليه في رجوعه اليه.

وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (19)

بعدما بين رب العزة وعده لأُولئك الذين يتقبل عنهم أحسنَ ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم في الاية السابقة، يُبَيّنُ حال الذين وقفوا موقف الضد منهم مع والديهم مصرين على الكفر. وضرب لهم مثلاً بمن دعاه أبواه المؤمنان إلى الإيمان بالله والتصديق بوعده تعالى ببعث الموتى، وقد تَوَجَّها إلى الله تعالى بالإستغاثة مِن كُفْرِ ولدهما الذي قال لهما كلمة ضجر: ((أُفٍّ لَكُمَا))، وانكر البعث بعد الموت وتجاهل استغاثتهما وطعن في الدين وجعل القرآن اسطورة من الأوّلين! فما بعد إصراره إلّا أنْ يستحق من الله تعالى ما استحقته أُمَمُ الكفر من الجن والانس من خسارة الآخرة قال فيهم المولى تعالى ((لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنّاسِ أَجْمَعِينَ)).

ويُنَفَّذُ العدل الرباني حسب درجات أعمالهم؛ فللأبرار درجات في الجنة، وللفجار دركات في النار وهم لا يُظلَمون.

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (20)

يُظهِر المولى عز وجل مشهداً للكفار الذين يساقون الى العذاب فيأتيهم نداء توبيخ بأمر من الله تعالى ليبين لهم خسارتهم إذ لم يدّخروا زاداً ليوم المعاد فقد استوفوا حظوظهم الدنيوية واسرفوا بها على ملذاتهم الْمُنافية للإيمان فلم يدخروا من نعماء الله تعالى لمرضاته لمثل هذا اليوم ولم يجدوا حظاً سوى الهوان في عذاب استوجبه لهم استكبارُهم في الأرض بغير حق، وفسوقهم أي خروجهم عن الطاعة. وقد قال تعالى في الاية السابعة والتسعين بعد المائة من سورة البقرة: ((وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى)) فليعتبر الذين لا ينفقون من حظوظهم في سبيل الله تعالى ولا يطيعون في ما فرض الله عليهم في الجهاد في سبيله، وفي أموالهم وفي ما دعا إليه من صالح العمل.

وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (23) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25)

التكذيب الذي لقيَه سيدُنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم قبل فتح مكة يماثل التكذيب واستعجال العذاب ممن سبق من الكفار. فمن التصبير يذكّر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بما صبر به من كان قبله من الرسل ومنهم سيدنا هود عليه السلام فقد انذر قومه بالأحقاف، وهي أرضٌ سهلة مستطيلة في جنوب جزيرة العرب معروفة على الخريطة، (والأحقافُ جَمعُ حِقْفٍ وهو منحنىً رملي). وكذلك بما صبر به رسلٌ آخرون انذروا اقوامهم إذ جاؤهم بالتوحيد لنبذ عبادة الاصنام. واما سيدنا هود عليه السلام فقد حذرهم من عذاب لا يستطيعون ردَّه. إلاّ انهم إعتزوا بما هم عليه واعتبروا دعوة رسولهم إهانةً منه لأصنامهم ليصدهم بالافتراءات الكاذبة عن عبادتها! ولهذا تحدّوه ان يأتيَهم بالعذاب على ثقة من اوهامهم بان ذلك لن يكون. وحُبِس عنهم المطر حتى مُحِلو أي نفدت ارزاقهم فأوفدوا موفداً الى مكة ليستسقي لهم بالاصنام! ولَمّا رجع إتفق مجيئه مع مجي العذاب بسحابة سوداء هبت معها رياح عاصفة إستبشروا بنزول المطر منها ولكنها فاجأتهم بعذاب ينبعث من ثقوب فيها ما تركت احداً إلاّ المؤمنين الذين اعتصموا مع سيدنا هود عليه السلام، بأمرٍ من الله تعالى، في حظيرة منيعة ثم هاجروا بعدها إلى مكة وعُرِفوا بـ(عادٍ الثانية). والحظيرة هي سياج منيع من أغصان تأوي إليها الإبل أو الغنم.

وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (26)

تُظهِر هذه الاية التشابهَ في موقف الكفار اينما كانوا. فان جحودهم بآيات الله تعالى التي جاء المرسلون بها، مع ما اعطاهم ربهم سبحانه من نِعَمٍ وسمع وبصر وفؤاد، يوجب عليهم الجزاء. فقد مكَّن الله سبحانه قوم هود عليه السلام في الأرض متمتعين بالسمع والبصر والأفئدة فجحدوا بها فلم تنفعهم لَمّا احاط بهم الوعيد. فنزل بهم ما استهزأوا به وكانوا قد استبعدواً حصوله.

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآَيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آَلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (28)

يخاطب المولى عزّ وجلّ كفار مكة بخبر هلاك أقوامٍ سكنوا المدن حولهم جاءهم من الرسل الذين أورد القرآن منهم هوداً وصالحاً ولوطاً وشعيباً عليهم الصلاة والسلام بالبينات فكذّبوهم. ولقد صرَّف المولى آياته أي كرّر عليهم الحجج وبيّنها وأوضحها مراراً لَعَلّ الذين بلغتهم الايات يرجعون عن عبادة الاصنام الى عبادة الديّان سبحانه عن كل شريك. فما من شريك توهمه كفار الأقوام المذكورين له حظ في نصرهم مع انهم اتخذوهم شفعاء. فلما جاءهم الهلاك وغابت آلِهَتُهم عن نصرتهم تبين لهم كذبُهم وافتراؤهم. وها هم كفار قريش يتشفعون بأصنامهم كما فعل أُولئك فليعتبروا، وليعتبر من أعرض من امثالهم الى يوم الدين.

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآَنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (30) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ

وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (31) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَولِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (32)

النفر في اللغة هم ما دون العشرة عدداً. وفي التفاسير انهم من جن نصيبين. كان الرسول يصلي الفجر في اصحابه رضوان الله عليهم فمر هؤلاء النفر من الجن فحضروه صلى الله عليه وآله وسلم يتلو القرآن فأنصتوا. وبعد هذه الصلاة ذهبوا الى قومهم مخبرين بما سمعوا وانه مصدق للتوراة وفيه بيان الحق وهو الاسلام. واشفق هؤلاء النفر على قومهم خشية أن لا يؤمنوا فلا ينالون بذلك المغفرة وولاية الله تعالى. وقيل في هذا السياق ان قوم هؤلاء كانوا يأتون الى المدينة لسماع القرآن والتشريع فيصدقون خبر القرآن ويعملون بعدله فقد وجدوه صدقاً في الخبر وعدلاً في الحكم ويهدي إلى الثبات على صراط الشريعة المستقيم. وجاء في التفاسير ان الله تعالى هو الذي اخبر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بخبر الجن فقد قال في اول سورة الجن ((قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا)). وقد وردت عدة أحاديث في اخبار الجن ومن أسلم منهم. وكل ذلك بالنسبة لنا خَبَرٌ ذو عبرة في تكريم بني آدم عليه السلام اذ اثبت المفسرون ان الرسل عليهم الصلاة والسلام هم من البشر فقط وهذا لا يتعارض مع قوله تعالى ((يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ)) فالْمُنادَى معشرهما أي جماعتيهما كفئة واحدة. أي من البشر ومن الشق الآخر وهم الجن. وإنّ نَفْيَ كونِ الرسل من غير البشر وَرَدَ في قوله تعالى ((وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى))، وقوله عن سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام: ((وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ)). فيكون الجن الذين أنذروا قومهم ليسوا رسلاً

بالمعنى المعروف عن الرسل بل منذرين. وبهذه الصفة يتولّون عمل الرسل بإنذار اقوامهم وبتبشيرهم بالمغفرة كما جاء في الايات هذه. والعلماء ورثة الانبياء.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (33) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (34) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (35)

في خلق السموات والأرض آيات من أوجُهٍ لا تحصى. هنا يبين المولى تعالى آيته في خلق السموات والارض بأنه لم يَعْيَ بخلقهن. بينما من يريد من البشر صنع شيء من الآلات يتدبر كثيراً في نظامها لكي لا يختل فيها جزء من أجزائها في عدم انسجامه مع غيره فيها. وبذلك التدبير يجهد فكره لكي يتوصل الى الحل. ثم بعد ذلك يُحسِّن وينسِّق. وهنا (مع ما في السموات والارض من انسجام كل ذرة مع باقي الذرات في كل الكون) يبين المولى عز وجل انه (لَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ) أي لم يستصعب خَلْقَهُنّ بتقليب وجهات النظر في المخلوق بل أمَرَ بما شاء فكان ما أمَرَ من غير خلل او تطوير حتى تقوم الساعة. (وفي هذه الاية إشارة الى أن التشريع الاسلامي يصلح حتى تقوم الساعة). فهؤلاء الكفار، ألم يروا أن الله تعالى كما لم يصعب عليه الخلق الأول قادر على إعادة الخلق في إحياء الموتى والجزاء العادل الذي يحق به الحق بعد ذلك حتى لا تكون الحياة الدنيا عبثاً؟ كل هذا جوابه (بلى) يقولها المؤمنون ويقولها الله تعالى تأييداً لهم وتوبيخاً لِمن كفر بذلك. فالله تعالى على ما يشاء قدير. ثم لا يترك المولى عز وجل كفران هذا الحق المبين من غير بيان لمصير

الكافرين. فإنهم سيقولون "بلى" كما قالها المؤمنون في الحياة الدنيا ولكن قول الكفار (بلى) سيكون بعد أن يُعرَضوا على النار أي وهم يساقون الى مشارفها ويرونها فيقولون "بلى" ويقسمون على ذلك وكان قولُها مطلوباً منهم في البداية فيقال لهم: فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون. أي بآيات الله. فالعذاب جزاؤهم. وهنا يصل المولى تعالى مع رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم الى الامر الذي اراده منه وهو الصبر كما صبر أُولو العزم من الرسل وهم، بالإضافة إليه، نوح وابراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام وكانوا أشد الناس بلاءً. وقد روى ابن ابي حاتم عن عائشة رضي الله عنها حديثاً قالت: ظل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صائماً ثم طواه ثم ظل صائماً ثم طواه ثم ظل صائماً ثم قال ((يا عائشة ان الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد! يا عائشة ان الله تعالى لم يرضَ من أُولي العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهِها والصبر عن محبوبِها ثم لم يرضَ مني إلاّ ان يكلفني ما كلّفهم فقال: فاصبر كما صبر أُولو العزم من الرسل. واني والله لأصبرنّ كما صبروا جَهدي ولا قوة إلّا بالله)). وامتثل صلى الله عليه وآله وسلم للأمر بأن لا يستعجل على هؤلاء الكفار فإن عيشهم، وإن طال، سيرونه ساعة من نهار إذ يرون العذاب. فهل يمكن ان ينجوَ منهم احد؟ ويكفي أن يكون هذا بلاغاً لكفار مكة. والله تعالى بالمرصاد للفاسقين.

سورة مُحَمّدٍ (صلى الله عليه وآله وسلم)

أو سورة القِتا ل

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (2)ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (3)

الذين كفروا بآيات الله ويَصدُّون غيرهم عن الايمان، لا يفلح عملهم أي لا يقبل لهم عمل ولكن يكتب عليهم إثم سعيهم لمحاربة الدعوة الصادقة. اما الذين آمنوا فعلى خلاف ما حصل للكفار؛ فإذ تبطل أعمال الكفار، ينال المؤمنون الذين يعملون الصالحات مع إيمانهم بما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعداً من الله تعالى بأن يغفر لهم ويصلح احوال قلوبهم وتمسكهم بالشريعة أي يصلح ظاهرهم بالعبادة وباطنهم بإنقياد سرائرهم للخشية وصدق الايمان. وفي هذا الإيضاح تحذير لمن يتبع الضلال إذ لن يقام لعمله الباطل وزناً، وبشارة لمن يتبع الحق بالمغفرة وصلاح البال. وقد أشار المولى تعالى إلى علامة الايمان بأنه إتباع ما أُنزِل على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ووَصَفَهُ بالحق فلا يُنسَخ أبداً. مِلّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين.

فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (4) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (5) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (8) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (9)

اللقاء هو المواجهة في الحرب بالسهام والرماح والسيوف (بعد مُقَدِّمات القتال الاخرى) وكان مثلُ هذا اللقاء الصفحةَ الرئيسةَ للحرب وغالباً ما يؤدي إلى حسم المعارك كما حصل في بدرٍ الكبرى. لذا اشار تعالى الى ضرب الرقاب آمراً بإستهداف الأماكن المؤدية للوفاة. وهذا يؤدي إلى ازدياد قتلى العدو مما يدعو محاربيهم الآخَرين للاستسلام فيُشد وَثَاقُهم. وللامير المؤمن أن يَمُنّ عليهم او أنهم يُفادون انفسهم بالمال. وفي هذا السياق حول الاسرى روعيت أحكام سورة التوبة. واجتهد الفقهاء في أمرِ الأسرى على ضوء قوله تعالى في الآية السابعة والستين من سورة الانفال ((مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ..)) الآية. وخلاصة فتاواهم ترْك الأمرِ للأمير؛ إن شاء أسَرَ ثم أطلق، وإن شاء قَبِل الفدية، وإن شاء إعتبر أسراه مماليك وفتح لهم باب المكاتبة أي يحررون أنفسهم بكسبهم ولهم حق في معونةٍ من المسلمين لهم على ذلك، وإن شاء إستبقى الأسرى ليفاديَ بهم أسرى المسلمين إن وجدوا عند العدو، وإن كان هناك من أُهدِر دمُه منهم لإرتكابه جرائم حرب فله أن يحاكمهم. وهذان الأُسلوبان الاخيران يتفقان مع الأعراف الحربية في هذا الزمن. فسبحان من يسَّر للمسلمين سبل الاختيار في

الامور التي فيها الجديد الذي لم يكن قائماً أيام نزول القرآن. وقد كشف المولى عز وجل حكمته في حثه على النصر السريع إذ أمر بالإستعداد لكل الظروف الحربية متفانين في الجهاد لأنه إعلاءٌ لكلمة الله تعالى وعاقبته إحدى الْحُسْنيَيَن؛ النصر، او الشهادة. فالذين نالوا الشهادة في سبيله تعالى فهو يبشرهم بسداد اعمالهم وهداهم وصلاح احوالهم ودخولهم الجنة اذ أبْلَوا بلاءً حسناً في ابتلائه للصابرين في الجهاد. وفي هذه الآيات إشارة الى قيام الجهاد والأمر بالقتال ما دام هنالك كفر واعتداء على ارض الاسلام إلى أن ينشر الرحمن دينه فيظهره على الدين كله ((وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)) كما جاء في الآية الثانية والثلاثين من سورة التوبة. ومن هذه الايضاحات يبين تعالى من اسباب نصر المؤمنين هو النية الخالصة لنصرة دينه فإنه تعالى ينظر الى القلوب ويثبت اقدام الصادقين. وأما من يحاربون الله تعالى بالصد عن دينه كما يحصل في كل زمان فقد كتب عليهم التعاسة وضلال اعمالهم عن الغايات التي أرادوها. وبين سبب خيبتهم بأنهم كرهوا الاسلام والحق الذي فيه فأحبط أي أبطل غاياتِهم فذهبت جهودُهم سُدىً.

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (10) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (11) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (13)

تخبرنا الآيات عن كُفّار مكة قبل الهجرة، وقد عرفوا من اسفارهم أخبار الذين هلكوا قبلهم بسبب تكذيب الرسل. وهذا يعني انه يحصل للكافرين من قريش امثال

ما حصل للهالكين ثم لا يجدون من يتولى امر نصرهم. فالله تعالى خصّ المؤمنين بولايته في النصر لأنهم يقاتلون لإعلاء كلمته. والنصر قد يكون سريعاً أو يؤخّر لحكمةٍ كعقد الهدنة كما حصل في صلح الْحُدَيْبِية. وفي هذا يبين المولى عز وجل قيمة حياة المؤمن الصادق وثمرتها الجنة ونعيمها الخالد بينما حياة الكافر إستمتاع قليلٌ بالدنيا كما تتمتع الانعام في معالفها ومراعيها ومن ورائها الذبح، فمن وراء الكافرين نار ينزلون فيها ولا مقام لهم غيرها. ويورد المولى عز وجل نبأ القرى التي هلكت كم كانت كثيرة وكم كانت ذات قوة اكثر من قوة كفار مكة الذين سببوا هجرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أي إضطروه للهجرة. فلما اذن الرحمن بهلاك تلكم القرى لم يجدوا لهم نصيراً. وفي هذا تحذير لهؤلاء الكفار من مصير الهالكين.

أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (14) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (15)

الذي هو على بَيّنة من ربه هو الذي جاء بالحق ببرهان مبين وحجة قوية هي القرآن المعجزة من الله تعالى وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، هل يماثل الذي اتبع هواه فرآه حسناً وهو أسوأ ما يكون ازاء البرهان المبين. واورد المولى عز وجل مَثَلَ الجنة والنار بعد مثل المؤمن والكافر فالجنة تُماثل المؤمن في صفاء قلبه وحسن عمله كالماء النقي واللبن الطيب وفي تلذذه بالعبادة وذوق القرب من الله

تعالى كالنشوة وطيب العسل والثمرات والشعور بالقرب مع رجاء المغفرة. هل يماثل هذا ما للكافرين في النار من خلودٍ وسُقيا ماءٍ ساخن يقطّع امعاءهم؟

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (16) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (17)

من بين الكفار منافقون يختلفون عن اهل الكفر الصريح بأنهم يحضَرون حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مُظْهرين الايمان مُخفين الكفر فاذا سمعوا لا يفقهون لأن قلوبهم تكون لاهية بلا رغبة للعلم. فبعد خروجهم يسألون عن المعنى ممن كان حاضراً من المؤمنين وهم اصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. فالمنافقون طبع الله تعالى على قلوبهم أي أغلقها عن الفهم الصحيح وختم عليها لأن مقاصدهم كانت غير صحيحة متبعين ما تهوى الانفس الضالة. واما الذين كان قصدهم من حضور مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المزيد من العلم والهدى من اجل الاتباع فإن الله تعالى ثبّتهم بزيادة الهدى وارشدهم سبل التقوى وكَتَبَها لهم.

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (18)

الكافر سبق له الذكرى فلم تنفعه فكيف تنفعه عند قيام الساعة وقد جاءته بغتة فانقطع العمل. وأما اشراط الساعة فقد روى البخاري عن سهل بن سعد

رضي الله عنه قال: "رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال بإصبعيه هكذا بالوسطى والتي تليها: ((بُعِثْتُ انا والساعة كهاتين)).

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19)

الفاء هنا تعطف هذه الآية على اخبار الايات السابقة من حيث المعنى بأن الامر في مجموعه يدعو الى العلم بوحدانية الله تعالى. وأمَر المولى رسولَه صلى الله عليه وآله وسلم ان يستغفر ربه. ومع ان الانبياء معصومون فانهم يستغفرون اذا تركوا عملاً بإجتهادهم حتى اذا بين لهم الوحي ما هو الافضل مما كانوا عليه بادروا الى اتباعه والاستغفار. كما طلب سبحانه الاستغفار للمؤمنين والمؤمنات وهذه من رحمة الله تعالى لنا. اما الاستغفار فقد وردت في فضله ايات وأحاديث كثيرة ولا سيما وأن الله تعالى مطلع على كل تصرف يتصرفه الانسان وكل احواله وتحوّله من سلوك الى سلوك في كل موضع يكون فيه، أي (مُتقلَّبكم) في الدنيا و(مثواكم) في الاخرة. فالاستغفار يكون عامّاً لكل الذنوب. فذنوب عامة الناس تختلف عما يحصل من الأنبياء عن غير قصد منهم كما جاء أعلاه فهم (عليهم الصلاة والسلام) في طاعةٍ عند الأمر والنهي. بينما ذنوب غيرهم هي من قبيل الخروج عن الأمر في ارتكاب الصغائر والكبائر والعياذ بالله تعالى من كل ذلك.

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ (20) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (21) فَهَلْ

عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (23)

كـان المؤمنـون يأملـون نـزول آيات تفصّـل أُمـورَ الجهـاد لـدفع الشـبهات والإلتباسات في ذلك. فإذا أُنزِلت سورة لا تَحتمل وجهاً غير وجوب القتال، أي مُحكمة مُبينة بلا تشابُهٍ ولا نَسْخٍ، (وآيات القتال لم تنسخ)، فإن الذين في قلوبهم مرض (أي أن قلوبهم لم تكن سليمة للإيمان بل مصابة بتذبذب النفاق أقرب ما تكون للكفر) يظهر عليهم الضجر ويظهر في نظراتهم الجزع مثلما يجزع العاصي إذا ذكر الموت فانه يغطي عليه الإدراك من الحيرة والخشية. وهذا شأنهم الذي ينبغي أن ينزل بهم وهو وعيدٌ لهم وكان الأجدر بهم وهو الخير الأفضل لهم أن يطيعوا في هذا المقام ولكن ليست قلوبهم قلوبَ صدقٍ إذا جد القتال ولو صدقوا في الإيمان والطاعة لنالوا خيراً كثيراً. ويرجع المولى تعالى لتوبيخهم بمخاطبتهم بأنهم إذا تولّوا عن الطاعة والجهاد أي عن دين الإسلام وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سوف يعودون إلى الجاهلية وما كان فيها من مفاسد الأخلاق وقطيعة الأرحام والخصومات. ومن يفعل ذلك فقد أوجب على نفسه لعنة تجعله بعيداً عن أن ينال رحمة الله تعالى فلا يطيب له سَماعُ الموعظة كأنه أصمّ ولا إتباعُ الهدى كأنه أعمى.

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (25) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (26)

يحث المولى عز وجل على تدبر معاني كتابه الكريم الذي غفل عنه المنافقون وهم فئة من أهل المدينة وعدوا اليهود فيها بأنهم لن يكونوا ضدهم اذا قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وكان هذا الوعد سراً بينهم وبين اليهود فغفلوا عن علم الله تعالى بما أَسَرُّوا. ولو تدبروا القرآن وزواجره لما أقدموا على هذه المعصية. ولكن أنّى لهم ذلك وقلوبهم مقفلة بالشك في الآخرة والميل للدنيا؟ ولو تفتحت قلوبهم لذكروا الله تعالى ورغبوا إليه. فمن عرف الهدى ثم أدار له ظهره تسلط عليه الشيطان فرغّب إليه المعصية وأنساه إطّلاعَ الله تعالى على نواياه الخبيثة.

فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (28)

اذا حضرت الكافرَ وفاتُه وهو على إعراضه عن الهدى يتهاول المصير فيحاول الفرار من الموت فتضرب ملائكة الموت وجهه الذي أداره عن الحق وظهره الذي أداره إليه كارهاً إتّباعَه مسخِطاً ربه تعالى خاسراً رضوانه فلا يقام وزنٌ لعمله الذي لم يُرِدْ به وجهَ ربِه سبحانه.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (29) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (30)

الذين أُصيبت قلوبهم بالشك فنافقوا وحقدوا كانوا في غفلة عن تصرف الله تعالى معهم. وهو القادر على كشف نواياهم التي تعبّر عن أضغانهم وهي الحسد والحقد على المسلمين ولا سيما المجاهدين منهم فيتساءل سبحانه عن غفلتهم مُنكِراً سوء ظنهم به سبحانه ويتوعدهم ويبين قدرته على فضحهم وعلى أن يجعل لهم

سِيمَىً يُعرفون به كمنافقين. ومن كانت سريرته فاسدة فإن لسانه يسبق بالقول بما فيها من سوء (وهو لَحْنُ القول) من غير قصد. فيُعرَف عند ذلك أي عندما يُلحِن ثم يصحح الى كلام آخر يتلافى فيه فَضْحَ ما أسرّ. وأما اعمال المنافقين وأعمال الصالحين فالله تعالى أعلمُ بها وبدوافعها وغاياتها وسلوك اصحابها.

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (31)

مِنْ تَصَرُّفِ المولى مع عباده ان يبلوَهم بأمر وهو اعلم بما سيكونون عليه فيه، أي ما سيتخذونه من إجراء لتنفيذه او التهرب منه. فَعِلْمُ الله تعالى بالنسبة له أزَلِيٌّ معروف من البدء ومفصّل في ما قدّر. وبالنسبة لنا يحصل العلم بالأعمال بعدما تحصل فنحكم عليها بحكم الشريعة. فالمجاهدون والصابرون علموا عن انفسهم ما كان في علم الله تعالى. والمنافقون المتخلفون علموا عن احوالهم ذلك عند الإبتلاء فلا حجة لهم. وعلى هذا الميزان يكون الجزاء.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (33) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35)

بين المولى تعالى بالآيتين الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين سبب إعراض الذين صدوا عن الهدى بعدما تبين لهم وهو ما زينه لهم الشيطان من الْمَيْل للدنيا بعد أن فضلوها على الجهاد في سبيل الله وكرهوا الجهاد ووعدوا اليهود بطاعتهم في

بعض الأمر. وهنا يبين بأنهم والكفار الذين صدوا الناس عن سبيل الله وشاققوا أي عاندوا في قبوله حتى وقفوا موقف العدو للرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعدما اتضح لهم الهدى لن يضروا الله تعالى بشيء وسيُكتَب عليهم ذلك وتُحبَط النتائج التي أرادوها من عداوة الدين وأهله فلا يحصل الضرر إلاّ عليهم. وفي هذا عبرة للمؤمنين ليلتزموا بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله أي الثبات على الإيمان والإتباع بلا رياء. وإلاّ فإن المعاصي تقود الى ما هو أسوأ بإنتهاك حرمات الله تعالى ما لم تكن بعدها توبة نصوح يبدل الله تعالى بها السيئات حسنات بدلاً من أن يبطل الأعمال. وأمّا من لم يطع أي كفر واخذ يصد غيره من الناس عن الإيمان ثم أدركته الوفاة على ذلك الحال فإنه قد خسر مغفرة الله تعالى. واما الثبات على الإيمان فيتجلى في مجاهدة أعداء الله تعالى. فأَمَر المولى سبحانه وتعالى عباده المؤمنين أن يستمدوا القوة في الجهاد في سبيله من ثقتهم بأنه تعالى مع المجاهدين في سبيله فلا يتخاذلون أمام العدو حتى الرمق الأخير او النصر المبين. فإذا رجحت الغلبة لهم فلا يدعون الكفار للصلح فالله تعالى ناصرهم ولن يُنْقِصَهُم من أجر جهادهم.

إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36) إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (37)

إذا خَلَتْ الحياة الدنيا من الإيمان والتقوى في السلم والحرب، أي جهاد النفس وجهاد العدو، فإن ما يتبقّى منها ما هو إلّا لَعِبٌ ولَهْوٌ خاليان من الاجور الحسنة ومُبعِدان عن الله تعالى وقصيران في الأمَد. والله تعالى في غِنَىً عن كل جهاد للنفس او للعدو انما يمهد السبيل للمؤمن بأنْ يَكسِبَ الأجر. وهو تعالى في غناه لا يسأل كل المال بل نصيباً مفروضاً وهو غيض من فيض يعود نفعه في الدنيا للفقير

والمسكين ويعود نفعه في الآخرة لمن انفقه. وينال اللهَ تعالى من ذلك التقوى أي ان النسبة المفروضة هي لبيان التقوى فلو أحفاهم أي أجهدهم بأخذ المال الكثير منهم لوصلوا إلى حالة من الفقر تترك القلوبَ في حَيْرَةٌ من ذلك حاملةً ضغينة متعلقة بتحرُّكِ نوازعِ البخل وإثارة تساؤلِها وحيرتها. اما في الجهاد فالدعوة له اكبر اذ يكشف تعالى انه سبب دوام عزة المؤمنين وسيادتهم ووجودهم في حفظ الله تعالى وإلّا فإنّ له تعالى شأنٌ أشدّ إذ يقول:

هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (38)

الخطاب هنا لعامة المسلمين الى يوم القيامة وكل من يدعوه داعي النفقة في سبيل الله تعالى سواء في الجهاد ضد العدو او الفرائض والصدقات. وهذه الدعوات لها ردٌّ من الناس؛ فإمّا إستجابة بدون تردد، او استمهال، او تساؤل، وإمّا بخل مُهلِكٌ يحجب الأجرَ عن صاحبه أي يبخل عن نفسه. فالله تعالى في غِنَىً والعبد في افتقار اليه. وما اعطاه إلّا ليبتليه أي يرى تصرفه في المال أيُمسِكه لغيره ام يقدمه لنفسه؟ فإنْ أمسكه لغيره فقد تولّى أي تخلف اذ دعاه الله تعالى لنصرته والله تعالى أقدرُ على ان ينصر دينه بأقوام آخرين هيأهم لذلك فلا يترددون عن نصرته كما يتردد الذين إذا تولّوا ونزَع سبحانه منهم العزة والسيادة ليعطيها لمن يبيعون أنفُسَهم وأموالَهم بأنّ لهم الجنة، كما جاء في سورة التوبة ((إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)). وها هي احداث التاريخ الاسلامي ولا سيما تاريخُ الحروب الصليبية كيف طهّر الله تعالى القدس الشريف بعد ان هيأ لذلك جند

القائد الصادق صلاح الدين يوسف بن ايوب رحمه الله. والله تعالى يهيؤ من ينصر دينه الى قيام الساعة ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون.

سورة الفتح

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (2) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (3)

نزلت هذه السورة لما رجع رسول الله وجندُه (عليه وآله الصلاة والسلام) يوم الحديبية ولم يدخل مكة مُعتمِراً بسبب صُلْحِهِ مع قريش فوعده الله تعالى بفتحها. وكان صلح الحديبية فتحاً إذ رأى المشركون شدة تمسك المسلمين برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مما اخافهم فلم يقابلوا قدوم المسلمين بالسلاح بل صالَحوهم وقد كانوا قبل ذلك يهجمون كما حدث في خروجهم لقتال المسلمين في معارك بدر وأُحُد والخندق. واما مغفرة الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم فليس معناها ثبوت ذنب بل هي من النِعَم التي رفع الله بها منْزِلتَه. فلإتمام النعمة وللإقتداء فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يستغفر الله تعالى وكان الأمثل في طاعته لربه تعالى. (أُنظر معاني الآية التاسعة عشرة من السورة السابقة: القتال).كما أنّ تمام النعمة يحصل لمن غفر الله تعالى لهم ما تقدم وما تأخّر من الذنب فبشره تعالى بتمام النعمة وتشريع الشريعة لأُمّته فهي الصراط المستقيم. ثم بشره تعالى بالنصر العزيز وهو فتح مكة ودخول الناس في دين الله افواجاً.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (5) وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (6) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (7)

هذه معية الله تعالى مع عباده. فهو مع المؤمنين يجعل الطمأنينة في قلوبهم فتنشرح صدورهم بعد ان استجابوا لله وانقادوا لحكم الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم في صلح الحديبية بالقبول بالصلح. وكانوا يوَدّون قتال المشركين ولكن صبرهم على الطاعة في قبول الصلح كان تعظيماً لأمر الله تعالى فزادهم المولى ايماناً مع السكينة، وفي السكينة حب الصبر والثقة بوعد الله تعالى بفتح مكة. وقد بيَّن تعالى انه يرسل الملائكة جُنْداً يُنْزِل بهم السكينة في قلوب جنده فلا يقرب شيء من وساوس الشيطان إليها مع ما يبشرهم بالجنة وما فيها من نعيم ويكفر عنهم سيئاتهم أي يجعل أعمالَهم الصالحة سبباً لِمَحْوِ السيئات. وفي هذا فوز عظيم لهم وعذاب شديد للمنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات في حرمانهم من السكينة والبشارات جزاء ما وقع في قلوبهم من شك وريبة في صدق وعد الله تعالى (وهذا من إساءة الظن به). فألقى الله تعالى الحسرات في قلوبهم ولعنهم أي ابعدهم من رحمته بذلك مع الوعيد بجهنم وبئس المصير. ولله جنود السموات والارض يسخرهم للمؤمنين بما يشاء من نصر، ويسلطهم على المنافقين والمشركين ليجعل ما تمنوه من سوء للمسلمين مردوداً عليهم مع غضب المولى عليهم ولعنته وعذابه.

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (9) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (10)

في الآية السادسة والأربعين من سورة الاحزاب إيضاحٌ لِما ارسل الله تعالى به رسوله صلى الله عليه وآله وسلم كشاهدِ صدقٍ ومبشرِ صدقٍ ومنذرِ صدقٍ فهنيئاً لمن شملته البشارة وويل لمن لم يأبه للنذير. كما جعل اللهُ تعالى رسولَه صلى الله عليه وآله وسلم شاهداً لأُمّته يوم القيامة وشاهداً عليها في مواقف كل فرد من أُمّته؛ يشهد للمتبع، ويشهد على العاصي. ويبين المولى عز وجل سبب رحمته في رسالة الاسلام ليؤمِنَ المؤمنون مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالله وبرسوله وليعّزِروا دينه الحق أي يعظموا شعائر الله ولِيُوَقِّروا مولاهم العظيم في ذِكرِهِ وشكره، وليسبحوه بُكرةً وأصيلاً إشارةً لصلاة الفجر وباقي الصلوات اليومية. ويبين تعالى تشريفه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم في مبايعته (بيعة الرضوان تحت الشجرة يوم الحديبية) إذ جعلها مُبايعةً للهِ تعالى. فعَقْدُ الميثاقِ فيها مع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم هو عقدٌ مع الله جل جلاله فهو تعالى منَزّهٌ عن التجسيد في قوله: ((يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)) فالمعنى تأييد الله لهم. فكانت يد رسول الله فوق أيدي المؤمنين تمثل تأييد الله تعالى على سبيل التخييل أي يقع في الذهن حضور الله تعالى معهم يسمع ويرى ويشهد لهم فمن بلغ هذا المقام واوفى البيعة بالنفس والمال فقد استوجب له الاجر العظيم من الله تعالى، ومن ينكثْ أي لا يجاهد يقعْ ضرر النكث على نفسه. والوفاء بالبيعة هو الجهاد. فقد روى ابن ابي حاتم عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((من سلَّ سيفَه في سبيل

الله فقد بايع الله)). وهذا الوفاء يعود للمؤمن بالأجر، فالله تعالى غني حميد فهو سبحانه وتعالى في غنىً عن نكث الناكثين. وكان عدد المؤمنين الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تحت الشجرة الفاً واربعمائة على ارجح الاقوال واما باقي الاقوال فهي كون عددهم بين الف وثلاثمائة، والف وخمسمائة.

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (11) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (12) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (13) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (14)

هنا لا بد من ذكر مقدمات المسير الى مكة عام الحديبية؛ فان ذلك كان اول عام يتقدم فيه المسلمون بقيادة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نحو مكة للعمرة بعدما كان المشركون يغزونهم في المدينة. ولهذا اراد ان يستنفر معه عدداً اكبر من المسلمين من المهاجرين ومن اهل المدينة ومَن حولها من الأعراب واهل البوادي أي اعراب غُفارٍ ومُزَينةَ وجُهَينةَ وأسلمَ وأشجعَ والدئلِ لكي يحتاط من قريش في إحتمال قيامهم بِهجوم او تحرُّشٍ ليصدوهم عن المسجد الحرام. فلبس الإحرام وساق الْهَدي أي الذبائح لكي يبين انه مُحْرِم ومعه هَدْيُ الكعبة فليس في نيته القتال. فلما عرض على هؤلاء الخروج معه تثاقل كثير من افراد هذه القبائل واخذوا يلغطون فيما بينهم بانه صلى الله عليه وآله وسلم سيواجه قوماً حاربوه ولهم ثارات معه ولعله لن يرجع سالماً. فلما رجع هو ومن معه بسلام وامان نبّأ المولى عز وجل رسوله بان هؤلاء

المخلفين سيعتذرون بأعذار غير صحيحة بمصانعةٍ كاذبة ثم وجّهه الى الجواب الذي يُرَدّ به عليهم كما جاء في الايات هذه وما فيها من كشف نواياهم وما وسوس لهم به الشيطان من هلاك المسلمين فكانوا بذلك قوماً بوراً أي ظنوا أن الباطل ينتصر على الحق خلاف ما يؤمله المؤمنون فكانوا بوراً أي هالكين فاسدين. وحذرهم تعالى من خسارة الإيمانَين أي الايمان بالله والايمان برسوله صلى الله عليه وآله وسلم. ومصيرهم عندئذٍ في "سعير" أي نار مخصوصة بهذا الاسم مثل "لظى" فهو اسم لِنارٍ مخصوصة اخرى. وبعد هذا يبين المولى القدير تدبيره في مُلكِه بقدرته وحكمته فيغفر لمن علم منه الصلاح ويعذب من يشاء من غيرهم. وهو أبداً ذو مغفرة ورحمة. وفي هذا إشارة ليتلافَى المخطئُ زلّته.

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (15)

بعد صلح الحديبية كانت نية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يغزوَ خيبر. وهنا إشارة من المولى عز وجل الى جعل الجيش الذي سيوجّه إلى خيبر من اهل بيعة الرضوان حصراً. فقد وعدهم تعالى مغانم كثيرة. فالذين تخلفوا عن الخروج الى الحديبية إذا طلبوا الخروج الى خيبر يقال لهم بأن الله تعالى قَصَر وعدَه على أهل الحديبية، ولا يُبدّلُ كلام الله، فلا يؤذن للمتخلفين هؤلاء بالخروج الى خيبر. وقد دار في خَلَد هؤلاء المتخلفين ان اهل بيعة الحديبية سيحسدونهم عندما يشتركون معهم في المغانم من خيبر من غير أن يشهدوا الحديبية. وهذا من قصور فقههم لمراد الله تعالى وحكمته. فمنظورهم للأمر ليس فيه كمال المعرفة بالجهاد في سبيل الله تعالى.

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (16) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (17)

الذين تخلّفوا من الأعراب عن الخروج إلى الحديبية، لكي يتلافوا زلّتهم، جعل الرحمن تعالى لهم فرصةً في لقاءٍ لاحقٍ مع عدوٍّ آخر. ومن صفات هذا العدو أنه غير مسلم وذو بأس شديد ليس من اهل الكتاب او المجوس اذ انه سوف يُخَيَّرُ بين القتل او الدخول في الاسلام فلا يطلب منه الجزية التي تطلب من أهل الكتاب والمجوس. وفي التفاسير إن هذا الحُكْمَ ينطبق على عَبَدَةِ الاوثان والاصنام والمرتدّين. وقد جرى ذلك على الذين ارتدوا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى عبادة اصنامهم وأوثانهم. بينما كان صلح الحديبية مع قوم خلاف ذلك وهم قريش. وفي الاية اشارة الى ان النصر سيكون للمسلمين. فما على اولئك الذين تخلفوا إلاّ أن يطيعوا لِنَيل الاجر الذي فاتهم. فإن تخلفوا كما فعلوا من قبل فقد توعّدهم المولى عز وجل بالعذاب الاليم. وقد حصلت فعلاً المواجهة مع المرتدين وحصل النصر الموعود عليهم في خلافة ابي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه. وفي الاية بيان للحالتين أي التخلف والطاعة فالحكم قائم لكل قتال بين المسلمين واعدائهم. فمن تخلّف بلا عذر فعذابه أليم لأن الجهاد يستوجب الطاعة لمن لا عذر له. وله الأجر الحسن على الطاعة. وقد بيّن المولى تعالى أحوالاً لا توجب النفار ولا تعتبر تخلفاً كالتفقه في الدين والأعذار الناجمة عن عاهات كالعمى والعَرَج والعَوَق في الاعضاء

الاخرى مما يعيق الحركة وهذا عذر دائم لأهله. واما المرض فهو عذر يزول مع الشفاء.

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (19) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (20) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (21)

الشجرة هي شجرة الرضوان وهي شجرة سَمُرَة (بفتح السين وضم الميم) وهي من صنف الاشجار ذات الاوراق الإبَرية وذات اشواك وهي عُضاهة أي (الشجر العظيم الشوكي)، وتسمى ايضاً (طلحة)، ويكون حجمها كبيراً نسبياً بالنسبة لأشجار ذلك الجزء من الحجاز. وجاءت تزكية المولى عز وجل مع رضوانه عمن بايع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم تحتها. والبيعة في القتال تختلف عن البيعة عند الدخول في الإسلام في ذلك الحين. فالبيعة هنا على ان لا يفر المؤمن ابداً. ويستخلص من كلام الامام محمد بن اسحق بن يسار رحمه الله في كتاب السِيَر ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان مستظلاً بظل هذه الشجرة في الحديبية اذ جاءه ثلاثة من مشركي مكة هم سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص. وكان سيدنا عثمان لدى رؤساء الشرك في مكة ليخبرهم انما جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معتمراً وليس غازياً. ووقع كلام يحمل العداوة بين الثلاثة والمسلمين وصاح الفريقان وارتهن المشركون عثمان رضي الله عنه أي حبسوه كرهينة. فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان يُنادى للبيعة فكان

اول من وصل اليه ابو سفيان بن وهب الاسدي رضي الله تعالى عنه فمد يده وقال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((أُبسُطْ يدك أُبايِعْكَ)) فقال ((علامَ تبايعُني؟)) قال ((على ما في نفسك)). وهذا من ثقة المؤمن واخلاصه. ثم تقاطر المؤمنون يبايعون على ان لا يفروا امام العدو. فلما سمع كفار قريش بالبيعة دخل الروع في قلوبهم بأن المؤمنين سيهجمون عليهم فأرسلوا في طلب الصلح. وتم الصلح وسمي بصلح الحديبية. وبهذه البيعة وهذه التزكية لقلوب المؤمنين نزلت السكينة عليهم من الله تعالى أي اطمأنت قلوبهم. ثم جرى الصلح واعتبروه فتحاً لأنه كان مقدمة لغزو خيبر اذ أمِن المؤمنون قريشاً فخلا لهم الظرف الملائم لهذا الغزو، وبعد ذلك تم فتح مكة وفتحُ اقطارِ جزيرة العرب وما حققه تعالى من وعده بالمغانم الكثيرة فكانت مغانم خيبر اولى هذه المغانم وتتلخص بأن حلفاءَ يهودِ خيبَر من قبائل غَطَفانَ وأسدٍ تخلَّوا عن نصرتهم فكفّ الله تعالى أيديهم عن المؤمنين، وهذا ما زاد المؤمنين ايماناً وهدى. ثم بشرهم تعالى بالفتوحات الأُخرى. فقد أعدّ الله تعالى لهم فيها النصر مع جولاتهم الجهادية لِمَحْقِ الكفر.

وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (22) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (23) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24)

يبين المولى سُنّته في نصر جنده المؤمنين على اعدائه فلا تبديل لها اذ لو لم تُحسَمْ حادثة الحديبية بالصلح لحصل قتال. ولو حصل لنَصرَ الله المؤمنين وهذا مؤكد في كل لقاء بين أهل الكفر أو الشرك مِلّةً واحدة، وبين اهل الصدق من المجاهدين في سبيل الله تعالى. واعتُبِر الصلح كسباً للمسلمين من غير حرب اذ صانهم الله

تعالى في عافية وقد جعل المولى تعالى من ملابسات الحديبية اسباباً لذلك اذ ظفر المسلمون بسبعين من مشركي قريش يتقربون بأسلحتهم فأسروهم واتَوا بهم الى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فأطلقهم وعفا عنهم. وكانت فئة من المسلمين قد تقربت من مكة لصد أي عدوان يتقدم من جهة مكة وفعلاً صدوا عدداً منهم يقرب من خمسمائة وهزموهم الى داخل مكة. وتذكُرُ التفاسير ان عظماء مكة بعد أن جاءهم سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه موفداً من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليخبرهم بالغرض من مجيء المسلمين أي العمرة، وبعد ان ارسل هؤلاء المشركون عدداً من موفديهم الى المسلمين فعادوا ليخبروهم بما شاهدوا من تكاتف المسلمين وتفانيهم في طاعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، قرروا ان يتفاوضوا من اجل الصلح فأوفدوا سهيلاً بن عمرو ووصل الى الرسول وكان صلى الله عليه وآله وسلم جالساً الى اصل شجرة الرضوان والى جانبه سيدنا علي بن ابي طالب كرم الله وجهه فلما رآه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال ((قد اراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل)). وبعد تفاوضٍ طلب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من الإمام عليٍ كرم الله وجهه ان يكتب (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) فقال سهيل: لا أعرف هذا ولكن اكتب (بإسمك اللهم) فقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ((اكتب بإسمك اللهم هذا ما صالح عليه محمد رسول الله)) فقاطعه سهيل بقوله: لو شهدتُ انك رسول الله لم أُقاتِلْك ولكنِ اكتب: (هذا ما صالحَ عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض) واشترطوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّ من جاء من المسلمين الى المشركين لا يردُّونه، ومن جاء من قريش مسلماً يرده الرسول صلى الله

عليه وآله وسلم. واما العمرة فتكون في السنة التي تليها وكان ذلك في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة. وقد قضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه العمرة في السنة السابعة من الهجرة الشريفة. وتوالت الآيات التي بيّن المولى عز وجل فيها حكمته وتأييده وبشاراته وتصديقه للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه.

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (25) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (26) لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (27)

الهَدْيُ هو ما يُهدَى الى الكعبة من الانعام حيث توضع القلائد في اعناقها وقد صدّه أي حبسه كفار قريش، وكان عدده سبعين بَدَنة أي بعير، فلم يسمحوا له بالوصول الى مكان الذبح وهو (مِنَى) ومع هذا لم يأذن الله تعالى بقتال كفار قريش لوجود رجال مؤمنين ونساء مؤمنات بينهم يكتمون ايمانهم فلم يعرفهم المسلمون. فلو حصل القتال فلعل بعضاً من هؤلاء كان سيصيبهم مقتل يؤدي الى كفارة في القتل الخطأ، وفي ذلك شِدّة عبَّر عنها تعالى بكلمة (معرّة) كما سيتحدث عن ذلك المشركون بان المسلمين قتلوا اخوانهم من غير ان يميزوهم عنهم. وفي هذا التقدير الرباني في عدم القتال بيّن حكمته ليدخل من يشاء في رحمته أي بشَّر

بدخول الكثيرين في ما بعد في الاسلام. فلولا المسلمون أي لو تزيلوا أي امكن فصلهم عن الكفار لعذب الله تعالى كفار مكة وذلك بالخذلان فهم يستحقون ذلك لِما في قلوبهم من حمية الجاهلية وهي الأنَفَة من الحق. بينما كان المؤمنون مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حِلم وأناةٍ حتى تم الصلح ورضخ كفار قريش بأن يُخلي عظماؤهم مكة ثلاثة ايام في العام الذي يليه كما سبق شرحه. واما (كلمة التقوى) كإسم ففيها اقوال منها على الأرجح (لا اله إلّا الله) ومنها (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) وذلك كما رفض سهيل بن عمرو كتابتها في العهد. فألزم الله المؤمنين اياها وهم اهلها. والرؤيا المذكورة كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد بُشِّر بأنّه سيدخل البيت الحرام مع صحبه فلما حالت قريش دون ذلك جعل الله تعالى هذا امتحاناً لمن يصبر ولم يَرْتَبْ فقد أيّد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم صدق الرؤيا بأن دخول المسجد الحرام لا يعني أن يكون سنة الحديبية بل السنة التالية لها. وكان رأسُ المنافقين عبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول مع بعض المنافقين قد تهكموا بقولهم: "والله ما حلقنا ولا قصّرنا ولا رأينا المسجد الحرام" فنزل قول الله تعالى ((لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ)) مؤكداً حصول ذلك وعندئذ يكونون ((آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ)) أي حلق كل شعر الرأس ((ومُقَصِّرينَ)) أي قص بعض هذا الشعر، من غير خوف. وهكذا بين تعالى للمؤمنين ما خفي عليهم من علمه بأنه سيوفقهم الى فتح مكة فعجّل صلح الحديبية، معتبراً إياه فتحا، ثم تم فتح خيبر في ما بعد حتى تم بعد ذلك في السنة الثامنة للهجرة فتحُ مكةَ بعد ان نقض كفار قريش العهد بقتالهم خزاعة الذين كانوا حلفاء لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مما جعل العهد ملغياً وانتصر الحق على الباطل برسالة السماء بدين الحق ليظهره تعالى على الدين كله فلا تقوم

حجة اقوى منه ولا علم انفع ولا شريعة تنظم العبادة والعمل الصالح كشريعته. والله تعالى اشهد ذاته العليا على ظهور الاسلام وما كان الله ليخلف وعداً سبحانه. وكفى بالله شهيداً.

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (28) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (29)

يقدم المولى عز وجل رسوله صلى الله عليه وآله وسلم الى الناس بالاسم المتبوع بالصفة الشريفة، (رسول)، مؤكداً ما سبق لقوله تعالى ((هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ)) الاية. ويقدم الذين معه وهم اصحابه ويثني عليهم بشدتهم على اعدائه وتراحمهم لصلة الدين المتينة فيما بينهم. وفي هذا الوصف تنبيه للمسلمين الى يوم الدين ليكونوا كذلك فالمؤمنون كما قال الله تعالى ((بَعْضُهُمْ اَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)). وقد روى البخاري في صحيحه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((مثل المؤمنين في توادّهم وتراحُمِهِم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر)). ثم امتدح المولى عز وجل ما هم عليه من العبادة إبتغاءَ وجهه تعالى وأن يرضى تعالى عنهم ويتفضل عليهم. فوصف أثر سجودهم بالخشوع والتواضع والحِلم والاناة والصبر والعفة مع المحاسن الاخرى بسيماءٍ ظاهرِها سماحةٌ في وجوههم وصفاءٌ في سحناتهم تدل على سلامة قلوبهم في

سجودهم الخالص لوحدانية ربهم الجليل اذ ليس ثَمَةَ اكبر منه فيها عندما يقولون: "الله اكبر"، ثم يسجدون. واشار الى صفاتهم التي ورد مدحها في التوراة وفي الانجيل كزرعٍ أخرج شطأه اي براعمه فآزره اي آزروا النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى قام الدين قوياً يعجب الذين جاهدوا في سبيله ويغيظ الكفّار. ثم جاء وعد الله تعالى، (ووعده لا يُخلَفُ مما أثبت ثباتهم على الإيمان حتى الموت) بأن يغفر لهم ويؤتِيَهم الأجرَ العظيم.

سورة الحجرات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (2) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (3)

التقديم بين يدي الله ورسوله تعبير عن مبادرة متسرعة بالقول في حضرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل انتظار ما يبديه من حُكْمِ الله. وهنا يخاطِب المولى تعالى المؤمنين بأن يتهيبوا منزلة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ويُجِلّوا قَدْرَه وينتظروا حتى يسمعوا منه حُكْمَ الله تعالى. ويشمل هذا أن لا يكون للمؤمن رأيٌ في أمرٍ اذا وجد فيه حُكْماً في كتاب الله تعالى أو في سُنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. فان لم يجد فيجتهد ضمن ما جاء في الكتاب والسُنة، أو يسأل عالِماً. وبذلك يتبع المؤمن سبيلاً من سبل التقوى في أدب التوقير. ثم تطرق المولى تعالى الى الإحتراز من رفع الاصوات عندما يكون الحديث مع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، او في ما بين جليسين او اكثر وهم في حضرته، وخاصّةً إذا كانوا على خلاف بينهم. وأوصل المولى تعالى مثل هذا العمل الى حد الخشية من بطلان الأعمال الصالحة من حيث لا يشعر المرء. ثم امتدح سبحانه من يغض صوته في مثل هذه الحالات ويقتصر

على الضرورات فيه. فهو كمن ضبط نفسه عن معصية. فهذا من تقوى القلوب وموجب لوعد الله تعالى بالمغفرة والأجر العظيم.

إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (4) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)

الحجرات هي حجرات نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان الوقت ظهيرة، والمنادُون هم وفد من إحدى القبائل وقد وفدت وفود القبائل للدخول في الاسلام في السنة التاسعة للهجرة. ولم ينتظر الوفد الذي ذُكِر هنا وقتاً يخرج فيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من حجرة إحدى زوجاته الى المسجد لِيُسلِّموا عليه فوقفوا وراء الحجرات ونادَوا: "يا محمد يا محمد"! وبهذا قال تعالى عنهم ((أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)). ثم ذكر سبحانه انه غفور رحيم. فكانت هذه الآية تحمل التعليم وتظهر قَدْر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وتبين عذر هؤلاء على ما كانوا عليه قبل ان يبايعوا ويدخلوا في الاسلام. ثم فتح المولى باب العفو بذكر صفتين من صفاته الحسنى: المغفرة والرحمة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8)

نزلت هذه الآية على اثر إدّعاء رجلٍ كان قد أرسله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى إحدى القبائل التي دخلت في الإسلام لجباية زكاة أموالِهم فعاد قبل

أن يصل اليهم وادّعى بأنهم منعوه الزكاة. وتبين في ما بعد أن سبب عودته أنه شاهد رجالاً منهم خرجوا إليه فأساء الظن بأنهم يريدون به شراً. وهنا أَمَرَ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم سيدَنا خالداً بن الوليد رضي الله عنه ان يذهب اليهم ويتثبت اولاً من أمرهم. فلما ذهب إليهم وجدهم مستمسكين بالاسلام وقد هيأوا الزكاة. فنزلت الآية وفيها تحذير من العمل الذي يؤدي الى ندم نتيجة نبأ غير مؤكد. وفي الآية إشارة الى قَدْر المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وما آتاه الله تعالى من الحكمة وصحة التعرف على الحقائق فلا يأمر بعمل حتى تتبين صحةُ الأنباء بشأنه. فإنه لو كان قد فعل خلاف ذلك كأنْ أمَر بقتال تلك القبيلة لكان للمؤمنين موقف فيه إثم ومشقة وهذا معنى (عَنِتُّم). وذكّرهم المولى بالنعمة العظمى عليهم بمحبة الايمان وكراهة الكفر والفسوق والعصيان، وتَحْمِلُ هذه الصفات الحميدة دِلالاتٍ الى الرشاد أي تفهُّمِ الحق وإتّباعِهِ والإعتصام به كتماسك الصخر. وكل ذلك فضلٌ من المولى العليم الحكيم نعمةً منه على أوليائه المؤمنين.

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10)

في هاتين الآيتين أحكامٌ ودِلالات ووصية؛ فأما الحكم الأول فهو الأمرُ بالإصلاح، والحكم الثاني أن تُعرفَ الفئة الباغية وذلك بالتحقق من إستطالتها وظلمها وعدم قبولها الصلح، والحكم الثالث تُنذَر بقتالها إن لم تكفّ فتقبل بالصلح مع الطائفة الأُخرى. فإن لم تقبل به فالحكم الرابع أن يبعث الأمير عدداً مكافئاً من

المقاتلين مع عُدّتِهم لقتالها الى الحد الذي تقبل فيه بالصلح. فالحكم عندئذ يكون وفق ما شرع الله تعالى وما جاء في سُنّة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالعدل بين الطائفتين ولا سيما في الدِيات على ضوء ذلك ما أمكن. واما الدِلالات فإن البَغْيَ لا يُخرِج الباغي من صفة الإسلام. وأمّا الوصيّةُ فهي التقوى في تحري العدالة. فقد بيَّن المولى تعالى أنّ لِمن يتحرى العدل محبةً منه وأنّ الرحمة تَنْزِل عند إصلاح ذات البَيْن المصحوب بالتقوى.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11)

مِن عِلم الله تعالى بمكنونات القلوب وعواقب الأعمال والأقوال يُحَذّر سبحانه من السخرية ففيها من السوء ما يبعث على عدة رذائل؛ فمن ذلك دافع تزكية النفس، أي أن الساخر يرى نفسه افضل وهذا إفتراءٌ على الله تعالى، ومنها الغيبة اذا كان المسخور منه غائباً يكره القول عنه، ومنها الغفلة عن الله تعالى إذ لو أن الساخر ذكر الله تعالى لَحَمِدَه على العافية من البلاء أي من سببِ السخرية. والنهي للرجال والتخصيص الثاني للنساء فقد يدفع ضَعفُهن في المواجهة مع غريماتهن الى التهكُّمِ في غيابهن والسخريةِ من أقوالهن وأذواقهن وتصرفاتهن. وهذا كله لا يليق بالمؤمنين والمؤمنات الذاكرين الله والذاكرات. وأمّا لَمْزُ النفس فهو انتقاص اخوان المؤمن، فالمؤمنون إخوة وكأن من لمز أخاه أي يطغى عليه أو يحتقره أو يمشي بالنميمة (وهي اللَمز بالقول) قد عاب نفسه. والمؤمن مرآة أخيه فكيف يطعن فيه. وأما التنابز بالألقاب فيحمل ضمنه سخريةً ولَمْزاً إذا دعا اخاه بلقب يكرهه او

يعيِّره به كالألقاب الناجمة عن عاهة او زلة عابرة. وإذا كان اللقب يُغضِب الْمُلَقَّبَ به عند سماعه إياه، أو يستاء منه، فالتنابز به يدخل في أعمال الفاسقين. وقد كان في المجتمع الجاهلي مَن يُكثِرون من ذلك فلا ينبغي الفسوق بعد الايمان. ثم ان حلية الإيمان التعقل والإحتشام. وهكذا اعتبر المولى تعالى من لم يتوبوا عما ورد في هذا النهي ظالمين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12)

الاجتناب هو الابتعاد عن الشيء أي أبعدوا عنكم كثيراً من الظن وهو (ظن السوء) بمن لم يثبت من ظاهره فسوق او خيانة او فحش. فان الظن السيئ هو غيبة في القلوب ويؤدّي أحياناً الى البهتان وفيه اثم مبين. اما التجسّس فهو متابعة ما يعيب المسلمين خاصة اذا ستر الله تعالى عليهم. روى الامام احمد ان عُقْبَةَ رضي الله عنه قال له كاتبه دُجَين: إن لنا جيراناً يشربون الخمر وانا داعٍ لهم الشُرَط فيأخذونهم. قال: لا تفعل ولكنْ عِظهم وتهدَّدْهم. ففعل دجين فلم ينتهوا فجاء إلى عُقبةَ رضي الله عنه فقال: اني نهيتهم فلم ينتهوا وإني داعٍ لهم الشُرَط فتأخذهم. فقال له: ويحك لا تفعل! فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ((من ستر عورة مؤمن فكأنما استَحْيَى موءودةً من قبرها)). والفرق بين التجسس والتحسس هو أن التجسس يراد به الإساءة والإيقاع، أمّا التحسس فيراد به التحري عن الحقيقة وكشف صحة خبر او شخص، كما جاء في سورة يوسف ((يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ)). ويكون بأمر من مسؤول أي ليس بمبادرة المتحسس

إلا لمصلحةٍ مُرسلَةٍ. فقد جاء في الحديث الذي رواه البخاري: ((لا تجسسوا ولا تحسّسوا..)) إلخ. اما الغيبة فهي ذِكْرُ الْمَرْءِ أخاه غائباً بما يكره. فان كانت المعلومات كذباً فهي بهتان. وقد مثّل المولى تعالى الغيبة بأكل لحم الغائب ميتاً وما أكرهَ ذلك على النفس! ويأمر تعالى بالتقوى بعد التوبة مما نهى عنه لنيل رحمته فقد ذكر هنا صفتين له: ((إنَّ اللهَ توّابٌ رَحِيمٌ)).

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)

الخطاب لا يقتصر هنا على المؤمنين بل يعمُّ جميع الناس فهم من آدم عليه السلام وأُمُّهم حواء فهم ذريتهما ملأت المسكونة ذكوراً وإناثا فجعلهم الله تعالى في مجاميع بشرية ينتمي كل فرد فيها الى بقية مجموعته، شعوباً أي المجموعة الكبيرة التي تضم القبائل، والقبائل هي المجموعة التي تضم ما اصطَلَحَ عليه العرب في قبائلهم من مجموعات وهي العمائر، والعمارة تجمع البطون والبطن يجمع الافخاذ والفخذ عشيرة يجمع الفصائل والفصيلة هي العائلة. وبهذا يتم التعارف ويُعرَف الصادق من الكاذب والتقي من الفاسق. وما كَرُمَ الأكرمون عند الله تعالى بالعشيرة بل بتقواهم. والتقوى تأوي إلى القلوب السليمة من آفات حب الدنيا. فالغاية اذاً تنبيه المؤمن الى رقابة الله تعالى على النوايا التي موطنها القلوب وتدفع إلى الأعمال التي تصلح بالتقوى وتفسد بالفسوق. والاحاديث كثيرة في التقوى منها قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لأبي ذر رضي الله عنه: ((أُنْظُرْ فإنك لست بخيرٍ من أحمرَ ولا أسودَ إلا أن تفضله بتقوى الله)). رواه الإمام أحمد.

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (15) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (16) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (17) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18)

قبل الاسلام كانت الاصنام تعبد. وجاء الحق وعرفه من عرفه فآمنوا وهاجروا وجاهدوا سنوات في صراع سجال مع من لم يعرف الحق وصدّ عنه. حتى ظهر الدين في نصر وفتح من الله ودخل الناس افواجاً في دين الله ومنهم الاعراب الذين اسلموا بعد الفتح فادَّعَوا لأنفسهم مقام الايمان ولم يكن الايمان قد تمكن من قلوبهم كما وصفهم بذلك المولى عز وجل في هذه الآيات فلما قالوا "آمَنّا"، والايمان يدخل في خصوصيات الاسلام، طلب تعالى إجابتهم: ((قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا)). والاسلام أعَمّ وقد دخلوا به ولَمّا يدخلِ الايمان في قلوبهم. وبقي عليهم النهوض بما يراد منهم في الاسلام وهو الطاعة أي طاعة الله تعالى في ما فرض فأمر ونهى، ثم طاعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في ما يوكِلُه الى كل فرد، او الى كل جماعة. وبهذا ينيبون الى الاسلام فلا يُنقِصهُم المولى أي لا يَلِتُ من اجور طاعتهم شيئاً. والله تعالى غفور لمن اناب اليه بالطاعة، رحيم بعباده في العاقبة. ثم بيَّن تعالى لهؤلاء ولغيرهم دلائل الايمان الذي يتمكن في القلوب؛ فأول ذلك نفي كل ريبة، ثم المبادرة للجهاد بالنفس وبالمال في سبيل الله تعالى، أي لإعلاء كلمته

في نصرة دينه ما استطاع العبد في حدود طاقته وموقعه. وبذلك يصدق اسلامهم بإيمان يتمكن من قلوبهم. ويُنكِر عليهم تعالى تسرّعهم مع قلة علمهم بالدين فيقول ((قل أتُعلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ))؟ وقد غفلوا عن علم الله تعالى بما في السموات والارض وعلمه بكل شيء. وبيّن لهم تعالى انهم بما قالوا قد شعروا بِمِنَّةٍ على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بمجرد اسلامهم فأجابهم تعالى في كتابه الكريم ((قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)) فهو الله سبحانه الذي يعلم صدقهم في ما في قلوبهم فلا يغيب عنه ما في ملكه ولا ما في نوايا خلقه وراء الدوافع التي سببت اعمالهم.

سورة ق (قا ف)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (3) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (4) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (5)

ق، تقرأ (قاف). وبعدها قَسَمٌ كما في (ص) والقرآن ذي الذكر. وقد اشتملت السورة على 1- ابتداء الخلق، 2- البعث والنشور، 3- الحساب، 4- الجزاء بالجنة او النار، 5- الترغيب، 6-الترهيب. وبدأ المولى تعالى بأن أنكر على كفار قريش تعجّبَهم لَمّا سمعوا الذكر وفيه النذير، وإنكارَهم لقدرة المولى القدير على بعث الموتى إذ أنكروا ذلك. وأكّد تعالى علمه بما تأكل الارض من أجسادهم معلوماً مكتوباً في كتاب حافظ لكل شيء. فكان أن كذّبوا بالحق تكذيباً باطلاً مضطرباً ملتبساً لا سند له مع خلاف وأكاذيب أي امر مريج (مضطرب).

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (6) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (8) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (10) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (11)

لما استبعد كفار مكة بَعْثَ الخلقِ بعد الموت يذكّرهم تعالى بما هو أعجب منه؛ في آيات السماء كيف بُنيت بمصابيحها وازدانت بأنوارها ولم يحصل فيها شق او فطور. وفي آيات الأرض وتضاريسها التي تتوزع فيها المياه وينبت فيها الزرع وما في اصناف الزرع من بهجة وفي كل ذلك دلالة لذكر الله تعالى يشعر بها العبد المنيب

أي الذي يذكر الخالق في ما خلق تعالى ويرجع إليه مُقبِلاً عليه بالتوبة. ويشير تعالى إلى نزول الماء من السماء مباركاً تتمثل بركات الله تعالى فيه بما ينبت من شجر وحبوب ينوه منها بالنخل باسقاتٍ (طِوالاً) وبطلعها أي ما يطلع منها منضوداً منتظماً متراكبا. كل ذلك مَصَادِرُ لرزق العباد وسببٌ لحياة الارض الميْتَة أي التي جف نباتها. فها هي الحياة تُبعَث في الارض وكما يحصل لبعث النبات يحصل لبعث البشر والخروج من الاجداث احياءً. ولِتُجْزَى كلُّ نفسٍ بما كَسَبَتْ وهم لا يُظْلَمُون.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (12) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (13) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (14) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (15)

ذكر المولى عز وجل بإيجاز هلاك المكذبين كما جاء بيانهم في الآيات الخمس التي تبدأ بالخامسة والثلاثين من سورة الفرقان. فقد حق وعيدُ الله تعالى لهم بالهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة. وفي هذا تحذير لمن بلغهم القرآن بأن يجتنبوا مثل مصائر أُولئك. وها هم كفار قريش قد اشتركوا مع اولئك الهلكى في تكذيب الرسل، أي حملوا الإثم الذي حمله مكذِّبو رُسُلِهم ولم يصدقوا بقدرة الله تعالى على بعث الموتى فوجب عليهم وعيدُه تعالى. ويتساءل مُنْكِراً عليهم تكذيبهم: هل عجز سبحانه في خلق البشر في البدء فاحتار فيه؟ أم أنّ خَلْقَهم كان في علم الله تعالى معروفاً واظهره بمشيئة قادرة وأمرٍ واحد؟ وهذا الوضوح لا يدعو للخلط والشبهة لمن أصغى للحق. إلاّ ان الشيطان لَبَس عليهم دينهم فاحتاروا كيف يَحْيَى ميتٌ قد تبعثرت اجزاؤه في الارض بلا حراك؟ فهم في لَبْس أي حَيرةٍ. وهكذا نسُوا النشأة الاولى التي هي أهمُّ من الثانية.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18)

من خواص الفكر أنه قد يكون في موضوع يُشغله فاذا بخاطرة تَرِدُ إليه؛ فإما ان يكون فيها علم او رحمة، او هوىً من اهواء النفس، او سوء من الشيطان. وهنا توسوس النفس بما يكوِّن ردَّ فعلٍ على هذه الخاطرة الطارئة. فالنفس في هذه الحالة مستورة إلّا عن علم الله تعالى فهو الذي جعلها في فطرتها معلومة عنده في وساوسها فوكل من ملائكته من يقعد للانسان عن يمين وشمال يتلقيان ردّ الفعل للخواطر. فإن هي فعلت خيراً كُتِبَ لها بعشر حسنات وأكثر، وان إنتوت فعله عَلِمَ الله تعالى به فيأمر أن تكتب حسنةٌ لِحُسن النية. وان مالت الى هواها ولم تفعل به لم يكتب عليها شيء وان فعلت كُتِبَتْ عليها السيئة بواحدة ثم تمحى إذا إستغفر العبد ربه. وهذا ما يستخلص من الاحاديث والاخبار الواردة في التفاسير. وقد كشف الله تعالى قربه بصيغة الجمع: (نحن) دِلالة على علمه بالاضافة الى ما تكتب ملائكته والّا فالمولى تعالى أكبر وأجَلُّ من أن يُفسَّر قربُه بِحساب المسافة فليس كمثله شيء. فالقرب هنا هو إنكشاف الأمر بلا خفاء. وحبل الوريد هو الوريد الذي في العنق اقرب ما يكون للقلب، والقلب (مجازاً) موضع الفكر والوساوس النفسية. وأمّا ما يتلقّاه الْمَلَكان فأمره الى الله تعالى اذ أنه للانسان إما حجة له في العمل الصالح واما حجة عليه في الخطايا التي لم تمحها الحسنات (فالحسنات يذهبن السيئات). وهذا كله بالنسبة للمولى عز وجل هو في غنىً عنه فكفى بالله شهيداً ولكن ليتذكر الانسان هذه الرقابة فيسدّد خطاه نحو الصواب حاسباً لكل عمل دوافِعَه ولكُلِّ قولٍ يلفظه حساباً لهذه الرقابة العتيدة أي المحضَّرة له.

وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (20) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22)

هنا يخاطب المولى عز وجل عبده الذي كان كلما ذكر الموت ينفر من ذكره ويتهرب بإشغال نفسه بخاطرة اخرى ولكن الإنسان (وهذا لا يشمل المؤمنين) يبقى أبداً في تهرب من ذكر الموت حتى تأتيه السكرة (أي غياب نشاط العقل) بما يُفاجأ به من غير المعهود اذا لم يتهيأ ويُقَدِّمْ للموتِ زادَ التقوى. أمّا من أحبّ لقاء الله تعالى فتكون مفاجأة الموت له مفاجأة سارة اذا كُشِفَ غِطاءُ الحياة الدنيا المادية وتجلّت المعاني الحقيقية لقرب العبد من ربه وبشاشة نور الرضا ونداء: ((يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي)) كما جاء في آخر سورة الفجر. فامّا النفس التي تراكمت عليها خطاياها ولم يمحها الايمان والعمل الصالح فتحشر ومعها من يوجهها الى ربها ومن يشهد عليها. ويكشف عنها غطاء الحياة المادية فتبصر بِحِدَّةٍ ما كانت غافلة عنه من حقيقة سيئاتها ذلك أنها تراها وسائل عذاب لا يزول. وتدركها الحسرة. واما النفس الراضية فتُزَفُّ ومعها من يرشدها ومن يشهد لها إلى جنة ربها.

وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (23) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (25) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (26) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (27) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (28) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (29)

اظهر المولى عز وجل طرفاً ثالثاً مع السائق والشهيد، وهو القرين من الشياطين مُقَيَّضاً في الحياة الدنيا (بأمر العزيز المقتدر) لمن اعرض عن ذكر الرحمن أي رسالة

الاسلام التي ارسل الله تعالى بها رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وجعله رحمة للعالمين بذلك. ولكن الكافر اعرض عنها وقَيّض المولى العزيز شيطاناً له يزين له عمله فيؤتى به مع السائق والشهيد فيقول هذا ما لدي عتيد أي حاضر في عهدتي مهيأً للجزاء. فيؤمر السائق والشهيد (او مَلكان آخران موكولان بالعذاب) بإلقاء هذا الكَفّار العنيد في جهنم. فما اكثر ما منع الخير واعتدى وارتاب فجعل شريكاً معبوداً من دون الله أي إتّبع طغيان الشريك في الكفر ومعصية ما امر الله تعالى ونهى. فاستحق العذاب الشديد أي عذاب الذين اشتد طغيانهم. كما روى الامام احمد عن ابي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ((يخرج عنق من النار يتكلم يقول: وُكِّلتُ اليوم بثلاثة؛ بكل جبار عنيد، ومن جعل مع الله الهاً آخر، ومن قتل نفساً بغير نفس. فتنطوي عليهم فتقذفهم في غمرات جهنم)). وقبل ذلك يعتذر شيطان هذا الكَفّار العنيد بأن قرينه هذا كان في ضلال بعيد فيخاصمه الآخر بأنه أضلّه وزين له سوءَ عملِهِ وكُفرَه وشِركَه. فَيُحِجّهما المولى تعالى فيقطع عليهما تخاصمهما نهياً ويذكِّرهما بما انذرهما به من قبل من الوعيد إذ توعدهما بهذا المصير، والوعد لا يبدل عند الله تعالى وإلّا لَمَا كان له الاثر الفعّال والحجة البالغة. وبهذا نفى المولى عن ذاته الجليلة أي ظلم في ما حق على الظالمين من العذاب.

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (30) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (33) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (34) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (35)

يومٌ واجبُ التذكّر؛ فقد اخبر تعالى انه سيقول لجهنم فيه ((هَلِ امْتَلَأْتِ))؟ وذلك أنّه توعّد ليملأنّ جهنم من الجنة والناس اجمعين. وهو تعالى اعلم بما فيها من عدد ومحل فلما تجيب: ((هَلْ مِنْ مَزِيدٍ)) يدرك المولى الموقف بملئها اذ يزوي بعضها على بعض فتقول:"قَطّ قَطّ". وهذا ما يؤخذ من حديث رواه الامام احمد عن انس رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((لا تزال جهنم يُلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضعَ ربُّ العزةِ قدمَه فيها فينزوي بعضها الى بعض وتقول: قط قط وعزتك وكرمك ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشىء الله لها خلقاً آخر فيسكنهم الله تعالى في فضول الجنة))". اما وضع رب العزة قَدَمِه فمعنى مجازي من قبيل تقريب المعنى للتعبير عن قهر المولى القدير لها والتجلي اليها بان تنزوي فتصل الى نهاية مع آخر من يلقى فيها. اما الجنة ففي الوقت الذي فيه يشقى اهل النار تُقَرَّب الجنة من السعداء وهم الذين اتقوا فتدنو منهم وتسرع اليهم وهم الذين أنابوا أي اقبلوا على الله تعالى بالتوبة عن المعاصي بترك الاهواء الضالة فلا يبقى لها في سرائرهم نصيب فكانوا من اهل الخشية والخوف على العهد الذي قالوا فيه (سمعنا واطعنا) فحفظوه من آفات حب الدنيا والْمَيْلِ اليها واتِّباع الهوى وما يزينه الشيطان في ذلك. فكان حفاظُهم على سلوكهم في خشية الله سلامةً يدخلون بها الجنة بسلام يأتي من الأمن من زوال النعم والسلامة من النقم، في خلود لا رحيل منه ولا إنقطاع عنه. فإذا اختاروا شيئاً نالوه من غير حساب أي انه لهم فلا يمنع عنهم. وقد أَلْهَمَهم المولى عز وجل الحمد فهو حصيلة ما يقع في نفوسهم من الغبطة والحبور. ويفاجأون بما هو ابعد من مشيئتهم بما رواه مسلم عن صهيب بن سنان

الرومي رضي الله عنه انه النظر الى وجه ربهم الكريم ذي الجلال والإكرام كل يوم جمعة من ايام الجنة.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (36) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (37)

(كم) هنا للدلالة على الكثرة فكم من الاجيال المكذبين قبل قريش كانوا في سطوة وقوة شديدة لا ينالهم احد بسوء فصالوا وجالوا لِسَعَةِ إمكانياتهم. إلاّ انهم لما أحَسُّوا بالهلاك نقَّبُوا في البلاد أي ساروا فيها هربا فلم يجدوا من محيص أي مخرج ومفرّ من القَدَر الذي نزل بهم فكانوا، في آثارهم التي خلّفوها، عبرةً يفطن لها من وعى قلبُه ما يسمع رغبةً بالعلم والعمل وحضر ذهنه الموعظة فوعاها وجعلها في ذاكرته تطفو عليها كلما دعاها حال مماثل، درساً لا يُنسَى.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (38) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (39) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (40) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (41) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (42) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (43) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (44) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (45)

سبق قوله تعالى عن خلق السموات والارض فبيّن أنّ خَلْقَهما حصل بما هو حق ولقيام الحق ولإظهارِ حقِّه في وحدانية الربوبية. كما أنه تعالى خَلَقَهما خلقاً لا يحتاج إلى تغيير أو تحوير أو تطوير بل قدّر آجال الفناء والبقاء. وبيّن أنّ خلقَهما تمّ بأمرٍ منه وحده وخيَّرهُما بين الإكراه والطاعة فقالتا "أَتَيْنَا طَائِعِينَ". وأظهر من خلقهما قدرته على البعث لكونه اهون من ذلك. وهنا بيّن تعالى زمنا محدداً في ستة

أيّامٍ. وكان قد بيّن ذلك سواءً للسائلين وتُفَسّر الأيامَ بأيامِ الله تعالى فالأرض لم يعرف عنها متى بدأت تدور إذ ذاك فتحصل أيامُها من دورانها. المهم انه تعالى لم يَعْيَ بخلقهن اذ ان الجديد هنا هو الرد على اليهود الذين قالوا "خلق الله السموات والارض في ستة ايام ثم استراح في اليوم السابع" وهو يوم السبت ويسمونه يوم الراحة! كأنه تعالى إستراح من تعبٍ وإعياء أي من لغوب! فكذبهم تعالى في تشبيههم المولى الجليل بمن يناله الاعياء فيستريح على كرسي. وامر تعالى بالصبر على اكاذيبهم من الكفر والتشبيه وعلى ما ينكره المشركون في مكة من البعث مع إقرارهم بأن الله تعالى خلق السماوات والأرض. ومع الأمر بالصبر أمَرَ تعالى بالتسبيح بحمده أي باقتران التفكر بآيات الله واقتران الصبر على مشيئته واقتران انتظار الفرج منه بنسبة الحمد والثناء الجميل وهو ان يُحمَدَ اللهُ في الصلاة وغيرها. ثم خص المولى التسبيح ليلاً لِمَزِيَّته في رؤية فضل الله تعالى فيه وعلى اثر السجود بالشعور بقربه تعالى. او في النوافل بعد اداء فريضة العشاء. وسيأتي يوم النداء، أي فخَبَرُهُ خَبَرُ يومٍ مهول، يومَ تحصل صيحة تجتمع لها العظام والرُّفات. ويحصل عندئذ البعث فسماعُ الصيحةِ بالحق فالخروج من الاجداث سراعاً الى ما شاء الله لعدله ورحمته فهو الذي امات وهو الذي يُحْيِي وإليه يرجع الأمر كلُّه، وقد احصى كل شيء لكل عبد فما على الرسول سوى الذكرى بالقرآن وليس عليه الولاية التي تجبر الخلق على الايمان. وفي هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وآله وسلم واعفائه من المسؤولية عن نتائج البلاغ، مع تهديد ووعيد للمكذبين من اهل الكتاب والمشركين كما سيأتي إن شاء الله تعالى في سورة البينة. وفيه ذكرى لأهل الخشية لا تنمحي من قلوبهم.

سورة الذاريات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (1) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (2) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (3) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا
(4) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (5) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (6) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (7) إِنَّكُمْ
لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (8) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (9) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (10) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ
سَاهُونَ (11) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (12) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (13) ذُوقُوا
فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (14)

يقسم المولى عز وجل بالذاريات وهي الرياح، وبالحاملات وِقراً وهي الغيوم. ووِقْرُها أي حملها المطر، وبالجاريات يسراً وهي السفن، وبالمقسمّات أمراً وهم الملائكة. هذا عن الامام عليٍّ كرم الله وجهه كما رواه عنه شعبة بن الحجاج عن ابي الطفيل. والخبر المقصود ايراده بعد القَسَم ان الوعد بالبعث بعد الموت صادق وان الحساب سيكون لا محالة. ثم اقسم المولى تعالى بالسماء ذات الْحُبُكِ وذكر صفتها هذه لِما لنجومها السيارة وكواكبها الثابتة من مسارات وطرائق وهي (الْحُبُكُ) وتشمل هيئات الكواكب الثابتة التي يتشكل من مواقع كل مجموعة منها شكل في سحب خط وهمي بينها فتكون متعددة الطرائق ذات الجمال والبهاء الحسن. ويأتي جواب القسم رداً على المكذبين وتقوّلات المشركين على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فمنهم من قال شاعر ومنهم من قال ساحر ومنهم من اتهمه بالكذب. وهذا من ضلالهم. فالقرآن الكريم محفوظ يجتذب اهل الحق ويُصْرَف عنه من أُفِكَ أي من كان في عِلْمِ الله مصروفاً عنه فلم يوفَّق إلى فقهه، وبذلك يُصرَف عن معرفة

حقيقة الرسالة. فقد علم عنهم المولى سبحانه في الأزَلِ انهم مجرمون بإزاء الحق تزيغ عنه قلوبهم فلا يؤمنون به ولا يفقهون ما يدعو إليه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. وقد ذمَّهم المولى تعالى بقوله (قُتِلَ الخرّاصون)، وبيَّنهم تعالى بقوله ((الّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ)) أي في شِدَّةٍ غافلون، وهم الكذابون الذين يذهب خيالهم الى ما لا يمكن ان يصح إطلاقه على من اتى بالحق الْمُعجِز فهم غافلون في جهل يغمرهم فلا يهتدون الى سبب خلقهم وحقيقة بعثهم فهم يسألون (تكذيباً) متى يوم الدين؟ وجوابهم يوم يفتنون أي تُخرِج النارُ خَبَثَهم. يقال: "يُفْتَنَ الذهب" عندما يُحرق لإخراج خَبَثِه. وذلك بياناً لكذبهم فليذوقوا ما إستعجلوا به عناداً. واما الامر الموجّه اليهم بأن يذوقوا العذاب ففيه ما فيه من توبيخ وتحقير.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (19)

توكيدُ العاقبة للمتقين في جنات وعيون أي بين ينابيع مياهها وانهارها العذبة متمتعين بما اعطاهم الله تعالى فقد استحقوه بما سبق منهم من العبادة التي قربتهم فهم أخذوا الليل لربهم الاّ قليلاً منه للهجعة التي تقوّي على العبادة فهي ايضا عبادة. فاذا اقبلت تباشير السحر تجدهم في دعاء ربهم ليغفر لهم. ولم ينسوا ما فرض المولى عز وجل من حق في ما رزقهم للمحتاجين وهم المتسولون يسألون الناس او المحرومون مَن عُرِف عنه الحرمان من غير أن يسأل اذا تعسر عليه الكسب او نالت الاقدار من ماله فانحرم منه.

وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (23)

الموقنون هم الذين وضح لهم دليل الوحدانية من آيات الأرض ومن آيات النفس في طاقاتها وحواسها وفي حسن تقويم الإنسان وسعة تفكيرٍ قال عنه الإمامُ عليٌّ كرم الله وجهه: (وفيك انطوى العالَم الأكبر) فتمكن الإيمان في قلوبهم بما لا يناله إنكار. واما الرزق في السماء فهو في الحياة الدنيا المطر النافع المبارك وفي الآخرة الجنة. وها هو رب العزة يقسم لعباده شهادةً بوضوح هذا الحق مثلما اتضح لهم انهم يتميزون عن الحيوان بالكلام ويشعرون بوجودهم ويعبرون عن مرادهم.

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (25) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (26) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (27) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (28) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (30) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (37)

سبق ايراد قصة زيارة الملائكة لسيدنا ابراهيم صلى الله عليه وسلم في سورتي هود والحِجْر وهنا وصف لآداب الزيارة مبدوءة بالتحية والردّ وسرعة الضيافة بالطعام الوافر وتقريبه الى الضيف من غير ان يخبره مسبقاً، ثم دعوته بكلمة رقيقة (ألا تأكلون)؟ وحول رد الفعل عند المرأة بالبشارة بالولد فقد رفعت يدها وضربت وجهها علامة على العجب من البشارة المفاجئة مع عمرها المتقدم وعقمها. إلا ان

الضيوف ذكَّروها بقدرة الله تعالى بأمرٍ لا رادّ له. فلما عَلِم سيدنا ابراهيم عليه السلام بأن ضيوفه ملائكة (وكانوا ثلاثة لا يُنْزَلون بهذا العدد إلا لأمرٍ ذي شأن) قال: ما خطبكم؟ يقصد سبب نزولهم فأوضحوا أنه هلاك قوم لوط! (وفي سورة العنكبوت ان سيدنا لوطاً آمن لسيدنا ابراهيم عليهما الصلاة والسلام وقيل هو ابن اخيه). فاوضح الملائكة انهم سَيُرسِلون حجارة من طين على هؤلاء المجرمين بإستثناء المؤمنين ولم يكن منهم إلّا بيت سيدنا لوط عليه السلام إلّا امرأته (تفصيل قصتهم في الآية الستين وما بعدها من سورة الحِجْر) وقد ترك المولى تعالى لعباده الذين يخافون العذاب الأليم في آثارهم آية تدل على ما حصل بهم.

وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (38) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (40)

والايات في قصة سيدنا موسى مع فرعون مشروحة في ثلاث وثلاثين آية تبدأ في الثالثة بعد المائة من سورة الأعراف مما أغنى عن التكرار. فما كان من فرعون الّا التكذيب فاعرض مستنداً الى ما يرى حوله من قوة في جنوده وامواله. وفضّل الضلال خشية على دنياه. فلما لم تُجْدِ معه الآيات اخذه المولى تعالى هو وجنوده الذين تقوّى بهم فأغرقهم. وغرق فرعون وهو مليم، فهو يتلقى اللوم.

وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (42)

وردت قصة قوم هود في شرح ثماني آيات من سورة الاعراف تبدأ بالآية الخامسة والستين مما اغنى عن التكرار. وذُكِرُوا هنا للعبرة وتسليةً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم. والرميم: البالي.

وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (43) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (44) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (45)

وردت قصة قوم سيدنا صالح عليه السلام هؤلاء في شرح سبع آيات من الاعراف تبدأ بالثالثة والسبعين. وقيل لهم تمتعوا حتى حين كان لثلاثة ايام. والعُتُوُّ هو الاستكبار بغير حق على ما هو حق، والإعراض بذلك عنه. والصاعقة هي الضربة المفاجئة ينظرون الى الرجفة التي اخذتهم فلا يملكون ما يواجهونها به أي ما يقوم مقابلها فتغلبهم. فأصبحوا في دارهم جاثمين.

وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (46)

تقدمت قصة قوم سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام وقد كانوا اول من عبد الاصنام على ظهر الارض. وآمن منهم قليل بسيدنا نوح عليه الصلاة والسلام. واما الكافرون فقد اصبحوا عبرة في غرقهم يُذكَرون كلما دعا الحال الى تسلية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والى تهديد كفار قريش ووعيدهم الذين كانوا على سِيرة قومِ نوحٍ عليه السلام في عبادة الأوثان والأصنام.

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (48) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (49) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (51)

الأيْدُ: معناه القوة. فالسماء تظهر للانسان من موقعه على ظهر الأرض كالقبة. والقبة في المفهوم المنظور تحصل بالبناء وهي مبنية بالكواكب والنجوم مع الاشارة الى توسيع أرجائها. والسعة من صفاته فهو الواسع العليم وسعة الكون تشير الى ذلك. ثم اشار سبحانه الى الارض التي هي في منظور الانسان منبسطة رحبة

السَعة حيثما كان واقفاً على ظهرها فما أدعاها للاعجاب بما عليها من سهول وهضاب وجبال ووديان وأنهار وبحار متقنة الترتيب لمعيشة الانسان ومسالكه فيها، فنعم الخالق هو الله سخر للانسان مزاياها الرائعة فمهدها أي سوّاها واصلحها واستخرج كنوزها. واما الاشياء التي تعرض لحياة الانسان فلا شيء فيها منفرد بذاته الّا وله صِنْوٌ مشابه او مضادّ أو مُتمم. فمن كل شيء زوجان اثنان؛ فالليل له نهار، والشمس لها قمر، والذكور لهم اناث، والخير يقابله الشر، والحياة اقترن بها الموت. وهكذا سبحانه يدل على ذاته انه ليس كمثله شيء فهو الواحد الصمد الذي لا نِدّ له ولم يكن له كفوا احد. فالمخلوق الذي اتى من زوجين عليه ان يتذكر وحدانية خالقه فينفي الولد والوالد والندَّ والشريك مؤمنا بقلب منيب والّا فإن القلوب الزائغة قد عميت عن هذه الحقائق الى أوهامٍ شيطانية تدعوهم الى عذاب السعير. وهذه البيانات دعوة تدعو الى الله تعالى ليهرب الكافر من كفره والمشرك من شركه والرذيل من رذائله الى عبادة مولاه والتخلق بأخلاقه الكريمة الرحيمة العادلة العفوّةِ وما شاء الله تعالى من الصفات المثلى والاسماء الحسنى. ولْيتذكَّرِ المشركون هذا التفرد الالهي فلا يجعلون من أوهامهم شركاء له سبحانه. فهذا نذير جاء به رسول الله سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (52) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (53) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (54) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (55) وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا

مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (59) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (60)

اتفق موقف الأوّلين ممن كذّب الرسل قبل بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم مع موقف من كذّبوه فقالوا ساحر او مجنون. وكأنهم تلقّوا بذلك توصية متوارثة من أُولئك الاولين، وهذا بَعيدٌ بُعْدَ الزمن بين القومين إلّا أنّ الذي شابَهَ بين مواقفهم هو طغيانُهم بالتكذيب ووصمُهم الرسلَ بالسحر او الجنون! وهنا ما على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلا الاستمرار بالذكرى بتبليغ ما أُرسِل به فليس عليه ملامة في كفر الكافرين انما ستنفع الذكرى ذوي القلوب الصافية المعافاة من الضلال لأنهم ينشدون الحق. والذكرى توضح الحقيقة بأن الله تعالى ما خلق الجنَّ والإنسَ إلّا عباداً له ليعبدوه. لا صلة لهم به إلّا بالعبودية. يعرفه اهل العقول من الثَقَلَين؛ الجنِّ، والإنس. ثم يُعَرِّفُهم كيف تكون العبادة وبما أعدّ للعابدين من الفوز، وهو الغني عنهم، ويعرِّفهم ان الرزق من تقديره سبحانه فهو الرزاق ذو القوة على أمتنِ ما تكون. وفي هذه المعرفة والتقدير اشارة للمؤمن بأن يواصل الأمل بالله تعالى خير الرازقين. روى الامام احمد عن سلام بن شرحبيل أنه سمع حبّةَ وسواة ابنَي خالد رضي الله عنهما يقولان: "أتينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يعمل عملاً (وفي رواية يبني بناءً او يصلح شيئاً) قالا فأعَنّاه عليه. فلما فرغ دعا لنا وقال ((لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رؤوسكما فإن الانسان تلده أُمُّه أحمرَ ليس عليه قشرة ثم يعطيه الله ويرزقه)). ثم بين تعالى ما للظالمين من العذاب فإنّ لهم منه ذَنوباً أي نصيباً كاملاً مثل ما نال من سبقهم بهذا الظلم (أي الشرك) فلا يتحدّوا إستعجالاً

فإنّ لهم اجلاً ليس بمتقدّمٍ ولا يتأخر. ولهم الويل أي الهلاك في العذاب وهو واقع بهم في يومهم الموعود: أي القيامة.

سورة الطور

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ (1) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4)
وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (7) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ
(8) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (9) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (10) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (11)
الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (12) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (13) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي
كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (14) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (15) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا
تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (16)

جاء اسم الـ(طور) مُعرّفاً بـ(أل) مما يدل على ان المقصود هو الجبل الذي كلّم اللهُ تعالى سيدَنا موسى صلى الله عليه وسلم عنده. ويطلق اسم الطور من غير تعريف على الجبل الذي تكسوه الأشجار. وجاء اسم الكتاب غير معرّف بـ(أل) إلّا انه موصوف بكلمة مسطور أي ذي الخطوط المصفوفة والمقصود بها الكتابة كما هو معروف في الكتب المدوّنة. والرَقّ هو الصحيفة او الجلد المتخذ للكتابة. وما دام لم ينْزِلْ كتاب بهذا الشكل قبل التوراة فيرجح انها المقصودة. كما قد يكون المقصود هو اللوح المحفوظ اذ لم يرد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في التفاسير اشارة لذلك بل وردت اشارة الى البيت المعمور كما روى البخاري في حديث الاسراء قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذكر مجاوزته الى السماء السابعة: ((ثم رُفِع اليّ البيت المعمور واذا هو يدخله كل يوم سبعون الفاً لا يعودون اليه آخر ما عليهم)) أي آخر واجباتهم. ولهذا قيل هو كعبة السماء السابعة. وروى ابن جرير

عن علي بن ربيعة ان سائلاً سأل اميرَ المؤمنين الامام علياً كرم الله وجهه عن البيت المعمور فقال: "مسجد في السماء يقال له الضَراح يدخله كل يوم سبعون الفا من الملائكة ثم لا يعودون فيه أبداً ". ووردت روايات اخرى بنفس المعنى. اما السقف المرفوع فقد ورد المعنى في قوله تعالى في الآية الثانية والثلاثين من سورة (الانبياء) ((وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً)). وقد بين العلم طبقات الجو التي تقي الأرض من الإشعاع الضار. اما البحر المسجور فقد اورد ابن كثير من تفسيره عن سعيد بن المسيب عن امير المؤمنين الامام علي كرم الله وجهه انه بحر يوقد يوم القيامة. وكقوله تعالى في سورة التكوير ((وإذا البحار سُجِّرت)) ويؤيد العلم ذلك بإنفلاق ذرات الهيدروجين. وقيل هو البحر الذي لا يُشرب منه ماء. كل ذلك في صيغة القَسَم تنبيهاً من المولى عز وجل الى يومٍ عذابٍ واقعٍ، ولا يقابله ما يدفعه عمن كُتِب عليهم. ثم عرّف المولى عز وجل ذلك اليوم بما سيحصل فيه من تحرك السماء، أي تمور مَوْراً، او انها تتشقق او تدور أي تتحرك في استدارة. وهذا يتفق مع دوران الارض حول نفسها فاذا حصل سرعة فيه او رجعة رُؤُيَت السماء تتحرك بحركة ظاهرية بينما الحركة من الارض. واما سير الجبال سيرا فهو تفككها ثم نسفها حتى تكون هباءً قال تعالى عنه في الآية الخامسة من سورة الواقعة ((فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً)) وقال عنها في الآية العشرين من سورة النبأ ((وَسُيِّرَتِ الجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً)) وفي الآية الخامسة من سورة القارعة قال تعالى عن الجبال ((وَتَكُونُ الجِبَالُ كَالْعِهْنِ المَنْفُوشِ)). ففي ذلك اليوم يكون نكال المكذبين قد وقع بهم وعرّفهم تعالى بما كانوا يخوضون به بالباطل ويتخذون دينهم لهواً ولعباً فعندئذ يُدَعُّون أي يساقون دفعاً بعنف الى نار جهنم وقد كذّبوا بها من قبل وقالوا (سحر) والآن هي حقيقة تدركها

الابصار. وما عليهم سوى الاستسلام سواء صبروا ام جزعوا فهذا جزاء ما عملوا في تكذيبهم بالآيات المبينات في الدعوة الى رحمة الله تعالى مع من ارسله المولى رحمة للعالمين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم. وهنا يُشار إلى أن صبرَ المعذبين في الآخرة يختلف عن صبر المؤمنين في الدنيا، فصبر المؤمن أجر وعبادة ورجاء ومعيّة مع الله تعالى. بينما صبر المعذب في الآخرة يكون زيادةَ عذابٍ مع الجزع واليأس.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (17) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (18) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (19) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (20)

الجنّات للمتقين، ولمن خاف مقام ربه جنتان. وجاء هنا الخبر عن الجنات بصيغة (جمعَ نَكِرة) أي كل منها درجة. وفيهن النعيم أي كمال ما يرفل به اهل الجنة من رخاء وسرور. فاكهين أي متلذذين ومسرورين بالوقاية والنجاة من الجحيم، هانئين بما يأكلون ويشربون. فهذا جزاء عملهم (وجزاء الاعمال الصالحة صورة من كرم الله تعالى ورحمته) وقد توفرت لهم وسائل الرغد من سرر منسقة بما يرضيهم ولكل منهم قريناته من الحور العين أي واسعات الأعين.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (21) وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (22) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (23) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (24) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (25) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (26) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (27) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (28)

روى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((إذا دخل الرجل الجنةَ سأل عن ابويه وزوجته وولده فيقال: انهم لم يبلغوا درجتك. فيقول يا رب قد عملت لي ولهم فيؤمر بإلحاقهم به)) وقرأ ابن عباس الآية. فيؤخذ من هذا الحديث ومن احاديث اخرى في تفسير هذه الآية شفاعة الصالحين لذويهم فلهم ما يشاؤون فيها. والله سبحانه لديه مزيد. وهنا لا ينقص من عمل الرجل الصالح من اجل ذلك فلا يوآخَذ الاب بعمل الابن فقال تعالى من مقام العدل ((كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)) فلا يُحمَلُ ذنبُ الولد على الوالد ولا ذنبُ الوالد على الولد بل يُشمَل الاقل بعمل الاكثر احسانا. والكل في ذلك من المؤمنين. ويذكر استغفار الولد للوالد؛ فقد روى الامام احمد عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ((ان الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول يا رب انَّى لي هذه؟ فيقول: بإستغفار ولدك لك)). ثم يكشف المولى عز وجل جانباً من نعمائه في الجنة من حيث الطعام والشراب والخدمة وفي غمرة هذا النعيم يتساءل بعضهم من بعض كأن يخاطب أحدهم جليسه الذي كان معه في الدنيا بقوله: اتذكر يوم كذا وكذا وكيف اشفقنا خوفاً من عذاب الله تعالى؟ فيذكر صاحبه ذلك فيقول بأن الله تعالى مَنَّ علينا من فضله فأجارنا من عذابه وآمن خوفنا من عذاب السموم (وهي ريح حارة تدخل المسام) وقبِلَ تضرُّعَنا فحقق رجاءنا انه هو البر أي الذي يقبل العمل الصالح وهو الرحيم تعالى يرحم المؤمن في الآخرة.

فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (29) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (30) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (31) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا

أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (32) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (33) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (34 (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ (36)

يدعو المولى عز وجل رسوله صلى الله عليه وآله وسلم للدوام على التذكير والاستمرار به ولو كَرِهَ المجرمون وتقوّلوا عنه الاقاويل الْمُكَذِّبة فالله تعالى يعلم انه على حق وليس بكاهن (أي يتكلم في الامور المغيبة) ولا مجنون. فالكاهن هو من يدّعي بأنه تأتيه الرؤى بأخبار السماء عن المستقبل. والمجنون هو الذي يهذي مما به من جِنَّةٍ (حسب اعتقادهم). وهذا يناقض ما يأتي به الوحي من الله تعالى من موعظة وحكمة وحق. وينكر المولى تعالى على كفار قريش تربصهم به صلى الله عليه وآله وسلم ان تنال منه الاقدار ما يقضي عليه كما قضى على شعراء شبّهوه بهم. قال تعالى ((قُلْ تَرَبَّصُوا)) انتظروا لمن تكون العاقبة. وإذا كانوا يدّعون انهم اهل احلامٍ أي عقولٍ فالله تعالى يوبخهم على تناقضهم في ما ادعوه على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم اذ جمعوا الكهانة والشعر والسحر مع الجنون في آن واحد عند إنسان واحد! وهذا غير معقول فيقول ((اَمْ تَأْمُرُهُم اَحْلَامُهُمْ بِهَذا))؟ ثم يعود لبيان جحودهم بانه نابع من طغيانهم على الحق. وينكر عليهم إتِّهامَهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأنه تقوّل القرآن أي اتى به من عنده، فاخبر عنهم انهم لا يؤمنون أي لا يستحقون نعمة الايمان. وتحداهم ان يأتوا بحديث مثل القرآن الكريم. وانكر عليهم موقفهم هذا: هل خُلِقوا عبثا، ام انهم خلقوا انفسهم ولم يخلقهم خالق السموات والارض، ام خلقوا السماوات والارض؟ كلا بل هم في شك وريبة لا تدع في قلوبهم فسحة يمكن للحق أن يَطِلَّ عليهم منها.

أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ (37) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (38) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (39) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (40) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (41) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (42)

ينبه المولى تعالى عما غفل عنه كفار قريش وقد كفروا بما جاءهم واشركوا بالله تعالى ما لم يُنزِّل به سلطانا فقد غفلوا عن ضعف فطرة الإنسان وإفتقاره. فهم لا مُلْك لهم ولا سيطرة وليس لهم مصدر لخبر من السماء وإلّا لأذاعوا به. وبينما تسرُّهم ولادة الذكور ويكرهون ولادة الإناث تراهم ينسبون لله تعالى البنات مدعين بأن الملائكة هم بنات الله، سبحانه عما يصفون. وغفلوا عن عفة الدعوة الى الله ونزاهتها فإن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يسألهم أجراً بل ليكسبوا الأُجور. ولو انه سألهم لاعتبروا ذلك مَغرماً يثقل عليهم. وها هم يجهلون ما في غدهم وما هو غائب عن علمهم. وهل عندهم علم من الغيب المثبت في اللوح المحفوظ يكتبونه. ام اتخذوا قراراً بالكيد للدعوة المحمدية؟ فالله تعالى أسرع وكيده متين وسيكونون الخاسرين. وهذا تحذير لمن يريد بالاسلام سوءً أن يعلم بأن الله تعالى قد اعدّ له ما يجعله مكيداً. ولا يَحيقُ المكر السيئُ إلّا بأهله.

أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (43)

وهذا اشد الانكار مما سبق اذ يمس الالوهية التي لا تنبغي لغير الله تعالى. فكل ما نُسِب من قدرته في الخلق وشؤونه الربانية لغيره فذلك الغير شريك من الأوهام. ويقصد بالشؤون الربانية ما لا إختيار للعباد فيه كالأقدار والرزق بالمال والذرية. فسبحان الله تعالى عن الشريك.

وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (44)

هذا جواب قول كفار قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تحدياً وعناداً ان يُسقط السماء عليهم كِسَفاً (كما سبق وأنذرهم كما جاء في الآية الثانية والتسعين من سورة الاسراء). فيقول تعالى لو حصل ورأوا كِسْفاً من السماء عليهم ساقطاً لقالوا هذا سحاب متراكم بعضه على بعض. والكِسْف – بسكون السين – مفرد الكِسَف بفتح السين، أي القِطعَة والقِطَع.

فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (45) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (46)

دعا المولى تعالى رسولَه صلى الله عليه وآله وسلم ان يترك هؤلاء فهم مقبلون على يوم ينفخ فيه النفخة الاولى في الصُّور فيُصعَقُون. وعندئذ لا يملكون لأنفسهم دفع العذاب بكيد او مكر مما كانوا عليه في الحياة الدنيا. كما لا يجدون ناصراً يدركهم. والصعق هنا هو مفاجأة غاشية الموت.

وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (47) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (49)

العذاب المقصود هنا لهؤلاء الظالمين هو دون العذاب الموعود في الآخرة أي يسبقه في الحياة الدنيا كالمصائب التي تنزل بهم واكثرهم لا يعلمون سببها لعدم تصديقهم. وبعد هذا ما على الرسول وقد ادى ما عليه (صلى الله عليه وآله وسلم) إلّا ان يصبر على مشيئة الله الحكيمة سبحانه فإن لله حُكماً بعد مواقفهم هذه. وقد جعل المولى تعالى رسولَه صلى الله تعالى عليه وسلم قيد مرآه كنايةً عن حفظه

وعصمته من الناس. وفي هذا طمأنينة أرشده تعالى بعدها الى التسبيح بحمد ربه اذا قام من فراشه او قام من كل مجلس. وهذا التسبيح لدى القيام من المجلس مندوب لكل مسلم (سبحانك اللهم وبحمدك اشهد ان لا إله إلّا انت استغفرك واتوب اليك). وامر تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالتسبيح ليلاً وفي هذا الأمر إشارة الى التعبد ليلاً بما فيه قيام الليل. وعطف عليه إدبار النجوم أي في رَكعتي الفجر سابقةً لغياب النجوم مع الصباح.

سورة النجم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3)
إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ
الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى
(10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (11) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (12) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى
(13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى
(16) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18)**

أقسَمَ المولى تعالى شاهداً على رُشْدِ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بإتباعه للحق فهو ليس بسالك غير طريق الحق ولا يعدل عنه بضلال أو عن قصد. والقَسَم كان بالنجم اذا هوى. والقسم بالمخلوقات من اختصاص الله تعالى وحده واقسم هنا بالنجم يهوي بأمر الله لغاية مقصودة منه. ثم بيّن تعالى ان ما جاء به رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وَحْيٌ ليس للأهواء فيه نطق واحد منه وليس له غرض الا تبليغه كاملاً لا يخرج منه الّا الحق. وأنّ عِلْمَ ما يقول اتاه عن طريق جبريل عليه السلام وَصفه المولى تعالى بشدة القوة، (ذا مِرَّةٍ) أي الخِلقة الحْسنة القوية. ظهر مستوياً اي كما خلقه الله تعالى أي بالهيئة التي فُطِر عليها وله ستمائة جنح. وقد رآه بالأفق الاعلى أي افق شروق الشمس وقد سدّ الافق. ورآه عندما رافقه في المعراج كذلك مستوياً. اما في غير هذين الموقفين فقد كان يأتي بالصورة التي يتمثل بها كلما هبط بالوحي. وبعد رؤيته على صورته الحقيقية إقترب سيدنا جبريل

بالصورة التي اعتادها سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. اقترب قاب قوسين أي قدر ذراعين او أقل. أمّا رؤية الفؤاد فهي رؤيةٌ لا تدركها العين في طاقتها المبصرة حتى اذا تجلى نور الله تعالى على القلب وضح له ما يريد الله تعالى له ان يرى وقد روى الامام مسلم في صحيحه عن ابي ذر قال سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هل رأيت ربك؟ فقال (نورٌ اَنّى أراه) وهكذا اتضح حصول رؤية الفؤاد. أي الشعور اليقيني والاحساس الصحيح انه بين يدي الله وإن قَصَرَت عنه العين عن الإبصار بها (بما حدد الله تعالى لها من حدود الرؤية). وهذا الاحساس معزز بسماع الصوت وعبّر عن ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بقوله: ((..فجعل نور بصري في فؤادي فنظرتُ اليه بفؤادي))، (أورده إبن جرير عن إبن عباس رضي الله عنهما). ثم بعد اللقاء مع رب العزة في المعراج عاد الى حيث توقف سيدنا جبريل عليه السلام. وذاك قوله تعالى ((وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ المُنْتَهَى)). وكان ذلك آخر ما يُمكن لِأي مَلَك من الملائكة ان يصله. وعند السدرة جنة المأوى فالسدرة منتهى ما وصل إليه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويغشاها أي يغطيها ويحيط بها ما لا يوصف إلا بالإشارة اليه أي (ما يغشى). والمهم من كل ذلك انه لم يحصل زيغ في بصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بل كان حقاً لا يأتيه شك ولا تحصل فيه ريبة. وهذه الآية (أي المعجزة) هي كبرى الآيات التي يمكن لبشر أو مَلَكٌ أن يراها من بين آيات الله تعالى في هذه الحياة الدنيا. فاذا خصّ المولى عبداً له بكرامة من قدرته فما بال المكذبين يجادلون على ما يرى وهم يعبدون أصناماً وأوثاناً لا تسمع ولا ترى؟

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (19) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (20) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (21) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (22) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (23)

هذا التساؤل تقريع لعَبَدَة الاوثان. فاللّات (كما جاء في التفاسير) كانت صنما في الطائف والعُزّى قيل كانت شجرةً لغَطَفَانَ قطعها في ما بعد سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه. واما مَناة فقد كانت صخرة لهذيلٍ وخُزاعةَ، وقيل لثقيف. وقد كان المشركون يذبحون ما يقدمونه من نُسُكٍ (جمع نُسَيكة وهي الذبيحة) عندها. والتسمية بصيغة الانثى كانت شائعة في اصنامهم الاخرى ومنها ما يمثل ملائكة يدّعون انها بنات الله فنسبوا له سبحانه البنات في وقت كان وأد البنات حاصلاً عندهم ويسوؤهم ان تلد نساؤهم البنات. فيوبخهم المولى على نسبة الملائكة الى الانوثة بقولهم (بنات الله) تلك اذاً قسمة جائرة باطلة ولو رجعوا الى اصل الاسماء لما وجدوا سوى الاوهام التي لا تستند الى كتاب او سيرة صالحة بل هي ظنون واهواء. وقد آن لهم ان ينبذوها فقد اشرق نور الهدى ببعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (24) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (25)

كان المشركون الذين ادّعوا انهم يتقربون بالملائكة الى الله تعالى قد جعلوا للملائكة رموزاً من أوثانٍ يرجون ان تشفع لهم عند الله تعالى! وهذا ما أنكره المولى عز وجل فهل لهم ما يتمنون؟ بل إن الامر كلّه لله في الدنيا والآخرة. ثم يذكرهم بخطئهم في الظن بالشفاعة فيقول سبحانه:

وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (26)

وفي هذه الآية يبين تعالى ان اقرب الملائكة اليه لا يمكنه الشفاعة عنده من غير اذن منه تعالى فمن ذا الذي يشفع عنده الاّ بإذنه؟ وهكذا جعلهم الوهم والظن الخاطئ يُكَذِّبون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لكونه بشراً مثلهم.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى (27) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (28) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (29) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (30)

أظهر المولى عز وجل إفتراء هؤلاء المشركين الذين يسمون الملائكة تسمية الانثى وانكر ذلك عليهم لإنعدام الدِّلالات فلم يبق إلاّ الظن أي التوهُّم الذي لا أساس له من الحقيقة إلّا تقليداً لآبائهم الذين لم يكونوا يعقلون وما كانوا على هدى من الله سبحانه. فالحق يعرف بالعلم الموثوق بسنده الصحيح وليس بالتخيل والتقليد الاعمى. فما على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلّا هجر هؤلاء مثلما أعرضوا عن القرآن واطمأنوا للحياة الدنيا فلم يعجبهم غيرها فهذا ابعد ما وصل اليه علمهم. ولو علم الله تعالى فيهم خيراً لأسمعهم فانه اعلم من غيره باهل الزيغ والضلال واعلم بمن انتفع بالحق واهتدى اليه وسار على صراط مستقيم، أي دخل في الاسلام. ولكل منهم جزاؤه من مالك الملك اذ قال تعالى:

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (31) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ

الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (32)

يبين الله تعالى ما تغافل عنه المشركون وهو كونه مالِكَ الْمُلْك وله الامر في الجزاء سواءً لمن اساء أو لمن احسن. فالإساءة بمثلها والإحسان بالأحسن لمن اجتنب الكبائر من الآثام والفواحش أي قبيح الذنوب. واستثنى اللَمَمَ وهو ما خلا من الموبقات ومن الفحش فجعل له متسعاً في مغفرته الواسعة. فاللمم من مُحَقَّرات الأعمال والصغائر التي ورد عنها في صحيحي البخاري ومسلم عن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قوله ((ان الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا ادرك ذلك لا محالة؛ فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفسُ تَمَنّى (أي تتمنى) وتشتهي، والفرج يُصَدِّق ذلك او يكذِّبه)). ويقاس على العين واللسان صغائر بقية الجوارح. اما بطش اليدين فإن كان في النية فقط ولم ينفّذ فهو من اللمَم وإلّا فإن تنفيذه يكون حسب شدته ويترتب عليه حق للغير فهو بين العبد والعبد. وللعبد حقُّه. واما تصديق الفَرْج فهو الزنا أي من الكبائر. واما تكذيبه أي عدم الإستجابة للفحش فهو الإستعاذة بالله تعالى من مسّ الشيطان ((إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)). والله تعالى لم يكن ليخفى عليه موقف كل انسان من شهوات جوارحه فهي امور معلومة عنده من الازل فسبق علمُه النشأة من الارض وفترة الحمل ثم ما بعدها في الحاضر والمستقبل. والمستقبل في نهايته عاقبة لها موعد معلوم عند الله تعالى ومجهول عند الإنسان يستدعي الخشية من الخسارة وترك الاغترار بالطاعة. ويعرف الإغترار بالطاعة اذا جلبت عزاً وعُجْباً وتفاخراً بها ولم تكن لوجه الله تعالى. اما ابتغاء وجهه

فانه يجعل الطاعات صلة بين العبد وربه، فإن كان من شأنها الظهور غير المقصود للناس فتكون اسوة حسنة وان كان من شأنها الاخفاء عن الناس فلا يظهرها الّا للاقتداء الذي يراه أفضل من الإخفاء. وبهذا تكون الطاعة مصحوبة بالتقوى التي محلها القلب حيث لا يطلع عليها ملك فيكتبها ولا شيطان فيفسدها. والله تعالى أعلم بمن اتقى.

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (33) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (34) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ
يَرَى (35) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (36) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ
وِزْرَ أُخْرَى (38) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ
يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (41)

نزلت في الوليد بن المغيرة،كفَر بعد الايمان اذ كان قد اتبع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فعيّره بعض الكافرين وقال له احدهم: تركت دين الاشياخ (أي رؤساء قريش) وزعمت انهم في النار. قال: اني خشيت عذاب الله. فقال له الكافر بانه يضمن له إن هو (أي الوليد) اعطاه شيئا من ماله ورجع الى إشراكه ان يتحمل عنه عذاب الله تعالى. ففعل واعطاه بعض ما اتفقا عليه من المال ثم قطع العطاء بخلاً به. فقال تعالى عنه انه تولى واعطى قليلا واكدى. وتعني كلمة اكدى التوقف عن الاستمرار في الشيء كما يتوقف الشخص الذي كان يحفر في الارض الرخوة اذا صادفته كَدْية أي صلابة كالصخرة فيتوقف عن مواصلة الحفر. فانكر المولى على هذا المرتد ما فعل هل اطلع على الغيب ليعلم ان صاحبه سيحمل عنه العذاب؟ وبين المولى ما كان معلوما من صحف سيدنا موسى وسيدنا ابراهيم عليهما الصلاة والسلام بأن لا يكتسب بريءٌ إثمَ آثمٍ فلا يحمِلُه عنه ولا يبقى للانسان إلا سعيُه.

وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾
وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ
﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ

وقد صح الحج عن الغير ودعاء الولد لوالديه وهذا لا يتنافى مع سعي الانسان لان الحاج عن الغير ناب عنه والولد الداعي هو من سعي والده. كما ان العلم النافع والصدقة الجارية مِن سَعْيِ مَن فَعَلَهما فإن مات وبقيا بعده فعمله لم ينقطع. وكل سعي سيكون موضع عدالة الله تعالى فلا يُترَكُ ولا يُنقَصُ بل يُجزاه فاعلُه الجزاء الأوفى. واما وفاء سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام فقد قيل انه عاهد الله تعالى ان لا يسأل غيره فلما رمَى به الطاغيةُ الى النار أتاه جبريل عليه السلام وقال له: ألك حاجة؟ قال: امّا اليك فلا! وبهذا وفّى بالعهد.

وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (42) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (43) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (44) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (47) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (48) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (49) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (50) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (51) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (52) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (53) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (54) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى (55)

بعدما بين المولى عز وجل للذي تولّى واكدى (موضع الآية الثالثة والثلاثين السابقة) جهله بحكم الله تعالى وبِعَدْلِه في تحميل الاوزار، يبيّن المولى تعالى هنا (لهذا ولأمثاله) من آلاء الله سبحانه ما لا يمكن لبشر أن يجادل فيه وهو من تقديرٍ حكيمٍ قدّره الله تعالى من مقام العدل والرحمة وإحقاق الحق وحسر الفساد. فمنتهى حياة الانسان عودة الى مولاه تعالى بما قَدّر من آجال وجعل لمن تقرّب اليه سرورَ الدنيا وضَحِكَ الآخرةِ على من كان يسخر منه من الكفار. وقدّر لمن صدّ عن سبيله مقاساةَ الحرمان من رضوانه في الدنيا إضافة إلى العذاب في الآخرة. وقدّر للحياة بداية في موعدٍ ونهايةً في أجلٍ، وقدّر للأرحام من النُّطَف ما هو ذكر او ما هو

انثى. وكتب لَيَبعثَنّهم من بعد آجالهم. وما بين البداية والنهاية قدّر الارزاق والاخلاق، فأغنى سبحانه بالعفة والقناعة أهلَ الكرم. وأقنى (أي اعطى غريزة حب الاقتناء) أهلَ الحِرصِ الذين يبخلون عن حق الله تعالى في ما إفترضه عليهم في اموالهم. وما بعد ذلك بيَّن تعالى ربوبيَّته لِكل باطل من صنم ووثن يعبده كفار قريش فقال ((وَإِنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى)) والشّعرى اكبر كوكب معروف كانت تعبده بعض القبائل ومنهم خزاعة. فأجدر بهم عبادة الرب بدلاً من عبادة المربوب. ثم بيَّن تعالى أن من آلائه حسرَ الفساد في الارض بما اهلك من جبابرة وطغاة واهل فساد. فذكر من ذلك هلاك عادٍ قومِ هود عليه السلام وهلاك ثمود قوم صالح عليه السلام وإغراق قوم نوح عليه السلام من قبل. فإنهم بطغيانهم مَنعُوا صغارهم من سماع دعوة سيدنا نوح عليه السلام. و(المُؤْتَفِكَةُ أَهْوَى)، وهم قوم لوط عليه السلام جعل سيدُنا جبريل ومعه إثنان من الملائكة (عليهم السلام) عاليَ قُراهم سافلها. وغشيتهم أي غطتهم الحجارة المسّومة (أي التي كلٌّ منها تحمل إسم الذي خصصت له) كالمطر. وبعد بيان ذلك يُنكِر المولى على المكذِّب متسائلاً: بأي آلاء الله تعالى يجادل أي يتمارى؟

هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى (56) أَزِفَتِ الْآَزِفَةُ (57) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (58) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (60) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (61) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (62)

اشار تعالى الى ان الدعوة المحمدية للاسلام مع ما فيها من البشارات هي نذير من النذر الاولى اذ ان القرآن الكريم قد حمل ذلك في آياته ومنها الاشارة الى قرب قيام الساعة أي ازفت الآزفة. وصرح المولى بذلك في السورة التالية ((اِقْتَرَبَتِ

السَّاعَةُ)) الآية. ولكن موعده لا يكشفه أحد غير الله تعالى. هذا كله يدعو للخشية والايمان ونيل الرضوان ولكن الكافرين استهزأوا وهم سامدون (أي غافلون). فاذا سمعوا القرآن رفعوا اصواتهم بالغناء. ودعاهم المولى تعالى للسجود والعبادة المخلصة فمنهم من آمن ومنهم من كفر. وفي الآية سجدة تلاوة.

سورة القمر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (2) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (3) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (5)

اقتراب الساعة الذي اخبر المولى عز وجل به في اماكن متعددة من القرآن الكريم هو ساعة انقضاء الحياة على ظهر الارض. اما انشقاق القمر فإن إيرادَه بعد قوله تعالى (اقتربت الساعة) دعا بعض المفسرين لإعتباره اشارة لإقتراب الساعة أي من آياتها فلا تلبث ان تقوم بعد ذلك. كما ورد في احاديث صحيحة رؤية قريش القمر ينشق بعدما طلبوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كدليل على صحة رسالته فلما رأوا ذلك قالوا سَحَرَنا سِحْراً مستمِرّاً؛ أي شديداً من (المِرّة) أي القوة والشدة، او سحراً بعد سحر. وكذَّبوا بما لم يتفق مع اهوائهم وانغماسهم بالدنيا. وكل أمر له أهله فهو مستقر فيهم واقع بهم وسيثبت عند ظهور جزائه بهم. وكان ما أُنزِل من القرآن الكريم وما احتوى عليه من الحجج الناصعة البيضاء كافياً للتحذير فازدُجِر به أُولو الالباب فقامت بذلك الحجة على من انكر. وهكذا تكون اقامة الحجة عن بَيّنة ساقتها الحكمة الربانية فبلغت الغاية من الابتلاء. فمن لم ينتفع بالرسالة والرسول صلى الله عليه وآله وسلم فما اغنت النذر عنه وكُتِب عليه الشقاء بما استحب من الهوى الضال على الحق.

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (6) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (7) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (8)

الموقف الذي على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو ما أَمَرَهُ به مولاه جل علاه ان يُعرِض عن هؤلاء الذين انكروا ما رأوه وادّعوا انه السحر. فإن اليوم الذي يُدعَون فيه الى موقف الحساب آتٍ بأهوالِه التي يحشرون فيها بأبصارٍ منكسرة ذليلة خارجين من القبور في كثرة وانتشار اشبه بما يفعله الجراد في الانتشار من كَثْرةٍ حينما يفقس من البيض وينتشر في افاق الارض مختلطاً بعضه ببعض. يومئذٍ يكونون مهطعين أي ممتدةً اعناقهم مع سرعة تقدمهم نحو المكان الذي دعاهم الداعي اليه لا يملكون المخالفة ولا الإبطاء. وعندئذ يقول الكافرون هذا يوم عَسِر أي صعب شديد.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (9) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (10) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (13) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (14) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (15) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (16) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (17)

المكذبون من قوم نوح لم يكتفوا بتكذيبه بل اتبعوا ما يمنعه عن اداء الرسالة أي توعَّدوه بالرجم واتّهموه بالجنون وتكرر تكذيبه وزَجْرُه مع تعاقب أجيالهم حتى دعا الله تعالى ان ينصره وكان ان أُغرِقوا. ونجا المؤمنون مع سيدنا نوح عليه السلام في السفينة ذات الألواح والدُسُر (أي المسامير). وكان عليه الصلاة والسلام نجّاراً. وجرت بإسم الله تعالى وحِفظِه حتى استقرت بعد انحسار الفيضان. اما كونها آية

فقد وردت فيها روايات منها ان بعض الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ادركوها قيل بأرض الجزيرة على الجودي. وكانت النجاة جزاء لمن صبر على تكذيب قومه. وتكفي قصته ان تكون آية لمن يعي حكمة الله تعالى في هلاك الكفار ونجاة المؤمنين. فهل من الناس مَن يعتبر، أي مُدّكِر (وأصلُها مُذْتَكِر) بإدغِام الذال بالتاء وإقلابهما إلى دال مشددة.

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (18) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (19) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (20) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (21) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (22)

كذبت عادٌ رسولَهم سيدنا هوداً عليه الصلاة والسلام فكان هلاكهم بريح باردة شديدة الصوت والبرد في يوم جَلَبَ الشر والهلاك اليهم فكان يوم نحس عليهم لم ينقطع حتى هلكوا ونجا سيدنا هود عليه الصلاة والسلام ومن آمن معه. وشبّه المولى عز وجل الهالكين (بفعل الريح التي قطعت رؤوسهم واطرافهم) بالنخل المنقعر أي الجذع الذي اقتلع اصله من الارض فانطرح بلا اغصان ولا جذور. وها هو القرآن مُيَسّرُ اللفظ والمعنى في التشبيه بالنخل المتواجد في الحجاز فكانت الصورة واضحة لمن يعتبر فتساءل المولى سبحانه ((فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)) فيَعْتَبِر ويتعظ.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (23) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (24) أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (25) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (26) إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (27) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (28) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (29) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (30) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (31) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (32)

فِعلُ ثمودَ مذكور في سورة هود وغيرها كما يفعل كفار قريش مع النذر، تكذيباً بها، لأن الذي بلَّغهم بها بشرٌ منهم فصعب عليهم اتباعه واعتبروا ذلك منهم عُدولاً عن دين آبائهم الذي قال لهم عنه سيدنا صالح عليه الصلاة والسلام انكم في ضَلال وسُعُر، أي عذاب السعير وهي النار الهائجة، فتعنتوا وقالوا بأنهم اذا اتبعوه لكانوا في ضَلالٍ وسُعُرٍ وليس كما يقول! وقيل: السُعُر هو الجنون. وكانوا يرون أنّ الرسل تكون من الملائكة او يكون رئيسهم رسولاً اليهم فقالوا (ابشراً منا واحدا نتبعه) فقد انكروا ان يختار الله تعالى مثله متواضعاً ليتلقى الوحي فكذبوه متهمين إياه بطلب الرئاسة بقولهم (أشِر) أي متعطش للكبرياء! وهددهم المولى بالعاقبة التي يكشف فيها الصادق من الكاذب. وجاء الامتحان الشديد في صورة ناقة اظهر المولى عز وجل فيها معجزة لرسوله اذ كانوا قد سألوه ان يخرج لهم ناقة من الهضبة. ومكث ينتظر تصديقهم ولكنهم تآمروا على التخلص منه ومن ناقته واجترأ مجرمهم فقتل الناقة اذ عقرها أي ضرب قوائمها بالسيف فهلكت وكان لها فصيل فهرب الى الهضبة التي خرجت امه منها ولم ينكر احد من قوم هذا المجرم عليه هذا العمل فكانوا شركاء له في الاثم فاستحقوا العذاب الا مَن آمن مع سيدنا صالح عليه الصلاة والسلام فنجاهم الله تعالى واهلك الكفار بصيحة تهشمت بها اجسادهم وييست فكانت كالحطب المهشم الذي يجمعه رعاة الغنم ليجعلوا منه سياجاً لحظائر اغنامهم. وهذا مَثَلٌ من واقع كفار مكة وما جاورها ليتدبروا المنظر وليعتبروا فهل من معتبر.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (33) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (34) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (35) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ

(36) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (37) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (38) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (39) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (40)

سبب تكذيب قوم لوط متعلق بفاحشة الشذوذ الْمِثلي التي لم يسبقهم بها احد من العالمين. وبدلاً من ان يتوبوا ارادوا إخراجَ سيدِنا لوطٍ عليه الصلاة والسلام من قريتهم فارسل المولى عزّ وجل ملائكة بصورة بشر فحلّوا ضيوفاً عنده. فلما عَلِمَ القوم بهم راودوه عن ضيفه فاستحقوا ما فعل الله تعالى بهم. إذ طمس أعْيُنهم وارسل عليهم حاصباً أي أثار رياحاً شديدة بحيث تحمل الحجارة فأهلكهم الله تعالى. ونَجّى منهم آل لوط إلّا امرأته التي استحقت الهلاك بخيانتها إذ أوصلت نبأ الضيوف لقومها. وهكذا نصر سبحانه رسوله الذي كذبوه. واوضح قصته في اكثر من موضع من القرآن أي في مناسباتها من حيث الزمان او المكان ويتساءل المولى: فهل من متعظ يحذر المصير المؤلم. والعبرة هنا من فعل تكذيب الرسل وليس من منكر فعلهم الذي لم يُعرَف في قريش.

وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (42)

واما فرعون ومَلَؤُه فقد جاءهم سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام كما ورد في اماكن سابقة من القرآن الكريم بآيات خارقة للمألوف منذراً إياهم من التكذيب ولكنهم كذبوا فاغرقهم المولى كما جاء في قصتهم من الآية الثالثة بعد المائة الى الآية السابعة والثلاثين بعد المائة من سورة الاعراف. وكذلك العبرة لقريش من فعل التكذيب وليس من عبادة البشر.

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (43) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (46)

الخطاب موجَّه لكُفّار مكة بعد هذا الايضاح الموجز لهلاك الذين كذّبوا من قبل إذ يواجههم تعالى بما اتضح لهم: ايّهم خير: أكُفّارهم أم من سبق من المكذّبين؟ وكانوا أصحابَ دول وقوة واموال! وهل يا كفار مكة لكم امان مثبت في الكتب بان العذاب لا ينالكم أم ترون لكم قوة منتصرة؟ وهنا توعّدهم تعالى بالهزيمة في الدنيا والحساب يوم القيامة وهي ادهى من الدنيا وامرّ أي أكثرَ مِرّةً، أي شِدّةً، أو أمرّ مذاقاً (أكثر مرارة) في قلوبهم.

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (47) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (48) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (49) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (50) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (51) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (52) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (53) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55)

المجرمون بالنسبة للقرآن الكريم وسُنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هم كل كافر مكذّب او مشرك او مبتدع بدعةً لم يُنزِل بها الله سلطانا أو من عنده شك وريبة في الرسالة والرسول صلى الله عليه وآله وسلم من المنافقين والمارقين. وقد اكد سبحانه وتعالى انهم في ضلال عن الحق في حياتهم الدنيا ما لم يتوبوا ويخلصوا دينهم لله تعالى. وانهم في سُعُرٍ، أي هياج نيران الآخرة. فكما اخلدوا الى سفلية الحياة الدنيا فانهم يسحبون على وجوههم في النار ويذيقهم الموكلون بهم طعم سقر (أي مسّها). وسَقَر اسم نار مأخوذ من السّقْر أي التلويح. وهكذا سبحانه خلق

كل شيء بقدر. خلق النعيم لأهله بقدر وخلق جهنم لأهلها بقدر. وقد اقتضت الحكمة ان يكون الجزاء من جنس العمل فلا ظلم. وذلك المقدور مهيأ من القِدَم بأمر الله تعالى لسبق معرفته بما استحقه الخلق. فالمقدور من العدل في العقاب ومن الرحمة في الثواب يأتي زمانه لأهله لَمّا تقوم عليهم الحجة او تقوم لهم. واما امر الساعة فلا يتعدى أمراً واحداً فَيُطاع كلمح البصر من حيث السرعة. ثم يخاطب كفار قريش مرة اخرى ليتذكروا الهلكى ممن شابهوهم في الكفر من الامم فكل فعلهم مكتوب عليهم وقصصهم واردة في الكتب المنزلة. وكل ذلك من علم الله تعالى في المقدرات على البشر كما جاء اعلاه، وقد اعد الله تعالى للمتقين منازلهم في جناتٍ ونَهَر. و(النَهَر) لها في التفاسير معنيان؛ إما جمع نَهْر، او ضياء مع سعة. وهذا مقعدهم عند ربهم الذي ارضوه تعالى بصدقهم ورضوا عنه تعالى بقربهم وهو الواحد في ملكه، مليكاً مقتدراً.

سورة الرحمن

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (6) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (10) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (11) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (12) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (13)

الرحمن، بهذه الصفة التي يرحم بها المولى الكريم عباده المؤمنين وغيرهم في حياتهم الدنيا، انزل القرآن على من ارسله رحمة للعالمين صلى الله عليه وآله وسلم. وبهذه الصفة يسّر تعلم كتابه الكريم ويسّر حِفْظَه وفهمه لمن يصدق في عبادته. وخلق تعالى الانسان متميزاً بالنطق والافصاح دون سائر من دب على الارض. فالانسان يعبر عن مكنونات نفسه في طلب العلم وفي التعليم. ثم بين تعالى غير الانسان من المخلوقات فبدأ بالشمس والقمر وما يظهر منهما من آيات الحركة بحسابٍ مُتقَنٍ. فحركة القمر دورانه حول الارض وحول نفسه، وحركة الشمس ظاهرية من دوران الارض حولها ودوران الارض حول نفسها بتقدير متناهٍ في الدقة لا يخطىء فيهما حساب السنين والأيام واجزائهما. والنجم هو ما ينبت من الارض منجّما أي متفرّعاً من غير جذع فينتشر في جهات متفرقة من أصله على الارض خلاف الشجر ذي الجذع من الخشب. ولكلٍ سجوده. وفي التفاسير ان النجم المذكور هنا يمكن ان يفسر بالنجوم فهي في حركتها الظاهرية تتقلب كالساجدة

والقائمة. وكلُّ سجودٍ هو سجودُ المخلوق للخالق وحده. والسماء بالنسبة للانسان لا يراها إلا اذا رفع رأسه اليها فهي المرفوعة وفيها رزق ربه ومنها تنَزَّل ملائكة الرحمن بإذنه في ليلة القدر. وبما أن الارض دائمة الدَوَران فالإنسان يرى كل سماء مرتفعة سواء كان الرائي في الشمال او الجنوب. ثم نبّه سبحانه إلى رفعة العدل اذ وضع الميزان أي سخره كوسيلة للعدل وحذر من الظلم فيه فقد وضعه فاصلاً في معاملات البيع لإقامة العدل في الحقوق فمن حاول إلحاق الخسارة بإنقاص حق عميله فقد أخسر الميزان أي طفّف. وقد توعد المطففين بالويل في السورة المسماة بإسمهم. كما وضع الارض وما فيها أي سخرها المولى عز وجل مهيأة للحياة في تضاريسها وأنهارها وبحارها وكنوز باطنها حتى استقرت مُسَخَّرَةً للانام من ربهم فانبتت الفاكهة والنخل ذات الاكمام، والاكمام جمع (كِمّ) بكسر الكاف، وهي كل ما يُكِمُّ أي يغطي الثمر من ليف وسعف. وفيها الْحَبُّ ذو العصف أي ذو التبن او ورق الزرع الذي يصفرُّ يابساً. وذو الريحان: الريحان المعروف، وقيل الورق الاخضر حول الحب قبل اصفراره. وبعد ان عدّد المولى جل جلاله هذه النعم يتساءل بأي منها يكون تكذيب المكذبين من الأنام.

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (15) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (16)

الصلصال هو الطين اليابس له صوت الفخار المجوف. والمارج من النار هو اللهب الصافي الذي لا دخان فيه. وفي رواية للامام احمد عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ((خُلِقت الملائكةُ من نور، وخُلق

الجان من مارج من نار، وخُلق آدمُ مِمّا وُصِفَ لكم)). وبعد هذا البيان يسأل المولى تعالى: فما مجال التكذيب بهذه الآلاء.

رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (17) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (18) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (22) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (23) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (24) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (25)

الْمَشرِقانِ؛ أحدهما أقصى ما تصل اليه الشمس للعيان في شروقها شمالاً وذلك عند تعامد أشعتها على مدار السرطان، والآخر أقصى ما تصل اليه في شروقها جنوباً عند تعامد أشعتها على مدار الجدي. فبالنسبة لمن يعيش في نصف الكرة الارضية الشمالي اذا واجه المشرق في الحادي والعشرين من آذار (مارس) يكون المشرق عندما تتعامد أشعة الشمس على خط الاستواء فاذا واجه نفس الاتجاه بعد ثلاثة اشهر يرى الشمس تشرق من جهة يمينه بزاوية مقدارها ثلاث وعشرون درجة ونصف الدرجة وبعد ستة اشهر تشرق عن شماله بنفس الزاوية فهما شرقان وما بينهما مشارق وكذلك المغارب. وقوله تعالى: ((مَرَجَ البَحْرَيْنِ)) أرسلهما وعَزَلَ بينهما، فإن هذه الظاهرة واضحة عندما يسيل الماء العذب خلال مستنقع من الماء الملح فان تفاوت الكثافة بينما وسرعة التيار يؤديان الى استمرار العذب حتى يخرج من المستنقع فلا يختلطان. وذكر المولى عز وجل من منافع البحرين استخراج اللؤلؤ والمرجان وهما المقصودان بقوله تعالى: ((حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا)) من سورة فاطر ((وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا)). فاللؤلؤ من القواقع والمرجان من صخور

البحر. ويذكر تعالى السفن الضخمة التي تحمل الحمولات الكبيرة من البضائع بين الاقطار كالأعلام (كالجبال) وما في ذلك من آلاء الله تعالى في منافع التجارة ومصالح الناس فباي الآلاء يكذب الثَقَلان؟

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (28) يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (30)

كلُّ مَن على الارض له موعد لا يكون فيه شيئاً مذكوراً، كما لم يكن شيئا مذكوراً قبل خلقه، ويعود كما بدأ من الفطرة. فكما بدأ الله تعالى أوّلَ خلق يعيده ويبقى الخالق العظيم ذو الجلال والاكرام. والجلال يحمل معنى العظمة والكبرياء. والإكرام يكون للمؤمنين بإكرامهم بالجنة. فموتهم خير لهم يجمعهم مع مولاهم فبأي نِعَمِ الله تعالى يكذِّب الثقلان؟ يسأله أهل السماء رحمتَه ويستغفرون لمن في الأرض ويسألونه وقايتَه السيئات لمن تابوا واتبعوا سبيله. ويسأله اهل الأرض في الرخاء والشدة والكل مفتقر له. وكل يوم له نعماء فيعطي العابدين عوناً ويعطي العصاة مهلة ويعطي التائبين مغفرة ويجيب المضطر إذا دعاه. فشأنه مع التائب غير شأنه معه قبل أن يتوب في امسه. وهو العليم من الازل بما سيكون عليه كل عبد في كل يوم. فأُمورهم معلومة عنده ويظهر شأنه فيها وقيل في ذلك "امور يبديها ولا يبتديها يرفع اقواماً ويضع آخرين كل يوم هو في شأن". مأخوذ من حديث رواه ابن جرير عن منيب الازدي رضي الله عنه قال: تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الاية ((كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)) فقلنا يارسول الله وما ذاك الشأن قال ((ان يغفر ذنباً ويفرّج كرباً، يرفع قوماً ويضع آخرين)). فبأي آلاء الله يكذِّب الثقلان؟

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (31) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (32)

شؤون الله تعالى لخلقه في حياتهم الدنيا متعددة اما شأنه في يوم الحساب فشأن واحد يتوفر فيه على امر واحد هو الفَصْلُ. فيوم الحساب هو يوم الفصل بالرحمة للمتقين، وبالعدل للمكذبين. وسيلي ذكره في سورة المرسلات إن شاء الله تعالى. يوم رحمة وعدل فلا يكذب بهما الثقلان؟

يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (33) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (34) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (35) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (36)

فسّر الاقدمون محاولات المكذِّبين للهرب من حسابهم وعقابهم يوم الحشر بأنها البحث عن منفذ في اقطار السماوات والارض، ولكن الله تعالى قد وَكَلَ ملائكة يحيطون بالثقلين، الجن والانس، ذلك اليوم فلا مفر لهم. وبالنسبة للغاية من شرح هذه الآية يكفي هذا الشرح من غير التطرق الى ما تحدث به الناس عن انطلاق الانسان في الفضاء بما اعطاه الله تعالى من علم. فان خلاص المؤمنين يوم الحشر يكون بعد رحمة الله تعالى بما عندهم من الأعمال الصالحة. فهذه الآية وعيد للمكذبين وإظهار لضعف الانس والجن امام قدرة الله تعالى اذا قضى امراً. فأمره نافذ لا محالة. ويمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب فمن يُكَذِّبُ بآلائه؟ واما إرسال الشواظ، وهو الدخان أو سيل من النار او اللهب الاخضر مع النحاس وقيل هو الدخان او النحاس المصهور، ففي التفاسير ان الملائكة تقوم بهذا الردع لمن يحاول الافلات من موقفه الذي وقفه يوم الحساب. وعندئذ بأي قدرة لله تعالى يكذب الثقلان؟

فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (38) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (39) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (40) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (41) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (42) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (43) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (44) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (45)

اذا أذِنَ المولى عز وجل بقيام الساعة تتبدل الاوصاف والألوان ومنها قوله تعالى في الآية الثامنة والاربعين من سورة ابراهيم عليه السلام ((يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ)) الآية. وهنا تكون ارض المحشر كما جاء في شرح الآية المذكورة من سورة ابراهيم عليه الصلاة والسلام غير الارض وكذا السماء فاذا انشقت واهيةً تتشقق بالغمام يصبح لونها وردياً كأنها قد صبغت بغير لونها وتنزل الملائكة لإبرام امر الله تعالى. ومن هذا يقول المولى عز وجل في الآية السادسة عشرة من سورة الحاقة ((وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا...)) الآية. وفي الآية الاولى من سورة الانشقاق ((إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ)) الآية. وفي الاية الخامسة والعشرين من سورة الفرقان ((وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا)) ويفهم من كل هذا ان الارض تنشق عن البشر لبعثهم كما جاء في الآية الرابعة والاربعين من سورة (ق) والسماء تنشق عن الملائكة يراها الخلق من خلال الغمام وردية اللون بدلاً من زرقتها. فمن سعد بالبشارة كان ذلك اليوم من نعماء الله تعالى فبأي آلائه يكذب الثقلان؟ وهنا لا يُسأل المذنب عن ذنبه بل تشهد عليه جوارحه وبعد ذلك يسأل سؤال توبيخ ((أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)) كما ان المجرم يُعرف بسيماه فيؤخذ من غير بيان

عمن يأخذه من الملائكة. يأخذونه من ناصيته أي مقدمة رأسه ولا اثر للسجود فيها، ومن اقدامه فلا اثر للسجود فيهما. اما سيماه فسوادٌ وزُرقةٌ ((وَنَحْشُرُ الْمجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا)) ويُشار الى مصيرهم أي جهنم يرونها حقاً وليس كما كذبوا بها. وتقسم اوقاتهم بين جهنم وبِرَكِ الحميم وهو الماء الحار صفته (آنٍ) أي قد بلغ اقصى حرارته. وقد كانت الرسالات السماوية تتلى عليهم وهي من أَجَلِّ النِعم فبأي نِعَم الله يكذب الثقلان؟ وبعد وصف شقاء اهل النار يكشف لنا المولى عز وجل نعيم اهل الجنة فيقول:

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (47) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (48) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (49) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (50) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (51) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (52) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (53) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (54) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (55) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (56) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (57) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (58) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (59) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (60) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (61)

خوف مقام الله تعالى هو خشيته بالغيب فلا يغفل القلب عن حضوره معه. والجنتان متشابهتان في اشجارهما وانهارهما وفواكههما واثاثهما الذي بطائنه من استبرق أي الحرير السميك. وجناهما هو الثمر يكون في متناول اليد. وقاصرات الطَّرْف: لا ترى الواحدة منهن غير زوجها ولم يسبق لغيره الوصول اليها. مشبّهات بما هو نقي جميل اللون أي الياقوت والمرجان وهما من الاحجار الكريمة. كل هذا

احسان من الله تعالى للمقربين لمن احسن في الدنيا أي عَبَدَ الله تعالى كأنه يراه فبأي آلاء الله يكذب الثقلان؟

وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (62) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (63) مُدْهَامَّتَانِ (64) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (65) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (66) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (67) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (68) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (69) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (70) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (71) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (72) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (73) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (74) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (75) مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (76) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (77) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (78)

وأصحاب اليمين بعد المقربين وجناتهم دون جنان السابقين ومع هذا في جنَّتيْ كل منهم ما لم تره عين ولا سمعت به اذن. فالجنتان هنا كثيرتا الخضرة حتى طغى لونهما على الالوان الخفيفة فكانتا مدهامتين أي داكنتي اللون سوداوين. وتنبع فيهما عينان نضاختان أي تفيضان بالمياه. والفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة كما جاء لأصحاب اليمين في سورة الواقعة. وخص المولى النخيل والرمان مع الفاكهة. واما نساؤهما فمن الحور جمع حوراء أي صافية العينين لشدة بياضهما وسوادهما. والحور (مقصورات) أي ذوات خدور في جوف الخيام. (وفي التفاسير الخيام من لؤلؤ) لم يصل قبل ازواجهن اليهن إنسٌ ولا جانٌّ. تتوفر لاهل هذه الجنان الراحة على رفرفٍ خُضْرٍ هي وسائدُ وفُرُشٌ أغطيتها موشّاة، وعلى عبقري من البُسُط حسان المنظر يستحسنها أهلها. وهذا ما يتساءل فيه المولى: بأي آلائه يكذب الثقلان؟ فالمصدِّق نال الجزاء والمكذب صدّق بعد فوات الأوان فتبارك اسم

الله الجليل الكريم أي تتنامى هباته ولا تنقطع فهو بجلاله يكرم احبابه بالايمان والعمل الصالح في الدنيا وبالجنان في الآخرة والحمد لله رب العالمين.

سورة الواقعة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (4) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (5) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (6) وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (7) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (8) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (9) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (14) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (15) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (16) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (17) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (18) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (19) وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (20) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (21) وَحُورٌ عِينٌ (22) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (25) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (26)

سُمِّيت نهايةُ آخرِ ساعةٍ للحياة الدنيا: الواقعة، لانها في علم الله تعالى حاصلة لا محالة وهي القيامة التي لا يدفعها دافع ولا يرجى ردّها ولا تبقى نفس عندئذ الا وهي مؤمنة بها. فهي خافضة لمن سبق وكذّب بها ورافعة لمن سبق وآمن بها. وعلامتها اذا تحركت الأرض وكأن هناك من يرجها أي يسرع في تحريكها بشدةٍ تنهدُّ بها الجبال حتى تصير هباءً أي غبارا متفرقاً. وعندئذ يتفرق الخلق الى اهل جنان والى اهل جهنم. فالسابقون يسبقون إلى الجنة بغير حساب، ثم أصحاب الميمنة من يدخلها بعد حساب. واهل النار هم اصحاب المشأمة. ويبين المولى الكريم ما للسابقين من كرمه فهم الْمُقَرَّبون لأنهم سبقوا غيرهم في الخيرات فكانوا افضلَهم واسبقهم اذ وصلوا غاية الاحسان ونالوا القرب في جوار الله تعالى في جنات النعيم وهم ثلة أي امة ليس بقليل عددها من اهل الزمان الأول من امة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم (وذلك على ارجح التفاسير) وقليل من الآخرين أي من اهل

الزمان المتأخر من هذه الامة. سرير كل منهم موضون أي منسوج ومطعّم وفي التفاسير (الموضونة) هي المنسوجة من ذهب والمطعمة بالاحجار الكريمة باهرة الجمال. واتكاؤهم عليها دليل راحتهم. وعندما يجتمعون بأحبابهم من اهل واخوة في الايمان من مختلف الازمنة تتقابل وجوههم في حسن العشرة والصحبة يخدمهم وِلدان مخلدون أي باقون على صفة واحدة لا يتغيرون من حيث الرضا والعمل. وفي صفة الغلمان اقوال؛ منها انهم ممن مات من غير سيئة دون البلوغ من غير هذه الأمة قد خلدوا لهذه النعمة أي ركنوا اليها، وطواف هؤلاء الولدان يكون بما تنشرح له الصدور من شراب يشرب بأكواب أو بكؤوس. والاباريق هي ما يكون فيها خرطوم ولا يقال كأس ما لم يكن فيها شراب. وقيل كؤوس خمر الجنة الذي تجري به الانهار فيه لذة فائقة ولا تخفُّ معه العقول او تصاب به الرؤوس بصداع. ولا يُنْزِفون أي لا يخرجون عن وقارهم. والفاكهة حسب الاختيار وبالطبع تكون المفضلة وكذلك اللحم المفضل في الاشتهاء. واما الحور العين فقد سبق شرح ذلك. وهن صافيات كاللؤلؤ الذي حفظته القوقعة مكنوناً فيها أي مستوراً فيها من كل كَدَرٍ ولم يغيره الزمن الطويل. كل هذا لمن عملوا فأحسنوا فيه غاية ما استطاعوا من احسان. فهناك عمل صالح افضل من عمل صالح آخر فاختار المحسنون القيام بالأفضل فنالوا الجزاء الأفضل. وهذه صفة من يعبد الله تعالى كأنه يراه. وسبق قوله تعالى ((هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)). لا يسمعون فيها مما كان يزعجهم في الدنيا من لَغْوٍ بلا معنى ولا فائدة، ومن تأثيمٍ، أي هفوات اللسان التي تكتب مع السيئات وقيل الهذيان. بل يكثر سماعهم التحيات من أحبائهم والرد عليها منهم سلاماً، سلاماً: سلام في التحية، وسلام في ردّها.

وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (27) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (28) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (29) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (30) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (31) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (32) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا

مَّمْنُوعَةٍ (33) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (34) إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (35) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (36) عُرُبًا أَتْرَابًا (37) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (38) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (39) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (40)

اصحاب اليمين هم الذين آتاهم المولى عز وجل كتبهم بأيمانهم فقد كانوا ملتزمين بالشريعة. لهم من الجنان ما يجعلهم في سدر مخضود أي شجر النبق الذي لا شوك فيه. وفي طلح منضود أي الموز المتراصف مع بعضه من اسفل الشجرة الى اعلاها. وفي ظلٍّ ممدود أي غير محدد بزوال او انتقال. وفي ماء مسكوب يصبه جريانه من غير انخفاض شديد. وفي فاكهة ذات اصناف كثيرة لا تتأثر بمواسم المناخ فتقل او تنقطع فترة من الزمن. كما لا يمنعها مانع مثلما كانت تنقطع أو يصعب الحصول عليها في ايام الدنيا (وفواكه الجنة تخلو من النوى). وعلى فرش مرفوعة، وما أكثرَ مَن كان منهم محرومين من كل هذه النعم في حياتهم الدنيا فلم يأبهوا لذلك وكان همهم هم الآخرة فآتاهم الله تعالى نعيمها وزوّجهم بزوجات كما جاء في وصفهن في هذه الآيات انشأهن الله تعالى أبكارا من غير ولادة ولا طفولة وقيل انشأ مؤمناتِ الدنيا بعد البعث كأنهن خُلِقْنَ من جديد. عُرُباً أي متحببات يبذلن جهدهن لإرضاء أزواجهن، أتراباً، أي مستويات في العمر. قيل في التفاسير بنات ثلاث وثلاثين سنة. واما هؤلاء اصحاب اليمين فقد حددهم المولى بالكثرة من اهل الزمان الاول من امة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم. والكثرة من اهل الزمان الآخر من هذه الامة وفي التفاسير ان سابقي أُمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم اكثر من سابقي الامم المؤمنة التي قبلها وأصحاب اليمين منهم مثل اصحاب اليمين من هذه الامة. وبقي ذكر اصحاب الشمال.

وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (41) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (42) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (43) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (44) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (45) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (46) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (47) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (48) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (49) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (50) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (51) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (52) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (53) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (54) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (55) هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (56) نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (57)

قوله تعالى ((مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ)) أنه سيخبر عنهم وقد وردت صفتهم بانهم اصحاب المشأمة وجاء ذكرهم بأنهم تأبى صحائفهم إلاّ ان تأتيهم من شمائلهم. مصيرهم في سموم وهو الهواء الحار وحميم وهو الماء الساخن. وظِلّ من يحموم وهو الدخان الاسود ولا تهبّ فيه ريح باردة وليس بكريم ينفع من تعب مثلما يريح الظل مَن يستظل به من اهل التعب. وايضاح سبب كل ذلك انهم كانوا منغمسين في أهواءٍ ضالّةٍ ولم يزجروا انفسهم من الانسياق وراءها فجمعوا لأجلها واصروا أي داموا على الشرك الذي هو حِنْثٌ للعهد الذي اخذه تعالى عليهم في النشأة الأولى اذ اشهدهم على انفسهم (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) فقالوا (بَلَى) واخذ ميثاقهم إذ قالوا (سَمِعْنَا وأَطَعْنَا). ويشمل الحنث عبادة الاصنام والطواغيت والذنوب العظيمة والعمل لغير الله تعالى وفي غير ما امر او اباح حتى فقدوا الايمان بالبعث والحساب يوم القيامة. وبعد الحساب فهم في حياتهم الدنيا وقد جاءهم الخبر بالبعث والحساب تساءلوا هل سيبعثون من قبورهم بعظامهم ورفاتهم؟ واكد لهم المولى عز وجل انهم فعلا مبعوثون اذ سيجمع تعالى الاولين والآخرين في يوم محدد هو يوم القيامة وعندها سوف يعرفون انهم كانوا ضالين ومكذبين بالحق. فيُنادَون بهاتين الصفتين: ايها الضالون

المكذبون. ويبين لهم المصير بالأكل من شجر الزقوم وهو كما ورد شرحه في الآية الثانية والستين من سورة الصافات شجر الضريع او الشبرق ونبته اخلاط كريهة هو الغسلين مر المذاق كريه الرائحة. ولشدة جوعهم يملأون البطون منها فتثير الظمأ الشديد فلا يجدون الا الحميم الذي ورد ذكره آنفاً يشربونه شرب الابل العطشى التي تهيم في طلب الماء. هذا نُزُلُهم أي نهاية مطافهم ومآل إقامتهم وجراية طعامهم وشرابهم بعد يوم الدين. وبعد كشف هذا المصير لكي يجتنبه اهل الشرك يدعوهم المولى تعالى مذكراً اياهم بخلقهم لعلهم يصدِّقون، فيقول تعالى:

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (58) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (59) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (61) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (62)

يذكّر المولى تعالى من لم يتدبر الخلق فلعله يؤمن بالبعث: هل هم الذين يُقِرُّون النطفة في الرحم؟ وهل هم الذين يخلقونها فيبعثون الحياة فيها؟ ام انه هو القادر الذي يخلق؟ وماذا بعد الخلق؟ فهناك تقدير الاعمار كقسمة الارزاق؛ كَثرةً، وقِلَّةً، وما بين ذلك. فالأعمار إمّا طويلة او متوسطة او قصيرة. وهذا التقدير سابق لكل تقدير من البشر فيُبدَلُ الموت بإضفاء الحياة وتبدل الحياة بارسال الموت (وِلادات ووفيات). وينشيء النشأة الاخرى بصيغة لا يعلمها الّا هو سبحانه. فالنشأة الأُولى، ومعجزةُ تنفس الجنين حال ولادته، ورضاعته ولم يكن يعهدها من قبل ألا تُذَكِّر المكذبين بمعجزة القدرة الالهية على البعث؟ فانهم وقد أحاطوا علماً بالأجِنّة وتطورها في الرحم وولادتها وكل ذلك خارق لنواميس الطبيعة أي (لقوانين علم الفيزياء) بتحويل التغذية وابدالها بحليب الام وتحول مسلك الاوكسجين من الدم الى

الحصول عليه من الهواء عليهم أن يتذكروا ابدال العظام والرفاة وهي ترتفع الى سطح الارض الى خلق آخر حي يتغذى ويتنفس.

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (66) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67)

المولى عز وجل وضع خواص الأرض وكنوزها فيها وجعلها مسخّرة للحراثة والزرع وعلّم الانسان إياه ولولا ذلك لما كانت الزراعة والحصاد ومادة العيش. وما اكثر الاسباب التي تجعل الزرع قبل الحصاد او بعده حطاماً لا يُنتفع به ولكن الله تعالى حفظه من الآفات والّا لما انفك المتضررون من الاسف والحديث عن حرمانهم وخسارتهم. وعلى هذا يمكن للفلاح ان يقول حرثت فقد اقر المولى له بذلك ولكن لا يمكنه ان يقول أنبتُّ الزرعَ وحفظتُه من اقدار التحطيم. أي فليذكر عناية الله تعالى وليؤمن بقدرته التي أحيا بها الزرع دليلا على قدرته في إحياء الموتى.

أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (70)

يكون بخار الماء الذي اثارته الرياح ماءً عذباً تاركاً الملح الذي كان معه في البحر لم يتبخر معه فينزله الله تعالى بقدرته من الْمُزْنِ أي السحب العذبة البيضاء. وهذه قدرة لا يعجزها ان تجعل الماء أُجاجاً (مِلْحاً مُرّاً) يصعب شربه فعلى من عرف الفضل العظيم أن يشكر المتفضل سبحانه.

أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (72) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (73) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (74)

النار تتولد من قبس من نار قبلها او تُورَى أي تخرج من المحروقات بعملية ما. فوقود الناس من القديم يعتمد على المحروقات التي اصلها نبات. أو يورون النار من احتكاك حديدة بحجر صوان متواصل حتى يتولد منه شرارة تحرق اقرب شيء اليها من نبات سريع الاشتعال. فالمولى جلّت قدرته يذكِّر الخلق بالخواص التي وضعها في الشجر بحيث تتقد فيه النار. وقد كان على النقيض من ذلك قبل جفافه في رطوبة واخضرار. وقد جعل المولى تعالى في النار انتفاعَ الناس بها للطعام فتنضجه. ولكنها بنفس الوقت تعرفهم معنى نار جهنم لتكون في الذاكرة يتوعد بها المولى من كفر. وجعلها تعالى نافعة لمن يكون في القواء أي في السفر البعيد عن العمران فهي تساعده على تحضير الزاد حتى يصل الى العمران. وسبحان الله تعالى يذكر الخلق بنعمائه ويذكرهم بما ينبغي عليهم فعله اذا ذكروا آلاءه بان يحمدوه حمداً يحمل التسبيح بإسمه العظيم.

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (80) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (81) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (82)

هذا القسم واشباهه بما يقسم الله تعالى به من خلقه هو صيغة للقَسَم يستهل بها رب العزة ما يريد ان يؤكده او يظهر اهميته. فهو تعالى ليس مُلزَماً امام خلقه بِقسَم بل يريده لأمرٍ يلزمهم به او يحذرهم منه. فقوله ((وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)) أي سوف اخبركم بأمرٍ ذي اهمية بالغة. بأنّ القرآنَ كريمٌ وكَرَمُه انه ذو نفع لا يعدله خبر آخر في مضمونه. مدّخر في كتاب مكنون أي في اللوح المحفوظ لا يَمَسُّه إلاّ المطهّرون على خلاف ما ادعى الكفار انه تنزّلت به الشياطين! فالشياطين

توسوس بالقول الرديء على كل أفّاك اثيم. وهذه الخصال الثلاثة؛ أي تنَزُّلُ الشياطين، والإفك، وأهل الإفك، لا توجد في القرآن الكريم الطاهر ولا في الرسول الصادق الامين صلى الله عليه وآله وسلم. ولهذا وجب التطهر في تناول القرآن لتلاوته أي بعد الاغتسال فلا يمسه جُنُبٌ، ثم الوضوء. واذا استوجب قراءة شيء منه للدرس او العلم من غير وضوء ففي ذلك رخصة مع وجوب تعظيمه ولهذا لا يستحب اعطاؤه لغير مسلم. ولا بأس من تلاوته عليهم إن كان يؤمل من ذلك نفعهم إنْ عَلِمَ المؤمن فيهم خيراً. وهكذا لا يحتمل القرآن التكذيب اذ نزل طاهراً على صادق امين من رب العالمين وبذلك سمي بالتنزيل. فلا باطلَ فيه محفوظاً مصوناً من ذلك فكيف بمثل هذا الحق يُدهِنُ الكفار أي يكذبون ويتهاونون ولا يصغون اليه. وبدلاً من شكر الله تعالى على نعمة كتاب الله تعالى ليزدادوا حظاً فيه، صار حظهم منه أي رزقهم منه انهم كذبوا به فلم يربحوا منه رضوان الله تعالى وجواره. (فقد كانوا ينسبون المطر الى الانواء مكذبين بنعمة الله تعالى فيه فيتوهمون الرزق يأتيهم من غير تقدير ربّاني)!

فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (83) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (84) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (85) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (87) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (89) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (90) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (91) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (92) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (93) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (94) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (95) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (96)

يتحدى المولى جل جلاله عباده ان حضر الموتُ أحداً وحوله من ذويه وصديقه ينظرون ما بدا عليه من مظاهر حصول الموت، وأمرُ الله تعالى اقرب منهم

اليه بقبض روحه فوفاته. ولكن لا يبصرون فبصر الانسان محدود لا يرى الا في حدود ما خصه الله تعالى به إنعكاس موجات الضوء وسرعتها. فلو كان الحاضرون غير خاضعين لأمر الله تعالى وقهره إذاً فَلْيُرجِعوا الروح الى صاحبها. وهنا بشارتان للمقربين واصحاب اليمين، وعبرة عن مصير أصحاب الشمال. فان كان الميت من المقربين فتصله رائحة الجنة وروحها وريحانها في نعيم مقيم بلا حساب. وإن كان من اصحاب اليمين فليس له هذه البشارة إلا بعد الحساب يتلقى ممّن سبقه من اصحاب اليمين سلاماً وتبشره الملائكة بأنه منهم أي نال السلامة من العذاب. واما إن كان من المكذبين الضالين فنُزلُه أي مَوْقِعُه كما زاغ عن الهدى في دنياه ينحرف عن طريق الجنة في الآخرة فلا بشارة ولا سلام في منزلةٍ شقيّة بين حميمٍ وجحيم (كما جاء في سورة الرحمن: يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ). ويؤكد المولى العزيز ما اكده في بداية الآيات بأن هذا هو حق اليقين أي الخبر الصحيح الذي سيجدونه عين اليقين (عِياناً). فيا ايها المؤمن سبح اسم ربك العظيم أي تَفَكّرْ وانت تذكُرُ آلاء الله جل شأنه في قدرته المنَزّهة عما لا ينبغي له. ويلاحظ ان الله تعالى مذكور في هذه السورة والسورتين اللتين قبلها بصفته الرب وصفته الرحمن ولم يرد اسمه بلفظ الجلالة (الله) الا في البسملة.

سورة الحديد

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (2) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3)

كل ما في السموات والارض حاصل بقدرة الله تعالى ويدل على إرادته سبحانه. وكل الوجود يجزم بإستبعاد أي شريك من دون الله تعالى أن يفعل او يقدر على ما كان ويكون من الخَلْق. وهذا هو معنى التسبيح لله أي تنزيهه عن الشريك. وهو تعالى، وقد خلق، فهو المالك لما خلق أي له ملك السماوات والارض. وهو المقدِّر للحياة وللموت ولِما يحصل من كل شيء ولكل شيء في ملكه. فهو القدير على كل شيء. وقبل مخلوقاته لم يكن غيره فهو الاول. وبعد فنائها ليس من احد بعده فهو الآخر. والادلة في ذلك كله هو الظاهر فيها. والمقادير المدبرة بلطفه الخفي هو الباطن فيها. فليس قبل ظهوره من ظهورٍ لغيره. وليس دون لطفه من لطف لغيره. سبحانه عما يشركون. ويفسر المولى ما انزل هنا عن الخلق والعِلم وعن التدبير فيقول:

هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (5) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (6)

الايام الستة التي ذكرها المولى لم تكن من اجل الزمن المطلوب بل من اجل اصناف المخلوقات فلكل مجموعة متجانسة من الاصناف يوم يهيأ لحياة الانسان، الى ان خلق الانسان في آخرها كما جاء في اكثر من موضع من التفاسير والأحاديث. فإن ارادة الله تعالى لا يعيقها زمن ولم تكن آنذاك أيّام الارض. فعند الله تعالى عِلْمُ مدة الايام. أمّا الإستواء على العرش فمشروح في معاني الآية الرابعة والخمسين من سورة الاعراف شرحاً مأخوذاً من اقوال المفسرين بما يغني عن الاعادة هنا. وعِلْمُهُ تعالى ازلي أي سابق لما خلق. وقد خلق في السماء وفي الارض ما شاء وجعل بينهما اسباباً لم يعلمنا منها الا القليل. فما اوتينا من العلم الا قليلاً. فإليه يصعد الكلم الطيب والدعاء المستجاب. ويَرفَع العمل الصالح. وهذا ما يعرج الى السماء تحمله الملائكة. وامثال هذه المعارج كثيرة. ويعلم ما ينزل من السماء من ملائكة تنزل بأمره والروح أي سيدنا جبريل عليه السلام باذن الله تعالى في ليلة القدر. ويعلم تعالى ما يلج في الارض من ماء المطر وما يخرج منها من نبت وما يلج فيها من مدفونات وما يخرج منها من كنوز. وخاطبنا سبحانه كاشفاً معيته معنا أينما نكون بعلمه الذي لا يخفى عليه فيه شيء. وغيره سبحانه لم يملك شيئاً في السماء والارض. ولا يحكم حكمه احد ولا رجوع إلا إليه فهو مالك يوم الفصل يقضي بالحق. وبيّن تعالى حصول الليل والنهار في آن واحد مع تداخل نور الصباح في ظلمة الليل وانتشار الظلام بعد غياب شفق الشمس وجعل هاتين الظاهرتين ثابِتَتَينِ يَمُرُّ عليهما الناس مع دوران الارض. وهذا من بواطن علمه لَمّا خلق الارض والشمس. مع علمه بما يعتمل في الصدور من نوايا وأمانيَّ وخَشيةٍ وتدبيرٍ ومقاصِدَ لم يظهر منها لغير اصحابها شيء الا لله تعالى وهو الخلاق العليم.

آَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (7) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (8) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (9) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (10)

الايمان بالله تعالى يستوجب حصر مقاصد المؤمن بالعمل وفق ما أمَر سبحانه به وما أباحه، والانتهاء عما نَهى عنه. ثم اليقين بلقائه سبحانه. كما أن الايمان بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم يستوجب تصديقه والاقتداء بسنّته التي هي مظهر الايمان الكامل بالله تعالى. ويأتي الامر بالنفقة بعد أن بين تعالى في الايات السابقة انه مالك السماوات والارض وله الامر بعد الخَلْقِ، واليه المصير. فطلب من المؤمنين الذين مكّنهم بشيء من مُلكه وخوّلهم التصرف فيه ان ينالوا الاجر الكبير بما جعلهم مستخلفين فيه. وما هو عذر الذي يعصي ربه بطاعة غيره مع إقراره بأن الله هو الخالق المالك؟ فقد أعطاه عقلاً يميز به سبيل الرشد وارسل اليه رسولاً يدعوه بالحجة البالغة ليؤمن بالله ورسوله، وشهد لله تعالى بالربوبية إذ أشهد الرحمن ذرية آدم على ربوبيته بقوله (أَلَسْتُ بِرَبِّكُم) فقالوا بلى. وذلك مشروح في الآية الثانية والسبعين بعد المائة من سورة الاعراف. فالميثاق هو الفطرة التي شهدوا بها على ربوبيته سبحانه بدلالة العقول المميزة اذ لا تكليف على من لا عقلَ له. ولم تكن دعوة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للايمان من غير ان تقترن بآيات بينات مُنزَلةٍ

عليه وفيها النور الواضح للدخول في الايمان هرباً من ظلام الشرك وهذا من رأفته تعالى ورحمته فما عذر الذين لا ينفقون في سبيله وهو الذي اورثهم المال وسيرثه منهم وممن يرثونه منهم فله ميراث السموات والارض. فالذي بادر من غير ضعف او تردد فآمن وانفق قبل فتح مكة فأعزّ اللهُ تعالى به الاسلام هو من السابقين الاولين من المهاجرين والانصار. والذي آمن وانفق بعد الفتح فقد احتاج الى من يأخذ بيده للايمان اولاً حتى نَصرَ اللهُ تعالى رسولَه صلى الله عليه وآله وسلم ودخلوا في دين الله افواجاً مؤمنين بما نصره الله به فأنفقوا وقاتلوا وهكذا فَضُل عليهم من سبقهم بالدرجة. وكلاً منهم موعود وعداً حسناً وهو المثوبة الحسنى أي الجنة. والمولى تعالى خبير بنوايا المنفقين والمقاتلين واعمالهم بحسبها ويجازيهم على حسب ذلك. وقد ابلغ تعالى في مدح الفريقين بوعده كلاهما بالحسنى لكي لا يُظَنَّ ان في التفضيل مدحاً لفريق وذمّاً للآخر.

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (11)

لما كان القرض مُلزِماً للتسديد فقد شبه المولى عز وجل نفقة المؤمن في سبيله تعالى (مع التزام المولى بالثواب) بالقرض الحسن أي القرض الذي سَلُمَ من الرياء ومن أي مقصد آخر غير وجه الله تعالى فجعل الجزاءَ مضاعفتَه للمنفق مع الأجر الكريم وذلك يوم الجزاء اذ يقول تعالى:

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ

(13) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (14) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (15)

هذا مشهد من مشاهد يوم القيامة. فيه يجعل المولى الكريم ما أنفق المؤمنون والمؤمنات وما عملوا من الصالحات نوراً بحسب اعمالهم. فيتقدمون ونورهم بين ايديهم وبأيمانهم مع البشارات بالفوز بالجنات والخلود فيها متوجهين نحوها سراعاً. عندئذ يطلب منهم المنافقون، وقد كانوا معهم، التريث ليلحقوا بنورهم فيصيبوا منه. وهنا يقال لهؤلاء المنافقين ((ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ)) أي إلتفتوا الى الموقف الذي أُعْطِيَ المؤمنون فيه النور فالتمسوه منه. وهذا ليس من الكذب عليهم بل للتهكم بهم على نفاقهم. إذ أنهم لو تمسكوا بالايمان في الدنيا لتلقَّوا النور في الآخرة. فضُرِب بين الفريقين بحائط حال بينهما وله باب يمكنهم منه مخاطبة المؤمنين ولهذا الباب خاصيتان ففيه الرحمة مما يلي الجنة وموقف المؤمنين، واما ما يظهر منه للمنافقين ففيه العذاب. فينادي المنافقون المؤمنين ((أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ)) فيأتيهم الجواب بانهم وان كانوا مع المؤمنين الا انهم لم يتمسكوا بايمانهم فعندما ميز الله تعالى الصادقين تخلفوا عن الصدق وتركوا انفسهم تهوى الملذات وما في ذلك من شهوات ومعاصي وارتابوا في صدق وعد الله تعالى فتربصوا بالمؤمنين العواقب وماطَلوا في التوبة وغرّهم طول الامل وحب امتداد الاعمار فتخلفوا عن الجهاد بلا عذر وغرتهم الاماني بالمغفرة فلم يتوبوا حتى جاءهم الاجل وقد غرهم الشيطان فزين لهم قعودَهم فلم ينتهوا عما كانوا فيه. فيومئذ لا يؤخذ منهم فدية للنجاة بها ولا تُقبَل من الذين كفروا ولا يجدون مهرباً من النار اذ ستكون مصيراً لهم.

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (16) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (17)

القرآن الكريم جامع للحق والموعظة. ويكون خشوع القلوب بالسمع والطاعة وهما بنفس الوقت دليلان على فقهٍ وتفهُّمٍ وانقيادٍ جرّاءَ لِيْنِ القلوب لما نزل من الحق. ففي الآية عتاب لبعض المؤمنين الذين كانوا مُجْدَبِيْنَ بمكة قبل الهجرة فلما هاجروا واصابوا الرزق والنعمة اصابهم فُتور عما كانوا عليه. فيقول تعالى اما آن لهم ان تلين قلوبهم عند الموعظة، معاتباً ومنبهاً على عاقبة ذلك اذا استمروا على الفتور ان يتشبهوا بأهل الكتاب الذين طال عليهم الأمد فاختلفت قلوبهم وبدلوا كلام الله تعالى وتركوا العمل به وهذا من قسوة القلوب وعندها قلما تنفعهم المواعظ والعياذ بالله. ولهذا فإن اختلاف الناس في الدين دليل على التهاون مع أهل البدع التي استهوتها نفوس الضالين ولم تنفع معهم المواعظ فمن لم يستطع ان يبطلها عليه أن لا يسمح لقلبه ان يرضاها. ويبين المولى عز وجل اثر القرآن في قلوب الصادقين كأثر الحياة في الارض بعد موتها فيحييها الغيث والله هو الهادي الى طريق النجاة والفلاح وهو الحكيم الخبير.

إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (18) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (19)

يؤكد الله تعالى للمؤمنين المتصدِّقين من ذكور وإناث على ذوي الحاجة صِدقَ وَعْدِهِ تعالى بأن يعتبر صدقاتهم قرضاً حسناً عليه يُضاعَف لهم من كرمه. والقرض

الحسن جاء حُسنُهُ من طيب انفسهم بالإنفاق من طيباتهم. ثم يكرمهم بالأجر الكريم. وهناك غيرهم من المؤمنين بالله تعالى وبرسله إيماناً تميز بالصدق فوصفهم المولى عز وجل به بأنهم الصديقون والشهداء على من لم يبلغ سَبْقَهم بأعمالهم واستشهادهم في سبيل الله، لهم أجرهم ونورهم. والفريقان تجمعهم الطاعة. وفي سورة النساء ((وَمَنْ يُطِعِ اللهَ والرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الّذِيْن أَنْعَمَ اللهِ عَلَيهِم مِنَ النَّبِيّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءَ والصَّالِحِينَ)). اما من كفروا وكذبوا بآيات الله سبحانه فهم أصحاب الجحيم.

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (20) سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (21)

الذين امنوا بالله ورسله سبق لهم في الآية التاسعة عشرة السابقة ما اعد الله تعالى لهم. فان لم يكن الانسان كذلك فحياته الدنيا لعب مثل لَعبِ الاطفال ولهو مثل لهو الشباب وزينة كزينة النساء وتفاخر بين الرجال والرجال، والنساء والنساء من اهل الغفلة عن فضل الله تعالى وعن عبادته، ثم تكاثر كتكاثر اهل الثروات المكنوزة. فكل ذلك يعجب الكفار كما يُعْجِب الزرعُ الزُرّاعَ ثم يهيج يابساً بعد اخضرار ثم يكون حطاماً. وهكذا زوال الحياة الدنيا. ولهذا امر تعالى عباده المؤمنين بالإسراع الى الفوز بالحياة الباقية في الجنة بدلاً من فناء متاع الدنيا أو ورود النار. فقد روى البخاري عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه قول رسول الله صلى الله عليه

وآله وسلم ((لَمَوضِعُ سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها)) وروى الامام احمد عن عبدالله بن عمر رضي عنهما عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم قوله ((لَلْجَنَّةُ اقرب الى احدكم من شِراك نعله والنار مثل ذلك)). ولذا حث المولى عز وجل على ترك اللهو واللعب والزينة والتفاخر والتكاثر في الاموال المكنوزة غير الْمُستَثمَرة. وحث على المبادرة بفعل الخيرات التي تُكَفِّرُ بها الذنوب ويُتقرب بها إلى فضل الله تعالى لمن آمن وعمل صالحاً ثم اهتدى فضلاً عظيما منه تعالى.

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (22) لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (23) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (24)

المصيبة في الارض هي الحالات الطارئة في الجدب والزلازل والفيضانات والخسف والحرائق وما الى ذلك. ومصيبة الانسان في نفسه هي الامراض والفراق والنكبات في الحوادث وما الى ذلك. وقانا الله تعالى. هذه كلها اقدار مكتوبة من السابق لا يعرف احد غير الله تعالى متى يبديها سبحانه إلا أنها تقع عند حصول أسبابها. والعبرة في هذا الخبر ان يكون المؤمن في موقفه من مشيئة الله تعالى في ما كتب عليه مستقراً ثابتاً صابراً في الضراء شاكراً في السراء راضيا في ظنٍ حسنٍ بحكمة ربه. فلا يأسف على فوات اعطية ولا يملكه الفرح اذا جاءته أُعْطِيَةٌ تجعل الغافل مُختالاً فخوراً يدخل به في مَقْتٍ من الله تعالى. انما على المؤمن أن يعلم ان عطاء الله تعالى امتحان يكرم به يتيماً ويطعم به مسكيناً ويؤتي المستحق وذا القربى ويجاهد به في سبيل الله وينفق في طاعته تعالى. فمن بخل وحث غيره على البخل

فقد خسر في هذا الامتحان فالله تعالى لا يضره بخل بخيل فإنه الغني الحميد. أما أهل الطاعة فقد قدموا مواقفهم الصابرة الشاكرة زاداً للآخرة.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (25)

جاء الرسل بالحجج الواضحة، ومعهم الكتاب أي رسالة الله تعالى كما هو القرآن فيه صدق الاخبار والاحكام والمواعظ والعبادات عُرِفَ الحق من أحكامه. فهي الميزان يُرجع اليها في العدل وتمييز الحق الذي ترتضيه العقول المستقيمة. وفي هذا جاء قول الله تعالى ((وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً)) صدقاً في الوعد والخبر والقول، وعدلاً في الحكم. فكان للناس نبراساً ليقوموا أي ليحكموا بالعدل. واما الحديد فَقَلَّ سلاحٌ ليس فيه نسبة من الحديد. وفي الحديد صلابة جعلت السلاح ذا بأس شديد رادعاً للشر. وقد روى الامام احمد عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((بُعِثْتُ بالسيف بين يدي الساعة حتى يُعبَدَ اللهُ وحده لا شريك له وجعَل رزقي تحت ظل رمحي وجعَل الذِّلة والصَغار على من خالف امري، ومن تشبه بقوم فهو منهم)). وللحديد منافعَ للناس كالآلات، وفي السلاح اختبار للصدق في نصرة الله تعالى، ليبلو المؤمنين فيعلم (علم ظهور) من ينصره ورسله بالغيب. وهو القوي العزيز.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (26) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ

رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (27)

الانبياء قبل سيدنا ابراهيم كانوا من ذرية سيدنا نوح عليه السلام ومنهم سيدنا ابراهيم عليه السلام الذي جعل الله تعالى الانبياء من ذريته. والكتاب هو الكتب السماوية احدها يصدِّق الآخر. والذين بلغتهم الرسالات قبل سيدنا عيسى عليه السلام منهم فريق آمنوا واهتدَوا، وكثير منهم من غلبه الفسوق، أي الخروج عن الطاعة. ولم ينقطع ارسال الرسل عنهم حتى بعث الله جل شأنه سيدنا عيسى عليه السلام وآتاه الانجيل الذي حوى المواعظ والحكم وتصحيح ما اسُيء فهمه او حُرِّف من الكتب التي قبله كالتوراة والزبور. فمن اتّبعه جعل الله تعالى في قلوبهم الرأفة والرحمة أي لين القلوب والتعاطف. واسوتهم في ذلك سيدنا المسيح عليه السلام، حتى إلتزموا برهبانيّة إبتدعوها وذلك بالإنقطاع عن المجتمع الذي حصلت فيه الفتن فلجأوا الى الجبال. وتعني الرهبانية الخوف من الزيغ فكانت من اجتهادهم ولم يأمر الله تعالى بها. إلا ان الذين ارادوا رضوان الله تعالى بها نالوا اجرهم اما من اتخذوها للدنيا فقد خرجوا من الصدق أي فسقوا وما اكثر من فعل ذلك. وبقية الصادقين من الرهبان آمنوا بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي اطلق على الجهاد في سبيل الله تعالى اسم (رهبانية هذه الامة) فقد روى الامام احمد عن انس بن مالك رضي الله تعالى عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((لكل نبي رهبانية ورهبانية هذه الامة الجهاد في سبيل الله عز وجل)).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (28) لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)

الخطاب موجّه للذين صغت قلوبهم للحق من اهل الكتاب في اتفاق رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم (بعد أن بَلَغَتْهُم) مع بشارات التوراة والانجيل بها. فلم يبق حائل يحول دون الايمان بها، وبالتالي نيل الرحمة من إيمانهم بالرسل قبل الرسالة المحمدية ومن الايمان برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيكون ايمانهم نوراً لقلوبهم في الدنيا يتبيّنون به الحق ونوراً على الصراط ومغفرة من الغفور الرحيم وبذلك برهان لأهل الكتاب الذين حجبتهم اهواؤهم عن الحق بأن ايمانهم قبل بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم لن ينفعهم لنيل فضل الله تعالى ما لم يؤمنوا بما جاء به القرآن لأنه التوحيد ذاته في الكتب التي قبله. والفضل هبة من الله تعالى للذين صغت قلوبهم. ولكن الجاحدين حُرِموا منه من زيغ قلوبهم. والله ذو الفضل العظيم ولا يمكن لبشر ان يكتسبه إلا أن يمنحه الله تعالى له. والله اعلم حيث يكون فضله نافعاً وبمن يستحق عنايته.

سورة المجادلة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (1)

اجرى الله تعالى على الصحابة والصحابيات من تقديره اموراً جعل فيها تشريعاً ومن جملة ذلك الظِّهار،كأن يقول الزوج لإمرأته: (أنتِ عليّ كظهر أُمي) فقد جاءت التي قال عنها تعالى (تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا) الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهي خولة او خويلة بنت ثعلبة فقالت له بأن أوساً – زوجها أوس بن الصامت – جعلها كأُمِّه! وكان لها صِبْيَة صغار فخشيت ان يضيعوا عنده بدونها او يجوعوا عندها بدونه ولم يكن قد نزلت في هذه الحالة آية فلم يجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فتوىً. فأخذت تشتكي الى الله اذ انها لا تريد ان تفرط به فنزل قوله تعالى:

الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (2) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (3) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (4)

كان الظِّهار في الجاهلية يعتبر طلاقاً ويعتبر الزوج زوجته محرمة عليه. وهذه كانت من عادات الجاهلية بحيث لا يقرب زوجته كما لا تستطيع زواجا آخر. وكان

ظهار أوس اول فعل من نوعه في الإسلام. وجاء حكم الله تعالى بأن الظهار ليس طلاقاً ولا يجعل الزوجة أُمّاً لمجرد اللفظ فأُمّ المرء هي التي وَلَدَته حصراً. ولذلك يكون قول الرجل بالظهار باطلاً لا يستند على حقيقة فهو منكر وكذب. واما ما سلف من ذلك فالله تعالى عفوّ غفور. ثم أنزل المولى عز وجل حُكمَه بأنّ من قال لزوجته مثل ذلك أي ظاهَرَها ثم يريد نقضَ قوله وتدارك ما اقدم عليه أي تحليل ما حرمه على نفسه وإعادة العلاقة الى طبيعتها من حيث العشرة الزوجية، وكأنه لم يقل الكلمة فيها، فعليه ان يحرر رقبة، أي ان يعتق عبداً أو أمَةً سواء من المؤمنين او غيرهم، لإطلاق لفظ (رقبة) بغير تحديد وذلك يتم قبل ان يتماسّا ويقصد بذلك تمام العلاقة الزوجية. واكد المولى سبحانه كونه رقيباً على القلب في هذا العمل. ثم رخص لمن لم يجد فك الرقبة او المال ان يصوم شهرين متتابِعَين من قبل تمام العلاقة. فان لم يستطع فيطعم ستين مسكينا. والمعوّل عليه في الوجبة المشبعة هو ثمن صاع من الحنطة او الرز والصاع يعادل كيلتين ونصف (كيلوغرامين ونصف الكيلو). وهذا الحكم بأوجهه الثلاثة تحذير من العودة الى احوال الجاهلية فقال تعالى: ((ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)) أي تطبقوا الاحكام، اذ كانوا في الجاهلية لا يجدون مخرجاً من الظهار الا الطلاق. ولهذا خَشِيَت خولة من أن تبقى منفصلة عن زوجها ولا تعيش في بيته كما تعيش امه او اخته معه وأهمَّها مصير أولادها الصبية فكان لها مخرج من محنتها بتلك الكفارة. وبيَّن سبحانه أنّ هذا المخرج هو حدٌّ من حدود الله تعالى ومن يلتزم بحدوده فهو مؤمن. وأنّ للكافرين عذاباً اليماً.

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (5) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (6)

الْمُحادَّةُ (المحاددة) هي ابداء المخالفة والممانعة والشقاق فاذا كانت تحمل الكراهية لِما نزل من الحق فهي محادَدَةٌ لِلّه ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم. وفي هذا مجلبة لكبتهم أي للهلاك والخزي. فهم كُبِتُوا بهذا الموقف كما كُبِتَ من كذّب الرسل من الاقوام السابقة. وقد اوضح المولى تعالى آياته البينات الى هؤلاء أي كفار قريش كما اوضحها للمكذبين السابقين ايضاحاً لا ينكره عقل يفقه الحق فمن خالفه فهو كافر. وقد توعدهم تعالى بالعذاب الاليم يوم يجمع الله تعالى الاولين مع الاخرين في عرصات القيامة فيخبرهم بما عملوا من غير ان يترك منه شيئاً وإنْ كانوا قد نسوه فقد أحصاه الله تعالى ولم يغِب عنه شيءٌ مما فعله عباده وكفى به شهيدا.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (7)

يخبر المولى عز وجل عن إحاطة عِلْمِه بمخلوقاته. فلا يغيب عنه منظرهم ولا يُحتَجَبُ عنه همسُهم، ولا تحصل مُسارَرَةُ بعضِهم البعض (وهي من النجوى) مهما كان عددهم وأينما كانوا إلا وقد سبق واحاط بها علماً وأعَدّ مسبقاً ما ينبغي لها. ثم تُحفَظُ عليهم اقوالُهم وافعالهم ونجواهم الى يوم القيامة حيث يكشف لكل منهم كل عمل عمله فالله تعالى هو العليم بكل شيء.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (8)

من الأساليب الخبيثة التي كان كَفَرَةُ اليهود والمنافقون في المدينة يتخذونها، عندما يكون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة، أن يُكثِروا من التغامز بأعينهم، والمؤمنون يرون، وذلك لإغاضتهم وايهامهم بان المجاهدين من المسلمين مغلوبون ويكثر فيهم القتل. وبعدما نهاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن النجوى عادوا إليها وكانت تحمل، إضافةً على ذلك، القول الاثيم والمعادي للمؤمنين. وعندما كانوا يقصدون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في مجلسه يحرفون لفظ التحية بالسلام الى قولهم (السام عليكم) وهو الموت. ثم تحدثهم أنفسهم بأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لو كان رسولاً لعذبهم الله تعالى على أقوالِهم هذه. وهكذا فتَنَهم الشيطان فاستجابوا له. ويجيبهم تعالى بأنهم يكفيهم عذاب جهنم يدخلونها وبئس المصير.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (9) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (10)

لتحاشي رذيلة كَفَرَةِ الكتاب والمنافقين في النجوى الخبيثة، الموصوفة آنفاً، نهى المولى عز وجل المؤمنين ان يتناجوا بما فيه إثم أو عدوان أو معصية. فاذا لزم امر ان يُسارِرَ أحدُ المؤمنين أخاه فليكن ذلك بالبر والتقوى فيطمئن غيرهما بأن الأمر لا يضره. وليضع المؤمن نصب عينيه يوم المحشر حيث لا يخفى منه ما اخفاه بالمناجاة.

ويبين المولى تعالى أن الباعث على النجوى المؤذية للمؤمنين هو وسوسة الشيطان ليدخل الحزن اليهم. وكيد الشيطان ضعيف. فنبه تعالى الى أن مثل هذه الافعال لا تضرُّ في شيء الا ان يكون هناك امر من مشيئته. والمؤمن بذلك يتوكل على الله تعالى أي يتبع أمره فلا يخشى من النجوى عاقبةً تسوؤه. فكل ما سيحصل هو مما يأذن به سبحانه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11)

في مجالس الذكر مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان بعض الصحابة اذا رأوا إخواناً لهم مقبلين ليلتحقوا بهم يحاولون (اذا امكنهم) ان يكونوا اقرب الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أي في درجة افضل. فأمَرَهم تعالى ان يتفسحوا. ويؤخذ مما رواه مقاتل بن حيان ان هذه الآية نزلت في يوم جمعة كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الصُّفَّةِ (وهي زاوية في الجهة اليسرى من مؤخرة المسجد كان المهاجرون اول ما يبلغون المدينة يتخذونها مجلساً بعد الصلاة فيها) وكانت ضيقة المكان، والى جانبه نفر من الصحابة لم يكونوا قد شهدوا موقعة بدر واثناء ذلك جاء نفر ممن شهدوا بدراً (وهم موضع تقدير الرسول صلى الله عليه وآله وسلم) فطلب من بعض جلسائه بالاسماء أن يفسحوا لهم اماكنهم فقال ((رحم الله رجلاً يفسح لأخيه)) فجعلوا يقومون سراعاً. وهذا لا يتنافى مع ما رواه الامام احمد عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه فيجلس فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا)) لأن هذا كان

في صفوف الجلوس يوم الجمعة وليس من فضل لأحد إلا من سبق اليها. أما القيام في مجلس من المجالس لأخ لكبر سنه أو منزلته في العشيرة او العِلْم فالبعض رخّص فيه استناداً لقوله صلى الله عليه وآله وسلم ((قوموا لسيدكم)) وذلك عندما استقدم سعداً بن معاذ يوم الخندق للحكم على يهود بني قريظة فقالها لبعض الأوس رضي الله عنهم، وهم قومه. واما القيام إحتراما للقادم فقد استند البعض الى حديث ((من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار)) الذي رواه احمد في مسنده ولهذا تشددوا في النهي عن القيام للقادم. وكان القيام من سنن العجم. وفي السنن ان الصحابة رضوان الله عليهم كانوا لا يقومون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لعلمهم بانه يكره ذلك. اما الجلوس بقرب النبي صلى الله عليه وآله وسلم او بقرب الامام فكان لأمرٍ من امور الدين حيث روى الامام مسلم عن ابي مسعود رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((لِيَلِيْني منكم أُولو الأحلام والنُهَى)) وذلك في صلاة الجماعة وراءه. وفي السنن كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يجلس حيث انتهى به المجلس فيكون موقعه صدراً للمجلس وكان غالباً ما يأمر عثمانَ وعلياً رضي الله عنهما بالجلوس بين يديه ليكتبا الوحي. وكان يجلس الى يمينه ابو بكر الصديق والى يساره عمر الفاروق رضي الله تعالى عنهما ثم الذين يلونهم. وما ذاك من أجل منزلةٍ بل ليعقلوا عنه. وذلك لقوله (أُولو الاحلام) أي المعروفون بالأناة. ويكون ذلك في الصلاة وفي غيرها ايضاً. واذا لم يجد المؤمن فسحة في صفوف الجالسين مع إمام او مُحَدِّثٍ فعليه ان يقف بانتظار الفسحة ولا يخسر العلم. فقد روى البخاري حديثاً، قال: "بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالس اذ اقبل ثلاثةُ نفرٍ؛ فأمّا احدهم فوجد فرجة في الحلقة فدخل فيها، واما

الآخر فجلس وراء الناس، وادبر الثالث ذاهباً. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((ألا انبئكم بخبر الثلاثة؟ اما الاول فأوى الى الله فآواه الله. واما الثاني فاستحيا فاستحيا الله منه، واما الثالث فأعرض فاعرض الله عنه))". واذا دعي المؤمنون الى خير فعليهم الاستجابة لقوله تعالى: ((وَإِذَا قِيلَ لَكُمْ انْشِزُوا فَانْشِزُوا)) أي إنهضوا. ويختم المولى هذه الآية بتطمين المؤمنين اذا افسحوا لاخوانهم او تركوا مجلسهم لهم يرفع الله درجتهم كما يرفع درجة الذين أُوتوا العلم. وهو تعالى الخبير بمن يتحمل التواضع ويتحمل العلم. وهو تعالى يحب المطيع الذي لا يَجِدُ في نفسه حرجاً مما يؤمر به في سبيل الله تعالى.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12) أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (13)

كان بعض اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يناجيه في مسألة او مسائل لا يرغب أن تُبْدَى لغيرهما فطلب منهم المولى ان يقدموا قبل ذلك صدقة تكون خيراً لهم وأطهر ليكونوا في قربهم في المناجاة مؤهلين بهذه الحسنة. ثم حطها (أي هذه الصدقة) عمن لا يجد ما يتصدق به. واشفق المؤمنون ان يستمر عليهم هذا الحكم وفيهم من لا يجد صدقة فيجهده ذلك فنسخ المولى الحليم هذا الحكم لأنه كما روى ابن ابي نجيح عن مجاهد رضي الله عنه قال: نُهوا عن مناجاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى يتصدقوا. فلم يُناجِهِ الا عليٌّ بن ابي طالب (عليه سلام الله) قدّم ديناراً صدقة تصدق به ثم ناجى النبي صلى الله عليه وآله وسلم

فسأله عن عشر خصال ثم أُنزِلت الرخصة (أي المناجاة من غير صدقة). وطلب علي كرم الله وجهه في ما بعد ان لا يعمل أحد بها فقد روى ليث بن ابي سليم عن مجاهد قال: قال علي كرم الله وجهه ((آية في كتاب الله عز وجل لم يعمل بها احد قبلي ولا يعمل بها احد بعدي: كان عندي دينار فصرفته بعشرة دراهم فكنت اذا ناجيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تصدقتُ بدرهم فَنُسِخت فلم يعمل بها احد قبلي ولا يعمل بها احد بعدي)) وتلا الآية. وقيل سبب نزول الآية كان كثرة مناجاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مما شق عليه فنزلت الاية بتقديم الصدقة. ثم وسع المولى على عبادِهِ فنُسِخ الأمر فلم يدم ذلك طويلاً. ثم امرهم المولى بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ففي ذلك قربة لهم كما في الصدقات. وتتمةً للفائدة؛ جاء في تفسير النسفي رحمه الله المناجاة العشر التي سأل عليٌّ كرم الله وجهه بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. قال: قلت يارسول الله ما الوفاء؟ قال التوحيد وشهادة لا إله إلاّ الله. قلت وما الفساد؟ قال: الكفر والشرك. قلتُ وما الحق؟ قال الإسلام والقرآن والولاية اذا انتهت إليك*. قلت: وما الحيلة؟ قال تَرْكُ الحيلة. قلت: وما عَلَيَّ؟ قال طاعة الله وطاعة رسوله. قلتُ وكيف أدعو الله تعالى؟ قال: بالصدق واليقين. قلتُ: وماذا أسأل الله؟ قال: العافية. قلت: وما اصنع لنجاة نفسي؟ قال: كل حلالاً وقُل صدقاً. قلتُ وما السرور؟ قال الجنة. قلت وما الراحة؟ قال: لقاء الله تعالى. قال الامام علي كرم الله وجهه: فلما فرغتُ منها نزل نَسْخُها. أي نسخ تقديم الصدقة قبل المناجاة. وفي آخر الآيات امر تعالى بطاعته وطاعة رسوله ونبّه الى علمه بما يعمل عبادُه سبحانه. (*الولاية إذا انتهت

إليك: خاتمة الخلافة الراشدة. وترك الحيلة: ترك الإرادة في ما لا يستطيع تغييره فالله تعالى هو الذي يغيره).

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (14) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (15) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (16) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (17) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (18) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (19)

ينكر الله عز وجل على المنافقين بقوله: (ألم ترَ) أي (أُنظر إلى) من تراهم مع المسلمين بلسانهم وما هم من المسلمين وأمّا في الباطن فهم موالون لمن أغضبوا الله تعالى وما هم منهم. فقد كان يهود المدينة الذين بيَّن الله تعالى غضبه عليهم في الآيتين التاسعة والخمسين والستين من سورة المائدة، يرون في المنافقين وسيلة للصدِّ عن سبيل الله. لأن المنافق قد أمِنَ على نفسهِ ومالِه بإدّعاء الاسلام. وبهذا يجتمع مع المسلمين ويَطَّلع على احوالهم ثم ينقل اخبارهم لليهود ويبحث عن ثغرة يتوهمها ليصد الناس عن الاسلام. فاذا أتى المنافقون إلى الرسولَ صلى الله عليه وآله وسلم إتخذوا أيمانهم جُنّةً أي ستراً بأنهم معه. فكذَّبهم الله تعالى وأَعَدّ لهم العذاب المتفاقم بما كانوا عليه من سيئ الاعمال. وتوعدهم المولى عز وجل بعذاب النار خالدين فيها ولن تغني عنهم مكاسبهم من مال وولد شيئاً. وينبئهم تعالى بأنهم يوم يبعثهم سيحلفون له سبحانه كما يحلفون لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم وقد خدعوا

أنفسهم بأنهم كانوا على إنتفاع في الدنيا بأَيمانِهم وسينتفعون بها في الآخرة. فكذبهم المولى وبَيّن استحواذ الشيطان عليهم بأنْ شغلهم بما كسبوا من الدنيا عن ذكر الله تعالى فقد عمّروا ظاهرهم بما أُترِفوا فيه وشغلوا قلوبهم بحب الدنيا فكانوا من حزب الشيطان أي جنوداً له يوجههم لمآربه. ومصيرهم مع بقية حزب الشيطان في الخسارة الكبرى.

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (20) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (21)

الذين تضمر قلوبهم العداوة والبغضاء للذين آمنوا ويكرهون ما انزل الله تعالى من الحق قد وقفوا في الجانب المضاد للهدى الذي جعل الرحمن به عزّاً. ولهذا ابتعد العز عمن وقف في الجانب البعيد منه فناله الذل حتى وقع في الاذلّين، أي الذين هم اكثر الناس ذلاً في الدنيا والآخرة. فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين وقد قضى العزيز الْمُتكبِّرُ لِجنابهِ الغَلَبَةَ وينصر رُسُلَه فتكون الغلبة والعزة لهم. وتكون للمؤمنين من بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ما تمسكوا بما كان عليه.

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آَبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (22)

الايمان بالله تعالى اذا خالط قلوب المؤمنين أخرج منها الميل والانعطاف لمن يخالف الله تعالى بمعصية رسوله سيدِنا محمدٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلم. بينما تميل قلوبهم لما يرضي عنهم مولاهم سبحانه فيكون عملهم صالحاً من أجل الآخرة

فلا يجدهم المؤمن إلا حيث يحب الله تعالى لهم. ولَمّا كان اهل الشقاء في موقع من غضب الله تعالى عليهم فلا سبيل لميل القلوب المخلصة اليهم. فلا يكون لأعداء الله نصيب في مودّة المؤمنين ولو كانوا من اكثر الناس اليهم قرابة. والله تعالى يسند موقف المؤمنين الحازم هذا بروح منه أي بما جاء في كتابه تعالى من تقوية عزائمهم، ويثبت قلوبهم على طاعته ومحبته، ويوفقهم لنيل رضوانه ودخول جناته. ووعدهم بالرضوان عنهم وإرضائهم. وأشار إليهم بأنهم حزبه. وأكد قراره بأن حزب الله هم المفلحون، في نعيم آمنون.

سورة الحشر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (2) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (3) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (4) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (5)

هذه السورة نزلت في المدينة. ويظهر فيها لطف الله تعالى ونصره وتوجيهه والتبصر بحكمته. فبدأت بتسبيح ما في السموات والارض بحمده عزيزاً حكيماً. وخُتِمت بالتسبيح. وقد نزلت في إجلاء بني النضير، وهم يهودٌ مَكَروا بنقض العهد (كما سيلي شرحه) فسلط الله عليهم رسوله صلى الله عليه وآله وسلم. ولخشيتهم من قتل رجالهم وسبي نسائهم طلبوا الخروج بأولادهم ونسائهم وبعضِ مالِهم. وقد اجمعت التفاسير ان هذه السورة نزلت فيهم وهم من اسباط بني اسرائيل كانوا قد سكنوا على بُعد ميلين شرقي المدينة. فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إليها اخذ منهم العهد ان لا يكونوا عليه مع عدوِّه. وبعد غزوة أُحُد ظنوا أن بالمسلمين ضعفاً فنكثوا عهدهم إذ اراد رئيسهم كعب بن الاشرف التحالف مع كفار قريش. وفعلاً خرج الى مكة وتحالف مع ابي سفيان عند الكعبة. فأمر رسول

الله صلى الله عليه وآله وسلم بقتله، فدبّر له بعض الصحابة اغتيالاً. ثم حاصرهم المسلمون فخافوا من مصير القتل والسبي فطلبوا الصلح على ان يرحلوا الى الشام. ومنهم من رحل الى خيبر. واسلم اثنان منهم فقط وقام الباقون بتخريب بيوتهم ليأخذوا منها الدعائم الخشب وسُمِح لهم من المال، بإستثناء السلاح، ما يحمله بعير واحد لكل ثلاث عوائل. وتركوا الباقي (ذَلِكَ بِأَنَّهم شَاقُّوا الله ورسوله) وذلك بنقضهم العهد. (وكانت لهم سابقة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ كان قد اجتمع معهم في حي من أحيائهم لأمرٍ ما فدبّروا لإغتياله بأن يصعد احدهم ليقذف حَجَراً من بناءٍ سطحٍ مشرِفٍ على المكان الذي كان يجلس فيه. ولكن الله تعالى أرسل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك فقام مسرعاً فسقط الحجر في موقع جلوسه. ولم يحاسبهم على هذه الحادثة في حينها ولكنه أخذ يحذر منهم). أمّا إجلاؤهم فقد كان رحمة بهم ولولاه لكان عذابُهم قَتْلَ رجالِهم وسَبي نسائهم واولادهم غير البالغين. وتوعدهم الله تعالى بالعذاب في النار. ثم إن المؤمنين كانوا قد قطعوا من نخيل بني النضير فلم يعلموا هل أخطأوا أم أصابوا ؟ فبيّن المولى عز وجل أن ما قطعوه من لِينَةٍ، وهي النخلة (وسميت لينة لجودة ثمرها) فبإذن الله تعالى وفي ذلك اخزى الفاسقين. وهذا النصر ما كان ليحصل على بني النضير وغيرهم من اليهود لولا نصر الله تعالى فقد كان يهود المدينة أثرياء وكانوا في حصون مشيدة ولم يكن قبل الاسلام من أهل المدينة من يمنعهم عن تصرفاتهم التي كانت ترهق اهل المدينة سواء بالربا او إثارة الفِتن وما الى ذلك. وقد بذلوا ما في وسعهم لصد الناس عن الاسلام او لإغتيال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم (كما جاء أعلاه). فخيَّب الله تعالى آمالهم فخَذَلَهم وتوعّدهم بالعذاب الأليم في نار جهنم وبئس المصير.

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (7) لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (8) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (10)

الفيء هو كل ما يتحصل من مال في غير قتال عند جهاد الكفار والمشركين والمعتدين الذين تكون الحرب معهم مشروعة. وكذلك ما يستحصل لبيت المال من الخراج أي من المبلغ الذي يدفعه الزراع في البلاد المفتوحة حسب احكامه. وهنا كان الفيئ في إجلاء بني النضير قد تحصل من غير قتال أي لم يشترك فيه المسلمون بخيلهم حتى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد جاءهم على حمار. فجعل الله عز وجل فيئ بني النضير خاصاً للرسول صلى الله عليه وآله وسلم يُقْسَمُ قسمةً يراها من غير تخصيص شيء للمقاتلين كما هو الحال في الغنائم أي الأنفال. وهنا امره تعالى ان يجعله اخماساً خمسة: لله وللرسول ثم لذوي القربى (اهل بيت الرسول صلى الله عليه وعليهم وسلم) ثم لليتامى ثم للمساكين ثم لأبناء السبيل. فقسم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هذا الفيء على المهاجرين لأنهم هاجروا من غير مال فقد تركوا اموالهم في مكة ثم اعطى ثلاثة من الانصار مع المهاجرين اذ كانوا

ظاهري الفقر. وبيّن تعالى سبب هذا الامر بأن المال لو قسم على المقاتلين كالغنائم لنال الغني منهم قسمة الفقير وبذلك يزداد الغني غنىً على حساب نصيب الفقير فيكون المال الزائد عن ثروة الغني يجلب له غنىً اكثر بينما قد لا يكفي نصيبُ الفقيرِ سدَّ حاجَتِه. وهنا تجلت حكمة الباري عز وجل اذ نصر المؤمنين من غير قتال وبذلك قُسِم الفيء على الفقراء دون الاغنياء فجعل لهم فرجاً من مآزق الفقر وجعل قناعةً لأهل الغنى كي يشعروا بشعور اخوانهم الفقراء. وامر تعالى أن يتقبل المؤمنون ما يكون أمراً او عطاءً من رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وان ينتهوا عما نهى عنه. وبين سبحانه نظرته لأصناف المسلمين من حيث موقفهم من بعضهم. فامتدح ما يرضيه منهم فقال عن المهاجرين بأنهم فقراء لانهم أُجْبِروا على ترك اموالهم للكفار عندما هاجروا الى المدينة ولم يدخل معهم رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في تسمية الفقراء بدليل قوله تعالى (وينصرون الله ورسوله) ووصفهم بالصادقين. وقال عن الانصار في موطنهم المدينة بأنهم مخلصون في ايمانهم أي تبوأوا الدار (توطنوا المدينة) والايمان (الاخلاص فيه) ووصفهم بمحبة اخوتهم في الايمان فجعل النسبة الى الايمان اقوى في المحبة من نسبة النسب حتى آثروهم على انفسهم ولو كان بهم خصاصة (حاجة). ولم يدخل قلوبَهم الحسد. ولو رجعنا الى قصص الايثار لكانت نبراساً للمؤمنين. فافلحوا بهذا الموقف الطيب. وعن الذين جاؤوا من بعدهم أي هاجروا في ما بعد او المسلمون الى يوم القيامة قال تعالى ((يقولون)) أي عندما تذكر الاحداث التي مرت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعه اصحابه في ايام الدعوة وايام الهجرة والجهاد والفتح وما بعده يدعون الله تعالى أن يغفر لهم أي لانفسهم ثم لاخوانهم اولئك السابقين بالإيمان وأن لا يدع قلوب اللاحقين

تحمل حقداً على من سبقهم من المهاجرين والانصار فقد خصهم المولى بالصدق والفلاح وأجرى ما جرى عليهم ليكون تشريعاً وعبرة في ضرورة وحدة المسلمين على نصرة الدين ونبذ الخلاف الدائر حول الاشخاص. فالذي يزكي الانفس هو الله تعالى. وشملهم المولى (عطفاً على المهاجرين والانصار) بالفيء وصار حكما الى يوم القيامة أي ينال المسلم نصيبه منه. وافتى الامام مالك رحمه الله بأن الذين يسبّون سادة المهاجرين او الانصار لا نصيب لهم في الفيء لأنهم خرجوا في هذا السب عن حكم هذه الآية لوجود الحقد على من سبقهم بالايمان. وحصل السب من ايام بني أُمية ففي ما رواه ابن ابي حاتم عن مهاجر عن عائشة رضي الله عنها قولها ((أُمِروا أن يستغفروا لهم فسبُّوهم))! ثم قرأت هذه الآية ((وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا)).. الآية.

أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (11) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (12) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (13) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (14) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (15) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (16) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (17)

بعث رأس النفاق عبدُ الله بنُ أُبَي بنِ سلولٍ الى بني النضير (اليهود المذكورين آنفاً) مَن يخبرهم بأنه وجماعته سيبذلون جهدهم لنصرتهم فاذا حصل واخرجهم

المسلمون من ديارهم (وهي المذكورة قرب المدينة) فإن هؤلاء المنافقين سيخرجون معهم ولا يطيعون الرسول في اخراجهم فاذا استوجب قتالهم فانهم سينصرونهم. وهنا شهد المولى على المنافقين بأنهم كاذبون في هذه الوعود فانهم لن يخرجوا معهم ولا ينصرونهم ولو حصل قتال لانسحبوا منه فراراً وخسروا القتال. ولو لم يكن المسلمون أشدَّ رهبة في صدور هؤلاء المنافقين من الله تعالى لما خانوا بإرسال من يخبر اليهود بما رأوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من تحضيرٍ لحصار بني النضير بل واجهوه بالمعارضة. ولكن خشيتهم منه كانت أشَدَّ من خشيتهم من الله تعالى وذلك بسبب الخيانة التي لم يفقهوا معها رقابة المولى عز وجل وإطِّلاعَه على ما يُبدون وما يكتمون. وهذه الآية فيها بيان لأفعال ونوايا المنافقين التي كانت في علم الغيب عن غيرهم فانكشفوا بها. واخبر المولى عز وجل عن اليهود والمنافقين بأنهم يتحصّنون في قراهم ووراء جدرانهم اذا هوجموا ولا يستقرون على خطّة في القتال لذا يكون بينهم خلاف شديد رغم مظاهر الائتلاف بينهم أي في ما بين اليهود بعضهم والبعض الآخر، وفي ما بينهم وبين المنافقين. ذلك بأن عقولهم لا تصل الى الموقف الأصلح لهم ولم يعتبروا بما حصل في إجلاء بني قينقاع قبلهم عندما لم يصدُقوا في عهودهم فقال تعالى ((كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ)).. الآية. ويمثل المولى عزّ وجلّ ما حصل بين المنافقين ويهود بني النضير كمثل ما يحصل بين الشيطان ومن يغتر بوعده يزين لهم ما يريده حتى يصل بهم الى الكفر ثم يتَبَرَّأ منهم ويعتذر بالخوف من الله تعالى. (وفي التفاسير حصل هذا لمشركي قريش اذ تمثل لهم إبليس في زي احد رؤساء الأعراب في المنطقة قبيل معركة بدر وقال لهم: إني جار لكم. ثم تخلّى عنهم وقال لهم "اني أرى ما لا ترون اني اخاف الله والله شديد العقاب". الآية

الثامنة والاربعون من سورة الانفال). وبيّن المولى عاقبة محاربة الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم في مكر كفار اليهود وخيانة المنافقين بأن يكونا في النار في خلود جزاء ظلمهم الذي لم يتوبوا عنه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (19) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (20)

التقوى تخص كسْبَ الآخرة والربح على الله تعالى فليس في التقوى عمل للدنيا بل جعلها مطية للآخرة بالتقيد بما أحل الله وأباحه من السلوك في هذه الحياة. وهكذا جاء امر الله تعالى بالتقوى مرتين في الآية الثامنة عشرة هذه؛ فالأمر الاول للنظر بعيداً في ما سيجده المؤمن المتقي يستقبله على باب من ابواب الجنة حيث يجد ما عَمِلَ ويفوز بما قدَّم منه لها. وفي المرة الثانية يذكِّرنا المولى عز وجل بخبرته التي لا يفوتها شيء من النوايا في الطاعات والمعاصي ليَذكُرَ المؤمن رقابة ربه سبحانه فيذكر الله تعالى في قلبه تعظيما أي لا يجعل من أمور الدنيا، ما يتعارض منها مع أمْرِ الله تعالى، أعلى من أمر ربه الجليل. فليكن هكذا حاله وإلا فان التمادي في الغفلة يُنسي العبدَ ربَّه فتغلب نوازعُ نفسِه على عقله فيخرج بذلك من ديوان اهل الرحمن ناسياً نفسه بدلاً من انقاذها من الجهالة. فإذا بالفسوق عن اوامر الله تعالى يتراكم رصيداً له من الذنوب ولم يتداركه بالإستغفار ثم التوبة النصوح. ثم يذكِّرنا المولى الجليل تعالى بالفرق بين الفائزين في الجنة بما قدموا لأنفسهم، وبين الخاسرين الذين احاطت بهم خطيئتهم أي لم يتوبوا عنها، والعياذ بالله تعالى.

لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21)

ينبه المولى عز وجل إلى الوعيد الذي في القرآن الكريم ليثير تفكير الإنسان. إذ لو حصل نزول القرآن على جبل، أي لو طلب المولى تعالى من جبل، مع ما فيه من صلابة وشدة، ان يبلِّغ ما بلّغه سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، لتصدع من خشية الله من أثر الوعيد الذي لو تفكر فيه الانسان، الذي قسا قلبُه، لَمَا بقى قلبه على قسوة اشد قسوة من الجبال وصلابتها! وهذا مَثَل للذين لا تلين قلوبهم لذكر الله عندما يسمعون القرآن أو يتحرك لسانهم في تلاوته، ضربه الله تعالى للناس لعلهم يتفكرون فيتدبرونه فتتفتح له قلوبهم فتلين فتخشع فتدعو إلى توبة صادقة.

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24)

هذه الايات الثلاث إنقطع لها كل عذر يعتذر به من أشرك بالله تعالى آلهةً من دونه من حيث الوحدانية. فالله تعالى هو الواحد في الالوهية؛ الواحد من حيثُ عِلْمُه ورحمتُه في الدنيا والآخرة، فهو الذي وَسِعَ كل شيء رحمةً وعلماً. وكتب على نفسه الرحمة تفضلاً منه، وجعلها خيراً مما يُجمع من حطام الدنيا وهو الذي لا إله إلّا هو رب العرش فلا مَلِكٌ سواه في ملكوت السموات والارض. خضع كل ذي سلطان لسلطانه. هو القدوس الذي يسبح له ما في السموات والارض وتقدس الملائكة له قبل خلق البشر. يتطهر المؤمنُ مِن الشرك بتوحيده، وتتبارك القلوب

بالطمأنينة بذكره ويزيد النعم بشكره. هو السلام يسْلَم المؤمنون من عذابه. ويسْلَم الخلق من الظلم في عدله. ويسلم بأمره الدين الخالص من الرياء والشرك والفسوق والعصيان. ويسلم الكمال به من كل نقص. وهو المؤمن الذي يُصَدِّق الصادقين. مؤمناً بصدقهم قبل نواياهم به. فهداهم واعقب هداهم فثبتهم وألْهَمَهُم الصواب وسدّدهم لِحُسن عبادته وذِكْرِه وشُكْرِه. فآمنهم من عذابه، وآمن الظالمين من أن يُظلَموا في محاسبته إياهم. هو المهيمن في رقابته على خلقه وفي سَعَةِ علمه وفي حفظه وتحقيق وعده. وهو العزيز فلا ينال عزتَه شركُ مشركٍ او كفرُ كافرٍ او معصيةُ عاصٍ؛ يُعِزُّ من يشاء فيجعلهم في طاعته، ويُذِلُّ من يشاء فيحرمهم منها. وهو الجبار في تسخير خَلْقه. ويجبر أُمورَهم بإصلاحها. وهو المتكبر عن كل سوء وفوق كل متكبر من طغاة خَلْقِه، فقد روى البخاري في صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن رب العزة في حديث قدسي ((العظمةُ إزاري والكبرياءُ ردائي فمن نازعني واحداً منهما عذّبْتُه)) فسبحان الله عما يشركون معه غيرَه تقرُّباً إليه فينسبون لغيره النفع والضر ويعملون لغير وجهه فمن عمل لشريك وَكَلَه الله تعالى الى شريكه فهو اغنى الشركاء. هو الخالق يخلق النطفة والبارئ الذي يبعث فيها الروح والمصور الذي يصور الأجِنّة في الارحام كيف يشاء. وهكذا في باقي المخلوقات ذات الروح. وخالق كل شيء لسبب وجعل بمشيئته ما على الأرض زينة لها ليبلو بها عباده. فهذا كله يدعوهم للشعور بتسبيح ما في السموات والارض لله تعالى بحمده وهو في عزته غني عنهم وفي حكمته وحِلمه ورأفته بهم يدعوهم إلى رحمته.

سورة الممتحنة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (1)

حاطب بن أبي بلتعة صحابي شهد بدراً كان قد هاجر من مكة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة وهو ليس قُرَشِيّاً وترك أهلَه في مكة وليس لأهله فيها أقارب يطمئن الى احتماء اهله بهم أو حفظ امواله لديهم. وبعد صلح الحديبية ونقض اهل مكة الصلح وعزم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على فتح مكة أراد حاطب أن يسدي فضلا لقريش ليحفظوا له جميلَه فكتب اليهم يُعلِمُهم بما ينتظرهم من غزو. وكلَّف قُرَشِيّةً (لم تكن مؤمنة بل جاءت تطلب صدقة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) بأن توصل كتاب تحذير لبعض كفار قريش وسماهم لها. فاخفت الكتاب في ثنايا شعرها فأوحى المولى عز وجل لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بما حصل فأمر عَلِيّا والزبير والمقداد (رضي الله عنهم) بقَصِّ اثرها واللحاق بها واخذ الرسالة منها فتم ذلك. وعندما سئل حاطب عن فعلته قال بأنه اراد ان يتخذ يداً لدى رؤساء قريش خشية تعرُّضِ أهلِه ومالِه في مكة لنقمتهم، وقال بأنه واثق بأن أمر الله ماضٍ فيهم ولم يُرِد الخيانة ولا الرِدّة ولا الكفر، فصدّقه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ونزلت الآية وقد بين تعالى فيها أمراً مهماً

يؤدي الى الضلال اذا لم يقاطعوا المشركين والكفار من حيث الصداقة أو إسناد الامور اليهم ليتولّوها أو يتولّوا امور المسلمين، فإنهم اعداء الله تعالى واعداء المؤمنين فلا ينبغي أن يَلْقَوُا المودَّةَ من المؤمنين فالله تعالى مطّلع على السرائر فلا يهدي من يفعل ذلك وما له من هاد.

إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (2) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (3)

يبين الله تعالى مبلغ عداوة المشركين والكفار للمؤمنين فقد وصل بهم العدوان الى حد البطش فهُم إن يثقفوا المؤمنين (أي إذا صادفوهم وتمكنوا منهم) يبدون العداوة ولا يذكرون قرابةً أو صداقة أو وِلاية بل لن يقصّروا في الإضرار بهم ما امكنهم كالقتل الذي عَبّر عنه تعالى بِبَسْطِ اليد، أو الشتم والسوء، عبر عنهما تعالى بِبَسْطِ اللسان. وفي رغبتهم أن يرتدّ المؤمنون الى كفر ليتساوَوا معهم. ولهذا ينبغي للمؤمنين عدم وصلهم بالمودة بل الحذر والتبرؤ منهم. ولا نفع من ذوي الرحم إذا كانوا مع محاربي الاسلام. ولهذا لا يجوز موالاة الكفار. فالصلة يوم القيامة تنقطع بما يحكم الله تعالى به يوم يَفِرّ المرء من اقرب الناس اليه طلباً للنجاة. أي ان الذين من اجلهم يقوم المؤمن بموالاة الكفار سيفرون منه يوم القيامة. والله ابصر بما عند عباده من نوايا وأفعال.

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ

رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (4) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (5) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (6)

التبرؤ من قوم كافرين يكون بالقول الصريح لهم بترك عبادة اصنامهم وبالتبرئ منهم مهما كانت صلة القربى وإشعارهم ببغض المؤمنين لهم في قلوبهم وبالعداوة حتى يتوبوا الى الله تعالى ويؤمنوا به واحداً. ثم جاء إستثناء سيدنا ابراهيم صلى الله عليه وسلم: (لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ) قالها لأبيه عن وعد من أبيه ورجع عنها لَمّا تبين له خُلْفُ أبيه لوعده وبقاؤه على الشرك مع انه يعلم بأن الاستغفار لا ينفع أباه فالإنسان لا يملك من الله شيئا لغيره ولهذا أناب أي رجع لطلب رضوان الله داعياً إياه أن لا يحقق للكافرين عليهم سبيلاً كي لا يقولوا: (لو كان ابراهيم ومن معه صادقين لَما نالتهم أيدينا) فيكون ذلك فتنة لهم في بقائهم على ضلالهم وشركهم. وبهذا اتجه سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام ومن معه الى الله تعالى في ولاية امورهم بالتوكل عليه في طاعته والإنابة اليه فالمصير اليه وهو العزيز يعز من لجأ اليه، الحكيم في ما قضى. ثم بيّن تعالى ان الأُسوة هذه تنفع من كان يرجو الله واليوم الآخر وهي الإقتداء فمن تركه فقد خرج من ولاية الله تعالى الى موالاة الكفّار. وفي ذلك اشارة الى براءة ذمة الاسلام ممن يهاجر من المؤمنين الى دار الحرب للاقامة فيها فقد روى الطبراني والبيهقي قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((من أقام مع المشركين فقد برئت منه الذمة)). والله تعالى في غناه عنهم كاملٌ وفي عُلاهُ حميد.

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (7)

في هذه الآية يبعث المولى عز وجل الأملَ في المؤمنين بأن من عاداهم من ذوي قرباهم واصدقائهم في الجاهلية فإن الله تعالى قدير على أنْ يهديَهم ويغفر لهم رحمةً منه بهم وفضلاً عليهم. وهذه بشارة حققها المولى عز وجل بعد فتح مكة.

لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9)

كان من مشركي قريش بعد الهجرة من اتخذوا موقفاً مسالماً من المؤمنين وكانوا اولي قربى وذوي رحم ومستحقين للصلة كالنساء والضعفاء فإن الله تعالى لم ينهَ عن الاحسان اليهم والعدل في حقوقهم كحقوق المؤمنين من أولي القربى فالله تعالى يحب الْمُقسِطين أي أهل العدالة. وبين المولى تعالى نهيَه المؤمنين عن الركون الى المشركين الذين قاتلوا المؤمنين وبذلوا جهدهم في إخراجهم من ديارهم. وتولّيهم يكون بإتخاذهم حُماةً ومُعِينين وأهلَ مودةٍ، فذلك ظلم لِحَقِّ الاسلام ومخالفةٌ لأمر الله تعالى بترك مُوادَدةُ الكفار لأنهم في غضب من الله تعالى بعيدون عن موقع المؤمنين من رضوانه سبحانه فلا سبيل الى موالاتهم. إنما ولِيُّهم الشيطان وهم حزبه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (10) وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (11)

كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يأمر بأن تُستحلَف المرأة المهاجرة الى المدينة على أنّ سببَ هجرتِها هو إسلامُها وحبها لله ورسوله ولِدينهِ وليس لأمرٍ لا يتعلق بالدين (كبغض الزوج أو محبّةِ أحَدِ المهاجرين). فكانت اذا حلفت على ذلك (والله تعالى أعلم من البشر بما في قلوبهن من إيمان) فإن غلب ظن المؤمنين بأن هذه المهاجرة صادقة فلا يجوز إرجاعُها إلى الكفّار حتى وإن لحقها ذووها وطلبوا إرجاعها. وهذا الأمر خارج عما جاء في صلح الحديبية من ردّ المسلمين اذا خرجوا من مكة مهاجرين الى المدينة ويعتبر مقتصراً على النساء ويشمل ايضاً المرأة المؤمنة التي تهاجر من قومٍ غيرِ كفّارِ مكةَ أي من العشائر الذين لم يدخلوا في صلح الحديبية. وبيَّن الله تعالى ان المؤمنة لا تحل لكافر ولا يحل كافرٌ لمؤمنة. وفي مثل هذه الحالة يُعوَّض الكافر زوج المهاجرة المؤمنة مبلغاً مثل ما انفق على زواجه منها. وجوّز المولى زواج المؤمن منها اذا دفع لها مهرها. أما اذا آمن رجل وبقيت زوجته على الكفر فعليه ان يطلقها. وأمر المولى تعالى بأنّ من انفق على زواجٍ من إمرأة ثم حرمت عليه، إما بايمانها وكفره او بايمانه وكفرها، فقد حكم الله تعالى له بالحق في طلب ما انفق. فان ذهبت زوجة مؤمن الى الكفار فيبقى حق زوجها محفوظاً في طلبه ما انفق على زواجه منها حتى يتم الحصول على المبلغ المطلوب سواء من نفقة الكافر الذي تزوج المهاجرة المرتدة أو من الغنائم. وفي كل ذلك يأمر المولى عز وجل بتقوى الله وهي السبيل لمرضاته تعالى.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12)

مبايعة النساء تحصل بالكلام، فلم تمس يد النبي صلى الله عليه وآله وسلم يد امرأة بايعته. فكان اذا جاء النساء ليبايعنه يشرط عليهن ما ورد في هذه الآية. فاذا اخذ عليهن ما في الآية بقوله ((انتنّ على ذلك ؟)) فتجيب احداهن ((نعم)) فيقول ((في ما استطعتُنّ وأطَقْتُن)). والمقصود بالبهتان الذي يفترينه بين ايديهن وارجلهن هو أن تتفق عاقر مع إمرأة بوضع مولود ولدته غيرها للتوِ بين يديها ورجليها فتلصقه بزوجها تقول له هو ولدي منك. واما السرقة فهي السرقات عامة من اموال الناس. اما اذا كان الزوج مقصراً في نفقته على زوجته فلها ان تأخذ من ماله بالمعروف وإن لم تخبره بذلك. اما قتل الاولاد فكان بوأد البنات في الجاهلية او اسقاط الجنين بدون عذر. اما المعصية في معروف فقد نهاهن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن النياحة وغِشّ الأزواج. فسألته إحداهن "ما غش الأزواج"؟ قال ((تأخذ مالَه فتحابي به غيره)). ثم امره الله تعالى أن يستغفر لهن الله والمقصود الستر والعفو عما سلف. وفي رواية للامام احمد عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد مبايعةٍ اخذها على الرجال قرأ فيها الآية التي أُخِذَت على النساء (هذه الآية) ثم قال لهم: ((فمن وفّى منكم فأجره على الله، ومن اصاب من ذلك شيئاً (أي خالف البيعة) فعوقب به فهو كفارة له، ومن اصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه فهو الى الله ان شاء غفر له وان شاء عذبه)). وفي رواية لمحمد بن اسحاق عن عبادة بن الصامت قال "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (بعد مبايعة الرجال له): ((فإن وفيّتم فلكم الجنة))".

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (13)

كان النهيُ في اول السورة عن موالاة الكفار بعد حادثة حاطب بن ابي بلتعة. وفي آخرها ذكر المولى عز وجل النهي عن موالاة قوم غضب الله عليهم. ولما كان الغضب قد لحق في آيات سابقة بكَفَرة اليهود وكما جاء في شرح الآية الرابعة عشرة من سورة المجادلة مع الإشارة فيها الى الآيتين التاسعة والخمسين والستين من سورة المائدة ((قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ..)) الآيتين. فاتجه المفسرون الى ان المقصود هنا هو موالاة اليهود والنصارى اذ جاءتهم البشارات بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فلم يصدِّقوا بها ولم يتبعوه. كما اخبرهم المولى عز وجل بوعوده لهم في الآية السابعة والخمسين بعد المائة من سورة الاعراف إن هم آمنوا واتبعوا سيكونون من المفلحين. كما يشمل النهي عن أيِّ موالاة لسائر الكفار لِما استحقوه من غضب الله تعالى عليهم بكفرهم وقد يئسوا من بعث اصحاب القبور ويئسوا من الاجتماع بهم لهذا السبب. وذهب بعض المفسرين الى ان الكفار من اصحاب القبور قد يئسوا من كل خير عندما حانت ساعة موتهم وعاينوا ما سيلقاه الكافر والعياذ بالله تعالى. وبالإنتهاء عن موالاة غير المؤمنين يبقى المؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض كما جاء في الآية الحادية والسبعين من سورة التوبة التي شملت الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة وايتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم مع البشارة برحمة الله تعالى. (ويستحب الرجوع الى شرحها).

سورة الصفّ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (4)

سبق شرح الآية الاولى في أول سورة الحديد فالتسبيح هنا هو إبعاد كل شريك عن خَلْقِ وامتلاكِ شيءٍ مما في السموات والارض. وفي ذلك استحقاق التسبيح أي توجيه الحمد لله وحده. وما المخلوقات الّا صُوَرٌ لإرادة الله تعالى لا يشاركه فيها غيره. وبهذا تعرف عزته وتظهر حكمته. وقد نزلت هذه الآية قبل فرض الجهاد في وقت قال فيه بعض اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورضي الله عنهم: ((لو نعلم احب الاعمال الى الله لَعَمِلْناه)). فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم باسمائهم وتلا عليهم هذه السورة. وعليه يعتبر التباطؤ في الجهاد مشمولاً بقوله تعالى ((لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ)). وتشمل الآية من يدّعي عملاً من اعمال الخير بينما لم يفعله! كما تشمل بعض أوجه النفاق كمن يعطي العهد للمؤمنين بنصرهم اذا قوتلوا ثم لا يفي بذلك. وهذه الآيات دفعت اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وعليهم وسلم الى الحرص على الجهاد في سبيل الله تعالى ونيل الشهادة. وهذا ما يتفق مع الايمان والأمل بِنَيْلِ محبة الله تعالى. والّا فالكذب يوجب مقت الله تعالى مقتا كبيراً. وبيّن المولى عزّ وجلّ محبته للصادقين في الجهاد في سبيله مجمعين على نصرته في نية موحدة وكلمة مجتمعة كالبنيان المرصوص أي المتلاصق فلا تختلف

فيه حجارة عن باقي البنيان. وهنا يورد المولى تعالى للذكرى من مواقف الجهاد السابقة: فيورد جهاد سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام في سبيل الله تعالى، ويذكر مواقف الصبر فيورد مواقف سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام. كما جاء في الآيات التالية:

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (5) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (6)

لقد اوذي سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم بما قال عنه الذين كفروا من قومه وغيرهم وقد علموا أنّ ما جاء به ليس من عنده بل من عند الله تعالى. ولكن قلوبهم لم تكن صفاً واحداً في اعلاء كلمة الله تعالى لميل أكثرِها الى الدنيا فنالها الزيغ أي الشك والحيرة والخذلان. وكان الزيغ جزاءً لهم من الله تعالى بعد أن نكلوا وعدلوا عن اتباع الحق وهذا فسوق لا يجمع لهم المولى معه الهدى. واما سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام فقد اشار الى البشارة به في التوراة فقال: "مُصَدِّقا لما بين يدَيَّ من التوراة". ثم بشَّر بمن بعده خاتم النبيين سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقال (وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ). وعزز المولى عز وجل قول سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام بالآيات البينة الباهرة ولكن القلوب الزائغة نسبت أثر الآيات الى السحر ولم تنسبه الى الله تعالى الذي يؤيد رسله بآيات الخير في الوقت الذي لا يجدون في السحر الّا الشرور وفي هذين المثلين تصبير للنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (7) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (8) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (9)

أي ظلم كبير يحمل تكذيب المرسلين! فقد دعاهم الرحمن لِيُسعَدوا بالايمان والجنان فكَذَبوا عليه أنْ إعتبروا رسالته وآياته سحراً! وبهذا لن يجدوا للهدى سبيلاً. وكانوا أهلاً للتهكم اذ يريدون أن يطفئوا نور الله أي يسكتوا رسوله بما عندهم من سخرية وتكذيب. ونور الله الى تمام ولو كرهوا. فما ارسل رسوله بالهدى ودين الحق لكي يجعل أهله ضعفاء، ما داموا في نصرته، بل لينصر الله دينه فينير به كل الظلمات ولو كره المشركون. وقد جاء تفصيل لهذا المعنى اكثر في شرح معاني الآيتين الثانية والثلاثين والثالثة والثلاثين من سورة التوبة ولزيادة الايضاح يمكن الرجوع الى شرحهما.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (11) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (13)

هذه الآيات اعلمت الصحابة رضوان الله عليهم بما طلبوه من معرفة أحَبِّ الأعمال الى الله تعالى كما جاء في شرح اول السورة. فالتجارة المنجية يوم القيامة من الهلاك الى مغفرة وجنات وفوز عظيم هي الجهاد في سبيل الله تعالى بالمال والنفس. وهذا في الآخرة، اما في الدنيا فالبشارة هنا للاصحاب بالنصر من الله تعالى وبالفتح القريب. والأمر ناجز لقوله تعالى (وبشر المؤمنين) فجولة الباطل

ساعة، وجولة الحق الى قيام الساعة. وحقق المولى لهم فتح مكة. وهذه البشارة عامة فقد قال تعالى في سورة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)). ومحبة النصر هي محبة اعلاء كلمة الله تعالى ونيل الآخرة وبنفس الوقت يكون في الفتح من الخير العاجل ما فيه السرور للمؤمنين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (14)

انصار الله تعالى هم أنصار رسل الله بما أعانوا على الدعوة الى الله. وهنا هم حَوَارِيُّو عيسى عليه الصلاة والسلام في هذه الآية. فقد طلب من يعينه لكثرة من عارضه وسخر منه من كفار بني اسرائيل. وإستجابةُ هؤلاء الحواريين رضي الله عنهم مَكّنَت دعوة سيدنا عيسى عليه السلام من إبلاغ اهل الشام بها ثم من بعده إلى أبعد من ذلك الى بلاد اليونان. وجعلهم الله تعالى مثلاً ليستجيب المؤمنون بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيكونون في نصرة الدعوة الاسلامية بعد ان منعت قريش نشر هذه الدعوة في مكة فهيأ الله تعالى لها الأنصار من الأوس والخزرج وامر بالهجرة وصدق وعده ونصر عبده وأعَزّ جُندَه وهزم الأحزاب وحده. أما الحواريون المذكورون فقد تفرقوا في البلاد بعد رَفْعِ سيدنا المسيح عليه السلام الى ربه الجليل فأعزّ الله من آمن بهم وخذل من كفر بهم. وخلف من بعدهم فِرَق ظهر فيهم من ادَّعى بأُلوهيّة المسيح عليه الصلاة والسلام. وظهر من ادعى ببنوّته لله تعالى ووضعت الصلبان والتماثيل في الكنائس. وسبحان الله عن ذلك. واما من آمن به

رسولاً وعبداً لله سبحانه فقد بقي منهم نفر حتى البعثة المحمدية فآمنوا مع المسلمين بما أُنزل إليهم إيماناً حقّاً كما جاء به المسيح والرسل عليهم السلام.

سورة الجمعة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1)

ما في السموات وما في الأرض من مخلوقات تشير في تكامل ترابطها ببعضها إلى وحدانية خالقها. تسبح لله تعالى، أي تُنَزِّه وحدانيته وتبين لطفه. ففيها الدلالة عليه والتعريف به ملكاً قُدّوساً، أي موصوفاً بكمال الطهر عن كل نقيصة. العزيز في ربوبيته الحكيم في تدبيره.

هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (2) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (4)

(الأُمّيّون) لفظة ميَّزت بني إسرائيل بصفتهم أهل كتاب عن غيرهم من الأُمم. فهم كتابيون وغيرهم أُميّون لم ينْزِل كتاب إليهم. وكان أهل الكتاب ينتظرون بِعثة نَبِيٍّ من بينهم في موعد البعثة المحمدية ومكانها حسبما بشّرَت به التوراة. فلما اختص الرحمن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بها (والله تعالى اعلم حيث يجعل رسالته) أنكر كَفَرَةُ الكتاب على العرب ذلك. بينما في قوله تعالى ((رَسُولاً مِنْهُم)) دِلالة على العرب اولاً لأنه عربي. ثم قال تعالى ((وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ)) وهم الاقوام الذين اسلموا بعد العرب من أهل الحبشة وشمال أفريقية غرباً ومن الأكراد والفُرْسِ والتُرك والهنود ثم غيرهم شرقاً من مسلمي آسيا. ثم من القارات الاخرى. وقد جاء في صحيح البخاري عن ابي هريرة رضي الله عنه قال: "كنا

جلوساً عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأُنزِلت عليه سورة الجمعة وفيها: ((وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ)) قالوا من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثاً، وفينا سلمان الفارسي، فوضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده على سلمان الفارسي ثم قال ((لو كان الايمان عند الثُرَيّا لَنالَهُ رجالٌ من هؤلاء))". في رواية: ((لَنالَهُ رجلٌ من هؤلاء)). وروى الحديث مسلم والترمذي. وهذا يؤيد قوله صلى الله عليه وآله وسلم ((وبُعِثتُ للناس كافة)). وهو النبيُّ الاميُّ الذي ارسله الله تعالى رحمة للعالمين بآيات بينات وحكمة بليغة والله تعالى في غنىً عمّن يكذّب او ينافق من اهل الكفر فيحرمه من فضله. وهو تعالى عليم بمن يؤمن فيهديه، يختص برحمته الذين هداهم فقد كانوا اهلاً للايمان واتّبعوا بصدق وجاهدوا في سبيله باخلاص وذلك فضله العظيم.

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (5) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (6) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (7) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8)

الذين حُمِّلوا التوراة، أي أُكرموا بها، وقرأوها فاستثقلوا تكليفها فلم يحملوها أي لم يعملوا بها ولم ينتفعوا بالبشارة المذكورة فيها عن الرسالة المحمدية, جعل المولى تعالى مثلهم كمثل الحمار (وهو ابعد فهماً في الحيوانات التي تُحمَل عليها الأثقال) يحمل كُتُباً ولا يهمه علمها كأنه يحمل أيَّ حملٍ ذي وزن مماثل فلا فرق عنده بين الحملين. فلو أن حَمَلَةَ التوراة تدبّروا البشارات التي فيها والتوجيه الى عبادة الله تعالى

والإعتصام به وترك اتخاذ أولياءَ من دونه لتعرّفوا على صحة البشارة بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. ذلك أن نزول القرآن إتفق مع موعد البشارات به ومكانها في التوراةِ وصدّق بها في التوجيه الى التجرد من أوْجُهِ البغي الذي بيّن كونه سببَ الخلاف بين بني اسرائيل، وفي التوجيه الى نصرة الله تعالى بالله وليس باتخاذ أولياءَ من دونه يؤمنون بهم ويطلبون عونهم وليس بطاعة أوامر أحبارهم التي تتعارض مع التوراة. ففي تكذيبهم لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم قد كَذّبوا قبل كل شيء هذه الآيات التي عندهم فظلموا. والله تعالى يعلم عن الظالم مسبقاً انه سيظلم قبل أن يمتحنه ولهذا لم يَهْدِ قلوبهم أي لم يرشدهم الى حقيقة ما أُنزِل في التوراة والانجيل والقرآن. وبدلاً من الإيمان بالرسالة المصدقة لما معهم ليكونوا يداً واحدة معتصمة بالله وحده لإعلاء كلمته في كُلِّ أرضه إدّعَوا أنهم ليسوا كغيرهم من الامم فهم أحباب الله بزعمهم من دون الناس وزعمت طوائف منهم انهم ابناء الله وأحباؤه فعميت بصائرهم عن الحق بغياً أن تُنافِسَهم أُمّةٌ في القرب من الله تعالى. وهنا يبيّن المولى سبحانه لهم بأنهم سينالون القرب الذي ادعوه اذا دعاهم الى قربه بموتهم وأَخْذِهم عنده فَلْيَتَمنَّوا الموت! ولكنهم لا يحتملون إجابة هذا الطلب بما قدمت أيديهم من فجور وظلم فكرهوا لقاءَ العليم بالظالمين. ولن ينفعهم فِرارُهم من الموت الذي حتمه الله تعالى فجعله سروراً لمن احبوا لقاءه وكَمَداً لمن تمرغت نفوسهم بالمعاصي وهو سبحانه عالم الغيب والشهادة أعلم بالسعيد وبالشقي فينبئهم بما كانوا يعملون.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (9) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (10)

الارتباط والتماسك بين المؤمنين يؤدي الى جمع كلمتهم وتوحُّد قيادتهم. ومن اسباب ذلك صلاة الجماعة التي وجبت في صلاة الجمعة فأمر المولى بالسعي أي التهيؤ لموعدها كالنظافة ثم الإغتسال مع الوضوء. وقبل ذلك ما ندب من قص الاظافر وغيره من السنن في يوم قبلها فإن الله تعالى سيُذكَر أي ستكون خطبتُها ذِكْراً أي تعريفاً بالله تعالى من آيات كتابه وسنّة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وتعليماً لأمور الدين لِتُتقَن وتتوحد في جميع البلاد الاسلامية وبهذا لا يقف بيع وشراء في طريقها بل يترك ذلك فاذا انقضت بقي أثرها خيراً من البيع الرابح والشراء السهل وبعد أدائها أباح المولى عز وجل السعي من أجل الرزق مقترناً بذكر الله كثيراً أي الالتزام بأمره ونهيه وحضور رقابته في قلوب الذاكرين. وامّلهم تعالى بالفلاح. واتى المولى تعالى بِمَثلٍ مما حدث قبل نزول هاتين الآيتين وهي ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان قائماً على المنبر يخطب اذ سمع الناس ما كان شائعاً عند قدوم قافلة فيها تجارة (وهو دق الطبول للاعلان بمجيئها). وكانت أيام جوع وغلاء وكان مجيء القافلة يعني الرخص في سعر المعروض لوفرته فتسارع الناس خارجين اليها ولم يبق في المسجد الا اثنا عشر صحابياً فقال تعالى عمن خرج الى القافلة:

وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (11)

وعن هذه الحادثة روى الحافظ ابو يعلى عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال "بينما النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخطب يوم الجمعة فقدِمَتْ عِيْرٌ (أي قافلة تجارة) الى المدينة فابتدرها اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى لم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلّا اثنا عشرَ رجلاً فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((والذي نفسي بيده لو تتابعتم حتى لم يبقَ منكم أحدٌ لَسال بكم الوادي نارا))! ثم نزلت هذه الآية. وقال جابر "كان في الاثني عشر الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ابو بكر وعمر رضي الله عنهما". ولم تتكرر هذه بالطبع في ما بعد بحصول هذا التشريع فيها وهو الثبات مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. وفي الآية الاشارة الى القيام أي وقوف الخطيب في الخطبة وان تكون الصلاة بعد الخطبة اذ كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يصلي ركعتي الجمعة قبلها فجعلهما بعد الخطبة بعد هذه الحادثة (جاء هذا في ما رواه ابو داود في كتاب المراسيل عن مقاتل بن حيان). واما اللهو فهو دق الطبل بين يدي القافلة وقد توقف هذا أيضاً. وهكذا جعل المولى رحمته التي ادخرها للمؤمنين في صلاة الجمعة خيراً لهم من الاستجابة للهو في الطبل او لمعاينة الوارد من المال في أثناء الفروض. أمّا دق الطبل ومعاينة المال فمرخص في فعلهما ولكن في مناسبات.

سورة المنافقون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (1) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (2) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (3) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (4)

يقع ضرر المنافقين على انفسهم وعلى من ينخدع بهم اذ يظهر للناس منهم أنهم مؤمنون. ومثال المنافقين في كل زمان هم من كان منهم على عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إذ جاءوه وقالوا له "نشهد انك لرسول الله". وقد كذبوا في ذلك مرتين فهم يكذبون ظاهراً بألْسِنَتِهِم، وإن نطقت بالحق، وتكذب قلوبُهم باطناً على من يعلم صحة الإيمان سبحانه وتعالى فشهد عليهم بأنهم كاذبون في إدِّعاء موافقةِ ألْسِنَتِهِمْ لِلذي في قلوبهم. والله تعالى يشهد بالصدق لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم. وقد تستر المنافقون وراء شهادتهم واعتُبِرَت يمينا من الأيمان. وبذلك اتخذوها (جُنّةً) أي ستراً لهم اعتصموا بها من العقاب الدنيوي وعملوا تحت غطائها بإلقاء الشبهة والشك بصحة الرسالة حتى جاء نصر الله وهم كارهون. وبيَّن المولى عز وجل سبب توقف عقولهم عن الفقه بأنه الكفر بعد الايمان بعدما ابتلاهم العزيز العليم ليقيم الحجة للذين صدقوا ويقيمها على الكاذبين فسقطوا في الفتنة فطَبَعَ المولى على قلوبهم أي أغلق مدخل فهمها وختم عليه بعدما كفروا بعد إيمانٍ لم

يكونوا أهلاً له فلم يحمِّلْهم أكثر مما وقفوا عنده. ولما كانوا على صلة بالمؤمنين بإعلانهم ايمانَهم فإنهم لم ينقطعوا عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وكانوا يظهرون افضل ما يمكنهم قوله لدفع الشبهة عنهم ولهذا كان قولهم من الأقوال التي تنال اعجاب الآخرين. وكان رأس النفاق عبدُ الله بن أُبَيْ بن سَلول جسيما صبيح السمات فصيحاً ومِثْلُه قوم من المنافقين فشبَّههم تعالى بالْخُشُبِ الْمُسنَّدة أي انهم في هيئاتهم الخالية من الايمان جذوع ذات حجم لا روح فيها. فالخشب الذي لا يصلح في عمل السقوف والابواب يسند الى الجدران بانتظار التخلص منه. وكشَفَ المولى ما يعتمل في قرارة نفس كل منهم اذا سمع مقولة فيها توبيخ او تقريع حسبها صيحة عليه. ونبه تعالى الى انهم هم الأعداء الذين وجب التحذر منهم لإخفائهم السرائر العدوانية جهد إمكانهم. وقوله تعالى ((قاتَلَهُم اللهُ أنَّى يُؤفَكُونَ)) هو إظهارٌ لِمَقْتِ الله تعالى اياهم واشارة للمؤمنين ان يدعوا على من يعلمون فيهم صفات المنافقين. فالعبارة تدخل في تعابير الدعاء على اهل الشرور.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (5) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (6) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (7) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (8)

في الآية الثمانين من سورة التوبة، وبعد ذم المنافقين، قال تعالى بتعبير مشابه ((اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ

بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)). ذلك لأنهم كانوا يسخرون من الفقراء الذين يأتون بمال قليل للجهاد فيسخر المولى عز وجل من المنافقين كيف يتجهون الى النار. وهنا لأنهم يستكبرون عن طلب المغفرة لهم اذا قال لهم المؤمنون: تعالوا يستغفر لكم رسول الله. وسبب نزول الآية: ان خلافاً حصل بين نفر من المهاجرين ونفر من اهل المدينة فيهم المنافق سنان الجهني حليف رأس النفاق عبدالله بن أُبَي ابن سلول. وكانوا في غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع في السنة الخامسة للهجرة (والمريسيع ماء على تسعة اميال من المدينة) وكاد الخلاف يتسع لولا حضور الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ونَهيُه عن مواقفِ الجاهلية بالتعصب للقبيلة والرهط، فلما سمع عبدالله بن أُبَي هذا بما حصل قال "اما والله لو رجعنا الى المدينة ليُخرِجَنّ الأعَزُّ منها الأذّل". ثم التفت الى ما يقدمه الأنصار من فضل للمهاجرين فقال لجماعته "لو أمسكتم عن فلان وذويه (وسمّى احد المهاجرين الذين خاصموا صاحبه) فَضْلَ طعامٍ لم يركبوا رقابكم فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد". وكان زيد بن أرقم رضي الله عنه (الذي ورد حديثه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في شرح الآية الثالثة والعشرين من سورة الشورى) فتىً حَدَثاً قد سمع المقالة فرَدّ على ابن سلول فقال "انت والله الذليل القليل الْمُبغَض في قومك. ومحمد على رأسه تاج المعراج في عزٍ من الرحمن وقوةٍ من المسلمين" فقال ابنُ سَلول: "أُسكت فإنما كنتُ ألعب". ولكن زيداً اخبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. إلّا أن ابن سلول أقسم منكرا ذلك (إتخذ يمينه سترا) فنَزلت الآيات هذه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لزيد ((يا غلام ان الله قد صدّقك وكذّب المنافقين)). وعندما قيل لابن سلول "إذهب الى رسول الله (صلى الله عليه وآله

وسلم) يستغفرْ لك" لوّى رأسه فقال "أمرتموني أن أُؤمن فآمنت وأمرتموني أن أُزَكّيَ مالي فزكّيتُ وما بقي لي إلا أن أسجد لمحمد". فنزَل قوله تعالى ((وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ..)). ونزلت الآيات التي بعدها وفيها الاشارة الى ان الله تعالى لا يغفر لمثل هؤلاء وإنِ استغفر لهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فالأمر سواء، لإستمرارهم على النفاق. وكان من عبدالله رضي الله عنه إبن عبدالله بن أُبي بن سلول أن منع اباه من دخول المدينة حتى يأذن له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. فأذِنَ له ودخل ذليلاً لا يجد بين أحد من المؤمنين نصيراً. وفي تفسير الامام النسفي ان عبدالله بن أُبَيٍّ بن سلول تُوفِّيَ بعد هذه الواقعة بأيام.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (9)

يقتضي الايمان الصادق من المؤمن أن تغلب محبةُ الله تعالى في قلبه على محبة الاهل والولد والمال. ويعني هذا أن العزة الربانية في القلب تغلب على تعلق المؤمن بالهبات الربانية. فإن غلبت يتحقق الشكر والمزيد في الآخرة بذِكْرِ الْمُنعِمِ بدل الانشغال بالنعمة. لأن الإنشغال بالهبات من مال وولد لا يحقق المزيد المرجو يوم القيامة من الشكر وفي ذلك خسارة. وفي السورة التالية تحذير من الزوجة والولد مع الامر بالعفو والصفح وفيها توجيه الى التصرف بالمال يقول تعالى عنه هنا:

وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (10) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (11)

النفقة المقصودة هنا هي ما يريد المؤمن ان يقدمه لنفسه من أجر يأتي من انفاق المال ليجده ذخراً وزاداً ليوم طويل وسفر بعيد، سواءً كانت النفقة في الفرض الذي ينجيه من الكفر كالزكاة والنفقة في الحج وفي باقي الفروض، أو كانت في حق ذوي القربى والمساكين وابناء السبيل أو في ما يراه لوجه ربه الكريم. وقد جاء الكلام في ذلك في شرح الآية الرابعة والخمسين بعد الْمِائتين من سورة البقرة وشرح الآيات الحادية والستين بعد المائتين وما بعدها حتى الآية الرابعة والثمانين بعد المائتين من سورة البقرة أيضاً مما يغني عن بيان فضل النفقة في سبيل الله وابتغاء مرضاته ولوجهه الكريم. وهنا بهذه الآيات يحذر المولى من الحسرة ساعة الموت للذين بخلوا على أنفسهم من ذخر القيامة. فتركوا المال لورثتهم حتى اذا تحقق لهم دنوّ الأجل طلبوا المهلة لإنفاق المال ولكن هيهات. وقد جعل الله تعالى من المال أحد أسباب دوام العمل بعد الموت إذ ورد فيه حديث (اذا مات الانسان انقطع عمله الّا من ثلاث. صدقة جارية او علم ينتفع به او ولد صالح يدعو له) الذي رواه البخاري في الأدب عن أبي هريرة رضي الله عنه. ومن حكمة الله تعالى ان اخفى ما تكسب النفوس في غدها او ان تعلم في أي ارض تموت فالمبادرة (التي هي من صفات الصادقين السابقين الذين يسارعون في الخيرات) هي الحل المنجي من فوات الفرصة ودوام الحسرة والعياذ بالله تعالى.

سورة التغابن

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (2) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (4)

ختم المولى عزّ وجلّ بهذه السورةِ السُوَرَ المسماة بـ(الْمُسَبِّحات). وقرن بالتسبيح ما تدركه الابصار والاسماع وهو الكَون. ثم أوسع منه ما تدركه وتفقهه القلوب المؤمنة الموحِّدة، وإن لم تعرف مداه، وهو الحمد الذي يتجاوز كل ثناء جميل؛ فلا يُعرَف مدىً لكلمات الله تعالى وله الحمد فيها، ولا يعرُف مدى تقديراته وحكمته وتجلياته في صفاته وفي كلها له الحمد. فالتسليم بالحمد لله تعالى هو ادراك للحمد وعجز عن مداه. وهذا ما يبعث في المؤمن معنى التسبيح بحمدِ مَن هو على كل شيءِ قدير. نحمدهُ ونشكره. أما الكافر فقد يسّر له الله تعالى العلم بما سيكون عليه من إنكارٍ او شرك او ريبة او كُفرانٍ بِنِعَمِ الله تعالى. ويعلم الله تعالى ما سيؤول اليه الكافر يوم التغابن وهو خسران منْزِلته في الجنة وتعطى لمؤمن وبهذا يُغْبَن بغير ظلم. والحكمة واضحة من خلق الكافر؛ فالحياة الدنيا دار ابتلاء في زينة ما على الارض وتفاوت الاعمال، فيكون اختلافها بين المؤمن والكافر حجة لله تعالى وهو بصير بها لِيُحِقَّ الحق الذي خلق به السماوات والارض. فالذي يؤمن بأن الدهرَ يُهلكه ولن يبعث فقد أتى بالكفر خاسراً. والذي يؤمن بالله تعالى واليوم الآخر

والرسالات اتى بالايمان رابحاً. واما الصور التي خلق الله تعالى بها الانسان فهي تميزه عن الحيوان باعتدال القامة وتَيَسُّرِ حركة الأعضاء للغايات والمقاصد التي ينفذ الانسان اعماله من اجلها. ثم إن مصير موقف الانسان من ذلك كله موكول الى الله تعالى. فالخبير تعالى أعلم بعباده ومحسن لهم ليشكروا ويصبروا او ليصُدُّوا ويكفروا. فهو العليم بالسر والعلانية علمه بما في السماوات وما في الارض وعلمه بما تنتويه الصدور مكنوناً فيها قبل ظهوره بالأقوال والأفعال.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (5) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (6)

الخطاب للكفار من اهل مكة وغيرهم ذلك أن الامم الهالكة من قبل والذين أعَدّ الله تعالى لهم العذاب الاليم قد تواترت اخبارهم. أو لم يعتبر كفار مكة وغيرهم مما سبب هلاكهم؟ ويشير المولى تعالى إلى سبب هلاكهم هو أنهم أنكروا إرسال البشر بالرسالات السماوية فكفروا بالرسل وتولوا عن الايمان والتفتوا الى الاوثان والاحجار يعبدونها. والله تعالى غني عن عبادتهم فهو حميد إن آمنوا بآياته وحميد إن لم يؤمنوا. والخطاب تذكير لمن يعرض عن العبادة الى ما يضله عنها.

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (7) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (8) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (10)

الزعم الذي جاء من أوهام الكافرين بأنهم لن يُبعَثوا، مع ما جاء من دِلالات على البعث، يستوجب ردّاً عليه من قبل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. لذا أمره المولى عز وجل مقابل زعمهم بأن يُقسِم لهم بالذي سيبعثهم ثم ينبؤهم بما عملوا. وهذا تأكيد على أخبار البعث عن يقين راسخ لأن القادر على النشأة الاولى من اليسير عليه النشأة الأخرى. كما أن القَسَمَ من صادق له موقع في القلوب آكد من الإخبار عما يقسم عليه، ويحمل الوعيد لمن لا يؤمن فقال تعالى ((فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا)) فلو تدبروا عاقبة الايمان لوجدوا الدعوة اليه نوراً يرشدهم المولى به الى الحق وصراط الهدى. ويذكرهم بأنه يعلم ما يعملون خبيراً بنواياهم ودوافعهم فيه ويذكّرهم بما بعد البعث بأمرٍ يُعرَف في تعابير التجارة؛ فالمغبون في تجارة الدنيا يخسر بعض مالِهِ ويلقى حقه محفوظاً عند الله تعالى، اما المغبون في خسارة آخرته فإنه لن يُعوَّض اذ يرى المؤمنين قد ذهبوا بما كان سيناله من خير الآخرة. وفصّل المولى بعد ذلك بأنّ المؤمنين الذين عملوا الصالحات لم تبق لهم سيئة فهو يكفّرها بفضله تعالى ويدخِلهم جناته لخلود أبَدِيّ. وأنّ المنكرين للبعث ولدِلالاته في آيات الله تعالى مصيرهم الى النار في خلود وبئس المصير.

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (11)

المصيبة تبدو للمؤمن تقديراً ربانياً مكتوباً على من أَصابَتْه مِن قبلِ ان تحصل فتدرك المؤمنَ الثقةُ بربه الحكيم. وبدلاً من التأثر بالمصيبة التي من شأنها أنْ تجلب الهمَّ او الحزن او الحيرة يرجع المؤمن الذي تصيبه مصيبة الى الله تعالى ويسترجع أي يقول ((إنا لله وإنا اليه راجعون)) عالماً بأنها مكتوبة بتقدير الرحمن الرحيم لسببٍ ما

كأن تكون له عبرةً فيزداد بها من عمل الصالحات، او ليتفكر في تقدير المولى فيحسن الظن بالله تعالى فيزول همه. وهكذا يهدي الله قلب المؤمن الصابر.

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (12) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (13)

ثلاثة شؤون تُذكر في العلاقة بين العبد وربه؛ أولاً: من شأن الله تعالى أن لا يُعذبَ حتى يبعث رسولاً. فعليه الرسالة والرسل. وثانياً: على الرسل (عليهم الصلاة والسلام) تبليغ الرسالة بلاغاً مبيناً. وثالثاً: على الذين بلغتهم الرسالة السمع والطاعة وتقوى الله بقدر الاستطاعة. فالذي حصل هما الرسالة فالبلاغ. والذي يحصل من العبد إمّا أن يتولى أي لا يلتزم بالطاعة وعندئذ ليس له حجة في الرسالة والرسل. وإمّا أن يؤمن ويجعل امر الله تعالى ونهيه معالم للسير في حياته أي لا يلتفت الى ما يعارضهما. وبهذا يكون متوكلاً على الله تعالى واحداً في العبادة (وهذه طاعته لله)، ومقتدياً برسوله صلى الله عليه وآله وسلم لأنه افضل أُسوة في العبادة (وهذه طاعة المؤمن للرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم). وبذلك يكون الله تعالى وكيلاً أي كما اتخذه العبدُ الإلهَ الوحيد في عبادته وجعل امرَه الوحيدَ في طاعته على سُنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ما أمكنه فالله تعالى سيُنجز له حِفظَه في ذمته، ((ومن يتوكل على الله فهو حَسْبُه)).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (15)

يحذِّر المولى الرحيم عباده المؤمنين من الضعف في دينهم. ويبين لهم في هاتين الآيتين أن البعض من الزوجات والاولاد يكونون سببا في إبعاد المؤمن عن تقوى الله تعالى نتيجة جهل بالحقوق والواجبات الشرعية أو تثبيط همة المؤمن في الجهاد أو الكرم وكذلك اذا لبى الاب طلبات أولاده على حساب تقواه فانهم فتنة تقتضي الحذر على الدِّين، وقد روى ابن ابي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ان رجلاً سأله عن هذه الآية فبيّن أنها نزلت بعد الهجرة في رجال اسلموا في مكة وارادوا ان يأتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (أي ارادوا الهجرة الى المدينة) فثبطهم ازواجهم واولادهم وقالوا لهم "تنطلقون وتضيعوننا"؟ فرقّوا لهم وتوقفوا. فلما هاجروا بعد ذلك ورأوا الذين سبقوهم قد فقهوا في الدين ارادوا ان يعاقبوا ازواجهم واولادهم فانزل الله تعالى قوله ((وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)). وحكم الآية عامة في التحذير على الدِّين من مواقف الزوجة والولد اذا كانت تؤدي الى معصية او غفلة. وقد امتدح المولى المؤمنين الذين يدعون ان يهبهم تعالى من ازواجهم وذرياتهم قرة أعين كما في سورة الفرقان. وهنا يبين تعالى أن المال والولد من الفتن التي يختبر المولى تعالى بها درجة التصرف وفق الامر والنهي وأعدّ للمحسنين عنده الأجر العظيم. وقد أورد الطبراني عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله ((ليس عدوك الذي إن قتلته كان فوزاً لك وان قتلك دخلت الجنة ولكن الذي لعله عدوّ لك ولَدُك الذي خرج من صُلبك ثم أعدى عدوٍ لك مالُك الذي ملكتْ يمينُك)).

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (16) إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (17) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18)

لكل عمل لوجه الله تعالى حقُّه. وقد سُمِع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول في سجوده ((ما عبدتُك حق عبادتك يا معبود)) وقال تعالى في الآية الثانية بعد المائة من سورة آل عمران ((اِتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)). والعبد منا يبلغ حق تقاته سبحانه اذا اتقاه ما استطاع أي لا يتردد في الطاعة على افضل ما يراه في مقدوره. واذا خُيِّر بين سلوكين فيتبع الاقرب منهما للتقوى ويتصرف الى الحد الذي لا يرهقه بالتكلف بما لا يطيق. وهنا في المال تكون النفقة على افضل استطاعة تبعاً لقوله تعالى في سورة الفرقان ((وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا)) وتكون النفقة في سبيل الله من الموسر جُهدَه ومن الْمُقِلّ جُهدَه فتُدَّخر عند الله تعالى وتربو عنده بمضاعفات ورضوان. وحدّ جُهْدِ المؤمن كما جاء في الحديث المتفق عليه عن عائشة رضي الله عنها قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((مَهْ! عليكم بما تطيقون فوالله لا يَمَلُّ الله حتى تَمَلُّوا)) أي اذا حصل في العمل بالنوافل ما يؤدي الى الملل والى تركها فالافضل إختيارُ الأدوم وإن قلّ. وقد روى مسلم في صحيحه عن ابي هريرة رضي الله عنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم ((هلك المتنطِّعون)) أي الْمُتعمِّقون الْمُتشددّون في غير موضع التشديد. وهذا السلوك في المال وقاية من الشح لأن الشيطان يتوعد بالفقر ((الشَّيْطَانُ يَعِدُكُم الفَقْرَ)) أي يهدد المنفقين به لكي يبخلوا فإذا أنفق المؤمن جهد إمكانه في مقصدٍ صادقٍ في نيّةِ الإحسان فقد اتقى الشح وأفلح مع نيل الأجر مضاعفاً مدّخراً فقد

إعتبره المولى الكريم قرضاً حسناً عليه وَعَدَ عاقبته مغفرةً وشكراً من شكورٍ حليمٍ يعلم الدافع القلبي لنفقة السِرِّ والعلانية عزيزاً حكيما.

سورة الطلاق

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (1)

الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والامر للامة المسلمة الى يوم القيامة لوروده بصيغة الجمع. وقوله تعالى (إِذَا طَلَّقْتُمُ) أي اذا اردتم الطلاق بعد الدخول فعلى الزوج ان يُراعِيَ الوصية الربانية ولا يُقدِم على الطلاق ثلاثاً في آن واحد. ففي ذلك معصية وإنْ أُعْتُبِر الطلاق ناجزاً. فالطلاق يكون بعد طُهْرِ المرأة من الحيض ولا يقربها. واذا كانت حاملاً يتأكد من حملها وعندئذ يطلقها تطليقة واحدة. والعدة هنا هي الفترة التي تطهرت بعدها من الحيضة ولم يقربها زوجها (وفي نيته تطليقها). أمّا اذا طهرت وقربها (راجعها) زوجها فلا يطلقها ثانية حتى يثبت حِملُها او تطهر بعد حيض صحيح. وهذا طلاق حسب وصية السُنّة النبوية. حيث روى مسلم في صحيحه أنّ عبدالرحمن بن ايمن مولى عزة (وهو من التابعين) سأل ابنَ عمرَ رضي الله عنهما ((كيف ترى في الرجل طلق امرأته حائضاً؟)) فقال ابن عمر رضي الله عنهما "طلّق ابن عمر– يقصد نفسه – امرأته حائضاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ((لِيُراجِعْها)). فرَدّها. وقال صلى الله عليه وآله وسلم ((اذا طهرت فلْيُطَلِّقْ او يُمسِك))" أي التطليق يكون قبل العدة أي بعد الطهر من الحيض من غير ان يقربها. اما الطلاق البِدْعِيّ فهو ان

يطلقها في حالة الحيض او بعد الطهر ولكنه يقربها ولا يدري هل حملت ام لا! وهناك طلاق يختلف عن هذين الطلاقين وهو طلاق الصغيرة وطلاق الْمُسِنّة التي انقطعت عن الحيض وطلاق التي لم يدخل بها وقد فُصّلت أحكام الطلاق في كتب الفقه ولا يجوز الإفتاء في حالات الطلاق البِدعيّ او غيره إلّا مِن قِبَل عالمٍ فيسمع ما قيل وما يقوله الشهود فلكل حال من احوال الطلاق حكم يتشعب مع احكام اخرى. ومن اراد الطلاق فلا يتعجل التطليقة الثانية حتى الطهر الثاني. عندئذٍ إما إمساك بمعروف أي بإحسان الصحبة او تسريح بمعروف. وأمر تعالى بالتقوى وأن لا تخرج المرأة من بيتها في مدة العدة. وعِدّة المطلقة ثلاثة قروء (القُرْء هو الطهر من الحيض). والمقصود بالخروج هو ترك السكنى فلا يحق للزوج إخراجُها من السكنى في بيتها. كما لا يسمح لها بالسكنى في غير بيتها طيلة العدة لأنها لم تُطلَّق طلاقاً بائناً. اما خروج المطلقة تطليقة واحدة من بيتها بغير اذن فيعتبر مخالفة تؤثم عليها. واما الفاحشة الْمُبَيِّنة فتشمل الزنا وما يسبقه من منكرات الأفعال. واما اذا كانت المرأة بذيئة الكلام مؤذية لأهل بيت الزوج فقد افتى ابي ابن كعب وابن عباس وعكرمة رضي الله عنهم بجواز إخراجها. ويعتبر نشوزها وخروجها بحد ذاته فاحشة عند الاحناف. وهذه الاحكام اسماها المولى عز وجل (حدود الله) فمن تعداها سواء الرجل او المرأة فقد ظلم نفسه أي لم يدَعْ لها مجالاً لتلافي الخطأ والندامة. بينما اتباع هذه الاحكام يعطي فرصة زمنية مناسبة لتلافي الاخطاء والتفكير في العاقبة فيكون عبرةً لتلافي الامور المسببة للطلاق فلا تحصل الندامة والله تعالى يجعل بعد ذلك امراً، ومن ذلك يجعل فرجاً ومخرجاً أي فتوى تنحل بها العُقَد.

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (3)

بلوغ الأجل أي مقاربة إنتهاء العِدّة فإما أن يُبَتّ في طلاقٍ بائن لا رجعة فيه إلّا بعد أن تنكح المطلّقة زوجاً غيره، او يرجعها الى عصمة نكاحه والإستمرار على ذلك بإحسان الصحبة وتقوى الله تعالى. ولا يجوز في حالة الطلاق البائن ان يلحق بالمطلقة ضرراً او إساءة بل يفارقها بالمعروف. اما شهادة إثنين من ذوي العدل فيقتضي القول بالرجعة أمام شاهدين عُرِف عنهما العدل من المؤمنين. كما ان الفراق ايضاً يكون بالقول امام شاهدين عدلين مؤمنين. وينبه المولى عز وجل بأن تكون الشهادة لله أي لا يُنقص حقّ أحدِ أطرافها لحساب حقِّ الآخر. ومن يتقِ الله (أي يحتاط) حذراً من المخالفة في أحكام الطلاق ولم يُلحِق ضرراً بالْمُعْتَدّة (والضرر: كأن يراجعَها قبيل انتهاء العدة ثم يطلقها ثانية للإضرار بها) واحتاط بإشهاد الشاهدَين العدلَين المؤمنَين ولم يُخْرِجها فإن الله تعالى يجعلُ له مخرجاً من اسباب الطلاق، او بعد الطلاق إن كان قد حصل، ويرزقه من وجهٍ لم يكن في حسبانه. وعاقبة التقوى عامة أي أن تقوى الله تعالى سبب لتحقيق وعده بالمخرج والرزق من حيث لا يحتسب العبد. واما التوكل على الله تعالى اي يسلم أمرَه إليه تعالى أي يلتزم بشريعته ويفوّض أمره متبرّئاً من حَوْلِه وقوّته فإن الله تعالى يكفيه في الدارين فهو القدير على تحقيق وعده وإنفاذ امره وقد جعل لكل شيء ما يناسبه من تقدير وتوقيت فعلى المؤمن التسليم للمقدور والتوكل بأنتظار الفرج.

وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (4) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (5)

وتكون عدة الْمُسِنّة (التي يئست من المحيض اذا حصل ثمة ريبةٌ في انقطاع الحيض وحصول الاستحاضة، وهي حالة نزف خفيف متقطع) ثلاثة اشهر وكذلك عِدّةُ اللائي لم يَحِضْن. اما الحوامل فعدتهن ان يضعن حملهن إمّا بالولادة او اذا حصل إسقاط قبل موعد الولادة المعروف. ثم يؤكد المولى على التقوى وجعلها سبباً لتيسير الامور. ووَعَد المتقين بتكفير السيئات وتعظيم الأجر.

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى (6) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (7)

من سُبُلِ التقوى في المعتدّة السكنى في أحد أجزاء سكن الزوج الاعتيادي وهذا يفهم من قوله تعالى: (مِن وُجْدِكم) والوُجد هو السعة. ونهى عن أي إيذاء كما سبق بيانه (من قبيل المراجعة قبُيل العدة ثم الطلاق لتبقى المرأة في عدة ثانية إضراراً بها وتضييقاً لتتنازل عن بعض حقوقها). وامر سبحانه بالنفقة على الحامل المطلقة حتى تضع الحمل. والمقصود هنا الطلاق البائن الذي لا رجعة فيه لأن الطلاق الرجعي يوجب النفقة للحامل وغيرها. فإن وضعت الحمل فقد انقضت عدة المطلقة سواء بتطليقة واحدة رجعية او في الطلاق البائن فالحالتان توجبان اجور الرضاعة عن ارضاع المولود. وهنا تُعطَى المطلقةُ أُجورَ الرضاعة المتعارف عليها فإن

اصرّت على اكثر فللوالد ان يسترضع امرأة اخرى وفي هذه الحالة على الأُمّ إرضاعُ الطفلِ أوّلَ حليبِها لضرورته للطفل لاختلافه في القوام والعناصر وتسمى هذه (ألْلِبأ). فإذا طالبت المرضعة اجوراً مساوية لما طلبته الام فالام أحق بالاجور وارضاع طفلها. وفي كل هذه المساومات امر تعالى ان تكون الامور في حدود التساهل والعرف السائد من غير إضرار او اذى. وامر تعالى بالنفقة بما يناسب حالة الاب فعلى الموسر ان يبذل من سَعَتِه من غير إقتار. واما ذو الرزق المحدود فعليه النفقة على افضل ما يستطيع من غير أن يرهق حاله. وقد وعد المولى عز وجل هذا الصنف الذي اصابه العسر ان ييسر عليه بعد ضيق المعيشة فليحسن الظن بالله تعالى فينفق من غير اقتار.

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (8) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (9) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (10) رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (11)

يخبر المولى عز وجل عن أهل قرى عتَوا أي جاوزوا الحد في الإستكبار على أمره تعالى ولم يتبعوا رسله وبذلك تمردوا فحوسبوا حساباً أحدث عندهم شِدّةً وضيقا وظهر لهم استحقاقهم العذاب الشديد بإقامة الحجة عليهم. فلما ذاقوا العذاب المتحصل من عملهم تحسروا على ما فرطوا وهذه الحسرة هي (وبال أمرهم) اذ أذاقتهم الخسارة ومعاينة عذاب الآخرة. وبعد الإخبار عنهم يوجِّه المولى تعالى من

استقامت قلوبهم وهم أُولو الألباب أي سليمي الفطرة إلى تقواه فقد انزل الله تعالى الحجة بمعرفة القرآن وسُنّة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فكانت سبيلاً للخروج من ظلمات الشرك الى نور الوحدانية فمن استقام على الايمان والعمل الصالح فالجنة مأواه في خلود، تفضلاً من إحسان الله تعالى. وهل جزاء الإحسان إلّا الإحسان، وفي هذا بيان لعِظَم ثواب الله تعالى وفضله ورحمته.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (12)

السموات السّبْع عِلْمُهُنّ عند الله تعالى فهو الواسع العليم. وفي التفاسير لم يعط أحد من أمثال إبن عباس رضي الله عنهما وصفاً لهن عندما سئلوا عنهن. كما أن علوم الفضاء لم يمكنها أن تدرك كنهها، قال تعالى في سورة الذاريات: ((وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاها بِأيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)) وأما عن الأرضين السبع فقد قيل هي القارات الخمس وقطبا الكرة الأرضية. ولا يستحسن أن نستقري أكثر من ذلك لأن المهم أن نعلم ان هناك بين السماء (أي مصدر الاوامر الربانية) وبين الارض (التي يجري تنفيذ الامر لمن عليها) ملائكةً تقوم بما يأمر الله تعالى به ليتحقق للانسان ما لله من قُدرة على كل شيء ومن علم لا يغيب عنه شيء.

سورة التحريم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (1)
قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (2) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى
بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا
نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (3) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ
قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ
ذَلِكَ ظَهِيرٌ (4) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ
قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (5)

حصل أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعد إحدى زوجاته بوعدٍ (قيل بأنه سوف ينقطع إرضاءً لها عن القرب من جاريته مارية أُمّ ولده إبراهيم او عن شرب عسل من إحدى زوجاته، فرأى ارضاءها بهذا الانقطاع). وبعد ذلك اخبرها بمن سيخلفه على امور المؤمنين. ولم يشأ أن يطلع غيرها على حديثه معها. وكان المفروض ان تحتفظ بالسر ولكنها افشته الى زوجة أُخرى كانت مقربة إليها. ومن تقدير الله تعالى ليكون ثمة تشريعٌ في تَحِلّة الأَيمان المتعلقة بالإنقطاع عن مباح أظهر المولى عز وجل هذا الإفشاء لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي بدوره ساءل الزوجة التي افشت السر عن ذلك لأن السرّ الذي قال لها لا تخبري أحداً به هو الخلافة من بعده وهذا مما ينبغي أن لا يُفشى. وهكذا اعتبر الفقهاء ان الذي يحرم على نفسه حلالاً فكأنه قد حلف يمينا، اذ لم تتغير صفة الحلال، فعليه كفارة اليمين

الواردة في الآية التاسعة والثمانين من سورة المائدة. ثم انه صلى الله عليه وآله وسلم إعتزل النساء في بيت مارية قريباً من شهر لإظهار خطورة ما حصل وضرورة التوبة عن الفعل. ثم نزلت الآيات بهذا الخبر مبينة قدر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وان الله تعالى كان سيبدله ازواجاً خيراً من كل زوجة من زوجاته أي انه لو طلقهن لأعطاه بديلة لكل منهن زوجةً تَفْضُلُها. وهذا ما لم يحصل فقد كُنّ عند حُسن الظن بهن في الالتزام بالأمر والنهي. ولم يطلِّق منهن واحدة حتى وفاته صلى الله عليه وآله وسلم. وأرجح الأسباب في التفاسير عن سبب نزول هذه الآيات وما جرى من تشريع هو انه صلى الله عليه وآله وسلم من بعد وعده بالانقطاع عن الجارية او العسل سارر عائشة رضي الله عنها بخلافة ابيها من بعده وخلافة ابي حفصة بعدهما فأفشت السر لحفصة رضي الله عنها مما جعله يغضب ويعتزل النساء تسعة وعشرين يوماً فنزلت الآيات في إعتبار الوعد بالإنقطاع عن حلال أو مباح يَميناً، وفي بيان قدر الرسول ووجوب طاعته صلى الله عليه وآله وسلم، وفي ما جعله الله تعالى مخرجاً في احوال شدتهم من كفاراتٍ. مما يشير الى صفة الرحمة التي تجلّى بها الرحمن على عباده.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (6)

وقاية النفس هي نَهيُها مع أول بادرة منها نَحو الهوى الضال. فالمؤمن يبدأ بنفسه في الاصلاح. وخير الاصلاح هو تقوى القلب والجوارح مع طلب العون من الله تعالى للسلوك في تقواه التي هي وقاية المؤمن من النار ويتم ذلك بالاسترشاد بأُولي العلم الصادقين ليستمدّ منهم المعرفة بالله تعالى وما يرضاه وصحة عبادته. ثم

وقاية الأهل تأتي عن طريقين أولهما الاقتداء برب العائلة في صلاحه والثاني بالتأديب والتعليم. وقد روى الامام احمد في مسنده عن سَبُرة رضي الله تعالى عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((مُروا الصبي بالصلاة اذا بلغ سبع سنين فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها)). وقال الفقهاء: وهكذا في الصوم رغم ان سن التكليف تكون بعد البلوغ الّا أن البدء بالسابعة ثم العاشرة بلا تهاون تمرين لهم لكي يرى الاستمرار عند البلوغ يسيراً سهلاً. فيكون سلوكه مع الشهوات اقوى عليها مما لو بدأ مع البلوغ بالصلاة والصوم. ووعيد الله تعالى في النار التي وقودها الناس والحجارة مَحَكٌّ وتمحيصٌ لمن يسمع او يتلو هذه الآية هل يشعر المؤمن بمقام الله تعالى فيخافه؟ وبوعيده فيحذر الوقوع فيه؟ اما وقود هذه النار فلم يبين المولى عز وجل هل هي نار خاصة يختلف وقودها عن غيرها ام أن جهنم هي كذلك ام أن الحصب (المذكور في الآية الثامنة والتسعين من سورة الانبياء وهم الكفار) ليس وقوداً بل متقداً؟ المهم ان ينجو المؤمن من كل نار بإذن ربه بأن يتَّقِيَها ويَقِيَ أهله منها بمراقبة السير على الشريعة وهي الصراط المستقيم الذي يبعدهم عن النار وعن غلظة وشدة من عليها في ما يؤمرون به.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (7)

ها هم أهل النار الذين كفروا بآيات الله ونعمائه؛ فمُنكِرٌ، ومشركٌ، ومنافقٌ. لا يُقبل منهم عذر، كما لم يلحقهم ظلم فقد جاءهم النذير ولكنهم عملوا ما استوجبوا به هذا المصير.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ

يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (8)

جَمعتْ هذه الآية أربعَ بشاراتٍ للتائب واشترطت النصح فيها فالتوبة النصوح هي التي لا توبة بعدها حتى يلقى العبدُ ربَّه سبحانه. وقد قطع له أن يُكَفِّر عنه سيئاته. وتكفيرها تغطيتها ويقصد به حجب وجودها حتى كأنها لم تكن فلا يبقى عليها حساب ولا يأتي منها خزي ولا تبقى في صحيفة التائب ولا توضع في الميزان. وثانياً؛ دخول الجنات. وثالثاً؛ النجاة من الخزي يوم القيامة فلا خزي مع صحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ورابعاً؛ نور المقربين واصحاب اليمين يسعى بين أيديهم وبأَيمانهم. واذا إفتقد المنافقون نوراً ويقال لهم ((ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً)). عندئذ يقول التائبون: (ربنا أَتْمِمْ لنا نورنا) إذ تملكهم خشية أن يكون عليهم بقية من ذنوب لم يكونوا قد تابوا عنها او لم يندموا عليها فيطلبون المغفرة لتمام النور حتى يشرق عليهم نور الجلال الرباني وسرورُ رِضوانِه. وهذا هو الكمال في رضوان رب غفور كريم والقربِ منه.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (9)

الجهاد ضد الكفار يستوجب إعداد السلاح والعُدّةِ والعدد ما استطاع المؤمنون حتى يؤمّنوا التفوق. ثم التوكل على الله تعالى حتى تكون كلمة الله هي العليا. واما الجهاد ضد المنافقين فقد قالوا بألسنتهم كلمة الإيمان وأدَّوا الزكاة ولكن تقام عليهم الحدود مع الردّ على تصرفاتهم بالقول الغليظ والوعيد البليغ لكي يلتزموا

بما يلتزم به المؤمنون، وليمتنعوا عن صَدِّ الناس عن الهدى، ولِيحذروا من إنكشاف نفاقهم. وقد بشرهم المولى العزيز بجهنم مأوىً ينتهون اليه وبئس المصير.

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10)

صلة الزوجية حصلت بموثقٍ من الشريعة حكمت الزوجين بالصحبة والمشاركة. وأما صلة القربى أو المصاهرة فقد حصلت بما قدر المولى تعالى. وهذه الصِلات إذا خلت من الإيمان لا تضر ايمان المؤمن ولا تنفع الكافر في كفره. اما الصلة الصحيحة فهي رابطة الايمان بالله تعالى وطاعته. وهذا مثل من هذا الواقع اذ ان زوجة سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام كانت تفشي أسرار الذين آمنوا به فتنقلها للكفار ولهذا قالوا له ((وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا)). واما زوجة سيدنا لوط عليه السلام فقد اخبرت قومها الكفار بضيافة ضيوفه ولم تكن تعلم انهم من الملائكة جاءوا بالعذاب. وفي التفاسير اجمعت الاقوال على عصمة ازواج الانبياء من الزنا لكرامتهم على الله تعالى فلا تُؤَوَّلُ كلمة الخيانة هنا الى هذا الفعل. وهكذا لم تغن صلة الزوجية عنهما شيئاً اذ فرقهما المولى عز وجل عن زوجيهما في الحياة الدنيا فكانتا مع المعذبين ولم تنفعهما الصلة. وفي هذه تزكية لأُمّهات المؤمنين (زوجات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم). اذ ورد ذكرهن في أول السورة فكان أن استغفرن مع توبة نصوح وردت بعد قصتهن. ومات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهن في عصمته خلاف ما حصل لزوجتي نوح ولوط صلى الله عليهما وسلم. كما ان الله سبحانه وتعالى امر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ان لا يتبدل بهن من ازواج كما جاء في الآية الثانية والخمسين من سورة الاحزاب. كما في المثل تحذير

لنساء اهل الصلاح بأن لا يخسرن منازل أزواجهن يوم القيامة بالتخلف عن حُسن العبادة وعدم الصبر على المكاره.

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (12)

إمرأة فرعون هي في التفاسير آسية بنت مزاحم آمنت بالله تعالى بعد أن رأت آياته في رسالة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام فلما علم زوجها فرعون أمرَ بتعذيبها لترجع عن ايمانها ولكنها فضّلت النجاة من فرعون والقوم الظالمين وطلبت بيتاً في الجنة فرزقها المولى جل جلاله الشهادة في سبيله وجعلها في امثال الذين آمنوا مع اختها في الايمان مريم بنت عمران عليهما سلام الله التي حفظت عفافها من كل دنس فكانت حرة من الأهواء والشهوات وكافأها المولى عز وجل بأن أرسل روحه (سيدنا جبريل عليه السلام) بنفخةٍ جعل الله تعالى فيها آية لتكون سببا لمنحها ابنا هو سيدنا عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ولتكون امه الصديقة آية للناس في عفافها وبراءتها وطاعتها وايمانها بكلمات ربها وكتبه أي التوراة والزبور وما شرع من احكام وعبادة، وفي إيمانِها بالقدر الذي كتبه المولى لها. فكانت من القانتين أي الطائعين. وهي قبل ذلك كانت من نسل سيدنا هارون عليه الصلاة والسلام وكان أبوها من عُبّاد زمنه. وتولى سيدنا زكريا عليه الصلاة والسلام تربيتها عند اختها الكبرى زوجته ام يحيي عليه الصلاة والسلام. وهكذا جعل الله في هذا المثل للمؤمنين اسوة حسنة بالصبر على الايمان في الفتن والاذى. وبالصبر على المقدّر

من لدنه من غير اعتراض أو شكوى لان الصبر يحمل حسن الظن بالله تعالى على ما كان من مشيئته.

سورة الملك

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (4) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (5)

المولى العظيم، بقوله ((تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)) يبيّن عظيم صفاته مُنوِّهًا عن تفرده في الْمُلك مالكاً إياه في سلطته ثم يوجه تفكير عباده المؤمنين الى تعظيم ربوبيته وقدرته على كل شيء وأنه قدَّر لعباده الموت بعد حياةٍ منحهم إياها وامتحنهم فيها ليميز المحسن في عبادته عن المسيء الى نفسه عندما يسيء الى نعماء ربه ويتصرف خلاف رسالته. وهذا لن يضر الله شيئاً فهو العلي المنيع في عزته عزيز وغفور حيث بيّن (بعد ذكر سبب الحياة) عزته في خلق سبع سماوات طباقاً أي متتابعات السموّ بعضها فوق بعض ولا يعرف من أقوال المفسرين وأحاديث الاسراء تفاصيل اكثر فالذي اراده المولى عز وجل هو أن يَعرف المؤمنُ نهاية الكمال والإحكام وحسن النظام في ابداع السموات والارض. وهنا خص المولى جل جلاله السماوات التي لا يرى بصر الانسان فيها غير الإلتئام فلا ثغرة تخترقها ولا فطور في فضائها فإذا كرر النظر ينقلب البصر حسيراً أي متعباً لم يحصل الا على الاعجاب والتعظيم. ومن العجز عن الادراك يعلم المؤمن افتقاره في مواضع العظمة الربانية.

وها هي مصابيح السماء نجوماً وكواكبَ لا نرى منها سوى ما يسميها المولى تعالى زينة ورجوماً للشياطين وهي الشهب وتكون من جنس المصابيح عندما تخترق طبقة الهواء بسرعة فتتَّقِد من الاحتكاك حتى تتناثر في جو الأرض او تسقط قِطَعاً على الارض على شكل نيازك. وقد جعلها المولى رجوماً يرجم بها من يحاول من الشياطين استراق السمع. وقد قال تعالى في سورة الصافات ((إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ)). ولا يعرف مدى فعل الشهب هل هو المنع او حرق وقتل المتمرد منهم؟ إلّا ان لهم عند الله تعالى عذابَ السعير وهو عذاب نار هائجة اللهب تكون حاضرة مهيأة يوم لا يستطيعون التمرد على حكم العزيز المقتدر.

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (6) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (7) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (9) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (11)

وعلى النقيض من موقف المؤمن أعد المولى تعالى جهنم للكافرين يُلقَون فيها فيسمعون شهيقها أي حسيسها المنكر العالي كأشدّ صراخ مع فوران نيرانها وتقاذُفِ وقودها من شِدة حرها. وهنا تأتيهم حجة ربانية بأن عملهم سبّب لهم هذا العذاب وذلك عندما يسألهم خَزَنَةُ جهنم: ألم يأتكم نذير؟ والْخَزَنَةُ يعرفون الجواب، لأن الله تعالى من عدله لا يعذب حتى يبعث رسولا، فيكون السؤال من قبيل مواجهتهم بما لا يستطيعون إنكاره. فيكون جوابهم بعد الإقرار بالرسالات بأنهم كذّبوا الرسل واتّهموهم بالضلال الكبير. ونسبوا ذلك لعلمهم الضال الذي أصَمّ اسماعهم عن

الحق وأوقف عقولهم عن النصح به (ومثالهم فلاسفةُ الضلال) فلا ينالون إلا الإستهانة والمقت بكلمة (سُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ) أي بعداً سحيقاً عن رحمةٍ لم يطلبوها في الدنيا.

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (12) وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (13) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14)

تتمثل خشية الله تعالى من قِبَل عباده المؤمنين اذا كانت بالغيب بأن لا يرتكب معصية اذا خلا إليها فهو في خلوة مع ربّه ولا يكسل عن فرض أو نافلة فيكون أدبُه في ذلك إحساناً. أي يعبد الله تعالى كأنه يراه. وقد وعد الغفور الكريم هؤلاء بالمغفرة والكرم بأجر اكبر مما يتوقعه العبد، لأن الكبير عند الله تعالى يناسب عظمته. وينبه المولى الجليل عباده الى اطلاعه على السر والعلانية من القول أي الكلام الذي يبيته العبد قبل أن يجهر به فهو في صدر العبد ومعلوم عند ربه مع الوساوس الأُخرى ولا عجب في ذلك فالخالق اعرف بخلقه يعلم بلطفه الخفيّ ما يعتمل في الصدور وبخبرته بمدى استعداد عبده لطاعته.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15)

يذكّرنا الله تعالى بما مكن الإنسان به من الأرض إذ جعلها ذلولاً أي ذلها بيّنٌ لا تستعصي على استغلالها والتنقل فيها بين قاراتها ومناكبها أي جوانبها وطرقها وتضاريسها من جبال وتلال وسهول وأودية، وما جعل فيها من دِلالاتٍ وموارد للرزق ليشكره العباد بالكسبِ الحلالِ فيزدادوا من الحسنات يوم النشور إليه يوم

العرض على الله تعالى ليبقى في ذاكرتهم لقاؤه وتكون تقواه هادية تنير مسالك الحياة إلى الفلاح.

أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (16) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (17) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (18)

خسفُ الأرض قديم معروف لكل جيل من أجيال البشرية. فلا عجب ان يحدث في أي مكان او زمن. وكل ما يملكه الانسان أزاء هذه الكوارث هو انتظار ما يحصل بعدها اذا ما حدث خسف أو جاءت ريح عاصف فيها حصباء لا يتمكن الذي في العراء من إتقائها. وكانت قريش تشير الى الله تعالى بقولهم: (مَن في السماء)، وهنا يخاطبهم بما يشيرون إليه متسائلا هل أمِنوا على انفسهم من أقدارٍ لا قِبَل لهم بها؟ وهو تعالى قادر على ان يرسل عليهم عقاباً من باطن الارض بالخسف بأن تمور (تتحرك). ومن السماء بالحصباء متوعداً إياهم بالنُّذُر أي بعاقبة ما حذرهم منه وحذر من مصير الهلكى قبلَهم فكيف كان نكيره أي تغييره لمنكر أُولئك بما أهلكهم.

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (19)

يدعو الخالق سبحانه لتدبر آية من آياته في خَلقِه وخلق ما يصلح لكل صنف منها فلْينظروا الى ما سخر للطير (من غير الدواجن) في جو السماء لا يقدر غيره تعالى على حفظهن في الجو. فجعل في حركة اجنحتهن وتسخير التيارات الهوائية لهن وخفة أجسامهن سبباً للإرتفاع بالأجسام عن السقوط على الارض انه العليم

بما يخلق والعليم بكل شيء عن بصيرة لينفذ أمره وتدبيره. وتدعونا هذه الآية لِتَبيُّنِ رحمة الله تعالى بقوله ((مَا يُمْسِكُهُنَّ إلاّ الرَّحْمنُ)) إذ جعل من مزية طيرانها سببا لنجاتها من الحيوانات الطامعة في أكلها.

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (20) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (21)

يغتر المشركون بما يمنحهم المولى عز وجل من نِعم في فطرتهم ومحيطهم وبما ينصرهم. وينسبون لغيره دوام النعمة والنصر والرزق. فأنكر المولى عليهم ذلك وبيّن بأنه المعطي فلا يمنع عطاءه أحد، وإذا منع فلا يعطي أحدٌ ما منعه. ولا يقي أحدٌ غيرُه من السوء ولا يصرفه غيره عنهم ولا أحد غيره يرزقهم ان امسك عنهم الرزق ومع هذا تمادَوا في عبادة الاوثان والاصنام ولجّوا في عُتُوِّهِم أي استكبارهم عن الحق ونفورهم بإدبارهم عنه. ويقارنهم سبحانه بالمؤمنين فيقول:

أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (22)

هذا تفريق بين واقع الكافر في ضَلالٍ وتَيْهٍ عن الحق كأنه قد سقط على وجهِهِ لا يدري اين يتوجّه ولا كيف يتصرف. وبين واقع المؤمن الذي استبصر بما ينفعه ويضره فاستقام على طريق واضح. فالإمام احمد روى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قوله: "قيل يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم؟ فقال ((أليس الذي أمشاهم على أرجلهم قادراً على أن يُمشِيَهم على وجوههم؟)).

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (23) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ

كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (26) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (27)

بعدما بين المولى جوانب من القدرة التي لا يملكها غيره، أراد ان يبين رسوله صلى الله عليه وآله وسلم للمكذبين اثره في كل حياتهم من البدء بالخلقة الى المحشر اليه مع بيان نِعَمِ الحواس والفؤاد لأجل شكره ولعبادته التي هي سبب خلق الجن والانس. وخصّ الحواس التي يدخل بها العلم أي السمع والبصر الى الفؤاد ليوجِّه الشكر على هذه النعم وقليلاً ما يفعلون ذلك بل ينسبون الاثر لشركائهم وهو سبحانه الذي خلقهم ذريةً بعضُهم من البعض فبثهم في الأرض وسيحشرون اليه. وبدلاًمن الإستعداد لهذا النذير قالوا إستهزاءً: متى هذا الوعد؟ أي موعد العذاب فبين المولى تعالى أن علمه عنده وقد أخبرهم لينذرهم به. فلما حصل وشاهدوا ما وُعِدوا به زلفةً (أي قريباً) منهم سيئت وجوههم أي عَلَتْها الكآبة وظهر اثر المساءة بما غشيها من ذِلّة وقَتَرٍ (أي بدت كأنها مغبرة) ويقال لهم هذا الذي كنتم تدّعون إنكاره فاستعجلتم به استهزاءً وتكذيباً.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (28) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (29)

كان المشركون يتربصون برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبمن معه أن يهلكوا. فعليهم أن يعلموا إن أمات الله تعالى رسوله ومن معه فإلى الجنّة وإن رحمهم فأجّل موتهم فإلى نصرهم. لكنْ من يملك أن يجير الكافرين لينقذهم من عذاب أليم. لن يحصل لهم ذلك بغير الايمان والتوبة الى الله تعالى فهو الرحمن الذي آمن به

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومعه من إتبعه وتوكلوا عليه وسيأتي الموعد الذي يعلم الكل فيه من هو في ضلال واضح لا يلتبس على احد.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (30)

الماء الغائر هو الذي يذهب في الارض فلا يردُّه بشر. والماء الْمَعين هو الذي حفظه المولى عز وجل في باطن الارض وأساله من ينابيعه أي مَعِيناً تراه العيون على وجه الارض. فينبه المولى هؤلاء الكفار الى نعمته بإسالة الماء وتصريفه اليهم للزرع والسقاء وغير ذلك لِيُوَحِّدُوه وينبذوا اصنامهم التي لا قدرة لها على أن تأتي به.

سورة القلم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ (6) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (7)

ن، تقرأ: نون. ولم يرِد لها تأويل مستند إلى السنة النبوية وذلك مثل (ق) و (ص) في سورتَيْ قاف وصاد وما بعدهما. ثم اقسم المولى عز وجل بالقلم إسماً مطلقاً؛ منه ما كُتب به اللوح المحفوظ وهو قلم القدرة الربانية بأمر الله تعالى. ومنه ما تَكتب به الملائكة من أعمال المكلفين، أي ذوي العقول بالغي سن الرشد، ومنه ما يكتبه الكُتّاب من بيان العلم النافع والفوائد التي لا تُعدّ ولا تُحصى فيؤجَرون عليها، ومنه ما يكتب به الناس من مباح لا إثم فيه، أو من ضلال يُحاسَبون عليه. فقد علَّمَهم الكتابة ليبلوهم في ما آتاهم. وبعدما أقسم سبحانه بالقلم وما يسطرون بيَّن قَدْرَ سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في حمل الرسالة وتبليغها من غير أن يكون كاتباً أو يخط بيمينه حرفاً حتى قالوا (ساحر أو مجنون)! فأقسم له المولى بأنه بنعمة منه تعالى رفع من عقليته وعلميته صلى الله عليه وآله وسلم حتى كتب له أن يُذكر مرتفعاً في الْخُلُقِ العظيم بين الخلائق الى يوم الدين. وله اجرُ كلِّ ذلك اجراً غير ممنون أي غير منقطع. وأظهرت سجاياه في مكة والمدينة ما تحلّى به من خُلُقٍ عظيم مع ربه تعالى بالأدب والطاعة والحياء والذكر والشكر والصبر. ومن خُلُقِه مع الناس كما روى ابن جرير عن سعيد بن هشام قال: "أتيتُ عائشةَ أُمَّ المؤمنين رضي الله

عنها فقلتُ اخبريني بخُلُق النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: "كان خُلقُه القرآن امَا تقرأُ: ((وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ))؟ يأخذ العفو ويأمر بالعُرف ويُعرِض عن الجاهلين". وسيأتي في سورة المزمل ما ورد من تعريف بِخُلُقِه إن شاء الله تعالى. وكل صفاته التي وردت في بشارات الكتب المنزلة وفي سيرته في مغازيه ودعوته وكرمه ولِيْنِهِ وخِفض جناحه لأهل بيته وأصحابه، ورعاية الضعيف، دِلالاتٌ على الخُلُق العظيم. وبه تمَّت مكارم الاخلاق كما روى الامام احمد عن ابي هريرة رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ((إنَّما بُعِثتُ لِأُتَمِّمَ صالحَ الاخلاقِ)). هذا ما كان عليه لَمّا نسب إليه المشركون في مكة صفة الجنون فقالوا: مُعلَّم مجنون! فوعده المولى تعالى وتوعدهم بأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم سيبصر مصيرهم عندما يَلقَون جزاءهم. وبذلك يظهر أيهما الذي أصابه الإمتحان بفتنة أدخلته النار. أي اجدر به ان يتسلط عليه الشيطان فيصده عن الحق. والمقصود بذلك أنه يوماً ما ستظهر حقيقة الضال وحقيقة المهتدي. فالله تعالى هو الذي يحكم بالحق لعلمه الحق بمن ضل وبمن اهتدى.

فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (8) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9) وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (16)

كان من سخف كفار قريش ان طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يترك تسفيهَ آلِهَتِهِم وأن يحترمها، ثم لِيَعبُدِ الله تعالى كيفما يشاء! وبالمقابل وعدوه بأن يكفّوا أذاهم عنه. أي يصانعهم فيتهاونون معه! فوجّهه تعالى بأن يتجاهلهم

ويتجاهل أيَّ مُكذِّب كثيرِ الحِلف يتّبع الباطل ويريد أن يمرّرَه بالأَيمانِ الكثيرة. وشأن هذا حقير بين الناس (مَهين). ومن صفات هذا المهين يتكلم بالغِيبة؛ بها يَعيب على الناس ليزكي نفسه، وهذا هو الهَمْز، أي الطعن في الناس. ويمشي بالنميمة أي يُحَرِّش بين الناس بنقل الحديث الذي يفسد علاقاتهم بدلاً من الإصلاح. وقد روى الامام احمد ان حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: "سَمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ((لا يدخل الجنة قتّات))"، أي نمّام. ويشمل ذلك الذين يترقبون الناس ويتلصّصون على أقوالهم لرفعها الى الحكام لإلحاق الاذى بهم. فقد روى الأمام أحمد عن اسماء بنت يزيد بن السكن رضي الله عنها قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((ألا أُخبركم بِخِيارِكم))؟ قالوا: بلى يارسول الله. قال ((الذين اذا رُؤُوا ذُكر اللهُ عز وجل)). ثم قال ((ألا اخبركم بِشِرارِكم؟ المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأَحِبّة الباغون للبُرءَاءِ العَنَتَ))، أي يرفعون اخبارهم الى من يوقعونهم في أمْرٍ به مشقّة. ومن شأن هذا الْمَهين انه يمنع الخير أي ينكر حق الناس عليه ويمنع ما عنده من الخير عنهم، مُعْتَدٍ: يتجاوز حدود العرف في المعاملات، اثيمٌ في إستحلال الحرام، عُتُلّ، أي غليظ الطبع جاف لا يلين الى حق او خير. ثم وصفه تعالى بعد كل هذا بالزنيم؛ وقد ورد لهذه الصفة اكثر من معنى في التفاسير وأرجحُها ما ورد فيه حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رواه الامام احمد عن عبدالرحمن بن غنم قال: "سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن العتلّ الزنيم قال ((هو الشديدُ الخُلُقِ، الْمُصَحَّحُ، الأكولُ الشَّروبُ الواجدُ الطعامَ والشرابَ، الظَّلومُ للناس، رحيبُ الجَوف)). شديد الخُلُق: الفَظّ. المصحّح: صحته جيدة. رحيب الجوف: واسع البطن. والزَنَمَةُ في اللغة تطلق على علامة في

المعزى كالقُرْطِ في أُذُنِها. أي يعرف الحلاّف الْمهين بتلك الصفات كما تعرف المعزى من زَنَمَتِها. ومثل هذا لا يطاع أن كان ذا مال وبنين: حظه في الدنيا دعاه للتكذيب فإذا سمع آيات الله قال: "اساطير الاولين"! وبهذه الصفات يريد ان يصف سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم بالجنون. وتوعّد المولى عز وجل هذا المهين بعلامة جرح او أثر حرق على أنفه.

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (18) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (21) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (22) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (23) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (24) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (25) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (26) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (28) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (30) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (31) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (32) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (33)

الجنة المقصودة في هذا المثل هي بستان، قيل كان محصوله عنباً. وقد ابتلى المولى جل جلاله كفار قريش كما ابتلى اصحاب هذا البستان فقد ارسل تعالى بين ظهراني قريش رحمة مزجاة ونوراً هادياً الى سعادتَيِ الدنيا والآخرة في بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. فبدلاً من الشكر قابلوا النعمة بالتكذيب والعناد فكان مَثَلُهم في الخسارة مَثَلَ اصحاب ذلك البستان، وهم ثلاثة أخوة ورثوا البستان من أبيهم وكان من أهل الكتاب يعرف حق الله تعالى في مالِه ثم يتصدق بما يزيد عنده

بعدما يدّخر ما يتطلبه البستان من مال وما يحتاج العيال من نفقةِ سَنَةٍ. وكان المساكين في بلده يعلمون موعد جني العنب فيقصدون البستان لينالوا ما يقسم لهم. وكان اولاده الثلاثة يعلمون ذلك ولكن لا يرضونه له اذ يريدون ان يوفره ليتسع مالُه. فلما آل اليهم البستان بوفاة أبيهم، وحانت ليلةٌ يجنون الثمار صباحَها، أقسم هؤلاء الغافلون ان يسبقوا المساكين فيصرموا الثمار مع الفجر ليأخذوا الحاصل مصبحين قبل مجيء المساكين فلا يتركون لهم شيئا. كما لم يقولوا: (إن شاء الله)، استثناءً مِن قَسَمِهم. فخيَّبَهم المولى تعالى تلك الليلة بأمرٍ جعل به المحصول مُسودّا كالصريم أي كالليل بينما كانوا في نومهم بعيداً عنه. ونفَّذوا القَسَم بأن سبقوا المساكين وهم يتحدثون في ما بينهم حديثاً خافتاً بأن الوقت لصالحهم فلا يصل اليهم فيه مسكين. ومعهم عُدّة القطف مقتدرين على حردهم، أي مقصدهم. فلما وصلوا بستانهم ورأوه في حالته المزرية ظنوا أنهم سلكوا غير طريقهم. ولكن لَمّا تأكدوا بأنهم لم يخطئوا الطريق قالوا "بل نحن محرومون"، أي لم يبق لهم شيء يكفيهم. وهنا ذكّرهم أوسطهم بما قال لهم عند تدبيرهم الضال: (لولا تسبحون)، أي تذكرون رضاء الله سبحانه. قالوا بعد فوات الأوان "سبحان ربنا إنا كنا ظالمين". وهو تعالى في غنى عن تسبيحهم ولكن يقبل ندمهم وتوبتهم. وتلاوموا في ما بينهم مُقِرّين على انفسهم بالظلم في منع الفضل عن المساكين. ورجعوا الى الله تعالى في رغبة لإرضائه رجاءَ أن يبدلهم خيراً منها. وجاء في التفاسير أنهم أحسنوا وتابوا وابدلهم الله تعالى خيراً منها. كذلك العذاب في منع حق المسكين وذوي الحاجات. وعذاب مثل هذا العمل في الآخرة لمن لم يتب ويعمل صالحاً، اكبر.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (34) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا
لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ
(38) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (39) سَلْهُمْ أَيُّهُمْ
بِذَلِكَ زَعِيمٌ (40) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (41)

المتقون يفوزون بجنات لا تلحقها آفة مما تتعرض له جنان الدنيا كالذي حصل للبستان الذي لم يتق أصحابُه غضبَ الله تعالى. فنعيم اهل الجنة نعيم خالد. فهل يستوي الذي اسلم وجهه الى الله وهو محسن مع من استحق غضب الله في كفر او شرك. وكان كفار مكة يقولون بأنهم سينالون ما ينال النبي صلى الله عليه وآله وسلم من العطاء فيما لو صدق ادعاؤه بالبعث بعد الموت. فرَدّ المولى عليهم بأن ذلك من اوهامهم الباطلة فلا يمكن تسوية المطيع بالعاصي. وأن الأمر ليس بإدعائهم بل بحكم الله تعالى في خلقه. فكيف يحكمون؟ أي كيف يظنون. وهل وجدوا ذلك في كتاب من السماء يدرسون اخباره ويتأوّلون الاختيار لهم؟ ام انهم اتخذوا عند الرحمن عهداً مؤكّدا بالأيمان البالغة، أي التي تستمر حتى تدرك يوم القيامة، بأن لهم ما يحكمون لأنفسهم؟ ومن يتكفل ذلك منهم؟ أي به زعيم؟ ام هناك غير الله من يعطيهم ذلك؟ فليأتوا بهم إن كانوا صادقين.

يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ
تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (43) فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا
الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45) أَمْ
تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (46) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (47)

ما ورد ذكره من وعيد فهو كائن يوم القيامة، يوم تكون شدةٌ جاء التعبير عنها بـ(يوم يكشف عن ساق)، تعبيراً عن شِدّةِ الأمرِ. (ويطلق على من يقع في شدة فينشد مهرباً فيرفع الثياب عن ساقيه ليهرب). فيومئذ يُدعى المجرمون الى السجود فلا يستطيعون. وقيل أن ظهورهم عندئذ لا تنثني عقاباً لهم إذ لم يسجدوا في حياتهم الدنيا. وهذا توبيخ لهم تخشع له ابصارهم من الذل. ولتطمين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، توعّد المولى تعالى بأنّ من يكذِّب بالقرآن سوف يستدرجهم إلى العذاب بأن يُمِدَّهم بشتى النِعَم وهو يعلم بثباتهم على التكذيب. وينكر المولى عليهم موقفهم من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي يريد لهم الهدى هل سألَهم أجراً لنفسه حتى يعتبروا ذلك غرامة ثقيلة عليهم؟ وهل كتبوا من الغيب المكتوب في اللوح المحفوظ ما يتحدثون به؟ (ولهذه المعاني مثيل في الآيتين الأربعين والحادية والأربعين من سورة الطور). وفي هذه الآيات عبرة في مَن يُنعِم الله عليه وهو مقيم على معصيته فإنه يُستدرَج لإقامة الحجة عليه.

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (50) وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (52)

الصبر الذي أَمَرَ به الله تعالى هو صبرُ رجاءٍ مستمرٍ حتى يَحكُمَ ما يشاء. والصبر هنا هو الحال المناسب لمواجهة تكذيب كفار قريش قبل الهجرة الى المدينة لمن كان في مثل موقف النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يحمل سلاحاً ولم يؤذن له بقتال. وهذا شأن المؤمن في التسلح بالصبر مع السعي جهد المستطاع لإعلاء كلمة

الله تعالى ونشر الدين والدعاء والامل بالنصر. فالله تعالى قد حكم بنصر جنده. وأمّا سبب التحذير مما كان عليه سيدنا يونس عليه السلام فإنه لم يتغير حُسْنُ ظنه بالله تعالى الا انه غاضَبَ قومَه ولم يصبر على ما يحكم الله تعالى لهم بل تركهم ليركب البحر بعيدا عنهم ولكن الله تعالى قدّر عليه أن يلتقمه حوت فيغوص به في البحر. فنادى في الظلمات ((أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)). وكان قد كظم غمّه مما اصابه وانتظر الخلاص فقد كان في الرخاء يُسَبِّح بحمد ربه وهو الآن في ضيق وشدة فتداركته نعمة الله تعالى ونجا وارسله الى اهل نينوى فآمنوا. وقد سبق الكلام عن ذلك. ويذكر هنا قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما رواه الامام احمد عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: ((لا ينبغي لأحد ان يقول أنا خير من يونُسَ بنِ مَتَّى)) وذلك ان الله تعالى سمع نداءه من أعماق البحار في بطن حوت وكان غضبه لله تعالى لَمّا تجاهل قومُه الإيمان به. وقد ورد شرح قصته في شرح الآيتين السابعة والثمانين والثامنة والثمانين من سورة الانبياء. ثم يبيّن المولى تعالى لرسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم موقف الكفار وحالهم لدى سماعهم الذكر أي آيات القرآن التي تلطم عقولهم وتعصف بقلوبهم فلا يملكون حيالها إلا الغيظ حتى روي أنهم جاؤوا برجل من بني اسد عُرِف عنه انه كان عَيّاناً أي اذا تجوّع ثلاثة ايام (حسب وَهْمِهِم) ثم ينظر الى رجل فيقول (لم أرَكَ اليوم مِثلَه!) يهلِك ذلك الرجل! ولكنه لَمّا فعل ذلك مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيَّب المولى تعالى أوهامهم. اما معنى يزلقونك بأبصارهم فانها نظرة العداوة والغيظ والحنق تكاد تنطق برغبتهم بزوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وهنا للفائدة أَذكر مِن السُنَن ما ينبغي للمسلم أن يعلم للحفظ من العين فقد اخرج البخاري عن ابن

عباس رضي الله تعالى عنهما قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعوّذ الحسن والحسين (عليهما سلام الله) يقول ((أُعيذُكُما بكلمات الله التامّة من كل شيطان وهامّة ومن كل عين لامّة)) ويقول ((هكذا كان ابراهيم يعوذ اسحق واسماعيل)) عليهم السلام. واخرج ابن ماجة عن بُرَيْرَةَ بنِ الحصيب رضي الله تعالى عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((لا رقية إلا من عينٍ او حمّى)). وروى ابن ماجة ايضاً عن ابي امامة رضي الله تعالى عنه قال: "مرّ عامر بن ربيعة بسهل ابن حنيف (وهو والد ابي امامة) وهو يغتسل فقال "لم أرَك اليوم ولا جلدَ مُخَبّأة"! أي جلد فتاة. ويقصد جمال جسمه وصفاء بَشَرَتِه فما لبث ان لُبِط به – أي وقع صريعاً – فأُتي به رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم فقيل له ادرك سهلاً صريعاً. قال ((من تتهمون به))؟ قالوا: عامر بن ربيعة! قال ((علامَ يقتل أحدكم أخاه؟! اذا رأى أحدُكم من أخيه ما يعجبه فلْيَدعُ له بالبركة)). والدعاء: (اللهم بارك فيه ولا تضرَّه). ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بماء وأمر عامرَ ان يتوضأ فيغسل وجهَه ويديه الى المرفقين وركبتيه وداخِلة ازاره (أي ما تحت ردائه الذي كان قد لفه حوله بعد خروجه من الماء). وبعد أن جمع ماء الوضوء والغُسْلِ هذا في إناء امر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يُصب على رأسِ سهلٍ وأن يُكفأ الإناء خلفه. وروى ابن ماجة عن ابي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتعوّذ من اعين الجان واعين الانس فلما نزلت المعوّذتان اخذ بهما وترك ما سوى ذلك". وروى الامام احمد عن ابي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: "أتى جبريلُ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال: "أشتكيت يا محمد؟" قال ((نعم)). قال ((بسم الله أَرقيك من كل شيء يؤذيك

ومن شرِّ كل نَفَسٍ وعينٍ تَشنيك والله يَشفيك بسم الله أَرقيك)). (قوله: تشنيك، أي تبغضك). وروى الحافظ ابن عساكر عن الإمام علي كرم الله وجهه ان جبريل (عليه السلام) اتى النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فوافقه مغتمّاً فقال: "يا محمد ما هذا الغم الذي اراه في وجهك؟" قال ((الحسن والحسين اصابتهما عين)). قال: "صدِّقْ بالعين فإن العين حق أفلا عوّذتَهما بهؤلاء الكلمات؟" قال ((وما هن يا جبريل))؟ قال: "قل: اللهم ذا السلطان العظيم والمن القديم ذا الوجه الكريم وليّ الكلمات التامّات والدعوات المستجابات عافِ الحسن والحسين من انفس الجن وأَعْيُنِ الإنس)). فقالها النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقاما يلعبان بين يديه. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((عوّذوا انفسكم ونساءكم واولادكم بهذا التعويذ فإنه لم يتعوّذ المتعوذون بمثله))". وهنا لا بد من الاشارة الى ان المقدَّر يكون من الله تعالى فقد جاء في تفسير ابن كثير قول الحافظ ابي يعلى الموصلي رحمه الله عن ابي ذر رضي الله تعالى عنه قول رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ((إن العين لتولع الرجل بإذن الله فيتصاعدُ حالقاً ثم يتردّى منه)). تولع: أي يغريها الولع. فهنا تكون إصابة العين متزامنة مع المقدَّر. وقد قال ابن كثير في ذلك: "وفي هذه الآية دليل على العين اصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل". فلا تسبق العين ما قدّر الله تعالى. وبعد ذكر أبصار الكفار ونظرتهم المعادية المغيظة يقولون: (انه لمجنون)! وذلك لِما في قلبهم من زيغ، جعل نظرتهم تتوهم فيه (صلى الله عليه وآله وسلم) الجنون. ويردُّ عليهم المولى عز وجل فيقول: ((وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)). ولا يمكن لمجنون أن يأتي بما ليس فيه اختلاف كما جاء في الآية الثانية والثمانين من سورة النساء.

سورة الحاقّة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (3) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (4)
فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (5) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا
عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ
(7) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (8) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (9)
فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (10) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ
(11) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (12)

القيامةُ حاقَّةٌ، تحق المكذبين بالقارعة وهي واقِعةٌ بهم. هي موعد لإحقاق الوعد والبشائر والوعيد والثبور. ولهذا كان لها شأن عظيم فجاء ذكرها بصيغة التعجب! ((وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ!)). وبيانها ما جاء من ذكر المكذِّبين في كيفية هلاكهم؛ فأما (الطاغية) فهي صيحة طغت على كل صيحة أسكتت قلوب قوم صالح عليه السلام. وأما (الريح الصرصر) فهي الريح شديدة الهبوب شديدة البرد حتى ثقبت افئدة قوم هود عليه السلام، سخرها المولى عز وجل عليهم حسوماً أي اياماً متتابعة نحسة مشؤومة لم تهدأ حتى تركتهم مثل أُصول النخل اليابسة من الجفاف والقِدم بعد سقوطها على الارض. واما فرعون وأقوامٌ قبله كذّبوا نوحاً وإبراهيم ولوطاً عليهم السلام فقد أصروا على معصية الرسل فأخذهم الله تعالى كُلاً بما أعدَّ له من أسباب الهلاك كالغرق في وقتٍ نجا فيه المؤمنون محمولين في الجارية، أي السفينة، وأخذ الظالمين أخذةً رابية، أي تناسب شدة قبائحهم، كما حصل

لقوم لوط عليه السلام. وكانت قصصهم عبرة لمن بلغهم القرآن فصغت إليه قلوبهم السليمة فوعت آذانهم وأوصلت الفهم السليم إلى قلوبهم وذاكرتهم للعبرة فلا تفوتهم ذكراها ولا يندثر أثرها عندهم.

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (13) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (14) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (15) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (16) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (17) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (18)

النفخة الواحدة هي نفخة القيام لرب العالمين حيث تبدل الأرض غير الأرض والجبال فتسوّى بلا تضاريس وهذا ما يحصل يوم القيامة أي إذا وقعت الواقعة. وأما السماء فتبدو وقد إنشقّت بعدما كانت تبدو بلا فطور. قال تعالى في الآية التاسعة عشرة من سورة النبأ ((وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا)). وما بقي منها ليس له تماسك بل أجزاء واهية أي متخرقة متشقّقة. وعلى أرجائها أي جوانبها وأطرافها ملائكة الرحمن وفوقهم حَمَلَةُ العرش. وهذا هو يوم العرض على الله تعالى عرضاً مُفَصّلاً لكل ما بدا وما خفي من الإنسان. أما كيف يمكن أن يصف أحد هذا المشهد وصفاً مماثلاً لمعاني الحياة الدنيا فهذا سيكون من قبيل التشبيه في الأذهان من تجسيم وتجسيد لا يتفق مع قوله تعالى ((لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)). فالله تعالى لا يحتويه عرش. فالعرش رمز لإنفراده تعالى بالحكم. ولهذا يفهم من ذكر هذا المشهد بلفظ القرآن بأن رب العزة بجلاله يريدنا ان نتهيأ لمحو ما نَكرَهُ عرضَه منا بالتوبة النصوح، ثم الثبات على ما نحب عرضه منا يوم لا تخفى منا خافية. وهذا ما يؤخذ مما رواه ابن ابي الدنيا عن ثابت بن الحجاج وهو من التابعين قال: "قال عمر بن

الخطاب رضي الله تعالى عنه: ((حاسبوا انفسكم قبل أن تُحاسَبوا وزِنوا انفسكم قبل ان تُوزَنوا فإنه اخفّ عليكم في الحساب غداً أن تُحاسِبوا انفسكم اليوم. وتَزَيَّنوا للعرض الأكبر))".

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24)

بعد العرض على الله تعالى يكون عرضُ الكتب؛ لكل فرد كتابه. وقد روى الامام احمد عن ابي موسى رضي الله تعالى عنه قول رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ((يعرض الناس يوم القيامة ثلاثَ عَرْضاتٍ؛ فأما عَرْضتان، فجدال، ومعاذير. وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله)). وهنا في هذه الآيات يخبرنا المولى عز وجل عمن يؤتَون كُتُبَهم بأيمانهم وسعادة تلك اللحظة فلا يملكون الا ان يعلنوا سرورهم بعد هَلَعِهم وإشفاقهم من خوف العذاب فيطمئنون ويسمّون عيشتهم: (راضية). أي مرضية لهم وراضون عنها لأنها في جنة عالية فيها ما تناله أيديهم من غير جهد من قطوف ثمراتها. وتهنئهم الملائكة في مأكلهم ومشربهم جزاء اعمالهم في حياتهم الدنيا، فقد دخلوا الجنة.

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (29) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (34) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (35) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (36) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (37)

ثم يخبرنا رب العزة عن حال الاشقياء يومئذ ويتمنى أحدهم أن لم يُؤتَ كتابه ولم يقف للحساب ولم يبعث بعد حياته الدنيا، ويذكر سبباً في شقائه ما خوّله الله تعالى من مال في حياته الدنيا لكي يتخذه سفينة نجاة فلم يفعل ولم ينفعه المال الذي أسرف بتبذيره ولا المال الذي صرفه في غير وجه الله تعالى فلم ينفعه بشيء. ويذكر ما خوّله المولى من سلطان على ان يعدل ويرحم ويوفر الأمن ويُعلي كلمة الله تعالى فيكون سلطانه جهاداً يرضي به ربه العزيز ولكن سلطانه قد فني في غير ذلك فهلك عنه فماذا يكون مصيره؟ وقد نبذ كتاب الله تعالى وراءه فلم يؤمن به أي لم يؤمن بمن أنزَله سبحانه، ولم ينفق من ماله لإطعام المساكين ولم يحض على ذلك فمن أين يجد في ميزانه ما يرجح حظّه؟ ومَن غيرُ الله يشفع له إنْ لم يأذن المولى بذلك؟ وقد صفّدته سلاسل الاغلال التي غلت يديه الى عنقه ليساق الى الجحيم فلا يجد طعاماً فيها الا من غسلين وهو خليط من قذارة وكثافة تأنف الأنفس من منظره. وهو كما جاء في التفاسير: شَرُّ طعامِ اهل النار تقدمه الزبانية لمثل هذا الخاطىء. والعياذ بالله تعالى.

فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (41) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (42) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (43)

ها هي آيات الله تعالى في ما خلق؛ إما تحت أعين الناس يبصرونها، وإما خافية عليهم. وكلها تدل على كماله سبحانه في اسمائه الحسنى فيقسم المولى تعالى بها أي بكل ما خلق من عناصر وملائكة وأرواح بأن القرآن قد جاءهم عن طريق رسول كريم فهم ابصروا سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ولم يبصروا رسولاً

كريماً قبل ذلك هو سيدنا جبريل عليه السلام، فهو الذي جاء به فبلَّغه سيدُنا محمدٌ صلّى الله عليه وآله وسلم اليهم فهو كلام الله وليس بقول شعراء أو كُهّان. فهؤلاء المشركون ما أقلهم إيماناً وعقلاً وفكراً بحيث لم يؤمنوا ولم يتذكروا الإعجاز الذي لم يبْلُغْه أشعرُهم ولا أبرزهم كِهانةً، فهو تنزيل من رب العالمين.

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (48) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (49) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (50) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (51) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (52)

يُذكِّرِ المولى عز وجل ويُنبِّه مشركي قريش الذين قالوا عن القرآن الكريم بأنه شعر او قول كاهن ويوبخهم، فيبين سبحانه بأنه المطّلع المقتدر فلو أن شاعراً او كاهناً تقوّل عليه، أي نسب إلى الله تعالى من عنده بعض الأقاويل، فهل يتركه سبحانه من غير أن يوقفه عند حدّه فيقطع الوتين منه ولا يمكن لأحد منهم أن يمنعه من أمر الله تعالى؟ (والوتين من نياط القلب عرق يتوقف عليه عمل القلب في دوران الدم فيه من البُطَين). وأمّا القرآن فقد تلقاه أُولو الألباب واهتدوا بنوره وكان تذكرةً لهم في تقوى الله تعالى خَشْيَةَ الخسارة. ومع هذا البرهان يوبخ المولى اولئك المكذبين الذين يكتمون تكذيبَهم نفاقاً فيذكِّرهم بعلمه بما في سرائرهم. وأما الكافرون؛ فبما عجزوا عن صد المؤمنين عن الإيمان، وبما عجزوا عن إقناع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليجارِيَهم في بعض أمرهم الباطل، لَحِقَتْهُم حسرة الخذلان وصار القرآن حسرةً في قلوبهم إلى ساعةِ وفاتهم لا ترتد اليهم الى يوم القيامة وتتبعها حسرة الندامة في الجحيم. وآخِر ما أقسم به الله تعالى للتصديق في هذه الآيات أن

القرآن الذي لا يأتيه الباطل هو خالص للحق وصادق الأخبار فهو حق اليقين، (اليقين مأخوذ من يقن الماء في الحوض أي إستقر)، فلا يتزعزع في صدور المؤمنين. وما يملك المؤمن الا الحمد ثناءً على ربه العظيم الذي هداه لهذا. فسبحان ربنا العظيم.

سورة المعارج

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (1) لِلْكَافِرينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (2) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ
(3) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (4) فَاصْبِرْ صَبْرًا
جَمِيلًا (5) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (6) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (7) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (8) وَتَكُونُ
الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (9) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (10) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ
عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (11) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (12) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (13) وَمَنْ فِي
الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (14) كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (15) نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (16) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ
وَتَوَلَّى (17) وَجَمَعَ فَأَوْعَى (18)

ورد ذكر النضر بن الحارث بن كلدة في تفسير الآية الخامسة والعشرين من سورة الانعام والآية الحادية والثلاثين من سورة الانفال وهو الذي كان يأتي بأساطير الفرس مثل ملاحم رستم واسفنديار ويسميها اساطير الأوّلين. فاذا به يشبِّه القرآن الكريم بذلك. ثم استعجل العذاب فسأل العذاب تكذيباً بحدوثه. وقد ورد شرح موقفه في تفسير الآية الحادية والثلاثين من سورة الانفال وسخريته بقوله (إن كان هذا هو الحق من عندك – وقد رفع رأسه للسماء – فامطرْ علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم). وهنا ايد المولى سبحانه وقوع هذا العذاب الذي أعده لكل الكافرين وليس له دافع منه تعالى. وقد أورد المولى تعالى صفته هنا (ذا المعارج)، أي ذا العلو الذي تصل اليه الملائكة وجبريل عليهم السلام بالرُقيّ عروجاً في يوم كان مقداره خمسين الف سنة. وهذا ما يدعو للصبر فعمر الانسان كم هو

قصير بالنسبة لهذا اليوم. والمسافة ما أبعدها على الانسان وما اقربها في عروج الملائكة فالله تعالى يراه قريباً في أمره. اما العذاب للكافر فكائن يوم القيامة والسماء فيه كالْمُهْل (وهو الجزء الساطع من الزيت او الفضة المذابة) والجبال فيه كالعهن (أي كألياف الصوف المنفوش) وفيه ينقطع تفقّد من كانت تجمعهم صداقات الكفر وعبادة الاوثان رغم ان احدهم يبصر الآخر ويعلم موقعه ولكن لكل منهم شأن يغنيه فعندئذ لا تبقى للمجرم مودَّةٌ وعاطفة نحو اقرب الناس إليه، يودُّ لو يجعلهم فداءً له لينجو مما يعاين وما سيقاسي فيُزجَر: (كلاّ)! لن يكون هذا. وتُعرَض له لظى أي ذات اللهب، وتكون أَلْسِنَتُها ذات حِدّةٍ تنزع منه الشوى أي جلده واطرافه مع جلدة الرأس. وقد وَكَلَها المولى العزيز بمن أدبر عن الحق وادبر قلبه عن الايمان وتولى عن الطاعة وجمع المال فأوعاه اي كنزه في أوعية فمنع زكاة ماله ومنع حق ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ومن تجب لهم الصدقات من ذوي الحاجة.

إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (35)

ما لم يكن الانسان دائماً على صلاته ومحافظاً عليها، مؤدياً للحقوق في ماله للسائل والمحروم مخافة عذاب الله تعالى، وما لم يؤمن باليوم الآخر معتصماً بالله تعالى في مواطن الفِتَن، ولا سيما ما يتعلق بحفظ العفاف، ثم ما لم يلتزم بحفظ الأمانة ووفاء العهود وصدق الشهادة، فإنه لن يكون رابط الجأش بل ينخلع قلبه في هلع من الأقدار فييأس من رحمة الله تعالى. وأما رذائله في الرخاء فالبخل ديدنه، واول ما يبخل به على نفسه الإقرار بوحدانية الله تعالى وعبادته، وبعدها بحقوق الناس. وقد روى الامام احمد عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((شرٌّ ما في الرجل شحٌ هالع وجُبْنٌ خالع)). وهكذا يخسر الجنة التي يكرم الله تعالى بها اولئك الممدوحين في هذه الآيات. وقد ذكر المولى عز وجل في بداية ما يمدح به عباده المؤمنين: الدوام على الصلاة لأهميتها، ثم ذكر في نهاية الصفات الممدوحة: المحافظة على الصلاة. وأُشير إلى الفرق بين الدوام على الصلاة وبين المحافظة عليها؛ هو أن الدوام يتعلق بالانسان، والمحافظة تتعلق بالصلاة. فالدوام هو استمرار العمل والثبات عليه وهذا المطلوب للمؤمن. والمحافظة تكون على تفاصيل الصلاة من الإعتناء بالطهارة والوضوء وتحري الاوقات ولا سيما اوقات الفضيلة في كل وقت من اليوم يدخل مع الاذان، ومن خشوع في الوقوف بين يدي الله تعالى، ومن إتمام أركانها من النية وتكبيرة الإحرام والقيام والركوع والسجود والتسليم وما يتيسر من تلاوة وتسبيح ودعاء. وهذه هدية لأُمّة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما دامت على الصلاة وحافظت عليها فتكون خير امة اخرجت للناس. ولو فعلها من كان قبلهم من أقوام الانبياء لما هلكوا فقد كذَّبوا

أو زاغت قلوبهم فأُهلِكوا. وصدَّقت أُمةُ سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (36) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (37) أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (38) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (39)

يخاطب المولى عز وجل رسوله صلى الله عليه وآله وسلم مثيراً العجب من هؤلاء الكفار الذين يسمعون كتاب الله يُتلى عليهم عندما يكونون حوله فإذا بهم يسرعون مبتعدين عن يمين وشمال. وهذا معنى مُهطعين (في سرعة) وعِزين (في تفرق). وقد تحدثوا في ما بينهم وتقوّلوا: أنْ لو كان ما يقوله حقاً لكانوا يدخلون الجنة قبله وقبل الذين آمنوا معه! فأنكر المولى جل جلاله عليهم فقد جعل الجنة حراما على الكافرين. ويزجرهم مذكراً اياهم بخلقتهم الاولى.

فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (40) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (41) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (42) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (43) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (44)

يُقسِم الله تعالى بمواقع الشروق ومواقع الغروب مؤكداً قدرته فوق هؤلاء الكفار في أخذهم وتبديلهم بأفضل منهم فقد أعدّ الأمر مسبقاً بالمهاجرين والأنصار ولم يفلت من المكذبين أحد. ومعنى ذلك تطمين للرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأنَّ في تأجيل هلاكهم حكمةً فلا يأبه لهم أي ان يذرهم في خوضهم ولعبهم حتى يلاقوا يوم الوعد الذي كذّبوا به، يوم البعث، خارجين من القبور سراعاً كما كانوا يسرعون

الى اصنامهم فكأنهم في سرعة سوقهم للحساب يوفِضون، أي يبتدرون مسرعين الى نُصُب، أي شيء منصوب للدلالة كالراية، وهم في انكسار خشعت فيه ابصارهم فلا يرفعونها وقد تملَّكهم هَوانٌ ارهقهم واذلّهم. وهذا هو يومهم الموعود.

سورة نوح (عليه الصلاة والسلام)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) قَالَ
يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (3) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ
ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (4)

لم يكن المولى الرحيم ليعذب قوماً وهم غافلون من غير أن ينذرهم العذاب قبل حلوله. فأرسل سبحانه سيدنا نوحاً الى قومه، وكانوا أوّل من ظهر فيهم عبادة الأصنام، لعلهم يهتدون ويتوبون إلى الله ويتقون فيرفع عنهم العذاب الذي توجبه عبادة الاصنام. وهكذا بدأ معهم سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام بإنذارهم ودعوتهم الى عبادة الله تعالى وتقواه وطاعة رسوله وبذلك ينالون المغفرة لِما يشاء الله تعالى من ذنوبهم ويؤخِّرهم في ايمان وعبادة أي يمد في حياة أُمّتهم. فعليهم المبادرة من قبل أن يأتِيَهم أجل الله بالعذاب، فإنَّه إذا جاء ليس مؤخَّراً عنهم. ولو كانوا يعلمون قهر العزيز المقتدر القاهر فوق عباده وما يحل بهم من الندامة لآمنوا واطمأنوا إلى مصيرهم.

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (6) وَإِنِّي
كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا
اسْتِكْبَارًا (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (9)
فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ

بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (12) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (14) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (16) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (18) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (19) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (20)

لما دعا سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام قومَه بدَأبٍ متواصلٍ ليلَ نهار، كان الأبُ منهم يأخذ ابنه الصبي اليه ويقول له (للابن) ((احذر هذا، فقد أوصاني ابي أن لا يغرّني))! وهكذا جيل بعد جيل لم يزدهم دعاؤه الا فِراراً. والفرار جاء من زيغ قلوبهم فآيات الله ودعوات الرسل لعبادة الله تعالى تزيد المؤمن قرباً من ربه. بينما يهرب منها الذين في قلوبهم مرض. وكلما جدّد دعوتهم لينالوا المغفرة ولتَعْلُوَ كلمةُ الله تعالى في قلوبهم أغلقوا الطريق عليها خوفاً من أن تصل الى قلوبهم أي من التفكير فيها فجعلوا اصابعهم في آذانهم ورفعوا من ثيابهم لتغطية رؤوسهم وبهذا منعوا نعمة السمع ونعمة البصر من ايصال الحق الى قلوبهم بما مالت اليه نفوسهم من عبادة أصنامهم. وبذلك أصرّوا على ما أقاموا عليه من الكفر واستهانوا بالدعوة لتعاظُمِ نفوسِهم عن الاستجابة. ومع هذا كان يخاطبهم علانية في محافلهم ويسارر بعضاً من افرادهم بينه وبينهم. وهكذا لم يدَعْ اسلوباً رآه مناسباً لدعوتهم الاّ واتبعه نهاراً او ليلا. وهو يعلم ان الله تعالى مطلع على السر والعلن ولكنّ سيدنا نوحاً عليه الصلاة والسلام ختم جهاده معهم بعرض خلاصة دعواه طيلة قرون وكيف اوضح لهم سبيل النجاة والسعادة بالتوبة والاستغفار ليغدق المولى الكريم عليهم نعماءه. (والماء المدرار هو المطر المتواصل). لكنه لَمّا لم يَرَ منهم استجابةً أنكر عليهم غفلتهم

عن عظمة الله تعالى والخشية من عذابه وذكّرهم بقدرته في تدرج اطوار حياتهم الى كمال الخلقة. وبقدرته تعالى في خلق السماوات وتسخير الشمس والقمر وتغذية الانسان من نبات الأرض فهو نابت منها ثم يعود الى باطنها ثم يبعث منها. وبعد ذلك ذكّرهم سبحانه وتعالى في إنبساط سهول الأرض وما جعل فيها من سُبُلٍ فِجاجٍ أي ممرات مبسطة واسعة للتنقل والتقلب في بلدان الأرض. ولكن هل نفع معهم تذكيرهم بهذه النِعَم والترغيب بالخيرات او الترهيب؟ كلا فقد شكاهم نوح عليه السلام:

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (21) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (22) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (23) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (24)

وبعد الترغيب والترهيب من سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام رفع الأمر الى الله تعالى، والله تعالى اعلم بما حصل ويحصل، فالشكوى ترفع اليه لتكون سبباً لإستجابة الدعاء على هؤلاء الذين عصَوا رسول ربهم وسلكوا الاتجاه الآخر بإتّباع الذين أطغتهم كثرةُ أموالِهم وأولادِهم من أهل الحياة الدنيا فاستدرجتهم نحو الضلال وإضلال الآخَرين. ومَكَرَ هؤلاء الملأ وهم عِلْيَةُ القوم مكراً كبيراً جهدَ إمكانهم ليصدّوا الناس عن اتباع الحق ومن ثَمّ البقاء على عبادةَ آلهةٍ من دون الله سبحانه متمثلة بأصنامٍ جاء ذكر أسمائها على لسانهم. ويفهم من التفاسير أن الاصنام كانت تماثيل لرجال صالحين كانوا قد عُرِفوا بالتقوى ويأنس اليهم الناس في العبادة والمواعظ فلما تُوُفُّوا إبتدع أحد الضالين واقترح صنع التماثيل لهم لتذكِّرَهم بهم! وفعلاً صنعوها. وبعد جيل او اكثر كانوا يطلبون منها حاجاتهم ويتوسلون اليها في أوقات

الشدّة ويقدمون لها القرابين حتى دعاهم سيدنا نوح عليه السلام الى ترك عبادتها إلى عبادة الخالق جل علاه. فآمن القليل وعصى الظالمون كما جاء في شكواه وأخذوا يُحَذِّرون مَن يخلفهم من إتِّباعِه وتركِ ما وجدوا عليه آباءهم. فلما أحس من الظالمين منهم الإصرار على كفرهم دعا الله أن يزيدهم ضلالاً الى ضلالهم حتى ينتهيَ بهم الى الهلاك. فأغرق الله تعالى من نالهم الدعاء وكتب النجاة للمؤمنين في السفينة.

مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (25) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (27)

فبسبب هذه الخطايا (واكبرها الكفر) سلّط العزيز القدير على هؤلاء الطوفان الذي لم يتحدث التاريخ عن مثله حيث غطّى الجبال فلم يكن من خلاص الا لمن آمن مع سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام فركب معه في السفينة كما جاء في غير هذه السورة. فقد نصر الله تعالى رسوله والمؤمنين ولم يجد الكافرون من دونه انصاراً. وبعد هذه التجربة التي عاشها سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام قرونا مع اهل الكفر دعا ربه عز وجل أن يقطع دابر الكافرين من بعده كي لا يتكرر مكرهم وكفرهم وايذاؤهم لاهل الايمان واضلالهم الناس، فاذا تناسلوا حذروا اولادهم من الايمان فلا يكون منهم الا فاجر اي كافر شديد الكفر. وكما دعا عليهم ذكر عليه الصلاة والسلام في دعائه من دخل في دينه مؤمناً فقال:

رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (28)

كان بيت سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام بمثابة المسجد لمنِ اتّبعه ودخل بيته مؤمنا، وكانوا قليلين كما جاء في الآية الأربعين من سورة هود عنهم: ((وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ)). فاستغْفَرَ لهم وللمؤمنين والمؤمنات بعدما طلب المغفرة له ولوالديه، ويُفهَم بأنهما كانا مؤمنَين، وعاد الى الدعاء على الظالمين ليزيدهم العزيز القدير تباراً أي هلاكاً في الدنيا وخسارةً في الآخرة.

سورة الجن

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (2) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (3) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (4) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (5) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (6) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (7)

أوحى المولى جل جلاله إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يخبر عن إستماع الجن للقرآن، ولم يكونوا فئة كثيرة فالنفر لا يتجاوزون العشرة كما اصطلح على ذلك أهل اللغة. فقال هؤلاء النفر من الجنّ لقومهم، أو في ما بينهم، على إثْر سماع التلاوة في القرآن بأنه قرآن عجَبٌ. والتعجب يدل على سماعهم من الحِكَم والأحكام ما لم يكن قد سمعوه من قبل وإلا لَما تعجبوا. ولفطرتهم السليمة فقد تعرّفوا الحقَّ الذي فيه وما يهدف إليه من صواب وفلاح فضلاً عن انسجام لفظه بشكل خارجٍ عن المألوف من كلام البشر. وعَرَفوا معنى الرُّشد أي الصواب الداعي الى وحدانية الخالق من غير شريك فآمنوا به أي آمنوا بما جاء فيه من الايمان بالله تعالى ربّاً وبسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم نبياً ورسولاً وبالاسلام ديناً، وقطعوا على انفسهم بانهم لن يشركوا بالله تعالى أحداً وأنه تعالى جَدّه (أي امرُه وذِكرُه) لم يلد ولم يتخذ صاحبة. ثم نسبوا السفاهة لمن نسب الصاحبة والولد او

الشريك لله عز وجل فذلك من الشطط أي البعد عن الحقيقة. ورجعوا الى انفسهم: كيف كانوا على هذا الظن الفاسد؟ فاعتذروا بانهم صدّقوا من أضلّهم لسلامة فطرتهم فما كانوا يتصوّرون أن يكذب أحد على الله تعالى. وهكذا فقهوا الحق بالبرهان الذي جاء في القرآن الكريم وظهر لهم زيف عقيدة المشركين في الجاهلية عندما كانوا ينزلون في أسفارهم مكاناً موحشاً فيقول احدهم مخاطباً رئيس الجن في ذلك المكان، ظناً منهم ان فيه الجن، بأن يكفيهم سفهاء قومه. وهذا ما يزيدهم خوفاً ورَهَقاً، أي شدة الحال الذي هم فيه والاثم الذي وقعوا فيه. وفي بعض التفاسير أن الجن تذعر من الانس اذا حلوا مكاناً هم فيه قبلهم فيتركونه! وكانت زيادة الرهق هي الخوف مما يجعل الجن يتجرأون على الإنس. وهذا الخبر ليس له أصل من السُنَّة سوى ما أورده ابن ابي حاتم عن عكرمة في تفسير ابن كثير رحمهم الله. وعكرمة رحمه الله تعالى من التابعين الذين اخذوا الحديث عن الصحابي ابن عباس رضي الله عنهما. والخبر الآخر عن الجن المذكورين أنهم كانوا مثل كفار قريش لا يظنون، أي لا يقع في خَلَدِهم، بأن البعث بعد الموت حاصل يقيناً حتى سمعوا القرآن فأيقنوا. ولهذا جاء الخبر خطاباً لكفار قريش. وفي بعض اقوال المفسرين ان المقصود بالبعث هنا هو بعثُ رسولٍ آخر بعدَ آخِرِ رسولٍ تعرّفوه وهو سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام بدليل قوله تعالى في الآية الثلاثين من سورة الاحقاف ((قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى)) الآية. ولكن الأرجح هو القول الاول لأن الخطاب موجّه الى كفار قريش الذين لم يؤمنوا بالبعث. وهذا الظن مقتصر على سفهاء الجن المشار إليهم من قبل مؤمنيهم في الآية الرابعة السابقة.

وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (9) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (10) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (11) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا (12)

انزل المولى جل جلاله كتابه الكريم واكّد حِفْظَه. وكشف تعالى هنا، على لسان الجن، أنّ مِن أوْجُهِ هذا الحفظ هو منعهم من إستراق السمع وذلك بما وجدوه من حرس شديد يملأ السماء وما يُرصَد من الشُّهُب. فعميت عليهم الأنباء فما دَرَوا هل هذا المنع هو لخير البشر أم هناك بأس يسوءُهم؟ ويؤخذ من التفاسير أن مسترقي السمع كانوا يميزون الانباء. فيلقون الاخبار الى الكُهّان مع اضافات من عندهم. ولكنهم الآن معزولون عن السمع حيث يُقذَفون بالشهب من قبل الملائكة الْمُوَكّلين بحراسة الذِكْرِ الحكيم. وجاء خبر آخر عنهم على لسانهم بأن منهم صالحين، وصلاحهم يعني الايمان بالله والتقوى في القول والعمل، وذلك أن القرآن الذي سمعوه جاء مصدقاً للتوراة كما في سورة الأحقاف. وكان صالحوهم على التوحيد والعبادة. واما غيرهم فكانوا على عدة عقائد مختلفين في اهوائهم قِدَداً (أي مُقَسّمين) الى أصناف متفرقة. وخبر آخر عنهم بكونهم على علم بقدرة الله تعالى وهيمنتها عليهم اينما كانوا فلا مَفَرَّ من أقداره.

وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (13) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (14) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (15) وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (16) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (17)

شرَّفهم الله تعالى بالايمان لَمّا سمعوا الهدى، واحسنوا الظن بالله تعالى في حفظ صالح الاعمال فلا يُنقِصُهم أجرَهم عليها، ولا يخافون بها حِملَ سيئاتِ غيرهم. فلا ظلم ولا هضم. ولا يخافون ذلة ترهقهم. واخبر تعالى عنهم (على لسانهم) بأن منهم المسلمين من صدّقوا بالدعوة الى الايمان فهم مسلمون وأنّ منهم القاسطين، أي أهل الجَوْرِ في رفض الحق. فمن اسلم فقد اتّبع افضل السبل بعد أن تحرّى ايَّها أصحَّ مسلكاً. واما الذين يعلم الله تعالى فيهم الجور على الحق، وأوّلُه التوحيد، فقد أعَدَّ جهنم ليجعلهم حطباً لها. وهذا مقرر من رب العزة، حيث ينتقل منه الكلام الى قوله تعالى بأنه يبتلي عباده من مُكلَّفي الجن والإنس بأسبابٍ منها الرزق الذي يمحص فيه العبدَ الذي ينشغل بالنعمة عن المنعم مُعرِضاً بها عن ذكر ربه، وبذلك يستحق العذاب. وهنا وقفةٌ بين المسلم والقاسط المذكورَين؛ فابتلاء المسلم اذا شكر النعمة وخاف مقام ربه فيها يكون حجةً له ليجعلها الله تعالى سبباً للجنان، وابتلاء القاسط أي الجائر هو أن يُملي له المولى عز وجل عالِماً بإفتتانه بالنعمة وصده بها عن الحق فتكون إستدراجاً له وحجة عليه وسبباً لعذابه عذاباً صَعَداً أي شاقّاً غالباً عليه ويقهره.

وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (18) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (19) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (20) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (21) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (22) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (23) حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (24)

تتصل هذه الآيات بالآية الاولى من هذه السورة أي انه أُوحِيَ الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأن المساجد لله فلا يجوز تخصيصها لعملٍ غيرِ عبادته تعالى اذ كان اليهود والنصارى يدخلون كنائسهم وبِيَعَهم ممجِّدين مع الله تعالى غيرَه بالقول أو العمل. (وذهب بعض المفسرين الاوائل الى ان المساجد كمصدر ميمي هي الاعضاء التي يعتمد المؤمن عليها في السجود لأن السورة مكية ولم يكن في الأرض سوى المسجد الحرام والمسجد الأقصى). ويقول تعالى بأنه لما قام عبد الله أي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يدعو الى الله تعالى ويؤم المصلين عجبت الجن من طواعية المسلمين له في حركات الصلاة من بعده فاقتربوا لِبَدًا أي جماعات لسماعه وكان ذلك خارج مكة حتى فرغ وهو لا يعلم بهم وجاءه الوحي بخبرهم. وفي رواية أوردها الطبري أن الجن لَمّا عادوا إلى قومهم قالوا لهم عن تجمع الصحابة: (كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيهِ لِبَدًا). وأوحى تعالى إليه أن يصرِّحَ بأنه إنما يدعو الله تعالى ولا يشرك به أحَدا أي يعبده وفق أمره من غير أن يستجير بغيره وانه صلى الله عليه وآله وسلم لا يملك لهم بعد دعوته إياهم شيئاً من الضَرِّ او النفع او الهداية او الضلال فالله تعالى وحده يملك ذلك لهم. وما يملك لهم إلا البلاغ. وأنه لا مجير له من ربه تعالى ولا مُلْتَحَدَ (أي ملجأ) له إن لم يبلغ دعوة الله تعالى. وها هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد بلّغ الرسالة ووجب عليهم طاعته واتِّباعه. فكان ترك إتِّباعه معصية لله سبحانه عاقبتها الخلود في نار جهنم أبداً. وعندئذٍ تتبين لهؤلاء الكفار حقيقة ضعفهم وهل هم أضعف ناصراً وأقل عدداً أم المسلمون وقد نصرهم الله وشهد بصدقهم الرسل والملائكة والشهداء عليهم الصلاة والسلام.

قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (25) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (27) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (28)

أوحى الله تعالى الى سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن يبين للكفار والمشركين وكل مكذِّب بأن ما يوعدون به لآتٍ لا محيد عنه. أما موعده فهو ما لا يعلمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بل قد علم ذلك عالم الغيب فلا يُظهِرُ غيرَه على ما غيّبه إلا ما يأذن به لمن يرسلهم، فإمّا ان يكون المقصودون هم الملائكة، او الرسل الكرام يتحدثون به عن الجنة والنار في دعواتهم وابلاغهم او ليكون تنبؤهم بما سيحدث معجزةً لهم. وكل علم بالغيب يكون مُوثّقاً بوجود من يحرسه من الملائكة الكرام حتى يتم تبليغه كما هو. فلا يعرفه شيطان قبل ذلك فيُدخِلَ فيه ما ليس منه. ولا يستطيع بعد تبليغه أن يوسوس فيه بشائبة تشوبه، والله تعالى محيط بما سيكون قبل ان يكون ومحيط بعدد كل شيء خَلَقَه.

سورة المزّمّل

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (5) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (6) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (7) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (8) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (9)

نداء يعقبه أمر من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم وهو مُغَطًّىً ليلاً في فراشه (أي متزمل فيه) بان ينهض لقيام الليل. فكان قيام الليل عليه واجباً، ولأُمّته سُنّةً للاقتداء ولنيل المنزلة فيها. وخوّله تقدير الزمن الذي يكون فيه قائماً يصلي؛ فإذا اراد قيام الليل كله فعليه أن ينقص قليلاً منه، وان اراد نصفه فلا ينقص من النصف الا القليل وان أراد الزيادة على النصف فهذا مطلق. المهم ان يكون ثَمّةَ وقتُ راحةٍ يتقوّى به. كما امره تعالى ان يرتل القرآن، أي يقرأه بتَرَسّلٍ وتبيين ليكون عوناً على تدبُّرِه، (والأمرُ فيه إشارة لأمّته في القراءة بتبيين الحروف وإشباع الحركات وتحري مواضع الوقوف ليكون ذلك عوناً على التدبُّر والفهم). وفي سُنّتهِ الشريفة كان يمدّ (بسم الله) ويمدّ (الرحمن) ويمدّ (الرحيم) وهذا ما رواه البخاري عن انس رضي الله عنه. وروى ابن جريج عن ام سلمة (ام المؤمنين رضي الله تعالى عنها) انها سُئلت عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت ((كان يُقطِّع قراءته آيةً آية)). وينبه المولى الى ثقل الامانة التي ستلقى عليه وثقل العمل بالقرآن. وكان

عندما ينزل القرآن يثقل بدن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد روى الامام احمد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت: يا رسول الله هل تُحِسُّ بالوحي؟ فقال ((اسمع صلاصل ثم اسكت عند ذلك فما من مرة يوحَى الي الا ظننت أن نفسي تُقبض)). والقرآن الكريم بعد ذلك يكون في ميزان المؤمن ثقيلاً كلما اعطاه حقه تلاوةً وعملاً. كما كان القرآن الكريم بالنسبة للمنافقين همّاً ثقيلاً. واستمر قيام الليل زمنا طويلا، والصحابة يتابعون في ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى نزلت الآية التي في آخر السورة فصار قيام الليل تطوعاً والتلاوة على حسب التيسُّرِ كما سيلي شرحه ان شاء الله تعالى بعد قليل. أما ناشئة الليل فهي الشروع في صلاة الليل بين المغرب والعشاء وبعد فريضة العشاء. ووصَفَها المولى عز وجل بأنها أشدّ (أي اثبت) وطءً (أي موافقة) للقلب مع التلاوة وبقية أركان الصلاة وسُنَنِها، وتبعث الانتباه من غلبة النوم، وأشدّ اثراً لحصولها في هدأةٍ من الليل بعد عمل النهار وما فيه من تشعّب الخواطر. ولهذا قال تعالى عنها بأنها: (اقوم قيلاً) أي أجمع للخواطر والتدبّر وبالتالي التفهُّم على الوجه الأصوب. وأما السَّبح فهو فراغ الانسان. وسَبْحُ النهار هو فرصة هذا الفراغ بين أوقات العمل وبعد الصلوات المكتوبة للتطوع بما يمكن من العبادات. وهكذا الفرق بين قيام الليل وبين التطوع في النهار، فأمر تعالى بأن يُذكَرَ في مختلف الأحوال والانقطاع إليه أي التبتُّل إليه بالتوجُّه بالقلب وبالعمل لوجهه الكريم فهو ربُّ ما طلعت عليه الشمس وما غربت عليه، أي ربُّ ما خلق فلا يعدله سواه ولا إله الا هو ولا يمكن لغيره ان يدبر امر العباد فهو نعم الوكيل الذي

يتفضل على عباده بالرعاية والهدى. والتوكل يتعلق بالإرادة ويكون صحيحاً عند العمل بما شرع الله تعالى لعبده، وبترك الإرادة إذا تعارضت معه.

وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (10) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (11) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (12) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (13) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا (14)

يأمر المولى عز وجل رسوله صلى الله عليه وآله وسلّم بانتظار ما قدّر تعالى لكفار قريش وبأن يهجرهم أي يترك مجادلتهم وعتابهم وإثارتهم، وهذا هو الهجر الجميل الذي لا يثير غضبهم. فهم عرضة ليوم الاهوال فقال تعالى: ((ذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ)). وهذا من غضبه تعالى عليهم وخاصة على اهل اليسار منهم فهم اقدر على الطاعة والبذل في سبيل الله تعالى واداء حقوقه. ثم دعا تعالى إلى إنتظارهم قليلاً اذ أنه قد أعدّ لهم قيوداً وهي الانكال فلا يستطيعون الإفلات منها. واعدّ لهم الجحيم (أي النار المستعرة). وأعدّ لهم الطعام الذي يغص به المكذِّب أي لا يسوغه فلا يستطيع ابتلاعه إلا بمشقة. ثم اعد عذابا لهم شديدَ الألم في يوم القيامة، يوم تصيب الأرضَ والجبالَ رجفةٌ تترك الجبال مثل كثيب الرمل الهش بعدما كانت صلبة في صخورها واحجارها.

إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (15) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (16) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (17) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (18) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (19)

الخطاب الى سائر الناس. وأول من شملهم به هم اهل مكة بأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم شاهِدٌ عليهم بما تصدر منهم من استجابة او تعنت لدعوته القائمة الى يوم القيامة. وقد جعل المولى عز وجل دعوة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام لفرعون مثلاً للعبرة. فالذين كذّبوا بها (وهم فرعون وملأُه) عصياناً فقد اخذهم المولى تعالى اخذاً ذا شدة وغلظة فكان وبالاً أي عاقبة محزنة عليهم. وهذا ليس ببعيد عمن يُكذِّب بدعوة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وقبل ان يصف المولى عزّ وجل يوم القيامة يتساءل من الكافرين المكذِّبين كيف يمكنهم أن يتقوا يوماً بلغ من شدّته أن يشيب الِولدانُ لها لَمّا يأتي وعد الله تعالى فتنفطر السماء به وقد كان الناس معتادين على رؤيتها وما لها من فطور. فمن كفر وكذب فلن تكون له وسيلة يتقي بها شدة ذلك اليوم الذي من اهواله تنفطر السماء. ولا بُدّ لذلك أن يحدث كما وعد الله تعالى. ويكفي لهذا الوصف من أثر أن يبقى في ذاكرة من بلغه وليختار لنفسه النجاة فيسلك سبيل الرشاد بالتصديق متوجها الى الله تعالى بالعبادة والتسليم والتوكل عليه.

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (20)

في شرح الآيات الخمس الاولى من هذه السورة جاء ذكر هذه الآية والتخفيف الذي فيها حول قيام الليل فقد نبّه المولى تعالى المؤمنين الى علمه بمقدرتهم المحدودة في المواظبة وما فيها للبعض بل للكثيرين من مشقة خاصة وان الليل يطول شتاءً ويقصر صيفاً بتقدير العزيز العليم (وقد جاء شرح ذلك في الآية الرابعة والستين بعد المائة من سورة البقرة) ولهذا ترك تحديد مدة صلاة التطوع ليلا حسب تيسر الوقت بلا تحديدِ زمنٍ معيّنٍ وظرفٍ معيّن. وعبّر المولى جل جلاله عن الصلاة ليلاً بالقراءة بدليل قوله تعالى في سورة الاسراء ((وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ)) أي بقراءة القرآن فيها، ((وَلَا تُخَافِتْ بِهَا)) بالقراءة فيها. وهكذا جعل المولى سبحانه للمؤمنين فسحة ولا سيما لاولئك المسافرين والمجاهدين والمرضى. ثم أمر بالقراءة أي بالصلاة على قدر المتيسر وأَمَر باقامة الصلاة المكتوبة والزكاة المفروضة. ويستدل من التفاسير لمن حفظ شيئاً من القرآن الكريم أن يصلي بعد صلاة العشاء المكتوبة ركعات من السنن والنوافل ليقرأ فيها بعض ما حفظ ولا يدع القرآن في صدره من غير تلاوته في الصلاة المندوبة ليلاً. وأمر المولى بعد ذلك بالإستفادة من المال في الآخرة وذلك عندما ينفق المؤمن مالاً على ذوي الحاجة لوجهه تعالى يعتبره سبحانه قرضاً عليه يؤديه بما هو خير منه واعظم مما يتوقع المؤمن المتصدق من أجر. وبذلك يكون المتصدق قد قدّمه لنفسه. ونبه المولى عز وجلّ الى ما يزيل المتراكم من الغفلات والسيئات المقصودة وغير المقصودة وهو طلب المغفرة منه ليمحوَها عنه وهو الغفور الرحيم فيعود المؤمن بذلك الى فطرته أي سلامة قلبه.

سورة الْمُدّ ثِّر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7) فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10)

النداء موجّه الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعدما دثّرته أي ألقَتْ عليه الملابس زوجتُه أُمُّ المؤمنين خديجة عليها السلام، فقد أتاها بعدما سمع نداءً من السماء ورأى سيدنا جبريل عليه السلام يخاطبه مبشراً ايّاه بالرسالة فأسرع الى البيت يقول دثِّروني وصبوا عليّ ماءً باردا. وهذه الرواية مفصّلة في صحيح البخاري عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنه. والدِّثار هو الملابس التي يلتف بها المرء أي الملابس الخارجية. ولم يمكث قليلاً حتى جاءه الوحي أن يقوم فينذر الناس عذاباً من الله تعالى لعلهم يؤمنون به ربّاً واحداً ويعظمونه فلا يعبدون احداً سواه. وأشار سبحانه إلى طُهْرُ الثياب، والآية عامة. ولطهر الثياب أوجُهٌ؛ منها الطُهْرُ من كل نجاسة، ومنها أن لا يعصي المؤمن بها. ويقال للعفيف: نقي الثياب. وكان العرب في الجاهلية إذا وقعت نجاسة على ثوب لا يطهرونه منها بل تغسل الثياب من إتساخ. وهجر الرجز المطلوب هو هجر ما يؤدّي إلى العذاب. ونبّه المولى سبحانه إلى العطاء بأن لا يحمل منّاً به أي لا يعتبر فضلاً من المعطي يستكثر به المعطي أي يطلب الزيادة في الدنيا مع الأمر بالصبر لحكم الله تعالى حتى يُظهر دينه. وذَكَر

المولى عز وجل علامة القيامة وبدايتها النفخة في الصُور وهو الناقور وهو بوق عظيم يَنفُخ فيه الْمَلَكُ ايذانا بيوم الدين فذلك يوم شديد على من عصى ولم يؤمن بآيات الله فلا يسهل عليهم فيه شيء.

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25)

يخاطب المولى عز وجلّ رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأن ينتظر أمر الله بمن جحد النعم فسوف يكون لهذا الجاحد موقف مع الله تعالى منفرداً به. فقد خلقه ولا مال له ولا ولد ثم رزقه مالاً مثمراً لم يقطع مدده من ارض وزرع او تجارة وغيرها. ورزقه البنين يبقون معه أي يشهدونه ويشهدهم فهو مطمئن بينهم. ثم يسّر له من متاع الدنيا الشيء الذي تنعم به حياته وحياة من معه من اثاث وخدم. وها هو بدلاً من شكر النعمة والتفكر في المنعم سبحانه يطمع بأكثر مما هو عليه ولكن ذلك لا يحصل فقد رد المولى تعالى على طمع المكذب بالردع: (كلاّ)! والسبب عناده للحق الظاهر في آياتِ الله تعالى في بِعثَةِ سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وهكذا ينقطع عنه المدد الرباني، وهذا جزاء كفران النعم، واخيراً الوعد بأن يذيقه المولى تعالى من العذاب ما يشق عليه فلا يجد فيه راحة. فمثله كمَثَلِ من يُكَلَّفُ بصعود ما لا يستطيع صعوده الا بشقاء وعناء. وفي التفاسير ان الآيات أُنزِلَتْ في الوليد بن المغيرة اذ قال لبني مخزوم وهم عشيرته "والله لقد سمعت من محمد

آنفا كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن إنّ له لحلاوةً وان عليه لَطَلاوَةً (أي حُسْناً) وان اعلاه لمثمر وان اسفله لمغدق (أي غزير) وانه يعلو ولا يُعلَى" فلما سمع ابو جهل ذلك خشي ان يكون الوليد قد تأثر بالقرآن فرقّ له قلبه! فأتاه متصنعاً الحزن بأن قومه قد جمعوا له صدقة خشية ان يكون يريد ان يصيب من مال ابي بكر (رضي الله عنه)! وهنا اثار حميّته فقال "اتُحَدِّثُ بذلك عشيرتي؟ لا والله لا اقرب ابن ابي قحافة (ابا بكر) ولا عمر ولا إبن ابي كبشة" (يقصد سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لأن زوج حليمة السعدية التي ارضعته يكنَّى بأبي كبشة). ثم اردف قائلاً "وما قوله الا سحر يؤْثَر إنْ هذا الا قول البشر". (يؤْثَر: أي يرويه الناس). وعندما قال هذا عبس أي قطّب وجهه ثم بسر أي زاد تَعَبُّساً بوجه متجهم.

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (27) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (29) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (31)

فكان جزاء هذا الجاحد الذي جاءته آيات الله فجحد بها واستكبر بأن يوصله كبرياؤه الى سقر. ولشدة عذابها يشير تعالى اليها بصيغة إستفهام فيه تهويل. وفصّل فعلها بمن يصلاها أي يُغمَر فيها بأنها لا تُبقي جزءً منه إلا وأتت عليه، ولا تذر: أي لا تترك ذلك الفعل بعدما تتبدل جلودهم. وهي لواحة أي تلفح البشرة

أي كافة اجزاء البشرة تتركها سوداء محترقة. وعلى سقر هذه موكّلون من الملائكة عددهم تسعة عشر يتولون تنفيذ الأوامر الخاصة بها وهم ملائكة وجعل الله تعالى عددهم ابتلاءً إذْ أراد نفر من اليهود اختبار معرفة المؤمنين بعدد هؤلاء أي خزنة سقر فلما علم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بسؤال اليهود ارسل اليهم واخبرهم انهم تسعة عشر. وقد جعل المولى عز وجل خزنة جهنم أي اصحاب النار ملائكة فلما سمع ابو جهل بالعدد قال ((يا معشر قريش! أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد فتغلبونهم؟)). فقال تعالى بانه جعل عدتهم فتنة للذين كفروا. وبهذا استيقن اهل الكتاب من علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وافتُتِن المشركون بما أعجبهم من قُوَّتِهم، ونسوا انّهم سيكونون في الأغلال وأن القوة لله جميعا. كما ازداد المؤمنون بهذين السببين ايماناً إذ جاء صدق الخبر مطابقاً للتوراة فزالت كل ريبة للمؤمنين وللذين أُوتُوا الكتاب. واما المنافقون (وفي قلوبهم مرض)، ومعهم الكافرون المنكرون لآيات الله تعالى فيتساءلون ما هي الحكمة في ذكر هذه الآية في هذا الموضع من القرآن وفي هذا الزمن؟ وفاتهم ان الله تعالى قد جعل في طريقهم هذه الفتنة ليبين لهم أنهم لا يعرفون الصواب، في الوقت الذي فيه هدى بها مَن سَلُمَ قلبه للحق وتحرّى المعرفة بربه الجليل فازداد منها. واما الملائكة الآخرون فما يعلمهم غير الله تعالى. وقد روى الطبراني عن جابر رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((ما في السموات السبع موضعُ قَدَمٍ ولا شِبْرٍ ولا كفّ إلّا وفيه مَلَك قائم او ملك ساجد او ملك راكع، فاذا كان يوم القيامة قالوا جميعا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك إلّا أنـّا لم نشرك بك شيئاً)). وهكذا جاء ذِكْرُ سَقَرَ والنارِ

عموما ليبقى في ذاكرة البشر فهي للمؤمنين حافز للمجاهدة على النجاة وهي لغيرهم نذير وحجة قائمة.

كَلَّا وَالْقَمَرِ (32) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (34) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (36) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37)

يبين المولى عز وجل بعد أن ذكر سقر والنار عموما (مُقْسِماً بالقمر والليل في إدباره، والصباحِ في إسفاره مع الشروق) أن هذه النار هي إحدى عظائم البلايا الدواهي فليست بالأمر الهَيِّن بل هي مقدمة الاهوال العظام. جاء ذكرها بهذا الشكل مع تيسير الاختيار لمن يقبل النذير فيهتدي متقدماً نحو الحق والنجاة من النار، ولمن يتأخر مولياً عن الحق ثم ليس له ما يقيه من النار.

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (47) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً (52) كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (53) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (54) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (55) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (56)

الرهينة هنا هي التي لا تستطيع فَكاك نفسها إلا بما تُفَكّ به رقاب المؤمنين من النار بأعمال صالحة. وهم أصحاب اليمين وقد نَجَوا بما قدموه من عمل الصالحات فينطلقون الى الجنات. وهم في غرفاتها يتساءلون عمن كانوا أعداءَ الإيمانِ

في حياتهم الدنيا. فإذا أُولئك في سقر فيسألونهم عن مسببات سقر! فيجيبونهم بأنهم لم يكونوا من المصلِّين ولم يُعْطُوا ما كان في أموالهم من حق لذوي الحاجة أو يرحموهم او يحسنوا اليهم كما أمر الله تعالى وكما ندب وأحب من عَمَلٍ، ولم يفطنوا إلى كونهم وكلاء في ما أعطاهم الله تعالى واعتبر المساكين عيالاً له فبخلوا على عياله فكيف يفلتون من عقابه؟ وفوق ذلك كانوا يخوضون بمنكَر الحديث وبالباطل من قول الزور والكذب ويميلون مع من يميل من الغُواة. وأقرّوا بأنّهم كذّبوا بيوم الدين فهم إذاً لم يلتزموا بالصلاة والزكاة أو يصدِّقوا بالبعث بعد الموت حتى ماتوا بلا توبة. والذين يلقَون ربهم على هذا الكفر مجرمين بحق مولاهم فلا مَحيدَ لهم عن جهنم إذ لا تصل شفاعةٌ ممن يشفع لهم الى الله تعالى فلا تنفعهم. فمع كل هذا النذير والتحذير تراهم أصرُّوا على إجرامهم، مُعرضين عن التذكرة يفرون كأنهم من صنف الحُمُر البريّة وقد أرعبها ظهور قسورة، أي الأسد فنفرت نفاراً بعيداً. وبدلاً من التذكرة طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يُنزِل الله جل شأنه لكل واحد منهم كتاباً خاصاً به يدعوه للاتباع! وعندئذ فقط يتَّبعون رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وينالون الجنة حتى وإنْ لم يعملوا لنيلها! فزجرهم المولى تعالى بقوله: كلّا! فإنما أفسدهم الشك وابعدتهم الريبة فلم يؤمنوا وكذبوا بالعذاب فلم يخافوا الآخرة. وحقاً إن هذا القرآن لَتذكرة لمن يختار قبول النذير وحب البشير. ولكنهم أي كفار مكة إن لم يكونوا أهلاً للإخلاص فلا يجدون من الله تعالى ما يهديهم به لذكر الآخرة والخوف من عذابها. فهو سبحانه الذي يهدي من يشاء لأنه أهلٌ لأن يُعبَدَ فلا إلهَ غيرُه. فيهدي من يراه مصدقاً بذلك فهو تعالى اعلم بمن اتقى وأهْلٌ لأن يَغفر لمن

تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى إلى التقوى واختارها سبيلاً فكان اهلاً لمغفرة ربه جل عُلاه.

سورة القيامة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (4) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10) كَلَّا لَا وَزَرَ (11) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12) يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13) بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15)

الآية الاولى قَسَمٌ بيوم القيامة جاء بصيغة النفي لتأكيده مذكوراً بالقَسَم ردّا على الجَهَلة الكفار المكذبين بالبعث. والآية الثانية قَسَمٌ بالنفس المؤمنة التي يتساءل صاحبها المؤمن بقصد اللوم عن كل فعل أو قول يصدر منه عن دوافعه أو التقصير فيه، وذلك خشية أن يقع في معصية. اما الكافر فلا يأبه لما يصدر منه ولا يعاتب نفسه على ذلك، ولكنه سيلومها يوم القيامة. كما أن المؤمن، في يوم القيامة، عندما يتمنّى لو استزاد من الصالحات اكثر مما عمل من اجل درجة اعلى لكان في موقف اللوم ايضاً على ما فات. فمثلاً قدّم مالاً لوجه الله تعالى فانه يتمنى لو زاد عليه، او صلّى تطوعاً فيتمنى لو كان قد اكثر من الصلاة. وكذلك صوم التطوع فكل ذلك قرب من الله تعالى. اما الانسان الذي في ريبة وشك من البعث فإن المولى تعالى ينكر موقفه ويؤكد له انه تعالى سيجمعُ عظامَه ويحييه ويبعثُه من القبر. وينبه تعالى الى قدرته على ما هو ادق في الخلقة وهو تسوية البنان فنهاية الاصبع، أي البنان،

فيها من الدقة والتناسق في خطوطها وتقوساتها ومميزات كل منها مما لا يمكن حصوله إلّا بقدرة الله تعالى اذ لا يمكن تشابه طبعة بنان مع طبعة أُخرَى لكثرة العلامات في كلٍ منهما، وإذ تتجدّد خلاياها تسوّى بنفس المعالم. كذلك يبعثها المولى تعالى على دقتها وتناسقها فكيف لا يجمع العظام وهي اكبر حجماً وأقل دقة. والانسان الذي يكفر بهذه الآيات يريد (مع طول أمله غير حاسب لمفاجآت الاقدار حساباً) ان يستمر على الفجور أي يفجر مع الايام التي امامه ثم يستبعد قيام الساعة بتساؤلٍ سفيهٍ: (أيَّانَ يَوْمُ القِيامَةِ)؟ وجاءه الرد الرباني بأن اليوم حاصل لا محالة يومئذ يفاجأ البصر أول ما يرى من بوادر قيام الساعة فيدركه الفزع بما شاهد وبما يتوقع. فهذه اللحظة التي تتسع فيها العيون للنظر شاخصة الى المجهول المرتقب عبّر عنها المولى عز وجل بقوله (بَرِقَ البَصَرُ) أي تحيّر شاخصاً. واذا ذهب ضوء القمر أي خُسِف مثلما تحصل ظاهرة الخسوف حينما تكون الأرض بين الشمس والقمر فتحجب ضوءها عنه. ويمكن تصوُّر إجتماع الشمس والقمر بتوقُّف دوران القمر حول الارض في وضع المحاق ففي ليلة المحاق لا يُرى للقمر نورٌ لكون وجهِهِ الذي لا يقابل الارض مواجهاً للشمس. فاذا استقر القمر على ذلك الموقف والارض تدور فمهما تتجه أقاليمها للشمس ترى القمر مجتمعاً معها. وهذا لا يتنافى مع علامات الساعة الاخرى وهي شروق الشمس من المغرب عند اختلاف دوران الارض عكس اتجاهها القديم. والقيامة لا تقوم الّا على الاشرار لموت آخر الصالحين قبلها بقليل. فقد روى الامام احمد في مسنده عن انس رضي الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ((لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الارض: الله الله)). وروى أيضاً عن إبن مسعود رضي الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وآله

وسلم ((لا تقوم الساعة إلّا على شِرار الناس)). عندئذٍ يبحث الكافر عن مفر فيخبر تعالى ان لا وَزَر أي لا ملجأ ولا نجاة. فالمستقر الى الله تعالى حسب مشيئته يرحم من يشاء فيستقر في رحمته، ويعذب من يشاء فيستقر في عذابه. وقد نبأ كُلاً منهم بما سبَّب له مستقرَّه وهو ما قدمه من عمل. ويكون الانسان شاهداً يشهد على نفسه بالحجة فتقوم بصيرته مقام الحجة ويقال له ((قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ)) أي براهين تعيَها بصيرتُكم فلا تجدي المجرم معاذيره أي تبريراتُه مهما احتج بها. فالْمُعَوَّلُ عليه الحق الذي يحقه الله تعالى ولا ينفع الظالمين ما يبدون من معذرتُهم.

لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (19) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (20) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (21) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (24) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (25)

من لطف الله تعالى في حفظ القرآن الكريم أنْ وهب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم حافظةً واعية. ومع هذا كان عليه الصلاة والسلام يسابق سيدَنا جبريلَ عليه السلام في قراءة القرآن من أجل حفظه وليثبته في ذاكرته فأوصاه تعالى بأن لا يعجل بالتلاوة ما دام وَحْيُه قائما حتى آخر كلمة كما جاء في الآية الرابعة عشرة بعد المائة من سورة طه: ((وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ)). وبيَّن المولى عز وجل سبب هذا الأمر مؤكِّداً بأنه تعالى سيتكفل بجمعه في صدره الشريف وتلاوته بلسانه فاذا سمعه فعليه أن يتابع أولاً ثم يعيد ما سمع فيراجعه به سيدنا جبريل عليه السلام ويكون قد رسخ مع بقية الآيات الكريمة. ثم بيَّن تعالى ما

دبره للقرآن الكريم من حفظ وفهم فقال ((ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ)) أي يلهم رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فيعلم الكتاب والحكمة من معناه على أصَحِّ وجهٍ في الامر والنهي والحلال والحرام وما جاء فيه من خبر وعبرة وبشير ونذير. فلا يصح أخْذُ المعاني القرآنية إلّا من الرسول لقوله صلى الله عليه وآله وسلم الذي رواه الترمذي: ((من قال بالقرآن بغير علم فليتبوّأْ مقعدَه من النار)). ثم جاء هنا ذكر القيامة الذي ورد في أول السورة ويبين سبب تكذيب المكذبين بأنهم يحبون الحياة الدنيا وسماها العاجلة. وقال تعالى ((خُلِق الانسان من عَجَل)) فيتعجل الكافر الانغماس في حب الشهوات وهي تغلق عليه الفقه والفهم والعلم بالله وبحقِّه فلا يهديه أي لا يريه تعالى النور الذي يصدّق به آياته. فيدعه لا يهتم للآخرة ولا يعمل لها. ويومئذٍ يتفرق الناس ويُعرَف الصالحون بالوجوه الناضرة أي الحسنة النيّرة ولا يمنعها عن رؤية ربها إلّا رداءُ الكبرياء حتى يأذن الله تعالى برؤيته وقد وردت أحاديث صحيحة في ذلك ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن اثنين من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هما ابو سعيد وابو هريرة رضي الله عنهما؛ أنّ ناساً قالوا "يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟" فقال ((هل تُضارّون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب؟)) قالوا: "لا". قال ((انكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر فإن استطعتم ان لا تُغلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا)). وفي ذلك قال الشافعي رحمه الله: "ما حَجَب الفجارَ إلّا وقد عَلِمَ أنّ الابرار يرونه عز وجل". واما الفجّار فيُعرَفون بالوجوه الباسرة أي العابسة الكالحة فاصحابها يتوقعون الشدة والداهية التي تقصم فقرات ظهورهم فهي الفاقرة أي قاصمة الفقرات.

كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (27) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (28) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (30) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (31) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (32) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (33) أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (34) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (35) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (39) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (40)

ساعة الموت يعمل لها المؤمن في حياته ليثبته الله تعالى بالقول الثابت في تلك الساعة. فما هو حالُ من لم يعمل لها؟ فيقول رب العزة سبحانه (كلاّ) أي يا ابن آدم ارتدع واسمع حقاً اذا بلغَتْ الروح عند نزعها التراقيَ (أي العظام المحيطة بالرقبة والنحر). وقيل عندئذٍ: من راقٍ؟ (القول هنا إمّا كلام اهل المحتضر لعل ثمة من يُرقيه بـ(رُقْيَةٍ)، او من كلام الملائكة يتساءلون عمن سيرقَى بروحه؛ هل ملائكة الرحمة، ام ملائكة العذاب؟ وعن حال المحتضر يفارق ما ألِف في حياته الدنيا من مال واهل وولد، عبّر الرحمن بقوله: ((والْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ))، أي اجتمع عليه أمران هما مفارقة أهله والإقبال على الله تعالى. وقيل إلتفّت عليه افعال اهله في تجهيزه وافعال الملائكة في تجهيز روحه. وقيل التفّت ساقاه في ربطهما في الاكفان. وقيل أن التعبير من الامثال التي تقال باجتماع شِدَّةٍ فوق شِدَّةٍ في آن واحد. ولهذا فالآية لا تعدو كونها إشارة الى الشدائد. وتساق الروح الى بارئها وتردّ الى الارض التي منها خُلقت. قال تعالى في سورة طه ((مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى)). فأما المكذب الذي صد عن سبيل الله فقد خسر خير لقاء الله تعالى بعد ان كذب قلبه ولم يعمل لربه فلا صدّق ولا صلى ولكنْ كذّب وتولّى وكان في اهله

مسروراً اذا ذهب اليهم من غير ان يهتم لعمل الآخرة فيكسل ويتمطى فرحاً جذلاً. وهنا يقول لسان حاله ومصيره (أَوْلَى لَكَ) أي سوف يليك ما تكره فأنت جدير به ولك الويل. ثم يؤكد على الويل مقابل ما تمتع به في تكذيبه وصدوده وفي هذا القول اشارة الى قوله تعالى في الآية السادسة والاربعين من سورة المرسلات ((كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ)). وقد روى ابن ابي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال هذا التوبيخ: ((أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى)) لأبي جهل ثمّ نزل به قرآن. وعلى هذا المشهد ينبه المولى إلى لقائه تعالى مع بلوغ الأجل. لكن الكافر لا يحسب للبعث حساباً ولذلك يحسب أنّ الامر والنهي من المولى تعالى لا يخصانه وكأنه سيُتْرَكُ سدى، أي مُهْمَلا. فليرجع الى خلقته الاولى في رحم أُمِّه من نطفة مِن صُلْبِ ابيه، استحالت بأمر الله تعالى الى علقة تنمو بعظام مكسوة بلحم وبعد نَفخ الروح بأمر الله تعالى يكون الإنسان خَلْقاً سويّاً، ذكراً كان أو انثى، بتقدير العليم الخبير. فهل هذه النشأة مستحيلة لكي يستحيل ما هو أهوَنُ منها وهو النشأة بعد الموت؟ اليس القادر على الاولى أقدر على الثانية كما جاء في الآية السابعة والعشرين من سورة الروم ((وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ))؟ وقد ورد حديث في ما يقال بعد سماع هذه الآية الاخيرة فقد روى ابو داود عن ابي هريرة قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((من قرأ منكم (والتين والزيتون) فانتهى الى آخرها ((أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ)) فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين. ومن قرأ ((لَا أُقْسِمُ بِيَومِ القِيامَةِ)) فانتهى الى قوله تعالى: ((أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى)) فليَقُلْ: بلى. ومن قرأ

(والمرسلات) فبلغ ((فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)) فليقل: آمنا بالله)). وروى ابن ابي حاتم عن ابن عباس انه مرّ بهذه الآية الأخيرة فقال: "سبحانك فَ(بَلَى)".

سورة الدّهر (وتسمى سورة الانسان)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (1) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (2) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3)

روى الامام مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة سورة السجدة (ألم~ تنزيل) وهذه السورة (هَلْ اَتَى عَلَى الإِنْسَانِ). وقال عبد الله بن وهب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه السورة وقد أُنزِلت عليه وعنده رجلٌ أسودُ فلما بلغ صفة الجنان زفر الرجل زفرةً فخرجت نفسُه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((أخرج نفسَ اخيكم الشوقُ الى الجنة)). ويخبر المولى عز وجل بأن الإنسان، وإن كانت نشأته حاصلة في علم الله تعالى إلا أنه لا يكون مذكوراً بين الناس إلا بعد أن ينشأ. وبيّن المولى القدير نشأة الإنسان من نطفة أمشاجٍ أي من ماءٍ ممتزج بماء آخر (أخلاط). ولكي يبتليَه جعله ذا سمع وبصر وعقل يدرك به ما حوله وينظر إلى مستقبله وهداه أي بيّن له سبيل الهدى بدلالة العقل فإما أن يسلكه شاكراً ليتصل مع الخالق بالعبادة والاخلاص، وإما أن يأبى كافراً بهذه النعمة ونعمة الآخرة. وهذا يعني أن للعبد أن يختار الطريق لإحدى هاتين الغايتين. روى الامام احمد قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((ما من خارج يخرج إلا ببابه رايتان، راية بيد مَلَكٍ، وراية بيد شيطان. فإن خرج لِما يحب الله إتّبعه الْمَلَك برايتهِ

فلم يزل تحت راية الْمَلَك حتى يرجع الى بيته. وإن خرجَ لِما يُسخط اللهَ تعالى إتّبعه الشيطان برايته فلم يزل تحت راية الشيطان حتى يرجع الى بيته)).

إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (4) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (5) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (6) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (7) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (9) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (10) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (11) وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (12) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (13) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (14) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (15) قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (16) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (17) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (18) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (19) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (20) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (21) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (22)

للكافر ما اعد الله تعالى له يوم القيامة وما بعده؛ سلاسل: أي القيود من الحديد، وأغلالاً: جمع غُل (بضم الغين) وهي ما يربط اليدين بالعنق، وسعيراً: وهي النار المضطرمة. ولكن الابرار (وهم الصادقون في الايمان الذين سلمت قلوبهم من حب الدنيا ومن فعل كل مكروه واذى وشرور حتى اطمأنت إليهم المخلوقات؛ صغيرُها وكبيرُها)، يشربون من كأسٍ، (ولا تسمى كأساً إلا وهي مملوءة بشراب)، فيها شرابهم من عين تتدفق عليهم متى شاؤوا بماءٍ ممتزج مع الكافور. وذكر المولى من صفاتهم ما أدخلهم به اللهُ تعالى هذا النعيم فهي الوفاء بما أوجبوه على أنفسهم أي

(النذر) فضلاً عما أوجبه الله تعالى عليهم، ثم خوف الشر المستطير يوم القيامة واطعام الطعام، وان كانوا اليه في حاجة، لمن هو احوج إليه منهم من أيتام ومساكين وأسرَى انقطع الكسب عنهم فلا حيلة لهم إليه، وكرمهم لوجه الله تعالى خالصاً وقلوبهم في وجل مخافة أن ينقطع عنهم مثلُه من ربهم في يوم عبوس قمطرير وهو اليوم الذي لا تكون فيه بشاشة الرضوان ويشتد عبوسه. وكان من جزاء ذلك انهم سلموا بإذن الله تعالى من شرور ذلك اليوم وأبدلهم المولى ما بَعَثَ إشراقةً في الوجوه وسروراً في النفوس. واسكنهم جنة وكساهم حريرا واراحهم على ارائك في ظلٍ واعتدالِ جَوٍّ أي لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً أي البرد الشديد. وانبت لهم في الجنة من الشجر قطوفاً دانية أي الثمار في متناول ايديهم. كما جعل لهم ما يكفيهم السعي من أجل الطعام والشراب إذ يطوف عليهم من يخدمهم ويقدم لهم الطعام بآنية من فضة، والشراب في اكواب من فضة. (والكوب ما لا عروة له)، وهي قوارير من الفضة الرائقة باحجام تناسب تقدير شاربيها فلا يزيد ما فيها على شربهم ولا ينقص. وسِقاؤهم كما سبق شرحه يمتزج به الزنجبيل يخرج من عين السلسبيل وهو شراب متمم للذة الكافور الذي يلطِّف منه فيكون الشراب معتدلاً. واما الذين يخدمونهم فولِدان لا يعرفون الموت. يحسبهم من رآهم لؤلؤاً غير منتظم بل متناثر أي منتشرون هنا وهناك لتلبية الطلبات. وعلى العموم فرؤية الجنة هناك رؤية النعيم الكبير الذي منحه الله تعالى لهم واسعاً تتوفر فيه مطالبهم وتلبى فيه مشيئاتهم ويزيدهم المولى فيه ما لا يتوقّعونه. ولبوسهم من حرير فالسندس حرير ناعم ويُلبَس أولاً تحت الإستبرق الذي هو دثارهم أي ملابسهم الظاهرة عليهم. وهو حرير لامع. وحُلِيُّهم اساور من فضة، وهي حُلِيُّ الأبرار. أما المقربون فقد قال تعالى عنهم في

الآية الثالثة والعشرين من سورة الحج ((..يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ)). واما الشراب الطَّهُور الذي سقاهم إيّاه ربُّهم فقد قال عنه الإمام علي بن ابي طالب كرم الله وجهه، كما جاء في تفسير هذه الآية لإبن كثير رحمه الله ((اذا انتهى اهل الجنة الى باب الجنة وجدوا هنالك عينين فكأنما أُلْهِموا ذلك فشربوا من إحداهما فأذهب الله ما في بطونهم من أذىً ثم اغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرةُ النعيم)). ونَضْرَةُ النعيم هي إشراقةُ السرور في وجوههم من طهر باطنهم. ويقال لهم بأن ما أعطاهم الله من أمنٍ وقرة اعين ونعيم انما هو جزاءٌ لهم في سعيهم المشكور إليه. والله تعالى شكرهم لأنهم أنقذوا أنفسهم من سخطه وغضبه ونالوا رضوانَه وجنتَه. وقد جاء في تفسير الامام عبدالله بن احمد النسفي لهذه الآية قوله: "نزلت في علي وفاطمة (عليهما السلام) وفي فضة جارية لهما لما مرض الحسن والحسين (عليهما السلام) نذروا صوم ثلاثة أيام فاستقرض علي كرم الله وجهه من يهودي ثلاثة اصواع من الشعير فطحنت فاطمة عليها السلام كل يوم صاعاً وخبزت فآثروا بذلك ثلاث عشايا على انفسهم؛ مسكيناً، ويتيما، واسيرا. ولم يذوقوا في إفطارهم وليل صيامهم إلا الماء))!

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (23) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (24) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (25) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (26) إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (27) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (28) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (29) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (30) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (31)

المنان سبحانه يذكر فضله العظيم على رسوله الكريم بنُزول القرآن. والذي أمره به هو الصبر على تبليغه حتى يحكم الله تعالى بالنصر والتوفيق لنشر الاسلام، وأن لا يأبهَ لمقاصد الذين يرتكبون الآثام ويضمرون الكفر إذا أرادوا المهادنةَ أو السكوت عنهم. وهذا عام لكل مؤمن أن لا يحيدَ عن القرآن من أجل غيره. وامر تعالى بالذكر بكرة واصيلاً والمقصود الصلوات بكرة أي في الفجر وفي الاصيل أي الظهر والعصر. (وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ) أي فريضتَي المغرب والعشاء ثم ندب للتهجد بقوله (وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا) كما جاء في سورة المزمل. اما اولئك اهل الاثم والكفر فان قلوبهم مُلئت حباً لملذات الدنيا الضالة التي تجلب عليهم سخط ربهم ولم تُبقِ فسحة لغيرها ففضلوها على الآخرة تاركين الاهتمام بما ينتظرهم في يوم ثقيل هو يوم القيامة. وينبه المولى تعالى إلى أنه هو الذي خَلْقَهم وشدّ أسْرَهم، أي أمَدّهم بقوة وبسطة في أسْرِهم، أي خِلْقَتِهِم. وكذلك يبدل بهم غيرهم عندما يشاء فيذهب بهم ويأتي بآخرين. وكفى بهذه السورة تذكرة تضع الانسان أمام اختيارين لسبيلين احدهما الى الله تعالى تحت راية الاسلام وعلى صراط الشريعة متجها الى ربه الكريم. والآخر تحت راية الشيطان الى بئس المصير. وما من إختيارٍ متروكٍ للإنسان إلّا ونتيجته في علم الله تعالى معلومةٌ من الازل. فمن كان اهلاً لسبيل الحق هداه الله تعالى بمشيئته ومن لم يكن كذلك تركه لهوى نفسه فالله تعالى هو الحكيم في مشيئته العليم باختيار خلقه فيدخل من شاء له الهدى في رحمته، وأعَدَّ لمن ظلم هذه الدعوة وجحد هذه الآيات عذاباً اليماً.

سورة المرُسلات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (1) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (2) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (3) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (4) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (5) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (6) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (7) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (8) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (9) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (10) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (11) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (12) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (13) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (14) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (15) أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (17) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (18) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (19) أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (20) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (21) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (22) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (23) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (24)

رجّحت التفاسير ان المقصود بالمرسلات هي الرياح الهادئة لقوله تعالى ((وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ)) وامثالها في إرسال الريح. (عُرْفاً): أي متتابعات كعرف الفرس. والعاصفات هي الرياح ذات الصوت الشديد تنشر الامطار التي ساقتها الْمُرسَلاتُ. وأمّا الفارقات فهي ما يفرِّق الحق عن الباطل وقيل هي الآيات. وأما الملقيات ذكراً فهم الملائكة يلقون الذكر؛ إما ان يكون وحياً للرسل، أو إرشاداً لمحو الاساءة أي عذراً لأجل المغفرة، أو نُذُراً للمنغمسين في المعاصي. أقسَم المولى تعالى بكل ذلك بأن الذي كَتَبَه من الوعد حاصل لا محالة. وعندئذ تُطْمَسُ النجومُ أي لا تعود يراها من الناس احد. فالمنكدر البعيد لا يمكن رؤيته. عندئذ تكون السماء منشقة على غير ما عهد الناس من رؤيتها من غير فطور. وعندئذ تُنسَفُ الجبال.

وعندها يأتي الانبياء عليهم صلوات الله وسلامه لميقات هذا الوعد وهو يوم الفصل الذي أُجّلت كل هذه الحوادث الى ميقاته، وهو للمكذِّبين يوم الويل (وهو حسرة الخاسرين ويأس المقبلين على عذاب شديد). فقد كذَّبوا بالحق وبمن جاء بخبره. وقد اهلك المولى الرعيل الاول من المكذِّبين الذين كذّبوا رسلهم؛ نوحاً، وهوداً، ولوطاً عليهم السلام. كما أهلَكَ الآخِرين من الذين كذّبوا صالحاً وشعيبا. وهذا يشمل المجرمين أمثالهم. واورد المولى حجته على انقطاع عذرهم بأنه خلقهم من ماء مهين (ضعيف بإزاءِ قدرة الله تعالى). ثم جعله مستقراً في الرحم ينمو جنينا ذا روح ويتغذى الى يوم هِجرتِهِ من الرحم الى الهواء الطلق. فقدرة الله تعالى هي التي حوّلت عيشه من السوائل يمتص منها غذاءه في الرحم من غير أن يحتاج معه الى الهواء فإذا به في أقل من طرفة عين لا يستغني عن الهواء. فمن كذَّب بالبعث مع هذه القدرة فويل له يوم يراه حقاً لا لبس فيه.

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (25) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (26) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا (27) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (28)

يبين المولى تعالى بعد قدرته في الخلق، وما فيه من دقائق العجائب، جانبا آخر من قدرته في خلق الارض وجَعْلِها تتقبل ما يُضَمُّ فيها أي ما يُكفَت فيها فتكون كِفاتاً له أي موضِعَ ضَمّهِ. وفي ذلك اشارة للمدافن والقبور. وبنفس الوقت جعل المولى تعالى الأرض تستوعب معيشة الاحياء عليها في مساكن تقيهم ما يخشونه فكانت كفاتا للاحياء. فظهرها للاحياء وبطنها للاموات. وقد ثَبَّت سبحانه أركانها بالجبال الشامخات الراسيات التي تحتضن السهول وتتوزّع من قممها المياه ومنها ما

يحبس فيها لينبع ينابيع فيدوم بذلك تصريف المياه العذبة الى القرى والمدن والمزارع. وهذا ما يدعو الى اليقين. فويلٌ للمكذبين يوم يعلمون انهم كانوا كاذبين.

انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (29) انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (30) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (31) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (32) كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ (33) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (34)

اذا تعددت الجهات التي تنبعث منها النار عندئذ تكون ظلال الاشباح القريبة منها متشعبة. فيؤمر أهل النهار بدخولها واذ يلجأون الى شجرة الزقوم وامثالها للاحتماء بظلها لا يجدونها ظليلة فظلها متشعب متحرك لا يغني من اللهب فالشرر يتطاير من اصوله فيبدو كالقصور الشاهقة أو الحصون العالية او جذوع الشجر الباسقات، أي المرتفعات طولاً، او أعناق الإبل في قوافلها. وهكذا الويل للمكذبين في أول عذابهم.

هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (35) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (36) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (37)

وهذا عذاب لاحِقٌ يتصل بالحسرات وبالمعاذير التي لا يسمح لهم بإبدائها فيتوقف نطقهم فويل لهم في مثل هذا العذاب في مثل ذلك اليوم.

هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (38) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (39) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (40)

يوم الفصل يوم الجزاء العادل فلا ظلم فيه. وعندئذٍ يخاطب رب العزة من كذَّب بما جاء به سيدُنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأنه جمعهم ومن سبقهم

من الأولين فإن كان لهم كيد كما كان لهم مكر في أيات الله، أو أن لهم قدرة او حيلة على الخلاص فليفعلوا ليرى كلٌ منهم هل سينفعه كيده أم لا؟ وعندئذ يصبر او لا يصبر فالحكم قد مضى عليهم، وويلٌ لهم.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (41) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (42) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (44) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (45)

هذا عذاب آخر للمكذبين فويل لهم عندما يكون حال المتقين في ظلال ظليلة وعيون غدقة وفواكه مشتهاة وتهاني مباركات، ويكون المكذِّبون في ذلهم وعذابهم يتلقون اللوم والتوبيخ وتسوؤهم الحسرة فوق الحسرة فويل لهم.

كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (46) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (47) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (48) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (49) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (50)

ويعود المولى عز وجل يخاطبهم، وهم في الحياة الدنيا، وبعد ما فصّل لهم مشاهد المكذبين في الآخرة لعلهم يُلَبُّون نداء الدعوة إليه والايمان باليوم الآخر ونبذ الكفر والشرك والنفاق. فذكَّرهم بما هم عليه من متاع الدنيا ما هو إلا طعام يفنى وَلِبْسٌ يبلى ومتاع قليل مهما طال بهم العمر وهم بآقون على جرمهم القبيح بالتكذيب لا يلبّون الداعي لهم للسعادة بالعبادة، فويل يوم الجمع للمكذبين. وهذا تهديد لهم. فإن لم يؤمنوا بهذا الحديث فأي حديث أفضل حجةً منه يمكن ان يؤمنوا به؟ وهل سمعوا حديثاً مثل القرآن يُتلى عليهم؟

سورة النبأ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (1) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (2) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (3) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ
(4) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (5) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7) وَخَلَقْنَاكُمْ
أَزْوَاجًا (8) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (9) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا
(11) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (12) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (13) وَأَنْزَلْنَا مِنَ
الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (16)

عن ماذا يتساءل كفّار قريش في مكة قبل الهجرة؟ والله تعالى يعلم انهم كانوا يتساءلون عن البعث بعد الموت استهزاءً بالخبر الهائل الذي أفزعهم.كما أنهم تساءلوا عن القرآن العظيم فقد اختلفوا فيه. وجاءهم الجواب زجراً وتهديداً بوعيد أكيد بأنهم سوف يعلمون (من غير شك) بتحقق ذلك من رب قدير جعل الارض مِهاداً أي ذات سهول وانبساط للرائي في سهولها وتلالها صالحة للسكن. وجعل الجبال مثبتات تحصر سهولها وتصرّف مياهها. واما البشر فالآية فيهم أن خَلَقهم أزواجا أي أجناساً وأصنافا، ذكوراً وإناثاً. وآية في حاجتهم لِلنوم فيه راحتهم أي سباتهم، وآية في سترهم في مساكنهم ليلاً فشبه الليل باللباس، وجعل سبحانه النهار منطلقاً للكسب وهو قِوام العيش. ثم تطرق المولى الى آيات السماوات السَبْعِ الشِداد، أي الشديدة، الْمُحْكَمَة في نَسْقِها الْمُحكَمِ، وفي قوانين طبيعتها في الجاذبية والإنتقال والدوران في افلاك والدوران حول المحاور لا يؤثر في نظامه سير الزمن. ثم بيّن اهمية الشمس المتوهجة فهي سراج في مجموعتها ومصدر الحرارة

الضرورية للزرع ولإثارة الرياح التي تتحرك حسب تعامد اشعتها واثر ذلك على تباين ضغط الهواء وبالتالي نزول المطر، فأنزل من السحب وهي المعصرات ماءً ثجّاجاً أي منصبا على الارض بكثرة. ينبت به الزرع من حب ونباتات اخرى. وتنشأ منه البساتين المثمرة ثمارا مجتمعة، والمشجرة ألفافاً أي اشجارا متشابكة مع بعضها.

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (17) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (18) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (19) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (20) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (21) لِلطَّاغِينَ مَآبًا (22) لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (23) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (24) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (25) جَزَاءً وِفَاقًا (26) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (27) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (28) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (29) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (30)

يوم الفصل له أجلٌ لا يعلمُه إلا الذي عَيّن وقّته سبحانه. ووقتُه هو موعد الفصل بين المؤمن والكافر والمحسن والمسيء والْمُحِقّ والْمُبطِل. عندئذ تستجيب الخلائق لنفخة الصُّور ويجتمعون أمَماً أفواجاً أي جماعات حسب اصنافها يَقدِمون على ربهم الجليل ويتجهون الى الأبواب التي يُفتح منها إلى السماء. وعندئذ تتحول الجبال الرواسي الى سراب أي لم تعد جبالاً. وتترصد جهنم للطاغين أي الذين تجاوزوا حدود الله تعالى في الاسراف في الكفر فمهما ارادوا سبيلاً للنجاة يجدوا جهنم مرصاداً أي نهايةً لمطافهم. فتتعاقب عليهم أحقاب، أي دهور وهم فيها ماكثون من غير ان يروا لها إنقطاعا. ولم يرد في التفاسير بأن للاحقاب نهايةً وذلك لإطلاق الجمع الذي يستدل منه على الإستمرار. اما البرد والشراب فممّا لا يتيسر لهم ولو مجرّد ذوقهما. إلّا أن الذي يتيسر لهم هما حميم، أي السوائل شديدة الحَرّ،

يعقبها غسّاق أي شديد البرد، مذكوران في الآية السابعة والخمسين من سورة (ص)، وما ينالهم ظلم في ذلك انما هو جزاء يتفق مع جرمهم الذي صنَّفهم لهذا العذاب. وقد أنذرهم الرسلُ إياه فلم يعبأوا بالنذير بل كذّبوا بحساب يوم القيامة ولم يصدقوا بما واجههم من آيات دالة على صدق الدعوة والدعاة. وقد سُجِّلت عليهم اعمالهم التي اوصلتهم الى عذاب يقال لهم معه: ((فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا)). والزيادة هي اليأس من الخلاص؛ فإنهم اذا سمعوا أن هناك مزيداً من العذاب فكيف يرجون الخلاص مما هم فيه؟

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (31) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (32) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (33) وَكَأْسًا دِهَاقًا (34) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا (35) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (36)

المفاز هو موضع النجاة والفوز والتنَزُّه. والسعيد من ينجو فلا يوجد بعد النار إلا الجنة ذات النعيم. يصف هنا رب العزة ما يرى اهل الجنة من موقع طيب ومعشر طيب. فالكواعب أي أجسامهن مكتملة لصفات الأُنوثة، والأتراب أي في سنٍ واحدة. واما الشراب فكؤوس بلذيذ الشراب متلاحقة دهاقا أي ملآنة. والكرامة التي قلما تتيسر في الحياة الدنيا هي ان اهل الجنة لا يسمعون فيها الكلام الذي لا فائدة منه وهو اللغو ولا يحمّلهم الكذابون اثم سماع الكذب اذ صفا الكلام للصدق وسلُمَت الجنان من النقص. وهذا جزاء أعمالهم. وصفة هذا الجزاء أنّه عطاء الرحمة حساباً أي لا يحتاجون أكثر منه كأن يقول من يتلقى العطاء مكتفياً: حسبي حسبي.

رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (37) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (38) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا (39) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (40)

ورد اسم الله تعالى هنا (الرَّحْمن) وذلك ان اهل الجنة يدخلونها برحمته أي يعاملهم بهذه الصفة الطيبة كما يعامل اهل النار بصفة اخرى تناسب عملهم فهو الحَكَمُ العَدْل. والخلائق لا يملكون منه خطاباً أي لا يقدرون على المبادرة بمخاطبته سبحانه مثلما كانوا يبادرون غيره. فالمشهد يومئذ يبعث على السكوت الخاشع إذ يرون الروح قائماً، (ورجّحت التفاسير كون الروح هو جبريل عليه السلام لقوله تعالى: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ) ومعه الملائكة في صف لا يتكلمون بإنتظار من يأذن الرحمن تعالى له بالشفاعة عالِماً منه القول الصائب في تمجيد المولى عز وجل وحمده والتوسل اليه. وفي صحيح البخاري عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مِن حديثٍ له: ((.. ولا يتكلم يومئذ إلّا الرسل)). فهذا جانب من يوم القيامة بعد الفَصَل بين الناس. والإذن بالشفاعة لمن أوجبت ذنوبه النار من اهل الايمان. ويدعى الناس لتلقي الجزاء؛ فيكون للكافرين عذابَ خُلد، وللمؤمنين نيلَ شفاعة، أو سَبْقَاً الى رضوان الله وهو اكبر من غيره لمن سبقوا الى الخيرات في الحياة الدنيا. وهذه الآيات الكريمة هي من حجج المولى عز وجل تواجه من بلغته الدعوة الإسلامية بنذير يُحَذِّر الكفار من عذاب يراه الله تعالى قريبا مهما طال أمد الوصول اليه. يومئذ ينظر المرء في صحيفته التي فيها عمله من افعال واقوال واحوال ويتمنى

الكافر اذ يرى العذاب أنْ لم يبعث بل يعود ترابا لا يذكره احد كما لم يكن يوماً ما شيئاً مذكوراً.

سورة النازعات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (1) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (2) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (3) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (4) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (5) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (7) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (8) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (9) يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (10) أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (11) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (12) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (13) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (14)

المقصود بالنازعات هم الملائكة الموكّلون بالوفاة ينزعون ارواح من تحين آجالهم. وغرقاً أي استيفاءً تاما. والتعبير مأخوذ من نزع القوس غَرْقاً، أي حتى يستوفي كافة امتداده لرمي السهم. واما الناشطات فالنجومُ السيّارة تنشط من محل الى آخر. أو هم الملائكة الموكلون بنشط الارواح أي اخراجها. واما السابحات فطوائف من الملائكة أو الخيل تسبح وتسبق في سبيل الله تعالى سبقاً. والْمُدبِّرات أمراً (وقد رجّحت التفاسير بأنهم المسخَّرُ من طوائف الملائكة لِينفذوا للعباد تدبير أمرٍ كان مفعولاً. وقد ورد غير هذا المعنى ويدور حول تسخير الملائكة لأمرِ الله تعالى. والمهم ان كل ذلك قَسَمٌ اقسم الله تعالى به ليدعو إلى الايمان باليوم الذي ترجف فيه الراجفة أي النفخة الاولى في الصُّور يصعق على اثرها من في السموات ومن في الارض إلّا من شاء الله. وتتبعها الرادفة أي النفخة الثانية فاذا هم على أثرها قيام ينظرون كما جاء في الآية الثامنة والستين من سورة الزُمَر. ويخبر المولى تعالى عن قلوب تكون يومئذٍ واجفةً أي مضطربة وهي القلوب المكذِّبة في الدنيا الخائفة المضطربة في الآخرة تدل على ذلك الأبصار الخاشعة من الهول الذي بعث في اصحابها الذل والانكسار بعدما تحقق لهم ما انكروه من البعث استهزاءً. فقد قالوا

آنذاك في حَيرة وإنكار عندما أتاهم خبر لبعث بعد الموت: "أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الحَافِرَةِ" أي إلى الحياة ثانيةً من القبور بعدما اصبحت الأجسام ترابا وعظاما نخرة أي بالية؟ ويقولون آنذاك في تكذيبهم بأنهم في هذا الأمر لو تحقق لكان كَرَّةً خاسرةً أي مرحلة خاسرة. ويردُّ المولى عز وجل عليهم بأن ذلك يتم بأمر واحد ليس يُثَنّى ولا يُكرَّر. فإذا بالناس يُزجرون، أيُ يساقون، من قبورهم بزجرة واحدة إلى الساهرة، أي وجه أرض منبسطة مستوية وذلك بالرادفة، أي النفخة الثانية. ولم يرد في الحديث تحديد موقعها وهل هو في الكرة الأرضية ام في غيرها اذ قال الله تعالى في الآية الثامنة والأربعين من سورة ابراهيم ((يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)).

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (15) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (16) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (19) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (20) فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَرَ فَنَادَى (23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (25) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (26)

ما حصل لفرعون تحذيرٌ لكفّار قريش من مصير مماثل لمصيره. فقد نادى الله تعالى سيدنا موسى عليه السلام في وادي طُوَى ليذهب الى فرعون ليدعوه إلى تزكيةٍ يَطْهُرُ بها من الشرك وليعرفه بالله تعالى فيهتدي إلى عبادته ويخشاه، وليريه آية العصا التي تكشف إفك السَحَرة. فما كان من فرعون الّا أن كذّب دعوة الحق ولم يكتفِ بذلك لِتَخَوُّفِه على منصبه إذ كان قد قال لقومه: ((مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)). وهذا التكذيب يوجب العقاب. وأراد أن ينهي الدعوة بمجابهتها بأعمال السحرة أمام شعبه. فجمعهم وادعى لنفسه الربوبية العليا على كل ربوبية. فكان إدِّعاؤه موجباً ثانياً للعقاب. ولم تُجْدِ معه الآيات فأخذه الله تعالى بالغرق نكال

التكذيب ونكال إدعائه الربوبية. وفي بعض التفاسير: أخذه الله تعالى بالغرق نكالَ آخرته التي خسرها بالتكذيب، ونكال حياته الدنيا التي لم تَدُمْ له. وفي ذلك عبرةٌ لمن يخشى.

أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (27) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (29) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (30) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (31) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (32) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (33)

بعد أن بين المولى تعالى قدرته في مصير فرعون وجنوده يبين حجته على منكري البعث هل يصعب بعثُ الموتى على من بنى السماء ومد سَمْكها (رِفْعَتها) فقد جعلها رفيعةَ السُمُوِّ عاليةً لا يُدْرَكُ مداها وأغطش ليلها أي جعله مُظلِماً. وأبرز ضحاها مبصراً بمواجهة الشمس. ودحا الأرض بعد ذلك أي بسط سهولها وتضاريسها الأُخرى كما يراها الإنسان من موقفه إلى آفاقها. وأخرج ماءها الذي تسرب في جوفها بعد هطوله فأساله. كما أنبت مرعاها، وأرسى الجبال، أي ثبتها، ينصرف منها الماءُ عيوناً وجداولَ وأنهاراً لتوفير الأقوات متاعاً للانسان ومراعي للحيوان. متاعاً يزول في أجل موعود. فسبحان مقدر الأقوات ومقسم الأرزاق يبتلي بها عباده أيهم أحسن عملا ليحق الحق ويظهر قدرته تعالى على ما يشاء في زوال المتاع في يوم لا بدّ منه فقال تعالى:

فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (34) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (35) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (36) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (39) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41)

يوم القيامة: داهية تطم أي تعلو علَى الدواهي في النفخة الثانية التي ورد ذكرها في أول هذه السورة بأنها (الرادفة). عندها يستعيد الانسان ما كان منه في حياته الدنيا ويُعرَض له مقعده فيرى الجحيم والجنة. فمن غلبت عليه شقوة الكفر كما طغا فرعون، أو أحب الدنيا أي الانغماس في لذاتها المحرمة ولم يعمل لآخرته شيئاً وكفر بما أنعم الله تعالى عليه فالجحيم مصيره ثاوياً فيها. وأما من اهتدى الى الايمان والعمل للآخرة ولم يسمح لما تهوى النفس من الشهوات الضالة والملذات المحرمة أن يعيقه عن عمل الآخرة فإنه سيجد مأواه في الجنة.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (42) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (43) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (44) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا (45) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (46)

السؤال عن الساعة؛ اما ان يكون من الكفار إستبعاداً أو استعجالاً من التكذيب بها، أو أن يكون من حديثي الايمان يستفسرون عن علمها فيجيبهم المولى قائلاً لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأنه أي الرسول ليس له علم بها فكيف يتسنى له أن يجيبهم عن موعدها؟ وهذا ما لم يؤمر به. إنما أُمِر ان يخبرهم عنها وينذرهم عذابها ليحذرَهُ الذين يخشون ربهم. وأما بالنسبة للجميع فكأنهم يوم تقوم الساعة لم يمكثوا السنين الطوال التي مرت على كل منهم بل تقصر ذكرى الحياة الدنيا في منظورهم حتى يروها لا تعدو عشيّةً أي ما بين الظهيرة والمغيب أي أحد طرفي النهار، أو ضحىً، أي بين ارتفاع الشمس ووقت الظهيرة أي الطرف الثاني للنهار. أي انهم لم يلبثوا نهاراً كاملاً فإما أول النهار أو آخره لا أكثر.

سورة عَبَسَ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ
فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (4) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (7)
وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (8) وَهُوَ يَخْشَى (9) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (10) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (11)
فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (12) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (13) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (14) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ
(15) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (16)

أُنزِلت هذه الآيات وفيها بيانُ توجيهٍ للمؤمنين في ظروف خاصة كما حصل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع عبد الله بن أُمِّ مكتومٍ، وهو الصحابي الضرير رضي الله عنه. فقد اتفق مجيئُ إبن أُمِّ مكتوم الى الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مع وجود بعض عظماء قريش عنده يدعوهم الى الاسلام وهم يصغون اليه فكانت فرصة لعلهم يسلمون فيكونون عوناً على نشر الدعوة وكان ذلك في مكة قبل الهجرة. وأبن ام مكتوم، على غير موعد ومن غير أن يرى ما يجري، أقبل يسأل قائلاً (يا رسول الله عَلِّمْني مما عَلَّمك الله!) وبهذا قطع ما كان يجري من حديث من غير قصد ثم كرّر طلبه مما ظهر أثره على وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وعلى أثر ذلك نزلت الآية لتعاتبه. وبيّن المولى تعالى أنّ إبنَ أُمِّ مكتومٍ جاء ليزداد علماً فيزكو عمله ويتقرب الى الله تعالى. وأنّ الذين اراد الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أن يدعُوَهم ويحرص على ايمانهم لمكانتهم من قريش ليس لهم الأهمية مثل المؤمن الذي سبق في الايمان. فلا يُسأل عنهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلّا بقدر تبليغهم فما عليه من عتب إن لم يتزكّوا، كما ليس عليه من بأس

إن لم يُسلِموا. وكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذلك لا يخص أحداً بالإنذار فلا فرق فيه بين الغني والفقير والسيد والعبد والصغير والكبير. واما هدايتهم فموكول امرهم فيها الى الله تعالى. ثم انه صلى الله عليه وآله وسلم كان يكرم ابن ام مكتوم بعد ذلك وقد جعل الله تعالى هذه الآيات تذكرة أي موعظة تبقى في الذاكرة للعمل بموجبها. والله تعالى يلهم الصواب. وبيّن تعالى أهمية هذه التذكرة انها مثبتة في صحف مأخوذة من اللوح المحفوظ مكرّمة مرفوعة القَدر طاهرة عن وصول غير الملائكة المختصين اليها، وهم الذين يكتبون من اللوح المحفوظ أي سَفَرَة جمع سافر وهو الكاتب الذي يكتب السِفْر أي الكتاب. وهم كرام على الله تعالى بَرَرَةٌ أي اوفياء أتقياء وقال الطبري هم السفرة (جمع سفير) بين الله تعالى وخَلْقِه.

قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (22) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (23)

عند ذكر الذين لا يؤمنون باليوم الآخر يشير اليهم المولى عز وجل بكلمة (الانسان) وعند ذكر المؤمنين يشير إليهم بصفتهم كمؤمنين؛ فإما أن يخاطبهم فيقول (يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنوا)، واما أن يبين شيئاً عنهم فيقول (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا). أما الانسان الذي لا يؤمن باليوم الآخر فيذكره بصيغتين؛ الاولى تحمل المقت بقوله (قُتِل الإنسان)، والثانية تحمل التعجب من كفره بصيغة التعجب: (ما أكفره)! للدلالة على شدة الكفر أو للتعجب مما اورده موارد الكفر وقد منحه خالقُه الكريم أسباب الإيمان بفِطرَةٍ سليمة، وعقلٍ مرشد، وأرسل اليه الرسل فبينوا له سبيل الرشاد وانذروه سبيل الكفر. وبعد موته كرّمه تعالى على الحيوان بدفنه في قبر يواريه. ومع هذا يقف

الانسان المجرد من الإيمان مُنكِراً ما بعد القبر من بعث. ثم يبين المولى عز وجل أن النشور يُنَفَّذ في الموعد الذي كتبه بمشيئته تعالى وهي المشيئة التي خلق الإنسان بها ويسره السبيل بها وأماته بها. فكيف لا تُنَفَّذُ بإعادته الى الحياة ثانية؟ وبعد هذا البيان يزجره المولى عز وجل بأن هذا هو الحق وليس بما يتوهم الكافر من كفر ويظنه أداءً لحق ربه. كلاّ بل لم يقضِ ما أمره به من ايمان وطاعة إلى أن قضى ما كتب الله تعالى له من مدة في حياته الدنيا.

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (28) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (29) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (31) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (32)

بعد أن أورد المولى تعالى ما انعم على النفس الانسانية أخذ يعدد ما هيأ للإنسان من نعم لتدوم بها حياته وقوّته فلينظر أي فليفكر هذا الانسان بما حصل من هذه النعم؛ من هطول المطر وأعمال الحراثة والزرع والإنبات وخروج الاقوات؛ منها للانسان: الفاكهة، وللحيوان: القَضْبُ وهو الاعشاب الرطبة يقضبها الحيوان قطعة قطعة. ثم ذكر سبحانه غذائين رئيسين من شجرتين مباركتين وهما الزيتون والنخل. فالزيتون يؤدَم به وبزيته ويُدَّهَنُ للعلاج بزيته، وأما النخل فتمره يؤكل في مراحل نموه رطباً وتمراً مجففاً ويعصر ايضا (كما في الآية السابعة والستين من سورة النحل: "تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا"). والغُلْب جمع غَلْباء، وهي الشجرة الْمُلتفّة الغليظة ويقصد بذلك هنا بساتين الاشجار المتشابكة ذات السيقان الغليظة. وأما الفاكهة ففي اللغة هي الثمار الناضجة التي تؤكل رطبة. وأما الأبُّ (بتشديد الباء) فهو ما تأكله الدوابُ مما تنبت الأرض ولا يصلح طعاما للانسان.

وهذا المعنى مأخوذ من الآية اللاحقة: (مَتَاعَاً لَكُمْ) أي للانسان (وِلأَنْعَامِكُمْ) أي للحيوان. ولم يرد في التفاسير ما يناقض ذلك.

فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (33) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (37) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (38) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (39) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (40) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (41) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (42)

الصاخّة من أسماء يوم القيامة حيث تكون صيحتها صاخّة للاسماع أي شديدة الارتفاع في الأذان تكاد تصمها. فاذا جاءت أي قامت القيامة وتحقق للمُنكِرين ما أنكروه يهتم كل امْرُءٍ بنفسه طلباً للنجاة ولا يهمه شأنُ أقربِ الناس إليه. وينقسم الناس الى قسمين؛ اولهما اصحاب الوجوه المضيئة المتهللة بنور ايمانها المستبشرة بما ستلقاه من نعيم، وثانيهما الاشقياء ذوو الوجوه المغبرّة من غَبَرَةٍ (أي غبار)كفرهم بالرسالات الربانية وفجورهم بحقوق العباد فقد اجتمعت عليهم غبَرَةُ الكفرِ وقَتَرةُ الفجور أي أثره الأسود، فهم الكَفَرةُ الفَجَرة (جمع كافر وفاجر).

سورة التكوير

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (3) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (4) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (6) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (10) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (11) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (12) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (13) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ (14)

تكون النفوس يوم القيامة في حَيْرَةٍ من امرها. فقد انقضت ايام الحياة الدنيا بما زخرت به من عمل يُذكر منه ويُنسى. ولكن الله تعالى أحصاه. فالمؤمن الذي عمل الصالحات لا يستطيع ضمان النجاة ما لم يتلقَّ بيمينه صحيفتَه بعدما تُنشر الصحف. يومها تتكور الشمس على بعضها؛ (فإذا أثبت العلم أن عناصرها في حالة غازية فمعنى ذلك هو تحوُّل عناصرها إلى صلابة لبرودتها فلا أشعة لها، والله أعلم). ويومها تنكدر النجوم أي تتهاوى. والجبال تزول عن أماكنها. واما العِشار، ويطلق الإسم على إناث الإبل التي بلغت شهرها العاشر في الحَمْل وعلى وشك الولادة فتهمل لأن الأمر أدهى من الإهتمام بها. واما الوحوش فتشعر بالهول وتهرب من اماكنها وتموج قطعانها ببعضها تتبع أول من يهرب وفي التفاسير أنها تُقبض وتحشر للإقتصاص ثم تُفنى. ويومها تسجر البحار (وهذا يمكن تصوُّرُه من ثورة البراكين من قيعانها والله أعلم). وأما النفوس فتتجمع أصنافاً: كل صنف في صعيد،

فلكل شكل من اشكالهم عمل مشترك في ما بينهم فيكونون ازواجاً ثلاثة؛ أصحاب الميمنة، واصحاب المشأمة، والسابقون الْمُقرَّبون. وفي تفسير النسفي أن هذا يحصل اذا بعثت النفوس أي قُرِنت بأجسادها. وأما سؤال المؤودة، (وهي الطفلة الرضيعة التي يدفنها أبوها في التراب خشية أن تكبر وتجلب له العار)، عن سبب قتلها، فهي يوم القيامة تريد جواباً فيقال لها: بأيِّ ذنبٍ قُتِلْتِ؟ فتسأل بدورها ذلك السؤال. وعلى من وأدها أن يجيب فلا عذر له. أما من فعل ذلك قبل الاسلام ثم بعدما جاء الاسلام أسلم وحَسُن إسلامُه وندم على الوأدِ، فقد روى عبد الرزاق في الجامع عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: "جاء قيس بن عاصم الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يارسول الله اني وأدْتُ بناتٍ لي في الجاهلية. قال ((أعتِق عن كل واحدة منهن رقبة)) قال: يا رسول الله اني صاحب إبل. قال ((فانحَر عن كل واحدة منهن بَدَنةً)). ونَحْرُ البدنة هنا هو انه يهدي بعيراً فينحره للفقراء. واما نشر الصحف فهي انتشارها فوق الخلائق فتتجه صحيفة كل واحد إليه؛ فتأتي إلى السعيد في يمينه، وتأتي إلى الشقي في شماله. وكشطُ السماء إزاحتها، فالكشط في اللغة: إزاحة غطاءٍ أو جلدٍ عن شيءٍ ما. وهذا يتفق مع قوله تعالى ((يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ))، وقوله ((إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ)). وأما الجحيم فتُسعَر أي توقد بتزايد اللهب فيها. واما الجنة إذا أُزْلِفَت (قُرِّبَتْ) فإنها تكون على مرمى بصر أهلها قريبة منهم عندئذ تزول حيرة النفس المؤمنة لقربها وصحة ظنها الحسن بالله تعالى. وعندئذ تعلم كل نفس برصيدها من خير أو من شر حاضراً لا يغيب منه شيء.

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (16) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (17) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (18) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (21) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (22) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (23) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (24) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (25) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (27) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (29)

في تفسير الطبري عن الإمام علي كرم الله وجهه أنّ ((الْخُنَّس هي النجوم تخنس بالنهار أي يخفت نورها فلا تظهر لِغَلَبَةِ ضياء الشمس عليه وتظهر في الليل))، وهي تجري في أفلاكها تكنس أي تغيب ثم تظهر. وهذا معروف في علم الفلك فالنجوم التي نرى مواقعها تتغير هي الكواكب السيارة تعكس ليلاً ضياء الشمس فنراها تتلألأ في السماء إذ يكون جزؤها المواجه للشمس منيراً وجزؤها المقابل له معتماً. وهذا يظهر بوضوح من الصور التي تنشرها المراصد الفلكية للاجرام السماوية إذ يبدو واضحاً منها الجزء المنير ويقابله الجزء المعتم مع ظهور تضاريسها. ويقسم الله تعالى بها وبالليل اذا عسعس (إختفى) أي ذهب مع الفجر والشروق. وبالنهار اذا خَفَتَ نور الشمس فله مُتنَفّسان: تباشيره في أول النهار، ثم الشفق في آخر النهار، ثم غَلَبَةُ الظلام عليه. وهذا القَسَم ردع للمكذبين لبيان بطلان تكذيبهم مع ظهور قدرة الله تعالى في ما خلق، ودِقّةِ ما قدّر لحصيلة هذه الحركة من ليل ونهار. وكذلك لبيان سمو القرآن الكريم عن تكذيبهم فهو كلام الله تعالى ارسل به سيدنا جبريل عليه السلام رسولاً كريماً، أي لا يُتّهم لسمو شرفه في السماء عند مولاه الذي مكّنه بمنزلة رفيعة فلا يرقى إليه شك ولا رِيبة في ما يكلف

به من تبليغ الأمانة بما حباه الله تعالى به من شدة الخَلْقِ المؤهل لتنفيذ أمر الله تعالى. فهو الْمَلَكُ المقرّب الذي لا يصل غيره من الملائكة الى ما يصل اليه من القُرْبِ لتلقي القرآن الكريم وتبليغه بِحِفْظٍ من الله تعالى له ولكتابه. وبيّن تعالى منزلة سيدنا جبريل عليه السلام في السماء أن جعل أمرَه مطاعاً بين الملائكة لتنفيذ ما يأمر الله تعالى به. وبين أمانته وبذلك لا يرقى إلى القرآن شك ولا ريبة في نزوله وفي حفظه ولله الحمد والمنة. وفي ما يخص تكذيب كفار قريش، فإن ينسبوا الجنون للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهم يقصدون بذلك انه (حاشاه) يأتيه شيطان من الشياطين فقد كذبوا واهمين في ذلك لأن الشياطين لا تأتي بالحق الذي جاء به ولا يمكن ان يشاهدوا في الافق المبين ما شاهده سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم من جبريل عليه السلام إذ رآه في الأُفُقِ وقد سَدَّهُ بأجنحته فلا يمكن أن يُظَنّ به الكذب أو يُتّهَمَ على صحة ما رأى. فهو الصادق الامين لا يُخفي من كتاب الله شيئاً ولا يضِنُّ (أي لا يمسك ببخل) بعلم عَلّمَه الله تعالى إياه. فقد اتصف بصفتَي الصدق والأمانة في أداء الرسالة فلن يجد الذين يكذّبونه حجةً بل تقوم الحجة عليهم. فأين يذهب الكافر من إقامة هذه الحجة وأين يذهب فكره الى بطلانها ويتجه زيغه الى تكذيبها؟ وها هو القرآن نور وهدىً للناس اجمعين في كل عوالمهم من حيث الزمان والمكان. فمن أراد الإستقامة وجد فيه الهدى والنجاة مما لا يحصلان في غيره. وقد قال أبو جهل لَمّا سمع هذه الآيات: "الامر إلينا إن شئنا إستقمنا وإن شئنا لم نستقم"! فأنزل تعالى قوله ((وَمَا تَشَاؤُونَ إِلّا أَنْ يَشاءَ اللهُ رَبُّ العَالمِينَ)). فالهدى معروض للناس. فمن صدَّقوا وصَدَقوا ورغبوا في الإتّبَاع والرغبة الى الله تعالى أكرمهم سبحانه من مشيئته بالهدى، أي يوَجّه مشيئتهم الى

الإستقامة. وإن وجدهم في شك وكبرياء وجحود لم يوفقهم الى اختيار الهدى، وتركهم في طغيانهم يعمهون.

سورة الإنفطا ر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (2) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (3) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (4) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (5)

السماء تنفطر يوم القيامة أي تنشق على غير ما عرفه الناس منها قبل القيامة بلا فطور. بل كما قال تعالى في سورة الْمُزّمّل ((السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ)). ويتزامن ذلك مع حوادث اخرى هي: إنتثارُ الكواكب مثلما يتساقط الشيء مجزأً من الأصل، وتَفَجُّر البحارِ بإضطرابها واختلاطها، وتَبعثُر القبور (أي تُحَرَّكُ حركةً يخرج من جرائها من فيها يبعثهم الله عز وجل). فاذا بُعِثت النفس عُرِضَ لها ما قدَّمته للآخرة فكان مكسباً لها، وما أخَّرَتْه في الدنيا إما بمعصية أو بخسارة ثواب.

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (8) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (9) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (12)

النداء من الله تعالى للانسان هو غير خطابه للمؤمنين فقوله تعالى هنا: يا ايها الإنسان، يستدل منه أن الخطاب موجّه للناس بإستثناء المؤمنين بدليل ردع من لم يؤمن وزجره بقوله تعالى ((كَلّا! بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالْدِّينِ)). ففي الناس من لم يؤمن باليوم الآخر تكذيباً للرسل وإنكاراً لقدرة الله تعالى على البعث. وقد ظهرت القدرة الربانية في خِلْقَةِ الانسان السوية المعتدلة في أحسن الهيئات والأشكال فلا ينسب

لهذه القدرة ما يعجزها عن البعث بعد الموت فما هو الذي غر الانسان أي خدعه حتى أوصله الى الغفلة ثم الجحود بالحق؟ ما الذي يحمل المغرور على التكذيب بيوم الدين بينما حسابه واقع لأن عمله يكتب عليه من أجل محاسبته في ذلك. يكتبه الكرام الذين هم مع الحق مكرمون عن الكذب وعندهم صحة العلم بما يفعل الإنسان فلا يخطئون في فهمه.

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (15) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (16) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (17) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (18) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (19)

الابرار هم الذين لم يقابلوا أوامر الله تعالى بمعصية بل أطاعوه بما أمر ونهى فبَرُّوا العهد معه سبحانه وبروا في عبادتهم ومعاملاتهم. ومن ذلك بِرُّ الوالدين. وهنا يؤكد المولى عز وجل نعمته عليهم بنعيم الآخرة في النجاة وكسب درجات الجنان وفاءً منه لوفاء البِرِّ الذي كان منهم في الحياة الدنيا متمثلاً بإخلاص الدين لله في إعلاء كلمته والصبر على مشيئته والشكر على ما أنعم عليهم به من الهدى وقيام الرزق وما أولاهم من رعاية ولطف. وأما الفجار فهم من الأشرار الذين مرّ ذِكرُهم، اهل الظلم والزيغ والجحود والتكذيب والإنكار، وهم أهل الجحيم يؤخذون اليها يوم الدين فلا يفلتون منها وما أدراك ما ذلك اليوم؟ يوم هائل لا تملك فيه نفس لنفس شيئاً من شفاعة ولا تحمل نفس عن نفس تخفيفاً لها. حتى ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال في ما رواه الإمام أحمد عن ابي هريرة رضي الله عنه قوله لِبني هاشم ((يا معشرَ بني هاشم أنقِذوا أنفسَكم من النار! يا معشرَ بني عبد المطلب انقِذوا انفسَكم من النار! يا فاطمة بنت محمد انقذي نفسك من النار فإني والله لا أمْلِكُ لكم من

الله شيئاً..)). والأمرُ يومئذٍ لله. لله جلّ عُلاه؛ له الإذن بالشفاعة، وله قبول الأعذار، وله العِتق من النار. يغفر لمن يشاء ويعذِّب من يشاء فلا يُنسَب إليه في ذلك ظلم. وهو الخبير بأحبابه، أحبهم وأحبوه في الدنيا، ورضي عنهم ورضوا عنه في الدنيا والآخرة. وذلك يبشر الله به عباده ويحذرهم من خسارته.

سورة المطففين

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (6)

((وَيْلٌ))! كلمة تنذر بالعذاب الشديد توعّدَ بها المولى عز وجل المطففين. ثم بيّن تعالى جريمتهم في الكيل والميزان؛ فالقِسطُ هو إستيفاء حقِّ الموازين واستيفاءُ حدِّ المكيال. فمن بلغ به الطمع في حقوق الناس الى الخداع تجده يرجح كفته بغير حق أو ينقص مكيال غيره بدون وجه حق. وهذا هو التطفيف، وفي اللغة هو التقليل. ويقاس على ذلك في ترجيح أحدهم مصلحته على مصلحة غيره بغير حق. وينكر المولى تعالى على المطففين تجاهلهم ليوم الدين كأنّ الامر لم يبلغهم أو كأنهم لم يؤمنوا بالحساب الذي سيشمل كل صغيرة وكبيرة حلت في أيديهم. أما عظمة ذلك اليوم فتتمثل في شدته على الناس فقد روى البخاري ومسلم عن نافع بن عمران رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه الى انصاف أُذُنَيه)). أي ان العرق قد تصبب منه حتى بلغ أنفاسه. ويعرف ذلك اليوم من النفخة الاولى في الصُّور كما جاء في الآية الثالثة عشرة من سورة الحاقة.

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (7) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (8) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (9) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (10) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (11) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (13) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ (16) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (17)

ينبه المولى عز وجل هؤلاء الغافلين بكلمةِ رَدْعٍ: (كلا)! ليرتدعوا ويتوبوا خوفاً من أن يُعْطَوا كتابهم بعد إخراجه من ديوان الشرور واسمه (سِجّين) صفة للسجن بصيغة المبالغة. وهذا الديوان هو موضع تسجيل أعمال الكفار من الجن والانس. فكتاب من يطفف يكون فيه. وكلمة (ويل) هي إنذار للمكذبين الذين لا يؤمنون بالبعث بعد الموت ثم بالحساب يوم يدانون بما كذبوا به من قبل. ووصفهم المولى بتجاوزهم حدود الحق في أفعالهم الأثيمة وظنونهم السيئة بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم حتى وصفوا القرآن وما فيه بالأساطير القديمة التي كانت تصل اليهم على شكل ملاحم وأباطيل. ويردعهم المولى تعالى فيبيّن لهم ان الذي حجب قلوبهم عن الحق هو الرَين وهو الدنس الذي يخرج مما كسبوا من فعل السوء فيأخذ طريقه إلى القلوب ليحيط بها. فإن لم يتوبوا عنها فإنه يحيل القلوبَ سوداءَ لا مجال لنفاذ نور الحق اليها. وكما أن تراكم الذنوب أحاط بالقلب وحجبه عن الحق في الحياة الدنيا الفانية فإنه يكون سبباً ليحجبهم به المولى عز وجل عن نور وجهه يوم يكشف للمؤمنين. وهذا يعني حرمان اولئك المكذبين من رضوان الله تعالى. ولا يُترَكون من غير عقاب فإنهم صالُو الجحيمِ أي داخلون فيها فيساقون الى الجحيم وهي النار التي تكون في هاوية في جهنم التي كذبوا بها في الدنيا ويتأكد لهم خبرها في الآخرة.

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (18) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (19) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (20) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (21) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (22) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (23) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (24) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (25) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26) وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (27) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (28)

قوله تعالى (كلا) هنا تعني (حقاً) وهي بنفس الوقت زجر للمكذبين لبيان حرمانهم مما سيذكر هنا. فإن الابرار تُرفَعُ حسناتُهُم الى ديوان الحسنات وفعل الخيرات في عليين أي الدرجات العلى قريباً من الملائكة المقربين. ويكون الابرار بعد موتهم في نعيم الجنة حيث لا ينالهم الجهد بل في راحة ودَعَة على الارائك ينظرون الى ما أكرمهم الله تعالى به ولم يحجب عنهم نوره ورضوانه. واذ يرى الابرار ذلك ترتسم على وجوههم سيماء السعادة ونضارة الطمأنينة وذوق النعيم. وشرابُهم رحيق أي الشراب الذي لم يخالطه ما يشينه ومن قبيل ذلك خمر الجنة. وسميت بهذا الاسم لكونها تختلف عن خمر الدنيا في لذتها وطيب نكهتها من المسك وحُسْنِ أثرها في النشوة الواعية وطيب العافية. وهذا النعيم ليس مقصوراً على أحد دون أحد بل عُرضة للمنافسة لكي يناله كل مؤمن ومؤمنة اقتصرت اعمالهم واقوالهم على ما يرضاه الله تعالى، وأتبعوا سنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في أحواله السامية واخلاقه الفاضلة. وكما تمزج أشربة الدنيا بما يطيّب نكهتها فمزاج الرحيق الذي ختامه مسك يكون من عينٍ إسمُها (تسنيم) وهو مصدر سَنَمَ أي رَفَعَ، لأنه أشرف شراب أهل الجنة فمن شربه أي الرحيق صرفاً غير ممزوج كان آخره طعم المسك ومن

شربه ممزوجاً بماء عين التسنيم فهو قد ذاق ذوق المقربين الذين يشربون منها بالإضافة إلى ما في الرحيق من مزايا.

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (30) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (31) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (32) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (33) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (35) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36)

عودة الى المجرمين الفجار ليبين المولى تعالى بماذا استحقوا الحرمان من الرحمة والرضوان يوم القيامة. فقد وقفوا أيام الحياة الدنيا من المؤمنين موقف الساخرين الذين يطعنون بهم أي يتغامزون عليهم بأعينهم استخفافاً عندما يرونَهم في الطُرُقات والأسواق. ولا أثر لصحوة في ضمائرهم تدعوهم للتفكير ثم التمييز العقلي لترجيح ما هو خير لهم. وقد نزلت هذه الآيات قبل الهجرة وكان سيدنا عليٌّ كرم الله وجهه في طريقه إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعدما مرَّ بكفار من قريش فأخذوا يتغامزون ساخرين وقال أحدهم: "أُنظروا أُنظروا إلى هذا الأصلع". ثم ذهبوا الى بيوتهم وكانوا من سخريتهم بالمؤمنين فكهين، أي فرحين بما فعلوا. فاذا رأوهم مرة أخرى حسبوهم في ضلال لانهم لا يعرفون الهدى. وهذا الموقف الغافل عن الحق جعلهم يتتبَّعون ما لا يعنيهم من امور الناس لانهم ليسوا مسؤولين عن ايمان غيرهم او ضَلالِه ولم يكلِّفهم أحد بمتابعة تصرفات المؤمنين وعبادتهم. فإذا جاء الوعد الحق وقضي بين العباد يخبرنا المولى تعالى عن يوم الجزاء ليشفي صدور المؤمنين بما يشاهدون، وهم في أرائك النعيم، ما صار إليه حال المجرمين. يومئذٍ يضحك المؤمنون من الكفار إذ يرون بأعينهم ما جلبته عليهم أفعالهم.

سورة الإنشقاق

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (1) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (2) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (3) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (4) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (5) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (6) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (8) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (9) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (10) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (11) وَيَصْلَى سَعِيرًا (12) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (13) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (14) بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (15)

سبق الحديث عن انشقاق السماء يوم القيامة فقد أذِنت أي سمعتْ لربها جل شأنه فأطاعت وحق لها أن تطيع فهو العظيم الذي قال لها وللارض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا اتينا طائعين. ويتزامن ذلك مع استواء السهول مع الجبال فتلقي الأرض ما في جوفها من حُمَمٍ وموتى، مطيعةً وحق لها أن تطيع جبار السماء والارض. وينادي ربُّ العزةِ إبنَ آدمَ فَيُذَكِّره بأن مصيره بعد كدحه أي (جهده في حياته الدنيا) سيلقى عمله وجهده من غير نقص أو ظلم. فقد روى ابو داود عن جابر رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان جبريل قال له ((يا محمد عِشْ ما شئت فإنك ميّت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه)).كما ان العبد سيلقى ربه فيكون قد لقي عمله وكفى به بنفسه يوم الدين على نفسه حسيباً. وهذا تذكير للمؤمنين ليكون كدحهم في طاعة الله تعالى مع الابرار. فاذا نشرت الصحف تلقاها باليمين أهل الخيرات فحوسبوا حساباً يسيرا

ويذهب كل منهم الى منزله في الجنة، الى حيثُ أهلُه، مسرورا. واهلوه هناك هم مَن صلح من ازواجهم مع من زوَّجهم الله تعالى بهن من الحور العين. ويتلقى الفجار صحفَهم المقيته بأيديهم الشمال التي قيدتها الاغلال وراء ظهورهم. وهنا لا يملك أحدهم الّا الحسرة فيعبر عنها بقوله (واثبوراه واويلاه) فيندب حظه الخاسر ومصيره اليائس اذ لا يجد عن السعير محيدا. هذا حال المكذِّب الذي ابطرته النعمة في الحياة الدنيا فقد كان ينقلب الى منزله مسروراً متجاهلاً ما أنذره المولى تعالى به من مصير. ومن تكذيبه بالبعث اعتقد بأنه لن يحور أي لن يرجع الى ربه الجليل. والرد عليه جاء بتأكيد الله تعالى بأنه سيعيده كما بدأه وقد كان تعالى بصيراً بعمله خبيراً بنواياه.

فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (16) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (17) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (18) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (19) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (20) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (21) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (22) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (23) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (24) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (25)

القَسَم من الله تعالى بهذه الصيغة لتشديد الوعد. والشفق هو نهاية ضوء النهار حتى تدخل العتمة أي دخول وقت صلاة العشاء. والليل وما وسق أي حمل. وحمله ما يُسْتَجَدّ فيه لكل إنسان من أفعال وسكون. والقمر اذا اتسق أي إكتمل بدراً فاقسم تعالى: ليتحوّلن حالهم الى حال غيره.فقد روى ابن ابي حاتم عن جابر رضي الله تعالى عنه من حديث طويل قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في آخره: ((لتركبن طبقاً عن طبق أي حالاً بعد حال)). وهذا التعبير يشمل احوال الانسان المختلفة مع تكرر الايام وصروف الدهر واحواله من الرحم الى القبر الى الحساب الى

الجزاء. وقيل هي طبقات السماء تعرج الارواح فيها. ولا يُستحسن التطرق الى ما يستجد من علوم ورحلات بعيدة عن الأرض فلا يعرف مداها مع استباق الانسان لغزو الفضاء وإنْ كانت مشمولة بالاحوال التي قال عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((من حال الى حال)). وهذا التعبير من معجزاته فالاحوال تشمل كل المتغيرات التي يمر بها الانسان فيركب اطباقها أي يبلغ ما قُضِي له بها. فما لهؤلاء الكفار لا يؤمنون ولا يتأثرون بإعجاز القرآن ولا يأبهون لنذيره ولا ينتفعون ببشيره؟ واذا اقرىء عليهم لا تخشع قلوبهم وجوارحهم لعدم معرفة عظمة ربهم فلا تنحني لذلك جباههم الى الارض خاشعين في خشية ورغبة؟ (الآية تحمل سجدة تلاوة). وأنى لهم هذا وهم يكذِّبون الصادق الامين صلى الله عليه وآله وسلم؟ والله تعالى يعلم بتكذيبهم. فالكافر يُكذِّب بظاهر القول منه وباطن النية عنده. والله أعلم بما يوعي أي ما يضمر في قلبه. فالقلب وعاء النوايا، والمنافق يُكذِّب بما يعلم من قلبه ولا يبدي ذلك بلسانه. فلهم البشرى بالعذاب الأليم. ويُستثنى الذين آمنَتْ قلوبهم وصلُح عملُهم في النيّة والجوارح فأجرهم في الآخرة غير ممنون أي غير منقوص ولا منقطع. ولله المنة عليهم فيُلهَمون التسبيح والتحميد كما يُلهَمون النَفَس.

سورة البروج

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (10)

يقسم المولى عز وجل بالسماء ويصفها ببروجها وهي اجزاء تظهر لمن في الارض حسب دوران الارض حول الشمس فكلما انتقلت الارض شهراً شمسياً ظهر ليلاً لمن عليها جزء من الكواكب يحصر تشكيلاً يعرف به كبرج الاسد او الحمل او العقرب وما الى ذلك. واقسم تعالى باليوم الموعود، أي يوم القيامة. وبشاهد ومشهود؛ فأما الشاهد فما اكثر ما ينطبق عليه هذا الوصف! فمثلاً يوم الجمعة يشهد والملائكة تشهد والحجر الاسود يشهد والانبياء تشهد والمجنى عليهم كل منهم يشهد على الجاني وكفى بالله شهيداً. واما المشهود فهو ما يشهده الناس من مناسك، كيوم عرفة، ومن احداث وعقائد وأُناس. ثم يأتي جواب القسم بأن اصحاب الأُخدود ملعونون، أي معنى (قُتِل) هنا (لُعِن) ففقد حظه. والأُخدود شَقٌّ، أمَر بحَفرِهِ أحدُ الملوك وكان قد منع شعبه من الإيمان بإحدى الرسالات إلّا أنهم آمنوا فأمر بإيقاد النار فيه وأن يُلقى فيه كل من لا يترك ذلك الايمان! فكان الثابتون على الايمان يُقدِمون على هذا المصير راضين بالشهادة في سبيل الله تعالى.

وكان الملك الكافر وملأُه يشهدون التعذيب فالشاهد هنا هو الذي حضر المشهد وهو الجاني. واما الشاهد في اليوم الموعود فهو المجنى عليه المؤمن، والله والملائكة يشهدون. وقيل أن الواقعة حصلت في اليمن بعد المسيح عليه الصلاة والسلام فقد نقم الملك الذي عصاه قومه فأسلموا ايماناً برسالة السيد المسيح عليه الصلاة والسلام فكان اسلامهم سبَباً لنقمة ذلك الملك عليهم وسبب إلقائهم في النار. اما هذا القَدَرُ الذي قدَّره الله تعالى عليهم فقد بين تعالى انه اعلم بمراده في ذلك فهو العزيز الحميد الملك في السماء والارض والشهيد على كل شيء. وقيل كان المؤمنون يرون النار حديقة خضراء يعبرون منها الى الجنة. اما الذين فعلوا هذا بالمؤمنين لأجْلِ فتنتهم، أي ردهم الى الكفر، فقد توعدهم المولى بعذاب من جنس العمل في جهنم وهو عذاب الحريق. ويُعَدّ هذا الخبر عبرةً تَوَعّد المولى تعالى بها من يعملون على رد المؤمنين عن دينهم ثم لا يتوبون عن هذه المحاربة بأن لهم عذابَ جهنم مع الكفار وعذابَ الحريق مثل أصحاب الاخدود. واورد تعالى هنا التوبة لأنّ بابَها مفتوح لمن تاب وصلُح عملُه ولم ييأس من رحمة الله تعالى.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (11) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (13) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (16)

بعد ذكر مَن صَبَرَ في الأُخدود، يبين المولى عز وجل لكل من آمن وعمل صالحاً ما أعدّه لهم من فوز كبير بالجنات. أمّا أعداء الله تعالى فقد أعَدّ لهم بطشَه الشديد والبطش هو الاخذ بالعنف. وقد جاء وصفه بالشدة على الجبابرة من اعداء الله تعالى لشدّتِهم. واذ يأخذهم المولى سبحانه فهو القادر على ان يعيدهم الى حياة

الآخرة لعذاب أشد كما بدأهم. وهو الذي فتح باب العفو والمغفرة لمن يتوب وهو الودود يتودّد بنعمائه، الحبيب لأوليائه؛ يعطيهم قبل أن يسألوه ويستجيب لهم قبل ان يدعوه، ويغفر لهم قبل ان يستغفروه. وهو العزيز الغني عن خلقه العالي بعرشه المجيد بسلطته المنزهة. ولا معقب لحكمه يفعل ما يشاء سبحانه فلا مانع لإرادته.

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18)

أي ها قد علمت خبر الطغاة ومنهم فرعون ومنهم قوم صالح عليه السلام أي ثمود. وأما كفار قريش وغيرهم ممن كفر برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهم الذين قال تعالى عنهم:

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (19) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (20) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (22)

أي انهم في شك قادهم الى العناد ثم الى الكفر فكذبوا بالصدق. وهذا لا يضر الحق شيئاً. فالله تعالى مقتدر لا يعجزونه. قد احاط بهم علماً وقُدرةً. وان ما جاء من الله تعالى وهو القرآن المجيد له شرفه وإعجازه وعظمةُ عِلْمِهِ وسَعَةُ تفصيله. يحفظه الله تعالى في الملأ الاعلى.

سورة الطارق

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (2) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (3) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (4) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (8) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (9) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (10) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (12) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (13) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (14)

يقسم المولى عز وجل بالسماء. وهذا يشمل ما في السماء مما نُبصِر وما لا نبصر. ثم يقسم بالنجم الطارق الذي فسره بالثاقب فالنجوم عادة تطرق ليلاً أي تشاهد فيه والثاقب هو الاكثر ارتفاعاً وإضاءة. وبعد القَسَم يورد تعالى الموضوع الذي أقسم عليه بأن كل نفس لا تُترَك سدىً بل عليها ما يحفظها وما يحفظ عليها عَمَلَها. وينبه سبحانه الانسانَ ليعود الى تدبر خلقته الاولى ويتفكر في ذلك فقد خلقه الله تعالى من ماء انصب دافقا أي مدفوعاً من بين صلب الرجل (أي من فقرات الظهر)، وترائب المرأة (أي موضع القلادة منها). وإنّ الله تعالى لَقادرٌ على إعادة خَلقِه خلقاً آخر يوم البعث بدليل قوله تعالى: يوم تُبلى السرائر. ومعنى تُبلى هنا: تنكشف مكنونات القلوب من ايمان او كفر ومن صدق او خيانة ومن نية حسنة او نية سيئة. فما للانسان قوة بنفسه لنفسه وما له ناصر ينصره فلا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئاً، والأمر يومئذ لله. ثم يُقْسِمُ تعالى قَسَماً آخرَ بالسماء. وهنا

يصفها تعالى بانَّها ذات الرجع. ويُقسِم بالارض ذات الصدع كما سبق في الآية الثلاثين من سورة الانبياء ((كانتا رتقاً ففتقناهما)) أي ان السماء ذات مطر يصب وينقطع ويرجع بين حين وآخر، وان الارض ذات انصداع يخرج النبات منه. وهذا من طاعة امر الله تعالى كما قال في الآية الحادية عشرة من سورة فصلت ((ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)). وقوله تعالى في الآية التاسعة والثلاثين منها ((وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ)) الآية. ويأتي تعالى بجواب ما اقسم عليه هنا بأن قوله هذا حق في حُكْمِه العادل الذي يفصل بين الحق والباطل وما هو بالهزل. وهذا تعظيم للقرآن الكريم فما يضره كيد كائد وسخرية ساخر. فقال تعالى:

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا (16) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (17)

ها هم كفار قريش مع مواجهة الحق لهم بالبرهان والتأييد الرباني يكيدون من أجل الصدِّ عن سبيل الله كفراً بآياته حتى وصل بهم الكيد الى وضع خطة لإغتيال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. فأخبره تعالى بأنه يُعِدُّ ما يقتضيه جزاؤهم. وهذا ما سماه كيدا، أي استدراجاً للكفار لنيل بطشه تعالى بما استحقوه بأعمالهم فهو تعالى يقابل كيد الكافرين بما يبطل كيدهم ويوصلهم الى العقوبة المستوجَبَة منه. فعلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم انتظار النصر فلا يستعجل لهم بل يمهلهم رويداً أي مهلاً قليلاً، (ويقال للأنسام البطيئة انها رادت رُوداً، أي تحركت حركة ضعيفة. ورُوَيْد تصغير رُوْد). وان الله تعالى لا يبادر باستدراج عبدٍ إلّا وقد علِم من

العبد إصراراً على الجحود أو المحاربة. فكان تدبير المولى تعالى ضد كيدهم بهجرة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

سورة الأعلى

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (3) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (4) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (5) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (6) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (7) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (8)

تسبيح اسم الله الأعلى كما جاء في التفاسير هو قول المؤمن (سبحان ربي الأعلى). فقد روى الامام احمد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان اذا قرأ (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى) قال ((سبحان ربي الأعلى)). وأوصى ان تكون في السجود. واما التسبيح فهو تنزيه ذات الله تعالى عما لا يليق به فهو الأعلى فوق كل كمال ولا ينال العبد كمالاً إلا بكماله تعالى فهو تعالى الذي خلق الخلائق وجعل خلقتهم ذاتَ تسويةٍ متناسقة ليس فيها تناقض. ومن علميته بالغيب عن كل تصرف يحصل من عباده فقد قدّر لهم ما يصلحهم أو يبتليهم به. فقد روى الامام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله ((إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين الف سنة وكان عرشه على الماء)). ومن آيات الله تعالى بتقديره اعطى لكل عبد ما يخصه لدوام حياته الى أجَلِها من رزق ومعونة ثم هداه السبيل ليفعل ما يفعل ثم يسأله عما فعل. وهو تعالى الذي قدّر المرعى للانعام فجعله غثاءً أي سائغاً لها في جفافه وجعله أحْوَى أي متميزَ

اللون الى سواد. وبشر المولى تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بانه سيوفقه لحفظ القرآن بحيث لا ينساه إلا ما يُنسخ منه فالله تعالى يبدله بمثله او بخير منه. فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجهر بقراءته بعد الوحي لكي لا ينساه والله تعالى يعلم ما في نفسه من خَشْيَةِ تَفَلُّتِ القرآنِ منه. كما يعلم سبحانه كلَّ ما ظهر وما بطن. كما بشره تعالى بأن يوفقه لأيسر الطرق في العلم والعمل وهكذا جاءت الشريعة السمحة وما فيها من رحمة وفسحة في المعرفة والطاعات والمعاملات والاخلاق المبنية كلها على عبادة الله تعالى ليكسبها بدنياه ولا يكسب الدنيا بها.

فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (9) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (10) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (12) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا (13)

على ما بينه الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم، اشترط ان يخاطب الناس على قدر عقولهم خشية فتنة بعضهم في امور فوق مستوى عقولهم كما جاء في تفسير ابن كثير عن الامام علي كرم الله وجهه قوله ((ما انت بمحدثٍ قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنةً لبعضهم)) وقال كرم الله وجهه ((حدث الناس بما يعرفون. أتحبون أن يُكَذَّب اللهُ ورسولُه؟)) كما أن الحديث يكشف صنفين من الناس؛ فسيذّكّر المنتفعون فيجعلون من الموعظة والشريعة ميزانا لعملهم خوفاً من الفتنة، أما اهل الزيغ فانهم سيتحاشون الموعظة والتذكير لعدم استيعاب معانيهما لإتجاههم الزائغ عن الحق فهو زائغ عن طريق الجنة حتى يروا النار الكبرى أي عذاب الآخرة. وقد نزلت الآية في مكة قبل الهجرة في اثنين من كفار قريش اشتدت عداوتهما لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يدعو ليؤمنوا بالله وحده. وهذان

وامثالهما ليس لهم في هذا العذاب موت يريحهم ولا نفحة من راحة تطيب نفوسهم بها. وهذا الموقف بين الحياة والموت نوع شديد من العذاب والعياذ بالله تعالى من كلِّ عذابِ الدنيا والآخرةِ وخِزْيِهما.

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (18) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (19)

تزكية النفس تعني إبعادها عن دنس المعاصي فعاقبتها الفَلَاح إذ يبتغي المؤمن رضوان الله تعالى باتباع شريعته واقامة الفروض واولها بعد الشهادتين: الصلاة. فالشهادتان طهّرَتا النفس من عبادة غير الله تعالى، والصلاة ادامت الصلة بذكر الله تعالى معه، فالذاكر مع المذكور. ويستدل من قوله تعالى ((وذَكَر اسْمَ رَبِّهِ فَصَلّى)) على انها تكبيرة الإحرام لإفتتاح الصلاة اذ جاء ذكر الصلاة بعد ذلك. وهذا لا يتعارض مع دوام ذكر الله تعالى فهو إن لم يذكره المؤمن جهراً استحضره في قلبه فإن غفل ادركته الصلاة التي تنقله من الغفلة الى الذكر. واما ايثار الحياة الدنيا فذلك من شأن الغافلين. فالذين لم تنفعهم الصلاة في اختيار العمل للباقي أي للآخرة وآثروا عليها جمع الدنيا خوف الفقر أو ابتغاء ترف العيش والرفعة بين الناس فيقول لهم تعالى ((والآخِرَةُ خَيْرٌ وَابْقَى)). وهذه حجة على من يوثر الحياة الدنيا عليها. روى الامام احمد عن عائشة رضي الله عنها قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له)). كما روى ايضا عن ابي موسى الاشعري رضي الله تعالى عنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم ((من احب دنياه اضرّ بآخرته ومن احب آخرته اضرّ بدنياه فآثِروا ما يبقى

على ما يفنى)). وبيّن تعالى ان ما جاء في هذه السورة من قوله تعالى ((قد افلح من تزكى)) الى قوله ((خير وابقى)) قد ورد قبل ذلك في صحف ابراهيم وصحف موسى عليهما الصلاة والسلام. وقد سبق في الآية السادسة والثلاثين وما بعدها من سورة النجم ذكر بعض ما في صحف موسى وابراهيم الذي وفىّ (عليهما الصلاة والسلام) من حقائق التوحيد ما فيه من إعجازِ اللفظ والتناسق شبيه بهذا. ولله الحمد والمنة.

سورة الغاشية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (1) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (2) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (3) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (4) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (5) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (6) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (7)

تعبير (هل أتاك) يقصد به (ها هو قد جاءك حديث) أي ان ما يلي من الحديث يخص الغاشية وللغاشية هنا أكثر من معنى حسب المعلومات التي أعقبتها؛ فهي أوّلاً- القيامة الداهية التي تغشى أي تغطي بشدائدها مَن لم يؤمن بها، وثانياً- هي النار التي تغشى وجوه الكفار فلا يبقى لتلك الوجوه كبرياؤها الذي كان يعلوها عند سماع كلام الله تعالى وعند إعمال الصدود عن سبيل الله تعالى. ففي يوم القيامة تضطرب في حمل أوزارها بما يشقيها ويشُقّ عليها فهي عاملة أي مضطربة، ناصبة أي مُنهَكة من أوزارها. تُسقَى من عين آنية (أنَتْ: أي إشتدّ حرّها). طعام أصحابها مقتصر على ضريع وهو نبت يابس ممجوج يؤلم في الهضم. وهؤلاء هم صنف غير صنف الذين طعامهم من غسلين كما جاء في الآية السادسة والثلاثين من سورة الحاقة، وغير صنف الذين طعامهم من زقوم كما جاء في الآية الثانية والستين وما بعدها من سورة الصافات والآية الثالثة والاربعين من سورة الدخان والآية الثالثة والخمسين من سورة الواقعة. هم صنف المكذبين بيوم الدين المنكرين للبعث. فالضريع خال من النفع مليء بالضَّرَرِ ولا يدفع غائلة الجوع عنهم.

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (8) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (9) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (10) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (11) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (12) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (13) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (14) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (15) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (16)

جاء ذكر اهل الجنة بعد ذكر شقاء الْمَرَدة، فأهل الجنة قد راقت وجوهُهم من تَنَعُّمِ عيشها ورضاها بما عملت في الحياة الدنيا لنيل الآخرة في جنة لها قيمة عالية لِما فيها من اسباب النعيم. ولا يسمع اصحابها ما كان يؤذيهم من لغو الدنيا ولهوها ممن كانوا يعيشون معهم. فهم الآن مع اهل الخُلُق الحسن والحكمة الطيبة في حمد وسرور تجري من تحت اشجارهم مياه العيون وترتفع السرر التي يجلسون عليها والتي ينامون عليها. وتدور عليهم اكواب الشراب توضع بين أيديهم كما تكون اكواب اخرى قرب مياه العيون ليشربوا فيها من مياهها. والكوب هو القدح الذي لا عروة له. ويتكئون على نمارق أي وسائد مصفوفة، بعضها الى جنب بعض. فيستند الشخص على ما يشاء منها وقد فرشت الزرابي وهي البسط مبثوثة أي متفرقة في مسارات ومسالك الجنة.

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (22) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (24) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26)

آيات القدرة في خَلْقِ الجنة وما فيها أحدثت تساؤلاً لدى بعض الذين لم يكذِّبوا فأنزل الله تعالى هذه الآيات للدلالة على القدرة التي لا حدود لها؛ فالإبل

التي يرونها مرتفعةَ الْهامَةِ ومسخرة بصبرها وقُوَّتِها وتذللها للضعيف والصغير وتصلح لمختلف الأغراض، والسماء وما فيها من سموٍّ، والارض وما فيها من جبال منتصبة ومساحات منبسطة. كل ذلك دليل على القدرة التي خُلِقَت بها الجنة. وعلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يذكّر المنكرين وغيرهم وهذا من صميم مسؤولية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في التبليغ إلا انه لا يملك سيطرة على قلوب اهل الزيغ. وهكذا نرى المؤمن ينتفع بينما لا ينتفع الكافر بل يعرِّض نفسه للعذاب الأكبر يوم الجزاء. فرجوعهم الى الله تعالى حق مؤكد وعليه سبحانه حسابهم ولا يوجب عليه شيئاً.

سورة الفجر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (4) هَلْ فِي
ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (5) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ
يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ
(10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ
عَذَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14)

الفجر هو الصبح. واما الليالي العشر والشفع والوتر فقد ورد فيهن حديث رواه الامام احمد عن جابر رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ((إن العشرَ عشرُ الأضحى والوترَ يومُ عَرَفَةَ والشفعَ يومُ النَحْرِ)) هذا، وأمّا الليل فأشرف الليالي هي ليلة القدر. وهذه الايام التي اقسم الله تعالى بها لها تعظيم لدى أُولي الألباب أي لكل ذي حِجْر أي ذي عقل. وعلى قَدَرِ إدراك تعظيمها تقوَّم العبادة والطاعة لرب العالمين فيها. وتدل الآيات التي بعد هذا القَسَم (وما فيها للكافر من هلاك في الدنيا وعذاب في الآخرة) على قيمة العبادة والطاعة في أثرها على النجاة. فقد سبق بيان ما حصل لعاد قوم هود عليه الصلاة والسلام اذ اخذتهم الصيحة وهم عادٌ الاولى التي ذُكِرت في سورة هود عليه الصلاة والسلام. وهم نسل عادٍ بنِ إرمَ (الذي سميت المدينة بإسمه) من احفاد احفاد سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام. وكانت مساكنهم معروفة باعمدتها المرتفعة التي نصبت عليها في

الاحقاف جنوبي جزيرة العرب. وكانوا خلفاء الارض بعد قوم نوح عليه الصلاة والسلام. والمراد هلاك القوم من بعد استقرارٍ وثراءٍ وترفٍ فكذّبوا رسولَهم فأخذهم الله تعالى. وكذلك جاء ذكر ثمود قوم سيدنا صالح عليه الصلاة والسلام عقروا الناقة فأهلكهم الله تعالى كما جاء في سورة هود. واما فرعون فقد ذُكِرَت واقعة هلاكه غرقاً بعد نجاة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ومن معه في اكثر من سورة. وذكر تعالى هنا الأوتاد اذ قيل ان فرعون كان يستخدم الاوتاد في التعذيب أو في ألعابه. ثم ذكر تعالى طغيانه حتى ادعى الربوبية العليا واطلق لجنوده اليد في الإفساد في الارض مما استوجب لهؤلاء جميعا من الله تعالى عذاباً لم يستطع احد منهم رَدَّهُ. فقد اعده الله تعالى لهم رصداً ليوقِعه عليهم حالَما يرتكبون ما يُغضبه. وهذا هو المرصاد المقصود في القَسَم الذي جاء في اول السورة ليكون المؤمن وغير المؤمن على حذر من رقابة الله تعالى ونزول غضبه فهو المولى الجليل الذي أمَر بالفروض واداء الامانات وصلة الرحم وحُسن الخُلُق واتباع رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم. كما ان الله تعالى بالمرصاد ليسأل عن الإستجابة لأمره والإنتهاء عما نهى عنه. وهذا متضح من الآيات التي ستلي اذ بيّن تعالى بالتفصيل ابتلاءه لعباده وما رصد لهم يوم القيامة وما يبشر به المؤمنين في الختام فيقول تعالى:

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16) كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (17) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (18) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (19) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (20) كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (22)

وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (23) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (25) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (26)

كشف المولى عز وجل في هذه الآيات بعضاً من صفات الذين همُّهم الدنيا فقط ولا يهمهم تحري حكمة الله تعالى ولا وزنُ اعمالِهم في موازين الآخرة. فاذا أُعطِي احدُهم مالاً وفيراً فإنه يقيس ذلك بمقاييس الدنيا العاجلة فيذهب الى ان الله تعالى اكرمه بوافر منها لمزايا فيه أهَّلَتْه! وينسى ان الله تعالى بالمرصاد وينتظر شكره وإلتزامه بما فرض عليه من حقوق في المال وما أوصاه به فيه. ثم اذا ما امتحن المولى احد هؤلاء عن حكمة فضيّق عليه الرزق ليكتب عليه ما يتخذ إزاء ذلك وإذا قاس ما قُدِّر له بمقياس العاجلة يقول "ربي اهانني"! واما موازين الآخرة فهي المقياس الحق الذي تعرف به العاقبة. وأما حقيقة ما قَدَرَ الله تعالى عليه فهي ابتلاؤه بما يقتضي الصبر من جهة، ثم الامل من جهة اخرى برحمة الله تعالى واحتساب ذلك عليه لينال رضوانه. وهذا من شأن الذين يكون همُّهم همَّ الآخرة. ومن هذا يكون موقف أهل التكذيب الغافلين هو البخل على اليتيم والمسكين وأكل التراث (الميراث) أكلاً لَمّاً، أي جَمعاً بين الحلال والحرام، إذ كان كبير العائلة يرث رئيسها المتوفّى ويحرم النساء والاطفال. وموقفهم مع المال هو حُبُّه حُبّاً جماً، أي شديداً فلا يبالي أحدُهم هل جاء من حلال ام حرام. فيكون المال غاية وهدفاً رئيساً لجهوده بدلاً من جعله سبباً للآخرة. ويتمثل ذلك في الحرص عليه والطمع في جمعه ونسيان الآخرة فيه. وهنا يأتيهم الردع الرباني بقوله تعالى (كلّا) أي ينكر عليهم هذا البعد عن الصواب ويذكرهم بحساب يومٍ تُدَكّ فيه الارض دَكّاً أي تزلزل تحتهم يومَ البعث. ويذكِّرهم بِمجيء الله تعالى فيه لفصل القضاء. وتأتي الملائكة. ويؤتى بجهنم لتأخذ ما قُسِمَ لها

من الكفار. وعندئذ تعود الذاكرة بالمكذبين للذكرى التي ذكّرهم بها الرسل. فالكافر لم تنفعه كما جاء في الآية الثامنة عشرة من سورة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فلا تنفعهم الذكرى بل تدركهم الحسرة اذ لم يقدّموا عطايا الله تعالى ليوم حسابه. حتى قال رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في ما رواه الامام احمد بن حنبل عن محمد بن عمرة رضي الله تعالى عنه ((لو ان عبداً خرّ على وجهه من يوم ولد الى ان يموت في طاعة الله لَحَقَرَهُ يوم القيامة (أي استصغر قيمة عمله) ولَوَدَّ انه رُدّ الى الدنيا كيما يزداد من الاجر والثواب)).هذا للصالحين فكيف للكافر المستكبر؟ فيومئذ لا عذاب كمثل عذاب الله تعالى ولا وَثاق، أي قيد،كمثل قبض الزبانية. وتأتي البشارة للمؤمنين في اعمالهم الصالحة :

يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي (30)

النفس المطمئنة هي النفس التي انتهت عن الهوى في طاعة الله تعالى فاطمأنت بما أعطاها الله تعالى من رضوان وسكينة، أي عادت الى الفطرة. فهي النفس التي احسنت الظن بربها فأحسنت العمل. وحبب الله تعالى اليها الايمان وكرّه اليها الكفر والفسوق والعصيان فكان مصيرها العودة الى جوار ربها زكية ثابتة مع الحق مطمئنة الى وعد ربها ان يرضيها فهي راضيةٌ مَرْضِيَّة في جملة عباده. وهذا في التفاسير يكون عند الاحتضار. وقد ورد حديث في هذا ببشارة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لابي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه فقد روى ابن ابي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت (أي هذه الآية) وابو بكر جالس فقال يا رسول الله ما أحسنَ هذا! فقال صلى الله عليه وآله وسلم ((أما إنه سيُقال لك ذلك)). وفي

رواية اخرى؛ فقال ابو بكر رضي الله تعالى عنه: ان هذا لَحَسَنٌ! فقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ((أما إن الْمَلَك سيقول لك ذلك عند الموت)).

سورة البلد

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (2) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (4) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (6) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ (13) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (15) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (16) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (18) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (19) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (20)

يُقسِمُ رب العزة جل جلاله بالبلد الحرام، مكةَ، عندما يكون رسوله صلى الله عليه وآله وسلم حِلاًّ فيها فهي يومئذ ليست حراماً عليه، أي مطلق الصلاحية بالتصرف عند فتحها، على حسب ما يراه لنصرة دين الله عز وجل. (والسورة مكية قبل الهجرة فكانت بشارة بوعده في فتحها حققه الله تعالى) وأذِنَ المولى عَزّ وجَلّ بساعةٍ جعل فيها مكة مستثناة من حرمتها لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم كما جاء في الحديث المتفق عليه ((إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السماوات والارض فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة وانما أُحِلَّت لي ساعةً من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحُرمَتِها بالأمس. ألا فليُبَلِّغِ الشاهدُ الغائبَ)) وفي رواية ((فإنْ احدٌ ترخّص بقتال رسول الله فقولوا: ان الله اذن لرسوله ولم يأذن لكم)). وقوله: (تَرَخَّص بقتال رسول الله) أي إذا ما أباح غير الرسول لنفسه القتال في مكة استناداً الى ما

فعله الرسول يوم فتحها صلى الله عليه وآله وسلم فهذا غير جائز. ثم اقسم سبحانه بوالد وما ولد؛ وفي التفاسير انه آدم عليه الصلاة والسلام وذريته، او ابراهيم عليه الصلاة والسلام وذريته. واختار الطبري انه عام لعموم اللفظ فبكلِ والدٍ وولدِه. ويأتي جواب القسم بأنه سبحانه خلق الانسان في كَبَدٍ، ولهذا التعبير معنى مأخوذ من المكابدة في طلب الرزق والجهاد والصبر على المكاره، ومعنى آخر مأخوذ من الاستواء والاستقامة مثل قولنا: في كبد السماء. فيقصد به الخلقة المعتدلة للانسان في أحسن تقويم. واختار الطبري أنه المكابدة. ومع كل هذا يدور في خَلَدِ الانسان أنه منيع بذاته! وهذا من الكفر. فالذي اعطاه قادر على ان يسلبه نعماءه. ويقول الكافر في تجاهلٍ لِقَدْر النعمة أنه أهلَك مالاً كثيراً كان متلبداً لكثرتِه ويظن انه لا رقيب عليه من ربه الجليل! أيحسب أن لم يَرَهُ احد؟ وكيف لا يراه من اعطاه عينين يرى بهما ولساناً مستعينا بشفتين في النطق وأرشده الى النجدين أي الطريقين أي مُبشِّراً إياه بالخير ومحذِّراً إياه من الشر. فاذا كان سبيل الخير أحبّ الى المؤمن فقد انتفع بما هداه الله أي بما عرَّفه عليه من طريق الشريعة والاستقامة على الامر والنهي. واذا كان نَجْدُ الشرِّ أي سبيل اللهو والملذات الضالّة قد استهوى نفسه الأمارة بالسوء فاجتذبته إليه ولم يتُبْ فانّى له تخطي هواه ثم تقديم الشكر لله تعالى بتوجيه النعماء في سبيله لكي يقتحم العقبة أي يُقدِم على الطاعة، بقوةٍ، ويتجاوز كافةَ المعاصي. وفي هذه الآيات يحضُّ المولى تعالى على فك الرقاب ومن قبيل ذلك مساعدة العبد المملوك الذي يكاتب سيدَه للتحرر. ويحض على تحري الإطعام ايام المجاعة. فالمسغبة هي الجوع او المجاعة يعز فيها الطعام على الفقير والمسكين ومن لا معيل له كالأرملة واليتيم. ويشمل ذلك ايام الاعياد حيث يُشتَهَى فيها الاطعمة

الافضل. واما اليتيم ذو المقربة ففي اطعامه اجرُ الصدقةِ واجرُ صلةِ الرَّحِم. واما ذو المتربة وهو شديد الفقر كمن لا مأوى له او لا دخل له او الغريب المنقطع ففي اطعام هؤلاء في سبيل الله تعالى قرب من الجنة ونجاة من النار. وقد ورد في ذلك حديثان؛ فقد روى البيهقي في شُعب الايمان عن ابي هريرة رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((من أطعم أخاه المسلم شهوتَه حرّمه الله على النار)). وروى ابو نعيم في الحلية عن ابي سعيد رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((من اطعم مسلما جائعاً اطعمه الله من ثمار الجنة)). وفي كل هذه العقبات شرطُ سِبْقِ الايمان والعمل الصالح بالتواصي بالصبر وهذا من صفة من عرف الصبر على المكاره ودفع الرغبة والهوى في الشهوات. ثم التواصي بالمرحمة وهذا شأن من فعل ذلك في سبيل مرضاة الله فالراحمون يرحمهم الرحمن. فمن سبق بالايمان والتواصي بالخير وانفق فقد وعده الله تعالى ان يكون من اصحاب اليمين الذين ورد ذكرهم في سورة الواقعة. اما من كفر بآيات الله تعالى (وهي البراهين الناصعة على التوحيد والطاعة) فقد وصفهم تعالى بانهم اصحاب المشأمة وهم اصحاب الشمال الذين جاء وصفهم في سورة الواقعة. وهم هنا عليهم النار بابواب مغلقة مؤصَدة (من آصَدَ الباب أي اغلقه واوصده).

سورة الشمس

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10)

يُقسِم المولى عز وجل بالشمس وضوئها في ضحى النهار مُرتفعةً بأكثر من رمح. ثم يقسم بالقمر بازغاً اذا تلاها أي يعقبها بإنارة الارض ليلاً، فلا يسمى قمراً وهو بعدُ هلال بل عندما يكون بدراً. ويُقسِم تعالى بالنهار الذي حصل فيه جلاءُ الشمس أي ظهورها واضحة، وبالليل اذا يغشى، أي يغطي اشعة الشمس الخافتة في الشفق بعد غروبها فلم يبق لها ضوء في نصف الكرة الارضية المظلم. ثم اقسم تعالى بالسماء والقدرة التي بَنَتْ ما احتوَت عليه كأنها مبنية به. ثم اقسم بالأرض وبأمره الذي به دُحِيَت أي بُسِطت سهولها وتلالها وروابيها الصالحة للزرع فكانت اقساماً مع الجبال والبحار أصلح ما تكون لحياة الانسان. ثم اقسم المولى الجليل بالنفس الإنسانية وما استقام به أمرها، وبسلامة فطرتها، فأرشدها الى معرفة الفجور ومعرفة التقوى لتختار سبيلاً الى أيٍّ منهما. وجواب القسم بشارة بالفلاح لِمَن زكّاها أي طهّرها بالطاعة فاذا مال صاحبها الى التقوى نال تزكية الله تعالى. واما من دسّاها أي صدها عن الهدى حتى ركب المعاصي وخسر التزكية الربانية فقد اوصله مسعاه الى الخيبة التي حذره منها الالهام الرباني فلم ينل منفعة الآخرة.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (11) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (12) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (13) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (14) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (15)

طغيان قوم سيدنا صالح عليه الصلاة والسلام حَمَلَهُم على التمسك بضلالهم فكذبوه وبلغ بهم الاستكبار ان كذّبوا بالآية الربانية لَمّا قتلوا الناقة التي ورد ذكرها في سورة هود (عليه الصلاة والسلام) فحذرهم سيدنا صالح عليه الصلاة والسلام من ذلك وانذرهم بطش الله تعالى إن فعلوا. وانّى لهم أن ينصاعوا للحق وما جاء في الموعظة وقد أنكروا البعث ومَلَكَهُم الإستكبار فعقروها فاستوجبوا الهلاك مع الخزي. وفي التفاسير ان الذي عقر الناقة أي ضرب قوائمها بالسيف فهلكت هو شخص واحد ولكن قومه كانوا قد دعوه لقتلها فكانوا شركاء له واستوجبوا العقاب. واما الدمدمة من الله تعالى فأمْرٌ سريع النفاذ دليل غضبه. فهي تعني أنه تعالى ألقاهم هلكى على الأرض فأطبق عليهم عذابه الشديد. فسوّاها أي جعل العقوبة على الجميع سواء بلا استثناء. وسبحانه عن الظلم فالتعبير الوارد بقوله تعالى ((ولا يخاف عقباها)) أي انه لم يظلمهم فلا ينسب ظلم اليه كما ينسب الظلم الى من يظلم من ملوك الأرض. فالله تعالى يغضب لدينه ولرسله ولآياته وينذر ويحذر على لسان رسله قبل نقمته فلا تكون عاقبة ما صنع الّا عدلاً. فلا يأبه سبحانه لمن اصر على المعصية بينما كان يريد له ربه أنْ يشكر ويطيع لكي ينجو من السيئات مخافة عاقبتها.

سورة الليل

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (3) إِنَّ
سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى
(7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10) وَمَا يُغْنِي
عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (11)

القَسَم المتكرر هنا ورد فيه الليل إذا غطى ضوء النهار بغياب الشفق، وضده النهار إذا أظهرته أشعة الشمس. ووردت القدرة التي بها تم خلق الذكور والإناث. وجاء جواب القسم ببيان فروق السعي لدى البشر، سَعْيٌ يختلف عن سَعْيٍ؛ فالأول سعي مع ايمان يحفه كرم العطاء لوجه الله تعالى واتقاء عقابه فمصير ذلك: اليسرى. وهي نَيْل ما صدّق به أي بالجنة فيهديه المولى عز وجل الى سبل نيلها ويوفقه في السعي لذلك، وهذا سعي له ضده فالثاني سعي البخيل والمكذب بآيات الله تعالى وكأنه ليس له من يحاسبه فمصيره الى خسارة الجنة التي كذّب بها، ولا يجد من ماله ما يحمل به عن نفسه شيئاً من العذاب اذ انه لم يوجه سعيه للآخرة واستغنى عن طلب الرحمة من ربه تعالى. فكذلك إختلف تيسير الله تعالى لكليهما. فعِلْمُه تعالى سابق بما سيكون عليه كل منهما مستمسكاً بموقفه. فكما حبّب للأول الكرم والتقوى وأعطاه أسباب السعادة بالهدى للحق خيراً من زينة ما على الأرض، ترك الثاني في ضلاله لعلمه أن لا خير فيه إذ أحب العمى على الهدى. فهو تعالى أدرى كيف ييسره لأسباب خسارته وحسرته. وفي كل الاحوال العطاء عطاؤه فهو يملك السماوات والارض وما فيهما ويرث العطاء والذين اعطاهم.

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (13) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (14)
لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (16) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17) الَّذِي

يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (18) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (19) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (20) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (21)

للعبد على مولاه تعالى أن يهديه السبيل وقد فعل بما بينه لعباده على لسان الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ من سبيل يصل بهم الى الله تعالى، وسبيل يؤدي بهم الى العذاب. وجعل تعالى امر الآخرة وامر الدنيا اليه فلا وزير له ولا يعلم احد من الغيب علمه به. ولهذا اقام الحجة البالغة على من ألْهَمَهم الفجور ومن ألهمهم التقوى ليكون حكمُه على كل منهم عادلاً لا ظلم فيه. وبدأ بانذار العباد من عذابه بنار تلظّى أي تتوهج أعدّها لأكثر الناس شقاءً وهو المكذب الكافر الذي لا يعمل بطاعة ولا يترك معصية. اما الاكثر تقوى فهو الذي يبذل مالَه لوجه الله تعالى تزكيةً لنفسه متقياً غرور الدنيا وخائفاً من خسارة الآخرة فيتزكى، وليس في مقصده من ذلك رد فعل يحدثه عمله لدى البشر، بل همه الوحيد لقاء الله تعالى ببشاشة رضاه التي تطمئن لها النفوس الراضية المرضية. وقد جاء في اكثر من تفسير ان هذه الآيات الأخيرة نزلت بحق ابي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه فقد جاء في "عمدة التحقيق" ان ابن ابي حاتم اخرج ان المشركين قالوا لما اعتق ابو بكر الصديق بلالاً رضي الله عنهما: ما اعتقه الّا لِيَدٍ كانت لبلال عنده (أي نعمة اراد ان يجازيه عليها). فنزل قوله تعالى ((وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى)).

سورة الضحى

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3) وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآَوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (8) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)

ساعة الضحى، أي صدر النهار، اقسم الله تعالى بها وبالليل اذا سجى، أي انتشر وعمّه السكون، بأنه سبحانه وتعالى لم يودِّع، أي يترك، سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم. ذلك ان الوحي تأخر عليه فتقوّل بعض الكفار بأن ربه ودّعه وقلاه أي هجره. فنزلت الآيات الثلاث الاولى. والوداع يختلف عن القِلى (بكسر القاف). فالوداع يكون عن فراق محبوب ومحب ويحمل أصناف الإشتياق، والقِلى يكون عن حصول مكروه بين طرفين. فقد أكّد المولى عز وجل ثبات المعية مع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وثبات المحبة له وأنه سبحانه قد اعد له من الآخرة ما أزهده به في الدنيا، ووعده بتحقيق ما يرضيه من العطاء فقد روى الاوزاعي عن ابن عباس رضي الله عنه قال "عُرِض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما هو مفتوح على أُمّته من بعده كنزاً كنزاً فسُرّ بذلك فأنزل الله: ((وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى))". واما عطاء الله تعالى لرسوله في الدنيا فالنصرُ وتَحِلَّةُ الغنائم والشفاعةُ وبعثُه الى الناس كافّة وجُعِلَت الارض له مسجداً وطهوراً كما جاء في

الحديث الذي رواه الشيخان عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((أُعطيتُ خمساً لم يُعْطَهُنّ أحدٌ من الانبياء قبلي؛ نُصِرتُ بالرعب مسيرة شهر، وجُعِلَتْ لي الارض مسجداً وطَهوراً (أي التيمّم) فأيّما رجلٌ من أُمّتي ادركته الصلاة فليُصَلِّ، وأُحِلت لي الغنائم ولم تَحِلّ لأحدٍ قبلي، وأُعطيتُ الشفاعة، وكان النبي يبعث الى قومه خاصة وبُعثتُ الى الناس عامة)). كما اعطاه الله القرآن وجوامع الكلم وحب المؤمنين له اكثر من انفسهم وغير ذلك مما خصه المولى تعالى به كالصلاة عليه واتّباع سنته. اما في الآخرة فقد أُعطِي الكوثر والشفاعة والمقام المحمود والوسيلة والفضيلة واكثر مما لا يخطر على قلب بشر. واما يُتْمُه فقد عوَّضَه الله تعالى بخير مأوى في كَنَفِ جَدِّه عبد المطلب ثم في كنف عمه ابي طالب رضوان الله عليه وجزاه الله خيراً اذ كان يحبه اكثر من اولاده، والمرء يحشر مع من أحب. واما هدى الله تعالى له فقد كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم غيرُ عالمٍ بما سيوحَى اليه من ربه وكان كثير التفكر ولا سيما في خلواته في غار حراء قبل البعثة. فالضلال المشار اليه هنا هو غفلته قبل الوحي عن معيَّة الله تعالى في كل مكان وليس في غار حراء فقط! وقال تعالى في سورة يوسف ((وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ)). ولم يذهب الى الغار بعدها فقد جاءه من ربه الهدى. كما كتب المولى عز وجل له من الرزق ما أغناه ثم اعطاه تَحِلّةَ الغنائم فقوِيَت بذلك الدولة الاسلامية. وعلى ذكر يُتْمِه امر تعالى بأكرام اليتيم وأنْ لا يُقهَرَ بإستغلال يُتْمِه للغلبة عليه، ومن قبيل ذلك تسلط وصِيّهِ على مالِه لضعفه. والامر عامٌّ للامة وأنْ لا يَزجُرَ أحدٌ السائلَ، فإما ان يُردَّ ولو بالقليل او بكلمة طيبة، أو يُزْجَرُ إن ألَحَّ. واما التحدث بنعمة الله تعالى فهو بالنسبة للرسول صلى الله عليه وآله وسلم نشر

الدعوة وبيان تفصيلها واحكام الشريعة وتقديم الشكر لله تعالى ولمن جاهد معه والدعاء لأمته. وكذلك ما اشتملت عليه سيرته الطاهرة من فضائل وخصائص. واما بالنسبة لكل مسلم فيوجه فضل النعمة لنفع من يستطيع ويشكر المولى عز وجل ويوجه النعمة للطاعة واعلاء كلمة مولاه. وقد ورد حديث في هذا المجال اخرجه عبد الله بن احمد بن حنبل عن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على المنبر ((من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، والجماعة رحمة والفرقة عذاب))". وعن الامام الحسن السبط رضي الله عنه قال ((وأَمَّا بنعمةِ ربك فحدث: ما علِمْتَ من خير فحدِّث اخوانك)). اورده ابن كثير في تفسيره بإسناده.

سورة الإنشراح

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (7) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8)

اثبات نعمة الله تعالى بطريقة الإستفهام. ومعنى شرح له صدره: ان الله تعالى حبى صدر رسوله الشريف صلى الله عليه وآله وسلم بفسحة واسعة (مجازاً) لكي يستوعب تفصيل العلوم التي يُعَلِّمُه اياها مع الحكمة وجوامع الكَلِمِ (أي ابلغها واحكمها) مختصرة مفيدة. اما الوزر الذي وضعه جل جلاله فهو اعانته على اعباء الرسالة حتى نصرها الله تعالى. ورفع له الذكر في الدنيا والآخرة اذ قرن الشهادة برسالته مع الشهادة بوحدانية ربه الجليل، وعطف سبحانه اسمه مع اسمه في كثير من مواضع القرآن كقوله تعالى ((أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ)) و ((اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)) وأمثالهما. وكشف المولى عز وجل ببشارته باليسر أن النصر محقق وكان نصر المسلمين بالله ولله أي ان دعوة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كانت منصورة بالله لإعلاء كلمة الله سبحانه فكان عسر الجهاد عاقبته اليسر. وهذه بشارة عامة للمؤمنين كما جاء في حديث اورده الطبري عن الحسن مرسلا قال: خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوما مسروراً فرحاً وهو يضحك ويقول ((لن يَغْلِبَ عسرٌ يُسْرَين. لن يغلب عسر يسرين؛ فإن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً)). والْمُلاحَظ أن العسر أتى معرّفاً بـ(أل) فمهما تكرر لفظه فهو واحد بينما جاء ذكر اليسر غير مُعرّفٍ فيكون تكرار لفظه دليلا على أنهما إثنان. ثم إن الله تعالى أبدله أمناً بعد الهجرة ونصره نصراً عزيزا. وأمّا قوله تعالى (فإذا فرغت فانصب): فرغت، أي أنجزت الافعال أو الشغل، فانصب، أي إجتهدْ. وبالنسبة للرسول صلى الله

عليه وآله وسلم هو الفراغ من امور الدعوة فاذا فرغ من ذلك إجتهدَ الى الله تعالى بالعبادة والدعاء وكذلك اذا فرغ من الصلاة دعا المولى عز وجل راغباً اليه فلا يخلو وقت من الصلة مع الله تعالى عملاً بالجوارح وذكراً في القلب. وقوله تعالى (فارغب) أي إجعل الرغبة في ذلك مقتصرة على التوحيد في التوكّل على الله تعالى وطلب الفضل والمعونة والحفظ منه ورفع الشكر له والدعاء منه وحده. وما أحوجَ العبد الى ربه في كل امره. فالمؤمن يأتسي بالأُسوة الحسنة صلى الله تعالى عليه وآله وسلّم وبما أُمره وأوصاه به الرحمن الرحيم سبحانه.

سورة التين

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (6) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (7) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (8)

لم يرد تحديد المقصود بالتين والزيتون هل هما الثمر المعروف امْ جبل التين الذي هاجر اليه سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام وجبل الزيتون حيث مولد سيدنا عيسى عليه السلام ومبعثه. ورجح بعض المفسرين ان المقصود هما الجبلان بدلالة الطور الذي نودي عليه سيدنا موسى عليه السلام وبدلالة البلد الامين (مكة) حيث وُلد وبُعِث سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. فهذه الاماكن الطاهرة وردت في القَسَم الرباني مؤكداً فيه بأنه تعالى خلق الانسان في أحسن تقويم أي تعديل وتسوية وعقل وفطرة سليمة منتصب القامة ناطقاً بما يريد أن يبديه عن عقل. كما منحه فؤاداً مهيئاً للفهم والتعلم واختيار ما يشاء. ثم رده أي نقله إلى حياة فيها شيطان عدوٌّ له يدعوه للكفر والفسوق والمعاصي مستغلاً غفلة النفوس التي تهوى هذه الرذائل مما يجعل الكفار والفاسقين وأهل المعاصي في اسفل سافلين. ولكن الهبة الربانية في العقل توجِّه النفوس للإيمان والعمل الصالح فمن استجابت نفوسهم لتوجيه العقل يستثنيهم المولى تعالى ولهم اجر غير مقطوع. والنداء لابن آدم: أَلَيْس في هذا ما يدعو للايمان بالآخرة حيث العدل الرباني في الحساب والجزاء فينتصف للمظلوم ويكافىء المحسن وتتضح حكمة الباري عز وجل في أنه أحكمُ الحاكمين.

سورة العَلَق

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)

القراءة رفعة من الله تعالى لبني آدم. فاذا كانت لله تعالى بالاستعانة بجنابه الجليل فهي مفتتحة بإسمه بأنه الخالق الذي خلق الخلق ثم انعم اول ما انعم على الانسان بأنْ خلقه في أحسن تقويم كما جاء في السورة السابقة. وامر المولى تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ثانية ((اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ)) وعطف بعد الأمر بالقراءة إسمه الكريم بصيغة التفضيل أي بكمال الكرم ليكون ذكره في القلب مع التلاوة لتتم اسباب التعلم وحفظ العلم بالكتابة بالقلم. وبهذا اخرج الانسان من فراغ وجهل الى علم ما لم يعلم. وهكذا يبين المولى عز وجل فضله في العلم لكي لا ينسب الانسان لنفسه فضلاً كأن يقول: إنما أُوتيتُه على علم عندي! وعندئذٍ يزجر المولى هؤلاء الذين ينسبون العلم لذواتهم ويصفهم بالطغيان فيقول تعالى:

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (7) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (8)

وطغيان غير المؤمنين يأتي من غفلتهم عن الخلق والتعليم ومن نسبتهم العلم الى فضلهم وسعيهم! وهذا سيكون وبالاً عليهم يوم يرجعون الى الله تعالى. وعندئذٍ؛ كما يكافئ اهل الايمان على طلب العلم للعمل والعبادة شاكرين لله تعالى هذا الكرم فيرضى الله تعالى عنهم ويرضون عنه، فإن الله تعالى يسأل الجاحدين ومنهم

من اوصلتهم الفلسفة الى الإلحاد ولم يلتفتوا الى رسالات الله تعالى فإذا سألهم خَزَنةُ جهنمَ عندما يؤخذون إليها: ألم يأتِكم نذير؟ وكان جوابهم بالايجاب والخسارة يقولون عندئذ: لو كنا نسمع او نعقل ماكنا في أصحاب السعير.

أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (10) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (11) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (12) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (13) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (14) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ (15) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (16) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (17) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (18) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19)

نزلت الآية التاسعة وما بعدها بحق ابي جهل الذي صدّ وبذل الجهد ليصدّ الناس عن سبيل الله، ولا سيما عندما أراد شرّاً برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مهدِّداً إياه اذا صلّى عند البيت الحرام. فنزلت الآيتان الحادية عشرة والثانية عشرة لوعظه اولاً ببيان الهدى والامر بالتقوى اللذين كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عليهما. ثم نزلت الآيات التي بعدها بأن هذا الكافر إن لم ينته عن الايذاء والتسفيه ليُسحَبَنّ من ناصيته (مقدمة رأسه) الى النار ردعاً له وتهديداً بعذاب الدنيا والآخرة وهذا ما حصل له في بدر وهلاكه مختزياً بكفره وضلاله. وستدعى الزبانية لتتولى امره في جهنم بما توعده الله تعالى به. وامر تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ان يتجاهل وعيد ابي جهل وقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: "قال ابو جهل: لئن رأيتُ محمداً يصلي عند الكعبة لأطَأنَّ عنقَه. فبلغ ذلك النبيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال ((لئن فعل لأخَذَتْه الملائكة))".
واما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فعندما توعد أبا جهل بعذاب منتهراً إياه بِغِلظَةٍ قال: "يا محمد بأي شيء تهددني؟ اما والله اني لأكثرُ هذا الوادي نادياً" (أي

جماعة مؤيدة). فأنزل الله تعالى ((فَلْيَدْعُ نادِيَهُ)) قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: "لو دعاهم لأخذَتْهم الزبانية من ساعته". ولما عانده الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وصلى عند البيت قيل لأبي جهل "لِمَ لَمْ تفعل به ما قلت؟" قال: "قد اسوّد ما بيني وبينه من الكتائب" أي لم يتمكن من الوصول اليه لكثرة من يمنعونه. وقيل رأى نارا دونه. وفي آخر السورة سجدة تلاوة سجدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وفيها قرب العبد من ربه في السجود.

سورة ا لقَـدْر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)

من قوله تعالى ((إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ))، وقوله تعالى ((شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ)) يبين لنا رب العزة ان ليلة القَدْرِ مباركةٌ عظيمةُ القَدْرِ، وانه تعالى قد عظّم قَدْرَها بأن أنزل كتابَه الكريم فيها. ففي التفاسير أنّ القرآن الكريم أُنزِل جملةً واحدة في ليلة القدر الى السماء الدنيا ثم أُوحِيَ به طيلة ثلاث وعشرين سنة حسب اسباب النزول والتشريع والاخبار والتعليم والفضائل الاخرى التي خصّه المولى تعالى بها. ويريد سبحانه ان يبين صفة هذه الليلة فقال ((لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)) ورقم (ألْف) هو تمام الكمال في الأعداد عند العرب يُذكر للكمال في الشيء. وهنا خير من الشهور التي ليس فيها ليلة القدر ولو بلغت الف شهر. وهذا فضل رمضان المبارك حيث يكثر فيه نزول الملائكة بالبركة والرحمة فيحيطون بالذاكرين ويضعون اجنحتهم لطالبي العلم. والروح المقصود به هنا هو سيدنا جبريل عليه السلام ينزل فيها بما كتب الله تعالى من سلامة قضاها على خلقه الى الليلة التالية من ليالي القدر. اما غير السلامة فيُقضَى في غيرها. وتبقى الملائكة في سلام وتسليم على المؤمنين والمؤمنات القائمين في صلواتهم والذاكرين الله تعالى حتى مطلع الفجر.

سورة البَيِّنَة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (1) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (2) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (3) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (4) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (5)

الذين كفروا من أهل الكتاب، والمشركين (أي كَفَرَةُ اليهود والنصارى والصابئة ومعهم عَبَدةُ غير الله من كل الملل) لم يكونوا منفكين أي منفصلين عن الكفر حتى بُعِثَ سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالحجة البيضاء كما بشّرَتْ به الكتب. فمن آمن وأسلم إنفك إلى الإسلام. ولكن لم يؤمن من اليهود من رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليس منهم أو مؤيداً لأهوائهم، وكذلك النصارى، منهم من آمن ومنهم من كفر، وكذلك مشركو قريش لما جاءهم الحق كفروا به إلّا مَن رَحِم الله. وهكذا أرسل المولى تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم يتلو القرآن: صحفاً مطهرة لا يشوبها تحريف ولا تدخلها إضافة ولا يُكتَم منها شيء، محجةً بيضاءَ فيها دعوة الحق، ومُصَدِّقَةً لِما سبقها من التوراة والانجيل من آيات بينات. وقد جاءت التوراة وجاء الانجيل من قبل بالتوحيد الذي لا شرك فيه ولكن قومهما طال عليهم الامد فتفرقوا لتفرق اهوائهم ولم يلتزموا بما امر به الله تعالى من عبادته

مخلصين له الدين حنفاء (يميلون للعبادة) مع القيام بالفروض التي يستقيم بها الدين القَيّم. فإذا مالوا إلى الدنيا ولم يلتزموا قال تعالى عنهم:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (6)

انهم اصبحوا في نار جهنم مأوى شرّ اهلِ البرية فقد جاءهم ما عرفوا ثم كفروا به.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (7) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (8)

هذا جزاء من اتبع ما عرف من الحق فآمن وعمل بايمانه لكسب الصالحات فتميز بالافضلية بين الخلق ولهم يوم القيامة أي عند ربهم جزاءان: جنات عدن، ورضوان الله تعالى. فهم خالدون ابداً في جناتِ عدْنٍ، أي جنات إقامة لا نزوح عنها. وسعداء برضوان الله تعالى فلا يسخط عليهم بعده وهذا لكل من آمن وعمل صالحاً في خشية من الله تعالى.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾

سورة الزلزال

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (3) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (4) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (5) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (6) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)

الزلزال يعني تحرك الارض من أسفلها بأمر ربها. ولها تفسير علمي حول تفاوت قوى طبقات الأرض مع قياس ما يحدث بين حين وآخر في المناطق المختلفة المعروفة جغرافياً بخطوط الزلازل في العالم. ولكنْ في هذه السورة يشير المولى عز وجل الى يوم القيامة حيث يأمر سبحانه بزلزلة الارض بأجمعها بحيث تلقي ما فيها وعندئذ يتحير الانسان من هول تحركها والقاء الموتى من باطنها فيتساءل عما حدث فهو إذاً يوم ليس كبقية الأيام إذ تُحدِّث الارض فيه أخبارها بأنّها قد تلقت ما أوحى به الله لها! وقد روى الطبراني في معجمه الكبير عن ربيعة الحدسي رضي الله تعالى عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ((تحفّظوا من الأرض فإنها أُمُّكم وانه ليس من أحدٍ عاملٍ عليها خيراً أو شراً إلا وهي مُخْبِرَةٌ)). وهكذا يعلَم الانسان ان زلزال الارض امر من الله تعالى أذِنَ فيه للارض بما حصل وان تلقي ما فيها فيومئذ يصدر الموتى من قبورهم أي يخرجون من الاجداث الى موقف الحساب ليُرَوا اعمالهم صغيرها وكبيرها. فإذا غلب خيرُهم كان الفوز وكانت المغفرة والرحمة. وأمّا اذا غلب الشر فالخسارة. والأمر يومئذ لله تعالى.

سورة العاديات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (1) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (2) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (3) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا
(4) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (5) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (7) وَإِنَّهُ
لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (8) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (9) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ
(10) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (11)

القَسَمُ هنا بالإبل التي تحمل الفرسان، وبالخيل من بعدها يمتطيها الفرسان في سبيل الله تعالى فيخرج صوت انفاسها وهو الضبح يشبه قولَ أحدِهم (أُح. أُحْ).كما ينقدح من الحجر ما تضربه حوافرها فتكون مُورِياتٍ بأنعلها الحجرَ الصلب وفرسانُها يغيرون فوقها على اعداء الله صبحاً فيهيج النقع أي غبار المكان ويتوسط الفرسان المغيرون جماعاتِ الكفار. والسورة مكية وقد جاء هذا التفسير بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. ولكن الإمام علياً كرم الله وجهه فسر العاديات ضبحاً من مكة إلى المزدلفة ومنها إلى منى. وجواب القسم هو أن الانسان غير المؤمن كنود أي جَحود شديد الكفر بنعمة الله تعالى اذ يوجهها الى محاربته او لمعصيته سبحانه. فقد وجه كفار قريش نعمة الله تعالى لمحاربة الإسلام ولم يكن لديهم حجة على بطلانه ولسان حال أحدهم يشهد عليه بذلك. وكان على مثل هذا الجاحد ان يؤمن ثم يهتدي بالفطرة السليمة التي خلقه الله تعالى بها الى ان الخالق سيبعثه وغيرَه من القبور. فإذا بُعْثِرَ ما في القبور (أي خرجوا من الأجداث)

يوم القيامة، وحُصِّل ما في الصدور أي إنكَشَفَ له الحساب حصيلةَ نواياه وظنونه أي مكنونات صدره، فإن الله تعالى الذي يعلم سره وجهره وما كسب لخبير يومئذٍ بما يستحقه من جزاءٍ عادل.

سورة القارعة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (3) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (4) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (5) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (6) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (7) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (9) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (10) نَارٌ حَامِيَةٌ (11)

القارعة هي القيامة كما هي الغاشية والحاقة والصاخة فإنها هنا (قارعة)، إحدى صفات القيامة. تفاجيء الناس في آن واحد تقرع عليهم حياتهم فاذا بالناس يختلط بعضُهم ببعض في حَيرةٍ بلا هدف حالهم حال الفَرَاش المبثوث، أي المنتشر، لإنتشارهم بكثرة في ضعف وتطاير من كل جانب. أما الجبال يومئذٍ فتفقد صلابتها كالعهن أي الألياف المنفوشة غير المتماسكة متهرئة متهاوية. وتوضع الموازين القسط فلا تُظلم نفسٌ شيئاً. فمن أثْقَلَ موازينَه بإتِّباع الحق، ويتمثل ذلك بالمقاصد الصادقة والأعمال ذات الأوزان، وأولها الفرائض وبقيتها الفضائل أينما عَرَضَتْ له بادر إليها، نجا الى حياة رضية. ومن إتبع الباطل في نواياه وأفعاله كانت الحصيلة باطلة لا وزن لها في موازين القسط فلا يجد من مأوىً كما يأوي الولد إلى أُمِّه إلّا الهاوية. وليعلم ما هي! هي نار حامية أي بلغت حرارتها نهايتَها، كنايةً عن جهنم جزاءً سَبَقَ له أن جاءه التحذير منه فلم ينفعه.

سورة التكاثر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (2) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (7) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8)

التكاثر يحمل معنى الانشغال مع التنافس مع الآخرين بالإكثار من المال والمتاع. وبذلك تحصل الغفلات عن عمل الآخرة حتى يبغتهم ما يوصلهم الى المقابر ليكونوا من أهلها. وهنا جاء للغافلين زجر وتنبيه بقوله تعالى: (كلّا)! ما لهذا خلقهم الخالق جل علاه بل لعبادته سبحانه. فإذا جاء الأجل سوف يعلمون أول ما يعلمون بأن الدنيا كانت الشغل الشاغل لمن كانوا في هذا اللهو. فتوعدهم المولى تعالى بسوء العاقبة. وثاني ما يعلمون ما يلقَون بعد سؤال القبر وبيان الدَرَكِ الذي إستوجبته الغفلة في التكاثر. ويأتي زجر هؤلاء ليرتدعوا قبل موتهم فلو علموا علم الحقيقة وهي ان المالَ إمتحانٌ من اجل الوصول الى الله تعالى لاتضحت لهم صورة عاقبة أمثالهم في الجحيم. وهذا علم باليقين: أي الامر المستقر الذي ظهرت حقيقته. فأما من استمروا على اللهو بالتكاثر في المعاصي والفجور والكفر فقد توعدهم المولى بزاجرٍ آخر: (كلّا لو تعلمون علم اليقين) بأنهم سيرون عياناً، أي عين اليقين، ما حذرهم الرسل منه فقد كان علماً ثم صار حقاً عياناً وعندها المساءلة عن التصرف بنِعَم الله تعالى في أي سبيل أُفنيت.

سورة العصر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3)

العصر؛ إمّا صلاة العصر. أو عصر كل جيل أي زمن حياتهم، او العصر الوقت بين الظهر والمغرب. والارجح في التفاسير هو المعنى الثاني اذ أقسم المولى تعالى على أنّ الإنسان من غير ايمان لَفي خُسرٍ إلا الذين دخلوا في الإيمان ثم اهتدوا الى صالح العمل واحبّوا لغيرهم ذلك فتواصَوا في ما بينهم بأداء حق الله تعالى بالطاعة والعبادة والإلتزام بما حق عليهم من ترك المحرمات. وفي صبرهم احبوا للناس الصبرَ، ومعناه في سياق العبادة وجوبُ الإمتناع عن المعاصي، أو تحمل الإلتزام بما لا بدّ منه في الطاعة إحتساباً على الله تعالى ورِضاءً بقضائه وإمتحانه وانتظار الفرج. والسورة مكية أيام الصبر على ما كان يلقاه المؤمنون من أذى اهل الشر والتكبر. وقد قال الامام الشافعي رحمه الله ((لو تدبر الناس هذه السورة لَوَسِعَتْهم)) أي لكانت كافية لاستقامتهم وفلاحهم.

سورة الهُمَزة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (2) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (3) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (5) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9)

الهُمَزة: هو الهمّاز أي العيّاب الذي يفسد علاقات الناس في ما بينهم بالكلام ويحقرهم ويعيبهم في غيابهم. وقد جاء وصف مماثل له مع حديث شريف في الآية الحادية عشرة من سورة القلم. اما اللُمزة: فهو ذو عادة لؤم يواجه الناس بالافعال المحتقرة من طعن الناس بازدرائهم والكيد لإيذائهم. وقد نزلت في أحد كفار مكة قبل الهجرة كان من شأنه جمع المال من اجل الدنيا أي يضع بعضه على بعض من غير أن ينفع به او ينتفع به حافظا لمبلغه عدداً. كشف الله تعالى شأنه في ذلك أن في ظنه الخاطىء أن هذا المال هو حِفظٌ له من عوادي الزمن ورَفْعٌ لمكانته وقدْره بين الناس. إلا أنّ الله تعالى يزجره ويريه المصير الذي يتغافل عنه بأن هذا المال سيؤدِّي به الى الحُطَمَة منبوذاً فيها. ويخبر تعالى عنها أنها طبقة من طبقات جهنم وصفها المولى عز وجل بانها ناره الموقدة التي تركّز على إيلام القلب اكثر من باقي الجوارح وهي مُطبِقة على المعذبين فيها كما أطبقوا في حياتهم الدنيا على رذائل الهمز واللمز وجمع المال واحصائه من غير اداء الحقوق منه. وقد ورد في سورة البلد في آخرها انهم

اصحاب المشأمة عليهم النار مؤصدة أي مسدودة بأعمدة ممدة بين مصراعي كل باب منها ولا حيلة لهم معها.

سورة الفيل

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (2) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (3) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (4) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (5)

قصة أبْرَهَةَ الحبشي عام الفيل. ذلك انه كان يحكم اليمن بجيش من اهل الحبشة. وأراد هدم الكعبة ليحّول الناس نحو كنيسة كبيرة فارهة بناها في اليمن. وكان ذلك في سنة خمسمائة وسبعين ميلادية على وجه التقريب قبل ولادة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بحوالي شهرين. وكان في جيشه فيل ضخم جلبه ليسحب به حجارةَ الكعبة وأركانها. ولكن عند وصولهم مكة بَرَك الفيل وكلما كانوا يوجّهونه نحوها يبرك فاذا وجهوه الى جهة اخرى يقوم مهرولاً. وهم في هذه الحيرة مِن أمرِ الفيل إذ أرسل المولى العزيز الحكيم عليهم أسراباً من الطير تحمل حجارة من سجيل أي طين وحجر فيها سرّ رباني بأن تصيب من تضربه بمرض يعيقه عن القتال. ووصف المولى تعالى حال الهلكى بالعصف المأكول وهو الزرع الذي يأكله الدود فيخرجه روثاً. وسلّم الله تعالى بيته الحرام من هؤلاء الغزاة. وهكذا اوحى سبحانه هذه السورة ليبين ما يثير العجب من أمور كفار قريش وقد رأوا بأعينهم معجزة الطير الأبابيل أي الجماعات والاسراب الكثيرة وآثار الحجارة التي حملتها هذه الاسراب ورمت جنود ابرهة بها وكان من نصيب أبرهة حجارة انصدع بها صدره فمات على مسافة من مكة فكان كيدهم في نحرهم.

سورة قريش

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4)

اضافة الى ما جاء في السورة السابقة يذكر المولى عز وجل فضله على قريش فقد خصّهم المولى بمركز تجاري بين الشام واليمن وبذلك اتصلت تجارة الشمال بالجنوب كما تركّز فيها جزء كبير من تجارة جزيرة العرب ولا سيما في مواسم الحج فقال تعالى بأن عليهم ان يعبدوا الله لِما حباهم به من الائتلاف والاجتماع والجمع بين رحلتي التجارة؛ صيفاً الى الشام، وشتاءً الى اليمن. وما اعطاهم من المكانة بين العرب الذين عظّموهم بعد معجزة نجاة الكعبة من ابرهة الحبشي. فكانت قوافلهم إلى الشام وإلى اليمن تأتيهم بالأرزاق والأمتعة إضافة إلى محاصيل الحجاز. وتتنقل هذه القوافل آمنةً من سَطوِ قُطّاع الطرق بينما لم يأمن غيرُها إلا بالحراسة المسلحة المشددة إذ كانت القبائل التي تعبر القوافل القرشية من أراضيها تؤمن عبورها تعظيما لمكانة قريش من البيت الحرام. وبهذا كان فضل الله تعالى عليهم بالرزق الطيب والأمان من الخطر. وفي التفاسير يعزى ذلك إلى إجابة الرحمن سبحانه لدعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام كما جاء في الآية السادسة والعشرين بعد المائة من سورة البقرة ((وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آَمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ...)) الآية.

سورة الماعون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (3) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (5) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (6) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (7)

يبين المولى عز وجل لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم ولمن بلغته الرسالة صفات متميزة للمكذبين بالمعاد والجزاء والثواب (يوم الدين).فمن صفاتهم ان احدهم يَدُعُّ اليتيم أي يقهره ويظلمه ولا يحسن اليه. والدَعُّ هو الدفع. فقد جمع المولى هذه الخصال بهذه الكلمة التي تدل على دفع اليتيم عن مصالحه. كما ان من صفات المكذبين أنهم لا يشعرون بما يشعر به المسكين من حاجة لما يقيم به حياته. وهذه الصفة تأتي من قسوة القلوب والحرص وبغضهم للفقراء الذين هم عيال الله تعالى. وكذلك من صفاتهم النفاق فالمنافق يحسِّن الصلاة امام الملأ ويتركها في السر. والسهو عن الصلاة هو غير السهو فيها؛ فالسهو عنها هو اهمال اهميتها وجعلها شيئاً لا يحسب له حساب في الحياة، بينما السهو فيها هو من المشاغل التي تحدث عَرَضاً اثناء أداءِ الصلاة فإما ينسى ركناً او سُنّة من سننها او يزيد فيها. فالأثر الذي يحدثه هذا السهو يُجبَر بسجدتيَ السهو. أمّا صلاة المنافق ففيها الرياء.كما ان من صفاتهم منع الخير الذي يقدرون على تقديمه لمن يطلب منهم ذلك وهذا

مُشاهَد في الحياة اليومية، وعكس ذلك روح التعاون هي من صفات المؤمنين الذين يحبون للناس ما يحبون لأنفسهم.

سورة الكوثر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3)

روى الامام احمد بن حنبل في مسنده عن انس رضي الله تعالى عنه قال: اغفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اغفاءة فرفع رأسه متبسماً فقال ((انزلت عليّ آنفاً سورة؛ فقرأ: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ). وقال ((هل تدرون ما الكوثر؟)) قالوا الله ورسوله اعلم. قال ((هو نهر اعطانيه ربي عز وجل في الجنة عليه خير كثير ترد عليه امتي يوم القيامة..)) الحديث. وقد وردت احاديث في صفة حوض الكوثر منها ما رواه الامام احمد عن انس رضي الله عنه ان رجلاً قال: يا رسول الله ما الكوثر؟ قال ((هو نهر في الجنة اعطانيه ربي لَهُوَ اشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل فيه طيور اعناقها كاعناق الجزر (أي الابل)..)).. الحديث. ووجّه المولى عز وجل رسوله صلى الله عليه وآله وسلم الى الصلاة والنّحْر ففي الصلاة غير المكتوبة شكر لله تعالى، وفي النحر أي ذبح الانعام يكون القصد لله تعالى وبإسمه فهو وحده المقصود بكل خير ليكون ذلك لوجهه الكريم. وكان صلى الله عليه وآله وسلم يصلي صلاة عيد الاضحى ثم ينحر وفقاً لهذا الأمر. اما ((إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)) فقد نزلت في العاص بن وائل، وشانئك أي مبغضك، فقد قال عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ابتر، أي منقطع النسل، ذلك انه صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن له ولد ذكر. فجاءت

الاية لتبين له بأن الذين عادوه وآذوه هم المنقطعون ذكرا، وليس الرسول صلى الله عليه واله وسلم الذي رفع ذكره الى يوم القيامة.

سورة (قل ياأيها) الكافرون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (4) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)

جاء في التفاسير أن الحمقى من كفار قريش طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان يتناوبوا معه على عبادة اوثانهم وعبادة الله تعالى! فكانت البراءةُ من كفرهم بالكلية جواباً. وهذا عامٌّ لكل مؤمن فعليه أنْ لا يسلكَ سلوكَ الكفار ولا يقتدي بهم بل دأبه اتباع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. فهذا هو السبيل الذي يرضاه الله تعالى. واما تكرار قوله تعالى ((وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ)) أي لمستقبل الزمان لكي ييأس الكفار من موافقة المؤمنين لهم. وأنهم أي الكفّار لن يكونوا ممن يعبد الله ما داموا على دينهم في عبادة غيره او الشرك به فهو غني عن شركهم. فيقال لهم ((وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)). فإن دينهم غير دين الإسلام وللمؤمنين دين لا يُعبَد فيه إلّا الله جاءهم به محمدٌ رسولاً من الله، وصلى الله عليه وآله وسلم.

سورة النصر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (3)

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال: "كان عمر يُدخِلُني مع اشياخ بدر فكأنّ بعضَهم وجد في نفسه فقال: لِمَ يدخل هذا معنا ولنا ابناءٌ مثله!؟ فقال عمر: انه ممن قد علمتم. فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلّا لِيُرِيَهم! فقال متقولون في قول الله عز وجل ((إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)) ؟ فقال بعضهم أمَرَنا ان نحمد الله ونستغفره اذا نصرنا وفتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً. فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. فقال: ما تقول ؟ فقلت هو أَجَلُ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم أَعْلَمَه إياه فقال اذا جاء نصر الله والفتح فذلك علامة أجَلِك؛ (فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توّاباً). فقال عمر بن الخطاب لا أعلم منها إلا ما تقول))". والسورة تخص فتح مكة وقد كانت قبائل جزيرة العرب تترقب ما سيكون بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبين قريش فإن انتصر عليهم وفتح مكة يتأيد للقبائل انه نبي مرسل فهذا نصر وفتح كبير. وهذا ما حصل. فدخلوا في دين الله افواجاً فكانت كل قبيلة ترسل وفدها ليبايع عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت في حجة الوداع وكان يُكثِر بعدها من التسبيح والتحميد والاستغفار فقد روى الطبري في تفسيره عن ام المؤمنين ام سَلَمَةَ رضي الله تعالى عنها قالت: "كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في آخر أمرِه لا يقوم ولا يقعد ولا يذهب ولا يجيء إلا قال: ((سبحان الله وبحمده)). فقلت: يا رسول الله رأيتك تكثر من سبحان الله وبحمده! قال: اني

أُمِرْتُ بها)) وتلا السورة". وقد صلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم الفتح ثماني ركعات خفيفة في ضحى ذلك اليوم في منزل ام هاني بنت ابي طالب رضي الله عنهما. وهنا يجدر بيان كون التسبيح والإستغفار كفارة للمجلس من اللغو او السهو او الخطأ وما اشبه.

سورة تبّت

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (5)

نزلت الآية في حق ابي لهب واسمه عبد العزى بن عبد المطلب (أي احد اعمام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم) وكنيته ابو عتبة وسمي بابي لهب لاشراق وجهه. وكان كثير الاذى للنبي صلى الله عليه وآله وسلم. وقد مات كمداً أي من الغَمِّ والْحُزن بعد غزوة بدر لما سمع بمقتل عدد من اشياخ قريش مع من قتل من المشركين فيها. أما السورة، فكانت قد نزلت عندما اراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انذار قريش بعذاب الآخرة فجمعهم (كما جاء في ما اخرجه البخاري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما). وقال لهم ((اني نذير لكم بين يدي عذاب شديد)) فقال ابو لهب ((الهذا جمعتنا؟ تباً لك!)) أي (هلاكاً لك) فنزلت السورة. واما (مالُه) فهو الذي ورثه. واما (ما كسب) فهو كسبه بنفسه. وكان واسع الثراء فتوعده المولى عز وجل بنار ذات لهب كما توعد امرأته وهي ام جميل بنت حرب اخت ابي سفيان وكانت تؤذي النبي صلى الله عليه وآله وسلم بوضع الشوك مع الحطب في طريقه ليلاً. كما كانت تسعر العداوة بين الناس بالنميمة. وقد هجاها المولى عز وجل اذ وصفها حمّالةً للحطب بحبل من ليف او جلد معلق في جيدها كما يفعل الحطابون بينما هي كانت من عقيلات قريش، لها وصيفات يمشين

وراءها لخدمتها عندما تخرج لزيارة بعض صاحباتها. وقد اخزاها هذا الذم وجاء في التفاسير انها تُبعَث وفي جيدها حبل من نار.

سورة الاخلاص

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)

نزلت هذه السورة لتعطي لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم جوابا على سؤال مشركي قريش اذ قالوا له ((انسب لنا ربك))! روى هذا الخبر الامام احمد عن أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه. وقال الترمذي رحمه الله: "(الصمد) الذي لم يلد ولم يولد لأن المولود يموت والميت يورِث. وان الله عز وجل لا يموت ولا يورث، وليس كمثله شيء فهو خالق كل شيء فكيف يماثله مخلوق". وانه ليس كمثله شيء ولا يكافئه احد أي يشبهه او يماثله. وقد ورد في التفاسير الكثير عن فضل هذه السورة؛ ومن ذلك انها تَعْدِل ثلث القرآن. وروى الإمام احمد في مسنده عن انس رضي الله تعالى عنه قال: "جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يارسول الله اني احب هذه السورة (قل هو الله احد) قال ((ان حبك اياها ادخلك الجنة))". وقد ابطل المولى تعالى بها عبادة غيره او نسبة الولد اليه. ويفهم من صمديته تعالى أن غيره ليس بصمد بل من عناصر الكون، ولا يصح لمن خلق العناصر أن ينسب هو إليها سبحانه.

سورة الفلق

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5)

هذه السورة مكية. والتي بعدها (الناس) مدنية وتسميان بـ(المعوّذتين). ويؤخذ من الاحاديث الواردة بحقهما انهما تقرآن بعد كل صلاة (أي بعد الفرائض). وروى الامام احمد عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((اقرأ بالمعوذتين فإنك لن تقرأ بمثلهما))". والفلق هو الصبح وقيل هو الخَلْقُ او هو وادٍ في جهنم. والغاسق؛ الليل اذا انتشر ظلامه فوقب أي دخل في كل شيء. والنفاثات في العقد: هن الساحرات. والنفث هو النفخ. اذ كُنّ يعقدن الخيط مع ترديد كلمات مبهمة وينفخن في العُقَد ظنا ان ذلك يضر او ينفع وهذا كفر صريح. والحاسد اذا حسد، أي إذا أظهر حسده بعمل أو قول يدل عليه، يختلف عن الحاسد الذي لا يظهر حسده فالشر يحصل اذا اظهره (أي عمل على زوال نعمة المحسود). اما ما يُذكر من إعجاب في الخيرات فهو غبطة مَن يفعلها واقتداءٌ به فالْمُغتبِط لا يفعل ما يضر اخاه. أي ليس فيه شر الحاسد اذا حسد.

سورة الناس

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6)

ربُّ الناس سبحانه بهذه الصفة مربي الناس ومصلحُهم، ومَلِكُ الناس مالكُهم ومدبر امورِهم، وإلَه الناس معبودهم الذي لا إلهَ سواه. فالله تعالى بهذه الصفات العليا يحفظ المستعيذ به من شر وسوسة الشيطان الذي من عادته ان يخنس اذا ذُكر الله تعالى، أي يكف عن الوسوسة ويولّي بعيداً بإنتظار التوقف عن الذكر. فاذا غفل العبد رجع الى الوسوسة له. والوسوسة من الشيطان تنفذ بشكلٍ خَفِي الى فكر الانسان ليوجهه الى البخل والعداوة والفحشاء والخمر والميسر والصد عن سبيل الله والتكلم بما لا يعلم عن الله سبحانه، فضلاً عن عداوته التي دفعته ليقول لرب العزة عن أبينا آدم عليه السلام في سياق الآية الثانية والستين من سورة الإسراء: (قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا). وأما غياب فكر المصلي اثناء الصلاة في اموره اليومية ومشاكله ففي الخبر أن ذلك يذهب إذا ردد المؤمن في نفسه: ((آمنتُ بالله وآمنت برسول الله واعوذ بالله من الشيطان الرجيم)). وهناك وسوسة شياطينِ الإنس وهي في صدد هذه الضلالات ولكن بصريح الكلام او بالتأثر بكثرة مخالطتهم والعياذ بالله تعالى.

وله الحمد والشكر الجزيل أن وفّقني وأعانني على تمام هذا التفسير.